سيغموند فرويد

تفسير الأحلام

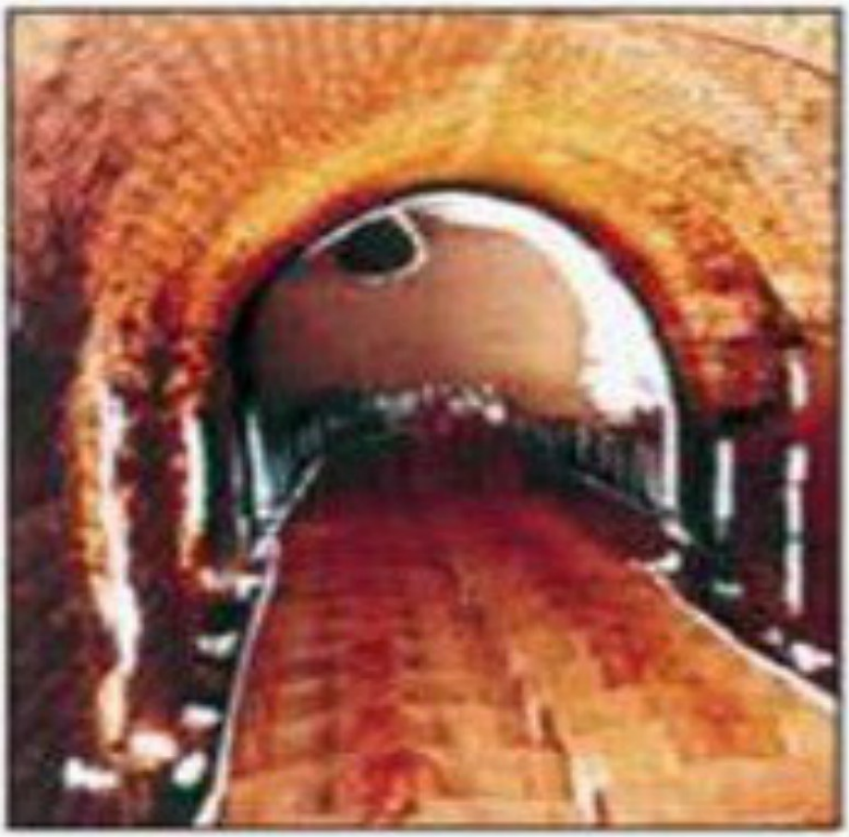

قدّم لهذه الطبعة: مصطفى صفوان

بإشراف المركز العربي
للأبحاث النفسية والتحليلية

الفارابي

سيغموند فرويد

تفسير الأحلام

ترجمة: مصطفى صفوان

مراجعة: مصطفى زيور

تقديم الطبعة الجديدة:

مصطفى صفوان

إشراف المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية

دار الفارابي

الكتاب: تفسير الأحلام

المؤلف: سيغموند فرويد

المترجم: مصطفى صفوان

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي – بيروت – لبنان

ت: 301461(01) – فاكس: 307775(01)

ص.ب: 3181/11 – الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: 2012

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً على موقع:

www.arabicebook.com

يسعد المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية أن تكون باكورة أعماله في ترجمة فرويد إعادة نشر كتاب تفسير الأحلام للأستاذ مصطفى صفوان.وهو يتقدم إليه بمزيد الشكر لهذه الهبة الثمينة، التي تتميز بالصياغة الأدبية، وبتعليقاته التحليلية، هذا بالإضافة أنه رغم مرور قرن ونيّف على صدور الطبعة الأولى لهذا الكتاب، إلّا أنه لا يزال يحتفظ بقيمته العلمية طالما الإنسان يستمر في الحلم. مما جعله ضرورة لكل مكتبة.

بروفسور عدنان حب الله

رئيس المركزالعربي للابحاث النفسية والتحليلية

مقدمة لطبعة الجديدة

الأستاذ مصطفى صفوان

بعد مرور أكثر من قرن على كتابة «تفسير الأحلام» وحوالي نصف قرن على ترجمته العربية، لا يزال هذا الكتاب «الحدس» الأساسي للقرن السابق ويحتل الصدارة لكل من أراد أن يشتغل في الحقل النفسي. حقق فرويد بعمله هذا نقلة نوعية للحلم من عالم الغيب إلى العلم الاختباري، حيث أصبح الحلم جزءاً من العمل النفسي الذاتي، بعد أن كان في ملكوت السماوات. أمام حل هذا اللغز انفتحت أبواب المعرفة النفسية، سواء التحليلية والعلاجية أو الاختبارية (Neuroscience).

وإن اتفق فرويد مع باقي العلماء، على أن وظيفة الحلم الفيزيولوجية تقتصر على حماية النوم والحفاظ على استمراريته، إلا أنهم اختلفوا معه في عمل الحلم وأداء أهدافه.

فرويد يستخلص، بأن عمل الحلم يؤدي في النهاية إلى تحقيق رغبة مهما كانت نتائجها سارة، مفرحة، محزنة، أو حتى مفزعة، فإنها تعود في الأصل إلى المكبوت في السنين الأولى للطفولة. وقد يؤدي هذا الإنجاز النفسي في بعض الأحيان إلى قطع النوم بدلاً من استمراريته، لأنه يحصل تقاطع ما بين موضوع الرغبة والواقع بالمفهوم اللاكاني، أي أن الذات الواعية تأخذ على محمل الجد ما يحصل في الحلم، لأنه يتحكم في المزاج، في القرارات، وفي الحلول التي ينتظرها الحالم في غسق النهار.

الحلم كما استخلص فرويد في آخر المطاف، لا يقتصر فقط على تحقيق رغبة وهمية، إنما هو جزء مهم من الواقع النفسي الذي كان مهملاً إلى حد الآن.

هنا يكمن السر في بقاء الحلم طيلة هذه العهود ومن الزمن، معجزاً لكل من أراد فك لغزه. فتجاهل هذا الجزء من العمل النفسي عزَّز موقع الأنا، التي كلما كانت محورية، كلما زاد اهتمامها بالسيطرة والتحكم على ما يفلت من معرفتها.

المجهول هو دائماً في حكم الغيب، هذا ما جعل الإنسان منذ أن عرف حقيقة فنائه، أن يقف حائراً خائفاً قلقاً أمام سؤال لا يعرف الإجابة عليه: ماذا يخبىء له المستقبل؟

التنجيم والعرَّافات والسحرة ورجال الدين، يستمدون سلطتهم من هذا المجهول، ويفرضون عن طريق تحكمهم بالرموز لاحتواء هذا المجهول، أي تعزيز الأنا بتمكنها من السيطرة على ما هو خارج عن معرفتها.

التضليل «الأنوي» استمر طيلة هذه العهود من الزمن، لأنه كان يستمد قوته من نرجسية محورية تضل الإنسان عن نفسه، وتبعد عنه حقيقة ذاته.

يتبيَّن من قراءة هذا الكتاب أن معجزة فرويد تختصر بخلع الأنا من موقعها المحوري لتصبح الحقيقة معرفة تأتي من مكان آخر، وهو كما سمّاه لاكان «الآخر الكبير»، وكما نشهد عليه في الحلم، إنَّ الأحداث تأتي من موقع هذا الآخر الكبير، ويتخيّل للحالم أنه يرسخ لإرادته ولسلطته خائفاً، لكي يتساءل في النهاية: ماذا يريد منه **che vuoi** ؟

إذا حصرنا عمل الحلم في الذات سواء كانت من النهار أو في النوم، يخفى عن ذهننا حقيقة واضحة كالشمس أنَّ هذا الآخر الكبير هو موقع نفسي منه وفيه، وتكون عنده منذ الطفولة الأولى، أي منذ توجه الطفل بكلماته الأولى إلى أمه كي تلبي طلباته.

الحلم يجسد في كل سيناريوهاته هذا الواقع النفسي، حيث تبدو الأنا مفتَّتة موزعة في أدوار عديدة كما برز في حلم «حقنة إيرما».

استطاع فرويد أن يبيّن عن طريق تفسير الأحلام أن الذات منقسمة على نفسها ما بين شعوري ولاشعوري.

وهذا الانقسام تفرضه اللغة، لأن أي كلمة لتسمية موضوع ما تعني في آنٍ واحد وجوده وغيابه. وأي نص يخضع حكماً لانقسام فاصل ما بين

الظاهر والباطن.

على هذا الأساس اعتبر فرويد أن الحلم كناية عن نص نقرأه في شكله الظاهر، ونستأصل منه عن طريق التأويل النص الباطن. على غرار قارىء الكتابات الهيروغليفية الذي يرى العديد من الصور لحيوانات ولأشياء مختلفة، ولكن يتبيّن له أنها استعارات ومجازات استُعملت بالتراتب بعد أن فقدت علاقتها بالأصل، لكي تستخرج دالاً (دوال) يدخل في إطار المعرفة.

أخيراً الحالم أشبه بكاتب الحفر الهيروغليفي، والحلم كناية عن نص مكتوب، والمحلل النفسي هو القارىء والسامع لمعرفة يستخرجها كانت إلى حد الآن تجهل نفسها من صاحبها.

أتقدم بهذه الطبعة الجديدة إلى المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية، وأن يحقق ترجمة العديد من أعمال فرويد الأساسية، الشيء الذي لم يتيسر لي بعد أن بدأته، بسبب الظروف السياسية التي لا مجال هنا للإطالة في شرحها[1].

لا فكر من دون حرية ولا حرية من دون رغبة.

إلى الدكتور مصطفى زيور
والدكتور مارك شلومبرجيه

المترجم

تصدير

بقلم

الدكتور مصطفى زيور

«من حل اللغز الذائع الصيت وكان أشد الرجال اقتداراً»

سوفوكليس[2]

يجمع المشتغلون بالتحليل النفسي على أن «تفسير الأحلام» خير ما كتب فرويد وأكثر مؤلفاته أصالة. ويرى فرويد هذا الرأي نفسه. فقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة 1900 وها هو ذا فرويد سنة 1931 بعد أن نشر عشرات الرسائل والكتب يسجل رأيه في كتابه هذا فيقول عنه: «إنه حتى فيما أرى اليوم يحوي أثمن الكشوف التي شاء حسن الطالع أن تكون من نصيبي؛ فمثل هذا الحدس لا يأتي العمر مرتين».

ولكن في هذه الجملة الأخيرة تواضعاً شديداً، لأن الحقيقة أن الأحلام مسألة شغلت اهتمام الإنسان منذ أقدم ما نعرف من العصور، كما يدلنا على ذلك ما جاء في القرآن والكتاب المقدس عن قصة يوسف، وما نراه فيما وصل إلينا من آثار القدامى في الحضارات الهندية والصينية والعربية (مثل كتاب ابن سيرين وغيره). وليس أدل على ذلك من أن المعلم الأول أرسطو أفرد مؤلفين لموضوع الأحلام كما أن أب الطب هيبوقراط أنشأ فصلاً عن العلاقة بين الأحلام والأمراض في كتابه الذي وصل إلينا. وظل الاهتمام بموضوع الأحلام لدى الفلاسفة خلال القرون الوسطى ثم لدى العلماء والفلاسفة في العصر الحديث كما سيتبينه القارىء من الفصل الأول من هذا الكتاب.

إنها لحقيقة جديرة بالتأمل: أن تشغل مسألة الأحلام الإنسانية بأسرها، شعوبها وروّاد الفكر فيها، ثم تبقى مع هذا دون حل حاسم حتى يناهز القرن التاسع عشر نهايته ويظهر سيجموند فرويد فيحل اللغز الذائع الصيت. المسألة إذن ليست «حدساً لا يأتي العمر مرتين» وإنما هي من الحدس الذي لا يتاح إلا مرة في قرون.

علينا الآن أن نسأل أنفسنا لمَ امتنع الحل طوال هذه الأحقاب، ولمَ كان من نصيب فرويد دون غيره أن يكشف عن طبيعة الحلم. إنه لا يسعنا أن نجيب عن هذين السؤالين دون أن نستضيء ببعض الحقائق الأساسية التي يضمها هذا الكتاب. ذلك أن الحلم ليس أمراً مستقلاً عن سائر أحوال النفس . في يقظتها . بل هو يتصل بها أوثق الاتصال ويكوّن حلقة من حلقات الحياة النفسية. ويزيد خطورته أنه يعبِّر عن أمور لا يسعنا حتى مجرد الإحساس بها أثناء اليقظة، ويحيط بما عفى عليه الزمان من الأحداث والخبرات الأولى فيبعثها أمام ناظرنا، فتتضح لنا الصلة بين ماضي الفرد وحاضره، ويستبين ما كان قد استغلق علينا فهمه من أحوال الإنسان، حتى استحق الحلم وصف فرويد: إنه الطريق الأمثل إلى أعماق النفس.

بل إنا لنتبيّن في الحلم سمات على آثار قديمة ترجع إلى عهود غابرة من تاريخ الإنسانية ومنطقاً غريباً نابياً لا نعهده في يقظتنا إلا حين ننظر في أحوال المجنون أو الرجل البدائي أو الطفل الصغير، وأسلوباً في الخيال والتعبير شديد الشبه بأسلوب الأساطير وعقائد المجتمعات القليلة الحظ من الحضارة. وبعبارة أخرى إن الحلم نافذة تطل على أعماق النفس يترامى البصر منها إلى آفاق تصل إلى طفولة الإنسان، لا بل إلى فجر تاريخ الإنسانية ومراحل تطورها جميعاً، فضلاً عن أنها تجمع في أفقٍ واحد بين العقل والجنون من حيث أن الحلم خبرة من خبرات الإنسان الصحيح العقل ولكن طبيعته الهلوسية لا تختلف عن هلوسة المجنون. ومعنى ذلك أن الكشف عن طبيعة الحلم إنما يكشف عن طبيعة العقل والجنون جميعاً.

يتضح إذن أن مشكلة الحلم أعظم شأناً مما يبدو لأول وهلة وأن من يعقد العزم على أن يزيح الستار عن طبيعته إنما يواجه مشكلة طبيعة النفس الإنسانية بأسرها. وقد كان ذلك بين الأسباب التي جعلت موضوع الأحلام أمراً عسيراً ممتنعاً على الفهم العلمي الصحيح قروناً عديدة. ومن أجل ذلك كان «تفسير الأحلام» يضم في الحقيقة بين دفّتيه أخطر الاكتشافات في تاريخ معرفة الإنسان بنفسه، وكان صدوره فتحاً لا يدانيه أي فتح في العلوم الإنسانية، ونقطة تحوُّل بالغة الأثر في تطور علم النفس والطب النفسي جميعاً، حتى شبّهه البعض بكتاب كوپرنيكس الذي طلع بثورة فكرية أرست قواعد علم الفلك الحديث.

ذلك أننا نقف في هذا الكتاب على المعنى الصحيح لأخطر اكتشافات التحليل النفسي وأعني به ما اصطلح عليه بالعمليات الأولية والعمليات

الثانوية، فدراسة الأحلام تتيح لنا أن نتعمق كلاً منها، وأن نفهم ما يقوم بينها من العلاقات، فيتضح لنا الارتباط بين أشياء كان يظن أنها متباينة مستقلة بعضها عن بعض، ونشعر بأن ضياءً قد بدّدت الظلمات التي كانت تكتنف أشتات الحياة النفسية. فما أن ندرك طبيعة العمليات الأولية التي يقوم عليها بنيان الحلم حتى تنجلي لنا معالم منطق فريد يختلف اختلافاً ملحوظاً عن منطقنا الذي نألفه أثناء اليقظة في المجتمعات المتحضرة (أي منطق العمليات الثانوية)، ولا نلبث أن نفطن إلى أن منطق العمليات الأولية إنما هو المنطق الذي يُنسج هذيان المريض على منواله، حتى صحّ القول بأن الحلم مرض نفسي قصير يستغرق الليل، وأن المرض النفسي حلم طويل يستغرق الليل والنهار.

ولا يقتصر الأمر على ذلك. فإننا إذ نمعن النظر في منطق الحلم لا نلبث أن ندرك أنه المنطق الذي يعتنقه كلٌّ منا في فجر حياته (أي أثناء الطفولة الأولى) وهو كذلك المنطق الذي تعتنقه الإنسانية في فجر الحضارة فضلاً عن أنه عين المنطق الذي يصدر عنه خيال الشعراء وغيرهم من الفنانين. وإذا استرشدنا ما ظفرنا به من الفهم، وتابعنا التنقيب في سائر أحوال الإنسان، رأينا غموضها وقد استحال وضوحاً، وكأنها اصطفت جميعاً في صعيد واحد. ومن الجلي أن هذه هي الصفة التي تميّز الاكتشافات الكبرى: أعني تقريب الشقة بين الأشياء الكثيرة المتباعدة وانخراطها في نظرة واحدة تؤلف بينها، كما حدث مثلاً عند اكتشاف وحدة الموجات الضوئية والموجات الكهربية المغناطيسية وغير ذلك من الظاهرات الفيزيقية.

وهكذا ندرك أن صفحات «تفسير الأحلام» قد اشتملت الأسس التي قامت عليها دراسات فرويد اللاحقة في شتّى نواحي الحياة الإنسانية، وأعني بذلك ما نشره في أعقاب «تفسير الأحلام» من المؤلفات الأساسية مثل كتابه في «علم النفس المرضي في الحياة اليومية»، ثم كتابه «الطوطم والتابو» الذي أرسى فيه قواعد علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية الحديثة، ثم كتابه المشهور «ثلاث مقالات في النظرية الجنسية» الذي عالج فيه العلاقة بين اضطرابات النمو النفسي الجنسي أثناء الطفولة وبين ما يلم بالراشد من أمراض وانحرافات نفسية، ثم دراساته الإكلينيكية في الطب النفسي وبخاصة «طرف من تحليل حالة هستيريا» و«مذكرات عن التحليل النفسي لحالة من حالات البارانويا»، فضلاً عن دراساته التطبيقية وبخاصة «النكتة وعلاقتها باللاشعور» و«العلاقة بين الشعر وأحلام اليقظة». ونجد في هذا الكتاب أيضاً نواة الدراسات التي قام بها بعض تلاميذه مثل دراسة أرنست جونز لشخصية هاملت. وجميع هذه الكتب تعتبر من المؤلفات الأساسية في التحليل النفسي، التي نزمع نشرها تباعاً في هذه المجموعة.

فإذا تبينّا ما لكتاب تفسير الأحلام من أهمية أساسية، أدركنا أنه لا سبيل إلى فهم صحيح للتحليل النفسي بغير دراسة هذا الكتاب دراسة دقيقة تصحح تلك التصورات الساذجة المبتسرة كالقول بأن التحليل النفسي هو اكتشاف اللاشعور أو أنه نظرية قوامها تفسير الأمراض النفسية بأسباب جنسية. هذا فضلاً عن كونه كتاباً ينبغي أن يقرأه كل طبيب نفسي وكل مشتغل بعلم النفس أو التربية أو الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو تاريخ الحضارة أو النقد الأدبي أو فقه اللغة وما إلى ذلك من علوم الإنسان.

*

بقي أن نجيب عن الشق الثاني من السؤال الذي طرحناه في بدء هذا التصدير، أعني: لمَ كان من نصيب فرويد دون غيره أن يكشف عن طبيعة الحلم؟ والإجابة عن هذا السؤال أمر يعنينا لأنَّ فيها تبياناً لأهمية أخرى لهذا الكتاب، فضلاً عن أنها تلقي ضوءاً على اللحظات الحاسمة في نشأة التحليل النفسي.

ففي السنوات الأولى من العقد الأخير من القرن التاسع عشر كان فرويد يخطو خطواته الأولى في سبيل الكشف عن طبيعة مرض الهستيريا، فتبيّن له أن أعراض هذا المرض تخضع لحتمية سيكولوجية، أي أن هذه الأعراض تعبّر عن معانٍ نفسية، معانٍ لا ترد جزافاً وإنما تحكمها علّية يمكن تحديدها كما تحدد علية الظواهر الفيزيقية. ثم ما لبث أن ابتدع منهج التداعي الحر كوسيلة لاستقصاء المعاني المتضمنة في الأعراض، فكان يطلب من مرضاه أن يطلقوا العنان لخواطرهم فلا يمسكوا عن ذكر ما يحضرهم مهما كان تافهاً أو نابياً. فلاحظ أن مرضاه كانوا يذكرون فيما يذكرون أحلاماً عرضت لهم أثناء الليل، ثم كانوا ينطلقون في ذكر ما يعنُّ لهم من الخواطر بصدد هذه الأحلام. فأصغى فرويد إلى رواية هذه الأحلام إصغاءه لغير ذلك من الخواطر، محاولاً أن يتبيَّن ما قد تشير إليه هذه الأحلام من معانٍ في ضوء السياق العام لما يفضي به المرضى وما يعانون منه.

وليس من اليسير على القارىء في أيامنا هذه، وقد ذاعت مكتشفات التحليل النفسي وأصبحت جزءاً من الثقافة العامة ـ ليس من اليسير عليه أن يدرك خطورة هذا الموقف الجديد الذي اتخذه فرويد، وما يتضمنه من ثورة فكرية على الأوضاع العلمية السائدة في عصره. فقد كان فرويد في ذلك الوقت أحد العلماء الذين أنجزوا اكتشافات علمية مرموقة في ميدان التشريح والطب العضوي، وكان يعتنق تعاليم مدرسة هلمهولتز في التفسير الفيزيقي لظواهر الحياة، وهي التعاليم التي كانت تُعتبر نبراساً لكل باحثٍ في الطب والعلوم البيولوجية. فالبحث عن «معنىً» للأحلام يعتبر مروقاً بل إهداراً للمبادىء الأساسية للبحث العلمي كما كان يتصوره معاصروه، لأن الاتجاه العلمي الصحيح في رأيهم لا يكون إلا بالبحث عن الأحداث الفيزيقية والكيميائية، وما عدا ذلك فهو ارتداد إلى أسلوب التفكير الغيبي أو شطحات الشعراء.

والواقع أن كتاب «تفسير الأحلام» استُقبل عند صدوره استقبالاً سيئاً من معاصري فرويد من العلماء. فها هو ذا البروفسور ليبمان الأستاذ بجامعة برلين يكتب عنه قائلاً: «لقد انتصرت (في هذا الكتاب) الأفكار الخيالية للفنان على الباحث العلمي»[3].

وإننا نعلم اليوم أن هذا النقد ـ وإنْ جانَبَه الصواب ـ يلمس عن غير قصد حقيقة هامة. ذلك أن مكتشف التحليل النفسي ما كان ليظفر باكتشافاته ما لم يصطنع ضرباً من الحدس الفني أخضعه لأسلوب البحث العلمي. فإن ما يميِّز الإنتاج الأدبي والشعر خاصة هو كما يقول كولريدج «التعطيل الإرادي للريبة» فالشاعر الأصيل يعطِّل عن قصد ارتيابه فيما جرى العرف على الارتياب والاستخفاف به. فالأخيلة التي يزورّ الناس عنها ويرونها أضغاثاً باطلة، تلقى لديه أذناً صاغية. وها هو ذا فرويد يكتب في سيرته التي ظهرت في هذه المجموعة بعنوان «حياتي والتحليل النفسي» ما يأتي: «كنت أعطل ملكتي النقدية حتى أحتفظ بموقف غير متحيّز لآراء سائدة وأكون مستعداً للنظر في أي أمر يجد من الأمور التي كانت تنكشف لي كل يوم». والحق أن أهم ما يتميز به رواد العلم أنفسهم إنما هو هذه «السذاجة» التي يعرفون كيف يتلقون بها الظواهر.

وإنها لحقيقة نعرفها اليوم: إن الشعراء سبقوا فرويد في حدس الكثير من الحقائق النفسية. غير أن الشعراء كانوا يهدفون إلى إنشاد ما يدخل المتعة على النفس، على حين أن فرويد كان يجهد في إرساء قواعد علم مقنّن. لقد كان من نصيب فرويد أن يكشف عن طبيعة الأحلام لأنه استطاع أن يستعير من الفنان قدرته على الحدس وتعطيله الإرادي للريبة مخضعاً ذلك لمقتضيات البحث العلمي.

على أن ذلك ما كان ليفضي به إلى إنجاز كتاب «تفسير الأحلام» ـ وهو كما سبق القول حجر الزاوية في بناء التحليل النفسي بأسره ـ ما لم يقم بأخطر تجربة قام بها إنسان في تاريخ المعرفة كلها، أعني: إقدامه على تحليل نفسه تحليلاً منهجياً بتحليل أحلامه.

حقاً أن فرويد كان قد فطن قبل ذلك إلى الدافع الأساسي في تكوين الحلم أعني تحقيق الرغبات، وذلك من تحليله لبعض أحلام مرضاه، وتأكد لديه هذا الرأي من تحليله لحلمٍ رآه في يوليو سنة 1895، وهو حلم «حقنة إرما» الذي يناقشه في الفصل الثاني من هذا الكتاب. ويتبيّن من قراءة هذا الفصل أنه كان قد وصل في فهمه للعمليات النفسية التي تشكل بناء الحلم إلى مدى بعيد، مما يؤيد قوله في رسالته «تاريخ حركة التحليل النفسي»: إن جوهر «تفسير الأحلام» كان قد أنجز في أوائل سنة 1896 ولكنه لم يُكتب إلا في صيف عام 1899. بل إنا نعلم اليوم من المخطوطات التي اكتُشفت بعد وفاته أنه أقدم فعلاً في سبتمبر سنة 1895 على كتابة رسالة (أطلق عليها اسم: مشروع سيكولوجية علمية) أفرد فيها لموضوع الأحلام ثلاثة فصول بيّن فيها أن الأحلام تنشأ لتحقيق رغبة كما بيَّن طابعها الهلوسي والارتداد النكوصي للعقل في الهلوسات والأحلام على السواء، وأوضح عملية النقل في الأحلام ثم التشابه بين تكوين الحلم وتكوين الأعراض العصابية، وعرض كذلك لاكتشافه الأساسي، أعني الفارق بين العمليات النفسية الأولية والعمليات الثانوية.

ولكن مهما بلغ شأن هذه البيانات الأساسية في نظرية الأحلام فإنّ هذه الرسالة لا تقارَن بكتاب تفسير الأحلام إلا كما يقارَن كوخ صغير بقصرٍ شاهق، بالرغم من أن الفترة التي تفصل بينهما لا تعدو سنتين أو ثلاثاً. غير أن هذه السنوات القليلة حفلت بأعظم الأحداث في تاريخ التحليل النفسي، إذ أقدم خلالها فرويد على تحليله لنفسه فأنجز بذلك ـ كما سبق القول ـ أخطر تجربة قام بها إنسان في تاريخ الفكر، لأنه كان أول من حقّق الشعار الفلسفي الأول: إعرف نفسك.

لقد كنا نعلم ممّا نشره فرويد أنه أفاد من تحليله لأحلامه فائدة عظيمة مكّنته من السير قدماً في اكتشافاته، ولكن القصة الكاملة لهذه الفترة من جهاده العلمي لم نقف عليها إلا عندما نشرت بعد وفاته (1950) رسائله الخاصة إلى صديق يدعى «فليس». ففي هذه الرسائل نراه يسجل ما مرّ به من تجارب فريدة وما اعترض طريق البحث من عقبات تأتيه من نفسه، ثم تصميمه على أن يزيل هذه العقبات حتى يظفر بالحقيقة كاملة.

إنَّ رواية قصة جهاده في هذه الفترة تقتضي من الصفحات ما يشمله كتاب. فيكفي أن نذكر أنه كان قد أقام نظرية في تعليل الهستيريا اعتنقها عدة سنوات، ثم إذا بهذه النظرية تنهار فجأة أمام نقدٍ حاسمٍ سلّطه عليها في ضوء تجاربه المتكررة مع مرضاه، فيقف في ظلامٍ دامس من حيث علية العصاب، ويجد نفسه فجأة وقد أوصدت أبواب الفهم أمامه مهما بذل من جهد. ولكنه ما لبث أن فطن إلى أنَّ تعطيل قدرته على البحث متصل بأسباب تأتيه من أعماق نفسه، أي من مقاومة عنيدة تحول دونه والاستبصار. وبعبارة أخرى فقد أيقن أن الشرط الأساسي لكي يفهم الإنسان غيره من الناس فهماً صحيحاً، هو أن يبدأ بفهم نفسه ويزيل الستار الذي يحول دون إدراك النفس لكنهها. ولا مفر من ذلك. فغضُّ الطرف عما في النفس غض له عمّا في غيرها. ولذلك فقد عقد العزم على أن يجري على نفسه تحليلاً منهجياً متخذاً من أحلامه مادة هذا التحليل.

وليس من اليسير على من لم يختبر عملية التحليل النفسي بنفسه أن يدرك خطورة ما اعتزمه فرويد، وما اقتضاه إنجاز عزمه من شجاعة وصبر ونضال مرير. ويكفي أن نذكر أن كل عملية تحليل نفسي تصطدم بمقاومة عنيدة طبيعية عند كل إنسان، تحول دون الاستبصار بما يدور في أعماق النفس، وتصدر عن الإشفاق من مواجهة الحقيقة، ويقتضي الظهور على هذه المقاومة عملاً متواصلاً من جانب الطبيب يدوم شهوراً طويلة. وقد قام فرويد بهذا النضال وحده وأنفق فيه نحو ثلاث سنوات خرج منها بمعرفة وكتاب. فأما المعرفة فقد استكمل فهمه للنمو النفسي أثناء الطفولة واكتشف عقدة أوديب. وفطن للدور الذي تقوم به التخييلات في نشأه العصاب فاستقامت نظرته في علية الأمراض النفسية. وأما الكتاب فهو «تفسير الأحلام» الذي يعتبر في المحل الأول ثمرة هذه التجربة الفريدة.

*

يتضح ممّا سبق ما لكتاب تفسير الأحلام من أهمية تضعه في مصاف المؤلفات التي تعتبر في المرتبة الأولى من الإنتاج الفكري على مر العصور، وقد تُرجم هذا الكتاب إلى معظم اللغات الأوروبية وبقيت المكتبة العربية ينقصها هذا الأثر الخالد.

ولا شك أن ضخامة المجهود التي تتطلبها ترجمته والصفات التي يجب توافرها فيمن يقدم عليها كانت سبباً في الإحجام عن نقل هذا الكتاب إلى العربية حتى الآن. ذلك أن هذا الكتاب يزخر بثروة من الثقافة الغربية الحديثة والقديمة، اليونانية اللاتينية، جعلت نقله إلى العربية نقلاً صحيحاً أمراً مستحيلاً ما لم يكن المترجم قد اكتسب هذه الثقافة اكتساباً أصيلاً. ثم إن فرويد على الرغم من أنه لم يكن فيلسوفاً محترفاً إلا أن قدرته على الجدل العميق بلغت في بعض أجزاء هذا الكتاب مبلغاً يقتضي أن يكون المترجم رجلاً قد مارس التفكير الفلسفي. على أن العقبة الكبرى في نقل هذا الكتاب نقلاً أميناً تنشأ من أن موضوعه يدور حول مسائل لا بد لمن أزمع نقلها من أن يكون قد اختبرها خبرة أصيلة. وبعبارة قصيرة لا بد لمترجم هذا الكتاب من أن يكون محللاً نفسياً.

وقد اجتمعت لزميلي مصطفى صفوان هذه الصفات جميعاً. فقد تدرّب على التحليل النفسي في معهد باريس وحصل على إجازته ثم مارسه منذ عدة سنوات. وهو فيلسوف تعمّق دراسة الفلسفة ودرس الآداب الأوروبية القديمة والحديثة فضلاً عن امتلاكه للغتين الألمانية والعربية امتلاكاً أكيداً. وقد أنفق في هذا العمل الضخم زهاء ثلاث سنوات كنت أرقبه أثناءها وأتتبعه مشفقاً أحياناً ممّا يتطلبه الاستقصاء الدقيق لكل عبارة من المشقة والجهد، ولكني كنت دائماً سعيداً فخوراً به.

وفي يقيني أن صدور هذا الكتاب في اللغة العربية يُعتبر حدثاً ثقافياً عظيماً في تاريخ المكتبة العربية. وبين يدي القارىء الدليل على ما أقول.

مصطفى زيور

دكتور في الطب

أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس

عضو الجمعية الدولية للتحليل النفسي

كلمة المترجم

يقرأ القارىء في هذه الترجمة الكتاب الذي قال عنه سيجموند فرويد: «إنه يحوي أثمن الكشوف التي شاء حسن الطالع أن تكون من نصيبي؛ فمثل هذا الحدس لا يأتي العمر مرتين»[4].

ونستطيع أن نقول دون أن ندّعي الكشف عن ماهية هذا الحدس بل لعلنا لا نعدو أن نجمّل الأثر الأول الذي يخرج به من هذا الكتاب القارىء غير المتأثر بسوابق الرأي (وهي كثيرة): إن فرويد يرينا في «تفسير الأحلام» أن الحلم كلمة وأنه إذن يفترض لغة على حسب التفرقة التي أذاعها فردينان دي سوسير في مطلع هذا القرن: فاللغة نظام اجتماعي وأما الكلام فهو الفعل الذاتي الذي يطوّع هذا النظام لمقاصده وإن خضع له. واللغة بذلك سابقة على الكلام سبق المجتمع على الفرد؛ فهو منذ ولادته يندرج في شبكة من القرابة يختلف نظامها باختلاف المجتمعات كما أنه . بما هو إنسان . لا يستقيم له مفهوم بغير تصوّر القاعدة أو القانون وتصوّر القاعدة أو القانون يفترض كثرة الأطراف.

بيد أن قولنا: «إن الحلم كلمة» قد يبدو مبهماً أو مشكلاً؛ لأننا نعلم أن الحلم يتألف أكثر ما يتألف من صور مرئية لا من أصوات. ولقد يتبادر إلى الذهن أننا إنما نعني بهذا القول أن الحلم . كالرسم . ربما كان يعرب بصوره عن شيء ما. سوى أن قليلاً من التدبر كفيل أن يرينا أن فكرة «التعبير» هذه يمكن أن تقال عن كل شيء: فاللغة تعبر، والموسيقى وجميع الفنون تعبر، وربما جاز أن نقول بمعنى ما: إن اجتماع السحب في السماء «يعرب» عن قرب العاصفة . وإنا لنعلم أن الطبيعة بأسرها قد استحالت بالفعل في نظر بعض الفلاسفة إلى نظام من العلامات. ومعنى ذلك أن فكرة التعبير . وهي التي يمكن أن تقال عن كل شيء . لا تفيد في تخصيص أي شيء. فهذه الفكرة ليست في الحقيقة تصوراً علمياً بالمعنى الصحيح، بل الأصدق أنها تدخل في عداد تلك التصورات التي يصدق عليها التشبيه الذي ضربه هيجل في صدد مطلق شللنج: تشبيه الليل الذي كل البقر فيه أسود.

والواقع أن المماثلة بين الحلم والرسم . وهي المماثلة التي يجرنا إليها تألُّف الحلم في الغالب من الصور المرئية . إنما تقوم على أساس موهوم. ولو نظرنا إلى الحلم نظرتنا إلى لوحة مصورة لوجدناه شيئاً لا معقولاً، لا يحمل أقل أثر من المعنى. وإنما الواجب أن ننظر إلى رسوم الحلم نظرتنا إلى تلك الرسوم التي يتألف منها اللغز المصور والتي يتعيّن علينا حلها، فإن فعلنا ارتفع خلوها الظاهري من المعنى وربما تكشف لنا بيت من أجود ما جاد به الشعر وأفصحه[5]. أو بعبارة أخرى: إنَّ صور الحلم إنما تشبه رسوم الكتابة الهيروغليفية أو غيرها من الكتابات المصورة وإن موقف من يفسِّر الحلم لا يختلف في شيء من موقف العالم اللغوي حين يريد أن يحل للمرة الأولى نصّاً مكتوباً بكتابة مصورة لم تفك رسومها من قبل، وتفسير الحلم إنما يعني قراءته. وهذا التقريب الذي يصادفه القارىء مراراً على صفحات «تفسير الأحلام» بين الحلم والكتابة المصورة يجب ألا يؤخذ مأخذ المماثلة الغامضة، إنه ينم عن اتفاق في الجوهر. بل إن فرويد ليمد التقريب إلى التفاصيل حتى أنه يجد في الحلم ما يضارع استخدام «المخصِّصات» في الكتابة الهيروغليفية (أنظر ص 355)، وإنه ليقول لنا في مقال كتبه سنة 1913[6] : «إنه إذا كان هذا التصور لمنهج الحلم في التصوير لم يلق متابعة حتى الآن فلأن المحللين النفسيين يجهلون كل الجهل ما هو الموقف الذي قد كان يقفه أحد علماء اللغة لو أنه واجه مشكلة من قبيل تلك التي يواجهنا بها الحلم وما هي العدد التي قد كان يتوسل بها إلى حلها».

الحلم . إذن . كلمة وتألفه من صور مرئية لا يخرجه عن كونه كذلك، كل الأمر أنه يدعونا إلى أن نزيد قضيتنا تحديداً فنقول: إنه كلمة أو نص مكتوب بكتابة مصورة. وإذا كان الأمر كذلك وجب أن تكون هناك لغة هي اللغة المستعملة في الأحلام . بحسب التفرقة التي سبقت الإشارة إليها . وهذه اللغة يجب أن تدرس من النواحي الثلاث التي تدرَّس منها اللغة عادة، أي في نحوها وبلاغتها ومفرداتها. فهل الأمر كذلك؟ نعم، وهذه الدراسة على التحديد هي ما يقوم به فرويد في الفصل السادس من «تفسير الأحلام» . وهو أطول فصوله وعصب الكتاب جميعاً . بحيث يسعنا أن نقول بحق: إن فرويد . في هذا الفصل . قد عرف الإنسان بلغة رغبته مثلما عرفنا أرسطو في منطقه بلغة الإنسان العارف. ولا غرو إذن (كما لاحظ أستاذ هوجاك لاكان) أن كانت للتحليل النفسي قيمة البشير بالحركة التي يحمل عصرنا بأسره طابعها، حركة اكتشاف الإنسان لعلاقته باللغة[7]. ولكنا نترك ذلك إلى إجمال النتائج التي تنتهي إليها هذه الدراسة.

ماذا عن نحو الحلم؟[8] إن فرويد يرينا أن الحلم لا يكاد يعرب عن علاقة من العلاقات سوى علاقة الشرط أو العلية. وهو يتوسل إلى الإعراب عنها بالتعاقب. فإن ورد حلم في أعقاب آخر غلب أن يكون الحلم الأول معادلاً لجملة شرط يكون الثاني جوابها . وإن لم يكن الأمر كذلك دائماً.

وسيجد القارىء مثالاً على ذلك في صفحة 325. وهناك . عدا هذا . علاقة التشابه التي تعرب عنها لغتنا العربية بالكاف وكأن وما إليهما: هذه أيضاً يملك الحلم وسائله في تصويرها (أنظر ص 354). وأما سائر العلاقات كالاحتمال والنفي والضدية فهذه لا يكاد يعرف الحلم طريقة ما في الإعراب عنها بل يغفلها إغفالاً. ومعنى هذا أن الحلم فقير كل الفقر في نحوه، وهو في ذلك يشبه كثيراً من الكتابات المصورة التي تقصر جلّ اهتمامها على الإعراب عن دوال المعنى مغفلة دوال النسبة.

ولكن يعوِّض عن هذا الفقر في النحو ثراء بلاغي يفوق التصور. فما من صورة من الصور البلاغية التي تعرفها اللغات النهارية إلا وجدناها في الحلم. وسيرى القارىء حلماً (هو حلم أوبرا ؟اجنر، أنظر ص 350) لم يكن منهجه شيئاً آخر سوى الاستعارة، وما إن انتبه المفسر (وأعني فرويد) إلى ذلك حتى خرج له من وراء فساد الحلم الظاهر مقال مفهوم كانت تقابل فيه الحالمة بين حبها المكنون وحب غريمتها المكشوف. وأما السبب في هذا الالتجاء المستمر إلى الاستعارات وضروب الكناية والمجاز المرسل المبثوثة في الشعر والأغاني الشعبية وغيرها فيذكره فرويد في القسم د من الفصل السادس، كما أنه يزيد فيرينا كيف كان لصورة البرج في ذلك الحلم تركيب عطف البيان. ونستطيع نحن أن نجد في إثره الرمز والمقابلة والتشبيه والحذف وإطلاق اسم العلم في مجرى الصفة واستعمال القليل للدلالة به على الكثير. بل إن الحلم بوجه عام ليسرف في استخدام الصور البلاغية إسرافاً هو الذي يؤدّي إلى هذا العطل الظاهري من المعنى على نحو ما يقع في شعر السرياليين[9]. ويعين على هذا أنه إذا كان هناك أسلوب نستطيع أن نقول: إنه أسلوب الحلم بالذات، فذلك هو الحذف، والحذف المخل. بل نستطيع أن نقول بوجهٍ عام: إنه إذا كان المحللون يفهمون مرضاهم فباستنادهم إلى معرفتهم برمزيةٍ المحذوف فيها لا يقل أهميةً عن المذكور بل يزيد خطراً. فإذا أراد القارىء أن يعلم السر في هذا الإسراف البلاغي من جانب الحلم قلنا في إيجاز: إنه الرقابة؛ فأنت إذا تحدثت وأنت تشعر بأن ثمة رقيباً على كلماتك كان أول ما تعمد إليه هو الحذف واستخدام الألفاظ في غير مواضعها، وإذا كان هناك تعريف يجمع بين ضروب الأشكال البلاغية كالمجاز المرسل أو الكناية أو ما إليهما، فذلك هو كونها استعمالاً للألفاظ في غير مواضعها.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى دراسة مفردات الحلم أو . بعبارة أدق . إلى ما يسميه اللغويون الغربيون «دوال المعنى»، كان أول ما يصادفنا هو الرموز التحليلية بالمعنى المحدود (كالملك رمزاً للأب أو الرحيل رمزاً للموت... إلخ). فهذه الرموز هي الدوال الأساسية في لغة اللاشعور[10]، وإنا لنسمعها دائماً أبداً في حديث الإنسان الليلي (وأعني الحلم) كما في أعراض مرضه وشعره وأساطيره... إلخ. فإذا تركنا هذه وجدنا أن الحلم إنما ينسخ الاستعمال الصوتي والمعنوي للدوال المتضمنة في لغة الحالم النهارية. سوى أن الحلم يفاجئنا ههنا بتلك الظاهرة: ذلك أنه إذا كان هناك أمر يميّز اللغات النهارية فهذا هو ما سماه أحد اللغويين المحدثين بحق ظاهرة «الفرار من الاشتراك»[11]، بمعنى أن اللغة لا تمل من ابتداع الوسائل للتفرقة بين الدوال تجنباً للاشتراك وازدواج المعاني. ومن الحق أن اللغات النهارية مهما أمعنت في هذا الاتجاه لا تبلغ أبداً إلى القضاء على اتساع اللفظ الواحد للمعاني المتعددة؛ فلقد قدّر على الكلمة أن تكون معقد معانٍ متعددة، كما يقول فرويد (ص 374)، وهذا الاتساع وحده هو الذي يطوِّع اللفظ للمقاصد التي يسخره لها الكلام[12]، ولكن الذي يهمنا الآن هو أن لغة الأحلام تفلت كل الإفلات من هذا «الفرار من الاشتراك»، بل هي تمعن في الاتجاه المخالف: فلا حد للمعاني التي يمكن أن تحملها صورة الحلم، وهذا هو ما سمّاه فرويد ظاهرة «التكثيف». ولو رجع القارىء ههنا إلى أحد الأمثلة على ذلك، كالحلم المعنوَن «حلم الخنفساوين» (ص 325)، لخيّل إليه أن صورة الخنفساء بكل ما تكثف فيها من المدلولات إنما كانت الرسم الهيروغليفي الذي يعكس كل رغبات الحالمة ومخاوفها في صورة غريبة عنها، ولخيّل إليه بوجهٍ عام أنه يواجه في الحلم جميع المادة الدالة وقد تركت لنفسها في «حالة همجية». ولا يقف إفلات الحلم من قانون الفرار من الاشتراك عند هذا الحد، بل هو يتناول أيضاً مادة الدوال أو بنيتها الصوتية بلعب يؤلف بحق ما يشبه «الكيمياء اللفظية» مثلما تصنع النكات (أنظر الأمثلة على ذلك في ص 333 وما بعدها)، وأما السبب في هذا كله فيرجع بعضه إلى غياب الآخر أو المخاطب في الحلم بعض الغياب . وإن لم يكن كله كما يتبيَّن من بقاء الرقابة . وارتفاع القاعدة أو القانون بقدر غيابه[13].

فإذا أردنا أن نجمل الكلام السابق عن خصائص لغة الحلم قلنا: إنها لغة تتميز بالفقر النحوي مع الإعمال المفرط للحذف في ترتيب السياق، ثم بالثراء البلاغي، فالتكثيف المعنوي.

وههنا نترك الإجابة عن بعض الأسئلة التي ربما جالت بذهن القارىء، كأن يسأل: ما هي الصلات بين هذه اللغة التي يصطنعها الإنسان في خطابه الليلي وبين لغاته النهارية، بين هذه الرمزية وتلك؟ كيف نوفق في بناء واحد بين هذه النظرة إلى اكتشاف اللاشعور باعتباره اكتشافاً لغوياً بحتاً لم تختلف خطوات صاحبه في الوصول إليه مما قد كانت تكونه خطوات العالم اللغوي وبين الآراء الذائعة . وحدها . عن فكر فرويد، كاتجاهه الدينامي وما يعزوه من الأثر الحاسم إلى تاريخ الطفولة وحياتها الجنسية[14]؟ ونترك للّغويين والنقاد أن يتبيّنوا كيف يمكننا تعمق لغة اللاشعور ودوراتها من أن نزيد فهماً للتراكيب الدينامية للأسلوب ومقوماتها الوجدانية[15]. كما نترك للفلاسفة أن يستخرجوا المغزى الذي قد يرونه إذ يرون الإنسان مسكوناً بلغةٍ تأسر رغبته وفيها تولد هذه بما هي رغبة إنسانية.

نترك كل هذا لأننا إنما أردنا بالكلمة المتقدمة أن نشعِر القارىء بتلك القضية: أن الأحلام . كالشعر . لا تترجم. ولقد كان ذلك رأي فرويد الذي

أعرب عنه. فإذا كان كتابه «تفسير الأحلام» قد ترجم مع ذلك إلى معظم لغات العالم الحية فلا يُرين القارىء في ذلك إثباتاً للضد كإثبات الحركة بالمشي؛ لأن المترجمين اتَّبعوا في العادة إحدى طريقتين: فهم إما أسقطوا بعض الأحلام التي أوردها المؤلف إسقاطاً وإما استبدلوا بها أحلاماً من عندهم ومن لغاتهم. ولكن هذه الاستباحة إن جازت والكتاب في أوائل سيرته لا تجوز اليوم بعد أن صارت له مكانة الكتب المأثورة: هذه كانت الصعوبة الكبرى في ترجمة «تفسير الأحلام». ولم أجد لها إلا حلاً واحداً: وهو أن أترجم الأحلام وتفسيراتها ترجمةً حرفية، فإن كان الحلم قد اعتمد في تصويره على تعبير دارج يتضمن استعارة أو كناية أو غيرهما ترجمته كما هو ونبّهت عليه وفسّرت وجه الاستعارة أو الكناية إذا رأيت داعياً إلى ذلك، فإن أعمل التورية نصصت عليها، أو استغل الاشتراك الذي في أحد الألفاظ وضعت اللفظ الأصلي بعد كل ترجمة من ترجماته المختلفة، فإن كانت الخاصة المستغلة هي الجناس بيّنته، وهكذا. ولا شك في أن النص يفقد بذلك الشيء الكثير من طلاوته ولطفه . كما يقول جيمس ستراشي الذي اتبع ذات المنهج صادراً عن ذات السبب . بل يفقد الكثير من قدرته على الإثارة والإيحاء والإقناع. ولكن القارىء يرى الآن كيف كان ذلك بعضاً من الشر الذي ليس منه بد.

وعدا هذه الصعوبة الناشئة عن طبيعة الكتاب المترجم أو . على الأدق . عن طبيعة موضوعه، كانت هناك صعوبة أخرى تتّصل بموقف المترجم إلى العربية، والذي أعنيه بهذا القول هو مشكلة المصطلحات: هذه لم تكن بالصعوبة البالغة؛ فقد وجدت الطريق ممهداً أمامي بفضل من سبقوا إلى الترجمة في مجال علوم النفس والتحليل النفسي بنوعٍ خاص، ولهذا كان واجباً عليّ أن أوجّه إليهم شكري على هذه الصفحات، وإذا كنت لا أذكرهم بأسمائهم فلأن أعمالهم قد سبقت أيضاً إلى التعريف بهم. سوى أنَّ من الصعب مع هذا على مترجم في موقفي ألا ينص في هذا المعرض على الجهود التي بذلها الأستاذ يوسف مراد؛ فقد كان بالقاموس الذي وضعه بمعاونة الدكتور عبد المنعم المليجي والدكتور صبري جرجس أول من أرسى هذه المصطلحات التي صارت اليوم تراثاً مشتركاً. وقد كنت آخذ بالترجمات الموضوعة رغم ما قد يخالطها من قصور لا أظن إلا أن واضعيها كانوا أول المنتبهين إليه. ولكن هذا الالتزام بالقديم لم يمنعني من التجديد إذا دعت الحاجة إليه: كأن أكون انتبهت إلى مرادف لم ينتبه إليه من قبل أو كأن تكون الترجمة الموضوعة قاصرة قصوراً لا يطاق عن نقل المفهوم المراد أداؤه أو خاطئة خطأً. ولقد رأيت الضرورة تدعو إلى شرح بعض المصطلحات الجديدة ولكني لم أشرح شيئاً من القديم. كما أنني . وقد بقي المستحدث قليلاً بالقياس إلى الموضوع من قبل . لم أر داعياً إلى أن أردف بالكتاب ثبتاً بالمصطلحات. هذا، وقد كنت على الجملة . فيما أخذت وفيما ابتدعت . أؤثر القريب على الغريب والاشتقاق على التعريب وأما النحت فلم أكد أعمله قط.

بعد هذه الملاحظات المتعلقة بترجمة الكتاب أتحدث عن سياستي في تقديمه.

إن من الأمور المعلومة أن «تفسير الأحلام» كان أحد الكتب القليلة التي ظل فرويد يُعنى بتعديلها زمناً طويلاً، يحذف حيناً ويضيف أحياناً أخرى[16]. والترجمة التي يقرأها القارىء في هذه الصفحات تنقل نص الطبعة الثامنة والأخيرة . وهي من غير شك أوفى الطبعات لأن المحذوف في خلال التعديلات المشار إليها قليل بالنسبة إلى ما أضيف. ثم حتى هذا المحذوف كثيراً ما أوردته، بل العبارة المعدلة ذكرت صيغتها قبل التعديل كلما رأيت لذلك دلالته بالنسبة إلى فكر المؤلف، بحيث يسع القارىء الاطمئنان إلى أن هذه الصفحات قد أودعت «تفسير الأحلام» في صورة من أوفى ما يكون.

بقي بعد هذا أمر آخر، وأعني به التضمينات التي لا حصر لها والتي يجدها القارىء منتثرة في خلال الصفحات المقبلة: تضمينات ترد في خلال تفسيرات الأحلام ولا نعود ندهش لها بعد الذي سمعناه عن كثرة التجاء الأحلام إلى الاستعارات المبثوثة في تعبيرات اللغة الدارجة وتراثها الشعري وأغانيها الشعبية وأمثالها الحكمية... إلخ، ثم تضمينات لفرويد هي خاصة من خصائص أسلوبه. هذه وتلك لم تترك في بعض الأحيان مفراً من شرحها شرحاً قصيراً إذا أردنا أن نضع القارىء في «جو الكتاب» . وهو جو ينبعث عند المؤلف عن ثقافة أوروبية أدبية منقطعة النظير، متمثلة إلى أبعد الحدود. ولم يكن بد كذلك من أن نجلو بعض إشارات المؤلف: فهي ربما اتجهت إلى جوانب من تاريخ الأمم الغربية وأساطيرها قد لا تكون للقارىء العربي ألفة تامة بها أو إلى وقائع تمس حياة المؤلف الخاصة قد لا يعلمها القارىء. وفيما عدا هذه الهوامش التي إنما تهدف إلى تيسير متابعة المؤلف أو جلاء الغامض من إشاراته، لن يجد القارىء شيئاً مما يشبه الشرح النظري أو التعليق.

وقد كنت فكرت في أن أخرج عن هذه القاعدة فيما يتصل بالفصل السابع والأخير . وهو «أصعب ما كتب فرويد وأشدّه تجريداً»[17]. سوى أني رأيت أن مثل هذه الشروح لكي تفي الغرض المطلوب لا يمكن إلا أن تطول طولاً لا تطيقه إمكانيات النشر ولا صبر القارىء. ثم ليتها بعد هذا كانت تفي! فلا غنى لمن أراد أن يستوعب هذا الفصل من أن يقرأ رسائل فرويد إلى صديقه ؟يلهلم فليس، ففيها يرى فكر فرويد وهو يتكوّن خطوة فخطوة في خلال الحقبة السابقة على كتابة «تفسير الأحلام» والمعاصرة لها، وفيها يجد على الأخص مشروعاً أرسله فرويد إلى صديقه وأودعه جملة الأفكار التي تؤلف بحق نواة هذا الفصل. وإذا كان جيمس ستراشي . بقدر ما أعلم . هو أول من استطاع أن يزودنا بترجمة فاهمة مفهومة لهذا الفصل، فلا يعود ذلك إلى تفوقه الأدبي غير المنازع وحسب، بل يعود على الأخص إلى أن هذا الفصل لم يتسنّ فهمه إلا بعد أن عُرفت هذه الرسائل ونُشرت (1950). وهناك بعد هذا سبب آخر يقتضينا أن نقرأ هذه الرسائل: ففيها نجد صورة من حياة فرويد الخاصة. والإلمام بدقائق هذه الحياة

أمر لا يستغني عنه من أراد أن يستوعب تفسيرات المؤلف لأحلامه. وهذا الاستيعاب بدوره أمر ضروري لسببين: فهناك أولاً ما تشتمل عليه هذه التفسيرات من القيمة الأدبية (وأعني على التحديد الإنسانية) فإن الذين يعلمون لأي المخاطر يتعرّض كل من أراد أن يتعرف نفسه ويعرف غيره بها وكيف يسهل أن تنزلق محاولته إلى التبرير المتصل أو الاستفزاز الماسوشي أو تغذية العُجْب الذي لا يشبع، أي ـ في النهاية ـ إلى محاولته أن يسرق من غيره صورة نرجسية، أولئك لا يمكن إلا أن يروا في حديث فرويد ههنا غاية ما يمكن أن يصل إليه امرؤ من الاتزان بل من الإنصاف لنفسه ولغيره وغاية ما تستطيع أن تصل إليه العبقرية من التخلص من سراب «الأنا» والاقتراب من المعاش المباشر. وأما السبب الآخر والأهم فهو ضرورة هذا الاستيعاب لمن أراد أن ينفذ إلى فكر فرويد؛ لأنه إذا كانت الحقيقة مهما بلغت موضوعيتها لا تخرجها هذه الموضوعية عن أن تكون مقياساً للعالم كما هي مقياس للمعلوم[18] أو ـ بوجهٍ أعم ـ إذا كان تكوُّن الموضوع يتبع دائماً تحقق الذات[19]، فهذه القضية لا تصدق في مجال من مجالات المعرفة صدقها في التحليل النفسي.

بقيت بعد ذلك هنَّات خفيفة اشتمل عليها النص ولم يكن بد من مداواتها وبخاصة بعد أن صارت هذه المداواة لا تكلّف كبير عناء فقد نهض بها ستراشي من قبل: ذلك أن فرويد في خلال التعديلات التي سبقت الإشارة إليها ربما حذف جملةً أو جزءاً من جملة مع أن في مستأنف السياق إشارة لا تفهم بغير هذا الجزء فلا يكون بد من أن نعيد إدراجه في النص، أو هو قد يضيف فقرة ولكنه يضعها في غير موضعها فلا يكون مفر من التنبيه على ذلك حتى نجنب القارىء حيرة لا داعي إليها ـ وفيما عدا هذا ذكرنا تاريخ الإضافات المختلفة كلما رأينا أن لذلك أهمية أو أنه يعين القارىء على متابعة النص. كذلك قد يستشهد فرويد بمؤلف ولكنه لا يُعنى بذكر رقم الصفحة (فذكرناه) أو يذكر الرقم الخطأ (فصححناه). وأقول بهذه المناسبة: إني رأيت من الأفضل أن أترك تبويب فرويد لقائمة مراجعه متبعاً التبويب الذي وضعه ستراشي. فقد عُنيَ فرويد بأن يجمع كل المؤلفات المتعلقة بموضوع الحلم ثم قسمها قسمين: مؤلفات ظهرت قبل «تفسير الأحلام» سنة 1900 وأخرى ظهرت بعده. فأما ستراشي فوزعها بين مؤلفات أشير إليها في خلال النص وأخرى لم ترد إليها إشارة ما. وكل قائمة من هاتين رتبت فيها المؤلفات على حسب الترتيب الأبجدي للمؤلفين، فإن كان للمؤلف الواحد أكثر من كتاب أو مقال رتبت أعمال بحسب سنيّ صدورها، فإن كانت له مؤلفات متعددة في السنة الواحدة رتّبت هذه أيضاً بحسب ترتيبها في الزمن وأردف تاريخ السنة بحرف أبجدي يدل ترتيبه بين سائر الحروف على السابق واللاحق. ولا تخفى المزية بل المزايا التي لقائمة ستراشي الأولى: فهي ـ أولاً ـ ستكون بمثابة فهرست بأسماء المؤلفين يغنينا عن تكرار ذكرهم في الفهرست التحليلي، ثم هي ستتضمن العدد الكبير من مؤلفات فرويد ومقالاته وقد رتبت بحسب تاريخ صدورها، وهي ـ ثالثاً وأخيراً ـ ستسهل علينا الإشارة إلى المراجع المختلفة: فيكفينا بعد اسم المؤلف أن نضع بين قوسين تاريخ الكتاب أو المقال أو تاريخه متبوعاً بحرف (نختاره من حروف الأبجدية العربية بحيث يوافق في الترتيب حرف الأبجدية اللاتينية المستعملة في القائمة) ثم رقم الصفحة أو الجزء فالصفحة ـ وربما أغفلنا ذكر السنة إذا لم يكن للمؤلف المشار إليه سوى كتاب أو مقال واحد. ولقد وضعت بين معقفين كل ما ورد في خلال هذه الترجمة من الزيادات وكذلك كل النصوص التي استشهد بها فرويد من اللغات الأجنبية والتي أوردت في المتن ترجمتها العربية وأسقطتها هي في الهامش[20].

هذا، وإني وقد أشرت في الفقرة السابقة إلى هنات عرضت لا أرى محيداً عن النص على أن هذه الهنات لم تحل دون بلوغ الكتاب مبلغاً عالياً من جمال التحرير يجعل منه بحق أثراً فنياً باقياً إلى جانب قيمته العلمية. ففرويد في كل أحواله ـ وفي هذا الكتاب بخاصة ـ كاتب ندر من حاذاه في ذكاء العبارة ورشاقتها مع حدّة وبيان. وقد لا يعلم القارىء أن مؤلف «تفسير الأحلام» سيّد من سادة النثر الألماني وأن أسلوبه من الأساليب التي بلغت مبالغ الإعجاز؛ فقد استطاع أن يحفظ للجملة الألمانية كل أصالتها مع إعطائها نقاوة واقتصاداً لاتينيين أو يكادان. ولقد عرف له هذا الفضل فمُنح جائزة جوته الأدبية سنة 1930 ولا يمنحها سوى أعلام الكتاب.

*

وبعد، فإنه لواجب يسعدني أداؤه، أن أوجه ههنا أول شكري وأخلصه إلى والدي؛ فقد كان يزوّدني بقدرته اللغوية كلما خانتني قدرتي، آتياً في كل عبارة بما يكسبها سلامةً أو سلاسةً، فلولاه ولولا هذا الجهد الذي بذله مختاراً من غير حساب ما أتى هذا العمل في الصورة التي تجعله جديراً بأن ينقل إلى الغير ـ أي ما كان عملاً.

وأما أستاذي وصديقي ـ منذ أن شرّفني بصداقته ـ الدكتور مصطفى زيور فلست أدري كيف أشكره إلا بأن أهدي إليه هذا العمل كله. وما أظن بعد ذلك أني أوفيته حقه؛ فقد قرأ هذه الترجمة سطراً فسطراً مضاهياً إياها بالترجمة التي وضعها جيمس ستراشي بمعاونة آنا فرويد ـ وهي ترجمة لم يختلف اثنان في إمكان الثقة بها ـ وكان لمراجعته هذه، ناصحاً ومنبهاً ومصححاً، أكبر الأثر في تقريب الترجمة الحاضرة من الكمال المنشود. وأنا ـ إذن ـ كمن يجازيه ببعض فضله. وأما التشجيع الأدبي الذي عرفته منه دائماً فلم يكن على القطع بأقل مآثره: فبفضله ـ ماضياً ـ ولجت مجال التحليل النفسي (حيث كان الدكتور مارك شلومبرجيه أول من قاد خطواتي) وبفضله ـ حاضراً ـ أقبلت على هذه الترجمة.

وأما ترجمة ستراشي التي سبقت الإشارة إليها مرات متعددة فيكون جحوداً مني ألا أنص ههنا على دَيْني الكبير نحوها؛ فما أظن أن ترجمتي كانت بالغةً مبلغها من الدقة والوضوح ـ أياً كان حظها من هذين ـ لولا الاستعانة المستمرة بهذه الترجمة الفائقة والاهتداء بهديها. هذا وإن كنت لا

أحتاج إلى القول بأنني لم أذهب في ذلك حتى المدى الذي يجعلني أنزل الترجمة عندي منزلة الأصل أو أستغني بها عنه؛ فمن المقطوع به أن الكتاب المترجم إنما ينتقل إلى القارىء بزاوية الانكسار التي تنشأ عن مروره في خلال الوسط المؤلف من فهم المترجم وحساسيته (وإن لم ننس أيضاً أن هذه القضية لا تعني أن «الترجمة خيانة» بقدر ما تنبّه إلى أن الأمانة حين تكون فبجهدٍ خاص). وإني ـ إذن ـ إذ أشكر لذوي الفضل أثرهم في محاسن هذه الترجمة لا أفكر أقل تفكير في أن أخلي نفسي من التبعة فيما قد يكون من معايبها.

وأوجّه كبير شكري من بعدُ إلى الدكتورة هيلده زالوستسر أستاذة اللغة الألمانية بجامعة الإسكندرية؛ فما منعت عني معرفتها الغزيرة بآداب اللغة الألمانية وتعبيراتها الدارجة وما جرى منها بين أهل النمسا وفيينا بنوعٍ خاص. كما أشكر طالبي بالأمس وصديقي اليوم وأول قرائي أحمد فائق؛ فقد قرأ الترجمة وهي مخطوط فأعانتني ملاحظاته على تبيّن مواطن الشبهات في أداء المعاني فرفعتها، هذا فضلاً عن معاونته السخية في وضع الفهارس وتصحيح التجارب. فأما صديقي عبد العزيز إبراهيم الذي أخذ على عاتقه أن يهيىء المخطوط للمطبعة فلا يقدّر جهده إلا من عاناه[21].

وأما فضل دار المعارف إذ تولت إخراج هذا الكتاب في الصورة التي تليق بمكانته في عالم الفكر الغربي وبمكانتها هي في الشرق الناطق بالضاد، فأبيّن من أن يحتاج إلى نصٍ خاص.

*

وأخيراً، فإني إذ أترك بين يدي القارىء العربي هذا الأثر الذي هو من غير شك أحد الثوابت فيما يسميه شارل دي بوس «سماء الثوابت» لا أملك إلا أن أعرب عن أملي في أن يكون له بيننا مثل ما كان له في الغرب من أثر معروف (وإن لم يسبر كل غوره بعد لأنه لم ينقطع) في تاريخ الحركات الفنية والفكرية والفلسفية وفي علوم الإنسان. ولمَ لا والكتاب لرجل يرينا في الحلم كلِما ومن وراء هذا الكلم لغة يجلو غوامضها ويذيع أسرارها ونحن الذين ننتسب إلى قوم جعلوا من اللغة مدار حياتهم الثقافية جميعاً؟ فمصير الكتاب بيننا ربما كان وقفاً على اختيارنا: أنقبل أن نكون خلف هذا السلف؟ ولست أدري ما سيكون من إجابتنا عن هذا السؤال ولكن أيّاً كان الجواب فأهم منه ألا ننسى تلك القضية التي نرى مصداقها في كل خطوة من هذه الخبرة التي لم يكن مبدعها إلا سيجموند فرويد نفسه (وأعني التحليل النفسي): من لم يختر ماضيه لم يجد حاضره.

وللمسألة بعد هذا وجه آخر: ذلك أن فرويد إذ يرينا الكلمة (أي المعقول بالذات) في عمل الحلم كما في أعراض المرض[22]، يرفع أكثف الحجب التي كان يعمي فيها على الإنسان وجهه. فهل نقبل المخاطرة في آفاق الوعي والتحقيق الإنسانيين غير المشروطين، أي بغير التحصن بميكانيكيات الدفاع كما يقول المحللون النفسيون؟ هذا أيضاً سؤال لا أعلم جوابنا المستقبل عنه. ولكن لا ننسى تلك القضية الأخرى: من لم يختر مستقبله لم يجد ماضيه.

مصطفى صفوانع

ضو الجمعية الفرنسية للتحليل النفسي

DIE TRAUMDEUTUNG

تفسير الأحلام

««MOVEBO FLECTERE SI NEQUEO SUPEROS, ACHERONTA

«لئن لم أثن السماوات حركت الأخِرون»[23] **.**

تمهيد

هذا كتاب أحاول فيه أن أشرح تفسير الأحلام، وأعتقد أني إذ أفعل ذلك لا أتجاوز دائرة الموضوعات التي يهتم بها علم الأمراض العصبية؛ ذلك أن البحث السيكولوجي يرينا أن الحلم أول حلقة من سلسلة الظواهر النفسية الشاذة . وهي سلسلة اقتضت الأسباب العملية أن يشغل الطبيب بسائر حلقاتها، مثل المخاوف الهستيرية والأفكار القهرية والهجاسية. ولا يستطيع الحلم أن يدّعي مثل هذه القيمة العملية . كما يتبيّن من الصفحات القادمة . ولكن هذا عينه إنما يزيد قيمته النظرية من حيث هو نموذج ومثال، وإن من قصّر عن أن يبيّن منشأ صور الحلم ليجهد عبثاً في أن يفهم المخاوف المرضية والأفكار القهرية والهجاسية أو في أن يؤثر فيها تأثيراً شافياً.

بيد أن هذه الصلة التي يدين لها موضوعنا بأهميته هي أيضاً الملومة على ما يتخلل هذا المؤلف من مواطن القصور: فالثغرات التي سوف يلحظ القارىء كثرتها في هذه الصفحات أيما كثرة إنما توافق على التحقيق تعدد مواضع الاتصال التي تسلم عندها مشكلات الحلم إلى المشكلات الأعم الداخلة في نطاق علم النفس المرضي . وهي مشكلات لا سبيل إلى معالجتها في هذا المعرض ويجب أن تفرد لها صفحات أخرى إذا توافر الوقت والجهد وإذا عرضت مادة جديدة.

ثم إن خصائص المادة التي أصور بها تفسير الأحلام قد جعلت نشر هذه الصفحات صعباً عليّ كذلك. فسوف يتبيّن من سياق هذا الكتاب لمَ كانت الأحلام المدوّنة من قبل في مختلف المصنفات أو تلك المنقولة عن مصادر مجهولة لا غناء فيها على الإطلاق فيما أقصد إليه. وكان عليّ إذن أن أختار بين أحلامي وأحلام مرضاي الذين أعالجهم بالتحليل النفسي. ولكن منعني من اللجوء إلى هذه المادة الأخيرة أن عمليات الحلم تتعقد فيها تعقداً غير مرغوب فيه؛ لدخول الخصائص العصابية عليها. فإذا رويت أحلامي لم يكن مفر من أن أطلع نظرات الغرباء على أكثر مما كنت أود إطلاعهم عليه من دخائل حياتي النفسية ومما يلزم في العادة كاتباً هو رجل من رجال العلم وليس بشاعر. ذلك هو الشر الأليم الذي لم يكن منه بد؛ فأذعنت للضرورة مؤثراً هذا الإذعان على النزول عن كل برهان يسند كشوفي السيكولوجية. ولا غرو مع هذا أن غلبتني الرغبة في أن أخفف من غلواء المكاشفة فأضمرت وبدّلت، وكنت كلما فعلت نقصت قيمة المثال الذي أضربه نقصاً ملموساً لا شك فيه. وكل الذي أستطيعه هو أن أعرب عن أملي في أن يضع القارىء نفسه في موقفي الصعب حتى يرفق بي، ثم عن أملي في أنَّ أولئك الذين سوف يرون في أحلامي إشارة ما إلى أشخاصهم لن يفكروا في أن ينكروا عليّ حرية الفكر . في حياتي الحالمة على الأقل.

مقدمة الطبعة الثانية

أن تدعو الحاجة إلى طبعةٍ ثانية لهذا الكتاب (وما هو بالكتاب الذي تسهل قراءته) قبل أن تنقضي على نشره عشر سنين ـ ذلك ما لا يرجع الفضل فيه إلى دوائر المحترفين الذين كنت أوجه الخطاب إليهم في الكلمة المتقدمة؛ فلا يبدو أن زملائي من أطباء النفس قد كلّفوا أنفسهم كبير عناء من أجل التغلب على الحيرة الأولى التي أشاعتها نظرتي الجديدة في الأحلام، فأما الفلاسفة المحترفون الذين صار من عادتهم أن يمروا في عبارات وجيزة ـ قل أن تختلف ـ على مشكلات الحياة الحالمة التي لا يرون فيها سوى ظاهرة تذيل الحالات الشعورية فمن الواضح أنهم لم يلحظوا أن ههنا قد تكون البداية المؤذنة بنتائج لا بد من أن تغيّر وجه نظرياتنا السيكولوجية تغييراً، وأما الموقف الذي وقفه المعلقون في الصحف العلمية فلم يكن يترك للمرء أن يتوقع قدراً آخر لكتابي غير أن يندثر في صمتٍ مطبق، على حين ما كانت القلة المقدامة من الأنصار، ممن يزاولون التحليل النفسي بتوجيه مني ويحذون حذوي في تفسير الأحلام ويستخدمون تفاسيرها هذه في مداواة الأعصبة، ليستنفدوا قط الطبعة الأولى من هذا الكتاب. وعلى هذا أراني أدين بالشكر لدائرة أشمل من القراء المثقفين، ذوي العقول المتطلعة، الذين يحملني اهتمامهم على العود بعد سنوات تسع إلى هذا الكتاب الصعب وإن كان من وجوه متعددة كتاباً أساسياً.

ويسرني أن أستطيع القول: إني لم أجد فيه سوى القليل لأغير منه؛ فقد ضمنته بعض المادة الجديدة هنا وهناك، وأضفت إليه بعض التفاصيل استقيتها من خبرتي المتزايدة، وأردت لقضاياي بعض التعديل في قلة من مواضعه، ولكن الجوهر فيما تحدثت به عن الأحلام وتفسيراتها وكذلك في النظريات السيكولوجية التي تخلص من كل أولئك، هذا الجوهر يظل هو هو، إنه قد ثبت لمحنة الزمن ـ من الوجهة الذاتية على الأقل. وإنَّ من يعرف سائر كتاباتي (في علّية الأعصبة وآلياتها) ليعلم أني لم أتقدم قط بالرأي غير المحقق على أنه الشيء المحقق وأني كنت أعدّل دائماً من قضاياي بما يتفق وتقدم خطاي في مجال المعرفة، إلا الحياة الحالمة؛ فقد وسعني الثبات فيها على ما بدأت. فإني اشتغلت بمشكلات الأعصبة سنوات طوالاً عرفت فيها الحيرة مراراً واستبهمت على مسالك الفكر كل استبهام أحياناً، فكان «تفسير الأحلام» دائماً هو الذي يردّ إليّ عندئذ يقيني. ولقد صدر إذن خصومي عن غريزة واثقة حين أبوا متابعتي في مباحثي الحلم بنوع خاص.

ومادة الكتاب أيضاً ـ وهي تتكوّن من أحلام لي نفسي تعدّت الأحداث غالبيتها أو أفقدتها أهميتها وبها صورت تفسير الحلم ـ قد أبدت مثل هذه القدرة على البقاء وعلى مقاومة كل تغيير بعيد الغور. فلهذا الكتاب ـ فوق ما سبق ـ مغزى ذاتي آخر، مغزى لم أدركه إلا بعد أن انتهيت من تصنيفه: فقد تبيّن لي أنه كان جزءاً من تحليلي الذاتي، كان استجابتي إلى موت أبي: أي إلى أخطر حادثة، إلى أفجع خسارة تصيب امرأ في حياته. وإذ عرفت أن ذلك كذلك أحسست العجز عن أن أطمس معالم هذه الخبرة. وأما القارىء فلقد يستوي عنده بأي مادة يتعلم كيف يقدّر شأن الحلم وكيف يفسره.

هذا وقد كنت كلما تعذر عليّ أن أدرج في السياق القديم ملاحظة لا أجد غنى عنها نبَّهت على حداثة أصلها بوضعها بين معقفين[24].

برختسجادن، في صيف 1908

مقدمة الطبعة الثالثة

لقد انقضت سنوات تسع بين الطبعتين الأولى والثانية لهذا الكتاب، ولكن لم يكد ينصرم العام حتى لزمت طبعة ثالثة. ولقد أسر لهذا التبدل، ولكني قد أبيت بالأمس أن أرى في إعراض القرّاء عن كتابي دليلاً على خلوّه من كل قيمة لا أستطيع اليوم أن أعد إقبالهم الحاضر عليه شاهداً على كماله.

وبعد، فها هو ذا «تفسير الأحلام» نفسه لا يتركه تقدم العلم دون أن يغيّر منه. فقد كتبته عام 1899 ونظريتي في الحياة الجنسية لا تزال طي الغيب، ولم يكن تحليل الأشكال المعقدة التي تتخذها الأعصبة النفسية قد تجاوز بدايته. وكان أملي إذ ذاك أن يعين تفسير الأحلام على تيسير التحليل السيكولوجي للأعصبة. ومنذ ذلك الحين أحدث الفهم الأعمق للأعصبة تأثيره الرجعي في نظرتنا إلى الحلم، فاتسعت نظرية تفسير الحلم في اتجاه لم أنبّه عليه التنبيه الكافي في الطبعة الأولى لهذا الكتاب: فقد علمتني خبرتي وكذلك مؤلفات ؟يلهلم شتيكل وغيره من الكتَّاب أن أقدّر تقديراً أصدق مدى انتشار الرمزية في الأحلام (أو على الأصح في التفكير اللاشعوري) ومقدار أهميتها. وهكذا تجمّعت في خلال هذه السنوات حقائق كثيرة تتطلب الاعتبار. وقد حاولت أن أحسب لهذه التجديدات حسابها بإضافات متعددة ضمّنتها النص وهوامش ألحقتها به. فإذا كانت هذه الإضافات تهدّد في بعض المواضع بتمزيق الإطار الذي وضع فيه الكتاب، أو إذا لم أكن وفّقت في كل المواضع إلى رفع النص الأصلي إلى مستوى معرفتنا الحاضرة، فرجائي هو أن يغفر القارىء هذه المثالب؛ فإنما هي النتائج الناجمة عن نمو علمنا نمواً مسرعاً في الآونة الحاضرة وعلامات عليه. بل لقد أجازف إلى التكهن بنوع الاتجاهات الأخرى التي سوف تفترق فيها الطبعات المستقبلة لتفسير الأحلام . إن احتاج الأمر إلى طبعةٍ مستقبلة . من هذه الطبعة: ففيها سوف يتحتم من جهة لصوق أوثق بالمادة الوافرة المضمنة في الشعر والأساطير والعرف اللغوي والآداب الشعبية، ومن جهة أخرى سوف يتحتم التعرّض للعلاقات بين الأحلام والأمراض العصبية في تفصيل يربو على ما اتسع له الإمكان هنا.

هذا ولقد بذل لي الهر أوتو رانك معاونة قيمة في اختيار المادة المضافة، واحتمل وحده عبء مراجعة التجارب. وإني لأشكر له وأشكر للكثيرين غيره مشاركاتهم وتصحيحاتهم.

فيينا، في أبريل 1921

مقدمة الطبعة الرابعة

في خلال العام الماضي (1913) أخرج الدكتور أ.أ. بريل ـ وهو من مدينة نيويورك ـ ترجمة إنجليزية لهذا الكتاب: (The Interpretation of Dreams, G. Allen & Co., London). ولم يقتصر الدكتور أوتو رانك هذه المرة على القيام بتصحيح التجارب، بل مدَّ النص كذلك بفصلين قائمين بذاتهما ـ وهما الملحقان بالفصل السادس.

ڤيينا، في يونيه 1914

مقدمة الطبعة الخامسة

لم يخبُ الاهتمام «بتفسير الأحلام» حتى في إبّان الحرب العالمية، ولزمت طبعة جديدة وهذه الحرب لا تزال ناشبة. غير أني لم أستطع الإحاطة بكل ما نُشر منذ عام 1914، فلست أعلم ولا الدكتور رانك يعلم بمؤلف أجنبي منذ ذلك التاريخ.

وهنالك ترجمة هنجارية توشك على الظهور، أعدّها الدكتور هوللوس والدكتور فرنتسي. كما أن «محاضراتي التمهيدية في التحليل النفسي» قد نُشرت في فيينا عام 1916 . 1917 (نشرها هـ. هللر). وقد خصص الجزء الأوسط من هذه المحاضرات (وهو يضم أحد عشر فصلاً) لشرح الأحلام شرحاً أريدَ به أن يكون أدنى للمبتدىء وأوثق التصاقاً بنظرية الأعصبة من المؤلف الحاضر، وهو في جملته بمثابة موجز «لتفسير الأحلام» . وإن زاد تفصيلاً في بعض المواقع.

هذا وقد خانتني القدرة على أن أجمع العزم على مراجعة هذا الكتاب مراجعة جوهرية كانت تعلو به إلى مستوى النظرات العلمية المعاصرة في التحليل النفسي ولكنها في سبيل ذلك كانت تهدم طابعه التاريخي. واعتقادي على أية حال هو أن الكتاب قد أنجز مهمته بعد بقاءٍ قارب العشرين عاماً.

بودابست ـ شتاينبروك، في يوليه 1918

مقدمة الطبعة السادسة

إن الصعوبات التي تحيط بتجارة الكتب في الوقت الحاضر، جعلت هذه الطبعة الجديدة تظهر متأخرة عن الحاجة إليها بزمن طويل؛ فأعيدت الطبعة السابقة للمرة الأولى دون أن يتناولها تعديل ما. هذا إذا استثنينا قائمة المراجع المثبتة في آخر الكتاب؛ فقد أكملها الدكتور أوتو رانك وواصلها.

وهكذا لم يتأيَّد ما قدّرته من أن هذا الكتاب قد أنجز مهمته بعد أن دام قريباً من العشرين عاماً. بل قد أقول على العكس: إن هناك مهمة جديدة تنتظره: فإذا كانت مهمة الكتاب في الماضي هي أن يزودنا بعض المعرفة بماهية الحلم فعليه اليوم مهمة لا تقل خطراً، هي أن يدفع أخطاء الفهم العنيدة التي لا تزال هذه المعرفة هدفاً لها.

فيينا، في أبريل 1921

مقدمة الطبعة الثامنة

في الفترة المنقضية بين ظهور الطبعة الأخيرة (السابعة) لهذا الكتاب عام 1922 والطبعة الحاضرة، جُمعت مؤلفاتي تحت عنوان «كتابات مجمّعة»[25] وأصدرتها دار النشر الدولية للتحليل النفسي[26]. وقد احتوى المجلد الثاني من هذه المجموعة نصاً يعيد الطبعة الأولى من «تفسير الأحلام» بحذافيرها، بينما ضمَّ المجلد الثالث جميع الإضافات التي ألحقت به من بعد. وأما الترجمات التي ظهرت للكتاب في أثناء هذه الفترة عينها فتلتزم الصورة المألوفة التي ظهر عليها الكتاب للمرة الأولى في مجلد واحد. وهذه الترجمات هي: ترجمة فرنسية وضعها مايرسون ونُشرت عام 1926 بعنوان «علم الأحلام»[27] في السلسلة المعَنْوَنة «مكتبة الفلسفة المعاصرة»[28]، ثم ترجمة سويدية قام بها جون لاندكيست عام 1927[29]، ثم إسبانية وضعها لويس بالليستروس (عام 1922) تشغل الجزئين السادس والسابع من الترجمة الإسبانية لمؤلفاتي الكاملة[30]. وأما الترجمة الهنغارية التي كنت أظنها على وشك الظهور ونحن لم نزل بعام 1918 فلم تر الضوء حتى اليوم[31].

وقد عالجت الكتاب عند مراجعتي إيّاه لهذه الطبعة أيضاً على أنه وثيقة تاريخية في جوهره؛ فلم أُدخل عليه من التعديل إلا ما اقتضاه توضيح آرائي وتعمقها. ووفاقاً لهذه النظرة تخليت عن محاولة تضمينه قائمة بالمراجع المنشورة في مشكلات الحلم منذ أول ظهور «تفسير الأحلام»، وألغي القسم الذي كان مخصصاً لذلك في الطبعات السابقة. وحذف كذلك المقالان اللذان شارك بهما أوتو رانك في طبعات سابقة بعنوان «الحلم والشعر» و«الحلم والأساطير». »

فيينا، في ديسمبر 1929

الفصل الأول: المصنّفات العلميّة في مشكلات الأحلام

سأقيم البرهان في الصفحات المقبلة على أن ثمة منهجاً سيكولوجياً يمكن به تفسير الأحلام وأننا إذا اصطنعنا هذا المنهج تكشف كل حلم فإذا هو بناء نفس ذو معنى يمكن الربط بينه وبين مشاغل اليقظة في موضعٍ معلوم. وأحاول بعدُ أن أجلو العمليات التي يحدث عنها غرابة الحلم وخفاؤه وأن أخلص من هذه بنتيجة في طبيعة القوى النفسية التي يتولد الحلم من ائتلاف فعلها أو تضاده. فإذا بلغت هذا المدى كفَّ مقالي؛ لأننا نكون بموضع تسلم عنده مشكلة الحلم إلى مشكلات أعم يقتضي حلها الركون إلى مادة أخرى.

وأبتدىء بنظرة عامة فيما صنَّف المؤلفون الأسبقون، وكذلك في حال مشكلات الأحلام اليوم في مجال المعرفة العلمية؛ لأن العَوْد إلى ذلك لن يسنح لي من بعدُ كثيراً، حين أعرض للموضوع. فما تقدم الفهم العلمي للأحلام إلا تقدماً يقلّ عن القليل رغم جهدٍ دام آلاف السنين، وعلى هذا أجمع المؤلفون إجماعاً لا يبدو بعده محل للاستشهاد بهذا المؤلف أو ذاك. ففي المصنفات التي ذيّلت كتابي بثبتها ملاحظات كثيرة حافزة ومادة موفورة حرية بالاهتمام تتعلق بموضوعنا، لكن القليل هو الذي يمس ماهية الحلم أو يجلو لغزاً من ألغازه، وأقل منه بالطبع ما تضمه معرفة عامة المثقفين من غير المختصين.

أي تصور للحلم ساد بين الشعوب البدائية في مطلع الإنسانية وأي أثر ترى كان له في مجمل نظرة هذه الشعوب إلى العالم والنفس ـ ذلك موضوع خليق بالاهتمام إلى أبعد مدى، حتى أنني لا أمتنع عن معالجته في هذا المعرض إلا كارهاً. فأحيل القارىء إلى مؤلفات سير ج. لابوك وه. سبنسر وإ. ب. تايلور وغيرهم، وإنما أضيف أننا لا نستطيع أن نكتنه هذه المشكلات والتعاليم إلا بعد أن نفرغ من المشكلة المطروحة على بساط بحثنا: «تفسير الحلم».

إن التصوّر قبل التاريخي للحلم له صدى يتردّد جلياً في تقويم شعوب العصور الكلاسية للأحلام[32]. فقد كان من المسلم به عندهم أن للأحلام علاقة بعالم الكائنات فوق الإنسانية التي كانوا يؤمنون بوجودها، وأنها ـ أعني الأحلام ـ تحمل كواشف من عند الآلهة والجن. وكان يدخل في اعتقادهم فوق ذلك أن الحلم يأتي الحالم لمقصد ذي خطر، هو في القاعدة الكشف عن الغيب. بيد أن التنوُّع الخارق في محتوى الأحلام وأثرها في النفس جعل الانتهاء إلى نظرة موحدة عن الحلم شيئاً عسيراً، وألجأ إلى إعمال التفرقة بين الأحلام وتقسيمها طبقات من حيث قيمتها وإمكان الركون إليها. ولم يكن تقويم الحلم عند هذا الفيلسوف أو ذاك من قدامى الفلاسفة منقطع الصلة بالطبع برأيه في العرافة بوجهٍ عام.

فإذا جاء أرسطو كان الحلم موضوع بحث سيكولوجي، وذلك في الكتابين اللذين يعرض فيهما أرسطو للأحلام. فهو يحدثنا أن الأحلام ليست مبعوثة من الآلهة، ولا هي ذات طبيعة إل~هية بل هي «جنّية»؛ لأن الطبيعة «جنيَّة» وليست إل~هية. ومعنى هذا أن الحلم ليس وليد كشف يفوق الطبيعة، بل هو يتبع قوانين النفس الإنسانية ـ وإن يكن من الحق أن بين هذه والإل~هي نسباً. وتعريف الحلم هو أنه النشاط النفسي للنائم من حيث هو نائم.

وكان أرسطو يعرّف بعض خصائص الحياة الحالمة: كان يعرّف ـ مثلاً ـ أن الحلم يجسّم ما يعرض في خلال النوم من المنبهات، فيقول: «يعتقد المرء أنه يجتاز ناراً ويلظى بها، وما به غير هذا العضو أو ذاك قد سخن قليلاً». وهو يستخلص من هذه الخاصة أن الحلم قد ينمّ للطبيب عن أول العلائم على تحوّل جعل يدب في الجسم ولم يلق التفاتاً في النهار[33].

وأما قبل أرسطو فنعلم أن القدماء لم يكونوا يرون في الحلم نتاجاً يصدر عن النفس النائمة بل وحياً من الجانب الإل~هي. ولقد أخذ يتبيّن بينهم كلا التيارين المتقابلين اللذين سوف نراهما يتناهبان تقويم الحلم في كل عصر من العصور: فهم قد فرقوا بين أحلام صادقة، ذات قيمة، ترسل إلى النائم تحذيراً له أو تبصيراً بالمستقبل، وأخرى لا غناء فيها، ماكرة، معدومة القيمة، كان هدفها سوق الحالم إلى الضلال أو دفعه إلى التهلكة.

ويذكر جروبه (1906، 2، 930) عن ماكروبيوس وآرتميدوروس قسمة للأحلام شبيهة بهذه إذ يقول: «كانت الأحلام تقسم طبقتين: فأما الأولى فيقال: إنها قد تأثّرت بالحاضر (أو الماضي) ولكنها خالية من الدلالة على المستقبل. وكانت تشمل المنامات[34] التي تصوّر فكرة ما أو ضدها ـ كالجوع أو إشباعه ـ تصويراً مباشراً، ثم الخيالات[35] التي تضخم الفكرة تضخيماً مغرقاً في الخيال، مثل الكابوس[36]. وأما الطبقة الأخرى فكان يقال على العكس: إنها تحدد المستقبل. وكانت تشمل: (1) النبوءة المباشرة يسمعها المرء في الحلم[37]، (2) الرؤيا تسبق إلى حدث مستقبل[38]، (3)

الحلم الرمزي الذي يحتاج إلى تأويل[39]. ولقد دامت هذه النظرية قروناً عديدة».

وبهذا التقويم المتفاوت للأحلام ارتبطت مشكلة «تفسيرها»: فقد كان الناس يتوقعون من الأحلام بوجهٍ عام نتائج ذات بال، ولكن الأحلام لم تكن جميعها قريبة من الفهم للوهلة الأولى، فإن استغلق أحدها لم يعرف أحد إذا كان الحلم لا يعلن مع ذلك أمراً خطيراً، فكان هذا حافزاً على الاجتهاد لكي يستبدل بالمحتوى المستغلق للحلم محتوى آخر قريب من الفهم، له ـ من ثَمَ ـ دلالة. وكان أرتميدوروس الأفسوسي يُعَدُّ أعظم حجة في تفسير الأحلام في أواخر العصر القديم، ولسنا نملك سوى القناعة بمؤلفه المستفيض عوضاً عمّا ضاع من المؤلفات الأخرى في بابه[40].

وما من شك في أن نظرة القدماء قبل العلمية إلى الحلم كانت تتّسق ومجمل نظرتهم إلى العالم بوجهٍ عام أكمل اتساق، وهي نظرة تسقط على العالم الخارجي ـ في صورة واقع ـ ما لا وقوع له إلا في باطن النفس. ثم إن نظرتهم إلى الحلم تحسب فوق ذلك حساباً لانطباع الرئيس الذي يتلقاه الذهن المستيقظ من ذكرى الحلم المتخلفة في الصباح؛ ففي هذه الذكرى يحضر الحلم كأنه شيء غريب، طرأ من عالم آخر، يباين سائر محتوى النفس. ونخطىء بعدُ حين نظن أن نظرية الأصل فوق الطبيعي للأحلام تعدم أنصاراً في أيامنا؛ فإنّا قد نغض الطرف عن الكتّاب التقويين والمتصوفين، فهؤلاء يحق لهم أن يتشبثوا بالمواقع القليلة المتبقية من المجال فوق الطبيعي الذي كان متسع النطاق يوماً مادام نور العلم لا يغزوها، ولكنا نلاقي بعد ذلك رجالاً ثاقبين لا ولع لهم بالغرائب يحاولون أن يتخذوا من هذا الامتناع على التحديد ـ وأعني به امتناع ظواهر الحلم على التعليل ـ سنداً يدعمون به إيمانهم الديني بوجود قوى روحية تفوق الإنسان وبتأثيرها (أنظر هافنر). والقيمة الرفيعة التي تضيفها إلى الأحلام بعض المدارس الفلسفية، مثل مدرسة شللنج، هي رَجْع جليّ يردد ما كان للأحلام من طبيعة إل~هية غير منازعة في اعتقاد القدماء، فأما المناقشات في قوة الحلم المتنبئة الكاشفة حجب الغيب فما انقطعت؛ كل أولئك لأن المحاولات المبذولة من أجل الوصول إلى تعليل سيكولوجي لا تزال تقصر عن مكافأة المادة المتجمعة مهما كان عزوف أهل العلم عن مثل هذه المعتقدات.

وإنه لمن الصعب أن نكتب تاريخاً ما للبحث العلمي في مشكلات الحلم؛ لأن هذا البحث مهما علت قيمته في بعض النقاط لا يبيّن عن تقدم محدد الاتجاه، فما هناك أساس من النتائج المستيقنة يتابع الباحث اللاحق البناء عليه، بل كلما جدَّ باحث جدَّد علاج المشكلات ذاتها وبدأ كمن يبدأ من البداية. فلو أردتُ أن ألتزم الترتيب الزمني للمؤلفين، موجزاً آراءهم واحداً فواحداً في مشكلات الحلم، ما وجدت مفراً من أن أترك كل أمل في أن أقدم صورة عامة مجملة لمعرفتنا الراهنة بهذا الموضوع. وعلى هذا رأيت أن أقسم الكلام على حسب الأبواب لا المؤلفين، وكلما جئت إلى مشكلة أوردت ما أودعته المؤلفات من مادة تعين على حلّها.

غير أني وقد تعذّر عليّ الإلمام بكل ما كُتِبَ في هذا الموضوع لما هو عليه من فرط التبعثر والاشتباك بغيره، لا أرى مناصاً من أن أسأل القارىء القناعة ما دمت لا أغفل واقعة أساسية أو وجهة نظر ذات وزن.

لقد كان معظم الكتّاب إلى عهدٍ قريب يرون أنفسهم محمولين على معالجة النوم والحلم في معرض واحد، وكانوا في العادة يعرضون فوق ذلك لحالات مماثلة تدخل في باب علم النفس المرضي ولظواهر لها سيّما الحلم (مثل الهلاوس والرؤى وما شاكلها). وعلى نقيض ذلك يتجلى في أحدث المؤلفات عهداً إيثار الاقتصار على موضوع محدود النطاق، وربما شغل الكاتب بمسألة مفردة من مجال الحياة الحالمة. وأود أن أرى في هذا التحوّل أمارة على الاقتناع بأن التنوير والاتفاق لا يأتيان في مثل هذه المسائل المظلمة إلا بمتابعة الأبحاث المفصّلة. وما أقدّم في هذه الصفحات إلا بحثاً مفصلاً من هذا القبيل، بحثاً ذا طابع سيكولوجي بنوع خاص. ولم يتح لي أن أعالج مشكلة النوم إلا قليلاً؛ فهذه مشكلة فيزيولوجية في جوهرها ـ وإن يكن من الحق أن من خصائص حالة النوم أنها تحدث تغييراً في الشروط التي يعمل جهازنا النفسي بمقتضاها. وعلى ذلك أغفل فيما يجيء ذكر المؤلفات المتعلقة بموضوع النوم.

إنَّ المسائل التي يثيرها البحث العلمي في ظواهر الحلم من حيث هي كذلك، يمكن تبويبها أربعة أبواب لا تخلو من بعض التداخل فيما بينها:

أ
علاقة الحلم بحياة اليقظة

يقول الحكم الساذج للمرء في أول استيقاظه: إن الحلم ـ وإن يكن لا يصدر عن عالم آخر ـ قد حمله مع ذلك إلى عالم غير الذي يعهده. وعن هذا المعتقد يعرب الفيزيولوجي القديم بورداخ الذي ندين له بوصفٍ دقيق نافذ لظواهر الأحلام في فقرة يكثر الاستشهاد بها (1838، 499): «... إن حياة النهار بأعمالها ولذَّاتها، بسرَّائها وضرَّائها، لا تتكرر في الحلم على الإطلاق، بل الأصدق أن الحلم إنما يهدف إلى تخليصنا من كل أولئك. فقد يملك نفوسنا موضوع ما أو يمزقنا ألم عميق أو تستغرق مشكلة كل طاقتنا العقلية، ثم يأتينا الحلم بشيء مختلف النوع كل الاختلاف أو لا يلتقط من الواقع سوى عناصر متفرقة يدخلها في تراكيبه أو يذهب إلى مجرد التلوُّن بلون مزاجنا والإعراب عن الواقع إعراباً رمزياً». وبهذا المعنى يتحدث ي.هـ.. فيخته (1864، 1، 541) عن أحلام مكمِّلة ويصفها قائلاً: إنها إحدى المكرمات الخفية في طبيعة الروح المنطوية في نفسها على دوائها. ويعرب ل. شترومپل عن معنىً مماثل في بحث له في طبيعة الأحلام ومنشئها، اجتمعت الآراء بحق على تقديره تقديراً رفيعاً، فيقول (1877، 16): «من حلم ارتحل عن عالم الشعور المستيقظ». ويقول كذلك (ص 17): «في الأحلام تمسي ذكرانا عن المحتويات المنظمة للشعور المستيقظ وعن مسلكه السوي كأنما لم يعد لها وجود». وأيضاً (ص 19): «إن النفس ـ وقد كادت تفقد كل ذاكرة ـ تنفصل في الحلم عن المحتوى المألوف لحياة اليقظة ومشاغلها...».

بيْد أن الغالبية الغالبة من الكتَّاب قد نظروا إلى علاقة الحلم بحياة اليقظة نظرة مخالفة. مثال ذلك هافنر إذ يقول (1887، 245): «وأول شيء هو أن الحلم يتابع حياة اليقظة؛ فأحلامنا تتصل دائماً بالأفكار التي كانت تشغل الشعور قبيل وقوعها. وتكاد الملاحظة المدققة أن تكتشف باطراد خيطاً يصل الحلم بخبرات اليوم السابق». ويناقض ؟يجانت (1893، 6) قضية بورداخ التي أوردتها من قبل على التخصيص: «لأننا نلحظ في أحيانٍ كثيرة، في القسط الأعظم من الأحلام على حسب الظاهر، أنَّ الحلم يعود بنا إلى مألوف الحياة بدل أن يخلصنا منه». ويصوغ موري هذا الموقف في عبارة محوكة فيقول (1878، 51): «إننا نحلم بما رأيناه أو قلناه أو رغبنا فيه أو صنعناه»[41]. بينما يفيض يسّن في كتابه الذي ظهر في علم النفس سنة 1855 بعض الإفاضة فيقول (ص 530): «إن محتوى الحلم تحدده دائماً ـ تحديداً يزيد أو ينقص ـ شخصية الحالم الفردية وسنّه ونوعه وطبقته ومستوى تعلمه وأسلوبه المألوف في الحياة وما اشتملته حياته السابقة جميعها من التجارب والأحداث».

وأقطع رأي في هذه المسألة هو رأي الفيلسوف ي. ج. إ. ماس (1805) إذ يقول: «وتؤيِّد الخبرة ما نذهب إليه من أننا نحلم في معظم الأحايين بالأمور التي تتجه إليها أشد انفعالاتنا. ومن هذا نرى أن انفعالاتنا لا بد أن يكون لها تأثيرها في إحداث أحلامنا؛ فيحلم الطَموح بأكاليل الغار التي نالها (أو تخيَّل أنه نالها) أو بتلك التي لا يزال عليه أن ينالها، بينما يحلم العاشق بمعقد أعذب آماله... وكل الرغبات الحسية وحركات النفور الغافية في القلوب مستطيعة ـ إذا حركها محرك ـ أن تثير حلماً ينبعث من الأفكار المرتبطة بها أو أن تجعل هذه الأفكار تتدخل في حلم دائر بالفعل». ـ نقلاً عن ؟ينترشتاين (1912).

ولم يكن القدماء على غير هذا الرأي فيما يتصل بتوقف محتوى الحلم على الحياة المستيقظة. فيحدثنا رادشتوك (ص 139) كيف كان أجزركسس يتأرجح قبل حملته على أرض الإغريق بين نصيحة عاقلة بالإقلاع عمّا اعتزم وحلم ملح يحضه عليه. وبينما هو على هذه الحال أدلى إليه مفسّر متعقل من قدامى مفسري الأحلام بين الفرس ـ وهو أرتابانوس ـ بقولٍ سديد: إن صور الحلم لا تضم في معظم الأحايين سوى ما يفكر فيه المرء من قبل وهو مستيقظ.

وفي قصيدة لوكريس التعليمية «في الطبيعة»[42] ترد الفقرة الآتية (الكتاب الرابع، البيت 962 وما بعده):

«وأياً كان المسعى الذي يندب له المرء نفسه ويثابر عليه، وأياً كانت الأمور التي طال اشتغالنا بها في الزمن الماضي، فهذه ـ وقد صارت النفس أشد حرصاً على لحاقها ـ هي أيضاً ما نخال في الحلم لقاءه: من له قضية يذود عنها ويوازن بين الشرائع، والقائد يقاتل ويخوض غمار المواقع...»[43].

ويقول شيشرون («في العرافة»[44]، الكتاب الثاني [فقرة 67]) في معنىً شبيه كل الشبه بالذي قاله موري بعده بهذه القرون الطوال: «وعندئذٍ تتخلج في النفس وتضطرب بنوعٍ خاص بقايا تلك الأشياء التي فكرّنا فيها أو صنعناها ونحن أيقاظ»[45].

إنَّ التناقض بين هاتين النظرتين في علاقة الحلم بحياة اليقظة يبدو بالفعل شيئاً لا حل له. ومن ثم كان هنا مقام التذكير بكتاب هيلد برانت (1875) الذي يعتقد أنه لا سبيل على الإطلاق إلى وصف خصائص الحلم إلا «بطائفة من القضايا المتقابلة، يبدو التقابل بينها حاداً حتى التناقض» (ص 8). «وأول تقابل يقوم في كمال انقطاع الحلم أو انعزاله عن الحياة الواقعة من جهة، واشتباك كلٍّ بالآخر اشتباكاً مستمراً وتوقفه عليه من جهة أخرى. فالحلم شيء مفصوم من الواقع الذي نعيشه في حياة اليقظة فصماً تاماً، حتى ليحق القول: إنه شيء موجود في ذاته وجوداً أحكم إطباقه، ضربت بينه وبين الحياة الواقعة هوة لا تعبر. إنه يحررنا من الواقع ويطفىء ذكرانا السوية عنه وينزلنا في عالم آخر وحياة مختلفة القصة كل الاختلاف، لا شأن لها في جوهرها بقصة الحقيقة...» ويمضي هيلد برانت فيبيّن كيف أننا إذا حل النوم اختفى كياننا كله «اختفاءه في مصيدة لا يرى لها باب». حينئذ قد يركب الحالم البحر إلى سانت هيلانه ليقدم لنابليون الأسير هناك نخبة من أنبذة الموزل، ويلقاه الإمبراطور السابق بأعظم الترحيب حتى أن المرء يكاد يأسف حين يستيقظ فإذا هذا الوهم الممتع يتبدّد. ولكن دعنا نقارن بين الحلم والحقيقة: إنَّ الحالم لم يكن في حياته تاجر أنبذة ولا رغب في ذلك قط، وهو لم يركب البحر ولو مرة، ولو فعل لكانت سانت هيلانة آخر مكان يختار الذهاب إليه، ثم هو لا يكن لنابليون حبّاً بل بغضاً وطنياً عارماً، وفوق هذا كله لم يكن الحالم رأى النور حين مات نابليون في جزيرته؛ فكل رابطة شخصية به ضرب من المحال. وهكذا يبدو الحلم جسداً غريباً دسّ بين شطرين للحياة متوائمين متداولين على أكمل وجه.

ويمضي هيلد برانت قائلاً: «ومع هذا فما يبدو أنه الضد صادق كذلك وصحيح؛ لأن أوثق الوشائج ـ مهما يكن من شيء ـ تسير فيما أعتقد جنباً إلى جنب مع هذا الانفصال وهذا الانعزال. بل إن لنا أن نذهب حتى القول بأن الحلم ـ أياً كان ما يعرض فيه ـ يستمد مادته من الواقع ومن الحياة الذهنية التي تدور حول هذا الواقع... ومهما أغرب الحلم فهو في الحقيقة لا يستطيع على الإطلاق التخلص من العالم الواقعي، وهو دائماً في أسمى تراكيبه كما في أجلبها للضحك يستعير بالضرورة مادته الأساسية سواء ممّا عرض لأعيننا في عالم الحواس أو خطر بين أفكارنا ونحن أيقاظ، أي ـ بعبارةٍ أخرى ـ ممّا سبقت لنا به خبرة خارجية كانت أو باطنية».

ب
مادة الحلم – الذاكرة في الحلم

هناك على الأقل حقيقة لا نزاع فيها، تلك هي: أن المادة التي تكوّن محتوى الحلم إنما تستمد جميعها من الخبرة على نحوٍ أو آخر، أي أن الحلم إنما يستحضرها أو يتذكرها. غير أن من الخطأ أن نظن أنَّ مثل هذا الارتباط بين محتوى الحلم والواقع يظهر للعيان من غير عناء على أثر المقارنة بينهما، بل يلزمنا البحث عنه بحثاً دائباً، وقد يخفى علينا زمناً طويلاً في طائفة بأسرها من الحالات. ويرجع السبب في ذلك إلى عدة من الخصائص التي تبديها ملكة الذاكرة في الحلم والتي استعصى تعليلها حتى الآن، وإن لم تخف على الملاحظة بوجهٍ عام. وخليق بعنائنا أن ننعم النظر إلى هذه الخواص.

أول ما نرى هو أنه يتفق أن ترد في محتوى الحلم مادة لا يستطيع المرء مستيقظاً أن يرى فيها جزءاً من معرفته أو خبرته؛ فهو يذكر ذكر اليقين أنه قد حلم بهذا الشيء أو ذاك، ولكنه لا يذكر أنه قد خبره ولا متى خبره. ويظل المرء في ظلمة لا يدري من أي نبعٍ استقى الحلم، وفي هذا ما يغريه بأن ينسب إلى الحلم قدرة مستقلة على الإبداع، إلى أن تجيء خبرة جديدة . بعد حقبة طويلة في كثير من الأحايين . فتعيد إليه ذكرى الخبرة السابقة التي ظن ضياعها، كاشفةً له بذلك عن منبع الحلم. وهكذا يسلم المرء ضرورة بأنه قد علم في الحلم أموراً كانت تخرج عن متناول ذاكرته المستيقظة، وتذكَّرها[46].

ويضرب دلبوف مثالاً على ذلك فريداً في قوّته، استمده من أحلامه: ذلك أنه رأى في الحلم فناء منزله وقد كساه الثلج ورأى عظايتين صغيرتين تجمدتا نصف تجمُّد واندفنتا تحته. فسارع . وهو المحب للحيوان . إلى التقاطهما وتدفئتهما، ثم أعادهما إلى ثقب صغير خصّص لهما في الحائط، وقدَّم لهما فوق ذلك بضع أوراق من سرخسٍ صغير كان ينمو على الحائط؛ لِما كان يعلمه من فرط حبهما له. وكان يعرف في الحلم اسم النبات: أسبلنيوم روتا موراليس[47]. واستمر الحلم ليعود بعد قليل من الاستطراد إلى العظايتين. وهنا رأى دلبوف hgtالدهشه عظايتين أخريين وقد انكفأتا على أوراق السرخس. وحينئذ أجال البصر حوله، فرأى عظاة خامسة فسادسة تتجهان صوب الثقب الذي في الحائط، وما لبث الطريق أن اكتسى كله بموكب من العظايا اتخذت ذات الوجهة... إلخ.

وكان دلبوف لا يعلم وهو مستيقظ سوى القليل من الأسماء اللاتينية للنبات ليس بينها «أسبلنيوم». فكم كان عجبه حين تحقق من أن ثمة سرخساً يحمل هذا الاسم حقيقةً! وكان اسمه الصحيح: أسبلنيوم روتا موراريا[48]. وهو الاسم الذي حرّفه الحلم تحريفاً طفيفاً. وكان التفكير في اتفاق عارض يكاد يكون مستحيلاً بالطبع. ولكن من أين أتى الحلم بذلك الاسم: «أسبلنيوم»؟ هذا ما ظلَّ لغزاً في عين دلبوف.

لقد وقع هذا الحلم في عام 1862. وبعد ذلك بستة عشر عاماً كان الفيلسوف يزور صديقاً فلمح لديه سجلّاً صغيراً حوى أزهاراً مجففة من قبيل ما يباع إلى الأجانب في بعض أنحاء سويسرا على سبيل التذكرة. وهنا بثقت في خاطره إحدى الذكريات، ففتح السجل، فإذا هو يرى «أسبلنيوم» حلمِه ويرى اسمه اللاتيني مدوّناً في أسفله بخطه نفسه. عندئذ وضحت الرابطة: ففي عام 1860 . أي قبل الحلم بعامين . زارت دلبوف أخت لهذا الصديق كانت إذ ذاك في رحلة عرسها، وكانت تحمل معها هذا السجل عينه لكي تهديه إلى أخيها. وأخذ دلبوف على نفسه أن يدوّن بأسفل كل نبات مجفف اسمه اللاتيني بإملاء أحد المشتغلين بعلم النبات.

ويشاء حسن الاتفاق الذي جعل هذا المثال خليقاً بالرواية أن يمكّن دلبوف من تأثر جزء آخر من محتوى هذا الحلم إلى أصله المفقود. ففي يوم من عام 1877 عثر دلبوف على مجلَّد من صحيفة قديمة مصوّرة، فرأى فيها موكب العظايا مصوراً جميعه مثلما تراءى له في الحلم عام 1862. وكان المجلَّد يحمل تاريخ عام 1861، وكان دلبوف يذكر أنه كان بين المشتركين في هذه الصحيفة منذ ظهورها.

أن يكون للأحلام سلطان على ذكريات لا تُنال في حياة اليقظة ظاهرةٌ ملحوظة، ذات خطورة نظرية حتى أنني لأود الإلحاح في التنبيه عليها بضرب مثال آخر من أمثلة الأحلام «الذكيرة»: يحدثنا موري كيف ظلّت كلمة «موسيدان» تراود خاطره في أثناء النهار دون أن يعلم من أمرها شيئاً سوى أن ثمة مدينة من مدن فرنسا تحمل هذا الاسم. وفي ذات ليلة لاح لموري في الحلم أنه يتحدث إلى شخص يقول له: إنه قد أتى من موسيدان. فلمّا سأله عن موقع هذه المدينة، أجابه: موسيدان مدينة صغيرة في مقاطعة الدُرْدُني. فلمّا استيقظ موري لم يصدق هذه الإفادة التي تلقّاها في الحلم، ولكن القاموس الجغرافي أثبت له تمام صحتها. وفي هذا المثال يثبت أن الحلم أعلم، إلا أن الكشف عن الأصل المنسي لهذا العلم لم يتيسر.

ويروي يسّن حادثة حلمية شبيهة بهذه غاية الشبه ترجع إلى عصر أكثر قدماً، يقول (1855، 551): «ويدخل في هذه الطبقة كذلك حلم (يذكره هنْنجر، 1784، 300) أتاه سكاليجر الكبير الذي نظم قصيدة في مديح أعلام ؟يرونا: فقد ظهر له في الحلم رجل دعا نفسه بروجنولوس شاكياً إغفاله. ولم يكن في استطاعة سكاليجر أن يذكر أنه قد سمع بهذا الرجل قط، ولكنه مع ذلك نظم فيه بضعة أبيات، ثم عرف ابنه بعد ذلك في ؟يرونا أن رجلاً بهذا الاسم قد اشتهر فيها كناقد حقيقة».

ويقص الماركي درفاي دي سان دُني (عن رواية ل؟اشيد 1911، 232) حلماً ذكيراً تميّز بتلك الخاصة الفريدة، وهي أن الحالم . وقد عجز عن أن يتعرّف إحدى الذكريات في حلم أول . يعود فيعرفها في حلم لاحق، يقول: «حلمت مرةً بسيدةٍ شابة ذات شعر ذهبي، رأيتها تتحدث إلى أختي وهي تريها قطعة من النسيج المطرَّز. وكان وجهها يبدو مألوفاً في الحلم، وفكّرت في أنني قد رأيتها مرات كثيرة من قبل. فلما استيقظت كان محياها لا يزال ماثلاً أمامي واضحاً غاية الوضوح، ولكنني عجزت عجزاً تاماً عن معرفته. ثم عدت إلى النوم، فعادت صورة الحلم. ولكنني في هذا الحلم الجديد سألت السيدة الشقراء: هل سعدت بلقائها من قبل في مكانٍ ما؟ فأجابتني: يقيناً، ألا تذكر شاطىء البحر في بورنيك؟ وهنا استيقظت على الفور مرة ثانية، وأمكنني عندئذ أن أذكر ذكراً أكيداً كل ما ارتبط بهذا الوجه الحلمي الخلّاب من التفاصيل».

ويروي المؤلف نفسه (على ما يذكره كذلك ؟اشيد، ص 255) كيف سمع موسيقى من معارفه لحناً ظنّه جم الطرافة في الحلم حتى عثر عليه بعد ذلك بسنوات في مجموعة قديمة من القطع الموسيقية ظل مع ذلك عاجزاً عن أن يذكر أنها قد وقعت بين يديه من قبل.

هذا وقد نشر مايرز مجموعة بأسرها من أمثال هذه الأحلام الذكيرة في مرجع لم أجد لسوء الحظ سبيلاً إليه[49]. وإني أعتقد أنه ما من أحد اشتغل بالأحلام إلا سلَّم بأن دلالة الحلم على معارف وذكريات لا يعلم المستيقظ امتلاكه إياها ظاهرة مألوفة إلى مدى كبير. وإنه ليتاح لي في خلال عملي التحليلي النفسي مع العصابيين . وهو ما سوف أجيء إلى الحديث عنه فيما بعد . يتاح لي أكثر من مرة في كل أسبوع أن أقيم لمرضاي الدليل من أحلامهم على أنهم يعرفون في الحقيقة نصوصاً مختارة وعبارات فاحشة... إلخ. أجود المعرفة وأنهم يستخدمون معرفتهم هذه في أحلامهم وإن نسوها في يقظتهم. وسأقص هنا مثالاً آخر بريئاً على شدة ذاكرة الحلم؛ لأن تأثر مصدر المعرفة التي لم يدن بلوغها إلا للحلم كان في هذا المثال من السهولة بمكان.

رأى أحد مرضاي في خلال حلم طويل بعض الطول أنه يطلب كأساً من «الكونتوشو؟كا» في أحد المقاهي. ثم بعد أن خبَرني بذلك سألني ما هذا الشراب؛ فهو لم يسمع به قط من قبل. ولم يعجزني أن أجيبه أن ذلك شراب بولندي من المستحيل أن يكون قد اخترع اسمه في أثناء الحلم اختراعاً؛ فقد كان ذلك الاسم مألوفاً لي منذ وقت طويل من طريق الإعلانات. وأبى المريض أن يصدقني في أول الأمر، ولكنه بعد ذلك بأيام قلائل، بعد أن أجاز لحلمه أن يصبح حقيقة واقعة، لاحظ هذا الاسم على لافتة تقع عند ناصية طريق كان يمر به مرتين على الأقل في كل يوم طوال بضعة شهور.

ولقد عرفت من أحلامي نفسي كيف يظل الكشف عن مصادر العناصر المتفرقة للحلم مرهوناً بالصدفة. مثال ذلك أنني ظللت سنوات قبل تحرير هذا الكتاب تلاحقني صورة برج من أبراج الكنائس متواضع الهيئة في الغاية، دون أن أستطيع أن أذكر أنّي رأيته. ثم عرفته بعد ذلك فجأة أيقن المعرفة عند محطة صغيرة على الخط الحديدي الممتد بين سالزبورج ورايخنهال. وكان ذلك في النصف الثاني من العقد الأخير من القرن، وكان أول عهدي بهذا الطريق في عام 1886. وحدث في سنوات تالية . وكان اشتغالي بدراسة الأحلام قد بلغ أشده . أن أخذت صورة تمثل مكاناً غريب الهيئة تلح عليّ في الحلم إلحاحاً مرهقاً: كنت أرى في اتجاهٍ معيّن بالنسبة إليّ، على يساري، فضاءً معتماً برزت فيه أشكال حجرية شائهة. وكان هناك شعاع من ذكرى يحدثني . دون ميل مني إلى تصديقه . بأن ذلك مدخل كهف تحفظ فيه الجعة، ولكنني ظللت عاجزاً عن أن ألقي الضوء على معنى هذه الصورة أو مأتاها. ثم اتفق عام 1907[50] أني جئت إلى پادوا التي عجزت آسفاً عن أن أعود إلى زيارتها منذ 1895؛ فما روت زياراتي ا لهذه المدينة الجامعية الجميلة غلَّتي، فقد فاتني أن أرى رسوم جيوتو الحائطية في كنيسة «مادونا دْل آرينا» ونكصت على عقبي وأنا في منتصف الطريق إليها إذ قيل لي إن الكنيسة مغلقة في ذلك اليوم. ففي زيارتي الثانية لها، بعد أن انصرم اثنا عشر عاماً، كنت عازماً على إدراك ما فاتني، فكان التوجّه إلى المادونا دْل آرينا أول ما صنعت. وإني لفي طريقي إليها إذا أنا أكتشف على يساري، عند البقعة التي أرجّح أني استدرت فيها على عقبي، هذا المكان الذي طالما رأيته في الحلم بأشكاله الحجرية: لقد كان في الحقيقة مدخل مطعم في الهواء الطلق.

ومن المصادر التي يستمد منها الحلم مادة يعيدها . وهي مادة يظل بعضها عاطلاً في أثناء النشاط الفكري المستيقظ، فلا يتذكر ولا يستخدم . حياة الطفولة. ولن أستشهد إلا بقليل من المؤلفين الذين لحظوا ذلك وألحوا فيه.

يقول هيلد برانت (1825، 23): «سبق أن قلنا صراحة: إن الحلم يستحضر أحياناً إلى النفس . بقدرةٍ عجيبة على الإعادة . حوادث من سنواتنا الأولى بعدت صلتنا بها كل البعد إن لم يكن عفى عليها النسيان».

ويقول شترومپل (1877، 40): «وتزيد المسألة بعد ذلك ظهوراً إذا لاحظنا كيف يُبعث الحلم . إن جاز التعبير . من تحت أعمق الردوم

وأشدها كثافة، تلك التي هالها لاحق الزمن على أوائل خبراتنا في الطفولة، صوراً متفرقة لمحالٍ وأشياء وأناس ظلت سليمة لم تمس، مبقية على نضارتها الأولى. ولا يقتصر ذلك على انطباعات اجتذبت حين وقوعها شعوراً بالغ الشدة أو اصطحبت بأهمية نفسية عالية، تعود الآن في الحلم في صورة ذكريات صادقة قد يسر لها الشعور المستيقظ. بل الأصدق هو أن ذاكرة الحلم تشتمل أغوارها كذلك على صور لأشخاص وأشياء ومحال وأحداث ترجع إلى الزمن الأول، إما أنها لم تنل من الشعور إلا حظّاً ضئيلاً أو لم تنل من الأهمية حظاً ما أو فقدت كليهما منذ زمن طويل، حتى لتبدو في الحلم ولعين المستيقظ على السواء غريبة كل الغرابة، مجهولة كل الجهل، إلى أن يكشف عن أصلها المبكر».

ويقول فولكلت (1875، 119): «ومن الأمور الملحوظة بنوعٍ خاص كيف تتسرب ذكريات الطفولة والصبى إلى الحلم؛ فالحلم لا يفتأ يذكرنا بأشياء كففنا منذ زمن طويل عن التفكير فيها أو كفَّت منذ زمن طويلٍ عن أن تكون لها أهمية في نفوسنا».

ولقد أدَّت سيطرة الحلم على مادة طفلية يفلت جزؤها الأعظم ـ كما نعلم ـ من شباك ذاكرتنا الشعورية إلى نشوء أحلام ذكيرة حرية بالاهتمام، أذكر مرة أخرى قليلاً من أمثلتها.

يروي موري (1878، 92) أنه اعتاد وهو طفل أن يذهب في أحيانٍ كثيرة من مسقط رأسه «مو» إلى بلدة «تريبور» المجاورة، حيث كان والده يشرف على بناء جسرٍ. وفي ذات ليلة حمله الحلم إلى «تريبور» ورأى موري نفسه يلعب في شارع القرية من جديد. ثم اقترب منه رجل يرتدي نوعاً من الحلل الرسمية، فسأله موري اسمه، فأجاب الرجل قائلاً: إنه يدعى س. وإنه حارس الجسر. واستيقظ موري يساوره الشك في صدق هذه الذكرى، فسأل خادماً عجوزاً عرفته طفلاً: هل تذكر رجلاً بهذا الاسم؟ فكان جوابها: «نعم، إنه كان حارس الجسر الذي بناه والدك».

ويضرب موري مثالاً آخر على يقين الذكرى الطفلية المنبعثة في الحلم، لقي من حسن التأييد ما لقيه سابقه. والحالم في هذا المثال رجل يدعى ف. وُلِدَ ونشأ في «مونبريزون»، ثم بعد هجرة دامت خمسة وعشرين عاماً عقد العزم على أن يزور الوطن وأصدقاء أسرته القدامى الذين لم يرهم منذ ذلك الحين. وفي ليلة الرحيل رأى الرجل في الحلم أنه قد بلغ مقصده وأنه التقى على مقربة من «مونبريزون» برجلٍ لم يعرفه من مرآه، ولكن الرجل أخبره أنه السيد ت. وأنه صديق من أصدقاء والده. وكان الحالم يعلم أنه قد عرف في طفولته سيداً بهذا الاسم ولكنه لم يعد يذكر شكله في يقظته. ثم بعد ذلك بأيام قلائل بلغ الرجل وطنه حقيقة، فعرف المكان الذي ظن في الحلم أنه يجهله، وفيه التقى بسيّد عرف فيه على الفور السيد ت. ـ إلّا أن الشخص الحقيقي كان يزيد في السن كثيراً عمّا تراءى عليه في صورة الحلم.

وأستطيع في هذا الصدد أن أذكر حلماً من أحلامي حلّت فيه علاقة محل الانطباع المراد تذكره: فقد رأيت في الحلم شخصاً عرفت في أثناء الحلم نفسه أنه طبيب البلد الذي ولدت فيه، ولم تكن ملامحه في الحلم جلية، بل اختلطت بملامح معلم لي بالمدرسة الثانوية ما زلت ألتقي به حتى اليوم. فلما استيقظت لم أستطع أن أجد رابطاً ما بين هذين الشخصين ولكني حين سألت والدتي عن الطبيب الذي كان يعالجني في هاته السنين الأولى من طفولتي علمت أنه كان أعور ـ وكذلك كان المدرس الذي حجب شخصه في الحلم شخص الطبيب. وكان ذلك بعد أن انقضى ثمانية وثلاثون عاماً منذ رأيت الطبيب للمرة الأخيرة، ولم أكن ـ فيما أعلم ـ قد فكرت فيه على الإطلاق، مع أنّ بذقني أثراً من جرح كان كفيلاً أن يذكرني بما لقيت من عنايته[51].

وكأنما أراد بعض المؤلفين أن يخففوا هذا الغلو فيما يعزى إلى خبرات الطفولة من شأن في الحياة الحالمة؛ فهم يؤكدون أن في الأحلام عناصر ترجع إلى ما يسبق الحلم بأيام قريبة معدودة. ويذهب روبرت (1886، 46) إلى حد القول بأن الأحلام السوية لا تشغل إلا بانطباعات الأيام القليلة الأخيرة. ومن الحق أننا سوف نرى كيف شيّد روبرت نظرية في الحلم تستلزم إبراز الانطباعات الحديثة إلى مكان الصدارة وإخفاء القديمة استلزاماً آمراً، ومع هذا فالظاهرة التي تحدّث عنها روبرت ظاهرة صحيحة ـ كما يسعني توكيده استناداً إلى مباحثي. وفي رأي مؤلف أميركي، هو نلسون، أن الانطباعات التي تستخدم في الحلم ترجع في معظم الحالات إلى اليوم السابق على اليوم الذي يجيء الحلم في أعقابه أو إلى السابق على هذا السابق، وكأنّ انطباعات اليوم الذي يسبق الحلم مباشرة لا تبلغ من الوهن أو من البعد مبلغاً كافياً.

ولقد دهش مؤلفون متعددون، ممن يهمهم ألا يضعوا الصلة العميقة بين الحلم وحياة اليقظة موضع الشك، لما رأوه من أن الانطباعات التي تستحوذ على أفكارنا المستيقظة استحواذاً شديداً لا تعرض في الحلم إلا بعد أن ينحيها التفكير النهاري جانباً بعض التنحية: مثال ذلك أننا لا نحلم بعزيز فقدناه والحزن لا يزال يملكنا (دولاج). غير أن باحثة من أحدث من لاحظوا هذا الموضوع، هي الآنسة هالام، قد جمعت الشواهد على العكس، مؤكدة بذلك حق كل منا في أن تكون له فرديته السيكولوجية في هذا المجال.

وأما الخاصة الثالثة بين خصائص الذاكرة في الحلم ـ وهي أعجب الخصائص وأشدها استغلاقاً على الفهم ـ فتتجلى في اختيار المادة المستذكرة؛ فما يُعَدّ جديراً بالتذكر هنا ليس أخطر الأمور دون غيره، كما هو الحال في حياة اليقظة، بل أتفهها كذلك وأقلها ظهوراً. وهنا أترك الكلمة لأولئك الكتّاب الذين أعربوا عن عجبهم أقوى الإعراب.

يقول هيلد برانت (1875، 11): «والعجيب هو أن الحلم لا يستمد عناصره في العادة من أحداث النهار الجليلة المثيرة ولا من مشاغله

القوية القاهرة، بل من تفاصيل عارضة أو . إن جاز التعبير . من قصاصات معدومة القيمة تخلّفت من الخبرات الحديثة أو من الماضي السحيق. فقد يحرك مصاب عائلي حزناً عميقاً في نفوسنا ويطرد عنا الكرى جزءاً طويلاً من الليل ثم ننام ونحن في أسره فإذا هو يُمحى من ذاكرتنا حتى يعود إلينا في عنف يشيع الاضطراب في نفوسنا مع أول لحظات اليقظة. هذا بينما يتسع الحلم لزائدة في جبهة شخص غريب صادفناه اتفاقاً وما فكّرنا قط في أمره بعد أن مررنا به».

ويقول شترومپل (1877، 39): «هناك حالات نكتشف فيها بتحليل الحلم أن بعض عناصره مستمد حقيقة من خبرات اليوم السابق على الحلم أو اليوم الذي قبله، ولكنها كانت خبرات خالية من كل قيمة أو وزن حتى أنها آلت إلى النسيان على أثر وقوعها. ومن قبيل هذه الخبرات عبارات يسمعها المرء عفواً من الآخرين أو أفعال يلحظها منهم بدون قصد أو لمحات خاطفة من الناس أو الأشياء أو نبذ متفرقة مما قرأ، إلخ».

ويقول ها؟لوك إليس (1899، 727): «إن الانفعالات العميقة التي نعرفها في حياة اليقظة والمسائل والمشكلات التي نصرف فيها الجزء الرئيس من طاقتنا العقلية الإرادية ليست في العادة هي التي تمثل لشعور الحالم على الفور. بل الذي يظهر في أحلامنا غالباً . بقدر ما يتعلق الأمر بالماضي القريب . هو انطباعات حياة النهار التافهة العارضة «المنسية». فهذه الأوجه من نشاطنا النفسي التي كانت أشد ما يكون استيقاظاً هي التي تنام أعمق النوم»[52].

وأما بينتس (1878، 44 . 45) فيرى في هذه الخاصة على التحديد من خصائص الذاكرة في الحلم مدعاة إلى الإعراب صراحةً عن قلة رضائه بتعليلات الحلم التي أيّدها هو نفسه من قبل، فيقول: «والحلم الطبيعي يثير أمثلة مماثلة: لماذا لا نحلم دائماً بالانطباعات الذكروية المتخلفة من اليوم الذي يسبق الحلم مباشرة بل نغوص في كثير من الأحيان دون ما سبب ظاهر في ماضٍ سحيق كاد ينطفىء؟ لماذا ينطبع الشعور في الحلم على هذا النحو الشائع بالصور الذكروية المجردة من الشأن بينما تظل خلايا المخ في المناطق التي تحمل أشد آثار الخبرة حساسية خرساء خامدة في معظمها، إلا أن يكون قد حرّكها محرك إلى نشاط مستجد قبيل الحلم في خلال حياة اليقظة؟».

ومن السهل أن نرى كيف كان من المحتم أن يؤدي هذا الإيثار العجيب الذي تبديه ذاكرة الحلم تجاه ما هو تافه في خبرتنا اليومية وكان يمر . من ثم . غير ملحوظ إلى إغفال توقف الحلم على حياة اليقظة عامة وعلى الأقل إلى جعل إثبات هذا التوقف أمراً عسيراً في أية حالة جزئية. فهكذا تجد الآنسة هوايتون كاليكنز في دراستها الإحصائية لأحلامها وأحلام معاونيها جزءاً قدره أحد عشر في المائة من مجموع الحالات لا تظهر فيه رابطة ما بحياة اليقظة. ولا جدال في أن هيلد برانت كان محقاً حين أكّد أن في مقدورنا أن نبيّن منشأ كل صورة من صور الحلم لو أنّا خصصنا لاستقصاء مصدرها وقتاً وجهداً كافيين. وهو يدعو مثل هذا العمل «مهمة مفرطة المشقة والجحود؛ فهي لن تنتهي بنا في معظم الأحيان إلّا إلى التنقيب في زوايا الذاكرة السحيقة عن كل صنوف الحديث النفسي المجرد من القيمة وإلى جذب كل صنوف اللحظات الماضية التي لم نعد نكترث لها أقل اكتراث من نسيان لعلها قد قُبرت فيه إثر وقوعها». ولست أجد إلا أن أعرب عن أسفي لأن هذا المؤلف الحديد البصر قد ترك نفسه يحيد عن طريق لاحت له لا تبشّر بخير كثير في مبدئها، ولو اتبعها لقادته قدماً إلى صميم تعليل الحلم.

ولا شك في أن للطريقة التي تسلك عليها الذاكرة في الأحلام أهمية قصوى بالنسبة إلى كل نظرية عن الذاكرة عموماً؛ فهذه الطريقة تعلمنا أن «ما نمتلكه مرة امتلاكاً ذهنياً لا يضيع كله أبداً» (شولتس، 1893، 59)، أو كما قال دلبوف: «كل انطباع مهما كان قليل الشأن يترك أثراً لا يحول، قابلاً من غير نهاية لأن يعود إلى الظهور»[53]. وهي نتيجة يدفعنا إليها كذلك عدد وفير من الظواهر المرضية للحياة النفسية. فلا ننسى بعد ذلك هذه القدرة الخارقة التي تبديها الذاكرة في الحلم؛ لكي نزيد شعوراً بالتناقض الذي تضمه نظريات . سوف يجيء أوان ذكرها . تحاول أن تعلل فساد الأحلام وانعدام ترابطها بالنسيان الجزئي لما نعلمه في خلال النهار.

ولقد يدور بخلدنا أن ظاهرة الحلم يمكن أن ترد في جملتها إلى ظاهرة التذكر، فلا يكون الحلم سوى مظهر ينمّ عن نشاط استحضاري يعمل حتى في خلال الليل، غير مستهدف غاية تخرج عن ذاته. ولقد يتفق ذلك وما يرويه البعض مثل پيلتس من وجود علاقة ثابتة تمكن البرهنة عليها بين وقت وقوع الحلم ومحتواه: فيستحضر الحلم أقدم الانطباعات في أثناء النوم العميق بينما يستحضر أحدثها قرب الصباح. ولكن طريقة الحلم في معالجة المادة المراد تذكرها تبطل مقدماً مثل هذه المزاعم. فشترومپل محق حين يقول: إن الأحلام لا تكرر خبراتنا. نعم، إن الحلم قد يخطو خطوة في هذا الاتجاه، لكن الخطوة الثانية لا تجيء، أو تجيء في صورة محورة، أو يحل محلها شيء مغاير كل المغايرة. فاستحضار الحلم استحضار مجتزىء، وهذه على التأكيد قاعدة لها من سعة الاطراد ما يسمح بترتيب النتائج النظرية عليها. بيد أن للقاعدة شواذ يكرر فيها الحلم خبرة ما في استيفاء لا يقل عما تستطيعه ذاكرتنا المستيقظة. فدلبوف يحكي عن أحد زملائه كيف استعاد في أحد أحلامه حادثة عربة كان قد سلم منها بما يشبه الأعجوبة فلم يترك شيئاً من تفاصيلها. وتذكر الآنسة كاليكنز حلمين لم يخرج محتوى كل منهما عن أن يكون تكراراً يعيد حدثاً من اليوم السابق بحذافيره. وسيتاح لي أيضاً أن أذكر مثالاً صادفته على خبرة من الطفولة عاودت الظهور في الحلم من غير تحريف[54] [ص 210 وأيضاً 218].

ج
منبّهات الحلم ومصادره

يقول مثل عامّي: «تأتي الأحلام من المعدة»، وهذا المثل يعين على فهم المراد بقولنا: منبهات الحلم ومصادره. فمن وراء هذين التصورين تكمن نظرية فحواها أن الحلم ينتج عن إزعاج يصيب النوم؛ فما كنّا لنحلم لولا مزعج طرأ في أثناء النوم، والحلم استجابة بإزاء هذا المزعج.

إن المناقشة في أمر العلل المثيرة للحلم تشغل محلاً كبيراً من كتابات المؤلفين. ومن الجلي أن قيام هذه المشكلة لم يكن ممكناً إلا بعد أن أصبح الحلم موضوع بحث بيولوجي؛ فما كان القدماء . وهم الذين اعتقدوا أن الأحلام توحيها الآلهة . بحاجة إلى التماس منبهات للأحلام، فالحلم يصدر عن إرادة قوى إل~هية أو جنية، ومحتواه منشؤه علم هذه الإرادة أو غايتها. وأما العلم فلم يلبث أن واجه هذا السؤال: هل المنبّه إلى الحلم واحد أم كثير الأنواع؟ ومن هنا كان النظر فيما إذا كان بيان علة الحلم يدخل في مجال علم النفس أو يدخل بالأحرى في علم وظائف الأعضاء. والذي يبدو هو أن معظم الثقات قد اتفقوا على أن العلل المزعجة للنوم، أي مصادر فعل الحلم، قد تتعدد أنواعها، وأن المنبهات الحسية والتهييجات الجسمية قد تعمل على السواء عمل الحوافز إلى الحلم، ولكن الاختلاف بين الآراء يتسع فيما يتصل بالإيثار الذي يبدونه لهذا المصدر من مصادر الحلم أو ذاك، وفي درجة الأهمية التي يضيفونها إليها من حيث هي عوامل في تكوين الحلم.

فإذا حصرنا منابع الحلم انقسمت أربع طبقات، وهذه الطبقات قد استخدمت أيضاً في تصنيف الأحلام أنفسها: (1) منبهات حسيّة خارجية (موضوعية) ، (2) منبهات حسيّة داخلية (ذاتية) ، (3) منبهات جسمية باطنية عضوية ، (4) مصادر نفسية خالصة للتنبيه.

1 - المنبهات الحسيّة الخارجية

لقد نشر شتروميل الصغير . وهو ابن الفيلسوف الذي اهتدينا في مشكلات الحلم بهدى مؤلفه عن الأحلام مراراً كثيرة من قبل . وصفاً رائعاً لمريض أصيب بفقدان عام للحساسية على سطح جسمه وشلل عدة من أعضائه الحسية الأعلى مرتبة: كان هذا الرجل يستسلم للنعاس إذا ما أغلقت الأبواب القليلة التي بقيت تطل عنده على العالم الخارجي. وإن من عادتنا أنفسنا حين ننشد النوم أن نعمل على توفير وضع يشبه المتحقق في وصف شتروميل: فنحن نغلق أهم أبواب الحس . وأعني العينين . ونحاول أن ننأى بسائر حواسنا عن كل منبه أو كل تغيير في المنبهات الواقعة عليها. وعندئذ نذوق النوم، وإن كنا لا نفلح أبداً في محاولتنا كل الفلاح؛ فما نستطيع أن نبعد عن حواسنا كل منبه إبعاداً تاماً، ولا أن نعلق قابليتها للتهييج كل التعليق. وكوننا قد نستيقظ في كل وقت إذا بلغ منبه حداً كافياً من الشدة دليل على «أن النفس تمكث حتى في أثناء النوم على صلة لا تنقطع بالعالم الخارجي»[55]. وليس ما يمنع من أن تصير المنبهات التي تبلغنا على هذا النحو في خلال النوم مصادر للأحلام.

ومن أمثال هذه المنبهات عدد وفير يتفاوت بين تلك المحتومة التي تتضمنها حالة النوم ذاتها أو لا تجد منتدحاً عن السماح بها من حين إلى حين، وتلك العارضة الموقظة التي يكون من شأنها أن تنهي نومنا ولقد تنهيه فعلاً. فقد ينفذ ضوء ساطع إلى أعيننا، أو تبلغ ضوضاء سمعنا، أو تهيّج مادة رائحةٌ غشاء الأنف المخاطي. وقد نتحرك في أثناء النوم حركة غير إرادية فنكشف عن جزء من الجسم ونعرضه لأحاسيس البرد، أو نغيّر وضعنا فيكون ذلك سبباً في أحاسيس بالضغط والملامسة. وقد تلذعنا بعوضة أو يطبق طارىء صغير من طوارىء الليل على عدة من الحواس معاً. ولقد جمع انتباه الملاحظين عدداً كاملاً من أحلام بلغ فيها التوافق بين المنبه الذي يتبينه المرء إذ يستيقظ عليه وبعض محتوى الحلم مدىً بعيداً جداً حتى أنه أمكن أن نعرف في هذا المنبه مصدر هذا الحلم.

وأنقل عن يسّن (1855، 527) مجموعة من أمثال هذه الأحلام التي يمكن تأثرها إلى تنبيه حسي موضوعي . عارض إلى حد يزيد أو ينقص .: «يثير كل صوت يدرك إدراكاً غير متميّز صوراً حلمية توافقه: فينقلنا هدير الرعد إلى حومة الوغى، ويستحيل صياح الديك إلى صرخة رجل ولِيَهُ الرعب، ويستجلب صرير الباب لصوصاً غزاة».

«فإن انزاح عنا الغطاء في أثناء الليل فقد نرى أننا نتجوّل عرايا أو نقع في الماء، وإن استلقينا على السرير بعرضه وتجاوزت قدمانا حده حلمنا بالوقوف على شفا جرف مروع أو بالسقوط من مرتفع شديد الانحدار. وإن اتفق أن اندفن رأسنا تحت الوسادة حلمنا بصخرةٍ ضخمة معلقة من فوقنا، توشك أن تقبرنا تحت ثقلها. وتراكم المني تنتج عنه أحلام معسولة بينما تؤدي الآلام الموضعية إلى تخيّل معاملة مغلظة أو هجوم عدائي أو

أذى يلحق الجسم...»

«وحَلُم ماير (1758، 33) ذات مرة بنفر من الرجال هجموا عليه وطرحوه أرضاً ثم جعلوا يدقون وتداً في الأرض بين إصبع قدمه الكبير والإصبع الذي يليه. وبينما كان يتخيّل ذلك في الحلم، استيقظ فرأى قشة لصقت بين إصبعيه هذين. ويحكي هنّنجر (1784، 258) عن ماير أيضاً أنه قد حلم في مرة أخرى بالشنق إذ كان قميصه مشدوداً إلى عنقه شداً أحكم وثاقه بعض الشيء. وحلم هوفباور وهو شاب بأنه يسقط من فوق جدارٍ عالٍ، فلما استيقظ رأى أن قائمة السرير قد تهاوت وأنه وقع على الأرض حقيقةً... ويروي جريجوري أنه نام مرة وزجاجة من الماء الساخن على قدميه، فرأى في الحلم أنه يصعد قمة جبل إتنا حيث كانت حرارة التربة لا تطاق. وحلم رجل آخر، نام بعد أن وضع كمادة ساخنة على رأسه، بجماعة من الهنود الحمر ينزعون شواته، في حين هُيىء إلى ثالث، نام في جلباب مبلول، أن تيار ماء يجرفه. وكانت نوبة من نوبات النقرس طرأت فجأة في خلال النوم سبباً قذف في روع مريض أنه ماثل بين يدي محكمة التفتيش ممدداً على خشب التعذيب (ماكنيش)».

ومن شأن الحجة المستندة إلى التماثل بين المنبه ومحتوى الحلم أن تزيد قوةً إذا أمكن أن ندخل منبهاً حسياً ما على النائم إدخالاً متعمداً فنثير عنده حلماً يتفق وهذا المنبه. ولقد سبق جيرو دي بوزارانج، على ما يرويه ماكنيش، إلى أمثال هذه التجارب: «ترك ركبته عارية، فحلم أنه يسافر ليلاً في إحدى عربات البريد. وهو يلاحظ بهذه المناسبة أن المسافرين بهذه العربات يعلمون من غير شك كم تبرد ركبهم في أثناء الليل. وفي مرة أخرى ترك مؤخر رأسه عارياً فحلم بأنه يشارك في أداء أحد الطقوس الدينية في الهواء الطلق . وكان من عادات البلد الذي عاش فيه أن يُغطّى الرأس دائماً إلا في مثل هذه المناسبة».

وحديثاً أورد موري بضع ملاحظات عن أحلام عمد إلى إثارتها في نفسه (وإن لم تؤدِّ بضع تجارب أخرى له إلى نتيجة ما).

1 . هُيِّجت شفتاه وأرنبة أنفه بريشة؛ فحلم بلون مروّع من ألوان التعذيب: قناع من القطران يلصق على وجهه ثم يُنْزَع عنه فينسلخ معه الجلد

2 . حُكّ مقص على ملقاط؛ فسمع قرع أجراس، ثم دقات ناقوس الخطر، ثم إذا هو يعود إلى أيام [ثورة] يونيه من عام 1848.

3 . أدنى ماء الكولونيا من شمه؛ فرأى نفسه في القاهرة في محل جان ماريا فارينا، ثم تبعت ذلك مغامرات مجنونة لم يستطع ذكرها.

4 . قرص عنقه قرصاً خفيفاً؛ فحلم بدهان من الخردل يوضع عليه، وفكّر في طبيب كان يعالجه في طفولته.

5 . قرب حديد موقد من وجهه؛ فحلم بجماعة من «الموقدين»[56] اقتحموا المنزل وأرغموا أصحابه على تسليم نقودهم بزج أقدامهم في السعير وعندئذ دخلت دوقة آبرانتس التي كان يعتقد في الحلم أنه كاتب سرّها.

8 . أُسقطت قطرة من الماء على جبهته؛ فأخذ يتصبب عرقاً في إيطاليا ويشرب من نبيذ أور؟يتو الأبيض.

9 . أُسقط نور شمعة على وجهه من خلال ورقة حمراء؛ فحلم بسماء مكفهرة وسُعار وبعاصفة بحرية كان قد شهدها في قناة المانش.

وروى درفاي و؟يجانت وغيرهما محاولات أخرى في إحداث الحلم بالتجريب.

ولقد عقّب كثير من الكتاب على «قدرة الحلم العجيبة على أن يدخل في نسيجه انطباعاً مفاجئاً آتياً من العالم الخارجي بحيث يظهر هذا الانطباع في الحلم في صورة كارثة سبق التمهيد لها وسوقها بالتدريج» (هيلد برانت). ويمضي هذا المؤلف فيقول: «كنت أستخدم في سنيّ الشباب منبهاً لكي أستيقظ في ساعة معينة من كل صباح. ولقد حدث مئات من المرات أن أُدرج الصوت المنبعث عن هذه الآلة في حلم يبدو بالغ الطول مترابط الأجزاء إدراجاً محكماً، حتى ليهيأ إلينا أن الحلم كله إنما كان يمهد لهذا الصوت خاصة، وأنه قد وجد فيه حده المنطقي اللازم أو خاتمته الطبيعية المرسومة».

هذا ولن ألبث طويلاً دون أن أذكر في مناسبة أخرى ثلاثة من أحلام رنين المنبه هذه.

ويقول فولكلت (1875، 108): «حلم مؤلف موسيقي بأنه في حجرة الدراسة يحاول توضيح مسألة من المسائل لتلامذته. فلما فرغ استدار إلى أحد الصبية يسأله: هل فهمتني؟ فصرخ الصبي كمن به مس: أُه يا! [أي نعم]، فطفق الحالم يعنف الولد على هذا الصراخ المزعج، ولكن الفصل جميعه انطلق في صرخات كانت في أول الأمر: أر يا! ، ثم صارت أوير يو! ، ثم فوير يو! »[57]. وهنا أيقظت النائم صرخات استغاثة من النار كانت تنبعث من الطريق حقيقة».

وينقل رادشتوك عن جارنييه (1865) أن انفجاراً أيقظ نابليون الأول وهو نائم في إحدى العربات من حلمٍ رأى فيه أنه يعبر [نهر] التاليامنتو تحت ضرب المدافع النمسوية إلى أن هبَّ مذعوراً وهو يصيح: «لقد بُثت الألغام تحتنا».

ولموري (1878، 161) حلم اشتهر أمره: ذلك أنه كان مريضاً يلزم الفراش في غرفته وإلى جواره أمه، فرأى فيما يرى النائم أن الوقت وقت

حكم الإرهاب في عهد الثورة [الفرنسية]، وجعل يشهد بعض مناظر الموت المروعة، ثم دُعي إلى المثول أمام المحكمة، وهناك رأى روبسپيير ومارا وفوكييه ـ تان؟يل وسائر الأبطال المفجعين لهذا العهد الرهيب. وسأله هؤلاء الحساب، ثم بعد عدة من التفاصيل لم يعد يذكرها أُدين وسيق إلى ساحة الإعدام يحيط به جمهور لا حصر له. وصعد موري على المنصة وشدّه الجلّاد إلى العارضة وانقلبت هذه وهوى نصل المقصلة وحسَّ موري برأسه يفصل من جذعه فاستيقظ في هيئة بلغت آخر الفظاعة ـ فإذا هو يتبين أن رأس السرير قد سقط فأصاب عموده الفقري عند العنق مثلما يفعل نصل المقصلة حقيقةً.

ولقد كان هذا الحلم مثار مناقشة ممتعة بين لولوران وايجّر، دارت رحاها في «المجلة الفلسفية»[58]، وكان موضوع المناقشة هو: هل أمكن الحالم أن يحشر مادة بلغت هذا المبلغ من الثراء الفائق ـ على حسب الظاهر ـ في البرهة الوجيزة المنقضية بين إدراك المنبه الموقظ واليقظة نفسها؟ وكيف كان ذلك؟

ومن شأن الأمثلة التي من هذا القبيل أن تجعل المنبهات الحسية الموضوعية الطارئة في خلال النوم تظهر بمظهر أشد مصادر الحلم ثبوتاً، وهي أيضاً ـ أعني هذه المنبهات ـ تلك التي يعرف لها غير المختصين شأناً ما. فلو قد سألت رجلاً من عامة المثقفين لا ألفة له بما كتب عن الأحلام: كيف تنشأ هذه؟ لكان من المحقق أن يجيبك بإشارة إلى مثال صادفه عُلّل فيه الحلم بمنبه حسي موضوعي تبينه الحالم بعد استيقاظه. وأما البحث العلمي فلا يستطيع الوقوف عند هذا الحد، بل يرى ما يدعوه إلى إثارة أسئلة أخرى؛ لما يلاحظه من كون المنبه الذي يطبع حواسنا في خلال النوم لا يظهر في الحلم بصورته الحقيقية، بل تحل محله صورة أخرى مرتبطة به برباطٍ ما. ولكن هذا الرباط بين منبه الحلم والحلم الناجم عن هذا المنبه إنما هو ـ بتعبير موري (1853، 72) ـ: «مناسبة ما، ولكنها ليست بالفريدة المانعة»[59]. فلو أننا نظرنا في ثلاثة من أحلام رنين المنبه التي يرويها هيلد برانت، لم يكن بد من السؤال: لماذا أثار المنبه الواحد ثلاثة أحلام متغايرة؟ ولماذا أثار هذه دون غيرها؟

يقول هيلد برانت (1875، 37): «هأنذا في صبيحة يوم من أيام الربيع أتروَّض بين الحقول الآخذة في الاخضرار حتى أبلغ قرية مجاورة فأرى أهلها وقد برزوا في أحسن ثيابهم وتأبطوا كتب التراتيل متوجهين زرافات إلى الكنيسة. طبعاً! فاليوم يوم الأحد وصلاة الصباح الباكر تؤذن بالبدء. فأعقد العزم على حضورها، بيد أنني ـ وقد شعرت بالحر قليلاً من أثر المشي ـ أذهب أولاً إلى الفناء المحيط بالكنيسة ألتمس نفحة من البرد. وبينما أقرأ بعض شواهد القبور سمعت قارع الأجراس يصعد البرج، وها هو ذا جرس الكنيسة أراه في أعلى البرج يوشك على الدق إيذاناً ببدء العبادة. إنه يظل برهةً معلقاً حيث هو، بلا حراك. ثم فجأة، أخذت دقاته في الدويّ جلية نفّاذة. وكان من مبلغ جلائها ونفاذها أنها أطارت نومي ـ ولكن الرنين كان رنين المنبه في الساعة الموعودة.

وها هو ذا مثالٌ ثانٍ: اليوم يوم وضيء من أيام الشتاء، والشوارع يكسوها ثلج سميك. وكنت على موعد والبعض لنزهة في مزلقة. وكان عليّ أن أنتظر فترة طويلة قبل أن يعلن مجيء المزلقة بالباب. ويبدأ إعداد المزلقة لركوبها: سجادة الفراء تُبسط، ومدافىء الأقدام تعد، وفي النهاية أتخذ مكاني. ومع هذا ظلت لحظة الرحيل مرجأة، إلى أن هُزت اللجم تؤذن للخيول المترقبة بالانطلاق. وتنطلق هذه وتهز أجراس المزلقة هزّاً عنيفاً، مرسلة جلجلتها المألوفة الأشبه بموسيقى الانكشارية ـ مرسلة إياها في عنف كان من أثره أن تمزقت شبكة الحلم العنكبوتية في لمحة البصر تمزيقاً. ومن جديد لم يكن غير المنبه برنينه الحاد.

«ومثال ثالث: أرى خادماً تتقدم في البهو المؤدي إلى غرفة الطعام وهي تحمل عشرات من الأواني الخزفية رُصّ بعضها فوق بعض. وبدا لي أن عمود الخزف الذي تحمله بين ذراعيها في خطرٍ من أن يختل توازنه، فصحت محذراً: انتبهي وإلا سقط حملك كله! وتعقب هي بالطبع بالجواب المحتوم: إنها قد ألِفت مثل هذا العمل من قبل... إلخ. وفي أثناء ذلك أستمر على متابعة هذا التأرجح بعين قلقة. ولا يخيب ظني. فها هي ذي تعثر بعتبة الباب وتنزلق الأواني الهشة وتقعقع وتقرقع متناثرة على الأرض في مئاتٍ من القطع. ولكني لا ألبث أن أتبين أن هذا الدوي الذي لا ينتهي ليس قرقعة بل رنيناً حقيقياً ـ رنيناً أعلم منه وأنا أعود إلى نفسي المستيقظة أن المنبه يؤدي واجبه».

ويكاد السؤال عن السبب الذي من أجله تخطىء النفس في الحلم طبيعة المنبهات الحسية الموضوعية أن يلقى جواباً واحداً من شترومپل و؟ ونت جميعاً. وهذا الجواب هو أن استجابة النفس في الحلم تجاه ما يصل إليها من المنبهات في أثناء النوم تتم تحت شروط تعين على تكوين الأوهام. ذلك لأننا نعرف انطباعاً حسياً ما، نفسره تفسيراً صحيحاً ، أي ندرجه في طائفة الذكريات التي ينتمي إليها بحسب خبراتنا السابقة جميعها، إذا توافر لهذا الانطباع حظ كافٍ من القوة والجلاء والدوام، وإذا توافر لنا وقت يكفي عملية تعرفه. فإذا انتفى هذان الشرطان أخطأنا الموضوع الذي يصدر عنه الانطباع ووهمنا فيه. «فلو أن رجلاً خرج إلى الحقول فرأى عن بعد موضوعاً ما رؤية غير متميزة، فقد يظنه في مبدأ الأمر حصاناً». فإن قرب منه فقد يفسره ببقرة راقدة، ثم قد ترتد الصورة أخيراً على وجه التحديد إلى جماعة من الناس جلوس على الأرض. وهكذا الشأن في الانطباعات التي تتلقاها النفس أثناء النوم، فطبيعتها تخلو بالمثل من التحديد، وعلى أساسها تقيم النفس الأوهام، من حيث إن الانطباع يثير عدداً كبيراً أو صغيراً من الصور الذكروية التي من طريقها تحصل للانطباع قيمته النفسية. ولكن من أي طائفة من عديد طوائف الذكريات التي تدخل عندئذ في الاعتبار سوف تستثار الصور التي تنسب إلى الانطباعات؟ وأي روابط من روابط التداعي سوف تعمل عملها في ذلك؟ هذا أيضاً ما يظل

في نظرية شترومبل من غير تحديد، كأنه أمر متروك لأهواء النفس.

وهنا نواجه اختياراً بين أحد أمرين: فإما أن نسلّم تسليمنا بحقيقة واقعة بأن من المحال متابعة القوانين التي تحكم تكوين الأحلام إلى أبعد من هذا المدى، وعلى ذلك نمتنع عن البحث فيما إذا كانت هناك شروط أخرى تحتم التفسير الذي يخلعه الحالم على الوهم الذي استدعاه الانطباع الحسي، وإما أن نقدّر أن المنبه الحسي الذي يبلغ النائم إنما هو مصدر متواضع في توليد الحلم وأن هناك عوامل أخرى تحدد اختيار الصور الذكروية التي تثار فيه. والحقيقة هي أننا إذا فحصنا أحلام موري المحدثة بالتجريب . وهي أحلام أفضت في ذكرها من أجل هذا الغرض . رأينا ما يغرينا بالقول: إن التجربة لا تبيّن في الحقيقة سوى مصدر عنصر واحد من عناصر الحلم، وأما سائر محتواه فيبدو أكثر استقلالاً وأكثر تعيّناً في جزئياته من أن يعلله اقتضاء واحد كضرورة موافقته للعنصر المُدخل من الخارج بالتجريب. نعم إن المرء لا يلبث أن يتشكك في نظرية الوهم وفي قدرة الانطباعات الموضوعية على تشكيل الحلم حين يرى أن هذه الانطباعات تخضع أحياناً في الحلم لأغرب التفاسير وأبعدها. مثال ذلك ما يحدثنا به م. سيمون من حلم رأى فيه أشكال عمالقة جلسوا إلى مائدة وسمع لأفكّهم طقطقة رهيبة وهم يمضغون، فلما استيقظ سمع حوافر حصان يركض قريباً من نافذته. فإذا كان وقع حوافر الحصان قد أثار في هذه الحالة بالذات أفكاراً من نطاق الذكريات المحفوظة عن «رحلات جالي؟ر»، مثل الإقامة بين عمالقة «بروبدينجناج» والإقامة بين المخلوقات الفاضلة المصورة على صورة الجياد . هذا إذا جاز لي أن ألقي بتخمينٍ محضٍ دون سند من الحالم نفسه . أفلا يرجّح أن تكون هناك دوافع أخرى عدا المنبه الموضوعي هي التي سهّلت انتقاء طائفة من الذكريات هذا مدى بعدها عن المألوف[60])؟

2-التهييجات الحسية الداخلية (الذاتية)

من الواجب أن نسلّم بأن نصيب المنبهات الحسية الموضوعية في إثارة الحلم يظل غير منازع، مهما كان من أمر اعتراضاتنا. وإذا كانت مثل هذه المنبهات تبدو من حيث طبيعتها ومدى ترددها غير كافية في تعليل كل صور الحلم، فإنما يحثنا ذلك على أن نلتمس للحلم مصادر أخرى تعمل مثل عملها. ولست أدري متى انبعثت للمرة الأولى الفكرة الداعية إلى أن يحسب حساب التهييجات الداخلية (الذاتية) لأعضاء الحواس إلى جانب المنبهات الحسية الخارجية، ولكن الواقع هو أن جميع المؤلفات الحديثة في علّية الحلم تنص على ذلك نصّاً صريحاً ينقص في صراحته أو يزيد. فيقول ؟ونت (1874، 657): «وأعتقد أن جزءاً جوهرياً من أوهام الحلم يرجع كذلك إلى الإحساسات الذاتية البصرية والسمعية التي نألفها في حال يقظتنا في صورة نقاطٍ وضّاءة تسرح فوضاها في حقل البصر إذا أظلم، أو طنين أو صفير في الأذن، إلى آخر هذه الإحساسات التي تدخل ضمنها التهييجات الذاتية للشبكية بنوع خاص. وهذا هو ما يعلل ميل الحلم الملحوظ إلى أن يبهر أبصارنا بموضوعات زاخرة تماثل هذه الإحساسات أو لا تفترق منها، فينشر أمامنا عدداً لا حصر له من الطيور أو الفراشات أو الأسماك أو الخرز الملون أو الزهور... إلخ. فالغبار المضيء في حقل البصر المظلم قد اتخذ هنا أشكالاً ممعنة في الخيال، والحُبيبات المتكثرة التي يتكوّن منها هذا الغبار قد صار منها عدد يناظرها من متفرق الصور أدرج في جوف الحلم، وتلوح هذه الصور في هيئة موضوعات متحركة ؛ لحركة هذا الخليط كله. وهذا ولا شك هو أيضاً الأساس في ولع الحلم العظيم بصور الحيوان على أنواعها؛ لأن في هذه الصور من التنوع والثراء ما يستطيع أن يجاري من غير عناء الأشكال المغربة التي تتخذها الصور الضوئية الذاتية».

وللتهييجات الحسية الذاتية من حيث هي مصدر من مصادر صور الحلم مزية واضحة على المنبهات الموضوعية؛ فهي لا تتوقف على مثل هذه الصدف الخارجية، بل تقف طوع اليد . إن جاز التعبير . كلما دعت إلى ذلك حاجة التعليل. ولكنها لا تخرج غانمة من مقارنتها بالمنبهات الحسية الموضوعية، من حيث أن نصيبها في إثارة الحلم يصعب إثباته بالملاحظة والتجريب بل يتعذر، على عكس الحال في المنبهات الموضوعية. فالشاهد الوحيد الذي يؤيد قوة التهييجات الحسية الذاتية على إثارة الحلم يتلخص فيما يُعرف باسم هلاوس ما قبل النوم التي يصفها يوهانس موللر بقوله: إنها «ظواهر خيالية بصرية». وهذه الظواهر صور يغلب أن تكون شديدة الوضوح، سريعة التغيّر، تنزع إلى الظهور . ظهوراً مطرداً عند الكثير من الناس . في فترة الأخذ في النوم، وقد تدوم أيضاً برهة بعد فتح العينين. ولقد درس موري هذه الظواهر التي كانت تعرض له كثيراً، وانتهى إلى توكيد صلتها بصور الحلم بل وحدّتهما (مثلما صنع موللر من قبله). ويقول موري: إن إحداث هذه الظواهر يستلزم قدراً معيناً من الاستسلام النفسي، بعضاً من الإرخاء لجهد الانتباه (1878، 59 وما يليها). بيد أنه يكفي أنه تحل بالمرء حالة سبات من هذا القبيل لا تزيد مدتها على الثانية لكي تقع إليه هلوسة قبنومية (بشرط أن يكون عنده الاستعداد الضروري)، وقد يستيقظ المرء بعد ذلك مرة ثانية، ويتكرر هذا اللعب، إلى أن يضع له النوم حداً. ووجد موري أنه كان إذا عاد إلى الاستيقاظ بعد برهة ليست بالطويلة أمكنه أن يتبيّن في حلمه ذات الصور التي تأرجحت أمام ناظريه في صورة هلاوس قبنومية، قبل أن يأخذه النوم (ص 134 ذات المرجع). ففي ذات مرة أخذت أشكال ممسوخة شاهت وجوهها وتقلنست بقلنسوات غريبة الهيئة، أخذت تلح عليه قبل أن يغلبه النوم في لجاجة تفوق التصور، فلما استيقظ تذكر أنه قد حلم بها. وفي مرة أخرى . وكان يعاني ألم الجوع فقد أخذ نفسه بنظامٍ محدد في التغذية . لاحت له رؤيا قبنومية من طبق ويد مزودة بشوكة تتناول منه الطعام، فلما نام حلم بمائدة حافلة وسمع صوت

الآكلين بأشواكهم. وحدث بعد في مرة ثالثة أن شرع في النوم وعيناه مهتاجتان موجعتان فتراءت له هلوسة قبنومية عن علامات غاية في الدقة لم يستطع فكّها إلا واحدة فواحدة بمشقة بالغة، فلما استيقظ بعد ساعة من النوم تذكر حلماً رأى فيه كتاباً طُبِعَ بحروف صغيرة جداً كان يقرأها بمشقة بالغة.

ولقد تخطر قبيل النوم أيضاً هلاوس سمعية بألفاظ أو أسماء أو غيرها . على نحو ما تفعل الصور البصرية . ثم تتردد هذه الهلاوس بعد ذلك في حلم ما، مثلما تعلن فاتحة عن رؤوس الموضوعات النغمية المقدر سماعها في الأوبرا اللاحقة.

وعلى منهاج شترومپل وموري نهج باحث أحدث عهداً هو ج. ترمبال لاد. فقد أمكنه ببعض المرانة أن يفلح في إيقاظ نفسه فجأة دون أن يفتح عينيه بعد أن ينام نوماً تدريجياً، تتراوح مدته بين الدقيقتين والخمس دقائق، وبذا أمكنته المقارنة بين الأحاسيس الشبكية التي تكون آخذة في الامحاء آنئذٍ وصور الحلم المتبقية في الذاكرة. وهو يؤكد أننا نجد في كل حالة علاقة باطنية بين الطرفين: فنقاط الضوء الشبكي أو خيوطه تزودنا . إن جاز التعبير . برسم مجمل أو بياني للأشكال المدركة في الحلم إدراكاً نفسياً. مثال ذلك حلم رأى فيه نفسه منكبّاً على قراءة سطور مطبوعة انتشرت أمامه في وضوح، وكانت تقابل هذا الحلم في الشبكية مجموعة من النقاط المضيئة تنضّدت في خطوط متوازية، أو بتعبيره نفسه: لقد حالت الصفحة المطبوعة طبعاً جلياً في الحلم إلى موضوع لاح لإدراكه المستيقظ كأنه قصاصة من صفحة مطبوعة حقيقة، ينظر إليها المرء من خلال ثقب في ورقة، على مسافة لا تسمح له بأن يستخلص منها شيئاً ما استخلاصاً واضحاً. ويرى لاد . دون أن ينتقص شأن العوامل [المخية] المركزية . أنه لا يكاد يكون ثمة حلم بصري واحد لا تشارك فيه مادة مصدرها التهييج الداخلي لشبكة العين. ويصدق ذلك بنوعٍ خاص على الأحلام التي تعقب النوم في غرفة مظلمة، وأما مصدر التنبيه في الأحلام التي تقع في الصباح قبيل الاستيقاظ، فهو الضوء الموضوعي الذي ينفذ إلى العينين في غرفة أخذ يغمرها النور. وإن ما يتميز به تهييج الضوء الشبكي من طابع التغيّر والتقلب غير المنقطعين ليساير ما تطالعنا به الأحلام من التعاقب المستمر للصور أدق مسايرة. فإذا علّقنا على ملاحظات لاد هذه أهمية، لم نستطع الاستهانة بما لهذه المصادر الذاتية للتنبيه من أثر في الحلم؛ فالصور كما نعلم هي المقوّم الرئيس للأحلام. وأما نصيب الحواس الأخرى . فيما خلا السمع . فقليل الأهمية، غير موصول.

3 ـ المنبّهات الجسمية الداخلية العضوية

أما وقد أخذنا نلتمس مصادر الحلم في داخل الكائن العضوي وليس خارجه، فمن الواجب علينا أن نذكر أن جميع أعضائنا الباطنة على التقريب . وإن تكن لا تكاد توقفنا على شيء من أمرها وهي في حالة الصحة . تصبح مصدراً لإحساسات ذات نوع أليم في الأغلب إذا اتفق وجودها فيما نسمّيه حالات التهييج أو في خلال المرض؛ ولهذا وجبت مساواتها بالمنبهات الحسية أو الأليمة التي تصل إلينا من الخارج. ولا يعدو شترومپل أن يعرب عن خبرة قديمة قدم الزمن إذ يقول (1877، 107): «إن النفس تصير في أثناء النوم أعمق وأشمل إحساساً بجسميتها منها في يقظتها، وهي تضطر في خلاله إلى أن تستقبل ما لا حسَّ لها به في يقظتها من انطباعات تصدر عن أجزاء من الجسم أو عما يصيب الجسم من التغييرات، وتضطر إلى التأثر به»؛ فقد كان من رأي أرسطو على مبلغه من القدم أن من الممكن كل الإمكان أن يستشعر المرء في أحلامه مبادىء مرض لم يستطع أن يلحظ شيئاً منها في حياة اليقظة، وذلك لما يصيب الانطباعات من التجسيم على يد الحلم (أنظر ما سبق في ص 54). وهناك كتّاب أطباء لا شك في بعدهم عن الاعتقاد بقدرة الأحلام على التنبؤ، وهم مع هذا قد سلَّموا لها بهذه الدلالة فيما يتعلق بالإنباء بالمرض على الأقل. (أنظر سيمون، 1888، 31 وكثيراً من المؤلفين السابقين عليه.)[61].

ويبدو أن الأمثلة على قوة الأحلام التشخيصية لا تعدم مصدقين في الأزمنة الحديثة. فهكذا ينقل تيسييه عن أرتيج (1884) قصة امرأة في الثالثة والأربعين من عمرها ظلّت تعذبها أحلام هيلة[62] طوال بضع سنوات على رغم ما كان يبدو من اكتمال صحتها، ثم كان أن فحصها الأطباء فوجدوا بها مرضاً بادئاً من أمراض القلب لم يلبث أن أنفذ فيها فعله.

وأما الاضطرابات السافرة التي تصيب الأعضاء الباطنية، فواضح أنها تعمل على إثارة الحلم في عددٍ كبير من الحالات. فشيوع أحلام الهيلة وأمراض القلب والرئتين يعلمه الجميع. ولقد أبرز هذا الجانب من جوانب الحياة الحالمة مؤلفون متعددون، حتى أنني أقنع بمحض الإشارة إلى ما وضع في هذا الباب: رادشتوك، شپيتا، موري، م. سيمون، تيسييه، بل إن من رأي تيسييه أن نوع العضو المريض يضفي على محتوى الحلم سماته الخاصة: فأحلام من يعانون أمراض القلب وجيزة في العادة وتنتهي إلى نهاية مروعة في لحظة اليقظة ولا يكاد يكون بينها حلم إلا تضمّن محتواه بعض مواقف الموت الرهيب، وأما المصابون بأمراض الرئتين فيحلمون بالاختناق والزحام والفرار وهم يستهدفون إلى درجة ملحوظة للكابوس المألوف الذي أفلح بورنر في إثارته إثارة تجريبية: بالنوم مستلقياً على الوجه أو بسد الفتحات التنفسية. فإذا اضطرب الهضم تضمنت الأحلام أفكاراً تتعلق بالاستمتاع بالطعام أو الاشمئزاز منه، وأخيراً فأثر التهييج الجنسي في محتوى الحلم شيء يستطيع كل امرىءٍ أن يقدره حق قدره بالرجوع إلى خبرته، وهو الذي يزوّد نظرية المنبهات العضوية جميعها بأقوى سندها.

وفق هذا، ما من أحد تغلغل فيما كتب في هذا الموضوع إلا تبيّن أن بعض المؤلفين (مثل موري و؟يجانت) قد ذهبوا إلى الاشتغال بمشكلات الحلم للأثر الذي كان لأمراضهم أنفسهم في محتوى أحلامهم.

غير أن هذه الوقائع . وإن ثبتت من وراء كل شك . ليس لها الخطر الذي قد نظنه من حيث ما تضيفه إلى دراسة مصادر الحلم؛ فالأحلام ظواهر تقع للأصحاء . وربما كانت تقع لهم جميعاً وربما كان وقوعها في كل ليلة . فمن الواضح أن المرض العضوي لا يمكن أن يُعَد بين شروطها اللازمة. والذي يشغلنا ليس مصدر هذا الفريق من الأحلام أو ذاك، بل المصادر الباعثة على مألوف الأحلام عند السوي من الناس.

ومع هذا فما نحتاج إلّا إلى أن نخطو بعد ذلك خطوة لكي نجد مورداً من موارد الحلم يفوق كل ما سبق ثراءً، مورداً يبدو كأنه لن ينضب له معين. ذلك لأنه إذا كان من المؤكد أن باطن الجسم يصير حين المرض مصدر منبهات للأحلام وكنا نسلّم بأن النفس إذ تنصرف في أثناء النوم عن العالم الخارجي تتمكن من التحوّل بقسط أعظم من انتباهها إلى باطن الجسم، لم يصعب علينا أن نفترض بعد ذلك أن أعضاءنا الباطنية ليست بحاجة إلى أن تمرض أولاً لكي تتمكن ثانياً من حمل النفس النائمة على أن تتلقى منها التهييجات التي تنقلب إلى صور في الحلم على نحوٍ من الأنحاء. فالحساسية العامة بالجسم[63] التي ندركها في خلال اليقظة إدراكاً مبهماً في صورة كيفٍ غامض لمزاجنا وحسب، والتي تشترك في بثّها أنظمتنا العضوية جميعاً . على ما يرى الأطباء . تمسى في أثناء الليل، إذ يشتد تأثيرها ويتميز فعل كل مقوّم من مقوماتها، أقوى المصادر الباعثة على صور الحلم وأكثرها شيوعاً. وإذا كان الأمر كذلك لم يبق إلا أن نستقصي القوانين التي تتحول المنبهات العضوية بمقتضاها إلى صور حلمية.

تلك . في منشأ الحلم . هي النظرية التي تحظى بإيثار المؤلفين الأطباء قاطبة. وإن الغموض الذي يحجب عن معرفتنا لب وجودنا («الأنا الحشوي»[64]. بتعبير تيسييه)، ثم هذا الذي يشمل بظلامه نشأة الحلم ليتوافقا توافقاً لم يترك للفكر مناصاً من التقريب بينهما. وسبب آخر جعل لهذه الوجهة في التفكير التي ترجع صور الحلم إلى الإحساسات العضوية النباتية جاذبيةً خاصة في أعيُن الأطباء: هو كونها تسمح بتعليل موحّد للحلم وللاضطراب العقلي على السواء . وهما اللذان تكثر أوجه التطابق بين مظاهرهما أيما كثرة. ذلك أن تغيرات الحساسية العامة بالجسم وكذلك المنبهات المنبعثة من الأعضاء الباطنية تحسب لها جميعاً خطورة قصوى في نشأة حالات الذهان أيضاً. وما من عجب بعد ذلك إذا أمكن أن نتتبع نظرية التنبيه العضوي إلى أكثر من داعية توصّل إليها مستقلاً.

ولقد كان للرأي الذي بسطه الفيلسوف شوبنهاور في سنة 1851 تأثير حاسم في فريق من الكتّاب. فالصورة التي يظهر لنا العالم عليها تنشأ . وفقاً لرأيه . بأن يأخذ عقلنا الانطباعات التي تأتيه من الخارج فيصبها في صور الزمان والمكان والعلية. ولا تحدث المنبهات المنبعثة في أثناء النهار من داخل الكائن العضوي، من المجموع العصبي السمبتاوي، إلا تأثيراً لاشعورياً في مزاجنا على أكثر تقدير. فإذا جاء الليل ولم تعد تصم آذاننا انطباعات النهار استطاعت تلك المنبعثة من الداخل أن تجتذب الانتباه، مثلما نسمع في هدوء الليل خرير نبع أغرقته ضوضاء النهار. ولكن كيف للعقل أن يستجيب لهذه المنبهات إلا بأن يؤدّي تجاهها وظيفته الخاصة به؟ وعلى ذلك سوف تُصاغ من هذه المنبهات موضوعات تشغل المكان والزمان وتخضع لقوانين العلية، وهكذا تنشأ الأحلام. ولقد حاول شرنر . ومن ورائه فوللكت . أن يستقصي بعد ذلك أمر العلاقة بين المنبهات الجسمية وصور الحلم، إلا أنني أرجىء النظر في هذه المحاولة إلى القسم الخاص بنظريات الحلم.

وفي بحثٍ بلغ مبلغاً ملحوظاً من التماسك المنطقي، قام الطبيب النفسي كراوس [1859، 255] بتتبع منشأ الأحلام والأهذية والأفكار الهجاسية إلى عامل واحد، هو الإحساسات ذات الأصل العضوي. ومن الصعب في رأيه أن نجد جزءاً واحداً في الكائن العضوي يعجز عن أن يكون مبدأ حلم أو هجاس. والإحساسات الناجمة عن شروط عضوية «تجوز قسمتها قسمين: (1) تلك التي يتكوّن منها مزاجنا العام (الحساسية العامة بالجسم) و(2) إحساسات نوعية خاصة بالكائن العضوي النباتي. وهذه تنقسم بدورها خمسة أقسام: (أ) إحساسات عضلية (ب) تنفسية (ج) هضمية (د) جنسية (هـ) خاصة بسطح الجسم».

ويقدّر كراوس أن نشوء صور الحلم من المنبهات الجسمية يتم على ذلك النحو: يستدعي الإحساس المُثار صورة تناسبه على حسب قانون من قوانين التداعي، ثم يتركّب من هذه الصورة وهذا الإحساس بناء ذو ترابط عضوي، إلا أن الشعور يسلك إزاء هذا المركب مسلكاً شاذاً. فهو لا يعير الإحساس انتباهاً ما بل يوجه انتباهه كله إلى الصورة المصاحبة . وهو ما يرينا في الوقت نفسه لمَ ظل هذا الوضع خافياً علينا طيلة هذا الزمن[65]. ويبتدع كراوس اسماً خاصاً يصف به هذه العملية هو: الاستحالة الجوهرية للإحساس إلى صورة حلمية.

إن تأثير المنبهات الجسمية العضوية في تكوين الحلم أمر يكاد ينعقد عليه الإجماع اليوم. فإذا تساءلنا عن حكم العلاقة بين الطرفين، افترقت الإجابات ولم تعدُ أن تكون منطوقات غامضة في الكثير من الأحيان. وذلك لأن تفسير الحلم تقع عليه الآن . بناء على نظرية التنبيه العضوي . مهمة خاصة، هي تأثر محتوى الحلم إلى المنبهات العضوية التي أحدثته؛ فإذا لم يأخذ المرء بقواعد التفسير التي نصَّ عليها شرنر [أنظر ص 129 وما بعدها] رأى المرء نفسه في أحيان كثيرة يواجه تلك الواقعة الشائكة: وهي أن الشيء الوحيد الذي ينم على وجود المنبِّه العضوي هو على التحديد محتوى الحلم نفسه ليس غير.

بَيْدَ أن هناك قدراً لا بأس به من الاتفاق على تفسير الأنواع المختلفة من الأحلام المسمَّاة أحلاماً «نمطية» لأنها تقع لأناس كثيرين مع تماثل كبير في محتواها. مثال ذلك تلك الأحلام المألوفة بالسقوط من عل أو بوقوع سن أو بالطيران أو بارتباك المرء لعريه أو نقص ردائه. فهذا الحلم الأخير يعزى من غير مزيد إلى كون النائم يدرك أنه قد نحى الغطاء في أثناء نومه فاستهدف للهواء. ويعزى الحلم بسقوط الأسنان إلى منبِّه «سني» . وإن لم يعن هذا بالضرورة أن هياج الأسنان الذي ينجم عنه الحلم هياج مرضي. وفي رأي شترومپل أن حلم الطيران هو الصورة التي تراها النفس ملائمة لتفسير التنبيه الناجم عن صعود الرئتين وهبوطهما في وقتٍ تهن فيه الأحاسيس الجلدية للقفص الصدري حتى لا نعود نشعر بها . وهذه الملابسة الأخيرة هي ما يؤدي إلى الإحساس المقترن بفكرة الطواف في الهواء. وأما حلم السقوط من عل، فيقال: إن مرجعه هو أنه قد يتفق في غياب الشعور بأحاسيس الضغط الجلدي أن يمتد ذراع بعيداً عن الجسم أو تنبسط ركبة على غرة بعد انقباض، ويكون من نتيجة هذه الحركة أو تلك أن يعود الإحساس بالضغط الجلدي إلى الشعور، فيصوّر هذا الانتقال إلى الشعور تصويراً نفسياً بحلم السقوط (شترومپل، 1877، 118). وموطن الضعف الواضح في هذه المحاولات على وجاهتها هو كونها تجعل هذه المجموعة من الأحاسيس العضوية أو تلك تدخل في نطاق الإدراك النفسي أو تغيب عنه، إلى أن يتوافر لها المزيج الذي يوائم التعليل المنشود للحلم، وذلك دون استناد إلى أي شاهد آخر سوى ما تقول. وسوف تعرض لي فيما بعد فرصة العود إلى مسألة الأحلام النمطية ومنشئها [أنظر صفحة 280 وما بعدها].

ولقد حاول م. سيمون أن يستخلص بعض القواعد التي بمقتضاها تحتم المنبهات العضوية محتوى الأحلام الناجمة عنها، وذلك بالمقارنة بين طائفة من أمثال هذه الأحلام، فيقول (1888، 34): إذا اتفق في أثناء النوم أن جهازاً عضوياً يشارك مشاركة سوية في الإعراب عن انفعال ما قد هيّجته علّة خارجية التهييج الذي يقع له عادة بتأثير ذلك الانفعال، جاء الحلم مشتملاً على صورة تلائم الانفعال.

وتنص قاعدة أخرى (ص43) على أنه: إذا نشط في أثناء النوم أحد الأعضاء أو هُيِّج أو أزعج، أتى الحلم بصور تتعلق بممارسة الوظيفة التي يقوم بها هذا العضو.

ولقد حاول مورلي فولد أن يثبت هذا التأثير الذي تقول به نظرية التنبيه الجسمي في إحداث الحلم إثباتاً تجريبياً في دائرة معيّنة؛ فكان يغيّر وضع أطراف النائم في أثناء النوم ثم يقارن بين التغييرات التي يحدثها والأحلام الناجمة عنها. وانتهى من ذلك إلى هذه النتائج:

1 . يطابق وضع الطرف الجسمي في الحلم وضعه في الحقيقة مطابقة تقريبية، مثال ذلك أننا نرى العضو في الحلم ساكناً وهو في الحقيقة كذلك.

2 . إذا حلم المرء بأن طرفاً من أطرافه يتحرك، جاء أحد الأوضاع التي يمر بها الطرف في حركته هذه مطابقاً وضعه الحقيقي.

3 . قد ينسب الوضع الذي يوجد عليه طرف الحالم نفسه إلى شخصٍ سواه.

4 . قد يحلم الحالم بعائقٍ يعوق الحركة التي يدخلها المجرب.

5 . قد يظهر الطرف في الحلم، بعد أن يتخذ وضعاً تجريبياً، في صورة حيوان أو مسخ، وفي هذه الحالة يثبت وجود تماثلٍ ما بين الحدّين.

6 . يثير وضع الطرف أفكاراً في الحلم لها بعض الصلة بهذا الطرف: مثال ذلك أننا نحلم بالأعداد إذا أدخل التغيير على الأصابع.

والذي أجنح إلى استخلاصه من أمثال هذه المكتشفات هو أن نظرية التنبيه الجسمي نفسها لا تنجح كل النجاح في رفع ما يبدو عليه اختيار الصور المحدثة في الحلم من مظهر التحرر من الحتم[66].

4-المصادر النفسية للتنبيه

علمنا ونحن ننظر في علاقة الحلم بحياة اليقظة وفي منشأ مادته أن بحثة الحلم . لا فرق في ذلك بين الأقدمين منهم والمحدثين . يرون أن الناس يحلمون بما يصنعون نهاراً، وبما يشغل اهتمامهم وهم أيقاظ. هذا الاهتمام المنقول من حياة النهار إلى النوم ليس قيداً نفسياً وحسب، رباطاً يشد الحلم إلى الحياة، إنه أيضاً مورد من موارد الحلم لا يبخس قدره، مورد ربما كان كافياً أن يعلل صور الحلم جميعاً لو أننا أضفنا إليه الأشياء التي ينجذب إليها اهتمام النائم، أي المنبهات التي تعمل عملها في خلال النوم. بيد أننا سمعنا أيضاً نقيض هذا الرأي: سمعنا أن الحلم يبعد النائم عن اهتمامات النهار وأن القاعدة هي أننا لا نبدأ نحلم بالأشياء التي تشغل جل اهتمامنا في النهار إلا بعد أن تفقد ما يمتاز به كل طريف من قدرة على الإثارة. وهكذا نصادف في كل خطوة نخطوها في سبيل تحليلنا للحياة الحالمة ما يشعرنا بأنه قد حرم علينا أن نضع قاعدة عامة بغير التحوّط بقيود من «كثير» و«عادةً» و«في معظم الأحيان»، ودون أن نهيىء أنفسنا للتسليم بصحة الشواذ.

ولو أن اهتمامات اليقظة بالإضافة إلى المنبهات الحادثة في خلال النوم داخلية وخارجية كانت تكفي معاً في استغراق علل الحلم، لوجب أن نكون في موقف يسمح لنا بتبيان أصل كل عنصر من عناصر الحلم تبياناً شافياً ولحلّ بذلك لغز مصادر الأحلام، فلا يبق إلا أن نحذر نصيب كل من المنبهات النفسية والجسمية في هذا الحلم الجزئي أو ذاك. ولكن الواقع أنه ما من حلم لقيَ حتى اليوم مثل هذا التعليل الكامل، وما من أحد حاوله إلا تبقّت بين يديه فقرات من الحلم . وفقرات كثيرة جداً في العادة . لا يستطيع أن يقول في أصلها حرفاً. فمن الواضح أن اهتمامات النهار . من حيث هي مصدر نفسي من مصادر الحلم . بعيدة كل البعد عن أن تكون لها هذه القيمة القصوى التي قد يتوقعها المرء إذ يسمع ما يتحدث به كلٌ منّا جازماً من انشغاله في أحلامه بأعمال نهاره.

ولكننا لا نعرف للحلم مصادر نفسية أخرى. ونتيجة ذلك هي أن كل تعليلات الحلم المضمنة فيما كتب عن هذا الموضوع . باستثناء تعليل شرنر الذي نعرض له فيما بعد [ص 129 وما بعدها] . تترك فراغاً كبيراً حيث يتعلق الأمر بتعيين منشأ الصور المتخيلة التي هي أكبر مادة تميّز الحلم. وفي هذا المأزق صار أغلب الكتاب ينزعون إلى خفض نصيب العوامل النفسية من إثارة الحلم قدر الإمكان؛ لصعوبة الاهتداء إلى هذه العوامل. نعم، إنهم يقسمون الأحلام طبقتين رئيسيتين: أحلام ترجع إلى تنبيه عصبي وأخرى مرجعها التداعي ، وهذه الأخيرة ليس لها من مصدر سوى الاستحضار[67] (فونت، 1874، 657) ولكنهم مع ذلك لا يستطيعون التخلص من الشك «فيما إذا كانت هذه الأحلام تملك الظهور بغير دفعة من منبّه جسمي» (فوللكت 1875، 127). لا، بل حتى إمكان الوصف يؤبى على أحلام التداعي المحض، فيقول فوللكت (ص 118): «وأما أحلام التداعي بالمعنى الصحيح فلا تترك مجالاً للحديث عن مثل هذه النواة الراسخة [المستمدة من التنبيه الجسمي]، بل يكون مركز الحلم نفسه واهي التماسك. فالحياة الفكرية التي لا تعرف في الحلم عامة ضابطاً من عقل أو فهم لا تجد هنا ولو تهييجاً جسمياً أو نفسياً ذا أهمية نسبية يحفظ تماسكها، وهكذا تترك لانسيابها وتلاحقها المتقلبين ولتداخلها الفوضوي فيما بينها». ويحاول ؟ونت أيضاً أن ينقص شأن العامل النفسي في إثارة الأحلام إذ يقول (1874، 656): «ومن الخطأ أن تعد تهاويل الحلم هلاوس صرْفة. فالأرجح هو أن معظم صور الحلم إنما هي في الحقيقة أوهام حسيّة، من حيث إنها تتفرع عن الانطباعات الحسية الواهنة التي لا تخبو أبداً في أثناء النوم». ويعمم ؟يجانت هذا الرأي على جميع صور الحلم فيقول (1893، 17): «إن عللها الأولى منبهات حسية، ولا ترتبط المستدعيات المستحضرة بهذه المنبهات إلا من بعدُ». ويزيد تيسييه في خفض نصيب المصادر النفسية للتنبيه، فيقول (1898، 183): «إن الأحلام ذات الأصل النفسي الخالص شيء لا وجود له»[68]، وفي موضع آخر (ص 6): «إن الأفكار المشتملة عليها أحلامنا تجيء إلينا من الخارج...»[69].

ولا يفوت المؤلفين الذين يتخذون موقفاً وسطاً، مثل الفيلسوف العظيم الأثر ؟ونت، أن يلاحظوا أن المنبهات الجسمية والبواعث النفسية (سواء أكانت خافية أم كانت واضحة الصلة بمشاغل النهار) تعمل متآزرةً في معظم الأحلام.

وسوف نعلم فيما بعد أن لغز تكوين الحلم يمكن حلّه بالكشف عن مصدر نفسي للتنبيه لم يتّجه إليه التفكير. وإلى أن يتم ذلك لن تدهشنا المغالاة في تقدير نصيب المنبهات غير الناشئة عن الحياة النفسية في تكوين الأحلام؛ فمثل هذه المنبهات ليست أسهل على الكشف وحسب . فضلاً عن إمكان التحقق منها بالتجريب . بل إن النظرة الجسمية إلى الحلم تتسق والنزعة الغالبة اليوم في مجال الطب النفسي أكمل اتساق. نعم إن من الحق أن الجميع يؤكد اليوم سيطرة المخ على الكائن العضوي أقوى التوكيد، بيد أن كل ما قد يشتم منه أن للحياة النفسية أي استقلال عن التغييرات العضوية الممكن إثباتها بالبرهان أو أي تلقائية في مظاهرها يثير اليوم ذعر الطبيب النفسي، كما لو كان التسليم بمثل هذه الأشياء يسترجع بالضرورة أيام فلسفة الطبيعة وأيام النظرات الميتافيزيقية في جوهر النفس. وهذا الحذر من جانب أطباء النفس قد كان من أثره أن صارت النفس تحت الوصاية . إن جاز التعبير .. فليس ينبغي اليوم أن تنم خلجة من خلجاتها عن أيّة قدرة خاصة بها. غير أن هذا المسلك منهم إن دلّ على شيء فعلى قلة إيمانهم بصدق الرباط بين ما هو جسمي وما هو نفسي. فالبحث وإن أرانا اليوم أن العلة الأولى لظاهرة من الظواهر هي علة نفسية، فتعمقه كفيل أن يوفق حيناً إلى متابعة الطريق حتى العثور على الأساس العضوي للحدث النفسي. ولكن إذا لم يكن لمعرفتنا اليوم منتدح عن الوقوف عند ما هو نفسي، فهل يكون ذلك سبباً في نبذها؟

د
لماذا يُنسى الحلم بعد اليقظة

إنَّ الأحلام «تتبدد» في الصباح، هذه حقيقة صارت مضرب الأمثال. نعم إنّ تذكر الحلم أمر يدخل في حيّز المستطاع؛ فما نعلم الحلم إلا بتذكره بعد الاستيقاظ، ولكننا نشعر في الكثير الشائع من الأحيان بأننا لم نتذكر الحلم إلا تذكراً ناقصاً وأن ما ضاع منه يربو على ما يتبقى. وفي مقدورنا فوق ذلك أن نتذكر كيف تضمحل ذكرى الحلم في سياق النهار . وكانت لم تزل حية في الصباح . فلا تتخلف منها سوى نبذ قليلة ضئيلة. وفي أحيان كثيرة نعلم أننا حلمنا، دون أن نعلم بماذا حلمنا. ولقد بلغ من مدى ألفتنا بكون الأحلام عرضة للنسيان أن صرنا لا نرى تناقضاً ما في القول بإمكانية أن يكون امرؤ قد حلم في خلال الليل على حين أنه لا يعلم شيئاً من محتوى حلمه ولا أن حلماً قد أتى. هذا، بينما يتفق من جهة أخرى أن تبدي الأحلام قدرة خارقة على الثبات في الذاكرة؛ فقد حلّلتُ أحلاماً لمرضاي وقعت منذ خمسة وعشرين عاماً أو تزيد، وأستطيع أن أذكر حلماً لي نفسي تفصل بينه وبين الآونة الحاضرة سبع وثلاثون سنة على الأقل، وهو مع هذا لم يفقد شيئاً من نضارته في ذاكرتي. كل هذا عجيب أشد العجب، ولا يدنو للفهم للوهلة الأولى. وشترومپل أكثر من فصّل الكلام في نسيان الأحلام. ومن الواضح أن هذا النسيان ظاهرة مركّبة؛ فشترومپل لا يرجعه إلى علّة مفردة بل إلى عدة من العلل. وأول ما يذكر من هذه جميعُ العلل التي ينتج عنها النسيان في حياة اليقظة كذلك. فمن عاداتنا ونحن مستيقظون أن نسارع إلى نسيان عدد من الأحاسيس والمدركات يفوق الحصر؛ إما لضعفها أو لقلة التهييج النفسي المقترن بها. وهذا عينه يصدق على الكثير من صور الحلم: فنحن ننساها لأنها أضعف من أن تُحفظ في حين نحفظ ما قد يجاورها من صور أشد قوة. بيد أن عامل الشدة في ذاته لا يحتّم بقاء صور الحلم. فشترومپل يسلّم ويسلّم معه غيره من الكتاب (كالكينز) بأننا كثيراً ما ننسى صوراً من الحلم نعلم أنها كانت موفورة الحظ من الشدة، في حين أن بين المتبقيات في الذاكرة عدداً وفيراً من صور هي إلى أن تكون ظلالاً من صور أشبه، فقيرة في قوّتها الحسية. ثم إن الإنسان . حتى في يقظته . أكثر نسياناً لما يحدث مرة وأكثر حفظاً لما يمكن إدراكه تكراراً، ومعظم صور الحلم أحداث فريدة الوقوع[70]، وفي هذا ما يسوق من غير تفريق إلى نسيان الأحلام جميعها. غير أنّ لعلة ثالثة خطراً يفوق الذي لسابقتيها بمقدار عظيم. ذلك أن الإحساسات والأفكار والخواطر وما إليها يجب . لكي يتحقق لها قدر كاف من قابلية التذكر . ألا تظل متفرقة، بل أن تنتظم في وحدات وتآليف من نوع مناسب. فلو أنك قسّمت بيتاً منظوماً قصيراً إلى كلماته ثم مزجتها، لصعب ذكره أيما صعوبة. «فالكلمات إذا رتبت على النحو الذي ينبغي وانتظمها سياق موافق لمقتضى الحال أعانت كل منها أختها وصار لمجموعها معنىً يدنو به للذاكرة ويثبت فيها زمناً طويلاً. وعلى الجملة فالكلم المفرَغ من المعنى عسير الحفظ على الذاكرة شاذه، كالمختلط المبعثر». [شترومپل، 1877، 83]. وإن الأحلام لتعوزها المعقولية ويعوزها التنسيق في معظم الأحوال، وتآليف الحلم مجردة من الصفات التي تطوّعها للتذكر، ومآلها إذن النسيان؛ فهي في الأغلب لا تنقضي لحظة حتى تكون قد تفرقت بدداً. وغنيٌّ عن البيان أن هذا الكلام جميعه لا يستقيم وما يقوله رادشتوك [1879، 168] من أنه قد لاحظ أن أشد الأحلام غرابة هي أحسنها لصوقاً بالذاكرة.

وهناك عوامل أخرى يراها شترومپل أشد أثراً بعدُ في نسيان الحلم، مرجعها العلاقة بين الحلم وحياة اليقظة. فمن الواضح للعيان أن استهداف الحلم لنسيان الشعور المستيقظ ليس إلا الوجه الآخر لحقيقة سبق الإلماح إليها (ص 70)، وهي أن الأحلام قلّ أن تأخذ من حياة اليقظة ذكريات منظمة، وإنما تأخذ قطوفاً من ذكريات ينتزعها الحالم من محيطها الذي يذكر فيه عادة ونحن مستيقظون. وهكذا لا تجد تآليف الحلم مكاناً في مجتمع التسلسلات النفسية التي تمتلأ بها النفس وتعوزها كل دعامة قد يستند الذكر إليها. «وعلى هذا النحو ترتفع الأبنية الحلمية من فوق أرض الحياة النفسية . إن جاز هذا التعبير . وتحلّق في الفضاء النفسي مثلما تحلّق سحابة لا يلبث أن يبددها أول نفس من الريح» [شترومپل، 1877، 78]. ويعين على ذلك أننا لا نكاد نستيقظ حتى يهجم علينا عالم الحس فيضرب نطاقاً حول انتباهنا في قوة لا يستطيع الثبوت أمامها سوى القليل من صور الحلم. فهذه تدبر إذ تقبل انطباعات اليوم الوليد إدبار النجوم بريقها وضوء الشمس الطالعة.

وأخيراً لا ننسى تلك الحقيقة بين عوامل نسيان الحلم: وهي أن معظم الناس لا يعير أحلامه اهتماماً. فكل من أولى أحلامه انتباهاً حقبة ما (كأن يكون ذلك بقصد دراستها) زادت أحلامه في هذه الحقبة عليها فيما عداها . وهو ما يعني من غير شك أن تذكّره لأحلامه يزيد يسراً ويكثر مقداراً.

ويضيف بوناتيللي (على ما يرويه بنيني) عاملين آخرين إلى العوامل التي أحصاها شترومپل، وإن كانا في الحقيقة متضمنين في هذه الأخيرة. وهذان العاملان هما: (1) أن التحوّل الذي يصيب الحساسية العامة بالجسم بين حالتي النوم واليقظة لا يعين على الاستحضار المتبادل بينهما، (2) أن الترتيب المختلف الذي يخلعه الحالم على مادته الفكرية يجعل الأحلام مستحيلة الترجمة . إن جاز هذا التعبير . من وجهة نظر

الشعور المستيقظ.

فأمّا وقد اجتمعت على نسيان الحلم هذه الأسباب جميعها، فإنما العجيب في الحقيقة . على ما يلاحظه شترومپل نفسه . هو أن تبقى الذاكرة بعد ذلك على هذا العدد الكبير منها. ثم إن ما يبذله بعض الكتّاب من محاولات متكررة من أجل النص على القواعد التي يتم تذكّر الأحلام وفاقاً لها يعدل نوعاً من التسليم بأننا نجد أنفسنا هنا أيضاً إزاء شيء ملغز لا تعليل له. فحديثاً ألحّ الكتاب بحق على سمات معيّنة يتميز بها تذكّر الأحلام: كأن نتذكر في خلال النهار شيئاً اعتقدنا نسيانه في الصباح، ويكون تذكّره هذا لأننا لمحنا موضوعاً ما له بالحلم صلة عارضة (رادشتوك، تيسييه). بيد أن تذكر الأحلام يستهدف في جملته إلى اعتراض من شأنه أن ينقص قيمتها أمام أعيُن النقد نقصاً بالغاً: ذلك أنه إذا كانت ذاكرتنا تغفل من الحلم ما تغفل، فما أدرانا أنها لا تزيّف ما تبقّى؟

ويعرب شترومپل أيضاً عن هذه الشكوك في أمانة استحضار الحلم فيقول [1877، 6]: «وهكذا يسهل أن يدرج الشعور المستيقظ من حيث لا يدري إضافات متعددة في ذكرى الحلم، فيهيأ إلينا أننا حلمنا بأشياء من صنوفٍ شتى، وما حوى الحلم في الحقيقة شيئاً منها».

ويجزم يسّن بخاصة في هذا المعنى فيقول (1855، 547):

«ولا ننسى فوق ذلك ونحن نبحث حلماً متلائم الأجزاء متسق السياق ونفسره؛ لا ننسى تلك الحقيقة التي لم تلق حتى الآن، فيما أرى، سوى القليل من العناية: وهي أننا لا نكاد نلتزم الواقع في مثل هذه الحالات أبداً؛ لأننا إذ نستحضر حلماً في أذهاننا نميل إلى سد ما بين صور الحلم من الثغرات . دون أن نلحظ ما نحن صانعوه أو نعمد إليه. فلا يحدث إلا نادراً . أو لا يحدث أبداً . أن يكون لحلمٍ من الترابط في الحقيقة مثلُ ما يلوح له في الذاكرة. ويكاد يكون محالاً ولو على أشد الناس محبة للحقيقة أن يروي حلماً خليقاً بالذكر من غير حشوٍ أو تزويق. فنزوع العقل الإنساني إلى رؤية الأشياء يتصل بعضها ببعض نزوع غلّاب حتى ليكمل في الذاكرة غير عامد ما قد يحويه حلم مفكك من نقص الرباط».

وتقرأ هذه الملاحظات التي كتبها إيجرّ [1895، 41] فتخالها ترجمة لما قرأناه ليسّن وإن يكن من المؤكد أنه قد انتهى إليها مستقلاً: «... إن لملاحظة الأحلام صعابها الخاصة، والوسيلة الوحيدة إلى تجنّب كل خطأ في مادة هذا شأنها هي أن نودع الورق ما قد خبرناه للتو أو لاحظناه، دون أقل إمهال. فإن لم نفعل، لم يلبث النسيان أن يجيء سريعاً، كاملاً أو جزئياً. والنسيان الكامل لا خطر منه، وأما الجزئي فغادر؛ لأننا إذ نشرع بعد ذلك في رواية ما لم ننسه، كنّا عرضة لأن نكمل بالمخيلة ما تزودنا إياه الذاكرة من القصاصات المتنافرة المفككة...، ويصير كلّ منّا فناناً يجهل نفسه، ثم الرواية إذ تتكرر بين الحين والحين تنتهي بأن تفرض نفسها على تصديق مؤلفها، فإذا هو يقدمها وهو حسن الطوية كما لو كانت واقعة صادقة استوفيت إجراءات إثباتها كما ينبغي...»[71].

ويعرب شپيتا (1882، 338) عن آراء مماثلة كل المماثلة؛ فهو يعتقد . على ما يبدو . أن عناصر الحلم الواهية الرباط لا يدخلها أي ضرب من النظام إلا حين نحاول استحضار الحلم، فنحن «نحيل ما هو متجاور وحسب إلى متقدم ومتأخر (1)، أي ندخل عملية من الربط المنطقي لا وجود لها في الحلم».

ولمّا كان التأييد الموضوعي هو الكفيل وحده أن يثبت صدق ذاكرتنا، وكان ذلك محالاً فيما يتصل بالأحلام وهي خبرتنا الخاصة التي لا نملك في شأنها مرجعاً آخر غير ذاكرتنا، فأي قيمة تبقى بعد ذلك لذكرى الحلم؟

هـ.
الخصائص السيكولوجية المميزة للحلم

إنَّ دراستنا العلمية للحلم تبدأ من ذلك الفرض: أن الحلم نتاج لنشاطنا النفسي الخاص. بيد أن الحلم بعد أن ينقضي يثير العجب من أنفسنا، كأنه شيء غريب عنَّا، بلغ من قلة التزامنا بالتسليم بمسؤوليتنا عنه أن صار سيان عندنا القول: «أتاني حلم» أو «حلمت حلماً». فما أصل هذا الشعور بأنَّ الحلم دخيل علينا؟ إذا رجعنا إلى مناقشتنا في مصادر الأحلام، لزم أن ننفي أن يكون هذا الشعور ناجماً عن المادة الداخلة في محتواها؛ لأن معظم هذه المادة مشترك بين حياتي اليقظة والحلم. ومن ثم كنا نسأل: أتقع في الحلم تغييرات في عمليات النفس هي التي تحدث هذا الشعور الذي نتحدث عنه؟ ثم نحاول بناءً على ذلك أن نتبين ما هي الصفات السيكولوجية للحلم.

ما من أحد كان أقطع من فخنر في توكيد الفارق الجوهري بين حياة الحلم وحياة اليقظة، أو استخلص من هذا الفارق مقدار ما استخلصه هو من النتائج البعيدة، وذلك في فقرة من كتابه «عناصر علم النفس الفيزيائي» (1889، 2، 520). فهو يرى أنه «لا مجرد انخفاض الحياة النفسية الشعورية دون عتبة النشاط السوي» ولا تراجع الانتباه عن مؤثرات العالم الخارجي يكفيان في تعليل خصائص الحياة الحالمة من حيث مباينتها لحياة اليقظة، بل يحدس أن الأرجح هو أن مسرح الحلم غير مسرح الحياة الفكرية المستيقظة ، فيقول: «لو أن مسرح النشاط النفسي كان في أثناء النوم هو هو في اليقظة، ما جاوز الحلم، فيما أرى، أن يكون امتداداً للحياة الفكرية المستيقظة مع بعض الانخفاض في الشدة، وكان فوق ذلك بالضرورة يقاسم هذه الحياة مادتها وصورتها. ولكن الواقع يخالف ذلك كل المخالفة».

ولكن ما الذي عناه فخنر بحديثه من هذه النقلة للنشاط النفسي من مسرح إلى آخر؟ ذلك ما لم يتضح قط، ولا أعلم أن أحداً سلك الطريق الذي تشير إليه هذه الكلمات. فإن نؤوّل هذه الجملة تأويلاً تشريحياً، بمعنى أنها تلمح إلى تحيّز فيزيولوجي مخي، أو حتى إلى الطبقات النسيجية للقشرة المخية، ذلك . فيما أرى . ما يحق لنا أن نستبعده من غير تردد، بيد أنه قد يتضح في المستقبل أن الفكرة حصيفة خصبة، إذا أمكن تطبيقها بالإشارة إلى جهاز نفسي تركّب من عدةٍ من جهات الاختصاص، صفَّت كل منها وراء الأخرى[72].

وأما سائر الكتّاب فيقتنعون بجذب الانتباه إلى هذه الخاصة أو تلك من الخصائص البارزة للحياة الحالمة، متخذين إياها دعامة يبدأون منها محاولاتهم من أجل الوصول إلى تعليل أشمل للحلم.

فلوحظ، والملاحظة صائبة، أن بين الخصائص الرئيسة للحلم خاصة تظهر في أثناء فعل الأخذ في النوم، بحيث يمكن وصفها بالقول: إنها ظاهرة تبشِّر بالنوم. فالذي يميّز حالة اليقظة، على حسب شلاير ماخر (1862، 351)، هو كون النشاط الفكري يتأدّى في تصورات مجردة لا صور. ولكن الفكر يتأدّى في الحلم بوساطة الصور قبل كل شيء، وفي مقدورنا أن نلحظ حين يقترب منّا النوم أن نشاطنا الإرادي إذ يتأبّى علينا أكثر فأكثر انبعثت بقدر تأبيه أفكار لا إرادية ، تندرج جميعها في طبقة الصور. فالعجز عن نوع العمل الفكري الذي نشعر أننا نستهدفه استهدافاً إرادياً مع انبعاث الصور الذي يصحب عادة هذا التشتت في الانتباه خاصَّتان تستمران في الحلم ويحملنا التحليل السيكولوجي للأحلام على أن نرى فيهما سمتين جوهريتين من سمات الحياة الحالمة. وقد رأينا من قبل [ص 80] أن هذه الصور قبل النومية لا تفترق في محتواها من صور الحلم[73].

الحلم إذن يفكّر في صور مرئية على نحو غالب، ولكنه ليس نحواً مانعاً. فالأحلام تلجأ كذلك إلى الصور السمعية، وقد تلجأ . وإن يكن بدرجة أقل . إلى انطباعات تنتمي إلى سائر الحواس. ثم إن الحلم كاليقظة سواء بسواء قد تعرض فيه أشياء كثيرة في صورة أفكار أو معانٍ ليس غير (وهو ما يعني في الراجح أنها تحضر بوساطة آثار الصور اللفظية [المحفوظة في الذاكرة]). بيد أن الذي يميّز الحلم حقيقة على الرغم من ذلك إنما هو هذه العناصر من محتواه التي تسلك مسلك الصور، أي تلك الأشبه بالمدركات الحسية منها بالمذكورات. وإذا تركنا جانباً جميع المناقشات التي يعرفها الأطباء النفسيون في طبيعة الهلاوس، فلن نخالف أحداً من أهل الثقة في الموضوع حين نؤكد أن الأحلام تهلوس ، أي تستبدل بالأفكار هلاوس. ولا فرق من هذه الناحية بين الصور المرئية والسمعية؛ فقد لوحظ أن المرء إذا شرع في النوم وبرأسه ذكرى نغمة موسيقية استحالت الذكرى إلى هلوسة موضوعها هذه النغمة عينها. فإذا استيقظ المرء ثانيةً تلاشت الهلوسة بدورها لتحل محلها الصور الذكروية التي هي أكثر خفوتاً ومختلفة في الوقت نفسه كيفاً، وقد يدوم التداول بين الحالتين أكثر من مرة بينما المرء آخذ في النعاس.

بيد أن تغيير الأفكار إلى هلاوس ليس الناحية الوحيدة التي تختلف فيها الأحلام من مقابلاتها الفكرية في اليقظة. فالحلم يصوغ من هذه

الصور موقفاً، إنه يمثّل حدثاً يدور أمام أعيننا، أو كما يقول شبيتا 1882، 145]: إنه يخلع صورة الحركة المسرحية على فكرةٍ ما. ولكننا لا نقدّر هذه الخاصة من خصائص الحياة الحالمة حق التقدير، إلا حين نسلّم فوق ما سلف بأننا حين نحلم لا نعتقد أننا نفكر، بل نعتقد أننا نعيش، أي نضيف تصديقاً تاماً إلى صور الحلم الهلوسية . أو هذا هو ما يقع عادة، فهناك شواذ تتطلب نظراً خاصاً. وأما التعقيب الناقد، كما يكون في قولنا: ما كنا نعيش على الإطلاق، كل الأمر أننا كنا نفكر تفكيراً من طراز خاص أي نحلم، فهذا ما لا يكون إلا بعد أن تحل اليقظة. وهذه الخاصة هي التي تفرّق الحلم الحق من حلم اليقظة الذي لا نخلط بينه وبين الواقع أبداً.

ويحمل بورداخ ما تقدم النظر فيه من سمات الحياة الحالمة في الكلمات الآتية [1838، 502]: «ومن بين سمات الحلم الجوهرية السمات الآتية: (أ) أن نشاط النفس الذاتي يظهر في صورة موضوعية؛ لأن ملكاتنا الإدراكية تنظر إلى نتاج مخيلتنا نظرتها إلى انطباعات حسية...، (ب) أن النوم يعني إبطال سلطة الذات، ومن ثم كان الاستسلام للنوم يجلب معه قدراً من القابلية الصرفة... فالشرط في انبعاث الصور التي تصحب النوم هو نقصان سلطة الذات».

ويبقى بعد ذلك أن نحاول تعليل التصديق الذي تضيفه النفس إلى هلاوس الحلم، وهو التصديق الذي لا يظهر إلا حين ينقطع ضرب من نشاط نفسي ذي سلطان. هنا يحتج شترومپل (1877) بأن النفس في تصديقها هذا إنما تقوم بوظيفتها على وجهٍ صحيح يتفق وقانون عملها. فعناصر الحلم بعيدة عن أن تكون محض تصورات، إنها خبرات نفسية، صادقة، فعلية ، من قبيل ما يعرض في حالة الصحو من طريق الحواس (ص 42). فبينما تصوغ النفس المستيقظة معانيها وأفكارها في صور لفظية وكلم، إذا هي في الحلم تصوغها في صور حسية صحيحة (ص 43). ثم إن الحلم يتضمن فوق ذلك شعوراً بالمكان؛ ففيه كما في اليقظة تنتظم الإحساسات والصور في مكان خارجي (ص 44). ولا محيد إذن عن التسليم بأن موقف النفس من صورها ومدركاتها الحسية في الأحلام لا يختلف منه وهي في اليقظة (ص 43). فإذا كانت النفس بعد ذلك مخطئة في صنيعها هذا، فلأنها تفتقر في أثناء حالة النوم إلى المعيار الذي يمكّنها وحده من التفرقة بين مدركات الحس الوافدة من الخارج وتلك المنبعثة من الداخل، أي أنها لا تملك القدرة على امتحان صورها الحلمية بالوسائل الوحيدة الكفيلة أن تثبت حقيقتها الموضوعية. ثم هي بالإضافة إلى ذلك تغفل التفرقة بين الصور التي تملك تبديلها كما تريد وتلك التي يغيب فيها هذا التحكم: إنها على خطأ لأنها تعجز عن تطبيق قانون العلية على محتوى أحلامها (ص 50 . 51). وخلاصة القول هي أن انصرافها عن العالم الخارجي هو أيضاً السبب في تصديقها عالم الأحلام الذاتي.[74]

ويصل دلبوف إلى النتيجة ذاتها بعد محاجة سيكولوجية مختلفة بعض الاختلاف. فهو يرى أننا نعتقد أن صور الحلم موجودة حقيقةً لأننا لا نملك في أثناء النوم انطباعات أخرى نقارن بها هذه الصور، لأننا مفصولون من العالم الخارجي، ولكنه ليس من الصحيح أننا نعتقد صدق هذه الهلاوس لأننا نعدم في النوم القدرة على امتحانها. فالحلم يستطيع أن يشبه علينا كل صنوف مثل هذا الامتحان، كأن يجعلنا نلمس الوردة التي نراها . ومع هذا فما نحن إلا حالمين. فالمعيار الأوحد المتين لكوننا نياماً أو مستيقظين ليس في رأي دلبوف سوى واقعة اليقظة نفسها . وهو معيار لا نأخذ به إلا جرياً على العرف العملي العام. فأنا أستنتج أن كل ما خبرته بين أن نمت وأن استيقظت كان وهماً حين أتبيّن وأنا أستيقظ أنني راقد في سريري مجرّداً من ثيابي. وما أخذتُ صور الحلم مأخذ الحقائق في خلال النوم إلا لعادة فكرية لا تنام هي افتراضي وجود عالم خارجي أعارض به أناي[75].

وهكذا يرفع الانصراف عن العالم الخارجي إلى مرتبة العامل المحتم لظهور أبرز سمات الحياة الحالمة، ومن الخليق إذن بعنائنا أن نذكر بعض ملاحظات نافذة أتاها بورداخ منذ زمنٍ قديم؛ لأنها تنير أمر العلاقات بين النفس النائمة والعالم الخارجي ولأنها تفيد كذلك في تحذيرنا من المغالاة في تقدير شأن النتائج المتقدم ذكرها. يقول بورداخ: «إن النوم لا يحدث إلا إذا توافر هذا الشرط: أن تكف المنبهات الحسية عن تهييج النفس،... غير أن الشرط في النوم ليس غياب المنبهات بقدر غياب الاهتمام بها[76]، بل الحقيقة هي أن بعض المنبهات الحسية قد يكون لازماً لتهدئة النفس: فهكذا الطحّان لا يدوم نومه إلا وهو يسمع جعجعة الطاحونة، كما أن النوم في الظلمة التامة يستحيل على من يرى أن إشعال بعض الضوء في الليل ضرورة يقتضيها الاحتياط» (1838، 482).

«إن النفس تنعزل في أثناء النوم عن العالم الخارجي وترتد عن حافتها نفسها [أي عن أعضاء الحس التي من طريقها تتصل بالعالم الخارجي]... بيد أن الصلة لا تنقطع كل الانقطاع؛ فلو قد كان المرء لا يستطيع سمعاً ولا حساً في نومه وإنما يسمع ويحس بعد الاستيقاظ وحسب، لما كان في الوسع إيقاظه على الإطلاق. وأبيّن دليل على استمرار الإحساس، هو كوننا لا نستيقظ دائماً لما يكون عليه الانطباع من محض الشدة الحسية، بل لصلته النفسية بنا: فالنائم لا توقظه كلمة لا تقع من نفسه موقعاً خاصاً، فإن ناديته باسمه أيقظته... أي أن النفس تميّز في نومها بين مختلف الإحساسات... ولهذا السبب كان انقطاع أحد المنبهات كفيلاً أن يوقظ المرء، إذا كانت لهذا الانقطاع صلة بأمر له في فكر المرء أهمية: فيستيقظ الرجل الذي ينطفىء في الليل ضوء مصباحه، أو الطحان إذا وقفت الطاحونة، أي إذا انقطع تنبيه حسي. وهذا يعني أن كليهما كان يدرك هذا التنبيه، لكن دون أن ينزعج له؛ لأن هذا التنبيه لم يكن يحركه تحريكاً خاصاً بل كان على الأصلح يطمئنه» (ص 512 وما يليها).

لقد نغض الطرف عن هذه الاعتراضات . وهي ليست بالهيّنة ،. ولكنا نظل مع ذلك مرغمين على أن نقر بأن ما بحثناه حتى الآن من

خصائص الحياة الحالمة وعزوناه إلى انصرافها عن العالم الخارجي لا يوضح ما تتسم به هذه الحياة من طابع الغرابة كل التوضيح. ولولا هذا لكان من المستطاع أن نحوِّل هلاوس الحلم من جديد إلى معان ومواقفه إلى خواطر، وبهذا نحل مشكلة تفسير الحلم. وهذا التحويل في الحقيقة هو ما نصنع حين نستحضر حلماً من الذاكرة بعد اليقظة، ومع هذا فسواء وفقنا في هذه الترجمة الثانية توفيقاً كلياً أم توفيقاً جزئياً ليس غير، يظل الحلم مبقياً على إلغازه كاملاً غير منقوص.

ولهذا كان المؤلفون جميعهم يفترضون من غير تردد أن المادة الفكرية لحياة اليقظة تصيبها في الحلم تغييرات أخرى أعمق غوراً. ويريد شترومپل أن يعرب عن أحد هذه التغييرات في الفقرة الآتية [1877، 27]: «إن النفس إذ ينقطع نشاطها الحسي وينقطع شعورها السوي بالحياة تفقد التربة التي تتأصل فيها مشاعرها ورغباتها واهتماماتها وأعمالها. ثم إن الحالات النفسية، من مشاعر واهتمامات وأحكام تقويمية وما إلى ذلك مما لا تنفصم عراه من الصور الذكروية في حياة اليقظة، تستهدف كذلك... لضغطٍ يولد الغموض، يكون من نتيجته أن تنفصم صلة هذه الحالات بالصور، كما أن الصور الإدراكية المُحصَّلة في حياة اليقظة عن الأشياء والأشخاص والأماكن والأحداث والأفعال تستحضَر منفردات في عددٍ كبير، لكن دون أن تصحبها قيمتها النفسية : إن هذه القيمة تفصل عنها، وهكذا تطوف هذه الصور في النفس كيفما يحلو لها...».

وفي رأي شترومپل أن تجريد الصور من قيمتها النفسية (وهو ما يرجع بدوره إلى واقعة الانفصال من العالم الخارجي) يشارك بنصيبٍ رئيس في خلق شعور الغرابة الذي يميّز الحلم من الحياة الواقعة في ذاكرتنا.

ولقد سمعنا من قبل [ص 96] أننا ما أن نستسلم للنوم حتى ننزل عن وجهٍ من وجوه نشاطنا النفسي، وأعني به القدرة على توجيه مجرى أفكارنا توجيهاً إرادياً. فلم لا نسمع الآن فرضاً آخر وهو على أية حال فرض قريب من الذهن بطبيعته: أن آثار النوم تنتشر فتشمل ملكات النفس جميعاً؟ ويبدو أن بعض هذه الملكات يعطّل كل التعطيل، وعلى ذلك نسأل: هل تظل سائر الملكات بعدئذ على نشاطها السوي؟ أهي مستطيعة أن تعمل عملاً سوياً في مثل هذه الملابسات؟ وهنا قد يخطر لنا أن نعلل السمات المميزة للحلم بنقص النشاط النفسي في أثناء النوم، ويجيء الانطباع الذي يتركه الحلم في نفوسنا حين نستيقظ ونحكم بملكة مستيقظة فيقرنا على هذا الخاطر: فالحلم مفكك، لا يجد غضاضة في قبول المتناقضات مهما عظمت، وأما المستحيلات فحبلها مرسل على غاربه، وأما المعرفة التي نعلِّق عليها أكبر الأهمية في النهار فتغفل إغفالاً، ثم هو . أعني الحلم . يظهرنا في مظهر البلهاء آداباً وخلقاً، ولو أن أحداً سلك مستيقظاً مسلكه في تصوير الحلم لظن به مساً، ولو أن أحداً تحدث مستيقظاً على نحو ما يتحدث الناس في أحلامهم، أو أفاض بنوع الأشياء التي تعرض له في الحلم، لخلناه مختلط الفكر أو ضعيف العقل؛ فلا يبدو أننا نجاوز تسجيل الحقيقة حين نعرب عن أضأل التقدير لنشاط النفس في الحلم وحين نقول: إن ملكاتنا العقلية . وما علا منها مرتبةً بنوعٍ خاص . تعطل في الحلم تعطيلاً، أو على الأقل يدركها خلل بليغ.

وقل أن اتفق المؤلفون في شيء اتفاقهم على مثل هذا النوع من الأحكام في صدد الحلم . وأعرض لمن شذَّ منهم فيما بعد [ص 106 وما يليها] . وأن هذه الأحكام لتسوقهم بدورها إلى نظرية معينة أو إلى تعليل معيّن للحياة الحالمة. ولكن ينبغي عليّ الآن أن أترك التلخيص مورداً بدله طائفة من النصوص لكتَّاب مختلفين . فلاسفة وأطباء . في موضوع الخصائص السيكولوجية للحلم.

ففي رأي لوموان أن الخاصة الجوهرية الوحيدة للأحلام هي فقدان التناسق بين صورها.

ويؤيده موري فيقول (1878، 163): «لا وجود لحلم لا يجانب المعقول بعض المجانبة، أو لا تضم أعطافه بعضاً من التنافر أو من الخلط الزمني أو من فساد المنطق»[77].

ويرى هيجل . على ما يرويه شپيتا . أن الأحلام تخلو من كل تناسق موضوعي معقول.

ويقول دوجا: «الحلم هو الفوضى النفسية، وجدانية وعقلية، هو لعب الوظائف وقد أسلم لها حبلها، ممارسةً عملها من غير ضابط ولا هدف؛ فالذهن يمسي في الحلم آلة ذهنية»[78].

ويتحدث فوللكت نفسه . وهو البعيد عن أن تجرّد نظريته النشاط النفسي المبذول في أثناء النوم من الغاية . يتحدث (ص 20) عن «الاسترخاء والتفكك والاختلاط التي تصيب الحياة الفكرية، بعد ترابطها في خلال اليقظة بفعل القوة المنطقية للأنا المركزي».

وأما فساد منطق الروابط التي تربط بين المستدعيات الواردة في الحلم، فلا يكاد أحد يفضحه بمثل قوة شيشرون في الكتاب الآنف الذكر (الكتاب الثاني [فقرة 71]): «من المحال أن نتخيّل شيئاً بلغ من الانعكاس والفوضى والشذوذ مبلغاً يعجزنا عن الحلم به»[79].

ويقول فخنر: (1889، 2، 522) «كأن النشاط السيكولوجي قد نُقِلَ من مخِّ رجل عاقل إلى مخِّ مجنون.».

ويقول رادشتوك (1879، 145): «الواقع أنه يبدو أمراً مستحيلاً أن نتميَّز أي قانون ثابت ينهج عليه هذا النشاط الملتاث. فالأحلام إذ تفلت

من الحراسة الصارمة التي تقيمها الإرادة العاقلة ويقيمها الانتباه على مجرى الأفكار المستيقظة تندفع في دوامة جنونية من الخلط الكاليدوسكوبي».

ويقول هيلد برانت (1875، 45): «أي قفزات عجيبة لا يأتيها الحالم حين يستدل مثلاً؟ بأي خفة يشهد أكثر دروس التجربة ألفة وهي تنقلب رأساً على عقب؟ أي متناقضات مضحكة يجيزها في نظم الطبيعة والمجتمع قبل أن يتجاوز الأمر حدود النكتة . كما نقول . فإذا إغراقه في الهتر يوقظه.. فنحن نحسب أن ثلاثة أضعاف الثلاثة تعدل العشرين دون أن نحرك ساكناً، ولا يدهشنا أن يستشهد كلب ببيت من الشعر أو أن يمشي ميّت إلى قبره بقدميه أو أن تسبح صخرة على وجه الماء. ولقد نتوجّه والوقار يحف بنا في بعثة خطيرة إلى دوقيه برنبورج أو أمارة ليختنشتاين لنستعرض أسطولها البحري، أو نتطوّع تحت لواء شارل الثاني عشر قُبَيْل موقعة پولتافا».

ويتحدث بنتس ونصب عينيه نظرية الحلم المقامة على أمثال هذه الآراء فيقول (1878، 33): «بين كل عشرة أحلام تسعة على الأقل لا معنى لها. فنحن نربط في الحلم بين أناس وأشياء لا تحمل أقل صلة فيما بينها، ثم ينقلب المنظر في لمح البصر كما في الكاليدوسكوب فإذا نحن أمام مجموعة أخرى أفرغ معنىً وأشد جنوناً . إن أمكن . من سابقتها. وهكذا يمضي الذهن النائم . ليس كل النوم . في لعبه المتقلب، إلى أن نستيقظ فنقرع جباهنا ونسأل أنفسنا: ألا نزال نملك القدرة على الإتيان بأفكار وخواطر معقولة.».

وأما موري فيأتي في صدد العلاقة بين صور الحلم والأفكار المستيقظة بمقارنةٍ سوف يرى فيها الأطباء بلاغة خاصة، إذ يقول (1878، 50): «إن إحداث هذه الصور التي تولّدها الإرادة في أغلب الأحايين عند الإنسان المستيقظ، هو من الذكاء كالحركات التي يطالعنا بها الرُقاص والاضطرابات الشللية بالنسبة إلى القدرة الحركية...»[80] وأما فيما خلا ذلك، فالحلم عنده: «سلسلة مكتملة من درجات الانحطاط في الملكة العاقلة المستدلة»[81] (ص 35).

ولا تكاد تكون ثمة حاجة إلى ذكر أقوال الكتّاب الذين يكررون قضية موري مطبّقة على مختلف الوظائف النفسية ذات المرتبة العالية.

ففي رأي شترومپل (1877، 26) أن جميع العمليات المنطقية القائمة على النسب والعلاقات يصيبها الخسوف في الحلم . ومن المفهوم أن هذا الرأي يظل صحيحاً وإن لم تتجلَّ في الحلم مجانبة صريحة للمعقول. ويرى شپيتا (182، 148) أن الأفكار التي ترد في الحلم تبدو مستقلة كل الاستقلال عن قانون العلية. ويلح رادشتوك وغيره على ما يميّز الحلم من ضعف ملكتي الحكم والاستدلال. وفي رأي يودْل (1896، 123) أن الأحلام مجردة من ملكة النقد، من القدرة على تصحيح مجموعة من المدركات الحسية بالرجوع إلى محتوى الشعور في جملته. ويقول هذا المؤلف عينه: «إن جميع أنواع النشاط الشعوري تجيء في الحلم، لكنها تجيء ناقصة، مكفوفة، معزولة». وأما المتناقضات التي يغرق فيها الحلم بالقياس إلى معرفتنا المستيقظة فيعللها شتريكر (مع الكثيرين من غيره) بنسياننا الحقائق في الحلم أو باختفاء العلاقات المنطقية (1879، 98)، إلى آخر كل هذا.

غير أن الكتّاب الذين ينظرون على الجملة هذه النظرة القاسية إلى الوظائف النفسية في الحلم، يقرّون للأحلام مع ذلك ببقية باقية من النشاط النفسي، وبهذا يسلم صراحة ڤونت الذي كان لنظرياته أثر حاسم في كثير من المشتغلين بهذا الموضوع. وقد يسأل سائل: وما طبيعة هذه البقية المستمرة في الحلم من النشاط النفسي السوي؟ هناك اتفاق شامل أو يكاد على أن الملكة المستحضرة . أعني الذاكرة . هي أقل الملكات تأثراً، بل هي تبدي في الحلم بعضاً من التفوّق على نفسها في اليقظة (أنظر ما سبق في ص 61 وما يليها)، وإن بدا أن جزءاً من متناقضات الحياة الحالمة يرجع إلى نسيانها. وفي رأي شپيتا أن جزء النفس الذي لا يؤثر فيه النوم هو الحياة الوجدانية ، وهذه إذن هي الموجِّهة للحلم. وهو يعني بلفظ «الوجدان»[82] «المشاعر في مجموعها الثابت، من حيث هو الماهية الباطنة العميقة للكائن الإنساني» (1882، 84).

ويلمح شولتس (1893، 37) في الأحلام نشاطاً نفسياً يتجلَّى في النزوع إلى تفسير مادة الحلم «تفسيراً استعارياً». وكذلك زيبك (1877، 11) فهو يشاهد في الحلم «ملكة التفسير التكميلي» التي تمارسها النفس إزاء جميع إحساساتها وإدراكاتها. وأما الوظيفة النفسية التي تدل الظواهر على أنها أعلى الوظائف منزلة . وأعني الشعور . فينطوي تقدير شأنها بالنسبة إلى الحلم على صعوبة خاصة. فلا شك في أن الشعور يبقى في الحلم؛ فكل معرفتنا بالحلم إنما هي مستمدة منه، ومع هذا يرى شپيتا أن الذي يدوم في الحلم إنما هو الشعور وليس الشعور بالذات. بيد أن دلبوف يعترف بأنه عاجز عن أن يفقه شيئاً من هذه التفرقة.

وتصدِّق قوانين التداعي التي تحكم تعاقب الأفكار على صور الحلم كذلك، بل إن سيطرتها لتتجلى في الحلم أشد قوة ووضوحاً. ويقول شترومپل (1877، 70): «والظاهر هو أن الأحلام تجري مجراها إما وفق قوانين الأفكار الخالصة، وإما وفق قوانين المنبهات العضوية المصحوبة بأمثال هذه الأفكار، أي دون أن يكون للتدبر أو الفهم أو الذوق الجمالي أو الحكم الخلقي أي أثر فيها». والمؤلفون الذين أسوق آراءهم يتصورون عملية تكوين الحلم على نحوٍ قريب من النحو الآتي: إن المنبهات الحسية المتولدة من مختلف المصادر التي سبق أن أحصيتها [أنظر قسم ج] تثير مجتمعةً عدداً من الأفكار في النفس، فتصوَّر هذه الأفكار في صورة هلاوس (والأصح في رأي ڤونت هو أن نقول: في صورة أوهام حسية؛ نظراً لتفرعها عن منبهات خارجية وباطنية) وترتبط هذه الأفكار فيما بينها على حسب قوانين التداعي المعروفة، ثم هي تستدعي طائفة أخرى من الأفكار

(أو الصور) على حسب ذات القوانين، وعندئذ يعمل الجزء الباقي على نشاطه من ملكات النفس المنظمة المفكرة عمله في هذه المادة جميعها بقدر مطاوعتها (أنظر على سبيل المثال ؟ونت و؟يجانت). ولكن ما من أحد وفّق بعدُ إلى تبيان ما هي الدوافع التي تجعل استدعاء الصور غير الناشئة من الخارج يجري وفق هذا القانون من قوانين التداعي أو ذاك.

بيد أن ثمة أمراً كثرت ملاحظته: وهو أن الروابط التي تصل بين صور الحلم هي روابط من نوع فريد على الإطلاق، تختلف من تلك التي تعمل في الفكر المستيقظ. فيقول فوللكت (ص 23): «إن المستدعيات تتلاحق في الحلم وتتلامس وفق أوجه من الشبه عارضة وروابط تكاد تدق على الإدراك. ولا يخلو حلم من أمثال هذه المستدعيات المتراخية الواهنة». ويعلّق موري أهمية قصوى على هذه السمة التي تميز ترابط الأفكار في الحلم؛ لأنها تمكنه من المماثلة بين الحياة الحالمة وبعض الاضطرابات العصبية. فهو يقول بسمتين رئيستين تميزان «الهذيان»: (1) نشاط النفس نشاطاً تلقائياً أشبه بالآلي، (2) تداعي الأفكار تداعياً فاسداً غير منتظم[83] (1878، 126). ويضرب موري نفسه مثالين ممتازين من أحلامه كان مجرد التماثل الصوتي واسطة الربط بين صور الحلم فيهما. فقد رأى في الحلم مرة أنه في حجٍ (بلريناج) إلى القدس أو مكة، ثم بعد مغامرات متعددة رأى نفسه يزور الكيميائي بلتييه الذي سلَّمه . بعد أن تحدث إليه قليلاً . مجرفة (بل) من الزنك انقلبت في جزءٍ تالٍ من الحلم سيفاً مصفحاً (ص 153). ورأى في حلم آخر أنه يسير في طريق ممتد وهو يقرأ أرقام الكيلومترات الدالة على المسافات، ثم بعد ذلك صار في دكان بقال رأى فيه ميزاناً ضخماً ورجلاً يضع في إحدى كفتي الميزان موازين كيلو جرامية لكي يزن موري، ثم قال له البقال: «إنك لست في باريس بل في جزيرة جيلولو » وأعقبت ذلك مناظر أخرى رأى فيها أزهار لوبليا ثم الجنرال لوبيز . وكان قد قرأ نبأ موته منذ زمن قريب ،. وأخيراً استيقظ من نومه بينما كان يلعب اللعبة المسماة لوتو[84].

ولكنّا لن نفاجأ بالطبع إذا وجدنا أن هذا التقدير الضئيل لنشاط الحلم النفسي لم يترك بغير معارضة. ولا شك في أن المعارضة لا تبدو هنا بالشيء الهيّن. فلا وزن لأن يؤكد أحد محقري الأحلام (شبيتا، 1882، 118) أن ذات القوانين التي تهيمن على حياة اليقظة تصدق على الحلم كذلك، أو إذا أعلن آخر (دوجا) «أن الحلم لا يخالف العقل، بل هو لا يخلو منه كل الخلو»[85]، ما داما لا يتكلفان عناء التوفيق بين مثل هذه الأقوال وبين ما سبق أن قدماه عن فوضى الحياة النفسية في الحلم وتفكك جميع الوظائف العقلية في خلاله. ولكن ثمة فريقاً آخر من المؤلفين يبدو أنهم قد لمحوا أن الحلم ربما كان له في جنونه منهج، وأن هذا الجنون قد لا يعدو أن يكون قناعاً، مثلما كان من أمر الأمير الدانمركي [هاملت] الذي أطلق على جنونه هذا الحكم الثاقب. ولا بد أن هؤلاء المؤلفين قد تجنبوا الحكم على الحلم بحسب ظاهره أو يكون الحلم قد طالعهم بظاهر مختلف جداً.

فعلى هذا النحو يتحدث ها؟لوك إليس عن الأحلام دون أن يتوقف طويلاً عند مظهر مجانبتها للمعقول فيقول: إنها «عالم أثري من الانفعالات المبهمة والأفكار الناقصة»[86]، عالم قد تكشف لنا دراسته عن المراحل البدائية لتطور الحياة النفسية. ويعرب ج. سوللي (1893، 362) عن هذا الرأي نفسه على نحوٍ أشد بعدُ شمولاً ونفاذاً، وإن كلماته لتستحق المزيد من انتباهنا إذا تذكرنا أنه ربما كان أرسخ السيكولوجيين اقتناعاً بأن للأحلام معنىً دفيناً، يقول: « وأحلامنا وسيلة تحفظ بها بهذه الشخصيات المتعاقبة (القديمة)؛ فنحن حين نكون نياماً نرجع إلى طرائقنا القديمة في النظر إلى الأشياء والتأثر بها، إلى اندفاعات وضروب من النشاط كانت تسيطر علينا منذ زمن قديم»[87]. ويقول مفكر مثل دلبوف . وإن لم يستند رأيه إلى كبير حق لأنه لم يفنِّد الوقائع التي تناقضه .: «إن جميع ملكات النفس فيما خلا الإدراك الحسي: الذكاء والمخيلة والذاكرة والإرادة والخلق، تبقى في خلال النوم هي هي في جوهرها، كل الأمر أنها تطبق على موضوعات متخيلة لا ثبات فيها. فالحالم ممثل يظهر كيف يشاء: مجنوناً وعاقلاً، جلاداً وضحية، قزماً وعملاقاً، شيطاناً وملاكاً»[88] (1885، 222) ويبدو أن أشد من عارض الانتقاص من النشاط النفسي في الحلم هو الماركي درفاي الذي جادله موري جدالاً مستحراً والذي ذهبت كل جهودي من أجل العثور على كتابه عبثاً. فموري يحدثنا عنه قائلاً (1878، ص 19): «إن الماركي درفاي ينسب إلى الذكاء وهو نائم حرية غير منقوصة في العمل والانتباه، وهو يبدو كأنما كان من رأيه أن النوم لا يقوم إلا في إطباق الحواس، في إيصادها دون العالم الخارجي، بحيث لا يكاد يتميز الإنسان النائم على حسب نظرته من هذا الذي يسرح فكره وقد سدَّ منافذ حواسه. وكل الفرق الذي يفصل عندئذ بين التفكير المألوف وتفكير النائم هو أن الفكرة تتّخذ عند هذا الأخير شكلاً مرئياً موضوعياً وتشبه الإحساس المتعيّن بالموضوعات الخارجية حتى لنخلط بينهما، وتستعير الذكرى مظهر الواقعة الحاضرة»[89].

بَيد أن موري يضيف إلى ذلك قوله: «إن ثمة فرقاً فوق ذلك وفرقاً له كل الخطورة، وأعني به أن الملكات العقلية للنائم لا تبدي التوازن الذي تلتزمه عند المستيقظ»[90].

فإذا رجعنا إلى ؟اشيد الذي ينقل إلينا صورة أوفى عن كتاب درفاي، وجدنا نصاً لهذا المؤلف يُعرب فيه عن رأيه في تجرد ظاهرة الحلم من التناسق على النحو الآتي: «صورة الحلم نسخة الفكرة؛ فالجوهري هو الفكرة، وأما الرؤيا فلباس عارض. وإذا كان الأمر كذلك، لزم أن نعرف كيف نتتبع سير الأفكار، لزم أن نعرف كيف نحلل نسيج الحلم: حينئذ يصير اللاتناسق شيئاً مفهوماً، وتصير أشد الأحلام إغراباً في الخيال وقائع لا تعقيد

فيها ولا خلل في منطقها» (1911، 146). ثم يقول (ص 163): «وإن أكثر الأحلام غرابة لتلقى تعليلاً كأكثر ما يكون منطقاً، إذا عرفنا كيف نحللها».[91]

ولقد نبّه شتاركه إلى مؤلف أقدم عهداً، لم أكن أعلم من أمره شيئاً، علل خلو الحلم من التناسق تعليلاً مماثلاً في عام 1799، هذا المؤلف هو فولف دافيدسون، يقول (1799، 136): «إن القفزات الغريبة التي تقفزها أفكارنا في الحلم تستند جميعها إلى قانون التداعي. غير أنه يحدث أحياناً أن تخطر هذه الروابط للنفس على نحو غامض جداً، بحيث يهيأ إلينا أننا نشهد قفزة من قفزات الفكر وليس في الحقيقة شيء من ذلك».

وهكذا يتفاوت تقويم الحلم من حيث هو نتاج نفسي تفاوتاً واسع النطاق في مختلف المؤلفات: فمن أقصى التحقير الذي رأينا صنوفاً من العبارة عنه، إلى إلماع إلى قيمة لم تُفض، فإلى أقصى الإطناب الذي يقدم الحلم على وظائف حياة اليقظة جميعاً. ومن هذين الطرفين المتقابلين يؤلف هيلد برانت ثالثة المتناقضات الثلاث التي رأينا [في ص 59] أنه يجمل فيها الخصائص السيكولوجية للحياة الحالمة، يقول [1875، 19]: وثالثة المتناقضات تقوم في اشتداد الحياة النفسية والسمو بها سمواً يبلغ حد المهارة المعجزة ، من جهة، ونقص وضعف كثيراً ما يهبطان بها دون المستوى الإنساني من جهة أخرى».

«إليك الوجه الأول: من ذا الذي لا يجد في خبرته ما يؤيد أن عبقرية الحلم تبدي أحياناً . فيما تخلق وتحيك . عمقاً في الوجدان وصدقاً، ورقَّة في الإحساس، ووضوحاً في النظر، ودقة في الملاحظة، وتوقداً في القريحة، يحملنا التواضع على أن نقر بأننا لا نتسم بمثلها دائماً في يقظتنا؟ فللحلم شاعرية تبهر، وتمثيل محكم، وفكاهة لا تجارى، وسخرية مستملحة. إنه ينظر إلى العالم في ضوء يضفي عليه مثالية فريدة، وكثيراً ما يُعلى الأثر الذي لمجاليه بفهمٍ عميق لماهيته. الجمال الدنيوي يمثله لناظرنا في بهاء سماوي، وما سما خلع عليه أرفع حلل الجلال، وأما ما نعهد منه المخافة فيتخذ أبشع أشكاله، وأما الدعابة فتنقلب مجوناً يدفع إلى ضحك جارف لا يوصف. ولقد نستيقظ وخبرة من هذا القبيل لا تزال تستحوذ علينا، فلا نملك إلا أن نحدّث النفس: بمثل هذا ما أتتنا دنيا الواقع قط».

وللمرء أن يسأل بعد ذلك: أهو ذات الموضوع يلقي هاته الملاحظات المحقرة وهذا المديح المتّقد؟ ألا يكون أن بعض الكتّاب قد أغفل الأحلام فاسدة المنطق على حين أغفل البعض الآخر عميقها ومستدقها؟ وإذا كان كلا النوعين يقع . ما استحق هذا الحكم وما استحق ذاك . أفلا يكون من العبث أن نلتمس للحلم خاصّة تميزه، ألا يكفي القول: كل شيء ممكن في الحلم، من انحطاط الحياة النفسية إلى أسفل درك، إلى سمو قلّ أن نذوقه في حياة اليقظة؟ إن هذا الحل مهما كان من يسره وتيسيره يلقى دونه تلك الحقيقة: وهي أن جهود بحثة الحلم جميعاً تبدو مقامة على إيمانهم بأن ثمة بالفعل خاصة كهذه، تصدق في ملامحها الجوهرية صدقاً شاملاً، ومن شأنها أن ترفع هذه المتناقضات.

ولا جدال في أن الوظائف النفسية للحلم كانت تلاقي قبولاً أسرع وأحسن في تلك الفترة العقلية التي تجثم اليوم وراءنا، حين كانت الفلسفة هي المسيطرة على العقول وليس العلم المضبوط. فأن يقول قائل مثل شوبرت بأن الحلم خلاص للروح من قسر الطبيعة الخارجية، تحرير للنفس من أغلال الحس، إلى مثل هذا من أحكام فيخته الصغير وغيره[92] مما يصوِّر جميعه الحلم في صورة سمو بالحياة النفسية إلى درجةٍ أعلى، أمر يبدو لنا اليوم فوق التصور أو يكاد، وليس يردده في زماننا إلا المتصوّفة والتقويون[93]. فإن الأسلوب العلمي في التفكير قد جلب معه انقلاباً في تقويم الأحلام. فالمؤلفون الأطباء على التحديد هم أجنح الكتّاب إلى وصم النشاط النفسي في الحلم بالتفاهة والتجرد من القيمة، على حين أن الفلاسفة والملاحظين غير المحترفين . هواة السيكولوجيين . ممن لا يستهان بمددهم في هذا المجال بالذات، قد ثبتوا بوجه عام على الأخذ بقيمة الحلم النفسية، وهم في ذلك أكثر اتفاقاً والإحساس الشعبي. ونفهم أن من نزع إلى حط قيمة النفس في الحلم يؤثر مصادر التنبيه الجسمية عند تعليله للأحلام، وأما من يترك للنفس الحالمة الجزء الأعظم من ملكاتها المستيقظة، فلا يحتاج بالطبع إلى أن ينكر أن فعل الحلم قد تكون له أيضاً مهيِّجاته النفسية القائمة بذاتها.

والذاكرة هي أظهر الملكات العالية المرتبة التي يمكن أن يغرى المرء بإضافتها إلى الحياة الحالمة حتى بعد المقارنة المتزنة، وسبق أن فصّلنا الكلام فيما يثبت ذلك من خبرات لا يندر وقوعها. وميزة أخرى للحياة الحالمة كثيراً ما أشاد بها الكتّاب الأقدمون، هي سموّها فوق فواصل الزمان والمكان. بيد أن من السهل أن نبيِّن أنَّ الأمر هنا لا يعدو أن يكون وهماً؛ فهذه المزية . كما يلاحظ هيلد برانت . مزية موهومة، لأن فعل الحلم إنما يسمو على الزمان والمكان مثلما يفعل التفكير المستيقظ سواء بسواء، ولذات السبب: وأعني به أن هذا الفعل ليس إلا صورة من صور التفكير. ولقد نسبت إلى الحياة الحالمة مزية أخرى تتصل بالزمن، هي استقلاله عن جريانه بمعنى آخر: فحلم كالذي رويناه لموري في صفحة 75 بإعدامه بالمقصلة، يبدو شاهداً على أنَّ في مقدور الحلم أن يحشد في برهة من الدهر قصيرة غاية القصر محتوىً إدراكياً يزيد كثيراً على ما يطيق تفكيرنا المستيقظ معالجته. بيد أن هذه النتيجة قد قامت عليها حجج شتّى، ومنذ مقالات لولوران وإيجيّر عن «الديمومة الظاهرة للأحلام» وهذا الموضوع مثار مناقشة طويلة، ممتعة، لم تنته بعدُ على الراجح إلى التعليل الأخير لهذه المسألة الدقيقة العميقة المضمون[94].

وأما قدرة الأحلام على متابعة شواغل النهار العقلية والمضي بها إلى نتائج تعذر بلوغها في أثنائه، قدرتها على أن تجلو شكوكاً ومشكلات

وعلى أن تكون مصدر إلهام جديد للشعراء والمؤلفين الموسيقيين، فهذا ما يبدو أمراً لا منازعة فيه بعد الروايات المتعددة وبعد الأمثلة التي جمعها شابانيكس. بيد أن الواقعة ـ وإن ارتفع الجدل في شأنها ـ لا يزال يستهدف مفهومها لشكوك شتّى تتناول المبادىء ذاتها[95].

وأخيراً فما يُقال عن قوة الأحلام عن الإنباء بالغيب موضع لنزاع تُقابل فيه اعتبارات لا يكاد يكون لها دفع بتوكيدات عنيدة معادة. ولا شكَّ في أننا نحسن صنعاً إذا تجنبنا إنكار كل سند من الواقع لهذا الرأي؛ فقد نوفَّق عمّا قريب إلى تعليل سيكولوجي طبيعي لطائفة من الحالات.

و
الحاسّة الخلقية في الحلم

لقد فصلت عن موضوع سيكولوجية الحلم تلك المشكلة الجزئية: هل تمتد الاستعدادات والمشاعر الخلقية إلى الحياة الحالمة، وإلى أي مدى؟ وذلك لأسباب لن تتَّضح إلا بعد الإحاطة بمباحثي. وهنا أيضاً سوف نجدنا من جديد أمام ذلك التناقض الذي عجبنا له من غير شك في حديث المؤلفين عن كافة الوظائف النفسية الأخرى في الحلم؛ فيؤكد كتّاب أن الحلم لا يعرف التزامات الخلق، وبمثل ثقتهم يؤكد كتَّاب آخرون أن خلق المرء يدوم في حياته الحالمة.

فإن احتكمنا إلى خبرتنا المألوفة بالإحلام، بدا أنها تؤيِّد أول هذين الرأيين تأييداً لا يرقى بعده شك. يقول يسّن (1855، 553): «إنا لا نصير في الحلم أحسن أو أفضل، بل على العكس يبدو الضمير في الحلم أخرس، فلا يستشعر المرء أثراً من شفقة، ولقد يرتكب أقبح الجرائم، فيسرق ويغتصب ويقتل، دون أن يكترث أقل اكتراث لما هو فاعله ودون أن يلحقه الندم».

ويقول رادشتوك (1879، 146): «ولا ننسى أن الحلم تخطر فيه المستدعيات وتتَّصل الأفكار دون أقل التفات إلى التدبر أو العقل أو الذوق الجمالي أو الحكم الخلقي. فملكة الحكم ضعيفة غاية الضعف والانصراف عن القيَم الخلقية هو الغالب».

ويقول فوللكت (1875، 23): «الأحلام . كما نعلم جميعاً . مطلقة الجماح فيما يتصل بالأمور الجنسية بنوعٍ خاص. فالحالم تغيب عنده كل قطرة من الحياء ويهجره كل شعور أو حكم خلقي، ثم هو فيما يتعلق بالآخرين كذلك يراهم جميعاً . لا يستثني منهم أولئك الذين يكن لهم أعمق الاحترام . في أحوالٍ يرتاع في يقظته من التقريب بينهم وبينها ولو بالفكر».

وعلى نقيض ذلك نجد أقوالاً كتلك التي يذهب إليها شوبنهاور تؤكد أن كلاً منا يسلك في الحلم ويتحدث بما يتَّفق وطبعه كل الاتفاق. فيؤكد ك. ب. فيشر[96] أن المشاعر الذاتية والرغبات أو الحالات الوجدانية والانفعالات تكشف عن نفسها في انطلاق الحياة الحالمة، وأنَّ الأحلام مرايا تعكس الخواص الخلقية للناس.

ويقول هافنر (1884، 251): «وفيما خلا شواذ نادرة... يبقى الفاضل فاضلاً في حلمه، فيقاوم الإغراء وينأى بنفسه عن الكراهية والحسد والغضب وسائر الرذائل، وأمَّا الأثيم فلا يرى في أحلامه عادةً سوى صور سبق أن خطرت له في يقظته».

ويقول شولتس (1887، 36): «في الأحلام الحقيقة؛ ففيها نرى أنفسنا على ما هي عليه، بالرغم من كل قناعٍ قد نتخذه للملأ بالنبالة أو بالذلة. فالكريم لا يرتكب جرماً شائناً ولو في الحلم، فإن فعل، استفظع فعله كأنه شيء غريب عن طبيعته. والإمبراطور الروماني الذي أمر بموت أحد رعاياه لأنه رأى في المنام أنه يطوح برأس الإمبراطور، لم يجانب الصواب كثيراً حين برّر عمله استناداً إلى أن مثل هذه الرؤيا لا تأتي إلا من كانت له في يقظته مثل هذه الخواطر. وإنا لنعرب عن الأمر الذي لا يمكن أن يكون له مكان في سريرتنا بعبارة لها مغزاها: ذلك ما لا يخطر لي ولو في الحلم».

وعلى العكس من ذلك يرى أفلاطون أن أحسن الرجال من اقتصروا على أن يحلموا بما يصنع غيرهم وهم مستيقظون.

ويقول فاف[97] على غرار كلمة معروفة: «خبِّرني بأحلامك، أخبرك ما دخيلتك».

ومشكلة الخلق في الحلم هي المحور الذي يدور من حوله كتيب هيلد برانت الذي كثيراً ما استشهدت من قبل بنصوصٍ منه؛ لأنه بين كل ما وُضع في دراسة الحلم أبلغه عبارةً وأثراه فكراً. والقاعدة الثابتة في نظر هيلد برانت كذلك، هي أنه بقدر طهارة الحياة تكون طهارة الحلم، وبقدر دنسها دنسه.

فهو يعتقد أن طبيعة الإنسان الخلقية تبقى في الحلم كذلك، ويقول: «فبينما لا يدعونا الخطأ في الحساب، مهما كان ظهوره، أو قلب القوانين العلمية، مهما كان شططه، أو خلط التواريخ، مهما كان مضحكاً، إلى التأفف أو حتى مجرّد الاستغراب، ترانا مع هذا نفرِّق بين الخير والشر، بين الصواب والخطأ، بين الفضيلة والرذيلة. فكل ما يلازمنا في نهارنا قد تمحوه ساعات الهجوع، كله أو جلّه، إلا أمر كانْت المطلق[98] فإنه يتعقَّب خطانا كرفيق لا انفصال له عنَّا ولا خلاص لنا منه ولو بالنوم... وهذا ما لا يعلله إلا ثبوت الجزء الأساسي من الطبيعة الإنسانية، أعني ماهيّتها الخلقية،

ثبوتاً وطيداً يقيها هذا الخلط الكاليدوسكوبي الذي يصيب في الحلم المخيِّلة والعقل والذاكرة وما شاكلها من سائر الملكات» (1875، 45 وما يليها).

غير أن كلا الفريقين من الكتّاب لا يلبث أن يبدي في مستأنف نقاشه في هذا الموضوع تذبذباً في الرأي وخروجاً عن منطقه خليقين بأن ننتبه إليهما. فأولئك الذين يرون في الحلم القضاء على الشخصية الخلقية للمرء كان يجب عليهم ـ إذا أردنا الصرامة في المنطق ـ ألا يبالوا بعد ذلك بالأحلام المنافية للأخلاق وكان يسعهم أن يمتنعوا عن كل محاولة تهدف إلى تحميل الحالم مسؤولية أحلامه أو إلى الاستدلال بسوئها على سوء معدنه، وذلك بمثل الهدوء الذي يمتنعون به عن محاولة شبيهة بهذه، فلا يستدلون بخطأ الحالم في أحلامه على ضِعة وظائفه العقلية في يقظته. وأما من يرون أن «الأمر المطلق» يتغلغل إلى الحلم نفسه، فكان من حق المنطق عليهم أن يقبلوا مسؤولية الأحلام المنافية للأخلاق من غير قيدٍ، ولا يبقى إلَّا أن نرجو لهم ألا تزورهم أحلام من هذا النوع الذميم تخطِّىء إيمانهم الوطيد بقيمتهم الخلقية.

ولكن الذي يبدو هو أنه ما من أحد يعلم بكل هذا اليقين إلى أي مدى خيِّر هو أم شرير، وأنه ما من أحد يستطيع أن ينكر أنه يذكر أحلاماً له تنافي الأخلاق؛ فالكتَّاب من كل فريق ـ بغض النظر عن تقابل آرائهم في صدد خلقية الحلم ـ يجهدون لكي يبيّنوا أصل الأحلام المنافية للأخلاق، وهنا يدب بينهم خلاف جديد في الرأي، على حسب الوجهة التي يلتمسون فيها هذا الأصل: أفي وظائف الحياة النفسية، أم فيما يداخل هذه الحياة من تأثيرات ذات علل جسمية. وهكذا تحمل قوة الواقع [القائلين بمسؤولية الحياة الحالمة والقائلين بارتفاع هذه المسؤولية على السواء]، تحملهم على أن يلتقوا جميعاً في التسليم بأن لا خلقية الحلم لها مصدر نفسي خاص.

ويحرص أولئك الذين يعتقدون أن الطبع الخلقي لا يبرح في الحلم على أن يتجنّبوا الاضطلاع بمسؤولية أحلامهم كاملة. فيقول هافنر (1887، 250): «نحن غير مسؤولين عن أحلامنا؛ فقد تقوض فيها أساس الإرادة والفكر، هذا الأساس الذي به وحده يتوافر لحياتنا الصدق والوجود... ومن ثم ارتفعت الفضيلة والرذيلة عن رغائب الحلم وفعاله». بيد أن الإنسان يظل مع ذلك مسؤولاً عن أحلامه الآثمة، من حيث كونه علّتها غير المباشرة. ولهذا كان من الواجب عليه أن يطهر نفسه تطهيراً خلقياً في يقظته، وبخاصة قبل التوجه إلى النوم.

ويزوّدنا هيلد برانت بتحليلٍ أعمق كثيراً لهذا المزيج من الرفض والقبول إزاء مسؤوليتنا عن المحتوى الخلقي لأحلامنا. فهو بعد أن يفصل الكلام في أن من الضروري عند النظر في مظهر الأحلام المنافر للأخلاق أن ندخل في حسابنا أسلوبها الدرامي[99] في التصوير ثم حشرها أعقد العمليات الفكرية في أقصر برهة من الزمن، ثم ما تؤول إليه العناصر الفكرية في الحلم من فقدان القيمة ومن الاختلاط اللذين يسلّم بهما هو نفسه، يعود فيعترف بأن ثمة اعتبارات من أخطر ما يكون تنبغي الرويّة فيها قبل أن نطرح كل مسؤولية عن خطايا الحلم وذنوبه.

يقول (1875، 49): «عندما نريد أن نبرّىء أنفسنا تبرئة قاطعة من تهمة مجحفة وجِّهت إلينا، وبخاصة إذا تعلقت التهمة بنيَّاتنا ومطامعنا، فإننا نستعمل ذلك التعبير السائر: هذا ما لم يكن يخطر لي ولو في الحلم. ولا شك في أننا نعني بذلك، من ناحية، أننا نعتبر الحلم أقصى وآخر منطقة يمكن أن نُسأل فيها عن أفكارنا، لأن الأفكار هناك لا يربط بينها وبين جوهرنا الحقيقي إلا رباطٍ واهٍ متراخ حتى لا نكاد نستطيع أن نعدها منا، ولكننا من حيث نشعر بدافع إلى أن ننفي صراحة وجود مثل هذه الأفكار ولو في تلك المنطقة، نسلِّم في الوقت عينه تسليماً ضمنياً بأن براءتنا لا يتحقق لها التمام إلا إذا بلغت هذا المدى. وأعتقد أننا نتحدث عندئذٍ بلغة الحق، وإن يكن على غير وعيٍ منا».

ثم يقول (ص 61 وما بعدها): «ومن المحال أن نتصور فعلاً من أفعال الحلم لم يعرض للنفس المستيقظة الدافع الأصيل إليه في صورة رغبة أو شهوة أو اندفاع». ومن الواجب أن نقول في صدد هذا الاندفاع الأول: إن الحلم لم يبتدعه ابتداعاً، كل الأمر أنه حاكاه وأنماه، أو هو لم يعد أن يصوغ في قالب درامي رقعة من نسيج تاريخنا عثر عليها في أنفسنا، إنه يخرج[100] كلمة الرسول: كل من يبغض أخاه فهو قاتل النفس[101]. ولقد نبسم بعد أن نستيقظ ونحن شاعرون بقوتنا الخلقية لجميع هذا الطيف الذي أحكم خلقَه الحلم الأثيم، ولكن ما من ضحكٍ يستطيع أن يخلصنا من المادة الأولى التي خلق منها الحلم. فالإنسان يشعر بأنه مسؤول عمّا يرتكبه وهو حالم من المعاصي ـ لا عنها جميعاً، ولكن عن نسبة مئوية منها مع ذلك. «وخلاصة القول هي أننا إذا أخذنا كلمة المسيح: من القلب تخرج أفكارٌ شريرة[102]، بهذا المعنى الذي لا يكاد يحتمل جدالاً، تعذَّر علينا أن نغالب الاعتقاد بأن كل إثم يؤتى في الحلم يجر معه على الأقل حداً أدنى مبهماً من استذناب النفس».

وهكذا يرى هيلد برانت مصدر لاخلقية الحلم فيما يعرض للنفس نهاراً، في صورة أفكارٍ أمَّارة بالسوء، من بذور الاندفاعات الشريرة وومضاتها، ثم هو لا يتردد في أن يحسب لهذه العناصر المنافية للخلق حسابها في تقدير خلق الشخص. ونعلم أن هذه الأفكار الأمَّارة بالسوء عينها، وأنَّ ذات النظرة في تقديرها، هي التي ساقت الأتقياء والقديسين من جميع العصور إلى التحسر على استبداد الخطيئة بهم[103].

وما من شك في أن هذه الأفكار المباينة لما عداها شيء كثير الوقوع عند الغالبية العظمى من الناس، وفي ميادين أخرى غير الميدان الخلقي. ولكن الحكم عليها كان أقل صرامة أحياناً. ويستشهد شيبتا (1882، 144) بنصٍ من تسللر (1818) يناسب هذا المقام: «وقل أن يكون لعقلٍ من سداد التنظيم ما يمكّنه من قواه كاملة في كل وقت، ويصون دائماً سير فكره الواضح المنتظم من أن تعوقه أفكار لا نقول: ثانوية وحسب،

بل قبيحة معكوسة إلى أبعد المدى أيضاً. ولقد رأى أعظم المفكرين على التأكيد ما يدعوهم إلى الشكوى من هذه الحثالة من الخواطر الشبيهة بالحلم، الماجنة، المعذبة؛ فهي تزعج أعمق تأملاتهم وأشد أفكارهم جدّاً ومهابة».

ولهيلد برانت ملاحظة أخرى تلقي ضوءاً أسطع على المغزى السيكولوجي الذي تتضمنه هذه الأفكار المباينة، ومؤدّى ملاحظته هو أن الأحلام تتيح لنا الظفر بنظرة عارضة إلى أغوار وجودنا وثناياه، هذا الوجود الذي يظل موصداً دوننا عادة في خلال اليقظة. ويعرب كانْت عن هذه الفكرة نفسها في فقرة من كتابه في علم الإنسان [1798]، يعلن فيها أن الغاية من الحلم ربما كانت الكشف عن استعداداتنا الدفينة، وإظهارنا لا على ما نحن عليه بل على ما كان يحتمل أن نكونه لو أننا نشئنا تنشئة أخرى. ويقول رادشتوك (1879، 84): «إن الحلم إنما يُظهر ما لا نود مصارحة أنفسنا به، ونحن إذن نظلمه حين نرميه بالكذب والخداع». ويقول ي. إ. إردمان: «ما أرتني الأحلام قط كيف ينبغي لي التفكير في شأن رجلٍ ما، فأما كيف أفكر فيه حقيقة، وما هي نيّاتي نحوه، فذلك ـ لبالغ دهشي ـ ما علّمني الحلم إياه أحياناً». ويقول ي. هـ. فيخته (1864، 1، 539): «إن الطابع الذي يسم أحلامنا مرآة تصوّر لنا حالتنا النفسية في مجموعها تصويراً أصدق كثيراً مما نستطيع تحصيله في يقظتنا بالملاحظة الذاتية». وإنَّ انبعاث هذه الاندفاعات الغريبة عن شعورنا الخلقي ليناظر ظاهرة أخرى عرفناها من قبل، وأعني بها نفاذ الحلم إلى مادة فكرية تغيب في حالاتنا المستيقظة أو لا يكون لها في أثناء هذه الحالة سوى شأن ضئيل. وهذا هو ما تنبّهنا إليه ملاحظة مثل ملاحظة بنيني: «إنَّ رغباتنا التي ظننا زمناً أنها قد اندثرت وانطفأت توقظ من جديد، ومن جديد تبعث إلى الحياة الانفعالات القديمة المقبورة. وتمثّل أشياء وأشخاصاً لا نفكر في أمرها وأمرهم إطلاقاً»[104] (1898، 149)، أو ملاحظة فوللكت: «وكذلك الشأن في الأفكار التي تلج الشعور غير ملحوظة أو لا تكاد والتي قد لا نستحضرها إلى الذاكرة بعد ذلك قط؛ فإنها كثيراً جداً ما تعلن عن وجودها في النفس بوساطة الحلم» (1875، 105). وأخيراً فلنا أن نتذكر في هذا المعرض حديث شلايرماخر عن اصطحاب فعل الأخذ في النوم بانبعاث الأفكار (أو الصور) اللاإرادية (أنظر ص 96).

ولنا إذن أن ندرج في باب «الأفكار اللاإرادية» جميع المادة الفكرية التي يثير انبعاثها استغرابنا، في الأحلام اللاخلقية واللامعقولة على السواء. بيد أن ثمة فارقاً هاماً بين الحالتين. هذا الفارق هو أننا نرى أن الأفكار اللاإرادية المتعلقة بالمجال الخلقي تناقض ما نألف من مشاعرنا، بينما تبدو لنا الأخرى عجيبة وحسب. وما من خطوة اتُّخذت حتى اليوم من أجل الوصول إلى معرفة أعمق غوراً تتجاوز هذه التفرقة.

والآن، ما هو معنى ظهور الأفكار اللاإرادية في الحلم، وأي النتائج تخلص لعلم النفس المستيقظة والحالمة من هذا الانبعاث الليلي للنوازع الخلقية المباينة لما عداها؟ هنا تعود الآراء فتنقسم من جديد، ويعود المؤلفون أيضاً فيجتمعون أو يتفرقون شيَعاً على نحوٍ جديد. فالفكرة التي قال بها هيلد برانت وغيره من الذين يشاطرونه جوهر رأيه تسوق لا محالة إلى التسليم بأن الاندفاعات اللاخلقية تملك قدراً من القوة في حياة اليقظة نفسها، غير أنها قوة مكفوفة لا تملك التقدم إلى حيّز العمل، وبأن شيئاً يبطل في أثناء الليل، كان له في النهار فعل الكف، فحال دوننا والانتباه إلى وجود أمثال هذه الاندفاعات. والحلم إذن قد يكشف عن طبيعة الإنسان الحقيقية، وإن لم يكشف عن طبيعته كلها، وقد يكون إحدى الوسائل في تقريب باطن نفسه المستتر من معرفتنا. فهذا الفرض وحده هو الذي يخوّل لهيلد برانت أن يعزو إلى الحلم قوة النذير الذي يجذب انتباهنا إلى معايبنا الخلقية، مثلما يعزو إليه الطبيب قوة الكشف عما تفوت ملاحظته من أدواء الجسم. ولا شك في أن شبيتا كذلك إنما يسترشد هذه النظرة حين يتحدث عن مصادر التهييج التي تؤثر في النفس في سن المراهقة مثلاً، فيعزّي الحالم بأنه إذا التزم الحياة الفاضلة في يقظته وكان حريصاً على أن يقمع الأفكار الآثمة كلما انبعثت وعلى أن يحول بينها وبين أن تنضج وتصير فعالاً، فقد صنع كل ما وسعه أن يصنع. ويحق لنا وفاقاً لهذه النظرة أن نعرف الأفكار «اللاإرادية» بقولنا: إنها أفكار «قُمعت» في خلال النهار، ويحق علينا أن ننظر إلى انبعاثها نظرتنا إلى ظاهرة سيكولوجية صادقة.

بيد أن ثمة كتَّاباً آخرين يرون أننا لا نملك ما يبرر النتيجة الآنفة. ففي رأي يسّن أن الأفكار اللاإرادية في الحلم كما في اليقظة وفي هذيان الحمّى وغير الحمّى من الحالات «تتسم بإخلاء النشاط الإرادي إلى السكينة، وبتوارد الصور والأفكار المستثارة باندفاعات باطنة تواردا آلياً إلى درجةٍ تزيد أو تنقص » (1855، 360). وكل ما يدل عليه الحلم اللاخلقي من الحياة النفسية للحالم هو أن الحالم قد سبقت له معرفة بمحتوى الحلم الفكري، ولكن الحلم لا يشهد على التأكيد بحصول صاحبه على نزوع نفسٍ ما. فإذا رجعنا إلى مؤلف آخر هو موري كاد يهيأ إلينا أنه لا ينسب إلى الحلم القدرة على هدم النشاط النفسي هدماً لا هدف من ورائه، وإنما القدرة على ردّه إلى مقوماته. فهو يقول في صدد الأحلام التي يتخطّى فيها المرء موانع الأخلاق: «إن نوازعنا هي التي تتحدث وتحركنا إلى العمل دون أن يمسكنا الضمير وإن حذّرنا أحياناً. فإن لي نقائصي ونوازعي إلى الرذيلة، فإن كنت مستيقظاً جهدت في مغالبتها، ولا يندر أن أفلح فلا أسلمها قيادي. وأما في أحلامي فأسلمه دائماً، أو قل: إنني أعمل بدفعها، من غير خوف ولا ندم... فمن الواضح أن الرؤى التي تتوارد أمام فكري والتي منها يتكوّن الحلم، توحيها إلى الحوافز التي أحسها والتي لا تسعى إرادتي الغائبة إلى كبتها»[105] (1878، 113).

وما من أحد يؤمن بقدرة الحلم على أن يرفع النقاب عن ميل للحالم منافٍ للخلق اشتملت عليه نفسه حقيقة وإن كان مقموعاً أو مستتراً، كان يستطيع أن يعرب عن هذا المعنى بأدق من قول موري (ص 129): «في الحلم إذن ينكشف الإنسان لنفسه كلّه، على ما ولد عليه من عري وعوز. فهو ما أن يعلّق استعماله لإرادته حتى يصير ألعوبة لجميع الانفعالات التي ينهانا عنها ونحن مستيقظون الضمير والإحساس بالشرف

والخوف»[106]. وفي فقرة أخرى نقرأ له هذه الكلمة الثاقبة (ص 488): «إن الذي ينكشف في الحلم هو على الأخص الإنسان الغريزي. فالإنسان حين يحلم يعود إلى الفطرة . إن جاز التعبير .. وكلما قل تأصل الأفكار المكتسبة في نفسه، زاد احتفاظ النوازع المخالفة لها بسلطانها عليه في الحلم»[107]. ومثاله على ذلك هو أنه كثيراً ما يبدو في أحلامه ضحية الخرافات التي يحاربها في كتاباته أشد محاربة.

ولكن ينقص قيمة هذه الملاحظات الثاقبة لموري من حيث أثرها في معرفتنا السيكولوجية بالحياة الحالمة رفضه أن يرى في الظاهرة التي أصاب في ملاحظتها إلى هذا المدى شيئاً آخر غير «الأوتوماتية السيكولوجية»[108] التي تسيطر على الحياة الحالمة في زعمه، والتي يرى فيها الضد التام للنشاط النفسي.

هذا، ونجد عند شتريكر (1879) فقرة يقول فيها: «إن الحلم لا يتكوَّن من أوهام وحسب؛ فحين يخاف المرء في الحلم غائلة اللصوص مثلاً، فاللصوص يقيناً من صنع خياله، لكنَّ الخوف حقيقي». وفي هذا ما ينبهنا إلى أن الحالات الوجدانية في الحلم لا تقبل الحكم الذي يصدق على سائر محتواه. ومن ثم تنشأ هذه المشكلة: أي عمليات الحلم النفسية يمكن اعتبارها عمليات حقيقية؟ وهذا يعني: أيّها يستحق أن يقسم له مكان بين العمليات النفسية لحياة اليقظة؟ زنظريات الحلم ووظيفة الحلم

كلُّ مقالٍ عن الحلم يهدف إلى تعليل أكثر ما يمكن تعليله من خصائصه الملاحظة مستنداً في ذلك إلى وجهة نظر بعينها، ثم في الوقت نفسه يعرف مكان الحلم ضمن دائرة أوسع نطاقاً من الظواهر، تجوز لنا تسميته نظرية في الحلم. وتتميز نظريات الحلم المختلفة فيما بينها من حيث تعلّي هذه الخاصة أو تلك إلى مرتبة الخاصة الجوهرية للحلم وتقيم عليها التعليلات والعلاقات. ولا يتحتم أن تتفرع عن كل نظرية وظيفة ما للحلم، سواء أكانت وظيفة نفعية أم لم تكن، بيد أننا وقد ألفنا أن نتوقع للأشياء غاياتها أكثر ترحيباً بهذه النظريات التي تلزم منها للحلم وظيفة.

ولقد أحطنا من قبل بنظرات متعددة تستحق بهذا المعنى أن يطلق عليها اسم النظريات. فاعتقاد القدامى أن الحلم ترسله الآلهة لهداية الإنسان في أفعاله كان نظرية أفادت أصحابها خبراً بكل ما كانت تنبغي معرفته عن الحلم. ومنذ أن صار الحلم موضوع بحثٍ علمي، عرفنا عدداً وافراً من النظريات، ولكن الكثير منها غاية في النقص.

فإذا لم ندَع الاستيعاب، أمكن أن نقسّم نظريات الحلم تلك الأقسام الإجمالية الثلاثة، وذلك من حيث مسلماتها الضمنية فيما يتصل بدرجة النشاط النفسي في الحلم ونوع هذا النشاط:

1 . نظريات تترك النشاط النفسي يستمر كله في الحلم، مثل نظرية دلبوف. فالنفس على حسب هذه النظريات لا تنام، وجهازها يظل سليماً، ولكنها إذ تخضع لشروط حالة النوم المختلفة من شروط حياة اليقظة تحدث بأدائها السوي لوظائفها نتائج تختلف بالضرورة في أثناء النوم منها في اليقظة. والسؤال الذي نسأله بصدد هذه النظريات هو: هل هي تستطيع أن تشتق كل الفروق القائمة بين الحلم والتفكير المستيقظ من شروط حالة النوم وحدها؟ ثم هي فوق ذلك لا تملك سبيلاً تستطيع منه أن تتبيَّن للحلم وظيفة؛ فنحن لا نعلم لمَ نحلم، لمَ تستمر الميكانيكية المعقدة للجهاز النفسي في العمل حتى بعد الانتقال به إلى ملابسات لا يبدو معدّاً لها. فالنوم من غير حلم واليقظة إن وقع مزعج، هما وحدهما اللذان يظلان استجابتين نافعتين، بدل الثالثة التي هي الحلم.

2 . نظريات أخرى تفترض على العكس أن الحلم يتضمن نقصاً في النشاط النفسي وتراخياً في الروابط وفقراً فيما يستطيع امتلاكه من المواد. ويلزم من هذه النظريات أن تكون للنوم خصائص تختلف كل الاختلاف من تلك التي يضيفها إليه دلبوف مثلاً. فالنوم وفق هذه النظريات ينال من النفس أكبر منال، فلا يقتصر على إيصادها دون العالم الخارجي، بل ينفذ إلى ميكانيكيتها ويبطل عملها إبطالاً موقوتاً. ولو كان لي أن أجازف بتشبيه مستمد من مجال علم الطب النفسي، لقلت: إن النظريات الأولى تركب الحلم على غرار البارانويا، بينما تصوّره الثانية على صورة الضعف العقلي أو الحالات الخلطية.

والنظرية القائلة: إن الحياة النفسية لا تجد في الحلم إعراباً إلا عن جزء منها فقد شلّها النوم، هي النظرية المفضلة كثيراً عند الكتّاب الأطباء وفي الدوائر العلمية بوجهٍ عام. فهي النظرية التي يمكن وصفها بأنها النظرية السائدة . بقدر ما يمكن القول بأن هناك اهتماماً عاماً بتعليل الأحلام. ولا يفوتنا أن نلحظ مدى السهولة التي تتجنب بها هذه النظرية الارتطام بالعقبة الكأداء التي تعترض كل محاولة في تعليل الحلم، وأعني بها صعوبة فض متناقضاته. فهذه النظرية ترى في الحلم نتيجة يقظة جزئية («يقظة تدريجية، جزئية، هي في الوقت نفسه يقظة غير سوية إلى أبعد مدى» بتعبير هربارت، 1892)؛ ولهذا فقد وسّعها بسلسلة متدرجة من حالات التيقظ تتوجها اليقظة التامة أن تعلل كل درجات التفاوت في نتاج النشاط النفسي للحلم، من أحطه الذي يتجلى في مجانبة كل معقولية إلى التفكير المركز تمام التركيز.

وأولئك الذين لا يرون لأنفسهم غنىً عن لغة الفيزيولوجيا، أو يرون لهذه اللغة طابعاً علمياً لا يرونه لغيرها، سوف يجدون ضالتهم في قول بينتس (1878، 43):

«ولكن هذه الحالة (حالة السبات) لا تشرف على الانتهاء في ساعات الصباح المبكر إلا بالتدريج، فتتناقص المواد المتراكمة من التعب في ألبومين المخ، ويزداد ما يفسد منها أو يكتسحه جريان الدم غير المنقطع. وهكذا تستيقظ هنا وهناك مجموعات متفرقة من الخلايا بينما يبقى ما يحيط بها على حاله من السبات. وهنا يظهر أمام الشعور النائم أثر النشاط المنعزل لمجموعات الخلايا المتفرقة دون أن تكبحه سائر أجزاء المخ المتحكمة في المستدعيات. لهذا السبب كانت الصور الناشئة عن ذلك والتي يستمد معظمها من الانطباعات المادية لماضينا القريب ترتبط بعضها ببعض على نحوٍ همجي، لا ضابط له. ولكن كلما أخذت خلايا المخ المستيقظة تزداد عدداً، نقص خبل الحلم شيئاً فشيئاً».

وتصوّر الحلم يقظة جزئية غير مكتملة تصور نصادفه يقيناً، أو على الأقل نصادف آثاراً من نفوذه، في كتابات كل فيزيولوجي أو فيلسوف معاصر. وموري هو أكثر من فصّل الكلام فيه؛ فهذا المؤلف يبدو في كثير من الأحيان كأنه يتخيّل أن حالة اليقظة أو النوم تقبل النقلة من منطقة تشريحية إلى أخرى، هذا مع ارتباط كل منطقة تشريحية في رأيه بوظيفة نفسية خاصة بها ارتباطاً لا شك فيه. ولكنني لا أبتغي في هذا الموضع سوى الإلماع إلى أن نظرية اليقظة الجزئية ـ حتى إذا لاقت ما يؤيدها ـ تظل معرّضة أشد التعريض لنقاش طويل في دقائقها.

وطبيعي أن هذه النظرية لا تترك مجالاً للحديث عن وظيفة معينة للحلم بل الأصح أن بينتس يستخلص نتيجتها المنطقية فيما يتصل بمقام الحلم ومغزاه حين يقول (1878، 35): «إن كل الوقائع تدفعنا ـ كما نرى ـ إلى أن نعد الحلم عملية جسمية معدومة النفع في جميع الحالات، مرَضِيّة على التحقيق في الكثير منها».

ولا شكَّ في أن تطبيق النعت «جسمي» ـ الذي يدين بإبرازه إلى المؤلف نفسه ـ على الأحلام، أمر له أكثر من دلالة. فهو يشير أولاً إلى علية الحلم التي كانت ولا شك تلوح لعين بينتس ذات وجاهة خاصة حين كان يدرس إحداث الأحلام بالتجريب، بإعمال المواد السامة. فممّا يتسق وهذا الضرب من النظريات أن يقصر الحافز إلى الحلم على علل جسمية، قدر الإمكان. ولو أننا صغنا هذه النظرية في أشد صورها تطرفاً، لكان منطوقها هكذا: إننا ما أن نبعد عن أنفسنا كل منبه فننام حتى تنعدم كل حاجة إلى الحلم وكل مناسبة تبعث عليه، إلى أن يجيء الصباح فتتوارد المنبهات من جديد ونأخذ من جانبنا في الاستيقاظ وينعكس ذلك في ظاهرة الحلم، بيد أن صيانة النوم من كل منبه ضرب من المحال؛ فالمنبهات تقتحم النائم من كل الجوانب، مثل بذور الحياة التي ضجّ منها مفيستو بالشكوى[109]، تقتحمه من داخل ومن خارج، بل من أجزاء من جسمه لا نلحظ شأنها مطلقاً ونحن مستيقظون، وهكذا ينزعج النوم وتهتز إلى اليقظة هذه الزاوية من النفس ثم تهتز تلك، وتعمل النفس بشطرها المستيقظ سعيدة إذا استطاعت أن تعود إلى النوم من جديد، والحلم إنما هو استجابة إلى الإزعاج الذي تجلبه المنبهات على النوم ـ استجابة لا طائل منها بعدُ على الإطلاق.

ثم إن وصف الحلم ـ الذي يظل مهما قيل وجهاً من أوجه النشاط النفسي ـ بكونه عملية جسمية، ينطوي أيضاً على مقصدٍ آخر: فبه يجرّد الحلم من قيمة العملية النفسية. وربما كان «مثل العازف الجاهل الذي تجري أصابعه العشرة على الأوتار»، هذا المثل البالي الذي يطبقه وُلاة العلم المضبوط على الحلم، هو خير ما يصوِّر أية استهانة يلقاها بينهم النشاط النفسي للحلم. وعلى حسب هذه النظرة، يصبح الحلم شيئاً لا يقبل تفسيراً؛ فأنى للعازف الجاهل أن تجدّ أصابعه العشرة بمقطوعة من الموسيقى؟

ولم تعدم نظرية اليقظة الجزئية نقّادها حتى في الماضي البعيد. فقد كان من رأي بورداخ عام 1838: «أننا حين نقول: إن الحلم يقظة جزئية، فهذا القول ـ أولاً ـ لا يلقي ضوءاً ما سواء على اليقظة أو على النوم، ثم هو ـ ثانياً ـ لا يعدو قولنا: إن بعض القوى النفسية تنشط في أثناء الحلم بينما يظل البعض الآخر ساكناً. ولكن مثل هذا التفاوت يقع في كل وقت من الحياة...» (ص 535).

وإلى هذه النظرية السائدة التي ترى في الحلم عملية جسمية، يستند فرض خليق بأكبر الاهتمام، كان روبرت أول من ذهب إليه عام 1886، وهو فرض له جاذبيته لأنه يعرف كيف يجعل للحلم وظيفة أو نتيجة نافعة. ويقيم روبرت نظريته على واقعتين من الوقائع الملاحظة، سبق لنا النظر فيهما ونحن نبحث في مادة الحلم (أنظر ص 67). وهاتان الواقعتان هما: أننا غالباً ما نحلم بأكثر انطباعات النهار تفاهة، وأننا نادراً ما نتابع في الحلم مشاغل النهار الهامة. ويؤكد روبرت أن من الصحيح بوجهٍ لا استثناء فيه أن الأشياء التي فرغنا من التفكير في أمرها لا تحفز إلى الحلم إطلاقاً، وإنما تحفز إليه تلك التي تعلق بالذهن دون أن تكتمل، أو التي يكون الذهن قد مرَّ بها مروراً خاطفاً (1886، 10). . «والسبب الذي من أجله نعجز عادةً عن تعليل أحلامنا هو أن عللها هي على التحديد تلك الانطباعات الحسية التي لم يتعرفها الحالم في اليوم السابق تعرُّفاً كاملاً ». فالشرط في تسرب انطباع ما إلى الحلم هو إما أن يحول حائل دون الفراغ من التفكير في أمره، وإما أن يكون هذا الانطباع ضئيل الشأن بحيث لا يتطلب مثل هذا التفكير على الإطلاق.

والحلم إذن، في تصوُّر روبرت، «عملية نزح جسمية، نصير إلى الشعور بها في استجابتنا إليها». إن الحلم نزح لأفكار خنقت في المهد. «ولو أن إنساناً سلب القدرة على الحلم، لانتهى به الأمر حيناً إلى الخلل العقلي؛ إذ سوف يزدحم في ذهنه عدد يفوق الحصر من الخواطر الناقصة المعلقة ومن الانطباعات السطحية. بحيث تختنق تحت ثقل هذه الخواطر والانطباعات تلك الأفكار التي يجب أن تمكث في الذاكرة في صورة كل مكتمل». فالحلم يعمل عمل صمّام الأمان بالنسبة إلى الذهن المثقل، وإنّ الأحلام لتملك قدرة مطيبة مخففة (ص 40).

غير أننا نخطىء فهم روبرت إذا نحن سألناه كيف يفيد تمثل الأشياء في الحلم في تخفيف أعباء النفس. فمن الواضح أن المؤلف قد خلص من هاتين الخاصتين اللتين تميزان مادة الحلم إلى أن الانطباعات المجردة من القيمة يتم نزحها في أثناء النوم على نحوٍ من الأنحاء بفعل عملية جسمية، وإلى أن الحلم ليس عملية نفسية قائمة بذاتها، بل هو المعرفة التي تبلغنا عن هذا النزح. والنزح بعد ذلك ليس الشيء الوحيد الذي يحدث ليلاً في النفس؛ فروبرت نفسه يضيف إلى ما سبق أن الأفكار المتخلفة من اليوم المنقضي قد يتم فوق ذلك إحكامها، وأن «ما لا يتسنى نزحه من المواد التي تبقى في الذهن دون أن تهضم قد يربط فيما بينه بخيوط مستعارة في المخيلة بحيث يكون كلاً مؤتلفاً ، وبهذا ينتظم في الذاكرة كصوَر خيالية لا ضرر منها» (ص 31).

ولكن روبرت يخالف النظرية السائدة تمام المخالفة من حيث تقديره لطبيعة المصادر التي يصدر عنها الحلم. فبينما يخلص من تلك النظرية أن الإنسان ما كان ليحلم لولا المنبهات الحسية التي توقظ النفس بدون انقطاع من الداخل ومن الخارج، تقيم نظرية روبرت الدافع إلى الحلم في النفس ذاتها، في ثقل أحمالها وحاجتها إلى التخفف، ثم بعد ذلك يستخلص روبرت من رأيه هذا نتيجته المنطقية فيقرر أن علل الحلم المنبعثة من أحوال الجسد إنما تشغل مرتبة ثانوية، وأن ذهناً لم يختزن من شعوره المستيقظ مادة يبني بها أحلامه ما كانت تسوقه هذه العلل إلى الحلم بحالٍ من الأحوال. والقيد الوحيد الذي يقيِّد به روبرت رأيه هذا هو تسليمه بأن الأخيلة المنبعثة في الحلم من أعماق النفس قد تتأثر بفعل المنبهات العصبية (ص 58). وهكذا لا يكون الحلم في النهاية، على حسب روبرت، متوقفاً كل التوقف على الأحداث الجسمية. ومع هذا فالحلم في رأيه ليس بالعملية النفسية، ولا له من محلٍ بين العمليات النفسية لليقظة، إنه عملية جسمية تقع كل ليلة في الجهاز المختص بالنشاط النفسي، عملية لها وظيفة تؤديها، هي وقاية هذا الجهاز من فرط التوتر، أو إذا جاز أن نستبدل بالتشبيه تشبيهاً فهذه الوظيفة هي: تنظيف النفس.

وعلى ذات الخاصتين المتجليتين في اختيار مادة الحلم يُقيم مؤلف آخر، هو إي؟ دولاج، نظريته. وإنه لمن المفيد في هذا المعرض أن نرى كيف تؤدي حيدة خفيفة في النظر إلى ذات الأشياء إلى نتيجة مختلفة الدلالة كل الاختلاف.

فقد لاحظ دولاج عن خبرة وقعت له، بعد أن أفقده الموت عزيزاً لديه، أن المرء لا يحلم بما يستبد بفكره نهاراً، أو لا يحلم به إلا بعد أن تأخذ شواغل النهار الأخرى في تلطيفه. فلما استعلم غيره تأيد عنده عموم هذا الوضع. وإنه ليأتي في صدد أحلام المتزوجين حديثاً بملاحظة تكون خليقة بالاهتمام لو ثبت اطراد صدقها، يقول (1891، 41): «إذا كان كلاهما شديد الشغف بالآخر، لم يكد يحلم به مطلقاً قبيل الزواج أو في خلال شهر العسل فإن حلم بغرام، فلكي يرتكب في حلمه خيانةً ما مع ثالثٍ لا منزلة له في النفس أو كريه إليها»[110]. بما تحلم النفس إذن؟ يرى دولاج أن المادة التي تعرض في أحلامنا تتكوَّن من نبذ مستقاة من انطباعات الأيام الأخيرة أو التي قبلها ومن بقاياها. فكل ما يظهر في أحلامنا وننزع في أول الأمر إلى أن نعدّه خلقاً من خلق الحياة الحالمة، لا نلبث أن نتبين حين نفحصه عن مقربة أنه استحضار لم نعرفه [لخبرة سابقة]، أنه «ذكرى لاشعورية»[111]. بيد أن هذه المادة الفكرية تبدي خاصة مشتركة: فهي تنشأ من انطباعات كان تأثيرها في حواسنا أشد على الأغلب منه في عقولنا، أو من انطباعات تحوَّل عنها الانتباه على أثر وقوعها. فكلما قلّ حظ الانطباع من الشعور وزاد مع ذلك حظه من القوة، ازداد احتمال أخذه من الحلم القادم بنصيب.

هاتان المقولتان من مقولات الانطباعات: ما خلا من الشأن وما لم نفرغ من أمره بعد، هما هما من حيث الجوهر [ذات المقولتين اللتين ذكرهما روبرت نلقاهما من جديد]. ولكن دولاج ينحو بالمسألة نحواً آخر؛ فهو يرى أن هذه الانطباعات لا تحدث الحلم لخلوها من الشأن بل لكوننا لم نفرغ من استيعاب التفكير فيها. ومن الصحيح أن الانطباعات التافهة هي أيضاً بمعنًى من المعاني انطباعات لم تلق منا معالجة كافية؛ فهي . وهي الحديثة العهد . تكون بمثابة «لوالب مشدودة»[112] ترخى في أثناء النوم. والانطباع القوي الذي اتفق أن حال حائل دون الفراغ من معالجته أو الذي كبح جماحه عن عمد له حق في المشاركة في الحلم يفوق ما يكون لانطباع ضعيف لم يكد يلقى انتباهاً. فالقوة النفسية المختزنة في أثناء النهار نتيجةً للكف وللقمع تصير القوة الدافعة إلى الحلم في الليل: في الحلم يبرز المكبوت النفسي[113].

ومن سوء الحظ أن دولاج يقف بنظريته عند هذا الحد. فهو لا يستطيع أن يعزو إلى نشاط نفسي مستقل إلا أقل نصيب في الحلم، وبهذا يرتد بنظريته إلى ما يتفق والنظرية السائدة، نظرية الصحو الجزئي: «وخلاصة القول هي أن الحلم نتاج الفكر الضال من غير هدف ولا اتجاه، متوقفاً على التعاقب عند الذكريات التي بقي لها من الشدة ما يمكنها من اعتراض طريقه واستيقاف سيره، رابطاً بينها برباط يضعف ويرخو حيناً ثم يشتد حيناً آخر ويضيق، على حسب التفاوت في مقدار ما يمحوه النوم من نشاط المخ الفعلي»[114] (ص 56).

3 . ونستطيع أن ندرج في طائفة ثالثة تلك النظريات التي تعزو إلى النفس الحالمة قدرةً ونزوعاً إلى أنواع بعينها من النشاط النفسي تعجز عر أدائها في الحياة المستيقظة كل العجز أو لا تؤديها إلا على نحوٍ ناقص جداً . وإنَّ تشغيل هذه القدرات لأمرٍ يجعل عادة للحلم وظيفة. وفي هذه الطائفة الثالثة تدخل معظم آراء علماء النفس الأسبقين في تقدير الحلم، بيد أنني أقنع بأن أنيب عنهم نصاً لبورداخ يخلص منه أن الحلم «هو النشاط الطبيعي للنفس، نشاط لا يقيّده طغيان الفردية، ولا يعطّله الشعور بالذات، ولا يوجهه الحتم الذاتي، وإنما هو حيوية المراكز الحسية وقد خلت

للّعب الطليق» (1838، 512).

ومن الواضح أن بورداخ وسائر من ذهب مذهبه يرون أن هذا البذخ في استخدام النفس قواها حالة تنتعش النفس فيها وتجتمع لها بها قوة جديدة على عمل النهار، شيء أشبه بالإجازة. ولهذا كان بورداخ يستشهد بالكلمات الساحرة التي يشيد فيها الشاعر نوفاليس بمملكة الحلم، ويقبل هذه الكلمات: «الحلم درع بيننا وبين راتب الحياة ومألوفها، استرواح طليق للمخيلة تضرب فيه جميع صور الحياة بعضها ببعض وتقطع جد الراشد المستديم بلعب الطفل المرح؛ فلولا الحلم لكان من المستيقن أن تسبق شيخوختنا أوانها. وهكذا يستطيع الإنسان أن يرى في الحلم هبة غالية، وإن جاز ألا تكون مرسلة من عليين، وأن يعده رفيقاً مخلصاً يصحبه في حجّه إلى قبره».

ويصف بوركينيه هذه الوظيفة المطببة المجددة لقوى الحياة وصفاً أكثر بعد إلحاحاً، فيقول (1846، 456): «والأحلام المبدعة بنوع خاص هي التي تقوم بهذه الوظائف. فهذه الأحلام هي لعب المخيلة لعباً سهلاً وليس يربط بينها وبين أحداث النهار رباط ما. فالنفس راغبة عن إطالة ما تتضمنه الحياة المستيقظة من التوترات، بل هي تنشد إرخاءها والاستجمام منها. ثم هي قبل كل شيء تخلق حالات تضاد حالات اليقظة، فتعالج الحزن بالفرح، والهم بالأمل وصوّر السلوان، وتعالج الكراهية بالحب والصداقة، والخوف بالشجاعة والثقة، وتهدّىء الشك باليقين والاعتقاد الراسخ، والانتظار على غير طائل بالتحقيق. وكثير من جراح القلب التي لا تلتئم أبداً في النهار يداويها النوم الذي يسترها ويصونها من كل هائجٍ جديد. وعلى هذا ينبني إلى حد فعل الزمن الشافي». ونحن جميعاً نشعر بأن للنوم فعله الطيِّب في الحياة النفسية، كما أن الإحساس الغامض الذي للروح الشعبي يأبى إباءً صريحاً أن يسلب اعتقاده بأن الحلم أحد الطرق التي منها يبذل النوم أفضاله.

ولكن أشد المحاولات أصالةً وأعمقها غوراً في تعليل الحلم باعتباره نوعاً خاصاً من النشاط النفسي لا يستطيع الانطلاق حرّاً إلا في خلال النوم، هي تلك التي أتاها شرنر سنة 1861. لقد كتب شرنر كتابه بأسلوب ثقيل، طنّان، مشبع بحماسة للموضوع تكاد تقارب الثمل، أسلوب من شأنه أن يصد كل قارىء لا ينساق في تياره، ثم هو يقيم في وجه من يتعرض لتحليله صعوبات تجعلنا نعتاض عنه طواعيةً بالعرض الواضح الموجز الذي كتبه الفيلسوف فوللكت لنظريات شرنر: «من خلال هذه الأركام التصوفية ومن ثنايا هذه السحب من الفخامة والبهاء تومض، وميض البرق، لمحات المعنى المكنون. لكن هذه لا تنير طريق الفيلسوف». ذلك هو الحكم الذي يصدره على أسلوب شرنر تلميذه نفسه. (فوللكت، 1875، 29).

إن شرنر ليس من هؤلاء الكتّاب الذين يدَعون للنفس كل ملكاتها حين تنتقل إلى الحياة الحالمة. كلا، بل هو يُرينا كيف تجرد بؤرة الأنا المركزية، طاقته التلقائية، من قوتها العصبية في أثناء الحلم، وكيف تنجم عن هذه اللامركزية المُدْخَلَةِ أن تتغيَّر عمليات المعرفة والإحساس والإرادة والتصور، وكيف تعدم البقايا المتبقية من هذه الوظائف النفسية كل طابع عقلي حق، وتصير حركات آلية ليس غير. بيد أن الملكة التي تجوز تسميتها مخيلة تظفر في مقابل ذلك بسيطرة غير مقيدة: فهي تتحرر من سيادة العقل وتتحرر . من ثم . من كل قاعدة تلتزم. صحيح أن مخيلة الحلم تستمد كل مواد بنائها من ذكريات اليقظة القريبة، ولكنها تشيِّد منها تراكيب لا تحمل أدنى شبه بتراكيب الحياة المستيقظة؛ فهي تكشف في الحلم عن قدرة مبدعة ، لا مستحضرة فحسب. وخواصها هي ما يخلع على الحياة الحالمة سماتها؛ فهي تؤثر من الأشياء المفرط و المغرق و المهول. غير أنها، في الوقت عينه، إذ تتحرر من موانع الفكر بمقولاته تكتسب قدراً أعظم من اللدونة والخفة والتقلب؛ فهي حاسّة كأرهف ما يكون الحس بدقائق الخلجات الرقيقة مثلها بعنيف الانفعالات، ثم هي سريعة إلى تجسيد حياتنا الباطنة في صور خارجية يلمسها البصر. فمخيلة الحلم مسلوبة القدرة على لغة التصورات المجردة ، وهي إذن مضطرة إلى أن تصوغ ما تريد قوله في تصاوير، وإنها لتستخدم هذا الأسلوب المصور استخداماً كاملاً قوياً، فما هناك من تصورات مجردة تكسر شوكتها. لهذا كانت لغتها . مهما بلغ وضوحها . مسهبة، ثقيلة، متعثرة. ثم ينقص وضوحَها بنوعٍ خاص صدوفُها عن تمثيل الموضوع بصورته الخاصة به وإيثارها صورة غريبة عنه إذا كان في هذه الصورة ما يعرب عن هذا المحمول الذي يهمها تمثيله وحده دون سائر محمولات الموضوع. وذلك هو النشاط الرمزي للمخيلة ... وأمر آخر له أهميته القصوى؛ هو أن مخيلة الحلم لا تصوِّر الموضوعات أبداً تصويراً مستوفىً بل مجملاً فقط، حتى هذا الإجمال تأتيه في كثير من الحرية؛ ولهذا جاءت صورها أشبه بتخطيطات مبتكرة. غير أن مخيلة الحلم لا تقف عند مجرد تمثيل الموضوع، بل تدفعها ضرورة باطنة إلى أن تدخل أنا الحالم في علاقة بهذا الموضوع إلى حدٍ ينقص أو يزيد، وبهذا تخلق حدثاً. مثال ذلك أن حلماً صادراً عن منبّه بصري قد يصوِّر قطعاً ذهبية ملقاة في الطريق: عندئذ سوف يلتقطها الحالم ويمضي فرحاً.

وأما المادة التي تتناولها مخيلة الحلم بنشاطها الفني هذا، فأهم مصادرها، على حسب شرنر، المنبهات الجسمية العضوية التي تظل مبهمة في خلال النهار (أنظر ص 79 وما يليها فيما سبق). وهكذا يكون ثمة تطابق تام فيما يتعلق بمصادر الحلم ومنبهاته بين هاتين النظريتين الكائنتين على طرفي نقيض في كل ما خلا ذلك: نظرية شرنر المغرقة في الخيال ونظرية ؟ونت وغيره من الفيزيولوجيين، المتزنة اتزاناً قد يكون فيه بعض الغلو. ولكنه بينما ترى نظرية الفيزيولوجيين أن الاستجابة السيكولوجية إلى المنبهات العضوية الباطنية تكمل إذا ما استيقظت أفكار تناسب هذه المنبهات على نحو من أنحاء المناسبة، أفكار تثير غيرها من طريق التداعي، وإلى هذا الحد تنتهي سلسلة العمليات النفسية . ترى نظرية شرنر أن عمل المنبه العضوي ينحصر في تزويد النفس بالمادة التي تمكّنها من تحقيق أهدافها التخيلية. فتكوين الحلم في رأي شرنر إنما يبدأ حيث يرى المؤلفون الآخرون أنه ينتهي.

ومن المؤكد أننا لا نستطيع أن نرى فيما تصنعه مخيلة الحلم بالمنبهات الحسية شيئاً ذا قصدٍ نافع؛ فهي إنما تلعب بها لعباً عابثاً وتصوِّر المصادر العضوية التي تنبعث منها هذه المنبهات بضرب من الرمزية المشكِّلة. ويرى شرنر . وفي هذا يفترق منه فوللكت وكثير غيره . أن مخيلة الحلم تملك طريقة بعينها تؤثرها في تصوير الكائن العضوي في مجموعه: تلك هي تصويره في صورة المنزل. إلا أنها لحسن الحظ لا تبدو تلتزم هذه الطريقة الواحدة في التصوير. ثم هي قد تشير على العكس إلى عضوٍ مفرد من أعضاء الجسم بصف بأسره من المنازل: كأن تصوِّر منبهاً معوياً بشارع اصطفت المنازل طويلاً على جانبيه. ويتفق في مرة أخرى أن تنوب أجزاء متفرقة من المنزل عن أجزاء متفرقة من الجسم: مثال ذلك أن حلماً ناجماً عن صداع قد يصور الرأس فيه بسقف منزل تغطيه عناكب أشبه بالضفادع تبعث على الغثيان.

وإذا تركنا رمزية المنزل جانباً، فقد تستخدم مخيلة الحلم أي موضوع آخر يروقها في تصوير أجزاء الجسم الصادرة عنها المنبهات: «فيرمز إلى الرئتين وهما تتنفسان بالموقد المستعر بما له من زئير كالريح، ويرمز إلى القلب بالصناديق والسلال المجوّفة، وإلى المثانة بالموضوعات المستديرة الشبيهة بالأكياس أو بالموضوعات المقوّرة على وجهٍ أعم. فإن كان الحلم راجعاً إلى منبه جنسي رأى الحالم أنه يصادف في الطريق مبسم «كلارينت» أو غليون طباق أو قطعة من الفراء كذلك. وهنا تمثِّل «الكلارينت» أو غليون الطباق الشكل التقريبي لعضو الذكورة، بينما يمثِّل الفراء شعر العانة. وأما الأحلام الجنسية عند الإناث، فقد يرمز فيها إلى الفرجة الضيقة بين الفخذين حين يلتصقان بفناء ضيق أحاطت به المنازل، بينما يرمز إلى الفرج بممر ناعم، زلق، شديد الضيق، يجري عبر الفناء، ترى الحالمة نفسها مضطرة إلى المسير فيه لكي تحمل، مثلاً، رسالة ما إلى رجل من الرجال.» (فوللكت، ص 34). وإنه لأمر له أهميته الخاصة أن مخيلة الحلم قد ترفع النقاب عن وجهها . إن جاز هذا التعبير . في نهاية هذه الأحلام الناجمة عن منبّه جسمي، إذ تكشف صراحةً عن العضو الذي يتعلق به الأمر أو عن وظيفته. وهكذا يقع عادة أن تنتهي «أحلام الأسنان» بأن ينتزع الحالم سناً من فمه.

بيد أن مخيلة الحلم قد لا توجِّه انتباهها إلى شكل العضو المنبِّه فقط، بل ترمز كذلك إلى المادة المحتواة في هذا العضو: مثال ذلك وحل الطريق في الأحلام الناجمة عن منبِّه معوي، وزبد الماء في تلك الناجمة عن منبِّه بولي. أو قد يتناول التمثيل الرمزي المنبه من حيث هو كذلك، أو نوع التهيُّج الذي يحدثه، أو الموضوع الذي يصبو إليه، أو قد يدخل أنا الحالم في علاقة منظورة بالرموز التي تصور حالته النفسية: مثال ذلك أن يصارع الحالم صراع المستميت كلاباً مسعورة أو ثيراناً هائجة في حالة المنبهات الأليمة، أو ترى الحالمة نفسها ورجل عارٍ يطاردها في حلم جنسي. فإذا تركنا جانباً كل هذه الثروة في وسائل التصوير الممكنة، بقي أن النشاط الرمزي للمخيلة هو القوة المركزية في كل حلم. ولقد حاول فوللكت في صفحات كتابه أن يتعمّق ماهية هذه المخيلة وأن يجد لها محلاً في مذهب فلسفي، ولكن كتابه، وإن سطَّر بأسلوب بديع قوي، يظل صعب الفهم في الغاية على من لم يعدُّه تعليمه المبكر لإدراك التصورات الفلسفية بروح من القبول.

ولا تقترن هذه المخيلة الرامزة التي يقول بها شرنر بأية وظيفة نافعة: إن النفس تلعب حالمة بما يُعرض لها من المنبهات. ومن حق القارىء أن يستخلص أنه لعب أدنى إلى الأذى منه إلى النفع. ولكن من حق القارىء أيضاً أن يسألنا: وعلامَ إذن كان هذا الاهتمام الطويل بنظرية شرنر، وهي نظرية يبدو جلياً خلوّها من كل سند غير إرادة صاحبها وخروجها على كل قواعد البحث؟ ولعل من حقنا على سبيل الجواب أن نسجِّل ههنا احتجاجنا على هذا الترفُّع الذي تنطوي عليه إرادتنا أن ننبذ نظرية شرنر دون سابق فحص. فهذه نظرية تستند إلى الوقع الذي أحدثته في نفس رجل أحلامه، وهو رجل أولاها أعظم انتباهه وتدل الدلائل على أنه ذو موهبة تؤهّله أحسن التأهيل للغوص في دياجير النفس. ثم هو فوق ذلك يعالج موضوعاً ظل البشر آلاف السنين وهم يعدُّونه من غير شك لغزاً، لكن لغزاً خطيراً في ذاته ومتضمناته، ولم يسد العلم المضبوط . باعترافه هو . سوى الشيء القليل في سبيل إيضاحه، فيما خلا محاولة تهدف إلى تجريده من كل مضمون أو مغزى، على نقيض الاعتقاد الشعبي. وأخيراً فلعل من الأمانة أن نقول: إن الأمور تبدو كما لو كان من الصعب علينا بمكان أن نشرع في تعليل الحلم دون أن نقع في حبائل الخيال. فهناك أيضاً خيال اسمه: الخلايا العقدية. وإنَّ الفقرة التي نقلناها (ص 123) عن باحثٍ متزن دقيق مثل بينتس، تلك الفقرة التي تصف كيف يشرق فجر اليقظة على مجاميع الخلايا النائمة في المخ، لا تترك لمحاولات شرنر قصب السبق في شطط الخيال وضعف الاحتمال. وآمل أن تكون لي القدرة على أن أبيِّن أن وراء هذه المحاولات الأخيرة يكمن جانب من الحق، وإن كان من المقطوع به أن هذا الجانب لم يدركه شرنر إلا على نحوٍ غامض، وأنه يفتقر إلى طابع العموم الذي لا تكون بغيره نظرية في الحلم جديرة بهذا الاسم. وإلى أن يتحقق ذلك، فالتعارض بين نظرية شرنر ونظرية الأطباء يرينا أي طرفين لا يزال الشك يؤرجح بينهما تعليلات الحلم إلى يومنا هذا.

ح
العلاقة بين الحلم والأمراض العقلية

عندما نتحدث عن علاقة الحلم بالاضطرابات العقلية، فقد نعني بذلك ثلاثة أشياء مختلفة: (1) العلاقات العلية الإكلينيكية، مثلما يقع حين يمثِّل حلم من الأحلام حالة ذهانية أو حين يستهلها أو يتخلف عنها، (2) التغييرات التي تطرأ على الحياة الحالمة في حالات المرض العقلي، (3) العلاقات الباطنة بين الحلم وحالات الذهان؛ فبينهما من أوجه التماثل ما يشير إلى قرابة جوهرية. ولقد كانت هذه العلاقات المتشعبة بين الظاهرتين موضوعاً يؤثره المؤلفون الأطباء بعنايتهم في الماضي، وهم اليوم يؤثرونه من جديد . كما يتضح من قوائم المراجع التي جمعها في هذا الشأن شبيتا ورادشتوك وموري وتيسييه. وحديثاً جداً أعار سانته دي سانكتيس هذه المسألة انتباهه[115]. ولكن يكفينا فيما نتوخاه أن نلمس هذه المسألة الهامة لمساً.

وأما فيما يتصل بالعلاقات الإكلينيكية والعلية بين الحلم والذهان، فأورد الملاحظات الآتية على سبيل المثال: يرى هنباوم (على ما يقوله كراوس) أن التفجّر الأول للجنون الهجاسي ينبعث في أحيان كثيرة من حلم هيلة مروِّع، وحينئذ يكون ثمة ارتباط بين الفكرة المتسلطة والحلم. ويورد سانته دي سانكتيس ملاحظات مماثلة في صدد حالات من البارانويا، معلناً أن الحلم في بعض هذه الحالات قد يكون هو «العلة الحقيقية المحتمة للجنون»[116]. ويقول سانكتيس: إن الذهان قد ينبعث إلى الحياة دفعة واحدة بانبثاق الحلم الذي يخرج فيه التأويل الهجاسي إلى الضوء، أو قد يتمخض رويداً رويداً خلال سلسلة من الأحلام تأتي بعد ذلك إلى أن يغلب الاعتقاد الهجاسي كل شك. واتفق في إحدى حالاته أن الحلم التأويلي كانت تعقبه نوبات هستيرية خفيفة ثم صارت تعقبه حالة سوادية تصحبها الهيلة. ويروي فيريه (على ما يقول تيسييه) حلماً نجم عنه شلل هستيري. وفي هذه الأمثلة يُساق الحلم على أنه علة الاضطراب العقلي، ولكنا نصْدُق الواقع أيضاً إذا قلنا: إن الاضطراب العقلي يظهر في الحياة الحالمة أول ما يظهر، أو إن أول انبثاقه يكون من خلال الحلم. وفي أمثلة أخرى تنحصر الأعراض المرضية في نطاق الحياة الحالمة أو يقتصر الذهان على هذه الحياة. وهكذا يجذب توماير الانتباه إلى أحلام هيلة يرى أن الواجب أن نعدها أعدالاً لنوبات صرعية. ولقد وصف أليسون (يذكره رادشتوك) حالة جنون ليلى[117] كان المريض يبدو فيها مكتمل الصحة كل الاكتمال نهاراً، ثم لا تأتي ليلة إلا استهدف للهلاوس ولنوبات من الهياج... إلخ. ويورد دي سانكتيس ملاحظات شبيهة بهذه (حلم يعدّل البارانويا عند رجل مدمن على الكحول، وكان الحلم يصوّر له أصواتاً تتهم زوجه بالخيانة) وكذلك يفعل تيسييه. ويسوق المؤلف الأخير ملاحظات حديثة متعددة عن أفعال مرضية (كالسلوك المقام على مقدمات هجاسية أو اندفاعات قهرية) تفرعت عن الحلم. ويروي جيسلون حالة انقلب فيها النوم إلى جنون يأتي على فترات.

فلا شك في أن الأطباء إلى جانب بحثهم في نفسية الحلم، سوف يوجهون يوماً اهتمامهم إلى مرضيته.

وكثيراً ما يتاح لنا أن نلحظ بوضوح خاص في حالات النقاهة من المرض العقلي أن الأحلام لا تزال تخضع لتأثير الذهان، بينما تعمل الوظائف على نحو سويّ في خلال النهار. ويقول كراوس: إن جريجوري هو أول من جذب الانتباه إلى هذه الحقيقة. ويروي ماكاريو (على حسب تيسييه) أن مريضاً بالهوس كان بعد أسبوع كامل من شفائه لا يزال يستهدف في أحلامه لتلك الأفكار المنسابة والاندفاعات الجامحة التي عرف بها في مرضه.

وأما التغييرات التي تطرأ على الحياة الحالمة في حالات الذهان المزمن فلم تلق من البحث إلا حظاً ضئيلاً كل الضآلة حتى اليوم. بيد أن الانتباه قد اتجه منذ زمن طويل إلى القرابة الكامنة بين الحلم والاضطراب العقلي، وهي قرابة تنم عليها سعة مدى الاتفاق بين مظاهرهما. ويقول موري: إن كابانيس كان أوّل من وجّه النظر إليها، وتلاه ليلو، ثم ج. مورو، ثم الفيلسوف مين دي بيران بنوعٍ خاص. ولا شك في أن المقارنة بين الظاهرتين أقدم بعد عهداً. فرادشتوك يستهل الفصل الذي يعالج فيه هذا الموضوع بإيراد عدة من النصوص يماثل مؤلفوها بين الحلم والجنون، فنرى كانْت يقول في موضعٍ ما: «المجنون حالم يقظان». ويعلن كراوس أن «الجنون حلم يحلمه المرء وهو مستيقظ الحواس». وأما شوپنهاور فَيُسمِّي الحلم جنوناً قصيراً والجنون حلماً طويلاً. وأما هاجن فيصف الهذيان بقوله: إنه حياة حالمة أدخلها المرض لا النوم. ويقول ؟ونت: «والحقيقة هي أننا أنفسنا قد نمر في أحلامنا بما يكاد يعدل جميع المظاهر التي نصادفها في مستشفيات المجانين».

ويعدد شبيتا مواضع الاتفاق التي تقوم على أساسها هذه المقارنة على نحوٍ شبيه كل الشبه بما يسبق إليه موري: «(1) يعطّل الشعور بالذات أو على الأقل يؤخر، وينجم عن ذلك جهل الشخص بحالته، ومن ثم العجز عن الدهش وفقدان الشعور الخلقي. (2) يتغير إدراك الأعضاء

الحسية، فينقص في الحلم ولكنه بوجه عام يزداد زيادة عظمى في الجنون،(3) يتم الترابط بين الأفكار وفقاً لقوانين التداعي والاستحضار وحدها، أي أن الأفكار تجتمع في سلسلات على نمطٍ آلي محض، وينجم عن ذلك فقدان التناسب في العلاقة بين الأفكار (المبالغات والأوهام)، ويؤدي كل أولئك إلى (4) تحوّل الشخصية أو انقلابها في بعض الحالات، وأحياناً يقع ذلك في سمات الطبع (الانحرافات)».

ويضيف رادشتوك إلى ما سبق سمات قليلة أخرى تتّصل بتماثل الظاهرتين من حيث المادة: «فغالبية الهلاوس والأوهام تقع في مجال حاسّتي البصر والسمع ثم الحساسية الإجمالية بالجسم. فحاستا الشم والذوق لا تشاركان هنا ـ شأنهما في الأحلام ـ إلا بأقل العناصر. وفي الحمّى كما في الحلم تنبعث ذكريات من الماضي السحيق، فالنائم والمريض يذكر كلاهما أشياء تبدو نسياً منسياً عند المستيقظ والمعافى». بيد أننا لا نقدِّر التماثل بين الحلم والذهان تمام التقدير إلا إذا رأيناه يمتد، مثل شبه عائلي، إلى دقائق الحركات المعبِّرة وإلى خصائص تعابير الوجه.

«إن من برحته آلام الجسد والروح يظفر في الحلم بما أباه الواقع عليه، بالصحة والسعادة. وكذلك المرض العقلي؛ فهو يحفل بصور براقة من السعادة والعظم والجاه والثراء، فأكثر ما يشتمل عليه الهذيان، امتلاك مزعوم للخيرات أو تحقيق متخيل لرغبات كان امتناعها أو دمارها هو العلة التي أدّت بالفعل إلى الجنون، فتحظى من فقدت ابنها الحبيب بمتع الأمومة في هذيانها، ويعتقد من فقد ماله أن ثروته قد جاوزت كل حد، وترى الفتاة المخدوعة نفسها موضع الحب والحنان».

(هذه الفقرة المقتبسة من رادشتوك تلخِّص ملاحظة ثاقبة أتاها جريزنجر (1861، 106) وبيَّن فيها بجلاء تام أن الخاصة المشتركة بين الأفكار في كلا الحلم والذهان هي كونها تحقق رغبات. ولقد علمتني مباحثي أيضاً أن ذلك في الحقيقة هو المفتاح إلى نظرية سيكولوجية في الحلم والذهان على السواء).

«والارتباط المغرب بين الأفكار مع ضعف الحكم هما الخاصتان الرئيستان للحلم والذهان». ففي كليهما نرى الشخص يغالي في تقدير قدراته العقلية مغالاة تلوح جوفاء للعين المتزنة. ثم إن سرعة جريان الأفكار في الحلم يوازيها انسياب الأفكار في الذهان؛ ففي كليهما يغيب كل معيار زمني. وانقسام الشخصية في الحلم ـ مثلما يقع حين تتوزّع معرفة الحالم نفسه بين شخصين يصحّح أحدهما، وهو الغريب، خطأ أنا الحالم الخاص ـ يطابق انقسام الشخصية الذي نعرفه في البارانويا الهلوسية كل مطابقة، ثم إن الحالم أيضاً يسمع أفكاره هو تنطق بها أصوات غريبة. وحتى الأفكار الهجاسية: فهي تجد نظيرها في الحلم المرضي الذي يراود صاحبه على نمط لا يتغيَّر (الحلم القهري)[118]. ولا يندر أن يقول المرضى بعد شفائهم من هذاء مرُّوا به: إن فترة مرضهم جميعاً تلوح لهم أشبه بحلمٍ لم يكن يخلو من المسرة كل الخلو، بل إنهم ليحدثونا أحياناً أنهم حتى في خلال مرضهم كانوا بين الحين والحين يساورهم الشعور بأنهم إنما وقعوا في حبائل حلم من الأحلام، مثلما يحدث كثيراً في أحلام الليل.

فلا عجب بعد كل أولئك أن يلخص رادشتوك رأيه ورأي الكثيرين معه في قوله: «إن الجنون ـ هذه الظاهرة المرضية غير السوية ـ هو اشتداد حالة سوية منتظمة الوقوع، هي حالة الحلم» (ص 250).

ولقد حاول كراوس أن يقيم بين الحلم والجنون علاقة قد تكون أوثق رباطاً من تلك التي يمكن أن تخرج من هذا التماثل بين مظاهرهما الخارجية، مؤسساً هذه العلاقة على العلل أنفسها (أو، بعبارة أصح، على مصادر التهييج). فالعنصر المشترك يكمن في رأيه ـ كما رأينا [ص 85] ـ في الإحساسات المحتمة عضوياً الإحساسات الناشئة عن مصادر جسمية، أي في الحساسية الإجمالية بالجسم، المبنية على مشاركة أعضاء الجسم جميعاً (أنظر رأي پْس في كتاب موري، 1878، 52).

هذا الاتفاق غير المتنازع فيه والممتد إلى خواص التفاصيل بين الحلم والاضطراب العقلي يمكن أن نعدّه سنداً من أقوى سند النظرية الطبية في الحلم، وهي النظرية التي ترى في الحلم عملية مزعجة لا طائل منها ومظهراً يعرب عن نشاط نفسي منقوص. ومع هذا فليس لأحد أن يطمع في الآونة الحاضرة في الوصول إلى تعليل أخير للحلم من طريق النظر في اضطرابات النفس؛ لأن معرفتنا بهذه الاضطرابات لا تزال غير كافية ـ كما يعلمه الجميع. ولكن من الراجح على العكس كل الرجحان أن تغييراً في موقفنا تجاه الأحلام قد يكون له أثره في نظرتنا إلى الميكانيكية الباطنة للأمراض النفسية، ومن ثم جاز لنا أن نقول: إننا نعمل على تعليل الذهان حين نتكلّف مشقة الكشف عن سر الحلم.

ملحق، 1909:

إن وقوفي عن متابعة الحديث فيشمل المؤلفات التي ظهرت تعالج مشكلات الحلم في الحقبة الممتدة بين أول ظهور هذا الكتاب وطبعته الثانية، أمر يستوجب تبريراً. وقد لا يبدو المبرر مقنعاً للقارىء، ولكنه كان على أية حال ذا أثرٍ حاسم بالنسبة إلي. فالدوافع التي حدتني إلى أن أتحدث أي حديث عن نهج الكتَّاب الأسبقين في معالجة مشكلات الحلم، قد استنفدها الفراغ من هذا الفصل الذي قدمت به. وما كان المضي في هذا العمل إلا ليكلفني مشقة بالغة على غير كبير إفادة أو نفع. ذلك أن هذه الحقبة من السنوات التسع لم تأت ـ سواء في المادة أو في الآراء ـ بقيِّم أو

جديد يكون فيه ما ينير الموضوع، وظلت معظم المؤلفات التي ظهرت في هذه الأثناء لا تعير كتابي ذكراً ولا نظراً. وكان أقل المنبهين إليه بالطبع أولئك المسمّون «بحثة الحلم»، فضربوا بذلك مثالاً ساطعاً على هذا العزوف عن تعلُّم كل جديد الذي هو سمة تميز العلماء. ولقد قال أناتول فرانس بسخريته المعهودة: «إن العلماء لا يحبون الاستطلاع»[119]. ولو أن العلم كان يعرف شيئاً اسمه حق القصاص، لكان من حقي يقيناً أن أغفل من جانبي كل ما نشر منذ أن نشر هذا الكتاب. فالملاحظات القليلة التي ظهرت في الصحف العلمية عنه كانت تنم عن تجرُّد من الفهم أو عن فهم مخطىء لا أملك لنقادي معهما إلا جواباً واحداً: هو دعوتهم إلى أن يقرأوا هذا الكتاب من جديد. لا، بل ربما كان الأنسب أن تكون الدعوة إلى قراءته وحسب.

وأما مؤلفات الأطباء وغيرهم، ممّن قرروا أن يتبعوا المنهج التحليلي النفسي في العلاج، فتشتمل على عدد وافر من الأحلام، نشرت وحلّلت وفقاً لتعاليمي. ولقد أوردت نتائج هذه المؤلفات في سياق حديثي بمقدار ما تذهب هذه النتائج إلى أبعد من مجرد تأييد آرائي. غير أنني أضفت في نهاية المجلد قائمة بالمراجع حَوَتْ أهم المؤلفات التي ظهرت منذ أن نُشِر هذا الكتاب للمرة الأولى. وأما الكتاب المسهب الذي وضعه سانته دي سانكتيس عن الأحلام والذي ظهرت له ترجمة ألمانية عقب صدوره، فقد كان تاريخ ظهوره يوافق تاريخ كتابي بحيث استحال عليَّ أن أعقب على كتاب المؤلف الإيطالي كما استحال عليه أن يعقِّب على كتابي. بيد أنني لم أملك إلا أن أرى آسفاً أن هذا الكتاب، على ما تكلّف فيه صاحبه من الجهد، فقير في أفكاره كل الفقر . فقير حتى أن القارىء لا يشعر منه ولو مرة بوجود المشكلات التي عالجتها.

وليس ثمة ما يذكر سوى كتابين اثنين، يقتربان من علاجي لمشكلات الحلم. فقد حاول فيلسوف شاب، هو هـ.. س؟وبودا، أن يمد إلى الأحداث النفسية فكرة الدورة البيولوجية التي اكتشفها ؟يلهلم فليس (دورة طولها 23 يوماً ودورة طولها 28 يوماً)، فعمل في كتاب يتَّسم بسعة كبيرة في الخيال (1904) على أن يستخدم هذا المفتاح في حل لغز الحلم، بين غيره من المشكلات. ولو صحَّت آراؤه لنفقت أهمية الأحلام سريعاً؛ فهو يزعم أن المادة التي يتألف منها محتوى الحلم ينبغي تعليلها باجتماع جميع الذكريات التي تختتم إحدى هذه الدورات البيولوجية، سواء أكان ذلك للمرة الأولى أم لأي مرة تشاء. ولقد دعتني رسالة شخصية من المؤلف إلى أن أقدِّر أنه نفسه لم يعد يأخذ نظريته هذه مأخذ الجد، ولكني قد أخطأت التقدير، فيما يبدو، وسوف أورد فيما بعد (ص 210) بضع ملاحظات أتيتها للتثبت من فكرة س؟وبودا، دون أن أخرج منها بنتيجة مقنعة. بيد أنني لم أكن إلا أعظم سروراً حين التقيت في مجال لم أكن أتوقع فيه مثل هذا الالتقاء برأيٍ يطابق لبَّ نظريتي تمام المطابقة. فإذا رجعنا إلى التواريخ، تبين أن من المحال أن يكون صاحب هذا الرأي قد تأثر بكتابي. وعلى ذلك أرى لزاماً عليّ أن أحيي فيه المثال الوحيد الذي أستطيع اكتشافه لمؤلف يتفق معي في جوهر نظريتي. وأما الكتاب الذي حوى الفقرة التي أعنيها في موضوع الحلم[120]، فقد ظهر في طبعته الثانية عام 1900 بعنوان «خيالات واقعي»، كتبه لينكويس[121].

ملحق 1914:

كتبت صفحة التبرير السابقة عام 1909. ولقد تغيرت الأوضاع يقيناً منذ ذلك الحين؛ فما عاد العمل الذي قمت به في «تفسير الأحلام» يغفل في أدب الموضوع. بيد أن الموقف الجديد إنما يجعل متابعة العرض السابق ضرباً من المحال. فقد أثار «تفسير الأحلام» طائفة كاملة من الآراء والمشكلات الجديدة تنوَّعت فيها طرق المناقشات أكبر التنوع. ولست أستطيع أن أتحدث عن هذه الكتابات قبل أن أفصل الكلام في آرائي نفسها التي إليها استند هؤلاء المؤلفون. وعلى ذلك فكل ما لاح ذا قيمة عرضت له في موضعه المناسب من مقالي الذي يتلو الآن.

الفصل الثاني: المنهج في تفسير الأحلام
تحليل حلم على سبيل المثال

إن العنوان الذي علَّيتُ به هذا الكتاب يبيِّن أي تقليد سلفي في تصوُّر الحلم أنزع إلى الانتساب إليه. فالغرض الذي أضعه نصب عيني هو أن أبين أن الأحلام تقبل التفسير، ولقد أجيء في سياق ذلك بما يعين على حل المسائل المعالجة في الفصل السابق، ولكن ذلك لن يكون إلا فضلاً يعرض في خلال المضي إلى هدفي الخاص. وأنا إذ أزعم أن الأحلام تقبل التفسير أراني دفعة واحدة في موقف يخالف النظرية السائدة عن الأحلام، بل يخالف في الحقيقة نظريات الحلم جميعاً، فيما خلا نظرية شرنر وحدها. فأن «تفسّر» حلماً معناه أن تحدد له «معنىً ما»، أي أن تستبدل به شيئاً آخر ينتظم في سلك أفعالنا النفسية كحلقة لها من القيمة والشأن مثل ما لغيرها. ولكن النظريات العلمية، كما رأيناها، لا تترك مجالاً للحديث عن أية مشكلة تتصل بتفسير الحلم، لأن الحلم بحسبها ليس فعلاً نفسياً على الإطلاق، بل عملية جسمية يُنتبه إلى وقوعها لعلامات تبلغ الجهاز النفسي. وأما رأي سواد الناس من جميع العصور فكان مختلفاً: فإنهم قد أعملوا حقهم المقرر في أن يغفلوا السلامة المنطقية، فسلموا من جهة بأن الأحلام غير معقولة، باطلة، دون أن يجمعوا أنفسهم مع ذلك على إعلان خلوها من كل مغزى. فهم يبدون كأن شعوراً مبهماً يقودهم إلى أن يقدّروا أن لكل حلم مغزاه وإن خفيَ هذا المغزى، وأن الحلم قد جعل ليحل محل عملية فكرية أخرى، وليس علينا إلا أن نرفع هذا البديل على النحو الصحيح لكي نصل إلى ذاك المعنى الخفي.

ولهذا جهد عامة الناس منذ أقدم العصور في «تفسير» الأحلام. وهم قد اتبعوا في ذلك منهجين يختلفان اختلافاً جوهرياً. فأما أولهما فينظر إلى محتوى الحلم في مجموعه ويسعى إلى أن يستبدل به محتوىً آخر معقولاً يماثل الأول من بعض الوجوه. ذلك هو التفسير الرمزي للأحلام، وهو منهج لا يلبث أن يتضح بالضرورة عجزه حين يواجه أحلاماً تتّسم بالتشوّش فوق لامعقوليتها. وقد يكون في التفسير الذي تذكره التوراة عن يوسف لحلم فرعون، مثال على ذلك المنهج: فأن يرى فرعون سبع بقرات سمان تأكلها سبع عجاف تأتي من بعدها، ذلك كان بديلاً رمزياً لنبوءة تنبىء بسبع سنين من المجاعة في أرض مصر تأكل فائض السنوات السبع وافرة الغلة. وغالبية الأحلام المصطنعة التي يبتدعها خيال الكتّاب إنما يراد بها إلى مثل هذا التفسير الرمزي، فهي تخلع على فكرة الكاتب قناعاً يتَّسق وما نعلم من خبرتنا أنه سمات الحلم[122]. واعتقاد الناس أن الحلم يشغل بالغيب أولاً ويكشف عن وجهه . وهو أثر من الدلالة التنبوّية التي كانت تنسب إلى الحلم يوماً ما . هو الذي يدعو بعد ذلك إلى الانتقال بمغزى الحلم المكتشف بالتفسير الرمزي إلى الزمان المستقبل، بإدخال «سوف» عليه.

وأما السؤال: كيف يجد المرء طريقه إلى مثل هذا التفسير الرمزي؟ فذلك بالطبع أمر لا سبيل إلى تبيانه والإرشاد له، والنجاح فيه يظل مرهوناً بالتخمين الحاذق والحدس المباشر ومن ثم أمكن أن يعلي تفسير الأحلام بالرموز إلى مرتبة النشاط الفني الذي يتطلب موهبة خاصة[123]. وأما المنهج الشعبي الآخر في تفسير الحلم، فبعيد كل البعد عن مثل هذا الادعاء. وفي وسعنا أن نسمّيه «منهج الشفرة»؛ لأنه يعالج الحلم كما لو كان ضرباً من كتابة سرية تمكن ترجمة كل علامة من علاماتها إلى علامة أخرى معروفة المعنى وفق مفتاح ثابت: مثال ذلك أن أحلم بخطاب ثم بجنازة، إلخ..، فأستشير كتاب الأحلام فأجد «الخطاب» يُترجَم إلى «نكد» و«الجنازة» إلى «خطبة»، ويبقى عليَّ بعد ذلك أن أنشىء من هذه المقومات التي قمت بفك مغلقها على هذا النحو جملة مفيدة أنقلها من جديد إلى الزمان المستقبل. وفي كتاب أرتميدوروس الأفسوسي عن تفسير الأحلام تعديل حري بالاهتمام يصحح بعض التصحيح ما يتّسم به منهج الشفرة هذا من طابع النقل الآلي المحض[124]. فهذا المنهج المعدَّل لا يحسب حساب محتوى الحلم وحده بل يدخل كذلك في تقديره طبع الحالم وملابسات حياته، بحيث يختلف معنى العنصر الحلمي هو هو عند الغني أو المتزوج أو الخطيب منه عند الفقير أو الأعزب أو التاجر مثلاً. والشيء الجوهري في منهج الشفرة على أية حال، هو أن عمل التفسير لا يوجّه فيه إلى الحلم في جملته بل يتناول كل جزء من محتواه على حدته، كما لو كان الحلم حجراً جيولوجياً تستوجب كل شظية من شظاياه تقديراً خاصاً. ولا شك في أن الأحلام المختلطة المفككة هي التي أدّت إلى اختراع هذا المنهج[125].

ولسنا نستطيع أن نشك برهة في أن هذين المنهجين الشعبيين في تفسير الأحلام لا يمكن استخدام أي منهما في معالجة الموضوع معالجة علمية؛ فالمنهج الرمزي محدود التطبيق ولا يمكن شرحه على أسس عامة، وأما منهج الشفرة فكل شيء يتوقف فيه على إمكان الثقة «بالمفتاح»، أي كتاب الحلم، وهنا يعوزنا كل ضمان. وهكذا قد يغري المرء بأن يسلّم بأن الحق للفلاسفة وأطباء النفس، فيمحو معهم مشكلة تفسير الحلم محواً،

باعتبارها مشروعاً خيالياً محضاً[126].

بيد أنني قد تعلّمت ما هو خير من ذلك؛ فإني لم أجد بدّاً من أن أدرك أننا نواجه هنا مرة أخرى حالة من هذه الحالات غير النادرة التي يبدو فيها اعتقاد شعبي قديم قدم الزمن، لا تتزعزع عنه النفوس، أقرب إلى حقيقة الأمور من الحكم السائد اليوم في دنيا العلم. ولزامٌ عليّ أن أؤكد أن الحلم له في الحقيقة معناه وأن من الممكن أن يكون ثمة منهج علمي لتفسيره. وأما معرفة هذا المنهج فقد أتيت إليها من ذلك الطريق:

لقد شغلت سنوات طوالاً بتحليل بعض التراكيب النفسية المرضية، مثل المخاوف الهستيرية والأفكار القهرية وما شاكلها، مستهدفاً في ذلك علاجها. وشغلت بها على التحديد منذ أن علمت من كلمة هامة ليوسف برويز أن هذه التراكيب التي تعد أعراضاً مرضية . يتطابق فيها التحليل والحل[127] (أنظر برويز وفرويد، 1895). فإن أمكن اقتفاء فكرة مرضية من هذا القبيل حتى العناصر التي نشأت منها هذه الفكرة في حياة المريض النفسية، امحت الفكرة وخلص المريض منها. وإزاء العجز الذي لمسته في جهودنا العلاجية الأخرى، وإزاء الطابع الملغز الذي تتسم به هذه الاضطرابات، رأيتني أغرى بالمضي في الطريق الذي دلّني إليه برويز على الرغم من كل صعوبة، حتى ينجلي الأمر كاملاً. وسوف يتسنّى لي في مناسبة أخرى أن أفصّل الكلام في الصورة التي اتخذها هذا المنهج أخيراً وفي النتائج التي انتهت إليها جهودي. وإنما أقول الآن: إنني إنما التقيت بتفسير الأحلام في خلال هذه المباحث التحليلية النفسية. ذلك أن مرضاي، بعد أن أستعهد منهم الإفضاء إليّ بكل فكرة أو خاطر يعن لهم، كانوا يقصّون عليَّ أحلامهم ضمن ما يقصون، وهكذا تعلمت منهم أن الحلم يمكن إدراجه في السلسلة النفسية التي يجب اقتفاء أثرها في الذاكرة ابتداءً من الفكرة المرضية. ومن هذا إلى أن يعامل الحلم نفسه معاملة العرض وأن يطبّق عليه ذات المنهج التفسيري الذي أحكم تدبيره للأعراض . لم يكن أمد بعيد.

وهذا العمل يقتضي بعض الإعداد السيكولوجي للمريض. فنحن نهدف معه إلى أمرين: زيادة انتباهه إلى مدركاته النفسية، وتعليق ملكة النقد التي اعتاد أن ينخل بها ما ينبعث من أفكاره. ولكي يتمكّن المريض من تركيز انتباهه في الملاحظة الذاتية، فمن الخير له أن يستلقي في وضعٍ هادىء ويغمض عينيه، وعلينا أن نطلب منه صراحة الإقلاع عن كل نقدٍ للأفكار التي يدركها، ونخبره أيضاً أن نجاح التحليل مرتهن بملاحظته كل ما يدور برأسه وروايته إياه دون أن ينقاد إلى قمع هذا الخاطر من خواطره لأنه يبدو له خالياً من الشأن أو خارجاً عن الموضوع، أو إلى قمع ذلك لأنه يبدو له غير معقول. فعليه أن يقف تجاه خواطره جميعاً موقف الحياد التام؛ لأنه إذا كان لا يوفَّق عادة إلى الإيضاح المنشود للحلم أو الفكرة القهرية أو ما إليهما، فالإخفاق مردُّه هذا الموقف النقدي على التحديد.

ولقد لاحظت في خلال عملي التحليلي النفسي أن الوضع النفسي للمرء وهو يفكّر يغاير كل المغايرة وضعه وهو يلاحظ عملياته النفسية. فالتفكير يتضمن نوعاً من النشاط النفسي يزيد على المتضمن في الملاحظة الذاتية، مهما بذل المرء في هذه من الانتباه، وبهذا تشهد . بين سائر الشواهد . هيئة المفكر المتوترة وجبهته المتعقدة، على نقيض التعبير الساكن لمن يلاحظ نفسه. ففي كلا الحالين يلزم تركيز الانتباه، ولكن من يفكر يعمل ملكة النقد فوق ذلك: يُنحي بعض خواطره بعد أن يدركها ويقتضب بعضها الآخر دون أن يتابع مسالك الفكر التي كانت توحي بها. ثم هو يعرف كيف يسلك حيال فريق ثالث منها مسلكاً لا تبلغ معه إلى الشعور البتة، فتُقمع قبل أن تدرك. وأما الذي يلاحظ نفسه، فليس عليه إلا أن يقمع ملكته النقدية. فإن أفلح، تواردت إلى شعوره أفكار لا حصر لها ما كان ليجتازها بغير ذلك. وبهذه المادة المكتسبة حديثاً لإدراكه الذاتي على هذا النحو يمكن تفسير أفكاره المرضية وتراكيبه الحلمية على السواء. فالمسألة كما نرى هي أن نقيم حالة نفسية تماثل بعض المماثلة تلك التي تسبق النوم (وتماثل أيضاً حالة التنويم المغناطيسي من غير شك)، من حيث توزيع الطاقة النفسية . أعني توزيع الانتباه المتحرك. فقبيل النوم تنبعث «أفكار لاإرادية»، نتيجةً لاسترخاء نشاط إرادي معيَّن (هو أيضاً نشاط نقدي ما في ذلك من شك) كنا نتركه يؤثر في مجرى أفكارنا ونحن مستيقظون. وأما سبب هذا الاسترخاء، فنقول عادة: إنه «التعب». وتستحيل هذه الأفكار اللاإرادية المنبعثة [قبل النوم] إلى صور بصرية وسمعية (أنظر ملاحظات شلابرماخر وغيره فيما سبق، ص 96 وما بعدها)[128]. وأما في الحالة المستخدمة لتحليل الأحلام والأفكار المرضية، فيترك المرء هذا النشاط تركاً مقصوداً متعمداً، ثم يعمل الطاقة النفسية المدَّخرة على هذا النحو (أو يعمل جزءاً منها على الأقل) في الانتباه المتصل إلى الأفكار اللاإرادية التي تأخذ الآن في الانبعاث، والتي تظل . وهنا الفرق بين هذه الحالة وحالة الأخذ في النوم . محتفظةً بطابع الأفكار. وهكذا تحوّل الأفكار «اللاإرادية» إلى أفكار «إرادية».

ويبدو أن هناك كثيراً من الناس لا يسهل عليهم الوقوف الموقف المطلوب حيال الأفكار المنبعثة «انبعاثاً حراً» في ظاهره، واطراح النقد الذي ألفوا ممارسته إزاءها. فمن شأن «الأفكار اللاإرادية» أن تحرّك مقاومة عنيفة في الغاية، تهدف إلى الحيلولة دون انبعاثها. ومع هذا فالخلق الشعري نفسه لا بد يتضمن موقفاً يماثل الذي نصفه كل مماثلة . هذا إذا أولينا التصديق شاعرنا وفيلسوفنا العظيم فردريك شيللر. فهو في فقرة من رسائله إلى كورنر يرجع فضل الكشف عنها إلى أوتورانك، يرد على شكوى صديقه من افتقاره إلى القدرة الخالقة فيقول: «أعتقد أن السبب في شكواك يرجع إلى استبداد عقلك بخيالك، وسأضرب لمعناي بتشبيهٍ يمثله لك: فإنَّ العقل إذا غالى في إكثاب النظر إلى الأفكار التي ترد عليه كأنه واقف لها بالمرصاد وهي لا تزال على الأبواب . إن جاز هذا التعبير . لم يكن في ذلك نفع بل لعله يعرقل عمل النفس الخالقة. فالفكرة إن أخذتها على حدة قد

تبدو تافهة كل التفاهة، غريبة أقصى الغرابة، ولكن أخرى قد تتلوها فإذا هي ذات شأن، أو هي قد ترتبط بأفكار غيرها تلوح في مثل سخفها فإذا هي الحلقة المفقودة؛ فما يستطيع العقل أن يحكم على الكل إذا هو لم يمسك بالفكرة أمداً كافياً ليتأملها مقرونة بأخرياتها. وأما الذهن الخالق . فيما يهيأ إليّ . ففيه على العكس يرفع العقل الحراسة عن الأبواب، تاركاً الأفكار تهجم شذر مذر، وعندئذ . عندئذ فقط . يأخذ في النظر إليها وفحصها مجتمعة. وأما أنتم يا حضرات النقاد . أو أياً كان الاسم الذي يحلو لكم . فتستحيون . أو ترهبون . هذا الجنون العابر الموقوت الذي يعرفه كل خالق حقيقي، والذي يفرق طول أمده أو قصره بين الفنان المفكر والحالم. ومن ثم شكواكم من العقم، فأنتم تنبذون سريعاً وتفرقون عسفاً». (خطاب الأول من ديسمبر 1788).

ومع هذا فما يسمّيه شيللر «رفع الحراسة عن أبواب العقل»، أي التحوُّل إلى حالٍ من الملاحظة الذاتية التي لا يشوبها إعمال النقد، ليس على الإطلاق بالأمر المتعذر.

فمعظم مرضاي يوفقون إليه بعد سماع إرشاداتي الأولى، وأنا نفسي أقوم به على أوفى وجه إذا استعنت في خلاله بتدوين الخواطر التي تعني لي. ويتفاوت مقدار الطاقة النفسية التي تنقص من النشاط النقدي وتزاد بها شدة الملاحظة الذاتية تفاوتاً ضخماً بحسب الموضوع الذي يُراد تثبيت الانتباه عليه.

وتعلمنا الخطوة الأولى في استخدام هذا المنهج أننا لا نستطيع أن نتَّخذ الحلم في مجموعه موضوعاً للانتباه، وإنما الأجزاء المتفرقة لمحتواه. فلو سألت مريضاً لم يزل حديث العهد بالمنهج: ما الذي يخطر له في صدد هذا الحلم؟، لم يجد في العادة شيئاً يدركه في حقله النفسي. فإن قسَّمت له الحلم أجزاء أمكنه أن يدلي في صدد كل جزء بطائفة من المستدعيات يجوز لنا وصفها بأنها «الأفكار المستترة» وراء هذا الجزء. وهكذا يختلف منهج التفسير الذي أزاوله من المنهج الشعبي التاريخي الطائر الذكر، منهج التفسير بوساطة الرموز، من هذه الوجهة الهامة الأولى، ويقترب من المنهج الثاني «منهج الشفرة»: فهو . كهذا الأخير . يفسر الحلم جزءاً فجزءاً وليس جملة، وهو . مثله . يعدُّ الحلم منذ البداية شيئاً مركباً، مجتمع مكوِّنات نفسيّة شتى.

ولقد فسَّرت في خلال اشتغالي بالتحليل النفسي للعصابيين ما يربو على ألف حلم، ولكني لا أريد أن أستخدم هذه المادة في التمهيد الحاضر إلى طريقة تفسير الحلم ونظريته. فهناك . بغض النظر عن كون استخدام هذه الأحلام يعرِّضني لقول المعترض: إنها أحلام عصابيين لا تجوز النتائج المستخلصة منها على أحلام السويين . وهناك بغض النظر عن ذلك سبب آخر يفرض عليّ هذا الامتناع؛ فمن الطبيعي أن يكون الموضوع الذي تسوق إليه أحلام مرضاي هو دائماً تاريخ المرض الكامن وراء أعصبتهم، لذلك كان كل حلم من أحلامهم يستلزم تمهيداً مسهباً وغوصاً في طبيعة الأعصبة وشروطها العلية، وهذه في ذاتها مسائل ذات جدة، محيِّرة إلى أقصى مدى، فقد تصرف الانتباه عن مشكلات الأحلام، بينما أريد على العكس أن أتخذ تحليل مشكلات الحلم ذريعة إلى حل المشكلات السيكولوجية للأعصبة . وهي الأشد صعوبة. فإذا أغفلت الآن مادتي الرئيسة . أعني أحلام العصابيين . لم يعد لي أن أتصعب في الاختيار بين ما يتبقَّى؛ فما تتبقى سوى أحلام من قبيل ما يرويه لي بين الحين والحين أشخاص سويُّون بين معارفي، أو من قبيل تلك المساقة على سبيل المثال في المصنفات الموضوعة عن الحياة الحالمة. ولكن هذه الأحلام جميعاً لا تصطحب لسوء الحظ بالتحليل الذي لا أستطيع بدونه أن أكشف معنى الحلم. فمنهجي من غير شك، ليس له يُسر منهج الشفرة الشعبي، حيث يترجم كل جزء من محتوى الحلم وفق مفتاح ثابت، بل أنا أتوقع على العكس أن يكون ذات المحتوى معنى يختلف باختلاف الناس أو الملابسات. وهكذا أساق إلى أحلامي نفسي من حيث هي مادة وفيرة صدرت عن شخص قريب من السواء، تتصل بوقائع متعددة الألوان من حياة كل يوم. ولا مريّة في أن البعض سوف يتشكك في إمكان الثقة بمثل هذه «التحليلات الذاتية»، وسوف أسمع أن مثل هذه التحليلات لا تتجنب الهوى. بيد أني أعتقد أن الأوضاع قد تكون في الحقيقة أعون على ملاحظة الذات منها على ملاحظة الغير. ومهما يكن من أمر، فلمَ لا نحاول أن نرى إلام نستطيع المضي في تفسير الحلم بوساطة التحليل الذاتي؟ وهناك عدا ذلك صعوبات أخرى يتحتم عليَّ التغلب عليها، صعوبات ألاقيها هذه المرة في داخل نفسي: فبالإنسان نفور طبيعي يصدُّه عن الإفراط في البوح بسرائر نفسه، ولا هو يضمن أن الغرباء لن يسيئوا التأويل. ولكن لا بد للمرء من أن يستطيع التغلب على مثل هذه الصعوبات. ولقد قال دلبوف: «من الواجب على كل عالم نفسي أن يفضي حتى بمَواطن ضعفه، إذا اعتقد أنه يلقي بذلك بعض الضوء على مشكلة غامضة»[129]. ثم إني أقدِّر أن القارىء أيضاً لن يلبث أن يزول اهتمامه الأول بالأمور التي أراني مضطراً إلى الإفضاء بها، ليحل محل هذا الاهتمام اشتغال مانع بالمشكلات التي يعين هذا الإفضاء على جلائها[130].

وعلى ذلك أمضي فأنتخب حلماً من أحلامي وأوضح طريقتي في التفسير بتطبيقها عليه ولكن كل حلم من هذا القبيل يستلزم بعض التمهيد. فلزامٌ عليّ الآن أن أسأل القارىء أن يجعل مشاغلي مشاغله فترة، وأن ينغمس معي في أدق تفاصيل حياتي؛ فمثل هذا التحويل أمر يقتضيه اهتمامنا بالمعنى الخبيء للأحلام اقتضاء آمراً.

تمهيد

كنت في صيف عام 1895 أعالج بالتحليل النفسي سيدة في مقتبل العمر كانت تربطها بي وبأسرتي صداقة وثيقة. ونفهم أن من شأن مثل هذا التداخل في العلاقات أن يثير كثيراً من المشاعر المضطربة في نفس الطبيب، وبخاصة إذا كان طبيباً نفسياً. فاهتمام الطبيب الشخصي يزيد، لكن سلطته تقل. فإن أخفق، كان في ذلك ما يهدّد صداقته القديمة بذوي المريض. بيد أن العلاج كان قد انتهى في هذه الحالة إلى نجاحٍ جزئي؛ فقد برئت المريضة من هيلتها الهستيرية، لكن دون أن تبرأ من جميع أعراضها الجسمية. وكنت في ذلك الحين لا أعلم بعد علم اليقين ما هي المعايير التي تدل على انتهاء التاريخ المرضي لحالة من حالات الهستيريا انتهاءً لا رجعة بعده، وكنت قد اقترحت على المريضة حلاً بدا لها غير مقبول. وبين هذا الخلاف أوقفنا العلاج؛ لإجازة فصل الصيف. وفي ذات يوم زارني زميل يصغرني سناً، وهو أيضاً صديق من أقرب الأصدقاء إليّ. وكان قد حلّ ضيفاً على المريضة . إرما . وعائلتها في مقرّهم الصيفي، فسألته عن حالها، فأجابني «حسنة، لكنه ليس الحسن كله». وأعلم أن كلمات صديقي أوتو . أو نبرات صوته حين إلقائها . قد ضايقتني؛ فقد خيّل إليّ أني أسمع فيها لوماً: كأن أكون وعدت المريضة بأكثر مما استطعت. وكان أني عزوت . سواء مصيباً أم مخطئاً . ما توهمته من تعصب أوتو عليّ إلى تأثير أهل المريضة الذين لم ينظروا قط بعين الرضا إلى علاجي . أو هكذا كان يتسرب إلى ظني. ولم يكن هذا الانطباع المؤلم واضحاً لي على أية حال، كما أنني لم أُبْدِ ما يعرب عنه. وفي مساء ذلك اليوم كتبت تقريراً في تاريخ مرض إرما، كنت أنوي إعطاءه إلى الدكتور م. (وهو صديق مشترك كان في ذلك الوقت صاحب الكلمة المسموعة بيننا)، كأنما كنت أريد أن أبرّىء نفسي. ثم في الليل (أو في الصباح المبكر على الأرجح) حلمت بهذا الحلم الذي بادرت إلى تدوينه عقب اليقظة مباشرة[131].

حلم ليلة 23 - 24 من يوليه 1895

قاعةٌ كبيرة . ضيوف كثيرون ونحن نستقبلهم. بينهم إرما، أبادر إلى الانتحاء بها جانباً، كأنما أريد أن أرد على خطابها، أن ألومها على كونها لم تقبل «الحل»[132] بعد. أقول لها: إذا كنت ما زلت تتألمين، فالذنب في الحقيقة ذنبك وحدك. . تجيبني قائلة: لو علمت أيّة أوجاع أحسها الآن في الحلق والمعدة والبطن، إنها تخنقني . أفزع وأنظر إليها. إنها تبدو شاحبة منتفخة، أحدّث نفسي: لا بد أن ثمة شيئاً عضوياً أغفلْته. آخذها إلى جوار النافذة وأنظر في حلقها. حينئذ تبدي بعض الممانعة، شأن النساء اللائي يَحْمِلْنَ أسناناً صناعية. أقول لنفسي: وما بها مع هذا من حاجة إلى ذلك. . عندئذ ينفتح فمها كما ينبغي، فأرى بقعة كبيرة بيضاء[133] على الجانب الأيمن، وفي موضعٍ آخر أرى قشوراً كبيرة ذات لون رمادي يضرب إلى البياض، انتشرت فوق زوائد متجعدة، غريبة الشكل، كان من الجلي أنها قد صيغت على غرار الخياشيم الأنفية. . أستدعي الدكتور م. على الفور، فيعيد الفحص ويؤيده... إن الدكتور م. يبدو مختلفاً من نفسه كل الاختلاف؛ فهو شاحب جداً، يعرج في مشيته، حليق الذقن... الآن يقف بجانبها صديقي أوتو كذلك، وصديقي ليوبولد ينقر صدرها من فوق الصدار ويقول: إن ثمة منطقة صمّاء على الجانب الأيسر إلى أسفل، ثم ينبِّه أيضاً إلى رقعة مرتشحة من الجلد على الجانب الأيسر (وهو ما ألحظه مثله على الرغم من الرداء)... يقول م.: لا شك في أن هذه عدوى، ولكن هذا ليس بشيء؛ فسوف تعقب الدسنتاريا وينطرد السم... إننا نعلم أيضاً علماً مباشراً من أين نشأت العدوى. فقد حقنها صديقي أوتو منذ قريب، وقد ساءت صحتها يوماً، حقنة من مركَّب من البروبيل... بروبيلين... حامض البروبيونيك... تريمتيلامين (وهنا أرى المعادلة الخاصة بتركيب هذه المادة الأخيرة مطبوعة أمامي بحروفٍ سميكة)... إن مثل هذه الحقن لا يقدم عليها المرء بمثل هذه الخفّة، وأغلب الظن أن المحقنة لم تكن نظيفة كذلك.

إن لهذا الحلم ميزة على أحلام كثيرة غيره: فنحن نرى على الفور بأي أحداث اليوم السابق يرتبط وأي موضوع يعالج. فالكلمة التي مهدت له بها تأتي في ذلك بالبيان: فالأنباء التي حملها إليّ أوتو عن حالة إرما، وتاريخ مرضها الذي انهمكت في تحريره إلى ساعة متأخرة من الليل قد ظلّا يشغلان نشاطي النفسي حتى بعد أن نمت. ومع هذا يعجز من ألمَّ بالتمهيد وبمحتوى الحلم عن أن يحذر معناه. ولا كنت أنا نفسي أعلمه. فأنا أعجب للأعراض التي تشكوها إرما في الحلم؛ فهي غير الأعراض التي من أجلها عالجتها. وأما هذه الفكرة الجوفاء، عن حقنة مركَّبة من حامض البروبيونيك، وكذلك كلمات العزاء الموضوعة على لسان الدكتور م.، فكل هذه تدعوني إلى الابتسام. ثم إن الحلم يبدو لي في نهايته أكثر إبهاماً وكثافةً منه في أوله. ولا بدَّ، لكي أعرف معنى هذا كله، من أن أعقد العزم على تحليله تحليلاً دقيقاً.

التحليل

القاعة . ضيوف كثيرون، ونحن نستقبلهم. كنَّا نقضي ذلك الصيف في بلفي[134] في منزل منعزل قام على أحد التلال الملتحقة بالكالنبرج. وكان قد قُصِدَ في بناء هذا المنزل إلى أن يكون مكاناً للّهو، ولهذا كانت به غرف تخرج عن المألوف في علوّ أسقفها، أشبه بالقاعات. وفي بلفي أيضاً وقع لي هذا الحلم، وكان وقوعه يسبق عيد ميلاد زوجي بأيام معدودات. وكانت زوجي قد ذكرت لي في اليوم الذي سبق الحلم أنها تتوقع أن يزورنا عدد من الأصدقاء . بينهم إرما . يوم عيد ميلادها هذا. فالحلم إذن يسبق إلى هذا الموقف: إنه عيد ميلاد زوجي، ونحن نستقبل ضيوفاً كثيرين . ومن بينهم إرما . في القاعة الرحبة بمنزل بلفي.

ألوم إرما على كونها لم تقبل الحل، أقول لها: إذا كنت ما زلت تتألمين، فالذنب في الحقيقة ذنبك وحدك. لقد كان من الممكن أن أقول لها هذا الكلام في حياة اليقظة، أو قد أكون قلته فعلاً. فقد كان من رأيي في ذلك الوقت (وهو رأي عرفت خطأه فيما بعد) أن مهمتي تقف عند إطلاع المريض على المعنى المستتر لأعراضه، فإمّا أن يقبل المريض هذا الحل أو ألا يقبله، فأمر لا شأن لي فيه . وإن كان النجاح مرهوناً به. ولقد كان من فضل هذا الخطأ عليّ (وإن أكن صحّحته اليوم لحسن الحظ) أنه هوَّن عليَّ الحياة في وقتٍ كان من المفروض فيه أن أظفر بنتائج علاجية ناجحة مع جميع ما كنت عليه من جهلٍ محتوم. . بيد أني ألحظ من العبارة التي أتحدث بها في الحلم إلى إرما أنني إنما أريد قبل كل شيء أن أكون بريئاً من ذنب الآلام التي لا تزال تعانيها: إذا كان الذنب ذنبها، لم يكن ذنبي. أنلتمس هدف الحلم في هذا الاتجاه؟

شكايات إرما: أوجاع في الحلق والبطن والمعدة، كانت تخنقها. كانت آلام المعدة بين أعراض مريضتي، لكنها لم تكن من أعراضها البارزة، بل كان معظم شكواها من أحاسيس بالغثيان والاشمئزاز. وأما آلام الحلق والبطن وانقباض الحلق، فلم يكد يكون لها نصيب في مرضها. وإني لأعجب لمَ قرّرت أن أختار هذه الأعراض في الحلم. بيد أني لا أعلم سر ذلك الآن.

إنها تبدو شاحبة منتفخة. لقد كانت مريضتي متوردة اللون دائماً. إني ليساورني الشك في أن يكون شخص آخر قد حل محلّها هنا.

أفزع إذ أفكّر في أنني ربما كنت أغفلت مرضاً عضوياً ما. إنَّ من السهل أن نصدق أن مثل هذا الإغفال مصدر هيلة لا تنقطع عند طبيب متخصص لا يكاد يرى غير العصابيين وصار من عادته أن ينسب إلى الهستيريا عدداً كبيراً من الأعراض التي يعالجها الأطباء الآخرون معالجة الأمراض العضوية. وهناك من ناحيةٍ أخرى شك خافت أخذ يتسرب إلى نفسي . من أين؟ لا أدري . هو الشك في أن يكون فزعي هذا فزعاً صادقاً كل الصدق: إذا كانت آلام إرما ذات أصل عضوي، لم أكن . مرة أخرى . مسؤولاً عن شفائها؛ فعلاجي إنما يزيل الآلام الهستيرية. وهكذا يخطر لي أنني ربما كنت في الحقيقة راغباً في أن يكون ثمة خطأ في التشخيص؛ فحينئذ يزول عني أيضاً اللوم على الإخفاق.

آخذها إلى جوار النافذة لكي أنظر في حلقها. تبدي بعض الممانعة شأن النساء اللائي يحملن أسناناً صناعية، أقول لنفسي: وما بها مع هذا من حاجة إلى ذلك. لم يعرض قط في علاج إرما ما يدعو إلى فحص تجويف فمها. وإنما يذكّرني ما يقع في الحلم بفحصٍ آخر أجريته منذ وقت ما: كانت المريضة مربّية تبدو للوهلة الأولى صورة من صور الجمال الغض، فلمّا وجب أن تفتح فاها، أخذت تحتاط لكي تخفي «طقم» أسنانها. ويسوقني ذلك إلى ذكريات أخرى عن الفحوص الطبية وما تكشف عنه من أسرار صغيرة لا تسر طبيباً ولا مريضاً. وأما قَولي: وما بها مع هذا من حاجة إلى ذلك، فيبدو للوهلة الأولى إطراء لإرما، بيد أني أتصوَّر له معنىً آخر عدا ذلك . وإن المرء إذا أعمل انتباهه في أثناء التحليل، أحسَّ أهو استنفد كل الأفكار المستترة التي يصح له توقعها أم لا. ثم إن الوضع الذي اتخذته إرما وهي واقفة إلى جوار النافذة يذكرني فجأة بواقعة أخرى: فقد كانت لإرما صديقة حميمة كنت أكن لها أكبر التقدير، ثم اتفق أني زرتها ذات مساء فوجدتها واقفة إلى جوار النافذة في الوضع الذي أعاده الحلم، وقال طبيبها . وكان الدكتور م. عينه . إنها تشكو من غشاء دفتيري. إن شخص الدكتور م. يظهر من جديد في الحلم ويظهر أيضاً الغشاء. وهنا يخطر لي أنني في الأشهر القليلة الأخيرة قد دعتني كل الأسباب إلى أن أفترض أن هذه السيدة الأخرى إنما تشكو كذلك آلاماً هستيرية. لا، بل إن إرما نفسها قد كشفت ذلك لي. ولكن ما الذي أعلمه عن حالها؟ شيء واحد على التحديد: وهو أنها تشكو اختناقاً هستيرياً، شأن إرما في الحلم. وأنا إذن في الحلم قد استبدلت بإرما صديقتها. ويحضرني الآن أنّي كثيراً ما داعبتني تلك الفكرة: أنها أيضاً . أعني صديقة إرما . قد تسألني يوماً الخلاص من أعراضها. على أني كنت أقدِّر في الوقت نفسه أن هذه فكرة بعيدة عن الاحتمال؛ لما كان بطبع هذه السيدة من شدّة التحفظ: إنها تمانع مثل إرما في الحلم. وسبب آخر لموقفها: وهو أنها لم تكن بحاجة إلى ذلك؛ فهي في الحقيقة قد أبدت حتى هذه اللحظة قدرة كافية على مغالبة ما بها من غير حاجة إلى عونٍ خارجي. وتبقى بعد ذلك بضعة ملامح لا أستطيع إسنادها إلى إرما أو صاحبتها: شاحبة، منتفخة، أسنان زائفة. فأما الأسنان الزائفة فتذهب إلى المربية التي سبق أن ذكرتها، وأشعر الآن أنني أستطيع أن أكتفي بهذا القسط في باب الأسنان الرديئة. وأفكّر بعدئذ في شخص آخر قد يكون في هذه الملامح ما يومىء إليه: إن التي أعني لم تكن أيضاً بين مرضاي، ولا كنت أحب أن أكون طبيبها؛ فقد لاحظت منها تحرجاً شديداً في محضري، ولا أظنها كانت تكون مريضاً سهل القياد. إنها كانت شاحبة اللون عادة واتفق حيناً أن بلغت صحتها أوجها فكانت تلوح ممتلئة[135]. وهكذا أقارن إرما في الحلم بشخصين آخرين ما كانا هما أيضاً إلا ليُبديا ممانعة في العلاج لو قد أخذا فيه. فأي داعٍ دعاني أن أبدل بإرما صديقتها؟ لعله أني كنت أرغب في هذا التبديل فعلاً؛ إما لأن الأخرى كانت تحرك في نفسي انعطافاً أكبر إليها أو لأني كنت أرفع تقديراً لذكائها؛

فقد كنت أراه حمقاً من إرما أنها لم تقبل الحل. فأما الأخرى فكانت تكون أكثر فطنة ومن ثم أسرع استسلاماً، حينئذ كان ينفتح الفم كما ينبغي: إنها كانت ستفضي إليّ بأكثر مما أفضت به إرما[136].

ما أراه في الحلق: بقعة بيضاء وخياشيم عليها قشور. إن البقعة البيضاء تذكّرني بالدفتريا ومن ثم بصديقة إرما. ولكنها تذكّرني أيضاً بالمرض الذي أصاب ابنتي منذ عامين على التقريب وبكل الجزع الذي عانيته في هذه الأيام التعسة. وأما القشور المنتشرة على الخياشيم فتذكرني بقلق يساورني على صحتي نفسي. فقد كنت في هذه الأيام أكثر من استخدام الكوكايين لأخفف به تورماً أنفياً ممضاً، وكنت سمعت قبل الحلم بأيامٍ قلائل أن إحدى مرضاي حذت حذوي فأصابها نكروز واسع النطاق في الغشاء الأنفي المخاطي. ولقد كنت أول من أوصى باستعمال الكوكايين في سنة 1885[137]، وجرَّت عليّ هذه التوصية ملائم خطيرة. ثم إن الإفراط في استعمال هذا الدواء قد عجّل بموت صديق عزيز عليّ، وكان موته قبل سنة 1895.

استدعي الدكتور م. على الفور، فيعيد الفحص ويؤيده. ذلك ما يتفق ومكانة الدكتور م. بيننا. غير أن «على الفور» هذه تستلفت نظري، بحيث يقتضي أمرها إيضاحاً خاصاً. إنها تذكّرني بحادثة فاجعة وقعت لي في أثناء القيام بمهنتي: فقد حدث مرة أنني كنت سبباً في أن أُصيبت إحدى مريضاتي بتسمم حاد، وذلك بأن وصفت لها المرة بعد المرة دواءً كان يعد في ذلك الوقت لا ضرر منه (السيلفونال)، وكان أني هلعت إلى هذا الزميل الذي يكبرني سناً وحنكة، ألتمس منه العون والسند. وهناك قرينة تؤيد أنني كنت أفكر حقيقة في هذا الحادث: فقد كانت المريضة التي أودى السم بها تحمل اسم ابنتي الكبرى. وما فكّرت قط في هذا الاتفاق من قبل، ولكنه يلوح لي الآن أشبه بقصاص من القدر، لكأنما كان من الحتم أن يواصل تبديل الأشخاص بعضهم ببعض في تلك الوجهة الأخرى: ماتيلدا هذه بماتيلدا تلك، عين بعين وسن بسن. إنه ليبدو أنني كنت أتلمس كل مناسبة أستطيع أن أوئّب بها نفسي على افتقارها إلى الضمير الطبي.

الدكتور م. شاحب الوجه، حليق الذقن، يعرج في مشيته. جانب الصدق في ذلك هو أن الدكتور م. كثيراً ما يثير مظهره المعتل قلق أصدقائه. وأما السمتان الأخريان فإنما تصدقان من غير شك على شخص آخر: إني أذكر هنا أخي الأكبر الذي يعيش في الخارج؛ فهو حليق الذقن، وإذا لم تكذبني الذاكرة فقد كان م. في الحلم يشبهه. وكنَّا قد علمنا قبل الحلم بأيامٍ قلائل أنه كان يعرج في مشيته لالتهابٍ مفصلي في أعلى فخذه اليسرى. ولا إلا أرى أن ثمة سبباً من أجله أدمجت في الحلم الاثنين في واحد: وإني لأذكر بالفعل أنني كنت واجداً على كليهما لأسباب متماثلة؛ فكلاهما قد رفض اقتراحاً كنت عرضته عليه.

صديقي أوتو يقف الآن بجانبها بينما يفحصها صديقي ليوپولد ويكشف عن منطقة صمّاء في أسفل الجانب الأيسر. إن صديقي ليوپولد طبيب كذلك وله بأوتو قرابة. وقد شاء القدر إلا أن يكونا غريمين؛ فقد سلكا اختصاصاً واحداً وكانت المفاضلة بينهما لا تنقطع. وقد عاونني كلاهما بضع سنوات حين كنت أدير مستشفى خاصاً بالأمراض العصبية للأطفال وكانت تقع هناك مشاهد شبيهة بالذي يقع في الحلم: فبينما كنت أناقش أوتو إحدى الحالات كان ليوپولد يعود إلى فحص الطفل المريض ثم يخرج بجديدٍ يكون له أثره الحاسم في قرارنا. وكان بين الاثنين من التباين في الطبع مثل ما بين المفتش برازيج وصديقه كارل[138]: فأحدهما قد عُرف بحضوره وتوقُّده، وأما آخرهما فبطيء، لكنه لا يترك كبيرة ولا صغيرة. وجليٌّ أنني إذ أفاضل في الحلم بين أوتو وليوپولد الحذر فإنما أبتغي من وراء ذلك إعلاء ليوپولد؛ فالمفاضلة بينهما أشبه بها بين مريضتي العصبية إرما وبين صديقتها التي كنت أراها أكثر رجاحة. وهأنذا ألحظُ الآن أحد المسالك التي عرَّج عليها تداعي الخواطر في الحلم: من الطفلة المريضة إلى مستشفى الأطفال وأما المنطقة الصمّاء بأسفل الجانب الأيسر فيخيَّل إليَّ أنها تطابق في كل تفاصيلها حالة مماثلة أدهشني فيها ليوپولد بدقته. وبذهني أيضاً فكرة مبهمة، هي أن هذا الكدر ربما كان وليد سروح مرضي[139]. ولعل في هذه الفكرة ما يلمّح كذلك إلى الصديقة التي كنت أود علاجها بدل إرما؛ فقد ظهرت من هذه السيدة ـ بقدر ـ ما وسعني الحكم ـ أعراض تحاكي الدرن.

رقعة مرتشحة من الجلد على الكتف الأيسر. أرى على الفور أن المُراد هنا هو الروماتيزم الذي أعانيه في كتفي نفسي والذي لا أسهر ليلة حتى ساعة متأخرة إلا أحسسته. وإن الطريقة التي ركبت بها عبارة الحلم نفسها لتتسم هي أيضاً بالاشتراك[140] إلى أبعد حد: «وهو ما ألحظه مثله...»، ألحظه في جسمي نفسي ـ هذا هو المقصود[141]. ويتبادر إلى ذهني عدا ذلك كيف يخرج هذا التعبير: «رقعة مرتشحة من الجلد» عن المألوف؛ فقد كان من عادتنا أن نقول: «ارتشاح بأعلى اليسار خلفاً» ـ وهو ما يشير إلى الرئة فإلى الدرن مرة أخرى.

على رغم الرداء. هذه الكلمات لا تخرج على التأكيد عن أن تكون إضافة ثانوية؛ فنحن بالطبع كنا نفحص الأطفال في المستشفى وهم مجرّدون من ثيابهم، على عكس ما يجب اتّباعه عند فحص النساء. وأذكر أنه كان يُروى عن أحد الأطباء المشهورين أنه كان يجري الفحص الجسمي لمرضاه من خلال ثيابهم. وأما فيما عدا ذلك، فلست أتميز شيئاً. والصراحة هي أنني لا أريد التعمّق في هذا الموضع.

يقول الدكتور م. إنها عدوى، ولكن ذلك ليس بشيء سوف تغلب الدسنتاريا وينطرد السم. ذلك ما يبدو لي شيئاً مضحكاً للوهلة الأولى. ولكن لا بد مع هذا من تحليله تحليلاً مستوفى، شأنه شأن غيره. وإني لألمح فيه ضرباً من المعنى إذ أقرب النظر إليه. فالمرض الذي اكتشفته بالمريضة

كان التهاباً دفترياً بالحلق. وإني لأذكر مناقشة دارت أيام مرض ابنتي حول العلاقة بين الالتهاب الدفتري الموضعي والدفتريا؛ فالأخيرة هي العدوى المعمّمة التي تنشأ من الدفتريا الموضعية وكان ليوپولد يستدل على مثل هذه العدوى المعممة من وجود المنطقة الصماء التي يصح تبعاً لذلك أن نعدّها ناتجة عن السروح المرضي. وأما أنا فكنت أعتقد أن مثل هذا السروح المرضي لا يقع في الدفتريا، بل هو يذكرني على الأكثر بالحمى الصديدية.

ذلك ليس بشيء. إن المراد هو العزاء. وأما وجه الحاجة إلى العزاء في هذا المقام، فهو الآتي: لقد كان مضمون الجزء السابق من الحلم أن مريضتي تشكو آلاماً ترجع إلى علّة عضوية خطيرة، ويهيأ إليّ أنني إنما كنت أبتغي من وراء ذلك أن أصرف اللوم عن نفسي؛ فالعلاج النفسي لا يمكن أن يُسأل عن دوام آلام دفترية، ولكن ينغصني مع هذا أن أكون اخترعت لإرما مثل هذه العلة الخطيرة لا لغاية سوى أن أبرىء نفسي؛ ففي هذا تظهر القسوة كل القسوة، وأنا إذن بحاجة إلى من يؤكد لي حسن العاقبة، وأخال أني لم أُسيء الاختيار حين أجريت العزاء على لسان الدكتور م. بالذات. بيد أنني أسمو بنفسي فوق الحلم في هذا الموضع، وهذا نفسه يحتاج إلى إيضاح.

ثم لماذا صيغ العزاء في هذه العبارة المجردة من كل معنى؟

الدسنتاريا: أسرحُ إلى ضرب من فكرة نظرية غامضة فحواها أن المواد السامة يمكن أن تُطرد من طريق الأمعاء. أيكون أني أريد أن أهزأ بخصْب الدكتور م. في تصوُّر التعليلات المستبعدة وإنشاء العلاقات المرضية غير المتوقعة؟ إن الدسنتاريا تذكرني أيضاً بشيء آخر: فقد عنيت منذ بضعة شهور بشاب كان يعاني متاعب عجيبة تتعلق بالتبرز، عالجها زملاء آخرون على أنها «فقر دم مع تغذية سيئة». وأدركت من جانبي أن الأمر يتعلق بحالة هستيرية، بيد أنني لم أرد أن أجرب معه علاجي النفسي، وأرسلته في رحلة بحرية. وحدث قبل الحلم بأيام أني تلقَّيت منه خطاباً يائساً من مصر جاء فيه أن نوبة جديدة ألمّت به هناك وأن الطبيب أعلن إليه أنها الدسنتاريا. وأكبر ظني أن هذا التشخيص خطأ انزلق إليه زميل غير عليم ترك الهستيريا تمكر به، ولكني لا أستطيع مع ذلك أن أجنب نفسي اللوم على أني جعلت المريض في موقف قد تُصاب منه أمعاؤه بمرض عضوي فوق مرضها الهستيري. وفوق ذلك فلفظ «دسنتريا» يشبه في الجرس «دفتريا» . وهو اسم نَحْسٌ لا يعرض ذكره في الحلم.

نعم، هو هذا من غير شك: إنني أسخر من الدكتور م. إذ أجري على لسانه هذه النبوءة المعزية: سوف تعقب الدسنتاريا... إلخ. فأنا أذكر أنه نفسه . قبل ذلك بسنوات . قد روى مرة وهو يضحك قصة جد مماثلة عن زميل من الزملاء: فهو . أعني الدكتور م. . قد دُعيَ مرة ليتشاور وهذا الزميل في شأن مريضٍ اشتدت به العلة اشتداداً خطيراً. وأحس الدكتور م. أن الواجب يقتضيه أن ينبِّه زميله . وكان يبدو جم التفاؤل . إلى أنه قد وجد ببول المريض مادة الألبومين. ولكنَّ الزميل أبى أن يأبه لذلك وأجاب هادئاً: « ذلك ليس بشيء يا سيدي العزيز، فلسَوف ينطرد الألبومين سريعاً!» وهكذا لا أملك التشكك بعد الآن في أن هذه الفقرة من الحلم تحوي في طيّاتها استخفافاً بالزملاء الذين لا يعلمون أمر الهستيريا. وها هي ذي فكرة أخرى تجول الآن بخلدي كأنما أريد بها أن تؤيِّد هذا الرأي: أيعلم الدكتور م. أن الأعراض التي تشكوها مريضته صديقة إرما . والتي تحدوه إلى خشية السل، إنما تنبعث هي أيضاً من الهستيريا؟ أتراه فضح الهستيريا، أم تراها «ضحكت عليه»؟

ولكن أي دافع يدفعني إلى أن أسيء إلى هذا الصديق كل هذه الإساءة؟ الجواب هيِّن: ذلك أن «الحل» الذي أرتأيه لإرما لا يلقى من قبول الدكتور م. إلا ما يلقاه من إرما نفسها. وهكذا أكون انتقمت في هذا الحلم من شخصين: من إرما حين أقول: إذا كنت ما زلت تتألمين، فالذنب ذنبك أنت، ثم من الدكتور م. بمنطوق العزاء المجرّد من المعنى الذي وضعته على شفتيه.

إنَّا نعلم أيضاً علماً مباشراً من أين نشأت العدوى. هذه المعرفة المباشرة في الحلم مدعاة إلى العجب؛ فما كنا نعلم من أمرها شيئاً منذ هنيهة، إذ كان ليوپولد أوَّل من اكتشف وجود العدوى.

حقنها صديقي أوتو منذ قريب حين ساءت صحتها يوماً. لقد روى لي صديقي أوتو حقيقةً أنه قد استُدْعِيَ يوماً في أثناء إقامته القصيرة مع أسرة إرما إلى فندق مجاور ليحقن شخصاً ساءت صحته فجأة. وتذكرني الحقن مرة أخرى بصديقي التعس الذي سمّم نفسه بالكوكايين. لقد كنت أوصيته باستعمال هذا الدواء من الباطن فحسب [أي من طريق الفم] بعد ابتداء التخلص من المورفين، ولكنه بادر إلى حقن نفسه بالكوكايين.

مركّب من البروبيل... بروبيلين... حامض البروبيونيك. كيف اتفق لي التفكير في ذلك؟ لقد حدث في الأمسية السابقة . قبل أن أكتب تاريخ الحالة المرضية ويأتيني هذا الحلم . أن فتحت زوجتي زجاجة شراب كُتب عليها «أناناس»[142] وكانت هذه الزجاجة هدية من صديقنا أوتو؛ فقد كان من عادته أن ينتهز كل مناسبة لكي يزف هداياه، والأمل أن يرزق يوماً بزوجٍ فيبرأ من هذه العادة[143]. وكانت تفوح من هذا الشراب رائحة زيت الفوزل، حتى أنني امتنعت عن مذاقه. وخطر لزوجي أن تعطي الخدم هذه الزجاجة، ولكني كنت أكثر حذراً منها، فأجبتها بهذه الملاحظة الإنسانية: هم أيضاً لا يجب أن يتسمموا. وجليٌّ أن رائحة زيت الفوزل (آميل...) قد استدعت هذه السلسلة كلها: پروپيل، ميتيل، وما إليها . وهو ما يعلل ورود مركّب البروپيل في الحلم. صحيح أنني أجريت هنا بعض التبديل، فحلمت بالبروپيل بعد أن شممت الآميل، ولكن مثل هذه التبديلات قد تجوز في الكيمياء العضوية بخاصة.

تريمتيلامين. لقد رأيت في الحلم المعادلة الكيميائية لهذه المادة، وهو ما يشهد بمجهود عظيم من جانب ذاكرتي. ثم إني رأيتها مطبوعة بحروف سميكة، كأنما أريد أن يُنَص لها على أهمية خاصة في هذا السياق. فإلام يسوقني التريمتيلامين الذي يُفرض على انتباهي على هذا النحو؟ إلى حديث دار يوماً بيني وبين صديق كان يعلم كل شيء عن مؤلفاتي وهي في طور النمو كما كنت أعلم منه المثل[144]. ففي خلال هذا الحديث أفضى إليَّ صديقي بآرائه في كيمياء العمليات الجنسية وكان بين ما ذكره لي أن التريمتيلامين . على ما يعتقد . أحد المواد الناتجة عن الميتابوليزم الجنسي. وهكذا تسوقني هذه المادة إلى الحياة الجنسية، وهي العامل الذي أعزو إليه أكبر الأهمية في نشوء الاضطرابات العصبية التي أروم علاجها. ومريضتي إرما أرملة في مقتبل العمر؛ فلو سُئلت عذراً أبرر به إخفاق علاجي، ما وجدت خيراً من الاحتجاج بهذا الوضع الذي يود أصدقاؤها لو تغيَّر. ولكن يا للعجب لتركيب مثل هذا الحلم! فالمرأة الأخرى . تلك التي جعلتها مريضتي بدل إرما . أرملة شابة هي الأخرى.

إني أحذر الآن لمَ أبرزت معادلة التريمتيلامين كل هذا الإبراز في الحلم؛ فكم من أمورٍ ذات بال تلتقي في هذه الكلمة الواحدة! إن التريمتيلامين لا يشير إلى الحياة الجنسية بسلطانها الغلّاب وحسب، إنه يلمح فوق ذلك إلى صديق يسعدني أن أذكر تأييده كلما أحسست عزلتي الفكرية. وصديقٌ هذا شأنه في حياتي، ألا يكون من المحتوم أن يتردد في الحلم ذكره؟ نعم، إن له إلماماً خاصاً بعواقب أمراض الأنف وجيوبه. وهو قد كشف للعلم عن علاقات جديرة بأكبر الإعجاب بين خياشيم الأنف وعضو الإنسال عند الأنثى (الزوائد الثلاث المتجعدة في حلق إرما). ولقد جعلته يفحص إرما مرة ليرى هل كان لأوجاع المعدة عندها أصل أنفي. ولكنه نفسه يشكو التهاباً صديدياً في الأنف يثير القلق في نفسي، وإلى هذا تومىء من غير شك الحمّى الصديدية التي طاف ذكرها بخلدي في صدد السروح المرضي المذكور في الحلم.

إن الإنسان لا يقدم على مثل هذه الحقن بمثل هذه الخفة. هنا يوجِّه اللوم على الخفّة إلى صديقي أوتو مباشرةً. وأعتقد أن خاطراً من هذا القبيل قد طرأ لي بعد الظهر حين خيِّل إلي من كلماته ونظراته أن يتعصب عليّ، كأنما قلت: ما أسهل التأثير فيه! بأي خفة يرسل أحكامه! . وفوق هذا، تذكرني هذه الجملة من جديد بصديقي المتوفى الذي التجأ إلى حقن الكوكايين من غير تروٍّ؛ فما فكرت على الإطلاق . كما قلت من قبل . في أن يأخذ هذا الدواء حقناً. وألاحظ أيضاً أنني إذ ألوم أوتو على نزقه في استخدام المواد الكيميائية ألمس مرة أخرى قصة ماتيلدا التعسة، وهي القصة التي تعرّضني لهذه المؤاخذة عينها. وجليٌّ أنني أجمع هنا الشواهد على حساسية ضميري، ولكني أجمعها أيضاً على العكس.

وأغلب الظن أن المحقنة لم تكن نظيفة كذلك. ذلك لوم آخر يوجَّه إلى أوتو، ولكنه لوم مختلف المصدر. فقد اتفق أني قابلت في اليوم السابق ابن سيدة عجوز في الثانية والثمانين من عمرها، كنت قد كلِّفت بحقنها حقنتين من المورفين كل يوم. وكانت السيدة تقيم في الريف حين قابلت ابنها. فأخبرني أنها تعاني التهاباً وريدياً. فخطر لي على الفور أن الأمر ربما كان ارتشاحاً نجم عن محقنة قذرة. فقد كان من أسباب فخاري أنني لم أسبِّب لها ارتشاحاً واحداً خلال سنتين. فنظافة المحقنة هي همّي الدائم: إنني . وذلك هو بيت القصيد . ذو ضمير. وتعود به الذاكرة من الالتهاب الوريدي إلى زوجي التي اشتكت مرة من انسداد وريدي أصابها في إحدى فترات الحمل. وهنا تمثل في ذاكرتي ثلاثة مواقف متماثلة مع زوجي وإرما وماتيلدا المتوفاة. وواضحٌ أن تماثل هذه المواقف هو الذي خوَّل لي في الحلم تبديل هذه الوجوه الثلاثة فيما بينها.

*

الآن أكملت تفسير الحلم[145]. وكنت وأنا ماضٍ في هذا التفسير أجهد ما استطعت في تجنّب الأفكار التي لم يكن مفر من أن توحيها المقارنة بين محتوى الحلم والأفكار الكامنة وراءه. وفي هذه الأثناء أشرق في ذهني «معنى» الحلم. لقد لحظت أن ثمة مأرباً وأن هذا المأرب قد صار في الحلم شيئاً واقعاً، وهو هو الذي كان لا محالة دافعي إلى الحلم. فالحلم يحقق بضع رغبات أثارتها في نفسي أحداث الأمسية السابقة: الأنباء المتلقاة من أوتو وتاريخ الحالة المرضية الذي دوّنته. وحاصل الحلم هو أنني بريء من شكاة إرما المستمرة؛ فإنما المذنب أوتو. والحقيقة هي أن أوتو قد أثار حفيظتي إذ أشار إشارته إلى شفاء إرما شفاءً غير تام. والحلم يثأر لي إذ يرد اللوم إليه. ثم هو يعفيني من كل مسؤولية فيما عليه إرما إذ يرد حالها إلى عوامل أخرى . وهو يبتدع هنا طائفة كاملة من التعليلات. الحلم . إذن . يصوِّر وضعاً من أوضاع التصوير الذي أحب: إن محتواه يحقّق رغبة والدافع إليه رغبة.

كل هذا يقتحم العين. ولكن تفاصيل الحلم كذلك يدنو الكثير منها للفهم إذا نحن نظرنا إليه من وجهة تحقيق الرغبة. فأنا لا أثأر من أوتو لتعجُّله في التعصب عليَّ وحسب، رامياً إياه بالتهور في علاجه (الحقنة)، بل أثأر منه كذلك للشراب الرديء الذي يفوح منه زيت الفوزل، وأجد في الحلم تعبيراً يوحّد الملامتين: حقنة من مركّب البروبيل. ثم لا يكفيني ذلك، فأمضي في انتقامي، فأفاضل بينه وبين منافس ثقة عنه، كأنما أبتغي القول: إنه أحب إليّ منك. ولست أصبٌّ جام غضبي على أوتو وحده، بل أنتقم أيضاً من مريضتي العاصية إذ أستبدل بها أخرى أعقل وأطوع. بل الدكتور م. نفسه لا أنسى له معارضته إياي، بل أريه بإشارة لا تخفى أنه لا يفقه من الأمر شيئاً («سوف تعقب الدسنتاريا... إلخ»). وإنه ليبدو لي أنني أتحوّل عنه إلى حكم آخر أوسع معرفة، مثلما تحولت من قبل عن إرما إلى صديقتها وعن أوتو إلى ليوبولد. لكأني أقول: أبعدوا عني هؤلاء الثلاثة وآتوني بثلاثة أنتقيهم من غيرهم، ترتفع عني هذه الملامات التي لا أريدها مستحقة! ثم هذه الملامات ذاتها لا يلبث أن يُساق البرهان في الحلم على بطلانها، مسهباً كأكثر ما يكون الإسهاب: فآلام إرما لا تقع عليّ، بل هي الملومة؛ لأنها ترفض حلّي. ثم ما شأني وآلام إرما وهي بطبيعةٍ

عضوية، فلا يشفيها علاج نفسي؟ ثم إنَّ في ترمّل إرما التعليل الكافي لدائها (التريمتيلامين!)، ولا حول لي على تغيير هذا الوضع. ثم إن علة إرما قد ولدتها حقنة من مادة غير مناسبة، لم يأخذ أوتو فيها بالحذر . وهو أمر ما كان ليصدر عني قط. ومرض إرما . مثل الالتهاب الوريدي الذي أصاب مريضتي العجوز . منشؤه حقنها بإبرة قذرة، وأنا الذي ما أضرَّت حقنه أحداً قط. ولا يفوتني بالطبع أن هذه التعليلات لمرض إرما لا تتفق فيما بينها وإن اتفقت على تبرئتي، بل إن كلاً منها يمنع غيره. فالدفاع كله . فما هذا الحلم إلا دفاع . يُذكِّر برجل اتهمه جاره بأنه اقترض منه قِدرّاً ثم أعادها بعد أن أفسدها. فأجاب الرجل بأنه قد أعاد القدر على خير حال . هذا أولاً . ثم إن القدر . ثانياً . كانت مثقوبة حين استعارها، ثم هو . أخيراً . لم يستعر شيئاً على الإطلاق. والنفع في الإكثار: فلو لم تجز من حجج الرجل إلا واحدة، لكفى ذلك أن يُخلى سبيله.

وفي الحلم فكر أخرى تشارك في بنائه دون أن تكون لها مثل هذه الصلة الواضحة برغبتي في أن أُبَرِّأَ من مرض إرما: مرض ابنتي ومرض سمَّيتها، الأذى الذي جرّه الكوكايين، إصابة مريضي المسافر بمصر، قلقي على صحة زوجي وأخي وصحة الدكتور م. شكاياتي نفسي، قلقي على صديقي الغائب وهو يعاني الالتهاب الصديدي الأنفي. ولكني إذا نظرت إلى كل أولئك رأيته يجتمع في دائرة فكرية واحدة عنوانها: القلق على الصحة، لنفسي ولغيري، الضمير المهني. وإني لأذكر إحساساً أليماً غامضاً خالجني حين أتاني أوتو بأنبائه عن إرما، وفي مقدوري الآن . وقد سفرت هذه الطائفة من الأفكار التي كان لها في الحلم نصيبها . أن أرجع إلى هذا الإحساس العابر فأثبته في كلم، إني كنت كأنما أسمعه يقول لي: أنت لا تأخذ تبعاتك الطبية مأخذ الجد، أنت لا ضمير لك، أنت لا تنجز ما تعد. وكان أن واتتني هذه الطائفة من الأفكار لكي أتمكن بها من تبيان أي ضمير مرهف هو ضميري، وكم أحرص على صحة ذويّ وصحة أصدقائي ومرضاي. وحريٌّ بالملاحظة أن هذه المادة قد حوت كذلك أفكاراً تؤيِّد اتهام صديقي أوتو أكثر مما تبرئني، إنها مادة محايدة . إن جاز التعبير .. ولكن هناك مع ذلك رباطاً لا يخفى بين هذه المادة الأوسع نطاقاً والتي ينهض عليها الحلم وبين الموضوع الأضيق الذي يعالجه هذا الحلم والذي نشأت عنه الرغبة في البراءة من كل ذنب في مرض إرما.

ولست أريد أن أقول: إني كشفت معنى هذا الحلم كشفاً كاملاً أو إن تفسيره يخلو من الثغرات.

لقد كان يسعني أن أفرغ له مزيداً من الوقت وأن أخرج منه بمزيد من العلم وأن أناقش في صدده مشكلات جديدة ما زال يثيرها. وأنا نفسي أعلم ما هي المواضع التي ينبغي تتبُّع المستدعيات الفكرية الجديدة ابتداءً منها. ولكن توقفني دون مواصلة التفسير اعتبارات تظهر في صدد كل حلم. فإن أحسَّ البعض بنفسه مسارعة إلى استنكار مثل هذا التحفظ مني، كفاه أن يحاول غلبتي في الصراحة. فأما أنا فأقنع في الوقت الحاضر بتلك المعرفة المفردة الجديدة: إذ سرنا على منهج تفسير الحلم المبيّن في هذه الصفحات، رأينا أن الحلم له في الحقيقة معنىً وأنه بعيد غاية البعد عن أن يكون مظهراً لنشاط مخّي متجزىء، كما يريد المؤلفون: إذا تمّ التفسير تبيّن أن الحلم تحقيق رغبة[146].

الفصل الثالث: الحلم تحقيق رغبة

لو أن رجلاً ضرب في منعطفٍ ضيِّق ثم إذا هو يستوي فوق قمة عالية تتشعب منها الطرق وينتشر الأفق ثريا في كل اتجاه، لكان من الأوفق للرجل أن يتمهل برهةً ليتدبر في نفسه ما هي مقبلة عليه. وحالنا وحال هذا الرجل سواء، بعد أن استتب لنا أول تفسير فسِّر به حلم ما. فنحن نقف ونور الكشف المباغت يغمرنا. فالحلم ليس بالأصوات الناشزة تنبعث من معزف قرعته قوة خارجة لا يد الموسيقي، والحلم ليس خلواً من المعنى ولا فاسده، ولا هو يدعنا نفترض أن فريقاً من أفكارنا المختزنة ينام بينما يصحو فريق. إنه ظاهرة نفسية صادقة كأصدق ما تكون الظاهرة النفسية: إنه تحقيق رغبة، والطريق موصول بينه وبين ما نعقل من نشاطنا النفسي في يقظتنا، وبناؤه من صنع نشاط ذهني على كثير من التعقيد. بيد أننا لا نكاد نأخذ في الابتهاج لهذا الكشف حتى يهجم علينا سيل من الأسئلة: فإذا كان الحلم يمثِّل رغبة محققة . كما يحدثنا به التفسير . فما مأتى الصورة العجيبة التي يتخذها هذا التحقيق؟ أي تغيير ينال أفكار الحلم قبل أن تحوَّل إلى الحلم الظاهر الذي نذكره في يقظتنا؟ كيف يقع هذا التغيير؟ من أين تأتي المادة التي تحوّل إلى حلم؟ وما أصل الخصائص الكثيرة التي نستطيع ملاحظتها في أفكار الحلم . كقبولها التناقض مثلاً؟ (أنظر مثال القدر المستعارة، ص 163). هل يستطيع الحلم أن يعلِّمنا جديداً عن عملياتنا النفسية الباطنة؟ هل يستطيع محتواه أن يصحح آراء كنا نعتقد صدقها في أثناء النهار؟ إني أرى أن ندع جانباً جميع هذه الأسئلة في الوقت الحاضر، وأن نتقدم ببحثنا في طريق واحدة: لقد رأينا أن الحلم يحقق رغبة، فواجبنا الآن هو أن نبحث هل هذه خاصة مشتركة بين الأحلام جميعاً أو هو اتفاق عرض في محتوى ذلك الحلم الجزئي الذي بدأنا به تحليلنا (حلم حقنة إرما). فلقد نقبل التسليم بأن لكل حلم معناه وقيمته النفسية، ولكن من الواجب مع ذلك أن نترك مكاناً لإمكان تفاوت هذا المعنى بتفاوت الأحلام. فحلمنا الأول قد حقّق رغبة، ولكن قد يجيء ثانٍ فإذا هو يحقق مخافة، أو ثالث فلا يخرج محتواه عن أن يكون فكرة ما، أو رابع يستحضر إحدى الذكريات وحسب. أهناك إذن أحلام رغبة أخرى عدا هذا الحلم، أم لعله لا وجود لأحلام سوى أحلام الرغبة؟

إن من السهل أن نتبيّن أن تحقيق الرغبة كثيراً ما يرد في الأحلام سافراً غير خافٍ، حتى أن المرء ليعجب لأن لغة الأحلام لم تفهم منذ زمن طويل. إليك مثالاً على ذلك أستطيع إحداثه كلما شئت، كأنما كان ذلك بالتجريب: إذا أكلت في الليل أنشوجة أو زيتوناً أو غيرها من الأطعمة الشديدة الملوحة، أحسست في الليل العطش وأيقظني هذا الإحساس. ولكن هذه اليقظة تجيء دائماً في أعقاب حلم لا يختلف محتواه، ومحتواه أني أشرب، أشرب جرعات كبيرة من الماء، والماء حلو المذاق كما يحلو السلسبيل والحلق جاف. عندئذٍ أستيقظ وأراني حقيقة مسوقاً إلى تلمس الماء. فالمناسبة الداعية إلى هذا الحلم غير المعقد هي العطش الذي أحسه حين أستيقظ، ومن هذا الإحساس تنبعث الرغبة في الارتواء، وهذه الرغبة يصورها الحلم متحققة. وهو إذ يفعل يؤدي وظيفة أحذرها على الفور: فأنا أنام نوماً عميقاً ولم آلف أن توقظني حاجة من حاجات الجسد، فلو قد أفلحت في أن أسكن عطشي بحلم أراني فيه شارباً، لأغناني ذلك عن الاستيقاظ إرضاءً لهذا العطش؛ فهذا الحلم حلم أخذٍ بالتي هي أسهل: لقد حلّ الحلم محل العمل . كما يقع أيضاً في غير ذلك من مواقف الحياة. ومن سوء الحظ أن الحاجة إلى الماء إرواءً لعطشي لا يمكن إشباعها بحلم مثل ظمأي إلى الثأر من صديقي أوتو ومن الدكتور م. ولكن حسن القصد في الحالين واحد. وحدث منذ وقت غير بعيد أن اتخذ هذا الحلم نفسه صورة مختلفة بعض الاختلاف. فقد أدركني العطش قبيل النوم فأفرغت في جوفي كوباً من الماء أضعه على منضدة صغيرة بجوار سريري، ولكن العطش عاودني في خلال الليل بعد ذلك بساعات واستتبع ما يستتبع من إزعاج، فكان عليّ إن أردت لغلَّتي ارتواءً أن أنهض باحثاً عن الكوب الموضوع على مائدة زوجي. وعلى ذلك أتاني حلم مناسب للمقام، فرأيت زوجي تقدَّم إليّ وعاءً به شراب، وكان الوعاء جرة خزف إترورية[147] من قبيل ما يحفظ فيه رماد الموتى بعد إحراقهم، كنت قد جلبتها معي من رحلة إلى إيطاليا ثم أهديتها إذ ذاك إلى البعض. ولكن الماء كان مالح المذاق (وجليٌّ أن ذلك من أثر الرماد)، حتى أنني استيقظت. ولا يفوتنا أن نلحظ كيف سهّل هذا الحلم الأمور على أوفق وجه. فغرضه الأوحد هو أن يحقق رغبة، ومن ثم جاز له أن يكون أنانياً مطلق الأنانية. والحق أن حب السهولة لا يستقيم ومراعاة الآخرين. والراجح أن إدخال الجرة الخزفية في الحلم كان يحقق أيضاً رغبة: فأنا آسف على أن هذا الإناء قد خرج من حوزتي . كما يخرج من متناولي الإناء الموضوع على مائدة زوجي. والجرّة برمادها تتسّق أيضاً وإحساس المذاق المالح الذي كان آخذاً إذ ذاك في الاشتداد والذي أعلم أنه موقظي لا محالة[148].

وكانت أحلام السهولة هذه تقع لي كثيراً في شبابي؛ فقد كان من عادتي دائماً أن أعمل حتى ساعة متأخرة من الليل وكان الاستيقاظ المبكر أمراً عسيراً عليّ دائماً، فكنت أحلم حينئذ أنني قد غادرت الفراش، وأقف بجوار الحوض أغتسل. وغنيٌّ عن البيان أنه لم يكن في مستطاعي أن أتمادى في التغافل عن الواقع إلى غير حد، ولكنني كنت أظفر في هذه الأثناء ببرهة من النوم. وحدثني زميل شاب، كان يشاركني هذا الغرام بالنوم

على ما يبدو، عن حلم كسل من هذا القبيل، اتخذ عنده صورة فريدة في طرافتها. ذلك أن هذا الزميل كان قد طلب إلى السيدة التي يقيم بدارها قريباً من المستشفى أن توقظه في ساعة محددة كل صباح، وكان ذلك أمراً مشدداً، ولكن السيدة لم تلبث أن تبيّنت أن تنفيذه لم يكن بالأمر الهين. وفي ذات صباح لاح له النوم فريداً في حلاوته، وجاءت السيدة تصيح وهي بالباب: «يا سيد پي استيقظ، لقد جاء وقت الذهاب إلى المستشفى»، فكان جوابه حلماً رأى فيه أنه نائم في إحدى حجرات المستشفى وقد علّقت فوق سريره لائحة خط عليها: «پي هـ.. طالب طب، 22 سنة» فكان أن حدّث نفسه . وهو ما زال بحلمه . قائلاً: «لا حاجة بي إلى أن أذهب إلى المستشفى ما دمت هناك» . ثم تقلّب في فراشه ومضى في نومه. وهكذا اعترف اعترافاً صريحاً بدافعه إلى الحلم.

وها هو ذا حلم آخر فيه كذلك أحدث المنبّه فعله في خلال النوم نفسه. فقد أمر الأطباء إحدى مريضاتي . وكانت قد أجريت لها عملية في الفك لم تصب النجاح المأمول . بأن تضع على خدها المصاب جهازاً مبرداً، ليلاً ونهاراً. ولكنها كانت لا تكاد تنام حتى تسارع إلى إلقائه. وسئلتُ ذات يوم أن أعنفها بعض التعنيف على مسلكها هذا؛ فقد رمت جهازها مرة أخرى. ولكنها أجابتني قائلة: «الحق أني لم أكن أملك حيلة فيما وقع هذه المرة، وإنما المسؤول حلم حلمته في الليل. فقد رأيتني في شرفة بدار الأوبرا وقد أخذ المشهد بلبّي، ولكن الهر كارل ماير كان راقداً في المستشفى وهو يشكو ألماً في فكه مر الشكوى، فقلت لنفسي: لا حاجة بي إذن إلى هذا الجهاز ما دمت أنا لا أعاني ألماً. وكان أني رميت الجهاز». إن حلم هذه الشاكية المسكينة يبدو تصويراً أميناً لعبارة شائعة ترِد على اللسان عفواً حين يرى الإنسان نفسه في موقف لا يحسد عليه: «الحق أني كنت أستطيع أن أتصور ما هو ألطف من ذلك»؛ فالحلم إنما يصور هذا الألطف، فقد كان الهر كارل ماير الذي حولت إليه الحالمة أوجاعها آخر شاب يمكن أن يتجه إليه تفكيرها بين من تعرف.

وبمثل هذه السهولة نستطيع أن نتبين تحقيق الرغبة في أحلام أخرى جمَّعتها من أناس أصحاء. فقد قال لي يوماً صديق كان يعرف نظرياتي في الحلم وتحدث بها إلى زوجه: «سألتني زوجي أن أخبرك أنها حلمت بالأمس أن الحيض قد جاءها. لعلك تعلم ما معنى ذلك». ويقيناً أني أعلمه: فأن تحلم هذه الزوج الشابة بأن الحيض قد جاءها، معناه أن الحيض قد انقطع. وأستطيع أن أتصور أنها كانت تود لو استمتعت بحريَّتها بعضاً آخر من الوقت قبل أن تبدأ تكاليف الأمومة: إن الحلم كان طريقة ماهرة في الإنباء بحملها الأول. وكتب إليَّ صديق آخر يقول: إن زوجه قد حلمت منذ قريب بأنها تلحظ بقعاً من اللبن على صدارها. وهذه أيضاً بشرى تنبىء بالحمل ولكنه ليس الحمل الأول: فالأم الشابة تأمل أن تدر لرضيعها الثاني أكثر مما أدرَّت لرضيعها الأول.

وظلت سيدة شابة أسابيع طوالاً بمعزل عن المجتمع؛ لأنها كانت تتعهد ابنها المريض مرضاً معدياً. فلمّا كتب له الشفاء، حلمت بمجلس التقت فيه بألفونس دوديه وبورجيه ومارسيل بريفو وغيرهم من الكتّاب وكان لطف الجميع تجاهها غاية، وسرّوا عنها أجمل تسرية. وكانت للمؤلفين المجتمعين ملامح كالتي لهم في صورهم، إلا مارسيل بريفو الذي لم تكن قد رأت صورته؛ فقد كان يشبه... موظف وزارة الصحة الذي بخَّر غرفة المريض يوم أمس وكان أول زائر يزورها منذ وقت طويل. وهكذا يبدو أن في الإمكان أن نترجم هذا الحلم ترجمة وافية: لقد آن أوان الانصراف إلى شيء أكثر تسلية من هذا التمريض الأبدي.

لعل هذه المقتطفات كافية أن ترينا أننا نجد في أحيان كثيرة جداً وبين ملابسات على أشد ما يكون اختلافاً . أحلاماً لا تترك مجالاً لفهمها بغير كونها تحقق رغبة، أحلاماً يسفر محتواها عن فحواها في غير خفاء. إنها في الأغلب أحلام قصيرة غير معقدة تباين التآليف الحلمية المشوشة المسهبة التي جذبت بنوع خاص انتباه المؤلفين مباينة حسنة الوقع. بيد أن جهدنا لن يضيع مع ذلك هباء إذا نحن وقفنا عند هذه الأحلام غير المعقدة بعض الوقت. ولنا أن نتوقع أبسط صور الحلم عند الأطفال؛ فلا شك في أن نتائج نشاطهم النفسي أقل تعقيداً من نظيراتها عند الراشدين. وأعتقد أن من المقدّر على علم نفس الطفل أن يسدي إلى علم نفس الراشدين خدمات نافعة كالتي أسدتها دراسة بنية الحيوانات السفلى وتطورها إلى دراسة بنية الحيوانات الأعلى مراتب. ولكن الجهود التي بذلت عن قصد من أجل الانتفاع بعلم نفس الأطفال لهذا الغرض لا تزال قليلة حتى اليوم.

إن أحلام الأطفال لا تخرج في أحيان كثيرة[149] عن أن تكون تحقيق رغبات، وهي تخلو عندئذ[150] من القيمة، بالقياس إلى أحلام الراشدين؛ لأنها لا تثير ألغازاً تنتظر الحل. ولكنها بالطبع تظل ذات قيمة لا تقدر من أجل البرهنة على أن الأحلام تعني في جوهرها الدفين تحقيق رغبة. ولقد أمكنني أن أجمع بضعة أمثلة عليها، من مادة زوّدني بها أطفالي نفسي.

إذ أشكر لرحلة قمنا بها في صيف عام 1896 من آوسي إلى قرية هالشتات الجميلة[151] أن كانت سبباً في حلمين أتت أولهما ابنتي، وكانت تبلغ من العمر إذ ذاك ثمانية أعوام ونصف العام، وأتى ثانيهما ولد تجاوز الخامسة بثلاثة شهور. ومن اللازم أن أقول على سبيل التمهيد: إننا كنا نقضي ذلك الصيف على تلٍ قريب من آوسي، كنا نستمتع منه إذا صحا الجو بمنظر بديع من مناظر جبل داخشتاين. وكان من الميسور إذا استعنا بمنظار مقرّب أن نتبين منه في وضوح كوخ[152] سيموني. ولقد حاول الأطفال رؤيته من خلال المنظار تكراراً، ولست أعلم مدى نجاحهم في ذلك. وكنت قد ذكرت للأطفال قبل الرحلة أن هالشتات تقع على سفح الداخشتاين، وكانوا هم ينتظرون اليوم الموعود في فرحٍ شديد. ومن هالشتات أخذنا نصعد في [وادي] أشرنتال الذي خلب الأطفال بمشاهده المتقلبة، إلا أن واحداً منهم . وهو الولد الذي في الخامسة . أخذ يتذمر؛ فكلما لاح للنظر جبل

جديد جعل يسأل: أهذا هو الداخشتاين؟ فأجيبه: كلا، إنه أحد التلال التي على سفحه فقط. وبعد أن كرر سؤاله هذا بضع مرات، التزم الصمت التزاماً تاماً وأبى مصاحبتنا في المرتقى الذي يقود إلى مسقط المياه. وظننت أنه كان تعباً، ولكنه أقبل في الصباح وعلامات البشر بادية عليه، وقال: «لقد حلمت في الليلة الماضية أننا كنَّا في كوخ سيموني». وإني لأفهمه الآن: فهو قد توقع حين تحدثت عن الداخشتاين أن يصعد الجبل في أثناء رحلتنا إلى هالشتات وأن يرى عن كثب كوخ سيموني الذي طالما كان موضع حديثنا ونحن ننظر إليه بالمنظار. فلما رأى أن عليه أن يقنع بتلالٍ على السفح وبمسقط مياه، خاب ظنه وصار صموتاً. ولكن الحلم عوَّضه عما فاته. ولقد حاولت أن أعرف بعض تفاصيل الحلم، ولكنني لم أظفر منه بالشيء الكثير؛ فكل ما استطاع قوله هو: «إن المرء يصعد ست ساعات قبل أن يصل إلى هناك». وهو ـ حتى في هذا القليل ـ إنما يردد ما سمع.

كذلك الفتاة البالغة من العمر ثماني سنوات ونصف السنة، فقد تركت هذه الرحلة أيضاً في نفسها رغبات لزم أن يرضيها حلم. فقد أخذنا معنا إلى هالشتات ابن الجيران، وكان فتىً في الثانية عشرة من عمره كله فروسية، تدل الدلائل على أنه قد نزل من الآنسة الصغيرة منزل القبول. ففي الصباح التالي روت لي الفتاة هذا الحلم: «تصوَّر أني حلمت أن إميل واحد منا، يناديكما «ماما» و«بابا» وينام معنا في الحجرة الكبيرة مثل إخوتي الصبية. ثم جاءت ماما وألقت بملء يديها تحت أسرَّتنا ألواحاً كبيرة من الشوكولاته لفَّت في ورق أزرق وأخضر». فلما سمعها إخوتها الذين لم يرثوا القدرة على تفسير الأحلام ـ كما نرى ـ صاحوا مثل المؤلفين الذين نعرف: هذا الحلم هراء. بيد أن الفتاة نفسها دافعت عن جزءٍ واحد من الحلم على الأقل، ومن المفيد لنظرية الأعصبة أن نعلم أي جزء هو، قالت: «أن يكون إميل واحداً منا، هذا هراء، وأما حكاية الشوكولاته فلا». وكان هذا الجزء على التحديد هو الجزء الذي خفي علي، ولكن أم الأولاد أتتني ببيانه: ذلك أن الأطفال قد توقفوا وهم في طريقهم من المحطة إلى المنزل أمام موزع آليّ بغية الحصول على ألواح من الشوكولاته لفَّت في ورق معدني لامع من هذا النوع عينه، كانوا يعلمون من سابق خبرتهم أن الآلة تخرجها. غير أن أمهم رأت بحق أن اليوم قد حقق لهم من رغباتهم الكفاية، وبذلك تركت للحلم تحقيق هذه الرغبة الأخيرة. وكان هذا المشهد الصغير قد فاتني. وأما جزء الحلم الذي تخاذلت ابنتي عن الدفاع عنه، فقد فهمته على الفور: فلقد سمعت بأذني ضيفنا المهذب وهو يطلب من الأولاد أن ينتظروا «بابا» و«ماما»، فجعل الحلم من هذه القرابة الموقوتة تبنياً مستديماً. فعاطفة الفتاة لم تكن تعرف بعد شكلاً آخر من أشكال الحياة المشتركة غير الذي صوره الحلم مستوحياً علاقتها بإخوتها. وأما كون ألواح الشوكولاته قد رميت تحت الأسرة، فهذا بالطبع ما لا يتسنى توضيحه إلا باستفسار الطفلة.

وحدّثني صديق بحلمٍ يشبه حلم ابني تمام الشبه: كان الحلم لفتاة في الثامنة. فقد خرج أبوها وفي صحبته جماعة من الأطفال في نزهة إلى دورنباخ وفي نيَّتهم أن يزوروا كوخ روهرر. ولكنَّ الوقت تأخر بهم، فقفل الأب بعد أن وعد الأطفال بأن يعوِّضهم عمّا فاتهم في مرة أخرى. وبينما هم عائدون مروا بسارية تشير إلى الطريق المؤدي إلى الضيعة، فسأله الأطفال أن يأخذهم إليها، ولكن كان عليهم في هذه المرة أيضاً، ولذات السبب، أن يعزّوا أنفسهم بوعد الزيارة في يوم آخر. وفي صباح اليوم التالي ذهبت الفتاة ذات الأعوام الثمانية إلى والدها، تقول له وعليها علائم الرضا: «بابا، لقد رأيت الليلة الماضية في الحلم أنك كنت معنا في كوخ روهرر وفي الضيعة». وهكذا سبق صبرها النافذ إلى تحقيق ما وعد به أبوها.

وها هو ذا حلم آخر لا يقل صراحةً أوحاه جمال الطبيعة في آوسي إلى ابنة أخرى كانت تبلغ من العمر إذ ذاك ثلاث سنوات وثلاثة شهور. فهي كانت عبرت البحيرة للمرة الأولى، وبدت لها الرحلة أقصر مما كان ينبغي، فأبت أن تغادر القارب حين رسا وبكت مر البكاء، فلما جاء الصباح قالت لنا: «لقد ركبت البحيرة في الليلة الماضية». نرجو أن تكون رحلة الحلم هذه قد دامت وقتاً أبعث على رضائها.

وأما ابني الأكبر ـ وكان عمره ثماني سنوات ـ فكان قد سبق إلى الحلم بتحقق خيالاته؛ فهو قد رأى نفسه يركب إحدى عربات القتال مع أخيليوس، وكان ديوميد سائق العربة. ولا غرو إذا كانت أساطير اليونان التي قرأها في اليوم السابق في كتاب مُهدى إلى أخته الكبرى قد ألهبت حماسته.

وإذا جاز أن ندرج الألفاظ التي يتفوّه بها الأطفال وهم نيام في عداد الأحلام، أمكنني أن أسرد في هذا الموضع حلماً لحالمٍ بين أحدث من في مجموعتي. فقد أُصيبت ابنتي الصغرى ـ وكان عمرها تسعة عشر شهراً ـ بنوبة من القيء ذات صباح، فمُنعت عن الأكل طيلة النهار. فلما كان الليل الذي أعقب ذلك النهار الجائع سمعناها تنادي وهي مهتاجة في نومها: «آنا فـ (ر) ويد، فـ (ر) يز، فـ (ر) يز ب (رّ) ي، أومليت، ك (ر) يمه!». وهي إذن تستخدم اسمها نفسها للدلالة على فعل الملك ـ كعادتها إذ ذاك ـ كما أنها قد ضمّنت قائمة الطعام بالطبع كل ما لاح لها أنه يؤلف وجبة شهية. وأما ذكرها صنفين من الفريز فكان إظهاراً لاحتجاجها على القواعد الصحية المرعية في المنزل، وهو احتجاج بعثت عليه ملابسة لم تغب على التأكيد عن ملاحظتها: ذلك أن المربية كانت قد عزت توعكها إلى تخمة أصابتها من جرّاء الإفراط في أكل الفريز. وهكذا كانت الطفل تثأر من هذا الحكم الذي لم يصادف هوى من نفسها[153].

فإذا كنا نشهد بسعادة الطفولة لبراءتها من الرغائب الجنسية فلا ننسى أي مصدر خصيب للخيبة وللنزول المكره ـ ومن ثم أي منبه إلى الحلم ـ تتضمنه ثانية العزيزتين الحويتين الكبريين[154]. وها هو ذا مثال آخر على ذلك: وكّلت إلى ابن أخي ـ وكان له من العمر اثنان وعشرون شهراً ـ مهمة القيام بتهنئتي بعيد ميلادي مع تقديم سلة من الكريز الذي لا تُرى في هذا الوقت من العام سوى بواكيره هديةً إليّ. ويبدو أن المهمة كانت

شاقة عليه؛ لأنه جعل يردد جملة: «فيها ك. (ر) يز» دون أن يتيسَّر إقناعه بترك السلة تخرج من يديه. إلا أنه عرف على أية حال كيف يعوِّض ما فاته. فقد كان من عادته حتى ذلك الوقت أن يعلن إلى أمه في كل صباح أنه قد حلم «بالضابط الأبيض» أي بضابطٍ من ضبَّاط الحرس الإمبراطوري كان قد أعجب به يوماً في الطريق إذ شهده بعباءته البيضاء . ولكنه في صبيحة اليوم الذي أعقب تلك التضحية من جانبه، نهض فرحاً ليعلن نبأ لا يمكن أن يكون له مأتى غير الحلم: «هـ. (ر) مان أكل الك. (ر) يز كله!»[155].

أمّا بمَ يحلم الحيوان، فهذا ما لا أعلم عنه شيئاً. ولكن هناك مثلاً سائراً . أدين بمعرفته لأحد تلاميذي . يدّعي معرفة الجواب: يسأل المثل: بمَ تحلم الأوزة؟ ثم يجيب: بالذرة[156]. إن النظرية القائلة: «إن الأحلام تحقيق رغبة» محتواة جميعها في هاتين الجملتين[157].

وهكذا نرى أنه كان في مقدورنا أن نصل إلى المعنى الخبيء للحلم من طريق أقصر لو أننا استرشدنا العرف اللغوي. صحيح أن اللغة الدارجة تتحدث عن الأحلام أحياناً حديث الزراية. وحين تقول هذه اللغة: «الأحلام أضغاث» فكأنها تبغي بقولها هذا أن تؤيِّد الحكم العلمي. ومع ذلك فالأحلام في اللغة الدارجة هي قبل كل شيء المحققات المبارَكات للرغبات. فنحن نصيح إذ يستخفنا الطرب لأن الواقع قد جاوز ما كنَّا نتوقعه: ذلك ما لم أكن أتخيله ولو في أشد أحلامي جرأة.

الفصل الرابع: تشويه الحلم

لو أنني سقت الآن تلك القضية: إن تحقيق الرغبة هو المعنى الذي ينطوي عليه كل حلم، أي أن من المحال أن تكون ثمة أحلام غير التي تحقق رغبة، لكان من المحقق مقدَّماً أن ألقى أقطع المعارضة. سوف يقول لي القائلون: «أن تكون هناك أحلام ينبغي فهمها بكونها تحقق رغبات، ذلك ليس بالشيء الجديد، بل كثير من المؤلفين قد لحظوه منذ زمن طويل (أنظر رادشتوك، ص 137، 138 وفولكلت، ص 110، 111 وبوركينيه، ص 456 وتيسييه، ص 70 وحديث م. سيمون في ص 42 عن أحلام الجوع التي عرفها البارون ترنك وهو سجين، ثم الفقرة الواردة في ص 89 عند جريزنجر)[158]. وأما أنه لا وجود لأحلام غير التي تحقق رغبات، فتعميم جديد من هذه التعميمات التي لا مبرر لها، وهو لحسن الحظ تعميم يسهل دحضه. فالأحلام التي تطالعنا بمحتوى أليم أشد الألم دون أن تضم أقل أثر من تحقيق الرغبة ليس أكثر منها. ولا شك في أن الفيلسوف المتشائم إدوارد فون هارتمان كان أبعد المبعدين عن نظرية تحقيق الرغبة هذه؛ فهو يقول في الجزء الثاني من كتابه «فلسفة اللاشعور» (1890، 52، 344): وأما الحلم، فبه تنتقل إلى النوم منغصات اليقظة، فلا شيء ينقصه سوى الشيء الوحيد الذي قد يصلح إلى حدٍ بين الرجل المثقف والحر أعني متعة العلم والفن... بل إن من الملاحظين من هم أقل منه برماً بالحياة وهم مع ذلك يلحُّون على أن الألم والضر يُكْثِران في الحلم اللذّة: مثال ذلك شولتس (1893، 57) وفوللكت (1875، 80) وغيرهما. وأكثر من ذلك أن السيدتين سارا ويد وفلورنس هالام قد قدَّرتا غلبة الألم في الأحلام تقديراً عددياً استندتا فيه إلى دراسة أحلامهما؛ فأحصتا في كل مائة حلم 57.2 حلماً أليماً، وأما الأحلام السارة من غير لبس فلم تعد 28.6 حلماً. ثم هناك إلى جانب هذه الأحلام التي تنقل إلى النوم ما تضمُّه الحياة من ضروب المشاعر الأليمة، هناك أحلام الهيلة التي فيها يهزنا . حتى ليذهب الكرى عنَّا . هذا الشعور الذي يفوق في هوله كل شعور عداه. ولا تزور أحلام الهيلة هذه أحداً بمثل السهولة التي تزور بها الأطفال[159]، وهم الذين وجدتَ عندهم أحلام الرغبة في صورتها السافرة».

والحق هو أن أحلام الهيلة على التحديد، تبدو عائقاً يحول دون أي تعميم للقضية التي خرجنا بها من الأمثلة المسوقة في الفصل السابق: أن الحلم تحقيق رغبة. لا، بل إنها لتدمغ مثل هذه القضية بالبطلان.

بيد أننا لا نجد مع ذلك كبير صعوبة في دفع هذه الاعتراضات التي تلوح ذات قوة ملزمة. فكل ما نحتاج إليه هو أن نتذكر أن نظريتنا لا تقوم على النظر في محتوى الحلم الظاهر، بل هي تحيل إلى الأفكار التي يكشف عنها التفسير من وراء الحلم، ومن الواجب أن نفرّق بين محتوى الحلم الظاهر ومحتواه الكامن. فمن الحق أن ثمة أحلاماً يكون محتواها الظاهر من النوع الأليم، ولكن هل حاول أحد أن يفسر هذه الأحلام وأن يكشف عن المحتوى الفكري المستتر وراءها؟ إذا كان الجواب نفياً ارتفع عنَّا كِلا الاعتراضين الموجهين إلينا؛ فقد يتبين بعد تفسير الأحلام المؤلمة وأحلام الهيلة أنها أيضاً تُحقق رغبات[160].

إذا اتفق أن واجهتنا مشكلة صعبة الحل ونحن بسبيل بحث علمي، فقد يكون من النافع في أحيانٍ كثيرة أن نضيف إلى هذه المشكلة أخرى، على نحو ما يسهل كسر جوزتين معاً عن كسرهما واحدة فواحدة. وعلى ذلك فلن نواجه هذا السؤال وحده: كيف يمكن أن تكون الأحلام المؤلمة وأحلام الهيلة تحقيقات لرغبات؟ بل نضيف إليه سؤالاً ثانياً نستطيع أن نخرج به من مناقشاتنا السابقة في أمر الحلم: تلك الأحلام التي تُبدي محتوى خالياً من اللذة والألم على السواء ثم يتضح بعد ذلك أنها تحقق رغبات، لماذا لا تعرب عن معناها هذا إعراباً سافراً؟ إليك هذا الحلم الذي أطلنا في مناقشته، حلم حقنة إرما: إنه لم يكن حلماً أليماً بحال ما، ثم تبيّن بتفسيره أنه كان مثالاً ساطعاً على تحقيق الرغبة. ولكن لماذا أحوج الأمر إلى تفسير على الإطلاق؟ لماذا لم يعرب الحلم عن مراده إعراباً مباشراً؟ فالحقيقة أن حلم إرما لا يوحي للوهلة الأولى أنه يصوِّر للحالم تحقق إحدى رغباته: فلا قارىء الحلم قد خرج من قراءته بهذا الشعور، ولا أنا نفسي كنت أعلمه حتى أخذت في تفسيره. فإذا سمَّينا هذا المسلك الذي يتطلب تعليلاً ظاهرة تشويه الحلم ، كان سؤالنا الثاني هو: ما منشأ هذا التشويه في الأحلام؟

ههنا قد تخطر لنا على الفور عدة من الحلول الممكنة لهذه المشكلة، كأن نقول: إن النوم يتضمن ضرباً من العجز عن الإعراب عن أفكارنا الحلمية إعراباً مباشراً. ولكن ثمة أحلاماً يحملنا تحليلها على التماس تعليل آخر لتشويه الأحلام. وأمثل لذلك بحلمٍ آخر من أحلامي. ويجرني هذا التمثيل من جديد إلى البوح بأمورٍ شتّى، ولكن يعوِّض عن هذه التضحية الشخصية أن تتضح المشكلة اتضاحاً تاماً.

تمهيد: علمت في ربيع عام 1897 أن أستاذين جامعيين قد رشحاني لدرجة أستاذ مساعد[161]. وكان هذا الخبر مفاجأة لي وكان سروري به

عظيماً؛ فقد رأيت فيه تقديراً صادراً عن رجلين جليلين، لا يمكن عزوه إلى علاقات شخصية. ولكنني حذَّرت نفسي عند سماعه من أن تجري وراء الأمل: فلقد ضربت الوزارة صفحاً عن اقتراحات من هذا القبيل في خلال السنوات الأخيرة[162]، وهناك زملاء كثيرون يكبرونني سناً ويعدلونني . على الأقل . استحقاقاً ظلوا مع ذلك سنوات ينتظرون هذا المنصب هباء، ولم يكن ثمة أي سبب يجعلني أتوقع أن تتغير الحال معي. لهذا وطدت النفس على الخيبة، ولست . فيما أعلم . بالرجل الواسع المطامع، ثم إني كنت ألاقي في مهنتي نجاحاً مُرْضياً من غير حاجة إلى أن يزكِّيني لقب. وعلى أية حال لم يكن ثمة مجال للسؤال عن العنب أحلو هو أم مر؛ فقد كان من المقطوع به أنه كان مرتفعاً جداً.

وفي ذات مساء زارني صديق من أولئك الزملاء الذين اتخذت لنفسي من مصيرهم نذيراً؛ فقد ظل زماناً طويلاً مرشحاً لدرجة الأستاذية التي تجعل من الطبيب في مجتمعنا نصف إل~هـ في نظر مرضاه. إلا أنه كان أقل مني استسلاماً، فكان يتردد بين الحين والحين على مكاتب الوزارة، مذكِّراً كبار المسؤولين، آملاً تحقيق مطلبه. وكان مجيئه إليَّ بعد زيارة من هذه، فقصّ عليّ كيف أنه في هذه المرة قد جذب الكبير المسؤول إلى أحد الأركان ثم سأله إذا كان تعويق ترقيته لا يرجع في حقيقة الأمر إلى اعتبارات دينية[163]. فكان الجواب هو: إنه بالنظر إلى تيار المشاعر العامة في الوقت الحاضر، فإن معالي الوزير لا يجد نفسه . مؤقتاً . في موقف يسمح له... إلخ. ثم أردف صديقي قائلاً: «الآن أعرف على الأقل أين أنا»، مختتماً بذلك روايته التي لم تكن تحمل إليّ جديداً وإن دعمت تسليمي بالأمر الواقع؛ فتلك الاعتبارات الدينية تصدق عليّ كذلك.

وفي الصباح الذي أعقب هذه الزيارة وقع لي الحلم الآتي، وهو حلم استرعى نظري من أجل الصورة التي اتخذها كذلك؛ فقد تكوّن الحلم من فكرتين وصورتين: فكرة فصورة ثم فكرة فصورة. ولا أذكر هنا سوى النصف الأول وحده، لأن النصف الآخر لا علاقة له بالغرض الذي من أجله أورد هذا الحلم.

1 . صديقي ر. هو عمّي . أشعر نحوه بحنان كبير.

2 . أرى وجهه أمامي وقد أصابه بعض التغيير: كأنه استطال. تبرز في وضوح شديد لحية صفراء أحاطت به.

ثم يعقب الجزءان الآخران اللذان أحذفهما: فكرة أيضاً فصورة.

ولقد وقع تفسير الحلم على هذا النحو:

عندما خطر هذا الحلم ببالي في خلال الصباح، ضحكت وحدثت نفسي قائلاً: هذا الحلم هراء. ولكن الحلم لم ينفك عني، بل ظل يلاحقني طوال النهار، إلى أن أنَّبت نفسي أخيراً، في المساء، قائلاً: «لو أن مريضاً من مرضاك لم يجد في خلال تفسير حلمه خيراً من قوله: إن هذا الحلم هراء، لأخذت في تأنيبه ولظننت أن الحلم يخفي قصة كريهة يريد الحالم أن يجنِّب نفسه مؤونة العلم بها. فخذ نفسك بما تأخذ به غيرك. إن اعتقادك أن الحلم هراء إنما يدل على مقاومة باطنة بإزاء تفسيره. فابدأ، ولا تدع مانعاً يمنعك». وعلى ذلك شرعت أفسره.

«ر. هو عمي». ما معنى ذلك؟ إني لم يكن لي قط سوى عم واحد، عمي يوسف[164]. وكانت لهذا العم قصة مؤلمة: فقد حدث مرة . منذ أكثر من ثلاثين عاماً . أن دفعه الطمع في الكسب إلى التورط في صفقة من النوع الذي يعاقب عليه القانون عقاباً صارماً، وكان أن عوقب. وكان من عادة والدي الذي شاب رأسه من الحزن في أيام معدودات أن يردد دائماً قوله: إن العم يوسف ليس بالرجل الشرير، ولكنه أبله . تلك كانت كلماته. فلو كان صديقي ر. هو عمي يوسف، لكان معنى ذلك أني أقول: إن ر. أبله. أمر لا يكاد يصدَّق، كريه على النفس كل الكراهة! ولكن هناك الوجه الذي أراه في الحلم بملامحه المستطيلة ولحيته الصفراء. لقد كان لعمي حقيقة وجه كهذا الوجه، مستطيل الشكل، يحيط به إطار من لحية جميلة شقراء. وأما صديقي ر. فكان في أول أمره أسود الشعر حالكه. ولكن ذوي الشعور السوداء إذ تتقدم بهم الأيام يفقدون بهاء شبابهم. فلحاؤهم الداكنة يدبُّ فيها . شعرة فشعرة . تحوُّل في اللون لا يسر، فهي تصير في بادىء الأمر ضاربة إلى الحمرة، فضاربة إلى الصفرة، ثم تحول بعدئذٍ فقط إلى الرمادي الخالص. وقد كانت لحية صديقي ر. تمر بهذا الطور الأخير . وكذلك كانت بعدُ لحيتي، كما كنت ألحظه في غير رضا. فالوجه الذي أراه في الحلم هو وجه صديقي ر. ووجه عمي في آنٍ معاً: إنه كان أشبه بصور جالتون المركبة . فقد كان جالتون يطبع على اللوحة الواحدة وجوهاً متعددة إظهاراً لما قد يكون بين ذوي القربى من الشبه المشترك. وما من شك إذن في أنني كنت أعني أن أصف صديقي ر. بالبله . مثل عمي يوسف.

ولست أعلم حتى الآن ما هو الغرض الذي أتوخاه من هذه المماثلة التي لا أزال أثور عليها. ثم هي مع ذلك مماثلة لا عمق فيها. فقد كان عمي مجرماً، على حين أن صديقي ر. بريء من كل شائبة... اللهم إلا من غرامة أُدين بها يوماً لأنه صدم صبياً بدراجته. أيكون أني أفكر في هذه الفعلة؟ إن معنى ذلك هو أنني أجري المماثلة مجرى المزاح. ولكنني أذكر الآن حديثاً دار منذ بضعة أيام بين زميل آخر . هو ن. . وبيني، وأذكر أن مدار الحديث كان هذا الموضوع عينه. فقد قابلت ن. في الطريق، وكان أيضاً مرشحاً لدرجة الأستاذية، فلمَّا علم أني نلت مثل هذا الشرف هنأني عليه. ولكنني قاطعته قائلاً: «إنك آخر من يحق لهم المزاح في هذا الباب؛ فأنت تعلم من خبرتك نفسك ما هي قيمة مثل هذا الترشيح». فأجابني وهو في الأغلب غير جاد: «من يدري؟ فالموقف يختلف معي. ألا تعلم أن امرأة قد اتهمتني يوماً في ساحة القضاء؟ لا أظنني بحاجة إلى أن أؤكد لك

أن الحق قد رجع إلى نصابه وأن الأمر لم يعد أن يكون محاولة دنيئة للابتزاز، ولقد تحملت مع ذلك كل مشقة لكي أجنّب تلك المبلغة الكاذبة جزاءها. ولكن ربما كان القوم في الوزارة يتخذون من هذه القصة تعلة للحيلولة دون ترقيتي. وأما أنت فلا شائبة تعلق بك». وهأنذا إذن أملك المجرم وأملك معه تفسير الحلم ومرماه: فعمي يوسف يصوِّر لي كلا الزميلين اللذين لم يرقيا إلى الأستاذية: فأما أولهما؛ فلأنه أبله. وأما آخرهما؛ فلأنه مجرم. وأعلم الآن أيضاً ما هو وجه الحاجة إلى هذا التصوير: فلو قد كان لعامل الدين أثر في إرجاء ترقية صديقيَ، لكانت ترقيتي كذلك في خطر، فإن استطعت أن أجد لإخفاقهما عللاً أخرى، بقيَ لي الأمل دون أن يضطرب. وعلى هذا يعمل الحلم: فهو يجعل من الأول أبله ويجعل من الآخر مجرماً. ولما كنت ولست بهذا ولا بذاك، فلا شيء يجمع بيننا ومن حقي أن أهنىء نفسي على الأستاذية وأن أستثني شخصي فلا أطبّق عليه النتيجة المؤسة التي تخلص من رواية صديقي ر. عن حديث الموظف الكبير إليه.

بيد أني لا أجد بداً من المضي في تفسير هذا الحلم إلى أبعد من هذا المدى؛ فما زلت أشعر بأنني لم أنته منه إلى النهاية التي أرتضيها، وأنا لا أزال أضطرب لهذا الاستخفاف الذي أضع به من قدر زميلين جليلين لكي يخلو لي الطريق إلى الأستاذية. نعم، إن من المستيَقن أن سخطي على هذا الأسلوب قد أدركه الوهن منذ تعلمت كيف أقدِّر شهادة الحلم حق قدرها: فلا أخالني إلا منكراً أشد الإنكار كل إشارة قد يفهم منها أني أعد ر. أبله حقيقة، أو أنني لا أصدق حقيقة قصة البلاغ الكاذب كما رواها ن.، ولا أنا أصدِّق بالطبع أن إرما قد أصابها مرض خطير لأن أوتو حقنها بحقنة من البروبيل؛ فالحلم هنا، شأنه هنالك، إنما يعرب عن رغبتي في أن تكون الأمور كذلك. كل الفارق هو أن العبارة التي تتحقق فيها رغبتي تلوح في الحلم الثاني أقل سخفاً منها في الحلم الأول؛ فهي قد صيغت في هذه المرة باستخدام بعض السند من الواقع استخداماً أكثر مهارة، كتجريحٍ ذكي يُخَيَّلُ إليك أن «من وراء الدخان ناراً»: فقد وقع إذ ذاك لصديقي ر. أن أستاذاً من كلّيته قد صوَّت ضده، وأما صديقي ن. فقد زودني هو نفسه بمادة القذف من حيث لا يدري. ولكنني ـ مع هذا كله ـ أعود فأقول: إن الحلم لا يزال يقتضي مزيداً من الإيضاح.

إني أذكر الآن أن هذا الحلم قد احتوى جزءاً آخر أغفل التفسير أمره حتى الساعة: ذلك أنني بعد أن خطر لي أن ر. هو عمي شعرت في الحلم بحنان كبير نحوه. فإلى من يتَّجه هذا الشعور؟ فأما عمي يوسف، فطبعي أنني لم أشعر نحوه بمثل هذا الشعور في يوم من الأيام. وأما صديقي ر.، فقد ظللت سنوات أكنّ له المودة والتقدير، ولكنني لو قد ذهبت إليه لأعرب له عن مودتي في كلمات تقارب الحنان الذي خالجني في الحلم لما كان دهشه من غير شك بالقليل. فحناني في الحلم نحوه يظهر لي زائفاً مبالَغاً فيه، مثل حكمي على مقدراته العقلية، وهو الحكم الذي أعربت عنه حين أدمجت شخصيته في شخصية عمي، وإن تكن المبالغة قد اتخذت هناك الاتجاه المضاد. ولكن ضوءاً جديداً قد أخذ يشرق الآن عليَّ: فالحنان الذي أحسسته في الحلم لا ينتمي إلى المحتوى الكامن، إلى الأفكار المستترة خلف الحلم، بل هذا الحنان ضد هذا المحتوى وما أريد به سوى أن يخفي عني تفسير الحلم. والراجح أن ذلك على التحديد كان الداعي إلى وجوده. وأذكر الآن كيف أخذت في تفسير هذا الحلم على كرهٍ مني، وكيف انتحلت الأعذار لإرجائه زمناً طويلاً، وكيف قلت: هذا الحلم هراء محض. ولقد علمتني ممارسة العلاج بالتحليل النفسي كيف ينبغي تفسير هذا النوع من النبذ: إنه مجرَّد من كل قيمة من حيث هو حكم، ولا يعدو أن يعرب عن شعور قائله. فابنتي الصغيرة إذا رغبت عن تفاحة قدمت إليها، أكَّدت أن التفاحة مُرة وهي لم تذقها. فإن صنع مرضاي صنيع الصغيرة علمت أن ثمة خاطراً يريدون له الكبت. وهذا عينه يصدق على حلمي: فأنا لم أكن أرغب في تفسيره؛ لأن تفسيره ينطوي على شيء أغالبه. وأعلم الآن ـ بعد أن أكملت التفسير ـ ما هو هذا الشيء، إنه قولي: إن ر. أبله. ولست أستطيع أن أرجع الحنان الذي أحسست به إلى أفكار الحلم الكامنة، بل الأحرى إرجاعه إلى تلك المغالبة. فإذا كان الحلم قد شوَّه في هذا الموضع بالقياس إلى محتواه الكامن ـ وشوّه بحيث ينقلب إلى ضده ـ فقد كان الحنان الظاهر في الحلم مطية هذا التشويه، أو بعبارة أخرى: إن التشويه يتبين في هذه الحالة تشويهاً متعمداً وطريقة من طرق الاستخفاء. فأفكار الحلم كانت تتضمن قدحاً في ر.، ولكي أعمى عن هذا القدح، ظهر في الحلم الضد، ظهر نحوه حنان شديد.

إن من الجائز أن يكون ذلك كشفاً شامل الصدق. نعم، إن من الحق أن هناك أحلاماً يتجلّى فيها تحقيق الرغبة من غير خفاء ـ كما اتضح من أمثلة الفصل الثالث ـ ولكن حيثما خفيت الرغبة أو تقنّعت، وجب أن يكون ثمة باعث يبعث المرء على أن يقف من هذه الرغبة موقف المدافع، ويكون من أثر ذلك أن تعجز الرغبة عن أن تفصح عن نفسها إلا إفصاحاً مشوَّهاً. وهذا الذي يحدث في مجال الحياة النفسية سأحاول أن أجد له نظيراً في حياة المجتمع: أين نصادف في مجال الحياة الاجتماعية مثل هذا التشويه للأفعال النفسية؟ نصادفه حيثما نجد شخصين حظ أحدهما أن يملك القوة وحظ الآخر أن يحسب لهذه القوة حسابها، حينئذ نرى هذا الشخص الثاني يشوّه أفعاله النفسية، ونستطيع كذلك أن نقول: إنه يستخفي. والأدب الذي أمارسه في كل يوم هو إلى مدى بعيد استخفاء من هذا القبيل. وإني حين أفسِّر للقارىء أحلامي أراني مضطراً إلى مثل هذا التشويه. ومن ضرورة مثل هذا التشويه يشتكي الشاعر إذ يقول:

«ثم إن خير ما تستطيع علمه، قد لا تملك قوله للصبيان».[165]

ويعرف الكاتب السياسي مثل هذا الموقف، إذا كانت لديه حقائق لا تسر ذوي السلطان. فهو إن أعرب عن رأيه في غير مواربة قمعت الحكومة كلماته ـ قمعاً رجعياً إن كان قد أدلى برأيه مشافهة، وقمعاً وقائياً إن كانت كلماته لا تزال في سبيلها إلى النشر. فعلى الكاتب أن يحسب

للرقابة حسابها، وهو من أجل ذلك يتلطَّف في تعبيره ويشوِّهه. وقد يرى نفسه مضطراً ـ على حسب شدة الرقيب وحساسيته ـ إما إلى مجرد الإقلاع عن بعض صور المهاجمة، أو إلى التحدُّث تلميحاً لا تصريحاً، أو إلى أن يخلع على روايته غير المرضي عنها ثوباً من البراءة، فيتحدث مثلاً عن خلاف بين كبيرين من كبراء الصين، بينما المَعْنِيُّ كبيران في بلده. وكلَّما زادت الرقابة ضغطاً، زاد التقنع استفحالاً وربما زادت كذلك الحيل التي يشتم منها القارىء حقائق الأمور[166].

هذا التطابق الذي يمس دقائق التفاصيل بين ظواهر الرقابة والتشويه يخوِّل لنا أن نفترض أن لكليهما شروطاً متماثلة. وفي مقدورنا إذن أن نقول: إن الذي يعيِّن شكل الحلم عند كل فرد قوتان (ونستطيع أن نسميهما تيارين أو نظامين)، إحداهما هي الرغبة التي يعرب عنها الحلم، والأخرى هي التي تقوم بالرقابة على هذه الرغبة وبذلك تؤدي بالضرورة إلى تشويه التعبير عنها. ولا يبقى إلا أن نسأل: فيمَ تقوم سلطة هذا النظام الثاني، تلك السلطة التي تمكِّنه من أن يفرض رقابته؟ إذا لم ننس أن أفكار الحلم الكامنة هي أفكار لم نكن نشعر بها قبل أن نقوم بالتحليل، على حين أننا نتذكر الحلم الناشىء عنها تذكراً شعورياً، لم نكن بعيدين عن أن نقدِّر أن المزية التي يحظى بها هذا النظام الثاني هي مزية الإذن بدخول الشعور. فلا شيء يدخل الشعور من النظام الأول إلا مرَّ بهذا النظام الثاني، كما أن هذا النظام الثاني لا يترك شيئاً يدخل الشعور بدون أن يمارس حقوقه ودون أن يدخل على الفكرة الصائرة إلى الشعور كل ما يراه مناسباً من التغييرات. ونحن نتوسم من وراء ذلك فكرة محدودة تمام التحديد عن «ماهية» الشعور: فالصيرورة إلى الشعور تصبح في نظرنا فعلاً نفسياً خاصاً، له تميّزه واستقلاله عن عملية تكوين الأفكار أو التصورات، كما أن الشعور يتبدى لنا في صورة عضو من أعضاء الحس يتناول بإدراكه مادة تنشأ في جهات أخرى. ومن الممكن أن نبيِّن أن علم الأمراض النفسية لا يملك الاستغناء عن هذه الفروض الأساسية بحال من الأحوال. بيد أننا لا نجد بداً من أن نرجىء النظر في هذه الفروض إلى موضع آخر. [أنظر الفصل السابع، وبخاصة القسم و].

فإذا أخذنا بفكرة النظامين النفسيين وعلاقتهما بالشعور، وجدنا في مجال الحياة السياسية مثالاً يصور أحسن التصوير هذا الحنان العجيب الذي شعرت به في الحلم نحو صديقي ر. مع ما أظهره التفسير من حط قدره: إني أتخيل الحياة السياسية في بلد يغار حاكمه على سلطته أشد الغيرة وينازعه إياها رأي عام يقظ: قد يثور الشعب على رجل من رجال الدولة بغيض إليه ويطالب بإقالته، ولكن الحاكم المستبد يريد أن يظهر ازدراءه لإرادة الشعب، فإذا هو يخلع على رجل الدولة هذا شرفاً كبيراً ما كان ليمنحه إياه لولا ذلك. وعلى هذا النحو يجود النظام الثاني الذي يتحكم عندي في الطريق إلى الشعور بطفحة من الحنان على صديقي ر.، لا لشيء سوى أن النوازع المنتمية إلى النظام الأول كانت تبغي لو رمت ر. بالبله؛ لمنفعة خاصة كانت تجذبها في ذلك الحين[167].

لعلنا نلمِّح الآن أن في مقدور تفسير الأحلام أن يلقي على تركيب جهازنا النفسي ضوءاً ظللنا ننتظره عبثاً من الفلسفة. بيد أننا لن نسلك هذه السبيل، بل نعود وقد وضَحنا أمر تشويه الحلم ـ إلى المشكلة التي ابتدأنا منها. لقد كان سؤالنا هو: كيف يمكن أن ترد الأحلام الأليمة إلى تحقيقات للرغبات؟ وها نحن أولاً نرى أن ذلك أمر ممكن إذا طرأ التشويه على الحلم، وإذا لم يكن المحتوى الأليم سوى قناع لأمرٍ تتَّجه الرغبة إليه. ويمكننا أيضاً أن نقول بالإشارة إلى ما افترضناه من وجود نظامين نفسيين: إن الأحلام الأليمة تتضمن حقيقة شيئاً مؤلماً بالنسبة إلى النظام الثاني ولكنها تحقق في الوقت عينه رغبة للنظام الأول؛ فهي أحلام رغبة من حيث أن كل حلم يصدر عن النظام الأول، وأما علاقة النظام الثاني بالحلم فعلاقة دفاعية لا إنشائية[168]. ولو أننا قصرنا أنفسنا على النظر فيما يضيفه النظام الثاني إلى الأحلام، ما أمكننا قط أن نتوصل إلى فهمها: إن جميع الألغاز التي لاحظ المؤلفون أمرها في صدد الحلم تظل عندئذ قائمة.

أن يكون لكل حلم حقيقةً معنى مستتر لا يخرج عن أن يكون تحقيق رغبة أمر يجب تبيانه بالتحليل في كل حالة من جديد. وعلى ذلك أنتخب قليلاً من الأحلام ذوات المحتوى الأليم وأحاول تحليلها. وبعض هذه الأحلام قد أتاه أشخاص هستيريون، وهي إذن تستدعي تمهيداً طويلاً وتستدعي في بعض المواضع غوصاً في العمليات النفسية التي تتميَّز بها الهستيريا. ولكنني لا أجد سبيلاً إلى إزالة هذه الصعوبات التي تثقل عرض حجتي.

عندما أعالج أحد العصابيين بالتحليل النفسي، فالقاعدة ـ كما سبق أن ذكرت ـ هي أن تغدو أحلامه موضع حديثنا. ولست أجد بداً في خلال هذه المناقشة من أن أطلعه على كل الإيضاحات السيكولوجية التي أعانتني نفسي على فهم أعراضه. وهنا أسمع منه نقداً لا هوادة فيه، لا يقل صرامة ـ على التأكيد ـ عن هذا الذي أتوقعه من زملائي. ولم يفت مريضاً من مرضاي أن ينقد قولي: إن الأحلام جميعها تحقق رغبات. وها هي ذي بضعة أمثلة من تلك الأحلام التي ساقها أصحابها تدليلاً على بطلان نظريتي.

قالت مريضة فطنة من مرضاي: «إنك تقول دائماً: إن الحلم يحقق رغبة. إليك إذن حلماً كان على عكس ذلك تماماً؛ فقد كان مؤدَاه أنني لا أحقق إحدى رغباتي. فكيف توفِّق بين ذلك وبين نظريتك؟» وها هو ذلك الحلم:

«أريد أن أقيم مأدبة عشاء، ولكني لا أجد لدي سوى قليل من سمك السالمون المدخَّن. أفكر في الخروج لكي أشتري شيئاً ما، ولكني أتذكر أننا في عصر يوم الأحد وأن جميع المحال مغلقة. فأحاول الاتصال ببعض المورِّدين ولكن التليفون كان متعطلاً. وعلى ذلك لا أجد بداً من النزول

عن رغبتي في إقامة مأدبة العشاء».

وكان جوابي بالطبع هو: أن التحليل وحده هو الذي يستطيع أن يقرر ما معنى هذا الحلم، وإن كنت أسلّم بأنه يلوح للوهلة الأولى معقولاً متناسق الأجزاء، وأنه يرينا عكس تحقيق الرغبة. «ولكن أية مناسبة دعت إلى هذا الحلم؟ فأنت تعلمين أن الحافز إلى الحلم يكمن دائماً بين أحداث اليوم السابق».

التحليل: إن زوج المريضة ـ وهو رجل أمين قدير يشتغل بتوريد اللحوم بالجملة ـ قد أخبرها في اليوم السابق أنه أخذ يفرط في السمنة، وأنه ـ لذلك ـ قد اعتزم أن يبدأ علاجاً يخفف وزنه: أن يستيقظ في ساعة مبكرة من الصباح وأن يقوم ببعض التمارين البدنية، مع الأخذ بنظام دقيق في التغذية، ثم هو ـ قبل كل شيء ـ لن يقبل أي دعوة إلى العشاء. ـ وأضافت المريضة كيف تعرّف زوجها في المطعم الذي اعتاد أن يتناول فيه وجبة الغذاء برسام ألحّ في طلب رسمه إلحاحاً شديداً؛ لأنه ـ أعني الرسام ـ لم يرَ في حياته رأساً كانت لملامحه مثل هذه القوة المعبِّرة. إلا أن زوجها أجابه بطريقته القاطعة: أنه شاكر جزيل الشكر ولكنه واثق من أن طرفاً من مؤخر فتاة جميلة سوف يكون أحب إلى الرسام من رأسه هو بأكمله[169]. إنها الآن مولعة بزوجها أشد الولع، وتتحيَّن المناسبات لمعاكسته. وهي أيضاً قد طلبت منه أخيراً أن يكف عن تقديم الكافيار إليها. ـ ما معنى ذلك؟

الحقيقة هي أنها تتمنى منذ زمن طويل لو قد استطاعت أن تأكل ساندويتش من الكافيار كل صباح، ولكنها تغالب نفسها خشية التكاليف. إنها تستطيع بالطبع أن تنال على الفور كل الكافيار الذي تشاء لو قد سألت زوجها، ولكنها طلبت منه ـ على العكس ـ ألا يهدي إليها شيئاً منه، لكي يتاح لها المضي في معاكسته.

(إن هذا التعليل يبدو لي مفتعلاً. وأمثال هذه البيانات غير المقنعة تستر في العادة دوافع لا يصارح بها صاحبها نفسه. إنها تذكرنا بالمرضى الذين كان ينوّمهم برنهايم تنويماً مغناطيسياً والذين كانوا ينفّذون بعد استيقاظهم ما أُمروا في خلال تنويمهم بأدائه، فإن سئلوا عن دوافعهم، لم يقولوا: لا ندري، بل انتحلوا لفعلهم سبباً يظهر للعيان بعده عن الصواب. وأغلب الظن أن ذلك هو الشأن فيما يتصل بكا؟يار مريضتي. وألحظ أنها قد سيقت إلى أن تخلق لنفسها رغبة غير محققة في حياة اليقظة. والحلم أيضاً يصوِّر هذا النزول عن الرغبة. فما وجه حاجتها تلك إلى رغبة لا تتحقق؟).

إن الأفكار التي ظفرنا بها حتى الآن لا تكفي في تفسير الحلم؛ فألح في طلب المزيد. وإذا هي ـ بعد وقفة قصيرة تتفق والوقت الذي استغرقه ظهورها على بعض المقاومة ـ تقص على أنها في اليوم السابق قد زارت صديقة لها تعترف مريضتي بغيرتها منها، لأن زوجها لا يكف عن امتداحها. ومن حسن الحظ أن هذه السيدة نحيفة عجفاء، بينما يُعجب زوجها بالأشكال المليئة. والآن: عمَّ تحدثت هذه الصديقة العجفاء؟ تحدثت بالطبع عن رغبتها في أن تمتلأ بعض الامتلاء. وهي أيضاً قد سألت مريضتي: «ترى متى تدعيننا إلى وجبة أخرى؟ فالطعام الذي نأكله عندك ما أطيبه دائماً!».

والآن اتضح معنى الحلم، وأستطيع أن أقول لمريضتي: «لكأنك ـ حين سألتك صديقتك سؤالها ـ قد حدثت نفسك قائلة: حقاً! تريدين أن أدعوك إلى منزلي حتى تأكلي وتسمني وتظفري من إعجاب زوجي بالمزيد! إني لأفضل ألا أدعو أحداً للعشاء بعد الآن. والحلم يقول لك: إنك لا تستطيعين أن تدعي أحداً إلى العشاء، فيحقق بذلك رغبتك في ألا تفعلي ما من شأنه أن يستدير جسم صديقتك. وإن عزم زوجك على أن يرفض دعوات العشاء تجنباً للسمنة قد ذكَّرك أن المرء يسمن في الولائم». ولا تنقصنا بعد ذلك إلا مصادفة تؤيد حلنا: ذلك أن مجيء السالمون المدخن في الحلم لم يكن قد تبين أمره بعد. فلما سألت المريضة: «كيف اتفق لك التفكير في السالمون؟» أجابت: «إن السالمون المدخن هو طبق صديقتي المفضل». ويتفق أنني أعرف هذه السيدة، وأستطيع أن أقول: إنها تحل لنفسها من السالمون المدخن مقدار ما تستحله مريضتي من الكافيار.

إن هذا الحلم لا يزال يقبل تفسيراً آخر، ألطف وأخفى، تقتضيه ملابسة ثانوية. ثم هو تفسير لا يتناقض وسابقه، بل إنهما ليتداخلان ضاربين لنا مثالاً طيباً على هذا التكثُّر في المعنى الذي تنطوي عليه الأحلام عادةً شأنها في ذلك شأن سائر الظواهر النفسية المرضية جميعاً. فنحن نذكر أن مريضتي حين وقع لها الحلم الذي تخلَّت فيه عن إحدى رغباتها كانت تعمل على أن تخلق لنفسها رغبة معوَّقة في الحياة الواقعة كذلك (رغبة ساندويتش الكافيار). وكانت صديقتها قد أعربت من جانبها عن رغبة لها ـ هي الرغبة في أن تزيد امتلاء. وما كنا لندهش لو أن مريضتي قد حلمت بأن رغبة صديقتها قد جانبها التحقيق؛ فتلك على التحديد هي رغبة مريضتي، إنها الرغبة في ألا تتحقق رغبة صديقتها في أن تزيد وزناً. ولكنها ـ بدل ذلك ـ تحلم بلا تحقق إحدى رغباتها هي. وإن الحلم ليكتسب تفسيراً جديداً إذا لم تكن هي المعنية في الحلم بل صديقتها، إذا كانت قد وضعت نفسها مكان صديقتها أو عيَّنت ذاتها[170] بها ـ كما يمكننا أن نقول.

وأعتقد أن ذلك هو ما قد وقع حقيقةً، وإن كونها قد خلقت لنفسها رغبة محبطة في الحياة الواقعة لعلامة على هذا التعيين لذاتها بصديقتها. ولكن ما معنى هذا التعيين الهستيري؟ إن ذلك ما يحتاج إلى شرح مطوَّل. فالتعيين لحظة بالغة الأهمية في ميكانيكية الأعراض الهستيرية. فهو الذي يمكِّن المرضى من أن يعربوا بأعراضهم لا عن خبراتهم أنفسهم فقط، بل عن خبرات عدد كبير من الناس فوق ذلك، حتى لكأنهم يألمون بوساطته

نيابةً عن جمهور بأكمله من الناس، ويملأون بمفردهم أدوار الرواية جميعاً. وسوف أسمع من يقول: إن هذا إلا التقليد الهستيري المعروف، قدرة الهستيريين على أن يقلدوا أي عرض قد يستدعي انتباههم عند غيرهم من الناس، إنه المشاركة الوجدانية وقد اشتدت . إن جاز التعبير . إلى حد التكرار. بيد أن هذا القول إنما يدل على الطريق الذي تسلكه العملية النفسية في حالة التقليد الهستيري. والطريق شيء، والفعل النفسي الذي يسلك هذا الطريق شيء آخر؛ فهذا الفعل يقوم في عملية استنباطية لاشعورية، كما يتَّضح بمثال: لنفرض أن طبيباً يعالج مريضة تعاني نوعاً من التشنج في حجرة واحدة من حجرات المستشفى مع غيرها من المرضى: إن الطبيب لن يدهش إذا رأى ذات صباح أن هذا النوع من النوبات الهستيرية قد وجد مقلدين، ولن يزيد الطبيب على أن يقول: «لقد رآها سائر المرضى، فحذوا حذوها؛ هذه حالة من حالات العدوى النفسية» . نعم، ولكن هذه العدوى النفسية قد وقعت على نحوٍ يقرب من الآتي: إن المرضى يعلمون في العادة، كل عن الآخر، أكثر مما يعلمه الطبيب عن كل منهم على حدة، وهم . بعد أن تفرغ زيارة الطبيب . يتحولون إلى الاهتمام بعضهم ببعض؛ فافرض أن مريضة قد انتابتها اليوم إحدى أزماتها: إن البقية لن تلبث أن تعلم أن العلَّة خطاب تلقته من أهلها أو هائج غرام هاج شجوها أو شيء يشبه ذلك، ثم إذا كان كل منهم تثور مشاركته، وتتكوَّن في نفسه تلك النتيجة . وإن لم تبلغ شعوره .: «إذا كان من الممكن أن يعاني المرء مثل هذه النوبة من جراء مثل هذه العلة، فأنا أيضاً قد أعانيها؛ لأن مثل هذه العلة قد تعرض لي»، ولو كانت هذه نتيجة تستطيع أن تبلغ الشعور، لأمكن أن تسلم إلى الهيلة من معاناة مثل هذه النوبة، ولكنها قد تكوَّنت في منطقة نفسية مغايرة؛ ولهذا كانت تنتهي إلى تحقيق العرض المخوف. وهكذا لا يكون تعيين الذات بغيرها تقليداً وحسب، بل تمثُّلاً[171] قائماً على ادِّعاء علة مماثلة؛ إنه يعرب عن فكرة «ما من فارق» ويتعلَّق بعنصر مشترك يظل باقياً في اللاشعور.

ويستخدم التعيين في الهستيريا . أكثر ما يستخدم . تعبيراً عن شركة جنسية. فالمرأة الهستيرية أسرع ما تكون . وإن لم يكن ذلك على نحوٍ مانع . إلى أن تعين ذاتها في أعراضها بأولئك الأشخاص الذين كانت لها بهم علاقة جنسية، أو بمن كانت لهم بأولئك هذه العلاقة نفسها. وتدخل اللغة في حسابها تصوراً مماثلاً للأمور، فيقال عن العاشقين: إنهما «شيء واحد». ويكفي من أجل وقوع التعيين، في المخيلة الهستيرية كما في الحلم، أن يفكر المرء في علاقات جنسية، دون أن تكون هذه العلاقات حقيقة بالضرورة. فمريضتنا إنما تتبع قواعد التفكير الهستيري حين تعرب عن غيرتها (وهي بعدُ غيرة تسلَّم هي نفسها بخلوّها من كل مبرر) بأن تضع نفسها موضع صديقتها وتعين ذاتها بها بخلق عرض من الأعراض (هو الرغبة الممنوعة). ولنا أن نعرب عن العملية في كلم على النحو الآتي: إن المريضة قد وضعت نفسها في محل صديقتها لأن صديقتها قد شغلت منزلتها هي في نفس زوجها، ولأنها . أعني مريضتي . كانت تود لو تحل محل صديقتها في إعجاب زوجها[172].

وأرادت مريضة أخرى (هي أمهر حالماتي) أن تنقض نظريتي في الأحلام، فأمكن أن يحل حلمها حلاً أقل تعقيداً وإن ظل متفقاً مع ذات القاعدة: أن لا تحقق إحدى الرغبات معناه تحقق أخرى. ذلك أنني شرحت لها يوماً أن الحلم يحقق رغبة، فأتتني في اليوم التالي بحلم رأت فيه أنها تسافر وزوجة أبيها لتقضيا فصل الصيف معاً في الريف. وكنت أعلم أنها قد ثارت ثورةً شعواء على فكرة المصيف قريباً من زوجة أبيها، وأنها . قبل ذلك بأيام . قد أفلحت لحسن حظها في الإفلات من هذه الصحبة المخوفة فاستأجرت منزلاً في الريف يبعدها عن حيث كانت امرأة أبيها كل البعد. وها هو ذا الحلم قد أتى فإذا هو يقلب هذا الوضع رأساً على عقب. ألا ينقض ذلك نظريتي في تحقق الرغبة بوساطة الحلم أقطع نقض؟ يقيناً، ولا يحتاج المرء إلا إلى أن يستخرج النتيجة التي تخلص من هذا الحلم لكي يحصل على تفسيره: إن الذي يخلص من هذا الحلم هو أنني كنت على خطأ. وهكذا فقد كانت رغبتها هي أن أكون على خطأ والحلم يريها تحقق هذه الرغبة. بيد أن رغبتها في أن أكون قد جانبت الصواب . وهي الرغبة التي ارتبط تحقيقها بقصة إجازة الصيف . كانت في الحقيقة تتصل بشيء آخر أكثر خطراً. ذلك أنني كنت قد استنتجت في ذلك الوقت من المادة التي جلبها تحليلها أن أمراً كان له أثره الحاسم في نشأة مرضها لا بد قد وقع لها في فترة معينة من حياتها. ولكنها نفت ذلك؛ لأنها لم تكن تذكر شيئاً منه. وما لبث أن تبيّن أني كنت على صواب. ورغبتها إذن في أن أكون على خطأ كانت تجيب رغبة أخرى لها وجاهتها، هي الرغبة ألا تكون قد وقعت قط تلك الأمور التي كانت المريضة قد أخذت تحذرها إذ ذاك للمرة الأولى.

وحدث مرة أنني جازفت ففسَّرت من غير تحليل ما بل بتخمين محض قصة صغيرة جرت لصديق لي كان زميلي في المدرسة طيلة ثماني سنوات. فقد استمع يوماً إلى محاضرة ألقيتها في دائرة صغيرة وكان موضوع المحاضرة هو هذه البدعة القائلة: إن الحلم تحقيق رغبة. فلما عاد إلى منزله حلم بأنه قد خسر جميع قضاياه . وكان محامياً . ثم جاءني يشتكيني في هذا الصدد. فكان أني تهربت قائلاً: «إن المرء لا يستطيع أن يكسب جميع قضاياه». بيد أنني قد حدثت نفسي قائلاً: «إذا كنت قد ظللت ثماني سنوات وأنا أول الفصل على حين كان هو يتأرجح في مكان ما بمنتصفه، فهل من عجب في أن تساوره تلك الرغبة المتخلفة من أيام الصبا في أن أبوء يوماً بالخذلان؟».

وها هو ذا حلم آخر أقتم طابعاً ساقته أيضاً إحدى مريضاتي اعتراضاً على نظرية أحلام الرغبة. كانت المريضة فتاة في مقتبل العمر، قالت: «تذكر أن أختي لم يبق لها الآن إلا ولد واحد، هو كارل؛ فقد توفي أخوه الأكبر أوتو حين كنت لا أزال أسكن بمنزلها، وكان أوتو هو الولد المفضل عندي؛ فأنا في الحقيقة التي نشأته. نعم، إن الولد الأصغر عزيز عليّ كذلك، لكنه إعزاز لا يقارب ما كنت أكنُّه لأخيه المتوفي. وفي الليلة الماضية حلمت أني أرى كارل يرقد ميتاً في نعشه الصغير وقد تشابكت يداه وأحاطت به الشموع، وبالاختصار كان المشهد شبيهاً كل الشبه به حين مات

صغيري أوتو تلك الميتة التي تعلم إلى أي حد صدمتني. والآن خبِّرني، ما معنى ذلك؟ إنك تعرفني. هل أكون من القسوة بحيث أتمنى لأختي أن تفقد طفلها الوحيد؟ أو أن ذلك يعني أني كنت أفضّل لو كان الميت كارل وليس أوتو الذي آثرته ذلك الإيثار الكبير؟».

وهنا أكَّدت لها أن التفسير الأخير تفسير ينبغي استبعاده كل الاستبعاد. ولم يعجزني ـ بعد قليل من التروي ـ أن آتيها بالتفسير الصحيح. وقد وسعني ذلك لأنني كنت أعلم من قبل تاريخ الحالمة برمته.

تيتَّمت الفتاة وهي في مطلع حياتها فنشأت في منزل أخت لها تكبرها في السن كثيراً. ولقيَت الفتاة بين من كانت تلقى من أصدقاء المنزل وزواره رجلاً ترك في قلبها أثراً لا يمحى. وجاء وقت لاح فيه أن هذه العلاقة التي ما كادت تبلغ مبلغ التصريح سوف تنتهي إلى الزواج، ولكن أختها قضت على هذه الخاتمة؛ لأسباب لم تستنر قط كل الاستنارة. ولما حلَّت القطيعة انقطع عن المنزل الرجل الذي خصَّته مريضتي بحبها، واستقلت هي بعيشها بعد أن مات أوتو الصغير الذي كانت تحوَّلت إليه في إبان ذلك بحبها. بيد أنها لم تفلح في التحرر من تلك العيلة التي أوقعها فيها تعلقها بصديق شقيقتها. كان كبرياؤها ينهاها عن لقياه، لكنها كانت عاجزة عن أن تخلع حبها على غيره من الطلاب الذين تواردوا عليها. وكان من المحقق إذا أعلن رجلها الحبيب ـ وهو من المشتغلين بالأدب ـ عن محاضرة يلقيها، أن تجدها بين سامعيه. وكانت إلى ذلك لا تترك فرصة تتيح لها أن تراه في مكان عام دون أن تُرى. وأذكر أنها قد أبلغتني في اليوم السابق أن الأستاذ ذاهب إلى حفل موسيقي وأنها أيضاً ذاهبة إليه حتى تنعم بطلعته مرة أخرى. كان ذلك في اليوم السابق على الحلم، وكان يوم الحفل هو اليوم الذي قصَّت فيه الحلم عليّ. وهكذا تيسَّر أن أستنتج التفسير الصائب: سألتها هل هناك حدث تخصه بالذكر بعد موت أوتو، فأجابت على الفور: «طبعاً، لقد جاء الأستاذ إذ ذاك بعد طول غيبة، فرأيته مرة أخرى بجوار أوتو الراقد في نعشه الصغير»، وكان ذلك عينه هو ما حسبت، ففسرت لها الحلم على هذا النحو: «لو أن الولد الآخر مات الآن، لتكرر ذلك مرة أخرى. سوف تقضين اليوم في منزل أختك، ويجيء الأستاذ على التأكيد للتعزية وترينه من جديد في ذات الملابسات التي رأيته فيها من قبل. ولا يعني الحلم سوى هذه الرغبة في العودة إلى رؤيته، تلك الرغبة التي تكافحينها في دخيلة نفسك. وأعلم أنك تحملين في حقيبتك تذكرة لحفل اليوم؛ فحلمك حلم صبر نافد: إنه يستبق لقاء اليوم بساعات قلائل».

فالمريضة لكي تخفي رغبتها قد اختارت موقفاً جرت العادة على أن تكبت فيه أمثال هذه الرغبات، موقفاً يطغى فيه الحزن على المرء فلا يجد متسعاً للتفكير في الحب. ومع هذا فإن من الممكن كل الإمكان أن تكون الفتاة قد عجزت ـ حتى وهي واقفة حقيقةً بجانب نعش الولد الأكبر الذي آثرته بحبها ـ عن أن تكبت مشاعرها الرقيقة تجاه ذلك الزائر الذي طالما اشتاقت إليه.

وهناك حلم آخر يماثل الذي سبق، بيد أنه لقيَ تفسيراً مختلفاً، وهو حلم أتته مريضة عُرفت في صباها بسرعة النكتة ومرح المزاج وكانت لا تزال تبدي هذه الصفات في المستدعيات التي كانت تدور بخاطرها في أثناء العلاج على الأقل. فقد خيّل إلى هذه السيدة، ضمن ما خيل إليها في سياق حلم طويل، أنها ترى ابنتها الوحيدة البالغة من العمر خمسة عشر ربيعاً وقد رقدت أمامها في صندوق رقدة الموت. وكانت السيدة تود لو قد أقامت من ظاهر حلمها حجة على نظريتي، ولكنها كانت تشعر هي نفسها بأن ملابسة الصندوق تنطوي لا محالة على ما قد يؤدي إلى فهم مختلف للحلم[173]. وأخذنا في التحليل فخطر لها أن الحديث قد دار في سهرة الأمس حول كلمة box الإنجليزية وحول الكلمات الألمانية التي تترجم معانيها المختلفة في الإنجليزية، مثل Schachtel [صندوق] Loge [مقصورة] Kasten [خزانة] Ohrfeige [لكمة]. وكان في سائر فقرات ذلك الحلم ما يسمح لنا بأن نضيف إلى ذلك أن السيدة قد حدست العلاقة بين الكلمة الإنجليزية box وبين الألمانية(Büchse)[174] وأنها قد تذكرت عندئذ ـ ولم تبرحها الذكرى ـ أن كلمة Büchse تستخدم في لغة السوقة للدلالة على الأعضاء التناسلية عند المرأة. وبهذا أمكننا أن نسلِّم ـ مع قليل من التسامح تجاه معرفتها بالتشريح الموضعي ـ بأن وجود الطفلة في الصندوق كان يعني جنيناً في رحم أمه. فلما بلغنا من الاستنارة هذا المبلغ، لم تعد المريضة تنكر أن الصورة كانت تعرب حقيقةً عن رغبة من رغباتها. فهي ـ شأن الكثيرات من الزوجات الصغيرات السن ـ لم تستشعر أقل سعادة حين رأت نفسها حاملاً، بل هي قد صرَّحت أكثر من مرة بما كانت تتمناه من موت الطفل وهو جنين. وأكثر من ذلك أنها قد أخذت مرة ـ في نوبة من الغضب أعقبت مشادة حامية مع زوجها ـ أخذت تقرع بطنها بقبضتي يديها لكي تصرع الجنين الذي تحمله. وهكذا كانت صورة الحلم تحقق بالفعل رغبة، ولكنها رغبة انطوت منذ خمسة عشر عاماً. وما من عجب إذا كان المرء لا يرجع يعرف رغبة له تحققت بعد هذا الإرجاء الطويل؛ فكم تبدَّلت في خلال ذلك بالأمور أمور.

وسوف أعود، تحت باب الأحلام النمطية [القسم د من الفصل الخامس] إلى هذه الطائفة من الأحلام التي ينتمي إليها الحلمان الأخيران والتي يمثِّل محتواها موت قريب عزيز. وسوف أتمكن من أن أبيِّن ببعض الأمثلة الجديدة كيف يجب تفسير هذه الأحلام بكونها تحقق رغبات على الرغم من محتواها غير المرغوب فيه. وأما الحلم الآتي الذي رواه صاحبه أيضاً لكي يردّني عن التعجل في تعميم نظريتي، فلا أدين به لمريض بل لرجل نابه من رجال القانون تربطني به معرفة وثيقة. قال محدثي: «حلمت أني أسير أمام منزلي وقد اتكأت سيدة على ذراعي. وهناك أرى عربة مغلقة ورجلاً يخرج منها ويتجه نحوي ثم يطلعني على ما يثبت أنه من ضباط الشرطة ويطلب مني أن أتبعه، فأرجو منه أن يمهلني برهة أرتب فيها حوائجي. أفتعتقد أنني ربما رغبت في أن يقبض علي؟» ـ فلا أجد إلا أن أجيبه: «كلا، يقيناً. ولكن أتراك تذكر لأي تهمة قبض عليك؟» ـ «نعم، أظنها قتل

رضيع». . «قتل رضيع؟ ولكنك تعلم أن هذه جريمة لا ترتكبها إلا أم نحو وليدها؟» . «هذا صحيح»[175] . . «وما هي الملابسات التي صاحبت وقوع هذا الحلم؟ ما الذي حدث في الليلة السابقة عليه؟» . «ذلك ما أوثر الامتناع عن الحديث عنه، فهي مسألة حساسة». . «ولكنني أحتاج إليها. وإلا صرفنا النظر عن فكرة تفسير هذا الحلم». . «اسمع إذن: إنني لم أقض الليلة الماضية بمنزلي بل بمنزل سيدة تعني الشيء الكثير بالنسبة إلي. فلما استيقظنا في الصباح عدنا لما فعلناه من قبل. وبعدئذ نمت مرة ثانية وحلمت الحلم الذي رويته لك». . «أهي سيدة متزوجة؟» . «نعم». . «وأنت لا تريد أن تعقب منها ولداً؟» . «كلا، كلا، فذلك ما قد يفضح سرَّنا». . «ولست . إذن . تمارس الجماع السوي؟» . «إني أحتاط فأنسحب قبل الإنزال». . «هل أفترض أنك قد أعملت هذه الحيلة أكثر من مرة تلك الليلة وأنك لم تكن واثقاً من النجاح بعد تكرارك الأمر في الصباح؟» . «ممكن جداً». . «إذن حلمك يحقق رغبة؛ فهو يؤكد لك أنك لم تعقب ولداً أو أنك قتلته، والأمران سيان، وفي وسعي أن أبين لك من غير عناء ما هي الحلقات التي ربطت بينهما. أتذكر أننا كنا نتحدث منذ أيام قليلة عن متاعب الزواج وعن التناقض الذي في إباحتنا الجماع مع الاحتياط لمنع النسل في حين أننا نعد كل تدخل يحدث بعد التقاء البويضة والحيوان المنوي وبعد تكوّن الجنين جريمة؟ لقد تذكرنا بهذه المناسبة المناقشة التي دارت في القرون الوسطى عن اللحظة التي تنفذ فيها الروح إلى الجنين لأن تطبيق فكرة القتل لا يكون إلا ابتداءً من هذه اللحظة. ثم إنك تعرف من غير شك قصيدة ليناو المروِّعة التي يسوي فيها بين قتل الرضع ومنع النسل». . «العجيب هو أنني قد فكرت في ليناو هذا الصباح، كأنما جاء ذلك اتفاقاً». . «ذلك صدى» آخر لحلمك. وأريك الآن في حلمك تحقيقاً آخر ثانوياً لرغبة أخرى: ذلك أنك تسير إلى منزلك والسيدة بذراعك، أي أنك تأخذها إلى دارك[176] بدل أن تقضي الليل بمنزلها كما هو الأمر في الواقع. أما كون تحقيق الرغبة قد اتخذ في الحلم هذه الصورة غير السارة، فأمر قد يكون له أكثر من سبب. فلعلك علمت من مقالتي في علية أعصبة الهيلة [فرويد، 1895ب] أنني أدخل الجماع المنقطع في عداد العوامل التي تنشأ عنها الهيلة العصابية. وإنه ليتفق وذلك أن يتركك تكرارك مثل هذا الجماع في حالة من القلق صارت بعدئذ أحد العناصر المقوِّمة لحلمك. ثم إنك تستغل هذه الحالة المزاجية لكي تخفي بها تحقيق رغبتك. وعلى أية حال فإن إشارتك إلى قتل الرضيع لم ينجل أمرها بعد. كيف اتفق أن خطرت لك تلك الجريمة التي تنفرد بها النساء؟» . «أعترف لك بأنني قد تورطت مرة . منذ بضع سنوات . في قصة شبيهة بهذه. فقد كنت مسؤولاً عن إقدام إحدى الفتيات على الإجهاض لكي تدرأ ما نجم عن صلتها بي. ولم يكن لي أقل دخل في تنفيذ ما اعتزمته، ولكنني ظللت بالطبع زمناً طويلاً في خشية من أن ينفضح الأمر». . «أفهم ذلك. وإنَّ هذه الذكرى لتزودنا بسبب ثانٍ يرينا لمَ كان من الحتم أن يركبك القلق عند توجسك الإخفاق في حيلتك».

وسمعني طبيب شاب أروي هذا الحلم في قاعة محاضراتي، ولا بد أن هذا الحلم قد أصاب من نفسه الشيء الكثير؛ لأنه سارع إلى محاكاته بحلم من عنده طبَّق فيه ذات الأسلوب الفكري على موضوع مختلف: فهو قد أدّى في اليوم السابق إقرار الدخل، وكان إقراره صريحاً لا موارية فيه؛ لأنه لم يكن يملك سوى الشيء القليل ليقرّ به. ثم بعد ذلك رأى في الحلم أن صديقاً من معارفه يجيء إليه بعد اجتماع لجنة الضرائب ويبلغه أن جميع الإقرارات قد مرت من غير استيقاف إلا إقراره؛ فقد أثار تشكك الجميع، وأنه قد يُدان من جراء ذلك بغرامة كبيرة. إن هذا الحلم ليس إلا قناعاً شفافاً لبسته الرغبة في أن يكون طبيباً ذا دخل كبير. وإنه ليذكِّر بقصة الفتاة التي نصحها الناصحون بأن ترفض رجلاً طلب يدها؛ لأنه رجل حاد المزاج ولأنه لا محالة سوف يتفاهم معها باللكمات بعد الزواج، فكان أن أجابت الفتاة: «لو ضربني!» فرغبة الفتاة في الاقتران شديدة حتى أنها لتقبل ضمن البيعة منغصات هذا الزواج، بل تتمناها.

لو أني جمعت هذا النوع من الأحلام الشائعة أكبر الشيوع[177] والتي تبدو تناقض نظريتي مناقضة مباشرة من حيث تحتوي على رغبة حيل دونها والتحقق أو من حيث تحتوي على أمر تصدف عنه النفس صدوفاً جلياً تحت عنوان «الأحلام المضادة للرغبات» ، لرأيت أنها ترتد جميعاً إلى مبدأين لم أذكر أحدهما بعد على كبير خطره في حياة الناس كما في أحلامهم. فأول قوة دافعة إلى هذه الأحلام هي الرغبة في أن أكون على خطأ. وتظهر هذه الأحلام في خلال العلاج دون أن تتخلَّف، إذا مرَّ المريض بفترة من المقاومة تجاهي؛ وأستطيع أن أستثير عند المريض حلماً من هذا القبيل وأنا واثق أكبر الثقة من ذلك إذا شرحت له للمرة الأولى نظريتي في أن الحلم تحقيق رغبة[178]. بل إني أتوقع أن تجري الأمور على هذا المنوال مع الكثيرين من قرائي، فيمنعوا أنفسهم في الحلم إحدى رغباتها طواعية، لا لغرض سوى التدليل على خطأي. ويصور لنا ذلك مرة أخرى الحلم الآتي . وهو آخر ما أذكر من هذا النوع من الأحلام التي تقع تحت العلاج. والحالمة هنا فتاة في مقتبل العمر استطاعت أن تستمر في علاجها بعد أن كافحت إرادة أهلها وإرادة من شاورتهم من أولي الأمر كفاحاً شاقاً، رأت: أن أهلها يمنعونها عن المجيء إليّ، فتذكرني بما وعدتها إياه من المداومة على علاجها من غير مقابل إذا لزم ذلك، ولكنني أجيبها: إنني لا أعرف اعتباراً لأحد في مسائل النقود.

الواقع أن تبيين الرغبة في هذا المثال ليس أمراً سهلاً. بيد أننا نجد في جميع أمثال هذه الحالات مشكلة أخرى يعين حلها على حل المشكلة الأولى. فمن أين جاءت المريضة بهذه الكلمات التي وضعتها على لساني في الحلم؟ إن مثل هذا القول لم يصدر عني قط بالطبع، ولكن أخاً لها . هو صاحب التأثير الأعظم فيها . كان من اللطف بحيث خصَّني بهذه الملاحظة. والحلم . إذن . يهدف إلى إثبات صواب أخيها. وهي لا تصر على أن يكون الحق لأخيها هذا في الحلم وحده، بل ذلك كان شاغل حياتها ودافعها إلى المرض.

وها هو ذا حلم آخر[179] يبدو للوهلة الأولى أنه يواجه نظرية تحقيق الرغبة بصعوبات خاصة، وهو حلم أتاه طبيب وفسَّره (ورواه أوجست

شتاركه، 1911):

«أرى على العقلة الأخيرة من السبابة اليسرى أول آثار [Primâraffekt] السفلس».

إن المرء قد يحجم عن تفسير هذا الحلم بعد الروية؛ فهو حلم واضح متناسق، فيما خلا محتواه غير المرغوب فيه. ولكن لو أن أحداً تكلف مع ذلك عناء تحليله لعلم، أن Primâraffekt تعادل Primo Affectio (الحب الأول)، ولتبيَّن أن القرحة المنفرة كانت . كما يقول شتاركه . «تمثل تحقيق رغبات ذات شحنة وجدانية شديدة».

وأما الدافع الثاني إلى الأحلام المضادة للرغبات[180]، فواضح حتى ليسهل خطر إغفاله، كما كان الشأن معي زمناً طويلاً. ذلك أن التكوين الجنسي يضم عند كثير من الناس مقوّماً ماسوشياً ينشأ عن انقلاب المقوّم العدواني السادي إلى ضده. ويسمَّى أمثال هؤلاء الناس ماسوشيين «نفسيين» إذا لم يلتمسوا اللذة في إيقاع الألم الجسمي بأنفسهم، بل في المذلة وعذاب النفس. وندرك على الفور أن هؤلاء الأشخاص قد تقع لهم أحلام برغبات مضادة أو أحلام مؤلمة، وهي مع ذلك لا تخرج عن أن تكون تحقيقات رغبات؛ لأنها تشبع نوازعهم الماسوشية. وإليك حلماً من هذا القبيل، وهو لشاب كان يعذِّب في صباه أخاه الأكبر شر العذاب وكان له بهذا الأخ شغف جنسي، فلما تغيَّر طبعه تغيراً أساسياً جاءه ذلك الحلم على ثلاثة أجزاء: 1 . أخوه الأكبر يغيظه. 2 . شخصان بالغان يلاطف أحدهما الآخر لغاية جنسية مثلية. 3 . باع أخوه المؤسسة التجارية التي كان يطمع في إدارتها يوماً. ويستيقظ الحالم من الحلم الأخير نهباً لأشد الأحاسيس ألماً. والحلم مع ذلك حلم رغبة ماسوشية تمكن ترجمته على هذا النحو: إنه لجزاء عدل أن يعقد أخي هذا البيع على كرهٍ مني عقاباً لي على كل ما اضطر إلى احتماله من العذاب على يدي.

أرجو أن تكون الأمثلة المتقدمة كافية . حتى يظهر اعتراض جديد . في تسويغ القول بوجوب تحليل الأحلام الأليمة المحتوى كما لو كانت هي أيضاً تحقق رغبات[181]. ومن الواجب كذلك ألا نعد الأمر صدفة إذا كان تفسير هذه الأحلام يوقفنا في كل مرة على موضوعات ينفر الناس من التحدث عنها أو التفكير فيها. فلا شك في أن الشعور الأليم الذي تثيره هذه الأحلام لا يختلف من النفور الذي يحدونا . بنجاح في غالب الأحايين . إلى الإمساك عن معالجة هذه الموضوعات أو ذكرها والذي تتحتَّم على كل منا مغالبته إذا لم نجد مع ذلك بداً من مواجهتها. بيد أن هذا الشعور غير اللاذ الذي يتردد تبعاً لذلك في الأحلام لا يمنع من أن تكون ثمة رغبة من الرغبات؛ فلكل امرىءٍ رغبات يؤثر كتمها عن غيره من الناس، بل رغبات لا يريد أن يصارح نفسه بها. ونحن، من ناحية أخرى، محقُّون حين نربط بين الطابع غير اللاذ لهذه الأحلام جميعاً وبين واقعة تشويه الحلم، وحين نخلص إلى أن تلك الأحلام إنما نالها ذلك التشويه وأن تحقيق الرغبة إنما تقنع فيها إلى حد الخفاء لأن ثمة نفوراً من موضوع الحلم أو من الرغبة المتفرعة عنه، ونيةً مبيَّتةً على كبتهما. وهكذا يتضح أن تشويه الحلم هو في الحقيقة فعل من أفعال الرقابة. ونحن إذن ندخل في حسابنا كل ما قد أظهره إلى الضوء تحليل الأحلام غير اللاذة حين نعدِّل الصيغة التي أردنا أن نعرب بها عن ماهية الحلم هذا التعديل: الحلم تحقيق (مقنع) لرغبة (مقموعة أو مكبوتة)[182].

تبقى الآن أحلام الهيلة من حيث هي نوع أسفل من أنواع الأحلام الأليمة المحتوى، وهي التي سوف يلاقي تصورها على أنها أحلام رغبة أقل الترحيب ممَّن لا يعلمون. غير أني لا أستطيع مع ذلك أن أعرض لأحلام الهيلة في هذا الموضع إلا عرضاً موجزاً غاية الإيجاز. وذلك لأنها لا تواجهنا بوجه جديد لمشكلة الحلم، وإنما المشكلة هنا هي أن نفهم الهيلة العصابية بوجه عام. فالهيلة التي نستشعرها في الحلم لا يعللها محتوى ذلك الحلم إلا في الظاهر. فإذا أخضعنا محتوى الحلم للتحليل رأينا أن الهيلة في ذلك الحلم لا تعلل بمحتواه [الظاهر] خيراً مما تعلل الهيلة في مخافة من المخاوف المرضية بالفكرة التي تقترن بها هذه المخافة . مثلاً .. فمن الحق . مثلاً . أن المرء قد يقع من الشبّاك وأن على المرء لهذا السبب أن يأخذ ببعض الحيطة إذا وقف قريباً من الشبّاك، لكننا لا نفهم لمَ كانت الهيلة في مخافة الشبابيك كبيرة إلى هذا الحد ولمَ كانت تلاحق ضحاياها ملاحقة تعدو ما تجيزه علّتها الظاهرة بمدى بعيد. والذي نكتشفه عندئذ هو أن ذات التعليل يصدق على المخافة المرضية مثلما يصدق على حلم الهيلة: فالهيلة في كلتا الحالتين إنما تلصق إلصاقاً بالفكرة التي تصحبها، وأما منبعها فشيء آخر.

هذه العلاقة الوثيقة بين الهيلة في الحلم والهيلة في العصاب[183] لا تترك لي مفراً من الإشارة إلى الثانية عند مناقشة الأولى. لقد قلت منذ زمن ما في مقال قصير عن عصاب الهيلة (فرويد، 1895ب): إن الهيلة العصابية تنشأ عن الحياة الجنسية، وأنها توافق ليبيدو صُرِفَتْ عن غايتها ولم تجد شاغلاً يشغلها. ومنذ ذلك الوقت لم تجد هذه القضية إلا ما يزيدها ثبوتاً. وهي تمكننا الآن من أن نستخلص منها أن أحلام الهيلة أحلام ذات محتوى جنسي، تحولت الليبيدو المتصلة بها إلى هيلة. وسوف يتَّسع المقام فيما بعد لتأييد هذه القضية بتحليل بعض أحلام المرضى العصابيين. كما سوف يتاح لي في خلال محاولة قادمة من أجل الوصول إلى نظرية في الحلم أن أتحدث عن شروط أحلام الهيلة وعن اتفاقها مع نظرية تحقيق الرغبة [ص 595 وما بعدها].

الفصل الخامس: مادّة الحلم ومصادره

عندما تبيَّن لنا من تحليل حلم حقنة إرما أن الحلم تحقيق رغبة، اتجه كل اهتمامنا بادىء ذي بدء إلى أن نعرف هل هذه خاصة مشتركة بين الأحلام جميعاً، وفي خلال ذلك أخمدنا كل تطلُّع علمي آخر كان يمكن أن يُثار ونحن نقوم بعمل التفسير. ويحق لنا الآن . وقد بلغنا من هذا الدرب نهايته . أن نقفل أدراجنا، وأن نختار موضعاً آخر نبدأ منه استكشافاتنا في مشكلات الحياة الحالمة، وإن اضطرنا ذلك إلى أن نتناسى بعض الوقت مشكلة تحقيق الرغبة التي لم نزل بعيدين عن استيعابها.

فمن الطبيعي . وقد أمكننا بتطبيق منهجنا في التفسير أن نرفع النقاب عن محتوى كامن للحلم تعدو قيمته قيمة المحتوى الظاهر بآماد وآماد . أن تكون المهمة التي تعجلنا الآن هي أن نتناول مشكلات الحلم من جديد واحدة فواحدة؛ لكي نرى إذا كانت الألغاز والمتناقضات التي لاحت لنا متعذرة ونحن لا نعرف من الحلم غير ظاهره تلقى الآن عندنا حلاً مرضياً.

ولقد فصَّلنا الحديث . في الفصل الذي قدمنا به هذا الكتاب . عن آراء المؤلفين السابقين في علاقة الحلم بالحياة المستيقظة وفي منشأ مادته، وإنا لنذكر هذه الخصائص التي تتميز بها الذاكرة في الحلم والتي لاحظها المؤلفون كثيراً، دون أن يوضحوا أمرها قط: 1 – أن الحلم يؤثر انطباعات الأيام الأخيرة إيثاراً ظاهراً (روبرت، شترومپل، هيلدبرانت، ويد، هالام).

2 – أنه ينهج في اختياره على مبادىء تختلف من تلك التي تنتهجها ذاكرتنا المستيقظة من حيث كونه لا يختار ما هو جوهري وهام، بل الثانوي وغير الملحوظ.

3 – أنه يملك استحضار انطباعات ترجع إلى طفولتنا المبكرة، بل يستعيد من تلك الفترة من حياتنا تفاصيل تبدو لنا على جانب كبير من التفاهة، وكنا نعتقد ونحن مستيقظون أننا قد نسيناها منذ زمن طويل[184].

وغني عن البيان أن جميع هذه الخصائص التي يتميز بها اختيار مادة الحلم إنما لاحظها المؤلفون بصدد محتوى الحلم الظاهر وحده.

أ
الحديث والتافه في الحلم

إذا استرشدت خبرتي الشخصية فيما يتصل بمنشأ العناصر التي تدخل في محتوى الحلم، لم أجد مناصاً من أن أقرر، بادىء ذي بدء، أنه ما من حلم يخلو من بعض الصلة بأحداث اليوم الذي انقضى. وما من حلم تناولته بالبحث، سواء أكان من أحلامي أم كان من أحلام غيري، إلا أيَّد عندي هذه الخبرة الشخصية. وفي مكنتي ـ وقد علمت هذه الحقيقة ـ أن أبدأ تفسير الحلم بالبحث عن حدث اليوم السابق الذي حرَّك إليه، بل تلك في الحقيقة هي الطريق الأقصر في كثير من الحالات. والحلمان اللذان فصَّلت تفسيرهما في الفصول السابقة (حلم حقنة إرما وحلم عمي ذي اللحية الصفراء) تتضح فيهما هذه العلاقة باليوم السابق اتضاحاً لا نحتاج بعده إلى توضيح. ولكنني أورد هنا بعض الأمثلة أنتخبها من سجل أحلامي الخاصة؛ لكي أبيِّن كيف يمكن التثبت من هذه العلاقة على نحو مطرد. ولن أروي هذه الأحلام إلا بالقسط الذي أحتاج إليه من أجل الكشف عن مصدرها الذي نبحث عنه.

1 – أزور منزلاً لا أستطيع دخوله إلا بعد صعوبات... إلخ، وفي هذه الأثناء أدع سيدة تنتظرني.

المصدر: محادثة مساء أمس مع إحدى قريباتي: إن عليها أن تنتظر حتى تستلم سلعاً اشترتها... إلخ.

2 – كتبت بحثاً خاصاً بنوعٍ (غير واضح) من أنواع النبات.

المصدر: رأيت في الضحى بحثاً خاصاً بفصيلة السيكلامين في عارضة إحدى المكتبات.

3 – أرى في الطريق امرأتين: أماً وابنتها ، والأخيرة منهما مريضة من مرضاي.

المصدر: حدثتني البارحة إحدى مريضاتي عن الصعوبات التي تقيمها أمها في طريق استمرارها في العلاج.

4 – أجريت بمكتبة س. اشتراكاً في إحدى الدوريات، وكانت قيمة الاشتراك عشرين فلورين سنوياً.

المصدر: ذكَّرتني امرأتي أمس نهاراً أنني لا أزال أدين لها بعشرين فلورين من مصروف الأسبوع الماضي.

5 – تلقَّيت رسالة من لجنة الحزب الاشتراكي الديموقراطي، وفي هذه الرسالة وجِّه إلي الكلام باعتباري عضواً.

المصدر: كنت قد تلقيت في وقت واحد رسالتين: إحداهما من اللجنة الانتخابية لحزب الأحرار والثانية من جماعة الإخاء الإنساني التي أنا عضو فيها حقيقة.

6 – رجل يقف على صخرة في عرض البحر على أسلوب بوكلين[185].

المصدر: دريفوس في جزيرة الشيطان ، وفي الوقت نفسه أنباء من أقاربي المقيمين بإنجلترا ، إلخ.

وقد نسأل: ألا تكون صلة الحلم إلا بأحداث اليوم الذي يسبق الحلم مباشرة، أم هي قد تمتد إلى فترة أطول من فترات الماضي القريب؟ الراجح أن ذلك سؤال لا ينطوي على كبير أهمية نظرية، ومع ذلك أراني أميل إلى الأخذ بأحقية اليوم الأخير (ولنسمِّه يوم الحلم) أحقية مانعة. فكلما خيل إليّ أن مصدر الحلم كان انطباعاً يرجع إلى ما قبل الحلم بيومين أو بثلاثة أيام، أمكنني بإكثاب النظر أن أقتنع بأن ذلك الانطباع قد تمثَّل للذاكرة يوم الحلم، أي أن استحضاراً بيِّناً قد وقع في خلال اليوم الذي يسبق الحلم مباشرة فتوسط بين يوم الحدث ووقت الحلم، وأمكنني فوق ذلك أن أبيِّن ما هي المناسبة الحديثة التي ربما كانت السبب في تذكر هذا الانطباع الأقدم. بيد أنني ـ من جهة أخرى ـ لم أر ما يقنعني بوجود أية فترة منتظمة ذات مغزى بيولوجي بين الانطباع النهاري المهيِّج ورجوعه في الحلم (وكان س؟وبودا قد ذكر أن أول فترة من هذا القبيل تستغرق ثماني عشرة ساعة[186]. وكذلك أعلن ها؟لوك إليس الذي realpagex0225xأولى أيضاً هذه المسألة انتباهه أنه عجز عن أن يعثر في أحلامه على مثل هذا الاستحضار الدوري المنتظم «رغم البحث عنه». وهو يروي حلماً رأى فيه أنه يسافر في إسبانيا وبغيته مكان يدعى: داراوس أو فاراوس أو زاراوس. فلما استيقظ عجز عن أن يذكر مكاناً له مثل هذا الاسم وصرف النظر عن الحلم. ثم ثبت له بعد ذلك بشهور قلائل أن زاراوس حقيقةً اسم لمحطة تقع بين سان سباستيان وبيلباو، وكان قد مرّ بها في القطار قبل تاريخ الحلم بمائتين وخمسين يوماً.

وعلى ذلك أعتقد أن لكل حلم حافزاً نجده بين تلك الخبرات التي «لم ينقض عليها الليل بعد».

ولا تسفر إذن انطباعات الماضي الحديث (باستثناء اليوم الذي يسبق الحلم) عن علاقة بمحتوى الحلم تختلف في نوعها من تلك التي لغيرها من انطباعات الزمن الماضي بوجه عام أياً كان بعده. فالحلم قادر على أن يختار مادته من أي فترة من فترات الحياة ما دام ثمة خيط فكري يصل بين خبرة يوم الحلم (أي «أحدث» الانطباعات) وبين سابقاتها.

ولكن لم خُصَّت أحدث الانطباعات بهذا الإيثار؟ سوف نصل إلى تكوين رأي في هذه المسألة إذا أخذنا حلماً من الأحلام التي استشهدت بها تواً [ص 208] فحلّلناه تحليلاً أوفى. وعلى ذلك أختار:

حلم المبحث النباتي

كتبت مبحثاً خاصاً بنباتٍ ما. الكتاب ماثل أمامي وأنا أدير في تلك اللحظة صفحة مطوية رسمت فيها لوحة ملونة. ربط في داخل كل نسخة نموذج مجفف من ذلك النبات، كأنه مأخوذ من معشب[187].

التحليل

كنتُ رأيت في الصباح كتاباً جديداً في واجهة إحدى المكتبات عنوانه: فصيلة السيكلامين . ومن الواضح أنه كان مبحثاً خاصاً بذلك النبات.

السيكلامين هو الزهرة المفضلة عند زوجتي. إني ألوم نفسي على أني قلَّما أفكر في أن آتيها بالأزهار ، مثلما تحب. . وتذكرني فكرة نسيان الأزهار بقصة سردتها حديثاً على جماعة من الأصدقاء لكي أدلِّل بها على أن النسيان كثيراً جداً ما يحمل غرضاً لاشعورياً وأنه يمكننا دائما من أن نستنتج ما تنطوي عليه نفس الناسي من نيَّات مستترة. فقد ألفت امرأة شابة أن تتلقى باقة أزهار من زوجها يوم عيد ميلادها. واتفق في سنة أنها افتقدت هذه الأمارة على الحب، فطفقت تبكي بدمع غزير. وفيما هي كذلك أقبل زوجها، فلم يدرِ سبباً لبكائها حتى أخبرته أن ذلك كان يوم عيد ميلادها. فضرب جبينه بيده وصاح قائلاً: إني لآسف، ولكني نسيت ذلك كل النسيان. وأراد أن يخرج على الفور لكي يبحث لها عن الأزهار. بيد أنها تأبى العزاء لأنها رأت في نسيان زوجها برهاناً على أنها لم تعد تشغل من أفكاره المكان الذي كانت تشغله من قبل. . هذه السيدة، كانت قد قابلت زوجي منذ يومين، وأخبرتها أنها في خير حال، ثم سألتها عني . وكنت قد تولَّيت علاجها قبل ذلك بسنوات.

ثم ها هي ذي بقية جديدة: لقد كتبت مرة . حقيقة . شيئاً أشبه بمبحث خاص بنباتٍ ما، وكان على التحديد مقالاً عن نبات الكوكة جذب انتباه كارل كوللر إلى خصائص الكوكايين المخدرة [فرويد، 1884هـ]. لقد أشرت في بحثي الذي نشرته إلى إمكانية استخدام القلواني هذا الاستخدام، ولكني لم أكن من الدقة بحيث أتابع تلك المسألة[188]. وأذكر الآن أن الفكر قد ذهب بي غداة الحلم . ولم أكن وجدت متسعاً لتفسيره إلا في المساء . ذهب بي إلى الكوكايين فيما يشبه أن يكون حلماً من أحلام اليقظة. لو أصابتني الجلوكوما لسافرت إلى برلين وأجريت هناك، في منزل صديقي البرليني [فليس] عملية جراحية على يد طبيب يزكِّيه صديقي، دون أن يعلم الطبيب من أنا. وسوف ينوِّه الطبيب مرة أخرى . وهو لا يدري على من أجرى عمليته . بمدى السهولة التي صارت تجري بها هذه العملية منذ إدخال الكوكايين، ولن أبدي في خلال ذلك أقل بادرة تنم على أنني قد أخذت في ذلك الكشف بنصيب. وساقني هذا التخييل إلى خواطر تدور حول مدى الحرج الذي يستشعره الطبيب . مهما يكن من أمر . حين يسأل زملاءه علاجاً لنفسه. ولكن جراح العيون البرليني لن يعرف من أنا وسيكون في وسعي أن أنقده أجره مثلما يصنع أي مريض آخر. وألحظ الآن لأول مرة، بعد أن تذكرت هذا الحلم من أحلام اليقظة، أنه كان يخفي وراءه ذكرى حدث بعينه: فقد أصابت الجلوكوما والدي، فكان أن أجرى له صديقي الدكتور كونجشتاين جرَّاح العيون عملية، وتولى الدكتور كوللر التخدير بالكوكايين، ولاحظ كوللر بتلك المناسبة أن هذه الحالة قد جمعت الأشخاص الثلاثة الذين أخذوا في إدخال الكوكايين بنصيب.

وتذهب خواطري بعد ذلك إلى المرة الأخيرة التي ذُكِّرت فيها بقصة الكوكايين هذه: كان ذلك منذ أيامٍ قلائل حين تلقَّيت نسخة من كتاب تذكاري أصدره بعض التلاميذ العارفين بالجميل احتفالاً منهم بيوبيل معلمهم ومدير معملهم. وجاء في هذا الكتاب . بين ما أُحصي من مآثر المعمل . أن اكتشاف الخصائص المخدرة للكوكايين قد تم هناك على يد كوللر. إني أرى الآن فجأة أن حلمي كان يتصل بحدثٍ وقع في المساء: فقد صحبت الدكتور كونجشتاين بالذات إلى منزله، وأخذت معه في حديث تناول أمراً يلهبني ذكره كلما ورد. وبينما كنت أتحدث إليه في مدخل البيت أقبل الدكتور جارتنر [ومعناه البستاني] ومعه زوجه الشابة، فلم أملك إلا أن أهنأهما على مظهرهما المزدهر. ولقد كان الأستاذ جارتنر أحد الذين حرروا الكتاب التذكاري الذي أشرت إليه تواً، ومن الجائز . إذن . أن يكون قد ذكرني به. ثم إن السيدة ل. التي رويت منذ هنيهة كيف خاب أملها يوم عيد ميلادها،

قد عرض ذكرها أيضاً في خلال حديثي مع الدكتور كونجشتاين . وإن يكن قد عرض في سياق مختلف قطعاً.

وأحاول بعد أن أبيِّن كذلك ما هي المحتمات الأخرى لهذا الحلم. لقد ضُمّن البحث نموذجاً مجففاً من النبات، كأنه معشب. إن المعشب يقودني إلى ذكرى ترجع إلى أيام المدرسة الثانوية. فقد استدعى ناظر مدرستنا مرة طلبة الفصول العالية وأسلمهم معشب المدرسة لكي يقوموا بمراجعته وتنظيفه؛ فقد وجِدت به بعض الديدان الصغيرة . ديدان كتب. ويبدو أن ناظر المدرسة كان قليل الثقة بقدرتي على المعاونة، لأنه لم يسلِّمني إلا ورقات قليلة. ولا أزال أذكر إلى اليوم أن هذه كانت تتضمن بعض الصليبيات[189]. إن العلاقة بيني وبين علم النبات لم تكن قط بالعلاقة الحميمة. وقد حدث وأنا أؤدي الامتحان التمهيدي في علم النبات أني أُعطيت أيضاً نباتاً من فصيلة الصليبيات لكي أقول ما هو، فلم أحر جواباً. ولولا أن معارفي النظرية أسعفتني، لآلت الأمور معي مآلاً سيئاً. ومن فصيلة الصليبيات أنتقل إلى فصيلة المركبات. والخرشوف يدخل بحق في عداد هذه، وهو الذي أستطيع يقيناً أن أدعوه زهرتي المفضلة. وكثيراً ما تعود زوجتي من السوق . وهي أكثر كرماً مني . حاملةً إليَّ تلك الأزهار التي أوثرها.

أرى المبحث الذي كتبته ماثلاً أمامي. هذا أيضاً يذكرني بشيء. فبالأمس كتب إليّ صديقي البصير الذي يسكن برلين [فليس] خطاباً جاء فيه: «إن كتابك عن الأحلام يشغل حيزاً كبيراً جداً من تفكيري: إني أراه ماثلاً أمامي وأراني أدير صفحاته ». لكم غبطته على قدرته هذه كراءٍ! لو أني أيضاً استطعت أن أراه ماثلاً أمامي كاملاً!

اللوحة الملوّنة المطوية. كنت وأنا أدرس الطب ضحية لدافع لا يني يدفعني إلى تعلُّم الأشياء من طريق الأبحاث المقصورة على موضوع واحد دون غيرها. وكنت على الرغم من ضيق مواردي أتزوَّد بعدد كبير من منشورات الجمعيات الطبية كانت تخلبني لوحاتها الملونة. وكنت أستشعر الفخر بهذا النزوع إلى الاستيفاء. فلما بدأت أنشر مقالاتي، لم يكن بد من أن أرسم لوحاتها بنفسي. وأذكر أن إحداها بلغت من الركاكة مبلغاً حمل زميلاً من أهل الخير على أن يسخر مني. وههنا تحضرني . لا أدري كيف . إحدى ذكريات الطفولة. فقد عنّ لوالدي مرة أن يعطيني مع كبرى أخواتي كتاباً حوى لوحات ملونة (وكان يصف رحلة في بلاد فارس) لكي ندمِّره . وهو أمر لا يسهل تبريره من الوجهة التربوية. وكنت أبلغ من العمر إذ ذاك خمس سنوات ولم تكن أختي بلغت الثلاث. وإن صورتنا ونحن آخذان كلانا . وقد فاض بنا الحبور . في تمزيق هذا الكتاب (وأراني أقول: كالخرشوف ، ورقة فورقة) لهيَ الذكرى الوحيدة التي أذكرها من هذه الفترة من حياتي في صورة مرئية. فلما صرت طالباً تكوَّن عندي ولع لا يوصف بجمع الكتب وامتلاكها، أشبه بالنزوع إلى دراسة الأبحاث ذات الموضوع الواحد، أي هواية مفضلة (وفكرة الهواية المفضلة قد ظهرت من قبل في صدد السيكلامين والخرشوف). لقد صرت دودة كتب (أنظر معشب). وقد كنت منذ أخذت أفكِّر في أمر نفسي . أرجع دائماً هذا الغرام الأول في حياتي إلى ذلك الانطباع الطفلي، أو قل: إني عرفت في هذا المشهد من مشاهد طفولتي «ذكرى ستارية» لصداقتي اللاحقة بالكتب. وقد اكتشفت أيضاً بالطبع منذ تلك السن المبكرة أن غرم المرء كثيراً ما يكون في غرامه؛ فقد كان لي وأنا بالسابعة عشر حساب لا يستهان به عند بائع الكتب دون أن تكون لي القدرة على سداده. وكان والدي لا يكاد يقبل الاعتذار بأن نوازعي كان يمكن أن تتجه إلى ما هو شر من ذلك. بيد أن ذكرى تلك الخبرة المتأخرة من خبرات حداثتي ترجع بي دفعة واحدة إلى حديثي مع صديقي الدكتور كونجشتاين : فقد كان مثل ذلك اللوم على إفراطي في الجري وراء هواياتي المفضَّلة أحد الموضوعات التي تناولها الحديث في تلك الأمسية التي سبقت الحلم.

وإلى هذا الحد أقف بتفسير ذلك الحلم؛ لأسباب لا محل لذكرها، وإنما أشير محض إشارة إلى الطريق الذي يسلم إليه. لقد تذكرت وأنا أفسِّر الحلم محادثتي مع الدكتور كونجشتاين، وتذكَّرتها من أكثر من وجهة. وإني إذ أنظر في الموضوعات التي دار بها هذا الحديث أرى معنى الحلم يتضح لي. فجميع خيوط الفكر التي تبتدىء من الحلم: الأفكار المتعلقة بأزهار زوجتي المفضلة وأزهاري، ثم بالكوكايين وبالحرج الذي في طلب المعالجة بين الزملاء الأطباء، ثم بإيثاري دراسة الأبحاث المقصورة على موضوع واحد وإغفالي بعض فروع العلم مثل النبات، كل هذه تسلم في النهاية . إذا المرء تابعها . إلى فرع من فروع تلك المحادثة المتعددة الشعاب. والحلم ينقلب مرة أخرى إلى تبرير، إلى دفاع عن حقي، شأن الحلم الذي فسّرناه أول ما فسّرناه، حلم حقنة إرما. نعم، إنه يتابع الموضوع المُثار هناك ويناقشه بالإشارة إلى مادة جديدة تجمعت في الفترة الواقعة بين الحلمين. بل حتى صور الحلم بما اتسمت به من لامبالاة ظاهرية هي أيضاً لهجة[190]؛ إنها تعني: ومع هذا فأنا الرجل الذي كتب تلك المقالة القيِّمة ذات الأثر عن الكوكايين، مثلما كنت أقول من قبل: ومع هذا فأنا طالب مجد لا يترك مجالاً لعائب. وحاصل القول في الحالتين هو: ومن حقي إذن أن أستبيح ذلك لنفسي. بيد أني أكتفي من تفسير الحلم بهذا القدر؛ فما أردت بروايته سوى أن أصوِّر بمثال علاقة محتوى الحلم بخبرة اليوم السابق التي أثارته: ما دمت لا أعرف من ذلك الحلم سوى محتواه الظاهر لم تتضح لي سوى علاقة واحدة للحلم بانطباع واحد من انطباعات النهار، فأما بعد أن قمت بالتحليل فيظهر مصدر ثانٍ للحلم في خبرة أخرى من خبرات ذلك النهار نفسه. فأما أول هذين الانطباعين اللذين تعلَّق بهما الحلم فانطباع يستوي شأنه عندي، إنه ملابسة ثانوية: أرى في إحدى العارضات كتاباً يجذب عنوانه انتباهي لحظة، ولا يكاد محتواه أن يثير مني أقل اهتمام. فأما الخبرة الثانية فذات قيمة نفسية عالية؛ فقد تحدثت ساعة تامة إلى صديقي طبيب العيون حديثاً مشبوباً، لمحت في خلاله تلميحات كان من شأنها أن تصيب كلينا من قريب، واستُثيرت ذكريات جعلتني أنتبه إلى ما انطوت عليه دخيلتي من تهييجات ذات صنوف شتى. أضف إلى ذلك أن المحادثة قد انقطع حبلها قبل تمامها إذ أقبل علينا بعض معارفنا. فما علاقة هذين الانطباعين النهاريين كلاً بالآخر ثم بحلم الليلة التالية؟

فأما محتوى الحلم [الظاهر] فلا أرى فيه سوى إشارة إلى الانطباع المجرَّد من القيمة الخاصة، وبذا أستطيع أن أؤيد قول القائلين: إن الحلم يؤثر أن يلتقط من الحياة الواقعة ما هو ثانوي لكي يدرجه في محتواه. وأما تفسير الحلم فكل شيء فيه يقود على العكس إلى الخبرة الهامة التي أهاجتني بحق. فلو حكمت على معنى الحلم على النحو الوحيد الصحيح، أي بحسب محتواه الكامن الذي أخرجه التحليل إلى الضوء، رأيت أني قد انتهيت على غير توقع إلى كشف جديد ذي خطر. فأنا أرى اللغز المتضمن في قولنا: إن الحلم إنما يشغل بأشتات معدومة القيمة في حياة النهار . أراه يتبدد. ولست أجد كذلك بداً من مناقضة القضية القائلة بأن الحياة النفسية التي نعرفها في اليقظة لا تُواصل في الحلم وأن الحلم . تبعاً لذلك . إنما هو نشاط نفسي ينفق في الصغائر: إن الضد هو الصحيح؛ فما يشغلنا في النهار يسيطر أيضاً على أفكار الحلم، وما نكلِّف أنفسنا عناء الحلم إلا بتلك الأمور التي كانت في النهار داعية إلى التروِّي.

إن أقرب تعليل لكوني أحلم بالانطباع المجرد من القيمة، في حين أن ما حملني على الحلم كان الانطباع الذي هاجني بحق، هو من غير شك أننا نواجه هنا مرة أخرى ظاهرة من ظواهر التشويه الحلمي الذي أرجعناه فيما سبق إلى قوة تعمل عمل الرقابة. وفي هذه الحالة تكون ذكرى البحث الخاص بفصيلة السيكلامين قد استخدمت من أجل الإشارة إلى حديثي مع صديقي، مثلما نابت إشارة «السالمون المدخن» في حلم العشاء المعاق [ص 192] عن ذكر الصديقة. وسؤالنا الوحيد هو عن الحلقات الوسطى التي مكنت انطباع ذلك البحث من أن يعمل كإشارة إلى حديثي مع طبيب العيون؛ فما ثمة من صلة واضحة للوهلة الأولى بين الطرفين. ففي مثال العشاء المعاق كانت الصلة قائمة مقدماً: «فالسالمون المدخن» . وهو طبق الصديقة المفضل . كان يدخل من غير تكلُّف ضمن طائفة الأفكار التي كان يحتمل أن تثيرها شخصية الصديقة في نفس الحالمة. وأما في مثالنا الجديد فكل ما هنالك انطباعان منفصلان لا يبدو بينهما للوهلة الأولى جامع مشترك سوى وقوعهما في ذات اليوم: في الصباح يلفت البحث الخاص بفصيلة السيكلامين ناظري، ثم في المساء أتحدث إلى صديقي. إن الجواب الذي يضعه التحليل بين يدينا هو هذا: إن أمثال هذه العلاقات التي لا توجد من قبل بين انطباعين من الانطباعات تنسج من بعد بين المحتوى الفكري الذي لأحد هذين الانطباعين وذلك الذي لآخرهما. ولقد جذبت الانتباه من قبل إلى الحلقات الوسطى في مثالنا هذا بالكلمات التي أبرزتها عند رواية التحليل. فلولا التأثير الذي جاء من جهة أخرى ما أدت فكرة البحث الخاص بفصيلة السيكلامين . في الأغلب . إلا إلى فكرة أن تلك هي الزهرة التي تؤثرها زوجتي، وربما ساقت أيضاً إلى باقة السيدة المفتقدة. ولست أعتقد أن تلك الأفكار المستترة كانت تكفي عندئذ في أن تستثير حلماً؛ فكما يجيء في «هاملت»:

«ولا حاجة بنا، يا سيدي، إلى شبح يخرج من قبره

لكي يأتينا بهذا الخبر»[191].

ولكن أنظر! لقد تذكرت في خلال التحليل أن الرجل الذي قطع حبل حديثنا كان يدعى جارتنر [البستاني] وأن زوجه لاحت لي مزدهرة ، بل إني لأذكر الآن وأنا أكتب هذه الكلمات أن الحديث بيننا قد دار برهة حول مريضة من مريضاتي كانت تحمل ذلك الاسم الجميل: فلورا [أزهار]. فلا بد أن الذي حدث هو أن تلك الحلقات الوسطى المنبعثة من دائرة الأفكار النباتية قد وصلت ما بين خبرتي اليوم: المجرَّدة من القيمة والمثيرة. ثم استتبت بعد ذلك روابط أخرى، وأعني بها تلك التي كانت تصحب فكرة الكوكايين . وهي فكرة كانت تملك الحق كل الحق في أن تتوسط بين شخص الدكتور كونجشتاين وبين بحث نباتي كنت قد كتبته . فكان أن وثَّقت هذه الروابط اندماج كلتا الدائرتين الفكرتين، بحيث صار من الممكن أن يستخدم جزء من الخبرة الأولى في الإشارة إلى الثانية.

إني أتوقع أن يردّ البعض هذا التعليل لكونه يجيء اعتباطاً أو لأنه مفتعل: فماذا ترى كان يحدث لو أن الأستاذ جارتنر وزوجه المزدهرة لم يقبلا، أو لو أن المريضة التي جرى الحديث بذكرها لم تكن تُدعى فلورا بل آنا؟ والجواب مع ذلك هيِّن: فلو قد غابت تلك الروابط الفكرية لاتجه الاختيار من غير شك إلى غيرها. وما أسهل إنشاء أمثال هذه الروابط! كما يتضح من التوريات والنكات التي يبتدعها الناس كل يوم لكي يلهوا بها: إن سلطان النكتة لا يعرف حدوداً. ونستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول: إنه لو قد تعذَّر إنشاء روابط كافية بين انطباعيّ النهار لما خرج الأمر عن أن يجيء الحلم مختلفاً؛ كان يجيء انطباع آخر مجرد من القيمة . من قبيل ما يعرض لنا زرافات ثم لا نلبث أن ننساه . فيقوم بالنسبة إلى الحلم مقام «المبحث الخاص»، فيرتبط بمضمون المحادثة وينوب عنها في محتوى الحلم. ولما كان هذا المبحث دون غيره هو الذي قد خصّ بهذا القدر، فمعنى ذلك أنه كان من غير شك أنسب الانطباعات لهذا الارتباط. ولسنا بحاجة إلى أن نتعجب مع هانشن سلاو . في [إحدى لُمَع] لسَنَج [المنظومة] . من «أن أغنياء الدنيا وحدهم هم الذين يملكون معظم المال».

بيد أن العملية النفسية التي بوساطتها تحل الخبرة المجردة من القيمة محل الخبرة ذات القيمة النفسية . على حسب كلامنا . لا يمكن إلا أن تبدو لنا مع ذلك مثار شك وحيرة وسوف نعمل في فصلٍ قادم [الفصل السادس، قسم ب، ص 341 وما يليها] على تقريب خصائص تلك العملية اللامعقولةِ مظهراً من أفهامنا. وأما في هذا الموضع فلسنا نشغل إلا بنتيجة تلك العملية التي تدفعنا إلى التسليم بها خبرات لا تحصى، مطردة الوقوع، في تحليل الحلم. بيد أننا نقول الآن: إن العملية تبدو كأن نقلة . أنقول: في النبرة[192] النفسية؟ . تقع على طول الطريق المؤلَّف من هذه الحلقات الوسطى، إلى أن تكتسب الأفكار ذات الشدة الضعيفة أصلاً شحنة الأفكار التي كانت مستثمرة في الأصل استثماراً شديداً، وبذلك تتمكن من شق

طريقها إلى الشعور[193]. وأمثال هذه النقلات لا تثير عجبنا على الإطلاق حين يتعلق الأمر بكميات وجدانية أو بوجوه النشاط الحركي عامة: فأن تتحوَّل عانس وحيدة بحبها إلى الحيوانات، أو أن يصبح الأعزب من المغرمين بجمع الأشياء، أو أن يذود الجندي بمهجته عن خرقة ملونة، علمه، أو أن تطول ضغطة اليد لحظة فتفيض بالعاشق النشوة، أو أن يفقد منديل في «عطيل» فيطلق فقده غضباً عارماً، كل أولئك أمثلة على النقل لا نجادل فيها. ولكن أن يتقرر أمر ما يدخل الشعور وما يقبض عنه . أي ما نفكر فيه وما لا نفكر فيه . أن يتقرر ذلك على هذا النحو عينه ووفاقاً لتلك المبادىء الأساسية ذاتها . ذلك ما يلوح لنا حدثاً مرضياً، ونسمِّيه خطأً في التفكير حيثما وقع في حياة اليقظة. وأستبق الأمور هنا بذكر نتيجة سوف نخلص إليها فيما بعد، فأقول: إن العملية النفسية التي شاهدناها في النقل الحلمي لا يمكن أن تعد اضطراباً مرضياً، بيد أنها تختلف مع ذلك من العمليات السوية، ومن الواجب أن نعتبرها عملية ذات طبيعة أكثر أولية [أنظر الفصل السابع، القسم هـ.].

ونحن . إذن . نفسِّر كون محتوى الحلم يلتقط آثار الخبرات الثانوية بأنه مظهر من مظاهر التشويه الحلمي (تشويه بالنقل)، ونذكر في هذا الصدد أننا قد عرفنا في تشويه الحلم أثراً من آثار الرقابة التي تعمل عملها في منتصف الطريق بين نظامين نفسيين [ص 188] ولهذا نتوقع أن يكشف لنا تحليل الحلم بانتظام عن مصدر حياة النهار الحقيقي، ذي القيمة النفسية . ذلك المصدر الذي نقلت النبرة من ذكراه إلى الذكرى المجردة من الوزن. ونحن إذ نتصور الأمور على هذا النحو نرانا نعارض نظرية روبرت [ص 125] التي تفقد عندئذ كل جدوى بالنسبة إلينا تمام المعارضة. فالواقعة التي توخَّى روبرت تعليلها واقعة لا وجود لها، وتسليمه بها يرجع إلى فهم خاطىء، إلى إخفاق روبرت في أن يستبدل بالمحتوى الظاهر للحلم معناه الحقيقي. واعتراض آخر يمكننا توجيهه إلى نظرية روبرت: فلو كانت مهمة الحلم الحقيقية هي أن يخلِّص ذاكرتنا بفعل نفسي خاص من «حثالة» ذكريات النهار، للزم من ذلك أن يكون النوم أكثر عذاباً وأبلغ مشقة من الحياة النفسية المستيقظة؛ فمن الواضح أن عدد الذكريات المجردة من القيمة التي كان ينبغي عندئذ حماية الذاكرة منها يفوق الحصر: إن الليل بأكمله ما كان ليكفي الفراغ من مثل هذا الحشد. والأرجح من ذلك كثيراً هو أن نسيان الانطباعات المجردة من الوزن يتم من نفسه دون أن تتدخل قوانا النفسية في ذلك تدخُّلاً فعالاً.

بيد أننا نشعر مع ذلك بما يحذرنا من أن ننصرف عن أفكار روبرت دون مزيد اعتبار؛ فما فسَّرنا بعد تلك الواقعة، وأعني بها: أن انطباعاً لا منزلة له من انطباعات اليوم . اليوم الأخير على التحديد . يشارك دائماً في محتوى الحلم. فإن العلاقة بين هذا الانطباع وبين مصدره الحقيقي في اللاشعور لا تقوم منذ البدء، بل هي . كما رأينا . قد لا تنسج إلا من بعد في خلال عمل الحلم[194]، كأنها قد سخرت تسخيراً لتحقيق النقل المستهدف. وعلى ذلك فلا بد أن ثمة قوة قاهرة تدفع إلى إنشاء روابط في اتجاه الانطباع الحديث، المجرد مع ذلك من القيمة، دون غيره. ولا بد أن هذا الانطباع قد خصّ بكيف يجعله يصلح لهذا الغرض صلاحية خاصة. فلولا هذا لكان من السهل كذلك أن تنقل أفكار الحلم شدَّتها إلى عنصر غير هام مما يدخل في دائرة معانيها هي.

إنَّ الملاحظات الآتية قد تعيننا على توضيح هذه المسألة: إذا حمل النهار في طياته خبرتين جديرتين بأن تستثيرا حلماً . أو أكثر من خبرتين . أدمج الحلم ذكر كليهما في كل واحد: إنه يخضع لدافع قهري يدفعه إلى أن يؤلف منهما وحدة. وها هو ذا مثال على ذلك: دخلت في عصر يوم من أيام الصيف عربة قطار فوجدت بها رجلين أعرفهما دون أن يعرف أحدهما الآخر. وكان أحدهما زميلاً كبير النفوذ وكان الآخر وجيهاً من عائلة معروفة كانت تطلب مشورتي الطبية. فعرَّفت كلاً منهما بالآخر، بيد أنهما ظلا طيلة الرحلة يتبادلان الحديث من خلالي، بحيث كان عليّ أن أتحدث في مختلف الموضوعات مع أحدهما طوراً ثم مع الآخر طوراً آخر. ورجوت من زميلي أن يزكّي شاباً يعرفه كلانا، كان قد بدأ يزاول مهنته كطبيب في ذلك الحين. فأجاب الزميل بأنه واثق أكبر الثقة من كفاءة هذا الشاب، بيد أنه يعتقد أن مظهره المتواضع لن يجعل نجاحه وسط العائلات الكبيرة أمراً سهلاً. فأجبته: «وهذا عينه هو الذي يجعله محتاجاً إلى توصية». ثم استدرت بعد ذلك إلى رفيقي الآخر في السفر أستفسره عن صحة عمته . وهي أم إحدى مريضاتي، وكانت تلزم الفراش إذ ذاك لمرضٍ خطير ألمَّ بها. وفي الليلة التي جاءت في أعقاب تلك الرحلة، رأيت في الحلم صديقي الشاب الذي رجوت تزكيته واقفاً في قاعة أنيقة جمعت كل من أعرف من الأكابر والأغنياء، وهو يلقي عليهم . ولا شيء ينقصه من مسحة رجل المجتمعات . خطاباً في رثاء السيدة العجوز (التي اعتبر الحلم موتها شيئاً واقعاً) عمة رفيقي الثاني في السفر. (وأعترف بأن العلاقة بيني وبين هذه السيدة لم تكن على ما يرام). وهكذا عرف الحلم مرة أخرى كيف يقيم الروابط بين انطباعَي النهار وكيف يؤلِّف منهما موقفاً واحداً.

ولست أرى بداً من أن أقرر . استناداً إلى خبرات كثيرة من هذا القبيل . أن عمل الحلم يخضع لنوع من القسر يدفعه إلى أن يؤلف من جميع المصادر التي تزوّد الحلم بمنبهاته وحدة واحدة في الحلم[195].

وأنظر الآن في تلك المسألة: أمِن الحتم في كل مرة أن يكون المصدر الحافز إلى الحلم والذي يقود إليه التحليل حدثاً قريب العهد (وذا أهمية)، أم أن من الممكن أن تقوم بعمل الحافز إلى الحلم خبرة باطنة، وأعني بذلك تذكُّر حدث ذي أهمية نفسية، أي تفكيرها فيه؟ إن الجواب الذي نخلص إليه من عدد كبير من التحليلات يؤيد الاحتمال الثاني أقطع التأييد. فالحافز إلى الحلم قد يكون عملية باطنة، اكتسبت حداثة العهد . إن جاز التعبير . لأن الفكر قد اتجه إليها في خلال النهار. ولقد حان الوقت لكي نجمل الشرائط التي نرى خضوع مصادر الحلم لها.

إن مصدر الحلم قد يكون:

أ) خبرة حديثة ذات أهمية نفسية تُمثَّل في الحلم تمثيلاً مباشراً[196]، أو

ب) عدة من الخبرات الحديثة الهامة يدمجها العلم في وحدة[197]، أو

ج) خبرة أو أكثر من الخبرات الحديثة الهامة تمثل في محتوى الحلم بذكر خبرة أخرى معاصرة لها لكنها خالية من القيمة[198]، أو

د) خبرة باطنة ذات أهمية (ذكرى من الذكريات أو خيطاً فكرياً) تمثل باطِّراد في الحلم بذكر انطباع حديث لكنه مجرد من الوزن[199].

ومن هذا نرى أن تفسير الأحلام يحقق ذلك الشرط في جميع الحالات: أن يكون أحد مقومات محتوى الحلم تكراراً لانطباع حديث من اليوم السابق. وهذا الانطباع الذي يتحتَّم تمثيله في الحلم إما أن يكون داخلاً في دائرة الأفكار التي ينتمي إليها الحافز الحقيقي إلى الحلم ـ سواء كجزء جوهري منها أو كجزء غير هام ـ وإما أن يكون قد أخذ من مجال انطباع لا قيمة له ربطت بينه وبين الأفكار المحيطة بالحافز إلى الحلم حلقات يزيد عددها أو ينقص. والكثرة الظاهرة في هذه الشروط إنما تتوقف في الحقيقة على هذين الاحتمالين: أن يحدث النقل أو ألا يحدث ، وحريٌّ بنا أن نلحظ كيف يمكِّننا هذان الاحتمالان من تعليل كل درجات التباين بين مختلف الأحلام، بمثل السهولة التي كان يتيحها للنظرية الطبية فرض الخلايا المخِّية المتدرجة من اليقظة الجزئية حتى اليقظة التامة (أنظر ص 123).

ونلاحظ بعد ذلك فيما يتصل بهذه الحالات الأربع الممكنة أن عنصراً حديثاً لكنه خالٍ من القيمة قد يستبدل من أجل تكوين الحلم بعنصر نفسي ذي قيمة لكنه غير حديث (سلسلة الأفكار أو الذكرى) وذلك على أن يتوافر الشرطان الآتيان: (أ) أن يكون محتوى الحلم على رباط يربطه بخبرة حديثة العهد، (ب) أن يظل الحافز إلى الحلم عملية نفسية ذات قيمة. ولا يجتمع هذان الشرطان في ذات الانطباع إلا في حالة واحدة، هي (أ). فإذا لاحظنا ـ فوق ذلك ـ أن الانطباعات المجرَّدة من المنزلة والتي يمكن استخدامها في تكوين الحلم طالما ظلت على حداثتها ـ تفقد هذه الصلاحية إذا ما انقضى عليها يوم واحد (أو بضعة أيام على الأكثر)، لم يكن بد من أن نخلص إلى أن حداثة الانطباع في ذاتها تخلع عليه نوعاً من القيمة النفسية تعدِّل بوجه من الوجوه القيمة التي للذكريات أو للسلسلات الفكرية ذات النبرة الوجدانية. وأما الأساس الذي تنهض عليه هذه القيمة التي تملكها الانطباعات الحديثة فيما يتصل بتكوين الحلم فلن يتضح لنا إلا في سياق مناقشاتنا السيكولوجية التالية[200].

هذا ولقد يتجه اهتمامنا بهذه المناسبة إلى تلك الظاهرة، وهي: أن مادتنا الذكروية والفكرية قد تصيبها تغييرات تقع في خلال الليل دون أن يلحظها الشعور. فمن البيِّن أن النصيحة التي تُسدى إلينا بإسلام أنفسنا للنوم ليلةً قبل أن نتخذ قراراً أخيراً في صدد أمرٍ ما هي نصيحة لها ما يبررها. ولكننا ننتقل هنا من سيكولوجية الأحلام إلى سيكولوجية النوم، ولن تكون هذه هي المناسبة الأخيرة التي نغرى فيها بهذا الانتقال[201].

غير أن ثمة اعتراضاً يهدد بدفع نتائجنا الأخيرة. ذلك أنه إذا كانت الانطباعات المجردة من المنزلة لا تشق طريقها إلى الحلم إلا ما دامت على حداثتها، فكيف يتفق أن يشتمل محتوى الأحلام كذلك على عناصر مستمدة من فترة سابقة من فترات الحياة، لم تكن لها ـ على حسب كلمات شترومبل ـ أية قيمة نفسية حتى في إبان حداثة عهدها، وكان الواجب ـ من ثم ـ أن يعف عليها النسيان منذ زمن بعيد، أي عناصر لا هي بالطازجة ولا هي بذات أهمية نفسية؟

إن في إمكاننا أن نفرغ من هذا الاعتراض فروغاً تاماً إذا استعنا بمكتشفات التحليل النفسي للعصابيين. والحل الذي تلقاه المشكلة عندئذ هو هذا: إن النقل الذي يبدِّل بالمادة ذات الأهمية السيكولوجية مادة أخرى لا قيمة لها (في الحلم كما في التفكير على السواء) قد وقع فعلاً في تلك الحالات في هاته الفترة السابقة من فترات الحياة، ثم نبت من بعد ذلك في الذاكرة. فالانطباعات التي كانت مجردة من القيمة في مبدأ الأمر لم تعد كذلك منذ أن اكتسبت بوساطة النقل قيمة المادة ذات الأهمية النفسية. وما بقي بغير أهمية حقيقةً لا يمكن استحضاره في الحلم بعد ذلك أبداً.

ومن المناقشات المتقدمة يستخلص القارىء بحق أنني أذهب إلى أنه لا وجود لحافز مجرد من القيمة ولا وجود ـ من ثم ـ لأحلام بريئة. وذلك هو ما أعنيه بكل صراحة ومن غير قيد ـ هذا إذا تركنا جانباً أحلام الأطفال وربما بعض الاستجابات الحلمية القصيرة إلى أحاسيس يستشعرها المرء في خلال الليل. وأما فيما خلا ذلك فما نحلم به إما أن يكون ذا قيمة نفسية سافرة، وإما أنه قد شوِّه فلا نعود نملك الحكم عليه حتى نفسره، وحينئذ يكتشف مرة أخرى أنه ذو قيمة. فالحلم لا يشغل أبداً بالتوافه، ولسنا ندع نومنا تزعجه الصغائر[202]. والأحلام البريئة مظهراً لا يلبث أن يتبيَّن مكرهاً إذا تجشَّم المرء عناء تحليلها. وإذا جاز لي أن ألجأ إلى هذا التعبير الجاري، قلت: إنها ترينا «تحت التبن ماء». ولما كانت هذه مسألة أتوقع المناقضة في صددها، وكنت أرحِّب بكل فرصة تتيح لي أن أفضح تشويه الحلم وهو يعمل عمله ـ فقد انتخبت من مجموعتي عدداً من «الأحلام البريئة» لكي أقوم بتحليلها.

روت شابة ذكية، مثقفة، لكنها من أولئك الذين يسود التحفظ مسلكهم، الذين يشبِّهون ب. «الماء الساكن»[203] . روت ما يلي: حلمت أنني وصلت إلى السوق بعد فوات الوقت، فلم أستطع أن أخرج بشيء، لا من الجزار ولا من بائعة الخضر. حلم بريء من غير شك، لكن الأحلام لا تكون بهذه البساطة، فأسألها أن تزيده تفصيلاً، فتدلي إليّ بالرواية الآتية: تذهب إلى السوق ومعها طاهيها وهو يحمل السلة. تسأل الجزار شيئاً ما، فيقول لها: «لم يعد نيل ذلك في الإمكان» ويعرض عليها شيئاً آخر بدله قائلاً: «هذا أيضاً لا بأس به». تعرض عنه وتذهب إلى بائعة الخضر، وتريد هذه أن تبيعها نوعاً غريباً من الخضر ربط حزماً، لكنه كان أسود اللون. تقول الحالمة: «لا أعرف ذلك، لا آخذه».

إن الحلم صريح الصلة باليوم السابق. فهي . حقيقة . قد ذهبت متأخرة إلى السوق، فخرجت منه خالية الوفاض: كان دكان الجزار مغلقاً . هذا هو ما يتبادر إلى الذهن كوصف لما حدث. ولكن مهلاً! أليس ذلك . أو على الأصح ضده . تعبيراً سوقياً يشير إلى نوع بعينه من الإهمال قد يأتيه الرجل في ملبسه؟[204] أياً كان الأمر فإن الحالمة لم تستخدم هذه العبارة، ولعلها تجنبت استخدامها. فلنعمل . إذن . على أن نفسِّر تفاصيل هذا الحلم.

إن كل ما يحمل في الحلم صفة الكلام الصريح، أي كل ما يقال أو يسمع ولا يقف الأمر عند مجرد التفكير فيه (والتفرقة ممكنة في معظم الأحيان عن يقين) فهو مستمد من كلام قيل فعلاً في الحياة المستيقظة . وإن كان من المفروغ منه أن هذا الكلام إنما يعالج معالجة المادة الخام، فيقتطع، ويعدَّل بعض التعديل، وينتزع من محيطه بنوع أخص[205]. ولنا حين نفسر حلماً أن نبدأ بأمثال هذه العبارات المنطوقة؛ فما هو . إذن . مصدر كلمة الجزار: إن نيل ذلك لم يعد في الإمكان؟ أنا المصدر؛ فقد ذكرت لها منذ أيام قلائل أن أقدم خبرات الطفولة لم يعد في الإمكان نيلها من حيث هي كذلك، بل تحل محلها في التحليل «التحويلات» والأحلام. وهكذا أكون أنا الجزار، وهي ترفض هذا التحويل إلى الحاضر للأساليب القديمة في التفكير والإحساس. وما مصدر قولها في الحلم: لا أعرف ذلك، لا آخذه؟ ذلك ما يقتضي التحليل تجزئته. إن «لا أعرف ذلك» كلام قالته هي في اليوم السابق لطاهيها إذ احتدم النقاش بينه وبينها. بيد أنها قد أردفت إذ ذاك قائلة: الزم حدودك! ومن البيِّن أن نقلاً قد وقع في هذا الموضع؛ فهي لم تدرج في حلمها من الجملتين اللتين وجَّهتهما إلى طباخها سوى الجملة التي لا خطر منها، لكن الجملة المقموعة وحدها: «الزم حدودك» هي التي تتلاءم وبقية محتوى الحلم، إنها الجملة التي يجوز توجيهها إلى رجل خرج عن اللياقة ونسي «دكان جزارته مفتوحاً». وأما أننا قد وفقنا حقيقة إلى الأثر الصحيح بتفسيرنا هذا فذاك ما يثبت بعدئذ من التجاوب بين هذا التفسير وبين التلميحات الكامنة وراء قصة بائعة الخضر. فصنف الخضر الذي يباع في حزم (وحزَم مستطيلة)، كما أضافت الحالمة من بعد، وهو إلى ذلك أسود اللون . هذا الصنف ما عساه أن يكون إلا مزيجاً حلمياً من الهليون والفجل الأسود؟ وأما الهليون فلا أظنني بحاجة إلى تفسيره لعارف أو عارفة[206]. وأما الصنف الآخر من الخضر . وانظر كيف يتحوّل اسمه: Schawrzer Rettig ، أي الفجل الأسود] إلى تلك الصيحة: Schwarzer, rett'dich [اهرب، يا أسود!][207] . فيهيأ إلى أنه يشير كذلك إلى ذات الناحية الجنسية التي خمَّناها منذ البدء حين استشعرنا الميل إلى أن ندرج في رواية الحلم جملة: كان دكان الجزار مغلقاً. ولسنا بحاجة إلى أن نعرف معنى هذا الحلم معرفة كاملة؛ فالشيء الثابت هو هذا: أن للحلم معنى ومعنى بعيداً عن البراءة[208].

2

وها هو ذا حلم آخر بريء لهذه المريضة، وهو بمعنى ما بمثابة الكفَّة الأخرى للميزان بالنسبة إلى الحلم الأول: يسألها زوجها: ألا ينبغي علينا أن نضبط أصوات هذا المعزف فتجيبه قائلة: إن الأمر لا يستحق العناء، فالمطارق محتاجة إلى أن تركَّب مع الأوتار الصحيحة على أية حال. هذا أيضاً تكرار لحدث حقيقي من أحداث اليوم السابق؛ فقد سألها زوجها هذا السؤال وأجابته بمثل هذا الجواب. فما معنى حلمها به؟. إنها تقول عن المعزف: إنه قفص يبعث على الاشمئزاز، منكر الصوت ، شيء كان يملكه زوجها من قبل الزواج[209]، إلخ. بيد أن مفتاح الحل إنما يكمن في قولها: إن ذلك لا يستحق العناء. فهي قد استمدت هذه الكلمات من زيارة قامت بها في اليوم السابق لإحدى صديقاتها، ودعتها الصديقة إلى أن تنزع سترتها ولكنها أبت قائلة: شكراً، ولكن الأمر لا يستحق العناء ؛ فأنا ذاهبة بعد قليل. وبينما كانت تقص عليَّ ذلك تذكرتُ أنها في خلال جلسة التحليل بالأمس قد أمسكت بسترتها فجأة؛ فقد انفك أحد أزرارها. وهكذا تكون كمن أرادت أن تقول: أرجو ألا تلتفت، إن الأمر لا يستحق العناء. وبذا يكتمل القفص فيصبح: القفص الصدري ، ويعود بنا تفسير الحلم دفعة واحدة إلى زمن نضجها الجسمي في خلال المراهقة، حين بدأت تشعر بقلة رضاها عن هيئة جسمها. بل إنه ليقودنا إلى أزمنة تسبق ذلك كثيراً إذا اعتبرنا «يبعث على الاشمئزاز» و «منكر الصوت» ، وإذا تذكرنا في هذا الصدد كيف يكثر في التلميح وفي الحلم أن يحل نصفا الكرة الأصغران من جسم المرأة محل النصفين الأكبرين . على سبيل التقابل أو التبديل.

3

وأقطع هنا هذه السلسلة من أحلام تلك المريضة بإيراد حلم قصير، بريء، أتاه شاب في مقتبل العمر: فقد رأى أنه يرتدي معطفه الشتوي من جديد، وكان ذلك شيئاً مروعاً. إن السبب الظاهر لهذا الحلم هو هجوم البرد هجوماً مفاجئاً. بيد أننا نلحظ إذا أمعنا النظر أن الجزئين القصيرين

اللذين تركَّب منهما هذا الحلم لا يستقيمان كلاً والآخر: إذ ما هو «المروع» في ارتدائك في البرد معطفاً ثقيلاً أو سميكاً؟ إن من سوء حظ براءة هذا الحلم أن أول ما يحضر ذاكرة الحالم في أثناء التحليل هو أن سيدة قد أسرَّت إليه البارحة بأن الفضل في حياة ولدها الأخير يرجع إلى تمزُّق الحجاب المانع للنسل. فقد أجرى الحالم أفكاره بما يتفق وما سمع: الحجاب الرقيق خطر، لكن السميك رديء. ولقد تمثَّل الحجاب بحق في صورة «المعطف»؛ فكلاهما يُغْتَطَفُ. ولا شك في أن حادثة من قبيل ما أفضت به السيدة قد كانت تكون شيئاً «مروعاً» بالنسبة إلى رجل أعزب.

ولكن لنعد الآن إلى حالمتنا البريئة.

4

إنها تضع شمعة في الشمعدان، ولكن الشمعة تنكسر فلا تنتصب كما ينبغي. وتقول رفيقاتها في المدرسة: إنها غير حاذقة. بيد أن المدرّسة تقول: إن الذنب ليس ذنبها.

إن لهذا الحلم أيضاً مناسبة من الحقيقة. فهي ـ حقيقة ـ قد وضعت البارحة شمعة بالشمعدان، إلا أن هذه الشمعة لم تنكسر. وقد لجأت الحالمة إلى رمز شفاف: فالشمعة موضوع يهيِّج أعضاء المرأة الجنسية، وانكسارها بحيث لا تنتصب كما ينبغي يعني عجز الرجل الجنسي («إن الذنب ليس ذنبها»). ولكن أتعرف السيدة الشابة هذا الاستعمال للشمعة، وهي التي نشئت تنشئة ملؤها العناية وظلت بمنأى عن كل قبيح؟ لقد اتفق أنها كانت قادرة على أن تبين كيف بلغ ذلك علمها: فهي كانت تركب نهر الراين يوماً حين مر بهم قارب علته جماعة من الطلبة استخفَّهم الطرب فرفعوا عقائرهم بأغنية ينشدونها ـ أو بالأحرى تصايحوا بها ـ هي: «عندما تقف ملكة السويد، خلف مصراع النافذة المغلق، وهي بشموع أبوللو...»[210].

إن السيدة لم تسمع الكلمة الأخيرة [المحذوفة] أو سمعتها فلم تفهمها. ولا بد أن زوجها قد أدلى إليها بالإيضاح المنشود. وقد استبدلت بهذه الأبيات في محتوى الحلم ذكرى بريئة تتعلق بعمل كلِّفت به المريضة وهي لا تزال بالمدرسة فلم تحذق أداءه ؛ لأن مصراع النافذة كان مغلقاً ـ وهو العامل المشترك الذي يسر التبديل. وأما العلاقة بين فكرتي الاستمناء والعجز الجنسي فواضحة بما فيه الكفاية. و«أبوللو» المتضمن في المحتوى الكامن لهذا الحلم كان حلقة وصل بينه وبين حلم سابق تمثَّلت فيه [الآلهة] پالاس العذرية. كل هذا بعيد في الحقيقة عن البراءة.

5

ولكي لا نخال أن الاستدلال بالحلم على الحياة الحقيقية للحالم أمر جم السهولة، أضيف حلماً آخر ـ ظاهره البراءة أيضاً ـ من أحلام تلك السيدة. قالت: لقد حلمت بشيء صنعته بالأمس حقيقة؛ فقد رأيت أنني أملأ خزانة صغيرة بالكتب حتى تعذَّر عليّ إغلاقها، وكان ما حلمت به هو هو الذي قد حدث حقيقة. في هذا المثال ينصَب معظم إلحاح الحالمة نفسها على الاتفاق الذي بين الحلم والحقيقة. وإن كل ما يعني في صدد الحلم من أمثال هذه الأحكام والملاحظات ـ وإن حلت في الفكر المستيقظ ـ إنما يكون دائماً، في الحقيقة، جزءاً من محتوى الحلم الكامن ـ كما سوف تؤيِّده الأمثلة فيما بعد [ص 471]. والذي تحدثنا به الحالمة ـ إذن ـ هو أن الحدث الذي يصفه الحلم قد وقع حقيقة بالأمس. وإن المطاف ليبعد بنا كثيراً لو أردنا أن نروي كيف خطر لنا أن نستعين باللغة الإنجليزية في تفسير هذا الحلم. يكفي أن نقول: إن الأمر يدور من جديد حول box صغير (أنظر حلم الطفل الميت في الصندوق، في ص 199)، امتلأ حتى تعذَّر أن يدخله بعد ذلك شيء. وما من شائنة ـ إذن ـ في هذه المرة على الأقل.

ومن البيِّن في جميع هذه الأحلام «البريئة» أن العامل الجنسي هو الدافع إلى الرقابة بيد أن ذلك موضوع ذو أهمية رئيسة يجب أن ندعه جانباً.

ب
مادة الطفولة
من حيث هي مصدر من مصادر الحلم

قلنا . متفقين في ذلك مع كافة المؤلفين إلا روبرت .: إن ثالثة الخصائص التي تميِّز محتوى الحلم هي أن الحلم قد تظهر فيه انطباعات ترجع إلى حياة الطفولة الأولى، انطباعات تبدو بعيدة عن متناول الذاكرة في اليقظة. ومن الصعب بطبيعة الحال أن نقرر إلى أي حد يندر ورودها أو يكثر؛ ما دمنا لا نعرف بعد اليقظة مصدر عناصر الحلم. فالبرهان على أن الأمر يتعلق في هذا الحلم أو ذاك بانطباع مستمد من الطفولة يجب أن يؤسس على شهادة موضوعية، وهو أمر لا تتيحه الفرص إلا نادراً. ومن الأمثلة الفريدة الدالالة على ذلك قصة موري [المذكورة فيما سبق، ص 66] عن الرجل الذي اعتزم أن يزور مسقط رأسه بعد غيبة دامت ما ينيف على العشرين عاماً: فقد حلم الرجل في الليلة السابقة على الرحيل بأنه في مكان لا عهد له به على الإطلاق وأنه يلتقي في الطريق هناك برجل لا يعرفه ويتحدث إليه، فلما عاد إلى وطنه تاح له أن يقتنع بأن المكان المجهول موجود حقيقة على مقربة من بلده، وأما رجل الحلم الغريب فصديق من أصدقاء والده المتوفى لم يكن لا يزال على قيد الحياة بذاك المكان. وذلك من غير شك دليل على أنه قد رأى في طفولته كِلا الرجل والمكان. والحلم بعد ذلك حلم ينبغي إدراجه بين أحلام الصبر النافد، كحلم الفتاة التي كانت تحمل تذكرة الحفل الموسيقي في جيبها [ص 197]، أو حلم الطفلة التي وعدها أبوها برحلة إلى الضيعة [ص 173]، إلى آخر ذلك. فأما الدوافع التي جعلت الحالم لا يستحضر من طفولته إلا تلك الانطباعات دون غيرها . فأمر لا يتبيَّن بالطبع من غير تحليل.

وأخبرني أحد المستمعين إلى محاضراتي . وكان يفخر بأن أحلامه قلّما يصحبها التشويه . بأنه قد حلم منذ زمن غير بعيد بأنه يرى مدرِّسة الخاص القديم راقداً في سرير واحد مع المربية التي ظلت بمنزلهم حتى الحادية عشرة من عمره. وحضره في الحلم أيضاً مكان ذلك المشهد. وأثار كل هذا في نفسه فضولاً شديداً، فقصَّ الحلم على أخيه الأكبر الذي أكَّد له ضاحكاً صدق الحلم؛ فهو . أعني الأخ الأكبر . يذكر ذلك تمام الذكرى، فقد كان عمره، إذ ذاك ستة أعوام: كان من دأب العاشقين أن يسكِرا الأخ الأكبر بالجعة كلما هيأت لهما الفرصة أن يجتمعا ليلاً، وأما الأخ الأصغر . حالمنا الذي كان يبلغ إذ ذاك الثلاثة أعوام وكان ينام مع المربية في غرفة واحدة . فلم يكن يعد خطراً.

وثمة حالات أخرى يسهل علينا فيها أن نقطع باحتواء الحلم على عناصر مستمدة من حياة الطفولة دون استعانة بتفسير الأحلام. وذلك إذا كان الحلم مما يسمَّى بالأحلام المتكررة عن قدم ، أي إذا كان حلماً يأتي صاحبه للمرة الأولى وهو ما زال طفلاً ثم يعاوده بعد ذلك في الرشد من حين إلى حين. وأستطيع أن أضيف إلى الأمثلة المعروفة على هذا النوع من الأحلام أحلاماً قليلة جمعتها، وإن لم أكن قد وقع لي قط حلم متكرر من هذا القبيل: فقد قصَّ عليّ طبيب في العقد الرابع من عمره أن أسداً أصفر اللون كان يتراءى له كثيراً في أحلامه منذ عهد طفولته إلى يومنا هذا، وكان في استطاعته أن يصفه أدق الوصف. ثم جاء يوم فإذا هو يكتشف هذا الأسد الذي عرفه من حلمه متجسماً في صورة لعبة من الخزف عفى عليها الدهر. وحينئذ علم الشاب من أمه أن هذا الأسد كان لعبته المفضلة في طفولته، وإن لم يعد يذكر شيئاً من ذلك.

وإذا تركنا المحتوى الظاهر للحلم إلى أفكاره الكامنة التي لا تُنال بغير التحليل، أدهشنا أن نرى أثر خبرات الطفولة في أحلام ما كان محتواها ليدعونا قط إلى مثل هذا الظن. وأدين لزميلي المبجَّل، صاحب «الأسد الأصفر»، بمثال على ذلك فريد في لطفه ودلالته النظرية. فقد أتاه . بعد أن قرأ وصف نانزنس لرحلته القطبية . حلم رأى فيه أنه في حقل من الجليد يعالج هذا المستكشف المقدام علاجاً كهربائياً لنوبة ألمَّت به من مرض عرق النساء! وبينما كنَّا نحلل الحلم تذكَّر قصة من طفولته لولاها لظل الحلم مستغلقاً على الفهم كل الاستغلاق: ذلك أنه . وهو طفل في الثالثة أو الرابعة . كان يصغي يوماً إلى حديث دار بين من يكبرونه حول رحلات الاستكشاف حين سأل والده: أذلك مرض خطير؟ وكان جلياً أنه قد خلط كلمة «رايزْن» [رحلات] بكلمة «رايسْن» [تشنجات]، وتكفَّلت سخرية إخوته وأخواته بألا تنزلق تلك الخبرة المخزية إلى النسيان.

وإنا لنرانا إزاء مثال شبيه بذلك كل الشبه حين أعثر وأنا أحلِّل حلم المبحث الخاص بفصيلة السيكلامين على إحدى ذكريات طفولتي: ذكرى والدي حين جعلني . وأنا في الخامسة . أمزِّق كتاباً زيِّن بلوحات ملونة. وقد نتشكك في أن تكون تلك الذكرى قد أخذت حقيقة بنصيب ما في تشكيل محتوى ذلك الحلم، ونرجِّح أن يكون التحليل هو الذي أوجد هذه العلاقة من بعد. ولكن غزارة الروابط الاستدعائية وتشابكها يضمنان صحة وجهة النظر الأولى: السيكلامين . الزهرة المفضلة . الطبق المفضل . الخرشوف، تمزيق كتمزيق الخرشوف ورقة فورقة (وهي جملة كانت تطرق أسماعنا كل يوم بمناسبة تمزيق الإمبراطورية الصينية)، المعشب . دودة الكتب التي تجد في الكتب غذاءها المفضَّل. ثم إني أستطيع أن أؤكد للقارىء أن المغزى الأخير لذلك الحلم . وهو ما لم أفضِ به ههنا . كان متصلاً أوثق الاتصال بمضمون ذلك المشهد الطفلي.

ويرينا التحليل في طائفة أخرى من الأحلام أن الرغبة التي أثارت الحلم فعلاً، والتي صوَّر الحلم تحقيقها ـ قد تفرَّعت عن حياة الطفولة، حتى أن المرء يدهش إذ يرى الطفل باندفاعاته وهو ما زال حياً في الحلم !

وفي هذا الموضع أستأنف تفسير حلم سبق أن خرجنا منه بجديد، وأعني به حلم: صديقي ر. هو عميّ [ص 182 وما يليها]. لقد مضينا في تفسيره إلى أن تبيَّن لنا في جلاء أن الرغبة في أن أرقى إلى منصب الأستاذية كانت إحدى الرغبات الدافعة إليه، وعلَّلنا الحنان الظاهر في الحلم تجاه صديقي ر. بأنه كان نتاجاً أملته معارضتي ومدافعتي للمطاعن الموجَّهة في أفكار الحلم نحو زميليّ. ولقد كان الحلم حلمي، ولي ـ إذن ـ أن أتابع تحليله بأن أقول: إنني وقد انتهيت من حلِّه إلى هذا المدى لم أشعر بالرضا بما انتهيت إليه. فقد كنت أعلم أن حكمي المستيقظ على الزميلين اللذين أسأت إليهما في الحلم كل هذه الإساءة كان حكماً مختلفاً كل الاختلاف، وكان سلطان الرغبة في ألا أشاركهما مصيرهما فيما يتصل بمسألة الترقية يبدو لي أضعف من أن يفسِّر هذا التناقض بين التقديرين: تقدير اليقظة وتقدير الحلم. فلو أن احتياجي إلى أن ألقَّب بلقب مختلف كان شديداً إلى هذا الحد، لكان ذلك دليلاً على طموح مرضي لا أعهده في نفسي وأعتقد أنه بعيد عني. ولست أدري ما هو حكم الغير، ممَّن يعتقدون معرفتي، في هذا الصدد. ربما كنت طموحاً حقيقة. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فهذا الطموح قد انصرف منذ أمد بعيد إلى موضوعات أخرى غير لقب الأستاذ المساعد أو منصبه.

من أين ـ إذن ـ أتى الطموح الذي ألهمني هذا الحلم؟ هنا تحضرني قصة كثيراً ما سمعتها تُحكى في طفولتي: ذلك أنه اتُفق حين ولدت أن تنبَّأت فلاحة عجوز لأمي السعيدة بوليدها الأول بأنها قد أتت إلى الدنيا برجل عظيم. ولا شك أن أمثال هذه النبوءات شيء كثير الوقوع: فكم في الدنيا من أمهات آملات وكم فيها من عجائز فلاحات ـ أو غير فلاحات ـ ممن هجرتهن قواهن الدنيوية فتحوَّلن جهة الغيب! ثم إن المتنبِّئة لن تضيرها النبوءة. أيكون ذلك هو النبع الذي منه كان ظمئي إلى العظمة؟ ولكنني أذكر هنا انطباعاً آخر يرجع إلى ما أعقب من سنوات حداثتي، انطباعاً يزوِّدنا بتعليل أفضل: فقد حدث ذات مساء في مطعم في [حديقة] براتر اعتاد والداي أن يصطحباني إليه وأنا غلام في الحادية أو الثانية عشرة من عمري أن جذب انتباهنا رجل كان ينتقل من مائدة إلى أخرى مرتجلاً لقاء هبة صغيرة أبياتاً من الشعر في أي موضوع يعرض عليه. وأُرسلت في طلب الشاعر إلى مائدتنا، فأبدى شكره للرسول، وقبل أن يسألنا أي موضوع اخترنا ألقى ببضعة أبيات عني، ثم أعلن في غمرة الإلهام أنني على الأرجح صائر في يوم من الأيام «وزيراً». وما زلت أذكر أحسن الذكرى أي انطباع أحدثته هذه النبوءة الثانية في نفسي. لقد كانت تلك أيام وزارة الطبقة المتوسطة[211]، وكان والدي قد أحضر إلى المنزل منذ قريب صور أولئك الأقطاب البورجوازيين: هربست وجيسكرا وأونجر وبرجر وغيرهم، وكنا قد أشعلنا الأنوار تكريماً لهؤلاء السادة. بل لقد بلغ من الأمر أن كان بينهم يهود؛ فكان يهيَّأ لكل غلام يهودي مجتهد أنه يحمل كرسي الوزارة في حقيبته المدرسية. ولا بد أن الانطباع الذي تخلَّف في نفسي من ذلك العهد قد كان له أثره في أنني بقيت إلى ما قبل التحاقي بالجامعة بزمن قصير وأنا أنوي أن أدرس القانون، ولم أعدل إلا في اللحظة الأخيرة. ومن اشتغل بالطب صدَّت دونه أبواب الحياة الوزارية من غير رجعة. ونعود الآن إلى حلمي: إنني ألحظ للمرة الأولى أنه ينتقل بي من الحاضر المحزن إلى أيام الوزارة البورجوازية المليئة بالآمال المرحة، وأنه يبذل ما وسعه من أجل أن يحقق ما كنت أرغب فيه إذ ذاك : فأنا إذ أسيء إلى زميليّ العالمين الجليلين إلى هذا المدى لأنهما يهوديان، وإذ أعد أحدهما أبله وأعد الآخر مجرماً ـ أسلك كأنني كنت الوزير: لقد وضعت نفسي في موضعه. يا له من انتقام حاسم من صاحب المعالي! إنه يرفض ترقيتي أستاذاً مساعداً، وأنا أرد له الكيل بأن أضع نفسي مكانه.

وأمكنني أن ألحظ في حالة أخرى أن الرغبة التي تثير الحلم ـ وإن تكن رغبة حاضرة ـ قد لقيت مع ذلك تعزيزاً قوياً من ذكريات امتدت جذورها بعيداً في الطفولة. وأنا أفكر هنا في طائفة من الأحلام كان أساسها الحنين إلى زيارة روما. ولسوف أمكث زمناً طويلاً وأن مكره على أن أرضي هذا الشوق بوساطة الأحلام؛ ففي هذا الفصل من العام الذي أتمكن فيه من الترحال يتحتَّم عليّ أن أتجنب الإقامة في روما لأسباب صحية[212]. وهكذا رأيت مرة في الحلم أنني أنظر من نافذة عربة قطار إلى نهر التيبر وجسر سانت آنجلو، ثم يأخذ القطار في الحركة، فيخطر لي أنني لم أطأ المدينة قط. وكان المنظر الذي رأيته في الحلم مقتبساً عن رسم معروف وقع عليه بصري برهة في حجرة جلوس أحد مرضاي. وفي مرة أخرى يقودني قائد إلى قمة تل ويريني منه روما وقد تلفَّعت بالضباب نصف تلفُّع وبعدت بعداً سحيقاً حتى لأعجب معه من وضوح منظرها. ومحتوى الحلم أكثر ثراءً مما أستطيع روايته، ولكن من السهل أن نستشف فيه فكرة «أرض الميعاد وهي تلوح من بعيد». والمدينة التي رأيتها للمرة الأولى على هذا النحو، ملفعة بالضباب، كانت: لوبك، وأما التل فقد رأيت أنموذجه في ـ جلايخنبرج. وفي حلم ثالث أراني أخيراً في روما ـ على ما حدثني به الحلم ـ بيد أني ـ لخيبة أملي ـ أرى منظراً لا يشبه المدن في شيء، أرى: نهيراً حلك ماؤه وحملت إحدى ضفتيه صخوراً سوداء وانتشرت على الأخرى مراع انتشرت فيها أزهار كبيرة بيضاء، ثم ألحظ رجلاً يدعى السيد تسوكر (وهو رجل لي به بعض المعرفة) وأعقد العزم على أن أسأله عن الطريق المؤدية إلى المدينة. وجلي أنني كنت أحاول عبثاً أن أرى في الحلم مدينة لم أرها في حياة اليقظة قط. وإني إذ أجزِّيء مشهد الحلم إلى عناصره أرى الأزهار البيضاء تعود بي إلى مدينة را?نا التي أعرفها والتي احتلت مكانة روما كعاصمة لإيطاليا ـ بعض الزمن على الأقل. ففي المستنقعات المحيطة برا?نا وجدنا أجمل الزنابق المائية نامية في الماء الأسود. وكنا نكابد العناء في اقتطافها من الماء، فجعلها الحلم تنبت في المرعى، مثل النرجس في آوسي. وأما الصخرة السوداء القريبة ذلك القرب من الماء فتذكرني تذكيراً شديداً بوادي التيل، على مقربة من كارلسباد. وتمكنني الآن «كارلسباد» من أن أفسِّر تلك

اللمحة العجيبة، وأعني بها سؤالي السيد تسوكر عن الطريق: إن المادة التي نُسج منها الحلم قد تضمَّنت في هذا الموضع قصتين من تلك القصص اليهودية، الممتعة، المنطوية على علم عميق بأحوال الدنيا، هو في غالبية الأحيان مرير، والتي يطيب لنا كثيراً أن نستشهد بها في أحاديثنا ورسائلنا. وأما الأولى فهي قصة «البنية»، وهي تروي كيف يدلف يهودي مسكين إلى قطار كارلسباد السريع دون تذكرة، ثم يفتضح أمره، ولا يمر المفتش للمراجعة إلا طرده من القطار وزاد إغلاظاً إليه، ثم يلتقي به صديق في إحدى محطات سكة الأوجاع هذه، فيسأله عن وجهته، فيجيبه: «إلى كارلسباد . إذا احتملت بنيتي»[213]. وتنتقل ذاكرتي إلى القصة الثانية، وهي تدور حول رجل يهودي لا يعرف الفرنسية، كلف أن يسأل في باريس عن شارع ريشليو. وقد كانت باريس أيضاً هدفاً لأشواقي سنوات طوالاً. والسعادة التي أحسستها وأنا أنزل قدمي على رصيفها لأول مرة قد لاحت لي بشيراً بتحقق أمنيات أخرى. ثم إن السؤال عن الطريق كان إشارة مباشرة إلى روما؛ فإلى روما تذهب كل الطرق كما نعلم. وكذلك اسم تسوكر [أي سكر]: إنه يشير من جديد إلى كارلسباد، فمن عادتنا أن نرسل إلى هذا البلد مرضى السكر، وهو مرض مردُّه البنية. ولقد كان الحافز إلى هذا الحلم اقتراحاً من صديقي البرليني [فليس] بالالتقاء في براج، في خلال عيد الفصح. وكان بين الموضوعات التي كان مفروضاً أن نتحدث فيها موضوع له رباط آخر «بالسكر» و«بمرض السكر».

ويعود بي إلى روما من جديد حلم رابع تلا الحلم السابق بزمن قليل: رأيت أمامي ناصية طريق، وأدهش لكثرة ما أراه من اللافتات المكتوبة باللغة الألمانية. وكنت في اليوم الذي سبق هذا الحلم قد كتبت إلى صديقي أخبره . وكأنما كنت أقرأ الغيب . أن براج لن تكون بالمكان الذي يدَّخر لسائح ألماني إقامة طيبة. وهكذا يعرب الحلم في آن واحد عن الرغبة في ملاقاة صديقي في روما بدل ملاقاته في مدينة بوهيمية، ثم عن الرغبة في أن تحظى اللغة الألمانية بمزيد من التسامح في براج . وهي رغبة ترجع في الأرجح إلى أيام التلمذة. ولا بد أنني كنت أفهم اللغة التشيكية في السنوات الأولى من طفولتي؛ فقد ولدت بمدينة صغيرة في مورافيا وسط شعب سلا؟ي. ولقد سمعت مرة وأنا في السابعة عشرة من عمري بيتاً من الشعر الذي يغنَّى للأطفال، فعلق البيت في ذاكرتي دون ما جهد مني حتى أنني لأستطيع ترديده إلى اليوم . وإن كنت لا أدرك شيئاً من معناه. وهكذا لا تخلو هذه الأحلام أيضاً من روابط تربطها بطفولتي الأولى.

وكان في خلال رحلتي الإيطالية الأخيرة التي حملتني إلى ما وراء بحيرة تراسيمن أنني اكتشفت في النهاية . بعد أن رأيت التيبر وقفلت راجعاً على مضض وأنا على ثمانين كيلومتراً من روما . كيف تعزز شوقي إلى المدينة الخالدة بانطباعات حداثتي. فقد كنت أفكر في رحلة تحملني في العام القادم إلى ناپولي ماراً بروما حين خطرت لي تلك الجملة التي لا أشك في أنني قرأتها في نص من نصوصنا المأثورة[214]: «إنه لسؤال: أي الرجلين كان أنفذ صبراً وهو يذرع الحجرة طولاً وعرضاً بعد أن قرَّ قراره على الذهاب إلى روما: وكيل ناظر المدرسة ؟ينكلمان أو القائد الأعظم هانيبال؟» نعم، إنني في الحقيقة كنت أقفو خطى هانيبال. فقد كُتب عليّ، مثلما كتب عليه، ألا أرى روما. وهو أيضاً قد توجَّه إلى كامپانيا حين كان العالم أجمع ينتظره في روما. ولكن هانيبال الذي انعقدت بيني وبينه تلك المماثلة كان بطلي الأثير وأنا ما زلت بالمدرسة. فمشاعري، شأن الكثير من الغلمة بتلك السن، قد انحازت في حروب قرطاجنه إلى جانب القرطاجنيين وليس إلى جانب الرومان. ثم حين أخذت أدرك في سنوات المدرسة الأخيرة ما يجره على المرء انتماؤه إلى جنس غريب، وحين نبهتني مشاعر العداء السامي بين الأقران إلى أنني لم يعد لي مفر من أن أتخذ لي موقفاً . حينئذ زاد أيضاً شخص القائد السامي علواً في ناظري. فهانيبال وروما كانا يرمزان في عين الصبي للصراع بين عناد اليهودية ونظام الكنيسة الكاثوليكية. ومنذ ذلك الحين وحركة العداء السامي لا تزيد آثارها في حياتنا الانفعالية إلا خطورة، فأعان ذلك على تثبيت أفكار تلك الأيام المبكرة وأحاسيسها. وهكذا صارت رغبة الذهاب إلى روما في حياتي الحالمة ثوباً ورمزاً تكتسبها رغبات أخرى أشد احتداماً، رغبات يقتضي تحقيقها بذل الجهد بكل دأب القرطاجني وبكل عزوفه عما ليس من قصده، وإن بدا في الحاضر أن تحقيقها لن يلقى من مواتاة القدر إلا ما لاقته الرغبة التي صاحبت هانيبال في حياته جمعاء، رغبة الدخول في روما.

والآن أعثر لأول مرة على خبرة الحداثة التي ظلت تعرب إلى اليوم عن سلطانها في كل هاته الانفعالات والأحلام. ربما كنت في العاشرة أو في الحادية عشرة من عمري حين بدأ والدي يصطحبني في نزهاته ويكاشفني في أحاديثه بنظراته في أمور هذا العالم الذي نحيا فيه. وهكذا حدثني مرة بالقصة الآتية لكي يريني كم كانت الأيامُ التي ولدتُ بها أفضل من أيامه، قال: كنت وأنا شاب أتنزه في يوم سبت في شوارع البلد الذي ولدتَ به وقد لبست لباساً حسناً ووضعت على رأسي قلنسوة من الفراء وإذا مسيحي يقبل فيضرب بقبعتي في الوحل، صائحاً: أيها اليهودي انزل عن الرصيف! . فسألت والدي: وماذا فعلت؟ . فأجابني في هدوء: نزلت إلى عرض الطريق والتقطت القلنسوة. لقد بدا لي ذلك مسلكاً مجرداً من البطولة إذ يصدر عن الرجل الضخم القوي الذي كان يقودني ممسكاً بيدي . أنا الولد الصغير. وقارنت هذا الموقف الذي لم يرضني بآخر أكثر تلاؤماً ومشاعري، قارنته بالمشهد الذي فيه يستحلف هاميلكار باركاس[215] أمام مذبح العائلة . ابنه هانيبال إلا أن يأخذن بالثأر من الرومان. ومنذ ذلك الحين وهانيبال يحتل مكاناً بين تخاييلي.

وأظنني قادراً بعد على تأثر هذه الحماسة للقائد القرطاجني إلى عهد أقدم من عهود طفولتي؛ بحيث لا يخرج الأمر هنا أيضاً عن أن يكون تحويلاً إلى حامل [أي موضوع] جديد لعلاقة عاطفية متكوِّنة من قبل. فقد كان من أوائل الكتب التي وُضعت بين يدي وأنا طفل حديث العهد بالقراءة

كتاب تيير «تاريخ القنصلية والإمبراطورية». وما زلت أذكر كيف ألصقت بالظهور المسطحة لجنودي الخشبية قصاصات من الورق تحمل أسماء القواد الإمبراطوريين، وأذكر أن ماسينا (باليهودية: منشا) كان بطلي المفضل إذ ذاك[216]. (وهو تفضيل يفسَّر أيضاً من غير شك بكوني قد ولدت في ذات التاريخ، قرناً بعده)[217]. ونابليون خليفة هانيبال؛ لعبوره جبال الألب. وربما أمكن أن أتتبع نشأة هذا المثل الأعلى الحربي إلى زمن أقدم من طفولتي: إلى علاقتي في خلال السنوات الثلاث الأولى من حياتي بولد يكبرني بعام واحد، وإلى المشاعر التي لا بد قد أثارتها في نفس أضعف الرفيقين تلك العلاقة التي كانت طوراً صداقة وطوراً حرباً[218].

وكلَّما تعمَّق المرء تحليل أحد الأحلام، زاد عثوره على آثار خبرات الطفولة التي كان لها نصيبها بين مصادر المحتوى الكامن لهذا الحلم.

وقد علمنا من قبل (ص 70 . 71) أنه يندر غاية الندرة أن يستحضر الحلم الذكريات الاستحضار الذي يجعلها تؤلف . دون أن ينالها اقتضاب أو تحريف . كل المحتوى الظاهر للحلم. ومع هذا فهناك أمثلة على ذلك لا يتطرق إليها الشك. وفي استطاعتي أن أضيف إليها بضعة أمثلة أخرى تتعلق من جديد بمشاهد مستمدة من الطفولة. فقد اتفق مرة أن واجه الحلم أحد مرضاي باستحضار كاد يخلو من التشويه لواقعة جنسية تبيَّن على الفور أنها ذكرى صادقة. والحقيقة هي أن هذه الذكرى لم تضِع قط من حياته المستيقظة كل الضياع، ولكنها غمضت غموضاً شديداً وكان بعثها أثراً من آثار العمل الذي تمّ من قبل في خلال التحليل. فالحالم كان قد ذهب وهو في الثانية عشرة من عمره ليزور رفيقاً من رفاق المدرسة لزم الفراش حين تعزّى هذا الرفيق تعزياً جاء في أغلب الظن عفواً بحركة في فراشه. فلما رأى المريض أعضاء الولد التناسلية وليَه نوع من الدافع القهري، فعزَّى نفسه وأمسك بعضو الولد الآخر الذي نظر إليه مستنكراً دهشاً، فأسقط في يده وخلى. وقد أعاد الحلم هذا المشهد بعد ذلك بثلاثة وعشرين عاماً، وأعاده بكل المشاعر التي صاحبته، إلا أنه عُدِّل بحيث أخذ الحالم الدور السلبي بدل الإيجابي، بينما استبدل برفيق المدرسة شخص معاصر.

والقاعدة المستيقنة هي أن مشهد الطفولة لا يرد في محتوى الحلم الظاهر إلا تلميحاً، ولا غنى عن استخلاصه من الحلم بالتفسير. والأمثلة على ذلك لا تحمل روايتها كبير إقناع؛ فليس ثمة في معظم الأحيان شاهد آخر على وقوع خبرات الطفولة هذه: إنها . وقد وقعت في سن مبكرة جداً . لا ترجع الذاكرة تعرفها. وإن حقَّنا في أن نستدل عامة بالأحلام على وقوع مثل هذه الخبرات إنما يخلص من خلال العمل التحليلي من جملة من العوامل تبدو خليقة بالركون إليها من حيث اتفاقها فيما بينها. فإذا انتُزعت هذه الإشارات الراجعة إلى خبرات الطفولة من محيطها بغية تفسير الحلم، كان من المحتمل ألا تترك إلا تأثيراً قليلاً، وبخاصة إذا كنت لا أذكر مرة واحدة كل المادة التي يستند إليها التفسير. بيد أنني لن أدع ذلك يردّني عن رواية بعض الأمثلة.

1

بين مريضاتي مريضة تمتاز أحلامها جميعاً بذلك الطابع: وهو كون الحالمة تظهر «مُعْجَلة» [219]. فهي تعجل لكي تصل في الميعاد، أو تعجل لئلا يفوتها القطار، وهكذا. وفي أحد أحلامها رأت أنها تتأهب لزيارة إحدى صديقاتها وقالت لها أمها أن تذهب راكبة لا ماشية، ولكنها تنطلق جرياً ولا تكف في أثناء ذلك عن الوقوع. . لقد مكنتنا المادة المنبعثة في سياق التحليل من التعرّف على ذكريات تتصل بهياج الأطفال (ونعلم ما يسميه أهل فيينا «هيجة»)[220]. وأشار أحد أحلامها بخاصة إلى تلك المزحة التي يحبها الأطفال كثيراً، وهي أن يكرروا جملة: «جرت البقرة حتى وقعت» بسرعة شديدة حتى تبدو الجملة كأنها كلمة واحدة . وهو أيضاً ضرب من «الجري». وقد استحضرت الذاكرة كل هذا الجري البريء بين الصديقات الصغيرات؛ لأنه كان يخفي وراءه ذكريات أخرى أقل براءة.

2

وها هو ذا حلم ثانٍ لمريضة أخرى: إنها في حجرة كبيرة انتصبت فيها آلات من كل نوع، شيء أشبه بما كانت تتخيله عن أحد معاهد تقويم الأجسام. وتسمع أنني لا وقت عندي وأنه لا معدى لها عن أن تقبل معالجتها في وقت واحد مع خمسة آخرين. ولكنها تأبى وتمتنع عن الركود في السرير المخصص لها . أو في الشيء الذي ظهر على أنه السرير، أياً كانت حقيقته. وتقف في الركن وتنتظر أن أقول لها: إن ذلك غير صحيح. وفي هذه الأثناء يضحك منها الآخرون، قائلين: إنه دلالها المعهود. . في الوقت نفسه: كأنما كان عليها أن ترسم مربعات كثيرة صغيرة.

يرتبط الجزء الأول من هذا الحلم بالعلاج وبتحويلها مشاعرها إليّ. وأما الجزء الثاني فينطوي على إشارة إلى مشهد من مشاهد الطفولة.

ووصل بين الجزئين ذكر السرير. فمعهد تقويم الأجسام يرجع إلى حديث لي قارنت فيه العلاج من حيث مدَّته وطبيعته بعلاج يستهدف تقويم الجسم. ولقد اضطررت عند ابتداء علاجها إلى أن أخبرها أنني لا أستطيع أن أخصص لها في الوقت الحاضر إلا وقتاً قليلاً ، ولكنني سوف أفرغ لها ساعة كاملة كل يوم فيما بعد. وحرك ذلك حساسيتها القديمة التي هي سمة يتميز بها الأطفال المهيأون للهستيريا؛ فرغبتهم في الحب لا ترتوي. ومريضتي كانت صغرى ستة إخوة وأخوات (ومن ثم: مع خمسة آخرين). وكانت لذلك الطفلة المحببة إلى والدها، ولكن يبدو أنها كانت ترى رغم ذلك أن والدها لا يفرغ لها سوى القليل من الوقت والالتفات. . وأما كونها تنتظر حتى أقول لها: إن ذلك غير صحيح، فمأتاه ما يلي: أحضر صبي طرزي ثوباً إليها، فسلَّمته النقود، ثم بعد ذلك سألت زوجها هل هي ملزمة بأن تدفع النقود مرة ثانية لو أن الغلام أضاعها، فأجابها زوجها بغية معاكستها : يقيناً (المعاكسة في الحلم)، وظلت تعاود السؤال المرة تلو المرة وهي تنتظر أن يقول لها في النهاية: إن ذلك غير صحيح. وهكذا أمكن أن نستخلص أن أفكار الحلم كانت تتضمن تلك الفكرة: هل هي ستلزم بأن تدفع ضعف المبلغ حين أفرغ لها ضعف الوقت؟ فكرة شحيحة تشمئز لها نفسها. (ومن الشائع أن يحل إمساك المال محل قذارة الطفولة في الحلم؛ وكلمة «باعث على الاشمئزاز »[221] هي هنا حلقة الوصل). فلو صح أن كل تلك الفقرة حول انتظارها حتى أقول ذلك لها... إلخ. . إنما هي ترجمة مسهبة لكلمة «باعث على الاشمئزاز»، لكان مما يتفق وذلك الوقوف في الركن وإباء الرقود في السرير باعتبارهما عنصرين من مشهد طفلي تكون قد وسَّخت فيه سريرها فكان عقابها أن وقفت في الركن وقد هدِّدت بأن بابا سوف يكف عن حبها، بينما ضحك منها إخوتها وأخواتها... إلخ. وأما المربعات الصغيرة فكانت تحيل إلى ابنة أختها . أو أخيها . الصغيرة التي أرتها تلك الحيلة الحسابية التي تتلخص في أن تكتب أرقاماً داخل تسعة مربعات . على ما أعتقد . بحيث تجمعها في أي اتجاه فيكون المجموع خمسة عشرة.

3

وها هو ذا حلم أتاه رجل: يرى صبيين يتضاربان، إنهما من غير شك صبيّا صانع براميل، كما يستنتجه من العِدد المبعثرة حولهما. يطرح أحد الولدين الآخر أرضاً. يحمل الولد المطروح قرطاً ذا أحجار زرقاء. إنه يندفع نحو ضاربه رافعاً عصاه لكي يقتص منه. يلوذ الضارب بامرأة تقف بجوار حاجز خشبي. كأنها كانت أمه. إنها امرأة من الطبقة العاملة، وهي تقف وظهرها إلى الحالم. ولكنها تستدير إليه في النهاية وتصوِّب إليه نظرة مروعة حتى يولي الإدبار وقد ملكه الرعب. كان يسع المرء أن يرى اللحم الأحمر لجفنيها الأسفلين وقد برز تحت عينيها.

إن هذا الحلم يستغل أحداثاً تافهة مما وقع في اليوم السابق استغلالاً واسعاً. فبالأمس رأى الحالم في الطريق حقيقةً ولدين طرح أحدهما الآخر أرضاً. فلما تقدم منهما ليفض العراك لاذا بأهداب الفرار. . أما كونهما صبيي صانع براميل، فلا يفسره إلا حلم تال استخدم فيه هذا التعبير: «خرق قاع البراميل» [أي: أفرغ ما بنفسه]. . وأما الأقراط ذات الأحجار الزرقاء فيقول الحالم إن خبرته قد دلته على أن البغايا هن اللائي يحملنها بنوع خاص. وعلى ذلك يخطر له بيت من أغنية شعبية ذائعة عن ولدين: «والولد الثاني كان اسمه ماري» (أي أنه كان فتاة). . والمرأة الواقفة؟ إنها تجعله يتذكر أنه قد ذهب بعد مشهد الولدين لكي يتنزه على شاطىء الدانوب، وأنه انتهز خلوته لكي يتبوَّل بجوار حاجز خشبي. ثم بعد ذلك بقليل صادف في طريقه سيدة مسنَّة محتشمة الرداء ابتسمت له في لطف وأرادت أن تعطيه بطاقة من بطاقات الزيارة.

ولما كانت المرأة تقف في الحلم كما وقف هو من قبل عند تبوله، فالأمر يتعلق بامرأة تتبول. ومن هنا كانت «النظرة» المروعة، وكان بروز اللحم الأحمر الذي لا يمكن أن يشير إلا إلى تجويف أعضاء المرأة حين تجلس القرفصاء، تلك الأعضاء التي رآها في طفولته فترجع من بعد إلى ذاكرته في صورة «لحم منتفش» في صورة «جرح». والحلم يوحِّد بين مناسبتين مكنتاه وهو صبي صغير السن من أن يرى أعضاء فتاة صغيرة: إذ طرحها على الأرض مرة، وحين رآها تتبوَّل مرة أخرى، وهو . كما يتبيَّن من بقية الحلم . لا يزال يحفظ ذكرى عقاب أو وعيد أتاه من والده على ما أبداه في هاتين المناسبتين من التطلع الجنسي.

4

وأما الحلم الآتي . وهو لسيدة مسنة . فتكمن وراءه طائفة كاملة من ذكريات الطفولة، أُدمجت بقدر الإمكان في تخييل واحد:

تخرج متعجلة في قضاء بعض الحاجيات. تقع على ركبتها في شارع جرابن كأنما أصابتها كبوة. يجتمع من حولها حشد من الناس ومن الحوذية بنوع خاص، لكن ما من أحد يعينها على النهوض. تبذل هي جهدها مرات متعددة من غير جدوى. لا بد أنها قد أفلحت أخيراً، فها هي ذي توضع في إحدى العربات لكي تقودها إلى منزلها. يقذف البعض وراءها، من خلال نافذة العربة، بسلة كبيرة مثقلة (من قبيل ما يستعمل في التسوُّق).

تلك هي السيدة التي تظهر دائماً معجلة في أحلامها، مثلما كان شأنها في طفولتها. وجلي أن المشهد الأول من الحلم مستمد من رؤيتها

جواداً يقع، كما أن الكبوة تشير أيضاً إلى سباق الجياد. والحالمة كانت فارسة في شبابها، وأرجح الظن أنها، وهي بعد أكثر شباباً، كانت أيضاً جواداً. وإلى السقوط ترجع ذكرى من أوائل ذكريات طفولتها، عن ابن البواب البالغ من العمر سبعة عشر عاماً؛ فقد سقط يوماً في عرض الطريق وقد نزلت به نوبة من الصرع، وأُحضر إلى المنزل محمولاً في عربة. إنها بالطبع لم تعلم ذلك إلا سماعاً، ولكن فكرة نوبات الصرع، فكرة «النازلة» ، قد اكتسبت سلطاناً عظيماً على مخيلتها، وكان لها فيما بعد أثرها في تشكيل نوباتها الهستيرية. . وإذا حلمت امرأة بالسقوط كان في حكم القاعدة أن لذلك معنى جنسياً: إنها تغدو «ساقطة». وإذا كان هذا التفسير يثير شكاً فهو لا يثير في حلمنا إلا أقله؛ لأنها تسقط في طريق جرابن ، أي في ذلك المكان من فيينا الذي عرف بكونه مراح العاهرات ومغداهم. وأما سلة التسوق فتحتمل أكثر من تفسير: فهي، من حيث أنها سلة . رفض[222]، تذكِّرها بالسلال المتعددة التي وزعتها أول الأمر على المتيمين بها، ثم عادت بدورها . كما تعتقد . فتلقتها. ومن ثم جاء أنه ما من أحد يريد أن يعينها على النهوض . وهو ما تؤوله بنفسها على أنه يعني الازدراء بها. وتذكرها سلة السوق بعد ذلك بتخييلات سبق ظهورها في خلال تحليلها، وكان مدارها أنها قد تزوجت زواجاً دون منزلتها بكثير، حتى صارت تذهب إلى السوق بنفسها لكي تقضي منه حاجياتها. وسلة التسوق . أخيراً . قد تكون شارة يدل بها على خادم. وفي هذا الصدد تحضرها ذكريات أخرى من طفولتها: الذكرى الأولى عن طاهية طردت لأنها سرقت؛ إنها . أيضاً . قد سقطت على ركبتيها تطلب الغفران. لقد كان عمر الحالمة إذ ذاك اثنتي عشرة سنة. وأما الذكرى الثانية فعن خادم طُردت من المنزل لعلاقة بينها وبين الحوذي . ونقول عرضاً: إن الحوذي قد تزوج الخادم بعد ذلك. وهكذا ترينا هذه الذكرى أحد مصادر الحوذية في الحلم (إلا أن هؤلاء لا يأخذون بساعد المرأة الساقطة، على خلاف ما قد وقع في الحقيقة). ويبقى علينا أن نفسر قذف السلة، وقذفها من خلال النافذة : إن ذلك يذكرها بتشييع الطرود بسكة الحديد، وبعادة العشاق في الريف أن يناجوا محبوباتهم ليلاً بالنوافذ ، وكذلك ببضعة انطباعات صغيرة تركتها حياتها في الريف: كيف رمى سيد سيدة ببضعة برقوقات زرقاء من خلال نافذتها. وكيف فزعت أختها الصغرى يوماً لأن معتوهاً عابراً تطلع إلى غرفتها من خلال النافذة. ومن خلال هذا كله تنبثق ذكرى معتمة من سنتها العاشرة عن مربية اشتبكت وهم بالريف في علاقة غرامية . يحتمل أن تكون الفتاة قد أدركت شيئاً منها . مع أحد الخدم، فكان جزاؤها أن «شيِّعت» من المنزل و «قذِفت إلى الخارج» (وفي الحلم الضد: «قذف إلى الداخل») . وهي قصة كنا قد اقتربنا منها من وجهات أخرى متعددة. بيد أن متاع الخادم أو صندوقها يسمّى في فيينا على سبيل الاستخفاف «بالسبع برقوقات» : «احزمي برقوقاتك السبع وانزحي!».

إن مجموعتي تزخر بالطبع بأحلام كهذه من أحلام المرضى، يسوق تحليلها إلى انطباعات من الطفولة لم تعد تذكر إلا ذكراً غامضاً، أو لا تذكر البتة، انطباعات كثيراً ما ترجع إلى السنوات الثلاث الأولى من الحياة. بيد أن تطبيق النتائج المستخلصة منها على الأحلام عامة عمل غير مأمون. فأصحابها كانوا دائماً من العصابيين، وبخاصة هستيريين. فمن الجائز أن يكون نصيب المشاهد الطفلية في أحلامهم راجعاً إلى طبيعة العصاب عندهم وليس إلى ماهية الحلم. بيد أنني وأنا أفسِّر أحلامي نفسي . وهو مع ذلك تفسير لا أفعله من جرّاء أعراض مرضية بالغة . يتفق لي بمثل تلك الكثرة أن أعثر في محتوى الحلم الكامن، وأنا خالي البال، على مشهد من مشاهد الطفولة، وأن أرى مجموعة كاملة من أحلامي ترتبط دفعة واحدة بمستدعيات تتشعَّب من خبرة وقعت في طفولتي. وقد سقت من قبل أمثلة على ذلك، وسوف أسوق أمثلة أخرى منها في مناسبات شتى. ولعل خير ما أختتم به هذا الجزء كله هو أن أسرد بعضاً من أحلامي تلتقي فيه مناسبات حديثة بخبرات من الطفولة انسحب عليها النسيان دهراً طويلاً، فكانت جميعاً مصادر للحلم.

(1) أويت إلى الفراش وأنا متعب جائع، ثم أخذت حاجات الحياة الكبرى تعلن عن نفسها، فكان أن حلمت الحلم الآتي: أذهب إلى المطبخ في طلب بعض الحلوى. هناك ثلاث نساء واقفات، إحداهن هي مضيفة النزل. إنها تدير شيئاً في يدها كما لو كانت تصنع فطيراً. تجيبني أن عليّ بالانتظار حتى تفرغ (لم يكن من الواضح أنها قد تكلمت) ينفد صبري وأنصرف متأذياً. أرتدي معطفاً، ولكن المعطف الذي أجرِّبه أولاً مفرط الطول. أخلعه وأدهش إذ أراه محلى بالفراء. أرتدي معطفاً ثانياً له ذيل طويل، موشًّى برسوم تركية. يقبل رجل غريب، ذو وجه مستطيل ولحية مدببة، ويمنعني من ارتدائه قائلاً: إن المعطف معطفه. أريه أن المعطف مغطى كله بوشى تركي. يسألني: «وما لك و(الرسوم، الذيول...) التركية؟» ولكننا سرعان ما نصبح صديقين حميمين.

عندما أخذت أحلل هذا الحلم، اتجه خاطري على غير توقع إلى أول رواية قرأتها . ولعلي كنت إذ ذاك في الثالثة عشرة من عمري[223] . وأقول قرأتها والحقيقة هي أنني بدأتها من نهاية المجلد الأول. وما علمت قط اسم الرواية ولا اسم مؤلفها، ولكن خاتمتها لا تزال حية في ذاكرتي: يتردى البطل في هاوية من الجنون وهو يردد أسماء النساء الثلاث اللائي كان لهن في حياته أعظم النصيب من سعادتها ومن شقائها. وكان پيلاجي أحد هذه الأسماء. ولست أعلم بعد ما أنا صانع بهذا الخاطر في التحليل. وههنا تنبثق في خاطري . بصدد النساء الثلاث . آلهات القدر الثلاث اللائي ينسجن مصائر الناس. وأعلم أن إحدى النساء الثلاث . وأعني المضيفة في الحلم . هي الأم التي تهب الحياة ثم تعطي الحي (كما كان الشأن معي) أول غذاءه. إن الجوع والحب يلتقيان على صدر المرأة. والقصة تُروى عن شاب غدا من كبار المعجبين بالجمال الأنثوي، دار الحديث عن جمال المرضع التي غذَّته وهو وليد، فأعرب عن أسفه إذ لم ينتهز الفرصة بخير مما فعل. وإن أن من عادتي أن أستعين بهذه القصة لأوضح بها عامل التأثير البعدي[224] في ميكانيكية الأعصبة. كانت إحدى الآلهات . إذن . تفرك يديها كأنها تصنع فطيراً: إنها لمَشْغلة عجيبة بالقياس إلى إحدى آلهات القدر[225]، ولا بد لها من إيضاح عاجل! إن هذا الإيضاح تحمله ذكرى أخرى، أقدم عهداً، من ذكريات طفولتي: فقد كان المفروض . وأنا طفل في

السادسة أتلقى من أمي أول دروسي . هو أن أصدق أننا جُعلنا من طين وأننا . إذن . إلى الطين نعود، ولكن النظرية لم ترقني وارتبت في أمرها، وحينئذ فركت أمي كفيها . مثلما تفعل حين تصنع الفطير سوى أنه لم يكن عجين بين يديها . ثم أرتني ما انفرك من القشور الصغيرة السوداء لطبقة الجلد الخارجية، برهاناً على الطين الذي صُنعنا منه. لقد كان دهشي لهذا البرهان العياني لا يعرف حداً، وكان أني أسلمت نفسي لما سمعته من بعد يؤدى في تلك العبارة: إن عليك للطبيعة ميتة[226]. وهكذا فآلهات القدر هنَّ حقاً من أجد حين أذهب إلى المطبخ، مثلما كنت أفعل كثيراً في طفولتي حين كنت أحس الجوع، وكانت أمي تأمرني . وهي بجانب النار . بأن أنتظر حتى يعد الغذاء. . والآن إلى الفطير [بالألمانية كنودل]! إن بين من علموني في الجامعة معلماً واحداً على الأقل . وهو على التحقيق من أدين له بمعرفتي في علم الأنسجة (الطبقة الخارجية للجلد) . سوف يذكره اسم كنودل [من حيث هو اسم علم] بشخص اضطر معلمي إلى مقاضاته لأنه نقل كتاباته. وأن يرتكب المرء مثل هذا النقل [بلاجيات] ، وأن يستحل لنفسه كل ما صادفه وإن كان ملكاً للغير . ذلك ما ينتقل بنا، كما هو ظاهر، إلى الجزء الثاني من الحلم الذي أعامل فيه مثلما عومل سارق المعاطف الذي زاول حرفته حيناً في قاعات محاضراتنا. ولقد استخدمت كلمة «بلاجيات» [نقل أو سرقة أدبية] عن غير قصد لا لشيء سوى أنها خطرت لي، ولكني ألحظ الآن أن من الممكن أن تكون هذه الكلمة قد استخدمت جسراً [بروكه بالألمانية، وهو أيضاً اسم أحد أساتذة فرويد] يصل بين الأجزاء المختلفة لمحتوى الحلم الظاهر. فسلسلة المستدعيات: بيلاجي . بلاجيات . بلاجيوستوم[227] (أي سمك القرش) . مئانة السباحة عند السمك[228]، قد وصلت الرواية التي قرأتها قديماً بحادثة كنودل وبالمعاطف التي تشير من غير خفاء إلى عدة لها وجه استخدامها الجنسي [ارجع إلى ص 229]. (أنظر حلم موري [عن السلسلة الجناسية]: كيلو . لوتو، في ص 106). وذلك على التأكيد رباط قد بلغ الغاية من الافتعال ومن اللامعقولية، ولكنني ما كنت قط لأجد القدرة على اختراعه، لو لم يكن قد أنشيء من قبل في خلال عمل الحلم. لا، بل لكأن هذا الدافع القهري إلى فرض الروابط لا يعرف لشيء حرمته: فها هو ذلك الاسم الموقَّر، اسم بروكه (أنظر الجسر اللفظي فيما سبق) يستغل في تذكيري بالمعهد الذي قضيت به أسعد أيام حياتي، طالباً خلت نفسه من كل حاجة سوى الدرس («وهكذا أنت على صدر الحكمة، سوف تجد في كل يوم لذة»)[229] . بما يباين كل المباينة تلك الرغبات التي تعذبني [في الألمانية: بلاجن] وأنا نائم. وتنبثق أخيراً ذكرى معلم آخر أُكْبِرُهُ، كان اسمه . فلايشل[230] [فلايش = لحم] . يجانس أيضاً اسم غذاء (مثل كنودل)، ثم ذكرى حادثة فاجعة تدخل فيها قشور الطبقة الخارجية للجلد (الأم المضيفة) والاضطراب العقلي (الرواية) ودواء من أدوية العطارة [الترجمة الحرفية هي: من المطبخ اللاتيني] يسكّن الجوع . وهو الكوكايين.

لقد كان يسعني أن أتابع خيوط الفكر المتشابكة على هذا النحو، وأن ألقي الضوء كاملاً على هذا الجزء من الحلم الذي لا يزال ينقصنا تحليله. ولكني لا أجد بداً من التخلي عن هذا العمل لما يقتضيه من تضحية شخصية فادحة. وإنما أكتفي بأن أقبض على خيط واحد من بين الخيوط التي تقودنا إلى أفكار الحلم الكامنة وراء هذا الخليط: إن الرجل الغريب ذا الوجه المستطيل واللحية المدببة، والذي يمنعني من ارتداء المعطف . يحمل ملامح تاجر في سپالاتو اشترت منه زوجي كثيراً من الأقمشة التركية. وكان الرجل يدعى پوپوفيتش[231] . وهو اسم مريب، عقَّب عليه من قبل أحد الكتاب الفكاهيين، هو شتيتنهايم، بملاحظة غامزة إذ قال: وذكر لي اسمه ثم ضغط يدي وقد احمرَّ وجهه خجلاً. ولكن هأنذا أراني من جديد إزاء ذلك اللعب بالأسماء الذي رأيناه من قبل في پيلاجي و كنودل و بروكه و فلايشل. وما من أحد يجادل في أن مثل هذا اللعب ضرب من الخبث الطفلي. فإذا كنت أمعن فيه، فذلك قصاص لنفسي؛ فقد اتفق في مناسبات لا تحصى أن كان اسمي أيضاً ضحية لأمثال هذه المحاولات السهلة في الفكاهة[232]. وقد لاحظ جوته مدى حساسيتنا فيما يتصل بأسمائنا التي نحس أننا قد نمونا معها نموّنا في جلدنا ، وكانت تلك الملاحظة حين نظم هردر في اسم جوته قوله:

«أنت يا سليل الآلهة أو الغوط أو الطين» .

«هكذا باتت صوركم الإل~هية تراباً»[233]

إني ألحظ أن هذا الاستطراد حول إساءة اللعب بالأسماء إنما قصد به إلى التمهيد لتلك الشكاة. ولكن لنقفن ههنا. . إن صفقة سپالاتو تذكرني بأخرى في كاتارو كانت يدي فيها شديدة القبض فضاعت عليَّ فرصة الظفر بشيء جميل. (فوات الفرصة على صدر المرضع، أنظر ما سبق). فبين الأفكار التي أوحاها الجوع إلى الحالم فكرة ذلك فحواها: إن من الواجب ألا يدع المرء شيئاً يفوته وأن يأخذ المرء كل ما استطاع أخذه وإن جرَّ ذلك بعض الجور، على المرء ألا يضيِّع فرصة؛ فالحياة قصيرة والموت محتوم. ولما كان هذا الدرس في «أغنم من الحاضر لذاته»[234] يرسل على إطلاقه وكانت الشهوة لن تحجم عن الجور، فقد حقَّت له خشية الرقابة وحق عليه أن يستتر بحلم. ومن ثم كان الإعراب عن أفكار مضادة من كل نوع: من ذكرى الزمن الذي كان الحالم يقنع فيه بالغذاء الروحي وحده، إلى أفكار تتصل بكل ضروب الموانع، لا، بل إلى تهديدات بألوان من العقاب الجنسي من أشد ما يكون تنفيراً.

(2) وها هو ذا حلم ثانٍ يتطلب تمهيداً طويلاً بعض الطول:

كنت قد ركبت عربة إلى محطة الغرب [في فيينا] لكي أبدأ منها رحلة الإجازة إلى آوسي. بيد أنني وصلت إلى الرصيف مبكراً وقطار إشل الذي

يرحل قبل قطار آوسي لا يزال واقفاً. وهناك لمحت الكونت تون[235] في طريقه مرة أخرى إلى مقابلة الإمبراطور في إشل. جاء الكونت على رغم المطر في عربة مكشوفة، ثم مرق لا يلوي على شيء من مدخل قطر الضواحي، منحياً بإشارة مقتضبة من يده لا يصحبها أي إيضاح حارس الباب الذي لم يعرفه وأراد أن يأخذ التذكرة منه. وكان الواجب عليّ بحسب النظم أن أغادر الرصيف عائداً إلى حجرة الانتظار بعد أن رحل قطار إشل، بيد أنني استطعت ـ بعد شيء من الجهد ـ أن أحصل على إذن بالبقاء. وأخذت أقطع الوقت أترقب من ذا الذي يأتي فيحاول أن يحصل بطريق المحسوبية على مقصورة محجوزة، عاقداً العزم على أن أرفع الصوت عندئذ بالشكوى؛ أي على المطالبة بحق مماثل. وفي هذه الأثناء كنت أدندن بشيء لم ألبث أن عرفت فيه ذلك اللحن من زواج فيجارو:

إذا أراد سيدي الرقص، الرقص

فما عليه سوى الطلب،

وأنا كفيل بالعزف.

(وما أظن أن أحداً غيري كان ليعرف ماذا أغني).

لقد كنت طيلة المساء في مزاج ثائر شكس، فتهكمت بالنادل وبسائق العربة ـ دون أن أجرح شعورهما، أو هذا على الأقل ما أرجوه. وتجول الآن برأسي خواطر جريئة ثورية من كل صنف، خواطر تتفق وكلمات فيجارو وتتفق وذكرى مسرحية بومارشيه التي رأيتها تمثل في الكوميدي فرانسيز؛ كلمة فيجارو عن كبار السادة الذين كبّدوا أنفسهم عناء المجيء إلى الحياة، حق السيادة الذي يريد الكونت ألما؟ي؟ا أن يستولي باسمه على سوزانا [حبيبة فيجارو]، ثم النكات التي تجريها جرائد المعارضة الخبيثة عندنا حول اسم الكونت تون إذ تسمّيه الكونت نيختستون[236]. حقاً، لست أحسده؛ فهناك مقابلة عسيرة تنتظره مع الإمبراطور. وما الكونت «فاعل لا شيء» حقيقة إلا إياي: فأنا المسافر حراً طليقاً في إجازة. وتتلو ذلك ألوان من المشاريع السارة أدبّرها. ثم يقبل سيد كنت قد عرفته مراقباً موفداً من قبل الحكومة في امتحان كلية الطب واستحق على نشاطه في هذا المضمار أن يلقَّب بذلك اللقب اللطيف: «نَوَام الحكومة». إنه يطلب بما له من صفة رسمية نصف تذكرة بالدرجة الأولى. وأسمع أحد الموظفين يسأل موظفاً آخر: «بأي مقصورة نضع السيد صاحب نصف تذكرة الدرجة الأولى؟» ذلك أيضاً لون طريف من ألوان التفرقة؛ فأنا قد دفعت درجتي الأولى كاملةً. صحيح أنني حصلت على مقصورة كاملة، ولكنها في عربة لا دهليز لها، بحيث أظل طيلة الليل ولا مرافق في متناولي. وأشتكي إلى الموظف، فلا تثمر الشكاة شيئاً، فأثأر لنفسي بأن أقترح عليه أن يصنع على الأقل ثقباً بأرض تلك المقصورة؛ فقد يحتاج إليه المسافرون. ثم في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين من الصباح، أستيقظ حقيقة ـ وبي حاجة ملحة إلى التبوُّل ـ من الحلم الآتي:

حشد من الناس، اجتماع طلبة. ـ يخطب في الجمع كونت (اسمه تون أو تافه)[237]. يتحدَّاه البعض أن يقول شيئاً عن الألمان، فيجيب بحركة تنم عن الازدراء: إن زهرتهم المفضلة هي حشيشة السعال، ثم يثبِّت في عروته شيئاً أشبه بورقة ممزقة من أوراق الشجر ـ أو على الأصح هيكلها الجعد. أهب ثائراً، وأهب ثائراً[238] بيد أنني أعجب مع ذلك لانفعالي هذا. ثم في وضوح أقل: المكان أشبه بقاعة الاحتفالات الكبرى في الجامعة [Aula]. الأبواب محاصرة ولا بد من الفرار. أشق طريقي في سلسلة من الغرف فرشت فرشاً جميلاً، كان جلياً أنها حجرات رسمية، نجد أثاثها بلون متوسط بين البني والبنفسجي. وأخيراً أبلغ بهواً جلست فيه خادم ـ امرأة عجوز بدينة. أتجنب التحدث إليها، ولكن كان من الواضح أنها كانت تحسب أن لي حقاً في المرور من هناك؛ لأنها تسألني: هل ترافقني بالمصباح؟ أُفهمها أو أقول لها: إن عليها أن تلزم السلم، ويُهيأ إليَّ في أثناء ذلك أنني شديد المهارة، إذ نجحت في أن أفلت في النهاية من التفتيش وهكذا بلغت أسفل السلم، فأرى أمامي طريقاً ضيقة شديدة الصعود، أمضي فيها.

وفي غير وضوح كذلك: ... كأنما مشكلتي الثانية هي الفرار من المدينة كما فررت قبل ذلك من المنزل. أركب عربة وأطلب من السائق أن يذهب بي إلى إحدى محطات السكة الحديدية. أقول للسائق وقد أثار اعتراضاً ما كأن أكون كلفته ما لا يطيق: «إنني لا أستطيع أن أركب معك مسافة الخط الحديدي نفسه». لكأنما كنت في أثناء ذلك قد ركبت معه بالفعل جزءاً من المسافة التي يركبها المرء عادة بالقطار. المحطات محاصرة، وأنا أفاضل بين الذهاب إلى كرمس أو إلى تسنايم. بيد أنني أفكر في أن البلاط ربما كان مقيماً هنالك؛ فأعقد العزم على الذهاب إلى جراتس أو إلى مكان يشبهها. أجلس الآن في عربة قطار أشبه بعربة من عربات خط الضواحي، وفي عروتي شيء غريب الشكل، مضفر، مستطيل، علته أزهار بنفسج ذات لون بنفسجي بني، صُنعت من قماش خشن، ويعجب الناس لذلك كثيراً. وهنا ينقطع المشهد.

أراني أمام المحطة مرة أخرى، بيد أنني في صحبة سيد هرم. أفكر في خطة تمكنني من البقاء مجهول الشخصية، ولكنني أجد الخطة قد تحققت بالفعل: كأنما كان التفكير والخبرة الفعلية شيئاً واحداً. يبدو ذلك السيد فاقد البصر أو على الأقل أعور، أمد له مبوَلة زجاج للرجال (كان علينا أن نشتريها من المدينة أو أننا اشتريناها فعلاً) أنا إذن ممرِّض ومن واجبي أن أمد له المبولة لأنه أعمى. لو أن المفتش رآنا بتلك الحال لتغاضى من غير شك عنا. هنا يظهر للعيان في صورة تامة الشكل وضع الرجل وعضوه المتبوَّل. وفي هذا الموضع كان أني استيقظت وبي حاجة إلى التبوُّل.

إن هذا الحلم في جملته يلوح تخييلاً يحمل الحالم إلى ثورة عام 1848 التي جدد ذكراها يوبيل [الإمبراطور فرانسيس جوزيف] عام 1898، كما جددتها ذكرى رحلة قصيرة إلى فاشاو ، زرت في أثنائها إمرسدورف[239] حيث مثوى زعيم حركات الطلبة فيشهوف الذي ربما كان في بعض عناصر الحلم ما يومىء إليه. وتذهب بي المستدعيات بعد ذلك إلى إنجلترا، إلى منزل أخي الذي دأب على أن يمازح زوجه بأن يردد على مسمعها تلك الكلمات المقتبسة من عنوان لإحدى قصائد اللورد تنيسون: «منذ خمسين عاماً مضت»[240] فيصححها الأطفال قائلين: منذ خمسة عشر عاماً. بيد أن هذا التخييل الذي تفرّع عن الخواطر التي أثارتها في نفسي رؤية الكونت تون يخلو . مثل واجهة كنيسة إيطالية . من كل رابطة عضوية تجمع بينه وبين البناء الذي من خلفه، وإن كان يختلف بعد ذلك من مثل تلك الواجهة في أنه مليء بالثغرات، مشوَّش، وفي أن بعض الأجزاء الداخلية قد برزت في كثير من المواضع. فالموقف الأول من الحلم خليط من مشاهد متعددة أستطيع أن أفرّق بينها. فالهيئة المتعاظمة التي اتخذها الكونت في الحلم تنسخ مشهداً وقع في المدرسة الثانوية، كنت حينه في الخامسة عشرة من عمري: فقد كنا تآمرنا على معلم مكروه جاهل، وكان الروح المحرك للمؤامرة رفيقاً تدل الدلائل على أنه . منذ ذلك الحين قد اتخذ من هنري الثامن ملك إنجلترا مثالاً يحتذى. وكانت قيادة الضربة القاضية قد وكِّلت إليّ. وكانت العلامة المؤذنة بالثورة المكشوفة هي أن نفتتح نقاشاً في أهمية الدانوب بالنسبة إلى النمسا (أنظر فاشاو)[241]. وكان في زمرة المتآمرين الرفيق الوحيد الأرستوقراطي الأصل بيننا، وكنا نسمّيه «الزرافة» لما كان بأطرافه من طول مفرط. وأذكر أنه حين أخذ يناقشه الحساب طاغية المدرسة . وأعني به أستاذ اللغة الألمانية . قد وقف بمثل وقفة الكونت في الحلم. وأما الزهرة المفضلة ووضعي في العروة شيئاً لا بد من أن يكون أيضاً زهرة (وهو ما يجعلني أفكر في سحالب كنت أحضرتها في ذلك اليوم إلى صديقة لي، وأفكر فوق ذلك في وردة من ورد أريحا)[242] فيذكِّراني تذكيراً عجيباً بالمشهد الذي يصور في إحدى روايات شكسبير التاريخية[243] ابتداء حروب الوردتين الحمراء والبيضاء . وورود ذكر هنري الثامن قد مهَّد السبيل لهذه الذكرى. والمسافة بعد ذلك غير بعيدة من الورد إلى القرنفل الأحمر والأبيض. (وفي هذه الأثناء يتسرب إلى التحليل سطران من الشعر أولهما ألماني وثانيهما إسباني: ورد خزامى أو قرنفل، كل الأزهار تذبل. . إيزابليتا لا تبك، فالأزهار من بكائك تذوي)[244]. والبيت الإسباني يرجع بي إلى «فيجارو» والقرنفل الأبيض قد صار عندنا، في فيينا، شارة أعداء الساميين بينما الأحمر شارة الاشتراكيين الديموقراطيين. ومن وراء ذلك تكمن ذكرى حادثة من حوادث استفزاز الساميين وقعت في خلال رحلة بالسكة الحديدية في ريف ساكس الجميل (أنظر آنجلو ساكسون). وأما المشهد الثالث الذي شارك في تكوين الموقف الأول من الحلم فيرجع إلى السنين الأولى من حياتي المدرسية: فقد جرت في ندوة للطلبة الألمان مناقشة في علاقة الفلسفة بالعلوم الطبيعية، فاندفعت . وأنا لا أزال فتًى غضاً ملأت رأسه النظريات المادية . أذود عن وجهة نظر متطرفة لا مهادنة فيها. وهنا نهض زميل يكبرني سناً وعقلاً، أبدى منذ ذلك الحين قدرته على توجيه الرجال وتنظيم الجماعات وكان بعد يحمل اسماً من المملكة الحيوانية[245]، نهض فألقمنا حجراً: فهو أيضاً قد رعى الخنازير في صباه ثم رجع تائباً إلى بيت أبيه[246]. وعندئذ هببت ثائراً (كما في الحلم) وأجبته، في غلظة الخنزير[247]: أنني وقد علمت أنه قد رعى الخنازير يوماً، لا أعود أدهش للهجة خطابه. (في الحلم أدهش للموقف الوطني الألماني الذي اتخذته). وهنا عمّ الصخب، وارتفعت الأصوات من جوانب متعددة تطالبني بأن أسحب كلمتي، ولكنني ثبتُّ على موقفي. وكان الزميل المهان أعقل من أن يرى في تلك البادرة تحدياً موجهاً إليه، فترك المسألة تهدأ من تلقاء نفسها.

وأما العناصر المتبقية من هذا الموقف الأول في الحلم فتنبعث من طبقات أعمق. فما معنى أن يعلن الكونت عن «حشيشة السعال» ما أعلنه؟ لا مناص لي هنا من أن أسأل مستدعياتي، فأجد: حشيشة السعال [والترجمة الحرفية لاسمها الألماني هي: خس الحافر] . خس . سلطة . كلب السلطة[248] إننا نجد هنا ذخيرة من أسماء الشتائم: زَرَ . افه [«آفه» بالألمانية معناه القرد]، خنزير، كلب . وكان يسعني لو قد عرَّجت على اسم آخر أن أتوصل إلى حمار، وأن أجرح بذلك مدرِّساً جامعياً آخر. وأنا . عدا ذلك . أترجم حشيشة السعال إلى الفرنسية . ولست أدري هل الترجمة صحيحة أم لا . بكلمة[249] « pisse-en-lit ». ولقد استنتجت ذلك من رواية زولا «جرمينال» ففيها نرى الأطفال يكلِّفون بجمع هذا النبات لأجل السلطة. والكلب ينطوي اسمه الفرنسي . chien . على جناس مع اللفظ الدال على الوظيفة العضوية الكبرى Chier [تبرُّز] مثل pisser بالنسبة إلى الوظيفة الأصغر). ولا يلبث أن تجتمع لنا القذارة في كل حالاتها المادية [الصلبة والسائلة والغازية]: فإن تلك الرواية عينها «جرمينال» . وهي تدور إلى مدى كبير حول الثورة القادمة . قد اشتملت على وصف منافسة فريدة في نوعها حول إنتاج مستخرج غازي اسمه فلاتوس[250] [نفس أو ريح]. ولا يسعني الآن إلا أن ألحظ كيف مُهِّدت الطريق المؤدية إلى «فلاتوس» هذا منذ أمد طويل: من الأزهار عبر البيت الإسباني إلى إيزابليتا ، إلى إيزابيلا و فرديناد ثم عبر هنري الثامن إلى التاريخ الإنجليزي وقت حملة الأرمادا [التي شنَّها الأسبان] على إنجلترا، وهي الحملة التي صكَّ الإنجليز بعدها «ميداليا» حفروا عليها تلك الكلمات: «ونفخ، فتبعثروا»[251]؛ لأن الريح قد بعثرت شمل الأسطول الإسباني[252]. ولكن تلك كلمات كنت قد فكَّرت نصف مازح في أن أتخذها عنواناً لفصلٍ عن «العلاج»، لو قد بلغت يوماً إلى أن أكتب شرحاً مفصلاً لنظريتي في الهستيريا وعلاجها.

وأما المشهد الثاني من الحلم فلست أستطيع الخوض فيه بمثل هذا التفصيل، حاسباً للرقابة حسابها. فأنا أضع نفسي هنا في مكان سيد رفيع المقام من رجال ذلك العهد الثوري، كانت له أيضاً مغامرة مع نسر [آدلر] ، وقيل إنه كان يعاني فقدان القدرة على ضبط الأمعاء... إلخ، وأعتقد أنني لا أكون محقاً في تجاوز الرقابة هنا ، وإن يكن الجانب الأكبر من تلك القصة قد رواه لي مستشار بالبلاط(Aula, conciliarius aulicus) [253]

). وأما سلسلة الحجرات فمشتقة من عربة القطار الخاصة بصاحب السمو والتي كنت أفلحت في أن ألقي نظرة عليها. ولكن الحجرات [Zimmer] . كما هو الحال غالباً في الأحلام . تعني أيضاً النساء [Frauenzimmer][254] . و«نساء مشاعة» في هذا المثال. وأما شخص الخادم فيومىء إلى سيدة عجوز بارعة النكتة إيماء أجزيها به سوءاً على حسن ترحيبها وعلى القصص العديدة الطيبة التي كانت تغدق بها عليّ في منزلها. . وأما الإشارة إلى المصباح فترجع إلى جريلپارتسر[255] الذي دوَّن حادثة ظريفة من نوع مماثل كانت قد وقعت له حقيقة، ثم أدرجها بعد ذلك في مأساته «هيرو وليياندر»[256] (أمواج البحر والحب . الأرمادا و العاصفة)[257].

ولست أجد كذلك بداً من أن أمسك عن التحليل المفصل للجزئين الباقيين من هذا الحلم[258]. وأكتفي بأن ألتقط تلك العناصر التي تقودنا إلى مشهدَي الطفولة اللذين ما أخذت في مناقشة هذا الحلم على الإطلاق إلا من أجلهما. وسنحذر بحق أن هذا التكتم قد ألجأت إليه مادة جنسية، ولكننا لا نحتاج إلى أن نقف عند هذا التعليل قانعين؛ فكثيرة هي الأمور التي يصارح بها المرء نفسه وإن واراها عن غيره اضطراراً. ثم إن المسألة لا تتعلق ههنا بالأسباب التي تحملني على أن أخفي الحل، بل بدوافع الرقابة الباطنة التي أخفت المحتوى الصحيح للحلم عني نفسي. وعلى ذلك لا أجد مناصاً من أن أقول: إن التحليل قد بيّن أن هذه الأجزاء الثلاثة [الأخيرة، بعد الجزء الخاص باجتماع الطلبة والكونت الخطيب] إنما هي مباهاة سليطة، دفقة من جنون باطل بالعظمة كبحت جماحه في حياتي المستيقظة زمناً طويلاً، واقتحمت بعض شعابه محتوى الحلم الظاهر نفسه (هيىء إليّ أنني كثير الدهاء) ، ثم هو يجعلنا من غير شك نفهم أحسن الفهم ذلك المزاج الفائر المتعاظم الذي كنت فيه في المساء الذي سبق الحلم. وقد شملت المباهاة جميع الميادين؛ فذكر [مدينة] جراتس . مثلاً . كان يرجع إلى تلك الجملة العامية: «ما ثمن جراتس؟» . وهي الجملة التي يعرب بها المرء عن اغتباطه إذ يشعر بوفرة المال. وكل من يذكر وصف رابليه المنقطع النظير في حياة جارجانتوا وابنه بانتاجرويل[259] وأعمالهما سوف يدرج تحت باب المفاخرة ما ألمحت إليه الفقرة الأولى من الحلم كذلك. ولكن ها هي ذي تلك المادة التي ينتسب إليها مشهدا الطفولة اللذان وعدت بهما: كنت قد اشتريت من أجل تلك الرحلة حقيبة جديدة ، ظهر لونها . وكان بنياً بنفسجياً . مرات متعددة في الحلم (أزهار البنفسج ذات اللون البني البنفسجي، المصنوعة من قماش خشن، بجانب شيء يسمَّى «مصيدة بنات»[260]، ثم أثاث الحجرات الرسمية). ونحن نعلم أن الأطفال يعتقدون أن كل جديد يجذب الأنظار. ولقد قص عليَّ هذا المشهد من مشاهد طفولتي الذي حلَّت روايته في ذاكرتي محل ذكراه، قيل: إنني وأنا في الثانية من عمري كنت لا أزال أبلل فراشي بين الحين والحين، وكنت إذا قرعني والدي على ذلك عزيته واعداً إياه بأن أبتاع له سريراً جميلاً جديداً أحمر اللون من ن. . وهي أقرب مدينة لها بعض الحجم إلينا. ومن هنا جاءت في الحلم تلك الجملة الاعتراضية فيما يتصل بالمبولة الزجاجية؛ اشتريناها من المدينة أو كان علينا شراؤها . إذا وعد المرء فقد حقَّ عليه الوفاء. (ونلاحظ التجاور بين المبولة الزجاجية . رمز مذكر . والحقيبة أو الصندوق . رمز مؤنث [أنظر ص 199]). إن كل جنون العظمة عند الطفل متضمَّن في وعدي هذا. ولقد عرفنا من قبل ونحن نفسر حلماً سابقاً مدى ما يكون لصعاب الطفل المتصلة بالتبوُّل من خطر في الحلم [أنظر ص 242]. كما أن التحليل النفسي للعصابيين قد علَّمنا مدى الارتباط الوثيق بين بلل الفراش وبين تلك السمة من سمات الطبع التي هي الطموح[261].

ثم جاء بعد ذلك . وأنا في السابعة أو الثامنة من العمر . مشهد عائلي آخر ما زلت أذكره أبيَن الذكر: فقد تغاضيت يوماً عما ينهى عنه الاحتشام من إجابة بعض الحاجات في غرفة الوالدين وفي محضرهم، وكان أن ألقى والدي . وهو يقرعني . بتلك الملاحظة: هذا الولد لن يصير شيئاً ما. ولا بد أن هذه كانت صدمة مروِّعة لطموحي؛ فالإشارات إلى هذا المشهد لا تزال تتراءى في أحلامي من غير انقطاع، مصحوبة بتعديد ما حققته وأصبت فيه نجاحاً، كأنما أريد أن أقول: «أترى؟ لقد صرت مع ذلك شيئاً». وهذا المشهد الطفلي يزودنا الآن بالمادة التي نسجت منها صورة الحلم الأخيرة بعد أن تبودلت فيها الأدوار بدافع من الانتقام بالطبع: فالرجل العجوز . من الواضح أنه والدي؛ وما يشير العور إلا إلى الجلوكوما التي أصابت عيناً من عينيه[262] . هو الذي يتبوَّل الآن أمامي، شأني أمامه من قبل. ثم إن في الجلوكوما تذكيراً لوالدي بالكوكايين الذي أعانه على احتمال العملية التي أُجريت له [أنظر ص 214]، كأنما كنت بذلك قد حققت وعدي. وأنا بالإضافة إلى ذلك أهزأ به: فهو أعمى، وأنا لذلك مضطر إلى أن أمد له الزجاجة، ثم أسترسل في تلميحات إلى مكتشفاتي في نظرية الهستيريا التي أنا فخور بها[263].

ولكن إذا كان مشهدا التبوُّل المستمدان من طفولتي مرتبطين على أية حال بباب الجنون بالعظمة أوثق الارتباط، فقد أعان بعد ذلك على تنبيههما في خلال رحلة آوسي ما اتفق من خلو مقصورتي من المرافق ومن أنني كنت أتوقع تلك الورطة، مثلما حدث بالفعل في الصباح: فقد استيقظت إذ ذاك وأنا أشعر بحاجة عضوية. وأغلب ظني أننا قد نميل هنا إلى أن نرى في هذا الشعور العامل الذي أطلق الحلم فعلاً. ولكنني أوثر وجهة نظر أخرى، هي على التحقيق: أن الحاجة إلى التبوّل إنما بعثت عليها أفكار الحلم. فإنه لأمر غريب عليّ كل الغرابة أن تزعجني في أثناء النوم حاجة جسمية من أي نوع كانت، وبخاصة في ذلك الوقت الذي استيقظت فيه . الثانية والخامسة والأربعون. ويبقى اعتراض آخر أدفعه بأن ألاحظ أنني لم أشعر قط في رحلات أخرى تحقق لي فيها من أسباب الراحة قسط أوفر بالحاجة إلى التبوُّل بعد الاستيقاظ مبكراً. وليس يضيرني على أية حال أن أترك تلك المسألة من غير بت.

ولما كانت خبراتي في تحليل الأحلام قد جذبت انتباهي إلى أنه حتى تلك الأحلام التي يبدو تفسيرها للوهلة الأولى أمراً مفروغاً منه لأننا

اكتشفنا من غير عناء مصادرها والرغبات الحافزة إليها . تخرج منها هي الأخرى خيوط تمتد إلى أبعد عهود الطفولة، فإني لم أجد مفراً من أن أسأل: هل هذه الخاصة أيضاً شرط جوهري من شروط الحلم؟ ومعنى ذلك . إذا وضعنا القضية في صورة كلية . هو أن كل حلم يرتبط في محتواه الظاهر بخبرات حديثة العهد، لكنه . في محتواه الكامن . مرتبط بأشد الخبرات قدماً، تلك الخبرات التي تمكنت من أن أبيِّن بالفعل في تحليل الهستيريا أنها قد ظلَّت على حداثتها بالمعنى الصحيح للكلمة حتى الزمن الحاضر. بيد أن هذا الظن ما زال يبدو بحق صعب البرهان غاية الصعوبة، وسوف أعود في مناسبة أخرى (الفصل السابع [القسم ب، ص 571 . 572]) إلى مناقشة النصيب المحتمل الذي تقوم به خبرات الطفولة المبكِّرة في تكوين الحلم.

فإذا رجعنا إلى الخصائص الثلاث التي تتميز بها الذاكرة في الحلم والتي أحصيناها في مطلع هذا الفصل، وجدنا أن الواحدة . تفضيل ما هو ثانوي في محتوى الحلم . قد لقيت حلاً مرضياً بإرجاعها إلى تشويه الحلم. فأما الاثنتان الأخريان . تغليب الحديث والطفلي . فقد تأيَّد لنا وجودهما، بيد أننا لم نتمكن من استنباطهما من الدوافع المؤدية إلى فعل الحلم. فلا ننسى هاتين الخاصتين اللتين يبقى علينا تعليلهما أو تقديرهما؛ فهما . لا محالة . واجدتان مكانهما في موضع آخر: إما في سيكولوجية حالة النوم، أو عند البحث في تركيب الجهاز النفسي . وهو البحث الذي سوف نشرع فيه حين نكون تعلمنا أن تفسير الحلم أشبه بنافذة نستطيع أن نلقي منها نظرة إلى باطن هذا الجهاز [أنظر الفصل السابع].

غير أن هناك نتيجة أخرى تلزم من تحليلات الأحلام السابقة ننبِّه إليها دون إمهال، وهي: أن الحلم كثيراً ما يبدو حاصلاً على أكثر من معنى واحد. فهو كما يتبيَّن من أمثلتنا . قد لا يقتصر على أن يحقق رغبات متعددة جنباً إلى جنب بل قد يتضمن فوق ذلك جملة من المعاني أو تحقيقات الرغبات يفترش كل منها غيره حتى نعثر في القاع على تحقيق رغبة ترجع إلى أقصى عهود الطفولة. وهنا نسأل من جديد: أليس الأصدق هو أن نضع «دائماً» بدل «من الشائع» في هذه القضية؟[264].

ج
المصادر الجسمية للحلم

لو أننا أردنا أن نبعث أحد المثقفين غير المختصين على الاهتمام بمشكلات الحلم، فسألناه من أجل هذا الغرض أي المصادر تصدر عنها الأحلام في زعمه، لوجدنا في معظم الأحيان أن من نسأله يظن أنه واثق كل الثقة من امتلاكه هذا الجزء من الجواب عن السؤال: فهو يفكر لفوره في الأثر الذي يحدثه في تكوين الحلم هضم معتل أو عسير («الأحلام تأتي من المعدة» [أنظر ص 71]) أو وضع يعرض للجسم أو حدث صغير يقع أثناء النوم، وهو لا يظهر أبداً ولو ريبة في أننا إذا حسبنا لهذه العوامل جمعاء حسابها بقي بعدها شيء يقتضي مع ذلك إيضاحاً.

فأما النصيب الذي تعزوه المؤلفات العلمية إلى المصادر الجسمية للتنبيه في تكوين الحلم، فذلك ما أطلنا في تبيانه في الفصل الذي قدَّمنا به (71) بحيث لا نحتاج هنا إلى غير التذكير بنتائج ذلك البحث: لقد سمعنا أن هناك ثلاثة أنواع من المصادر الجسمية للتنبيه تنبغي التفرقة بينها: المنبهات الحسية الموضوعية الناشئة عن موضوعات خارجية، الحالات التهييجية الباطنة لأعضاء الحواس . وهذه ليس لها إلا أساس ذاتي . ثم المنبهات الجسمانية المنبعثة من باطن الجسم. ولاحظنا بالإضافة إلى ذلك نزوع المؤلفين إلى أن يهوِّنوا من قيمة كل مصدر نفسي للحلم بجانب هذه المنبهات الجسمية، أو إلى أن يستبعدوه جملة (ص 99). فلما فحصنا ما يدَّعى لهذه المنبهات الجسمية من شأن، انتهينا إلى أن قيمة المنبهات الموضوعية لأعضاء الحس . وبعضها عارض في أثناء النوم وبعضها يستحيل تجنيب النفس إياه ولو كانت نائمة . أمر تثبته الملاحظات المتعددة ويؤيده التجريب (ص 73)، وأما نصيب التهييجات الحسية الذاتية فيثبته . فيما يبدو . رجوع الصور الحسيّة قبل النومية في الأحلام (ص 79)، وأخيراً فإن ما يقال على إطلاقه من رجوع صور الحلم وأفكاره إلى منبهات جسمية باطنية أمر يستحيل قطعاً إثباته في كل مداه، ولكنه قد يجد مع ذلك سنداً فيما هو معروف من تأثير حالات التهييج الذي يصيب أعضاء الهضم والتبوُّل والإنسال في أحلامنا (ص 85).

وهكذا يكون «التنبيه العصبي» و «التنبيه الجسماني» هما المصدران الجسميان للحلم، أي . في رأي كثير من الكتاب مصدراه الوحيدان على الإطلاق.

غير أننا قد سمعنا أيضاً أصواتاً تعرب عن عدد من الشكوك، وإن كان من الحق أن هذه الشكوك لا تبدو موجهة إلى صحة نظرية التنبيه الجسمي، بل إلى كفايتها.

فمهما كان من ثقة المنتصرين لهذه النظرية من ناحية أسسها الواقعية . وعلى الأخص فيما يتعلق بالمنبهات العصبية الخارجية العارضة التي يسهل قفوها في محتوى الحلم دون ما عناء . فما غاب عن أحدهم أن في الأحلام من ثراء المحتوى الفكري ما يستحيل تفريعه من المنبهات العصبية الخارجية وحدها. ولقد مكثت الآنسة ماري هوايتون كالكنيز ستة أسابيع تبحث من هذه الوجهة أحلامها وأحلام شخص آخر، فلم تجد على الترتيب سوى 13.2 و6.7 من المائة حلماً أمكن فيها الاهتداء إلى عنصر الإدراك الحسي الخارجي، ولم يكن في المجموعة كلها سوى حلمين أمكن إرجاعهما إلى إحساسات عضوية. فالإحصاء يؤيد هنا ما قد خمنته من نظرة عاجلة إلى خبراتي الخاصة.

وكثيراً ما يرتأي البعض أن نفصل أحلام «التنبيه العصبي» . باعتبارها نوعاً سافلاً من الأحلام تمَّت دراسته دراسة وافية . من سائر أشكال الحلم. ومثال ذلك شيبتا إذ يقسم الأحلام قسمين: أحلام تنبيه عصبي وأحلام تداع. بيد أن من الواضح أن ذلك سوف يظل حلاً غير مرض، ما دمنا لا نفلح في تبيان الرباط بين المصادر الجسمية للحلم وبين محتواه الفكري.

وهكذا ينهض إلى جانب الاعتراض الأول: أن المصادر الخارجية للتنبيه ليست كثيرة الوقوع الكثرة الكافية . ينهض اعتراض ثانٍ: أن تعليل الأحلام التي تأتي بوساطة مثل هذه المصادر ليس بالتعليل الكافي. ذلك لأن أنصار هذه النظرية مدينون لنا بإيضاحين: الأول: لمَ كان المنبه الخارجي لا يُعْرَف في الحلم على طبيعته الحقة، بل يعرف دائماً معرفة خاطئة (أنظر أحلام جرس المنبه في ص 76)؟ والثاني هو: لمَ كانت استجابة النفس النائمة لهذا المنبه الذي يعرف معرفة خاطئة تتنوَّع كل هذا التنوع الذي لا ضابط له؟ لقد سمعنا شترومپل يقول في الإجابة عن هذا السؤال: إن النفس وقد انصرفت في أثناء النوم عن العالم الخارجي لم تعد قادرة على أن تفسِّر المنبهات الموضوعية الحسية تفسيراً صحيحاً، بل هي مضطرة إلى أن تشيد أوهاماً حسية على ما يصل إليها من تنبيه مبهم في كثير من نواحيه، أو بعبارته هو (1877، 108):

«إنه ما أن يُستثار في النفس النائمة . نتيجة لمنبِّه عصبي خارجي أو باطني . إحساس أو مركب من الإحساسات أو انفعال أو أية عملية نفسية بوجه عام، وما أن تدرك العملية المستثارة على هذا النحو بوساطة النفس . حتى تستدعي العملية صوراً حسية تستمد من نطاق خبرات

اليقظة المتخلفة في النفس، أي مدركات سابقة، تجيء إما مجرَّدة من قيمتها النفسية التابعة لها وإما مصحوبة بها. وهكذا تحيط العملية نفسها بعدد يزيد أو ينقص من أمثال تلك الصور التي من طريقها يكتسب الانطباع الناشىء عن المنبه العصبي قيمته النفسية. ونحن نقول هنا (مثلما اعتدنا أن نفعل فيما يتصل بسلوك اليقظة) إن النفس تفسِّر الانطباعات الناجمة عن المنبه العصبي. ونتيجة هذا التفسير هي ما نسميه حلم تنبيه عصبي ، أي حلماً تحتَّمت مقوماته بوساطة منبه عصبي، أحدث أثره النفسي في النفس النائمة وفقاً لقوانين الاستحضار».

ويطابق تلك النظرية مطابقة جوهرية قول ؟ونت: إن أفكار الحلم يصدر الجزء الأعظم منها على الأقل عن منبهات حسية ومنبهات الحساسية العامة بالجسم بنوع خاص، ولهذا كان معظمها أوهاماً تخيُّلية ولم تكن إلا إلى حد ضئيل في الراجح ذكريات خالصة اشتدت إلى درجة الهلاوس. ولقد عثر شترومپل على تشبيه موفق للعلاقة التي تخلص من هذه النظرية بين محتوى الحلم ومنبهاته، وذلك إذ يقول: «إن الأمر يبدو كأن رجلاً لا يملك أقل معرفة بالموسيقى قد أجال أصابعه العشرة على مفاتيح المعزف». وهكذا لا يكون الحلم بحسب تلك النظرة ظاهرة نفسية تقوم على دوافع نفسية، بل نتيجة لتنبيه فيزيولوجي أعربت عنه أعراض نفسية؛ لأن الجهاز الذي أصابه المنبه لا يملك أية صورة أخرى من صور التعبير. وعلى مسلمة مماثلة يقوم ـ مثلاً ـ التشبيه الذائع الذي أراد ماينيرت أن يعلل الأفكار القهرية بوساطته: ميناء الساعة تبرز عليها بعض الأرقام لأنها قد زيدت تحديباً.

غير أنه مهما كان التحبيذ الذي صارت تنعم به نظرية التنبيه الجسماني ومهما بدا من جذبها، فمن الهيِّن كذلك أن نبيِّن موطن الضعف فيها. فكل منبه من منبهات الحلم الجسمية التي تحث الجهاز النفسي النائم على تفسيرها بتشييد الأوهام يستطيع أن يطلق عدداً لا يحصى من أمثال هذه المحاولات التفسيرية، وأن ينتهي بذلك إلى أن تمثله في الحلم أفكار لا حصر لها[265]. ولكن نظرية شترومپل و؟ونت تعجز عن أن ترينا أي دافع يضبط العلاقة بين المنبه الخارجي وبين فكرة الحلم المختارة لتفسيره، أي عن أن تعلل «هذا الاختيار العجيب» الذي كثيراً ما تبديه المنبهات «في خلال نشاطها المنتج» (ليپس، 1883، ص 170). ثم هناك اعتراض آخر يمتد إلى المسلَّمة التي تنبني عليها نظرية الوهم بأسرها، وهي المسلمة القائلة بأن النفس حين تنام تفقد القدرة على تعرُّف الطبيعة الحقيقية للمنبهات الموضوعية الحسية: فقد بيّن الفيزيولوجي بورداخ منذ زمن طويل أن النفس تملك في النوم كذلك قدرة تامة على أن تفسر ما يصل إليها من الانطباعات الحسية تفسيراً صحيحاً، وعلى أن تستجيب بما يتفق وهذا التفسير الصحيح، وذلك حين ذكر بأن في وسع الإنسان أن يستثني من الإهمال الذي يشمل الانطباعات الحسية عند النوم تلك الانطباعات التي تبدو له ذات بال (المرضع والطفل)، وأن استيقاظ المرء على صوت اسمه أوثق كثيراً من استيقاظه على انطباع سمعي آخر لا يهمه في شيء وكل هذا يتضمن من غير شك أن النفس تفرِّق في النوم كذلك بين الإحساسات (الفصل الأول، ص 100). ويخلص بورداخ من هذه الملاحظات إلى أن ما ينبغي افتراضه في خلال حالة النوم ليس العجز عن تفسير المنبهات تفسيراً صحيحاً، بل نقص الاهتمام بها. وهذه الحجج التي استخدمها بورداخ عام 1830 تعود هي هي عام 1883 عند ليپس في نقده لنظرية التنبيه الجسماني. وهكذا تبدو النفس مثلها مثل الحالم الذي تحكي عنه الحكاية؛ فقد سأله سائل: «هل أنت نائم؟» فأجابه: «كلا»، فلما أثنى السائل: «إذن أقرضني عشرة ريالات» تعلَّل قائلاً: «إنني نائم».

ومن الممكن أن نثبت عدم كفاية نظرية التنبيه الجسمي بطرق أخرى. فالملاحظة تظهِر أن المنبهات الخارجية لا تدفعني إلى الحلم دفعاً وإن كانت هذه المنبهات تظهر في الحلم بمجرد ما أحلم وإذا ما حلمت. ودعنا نفترض أن منبهاً من المنبهات، بضغط أو بلمس، قد عرض لي في أثناء النوم: إن في متناولي أن أستجيب له باستجابات مختلفة: فأنا أستطيع أن أغض الطرف عنه لكي أكتشف حين أستيقظ أن ساقاً من ساقَي قد تعرت أو أن ساعداً قد ضغط ـ وفي علم الأمراض شواهد موفورة على أن منبهات حسية أو حركية شديدة التهييج، مختلفة النوع قد تلبث دون أن تحدث أثراً في خلال النوم. ثم أنا قد أستشعر هذا الإحساس وأنا نائم، أستشعره «من خلال» النوم، كما نقول، (وتلك هي القاعدة في حالة المنبهات المؤلمة) ولكن دون أن أنسج من الألم حلماً. وفي استطاعتي ـ ثالثاً ـ أن أستجيب لهذا المنبه بالاستيقاظ لكي أتخلص منه[266]. وأما أن يسوقني المنبه العصبي إلى الحلم ـ فإن هذا إلا احتمال رابع، يقع، ولكن الاحتمالات الأخرى تقع أيضاً بمثل كثرته على الأقل. وما كان ذلك ليكون لولا أن الدافع إلى الحلم يكمن خارج المصادر الجسمية للحلم.

وقدَّر بعض الكتاب ـ وأعني به شرنر والفيلسوف فولكلت الذي تابعه ـ قدَّروا شأن تلك الثغرات التي عينت عليها الآن في تعليل الحلم بوساطة المنبهات الجسمية تقديراً صائباً، فحاولوا أن يعرفوا بمزيد من الدقة ما هي أوجه النشاط النفسي التي تؤدي إلى نشوء صور الحلم المتقلبة من المنبهات الجسمية، أي أن يعودوا بماهية الحلم فيقيموها من جديد في النفس وفي نشاطها. فشرنر لم يكفه أن يترك لنا وصفاً يزخر بالإحساس الشاعري ويفيض حياة للخصائص النفسية المتجلية في تكوين الحلم، بل هو قد اعتقد فوق ذلك أنه اكتشف المبدأ الذي تسلك النفس بمقتضاه حيال المنبهات التي تعرض لها، وهذا المبدأ هو: إن عمل الحلم ـ وقد أطلقت المخيلة فيه من قيود النهار ـ ينزع إلى تصوير العضو الذي ينبعث منه المنبه وكذلك طبيعة هذا المنبه تصويراً رمزياً. وهكذا يخرج لنا ما يشبه أن يكون كتاباً من كتب الأحلام، مرشداً إلى تفسيرها، به يتسنى لنا أن نستدل من صور الحلم على أحاسيس الجسم وحالة الأعضاء وطبيعة المنبهات. «فصورة القط تعرب عن مزاج مستاء غضوب، بينما تعرب صورة الخبز الأملس الفاتح اللون عن عري الجسم. والجسم الإنساني في مجموعه تصوِّره مخيلة الحلم في صورة منزل وتصوِّر كل عضو منه بجزء من أجزاء المنزل. وفي (الأحلام ذات المنبه السني) يقوم بهو مرتفع السقف مقوَّسه مقام الفاه، ويقوم سلم مقام الطريق النازل من الحلق إلى البلعوم. وأما (أحلام

الصداع) ففيها يصوَّر أعلى الرأس سقف غطته عناكب شبيهة بالضفادع السامة، تبعث أشكالها على الغثيان» (فولكلت، 1875، 39). «وينوِّع الحلم فيختار من هذه الرموز العدد الكبير للدلالة به على ذات العضو؛ فالرئتان وهما تتنفسان قد تجدان رمزهما في موقد استعر لهبه وصار له حفيف، بينما يجده القلب في صناديق أو سلال خاوية، وتجده الكلية في موضوعات مستطيلة تشبه الأكياس أو مجوَّفة وحسب بوجه عام. والمهم بنوع خاص هو أن العضو الذي أثار الحلم ـ أو وظيفة هذا العضو ـ كثيراً ما يتكشف في ختام الحلم صراحة، ويتكشف في معظم الأحيان في جسم الحالم نفسه، وهكذا ينتهي عادةً الحلم الناجم عن منبه سني بأن يرى الحالم نفسه وهو يخلع سناً من فيه» (ص 35). ولا يستطيع المرء أن يقول: إن هذه النظرية قد لاقت من المؤلفين ترحيباً كثيراً. فالغرابة أظهر ما فيها، حتى أن الكتّاب ترددوا في أن يسلموا لها ولو بهذا القسط من الوجاهة الذي نرى أنه حق لها. فهي تؤدي ـ كما نرى ـ إلى أن يُبعث من جديد تفسير الأحلام بوساطة الرموز ـ وهو المنهج الذي اتبعه القدماء ـ سوى أن النطاق الذي تؤخذ منه التفسيرات قد حدَّ بحدود الجسم الإنساني نفسه. ثم إن خلو نظرية شرنر من كل نهج في التفسير نستطيع تعقُّله بأسلوب علمي قد ضيَّق من غير شك إمكان تطبيقها تطبيقاً عظيماً. وأما الاسترسال مع الهوى في تفسير الحلم فلا يبدو أن تلك النظرية تمنعه بحال من الأحوال، وبخاصة أن من الجائز ـ هنا أيضاً ـ أن يظهر المنبه الواحد في محتوى الحلم بصور شتى، وهكذا عجز أيضاً تلميذ شرنر، فولكلت، عن أن يؤيد ظهور الجسم في صورة المنزل. واعتراض آخر لا بد منه، وأعني به أن النفس تودع مرة أخرى القدرة على الحلم وكأنها أودعت شيئاً لا نفع منه ولا غاية له؛ فالنفس تقنع في تلك النظرية التي نحن بصددها بأن تحيك التخييلات حول المنبهات التي تشغلها، دون أقل إشارة إلى وظيفة تستهدف التخلص من تلك المنبهات.

بيد أن هناك اعتراضاً آخر ينال نيلاً بالغاً من نظرية شرنر في أن الحلم يعبِّر عن المنبهات الجسمية تعبيراً رمزياً: فهذه المنبهات قائمة في كل وقت، ومن الأمور المتفق عليها أن النفس أشد إحساساً بها في النوم منها في يقظتها؛ وعلى ذلك كنا لا نفهم لمَ لا تحلم النفس طيلة الليل كله من غير انقطاع، بل لمَ لا تحلم في كل ليلة بجميع الأعضاء. لقد نحاول تجنب هذا الاعتراض، فنقول: إنه لكي يُستثار نشاط الحلم فلا بد من أن تصدر عن العين والأذن والأسنان والأحشاء وغيرها من الأعضاء تهييجات عدا المألوفة. وعندئذ نواجه صعوبة أخرى، ألا وهي أن نثبت وقوع هذا الاشتداد في التنبيه ـ وهو ما لا يتسنى إلا في عدد قليل من الحالات. فلو أن أحلام الطيران كانت رمزاً للرئتين حين تعلوان وحين تهبطان، لكان الواجب ـ كما لاحظه شترومپل ـ أحد أمرين: فإما أن يكون لهذه الأحلام من كثرة الوقوع ما يزيد عن المألوف زيادة كبرى، وإما نثبت أن النشاط التنفسي قد اشتد في أثنائها. وهناك بعد احتمال ثالث هو أرجح الاحتمالات جميعاً، وأعني به أن دوافع خاصة قد تعمل عملها في هذه اللحظة أو تلك فتجذب الانتباه إلى الإحساسات الأحشائية القائمة في كل وقت، ولكن ذلك احتمال يحملنا إلى ما وراء نظرية شرنر.

إن القيمة التي لأفكار شرنر وفولكلت تقوم في كونها تجذب الانتباه إلى عدد من الخصائص التي يتميز بها محتوى الحلم ـ وهي خصائص تتطلب تعليلاً وتبدو تبشِّر باكتشافات جديدة. فمن الحق كل الحق أن الأحلام تحمل في طياتها رموزاً ترمز لأعضاء الجسم ووظائفه: إن الماء في الحلم يشير كثيراً إلى منبه بولي، وإن أعضاء التناسل عند الذكر قد تصوَّر بعصا مثبتة تثبيتاً عمودياً أو بعمود أو بما أشبه. والأحلام التي يزدحم فيها الحقل البصري بالحركة وبالألوان الزاهية ـ على خلاف ما يسود بعض الأحلام الأخرى من قتمة ـ هذه الأحلام لا نكاد نستطيع تفسيرها بغير كونها «أحلاماً ذات منبه بصري»، ولا نحن نستطيع أن ننازع في دخل الأوهام الحسية في الأحلام التي تحوي ضوضاء ولغطاً. فحلم كالذي يرويه شرنر عن فريقين من الصبية الحسان الشقر اصطفا على جسر في صفّين متقابلين، أخذ كل منهما يهجم على الآخر ثم يعود إلى موضعه، إلى أن يرى الحالم نفسه في النهاية وقد جلس على جسر وهو يخلع سناً، أو حلم كالذي يرويه فولكلت، كان لصفين من الأدراج شأن فيه وانتهى مرة أخرى بسن يُخلع ـ أحلام كهذه يورد منها هذان المؤلفان العدد الوفير لا تسمح لنا بأن ننبذ نظرية شرنر كما لو كانت اختراعاً لا طائل منه دون أن نبحث لبَّها الطيب. ومهمتنا إذن هي أن نجد تعليلاً من نوع آخر للتعبير الرمزي المفترض عما يقال إنه منبه سني.

لقد امتنعت طيلة هذا الوقت الذي شغلنا في أثنائه بنظرية المصادر الجسمية للحلم عن استخدام الحجة التي تلزم من تحليلاتنا للأحلام. فلو قد تسنّى لنا بطريقة لم يطبقها سائر المؤلفين على المواد المتجمعة عندهم عن الأحلام أن نثبت أن للحلم قيمته الخاصة من حيث هو فعل نفسي، وأن الدافع إلى تكوينه رغبة، وأن خبرة اليوم السابق تمده بأقرب مادة يبني منها محتواه، فإن كل نظرية أخرى في الحلم تغفل طريقة في البحث تلك أهميتها وتظهر الحلم من ثمَّ في صورة استجابة نفسية، معدومة القيمة، معماة، إزاء بعض المنبهات الجسمية ـ هي نظرية مقضي عليها من غير حاجة إلى نقد خاص. هذا، وإلا وجب أن يكون ثمَّ نوعان من الأحلام مختلفان أكثر الاختلاف، مر أحدهما بي وحدي ومر الآخر بالبحثة السابقين وحدهم ـ وهو أمر بعيد كل البعد عن الاحتمال. والذي يبقى علينا ـ إذن ـ إنما هو أن نجد في نطاق نظريتنا عن الحلم مكاناً للوقائع التي قامت عليها النظرية السائرة، نظرية التنبيه الجسمي للأحلام.

لقد خطونا بالفعل الخطوة الأولى في هذا الاتجاه حين سقنا تلك القضية، وهي: أن الحلم يعمل مدفوعاً إلى أن يصوغ في وحدة كل حوافز الحلم الناشطة في وقت واحد (ص 219). وكنا رأينا أنه إذا تخلَّفت من اليوم السابق خبرتان أو أكثر من الخبرات القادرة على أن تستثير انطباعاً، فإن الرغبات المتفرعة عن هذه الخبرات تُدمج في حلم واحد، ورأينا كذلك أن الانطباع ذا القيمة النفسية يدرج في مادة الحلم إلى جانب خبرات اليوم السابق التافهة، بشرط أن يتسنى إيجاد أفكار تصل ما بينهما. وهكذا يبدو الحلم استجابة لكل ما يجتمع حضوره في النفس حضوراً ناشطاً. فمادة

الحلم . بقدر تحليلنا إياها حتى الآن . قد رأينا أنها مجموعة من البقايا النفسية والآثار الذكروية، اضطررنا (لما بدا من إيثار المادة الحديثة والطفلية) إلى أن ننسب إليها صفة نفسية تركناها حتى الآن من غير تحديد، هي صفة الحضور الناشط. وعلى ذلك كنا لا نصادف كبير حيرة في أن نتنبأ بما يقع إذا ما جاءت مادة جديدة . هي الإحساسات . فانضافت في خلال النوم إلى هاته الذكريات الحاضرة حضوراً ناشطاً: إن هذه التهييجات الحسية سوف تكتسب هي الأخرى أهمية بالنسبة إلى تكوين الحلم لكونها حاضرة حضوراً ناشطاً، وهي سوف توحد مع ما عداها من المواد النفسية ذات الحضور الناشط من أجل تزويد الحلم بالمادة التي تلزم تكوينه. وبعبارة أخرى: إن المنبهات التي تقع في خلال النوم سوف تصاغ بحيث يخرج منها تحقيق رغبة تتكوَّن سائر مقوماته من بقايا النهار النفسية التي نعرف أمرها. ولكن هذا التوحيد أو الإدماج لا يحدث ضرورة ، فقد رأينا أن المنبهات الجسمية التي تقع في أثناء النوم يمكن التصرف إزاءها بأكثر من طريقة. فإن حدث، لم يكن ذلك إلا لأن الوصول إلى مادة تستطيع أن تمثِّل كِلا مصدري الحلم . الجسمي والنفسي . قد تيسَّر.

وليس يغيِّر من ماهية الحلم في شيء أن تضاف مادة جسمية إلى مصادره النفسية؛ فالحلم يظل تحقيق رغبة أياً كانت الطريقة التي يتم عليها تحتم الصورة المفصحة عن هذا التحقيق بوساطة المادة الحاضرة حضوراً ناشطاً.

وإني أفسح المجال هنا طواعية لطائفة من العوامل التي من شأنها أن تحدد مدى ما يكون للمنبهات الخارجية من الأهمية بالنسبة إلى الحلم؛ فأن يسلك المرء على هذا النحو أو ذاك في حالة بعينها من الحالات التي يشتد فيها التنبيه الموضوعي في أثناء النوم اشتداداً نسبياً، ذلك . كما أتصوره . أمر تحدده مجموعة متآزرة من عوامل فردية، فيزيولوجية، عارضة، تنشأ عن ملابسات الساعة: فعمق النوم عمقاً مألوفاً أو عارضاً . مأخوذاً في علاقته بشدة المنبه . سوف يتيح في حالة قمع المنبه بحيث لا يزعج النائم ويضطر النائم في حالة أخرى إلى الاستيقاظ أو يؤيد محاولته في أن يسكت المنبه بإدخاله في نسيج حلم من الأحلام. وعلى حسب هذه التراكيب المتعددة الممكنة فإن الإفصاح عن المنبهات الخارجية الموضوعية في صورة حلم سوف يكثر عند هذا الشخص . أو يقل . عنه عند ذاك. فأما فيما يتعلق بي . أنا الذي أنام نوماً ممتازاً وأرفض رفضاً عنيداً أن أنزعج في خلال النوم لأية علة كانت . فيندر كل الندرة أن تجد العلل الخارجية للتنبيه منفذاً إلى أحلامي، في حين يتضح أن الدوافع النفسية تجعلني أحلم في سهولة لا مزيد عليها. والحق أني لم ألحظ إلا حلماً واحداً يمكننا أن نتعرف فيه على منبه موضوعي أليم، ويفيدنا فائدة كبرى أن نبحث أي أثر أحدثه المنبه الخارجي في هذا الحلم بالذات.

أركب حصاناً رمادي اللون، أركبه أول الأمر في وجل ومن غير مهارة كما لو كنت لا أفعل سوى التعلق به. أقابل أحد الزملاء، ب.، وقد امتطى جواده عالياً، مرتدياً حلة من الصوف. يجذب ب. نظري إلى شيء ما (لعله سوء ركوبي). أراني الآن أحكم ركوب جوادي ذي الذكاء الخارق إحكاماً متزايداً؛ فأستقر عليه مستريحاً، وألحظ أنني أجدني على صهوته كما لو كنت في داري. يقوم مقام السرج عندي شيء يشبه الحشية، يشغل كل المسافة بين عنق الجواد ومؤخره. أجري على هذا النحو بين عربتين. بعد أن قطعت شوطاً من الطريق أستدير وأريد النزول أول الأمر عند كنيسة صغيرة، مفتوحة، تقوم في مواجهة الطريق. ثم بعدئذ أنزل بالفعل أمام كنيسة أخرى تقترب من الأولى. كان فندقي يقع في الطريق نفسه، وكان يسعني أن أترك الحصان يذهب إليه بمفرده. ولكنني آثرت أن أقوده إليه. كأنما كان عليَّ أن أستشعر الخجل إذ أصل إلى هناك راكباً. يقف أمام الفندق غلام يطلعني على مذكرة لي عثر عليها، ويهزأ بي من جرائها. كان مكتوباً على المذكرة . وقد خطَّ سطران تحت ما كتب: «لا أكل»، ثم جملة ثانية (غير متميزة) مثل: «لا عمل». تصحب ذلك فكرة مبهمة مؤداها أنني في مدينة غريبة لا أعمل فيها شيئاً.

إن المرء لا يفطن للوهلة الأولى إلى أن هذا الحلم قد جاء بتأثير من منبه أليم، أو . على الأصح . تحت إكراهه. ولكنني كنت منذ بضعة أيام أعاني خرَّاجات جعلت عليَّ من كل حركة عذاباً. وأخيراً ظهر في كيس الخصيتين خراج بحجم التفاحة، فكان سبباً في ألم لا يطاق مع كل خطوة أخطوها. وحالف الألم على تنغيصي كلال محموم وفقدان للشهية ثم عمل النهار المضني الذي مضيت رغم ذلك فيه. ولم أكن أملك كل القدرة على أداء تبعاتي الطبية، ولكن من السهل . وتلك طبيعة العلة وموضعها . أن نتصور عملاً آخر، كنت من غير شك أقل صلاحية له مني لأي عمل سواه، وأعني به: الركوب. وذلك على التحقيق هو النشاط الذي يسلِّمني الحلم إليه. لذلك أقوى إنكار للمرض يستطيع أن يذهب إليه الخيال! والحق أني لا أعرف الركوب ولا حلمت به غير هذا الحلم، كل الأمر أني أُجلست على حصان مرة في حياتي وكان الحصان بغير سرج ولم أجد في ذلك متعة. ولكنني أركب في هذا الحلم، كأن لم يكن عندي خراج فيما بين الفخذين أو . على الأصح . لأنني لا أريد أن يكون ثمة خراج. وما السرج الذي جلست عليه . إذا حكمنا استناداً إلى وصفه . إلا الكمادة التي أعانتني على النوم. وأغلب الظن أني . وقد هدأني فعلها . لم أستشعر الألم في خلال الساعات الأولى من النوم. بيد أن الإحساسات المؤلمة أخذت بعدها في الظهور عاملةً على إيقاظي، فأتى عندئذ الحلم يقول مهوناً: «امضِ في سباتك فما بك من حاجة إلى الاستيقاظ، وما بك خراج، فأنت تركب جواداً وما يستطيع امرؤ الركوب لو كان يشكو خراجاً في مثل هذا الموضع!» ونجح الحلم في مأربه، فأخرس الألم ومضيت في نومي.

ولكن الحلم لم يكفه أن «يوحي إليّ» زوال الخراج، بالإلحاح على فكرة لا تتفق مع الألم الذي كنت أعانيه، متخذاً في ذلك مسلك الهجاس الهلوسي الذي تسلكه الأم فقدت ولدها[267] أو التاجر ضيعت خسائره ثروته. كلا، بل إن تفاصيل الإحساس المراد استبعاده وتفاصيل الصورة التي

استخدمت في كبت هذا الإحساس قد أفادت الحلم هي الأخرى من حيث كانت أداة توسَّل بها الحلم إلى أن يربط بالموقف الذي ظهر فيه سائرَ ما كان حاضراً في النفس حضوراً ناشطاً وتوسل بها إلى تصويره. فأنا أركب حصاناً رمادي اللون ، ولون الحصان هو هو لون الحلَّة التي كان يرتديها صديقي ب. حين قابلته أخيراً في الريف: لون الملح والفلفل. ولقد عزوت خراجاتي إلى أنني كنت أكلت طعاماً زخر بالتوابل . وهو تعليل أقل ما يقال عنه هو أنه يفضل مرض السكر الذي قد يتجه الذهن إليه أيضاً بمناسبة الخراجات. وصديقي ب. يحب أن يركب جواده العالي معي[268] منذ أن خلفني لدى مريضة من المريضات كنت قد أظهرت في علاجها الأفانين (كنت في أول الحلم أركب الحصان من جانب واحد مثلما يفعل راكب متفنن)، ولكنها في الحقيقة . مثل الجواد في قصة فارس الأحد[269] . كانت تقودني حيثما تشاء. وهكذا صار الحصان يرمز للمريضة (كان خارق الذكاء في الحلم). وأما جملة «أحس أنني على صهوته كما لو كنت في داري» فتشير إلى المكانة التي كنت أشغلها في منزل هاته المريضة قبل أن يخلفني فيه ب. وكان أحد القلائل من ذوي الفضل عليّ بين كبار أطباء هذه المدينة قد قال لي منذ زمن غير بعيد وهو يشير إلى هذا المنزل: «كنت أظنك ثابتاً على السرج هناك». ثم أن أقوم بالتطبيب النفسي من ثماني إلى عشر ساعات في اليوم وبي كل هذا الألم . ذلك أيضاً كان فعل رجل مفنٍ[270]. غير أنني كنت أعلم أنني لن أستطيع مواصلة عملي الجم الصعوبة بغير عافية مكتملة، والحلم مليء بالإشارات العابسة إلى ما ليس بد من حدوثه عندئذ (المذكرة، مثل المذكرات التي يحملها مرضى النوراستانيا لكي يُروا الطبيب إياها): لا عمل، لا أكل. وحين واصلت تفسير الحلم رأيت أن عمل الحلم قد أفلح في أن يجد طريقاً يمتد من الموقف المرغوب فيه، موقف الراكب، إلى مشاهد شجار ترجع إلى طفولتي المبكرة، مشاهد لا بد أنها وقعت بيني وبين ابن أخ لي يعيش اليوم في إنجلترا، وكان بعد يكبرني بعام واحد. والحلم فوق ذلك قد استمد بعض عناصره من رحلاتي إلى إيطاليا: فالشارع قد تركَّب من انطباعات من ڤيرونا وسيينا، ثم إن تعمق التفسير إلى أبعد من ذلك يسوق إلى أفكار جنسية، وإني لأتذكر ماذا كانت تعنيه الإشارة إلى إيطاليا في أحلام مريضة لم تكن قد رأت قط هذا البلد الجميل gen Italien [إلى إيطاليا] . Genitalien [الأعضاء التناسلية])، ولم يكن ذلك أيضاً بغير ارتباط بالمنزل الذي كنت طبيبه قبل ب. وبالموضع الذي ظهر فيه خراجي.

وثمة حلم آخر أفلحت فيه بطريقة مماثلة في أن أدفع خطراً هدَّد بأن يقطع نومي، أتى هذه المرة من منبه حسي، إلا أن الصدفة وحدها هي التي مكنتني في تلك الحالة من أن اكتشف الرابطة بين هذا الحلم وبين منبهه الطارىء ومن أن أفهم الحلم تبعاً لذلك. فقد استيقظت ذات صباح . وكان ذلك في أوج الصيف، في مكان جبلي بالتيرول . وأنا أذكر أنني قد حلمت بهذا الحلم: مات البابا. واستعصى عليّ أن أفسر هذا الحلم القصير، غير البصري، ولم أذكر سوى أصل من أصوله، وهو أنني كنت قد طالعت في إحدى الصحف أن قداسة البابا كان يشكو توعكاً خفيفاً. غير أن امرأتي سألتني في خلال الصباح: أسمعت قرع الأجراس المفزع صباح اليوم؟ ولم أكن أعلم ذلك، لم أكن أعلم أني سمعتها، ولكني أفهم الآن حلمي: إنه كان استجابة استجابت بها حاجتي إلى النوم تجاه الضوضاء التي أراد أهل التيرول الأتقياء إيقاظي بها؛ لقد أدركت منهم تأري بأن خلصت إلى تلك النتيجة التي تكوَّن منها محتوى الحلم، ثم مضيت في نومي دون أدنى مزيد من الاحتفال بالأجراس وقرعها.

وبين الأحلام التي ذكرناها في الفصول السابقة أحلام كثيرة، يمكن اتخاذها أمثلة على الصياغة الجديدة التي تلقاها المنبهات المسماة منبهات عصبية. فما حلمت به من شرب الماء على جرعات كبيرة [ص 168] كان مثالاً على ذلك؛ فقد كان المنبه الجسمي مصدره الوحيد . فيما يبدو . وكانت الرغبة الناشئة عن الإحساس . وأعني بها العطش . هي الدافع الوحيد إليه. والأمر أشبه بذلك في أحلام أخرى خالية من التعقيد، يبدو المنبه الجسمي فيها قادراً بذاته على أن يخلق رغبة. وحلم المريضة التي ألقت في أثناء الليل بالجهاز المبرّد عن خدها [ص 170] يرينا منهجاً غير مألوف في الاستجابة إلى المنبه الأليم بتحقيق الرغبة: إن الموقف يبدو في هذا المثال كما لو كانت الحالمة قد نجحت في أن تجرِّد نفسها من حاسة الألم بأن تنسب آلامها إلى شخص عداها.

وحلمي، حلم آلهات القدر الثلاث [ص 246]، كان صراحة حلم جوع، إلا أنه عرف كيف ينقل الحاجة إلى الطعام راجعاً بها إلى رغبة الطفل في صدر أمه، وكيف يجعل من تلك الرغبة البريئة غطاء يستر به أخرى أشد خطراً ولا يجوز الإعراب عنها بمثل هذه الصراحة. وفي وسعنا أن نرى في حلم الكونت تون أي طرق تربط بين حاجة جسمية عارضة وبين نوازع هي أشد نوازع الحياة النفسية عنفاً، وإن تكن أيضاً أشدّها حظاً من القمع. وإذا كان القنصل الأول [نابليون] . على ما يرويه جارنييه . قد نسج حلماً بمعركة من دوي قنبلة انفجرت قبل أن يوقظه هذا الدوي، فإنه قد كشف بذلك في وضوح فريد في بابه عن الدافع الأوحد الذي من أجله يشغل النشاط النفسي في خلال النوم بالإحساسات. وأعرف محامياً شاباً نام في عصر يوم وهو ممتلىء الرأس بأولى قضاياه الهامة، سلك مسلكاً لا يفترق من مسلك نابليون العظيم في شيء: فقد حلم برجل يدعى ج. رايخ من [مدينة] هوسياتين ، وكان قد تعرَّف به في قضية من القضايا، وظل اسم هوسياتين هذا يلح عليه حتى استيقظ فإذا زوجه . وكانت تشكو رشحاً صدرياً . قد أخذتها نوبة من السعال [بالألمانية husten].

ولنقارن حلم نابليون الأول الآنف الذكر (ونعلم أن نابليون كان ينام نوماً خارق العمق) بحلم ذلك الطالب النؤوم الذي جاءت ربة الدار توقظه، وكان عليه أن يذهب إلى المستشفى، فحلم أنه هناك، راقد على أحد الأسرّة، ثم مضى في نومه بحجة أنه لا يحتاج إلى النهوض من فراشه لكي يذهب إلى المستشفى ما دام موجوداً به [ص 169]. إن من الواضح أن هذا الحلم حلم أخذ بالأسهل، ولقد صارح الحالم نفسه بدافعه إلى الحلم

من غير خفاء. ولكنه بهذا عينه يكشف الغطاء عن سر من أسرار الحلم عامة: فكل الأحلام أحلام أخذ بالأسهل ، بمعنى من المعاني؛ فالهدف الذي تخدمه هو إطالة النوم بدل الاستيقاظ: إن الأحلام حرّاس النوم لا مزعجاته. وسيتاح لنا في موضع آخر أن نبرر هذه النظرة فيما يتعلق بالعوامل النفسية التي تدفع إلى اليقظة [الفصل السابع، القسم د]، ولكننا نستطيع منذ الآن أن نبيِّن صدق انطباقها فيما يتصل بنصيب المنبهات الخارجية. فالنفس إما أن تغفل جملة مناسبات الإحساس في أثناء النوم . إذا وسعها هذا الإغفال على رغم شدة المنبهات ورغم ما تعرف من دلالتها ،. أو هي قد تلجأ إلى الحلم لكي تنكر به وجود هذه المنبهات، أو هي . ثالثاً . حين لا تجد مفراً من التسليم بها . تلتمس لها تفسيراً من شأنه أن يحيل الإحساس الحاضر الناشط إلى جزء مقوِّم من أجزاء موقف مرغوب فيه، يتفق والنوم. فالإحساس الحاضر الناشط إنما ينسج في حلم لكي يُسْلَبَ واقعيته. ولنابليون أن يمضي في نومه؛ فما يعمل على إزعاجه سوى حلم يذكِّر بقصف المدافع في أركول[271].

وهكذا فرغبة النوم التي يستغرق فيها الأنا الشعوري والتي تُكَوِّن بالإضافة إلى الرقابة وإلى المراجعة الثانوية التي يجيء ذكرها فيما بعد نصيبَ الأنا الشعوري في الحلم . يجب أن يحسب حسابها في كل حالة من حيث هي دافع إلى تكوين الحلم، وكل حلم ناجح هو تحقيق لهذه الرغبة. وسوف نبحث في موضع آخر أمر العلاقة بين هذه الرغبة العامة التي لا تتخلَّف ولا تختلف . رغبة النوم . وبين سائر الرغبات التي يحقق محتوى الحلم الواحدة منها حيناً ثم الأخرى حيناً آخر. وأما الآن فإنّا اكتشفنا في رغبة النوم هذه ذلك العامل الذي يستطيع أن يسد وجه النقص في نظرية شترومبل و؟ونت وأن يفسر الطريقة الفاسدة التعسفية التي تفسَّر بها المنبهات الخارجية. فالتفسير الصحيح الذي يستطيع الذهن النائم إتيانه تمام الاستطاعة يتضمن اهتماماً فعالاً ويستلزم إنهاء النوم. ولهذا السبب لم يُترك المجال إلا لما كان . بين جميع التفاسير الممكنة . متفقاً مع الرقابة المطلقة التي تزاولها الرغبة في النوم. وكأني بالحلم يقول: إنه البلبل لا القبَّرة؛ فلو أنها كانت القبَّرة، لكان معنى ذلك أن ليل العاشقين قد حان ختامه. وعلى ذلك لم يكن يُنتخب من بين التفاسير التي يمكن تفسير المنبه بها إلا هذا التفسير الذي يستطيع أن يوفِّر أحسن رباط بالاندفاعات الراغبة التي تتربص في النفس. وهكذا كل شيء محتوم من غير لبس، ولا شيء متروك للهوى، وخطأ التفسير ليس وهماً، بل هو . إن جاز التعبير . مماطلة. ولكن علينا أن نسلِّم بأننا نجد أنفسنا هنا من جديد . كما في حالة التبديل بالنقل وفقاً لمقاصد الرقابة [أنظر ص 220] . بإزاء فعل يحيد عن العمليات النفسية السوية.

وحين تبلغ المنبهات العصبية الخارجية والمنبهات الجسمية الباطنية حداً من الشدة يحمل النفس على الانتباه إليها، فإنها تصير . هذا إذا أدَّت إلى الحلم وليس إلى اليقظة . بمثابة النقطة الثابتة في تكوين الحلم، نواة تجتمع من حولها مادته، ويدور البحث عن تحقيق رغبة متسق معها، على نحو ما يدور البحث عن أفكار وسطى تربط ما بين منبهين نفسيين (أنظر ما سبق [في ص 268 . 269]). وإلى هذا المدى يصدق على بعض الأحلام أن العنصر الجسمي يملي فيها محتوى الحلم. ولقد يذهب الأمر في هذه الحالة المتطرفة إلى حد استدعاء رغبة ليست بالحاضرة الناشطة من أجل تكوين الحلم. بيد أن الحلم لا يملك إلا أن يصوِّر رغبة وقد تحققت في موقف من المواقف؛ فهو . إن جاز التعبير . يواجه تلك المشكلة: أن يبحث عن الرغبة التي يمكن تصوير تحقيقها بوساطة الإحساس الناشط حاضراً. فإن كانت هذه المادة الحاضرة ذات طابع كريه أو مؤلم، لم يعن ذلك بالضرورة أن استخدامها من أجل تكوين الحلم قد صار محالاً؛ فإن بالنفس رغبات يجلب تحقيقها الألم، ولقد يبدو ذلك شيئاً متناقضاً، ولكنه يدنو للفهم إذا لم ننس وجود نظامين نفسيين ووجود رقابة بينهما.

ففي الحياة النفسية . كما رأينا . رغبات مكبوتة تنتمي إلى النظام الأول، ويناقض النظام الثاني تحقيقها. وأنا إذ أقول: إن ثمة رغبات مكبوتة من هذا القبيل، لا أطلق حكماً تاريخياً قصاراه أن هذه الرغبات قد وجدت حيناً ثم امحت، بل إن نظرية الكبت التي لا يستغني عنها المرء في دراسة الأعصبة تؤكد أن هذه الرغبات المكبوتة لا تزال قائمة وإن قام في الوقت نفسه معها كف يوازيها. ويصيب العرف اللغوي [في الألمانية] كبد الحقيقة حين يتحدث في صدد هذه الاندفاعات عن Unterdrucken [أي «دفع إلى أسفل» ومعناه القمع]. والحيَل النفسية التي تمكِّن هذه الرغبات المقموعة من أن تشق طريقها إلى التحقيق لا تني قائمة، قابلة للاستخدام. ولكن دع رغبة مقموعة من هذا القبيل توضع موضع التنفيذ: إن كف النظام الثاني، المغلوب على أمره (وهو النظام القادر على الصيرورة إلى الشعور) يفصح عندئذ عن نفسه في صورة الألم. ولكي نختتم هذه المناقشة نقول: إنه إذا نشأت في أثناء النوم إحساسات ذات طابع أليم صادرة عن مصادر جسمية، استغل عمل الحلم هذا الوضع في تصوير تحقيق رغبة تُلاقي عادة بالكف . هذا مع بقاء الرقابة إلى درجة تنقص أو تزيد[272].

وهذا الوضع هو الذي يتيح وقوع طائفة من أحلام الهيلة، في حين تنم عن ميكانيكية مختلفة طائفة ثانية من تلك التراكيب الحلمية التي لا تحمل على تأييد نظرية الرغبة: ذلك أن الهيلة في الأحلام قد تكون هيلة عصابية، ناشئة عن تهييج نفسي جنسي، وهي في هذه الحالة تعدل ليبيدو مكبوتة. وعندئذ تكون للهيلة، كما لحلم الهيلة جميعه، قيمة العرض النفسي، ونكون اقتربنا من الحد الذي يتحطم عنده ميل الحلم إلى تحقيق الرغبة. وأما أحلام الهيلة الأخرى فالهيلة فيها تنجم عن الجسم (مثلما يقع حين تعتري مرضى الرئتين أو القلب صعوبة في التنفس). وفي هذه الحالة تُستغل الهيلة في المعاونة على أن تتحقق في صورة الحلم رغبات مكبوتة كبتاً عنيفاً، لو أن الدوافع إلى الحلم بها كانت دوافع نفسية لكانت النتيجة انطلاق الهيلة كذلك. وليس من الصعب أن نجمع بين هاتين الحالتين على ما يبدو من انفصالهما؛ ففي كلتاهما نجد عنصرين نفسيين مرتبطين كلاً

بالآخر أوثق الارتباط، هما نزوع وجداني ومحتوى فكري، يستدعي أحدهما ـ وهو الحاضر الناشط ـ العنصر الآخر حتى في الحلم: فطَوراً تستدعي الهيلة المحتَّمة بعلل جسمية المحتوى الفكري للحلم، وطوراً آخر يستتبع المحتوى الفكري ـ بعد أن تحرر من عقال الكبت بما يصحبه من تهييج جنسي ـ يستتبع انطلاق الهيلة. ونستطيع أن نقول عن الحالة الأولى: إن حالة وجدانية محتمة بعلل جسمية قد لقيَت فيها تفسيراً نفسياً، وأما الحالة الثانية فالكل فيها ذو أصل نفسي إلا أن تفسيراً جسمياً يتلائم والهيلة قد حلّ فيها من غير عناء محل المحتوى الذي كان مكبوتاً. وعلى أية حال، فإن الصعوبات التي نلقاها في فهم هذا كله لا تحمل كبير صلة بمسألة الأحلام: إنها ترجع إلى كوننا نقترب ههنا من مشكلة نشوء الهيلة ومشكلة الكبت.

وما من شك في أن الحالة المزاجية العامة [أنظر ص 83] للجسم تدخل في عداد المنبهات الجسمانية الباطنة التي تتحكم في محتوى الحلم؛ لا لكونها تستطيع أن تمد الحلم بمحتواه، ولكنها تملي على أفكار الحلم أن تختار ما تختاره من المادة المعدّة لأن تصور في محتوى الحلم، وذلك من حيث أنها تقرّب ما كان من أجزاء تلك المادة متلائماً وطبيعتها بينما تبعد الأجزاء الأخرى. أضف إلى ذلك أن تلك الحالة المزاجية العامة المتخلفة من النهار ترتبط يقيناً ببقايا النهار النفسية ـ مع ما لهذه من أهمية بالنسبة إلى الحلم. ولقد يبقى هذا المزاج هو هو في خلال النوم، وقد تتم الغلبة عليه فإن كان أليماً انقلب إلى الضد.

وهكذا أقدِّر أن مصادر التنبيه الجسمية (أي إحساسات النوم) إنما تأخذ من تكوين الحلم بنصيب يماثل نصيب ما يتخلف عن النهار من انطباعات حديثة العهد لكنها خالية من الشأن هذا إلا إذا كانت تلك المصادر ذات شدة غير مألوفة. أي أنني أعتقد أن الأحاسيس الجسمية إنما يستعان بها في تكوين محتوى الحلم إذا كانت تتلائم والمحتوى الفكري المستمد من مصادر الحلم النفسية بحيث يمكن التوحيد بينها وبين هذا المحتوى الفكري، وإلا لم يستعن بها. فهي تعامل بمثل ما تعامل به مادة رخيصة سهلة المنال في كل وقت، تنطاع للمرء كلما احتاج إليها، وليس كمادة ثمينة، تفرض بذاتها وجه استخدامها. فمثل الحال هنا كمثل أحد الحادبين على الفنون الجميلة أتى فناناً بحجر كريم ـ كقطعة من العقيق ـ لكي يصوغ منه أثراً فنياً؛ إن حجم القطعة ولونها وتشريحها سوف تعين الفنان على أن يقرر أي رأس أو أي منظر يصلح لأن يصور فيها، على حين أن الفنان لا يحتاج في مادة متساوية موفورة ـ كالمرمر أو الحجر ـ إلى غير متابعة الفكرة التي تهيأت في ذهنه. وعلى هذا النحو وحده نفهم ـ فيما يهيأ إليَّ ـ تلك الحقيقة: أن المنبهات العضوية ذات الشدة المألوفة لا تظهر آثارها في محتوى الحلم في كل حلم وفي كل ليلة، وإن زوَّدت الحلم ببعض محتواه أحياناً[273] [أنظر ص 245].

وربما كان أحسن ما يوضح معناي مثال يعود بنا من جديد إلى تفسير الأحلام. فقد كنت أجهد ذات يوم في فهم المعنى الذي تراه يكون لهذا الإحساس الذي يكثر في الأحلام أيما كثرة ويقرب من الهيلة أيما قرب: حين يشعر المرء بأنه قد كف، أو سمّر في موضعه، أو فقد القدرة على إتيان عمل من الأعمال، إلخ. فلما كان الليل جاءني هذا الحلم: أصعد السلم وأنا مرتدٍ ثيابي منقوصة إلى حد كبير، من شقة في الطابق الأرضي إلى طابق أعلى. كنت أنهب السلم ثلاث درجات في كل خطوة وأنا سعيد بهذه الخفة. أرى فجأة خادماً تنزل السلم، أي مقبلة نحوي. يتولاني الخجل وأريد أن أمضي مسرعاً، وفي هذه اللحظة يحل بي هذا الشعور بالكف: لقد سمِّرت على الدرج ولم أعد أستطيع حراكاً من موضعي.

التحليل: إن الموقف الذي يظهر في الحلم مأخوذ من واقع كل يوم؛ فأنا أشغل في منزل بفيينا شقتين لا يصل بينهما سوى السلَّم المشترك. وتقع غرفة الاستشارة مع مكتبي في الطابق الأول، بينما تقع غرف السكن في الطابق الأعلى. فإذا فرغت من عملي في ساعة متأخرة من الليل صعدت السلم إلى حجرة النوم. وكنت في الأمسية التي سبقت الحلم قد قطعت هذه المسافة القصيرة وأنا حقيقةً مبعثر الثياب بعض الشيء، وأعني أنني نزعت البنيقة وربطة العنق والأكمام. وتزيد في الحلم درجة التجرد من الثياب ـ وإن بقيت غير محددة، كما هو الشأن عادة [أنظر 282، وص 284]. ومن عادتي أن أنهب السلم على هذا النحو، وهي عادة كان جلياً في الحلم أيضاً أنها تحقق رغبة؛ فالسهولة التي أصعد السلم بها كانت تطمئن إلى حالة القلب عندي. وعدا ذلك، كانت هذه الطريقة في الصعود تناقض الكف الذي أعقب في النصف الثاني من الحلم مناقضة فعالة، إنها كانت تريني ـ وهو ما لم يكن محتاجاً إلى برهان ـ أن الأحلام لا تجد أقل صعوبة في تصوير الأفعال الحركية وهي تؤدى أداء يبلغ حد الكمال. ويكفي أن يفكر المرء في أحلام الطيران!

غير أن الدرج الذي أصعده لم يكن درج منزلي. وقد عجزت للوهلة الأولى عن معرفته، ولم أتبيَّن أي مكان هو المعني إلا حين عرفت من هو الشخص الذي أقبل نحوي: إن هذا الشخص خادم تعمل لدى سيدة متقدمة في السن أزورها في كل يوم مرتين لكي أحقنها. والسلّم أيضاً كان يشبه كل الشبه سلم منزلها، هذا السلم الذي كنت أصعده في النهار مرتين.

ولكن كيف كان لهذا السلم ولهذا الشخص الأنثوي أن يدخلا حلمي؟ إن الخجل لتجردي من الثياب بعض التجرد خجل ذو طابع جنسي من غير شك. ولكن الخادم التي أحلم بها تكبرني سناً، عبوس، عاطل ولا شك من الجاذبية. الجواب الوحيد الذي يخطر لي هنا هو هذا: كنت عندما أزور هذا المنزل زيارة الصباح ينتابني السعال عادة وأنا أصعد السلم. ولم يكن بد من أن يقع البصاق على الدرج؛ فلم تكن هناك مبصقة في أي من هذين الطابقين، وكانت وجهة نظري هي أن نظافة السلم لا ينبغي صونها على حسابي، بل يجب تيسيرها بوضع المبصقات. ولكن بوابة المنزل ـ

وهي أيضاً عجوز عبوس . وإن تكن فطرت على النظافة، كما أسلم به طائعاً . كانت ترى رأياً مختلفاً: فهي ترقبني لترى هل أبيح لنفسي الفعل الذي ذكرته، فإن رأتني أفعله سمعت لها همهمة لا تُخْطَأ، وظلت بعد ذلك أياماً لا تجيب التحية بمثلها. واتفق في يوم الحلم أن انتصرت الخادم لحزب البوابة: فقد كنت فرغت على عجل . شأني دائماً . من زيارة المريضة، حين استوقفتني الخادم لتدلي بهذه الملاحظة: «يا سيدي الطبيب أما كان يسعك أن تمسح نعليك اليوم قبل أن تدخل الحجرة، لقد اتسخت السجادة الحمراء كلها من قدميك مرة أخرى». وهذا هو كل ما يخوِّل للسلّم والخادم أن يظهرا في حلمي.

وهناك رباط باطن يربط ما بين انتهاب السلم والبصق عليه. فالسعال . كمرض القلب . يعد لوناً من العقاب على رذيلة التدخين، وهي رذيلة كان من جرَّائها أنَّ سمعتي من ناحية النظافة لم تكن على أحسن ما يرام من قبل السلطات المعنية في منزلي نفسي؛ إنها ضعيفة في كلا المنزلين على السواء حتى أن الحلم قد مزجهما في صورة واحدة.

ولست أجد بداً من أن أرجىء المضي في تفسير الحلم حتى أبيِّن منشأ هذه الأحلام النمطية التي نرى فيها أنفسنا متجردين بعض التجرد من الثياب. وإنما أكتفي هنا بالإشارة إلى نتيجة موقوتة تخلص من الحلم الذي رويته، وهي: أن الشعور بكف الحركة إنما ينشأ في الحلم كلما اقتضت ذلك ملابسات خاصة. فمن المحال أن تكون علة هذا المحتوى الحلمي تغييراً خاصاً طرأ على قدرتي الحركية في أثناء النوم؛ فقد رأيتني منذ لحظة سبقت (كأنما كان المراد دعم ما أقول) وأنا أهرولِ على الدرج دون ما عناء.

د
الأحلام النمطية

إننا لا نجد نفسنا ـ بوجه عام ـ في موقف يسمح لنا بأن نفسر أحلام شخص سوانا، إلا إذا قبل الحالم أن ينقل إلينا أفكاره اللاشعورية الكامنة وراء محتوى الحلم؛ ولهذا حُدّ إلى مدى كبير إمكان التطبيق العملي لمنهجنا في تفسير الأحلام[274]. غير أن هناك أحلاماً تخالف كل المخالفة هذه الحرية التي يملكها كل فرد في أن يشكّل دنيا الحلم عنده على حسب خصوصيته، جاعلاً فهمها أمراً ممتنعاً على الآخرين: إنها أحلام لا يكاد يكون بيننا امرؤ لم يحلم بها على نحو لا يختلف عنده منه عند الآخرين وألفنا أن نفترض لها معنى واحداً عند الجميع. هذه الأحلام النمطية هي أيضاً أحلام ذات أهمية خاصة؛ لأنها تنشأ في الراجح من مصادر واحدة عند جميع الناس، وهي لذلك تبدو ذات صلاحية خاصة لأن تلقي بعض الضوء على مصادر الحلم.

ومن ثم كنا نأخذ في تطبيق منهجنا التفسيري على هذه الأحلام النمطية ونحن نعقد عليه آمالاً كباراً، لكي نتبيَّن بعد ذلك على مضض أن منهجنا هذا لا يجيب تلك الآمال الكبار فيما يتصل بهذه المادة بالذات. ذلك أن الذي يقع عادة حين نتعرض لتفسير الأحلام النمطية هو أن تغيض خواطر الحالم ـ تلك الخواطر التي كانت تتيح لنا فهم الحلم في غير ذلك من الحالات ـ أو هي تغمض وتندر، بحيث نعجز عن أن نحل مشكلتنا بمعاونتها.

فما منشأ ذلك؟ وكيف نسد هذا النقص في طريقتنا؟ ذلك ما سوف يتضح في موضع آت من هذا الكتاب [القسم هـ من الفصل السابع]، وعندئذ سوف يتبين أيضاً للقارىء لمَ كنت لا أستطيع أن أتناول هنا سوى أنماط قليلة من مجموعة الأحلام النمطية، مرجئاً مناقشة ما عداها إلى ذلك الحين.

(أ) أحلام الارتباك من جرّاء العري

إن الأحلام التي يرى فيها المرء نفسه عارياً من الثياب أو متجرداً بعض التجرد منها قد تتسم أيضاً بتلك السمة: وهي أن يغيب عند الحالم كل شعور بالخجل أو بما شاكله. ولكننا لن نشغل بأحلام العري إلا حين يستشعر فيها المرء الخجل والارتباك، ويريد الفرار أو الاختباء، وعندئذ يتولاه كف غريب، فلا يستطيع من موضعه حراكاً، ويحس العجز عن أن يغيِّر من موقفه الأليم. وبغير هذه المصاحبة لا يكون الحلم حلماً نمطياً؛ فلا شيء يمنع إذا هي ارتفعت من أن تدرج النواة التي يدور من حولها محتوى الحلم وسط ملابسات من كل نوع، أو من أن تزان بتطاريز تختلف باختلاف الأفراد. فالحلم يقوم في جوهره [من حيث هو حلم نمطي] في هذا الشعور الأليم الذي هو خجل، وفي كون المرء يود لو أخفى عريه ـ بالحركة في أغلب الأحايين ـ ولكنه يجد نفسه عاجزاً دون ذلك. وأعتقد أن الغالبية العظمى من القرّاء قد عرفوا هذا الموقف في الحلم.

والمألوف هو أن يكون نوع العري ومداه بعيدين عن الوضوح. فقد نسمع الحالم يقول: «كنت أرتدي قميصاً»، ولكن قلَّ أن تكون هذه صورة متميزة. فالعري في الأغلب غير محدد، حتى أن الراوي يعدد في وصفه الاحتمالات: «كنت ألبس قميصاً أو معطفاً». والنقص في الثياب لا يكون في العادة خطيراً إلى المدى الذي يبدو معه مبرراً لما يصحبه من الخجل، بل إن العري كثيراً ما تستبدل به عند من أُلِف الملابس العسكرية طريقة في الارتداء تخرج بعض الشيء على التعليمات: «كنت أسير في الطريق بغير سيف ورأيت بعض الضباط يقبلون»، أو «كنت بغير ربطة عنق»، أو «كنت أرتدي سراويل مدنية»، إلخ.

وأما الناس الذين يستشعر المرء قبالتهم هذا الخجل فيكادون أن يكونوا دائماً غرباء تركت سيماهم من غير تحديد. ولا يحدث أبداً في الحلم النمطي أن تلقى طريقة الارتداء التي توقع صاحبها في كل هذا الارتباك اعتراضاً، ولا هي تُعار التفاتاً، بل تحمل الناس على العكس وجوهاً لا تبالي أو ـ كما لحظته في حلم فريد في دلالته ـ وقورة، جامدة. لفي ذلك مدعاة إلى التفكير!

نعم، إن ارتباك الحالم وقلة احتفال الناس بطالعاتنا ـ مجتمعين ـ بتناقض من قبيل ما يكثر وقوعه في الأحلام: فإنما كان يماشي مشاعر الحالم أن ينظر إليه الغرباء في دهش واستهزاء أو مستنكرين. بيد أني أظن أن هذا الوجه الفاضح من الموقف قد أُزيل بفعل تحقيق الرغبة في حين أبقت على الوجه الآخر [الارتباك] قوة من القوى؛ وهكذا لا يتوائم الشطران كلاً والآخر. ولدينا شاهد ممتع على أن الحلم في صورته التي شوهتها

الرقابة تشويهاً جزئياً لم يلق فهمه الصحيح. ذلك أن هذا الحلم قد كان الأساس الذي بنيت عليه قصة صرنا جميعاً نعرفها في رواية هانس أندرسن («حلة الإمبراطور الجديدة»)، ونظمها حديثاً لود?يج فولدا في «الطلسمان»: تحدثنا قصة أندرسن عن محتالين نسجا للإمبراطور رداء غالي الثمن لا يراه إلا الأخيار المخلصون ويخرج الإمبراطور مرتدياً هذا الرداء الخفي، ويخاف الناس مما يزعم للنسيج من القدرة على امتحانهم، فيسلكون كما لو كانوا لا يرون عري الإمبراطور.

ولكن هذا عينه هو الموقف الذي نجده في حلمنا. ولسنا نجازف كثيراً حين نقدِّر أن لامعقولية الحلم هي التي كانت الحافز إلى اختراع رداء يجعل لهذا الموقف ـ كما يمثل في ذاكرتنا بعد الحلم ـ معنى ما. صحيح أن الموقف يُسلب في أثناء ذلك معناه الأصلي ويسخَّر في خدمة أغراض مغايرة. ولكن مثل هذا الفهم الخاطىء الذي يلقاه محتوى الحلم من جانب النشاط الفكري الشعوري الصادر عن نظام نفسي ثانٍ ـ سوف نعلم أنه أمر كثير الوقوع وأنه يجب أن يعد بين العوامل التي تخلع على صورة الحلم شكلها الأخير[275]، وسوف نعلم فوق ذلك أن أخطاء مماثلة في الفهم ـ تقع أيضاً في نطاق الشخصية النفسية الواحدة ـ تشارك بنصيب رئيس في تكوين الأفكار القهرية والمخاوف الشاذة. ثم إن من السهل فيما يتصل بحلمنا أن نبيِّن من أين استقيت المادة التي أقيم عليها التفسير الخاطىء: فالمحتال هو الحلم، والإمبراطور هو الحالم نفسه، والميل إلى الموعظة الخلقية ينم عن معرفة مبهمة بأن الأمر يدور في محتوى الحلم الكامن حول رغبات محرَّمة، ذهبت ضحية الكبت. والحق أن السياق الذي تظهر فيه أمثال هذه الأحلام في أثناء قيامي بتحليل العصابيين لا يترك أقل مجال للشك في أن الحلم قائم على ذكريات ترجع إلى الطفولة المبكرة. فطفولتنا هي الزمن الوحيد الذي كنا نُرى فيه غير مكتملي الثياب سواء أمن الأقربين أم من الغرباء، كالمربيات والخدم والزوار، ولم نكن إذ ذاك نشعر بالخجل لعرينا[276]. ونستطيع أن نلحظ كيف يطرب الكثير من الأطفال، ممن تقدموا مع ذلك بعض التقدم في السن، حين ينزعون ملابسهم، يطربون إلى ما يقارب الثمل بدل أن يخجلوا، فهم يتضاحكون ويتواثبون ويتبادلون الضربات على صفحات أجسامهم، بينما تقرعهم أمهم أو من اتفق حضورها قائلة: آه، إن هذا عار لا يجوز. والأطفال كثيراً ما يظهرون التذاذهم بأن يعرضوا أنفسهم؛ فلا يكاد المرء يمر بقرية في ريفنا دون أن يصادف طفلاً في الثانية أو الثالثة يرفع أمامه جلبابه الصغير ـ ربما على سبيل التكريم. وبين مرضاي مريض حفظت ذاكرته الشعورية مشهداً وقع له وهو في الثامنة من عمره، حين أراد وقد نزع ثيابه متأهباً للنوم أن يرقص وليس عليه سوى القميص في الحجرة المجاورة حيث أخته الصغيرة، فصدَّته المربية عن مراده. والتعري أمام أطفال الجنس الآخر ظاهرة لها نصيب ضخم في تاريخ الطفولة عند العصابيين، كما أن ما يهيأ في البارانويا للمريض من أنه ملحوظ حين يرتدي ثيابه وحين ينزعها يجب إرجاعه إلى خبرات من هذا القبيل. هذا بينما نجد بين من بقوا على انحرافهم طبقة اشتدَّ عندها هذا الاندفاع الطفلي حتى بلغ مبلغ العرض المرضي: تلك هي طبقة المستعرضين.

هذه الفترة من الطفولة التي لا تعرف الخجل تبدو للنظر حين نردُّه إليها ضرباً من الفردوس. والفردوس نفسه إن هو إلا تخييل جماعي عن طفولة الفرد؛ لهذا كان الناس في الفردوس كذلك عراة لا يخجلون حين يتواجهون، إلى أن جاء أوان فاستيقظ الخجل ودب الهول وتبع الطرد[277] وأخذت الحياة الجنسية ومشاغل العمران في المسير. ولكن الحلم مستطيع أن يسري بنا فيعيدنا إلى هذا الفردوس من جديد، ولقد أعربت من قبل [ص 263] عن ظن مؤداه أن انطباعات الطفولة (أعني من فترة ما قبل التاريخ إلى أن تقارب السنة الثالثة ختامها) تسعى إلى التكرار من تلقاء ذاتها ولذاتها، وربما سعت إليه بغض النظر عن محتواها، وأن تكرارها هذا يحقق رغبة. وهكذا تكون أحلام العري أحلام استعراض[278].

والحلم الاستعراضي تتكوَّن نواته من الحالم الذي لا يتراءى على ما كان عليه في طفولته بل كما هو في حاضره، ومن ردائه المنقوص الذي يبدو غير متميِّز، سواء أرجِع ذلك إلى تراكم ما أعقب من ذكريات لا حصر لها عن نزعه ملابسه أم رجع إلى الرقابة، ثم يأتي بعد ذلك الأشخاص الذين يخجل في محضرهم. ولست أعرف مثالاً واحداً عاود فيه الظهور في الحلم أولئك الذين قد شهدوا حقيقة ذاك الاستعراض الطفلي؛ فالحلم لا يكون أبداً ذكرى وحسب، ومن العجيب أن أولئك الأشخاص الذين يتجه إليهم اهتمامنا الجنسي في طفولتنا يتركون جانباً في كل استحضار يقع في الحلم أو في الهستيريا أو في العصاب القهري. البارانويا وحدها هي التي تعود إلى هؤلاء المشاهدين فتنصبهم من جديد وتستدل على وجودهم في يقين ملؤه التعصب، وإن ظلوا غير منظورين. وأما ما يحل محلهم في الحلم ـ «كثرة من الغرباء» لا تلقى بالاً إلى المشهد المعروض عليها ـ فإن هو على التحقيق إلا الضد المرغوب لذاك الشخص المفرد عينه الذي قد أَلِفه الحالم يوماً والذي من أجله كان التعري. وهذه الـ «كثرة من الغرباء» تظهر بعد في الأحلام كثيراً، في سياق يتنوع بتنوع المقاصد، وهي عندئذ تعني دائماً ـ باعتبارها رغبة مضادة ـ «في الخفاء»[279]. وإنا لنلحظ كيف لا تخلو البارانويا ذاتها ـ حيث يتحقق استرجاع الوضع القديم ـ من أثر هذا الاتجاه المضاد؛ ففيها يحس المريض أنه لم يعد وحده: إنه موقن من أن ثمة آخرين يرقبونه، ولكن مراقبيه «كثرة من الغرباء متروكين من غير تحديد على نحو عجيب».

والكبت أيضاً له كلمته في أحلام الاستعراض؛ فالشعور الأليم الذي يرد في الحلم إنما هو رد النظام النفسي الثاني على نجاح المشهد الطفلي في أن يعرب عن محتواه على الرغم من تحريمه. والسبيل الوحيد إلى تجنب هذا الألم هو ألا يبعث ذلك المشهد أبداً.

ونعود فيما بعد إلى الشعور بالكف [ص 368]. وإنما نقول الآن: إنه يصوِّر في الحلم ـ تصويراً ما أوفقه! ـ صراع الإرادة ، يصور «كلا» ؛ فالغاية اللاشعورية تأبى إلا متابعة الاستعراض والرقابة تأبى إلا إيقافه.

وما من شك في أن الروابط بين أحلامنا النمطية وبين قصص الأطفال وغيره من مؤلفات الخيال ليست بالقليلة ولا بالعارضة. ويتفق أحياناً أن تتسنَّى لفنان خالق نافذ البصر معرفة تحليلية بعملية التحوُّل التي لا يكون الفنان عادة سوى مطيتها، فإذا هو ـ وقد تتبع تلك العملية في اتجاه عكسي ـ يرد الأثر الفني إلى الحلم. ولقد نبهني صديق إلى فقرة خطَّها جوتفريد كيللر في «هاينريخ اليانع» جاء فيها: «ولست أود لك يا عزيزي لي أن تعلم أبداً علم المتَّعظ بنفسه ما حواه من صدق لاذع فريد ذلك الموقف من الأوديسا، حيث يظهر أوليس عارياً، مغطى بالوحل أمام أعين نوسيكا وقريناتها. أتريد أن تعلم كيف يقع ذلك؟ لنكثب النظر إذن إلى مثالنا: لو أنك جوِّلت في الغربة بعيداً عن وطنك وعن كل عزيز عليك، ورأيت كثيراً وخبرت كثيراً، وعرفت الأسى والهم، وصرت إلى تعس وضياع بلغا منك النهاية، إذن لحلمت لا محالة في ليلة أنك تدنو من وطنك. لسوف تراه مشرقاً زاهياً في أبهى الألوان، وها هي ذي أطياف رحيمة، رقيقة، حبيبة تقترب منك، وهنا ينكشف لك فجأة أنك في سمال، عار، عليك غبار. وعندئذ يتولاك خجل لا وصف له، ولسوف تبحث عما يسترك أو يخفيك، ثم تصحو في عرق مصبوب. ذلك، ما بقي على الأرض الإنسان، حلم الرجل أثقلته الأحزان وتطارحته الرياح؛ فما استمد هومير صفحاته هاته إلا من أعمق أعماق الوجود الإنساني وخالده».

وأعمق ما في الوجود الإنساني وخالده، هذا الذي يعتمد الشاعر عادة على استثارته، يقوم في هذه الاندفاعات النفسية التي تضرب جذورها في طفولة آلت من بعد إلى ما قبل التاريخ. فهناك رغبات من رغبات الطفولة مكبوتة، ممنوعة، تنفذ إلى الحلم مستترة وراء رغبات الشريد التي لا اعتراض عليها والتي يمكن قبولها في الشعور. ولهذا كان الحلم الذي يتجسم في أسطورة نوسيكا ينقلب دائماً إلى حلم هيلة.

وحلمي المروي في ص 278، الذي رأيتني فيه أنهب السلَّم نهباً ثم لا ألبث أن أتسمَّرَّ على درجاته كان أيضاً حلماً استعراضياً لأنه يحمل الأمارات الجوهرية على ذلك. ولا بد إذن من أن يكون في الوسع تأثره إلى ذكريات وقعت في الطفولة، ومعرفة هذه الذكريات بدورها لا بد أن تعيننا على أن نقدر إلى أي مدى أعان مسلك الخادم إزائي ـ وأعني تقريعها إياي على توسيخ السجادة ـ على أن تجد لها محلاً في الحلم. والواقع أنني أستطيع أن آتي بالإيضاح المطلوب: إن التحليل النفسي يعلِّم المرء أن يفسر التقارب في الزمن بالترابط في المضمون [أنظر القسم ج من الفصل السادس، ص 348]. فإذا تعاقبت فكرتان على غير رباط ظاهر كان ذلك دليلاً على أنهما تنتميان إلى كل واحد ينبغي الكشف عنه، كما أنك إذا كتبت أ ثم أردفت بها ب وجب النطق بهما مقطعاً واحداً: أب، والأمر كذلك إذا وقع الترادف في الحلم. وحلم السلم هذا قد اخترته من بين سلسلة من الأحلام ألممت بمعناها بعد تفسيرها. وهو إذن يعالج ذات الموضوع من غير شك. وأقول الآن: إن هذه الأحلام كانت تقوم على ذكرى مربية عُهد بي إليها في فترة ما، امتدت من زمن الرضاعة إلى أن بلغت السنتين والنصف، ولا زلتُ أحفظ في الشعور ذكرى غامضة عنها. وقد كانت هذه المرأة ـ على حسب ما علمته أخيراً من أمي ـ عجوز، قبيحة، لكنها كانت ماهرة، قديرة. ثم هي لم تكن ـ بحسب النتائج التي يجوز لي استخلاصها من أحلامي ـ تعاملني دائماً ألطف المعاملة، وأظنها كانت تسمعني خشناً إذا قصَّرت في بلوغ المستوى المطلوب من النظافة. وهكذا حق للخادم ـ وقد أخذت على عاتقها من جديد متابعة تلك المهمة التربوية ـ أن تعامل في الحلم كما لو كانت نسخة جديدة من عجوز ما قبل التاريخ. ونستطيع أن نفترض بالطبع أن الطفل كان يهدي حبه إلى من لقنته هاته الدروس على الرغم من سوء معاملتها[280].

(ب) أحلام موت الأحياء

وهناك طائفة أخرى من الأحلام تصح تسميتها أحلاماً نمطية، هي تلك التي يرد في محتواها أن حبيباً قد مات، كأحد الوالدين أو الإخوة أو الأبناء. وعلينا أن نبادر بالتفرقة بين طبقتين من هذه الأحلام: الواحدة هي التي يظل الحالم فيها دون أن يحرِّك الموت في نفسه شيئاً، حتى ليدهش ـ إذا استيقظ ـ لجمود حسه، وأما الأخرى فيحزن فيها الحالم للموت حزناً عميقاً، حتى ليدفق دمعه غزيراً وهو نائم.

ولنا أن نترك الطائفة الأولى من هذه الأحلام، إذ ليس هناك ما يخوِّل لها أن تعد أحلاماً نمطية، لأننا نجد إذا حللناها أنها تعني شيئاً آخر غير ما تحويه، وأنها قد جاءت لكي تستر رغبة أخرى من الرغبات. ومثال ذلك حلم الخالة التي رأت ابن أختها الوحيد مسجى أمامها (ص 199): فهذا الحلم لم يكن يعني أنها كانت تريد الموت لابن أختها الصغير، كل ما هناك ـ كما رأينا ـ هو أن الحلم كان يخفي رغبة في أن ترى بعد طول قطيعة شخصاً حبيباً إليها، هذا الشخص عينه الذي سبق لها لقاؤه مرة ـ بعد انقطاع دام كذلك طويلاً ـ بجوار ابن أختها الآخر وهو راقد في نعشه. ولم يكن من شأن هذه الرغبة التي كانت تكوِّن محتوى الحلم الحقيقي أن تثير حزناً، وعلى ذلك لم يكن في الحلم حزن. فنحن نلحظ هنا أن الشعور الذي أحست به الحالمة لم يكن يتعلق بمحتوى الحلم الظاهر بل بالباطن، وأن محتوى الحلم الوجداني قد سلم من التشويه الذي أصاب محتواه الفكري.

ولكن الأمر يختلف في تلك الأحلام التي يتخيل فيها الحالم موت قريب حبيب، ويألم لذلك وجدانه: هذه الأحلام ـ كما يتحدث به محتواها ـ تعني الرغبة في موت الشخص المقصود. ولما كنت أتوقع هنا أن تثور مشاعر قرَّائي كافة، هم وكل من وقع له مثل هذا الحلم، لم يكن بد من أن أحاول إقامة دليلي على أوسع أساس ممكن.

لقد ناقشنا من قبل حلماً علمنا منه أن الرغبات التي يصوِّر الحلم تحققها لا تكون دائماً بنت يومها، بل هي قد تكون أيضاً رغبات ماضية، مهجورة، مدفونة، مكبوتة، لا يحملنا على أن ننسب إليها نوعاً من الوجود المستمر سوى رجوعها إلى الانبعاث في الحلم. فهي ـ تلك الرغبات ـ ميتة، لا كالموتى في تصورنا، بل كأشباح الأوديسا التي لا تلبث أن تبعث إلى الحياة حين تلغ الدم. فحلم الطفلة الميتة في صندوقها (ص 201) كان يتصل برغبة كانت منذ خمسة عشر عاماً رغبة حاضرة وكانت الحالمة إذ ذاك تعلنها سافرة. ولا أظنه أمراً يخلو من القيمة بالنسبة إلى نظرية الأحلام أن أضيف أن هذه الرغبة كانت تقوم هي أيضاً على ذكريات من ذكريات الطفولة: ذلك أن الحالمة قد سمعت في طفولتها ـ دون أن تدري متى تحديداً ـ أن أمها قد افترسها في أثناء الحمل الذي كانت هي ثمرته انقباض شديد، وأنها ودَّت وداً حاراً لو أن الطفل قد مات وهو جنين. فلما كبرت الحالمة وصارت حاملاً، لم تفعل إلا أن حذت حذو أمها.

فإذا حلم البعض وهو يفصح عن كل علائم الألم أن أباه أو أمه أو أخاه أو أخته قد مات، لم أفكر على الإطلاق في أن أقيم من هذا الحلم دليلاً على أن الحالم يريد اليوم موت هذا القريب. فنظرية الحلم لا تقتضي كل هذا، بل تقنع بالانتهاء إلى أنه ـ أعني الحالم ـ قد اشتهى هذا الموت في فترة أو أخرى من فترات الطفولة. غير أنني أخشى ألا يفلح هذا التحفظ في تسكين المعترضين؛ فهؤلاء سوف ينكرون احتمال أن تكون مثل هذه الفكرة قد طرأت لهم يوماً بمثل القوة التي ينكرون بها أن تكون تلك رغبتهم اليوم. وعلى ذلك لا يكون مفر من أن أبعث من جديد بعض ما غبر من حياة الطفولة النفسية استناداً إلى شهادة الحاضر[281].

دعنا ننظر بادىء ذي بدء في علاقة الطفل بإخوته. لست أدري لماذا نفترض مقدماً أن هذه العلاقة لا بد أن تكون حباً. فمن ذا الذي لم يرَ بين الراشدين شواهد على شقاق الإخوة؟ وكم يتاح لنا التحقق من أن هذا الشقاق قد تأصَّل في الطفولة وأنه لم ينقطع يوماً! أضف إلى ذلك أن كثيراً من الراشدين الذين تربطهم اليوم بإخوتهم أواصر المودة وينصرونهم عند الشدة كانوا في طفولتهم يعيشون وإياهم على عداوة لا تكاد تلين. فالأكبر كان يسيء إلى الأصغر ويقهره ويسلبه لعبه، في حين يضوي الأصغر مما به، من غيظ العاجز المقهور. فهو يحسد أخاه الأكبر ويخشاه أو قد يستدير إلى مضطهده فيواجهه بأوائل ثوراته محبة للحرية وشعوراً بالعدل. هذا بينما يردد الوالدان أن أبناءهم لا يصطلحون، دون أن يعرفوا لذلك سبباً. ولا يصعب أن نرى أن الطفل ولو كان حسن الطبع لا يحقق كل ما نأمل في رؤيته عند الراشد. فالأطفال أنانيون مطلقو الأنانية، وهم يشعرون بحاجاتهم شعوراً بالغ الشدة، ويجهدون في إرضائها غير حاسبين لما عداها حساباً، وبخاصة في وجه الغرماء من سائر الأطفال، ومن الإخوة في المحل الأول. غير أننا لا نقول من أجل ذلك: إن الطفل «شرير» بل نِصفه «بالرداءة»؛ فهو لا يُسأل عن سوء فعاله، في نظرنا كما في نظر القانون. ومن العدل أن تكون الأمور كذلك؛ فلنا أن نتوقع أن تستيقظ قبل ختام تلك الفترة المسماة طفولة نزعات غيرية، وأن تستيقظ الأخلاق، أو أن يأتي أنا ثانٍ ـ بتعبير ماينيرت ـ فيغطي الأول ويكفه. ومن المحقق أن الأخلاق لا تظهر في كل النواحي في وقت واحد، وأن مرحلة الطفولة اللاخلقية يتفاوت طولها بتفاوت الأفراد. فإن وقف هذا التخلُّق عن النمو، أحببنا الحديث عن «الانحلال» بينما الواضح أننا نواجه كفاً في النمو. وأما بعد أن يغطي النمو اللاحق الطبع الأول، فقد يعري هذا الطبع ثانية، على الأقل إلى حدٍ في حالات المرض الهستيري. والحق أن الشبه عجيب بين ما ندعوه الطبع الهستيري وبين رداءة الأطفال. وأما العصاب القهري فيوافق على العكس تخلقاً مفرطاً أريد به تعزيز القدرة على مغالبة ما يتحرك من جديد من الطبع الأول.

هناك إذن قوم كثيرون ممن يحبون اليوم إخوتهم ويستشعرون فداحة الفقدان لو قد حق عليهم الموت، وهم مع ذلك يضمرون لهم في لاشعورهم رغبات خبيثة من العهد الأول قادرة على أن تتحقق في الحلم. ولكن الذي يفيدنا هنا أكبر الفائدة هو أن نلحظ مسلك صغار الأطفال إلى سن الثالثة أو الرابعة تجاه من يصغرونهم من أشقائهم وشقيقاتهم؛ لقد ظل الطفل حتى ذلك الحين وهو الطفل الأوحد، وها هو ذا يعلم اليوم أن اللقلق قد أتى بطفل جديد: إنه لينعم النظر في هذا الوافد الصغير ثم يعلن في عزم: «ليعد به اللقلق من حيث أتى»[282].

وإني لأعتقد وأنا جاد تمام الجد أن الطفل يعرف كيف يقدِّر تقديراً صائباً كل ما ينتظره على يد الدخيل الصغير. وها هي ذي سيدة من معارفي تربطها اليوم أحسن الروابط بأختها التي تصغرها بأربعة أعوام ـ تخبرني أنها قد تلقَّت نبأ وفادة أختها لأول مرة بهذا التحفظ: «ولكنني لن أعطيها معطفي الأحمر مهما يكن!» ومن هذا التاريخ تبدأ عداوة الطفل ولو لم يدرك موقفه إلا فيما بعد. وأعرف طفلة لما تبلغ الثالثة حاولت أن تخنق رضيعاً في مهده لأنها لم تستبشر بمحضره خيراً. والغيرة في هذا الوقت من الحياة شيء يستطيعه الأطفال بكل شدته ووضوحه. وهب الأخ الصغير أو الأخت قد خلي مكانه بالفعل عاجلاً، وعاد الطفل يحتكر كل عطف المنزل، ثم يأتي اللقلق بوافد جديد: أليس من المنطق أن يضمر طفلنا المدلل الرغبة في أن يلقى منافسه الجديد مصير سابقه حتى تسير الأمور بما يشتهي، شأنها في البدء وفيما بين الفترتين[283]. ومن الطبيعي أن يتفاوت مسلك الأطفال هذا تجاه من يولد بعدهم بتفاوت الأعمار. فقد يحدث إذا بلغ الفرق في السن حداً معيناً أن تستثار في الأخت الكبرى أول بشائر الغريزة الأمومية تجاه هذا الوليد الذي لا عون له.

وما من شك في أن مشاعر العداوة بين الإخوة تزيد في سن الطفولة كثيراً عما يلحظه منها الراشدون الغافلون[284] (3).

ولقد ضيَّعت فيما يتعلق بأبنائي الذين تتابعوا الواحد إثر الآخر في تعاقب سريع فرصة إتيان مثل هذه الملاحظات. ولكنني أدرك اليوم ما فاتني مع ابن أخت صغير جاءه غريم أنثوي فأدخل الاضطراب على حكمه المطلق بعد أن دام خمسة عشر شهراً. نعم، لقد سمعت أن الشاب الصغير يسلك بإزاء أخته مسلكاً جد كريم؛ فهو يقبّل يديها ويلاطفها. بيد أنني رأيت ما يقنعني بأنه قد أخذ . ولما يكمل الثانية . في استخدام قدرته اللغوية في نقد هذا المخلوق الذي لم يكن يبدو إلا نافلة: فهو كلما دار الحديث عنها أقحم نفسه وصاح متأففاً: «صغيلة جداً، صغيلة جداً!» ولما ترعرعت الطفلة في الشهور الأخيرة وصارت من الكبر بما يرفع عنها هذه الزراية، التمس صاحبنا سنداً جديداً لزعمه أنها لا تستحق كل هذه الرعاية، فلا تسنح فرصة إلا ذكَّرنا بأنها لا أسنان لها[285]. ولا تزال أسرتنا جميعها تذكر عن البنت الكبرى لأخت لي أخرى كيف أخذت مرة . وكانت في السادسة . تلح ساعة كاملة على جميع عماتها، تسألهن لكي يؤيدنها: «إن لوسي لا تستطيع أن تفهم ذلك بعد، أليس كذلك؟» وكانت لوسي منافستها التي تصغرها بعامين ونصف العام.

ولم أجد . مثلاً . بين جميع مريضاتي مريضة واحدة أخطأها هذا الحلم الدال على أقصى العداوة: بموت أخ أو أخت. لم أجد إلا استثناءً واحداً لم يصعب تفسيره بما يؤيد القاعدة. فقد كنت أشرح هذا الوضع لإحدى السيدات في خلال جلسات تحليلية لأنه بدا لي ذا حساب يحسب في العرض الذي كان مطروحاً على بساط البحث في ذلك اليوم، وإذا هي تجيبني لدهشي أنها لم تر مثل هذا الحلم قط. غير أن حلماً يبدو منقطع الصلة بالموضوع طرأ ببالها، وهو حلم أتاها في الرابعة . وكانت إذ ذاك أصغر أفراد الأسرة . ثم عاودها بعد ذلك تكراراً: جمع من الأطفال . كلهم من الإخوة والأقارب، صبية وبنات . يزحفون في حقل ثم فجأة ظهرت لهم أجنحة، فطاروا كلهم ثم اختفوا. ولم تكن الحالمة تملك أقل فكرة عن هذا الحلم. ولكن من السهل علينا أن نعرف أنه في صورته الأصلية التي لم تغيِّر منها الرقابة إلا قليلاً حلم بموت إخوتها وأخواتها جميعاً. وأجازف إلى افتراض التحليل الآتي: عندما مات أحد هؤلاء الأطفال . وكانت الحالمة وإخوتها قد نشئوا هم وأولاد عم لهم في أسرة واحدة . اتجهت الحالمة . ولما بلغت الرابعة . إلى أحد الكبار العاقلين تسأله: ما الذي يحدث للأطفال حين يموتون؟ ولا بد أنه أجابها: تنمو لهم أجنحة ويصبحون ملائكة صغاراً. ونحن نرى في الحلم الذي أعقب هذه الإفادة أن إخوة الحالمة قد صارت لهم جميعاً أجنحة كالملائكة وأنهم . وهنا المهم . قد طاروا بعيداً، ولم يبق سوى صغيرتنا صانعة الملائكة[286]، وتأمل: إنها الباقية الوحيدة من الحشد كله! وأما أن يزحف الأطفال في حقل قبل طيرانهم فهو ما لا نكاد نجانب الصواب إذ نرى فيه إشارة إلى الفراشات، وكأنما كانت الطفلة مسوقة بذلك التداعي الفكري الذي ساق القدامى إلى أن تصوروا الروح في صورة فراشة ذات أجنحة.

وهنا قد يعترض البعض قائلاً: «نسلِّم بأن الأطفال عرضة لدفعات عدائية نحو إخوانهم، ولكن أنى لقلب الطفل أن يبلغ من الفساد إلى تلك القمة، حتى ليشتهي موت من نافسه أو قوي عليه من رفاق اللعب، كأنما كان لا يعرف غير الموت عقاباً لكل جريمة؟» بيد أن قائل مثل هذا الكلام ينسى أن فكرة الطفل عن «الموت» لا تحمل . بعد اللفظ . إلا أقل الشبه بفكرتنا نحن. فما يعلم الطفل شيئاً من شناعة الفساد، ومن الرعدة في قبر بارد كالثلج، ومن هول العدم الأبدي . وكلها أمور قلما احتمل الكبار تصورها، دليل ذلك كل الأساطير المنسوجة حول العالم الآخر. فالخوف من الموت غريب عن الطفل، ومن ثم كان لعبه بالكلمة الهائلة والتجاؤه إليها لكي يهدد بها أحد الرفاق: «ستموت لو عدت إلى ذلك مثلما مات فرانتس». وتسري الرعشة في الأم المسكينة، ولعلها لا تستطيع أن تنسى أن الشطر الأكبر من البشر مواليد الأرض لا تتجاوز حياتهم سني الطفولة. بل لقد يبلغ الطفل الثامنة ثم لا يزال قادراً على أن يقول لأمه وقد عاد إلى المنزل من جولة في متحف التاريخ الطبيعي: «ماما، ما أكثر حبي لك! إذا متِّ فسأجعلهم يحشونك، وسأضعك هنا، في هذه الغرفة، حتى أستطيع رؤيتك دائماً، دائماً». إلى هذا المدى يختلف الطفل منا في تصوره للموت[287].

ولما كان الطفل يجنب فوق ذلك مشاهدة آلام الاحتضار، فالموت عنده يعني إلى حد كبير «الغياب»، الكف عن إزعاج الأحياء المتبقين. وهو لا يميز بين أسباب هذا الغياب؛ أسفر أم طرد أم غربة أم موت[288]. فلو أن طفلاً طردت مربيته وهو ما زال بالمرحلة قبل التاريخية ثم ماتت أمه بعد ذلك بقليل، لتطابق الحدثان في ذهنه وكوّنا سلسلة واحدة . كما يكشف عنه التحليل. وأما أن الطفل لا يفتقد الغائب كثيراً فهذا ما تعلمه الكثيرات من الأمهات لحسرتهن حين يعدن إلى دورهن بعد أسابيع قضينها في إجازة الصيف فيقابلن بهذا النبأ: أن الأطفال لم يسألوا عن أمهم مرة واحدة. فإن ذهبت الأم حقيقة إلى هذه «الأرض المجهولة التي لا يعود منها راحل» بدا على الطفل للوهلة الأولى أنه نسيها ولم يأخذ إلا من بعد في تذكر موتها.

وهكذا إذا رأى طفل ما يدعوه إلى أن يتمنى غياب شخص آخر، فليس ما يمنعه من أن يلبس أمنيته هذه لبوس الرغبة في الموت، كما أن الاستجابة النفسية إلى الأحلام المنطوية على رغبات في الموت ترينا أنه مهما تنوَّع محتوى هذه الرغبات عند الطفل فهي تعني مع ذلك على نحو من الأنحاء ما تعنيه نظيراتها عند الراشدين.

ولكن إذا كانت رغبة الطفل في موت إخوته وأخواته تجد ما يفسرها من أنانيته التي تجعله يرى في هؤلاء منافسين له، فكيف نفسر رغبته هذه تجاه والديه اللذين يمنحانه الحب ويقضيان له حاجاته واللذين كان يخلق بأنانيته تلك أن تدعوه إلى اشتهاء بقائهما؟

هذه صعوبة يهدينا إلى حلّها ما نلحظه من أن الحلم بموت الوالدين يصيب في الغالبية الغالبة من كان من الزوجين الوالدين يشارك الحالم جنسه؛ فالرجل يحلم في الأغلب بموت الأب وتحلم المرأة بموت الأم. ولست أستطيع أن أدَّعي لتلك القضية عموم القاعدة، ولكن غلبة الاتجاه الذي

أشير إليه بيّنة إلى حد يتطلب تعليلها بعامل ذي قيمة كلية كذلك[289]: إن الأمور تجري . إذا تركنا كل تعبير مخفف . كما لو كان ثمة إيثار جنسي يستشعره الطفل وهو في باكورة الحياة، كما لو كان الصبي يرى في أبيه . والفتاة في أمها . غريماً لن يصيبه من إزاحته غير النفع.

وإنه ليجدر بنا هنا أيضاً . قبل أن ننبذ هذه الفكرة معتبرين إياها فكرة شنعاء . أن نكثب النظر إلى العلاقات الحقيقية بين الوالدين والأبناء. وعلينا بنوع خاص أن نفرّق بين تلك العلاقة كما يريدها واجب التقوى البنوية الذي يقتضيه العمران وبين ما يتكشف بالملاحظة اليومية أنه واقع تلك العلاقة: إن وراء العلاقة بين الوالدين والأبناء لأكثر من مناسبة من مناسبات العداوة، وإنها لعلاقة تزدحم في وفرة ما بعدها وفرة بكل العوامل التي تبعث على رغبات لا يمكن أن تواجه الرقابة. ولنقفن بادىء ذي بدء على العلاقة بين الأب والابن: إني أعتقد أن القداسة التي أسبغناها على ما سنَّته الوصايا العشر من نواه قد أعمت أبصارنا عن إدراك الحقيقة الواقعة. ولعلنا لا نكاد نجرؤ على ملاحظة أن الشطر الأعظم من أبناء النوع الإنساني يخرجون عن طاعة الوصية الرابعة[290]. فتقوى الأبناء نحو آبائهم . في أسفل مراتب المجتمع كما في أعلاها . تطغى عليها عادة مطامع أخرى. والبلاغ الحالك الذي ينحدر إلينا عبر الملاحم والأساطير عن العصور الأولى للمجتمع الإنساني يرينا ما لا تطب له النفس من مطلق سلطان الأب ومن قساوته في مزاولة هذا السلطان. فكرونوس قد التهم أبناءه مثلما يفعل الخنزير الوحشي بخلف أنثاه، وجاء زوس فأخصى أباه[291] ونصب نفسه سيداً في مكانه. وكلما خلا سلطان الأب في العائلة من كل قيد، وجد الابن نفسه بالضرورة . وهو الوريث المنتظر . في موقف العدو من أبيه، ونفد بالضرورة صبره وهو يترقب الظفر بالسيادة عبر موت أبيه. ولا يزال الأب في طبقتنا المتوسطة يأبى على ابنه الاستقلال ويأبى عليه العدة لبلوغه، متعهداً بذلك بذور العداوة التي تكمن بطبيعتها في هذه العلاقة. وكثيراً ما يتاح للطبيب أن يلحظ كيف يعجز حزن الابن لفقد أبيه عن قمع فرحه إذ يظفر أخيراً بحريته. وكل أب يتشبث اليوم يائساً بما يتبقى في عصرنا من «سلطة لرب العائلة»[292] صارت إلى قدم لا يذكر بالخير، وكل كاتب . مثل إبسن . يبرز هذا الصراع الأزلي بين الآباء والأبناء إلى مكان الصدارة من كتاباته فله أن يكون على ثقة من أنه محدث في النفوس أثراً. وأما البنت وأمها فتنشأ فرص النزاع بينهما حين تشب البنت فترى في أمها رقيباً عليها، على حين تطمح هي إلى الحرية الجنسية، هذا بينما ترى الأم من ناحيتها في تفتُّح ابنتها نذيراً ينذرها أن قد حان وقت النزول عن مطالبها الجنسية.

كل هذا ظاهر يملأ أعين الجميع. لكنه لا يعيننا على ما نستهدفه من تفسير الأحلام بموت الوالدين عند أناس رسخت تقواهم نحو والديهم رسوخاً وطيداً منذ زمن طويل. أضف أن المناقشات السابقة قد أعدتنا لأن نعلم أن رغبة الموت تجاه الوالدين تنبعث جذورها من الطفولة الأولى.

إن هذا الفرض يتأيد تأييداً لا يتطرق إليه أدنى شك بالنسبة إلى العصابيين الذين يأخذون في التحليل النفسي. فنحن نعلم عندئذ أن رغبات الطفل الجنسية . إذا كانت هذه الرغبات تستحق هذا الوصف وهي لا تزال في طورها الجنيني . تنشأ منذ وقت مبكر، وأن أول نزوع الفتاة يكون لأبيها كما تتجه رغائب الولد أول ما تتجه إلى أمه، وبذلك يصبح الأب للولد . مثل الأم للبنت . مزاحماً مزعجاً، ولقد رأينا من قبل . فيما يتعلق بالإخوة . كيف يكفي الشيء القليل من مثل هذا الشعور في سَوق الطفل إلى اشتهاء الموت للغريم. ويظهر مثل هذا الإيثار عادة عند الوالدين كذلك؛ فهناك نسبة طبيعية ترعى الأمور بحيث يدلل الزوج ابنته الصغيرة وتأخذ زوجه جانب الابن، بينما يعمل كلاهما . هذا إذا لم يفسد حكمهما سحرُ الجنس . على تنشئة صغارهما تنشئة دقيقة. ويلحظ الطفل هذا الإيثار تمام الملاحظة وينقلب على الجانب الذي يعارضه من الزوجين الوالدين؛ فالحظوة بحب الراشد لا تشبع حاجة بعينها من حاجات الطفل وحسب، إنها تعني بنوع أخص أن رغبته مجابة في كل ناحية أخرى من النواحي. وهكذا يتبع الطفل دافعه الجنسي ويزيد في الوقت عينه نزوع والديه حدة جديدة، حين يتفق اختياره بينهما واختيارهما.

ومن عادتنا أن نغض النظر عن معظم علائم هذه النوازع الطفلية، بيد أننا نستطيع مع ذلك أن نلحظ بعضها حتى بعد انقضاء السنوات الأولى من الطفولة: فأنا أعرف فتاة في الثامنة لا يدعو أمها داع إلى المغيب عن المائدة دون أن تنتهز الفرصة لتعلن أنها قد خلفتها: «سأصبح أنا ماما الآن. كارل، أتريد مزيداً من الخضر؟ خذ بعضاً من فضلك!» وهكذا. ولقد شفَّت هذه الناحية من سيكولوجية الطفل شفافية خاصة عند طفلة في الرابعة على جانب ملحوظ من الحيوية والذكاء، كانت تقول: «الآن تستطيع ماما أن تذهب، وسيتزوجني بابا بعد ذلك على التأكيد، وأصبح أنا زوجه» . هذا دون أن تتنافى هذه الرغبة عند الطفلة مع حبها أمها حباً ملؤه الحنان. وإذا أُبيح لطفل أن ينام إلى جانب والدته ووالده مسافر ثم أعيد مكرهاً فور رجوعه إلى غرفته المعتادة حيث ينام مع شخص آخر لا يحبه إلا حباً يقل كثيراً عن حبه لأمه، كان من السهل أن تنشأ عنده الرغبة في أن يظل والده غائباً على الدوام حتى يتمكن من استبقاء أمه الحبيبة الجميلة على الدوام. وجليٌّ أن من الوسائل إلى ذلك أن يصبح الأب في عداد الأموات؛ فقد علم الطفل من تجربته شيئاً: هو أن الموتى يظلون دائماً على غيبتهم . مثل جده . ولا يرجعون منها إلى أبد الآبدين.

هذه الملاحظات من قبل الأطفال الصغار وإن وافقت التفسير الذي أقترحه دون أن نحمّلها ما لا تحتمل، لا تجلب مع ذلك مطلقاً هذا الاقتناع الكامل الذي يفرضه على الطبيب تحليل الكبار الراشدين. فالأحلام التي نحن في صددها ترد هنا مصحوبة بمقدمات يستحيل معها تجنب تفسيرها بغير كونها أحلام رغبة. ولقد وجدت يوماً إحدى مريضاتي مكتئبة دامعة وقالت المريضة لي: «إنني لا أريد أن أرى أقربائي أبداً، لا بد أنهم يرتعدون مني فرقاً». ثم أردفت تقول . من غير ما صلة تقريباً .: إنها تذكر حلماً من أحلامها، وإن تكن بالطبع لا تفقه شيئاً من معناه. هذا الحلم قد أتاها في الرابعة، وهذا هو نصه: يجول فهد أو ثعلب[293] على سطح البيت، عندئذ يسقط شيء من أعلى، أو هي نفسها قد سقطت، ثم تحمل أمها ميتة إلى

خارج المنزل . وهنا تنحب الحالمة نحيباً موجعاً. وما كدت أخبرها أن هذا الحلم لا بد يعني رغبة أضمرتها وهي طفلة في أن ترى أمها ميتة وأن هذا الحلم ولا شك هو الذي جعلها تظن أن أقرباءها يرتعدون منها فرقاً، حتى أسلمتني مادة ألقت على الحلم الضوء: ذلك أن «عين الفهد» شتيمة رماها بها ولد من أولاد الأزقة وهي لا تزال صغيرة جداً، ثم إن حجراً قد سقط من السطح وهي في الثالثة والنصف فأصاب رأس أمها وأدماها غزيراً.

وأتيح لي مرة أن أدرس درساً وافياً فتاة مرت بحالات نفسية متقلبة: فقد بدأ مرضها بحالة من الهيجان الخلطي، كانت تبدي في خلالها نفوراً بالغ الشدة من أمها، تضربها وتشتمها كلما اقتربت من سريرها، بينما ظلت في الوقت عينه على حبها وانطياعها لأخت تكبرها كثيراً، ثم أعقبت هذه حالة من صفاء الذهن، وإن صاحبها شيء من الخمود الانفعالي مع اضطراب في النوم. وفي هذه المرحلة أخذت في علاجها وتحليل أحلامها، وكان عدد عظيم منها يدور . على نحو يزيد أو ينقص استخفاء . حول موت أمها: فهي طوراً تشترك في تشييع جنازة امرأة عجوز، وطوراً آخر تجلس مع أختها إلى المائدة وقد ارتديتا ثياب الحداد . بحيث لم يعد هناك أقل مجال للشك في معنى هذه الأحلام. فلما زادت حالها تحسناً أخذت مخاوف هستيرية في الظهور. وكان أشد هذه المخاوف تعذيباً لها الخوف من أن تصاب أمها بمكروه؛ فكانت . حيثما كانت . تضطر إلى أن تعجل بالعودة إلى المنزل، حتى تقتنع بأن أمها لا تزال حية ترزق. هذه الحالة . هي وتجاربي الأخرى مجتمعة . قد علمتني الشيء الكثير؛ فهي قد أرتني . فيما يشبه الترجمة إلى لغات مختلفة . تنوُّع الطرق التي يستجيب بها الجهاز النفسي إلى فكرة مهيجة: ففي حالة الهيجان . التي أتصورها على أنها طغيان النظام النفسي الأول الذي يظل في العادة مكبوتاً على النظام النفسي الثاني . يجد العداء نحو الأم متنفساً حركياً قوياً، فلما أخذت الحالة في الهدوء وقُمعت الثورة واستتب سلطان الرقابة من جديد، لم يبق لعداوتها من مجال مفتوح غير مجال الحلم تحقق فيه رغبتها في موت أمها، ولما قويت الحالة السوية بعد ذلك ظهر قلقها المفرط على أمها من حيث هو استجابة هستيرية مضادة وظاهرة من ظواهر الدفاع. وهنا لا يعود يغمض علينا لم كان من الشائع إلى هذا المدى أن تتعلق الفتيات الهستيريات بأمهاتهن في تحنان زائد.

وأتاحت لي فرصة أخرى أن أسبر غور الحياة اللاشعورية عند شاب في مقتبل العمر كاد عصابه القهري أن يعجزه عن الحياة. فهو لم يكن يخرج إلى الطريق؛ لأنه إذا خرج عذَّبه الخوف من أن يقتل كل من مر به. وكان يقضي أيامه وهو يفكر في دليل يثبت به براءته إذا وقعت جريمة قتل في المدينة وأخذ هو بجريرتها . وغنيٌّ عن البيان أن هذا الشاب كان على مقدار عظيم من علو الخلق والثقافة على السواء. لقد بيَّن التحليل (وهو تحليل أدى إلى شفائه) أن أساس هذه الفكرة القهرية الأليمة كان دافعاً إلى القتل يستهدف أباه، وكان هذا الأب على صرامة لا تخلو من بعض الغلو. ولقد أعرب المريض لفرط دهشه عن هذا الدافع إعراباً شعورياً وهو في السابعة من عمره، وإن كانت نشأة الدافع ترجع بالطبع إلى ما قبل ذلك كثيراً من سني الطفولة. فلما قضى الأب بعد مرض حفل بالعذاب ركب المريضَ . وكان في الحادية والثلاثين . تأنيب قهري تحوَّل إلى الغرباء في صورة هذه المخافة. وكأنما كان المريض يحدث نفسه قائلاً: إن من استطاع أن يرغب في أن يدفع أباه من قمة جبل عال إلى هاوية سحيقة لا يمكن أن يؤتمن بحال من الأحوال على احترام حياة الغير ممن هم أقل قرباً إليه؛ ولهذا كان صواباً منه أن يلزم غرفته حبيساً.

وتشهد خبرتي . وهي خبرة بلغت مدى واسعاً . بأن الوالدين يقومان بالدور الرئيس في الحياة النفسية الطفلية لكل من صار في مستأنف حياته عصابياً. فمحبة أحد الوالدين وكراهية الآخر من المقومات الجوهرية في خزانة الاندفاعات النفسية التي تتكوَّن في ذلك الوقت والتي تملك أكبر الأهمية في تشكيل أعراض العصاب الذي يجيء بعد ذلك. بيد أنني لا أعتقد أن العصابيين يختلفون في هذه الناحية اختلافاً جوهرياً من أولئك الذين يظلون سويين أي أنهم يملكون القدرة على أن يخلقوا شيئاً جديداً مطلق الجدة، خاصاً بهم كل الخصوص. بل الذي يرجح ذلك كثيراً وتؤيده أيضاً الملاحظات العارضة عن الأطفال السويين هو أن العصابيين بمشاعرهم هذه . من حب وكره نحو والديهم . إنما يطلعوننا في صورة مكبرة على ما يعتمل في نفوس معظم الأطفال بوضوح أقل وشدة منقوصة. ولقد جاءتنا من الزمن القديم أسطورة لا سبيل إلى أن نفهم فعلها العميق الشامل في النفوس إلا إذا كان الفرض الذي قدمته في سيكولوجية الطفل صحيحاً كذلك صحة شاملة.

وأنا أشير هنا إلى أسطورة الملك أوديب وإلى مسرحية سوفوكليس التي تحمل اسمه: وُلد أوديب من لايوس ملك طيبة ومن زوجه يوكاستا، وأُلقيَ به إلى العراء وهو بعدُ رضيع، لأن نبوءة أعلمت لايوس . وابنه ما زال بالرحم . أن ابنه هذا سوف يكون قاتله. إلا أن منقذاً أنقذه وشب الطفل ولياً للعهد في بلاط أجنبي إلى أن خامره الشك في أصله فراح بدوره يستفسر العرافة فأنذرته إياه والإقامة في وطنه؛ فقد قضي عليه أن يقتل أباه وأن يأهل أمه. وبينما هو هائم على وجهه في طريق يبعده عما يظن أنه وطنه إذا هو يلتقي بالملك لايوس فيصرعه في قتال نشب على غرة. وأقبل بعدها إلى طيبة، وهناك حل لغز أبي الهول[294] الذي كان يعترض الطريق إلى المدينة فنصَّبه الطيبيون ملكاً عليهم عرفاناً منهم بجميل صنعه، وأهدوا إليه يد يوكاستا. وظل أوديب يحكم دهراً آمناً معززاً، وأعقبت له أمه المجهولة منه ولدين وابنتين، إلى أن نزل وباء فكان سبباً في أن يذهب الطيبيون في سؤال العرافة من جديد. وهنا تبدأ مأساة سوفوكليس: يعود الرسل بهذا البلاغ: ينقطع الوباء إذا ارتحل قاتل لايوس عن الديار. ولكن بأي أرضٍ هو؟

«أين نجد هذا الأثر الخفي لجريمة غابرة؟»

ولا تقوم المعالجة المسرحية في شيء آخر سوى الإفضاء . إفضاء تتزايد الإثارة في سياقه رويداً رويداً ويتم بعد تعويق ماهر، حتى لتجوز مقارنته بسير التحليل النفسي . بأن أوديب نفسه هو هو قاتل لايوس وأنه أيضاً ولده، منه ومن يوكاستا. ويرتاع أوديب لهول ما أتى غير عالم، فيفقأ عينيه ويهجر وطنه. وهكذا تصدق النبوءة.

«أوديب ملكاً» تدخل بين ما يعرف باسم مأساويات القدر. ويقال: إن تأثيرها المأسوي يقوم في التضاد بين مشيئة الآلهة القاهرة وبين محاولة الإنسان سدى أن يجنب نفسه الويل الذي يتهدده. ويقال أيضاً: إن الدرس الذي يخرج به من شهد المسرحية فملكته . هو الاستسلام للمشيئة الإل~هية والبصر بقلة حوله. وعلى ذلك أراد المؤلفون المحدثون أن يبلغوا مثل هذا التأثير المأسوي، فحاكوا هذا التضاد عينه في خيال من عندهم. ولكن المشاهدين ظلوا لم يحركوا ساكناً وهم ينظرون كيف تَنْفُذُ عرافة أو نبوءة مهما بذل بريء في دفعها؛ إن مأسويات القدر المحدثة لم تصب وقعاً.

فإذا كانت «أوديب ملكاً» تهز اليوم معاصرينا مثلما هزت من عاصرها من الإغريق، فلا تفسير لذلك إلا أن وقعها لا يقوم على ما بين القدر وإرادة الإنسان من التضاد، وإنما ينبغي علينا أن نلتمس سر هذا الوقع في طبيعة المادة التي تَشَخَّص بها هذا التضاد. أو قل: إنه لا مناص من أن يكون ثمة صوت يُعِدُّنا لأن نعرف قوة القدر الطاغية في أوديب، على حين يسعنا الزهد في مواقف من قبيل ما يحاك في «الجدة» [جريلپارتسر] أو غيرها من مأسويات القدر المحدثة زهدنا في نتاج لم يمله سوى هو صاحبه. وقصة الملك أوديب تشتمل حقيقة في طياتها على عامل من هذا القبيل: فما يحركنا مصيره إلا لأنه مصير قد كان يمكن أن نصير إليه، لأن النبوءة قد صَبت علينا . ولما نولد . تلك الدعوة التي صُبت عليه؛ فلعله قد قدّر علينا أجمعين أن نتجه بأول نزوعنا الجنسي جهة الأم وبأول البغضاء ورغبة الدمار جهة الأب، وأحلامنا تقنعنا بأن الأمر كذلك. فما عدا أوديب الملك الذي قتل أباه لايوس وتزوج أمه يوكاستا أن يحقق رغبات من طفولتنا. بيد أننا ونحن أسعد منه حظاً قد نجحنا في أن نتحول بنوازعنا الجنسية عن أمهاتنا وفي أن ننسى غيرتنا من آبائنا . نجاحاً يقاس بمقدار نجاحنا في ألا نصير عصابيين. ولكن، ها هو ذا البعض تحققت عنده هذه الرغبات وليدة الزمن الأول: إن الرعدة لتسري فينا وإنا لندبر بعداً عنه، لا تدخر في ذلك طاقة من الكبت الذي ألجم منذ إذ ذاك هاته الرغبات في دخيلتنا. فالشاعر إذ يخرج إلى الضوء . بينما ينقّب في الماضي . جرمَ أوديب هذا لا يترك لنا محيصاً عن أن نعرف دخيلتنا، دخيلتنا التي لا تفتأ هاته الدفعات ماثلة فيها وإن قمعت. والتقابل الذي تودعنا الجوقة على صورته:

«أنظروا أوديب هذا، من حل اللغز الذائع الصيت وكان رجلاً فاق الرجال اقتداراً، من كان المواطنون جميعاً يرمقون حظه في حسد، أنظروا في أي بحر من الشقاء يقذف به!»[295]. هذا التقابل تحذير يصيبنا ويصيب كبرياءنا، نحن الذين صرنا . في اعتقادنا . على هذه الدرجة من الحكمة ومن القوة منذ أن شيَّعنا سني الطفولة؛ فنحن نعيش . مثل أوديب . على جهل بهذه الرغبات المنافرة للأخلاق، التي فرضتها الطبيعة علينا، ولئن كشفت لأردنا أيضاً لو نغضّ الطرف عن مشاهد طفولتنا[296].

فأما أن أسطورة أوديب قد نبعت من مادة حلمية قديمة أزلاً، متصلة بهذا الاضطراب الأليم الذي ينتاب علاقة الطفل بوالديه من جراء نزعاته الجنسية الأولى . ذلك ما يجد في نص مأساوية سوفوكليس إشارة لا شبهة فيها. فها هي ذي يوكاستا ترفِّه عن أوديب . ولم يكن قد استنار بعد ولكن ذكرى النبوءة أخذت تشيع الاضطراب في نفسه . فإذا هي تشير إلى حلم يأتي حقيقة أناساً كثيرين لكن دون أن يعني ذلك . في زعمها . شيئاً:

« كم من مائت قبلك ضاجع في الحلم أمه ، ولكن يسهل عبء العيش لمن لم يلق إلى ذلك بالاً» (سطر 982 وما بعده).

واليوم كما في ذلك الوقت يحلم الكثيرون بمضاجعة الأم ويروون أحلامهم مستنكفين، متعجبين. ومن السهل أن نفهم أن هذا الحلم هو مفتاح المأسوية والجزء المكمّل للحلم بموت الأب. فقصة الملك أوديب استجابة من المخيلة إلى هذين الحلمين النمطيين جميعاً. وكما أن هذه الأحلام تصحبها . حين تقع للراشدين . مشاعر شتى من النفور فقد حق كذلك أن تضم الأسطورة في طياتها الارتياع وإيقاع العقاب بالنفس. وأما التحوير الذي يجيء بعد ذلك فمنشأه مرة أخرى أن المادة تراجع هنا أيضاً مراجعة ثانوية خاطئة تهدف إلى استخدامها في أغراض لاهوتية. (أنظر مادة أحلام الاستعراض في ص 282 وما بعدها). ولكن كان من الحتم أن تخفق محاولة التوفيق بين القدرة الإل~هية المطلقة وبين المسؤولية الإنسانية، في صدد هذا الموضوع كما في غيره.

وهناك مأثرة أخرى من مآثر الشعر المأسوي تضرب جذورها في ذات التربة التي تضرب فيها أوديب ملكاً: تلك هي «هاملت» شكسبير. بيد أن المعالجة المختلفة للمادة الواحدة تجلو لنا كل الفرق في الحياة النفسية بين هذين العصرين المتباعدين تباعداً كبيراً من عصور الحضارة، وأعني بهذا الفرق تقدم الكبت عبر القرون في الحياة العاطفية للبشرية. ففي «أوديب» يظهر جهاراً ذلك التخييل الذي يجيب رغبة الطفل والذي تقوم عليه المأسوية، ويتحقق كما قد يتحقق في حلم. فأما «هاملت» فيظل فيها هذا التخييل مكبوتا، ولا نعلم عن وجوده شيئاً إلا بما يظهر من عواقب كفه . شأن الحال مع العصابيين. والعجيب أنه يتبيَّن أن ما تملكه المأسوية الأحدث من وقع طاغ في نفوس الناس لا يتعارض مع بقائهم من أمر طبع البطل في ظلمة مطلقة. فالمسرحية تقوم على تردد هاملت في إنفاذ الانتقام الذي وكِّل إليه، ولكن ما هي أسباب هذا التردد أو دواعيه، ذلك ما لا ينبس النص بحرف عنه ويذلت في تفسيره محاولات لا تحصى فما أتت بطائل. فهاملت في نظرة أصلها جوته[297] ولا تزال لها الغلبة حتى اليوم يمثِّل

هذا الطراز من الرجال الذين شلّت عندهم القدرة على العمل المباشر: شلَّها نمو العقل نمواً مفرطاً («أسقمه الفكر الشاحب»). وفي نظرة أخرى أن الشاعر قد أراد أن يصور لنا طبعاً مريضاً مذبذباً شارف النوراستانيا. بيد أن المسرحية ترينا أن هاملت بعيد كل البعد عن أن يصوَّر في صورة إنسان فقد كل قدرة على العمل. فنحن نراه يعمل مرتين: الأولى في فورة مباغتة حين يطعن السامع المسترق من وراء الستار، وأما الثانية فعن قصد مبيَّت بل في مكر جم، وذلك حين يرسل برجلي البلاط إلى الموت الذي كان مدبراً له هو، مبدياً في ذلك كل التحلل الخلقي الذي يمكن أن يتَّصف به أمير من أمراء عصر النهضة. فما الذي يوقفه على هذا النحو في إنفاذ المهمة التي كلَّفه شبح أبيه إياها؟ الجواب نجده مرة أخرى في الطبيعة الخاصة لتلك المهمة. إن هاملت يستطيع أن يأتي كل شيء إلا أن يثأر من الرجل الذي أزاح أباه واحتل مكانته عند أمه، الرجل الذي يريه . إذن . رغباته الطفلية وقد تحققت. وهكذا يحل عنده محل الاستبشاع الذي كان كفيلاً أن يدفعه إلى الانتقام تأنيب النفس وتخوُّف الضمير يذكرانه أنه لا يفضل بحرف ذاك الخاطىء الذي كلَّف عقابه. وأنا إذ أقول ذلك أترجم في عبارة شعورية ما كان مقرراً بقاؤه لاشعورياً في نفس البطل. فإن أراد البعض أن يدعو هاملت هستيرياً، لم أجد إلا أن أسلِّم بأن تلك نتيجة تخرج من تفسيري. ويتسق وذلك أحسن الاتساق ما يعرب عنه هاملت في حديثه مع أوفيليا من نفوره من الحياة الجنسية؛ هذا النفور الذي كان مقدَّراً أن يزيد على الدوام تمكناً من نفس الشاعر في مستأنف سنواته حتى بلغ التعبير عنه أقصاه في «تيمون الأثيني» . فما يطالعنا في هاملت بالطبع سوى الحياة النفسية للشاعر. وإني لألحظ في كتاب جورج براندس (1896) قوله: إن شكسبير كتب هذه المسرحية فور موت أبيه (1601) أي حين كانت وطأة الحزن عليه في أشدها وحين بعثت في نفسه من جديد . كما يحق لنا افتراضه . مشاعره الطفلية نحو والده. ومن الأمور المعلومة كذلك أن والد شكسبير الذي مات في سن مبكرة كان يحمل اسم هامنت (وهو ما يطابق هاملت). وكما أن هاملت تعالج العلاقة بين الابن والوالدين، كذلك تدور «ماكبث» المكتوبة قرب تلك الفترة حول موضوع العقم من الخلف. هذا، سوى أنه كما أن جميع الأعراض العصابية . شأن الحلم ذاته . تقبل أكثر من تفسير واحد، لا بل هي تقتضي مثل هذا التفسير المضاعف إذا نحن أردنا أن نفهمها حق الفهم، كذلك كل خلق فني صادق: فهو يصدر عن أكثر من دافع واحد وعن غير هائج واحد بنفس الشاعر، وهو يفسح المجال لأكثر من تفسير. فما حاولت هنا إلا أن أفسر هذه الطبقة من الدوافع التي ترسب في قرارة النفس عند الشاعر الخلّاق[298].

ولست أستطيع أن أترك الأحلام النمطية بموت الأقرباء المحببين دون أن أضيف بضع كلمات أوضح بها دلالة هذه الأحلام بالنسبة إلى نظرية الحلم عامة. فهذه الأحلام تطالعنا بوضع لم نألفه قط، وهو أن فكرة الحلم التي أملتها الرغبة المكبوتة تفلت من كل رقابة وتظهر في الحلم من غير ما تحريف. فلا بد أن تكون هناك شروط خاصة تجعل ذلك أمراً ممكناً. وأعتقد أن العاملين الآتيين هما اللذان يعينان على وقوع هذه الأحلام: العامل الأول هو أننا نعتقد أن هذه الرغبة أبعد ما تكون عنا، أنها «لا تخطر لنا ولو في الحلم»، ولهذا ظلت الرقابة على الحلم غير معدة لمواجهة هذه الشناعة، على نحو ما ظلت شرائع صولون من غير نص على عقاب من قتل أباه. والعامل الثاني هو أنه يكثر بنوع خاص في هذه الحالة أن يذهب إلى لقاء تلك الرغبة الممنوعة غير المتوقعة أثر من اليوم السابق في صورة القلق على حياة شخص عزيز: هذا القلق لا يستطيع أن ينفذ إلى الحلم إلا إذا استغل تلك الرغبة التي تلتقي به في منتصف الطريق، بينما تستطيع تلك الرغبة من ناحيتها أن تتقنَّع بقناع ذلك القلق الذي اختلج في أثناء النهار. فإن ارتأى البعض أن الأمر أبسط من ذلك كثيراً وأن الأمر لا يعدو أننا نتابع في الليل وفي أحلامنا ما شغلنا به في نهارنا، فإن صاحب هذا الرأي يترك الحلم بموت الأحباء من غير رباط يجمعه بنظرية الحلم عامة، وهو بذلك يتشبث من غير داع بلغز يقبل الحل كل القبول.

ومن المفيد كذلك أن تتأثر علاقة هذه الأحلام بأحلام الهيلة. فإن الرغبة المكبوتة قد تمكنت في الأحلام التي يموت فيها من نحب من أن تجد وسيلة تفلت بها من الرقابة ومن التشويه الذي تفرضه هذه الرقابة، ولا يكون ذلك دون أن يستشعر الحالم في أحلامه مشاعر أليمة. وأحلام الهيلة إنما تنشأ على هذا النحو عينه حين تكتسح الرقابة اكتساحاً شاملاً أو جزئياً . هذا من جهة ،. بينما نجد . من جهة أخرى . أن اكتساح الرقابة يسهل حين تكون الهيلة قائمة بالفعل في صورة إحساس خامد ناشط منبعث من مصادر جسمية [أنظر ص 276]. وهكذا يتَّضح كل الوضوح أي غرض تقوم الرقابة من أجله بوظيفتها، ولأي غرض تشوه الحلم: ذلك لكي تحول دون تمخض الهيلة وغيرها من الحالات الوجدانية الأليمة.

*

لقد تحدثت فيما سبق [أنظر ص 289] عن أنانية النفس الطفلية. وأردف الآن . لكي أشعر بالصلة . أن الأحلام كذلك تتسم بهذا الطابع عينه. فالأحلام في جملتها على أنانية مطلقة، والأنا المحبوب يظهر فيها جميعاً وإن تقنَّع. والرغبات التي تتحقق فيها من غير استثناء رغبات هذا الأنا عينه. وإذا لاح أن الاهتمام بالغير قد أثار حلماً، فما ذلك إلا مظهر خادع. وهأنذا أحلل بضعة أمثلة تبدو مناقضة لما أقول.

1

روى طفل لم يبلغ الرابعة: أنه رأى طبقاً كبيراً ازدحم بالخضر وعلته شريحة كبيرة من اللحم المشوي. ابتُلعت الشريحة دفعة واحدة دون

تقطيع. لم ير الحالم من أكلها[299].

من هو يا ترى هذا الشخص المجهول الذي أتحفه حالمنا الصغير بتلك الشريحة الفاخرة؟ لا شك في أن خبرة اليوم السابق تلقي الضوء على ذلك: فالطفل كان منذ بضعة أيام لا يغتذي إلا باللبن خضوعاً لأمر الطبيب، وهو بالأمس قد جاوز الحد في «الشقاوة» فكان عقابه الحرمان من وجبة العشاء. ثم إنه كان ذا خبرة سابقة بعلاج الحمية هذا وأظهر في احتماله شجاعة كبيرة: كان يعرف أنه لن يحصل على شيء من الطعام ولكنه لم يكن يبيح لنفسه أقل إشارة إلى جوعه، ولو بكلمة واحدة. والتربية إذن كانت قد أخذت تحدث أثرها فيه. وإنها لتفصح عن نفسها في هذا الحلم الذي تظهر فيه بواكير التشويه. فلا شك في أنه هو هذا الشخص الذي تتجه رغائبه إلى مثل هذه الوجبة الحافلة ـ وأي وجبة! وجبة من اللحم. ولكنه وهو يعلم أن ذلك محرم عليه لا يجرؤ على الجلوس إلى المائدة كما يفعل الأطفال الجائعون في أحلامهم (أنظر حلم ابنتي الصغيرة آنا بالكريز، ص 173). وهكذا يظل الآكل مجهولاً.

2

حلمت مرة أنني أرى في واجهة إحدى المكتبات مجلداً جديداً من إحدى هذه السلسلات التي اعتدت شراءها والتي تُنشر من أجل الهواة في موضوع بعينه (كبار الفنانين، تاريخ العالم، أشهر المدائن... إلخ). وكان عنوان السلسلة الجديدة هو «أشهر الخطباء» أو «الخطب»، وكان أول مجلداتها يحمل اسم الدكتور ليشر.

عندما أخذت أحلل هذا الحلم بدا لي أمراً بعيداً عن الاحتمال أن أشغل في أحلامي بشهرة الدكتور ليشر، هذا المتحدث الذي لا يفرغ من الكلام باسم المعارضة الألمانية في البرلمان. وحقيقة الأمر هي أنني قد أخذت من أيام قلائل في علاج بعض المرضى الجدد، وهكذا أصبحت اليوم مضطراً إلى التحدث عشر ساعات أو إحدى عشرة ساعة في اليوم. فأنا أيضاً متكلم لا يفرغ.

3

وحلمت في مرة أخرى أن بعض معارفي من أعضاء هيئة التدريس يقول: يا بنَي، ضعيف النظر. ثم يعقب ذلك حوار مؤلف من جمل قصيرة وردود عليها. ولكن هذا الحوار قد أعقبه أيضاً جزء ثالث من الحلم أظهر فيه أنا وأبنائي، وليس الأستاذ م. وابنه ـ من حيث يتصل الأمر بالمحتوى الكامن للحلم ـ إلا شبحين قصد بهما إلى تغطيتي أنا وابني الأكبر. وسأعود إلى هذا الحلم مرة ثانية لخاصة أخرى فيه [ص 466 وما بعدها].

4

ويضرب لنا الحلم الآتي مثالاً على مشاعر أنانية خسيسة استترت وراء قلق رؤوف:

يبدو صديقي أوتو معتل الصحة؛ فوجهه مسود وعيناه جاحظتان.

إن أوتو طبيب أسرتي ودَيني نحوه يفوق كل ما أطمع في أن أجزيه به؛ فهو يسهر على صحة أبنائي منذ سنوات ويعالجهم في مرضهم علاجاً شافياً، وهو بعد هذا كله لا يدع فرصة تمر دون أن يهدي إليهم شيئاً [أنظر ص 160]. واتفق أنه زارنا في يوم الحلم ولاحظت زوجي أنه يبدو متعباً مستنفد القوى. وفي الليل أحلم به وأعزو إليه في الحلم بعضاً من أعراض مرض بازدوف. إنَّ من يتعرض لتفسير هذا الحلم غير ملتفت إلى قواعدي سوف يخلص إلى أنني كنت في قلق على صحة صديقي وأن هذا القلق يتحقق في الحلم. والحلم إذن لا ينقض رأيي في أن الأحلام تحقق رغبات وحسب، إنه ينقض كذلك قضيتي الأخرى: أن الأحلام لا تعرف غير الدوافع الأنانية. ولكن هلَّا يبيِّن لي من أخذ بهذا التفسير لم خشيت على أوتو من مرض بازدوف ـ وهو تشخيص ليس في مظهر أوتو الحقيقي أقل دليل عليه؟ إن تحليلي يمدني بالمادة الآتية التي ترجع إلى حدث وقع منذ ست سنوات خلت: كنا صحبة صغيرة ضمت الأستاذ ر. وكنا نركب في حلكة الليل عربة تجتاز غابة ن. الواقعة على مسيرة ساعات من المكان الذي كنا نصيِّف فيه، وفجأة قذف السائق ـ وكان ثملاً بعض الشيء بالعربة وبمن فيها في منحدر كان هناك، ولولا حسن الحظ ما خرجنا جميعاً سالمين. غير أننا اضطررنا إلى أن نقضي الليل في نزل قريب بلغته أنباء حادثتنا فأدرَّت علينا عطفاً كثيراً. وجاء سيد يحمل علائم لا تخطىء على مرض بازدوف ـ وكانت على التحديد اسوداداً في بشرة الوجه مع جحوظ العينين ولكن بغير تضخم الغدة الدرقية كما هو الحال في الحلم تماماً ـ جاء يضع نفسه بكليته تحت تصرفنا ويسأل هل يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلنا. فأجابه الأستاذ ر. بطريقته الحاسمة: لا شيء إلا أن تقرضني قميصاً

للنوم. وهنا أجابه رجلنا النبيل قائلاً: «إني آسف، ولكن هذا هو ما لا أستطيعه» ثم بارح الحجرة.

ولما تابعت تحليلي خطر لي أن بازدوف ليس اسم طبيب وحسب بل هو أيضاً اسم مربٍّ معروف. (ولست أثق الآن وأنا مستيقظ من صحة هذه المعرفة)[300]. ولكن صديقي أوتو هو هذا الشخص الذي رجوت منه أن يُعنى إذا ما أصابني مكروه بالتربية البدنية لأبنائي، وبخاصة في سن المراهقة (ومن هنا قميص النوم). وأنا ـ إذن ـ إذ أرى صديقي أوتو في الحلم بأعراض صاحبنا ذي المروءة أهدف صراحة إلى أن أقول: لو أن مكروهاً أصابني لأبدى من العون مثل ما أبداه البارون ل. في هاتيك المناسبة رغم عروضه السخية. ولعل في ذلك ما ينشر طيَّة الأنانية في هذا الحلم[301].

ولكن أين تحقيق الرغبة؟ إننا لا نجده في الانتقام من صديقي أوتو الذي قدِّر عليه ـ فيما يبدو ـ أن تساء معاملته في أحلامي، بل في الملابسة الآتية: إذا كنت قد صوَّرت أوتو في صورة البارون ل. فإني بهذا عينه أكون قد عيَّنت شخصي أنا بآخر غيره، وأعني به الأستاذ ر.؛ فأنا أيضاً قد طلبت من أوتو طلباً مثلما فعل الأستاذ ر. مع البارون ل. إبان تلك الحادثة. وهنا بيت القصيد: فالأستاذ ر. ـ وهو الذي ما كنت لأجرؤ في الحقيقة على أن أقارن نفسي به لولا ذلك ـ قد شق أيضاً طريقه بعيداً عن العالم الأكاديمي ولم يحصل إلا بعد عمر طويل على لقب الأستاذية الذي كان يستحقه منذ أمد بعيد. وأنا إذن أبتغي مرة أخرى أن أصبح أستاذاً. لا، بل إن هذه الكلمات ذاتها: «بعد عمر طويل» لتحقق هي أيضاً رغبة؛ لأنها تعني أنني سأعيش حتى أرى بنفسي أولادي وهم في سن المراهقة.

وهناك أنواع أخرى من الأحلام النمطية[302] يطير فيها المرء مسروراً أو يسقط وهو يشعر بالهيلة: هذه أحلام ما عرفتها قط بخبرة شخصية وكل ما أستطيع قوله عنها إنما أستمده من التحليلات النفسية التي أجريتها. والدروس التي يتلقاها المرء من هذه التحليلات تلجئه إلى النتيجة الآتية؛ أن هذه الأحلام أيضاً تعيد انطباعات من انطباعات الطفولة، إنها تتعلق على التحديد بألعاب حركية تجتذب الأطفال اجتذاباً فائقاً. فمن هو هذا العم الذي لم يُعِن طفلاً على الطيران بأن يهرول به باسط الذراعين عبر الغرفة، أو لم يتخذ من السقوط مادة لملاعبته، فيجلسه على ركبته ثم يمد ساقه فجأة أو فيرفعه عالياً ثم يهيىء إليه بحركة مباغتة أنه يتخلى عنه؟ والأطفال حينئذ يصيحون طرباً ولا يكلُّون من استعادة هذه الألعاب، وبخاصة إذا احتوت على ما يحدث بعضاً من الخوف أو الدوار. وإنهم ليستعيدونها في أحلامهم بعد أن تمضي بهم السنون، سوى أنهم يحذفون من الحلم اليد التي تمسك بهم بحيث يبدون اليوم كمن يطيرون أو يسقطون أحراراً. وولع الأطفال بأمثال هذه الألعاب ـ كولعهم بالأراجيح بأنواعها ـ أمر معروف. فإذا رأوا في «السيرك» بعض الأفانين البهلوانية جدد ذلك عندهم ذكرى هذه الألعاب[303]. وقد لا تخرج النوبات الهستيرية عند الصبية عن أن تكون استحضاراً يتأدَّى في مهارة بالغة لأمثال هذه الأفانين. كما أنه لا يندر أن تنبِّه هذه الألعاب الحركية ـ وإن كانت بريئة في ذاتها ـ مشاعر جنسية[304]. وإذا جاز لي أن أستخدم تعبيراً دارجاً اعتدنا أن نطلقه على هذا النشاط بكافته، قلت: إن «هيجان» الأطفال هو ما يستعاد في أحلام الطيران والوقوع والتأرجح وما شابهها استعادة تنقلب في خلالها اللذة إلى هيلة. ولكن هياج الأطفال كثيراً ما ينتهي في الواقع كذلك بالشجار وبالدموع ـ كما تعرفه كل أم.

وأنا ـ إذن ـ أملك أسباباً طيبة أستبعد على أساسها النظرية القائلة: إن أحاسيسنا اللمسية في أثناء النوم وكذلك الإحساس بحركة الرئتين وما أشبه ـ هي التي تبعث على أحلام الطيران والسقوط [أنظر ص 86]، بل في رأيي أن هذه الأحاسيس ذاتها إنما تستحضر باعتبارها جزءاً من مقومات الذكرى التي يرتد إليها الحلم، أي أن هذه الأحاسيس جزء من محتوى الحلم وليست مصادر له.

ولكنني لا أخفي عن نفسي بحال من الأحوال قصوري عن الإتيان بتفسير كامل لهذه الطائفة من الأحلام النمطية؛ فالمادة التي عندي تتركني حائراً في هذه المسألة بالذات. إلا أنني ـ على أية حال ـ لا أرى بداً من الاستمساك بوجهة النظر العامة هذه: أن جميع الإحساسات اللمسية والحركية المتضمنة في هذه الأحلام إنما تستدعى على الفور كلما احتاج إليها دافع نفسي ما، وأن من الممكن إغفالها إذا لم تكن هناك مثل هذه الحاجة [أنظر ص 278]. وكذلك العلاقة بين هذه الأحلام وخبرات الطفولة: إنها تبدو لي أمراً تقطع به الدلائل المتجمعة عندي من تحليل العصابيين. فأما ما هي سائر المعاني التي تجيء في سياق الحياة فترتبط بذكرى هاته الإحساسات ـ وأرجح أن هذه المعاني تختلف باختلاف الأفراد مهما كان من ظهور هذه الأحلام على نحو نمطي ـ فذلك ما لا أعرف الجواب عنه، وكم كنت أود لو كان في استطاعتي أن أسد هذا النقص بتحليل بعض الأمثلة البيِّنة تحليلاً دقيقاً. فإن عجب البعض إذ يراني أشكو نقص المادة في هذا الصدد وليس أكثر من هذه الأحلام على التحديد ـ أحلام الطيران والسقوط ووقوع الأسنان، إلخ. ـ أجبته بأن مثل هذه الأحلام لم تقع لي قط منذ أن وجهت انتباهي إلى موضوع تفسير الأحلام. وأما أحلام العصابيين فلا يسعنا دائماً ـ أو على الأقل لا يسعنا كثيراً ـ أن نمضي في تحليلها إلى غاية معناها الخبيء؛ فهناك قوة خاصة ـ قوة كان لها نصيبها في تكوين العصاب أصلاً وتتحرك إلى العمل حين نتعرض لحله ـ تحول دون تفسير الحلم حتى لغزه الأخير.

(ج) أحلام الامتحان

إن كل من اجتاز امتحان البكالوريا في ختام الدراسة الثانوية يشكو من إلحاح هذا الحلم من أحلام الهيلة في ملاحقته: أنه قد رسب في الامتحان، أو أنه مضطر إلى إعادته من جديد، إلخ. وأما الذين حصلوا على درجة جامعية فيحل عندهم محل هذا الحلم النمطي حلم آخر يخيل إليهم أنهم قد رسبوا في امتحان الإجازة الجامعية، وهو ما يعترضون عليه سدى وهم ما زالوا نياماً محتجّين بكونهم يعملون منذ سنوات كأطباء أو محاضرين بالجامعة أو رؤساء أقلام: تلك ذكريات لا تُجْتَذَر عن ألوان من العقاب لقيناها في طفولتنا جزاء على سوء فعالنا، ذكريات تبعث في نفوسنا من جديد رابطةً نفسها بهاتين اللحظتين الحاسمتين في تاريخ حياتنا المدرسية، ب. «يوم الغضب، ذاك اليوم»[305]، يوم نمتحن أعسر امتحانين. وإلى هذه المخاوف الطفلية عينها يرجع اشتداد «هيلة الامتحان» عند العصابيين. فنحن بعد أن نفرغ من مرحلة التلمذة لا نرجع نلقى عقابنا على يد آبائنا أو أولياء أمورنا أو المدرسين من بعدهم، وإنما يتكفل بتربيتنا في مستأنف السنين هذا الرباط العِلّي الذي لا يرحم بين أحداث الحياة الواقعة. وها نحن أولاء نحلم اليوم بامتحان البكالوريا أو الإجازة الجامعية . ومن ذا الذي لم يرتعد إذ ذاك ولو كان مستعداً؟ . كلما ارتكبنا خطأ أو قصَّرنا في أمر فخشينا أن تأتي العاقبة بالعقاب، أي كلما شعرنا بوطأة المسؤولية.

ولأحلام الامتحان تفسير أعمق أدين به لملاحظة لاحظها أحد الزملاء المحنكين (وهو شتيكل) إذ أعلن مرة في اجتماع علمي أن الحلم بامتحان البكالوريا لا يأتي . بقدر ما يعلم . إلا الذين اجتازوا هذا الامتحان بنجاح، ولا يأتي أبداً أولئك الذين أخفقوا فيه. وهكذا يلوح أن أحلام الامتحان المصحوبة بالهيلة . وهي التي يثبت بالملاحظة تلو الملاحظة أنها تأتي المرء حين تنتظره في الغد مسؤولية يخشى الإخفاق فيها . يلوح أنها تتلمَّس مناسبة ماضية لم تجد فيها الهيلة الشديدة ما يبررها بل جاءت الحوادث بما يكذبها. وإذا كان الأمر كذلك، كان هذا مثالاً عجيباً على الخطأ الذي نقع فيه إذ نفهم محتوى الحلم بوساطة النظام المستيقظ [أنظر ص 283]. فما نعده احتجاجاً على الحلم: «ولكنني طبيب بالفعل، إلخ» هو في الحقيقة العزاء الذي يحمله الحلم، عزاء يخلق بنا أن نقرأه على هذا النحو: «لا تخش من الغد شيئاً، أنظر أي هيلة تملكتك قبيل امتحان البكالوريا، ومع هذا لم يمسسك شيء، وها أنت ذا اليوم طبيب بالفعل، إلخ». وأما الهيلة التي نعزوها إلى الحلم فقد تولدت في الحقيقة من بقايا اليوم السابق.

وإن المحاولات التي استطعت إتيانها للتثبت من صحة هذا الرأي عندي وعند غيري . وإن لم تكن كثيرة العدد الكثرة الكافية . قد أيَّدت صدق هذا الرأي. فأنا . مثلاً . قد رسبت في امتحان البكالوريوس في مادة الطب الشرعي، ولم يحدث قط أن امتحنني الحلم مرة ثانية في تلك المادة على حين امتُحنت كثيراً في علوم النبات أو الحيوان أو الكيمياء، وهي مواد كنت أذهب للامتحان فيها وبي هيلة كانت لها أسباب وجيهة ولكنني كنت أفلت من العقاب سواء بفضل الحظ أو بفضل الممتحنين. وأما في الأحلام المتصلة بامتحانات الدراسة الثانوية فأراني أمتحن دائماً في مادة التاريخ وهي مادة نجحت فيها نجاحاً باهراً . وإن رجع الفضل في ذلك إلى أن أستاذي ذا القلب الرحيم (غائثي ذو العين الواحدة في حلم آخر، ص 66) لم يفته أن يلحظ أنني حين أعدت ورقة الأسئلة إليه قد أعلمت بإظفري ثاني الأسئلة الثلاثة المدوَّنة فيها [للإجابة عنها شفهياً] تنبيهاً له إلى أنه لا داعي إلى الإلحاح في هذا السؤال. وأعرف مريضاً من مرضاي عدل عن دخول امتحان البكالوريا في المرة الأولى ثم عاد بعد ذلك فأداه بنجاح، ولكنه أخفق في امتحان الكلية الحربية ولم يفلح قط في أن يكون ضابطاً: هذا المريض يخبرني أنه يحلم في أحيان كثيرة بالامتحان الأول ولكنه لا يحلم أبداً بالثاني.

هذا، ونحن نواجه في تفسير أحلام الامتحانات تلك الصعوبة التي قلت من قبل [ص 281] إنها خاصة من خواص غالبية الأحلام النمطية: فالمادة التي تزوِّدنا بها مستدعيات الحلم لا تكفي في تفسير لحلم إلا نادراً، ولسنا نستطيع الوصول إلى فهم هذه الأحلام فهماً أوفى إلا بجمع عدد ضخم من أمثلتها. ولقد انتهيت منذ زمن غير بعيد إلى تلك النتيجة المستيقنة، وهي أن قول الحلم: «ولكنك طبيب حقيقة، إلخ» لا يضمر العزاء وحسب، بل هو يتضمن لوماً مؤداه: «إنك اليوم رجل كهل تقدمت بك السنون، وأنت مع هذا لا تنقطع عن ذلك العبث الطفلي الأخرق». وهذا المزيج من نقد النفس وتعزيتها هو الذي يعرب في رأيي عن محتوى الحلم الكامن. وعلى ذلك لن يكون أمراً عجباً إذا وجدنا أن ما يجيء في الأمثلة التي حللناها أخيراً من لوم على «الخرق» و«العبث الطفلي» إنما يتعلق في الحقيقة باستعادة أفعال جنسية محرمة.

ولقد كان من رأي شتيكل . وهو الذي أتى بأول تفسير لأحلام البكالوريا[306] . أن هذه الأحلام تلمّح من غير استثناء إلى الامتحان الجنسي والبلوغ الجنسي. وكثيراً ما دعمت خبرتي صحة هذا الرأي.

الفصل السادس: عمل الحلم

إن كل المحاولات التي بُذلت حتى اليوم في حل مشكلات الحلم قد انصبَّت من غير وساطة على محتواه الظاهر كما يمثل في ذاكرتنا؛ فمن هذا المحتوى جهدت هذه المحاولات في الوصول إلى تفسير الحلم، أو عليه أقامت حكمها في طبيعته، حين تركت مشكلة تفسره. نحن وحدنا نواجه وضعاً مختلفاً؛ فهناك مادة جديدة تقوم من وجهة نظرنا بين محتوى الحلم الظاهر وبين النتائج التي انتهى إليها بحثنا: تلك هي محتوى الحلم الكامن أو أفكار الحلم التي بلغناها بمنهجنا. ونحن إنما نفك معنى الحلم من محتواه الكامن لا من محتواه الظاهر. وعلى ذلك تواجهنا مهمة جديدة لم يكن لها وجود من قبل: أن نبحث العلاقة بين محتوى الحلم الظاهر وبين أفكاره الكامنة، وأن نتأثر العمليات التي تستحيل بها هذه الأفكار إلى ذلك المحتوى.

إن أفكار الحلم ومحتوى الحلم يمثلان أمامنا كترجمتين تؤديان في لغتين مختلفتين معنى بعينه، أو بعبارة أصح: إن محتوى الحلم يبدو لنا كأنه نقل لأفكار الحلم في نمط مختلف من التعبير، نمط يحق علينا أن نعرف رسم حروفه وقواعد نحوه، وذلك بالمقارنة بينه وبين الأصل. إننا نفهم أفكار الحلم من غير وساطة فور العلم بها. وأما محتوى الحلم فيأتينا فيما يشبه الكتابة المصورة، كتابة يجب علينا أن ننقل رسومها رسماً فرسماً إلى لغة أفكار الحلم. فمن الجلي أننا ننساق إلى الخطأ حين نقرأ هذه الرسوم بحسب دلالتها المصورة لا على حسب علاقتها الرمزية. هب أمامي لغزاً من الألغاز المصورة: منزل أرى على سطحه مركباً، ثم حرف واحد من الحروف الأبجدية، ثم شخص يجري منزوع الرأس، إلخ. لقد أنزلق إلى النقد معلناً أن هذه الصورة غير معقولة في كلها وفي أجزائها: فما شأن المركب بسطح المنزل؟ وكيف لرجل أن يجري منزوع الرأس؟ ثم إن الرجل أكبر حجماً من المنزل وإذا كان المراد بكل هذا هو أن يصور منظراً طبيعياً فليس هذا محل الحرف الأبجدي، فالطبيعة لا تعرف الحروف الأبجدية. ولكن من الواضح أننا إنما نوفق إلى الحكم على هذا اللغز حكماً صحيحاً حين ندع جانباً أمثال هذه الانتقادات الموجهة إلى الصورة في مجموعها وفي أجزائها، وحاولنا بدل ذلك أن نبدِّل بكل عنصر من عناصر الرسم مقطعاً أو كلمة يمكن تمثيلها بهذا العنصر على نحو من الأنحاء. فإن فعلنا، فقد لا تخرج لنا منه كلمات خالية كذلك من المعنى، بل قول من أجمل ما جاء به الشعر وأفصحه. والحلم لغز مصور من هذا القبيل، ولقد أخطأ المتقدمون علينا في مجال تفسير الحلم فنظروا إلى اللغز نظرتهم إلى لوحة مصورة. وكان أن بدا لهم ـ من حيث هو كذلك ـ خالياً من المعنى، مجرداً من القيمة.

أ
التكثيف

إن أول ما يتبيَّن للباحث عند المقارنة بين محتوى الحلم وأفكار الحلم هو أن ثمة عملية تكثيف قد أجريت على نطاق واسع: فالحلم مقتضب، هزيل، مليء بالثغرات، إن هو قورن بسعة أفكار الحلم وغناها. فهو إذا كتبته قد يستغرق نصف الصفحة، فلو سطرت التحليل الذي ينشر أفكار الحلم المتضمنة فيه لملأت ضعف ذلك ست مرات أو ثماني مرات أو اثنتي عشرة مرة. وتختلف هذه العلاقة باختلاف الأحلام. ولكنها بقدر ما تذهب إليه تجربتي . لا تغير اتجاهها أبداً. ونحن في العادة نقدر مقدار الإدغام الذي يقع تقديراً دون الحقيقة؛ إذ يغلب علينا أن ننظر إلى أفكار الحلم التي خرجت إلى الضوء كما لو كانت تؤلف كل المادة الممكنة، على حين أننا إذا تابعنا التفسير فقد تتكشف لنا أفكار أخرى مستترة وراء الحلم. ولقد سنحت لي الإشارة من قبل [ص 260] إلى كوننا لا نستطيع أن نستيقن أبداً من أن هذا الحلم أو ذاك قد فُسِّر تفسيراً كاملاً. فاحتمال أن يكون للحلم معنى آخر غير الذي كشف احتمال يظل قائماً دائماً حتى ولو بدا الحل مقنعاً لا خلل فيه. أو بعبارة أدق: إن من المستحيل أن نحدد مقدار التكثيف. غير أن هناك رداً يبدو للوهلة الأولى مقبولاً في الغاية على قولنا: إن النقص العظيم في التناسب بين محتوى الحلم وأفكار الحلم دليل على أن المادة النفسية قد احتملت في أثناء تكوين الحلم عملية تكثيف واسعة النطاق. ذلك أننا نشعر في أحيان كثيرة بأننا قد حلمنا بالشيء الكثير طيلة الليل كله ونسينا معظم ما حلمنا به؛ فالحلم الذي نذكره قد لا يكون . بحسب هذا الرأي . سوى نبذة متبقية من مجموع عمل الحلم، ولو قد تذكرنا هذا كله لكان من الجائز أن نجد له من الشمول مثل ما لأفكار الحلم. وما من شك في أن هذا الرأي لا يخلو من بعض الصدق؛ فلا جدال في أننا نستحضر الأحلام على أدق وجه إذا حاولنا أن نتذكرها فور استيقاظنا وأن ما نذكره منها يتناقص شيئاً فشيئاً حتى المساء. غير أننا نستطيع أن نبيِّن . من ناحية أخرى . أن شعورنا هذا بكوننا قد حلمنا بأحلام تربو كثيراً على ما نذكره هو شعور قائم في أحيان كثيرة على وهم سوف أناقش مصدره فيما بعد [ص 513 . 514 ثم ص 534]. أضف إلى ذلك أن فرضنا القائل بأن ثمة تكثيفاً يقع في خلال عمل الحلم هو فرض لا تغيِّر منه في شيء إمكانية نسيان الأحلا لأن هذا الفرض إنما تثبته كمية الأفكار المتصلة بكل جزء مفرد من أجزاء الحلم المحفوظة في الذاكرة. فإن كنا نسينا حقيقة شطراً كبيراً من أحلامنا، فمعنى ذلك في الراجح هو أننا قد حرمنا من الوصول إلى طائفة جديدة من أفكار الحلم. وأما أن نتوقع أن أجزاء الحلم المفقودة ربما تعلقت بهذه الأفكار عينها التي توصلنا إليها بتحليل الأجزاء المتبقية، فذلك ما لا مبرر له على الإطلاق[307].

ولكن من شأن غزارة المستدعيات التي تخطر عند التحليل بخصوص كل عنصر مفرد من محتوى الحلم أن تثير في أذهان الكثيرين من القراء هذا الشك المبدئي: هل يحق لنا أن نعد كل هذه المستدعيات التي تظهر من بعد، في خلال التحليل، جزءاً من أفكار الحلم؟ أي: هل يحق أن نعتقد أن هذه الخواطر كانت حاضرة بالفعل ناشطة في خلال حالة النوم وأنها قد شاركت في تكوين الحلم؟ أليس الأرجح أن مستدعيات فكرية جديدة تنشأ في سياق التحليل دون أن يكون لها في تكوين الحلم نصيب؟ إنني لا أستطيع أن أوافق على هذا الشك سوى موافقة مشروطة. نعم، إن من الحق ولا شك أن بعض حلقات المستدعيات تظهر في سياق التحليل للمرة الأولى، ولكن في وسع المرء أن يقتنع في مثل هذه الحالات جميعها بأن هذه الروابط الجديدة إنما تقوم بين فكرتين كانتا موصولتين بالفعل في أفكار الحلم على نحو آخر من الأنحاء. فهذه الروابط الجديدة هي بمثابة حوادث أو مسالك مختصرة صارت ممكنة لأن ثمة طرقاً رابطة أخرى أعمق غوراً. ولا بد لنا من أن نسلم بأن الغالبية العظمى من الأفكار التي تنكشف في أثناء التحليل كانت حاضرة بالفعل ناشطة عند تكوين الحلم؛ لأننا كثيراً ما نتابع خيطاً من الأفكار تبدو منقطعة الصلة بتكوين الحلم، ثم إذا نحن نعثر فجأة على فكرة مُثِّلت في الحلم، ولا يستغنى عنها في تفسيره، وما كنا مع ذلك لننتهي إليها بغير متابعة هذا الخيط الفكري. ويحق لي هنا أن أذكر بحلم المبحث النباتي، هذا الحلم الذي يبدو نتيجة لعملية تكثيف مدهشة وإن لم أرو تحليله كاملاً.

ولكن إذا كان ذلك كذلك، فعلى أي نحو نتصور الوضع النفسي في خلال فترة النوم التي تسبق الحلم؟ هل تتراص أفكار الحلم جميعاً، الواحدة بجانب الأخرى، أو هي تتعاقب تترى، أو أن عمليات نفسية متعددة تبدأ في وقت واحد من مراكز مختلفة ثم تلتقي؟ أعتقد أننا لا نحتاج في الوقت الحاضر إلى تكوين فكرة منظورة عن الوضع النفسي القائم في خلال حالة النوم. يكفي ألا ننسى أن الأمر يتعلق بفكر لاشعوري من السهل أن يجيء سيره مختلفاً مما نلحظه في أنفسنا عند التفكير الهادف المصحوب بالشعور.

وأياً كان الأمر فالحقيقة الثابتة تبقى: أن تكوين الحلم يقوم على عملية تكثيف. فكيف يقع هذا التكثيف؟

إن المرء إذ يرى أن أقلية ضئيلة من أفكار الحلم هي التي تمثل وحدها في الحلم بوساطة أحد عناصرها الفكرية المشتركة . قد يتجه ظنه إلى أن هذا التكثيف يتم من طريق الحذف، أي أن الحلم ليس ترجمة صادقة لأفكار الحلم أو إسقاطاً لها نقطة فنقطة، بل هو نسخ ناقص، مليء

بالثغرات إلى أبعد مدى. هذا الرأي ـ كما سنراه عاجلاً ـ بعيد غاية البعد عن مطابقة الواقع. إلا أننا سنتكىء الآن عليه اتكاء موقوتاً ثم نمضي منه فنسأل: إذا كانت قلة قليلة من أفكار الحلم هي التي تنفذ وحدها إلى محتواه، فما هي الشروط التي تحدد اختيارها؟

لا بد لكي نجيب عن هذا السؤال من أن نوجه الآن اهتمامنا إلى هذه العناصر من محتوى الحلم التي لا بد أن تكون قد حققت تلك الشروط التي نبحث عنها. وأحسن ما يعين بالطبع على هذا البحث حلم شاركت في تكوينه عملية تكثيف ذات شدة تفوق المألوف. ولهذا أختار بادىء ذي بدىء حلماً ذكرته من قبل في ص 212.

1

حلم المبحث النباتي

محتوى الحلم: كتبت مبحثاً خاصاً بنوع (غير محدد) من النبات. الكتاب مائل أمامي وأنا أدير في تلك اللحظة على التحديد لوحة ملونة مطوية. أرفق بالنسخة نموذج مجفف من النبات.

إن العنصر الذي يظهر على غيره في هذا الحلم هو المبحث النباتي. وقد نشأ هذا العنصر من انطباع تخلَّف من اليوم الذي سبق الحلم؛ فقد رأيت في واجهة إحدى المكتبات بحثاً في فصيلة السيكلامين ولم يرد لهذه الفصيلة ذكر في الحلم، بل كل ما تبقَّى كان المبحث وصِلته بعلم النبات. ولم يلبث «المبحث النباتي» دون أن ينكشف رباطه بمقال عن الكوكايين كتبته مرة. ومن الكوكايين ذهبت المستدعيات ـ من جهة ـ إلى الكتاب التذكاري وإلى أحداث معينة وقعت في معمل الجامعة، وذهبت ـ من جهة أخرى ـ إلى الدكتور كونجشتاين طبيب العيون الذي كان له سهم في التعريف بالكوكايين. وذكرني شخص الدكتور كونجشتاين بمحادثة قطع حبلها، جرت بيننا في مساء الحلم وبخواطري المتعددة فيما يتعلق بسداد أجر الخدمات الطبية بين الزملاء. وكانت هذه المحادثة هي الحافز الحقيقي إلى الحلم، حافزه الحاضر الناشط، وأما المبحث الخاص بفصيلة السيكلامين فكان انطباعاً حاضراً ناشطاً كذلك ولكنه كان خالياً من القيمة. وتبيَّن لي أن «المبحث النباتي» في الحلم كان بمثابة عنصر مشترك أوسط بين خبرَتي اليوم السابق؛ فهو قد أخذ كما هو من الانطباع المجرد من القيمة ثم ربط بالانطباع ذي القيمة النفسية الكبيرة بوساطة روابط استدعائية غزيرة.

ولكن الأمر لم يقتصر على هذه الفكرة المركبة، فكرة «المبحث النباتي»، بل إن كل عنصر من عنصريها، «نباتي» و«مبحث»، قد أدى منفصلاً إلى رزمة أفكار الحلم المختلطة من خلال روابط متعددة تزيد عمقاً بعد عمق. فإلى «نباتي» رجعت ذكرى الأستاذ جارتنر [البستاني] وذكرى زوجته المزدهرة ، ثم ذكرى مريضتي فلورا [أزهار] وذكرى السيدة التي رويت في صددها قصة الأزهار المنسية. وأدى جارتنر بدوره إلى المعمل وإلى حديثي مع كونجشتاين، ولقد كنا أشرنا في خلال هذا الحديث عينه إلى هاتين المريضتين [فلورا والسيدة ل.]. ومن السيدة بأزهارها تشعَّب الفكر إلى أزهار زوجتي المفضلة ثم إلى عنوان البحث الذي كنت ألقيت عليه في النهار نظرة عابرة. و«نباتي» قد ذكرني ـ عدا ذلك ـ بقصة وقعت في المدرسة الثانوية وبامتحان في الجامعة، ثم جاء موضوع جديد كان الحديث مع كونجشتاين قد تطرق إليه ـ وأعني به هواياتي المفضلة ـ فارتبط من طريق ما سميته مازحاً زهرتي المفضلة ـ وأعني الخرشوف ـ بسلسلة الخواطر المنبعثة من الأزهار المنسية. ومن وراء «الخرشوف» كمنت ـ من جهة ـ ذكرى إيطاليا[308] وكمن ـ من جهة أخرى ـ مشهد من طفولتي كان فاتحة ما أصبح من بعد علاقتي الحميمة بالكتب. وهكذا كان هذا العنصر «نباتي» معقد الحلم حقيقة: ففيه التقت خيوط من الفكر كانت قد دخلت في سياق تلك المحادثة دخولاً مناسباً ـ كما يسعني توكيده. فنحن نجد أنفسنا هنا في مصنع للأفكار يصدق عليه قول الشاعر عن عمل النساج: في دفعة القدم يموج ألف خيط

وينتفض البكر في كر وفر

والخيوط تنساب لا تنظرها

كل ضربة تحزم ألف شكل[309].

وكذلك «مبحث»: فهي تلمس موضوعين: اقتصار دراساتي على جانب واحد ثم التكاليف التي تجر إليها هواياتي.

هذه النظرة الأولى تشعر المرء بأن هذين العنصرين، «نباتي» و«مبحث»، قد وجدا موضعاً في محتوى الحلم لأنهما كانا يملكان أوفر العلائق بمعظم أفكار الحلم، وكانا لذلك بمثابة معقدين تجتمع فيهما أفكار حلمية غزيرة غاية الغزارة، أي لأن لهما فيما يتصل بتفسير الحلم معاني متعددة. وفي وسعنا أيضاً أن نعبر عن الظاهرة الأساسية التي يقوم عليها هذا التعليل تعبيراً مختلفاً فنقول: إن كل عنصر من عناصر محتوى الحلم لا يلبث أن يتبين أنه محتوم حتماً مضاعفاً ، أي أنه ممثل في أفكار الحلم أكثر من مرة.

وإنا لنعلم ما هو أكثر من ذلك إذا فحصنا سائر مقومات الحلم من حيث ورودها بين أفكاره. فاللوحة الملونة التي كنت أديرها قد أدت (أنظر

تحليل الحلم في ص 218) إلى موضوع جديد هو النقد الذي وجَّهه الزميل إلى أعمالي، ثم إلى موضوع آخر سبق أن رأيناه ممثلاً في الحلم، هو هواياتي المفضلة، وهذا بالإضافة إلى ذكرى مشهد الطفولة الذي كنت أمزق فيه . ورقة فورقة . كتاباً حوى لوحات ملونة. وأما نموذج النبات المجفف فكان يرجع إلى قصة معشب المدرسة الثانوية ويؤكد هذه الذكرى توكيداً خاصاً. وهكذا يتضح لنا نوع العلاقة بين محتوى الحلم وأفكاره: فعناصر الحلم قد حتمتها أفكار الحلم المرة بعد المرة ، ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل إن أفكار الحلم المتفرقة قد تمثل في الحلم بأكثر من عنصر واحد. فطريق التداعي يمتد من أحد عناصر الحلم إلى أفكار كثيرة للحلم، ثم من فكرة واحدة من أفكار الحلم إلى أكثر من عنصر من عناصره. وهكذا لا يتم تكوين الحلم بحيث تسلم كل فكرة من أفكاره أو كل طائفة من هذه الأفكار إلى عنصر مختزل يمثلها في محتوى الحلم تمثيلاً مستقلاً على نحو ما تنتخب الدوائر الانتخابية نوابها، بل الأصح أن تقليباً يتناول أفكار الحلم في مجموعها بحيث لا يكتسب حق الدخول في الحلم إلا العناصر المؤيَّدة أكثر التأييد وأقواه على نحو يماثل نظام الانتخاب بالقائمة. وما من حلم حللته مثل هذا التحليل إلا اكتشفت فيه هذا المبدأ الثابت: أن عناصر الحلم تُبنى من أفكار الحلم مأخوذة في مجموعها وأن كل عنصر من هذه العناصر محتوم في علاقته بهذه الأفكار أكثر من حتم.

ومن المؤكد أنه لن يكون من نافلة الكلام أن نصور العلاقة بين محتوى الحلم وأفكار الحلم بمثال جديد يمتاز بتشابك العلائق المتبادلة بين هذين الطرفين تشابكاً فذاً في مهارته. والحلم حلم مريض كنت أعالجه من مخافة الأماكن المغلقة وسيتبيَّن للقارىء سريعاً لمَ اخترت لهذا النتاج الحلمي الفريد في ألمعيته اسم:

2

«حلم جميل»

كان يركب مع صحبة كبيرة في شارع س. حيث يوجد نزل متواضع (وهو ما ليس صحيحاً). بداخل النزل مسرحية تمثَّل. إنه متفرج تارة، ممثل تارة أخرى. كان على الجميع بعد أن انتهت المسرحية أن يغيِّروا ملابسهم لكي يذهبوا إلى المدينة. نزل فريق من المجموعة في الطابق الأرضي ونزل فريق آخر في الطابق الأول. شبَّ حينئذ نزاع: الأعلون غاضبون لأن الأسفلين يتباطؤون بحيث يحولون بينهم وبين النزول. كان أخوه بالطابق الأعلى وكان هو بالطابق الأسفل وكان ساخطاً على أخيه لأنه وفريقه يحثونهم حثاً لا يطاق. (هذا الجزء غير واضح) كانت القسمة بين من يحتلون الطابق الأعلى وبين من يحتلون الطابق الأسفل أمراً مقرراً منذ اللحظة التي وصلوا فيها. يذهب بعد ذلك وحده مصعداً في شارع س. في اتجاه المدينة. يلاقي في الصعود صعوبة ويلاقي عناء حتى أنه لا يكاد يبارح مكانه. يقبل عليه سيد متقدم في السن ويعرّض بملك إيطاليا. عندما يبلغ قمة المرتقى يسهل سيره كثيراً.

وكانت صعوبة الصعود متميزة حتى أنه ظل يشك بعد اليقظة برهة فيما إذا كان الأمر حلماً أم حقيقة.

إن هذا الحلم لن يلقى منا كلمة طيبة لو حكمنا عليه من محتواه الظاهر. وسأبدأ تفسيره على عكس القاعدة . بهذا الجزء الذي نصَّ الحلم على أنه كان أشد أجزائه تميزاً.

إن الصعوبة التي حلم الحالم بها وأحسها فعلاً في حلمه على الراجح . الصعود الشاق مع عسر التنفس . هي إحدى الأعراض التي كانت قد بدت بالفعل على المريض منذ سنوات وعزيت إذ ذاك . مع غيرها . إلى السل (ويرجح أنه كان محاكاة هستيرية). ولقد عرَّفتنا أحلام الاستعراض من قبل بهذا الإحساس الخاص الذي يرد في الحلم، إحساس الكف، وإنا لنرى مرة أخرى أن هذا الإحساس مادة سهلة المنال في كل وقت، تُستغل في كل غرض تصويري آخر. ولقد ذكرتني تلك الفقرة من الحلم التي يبدأ فيها الصعود صعباً ثم يسهل عند نهاية المرتقى . ذكرتني والحالم يروي حلمه بالمقدمة الذائعة المنقطعة النظير التي يستهل بها ألفونس دوديه رواية «سافو»: هناك نرى شاباً في مقتبل العمر يصعد السلم حاملاً خليلته خفيفة كالريشة أول الأمر، ولكنه كلما صعد أثقلت ذراعيه. والمشهد كله ينبىء بمصير العلاقة بينهما، أراد دوديه بتصويره أن يحذِّر الشباب من الإغراق في كلف جاد بفتيات لا يعرف لهن أصل ولا يسلم ماضيهن من بعض الظن[310]. وكنت أعلم أن مريضي قد اشتبك في صلة غرامية بسيدة تعمل في المسرح وأنه قد قطع هذه الصلة أخيراً، ومع هذا لم أكن أتوقع أن يتأيد تفسيري. أضف إلى ذلك أن الموقف في سافو كان عكسه في الحلم: ففي الحلم يبدأ السير صعباً ثم يسهل من بعد، بينما يقوم كل مغزى الرمز الروائي في كون ما كان سهلاً في البداية قد صار في النهاية عبئاً ثقيلاً. فلشد ما كان دهشي حين أجاب المريض أن تفسيري ينَّسق غاية الاتساق ومسرحية رآها في مساء الحلم: كان اسم المسرحية «جولة في فيينا» وكانت تعالج سيرة فتاة بدأت حياتها فتاة محترمة ثم صارت بين بين، وتعددت لها صلات برجال من ذوي المكانة وبذلك «بلغت القمة»، ولكنها عادت في النهاية «فهبطت بأسرع مما صعدت». وذكرته هذه المسرحية بمسرحية أخرى رآها منذ سنوات، كان عنوانها «درجة فدرجة» وكان لها إعلان يصوِّر سلماً متعدد الدرجات.

لنمضين في التفسير. إن الممثلة التي اتصل بها اتصاله الأخير الحافل هذا كانت تقطن شارع س. وليس بهذا الشارع نُزَل. بيد أنه قد قضى

جزءاً من الصيف في فيينا من أجل هذه السيدة، ونَزُل إذ ذاك في فندق صغير قريب منها. وهو يذكر أنه قد قال لسائق العربة إذ غادر الفندق: «إنني لسعيد؛ فقد سلمت على الأقل من الحشرات!» (وأذكر عرضاً أن تلك كانت إحدى مخافاته) وكان جواب السائق: «وكيف ينزل المرء بمثل هذا المكان! إنه ليس فندقاً بالمعنى الصحيح، إن هو في الحقيقة إلا نُزُل ».

ولا تلبث فكرة النزل أن تذكره بهذين البيتين: «قد حللت أخيراً في نزل

وكان المضيف أرق مضيف».

والمضيف في قصيدة أولاند [التي استشهد منها المريض بهذين البيتين] كان شجرة تفاح. والآن ترد على خاطره آية أخرى من الشعر: فاوست (وهو يرقص مع الساحرة الصغيرة):

أتاني مرة حلم جميل

رأيت فيه شجرة تفاح

وعلى الشجرة أشرقت تفاحتان جميلتان

سلبتاني اللب فصعدت صوبهما.

الساحرة الجميلة: لقد تقت للتفاح توقاً جماً

منذ أن خلته في الجنة

كم يستحفني الطرب وأنا أجد

حديقتي تؤتى هذه الأكل[311].

إن الشك محال فيما يعنيه الشاعر بشجرة التفاح وبالتفاحتين. والصدر الناهد كان بعدُ بين السحر الذي شد حالمي إلى صاحبته.

وكان سياق التحليل يخول لنا كل الحق في أن نفترض أن الحلم يرجع إلى انطباع من الطفولة. فإذا كان الأمر كذلك، لزم أن الحلم يتعلق بمرضع الحالم البالغ الآن ثلاثين عاماً. وما صدر المرضع في الحقيقة إلا نُزُل بالنسبة إلى الطفل. والمرضع إذن ـ مثل سافو دودويه ـ تبدو تومىء إلى الحبيبة المهجورة منذ زمن غير بعيد.

وأخو الحالم (وهو أخوه الأكبر) يظهر كذلك في محتوى الحلم، ويظهر في الطابق الأعلى بينما الحالم نفسه في الطابق الأسفل. وهذا أيضاً قلب للوضع الحقيقي: فالأخ ـ كما أعرف ـ قد فقد مكانته الاجتماعية بينما ظل المريض محتفظاً بها. ولقد تجنب الحالم حين سألته أن يعيد رواية الحلم ـ تجنب أن يقول: إن أخاه كان في الطابق الأعلى وكان هو في «الطابق الأرضي». وما تجنب هذا التعبير إلا لأنه كان يكون تعبيراً واضح المعنى أكثر مما ينبغي؛ فنحن حين نقول [في فيينا] عن رجل ما: إنه «في الطابق الأرضي» نعني بذلك أنه قد فقد ثروته ومكانته، أي نعني ـ بعبارة أخرى ـ أنه قد هبط. ولأن يصوّر أمراً ما في هذا الموضع من الحلم تصويراً مقلوباً ـ ذلك ما له بالضرورة معناه. ولا بد أن القلب قد تناول فوق ذلك علاقة أخرى بين أفكار الحلم ومحتواه. وإنا لنملك إشارة بيّنة ترينا أين نجد هذا القلب: من الجلي أنه قد ورد في نهاية الحلم حيث يجري الصعود على نسبة معكوسة منها في سافو. وهنا يسهل علينا أن نرى أي قلب هو المقصود: ففي سافو يحمل الرجل المرأة التي تعقد بينها وبينه صلات جنسية، فأما في أفكار الحلم فيتصل الأمر على العكس بامرأة تحمل الرجل. وإذ كانت هذه الحالة لا تتحقق إلا في الطفولة، فالأمر يتعلق من جديد بالمرضع التي تحمل الرضيع بما وزن. وهكذا وفّقت نهاية الحلم إلى أن تصوِّر في إشارة واحدة كِلا سافو والمرضع.

وكما أن المؤلف لم يختر اسم سافو دون أن يلمح به إلى العادات الجنسية المثلية بين النساء، كذلك فقرات الحلم التي تتحدث عن «الأعلين» و«الأسفلين»: فهي تلمح إلى تخييلات من نوع جنسي شغلت الحالم ولم تكن تخلو من بعض الصلة بعصابه من حيث هي شهوات مكبوتة. ولا يرينا تفسير الحلم في ذاته هل الأمور المصورة هذا التصوير تخييلات وليست ذكريات عن أحداث وقعت حقيقة؛ فالتحليل إنما يسلمنا محتوى فكرياً بعينه ويترك لنا تقدير مدى حظه من الحقيقة. وذلك لأن الأحداث سواء أكانت حقيقية أم متخيلة تبدو هنا للوهلة الأولى متساوية القيمة ـ وليس هنا، أي في الحلم، وحسب، بل كذلك في خلق الأبنية النفسية التي تفوق الحلم خطراً. والصحبة الكبيرة تعني «السر» ـ كما نعلم من قبل [ص 285]. وأما الأخ فإن هو إلا ممثل جميع مزاحميه اللاحقين في حب المرأة، ممثل أُدرج في مشهد الطفولة بفعل «تخييل راجع». وأما قصة السيد الذي يُعَرِّض بملك إيطاليا فتتصل مرة أخرى ـ من طريق خبرة حديثة العهد خالية في ذاتها من القيمة ـ بتكالب الأشخاص الذين لا مكانة لهم على الاندساس بين الطبقات العليا للمجتمع. والأمر يبدو كما لو كان التحذير الموجه من دوديه إلى الشباب قد ضم إليه تحذير يناظره، متجه إلى

الطفل الرضيع[312].

ولكي آتي بمثال ثالث يعين على دراسة التكثيف في تكوين الحلم أروي تحليلاً جزئياً لحلم آخر أدين به لسيدة متقدمة في السن أعالجها علاجاً تحليلياً نفسياً. وكانت هذه المريضة تشكو حالات من الهيلة شديدة الوطأة، فلا غرو أن حفلت أحلامها بأفكار جنسية أثارت معرفتها دهش المريضة وتخوفها على السواء. وإذ كنت لا أستطيع أن أسوق تحليل هذا الحلم حتى نهايته، فسوف تبدو مادته منقسمة طوائف متعددة لا يربط بينها رباط ظاهر.

3

«حلم الخنفساوين»

محتوى الحلم: تتذكر أن لديها خنفساوين وضعتا في صندوق وأن عليها أن تطلق لهما الحرية وإلا اختنقتا. تفتح الصندوق فتجد الخنفساوين في حالة من الإعياء الشديد. تطير إحدى الخنفساوين من النافذة المفتوحة، وأما أخراهما فيسحقها مصراع النافذة بينما كانت المريضة تغلقها . على ما طلب إليها (علامات على الاشمئزاز).

التحليل: كان زوجها غائباً عن المنزل في سفر، وكانت ابنتها البالغة من العمر أربعة عشر ربيعاً تنام في السرير إلى جوارها. لقد نبهتها الصغيرة إلى أن عثة قد سقطت في كوب مائها، ولكنها لم تفكر في إخراجها ثم إذا طلع الصباح أسفت للمخلوقة المسكينة. إنها كانت قد قرأت في المساء قصة روت كيف ألقى بعض الصبية بقطة في ماء مغلي وأعقب ذلك وصف تقلصات الحيوان: ذانك هما مناسبتا الحلم وهما يخلوان من الأهمية في ذاتيهما. إنها تفكر بعد ذلك في موضوع القسوة على الحيوان. إن ابنتها قد كانت منذ بضع سنوات . وكانوا يقضون الصيف إذ ذاك في مكان ما . شديدة القسوة على الحيوان. فهي . أعني الابنة . كانت تجمع الفراشات وكانت تسأل أمها بعض الزرنيخ لكي تقتل به الفراشات. وكان من صنعها أن يراعة ظلت تحوم في أرجاء الغرفة برهة وقد اخترق دبوس جسمها. وفي مرة أخرى ماتت يرقات كانت البنت قد احتفظت بها لكي تشهد انسلاخها. وكان من دأب هذه الطفلة أيضاً . وهي بعد أصغر سناً . أن تمزق أجنحة الخنافس والفراشات. إنها . أعني الابنة . ترتاع اليوم من هذه القساوة كلها؛ لكم رق قلبها من بعد!

إن المريضة تفكر في هذا التناقض، وهذا التناقض يذكرها بآخر . وأعني به التناقض بين المظهر والمخبر كما تصوِّره [جورج] إليوت في رواية «آدم بيد»: فتاة جميلة لكنها مغرورة، غبية إلى آخر درجات الغباء، وأخرى دميمة لكنها على خلق كريم، ورجل نبيل الطبقة يستغوي الرعناء وآخر من الطبقة العاملة ولكنه نبيل حقيقةً في حسه وصنيعه على السواء. لكم يغرك البصر عن البصر بالناس! أكان الناظر إليها . هي . يحذر تلك الرغبات الحسية التي تؤرقها؟

إنه في السنة التي أخذت فيها ابنتها تجمع الفراشات أصيبت منطقتهم بوباء خطير من خنفس . مايو[313]. كان الأطفال يجنُّون لمرأى الخنفس ويسحقونه من غير رحمة. لقد رأت في ذلك الحين رجلاً كان ينزع أجنحة خنفساء . مايو ثم يلتهم الجسد. إنها قد ولدت في شهر مايو ، وفي مايو كان أيضاً زواجها. ولما انقضت ثلاثة أيام من شهر العسل كتبت خطاباً إلى أهلها تتحدث فيه عن سعادتها . وكان ذلك أبعد الأمور عن الحقيقة.

إنها في الأمسية التي جاءها الحلم في أعقابها كانت تنبش في رسائلها القديمة، وقرأت على ذويها بعضاً كان منه الجدِّي وكان منه ما يضحك. وكان بين ما قرأته خطاب مُسلٍ جداً جداً، كتبه إليها مدرس بيانو غازلها أيام عذرها ورسالة أخرى كتبها معجب نبيل الطبقة[314].

إنها تؤنِّب نفسها لأن إحدى بناتها قد عثرت على كتاب لا يليق من كتب موباسان[315]. إن الزرنيخ الذي سألتها إياه فتاتها يذكرها بحبوب الزرنيخ التي أعادت إلى الدوق دي مورا قوة الشباب في «النابابب»[316].

وأما «إطلاق الحرية» فيذكرها بتلك الفقرة من الناي الساحر: «الحب لا أدري كيف أرغمك عليه،

وأما الحرية فلن أعطيك إياها»[317].

و«خنفس . مايو» يذكرها أيضاً بقول كاتخن[318]: «لأنت تهيم بي مثل هيام الخنفساء »[319].

وبين هذا كله يجيء تانهويزر [ل؟اجنر]: «أما وقد حرَّكتك هذه اللذة الخبيثة »[320].

إنها تعيش في هيلة وشغل دائمين من أجل زوجها الغائب. والخوف من أن يصيبه مكروه في ترحاله يعرب عن نفسه فيما يأتيها في خلال

النهار من شتى التخييلات. وقد كانت رأت منذ زمن قريب ـ في خلال التحليل ـ فكرة من أفكارها اللاشعورية فحواها الشكوى من «شيخوخة» زوجها. وربما كنا نحذر على أحسن وجه فكرة الرغبة التي يخفيها هذا الحلم لو ذكرت أن الحالمة قد روعت منذ بضعة أيام إذ جاءتها وسط مشاغلها جملة وضعت في صيغة الأمر ووجِّهت إلى زوجها، وهي «اشنق نفسك!» ثم تبيَّن أنها قد قرأت في موضع ما ـ قبل ذلك بساعات ـ أن الشنق يحدث انتصاباً شديداً. فالرغبة في هذا الانتصاب هي التي بثقت من خلال الكف متقنعة بهذا القناع المروع. وقولها: «اشنق نفسك!» يعدل قولها: «أحصل على أن تنتصب أياً كان الثمن!» وهنا تجد موضعها المناسب حبوب الدكتور جنكنز ـ حبوب الزرنيخ في النابات .. ولكن مريضتي كانت تعلم أيضاً أن أشد مقويات الباه ـ وهي الذراريح (وتُعرف عادة باسم الذباب الإسباني)[321] ـ تصنع من الجعل المسحوق، فإلى هذا المعنى يهدف الجزء الرئيس من محتوى الحلم.

فأما فتح النوافذ وإغلاقها فكان من أسباب الخلاف الدائمة بينها وبين زوجها؛ فهي تحب النوم والهواء طلق ولكن زوجها يخشاه. وأما الإعياء فهو العارض الرئيس الذي تشكو منه هذه الأيام.

لقد أبرزت وأنا أسرد هذه الأحلام الثلاثة المواضع التي يعاود فيها أحد عناصر الحلم الظهور بين أفكاره لكي أبيِّن بذلك تعدد العلائق التي تتشعب من هذا العنصر. ولكن ليس بين هذه الأحلام حلم مضينا في تفسيره حتى النهاية، ولذلك ربما كان من الأفيَد أن نتناول حلماً أوردنا تحليله مفصلاً لكي نوضح به كيف يحتِّم محتوى الحلم تحتيماً مضاعفاً. ولهذا الغرض اختار حلم حقنة إرما. وسيسهل علينا أن نرى في هذا المثال أن التكثيف يستخدم أكثر من وسيلة في تكوين الحلم.

إن الشخص الرئيس في محتوى الحلم هو مريضتي إرما التي تظهر في الحلم بالملامح التي أعرفها لها في حياة اليقظة والتي تمثل بذلك شخصها ذاته. ولكن الوضع الذي كنت أفحصها فيه بجانب النافذة كان متخذاً من ذكرى شخص آخر، وأعني به تلك السيدة التي كنت أود استبدالها بمريضتي ـ كما تبيَّن من أفكار الحلم. وإرما من حيث ما يظهر عندها من غشاء دفتري يذكرني بقلقي من أجل ابنتي الكبرى تمثل هذه الابنة، وهذه بنويتها تخفي وراءها ـ بجامع الاشتراك في الاسم ـ شخص المريضة التي ماتت من جراء التسمم. ولا يني شخص إرما عن أن يتغير مدلوله في مستأنف سياق الحلم (دون أن تتغير مع ذلك صورتها المرئية في الحلم). فهي تصير الطفل الذي نفحصه في قسم الأمراض العصبية بمستشفى أمراض الأطفال فحصاً تجلَّى في خلاله ما بين صديقَي [أوتو وليوبولد] من التباين في المواهب. وكان من البيِّن أن طفلتي الصغيرة قد كانت حلقة الوصل في هذه الصيرورة. وإرما أيضاً تومىء بممانعتها في أن تفتح فمها إلى مريضة أخرى قمت بفحصها مرة، وتومىء كذلك ـ لذات العلاقة ـ إلى زوجي. وأنا بعد هذا كله قد ضمَّنت التغييرات المرضية التي اكتشفتها في حلقها إشارات تذهب إلى فريق بأكمله من أشخاص آخرين.

كل هؤلاء الأشخاص الذين ألتقي بهم وأنا أتابع «إرما» لا يظهرون في الحلم بأشكالهم الجسمية، بل يختبئون وراء شخص الحلم «إرما» التي تستحيل بذلك إلى صورة جمعية اجتمعت فيها ـ والحق يقال ـ شتى الملامح المتناقضة. أي أن إرما قد صارت تنوب عن هؤلاء الأشخاص الآخرين الذين ضُحّي بهم من أجل التكثيف لأنني مرَّرت إليها ـ لمحة فلمحة ـ كل ما يذكرني بهؤلاء الأشخاص.

وهناك طريقة أخرى أستطيع بوساطتها أن أركِّب شخصاً جَمْعياً من أجل أغراض التكثيف الحلمي، وذلك حين أمزج الملامح الحقيقية لشخصين أو أكثر في صورة موحدة: على هذا النحو ركب شخص الدكتور م. في حلم إرما، فهو يحمل اسم الدكتور م. ويتحدث مثله ويعمل مثله ولكن خصائصه الجسمية ونوع مرضه كانت لشخص آخر هو أخي. ولم يكن الحتم مضاعفاً سوى في لمحة واحدة في سيماهما ـ وأعني بها شحوب الوجه؛ فهذا الشحوب كان في الحقيقة مشتركاً بينهما. ونجد مثل هذا الشخص المزيج في حلم «الدكتور ر. هو عمي»، غير أن صورة الحلم قد ركِّبت هنا بطريقة مختلفة: فأنا لم أمزج ملامح لأحدهما بملامح من الآخر مختزلاً في أثناء ذلك الصورة المنطبعة في الذاكرة عن كل منهما بأن أحرف سائر ملامحه، بل قد اتبعت طريقة جالتون في إحداث الصور العائلية، أي أنني أسقطت صورتين كلاً على الأخرى بحيث تبرز الملامح المشتركة بينهما بروزاً قوياً في حين تبطل الملامح غير المتوائمة بعضها بعضاً ويغمض ظهورها في الصورة. وهكذا تبرز اللحية الشقراء في حلم عمي مثل سمة مقواة في وجه ينتسب إلى شخصين، ولهذا جاء ممسوحاً. هذا كما انطوت اللحية على إشارة إلى والدي وإليّ من طريق فكرة المشيب.

إن تكوين أشخاص الجمع والأشخاص المزيجة أحد الوسائل الرئيسة التي يتبعها الحلم في التكثيف. وستسنح لي عاجلاً فرصة التحدث عن ذلك في سياق مختلف.

وكانت فكرة «الدسنتاريا» في حلم حقنة إرما محتمة أيضاً حتماً مضاعفاً: أولاً من حيث التجانس في الجرس بينها وبين «دفتريا»، وثانياً من حيث صلتها بالمريض الذي أرسلته إلى الشرق والذي لم يعرف أحد وجود الهستيريا عنده.

ومثال آخر حري بالاهتمام من أمثلة التكثيف في هذا الحلم هو ذكر «البروبيلين». فنحن لا نجد بين أفكار الحلم «بروبيلين» بل «آميل». وقد يظن المرء أن ما وقع في هذا الموضع من تكوين الحلم إنما هو نقل وحسب. وذلك حق، بيد أن هذا النقل كان يخدم أغراض التكثيف، كما يثبت من تلك التكملة التي أضيفها إلى تحليل الحلم: عندما تمهلت عند كلمة «بروبيلين» برهة انتبهت إلى الجناس بينها وبين كلمة «بروبيلاين». ولكن أثينا

ليست البلد الوحيد الذي ينفرد بوجود «بروبيلاين» فيه، بل قد حوَت ميونيخ نظيره[322]. ولقد ذهبت إلى ميونيخ قبل هذا الحلم بعام أزور هناك صديقاً ألمَّ به إذ ذاك مرض خطير . وهو هذا الصديق الذي لمَّح إليه الحلم تلميحاً لا لبس فيه بوساطة كلمة «تريمتيلامين» التي أعقبت «بروبيلين» مباشرة.

إنني لن ألح على هذا الوضع العجيب، وأعني به ما نجده هنا . كما في عدا ذلك من المواضع في تحليل الأحلام . من أن مستدعيات متفاوتة القيمة أشد التفاوت تستخدم في إقامة الروابط بين الأفكار كما لم يكن بينها مثل هذا التفاوت، وسأسلم نفسي لهذا الإغراء الذي يدعوني إلى أن أصور فيما يشبه الرسم البياني تلك العملية التي استبدل بها البروبيلين في محتوى الحلم بالآميل الذي في أفكاره.

إننا نجد . من جانب . طائفة الأفكار المتصلة بصديقي أوتو الذي لا يفهمني ولا يقرُني والذي أهدى إليّ شراباً له نكهة الآميل، ونجد . من جانب آخر . طائفة أخرى ارتبطت بالأولى من طريق التضاد، تلك هي طائفة صديقي البرليني [؟يلهلم فليس] الذي يفهمني ويقرني والذي أدين له بمعلومات جمة القيمة تتصل . بين ما تتصل به . بكيمياء العمليات الجنسية.

ولقد حددت المناسبات التي بعثت على الحلم حديثاً وكانت حوافزه الحقيقية أي أفكار من مجموعة أوتو كان ينبغي أن تجذب انتباهي بنوع خاص، وكان الآميل بين هذه العناصر المختارة التي كان مقدراً أن تظهر في محتوى الحلم. وأما المجموعة الحافلة الأخرى، مجموعة «؟يلهلم» فقد بعث فيها الحياة على التحديد من أجل التضاد الذي بينها وبين مجموعة أوتو ومنها أبرزت تلك العناصر التي تتناغم مع العناصر المستثارة من مجموعة أوتو. نعم، فأنا في خلال هذا الحلم بأسره أستعيذ من شخص يسخطني بآخر أقابله به وفق مشتهاي، وأنا أستدعي من الصديق كل ما يظهرني على الخصم . نقطة فنقطة. وهكذا كان أن أثار الآميل الذي ينتمي إلى مجموعة أوتو ذكريات من مجال الكيمياء من المجموعة الثانية وكان أن نجح التريمتيلاين الذي كان يلقى التأييد من جهات متعددة في أن يصل إلى محتوى الحلم. ولقد كان من الممكن أن ترد آميل في الحلم من غير تغيير لولا تأثير مجموعة «؟يلهلم»؛ فقبضة الذكريات التي يصدق عليها هذا الاسم قد جرى استكشافها جميعاً من أجل العثور على عنصر يضاعف تحتم «آميل»، وكانت «بروبيلين» سهلة الاستدعاء من آميل، ثم جاءت ميونيخ بمبناها . البروبيلاين . جاءت من مجموعة «؟يلهلم» تلاقي بروبيلاين هذه. فهاتان الدائرتان الفكريتان قد التقيتا جميعاً في «بروبيلين . بروبيلاين»، وهكذا استطاع هذا العنصر الأوسط أن ينفذ إلى محتوى الحلم كأنما كان ذلك بفعل من أفعال المساومة. فههنا قد صكَّت وحدة مشتركة متوسطة تقبل أكثر من حتم. وهكذا نلمس لمس اليد أن الحتم المضاعف يسهل النفاذ إلى محتوى الحلم. فمن أجل خلق مثل هذه الوحدة الوسطى نقل الانتباه دون ما تردد من الفكرة المستهدفة حقيقة إلى مستدعى آخر قريب منها.

لقد مكنتنا دراسة حلم حقنة إرما من أن ننفذ ببصرنا بعض الشيء إلى عمليات التكثيف التي تقع عند تكوين الحلم واستطعنا أن نرى بعض تفاصيل التكثيف مثل اختيار العناصر التي يتكرر ورودها في أفكار الحلم وخلق الوحدات الجديدة (كالأشخاص الجمعية والصور المزيجة) وتكوين الحدود المتوسطة المشتركة. وأما الغاية التي يخدمها التكثيف والعوامل التي تستلزمه فأسئلة لن نثيرها إلا حين نعرض للعمليات النفسية التي تعمل في تكوين الحلم لكي ندرسها في جملتها [القسم هـ. من الفصل السابع]. ويكفينا الآن أن نلحظ أن التكثيف الحلمي خاصة ملحوظة من خصائص العلاقة بين أفكار الحلم ومحتواه.

ولكن عمل التكثيف الذي يقوم به الحلم إنما يتجلى في أوضح صوره حين يتناول الألفاظ والأسماء. فالحلم بوجه عام كثيراً ما يعالج الألفاظ كما لو كانت أشياء عيانية، وهو إذن يجري بينها من المزج مثل ما يجريه بين صور الأشياء العيانية. وتطالعنا الأحلام التي من هذا القبيل بأطرف المبتكرات اللغوية وأغربها[323].

1) أرسل إليّ أحد الزملاء مقالاً كتبه، وكان من رأيي أنه غالى في تقدير أهمية كشف فيزيولوجي حديث وأنه . على الأخص . قد عالج الموضوع بعبارات طنانة. فحلمت في الليلة التالية بجملة كان من الجلي أنها تشير إلى هذه المعالجة: «يا له من أسلوب نوركدالي! » لقد واجهت بادىء الأمر صعوبة في حل هذه الكلمة. صحيح أنه لم يكن ثمة شك في أنها قد ركِّبت بوساطة تحريف ماجن لنعتين [ألمانيين] من النعوت المطلقة: كولوسال [جسيم] وپيراميدال [هرمي]، بيد أنه لم يكن من السهل أن أقول ما مصدرها. وأخيراً تبيَّنت أن المسخ قد ركِّب من هذين الاسمين: نورا و إكدال . وهما شخصيتان في مسرحيتين معروفتين من مسرحيات إبسن[324]، وقد كنت قرأت في إحدى الصحف مقالاً عن إبسن كتبه هذا المؤلف الذي كنت أنقد عمله الأخير.

2) وروت لي إحدى مريضاتي حلماً قصيراً ورد فيه مركَّب لفظي لا معنى له: كانت في حفل ريفي مع زوجها ثم قالت: سوف ينتهي ذلك إلى Maistollmütz شامل. وكانت الحالمة تشعر في الحلم شعوراً مبهماً بأن ذلك صنف من الحلوى يصنع من دقيق الذرة، نوع من الولائق. وقد قسَّم التحليل الكلمة إلى Mais [ذرة] . toll [مجنون] mannstoll [مجنونة بالرجال] Olmütz [مدينة في مورافيا]، وكلها أجزاء تبيَّن أنها كانت آثاراً تبقت من حديث جرى حول المائدة بينها وبين أقاربها. وكانت كلمة Mais تتضمن . عدا الإشارة إلى المعرض اليوبيلي الذي افتتح أخيراً[325] .

الكلمات الآتية: Meissen (شكل من الصيني المصنوع بمدينة مايسن [في ساكس] على صورة الطائر)، Miss [وكانت المربية الإنجليزية التي تعمل عند أقربائها قد سافرت إذ ذاك إلى أولموتس]، mies (وهي كلمة يهودية عامية تستخدم على سبيل المزاح بمعنى «مقرف»). وكانت تتشعب من كل مقطع من هذا المخلوط اللغوي سلسلة طويلة من الخواطر والمستدعيات.

3) شاب قرع أحد معارفه جرس بابه في ساعة متأخرة من الليل ليترك له بطاقة زيارة فحلم في تلك الليلة بالحلم الآتي: ظلَّ رجل يعمل حتى ساعة متأخرة من الليل لكي يصلح تليفون المنزل. وظل الرنين مستمراً بعد أن انصرف الرجل ولكنه لم يكن رنيناً موصولاً بل دقات منفصلة. يذهب الخادم لكي يبحث عن الرجل مرة ثانية، فيقول له هذا الرجل: إن لمن العجيب أن يقف في أمر كهذا أناس هم في العادة tutelrein.

إننا نرى أن المناسبة غير الهامة التي بعثت على هذا الحلم لا تفسِّر سوى عنصر واحد من عناصره. وإنما اكتسبت هذه المناسبة بعض الأهمية حين وصل الحالم بينها وبين خبرة سابقة من خبراته تخلو هي الأخرى من الخطر ولكن خيال الحالم قد خلع عليها معنى بديلاً: ذلك أن الحالم حين كان صبياً يعيش مع والده قد قلب مرة كوباً من الماء على الأرض وهو نصف نائم. وكان من أثر ذلك أن ابتلَّ سلك التليفون المنزلي وأزعج رنينه المتصل نوم والده. وإذ كان الرنين المتصل يوافق البلل، فالدقات المنفصلة قد استخدمت في تصوير قطرات تسقط. وأما كلمة tutelrein فقد أمكن تحليلها على أنحاء ثلاثة، فأدت بذلك إلى ثلاثة موضوعات متمثلة في أفكار الحلم: tutel . وهو لفظ قانوني بمعنى الوصاية، ثم tutel (وربما كتب Tuttell .) وهو اسم يطلقه العوام على صدر المرأة، وأما الجزء الأخير من الكلمة، rein ، فإنه إذا ركِّب مع الجزء الأول من الكلمة المركَّبة Zimmertelegraph [التليفون المنزلي] كون Zimmerrein [النظافة المنزلية] . وهو ما يذكر تذكيراً قوياً ببلل أرض الغرفة ثم هو فوق ذلك لفظ يجانس في الجرس اسم أحد أقرباء الحالم[326].

4) حلمت حلماً طويلاً بعض الشيء مشوشاً كان يدور . فيما يبدو . حول رحلة بحرية، وتراءى لي فيه أننا سنرسو أولاً في ميناء اسمه Hearsing ثم في آخر يليه اسمه Fliess وهذا الاسم الأخير هو اسم صديقي القاطن في مدينة ب. [برلين]، والذي كان هدفاً لأسفاري مراراً. وأما Hearsing فمركَّب اشتق جزء منه من أسماء الأماكن الواقعة في ضواحي فيينا، وهي أسماء كثيرة ما تنتهي بالمقطع Hietzing : ing ، Liesing ، Mödling (والاسم القديم لهذه المدينة هو Medelitz من [اللاتيني] mea deliciae أي meine Freud [أي «سروري»، و«سرور» هو اسم فرويد في الألمانية]). وأما الجزء الآخر فمشتق من الكلمة الإنجليزية Hearsay بمعنى شائعة، وهو ما يشير إلى النم ويثبت علاقة الحلم بالمنبه غير الهام المتخلف من النهار، وأعني به قصيدة قرأتها في مجلة Fliegenden Blâttern [«الصحائف الطائرة»] عن قزم نمام يدعى Sagter Hatergesagt [«قيل وقال»]. فإذا أضفنا المقطع ing إلى الاسم Fliess ، خرج لنا Vlissingen))[327] . وهو حقيقة اسم الميناء الذي يرسو فيه أخي حين يقبل من إنجلترا لزيارتنا. ولكن المرادف الإنجليزي لكلمة Vlissingen هو Flushing ، وهو ما يعني حمرة الخجل ويذكرني بالمرضى الذين أعالجهم من «مخافة الخجل» ويذكرني كذلك بمقال حديث . أثار بعض السخط في نفسي . نشره بشترف عن هذا العصاب.

5) وحلمت في مرة أخرى حلماً تركَّب من جزئين منفصلين: الجزء الأول كلمة علقت واضحة في ذاكرتي هي كلمة Autodidasker ، وأما الجزء الثاني فكان يعيد . إعادة أمنية . تخييلاً قصيراً، لا ضرر فيه، طاف بذهني منذ بضعة أيام. وكان مؤدى هذا التخييل أنني سأقول للأستاذ ن. في أول فرصة أراه فيها: «إن المريض الذي كنت استشرتك في أمره أخيراً يعاني بالفعل عصاباً، على ما خمَّنته أنت». ولا بد إذن لهذه الطرفة اللفظية Autodidasker من أن تحقق شرطين: الأول هو أن تحمل . أو أن تصوِّر . معنى مضغوطاً، والثاني هو أن يكون لهذا المعنى رباط مقبول يربط بينه وبين تلك النية المكررة في الحلم بعد اليقظة، وأعني بها نية تقديم هاته الترضية للأستاذ ن.

لننظرن إذن في كلمة Autodidasker هذه: إن من السهل أن نقسمها إلى Autor [مؤلف] Autodidact [متعلم عصامي] Lasker . وهو اسم يرتبط في الذهن باسم Lasalle[328] وتسوقني أولى هذه الكلمات إلى مناسبة الحلم . وهي مناسبة لها مغزاها في هذه المرة .: فقد كنت أعطيت زوجي عدة من المجلدات لمؤلف معروف كان صديقاً لأخي وكان . على ما علمت . من أبناء البلد الذي ولدت فيه (ي. ي. دافيد). وفي ذات مساء حدثتني زوجي عن الأثر العميق الذي تركته في نفسها قصة فاجعة قرأتها في أحد مجلدات دافيد عن رجل موهوب ساء مآله. وعرَّج بنا الحديث إلى المواهب التي نرى آماراتها في أطفالنا. وهنا أعربت زوجي . وهي ما تزال متأثرة بما قرأت . عن تخوفها فيما يتصل بالأطفال، فرفَّهت عنها ملاحظاً أن تلك على التحقيق هي المخاطر التي يمكن أن نتلافاها بالتنشئة الحسنة. ولكنني واصلت تلك الخواطر في خلال الليل، فأخذت عن زوجي مخاوفها ونسجت حول هذه المخاوف أشياء أخرى من كل صنف. وكان لهذا المؤلف رأي في الزواج أفضى به إلى أخي، ولقد ساق هذا الرأي خواطري في طريق جانبي يمكن أن تبلغ منه إلى التصوُّر في الحلم: هذا الطريق قد أدى إلى برسلاو حيث تزوجت . وأقامت . سيدة كانت تعقد بينها وبيننا صداقة متينة. ووجد الخوف من أن تضيع الحياة من أجل امرأة . هذا الخوف الذي كان مدار أفكاري في ذلك الحلم . مثالين في برسلاو مكناني من أن أصور في وقت واحد كلتا الطريقتين اللتين ينفذ بهما هذا التأثير المنحوس: لاسكر و لاسال[329]. هذه الخواطر تتلخص جميعها في:

«ابحث عن المرأة»، وهذه العبارة تقودني بدورها . وقد أخذتها بمعنى مختلف . إلى أخي الذي لم يتزوج بعد، واسمه آلكساندر. إني ألحظ الآن أن Alex يكاد يجانس لاسكر مقلوباً وأن هذا العامل لا بد قد شارك في التعريج بأفكاري جهة برسلاو.

ولكن هذا اللعب بالأسماء والمقاطع الذي كنت أسترسل فيه ههنا كان يضمر بعد ذلك معنى آخر؛ فهو يعرب عن رغبتي في أن أرى أخي ينعم بحياة عائلية سعيدة، وكان ذلك من الطريق الآتية: نعلم أن زولا قد وصف نفسه ووصف حياته العائلية في بعض مشاهد الرواية التي ألَّفها عن حياة فنان L'œuvre . وهي رواية لا بد أن محتواها قد قرَّب بينها وبين أفكار هذا الحلم. وهو يظهر في هذه الرواية باسم ساندوز ، وأغلب الظن أنه قد توصل إلى تعديل اسمه على هذا النحو من الطريق الآتية: إذا كتبنا اسم زولا معكوساً (وهو الشيء الذي يصنعه الأطفال عادة في ولع كبير) خرج لنا آلوز. ولكن لا شك في أن ذلك كان يكون تنكراً غير كافٍ. وعلى ذلك رفع زولا آل . وهو المقطع الأول من آلكساندر . ووضع مكانه ساند . وهو المقطع الثالث من هذا الاسم عينه . وبذلك خرج ساندوز. وعلى نحو جد شبيه بذلك أنشأت أيضاً كلمتي «أوتوديداسكر».

فأما التخييل الذي كان مؤداه أنني أقول للدكتور ن: إن المريض الذي اشتركنا في فحصه إنما كان يعاني عصاباً . فقد جاء في الحلم على هذا النحو: أخذت قبل أن يحين موعد إجازتي السنوية بوقت قصير في العناية بمريض حارت في أمره قدرتي على التشخيص؛ فقد كانت حاله توحي أن ثمة مرضاً عضوياً خطيراً . قد يكون فساداً في النخاع الشوكي . ولكن لم يكن في المستطاع التثبت من ذلك. وكان القول بأن الحالة حالة عصاب مغرياً وكان ذلك كفيلاً أن ينهي كل صعوبة، لولا أن المريض قد أنكر التاريخ الجنسي الذي لا أسلِّم بدونه بوجود العصاب أشد الإنكار. ولم أجد . وأنا في هذه الربكة . إلا أن أستعين بالطبيب الذي أجلُّه رجلاً كما لا أجل رجلاً سواه (يشاركني في ذلك الكثيرون عداي) وأذعن لرأيه طبيباً أسرع إذعان. واستمع الأستاذ إلى شكوكي وأقرني عليها ثم ذكر رأيه: «امض في ملاحظة الرجل، فلا بد أن الأمر عصاب». وكنت أعلم أنه لا يشاركني آرائي في علية الأعصبة، فلم أفاتحه بالحجة التي تدعوني إلى رأي مخالف، بيد أنني لم أخفِ عنه تشككي. ثم بعد ذلك ببضعة أيام أبلغت المريض أنني لا أعرف ماذا أصنع معه ونصحت له بالتوجه إلى طبيب آخر. ولشد ما دهشت عندئذ إذ طفق الرجل يرجو مني معذرته لكذبه علي، قائلاً: إنه كان خجلاً من نفسه خجلاً شديداً، ثم كاشفني بهذا الطرف من العلية الجنسية الذي كنت أتوقعه على التحديد والذي لم أستطع بدونه القول بوجود العصاب. لقد فرَّج ذلك عني ولكنه في الوقت عينه قد أذلني؛ فقد وجب عليّ أن أسلِّم بأن ناصحي . إذ لم يضلله اعتبار التاريخ الجنسي . قد أصاب في رأيه أكثر مما أصبت. وكان أني عقدت العزم على أن أخبره بذلك حين أراه مرة ثانية: أن أخبره بأنه كان على صواب وأني كنت على خطأ.

وهذا على التحقيق هو ما أصنع في الحلم. ولكن ما هي هذه الرغبة التي تتحقق حين أعترف بأني كنت على خطأ؟ إنها الرغبة في هذا الخطأ بالذات: لقد كنت أود لو أخطأت في مخاوفي، أو . بعبارة أصح . لو قد أخطأت زوجي في هاته المخاوف التي صارت في الحلم مخاوفي. ثم إن الموضوع الذي يدور من حوله الصواب والخطأ في الحلم لم يكن بعيداً كل البعد عن المسائل التي كانت تشغلني في أفكار الحلم حقيقة؛ فالأذى الذي تسببه امرأة أو تسببه . بعبارة أصح . الحياة الجنسية قد يكون كذلك عضوياً وقد يكون وظيفياً: شلل زهري أو عصاب، وفي هذه المقولة الأخيرة نستطيع أن ندرج من طريق غير مباشر نوع الموت الذي لاقاه لاسال.

ولكن الأستاذ ن. لم يأخذ بنصيب في هذا الحلم المتماسك التركيب والذي يصبح شفافاً كل الشفافية حين نعنى بتفسيره من أجل تلك المماثلة ومن أجل رغبتي في أن أكون مخطئاً، ولا من أجل الروابط العارضة التي تربطه بمدينة برسلاو وبأسرة الصديقة التي تزوجت هناك، بل قد جاءت مشاركته . فوق ذلك . من أجل هذه الواقعة الصغيرة التي أختتم بها تشاورنا: فهو بعد أن أدلى برأيه الذي ذكرته وفرغ بذلك من مهمته الطبية تحوَّل باهتمامه إلى الأمور الشخصية فسألني: «ما عدد أطفالك الآن؟» . «ستة» . وهنا أتى بحركة تنم عن الإعجاب والقلق ثم قال: «بنات أم صبية»؟ . «ثلاثة وثلاث، وهم فخري وغناي» . «حسناً، ولكن خذ حذرك! إن الأمور تجري على ما يرام فيما يتعلق بالبنات، وأما الصبية فتجلب تربيتهم المتاعب فيما بعد»، فاحتججت بأن أبنائي قد ظلوا حتى اليوم طيعين على أحسن وجه. ومن الواضح أن هذا التشخيص الثاني فيما يتصل بمستقبل أبنائي لم يرقني إلا بقدر ما راقني سابقه عن المريض الذي لا يشكو إلا عصاباً. فهذان الانطباعان قد ارتبطا من طريق التلازم، أي لأنني خبرتهما الواحد عقب الآخر، وأنا حين أتناول قصة العصاب فأدرجها في حلمي أحلها محل حديثنا عن التربية . هذا الحديث الذي كان لا شك مرتبطاً أوثق الارتباط بأفكار الحلم من حيث يقرب كل هذا القرب من المخاوف التي أعربت عنها زوجي أخيراً. وهكذا نرى أنه حتى خوفي من أن يكون ن. محقاً فيما تحدَّث به من صعوبة تنشئة الصبيان قد وجد منفذاً إلى محتوى الحلم، من حيث كان يستتر وراء الصورة التي صورت رغبتي في أن أكون مخطئاً في مجاراة أمثال هذه المخاوف. وذات التخييل قد أفاد . كما هو . في تصوير كلا الاحتمالين المتقابلين.

6) نقلاً عن مارسينوفسكي [1911]: «خبرت اليوم وأنا بين الحلم واليقظة مثالاً بديعاً غاية الإبداع على التكثيف الحلمي: فقد استوقفتني وس أشتات حلمية لا أكاد أذكرها كلمة رأيتها وقد كُتب نصفها وطبع النصف الآخر. كانت الكلمة: 'erzefilisch' [كلمة لا معنى لها]، وهي قد جاءت في جملة انزلقت في ذاكرتي الشعورية مفصولة من كل سياق ومعزولة عزلاً تاماً. هذه الجملة هي: «إن ذلك يؤثر في المشاعر الجنسية تأثيراً 'erzefilisch'. لقد عرفت للوهلة الأولى أن هذه الكلمة لا بد أن تكون في الحقيقة: 'erzieherisch' [تربوي] ولهذا ظللت أتشكك برهة فيما إذا كان الأجدر أن تكون الكلمة غير المفهومة 'erzifilisch' [بحيث يكون المقطعان الأولان متفقين نطقاً والمقطعين الأولين من الكلمة الدالة على

«تربوي»، وهي الكلمة التي خمن الحالم أن الكلمة المخترعة قد أخذت منها]. وفي هذه الأثناء خطرت لي كلمة 'Syphilis' ، وأخذت أعصر ذهني . وقد بدأت في تفسير الحلم وأنا ما زلت نصف نائم . سائلاً كيف تسنى لهذه الكلمة أن تعرض في الحلم، إذ ليست هناك أي علاقة تربط بيني وبين هذا المرض لا من وجهة شخصية ولا من وجهة مهنية. وعندئذ خطرت لي كلمة 'erzehlerisch' [كلمة أخرى لا معنى لها] ففسرت السر في وجود حرف e الثاني [في الكلمة المخترعة في الحلم]، وذلك بأن ذكرتني بأن المربية 'Erzieherin' كانت قد سألتني في المساء أن أحدثها برأيي في مشكلة البغاء، فأعطيتها كتاب هس (عن البغاء) قاصداً من ذلك إلى التأثير في حياتها الانفعالية . ولم تكن قد نمت نمواً سوياً تماماً . تأثيراً 'erzieherisch' [تربوياً]، ثم حدثتها بعد ذلك حديثاً طويلاً في هذه المشكلة. وعندئذ اتضح أن كلمة 'Syphilis' لا يجب أخذها بمعناها الحرفي، بل هي تنوب عن «سم» . فيما يتصل بأمور الحياة الجنسية بالطبع. وهكذا نجد أننا نخرج من ترجمة هذه الكلمة غير المفهومة بجملة منطقية تماماً: لقد كنت أبتغي من هذا الحديث 'Erzahlung' ، e=â نطقاً] أن أؤثر في الحياة الانفعالية لمربيتنا 'Erzieherin'] تأثيراً تربوياً 'erzieherisch'] ولكنني أخشى أن يكون لذلك فعل السم. أي أن 'erzefilisch' قد ركّبت من 'erzâh–' ثم [330]'erzieh–' ».

هذه التركيبات اللغوية الفاسدة للحلم تشبه غاية الشبه تلك التي نعرفها في البارانويا وإن كانت لا تغيب أيضاً من الهستيريا والأفكار القهرية. وإن الألاعيب اللغوية للأطفال الذين يعاملون الكلمات أحياناً معاملة الموضوعات ويبتدعون فوق ذلك لغات جديدة وصوراً نحوية مصطنعة لهي المنبع الذي يصدر عنه هذا كله، سواء أفي الحلم أم في الأعصبة النفسية.

إن تحليل الألفاظ التي لا معنى لها يصلح صلاحية خاصة لإظهارنا على ما يحققه عمل الحلم في مجال التكثيف. وليس للقارىء أن يستنتج من قلة الأمثلة التي ذكرتها أن هذا الضرب من المادة نادر أو لا يعرض للملاحظة إلا نادراً. بل الأصدق هو أن هذه الأمثلة كثيرة الوقوع إلى مدى كبير ولكن توقف تحليل الحلم على العلاج النفسي كان من نتيجته أن أمثلة قليلة العدد جداً هي التي قد لوحظت ورويت وأن التحليلات المروية لهذه الأمثلة لا يدنو فهمها في العادة إلا للمتخصصين في دراسة مرضية الأعصبة. ولقد روى الدكتور فون كارپينسكا (1914) مثالاً من هذا النوع احتوى على هذا المركَّب اللفظي غير المفهوم svingnum elvi. وإنه لجدير بنا أن نذكر هذه الحالات التي فيها تظهر في الحلم كلمة لا تخلو في ذاتها من المعنى ولكنها قد جرِّدت مع ذلك من معناها الخاص وضمنت معاني متعددة يكون شأن هذه الكلمة منها شأن الكلمة التي «لا معنى لها». مثال ذلك حلم رواه تاوسك (1913) عن طفل في العاشرة من عمره وردت فيه الكلمة Kategorie [مقولة]، وكانت تعني هنا أعضاء المرأة التناسلية، كما كان الفعل الذي اشتق من هذه الكلمة Kategoriereen يعني التبوُّل.

وإذا وردت في الحلم جمل منطوقة متميزة صراحة . من حيث هي كذلك . من الأفكار، فالقاعدة التي لا تتخلف هي أن الكلمة المنطوقة في الحلم إنما تستمد من كلمات منطوقة متذكرة في مادة الحلم. ومنطوق الكلام إما أن يحفظ كما هو أو يصدر معدلاً بنقل طفيف. وكثيراً ما يؤلَّف الكلام في الحلم من أقوال متنوعة مستمدة من ذاكرة الحالم، وفي هذه الأثناء يبقى النص هو هو، ولكن تخلع عليه . إذا أمكن ذلك . معان متعددة، أو معنى يختلف من معناه الأصلي. ولا يندر أن يستخدم الكلام الوارد في الحلم على سبيل الإشارة إلى الموقف الذي ورد فيه هذا الكلام لا أكثر[331].

ب
عمل النقل

لا بد أن علاقة ثانية لا تقل في الراجح أهمية عن التكثيف قد تجلَّت لنا بينما كنا نجمع الشواهد على هذا الأخير. لقد وسعنا أن نلحظ أن العناصر التي تبرز في محتوى الحلم باعتبارها مقومات جوهرية له بعيدة كل البعد عن أن يكون لها مثل هذا الشأن في أفكار الحلم. ونستطيع أن نعكس هذه القضية فنخرج منها بنتيجة تتبعها: إن ما يتضح جلياً أنه المحتوى الجوهري في أفكار الحلم لا يتمثل في الحلم بالضرورة. فللحلم - إن شئت - محور مختلف ، أي أن محتواه ينتظم حول عناصر غير التي تشغل في أفكاره نقطة المركز. خذ مثلاً حلم المبحث النباتي: من الواضح أن مداره كان العنصر «نباتي» وأما في أفكار الحلم فيتعلق الأمر بالتعقُّد والنزاع اللذين ينشآن بين الزملاء من جراء التزاماتهم المهنية، ثم يتعلق بعد ذلك بما آلام عليه من أنني أبذل في سبيل هواياتي تضحيات تفوق كل ما ينبغي، ولم يكن العنصر «نباتي» يشغل أدنى محل في نواة أفكار الحلم هذه، اللهم إلا أن يكون قد ارتبط بها ارتباطاً واهياً على سبيل التضاد من حيث أن علم النبات لم يكن يوماً بين العلوم التي أوثرها. ثم حلم سافو الذي أتاه أحد مرضاي: النقطة الرئيسية في هذا الحلم هي الصعود و الهبوط، الأعلى و الأسفل ، ولكن الحلم يعالج مخاطر العلاقات الجنسية بأشخاص محطوطي القدر ، بحيث يبدو أن عنصراً واحداً من أفكار الحلم هو الذي قد نفذ إلى محتواه، وإن يكن هذا العنصر قد مُطَّ مطاً لا تناسب فيه. والحال كذلك في حلم الخنفساوين: فموضوعه هو العلاقة بين الحياة الجنسية والقسوة، وعامل القسوة يظهر يقيناً في محتوى الحلم، ولكنه يظهر في سياق مختلف دون أن يذكر للحياة الجنسية ذكر، أي منزوعاً من محيطه، مصوراً - من ثم - في صورة تنأى به عن الموضوع. كذلك في حلم عمي حيث كانت اللحية الصفراء هي النقطة الرئيسة: لقد بدت هذه اللحية مجردة من كل معنى يربط بينها وبين رغبة العظمة التي عرفنا فيها لبَّ أفكار الحلم. إن أمثال هذه الأحلام توحي إلى المرء بحق أن «نقلاً» قد وقع. وحلم حقنة إرما يبدو إذن مخالفاً لهذه الأمثلة تمام المخالفة؛ إذ فيه أمكن العناصر المختلفة أن تحتفظ في خلال تكوين الحلم بالمحل الذي كانت تشغله في أفكار الحلم. وإن الكشف عن هذه العلاقة الجديدة بين أفكار الحلم ومحتواه - تلك العلاقة المتقلبة غاية التقلُّب في اتجاهها أو معناها - لأمر يثير عجبنا للوهلة الأولى. فنحن إذا نظرنا في عملية نفسية من عمليات الحياة السوية فوجدنا أن فكرة بعينها قد انتخبت من بين الكثيرات غيرها ثم اكتسبت حدة خاصة بالنسبة إلى الشعور، رأينا في ذلك عادة دليلاً على أن لهذه الفكرة قيمة نفسية عالية بنوع خاص - على أنها تلقى درجة معينة من الاهتمام. ولكننا نرى الآن أن هذه القيمة التي لمختلف العناصر المتضمنة في أفكار الحلم لا تُسْتَبْقَى في خلال تكوينه أو لا يحسب لها حساب. فنحن لا نشك أقل شك في أي عناصر أفكار الحلم تفوق ما عداها قيمة: فحكمنا ينبئنا بذلك إنباءً مباشراً. وهذه العناصر الجوهرية المحمَّلة باهتمام شديد قد تعامل عند تكوين الحلم كما لو لم تكن تملك سوى قيمة ضئيلة، وتحل محلها في الحلم عناصر أخرى لا نشك في أنها كانت ذات قيمة ضئيلة في أفكار الحلم. وفي ذلك ما يوحي للوهلة الأولى أن الشدة النفسية[332] التي لمختلف الأفكار لا يحسب لها حساب على الإطلاق حين يختار الحلم من هذه الأفكار ما يختار، وإنما الشيء الوحيد الذي يحسب حسابه هو تعدد حتمها تعدداً ينقص أو يزيد، أي أن المرء قد يظن أن ما يظهر في الحلم من أفكار الحلم ليس خطيرها، بل مكررها. بيد أن هذا الفرض لن يعيننا كثيراً على فهم تكوين الحلم؛ فنحن لن نعقل أن عامل الحتم المضاعف وعامل القيمة النفسية الخاصة يمكن أن يعملا في اتجاهين متباينين على اختيار العناصر التي تظهر في الحلم، بل الأفكار التي هي أشد أفكار الحلم أهمية سوف تكون يقيناً أكثرها أيضاً تردداً، فمنها - كما من بؤرة - تشع أفكار الحلم المتفرقة. ومع هذا يستطيع الحلم أن يترك تلك العناصر المؤكدة توكيداً شديداً في ذاتها المؤيدة من جوانب متعددة بغيرها، وأن يلتقط لمحتواه عناصر أخرى لا تتحقق فيها سوى ثانية هاتين الخاصتين.

ولكي نصل إلى حل هذه الصعوبة سوف نسترشد بانطباع آخر يوحيه أيضاً بحثنا في الحتم المضاعف لمحتوى الحلم: ربما كان الكثيرون من القراء قد حكموا من تلقاء أنفسهم بأن الحتم المضاعف لعناصر الحلم ليس بالمكتشف الهام لأنه أمر واضح بذاته؛ فنحن نأخذ في التحليل ابتداءً من عناصر الحلم ثم ندوِّن كل الخواطر التي تستدعيها هذه العناصر، ولا عجب إذن حين نجد أن هذه العناصر على التحديد قد تكرر ورودها في المادة الفكرية المكتسبة من هذا الطريق تكراراً خاصاً. ولست أستطيع أن أقبل هذا الاعتراض، ولكنني أسوق مع ذلك قولاً يلوح مشابهاً له: إن بين الأفكار التي يخرجها التحليل إلى الضوء أفكاراً كثيرة بعيدة بعداً نسبياً عن لب الحلم وتبدو مثل وسائط مصطنعة جعلت لهدف بعينه. وهذا الهدف يسهل تخمينه: فهذه الأفكار على التحقيق هي التي تعقد الصلة بين محتوى الحلم وأفكاره، صلة كثيراً ما تكون مفروضة، مفتعلة. ونحن إذا أسقطنا هذه العناصر من التحليل كانت النتيجة في كثير من الأحايين أن مقومات المحتوى الحلمي لا تفقد حتمها المضاعف وحسب، بل هي قد تفقد كل حتم كاف يجيئها من أفكار الحلم. وهكذا نساق إلى تلك النتيجة: أن الحتم المتكثر الذي يفصل في اختيار ما يدخل الحلم ليس عاملاً أولياً في تكوين الحلم بل هو في الكثير من الأحيان نتاج ثانوي لقوة نفسية لا نزال نجهلها. ومع هذا فلا بد أن تكون لهذا الحتم أهمية خاصة في اختيار أي العناصر يدخل الحلم، ما دمنا نلحظ أن هذا الحتم يُجلب جلباً بجهد خاص حين لا ينبعث من أفكار الحلم بغير عون.

وهكذا نصبح قاب قوسين من تلك الفكرة: أن هناك قوة نفسية تفصح عن نفسها في أثناء عمل الحلم، قوة تجرِّد العناصر ذات القيمة النفسية العالية من شدتها . هذا من جهة، وهي . من جهة أخرى . تخلق بوساطة الحتم المضاعف من العناصر ذات القيمة النفسية المنخفضة قيماً جديدة، تلج بعد ذلك محتوى الحلم. وإذا كان الأمر كذلك، كان معناه أن تحويلاً ونقلاً في الشدات النفسية التي لمختلف العناصر يقعان في أثناء تكوين الحلم، وأن التباين بين نص محتوى الحلم ونص أفكار الحلم يأتي نتيجة لهذا التحويل وهذا النقل. والعملية التي نفترض وجودها على هذا النحو هي على التحقيق الجزء الجوهري في عمل الحلم، وهي تستحق اسم «النقل الحلمي». فالنقل الحلمي و التكثيف الحلمي هما سيِّدا العمل اللذان يحق لنا أن نعزو تشكيل الحلم إلى نشاطهما هما في المقام الأول.

وأعتقد أن من السهل علينا أيضاً أن نعرف ما هي تلك القوة النفسية التي تفصح عن نفسها في وقائع النقل الحلمي؛ فنتيجة هذا النقل هي أن محتوى الحلم يفقد شبهه بلب أفكار الحلم، وأن الحلم لا يعطينا بعد ذلك سوى صورة مشوهة من رغبة الحلم اللاشعورية. وتشويه الحلم ظاهرة عرفناها من قبل، وقد كنا أرجعناها إلى الرقابة التي يمارسها أحد نظامين يعملان في الحياة الفكرية بإزاء النظام الآخر. والنقل الحلمي . على ذلك . وسيلة من الوسائل الرئيسة التي يتحقق بها هذا التشويه؛ فإنَّ «فاعل الفعل هو من انتفع منه»[333]. ومن حقنا إذن أن نفترض أن النقل الحلمي يقع بتأثير من هاته الرقابة، رقابة الدفاع الصادر عن داخل النفس[334].

وأما السؤال: كيف تعمل معاً في تكوين الحلم عوامل النقل والتكثيف والحتم المضاعف أيها المسيطر وأيها الثانوي؟ فذلك ما ندخره لبحث مقبل. [أنظر مثلاً القسم من هذا الفصل]. ولكننا نستطيع أن نكشف في الوقت الحاضر عن شرط ثانٍ لا بد من أن تستوفيه العناصر التي تشق طريقها إلى الحلم: أن تفلت هذه العناصر من الرقابة التي تفرضها المقاومة. ومن الآن فصاعداً سنحسب للنقل الحلمي حسابه باعتباره واقعة لا يتطرق إليها الشك.

ج
وسائل الحلم في التصوير

إذا تركنا عاملي التكثيف والنقل اللذين رأينا نشاطهما في تحويل الأفكار الكامنة إلى محتوى الحلم الظاهر، أوقفتنا متابعة البحث على شرطين آخرين يؤثران في اختيار المادة التي تنفذ إلى الحلم تأثيراً لا شك فيه. ولكنني أود أولاً أن ألقي نظرة على العمليات التي تقع في أثناء القيام بتفسير الحلم، مهما كان في ذلك من خطر الظهور بمظهر من لا يتقدم في طريقه. إنني لا أخفي على نفسي أن أقرب الطرق إلى إيضاح هذه العمليات وإلى الذود عن جدارتها بالثقة في وجه النقد هو أن آخذ حلماً بعينه على سبيل المثال وأن أفصّل تفسيره كما فعلت من قبل بحلم حقنة إرما في الفصل الثاني، وأن أجمع بعدئذ ما يتكشف لي من أفكار الحلم، ثم آخذ في بناء الحلم من جديد ابتداءً من هذه الأفكار، أي أن أردف تحليل الحلم بتركيب يكمله. ولقد قمت بهذا العمل في أمثلة متعددة طلباً لفائدتي الخاصة، ولكنني لا أستطيع أن أورد هنا هذه الأمثلة، إذ تمنعني من سَوق هذا البرهان اعتبارات تتعلق بطبيعة المادة النفسية المضمنة . وهي اعتبارات متنوعة ويسلم بوجاهتها كل امرىء منصف في التفكير. هذه الاعتبارات قد تدخلت في تحليل الأحلام إلى حد أقل؛ فإن التحليل قد يظل ناقصاً ويستبقي مع ذلك قيمته، بل هو قد يستبقيها وإن لم ينفذ إلا في رقعة صغيرة من نسيج الحلم. فأما تركيب الحلم فلست أدري كيف يُصْنعُ إلا إذا كان كاملاً. وما أستطيع أن أورد تركيباً كاملاً لبعض الأحلام إلا إذا كانت هذه الأحلام لأناس تجهلهم جمهرة القراء. ولكن إذا كان هذا الشرط لا يتحقق إلا في مرضاي . وهم عصابيون . فقد وجب عليَّ أن أرجىء هذا الجزء من الكلام عن الحلم إلى أن أتمكن . في موضع آخر غير هذا الكتاب . من المضي بتفسير سيكولوجية الأعصبة إلى الحد الذي يتم عنده الوصل بينها وبين موضوعنا الحاضر[335].

وقد علمتني محاولاتي في بناء الأحلام بتركيبها من أفكار الحلم أن المادة التي تنبعث في خلال التفسير تتفاوت في القيمة: فهناك جزء يتكوَّن من أفكار الحلم الجوهرية، أي تلك التي تحل محل الحلم تماماً وكانت كفيلة أن تجيء بدله لولا وجود الرقابة على الحلم، وأما الجزء الآخر فهو في العادة خليق بأن يوصف بكونه ذا أهمية ضئيلة. ولسنا نأخذ بالقضية القائلة إن جميع الأفكار التي من هذا النوع الثاني قد اشتركت في تكوين الحلم [أنظر ص 318]، بل لقد توجد بينها على العكس مستدعيات تتعلق بخبرات وقعت بعد الحلم، بين لحظتي الحلم والتفسير. هذا الجزء يشمل جميع الطرق الرابطة التي أدت من المحتوى الظاهر إلى الأفكار الكامنة، كما يشتمل على المستدعيات المتوسطة المتدرجة التي توصَّلنا من خلالها . ونحن نقوم بالتفسير . إلى معرفة تلك الطرق الرابطة.

ولسنا نوجِّه اهتمامنا في هذا الموضع إلا إلى أفكار الحلم الجوهرية وحدها. هذه الأفكار تتكشف في معظم الأحايين في صورة مجموعة من الأفكار والذكريات ذات بنية متشابكة أقصى التشابك، حاصلة على كل الخواص التي نعرفها لعملياتنا الفكرية في حياة اليقظة. وهي قد تكون في أحيان ليست بالنادرة سلسلات من الفكر تصدر عن أكثر من مركز واحد، وإن تماست في بعض المواضع. وتكاد كل سلسلة من هذه أن تقترن دائماً بمقابلها المناقض لها: يرتبط بها من طريق التداعي بالتباين.

والأجزاء المختلفة من هذا البناء المعقَّد تتداخل بالطبع في علاقات منطقية أو لغوية تتنوَّع غاية التنوع: ففيها المتقدم والمتأخر وفيها الاستطراد والإيضاح، فيها الشرط والتدليل والمناقضة. فإذا ما خضعت كتلة أفكار الحلم هذه للضغط المتولد عن عمل الحلم، يدير أجزاءها ويفتتها ثم يلحمها فيما يشبه الثلج المندفع، ثار في أنفسنا السؤال عما آلت إليه هاته العلاقات التي كانت حتى الساعة هيكل البناء. أي تصوير تلقاه في الحلم «إذا» و«لأن» أو «مثل» و«رغم» و«إما . أو» وسائر الأحرف التي لا تُفهم بغيرها عبارة أو خطاب؟

لا مفر من أن نجيب في بادىء الأمر بأن الحلم لا يملك أي وسيلة يصور بها هذه العلاقات المنطقية بين أفكار الحلم. فهو في معظم الأحايين يغفل كل هذه الحروف ولا يستبقي من الأفكار سوى محتواها الذي يصوغ منه صوغه. وعلى التفسير أن يسترجع ما أعدمه عمل الحلم من الروابط المنطقية.

وإذا كانت هذه القدرة على التعبير تعوز الحلم، فهي لا بد راجعة إلى طبيعة المادة النفسية التي تصنع منها الأحلام. ويعرف هذان الفنان التشكيليان: التصوير والنحت . مثل هذا التقييد، بالقياس إلى الشعر الذي يسعه استعمال الكلم. وعلة العجز هنا أيضاً طبيعة المادة التي يجهد هذان الفنان في الإعراب عن شيء ما بتشكيلها. ولقد جهد فن التصوير . قبل أن يصل إلى الأحكام التي يعمل اليوم بمقتضاها . في تذليل هذا العائق. فنحن نرى الأشخاص في الرسوم القديمة وقد تعلقت بأفواههم شرائط خطَّت عليها أحرف تقول ما قد يئس الفنان من الإعراب عنه في صور.

وربما ظهر في هذا الموضع اعتراض ينازع فيما ننكره من قدرة الحلم على تصوير العلاقات المنطقية: فهناك أحلام يقوم فيها الحالم بعمليات عقلية معقدة غاية التعقيد، فيبرهن على القضية أو ينقضها أو يسفِّهها أو يقارنها بغيرها، كشأنه في اليقظة. وهذا صحيح، ولكن هنا أيضاً يخدع المظهر، فلو أنَّا مضينا في تفسير أمثال هذه الأحلام لعلمنا أن هذا كله إنما هو مادة من مادة الحلم وليس تصويراً لعمل عقلي يتأدى في الحلم. وما يعيد الحلم بتفكيره الظاهر هذا سوى محتوى أفكار الحلم لا علاقاتها المتبادلة التي يقوم التفكير في التزامها. وسوف أسوق بعض الأمثلة على ذلك [ص 466 وما بعدها]، ولكن أسهل ما نستطيع التثبت منه في هذا الموضع هو أن كل كلام يعرض في الحلم منصوصاً صراحة على أنه كذلك إنما هو إعادة محرَّفة أو محرفة قليلاً لأقوال موجودة من قبل بين ذكريات مادة الحلم. وفي كثير من الأحيان لا يخرج الكلام المقول في الحلم عن أن يكون إلماعاً إلى موقف متضمن في أفكار الحلم، وأما معنى الحلم فيكون مختلفاً كل الاختلاف. [أنظر ص 445 وما بعدها].

بيد أنني لن أنكر مع ذلك أن التفكير النقدي الذي لا يقف عند مجرد تكرار المادة المحتواة في أفكار الحلم يأخذ مع ذلك بنصيب في تكوين الحلم. ولن أجد بداً من أن ألقي الضوء في نهاية المناقشة الحاضرة على تأثير هذا العامل. وعندئذ سوف يتضح أن هذا النشاط الفكري لا يرد إلى أفكار الحلم بل يصدر عن الحلم ذاته بعد أن يكون قد اكتمل صنعه بمعنى من المعاني. [أنظر القسم الأخير من هذا الفصل].

وإلى أن يتضح لنا ذلك نقول إذن: إن العلاقات المنطقية بين أفكار الحلم لا تحظى في الحلم بأي تصوير مستقل. فإذا عرض في الحلم تناقض ـ مثلاً ـ فهو إما تناقض من جانب الحلم وإما تناقض في فكرة من أفكار الحلم. ولا يكون التناقض في الحلم مصوراً لتناقض بين أفكار الحلم إلا بطريقة غير مباشرة إلى أبعد حد.

ولكن كما أن فن التصوير قد أفلح أخيراً في أن يعرب على الأقل عن مقاصد الكلم عند من يصور من الناس: حب أو وعيد أو تحذير أو غيره، وذلك بطريقة أخرى عدا الشرائط المدلاة، كذلك أمكن الحلم أن يدخل في حسابه بعض العلاقات المنطقية بين أفكاره، وذلك بتعديل طريقة التصوير المميزة للأحلام تعديلاً ملائماً. وتدل التجربة على أن الأحلام المختلفة تتفاوت تفاوتاً كبيراً في هذا الباب؛ فبينما يغفل حلم الترتيب المنطقي الذي لمادَّته إغفالاً تاماً، يعمل حلم آخر على الإبانة عن هذا الترتيب إبانة كاملة بقدر المستطاع. وفي أثناء ذلك يبعد الحلم عن النص المراد صوغه بعداً ينقص أو يزيد. هذا، وتختلف الأحلام كذلك في مسلكها تجاه الترتيب الزمني لأفكار الحلم، إذا كان مثل هذا الترتيب قد قام في اللاشعور (كما في حلم حقنة إرما، مثلاً).

فما هي الوسائل التي يتمكن بها الحلم من الإبانة عما تتضمنه مادته من علاقات صعبة التصوير؟ سأحاول أن أحصي هذه الوسائل واحدة فواحدة.

الحلم أولاً يدخل في حسابه جملة الرباط القائم من غير أدنى شك بين أجزاء أفكار الحلم جميعها، وذلك بتوحيد هذه المادة في سياق يجمعها في صورة موقف أو حدث: إنه يعيد الرباط المنطقي في صورة المزامنة. وهو في ذلك يحذو حذو الرسام الذي يرسم صورة مدرسة أثينا أو البرناس، فيحشد في الصورة جميع الفلاسفة والشعراء وما اجتمعوا قط في رواق واحد أو على قمة واحدة. ولكنهم مع ذلك يؤلفون يقيناً صحبة واحدة بالمعنى التصوُّري المجرد.

والحلم يتابع هذا المنهج في التصوير حتى الجزئيات. فكلما اقترب عنصران من عناصر الحلم كلٌّ من الآخر كان ذلك ضامناً لوجود علاقة وثيقة بنوع خاص بين مقابليهما في أفكار الحلم. فالأمر هنا أشبه به في نظامنا الكتابي: فأنت إذا كتبت «أب» كان معنى ذلك أن هذين الحرفين يجب أن يقرآ مقطعاً واحداً، فإن تركت فاصلاً بينهما كان معناه أن «أ» هي الحرف الأخير من كلمة و«ب» الأول في تاليتها. وعلى هذا الغرار تجيء تجمعات الحلم، فهي لا تتكوَّن عفواً من أجزاء مشتتة في مادة الحلم، بل من أجزاء يربط بينها في أفكار الحلم أيضاً رباط وثيق.

فأما علاقات العلية فيملك الحلم طريقتين في تصويرها، هما في جوهرهما طريقة واحدة. فعندما تجري أفكار الحلم على هذه الصورة: «وإذ كان الأمر كذا وكذا، فقد لزم أن يقع هذا وذاك» فأشيع طرق التصوير هي أن تدرج جملة الشرط في حلم تمهيدي يتلوه جواب الشرط في الحلم الرئيس. ومن الممكن ـ إذا لم أكن أخطأت التفسير ـ أن ينقلب هذا الوضع. ولكن الجزء الأوسع في الحلم يقابل دائماً جملة جواب الشرط.

وقد أتت إحدى مريضاتي بمثال بديع على هذه الطريقة في تصوير علاقة العلية، وذلك في حلم سوف أورده كاملاً فيما بعد [ص 380]. كان الحلم يتكوَّن من مقدمة وجزة ومن حلم مسهب دار إلى درجة ملحوظة حول موضوع بعينه، وهو يستحق أن يسمَّى باسم: لغة الأزهار. وكان الحلم التمهيدي كما يلي: تذهب إلى المطبخ حيث تجد خادميها وتؤنبهما لأنهما لمَّا تجهزا لها «قضمة تؤكل» تلمح في أثناء ذلك عدداً كبيراً جداً من أوعية المطبخ العامية الطراز، قُلبت على الأرض وقد رصَّت بعضها فوق بعض أكواماً حتى يسقط ما علق بها من قطرات الماء. تذهب الخادمان في طلب بعض الماء، وتضطران إلى الخوض في نهر ارتفع حتى بلغ المنزل أو فناءه.

ثم تبع ذلك الحلم الرئيس، وكان يبدأ على هذا النحو: تهبط من مرتفع عظيم فوق حواجز ركِّبت بطريقة غريبة وتشعر بالسرور لأن ثوبها لم يشبك بأي منها في خلال ذلك الهبوط... إلخ. إن الحلم التمهيدي يشير إلى منزل والدَي هذه السيدة. وأما الكلمات التي ألقت بها في المطبخ فلا

شك في أن المريضة قد سمعت أمها ترددها مراراً. وأكوام أوعية المطبخ مستمدة من دكان متواضع لبيع الأواني بأسفل منزلهم. فأما الجزء الثاني من هذا الحلم التمهيدي فيشير إلى والد الحالمة، وكان لا يكف عن مطاردة الخادمات، إلى أن أصابه في أثناء الفيضان مرض أودى به . وكان منزلهم يقع على ضفة النهر. فالفكرة المستترة وراء الحلم التمهيدي يمكن صوغها على هذا النحو: «وإذ كنت ولدت في هذا المنزل، في هذا الجو الوضيع المكتئب...» والحلم الرئيس يرجع فيتناول هذه الفكرة عينها ويصوغها من طريق تحقيق الرغبة في الصورة الآتية: «إنني أنحدر من سلالة عالية». والقراءة الصحيحة للحلم هي إذن: «وإذ كنت أنتمي إلى هذا الأصل الوضيع، فقد كانت حياتي كيت وكيت».

وانقسام الحلم جزئين متفاوتين في الطول لا يدل في كل حالة . بقدر ما أعلم . على وجود علاقة علية بين الفكرتين المتضمنتين في هذين الجزئين. فكثيراً ما يبدو الأمر كأن كلا الحلمين يعالج ذات المادة من وجهة نظر مختلفة، وتلك هي الحال يقيناً حين ترد في الليلة الواحدة سلسلة من الأحلام تنتهي بالإمناء؛ فهذه الأحلام مراحل تقترب الحاجة الجنسية من خلالها رويداً رويداً إلى تعبير أصرح. أو قد ينبعث كلا الحلمين من مركز خاص به في مادة الحلم ثم يقع بين الحلمين تداخل في المحتوى بحيث نرى ما كان إشارة عابرة في أحدهما وقد صار مركز الحلم الآخر، والعكس. بيد أن هناك . مهما يكن . حالات يدل فيها بالفعل انشقاق الحلم شقين . تمهيد قصير وملحق طويل . على وجود رابطة علية بين الجزئين. وأما المنهج الثاني في تصوير علاقة العلية فيُستخدم حين تكون المادة أقل اتساعاً. وهو يتلخص في أن ترد في الحلم صورة . سواء لشخص أم لشيء . ثم تتحوَّل إلى أخرى. والقول بوجود العلاقة العلية هنا لا يكون قولاً جدياً إلا حيث نرى هذا التحوُّل في صورة الحلم يدور أمام ناظرنا، وليس يكفي فيه أن نلحظ أن شيئاً ما قد جاء في موضع شيء آخر كان حاضراً منذ هنيهة. ولقد قلت: إن هذين المنهجين في تصوير علاقة العلية هما في الحقيقة منهج واحد. وذلك لأن العلية تصور في كليهما بالتعاقب: بتعاقب الأحلام طوراً، وبتحويل إحدى الصور إلى غيرها تحويلاً مباشراً طوراً آخر. ولكن الحق الصراح هو أن علاقة العلية لا تصوَّر على الإطلاق في الغالبية العظمى من الحالات، بل تضيع وسط تعاقب العناصر تعاقباً لا بد منه حتى في عملية الحلم.

وأما علاقة «إما كذا أو كذا» فلا يستطيع الحلم تصويرها على الإطلاق، بل يدرج الحلم كلا الاحتمالين في سياق واحد كما لو كانا يتساويان في الجواز. وحلم حقنة إرما يرينا مثالاً مأثوراً على ذلك. فقد كان من الجلي أن الأفكار الكامنة لهذا الحلم كانت الآتية: لا ذنب لي إذا كانت آلام إرما لا تزال مستمرة؛ فالذنب راجع إما إلى رفضها الأخذ بحلّي، أو إلى أنها تعيش في وضع جنسي لا يساعد على البرء ولا أستطيع تغييره، أو إلى أن طبيعة آلامها هذه ليست هستيرية على الإطلاق بل عضوية. ولكن الحلم يحقق جميع هذه الاحتمالات التي يكاد يمنع بعضها بعضاً، ولا يجد مانعاً من أن يضيف إليها احتمالاً رابعاً أوحته رغبة الحلم[336]. ثم لمَّا فرغت من التفسير أدرجت «إما» و«أو» في سياق أفكار الحلم.

غير أنه إذا شعر الراوي وهو يستذكر حلمه بحيرة بين «إما» و«إما» كأن يقول: «كان المكان إما حديقة وإما غرفة استقبال» فمقابل هذا الاحتمال في أفكار الحلم ليس احتمالاً مثلهما بل واو عطف، أي إضافة وحسب. فنحن في معظم الأحايين نستخدم «إما كذا وإما كذا» لكي نصف بها عنصراً من عناصر الحلم اتسم بطابع من الغموض يسهل مع ذلك تبديده؛ فالقاعدة التفسيرية في مثل هذه الحالة هي الآتية: أن نعامل كلا الاحتمالين الظاهرين كما لو كانا يتساويان صحة، وأن نربط كلاً بالآخر بوساطة واو العطف. مثال ذلك أنني ظللت زمناً طويلاً أنتظر سدى عنوان صديق لي كان مسافراً في إيطاليا، ثم حلمت بأني أتلقى رسالة برقية تخبرني بهذا العنوان. لقد رأيت العنوان مطبوعاً على الرسالة باللون الأزرق، وكانت الكلمة الأولى منه مبهمة؛ فهي:

ربما كانت Via

أو Villa ثم تتلوها الكلمة الثانية واضحة Sezerno

أو حتى Casa

إن للكلمة الثانية جرساً كجرس الأسماء الإيطالية، وهي تذكرني بمناقشاتي في الاشتقاقات اللغوية مع هذا الصديق، كما أنها تعرب عن غضبي منه إذ مكث هذا الزمن الطويل يحتفظ بعنوانه سراً[337]. وأما الكلمة الأولى فقد ظهر أن كل احتمال من احتمالاتها كان نقطة ابتداء تفرَّعت عنها سلسلة من الأفكار، نقطة قائمة بذاتها مساوية للآخرين في صوابها.

وقد حلمت في خلال الليلة التي سبقت تشييع جنازة والدي بلائحة أو لافتة مطبوعة أشبه ما تكون باللافتات التي تحرّم التدخين في حجرات الانتظار بمحطات السكة الحديدية، وكُتب على هذه اللافتة: المرجو أن تغلق كلا العينين

أو

المرجو أن تغلق إحدى العينين

وهو ما أكتبه عادة في الصورة الآتية:

المرجو أن تغلق كلا/احدى العينين

إن لكلا هذين النصَّين معناه المستقل، وكلاهما يضرب في اتجاه مستقل حين نشرع في تفسير الحلم. فقد كنت اخترت لجنازة والدي أبسط الطقوس الممكنة؛ لأنني كنت أعلم رأي الراحل في أمثال هذه المراسيم. ولكن هذه البساطة الطهرية[338] لم ترض سائر أعضاء الأسرة: فقد رأوا في ذلك مجلبة للعار بين المشيِّعين. ومن ثم جاء في إحدى القراءتين: «أن تغمض إحدى العينين» أي «أن تغض الطرف». فالإيهام الذي أعربت عنه «إما . وإما .» يسهل تفسيره هنا بنوع خاص: فعمل الحلم أخفق في أن يجد لفكرتي الحلم صيغة لفظية موحدة ولكنها مزدوجة المعنى، ولهذا انشقت في محتوى الحلم الظاهر سلسلتا الفكر الرئيستان.

هذا، وهناك حالات قليلة تحل فيها صعوبة تصوير الاحتمال بقسمة الحلم قسمين متساويين في الطول.

وأما مسلك الحلم بإزاء مقولة التضاد و التناقض فمسلك يسترعي النظر إلى أبعد مدى: فالحلم لا يزيد على أن يغفل هذه المقولة إغفالاً، أي أنه لا يعرف شيئاً اسمه «كلا». فهو يبدي إيثاراً خاصاً نحو إدماج الأضداد في كل واحد أو تصويرها على أنها شيء واحد. وهو . فوق ذلك . يستبيح لنفسه أن يصور أي عنصر من عناصره بوساطة ضده المرغوب فيه؛ بحيث يعجز المرء للوهلة الأولى – إذا ورد في الحلم عنصر يقبل الضد – عن أن يعرف ما إذا كانت أفكار الحلم قد حوت هذا العنصر في صورة موجبة أم سالبة[339]. وفي أحد الأحلام التي رويناها أخيراً (وهو حلم فسرنا جزأه الأول: «إذ كنت أنتمي إلى مثل هذا الأصل...») رأت الحالمة نفسها تهبط فوق الحواجز وقد حملت في يدها غصناً مزدهراً. ولقد خطر لها في صدد هذه الصورة كيف يحمل الملك عوداً من الزنبق في يده في صور البشارة إلى مريم (وكانت هي تدعى مريم)، ثم كيف تسير العذارى في موكب عيد المسيح[340] بينما ازدانت الطرق بالغصون الخضر. وهكذا يشير الغصن المزدهر في الحلم إلى الطهارة الجنسية، ذلك لا ريب فيه. بيد أن الغصن قد غطته في الحلم أزهار حمراء تشبه الكاميليا، ولقد مضى الحلم حتى بلغت الحالمة نهاية مسيرها وإذا الزهر قد ذوى معظمه أو كاد، ثم تجيء بعد ذلك إشارات إلى الطمث ما في فهمها من شك. فذات الغصن الذي تحمله الحالمة مثل زنبقة تحملها فتاة طاهرة يلمح في الوقت عينه إلى غادة الكاميليا؛ فنحن نعرف عن هذه أنها كانت تحمل كاميليا بيضاء اللون، إلا وقت الطمث فتحمل حمراء. وذات الغصن المزدهر يمثِّل الطهارة الجنسية ويمثل ضدها (أنظر «أزهار العذراء» في أغنية الطحانة عند جوته)[341]. وذات الحلم الذي يعرب عن فرحها لأنها قد نجحت في المسير عبر الحياة دون أن تفقد بكارتها يتركنا نلمح في بعض مواضعه (مثل ذبول الأزهار) وميض أفكار أخرى مضادة، فحواها استذناب النفس لأنها ارتكبت أنواعاً من الآثام في حق النقاوة الجنسية (أي ارتكبتها في طفولتها). ولقد أمكن عند تحليل الحلم أن نفرِّق تفرقة واضحة بين هاتين السلسلتين الفكريتين اللتين بدت أولاهما . تلك التي ترفه . طافية على السطح، في حين شغلت الثانية . تلك التي تؤنب . طبقة أعمق، واللتين صوَّر ما بينهما من عناصر متشابهة وإن تكن متقابلة بوساطة ذات العناصر في محتوى الحلم الظاهر.

غير أن هناك علاقة منطقية واحدة تعين ميكانيكية تكوين الحلم على تصويرها إلى أبعد حد، تلك هي علاقة التشابه أو التوافق أو التقارب، العلاقة التي يعرب عنها قولنا: «مثل كذا تماماً». إن هذه العلاقة تجد من تعدد الوسائل في تصويرها ما لا تجده أي علاقة أخرى[342]. فحالات «مثل» أو نظائرها المتضمنة من قبل في مادة الحلم هي الأساس الأول الذي ينبني عليه كل تكوين الحلم، كما أن جزءاً لا يستهان به من عمل الحلم يقوم في خلق نظائر جديدة من هذا القبيل إذا كانت تلك الموجودة من قبل لا تستطيع النفاذ إلى الحلم بسبب الرقابة. وإن تصوير علاقة التشابه ليسند نزوع عمل الحلم إلى التكثيف.

فالتشابه و التوافق و الحصول على محمولات مشتركة ، كل هذه يصوِّرها الحلم بأن يدمج طرفي العلاقة في وحدة إما أن تكون متضمنة من قبل في مادة الحلم وإما تخلق خلقاً جديداً. والاحتمال الأول تجوز تسميته تعييناً ، وأما الاحتمال الثاني فنسميه مزجاً. ويستخدم التعيين حين يتعلق الأمر بالأشخاص، وأما المزج فحين تكون مادة التوحيد هي الأشياء . وإن جاز أن يقع المزج بين الأشخاص كذلك، كما أن الأماكن قد تعامل في كثير من الأحيان معاملة الأشخاص.

ونجد في التعيين أن شخصاً واحداً من الأشخاص الذين يربط بينهم جامع مشترك هو الذي يظهر دون غيره في محتوى الحلم، بينما يبدو الشخص الثاني أو الأشخاص المتبقون كأنما قُمعوا في الحلم[343]. ولكن هذا الشخص الذي يحجب الآخرين يظهر في الحلم بكل العلاقات والمواقف التي تصدق عليه وعلى سائر من يحجب. وأما في المزج . حين يمتد المزج إلى الأشخاص . فتجيء صورة الحلم حاوية على ملامح من هذا الشخص وملامح من ذاك، ولكنها ليست بالملامح المشتركة بينهما، بحيث يؤدي التوحيد بين هذه الملامح إلى ظهور وحدة جديدة، أي شخص مركَّب. وقد تقع عملية المزج على أنحاء مختلفة: فالشخص الظاهر في الحلم قد يحمل اسم أحد الشخصين المرتبطين به . وحينئذ نعلم أن المعني هو هذا الشخص أو ذاك على نحو يماثل كل المماثلة نحو معرفتنا في اليقظة . بينما تكون ملامحه المرئية هي ملامح الشخص الآخر. أو قد تتركب صورة الحلم المرئية من ملامح يرجع بعضها في الحقيقة إلى أحد الشخصين ويرجع بعضها الآخر إلى الشخص الآخر. أو قد لا يشارك الشخص الثاني في

صورة الحلم بملامحه المرئية بل بالحركات التي نظهره بها أو الكلمات التي نجعله يفوه بها أو المواقف التي نضعه فيها . وفي هذا النوع الأخير من المزج يأخذ الفرق بين التعيين والمزج في الزوال. غير أنه قد يحدث أيضاً أن يفشل الحلم في تكوين مثل هذا الشخص المركب، وفي هذه الحالة نجد مشهد الحلم ينسب إلى أحد الشخصين بينما لا يخطر الثاني . وهو في العادة الشخص الأهم . في هذا المشهد إلا باعتباره حاضراً وحسب. ويصف الحالم هذا الوضع بأن يقول مثلاً: كانت أمي أيضاً هناك (شتيكل). ومثل هذا العنصر في محتوى الحلم تجوز إذن مقارنته بمخصّصات الكتابة الهيروغليفية التي لا يراد بها أن تنطق، وإنما تجعل لكي توضح سائر العلامات[344].

والعنصر المشترك الذي يبرر توحيد كلا الشخصين أو . بالأحرى . يسببه قد يتمثل في الحلم وقد يغيب. ولكن القاعدة هي أن التعيين أو تكوين الأشخاص المركَّبة إنما يستخدم على التحقيق من أجل تصوير هذا العنصر المشترك. فأنا بدل أن أقول: «إن أ يعادينى وكذلك ب» أبتدع في الحلم شخصاً مركباً من أ وب، أو أتخيّل أ وهو يعمل عملاً من نوع يخالف ما عرف عنه ويتميز به ب. والشخص الذي أحصل عليه بهذه الطريقة أو تلك يخطر لي في الحلم في سياق جديد ما، وإن كونه يومىء إلى أ وب على السواء ليخول لي الحق في أن أضع ما هو مشترك بين هذين . وأعني به موقفهما العدائي نحوي . في موضعه المناسب من تفسير الحلم. وبهذه الطريقة يتسنى لي في كثير من الأحيان أن أحقق تكثيفاً خارقاً في محتوى الحلم: فأنا أستطيع أن أجنب نفسي مؤنة التصوير المباشر لما قد يرتبط بأحد الأشخاص من ملابسات شديدة التعقيد إذا وجدت شخصاً آخر يشاركه بعض هذه الملابسات. ومن السهل كذلك أن نرى كم ينفع هذا التصوير في مداورة الرقابة الناجمة عن المقاومة، هذه الرقابة التي تفرض على الحلم شروطاً من الصعوبة بمكان: فالرقابة قد تكون موجّهة إلى أفكار معيَّنة ترتبط في مادة الحلم بشخص دون غيره، وأنا لذلك ألتمس شخصاً ثانياً يرتبط هو الآخر بهذه المادة المعترض عليها، ولكن بجزء منها ليس غير، وعندئذ يخول لي هذا التماس القائم بينهما في تلك النقطة الخاضعة للرقابة أن أكوِّن من كليهما شخصاً مزيجاً يُخَصُّ بما في كليهما من سمات لا خطر منها، وهذا الشخص المتولد عن المزج أو عن التعيين يدرج الآن في محتوى الحلم حراً من الرقابة، بينا أكون من جانبي قد أرضيت هذه الرقابة بإعمال التكثيف.

وحيثما يصوَّر في الحلم عنصر مشترك بين شخصين، كان ذلك في العادة بمثابة إشارة تدعونا إلى أن نبحث عن عنصر مشترك آخر مستتر، حالت الرقابة دون تصويره. أي أن ذلك دليل على أن نقلاً قد وقع فيما يتصل بالعنصر المشترك لكي يتيسر تصويره. وعلى ذلك إذا تراءى لي في الحلم شخص مزيج يحمل سمة مشتركة خالية من الوزن، حملني ذلك على أن أستنتج أن ههنا عنصراً آخر مشتركاً بعيداً كل البعد عن أن يكون على هذا الخلو من القيمة.

وبذلك يخدم التعيين وتكوين الأشخاص المزيجة أهدافاً متنوعة في الحلم: أولها تصوير عنصر مشترك بين شخصين، وثانيها تصوير عنصر مشترك أصابه النقل ، ثم الثالث وهو التعبير عن شركة مرغوب فيها ليس غير. وإذ كانت الرغبة في أن يشترك شخصان في وجه من الوجوه توافق في أحيان كثيرة الرغبة في مبادلة الواحد بالآخر، كانت هذه العلاقة الأخيرة أيضاً يُعْرَبُ عنها في الحلم بوساطة التعيين: ففي حلم حقنة إرما أود لو استبدلت بإرما المريضة الأخرى، أي أنني كنت أود لو قد كانت هذه الأخرى مريضتي مثلما كانت إرما، والحلم يحسب حساب هذه الرغبة حين يريني شخصاً اسمه إرما ولكنه يفحص في وضع لم يتفق لي قط أن رأيت فيه غير المرأة الأخرى. وفي حلم عمي نصادف تبديلاً من هذا القبيل صار هو النقطة الرئيسة في الحلم: فأنا أعيِّن نفسي بالوزير حين أبدي نحو زميلي مسلكاً وحكماً لا يفضلان مسلك الوزير وحكمه في شيء [أنظر ص 235].

ولقد علمتني خبرة لم أجد لها استثناء، أن كل حلم يدور حول الحالم نفسه. فالأحلام على أنانية مطلقة[345]، وإذا لم يظهر أناي في محتوى الحلم بل ظهر شخص غريب، جاز لي أن أفترض وأنا مطمئن أن أناي يكمن مستتراً وراء ذلك الشخص الآخر بوساطة التعيين، وجاز لي أن أدرج أناي في السياق. ويحدث في أحيان أخرى . حين يظهر أناي في الحلم . أن ينبئني الموقف الذي يكون فيه ظهوره أن شخصاً آخر يختبىء وراء هذا الأنا بوساطة التعيين كذلك. وعندئذ يجب عليّ الانتباه عند تفسير الحلم إلى أن أحوِّل إليّ أنا وجه الاشتراك المستتر المنسوب إلى هذا الشخص. وهناك كذلك أحلام يظهر فيها أناي بجانب أشخاص آخرين يتضح مرة أخرى حين نحل التعيين أنهم أناي. ولا بد في هذه الحالة من أن تكون تلك التعيينات قد مكنتني من أن أجمع بين أناي وبين تصورات بعينها كانت الرقابة تحول دون قبولها. وهكذا يكون في مستطاعي أن أصوِّر أناي في الحلم مرات ومرات، تصويراً مباشراً تارة، وبوساطة تعيينه بأشخاص غرباء تارة أخرى. وتعدد أمثال هذه التعيينات يمكن من تكثيف كمية ضخمة من أفكار الحلم[346]. وإن ورود أنا الحالم في الحلم مرات متعددة أو في هيئات مختلفة ليس في الحقيقة بأعجب من وروده في أفكارنا الشعورية مرات متكررة وبمواضع مختلفة أو في علاقات متغايرة . أنظر مثلاً هذه القضية: حين أذكر أي طفل صحيح كنتُ[347].

وحل التعيينات أسهل فيما يتعلق بأسماء الأعلام الدالة على الأماكن منه في الأشخاص؛ فهنا يغيب تدخل الأنا الذي يملك على الحلم كل هذا السلطان. وقد حدث في أحد أحلامي عن روما (ص 237) أن دُعِيَ المكان الذي رأيتني فيه روما ، ولكنني دهشت لكثرة ما رأيت فيه من اللافتات المكتوبة باللغة الألمانية على ناصية الطريق. وكانت هذه اللمحة الأخيرة تحقيق رغبة جعلني أفكر على الفور في پراج . ولعل الرغبة ذاتها كانت ترجع إلى مرحلة الحماسة للقومية الألمانية، وهي مرحلة مررت بها في شبابي ثم انطوت. ذلك أنني حين أتيت هذا الحلم كنت أتوقع لقاء صديقي

[فليس] عن قريب في مدينة پراج ؛ وهكذا يعلل تعيين روما وپراج كلاً بالأخرى بشركة كانت موضوع رغبة: فأنا أوثر لقاء صديقي في روما على لقائه في پراج، وأود لو بدلت روما بپراج من أجل هذا اللقاء.

فأما القدرة على خلق الأشكال المزيجة فهي أكبر الخصائص التي تضفي على الأحلام هذا الطابع المغرب في الخيال الذي يكثر اتسامها به. ذلك أن هذه القدرة هي التي تدخل في محتوى الحلم عناصر ما كانت لتعرض قط لإدراكنا الحسي. ومن الواضح أن العملية النفسية التي تجري في أثناء هذا المزج هي التي تقع حين نتخيَّل كائناً مثل القنطورس أو التنين، أو حين نرسمه. كل الفرق هو أن النتاج المتخيَّل في اليقظة لا يسترشد غير التأثير المستهدف إحداثه من وراء الشكل الجديد، على حين أن مزيج الحلم محتوم بعامل يخرج عن دائرة خصائصه الشكلية، وأعني به العنصر المشترك في أفكار الحلم. ومن الممكن أن يتحقق المزج في الحلم على أنحاء تتعدد غاية التعدد. وأقل هذه من حيث مهارة الصنعة هو أن نصوِّر خصائص شيء من الأشياء تصويراً يصطحب بمعرفتك أن هذه الخصائص تنتسب كذلك إلى موضوع آخر. وطريقة أخرى تزيد عن سابقتها عناية، هي التي تجمع خصائص كل من الموضوعين في صورة جديدة وتنتفع في أثناء ذلك انتفاعاً ماهراً بكل ما يمكن أن يوجد في الواقع من أوجه الشبه بين الموضوعين، والصورة الجديدة قد تلوح لنا شيئاً تجرَّد من المعقولية كل التجرد، وقد تبدو عملاً ناجحاً من جانب المخيلة، على حسب المادة وعلى حسب البراعة المبذولة في تركيبها. فإذا كانت الموضوعات المراد تكثيفها في وحدة أخلاطاً مبعثرة كل التبعثر، غلب أن يكتفي عمل الحلم بأن يخلق منها صورة مزيجة ذات نواة متميزة بعض الشيء تصحبها عدة من السمات الأقل تميزاً. وفي هذه الحالة تكون عملية التوحيد في صورة مفردة كأنما قد باءت بالفشل: فكلا التصورين قد غطى الآخر، ونجم عن ذلك ما يشبه النزاع بين صورتين بصريتين. ويستطيع المرء أن ينتهي إلى تصويرات مماثلة إذا هو ابتغى أن يبيِّن في رسم تَكَوُّن أحد التصورات الكلية من صور المدركات الحسية الجزئية.

والأحلام بالطبع تعج بأمثال هذه الصور المزيجة. ولقد سردت من قبل أمثلة منها عرضت في الأحلام التي حللتها حتى الآن. وهأنذا ألحق بها أخرى: إذا رجعنا إلى الحلم الذي ذكرته في 9 ص 349 والذي يصف تاريخ حياة المريضة «بلغة الأزهار»، رأينا أنا الحالمة يُصوَّر ممسكاً في يد غصناً ناضراً كان يشير . كما رأينا . إلى الطهارة وإلى الخطيئة الجنسية في آن واحد. وإن الطريقة التي انتثرت بها الأزهار على الغصن قد ذكَّرت الحالمة . فوق ما سبق . بأزهار الكريز، وأما الأزهار في ذاتها . كل على حدة . فتذكرها بالكاميليا ، ثم الكل مجتمعاً يوحي بعد ذلك بنبات من أرض غريبة. ولقد أظهرتنا أفكار الحلم على الجامع المشترك بين عناصر هذه الصورة المركبة: فالغصن المزدهر قد ركَّب من إشارات إلى هدايا قدِّمت إليها واكتسب بها مقدموها ودَّها أو أرادوا اكتسابه: هكذا الكريز في طفولتها والكاميليا في مستأنف السنين. وأما النبات الغريب الأرض فيلمح إلى عالم طبيعي كثير الطواف توسَّل إلى رضاها بزهور رسمها لها. وصنعت مريضة أخرى شيئاً وسطاً بين نجيرة استحمام على شاطىء البحر و مرفقة مياه منعزلة من قبيل ما يوجد في الريف و حجرة مائلة السقف بأعلى منزل من منازل السكنى في مدننا: العنصران الأولان يشتركان في علاقتهما بالتعري ونزع الملابس، واقتران العنصر الثالث بهما يجعلنا نستنتج أن حجرة مائلة السقف كانت (والحالمة طفلة) مسرحاً لمشهد من مشاهد التعرِّي. وهناك مريض صنع مكاناً مركَّباً من مكانين من الأمكنة التي يقع فيها Kur [= علاج وغزل]، أحدهما غرفة استشارتي والآخر كان الملهى الذي عرف فيه زوجته. وحلمت فتاة بعد أن وعدها أخوها الأكبر بأن يمتعها بالكافيار . حلمت بأن أخاها الأكبر هذا قد تغطت ساقه بحبوب الكافيار الأسود. وهكذا نجد أن العنصر «عدوى» بالمعنى الخلقي . وأن ذكرى بثر ألمَّ بها في طفولتها فغطّى ساقيها ببقع حمراء لا سوداء، قد اتَّحدا مع حبوب الكافيار في تصور جديد، هو تصور «ما نابها من أخيها». ولقد عوملت أجزاء الجسم الإنساني في هذا الحلم . كما في غيره من الأحلام . معاملة الموضوعات. وفي حلم رواه فرنتسي وردت صورة ركِّبت من شخص أحد الأطباء ومن حصان، ثم بعد ذلك أُلبست الصورة قميصاً من قمصان النوم. وبالتحليل تبيَّن وجه الاشتراك بين هذه العناصر الثلاثة حين عرفت المريضة في قميص النوم إشارة إلى والدها كما رأته في مشهد من مشاهد الطفولة. فالأمر يتصل . في مقومات الحلم الثلاثة . برغبة الحالمة الجنسية في الاستطلاع؛ ولقد كانت المريضة تصحب مربيتها في أحيان كثيرة إلى إصطبل تابع للجيش حيث كان يتاح لها أن تشبع تطلعها الجنسي . ولم يكن مسه الكف بعد . ما أرادت.

وسبق أن قلت [ص 339]: إن الحلم لا يملك وسيلة ما في الإعراب عن علاقة التناقض أو التضاد، عن «كلا». وسآخذ الآن في مناقضة هذه القضية للمرة الأولى. فهناك طائفة من الحالات التي يمكن أن نعدها حالات «تضاد» تصور في الحلم بوساطة التعيين ليس غير، ويكون ذلك على التحقيق . كما رأينا [ص 356] . إذا أمكن أن تقترن فكرة التضاد بفكرة المقايضة أو التبديل . ولقد أعطيت أمثلة متكررة على ذلك من قبل. وبين أفكار الحلم طائفة أخرى من الأضداد . يصح إدراجها في مقولة «القلب أو العكس التام» . تبلغ إلى التمثُّل في الحلم بطريقة عجيبة، حتى لتكاد تستحق وصفها بالتنكيت. و«الضد الذي هو عكس» لا يمثل هو نفسه في محتوى الحلم، ولكنه يفصح عن وجوده في مادة الحلم بالطريقة الآتية: أن يقلب في محتوى الحلم الذي تم تكوينه جزء اتفق وقوعه لأسباب خارجية على مقربة من هذا الضد كأنما جاء ذلك القلب من بعد. والتمثيل لهذه العملية أسهل من وصفها: خذ مثلاً الحلم الجميل . حلم الصعود والنزول المذكور في ص 321. ترى الحلم يصوِّر الصعود تصويراً يعكس النموذج الماثل في أفكار الحلم، أي يعكس مشهد التقدمة في رواية سافو لدوديه؛ فهو يتم في الحلم صعباً في أوَّله سهلاً في آخره، على حين أنه يسهل في مبدأ ذلك المشهد ثم يصعب شيئاً فشيئاً. ثم «الأعلى» و«الأسفل» فيما يتصل بعلاقة الحالم بأخيه قد صوِّرا أيضاً تصويراً مقلوباً. ولقد كان في ذلك ما يشير إلى وجود علاقة قلب أو تضاد بين جزئين من أجزاء المادة المحتواة في أفكار الحلم، وهي علاقة وجدناها فيما تخيله الحالم من حمل

مرضعه إياه على عكس ما يحمل البطل محبوبته في الرواية. ثم الحلم الذي أرى فيه جوته يهجم على السيد م. (أنظر ما بعد [ص 464])، أليس يحوي مثل هذا القلب الذي يجب علينا أن نبدأ بعدله قبل أن نستطيع أن نفسر الحلم تفسيراً صحيحاً؟ لقد هاجم جوته في الحلم شاباً حديث السن هو السيد م.، والحقيقة المتضمنة في أفكار الحلم هي أن رجلاً ذا خطر، صديقي [فليس]، قد تهجَّم عليه مؤلف نكرة حديث السن. وأنا في الحلم أحسب السنين ابتداء من تاريخ وفاة جوته، وأما في الحقيقة فيبدأ الحساب من سنة ميلاد المريض المشلول. والفكرة التي تبين أنها قد كانت القول الفصل في مادة الحلم كانت المعارضة في أن يعامل جوته كما يعامل مخبول، فالحلم كان يقول: «على العكس، إذا أنت لم تفهم الكتاب فضعيف العقل أنت لا صاحب الكتاب». ويلوح لي ـ عدا ذلك ـ أن جميع أحلام القلب هذه لا تخلو من معنى الازدراء المتضمن في قولنا: «أدار له ظهره »[348]. (أنظر قلب العلاقة بالأخ في حلم سافو [ص 324]) وخليق بنا أن نلاحظ ـ فوق ذلك ـ كيف يكثر استخدام القلب في الأحلام الصادرة على التحقيق عن دوافع جنسية مثلية مكبوتة.

والقلب أو التحويل إلى الضد هو بعد ذلك وسيلة من آثر وسائل التصوير إلى عمل الحلم وأكثرها تنوعاً من حيث أوجه استخدامها. فهو يستخدم أول ما يستخدم في مساندة تحقيق الرغبة بالنسبة إلى عنصر معيَّن بين العناصر المتضمنة في أفكار الحلم. وإن قولنا: «لو أن الوضع انعكس!» لهو في كثير من الأحايين أحسن ما يعرب عن استجابة الأنا بالنسبة إلى صفحة أليمة من صفحات الذاكرة. ولكن قيمة القلب تظهر بنوع أخص حين يعمل لخدمة الرقابة؛ لأنه يحدث مقداراً ضخماً من التشويه في الأفكار المراد تصويرها، بحيث نرى فهمنا للحلم وقد شلَّ للوهلة الأولى شلاً. ولذلك لم يكن ضير ـ كلما عَنُدَ الحلم ولم يسلِّم معناه ـ في أن نجرب قلب أجزاء معينة في محتواه، وحينئذ لا يندر أن يتضح كل شيء على الفور.

وهناك إلى جانب القلب في المحتوى المادي قلب آخر ينبغي علينا أن نحسب حسابه، هو قلب الترتيب الزمني. فمن الطرق الشائعة في تشويه الحلم أن تُصور خاتمة حدث أو نتيجة عملية فكرية في صدر الحلم على حين ترجأ إلى نهايته المقدمات التي بنيَت النتيجة عليها أو العلل التي نجم الحدث عنها. وكل من نسي هذه الحيلة الفنية في تشويه الحلم صائر ولا شك إلى الوقوف في تفسيره[349].

والحق أن هناك حالات لا يكشف فيها المرء معنى الحلم إلا بعد أن يجري على محتواه قلباً متعدداً، مختلف الأوجه. مثال ذلك شاب كان يعاني عصاباً قهرياً نرى عنده ذكرى الرغبة الطفلية في موت الأب المخوف وقد اختفت وراء حلم كان ذلك نصه: يشتمه والده لمجيئه إلى المنزل متأخراً جداً. إن موقع الحلم من سياق العلاج التحليلي ثم مستدعيات الحالم قد بيَّنت أن الأصل يجب أن يُقرأ على هذا النحو: أنه ـ هو ـ غاضب على والده، وأن والده كان ـ في رأيه ـ يعود دائماً إلى المنزل مبكراً جداً (أي سريعاً جداً). والحالم كان يؤثر ألا يرجع والده على الإطلاق، وهي رغبة لا تختلف في شيء من الرغبة في موت الأب (أنظر ص 293)، فقد حدث وهو طفل صغير أنه أذنب بعدوان جنسي على طفل آخر في خلال غيبة موقوتة لأبيه، فكان عقابه هذا الوعيد: «انتظر حتى يعود أبوك!».

فإذا أردنا أن نمضي في دراسة العلاقة بين محتوى الحلم وأفكار الحلم إلى أبعد من هذا المدى فأحسن السبل الآن هي أن نتخذ من الحلم نفسه نقطة بدايتنا، فنسأل: ما هي الدلالة التي لهذه الخاصة أو تلك من الخصائص الصورية لتصوير الحلم بالنسبة إلى أفكاره الكامنة؟ وأولى هذه الخصائص التي لا يمكن إلا أن تسترعي نظرنا في الحلم هي التفاوت في الشدة الحسية بين مختلف صور الحلم وتميُّز أجزاء معينة منه ـ أو تميز أحلام بأكملها ـ إذا هي قورنت فيما بينها. والتفاوت في الشدة الحسية بين مختلف صور الحلم يشمل سلَّماً بأجمعه يتدرج من حدة في الصك يجنح المرء ـ وإن يكن بغير حق ـ إلى وصفها بأنها تفوق الواقع، إلى غموض محنق نعلن أنه سمة تتميز بها الأحلام لأنه لا يقبل المقارنة الصحيحة بأي درجة من درجات اللاتميُّز الذي قد ندركه في الموضوعات الحقيقية. يضاف إلى ذلك أننا في العادة نصف الانطباع الذي نتلقاه من موضوع غير متميز من موضوعات الحلم بقولنا إنه انطباع «سريع المرور» بينما يخيَّل إلينا أن صورة الحلم المتميزة قد تعرضت لإدراكنا زمناً أطول. وسؤالنا الآن هو: أي شروط في مادة الحلم تجلب هذا التفاوت في الشدة الحسية بين مختلف أجزاء الحلم؟

إن علينا في هذا الموضع أن نناقش أولاً عدة من المظان لا يكاد يكون مفر من تواردها على الذهن. فإنه إذا كانت مادة الحلم تضم إحساسات حقيقية نشعر بها أثناء النوم، فأغلب الظن أننا سنفترض مقدماً أن هذه الإحساسات أو عناصر الحلم المستمدة منها تحظى في محتوى الحلم بشدة خاصة، فإذا عكسنا هذه القضية خرج أن ما يبدو في الحلم ذا شدة حسية خاصة لا بد راجع إلى مثل هذه الإحساسات الحقيقية الحادثة في خلال النوم. غير أن خبرتي الخاصة لم تؤيد هذا القول قط. فليس من الصحيح أن عناصر الحلم المستمدة من إحساسات النوم الحقيقية (أي من المنبهات العصبية) تمتاز بشدة خاصة دون غيرها من العناصر الناشئة عن الذكريات: إن عامل الواقع صفر في تحديد شدة عناصر الحلم.

وقد يظن المرء بعد ذلك أن هناك علاقة بين الشدة الحسية التي لمختلف صور الحلم (وأعني حدَّتها) وبين الشدة النفسية التي للعناصر المقابلة لها في أفكار الحلم. وفي هذه الحالة تكون الشدة الحسية مطابقة للقيمة النفسية: فأعلى العناصر شدة هي أيضاً أهمها، تلك التي تكون النقطة الرئيسية في أفكار الحلم. نعم، إننا نعلم أن هذه العناصر بالذات لا تلقى في معظم الأحيان قبولاً في محتوى الحلم بسبب الرقابة، ولكن من الجائز مع هذا أن تعزز مشتقاتها المباشرة التي تنوب عنها في الحلم بدرجة مرتفعة من الشدة، دون أن تصير لذلك بالضرورة مركز الحلم. غير أن

هذا التوقع يخيب بدوره عند البحث المقارن بين الحلم الظاهر ومادته الأصلية؛ فما من علاقة بين شدة العناصر هنا وشدتها هناك، وإنما الحق أن «انقلاباً تاماً في جميع القيم النفسية» [بتعبير نيتشه الذائع] قد وقع بين مادة الحلم والحلم. فما يشغل بين أفكار الحلم مكاناً يظهر به على سواه، قد لا تكتشِف في أحيان كثيرة نائبه الأوحد في الحلم إلا في عنصر عارض طغت عليه صور أقوى حتى حجبته.

إن الحقيقة هي أن شدة عناصر الحلم تحدد من طريق مختلف، يحددها عاملان مستقلان كلٌ عن الآخر. فمن السهل أن نرى ـ أولاً ـ أن هذه العناصر التي يفصح تحقيق الرغبة عن نفسه بوساطتها تصور في الحلم تصويراً ذا شدة خاصة، والتحليل ينبئنا ـ ثانياً ـ أن عناصر الحلم ذات الشدة الحسية الأعلى هي التي تخرج منها أيضاً أكثر المستدعيات، أي أن هذه العناصر الأشد هي في الوقت عينه أكثر العناصر حتماً. ولسنا نغيِّر معنى هذه القضية الأخيرة المقامة على التجربة إذا نحن صغناها في الصورة الآتية: تتناسب شدة عناصر الحلم مع مقدار العمل التكثيفي الذي بذل في تكوينها. ولنا أن نتوقع أن يكون الإعراب في صيغة واحدة عن هذا الشرط وعن سابقه الخاص بتحقيق الرغبة أمراً يدخل في حيِّز الإمكان.

وأنبِّه هنا إلى أن المشكلة التي كنت أعالجها الآن ـ وأعني بها علل التفاوت في الشدة أو الوضوح بين عناصر الحلم المتفرقة ـ يجب ألا تخلط بمشكلة أخرى، هي مشكلة التفاوت في الوضوح بين أحلام بأكملها أو فقرات من أحلام. فالوضوح في الحالة الأولى ضد الغموض، وأما في الحالة الثانية فهو ضد التشوش. ولكنا لا نستطيع أن ننكر أن درجات التفاوت في هاتين الكيفيتين تصعد وتنزل معاً في كلا السلَّمين: فإذا بدت إحدى فقرات الحلم خالية من التشوش كانت في الأغلب مشتملة على عناصر شديدة، وأما الحلم المختلط فيتكوَّن على العكس من عناصر ضعيفة في الشدة. ومع هذا فالمشكلة التي تواجهنا في حالة التدرُّج من الوضوح الظاهر إلى التشوش والغموض أعقد كثيراً من مشكلة التفاوت في درجات الشدة الحسية بين عناصر الحلم، بل الحق أن المشكلة الأولى مشكلة تمتنع على المناقشة هنا لأسباب سوف تتبين فيما بعد [ص 495]. هذا، ويتفق أحياناً أن نكتشف لفرط دهشنا أن إحساسنا بوضوح الحلم أو بتشوشه لا يمت بسبب إلى صنعة هذا الحلم، بل هو صادر عن مادة أفكار الحلم وجزء من أجزائها: مثال ذلك أني أذكر حلماً بدا لي حين استيقظت حسن الصنعة، خالياً من الثغرات، واضحاً، حتى أنني عقدت العزم وأنا لم أزل في سكرة النوم على إدخال مقولة جديدة من الأحلام لا تخضع لميكانيكيات التكثيف والنقل بل يحق وصفها بكونها «تخييلات في أثناء النوم»، فلما أمعنت النظر تبين أن هذا الحلم النادر كان فيه من خلل الصنعة وركاكتها مثل ما في سواه، ولهذا تركت مقولة الحلم التخييلي[350]. كان مضمون هذا الحلم ـ بعد أن انتهيت إليه ـ هو أنني أدلي إلى صديقي [فليس] بنظرية عويصة طال التنقيب عنها في الثنائية الجنسية، وكانت قوة الحلم على تحقيق الرغبة هي المسؤولة في أن بدت هذه النظرية (ولم تكن قد ذكرت في الحلم) واضحة خالية من الثغرات. وهكذا فما حسبته حكماً على الحلم المنهي كان في الحقيقة جزءاً من محتوى الحلم وأهم جزء. وكأن عمل الحلم هنا قد امتد إلى بواكير أفكاري المستيقظة فقدم لي في صورة الحكم على الحلم هذا الجزء من مادة الحلم الذي لم يستطع النجاح في تصويره في الحلم تصويراً وافياً. ورأيت مرة حلماً يوازن حلمي هذا تمام الموازنة عند مريضة رفضت أن تقص حلماً كان يلزم تحليله رفضاً قاطعاً بحجة أنه «غامض جداً مختلط جداً»، ثم ذكرت بعد لأي وهي تكرر احتجاجها هذا أن الحلم قد ضم أشخاصاً كثيرين: هي وزوجها ووالدها، ولم تكن تعلم إذا كان زوجها هو والدها، أو من والدها على الحقيقة، أو شيء من هذا القبيل. فلما قُرن هذا الحلم بخواطرها أثناء الجلسة، اتضح بما لا يرقى إليه الشك أن الأمر يتعلق بتلك القصة الشائعة بين أحداث كل يوم: قصة الخادم التي تضطر إلى الاعتراف بأنها تنتظر وليداً ولكنها لا تعلم «من هو الوالد (والد الطفل) على الحقيقة»[351]. والغموض الذي أبداه الحلم كان إذن ـ في هذه الحالة أيضاً ـ جزءاً من المادة التي أثارت الحلم، أي أن بعض هذه المادة قد تمثل في الصورة التي اتخذها الحلم: إن الصورة التي يبدو الحلم عليها أو الصورة التي يحلم بها تستخدم في تصوير مادة الحلم الكامنة استخداماً شائعاً إلى درجة تبعث على الدهش.

والتعليقات التي نعلِّق بها على الحلم والملاحظات الظاهرة البراءة التي تعن لنا في صدده ـ كل هذه أيضاً يكثر استخدامها في إخفاء جزء مما نحلم به ـ وإن كان الأصدق بالطبع أنها تفضحه ـ بطريقة هي غاية في اللطافة. مثال ذلك أن يقول حالم: إن الحلم قد انمسح في هذا الموضع، ثم إذا التحليل يسوق إلى ذكرى طفلية فحواها أن الحالم قد تجسس مرة على شخص كان يمسح نفسه بعد التبرز. وها هو ذا مثال آخر يستحق أن نذكره مفصلاً: فقد حلم شاب حلماً واضحاً غاية الوضوح ذكّره بتخييلات من صباه ظلت محفوظة في شعوره، وكان مؤدى الحلم أنه قد رأى نفسه ساعة المساء في فندق في مصيف وأخطأ رقم غرفته فدخل غرفة وجد بها سيدة وابنتيها، وكنَّ جميعاً ينزعن ثيابهن تأهباً للنوم، ويمضي الحالم قائلاً: «وهنا تخللت الحلم ثغرات، هناك شيء ناقص ، وأخيراً أرى في الحجرة رجلاً يريد أن يلقي بي خارجها فأضطر إلى مصارعته». ويجهد الحالم في غير طائل لكي يتذكر ما هو هذا التخييل الصبياني الذي كان واضحاً أن الحلم يلمح إليه ولكي يتذكر مرماه، وأخيراً يتضح أن ما نبحث عنه قد أُعطيناه، أعطتنا إياه تلك الملاحظة عن جزء الحلم غير المتميز: فإن «الثغرات» هي الأعضاء التناسلية للنسوة المتأهبات للنوم و«هناك شيء ناقص» تصف السمة الرئيسية لأعضاء التناسل عند الأنثى. وقد كان المريض يتحرق في صباه تطلعاً إلى رؤية أعضاء المرأة، وكان لم يزل ينزع إلى الأخذ بتلك النظرية الجنسية الطفلية التي تنسب إلى المرأة عضواً مذكراً.

ويلبس حالم آخر إحدى ذكرياته المماثلة صورة جد مشابهة، فيحلم: أذهب مع الآنسة ك. في مطعم فولكس جارتن ...، هنا تأتي فقرة مبهمة، قَطْع...، أراني بعد ذلك في بهو منزل من منازل البغاء حيث أرى امرأتين أو ثلاثاً، إحداهن في قميص ولباس».

التحليل: إن الآنسة ك. هي ابنة رئيسه السابق وهي تقوم مقام أخت بديلة . كما يسلِّم هو بذلك .. ولم تكن الفرصة قد سنحت له بالتحدث إليها إلا لماماً، ولكن وقع مرة أن دار بينهما حديث «كان كأنما كنَّا نعترف في أثنائه لأنفسنا بكياننا الجنسي، كأنما كنت أقول لها: إنني رجل وأنت امرأة». وهو لم يدخل هذا المطعم إلا مرة واحدة مع أخت صهره . وهي فتاة يستوي أمرها في نفسه. وحدث مرة أخرى أنه صحب ثلاث سيدات إلى هذا المطعم، وكنَّ أخته وأخت زوجها التي ورد ذكرها ثم زوجة أخيه [وبالترجمة الحرفية: أخته بالمصاهرة]. وثلاثهن يستوين عنده إلى أقصى مدى، بيد أن ثلاثهن يدخلن في مقولة «الأخت». فأما منزل البغاء فمكان لم يطرقه الحالم إلا نادراً، مرتين أو ثلاث مرات في حياته.

ولقد بنيَ التفسير على «الفقرة المبهمة» وعلى «القطع» اللذين عرضا في الحلم، وكانت فحوى التفسير هي أن الحالم في تطلعه الصبياني قد استكشف أحياناً . وإن تكن بالنادرة . أعضاء أخته التي تصغره بأعوام قلائل. وبعد ذلك ببضعة أيام تذكر الحالم هذا الجرم الذي أومأ إليه الحلم تذكراً شعورياً.

وجميع الأحلام التي ترد في الليلة الواحدة يؤلف محتواها جزءاً من كل واحد. وإن انقسامها أقساماً متعددة وكذلك عدد هذه الأقسام ونحو تجمعها . كل هذا أمر له معناه ويجوز لنا أن نعده إفادة منبعثة عن أفكار الحلم الكامنة. فمن الواجب حين نفسر أحلاماً تتكوَّن من أقسام رئيسة أو حين نفسر . بوجه أعم . أحلاماً وقعت في خلال الليلة عينها، من الواجب ألا ننسى إمكانية أن تكون أمثال هذه الأحلام المنفصلة المتعاقبة ذاتَ معنى واحد، وأنها ربما كانت تعرب عن ذات الاندفاعات بمواد مختلفة. فإذا كان الأمر كذلك، غلب أن يكون أول هذه الأحلام المتناظرة أكثرها تشويهاً واستحياء، بينا تزيد اللاحقة ثقة وتميُّزاً.

ومن هذا القبيل حلم فرعون في التوراة، حلم السنابل والبقرات الذي فسره يوسف. لقد روى يوسيفوس (تاريخ اليهود القديم، الكتاب الثاني، الفصلان الخامس والسادس) هذا الحلم في تفصيل يزيد على ما ورد في التوراة. فقد جاء عنده أن فرعون بعد أن قصَّ حلمه الأول. قال: «وبعد أن رأيت هذه الرؤيا استيقظت، وهأنذا مبعثر النفس أتدبر ما عساه يعني هذا الطائف، ثم عدت إلى النوم فرأيت حلماً ثانياً أعجب من سابقه، روَّعني وبث الاضطراب في نفسي أكثر مما فعل الأول...» فلما سمع يوسف رواية الملك أجاب: «هذا الحلم معناه واحد، أيها الملك، وإن تراءى في صورتين...».

ويصف يونج في بحثه «مقال في سيكولوجية الإشاعة» كيف حلمت تلميذة حلماً عشقياً مستخفياً ففهمته قريناتها من غير تفسير ما، ثم أخذنه عنها ووسعن منه وحرَّفن فيه، وهو يلحظ في صدد إحدى روايات هذا الحلم: «أن الفكرة الأخيرة في سلسلة طويلة من صور الحلم تتضمن على التحقيق هذا الذي حاولت الصورة الأولى تصويره. فالرقابة تعمل على دفع المركَّب [الفكري الانفعالي] أطول زمن ممكن بسلسلة لا تنقطع من الستائر الرمزية والنقل والأقنعة البريئة... إلخ» (1910ب). ولقد عرف شرنر هذه الخاصة في تصوير الحلم حق المعرفة، وهو يصفها . ناظراً إليها من وجهة نظره في التنبيه العضوي . باعتبارها قانوناً كلياً، فيقول (1861، 166): «والمخيلة أخيراً تتبع قانوناً عاماً في جميع أبنية الحلم الرمزية الناشئة عن منبهات عضوية معينة؛ فهي في مبتدأ الحلم لا تلمِّح إلى الموضوع الذي يصدر عنه التنبيه إلا أبعد التلميح وأقله تحرياً للحقيقة، ولكنها تضطر في النهاية إلى أن تظهر المنبّه إظهاراً سافراً، هو أو العضو المعرض له أو وظيفة هذا العضو، على حسب الأحوال، وبذلك يبلغ الحلم . وقد عَيَّنَ على علته العضوية . نهايته...».

ولقد أتى أوتو رانك في بحثه «حلم يفسر نفسه بنفسه» (1910) بما يؤيد قانون شرنر هذا تأييداً بديعاً. فهو يروي حلماً لفتاة تكوَّن من حلمين جاءا في ليلة واحدة مع فاصل زمني، وانتهى ثانيهما بالإنعاظ. وكان من الممكن تفسير هذا الحلم الثاني تفسيراً مفصلاً بدون مشاركة كبيرة من جانب الحالمة، وكانت كثرة العلاقات بين محتويي الحلمين تمكننا من أن نرى أن الحلم الأول كان يعرب في استحياء عمَّا أفصح عنه الحلم الثاني، بحيث أعان الحلم الثاني . الحلم الذي انتهى بالإنعاظ . على استجلاء الحلم الأول استجلاءً كاملاً. ويستخدم رانك هذا المثال بحق في مناقشة المغزى الذي لأحلام الإنعاظ أو الإمناء بالنسبة إلى نظرية الحلم عامة.

بيد أن خبرتي قد دلت مع ذلك على أننا لا نستطيع إلا في حالات نادرة أن نفسر وضوح الحلم أو اختلاطه بما تتضمنه مادته من الثقة أو التردد وسأكشف فيما بعد عن عامل في تكوين الحلم لم أذكره حتى الآن، على فعله يتوقف تدرُّج الحلم بين هاتين الكيفيتين توقفاً جوهرياً [أنظر ص 523].

ويحدث أحياناً بعد أن يدوم في الحلم فترةً موقف ومنظر معيَّنان أن يطرأ انقطاع يوصف بتلك الكلمات: «وعندئذ تغيَّر المكان فصار كأنه مكان آخر في الوقت عينه، وهناك وقع كذا وكذا». وبعد برهة يتصل السياق الرئيس للحلم، ويتضح أن ما قد قطعه على هذا النحو إنما كان جملة شرط محتواة في مادة الحلم، فكرة اعتراضية . فالحلم قد أعرب عن الشرط المتضمن في أفكار الحلم بالمزامنة، أي أن «إذا» قد انقلبت إلى «بينما».

وما معنى هذا الإحساس بالحركة المكفوفة التي يشيع في الأحلام كل هذا الشيوع ويقرب من الهيلة كل هذا القرب؟ يريد المرء المشي لكنه لا يتحرك من موضعه، أو يريد أن يبلغ شيئاً من الأشياء فيصطدم بالعقبة تلو العقبة. القطار يؤذن بالحركة وهو لا يستطيع الوصول إليه، أو هو يرفع

يده ليثأر الإهانة، فإذا يده عاصية، إلخ. إنه إحساس قد صادفناه من قبل عند التحدث عن أحلام الاستعراض [ص 281]، ولكننا لم نعمل بعد على تفسيره عملاً جدياً. قد نجيب بأن شلل الحركة يسود عند النوم وأن هذا الشلل هو ما نشعر به حين نستشعر هذا الإحساس. وإنه لجواب سهل، لكنه غير كاف. فإن لنا أن نسأل: إذا كان الأمر كذلك فلمَ لا نحلم دوماً بأشباه هذه الحركة المكفوفة؟ لأحرى بنا أن نفترض أن هذا الإحساس الذي قد ينبعث في كل وقت من أوقات النوم إنما يخدم هدفاً بعينه من أهداف التصوير، وأنه لا ينبعث فعلاً إلا حين تكون بمادة الحلم حاجة تدعو إلى تصويرها هذا التصوير وحده.

و«العجز عن كل فعل» لا يظهر دائماً في صورة الإحساس، بل إنه في بعض الأحيان قد يكون جزءاً من محتوى الحلم ليس غير. وأمثال هذه الحالات صالحة في رأيي تمام الصلاحية لأن تلقي بعض الضوء على معنى هذه السمة من سمات الحلم. وها هي ذي خلاصة حلم ظاهره أنني أتَّهم بالحيد عن الأمانة: المكان مزيج من مصحة خاصة ومن محال أخرى متعددة. يظهر خادم يستدعيني لأن هناك فحصاً يراد إبراؤه. أعلم في الحلم أن شيئاً قد فقد وأن الفحص مرجعه الارتياب في أن أكون استوليت على الشيء المفقود. (يتبيَّن من التحليل أن للفحص معنيين وأنه يشمل الفحص الطبي). أصحب الخادم في هدوء وأنا شاعر ببراءتي وبما لي من مكانة الطبيب في هذه المصحة. يظهر خادم آخر بأحد الأبواب ويقول وهو يشير إليّ: لماذا أحضرته؟ إنه شخص محترم. أذهب بعد ذلك غير مصحوب إلى قاعة كبرى نصبت فيها آلات تذكرني بالجحيم وبما يحتويه من عدد العقاب الجهنمية. أرى أحد زملائي وقد مدَّ عليّ عدة من هذه العِدد. كان هذا الزميل يملك أكثر من سبب يدعوه إلى أن يشغل بأمري، بيد أنه لا يلتفت إليّ. يقال لي عندئذ: إنني أستطيع المضي لشأني، ولكنني لا أجد قبعتي وأظل عاجزاً عن الذهاب.

من البيِّن أن تحقيق الرغبة في هذا الحلم يقوم في كوني قد عرفت بريئاً يجوز له المضي لشأنه. ولا بد إذن أن أفكار الحلم كانت مشتملة على مادة من كل نوع حوَت نقيض ذلك. فأن يُجاز لي الانصراف تلك علامة التبرئة. فإن كانت نهاية الحلم تجيء بحدث يعوقني عن الذهاب، لم يبعد أن تكون هذه سمة يفصح فيها النقيض المكبوت عن نفسه. وعجزي عن العثور على القبعة يعني بناءً على ذلك: لستَ رجلاً بريئاً بعد. وما يظهر في هذا الحلم من «عجز عن كل فعل» هو إذن إعراب عن المناقضة ، إعراب عن «كلا» ، بحيث يحقق علينا الآن أن نصحح ما قدمناه من قبل أن الحلم لا يملك الإفصاح عن النفي[352] [أنظر ص 352].

وأما الأحلام الأخرى التي يظهر فيها العجز عن الحركة في صورة إحساس وليس في صورة موقف وحسب . فتعرب عن ذات التناقض إعراباً أقوى: في صورة إرادة تقاومها إرادة مضادة. وإحساس الحركة المكفوفة يمثِّل إذن صراعاً في الإرادة [أنظر ص 285]. ذلك أننا سوف نعلم [ص 584] أن ما يصحب النوم من شلل الحركة هو على التحقيق أحد الشروط الأساسية للعمليات النفسية الحادثة في أثناء الحلم. وإن انتقال دافع من الدوافع إلى المسارات الحركية ليس شيئاً آخر سوى الإرادة ويقيننا بكوننا لن نحس هذا الدافع في خلال النوم إلا مكفوفاً، هو الذي يجعل العملية في جملتها صالحة كل هذه الصلاحية الفائقة لتصوير فعل الإرادة وتصوير «كلا» التي تناهضه. ومن السهل أيضاً أن نرى في ضوء تفسيري للهيلة لمَ كان الإحساس بكف الإرادة يقرب كل هذا القرب من الهيلة ولمَ غلب اقترانه بها في الأحلام، فإن الهيلة دافع ليبدي أصله في اللاشعور وكفه ما قبل الشعور. وعلى ذلك، حيثما ارتبط الكف بالهيلة في الحلم فلا بد أن الأمر يتعلق بإرادة كانت قادرة في زمن ما على توليد الليبيدو، أي بهائج جنسي.

وسأتعرض في موضع آخر (أنظر ما بعد [ص 512]) لهذا الحكم الذي كثيراً ما يظهر أثناء الحلم في تلك العبارة: «ما هذا إلا حلم»، وسأناقش عندئذ معنى هذا الحكم والقيمة النفسية التي يجب أن نعزوها إليه. ولكنني أستبق الأمور فأقول: إن هذا الحكم يهدف إلى التهوين من قيمة ما نحلم به. وقد أمكن شتيكل بتحليل بعض الأمثلة المقنعة أن يجد حلاً شبيهاً بذلك لمشكلة أخرى، ممتعة، قريبة من مشكلة هذا الحكم، وأعني بها: ما الذي نعرب عنه حين نصف محتوى الحلم بأنه «قد حلمنا به» في غضون الحلم نفسه؟ أي مشكلة «الحلم في الحلم». فالمقصود مرة ثانية هو حط قيمة هذا الذي «نحلم به»، سلبه حقيقة؛ فما نتابع الحلم به بعد أن نستيقظ من «الحلم المندرج في الحلم» هو ما تهدف رغبة الحلم إلى استبداله بحقيقة ممحوة، ولذلك جاز لنا أن نفترض أن «المحلوم به» في الحلم هو الذي يصوِّر الحقيقة، هو الذكرى الصادقة، وأما الحلم المحيط به فلا يصوِّر على العكس سوى رغبة الحلم وحدها. فأن تدرج محتوى ما في «حلم في حلم» يعدل رغبتك في لو أن الجزء الموصوف بأنه حلم لم يقع قط. وبعبارة أخرى: إذا أورد عمل الحلم حدثاً بعينه على أنه حلم في حلم، كان ذلك أقطع الأدلة على كون هذا الحدث قد وقع حقيقة وأقوى إثبات لذلك. فعمل الحلم يتخذ الحلم كصورة من صور التنصل وهو بذلك يؤيد ما قد حدسناه من أن الحلم تحقيق رغبة.

د

اعتبار قابلية التصوير

لقد شغلنا حتى الآن ببحث الطريقة التي يصوِّر بها الحلم العلاقات القائمة بين أفكار الحلم، ولكننا في هذه الأثناء قد لمسنا أكثر من مرة تلك المشكلة الأخرى: ما هو التغيير الذي يصيب مادة الحلم بوجه عام من أجل تكوين الحلم؟ فنحن نعلم الآن أن ثمة ضغطاً يصيب مادة الحلم بعد أن تجرَّد من جزء كبير من علاقاتها، على حين تجري في الوقت عينه نقلات من حيث الشدة بين عناصر هذه المادة، نقلات تحدث بالضرورة انقلاباً في قيَمها النفسية. والنقلات التي نظرنا في أمرها حتى الآن قد اتضح أنها تتلخص في أن تستبدل بفكرة معينة فكرة أخرى تقرب منها في التداعي على نحو من الأنحاء، ثم هي ـ أعني هذه النقلات ـ كانت تسخَّر في خدمة التكثيف؛ فبوساطتها كان ينفذ إلى محتوى الحلم عنصر متوسط مشترك بين عنصرين بدل هذين العنصرين جميعاً. ولكننا لم نذكر بعد على الإطلاق نوعاً آخر من النقل مع أن التحليل يرينا أن هذا النوع الآخر موجود، وأنه يبيِّن عن نفسه في تبديل التعبير اللغوي عن الأفكار. ففي كلتا الحالتين يتعلق الأمر بنقل يتم على طول سلسلة المستدعيات، ولكن ذات العملية تقع في منطقتين نفسيتين مختلفتين، فيكون حاصل هذا النقل ـ في حالة ـ أن يحل عنصر محل عنصر آخر، على حين يقع ـ في الحالة الأخرى ـ أن يستبدل عنصر بمنطوقه اللفظي منطوقاً آخر.

هذا النوع الثاني من النقل الذي يقع عند تكوين الحلم لا يملك أهمية نظرية رفيعة وحسب، بل هو ـ فوق ذلك ـ مؤهل تأهيلاً فريداً لأن يعلل ما يستخفي وراءه الحلم من مظهر اللامعقولية الخيالية. ذلك أن هذا النقل يؤدي في العادة إلى تلك النتيجة: أن تستبدل بعبارة تعرب عن إحدى أفكار الحلم إعراباً فاقد اللون مجرداً عبارة أخرى مشبَّهة عيانية[353] ومزية هذا الاستبدال ـ ومن ثم بغيته ـ واضحة كل الوضوح: فما هو مشبَّه قادر على أن يُصَوَّر في الحلم، قابل لأن يدرج في موقف من المواقف، بينما التعبير المجرد يواجه التصوير الحلمي بصعوبات تشبه ما يواجه الرسام عند تصوير المقال السياسي الافتتاحي بإحدى الصحف. ولكن قابلية التصوير لا تخرج وحدها غانمة من هذا الاستبدال، بل يمكن للتكثيف والرقابة أن يخرجا منه كذلك بما يخدم مآربهما. ففكرة الحلم تظل غير قابلة للاستخدام ما بقيت في عبارة مجردة، ولكنها ما أن تصاغ في لغة مشبَّهة، حتى يتيسر عن ذي قبل أن تظهر بين التعبير الجديد وبين سائر مادة الحلم نقط التماس والعينيات[354] التي يقتضيها عمل الحلم ويخلقها خلقاً حين لا تكون موجودة من قبل؛ وذلك لأن الحدود العيانية في كل لغة أثرى مستدعيات بحكم تطورها من أسماء التصورات المجردة. وفي وسعنا أن نتصوَّر أن جزءاً كبيراً من العمل الذي يتم أثناء تكوين الحلم ـ مستهدفاً رد أفكار الحلم المتفرقة إلى تعبير حلمي يكون على أكثر ما يمكن من الوحدة والاختزال ـ إنما يتأدى بإدخال تعديل لفظي ملائم في العبارة عن كل فكرة من أفكار الحلم. فإن اتفق في خلال ذلك أن كانت هناك فكرة ثبت منطوقها ورسخ لسبب من الأسباب، كان لهذه الفكرة أثرها في اختيار صيغ التعبير الممكنة عن سائر الأفكار وفي تحديدها، وربما كان ذلك منذ البدء على نحو ما يقع في قرض الشعر؛ فإن القصيدة إذا التزمت القافية غلَّ كل بيت فيها تاليه بقيدين: أن يعبِّر عن معناه تعبيراً مناسباً وأن يجيء هذا التعبير متمشياً مع القافية، وأحسن القصائد بالطبع ما لا تلحظ فيه العمد إلى القافية بل تجيء الفكرتان وقد اختارت كلٌ لنفسها منذ البدء ـ بتأثير متبادل ـ صورة لفظية لا يحتاج الاحتفاظ بالقافية بعدها إلا إلى القليل من الإعمال.

وهناك بضع حالات نرى فيها استبدال العبارة المشبَّهة بالمجردة يساند التكثيف الحلمي من طريق أكثر بعد مباشرة: وذلك حين يفضي هذا الاستبدال إلى صيغة لفظية تحمل من ازدواج المعنى ما يؤهلها للإعراب عن أكثر من فكرة واحدة من أفكار الحلم. وعلى هذا النحو يدخل عالم النكات اللفظية بأجمعه في متناول عمل الحلم ويسخَّر لأغراضه. وما لنا أن نعجب للنصيب الذي تشارك به الكلمة في تكوين الحلم؛ فالكلمة من حيث هي معقد أفكار كثيرة قد قدِّر عليها ـ إن جاز التعبير ـ الاشتراك[355]، وإن الأعصبة كالأفكار (القهرية والمخاوف المرضية) لتنتهز هذه المزايا التي تهيِّئها الكلمة للتكثيف والتقنع انتهازاً لا تقل فيه تبجحاً عن الأحلام. فأما أن التشويه الحلمي يربح بدوره من هذا النقل اللفظي فذلك ما يسهل تبيُّنه: فإن من مجالب الخطأ أن تستخدم كلمة واحدة ذات معنيين بدل اثنتين لكل منهما معنىً واحد، ثم إن من شأن النزول عن طريقتنا المألوفة المتزنة في التعبير لقاء طريقة أخرى مشبهة أن يعطل فهمنا، وبخاصة أن الحلم لا ينبئنا مطلقاً هل الواجب أن نفسر العناصر التي يأتي بها بمعنى حرفي أو مجازي، تفسيراً مباشراً أو بوساطة تعبير من التعبيرات الدارجة. والحق بوجه عام هو أننا حين نفسر أي عنصر من عناصر الحلم نغدو في شك لا ندري معه:

أ) هل الواجب أخذ هذا العنصر بمعنى إيجابي أو سلبي (علاقة التضاد)، أو

ب) هل ينبغي تفسيره تفسيراً تاريخياً (فيكون أثراً من الآثار الذكروية)، أو

ج) تفسيراً رمزياً، أو

د) هل يجب أن يخرج تفسيره من نطقه[356].

ومع هذا فإن من العدل أن نقول رغم هذا اللبس كله: إن التصوير الذي ينتهي إليه عمل الحلم . ولا ننسى أنه تصوير لم يقصد منه إلى أن يكون مفهوماً . لا يواجه المترجم بصعوبات تفوق ما تطالع به الرسوم الهيروغليفية قراءها.

ولقد ذكرت من قبل أمثلة متكررة على تصاوير حلمية لم تتركَّب إلا لهذا الاشتراك في التعبير اللفظي (مثل: «فتحت فمها بأوسعه»[357] في حلم حقنة إرما، و«أظل دون أن أستطيع الذهاب»[358] في الحلم الذي ذكرته أخيراً في ص 369 إلخ). وسأذكر الآن مثالاً أخذ فيه صب الفكر المجرد في عبارات مشبهة بنصيب كبير. وإن الفرق بين مثل هذا التفسير وبين تفسير الحلم بوساطة الرموز ليظل محدداً تحديداً قاطعاً: ففي التفسير الرمزي يترك اختيار مفتاح الرمز للمفسِّر، وأما في حالات التقنع اللفظي التي نحن بصددها فالمفاتيح معلومة للجميع وواضعها هو العرف اللغوي الثابت. فلو أن المرء أصاب الفكرة الصحيحة في المناسبة الصحيحة، أمكنه أن يفسر الأحلام التي من هذا القبيل تفسيراً كاملاً أو جزئياً وإن لم يستعن بمستدعيات الحالم.

حلمت سيدة من معارفي الحلم الآتي: إنها في دار الأوبرا. مشهد ل؟اجنر دام حتى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحاً. نُصبت في القاعة موائد جلس إليها أناس يأكلون ويشربون. يجلس إلى مائدة من هذه الموائد قريب من أقربائها عاد حديثاً من رحلة شهر العسل مع عروسه وبجانبهما رجل من طبقة النبلاء. يقال إن الزوجة الشابة قد أحضرت هذا النبيل معها من رحلة شهر العسل في علانية تامة كأنما أحضرت قبعة. في القاعة برج عالٍ وُضعت فوقه منصة أحيطت بسياج حديدي. يقف على هذه المنصة قائد الفرقة الموسيقية وكانت له ملامح هانس ريختر. إنه يجري في حلقة وراء سياجه هذا وقد تصبب منه العرق إلى درجة مروعة وهو يقود من موضعه ذلك الفرقة الموسيقية التي انتظم أفرادها حول قاعدة البرج. الحالمة . هي . قد قعدت في إحدى الشرفات مع صديقة لها (أعرفها). تريد أختها أن تمد إليها من القاعة قطعة كبيرة من الجمر قائلة: إنها ما كانت تعلم أن ذلك سيطول كل هذا الطول، وإن البرد في الشرفات قد أصبح لا شك مثلجاً. (كأنما كان ينبغي تسخين الشرفات أثناء هذا العرض الطويل).

إن هذا الحلم قد حوى من اللمحات غير المعقولة ما فيه الكفاية، وإن يكن فيما عدا ذلك قد التف التفافاً طيباً حول موقف واحد. فما معنى هذا البرج الذي ينتصب وسط القاعة والذي منه يدير القائد الموسيقي فرقته، ثم بخاصة تلك الجمرة التي تمدها إليها أختها؟ لقد امتنعت عامداً عن طلب أي تحليل لهذا الحلم. ولكنني قد أمكنني بما أعرفه من علاقات الحالمة الشخصية أن أصل مستقلاً إلى تفسير أجزاء منه: كنت أعلم أن قلبها قد انعطف إلى موسيقي قضى مرض عقلي على مستقبله قبل الأوان. فرأيت أن آخذ البرج الذي في الحلم مأخذاً مجازياً ، فخرج أن الرجل الذي ودّت لو رأته في محل هانس ريختر قد علا البرج[359] دون سائر أفراد الفرقة. والبرج يصح وصفه بكونه صورة مزيجة ركبت بعطف بيان[360]؛ فقاعدته تمثِّل عظمة الرجل وأما السياج الحديدي الذي يعدو الرجل خلفه مثل أسير أو مثل حيوان في قفصه (وهو ما يشير إلى اسم الرجل المنكود)[361] فيمثِّل مستأنف قدره. وربما كان «برج المجانين»[362] هو اللفظ الذي استطاعت هاتان الفكرتان أن تلتقيا فيه.

ويحق لنا بعد أن اكتشفنا منهج الحلم في التصوير أن نحاول تطبيق المفتاح ذاته على البدوة الثانية غير المعقولة في هذا الحلم، وأعني بها جمرة الفحم التي تمد بها أخت الحالمة يدها. إن «الجمرة» لا بد كانت تعني «الحب المستسر»:

ما من نار ولا من جمر

يتّقد ويستعر

مثل حب مستسر

لا يعلمه أحد[363]

ونحن نراها في الحلم هي وصديقتها وقد ظلتا قاعدتين[364]، وأختها الصغيرة التي كانت لا تزال تأمل في الزواج تسلمها جمراً لأنها لم تكن تعلم أن ذلك سيطول كل هذا الطول. ما هذا الذي قد طال؟ إن الحلم يلوذ هنا بالصمت. ولو أن الأمر كان يتعلق بقصة لقلنا: إن المعني هو المشهد. أما والأمر يتعلق بحلم فلنا أن نضع الجملة في ذاتها نصب أعيننا، وأن نقرر أنها ذات معنيين فنضيف: «حتى تتزوج». ويؤيد بعد ذلك تفسير «الحب المستسر» ذكرها قريبها الجالس في القاعة مع زوجه وما ينسب إلى هذه الأخيرة من الحب المكشوف. فالمقابلة بين الحب المستسر

والمكشوف، بين نارها وبرودة الزوجة الشابة تسيطر على الحلم. وفي كلتا الحالتين نجد رجلاً «عالي المكانة» هو حد مشترك بين الرجل الذي من طبقة النبلاء وبين الموسيقي الذي كان معقد هاته الآمال الكبيرة.

إننا بالمناقشة السابقة نكون قد كشفنا في النهاية عن عامل ثالث لا تنبغي الاستهانة بنصيبه في تحويل أفكار الحلم إلى محتوى الحلم، هذا العامل هو: اعتبار قابلية التصور في المادة النفسية التي يستخدمها الحلم استخداماً خاصاً ـ أي في صور مرئية على الأغلب. ولهذا كانت تُفَضَّل ـ بين الأفكار الثانوية المقترنة بأفكار الحلم الجوهرية ـ تلك التي تقبل التصوير المرئي، وكان عمل الحلم لا يتردد في أن يتكلف صوغ الأفكار الرئيسة في صيغة لفظية جديدة، ولو كانت أقل ألفة، إذا كان في ذلك ما يؤدي إلى تيسير التصوير وما يؤدي ـ من ثم ـ إلى إنهاء التوتر السيكولوجي الذي ينجم عن التفكير المحبوك. وهذا الصب للمحتوى الفكري في قالب آخر قد يسخّر في الوقت عينه في خدمة العمل التكثيفي ويخلق علاقات جديدة ـ ما كان لتكون لولا ذلك ـ بفكرة أخرى. هذا بينما يصح أن تكون هذه الفكرة الأخرى قد غيَّرت هي نفسها منطوقها الأصلي لكي تلاقي الأولى في منتصف الطريق.

ولقد دلَّ سيلبرير (1909) على طريقة تمكننا من أن نلاحظ استحالة الأفكار إلى صور في أثناء تكوين الحلم ملاحظة مباشرة، وتمكننا بذلك من أن ندرس هذا الوجه من أوجه عمل الحلم بمعزل عن غيره. فهو كان إذا حمل نفسه على عمل فكري وهو مكدود يغالب النوم ـ رأى الفكرة تفلت منه وتظهر في محلها صورة كان يسعه عندئذ أن يرى فيها بديل الفكرة. وهو يصف هذا البديل وصفاً غير موفق كل التوفيق بقوله: إنه: «ذو رمزية ذاتية»[365]، وأسوق هنا بضعة أمثلة من مقال سيلبرير، كما أنني سأضطر إلى العودة إلى هذه الأمثلة في موضع آخر [ص 526] لخصائص معينة في الظواهر الملاحظة:

«المثال الأول: أفكر في أن عليّ أن أراجع فقرة ناشزة في إحدى مقالاتي»:

«الرمز: أراني أسوي قطعة من الخشب».

«المثال الخامس: أحاول أن أتبين الهدف من دراسات ميتافيزيقية معينة كنت انتويت القيام بها. هذا الهدف ـ كما حدثت نفسي به ـ هو أن يشق المرء طريقه في بحثه عن الوجود إلى صور أسمى من الشعور أو إلى طبقات أعلى من طبقات الوجود».

«الرمز: أدفع سكيناً طويلة تحت فطير كبير، كما لو كنت أريد أن آخذ قطعة منه».

«التفسير: إن حركة يدي بالسكين تعني (شق الطريق) الذي تحدثت عنه... وأما مأخذ هذا الرمز فبيانه ما يأتي: يتفق بين الحين والحين ونحن إلى المائدة أن أقوم بقطع فطير كبير وتوزيعه.. وهي مهمة أؤديها مستعيناً بسكين طويلة مرنة يحتاج استعمالها إلى بعض العناية. ثم رفع الشرائح بعد قطعها رفعاً نظيفاً، ذلك على الأخص ما يقترن ببعض الصعوبات: فلا بد هنا من أن تدفع السكين في تؤدة تحت الشريحة المقطوعة (شق الطريق، ببطء حتى الوصول إلى الأسس). بيد أن الصورة قد حوت من الرمز ما يزيد على ذلك: فالفطير الذي تراءى لي في الصورة الرمزية كان من النوع الذي يصنع طبقات يجتازها السكين عند القطع (طبقات الشعور والتفكير)».

«المثال التاسع: ينقطع خيط تفكيري وأحاول استئنافه، ولكنني أضطر إلى التسليم بأن نقطة الاتصال قد غابت عني تماماً».

«الرمز: صفحة من مؤلف ما، سقطت سطورها الأخيرة».

وإذ كانت النكات والاستشهادات والأغاني والأمثال تشارك بنصيب كبير في الحياة العقلية للمثقفين، كان مما يتفق وتوقعنا كل الاتفاق أن نرى هذا النوع من الأقنعة يكثر استخدامه إلى أقصى مدى في تصوير أفكار الحلم. ما الذي يعنيه ـ مثلاً ـ أن تظهر في الحلم عربات تحمل نوعاً واحداً من الخضر يختلف مما تحمله الأخريات؟ إن ذلك هو الضد المرغوب فيه لقولنا: «كرنب وجزر»، أي [فهذا هو معنى ذلك التعبير في اللغة الألمانية] «شذر مذر»، وهو ـ إذن ـ يعني «الفوضى». ولقد عجبت لأن هذا الحلم لم يرو لي سوى مرة واحدة[366]. ولم تظهر رموز حلمية تصدق صدقاً شاملاً إلا بالنسبة إلى عدد قليل من الموضوعات وكانت تستند إلى التلميحات المألوفة للجميع وإلى التبديلات اللفظية. ثم إن الحلم يشارك الأعصبة والأساطير والعادات الشعبية في مقدار لا بأس به من هذه الرموز.

ولا غرو في أن تكون الأمور كذلك؛ فإنا إذا أنعمنا النظر لم نجد مناصاً من التسليم بأن عمل الحلم لا يأتي على الإطلاق بشيء مبتكر حين يجري هذا النوع من التبديل، بل هو لكي يصل إلى هدفه ـ وهدفه في هذه الحالة هو قابلية التصوير المتحرر من الرقابة ـ إنما يتبع الطريق التي يجدها ممهدة أمامه من قبل في اللاشعور ويؤثر تلك التحويلات في المادة المكبوتة التي يمكن أن تظهر للشعور كذلك في صورة النكات والتلميحات، والتي تزدحم بها كل تخييلات العصابيين. وهنا يتكشف أمامنا فجأة سبيل إلى فهم تفاسير شرنر التي دافعت عن صحتها الجوهرية في غير هذا الموضع [ص 129 وص 267]. فاشتغال الإنسان بجسمه ليس بحال من الأحوال خاصة من خواص الحلم وحده ولا ميزة تميزه، بل قد أرتني تحليلاتي أننا نجد هذا الاشتغال دائماً بين الأفكار اللاشعورية للعصابيين، وأنه راجع إلى التطلع الجنسي الذي يتجه في سن المراهقة إلى الأعضاء

التناسلية للجنس الآخر ولذات الجنس أيضاً. ولكن المنزل ـ كما ألحَّ عليه بحق شرنر وفولكلت ليس الدائرة الفكرية الوحيدة التي تستقي منها رموز الجسد ـ لا في الأحلام ولا في التخييلات اللاشعورية للعصاب. صحيح أني أعرف مرضى ظلوا مبقين على الرموز المعمارية للجسم ولأعضاء التناسل (والاهتمام الجنسي يعدو أعضاء التناسل الخارجة بكثير): فالأعمدة والعمدان المتوَّجة تعني عندهم السيقان (كما في نشيد الإنشاد)[367]، وكل باب يدل على فتحة من فتحات الجسم («ثقب»)، وكل أنبوبة تذكِّر بالجهاز البولي، إلخ، إلا أن الأفكار المتصلة بحياة النبات أو بالطبخ، قد تستخدم هي الأخرى بمثل هذه الكثرة عينها ـ لكي تستر الصور الجنسية. وإنا لنجد فيما يتعلق بدائرة الأفكار النباتية أن الطريق قد مهده العرف الجاري الذي هو خزانة الأخيلة الاستعارية منذ أقدم العصور (أنظر «كرمة» الرب و«البذور» و«حديقة» المحبوبة في نشيد الإنشاد). كما أن التفكير في أقبح تفاصيل الحياة الجنسية وأبطنها ـ أو الحلم بها ـ قد يتأدى في إشارات ظاهرها البراءة إلى أعمال المطبخ، وإن الأعراض الهستيرية لتستغلق إلى الأبد على كل تفسير إذا نسينا أن الرمزية الجنسية تجد أحسن مخبأ لها وراء المألوف وما لا يستلفت الأعين. فمن الأمور المنطوية على معنى جنسي صحيح أن يأبى الطفل العصابي رؤية أي دم أو لحم نيء، وأن يشمئز من البيض و«المكرونة» وأن يزيد الخوف الطبعي من الثعابين تلك الزيادة المفرطة عند العصابيين. وعلى الجملة فالعصاب حيثما التجأ إلى مثل هذه الأقنعة فإنما يسلك طرقاً مرت بها الإنسانية جمعاء في أقدم مراحل العمران ولا تزال يشهد على وجودها إلى يومنا هذا وراء حجب شفافة العرف اللغوي والمعتقدات والعادات.

وهنا أُلحق بما تقدم الحلم المزدهر الذي أتى إحدى مريضاتي ووعدت من قبل بسرده [ص 349]، وفيه أعلم بالأحرف المكبرة كل ما ينبغي تفسيره من عناصره تفسيراً جنسياً. هذا وقد فقد ذلك الحلم الجميل رواءه في عين الحالمة بعد أن وقفت على تفسيره.

أ) الحلم التمهيدي: تذهب إلى المطبخ حيث تجد خادميها وتؤنبهما لأنهما لما تجهزا لها «قضمة» تؤكل. وفي أثناء ذلك تلمح عدداً كبيراً جداً من أوعية مطبخ من طراز عامّي وقد قلبت على الأرض حتى يسقط ما علق بها من قطرات الماء. تضيف في رواية ثانية: تذهب الخادمان طلباً لبعض الماء وتضطران حينئذ إلى الخوض في نهر علا ماؤه حتى بلغ المنزل أو فناءه[368].

ب) الحلم الرئيس[369]: تهبط من مرتفع عظيم[370] فوق حواجز أو سياج غريبة الهيئة شدَّ بعضها إلى بعض في مربعات كبيرة وصنعت من خيزران مضفَّر في مربعات صغيرة[371]. لم تكن هذه الحواجز مجعولة لكي يتسلق الإنسان فوقها، ولهذا كانت تلاقي عناءً دائماً في إيجاد موضع تضع فيه قدميها، وتهنيء نفسها لأن رداءها لم يشتبك بأي منها، بحيث ظلت مبقية على مظهرها اللائق[372] وهي ماضية. كانت في أثناء ذلك تحمل غصناً كبيراً في يدها[373]، والحق أنه كان يشبه شجيرة غطتها زهور حمراء تفرعت عن الشجيرة وانتشرت[374]. كانت هناك فكرة فحواها أن هذه أزهار كريز ، ولكنها كانت تلوح في الوقت نفسه مثل الكاميليا المفتحة ـ وإن كانت هذه لا تنمو بالطبع على الشجر. كان بيدها وهي تهبط غصن واحد في أول الأمر، صار فجأة اثنين، ثم رجع واحداً من جديد[375]. حين تبلغ أسفل المنحدر تكون الأزهار التي بأسفل الغصن قد أصابها ذبول عظيم. ترى عندئذ ـ بعد أن نزلت ـ خادماً من خدم المنزل، وكان ـ كما تحب أن تقول ـ يمشط شجيرة مماثلة أي أنه كان يستخدم خشبة لكي ينتزع بها خصلة سميكة من الشعر علقت بالشجرة مثل الأشنة. كان هناك عامل آخر قطع أغصاناً مماثلة من حديقة من الحدائق التي ألقى بها في الطريق حيث ظلت مطروحة بحيث أخذ أناس كثيرون بعضها. ولكنها تسأل نفسها هل ذلك عمل مشروع، هل تستطيع أن تأخذ واحداً[376] هي الأخرى. يقف في الحديقة رجل في مقتبل العمر (وهو شخص تعرفه، غريب عن العائلة)، تذهب إليه لكي تسأله كيف يمكنها أن تنقل هذه الأغصان إلى حديقتها الخاصة[377]. يحتضنها الرجل فتدفعه وتسأله: فيمَ تفكر؟ أيظن أن الناس يستطيعون احتضانها على هذا النحو؟ يجيبها قائلاً: إنه لا ضرر في ذلك وإن ذلك أمر مباح[378]. يخبرها أنه على استعداد للذهاب معها إلى الحديقة الأخرى لكي يريها الزرع ثم يضيف شيئاً لا تفهم مراده منه تمام الفهم: غير أنني أحتاج إلى ثلاثة أمتار (وفي رواية أخرى: أمتار مربَّعة) أو ثلاث قصبات من الأرض. كأنه كان يطلب شيئاً ما لقاء استعداده، أن يعوِّض نفسه من حديقتها، أو كأنه كان يريد أن يحتال على قانون من القوانين لكي يظفر منها بمغنم دون أن يصيبها الأذى. هل أراها بالفعل شيئاً ما بعدئذ؟ لا تدري.

إن هذا الحلم الذي أوردته لما اشتمل عليه من العناصر الرمزية خليق أن يوصف بأنه حلم «يؤرخ حياة» حالمه، وأمثال هذه الأحلام تعرض كثيراً في خلال التحليل النفسي، ولكن أغلب الظن أنها لا ترد خارجه إلا نادراً[379].

إن في جعبتي بالطبع الشيء الكثير من مثل هذه المادة، ولكن سردها يجعلنا نوغل في بحث شروط العصاب، ثم هي تذهب جميعها إلى نتيجة واحدة، وأعني بها: أنه لا حاجة بنا إلى أن نفترض أن عمل الحلم يتضمن نشاطاً رمزياً خاصاً به من جانب الذهن، وإنما يستخدم الحلم الرموز الموجودة من قبل في التفكير اللاشعوري، وهو يستخدمها لأنها أكثر اتفاقاً ومقتضيات تكوين الحلم من حيث قابليتها للتصوير، ولأنها أيضاً تفلت عادة من الرقابة.

هـ
التصوير بوساطة الرموز في الأحلام

أحلام نمطية أخرى[380]

إن تحليل الحلم الذي سبق . الحلم المؤَرّخ . شاهد على أنني قد عرفت الرمزية في الحلم منذ البداية. ولكنني لم أنته إلى تقدير كامل لمدى انتشارها وأهميتها إلا على نحو متدرج ساير تزايد خبرتي، وبتأثير من مؤلفات «يلهلم شتيكل[381] الذي قد يكون من المناسب في هذا الموضع أن أتحدث بكلمة عنه.

إن هذا الكاتب الذي ربما كان ضرره بالتحليل النفسي يعدل نفعه قد قدم عدداً ضخماً من تراجم رمزية لم يفطن إليها أحد من قبل، تراجم لم تلق في مبدأ الأمر تصديقاً ولكن الشواهد لم تلبث أن جاءت بما يؤيد معظمها، بحيث لم يعد مفر من قبولها. ولست أهوِّن من قيمة الخدمات التي أسداها شتيكل في هذا الباب إذا أضفت أن التحفظ المشوب بالشك الذي قوبلت به آراؤه في أول الأمر لم يكن يخلو كل الخلو من المبررات. فالأمثلة التي سند بها شتيكل تفسيراته كانت غير مقنعة في كثير من الأحايين، ثم هو قد استخدم منهجاً يتحتم نبذه؛ لأنه غير حري بالثقة من وجهة النظر العلمية. ذلك أن شتيكل قد اكتشف تفسيراته الرمزية من طريق الحدس، بقوة هبة خاصة في فهم الرموز فهماً مباشراً. ولكن مثل هذا الفن شيء لا يعتمد عليه بوجه عام، لأنه يخلو من كل إعمال للنقد، ولهذا تجردت نتائجه من كل حق على التصديق. فاستنادك إليه كالتماسك أن تؤسس تشخيص الأمراض المعدية على ما يصلك من إحساسات الشم وأنت إلى سرير المريض . وإن كان من المقطوع به أن ثمة أطباء حققوا ما لم يحققه غيرهم مستعينين بحاسة الشم هذه (وهي حاسة مبتسرة عند معظم الناس)، أطباء كان يسعهم أن يشخِّصوا تيفوساً معوياً بوساطة الشم.

ولقد جذب تقدم الخبرة التحليلية انتباهنا إلى مرضى يبدون مثل هذا الفهم المباشر لرموز الحلم على نحو يبعث على الدهش. هؤلاء المرضى كانوا في العادة يعانون جنون المراهقة، بحيث غلب فترة الميل إلى أن تظن هذه العلة بكل حالم يبدي مثل هذا الفهم الرمزي. ولكن الحقيقة على خلاف ذلك، فالمسألة هبة أو خاصة شخصية بدون دلالة مرضية ظاهرة.

وإن المرء إذا ألف الاستخدام الواسع الذي تلقاه الرموز في تصوير المادة الجنسية في الحلم لم يجد مناصاً من أن يسأل إذا كان الكثير من هذه الرموز يجيء على حسب دلالات ثابتة مثل «علامات» الاختزال، ولقد يغرى عندئذ بتسطير كتاب جديد من كتب الأحلام وفق منهج الشفرة. والذي تمكن ملاحظته في صدد هذه المسألة هو هذا: أن الرمزية ليست خاصة من خواص الأحلام، بل من خواص التفكير اللاشعوري، وتفكير الشعب بنوع خاص، وإنا لنجدها في أغاني الشعب وأساطيره ورواياته المتوارثة وفي التعابير الدارجة والحكم المأثورة والنكات الجارية أكثر مما نجدها في الحلم. ولهذا لم يكن مفر من أن نشط بعيداً عن مشكلة تفسير الحلم إذا أردنا أن نوفي معنى الرمز حقه وأن نناقش ما يتصل بفكرة الرمز من مشكلات متعددة لا يزال القسط الأعظم منها بغير حل[382]. وعلى ذلك نقتصر ههنا على القول بأن التصوير بوساطة الرمز يدخل في عداد مناهج التصوير غير المباشر، ولكن هناك دلائل من كل نوع تحذرنا من أن نزج بالتصوير الرمزي بين سائر أنواع التصوير غير المباشر قبل أن يكون في استطاعتنا أن نتمثَّل خواصه التي تفرق بينه وبينها في تعريف جلي. والجامع المشترك بين الرمز والمرموز إليه يكون واضحاً في طائفة من الحالات، خفياً في طائفة أخرى، حتى ليبدو اختيار الرمز شيئاً محيِّراً. وإن هذه الحالات الأخيرة على التحديد لهي التي لا بد قادرة على أن تلقي الضوء على المعنى الأخير الذي لعلاقة الرمزية، وإنها لتدل على أن هذه العلاقة ذات طبيعة نشوئية: فالأشياء التي ترتبط اليوم برباط رمزي كانت على الأرجح تتحد في الأزمنة قبل التاريخية في عينية تصويرية ولغوية[383]، فالعلاقة الرمزية تبدو أثراً من عينية غابرة وعلامة عليها. ونستطيع أن نلاحظ في هذا الصدد كيف يقع في بعض الحالات أن يمتد الاتفاق في استخدام رمز من الرموز إلى ما وراء الجماعة اللغوية، على ما نبَّه إليه شوبرت من قبل (1814)[384]، كما أن بعض الرموز قديم قدم الكلام نفسه بينما بعضها الآخر لا ينقطع صكه على ممر العصور إلى يومنا هذا (مثال: المنطاد، «زبلين»).

والحلم يستخدم الرموز من أجل تصوير أفكاره الكامنة تصويراً مقنعاً. ومن الرموز المستخدمة على هذا الوجه عدد كبير يعني دائماً . أو يكاد يعني دائماً . ذات الشيء. ومع هذا ينبغي علينا أن نتذكر دائماً ما تتميز به المادة النفسية من مرونة خاصة. فقد يكون الواجب في أحيان جد كثيرة ألا يفسَّر الرمز الظاهر في محتوى الحلم بالمعنى الرمزي بل الحرفي، ويجوز في أحيان أخرى أن يستمد الحالم من مادة ذكرياته الخاصة الحق في أن

يستخدم كرموز أشياء من كل صنف لا تستخدم عادة هذا الاستخدام. ثم إن الحالم إذا أمكنه الاختيار بين رموز متعددة من أجل تصوير محتوى بعينه، انتخب هذا الرمز الذي يرتبط من حيث محتواه الموضوعي بسائر أفكار الحلم، أي الذي تدفع إلى قبوله أسباب فردية إلى جانب الأسباب النمطية.

وإذا كانت الأبحاث الجديدة في الحلم منذ زمن شرنر قد جعلت من وجود الرموز في الحلم أمراً لا يقبل المنازعة . فحتى ها؟لوك إليس يسلِّم بأن من المحال التشكك في ازدخار أحلامنا بالرموز . فإنَّ من الواجب أن نقر مع ذلك بأن حضور الرموز في الحلم لا يسهِّل مهمة التفسير وحسب، بل يزيدها أيضاً صعوبة. ذلك أن طريقتنا المألوفة في التفسير وفقاً لمستدعيات الحالم تتركنا في حيرة حين نجيء إلى العناصر الرمزية في محتوى الحلم. فاحترام النقد العلمي يمنعنا من الاحتكام إلى مشيئة المفسِّر كما هو المنهج المتبع في الأزمنة القديمة والذي يبدو كأنما قد بعثته من جديد تفسيرات شتيكل الهمجية. ونحن لذلك مضطرون حيال عناصر الحلم التي نرى أنها عناصر رمزية إلى أن نصطنع منهجاً مزيجاً يستند من ناحية إلى مستدعيات الحالم ويكمل الثغرات من ناحية أخرى بمعرفة المفسر للرموز. ومن واجبنا . إذا أردنا أن نتجنب كل اتهام بمتابعة الهوى في التفسير . أن نجمع بين الحذر النقدي في حل الرموز وبين دراستها دراسة ملؤها العناية تستند إلى أمثلة قوية الدلالة بنوع خاص. والعجز عن الاستيقان الذي لا يزال يعلق بعملنا في تفسير الأحلام ناشىء إلى حد عن نقص معارفنا . وهو نقص يمكن سده شيئاً فشيئاً مع التعمق في الاستقصاء . ولكنه ناشىء إلى حد آخر عن خصائص معيَّنة في رموز الحلم. فهذه الرموز تملك في كثير من الأحيان أكثر من معنى واحد . إن لم تملك العدد الكبير من المعاني . بحيث لا يمكن فهمها في كل مرة فهماً صحيحاً إلا من السياق وحده، كما هو الشأن في الكتابة الصينية. ثم إن هذا التكثُّر في معنى الرموز لا يلبث أن يلتقي بما يتميز به الحلم من قبول تفسيرات متعددة، أي من القدرة على أن يصور في بعض محتواه أفكاراً ورغبات كثيراً ما تختلف اختلافاً واسعاً في طبيعتها.

وبعد هذه القيود والتحفظات أتابع الكلام فأقول: إن الإمبراطور والإمبراطورة (أو الملك والملكة) يصوِّران حقيقة والدَي الحالم في معظم الأحيان. وأما الأمير أو الأميرة فيصور الحالم أو الحالمة. غير أن هذه السلطة العالية التي تعزى إلى الإمبراطور قد تعزى أيضاً إلى عظماء الرجال، وهكذا كان جوته . مثلاً . يبدو رمزاً إلى الأب في كثير من الأحلام (هيتشمان). . وتصوِّر القضيب عند الرجال كل الموضوعات المستطيلة مثل العصي وجذوع الشجر والمظلات (لأن انفتاحها يقارن بالانتصاب!)، كما تصوره كل الأسلحة المستطيلة الحادة مثل السكاكين والخناجر والمعاول. ورمز آخر يكثر استعماله وإن لم يكن مفهوماً كل الفهم، هو مبرد الأظافر (أبجامع الاحتكاك؟) . وأما العلب والصناديق والأدراج والدواليب والمواقد فتصور الرحم وكذلك الموضوعات المجوَّفة والسفن وسائر صنوف الجواري. . والغرف في الحلم ترمز في معظم الأحيان إلى النساء، فإن صوِّرت أيضاً مداخلها المختلفة ومخارجها لم يبق في هذا التفسير شك[385]. وأما الاهتمام بما إذا كانت الحجرة «مفتوحة» أم «مغلقة» فأمر يسهل فهمه في هذا السياق. (أنظر حلم دورا [الأول] في «طرف من تحليل حالة هستيريا» [فرويد، 1905هـ]). ولسنا نحتاج إلى أن نسمِّي صراحة المفتاح الذي يفتح الغرفة، ولقد استعان أولاند برمزَي القفل والمفتاح في تأليف قطعة طريفة من الأدب المكشوف، في أغنية «الكونت إيبرشتاين». . والحلم الذي يعبر فيه الحالم سلسلة من الحجرات المتتالية هو حلم بمنزل بغاء أو حريم. ولكنه . كما بيّن هانس ساكس في مثال بديع . قد يستخدم أيضاً (من قبيل التضاد) في تمثيل الزواج. وأما أن يحلم الحالم بحجرتين كانتا من قبل حجرة واحدة أو أن يرى حجرة واحدة يألفها قد انقسمت حجرتين، فينم عن ارتباط بتطلع الطفل الجنسي خليق أن ننتبه إليه. ذلك أن الطفل يعد عضو التناسل عند المرأة منطقة واحدة وفتحة الشرج (النظرية الأستية عند الطفل) ولا يفطن إلا فيما بعد إلى أن هذه المنطقة تضم فجوتين وفتحتين مستقلتين. . وأما المرتفعات والدرجات والسلالم والمسير عليها . سواء أكان صعوداً أم كان هبوطاً . فصوَر ترمز إلى الجماع[386]. . وأما الحوائط الملساء التي يتسلقها المرء والواجهات التي ينزلق عليها . في هيلة شديدة عادة . فتمثل الأجسام الإنسانية الواقفة، وهي على الأرجح تعيد في الحلم ذكريات عن تعلق الطفل بوالديه أو بالمرضع. والحوائط «الملساء» رجال. ولا يندر أن يتشبث المرء ب. «نتوءات» المنزل في أحلام الهيلة. . ويشبَّه للنساء بالموائد والموائد المعدة للطعام وبالألواح أيضاً . ولعل ذلك من قبيل التضاد إذ ترتفع هنا الدوائر البارزة في جسم المرأة. وأما «الخشب» على الجملة فيبدو من علاقاته اللغوية أنه ينوب عن المادة الأنثوية (Materie) وجزيرة ماديرا[387] يعني اسمها الخشب في اللغة البرتغالية. وإذ كان «الفراش والخوان» يؤلفان الزواج فقد كثر أن ينوب ثانيهما عن أولهما وأن يترجم مركب الأفكار الجنسية إلى مركب الاغتذاء. . وأما الملابس فيسعنا في كثير من الأحيان أن نترجم قبعة المرأة بعضو التناسل، وبعضو الرجل على التحديد. والأمر كذلك فيما يتصل بالمعطف، وإن كنا لا نعلم إلى أي حد يرجع استخدام هذا الرمز إلى الجناس اللفظي[388]. ويكثر في أحلام الرجال أن تنوب ربطة العنق عن القضيب، وليس ذلك لمجرد كون ربطة العنق مستطيلة الشكل، مدلاة، مميزة للرجال، بل لأن المرء أيضاً يختارها وفق هواه . وهي حرية منحته الطبيعة إياها فيما يتصل بالموضوع المرموز إليه[389]. ويغلب أن يكون الأشخاص الذين يستخدمون هذا الرمز شديدي الاحتفال بربطات عنقهم في حياتهم الواقعة وأن يملكوا مجموعات مستوفاة منها. . ومن المرجح أكبر الترجيح أن جميع الآلات والأجهزة المعقدة تقوم في الحلم مقام الأعضاء التناسلية . وأعضاء الرجل عادة . تلك الأعضاء التي لا يكل الحلم من وصفها، شأنه في ذلك شأن النكتة. ولا شك أيضاً في أن جميع الأسلحة والعدد تُستخدم رموزاً إلى عضو الرجل: المحاريث والمطارق والبنادق والمسدسات والخناجر والصوارم، إلخ. . ومن السهل أن نتبيّن كذلك أن المناظر الطبيعية المتجلية في الحلم . وبخاصة إذا احتوَت جسوراً أو قمماً تعلوها الأشجار . هي أوصاف للأعضاء التناسلية. ولقد جمع مارسينو؟

سكي طائفة من رسوم يوضح بها الحالمون ما ورد في أحلامهم من مناظر الطبيعة والمحال. هذه الرسوم ترينا رؤية العين الفرق الذي بين معنيي الحلم الظاهر والكامن؛ فبينما يلوح للعين غير المحققة أن هذه الرسوم تخطيطات أو خرائط أو ما شاكله، إذا الباحث الثاقب يتبين أنها تصوِّر الجسد الإنساني وتصور أعضاء التناسل، إلخ، وحينئذ يتيسر فهم الحلم للمرة الأولى (أنظر في هذا الصدد مقالات فستر عن الكتابة بالرسوم والألغاز المصورة). ولنا أيضاً أن نتساءل تجاه المركَّبات اللفظية غير المفهومة إذا لم تكن هذه المركبات قد تكونت من عناصر ذات معانٍ جنسية. . ثم الأطفال، هم أيضاً كثيراً ما يعنون في الحلم أعضاء التناسل، والحق أن من عادة كِلا الرجل والمرأة أن يسمي عضوه [في الألمانية] على سبيل الإعزاز: «صغيره» أو «صغيرها». ولا يجانب شتيكل الصواب حين يعرِّف في «الأخ الصغير» القضيب، كما أن اللعب مع طفل صغير أو ضربه، إلخ، تصوير كثيراً ما يصوِّر به الحلم الاستمناء. . فأما تصوير الخصاء تصويراً رمزياً فهذا ما يتوصل إليه الحلم بصور الصلع وقص الشعر وسقوط الأسنان وقطع الرأس. فإن جاء أحد الرموز المألوفة إلى القضيب مضعَّفاً أو متكثراً، عُدّ ذلك استعاذة من الخصاء. ومجيء العظايا في الحلم . وهي حيوانات تنمو أذيالها من جديد بعد قطعها . له كذلك هذا المعنى عينه (أنظر حلم العظايا في ص 103). . والحيوانات التي تُتخذ رموزاً إلى أعضاء التناسل في الأساطير والقصص الشعبي يلقى الكثير منها ذات الاستخدام في الحلم: السمك والقواقع والقطط والفئران (لشعر العانة)، ثم بنوع خاص ذلك الحيوان الذي هو أهم الرموز إلى قضيب الرجل: الثعبان. وتمثل الحيوانات الصغيرة والديدان صغار الأطفال مثل الإخوة والأخوات غير المرغوب فيهم، كما أن التدوُّد يمثل الحمل في كثير من الأحيان. . ومن الحري بالذكر رمز إلى عضو التناسل عند الرجل حديث العهد جداً، هو المنطاد. وتبرِّر هذا الاستخدام علاقة المنطاد بالطيران ثم شكله أحياناً. . وهناك طائفة أخرى من الرموز ساقها شتيكل مدّعماً إياها بالشواهد ولكنها مع ذلك لم تثبت ثبوتاً كافياً. فمؤلفات شتيكل . وبخاصة «لغة الأحلام» . تحوي أوفى مجموعة من التراجم الرمزية، وبعض هذه التراجم ينم عن بصيرة نافذة كما أن التمحيص قد أيَّده من بعد، مثال ذلك فصله عن رموز الموت، ولكن افتقار هذا المؤلف إلى ملكة النقد مع نزوعه إلى التعميم مهما كان الثمن يبعثان على التشكك في تفسيراته الأخرى أو يقفان حائلاً دون استخدامها، بحيث ينبغي الأخذ بالحذر الجم عند الرجوع إلى مؤلفاته. ولهذا كنت أقتصر على ذكر أمثلة قليلة من تراجمه.

في رأي شتيكل أن اليمين و اليسار يحملان في الحلم معنىً خلقياً: «فطريق اليمين تعني دائماً طريق الاستقامة، فأما طريق اليسار فتعني الجريمة. وهكذا قد يصوِّر اليسار الجنسية المثلية أو الزنا بالمحارم أو الانحراف، بينما يصور اليمين الزواج أو الاجتماع ببغي، إلخ. . كل هذا من وجهة النظر الخلقية للفرد الحالم دائماً» (شتيكل، 1909، ص 446). ويقوم الأقارب في الحلم مقام أعضاء التناسل في غالب الأحيان (ص 499)، بيد أنني لا أستطيع أن أؤيد ذلك إلا فيما يتصل بالأبناء والبنات وصغار الإخوة والأخوات أي فيما يتصل بالأقارب الذين يدخلون تحت مقولة الصغير. كما أنني وجدت من جهة أخرى أمثلة مؤكدة ترمز فيها الأخوات إلى الصدر بينما يرمز الإخوة إلى الردفين. ويفسر شتيكل عدم اللحاق بعربة بفرق في السن لا سبيل إلى محوه (ص 505). فأما المتاع الذي يحمله المرء في سفر فحمل من الخطيئة يثقل كاهله (ذات الموضع). بيد أن متاع السفر على التحقيق كثيراً ما يتبين أنه رمز لا يخطىء إلى عضو الحالم التناسلي. وحدَّد شتيكل . فوق ذلك . معاني رمزية للأرقام التي يكثر ورودها في الأحلام، ولكن هذه التراجم لا تبدو مؤكدة التأكيد الكافي ولا صحيحة صحة شاملة . وإن كان تفسير شتيكل يبدو عادةً مقنعاً في الحالات الجزئية. ولكن ثبت مع ذلك . من جوانب متعددة . أن الرقم 3 يرمز إلى عضو الرجل التناسلي. وبين القضايا المعممة التي ساقها شتيكل قضية تتعلق بالمعنى المزدوج الذي تنطوي عليه الرموز الجنسية، فهو يقول: «أين هو هذا الرمز الذي لا يمكن استعماله في آن واحد في كلا المعنيين: المذكر والمؤنث، بشرط أن تقبل المخيلة هذا الاستعمال ولو أقل قبول؟». إن هذا الشرط لا شك يزيل الشيء الكثير من اليقين الذي أطلقت به القضية؛ إذ الواقع أن المخيلة لا تقبل هذا الاستعمال دائماً. ومع هذا أعتقد أنه لن يكون من نافلة القول إذا أضفت أن تجربتي تدل على أن قضية شتيكل تقصِّر عن مكافأة واقع يزيدها تعقداً. فهناك إلى جانب الرموز التي تنوب عن أعضاء التناسل المذكرة والمؤنثة على السواء، رموز أخرى تدل على أحد الجنسين دلالة غالبة أو تكاد تكون مانعة، ثم أخرى لا نعرف لها إلا معنىً مذكراً أو مؤنثاً: فأن تتخذ الأسلحة والموضوعات المستطيلة الصلبة رموزاً إلى الرحم أو أن تتخذ الموضوعات المجوَّفة (مثل الأدراج والصناديق والعلب وغيرها) رموزاً إلى القضيب . ذلك ما تأباه المخيلة على التحقيق.

وإنه لمن الصحيح أن نزوع الأحلام ونزوع المخيلة اللاشعورية إلى استعمال الرموز الجنسية استعمالاً مزدوجاً ينم عن سمة أثرية؛ لأن الطفل يجهل الفرق بين الأعضاء التناسلية وينسب ذات الأعضاء إلى كلا الجنسين. ولكن من السهل كذلك أن نساق إلى القول خطأ بوجود رمز جنسي مزدوج إذا نسينا أن هناك عكساً جنسياً عامّاً يقع في كثير من الأحلام، بحيث يصور المذكر بالمؤنث، والعكس. وأمثال هذه الأحلام قد تعرب . مثلاً . عن رغبة المرأة في أن تكون رجلاً.

ومن الممكن كذلك أن تصور الأعضاء التناسلية بوساطة أجزاء أخرى من الجسم، فتمثل عضو الذكر يد أو قدم ويمثل فتحة الفرج الفم أو الأذن أو حتى العين. وإفرازات الجسم البشري . المخاط والدموع والبول والمني، إلخ. . قد يحل بعضها محل البعض الآخر في الحلم. وقد قيَّد رايتلر (1913ب) قضية شتيكل هذه . وهي صحيحة في جملتها . تقييداً نقدياً صائباً إذ لاحظ أن الأمر يتعلق في جوهره بإحلال إفرازات لا دلالة لها محل آخر له دلالته كالمني.

هذه الإشارات على قصورها قد تكون كافية في الحث على دراسة أخرى جامعة أشد عناية[390]. وقد حاولت من جانبي أن أتناول رمزية الحلم

بمزيد من التفصيل في «محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي» (1916/1917)[391].

وأضرب الآن بضعة أمثلة على استخدام أمثال هذه الرموز في الحلم، أمثلة تبيّن كيف يستحيل الوصول إلى تفسير الحلم إذا استبعد المرء رمزية الحلم، وكيف يضطر المرء في حالات كثيرة إلى التسليم بهذه الرمزية تسليماً لا منازعة فيه. غير أنني أود في الوقت عينه أن أحذِّر من المغالاة في تقدير أهمية الرموز في الحلم حتى نقصر ترجمة الحلم على ترجمة الرموز تاركين منهج الاستناد إلى مستدعيات الحالم. فالواجب هو أن تكمِّل كلتا الطريقتين الأخرى، ولكن المحل الأول يظل دائماً ـ سواء من حيث العمل أو النظر ـ للطريقة التي بدأت بوصفها، بينما تظل ترجمة الرموز في متناولنا من حيث هي منهج مساعد.

1 – القبَّعة من حيث هي رمز إلى الرجل

(أو إلى أعضاء الرجل التناسلية)[392]

(نبذة من حلم امرأة في مقتبل العمر تشكو مخافة الأماكن الطلقة نتيجة الخوف من الغواية).

«أسير في شارع والفصل فصل الصيف حاملةً قبعة من القش كان لها شكل غريب، فقد مال جزؤها الأوسط متجهاً إلى أعلى بينما تدلت حافتاها إلى أسفل (تتلكأ في الوصف ههنا)، وتدلتا بحيث صار أحد الجانبين منخفضاً عن غيره. وكنت في مزاج ملؤه المرح والثقة، فلمَّا مررت بجماعة من الضباط الشبان، حدثت نفسي قائلة: ليس بينكم أحد يستطيع إيذائي».

لمّا رأيت القبعة لا تستدعي شيئاً في ذهن الحالمة، قلت لها: «لا شك في أن القبعة ترمز إلى عضو الرجل بجزئها الأوسط المتجه إلى أعلى وبحافتيها المتدليتين. قد يبدو عجيباً أن تكون القبعة رجلاً ولكنك تعلمين كيف نقول: وَقَعَتْ تحت القبعة [وهو تعبير ألماني بمعنى تَزَوَّجَتْ]». وامتنعت عامداً عن أن أفسر لها تدلِّي حافتي القبعة تدلياً غير متساو، مع أن أمثال هذه التفاصيل هي التي يجب أن تحدد اتجاه التفسير. ولكنني مضيت أقول: إنها وقد أصبح لها بذلك زوج له هذه الأعضاء الفاخرة لم تعد بحاجة إلى أن تخشى شيئاً من هؤلاء الضباط، أي لم تعد بحاجة إلى أن ترغب في شيء منهم؛ فقد كان ما تتخيله من إمكانية إغوائها هو السبب الجوهري الذي يحول بينها وبين الخروج من غير حامٍ أو صحبة. وكنت قد استطعت مراراً من قبل أن أفسر هيلتها هذا التفسير الأخير استناداً إلى مادة أخرى.

وكان مسلك الحالمة عقب هذا التفسير مسلكاً ملحوظاً إلى أبعد مدى: ذلك أنها استردت وصفها للقبعة وأصرت على أنها لم تقل قط: إن حافتيها كانتا تتدليان. ولكنني كنت موقناً مما سمعت يقيناً يستحيل معه التضليل، فثبت على موقفي. وظلت هي صامتة برهة ثم وجدت الشجاعة الكافية لكي تسأل: ما معنى أن تتدلى إحدى الخصيتين عند زوجها دون الأخرى، وهل الأمر كذلك عند جميع الرجال؟ وبهذا اتضحت تلك الخاصة العجيبة في القبعة ولقي التفسير كله قبول الحالمة.

لقد كنت أعرف رمز القبعة منذ زمن طويل حين روت لي الحالمة هذا الحلم. وكانت هناك حالات أخرى، لكنها أقل شفافية، جعلتني أعتقد أن القبعة قد تنوب كذلك عن عضو المرأة التناسلي[393].

2 – الطفل الصغير رمز إلى عضو التناسل

السقوط تحت العربة رمز إلى الجماع

(حلم آخر للمريضة السابقة)

أرسلت أمها ابنتها الصغيرة خارج المنزل بحيث اضطرت إلى أن تذهب وحدها. تركب بعد ذلك قطاراً مع أمها وتلمح صغيرتها وهي تسير على سكة الحديد بحيث لا يصبح مفر من وقوعها تحت عجلات القطار. تسمع قعقعة عظامها (ويحدث ذلك في نفسها شعوراً غير مريح ولكنه لا يبلغ مبلغ الارتياع الحق). تدير نظرها خارج نافذة العربة لترى هل تستطيع رؤية الأجزاء من الخلف ثم تنحى على أمها باللائمة لأنها تركت صغيرتها تخرج وحدها.

التحليل: ليس من السهل أن نورد التفسير الكامل لهذا الحلم؛ فهو قد جاء بين أحلام تتابعت حلقاتها ولا يمكن فهمه إلا موصلاً بسائره؛ وإن لمن الصعب أن نعزل المادة اللازمة لإثبات رموزه عزلاً كافياً. ـ رأت الحالمة أولاً أن رحلة القطار ينبغي تفسيرها تفسيراً تاريخياً؛ فهي تشير إلى رحلة

قامت بها حين غادرت مصحة للأمراض العصبية لا نحتاج إلى أن نقول: إنها قد أغرمت بمديرها. وكانت أمها قد ذهبت إليها لتصطحبها وجاء الطبيب إلى المحطة وأسلمها باقة من الزهور، هدية فراق، وكان يحرجها كل الحرج أن تشهد أمها هذه التقدمة. وأمها ـ إذن ـ تظهر في هذا الموضع في صورة شخص يعكِّر صفو جهودها من أجل أن تحب، وهو دور لعبته هذه السيدة الصارمة حقيقةً والمريضة لا تزال فتاة. ـ وتدور مستدعياتها بعد ذلك حول هذه الجملة: تدير نظرها لترى هل تستطيع رؤية الأجزاء من الخلف. إن مظهر الحلم يحملنا بالطبع على أن نظن أن المعني هو أجزاء فتاتها الصغيرة التي جرى القطار فوقها وطحنها. ولكن مستدعياتها تذهب بها في اتجاه آخر: فهي تذكر أنها رأت والدها عارياً في غرفة الاستحمام مرة، ورأته من الخلف. وتمضي المريضة فتتحدث عن الفروق بين الجنسين، وتلح على كون الأعضاء التناسلية للرجل تمكن رؤيتها من الخلف بينما الحال مع المرأة خلاف. وفي هذا السياق تفسر المريضة بنفسها «الصغيرة» بكونها تعني أعضاء التناسل و«صغيرتها» بمعنى أعضائها هي ـ وكانت لها طفلة في الرابعة. هي تنحى باللائمة على أمها لأنها أرادت لها أن تحيا كما لو لم تكن لها أعضاء تناسل، وتنبه إلى أن هذا اللوم متضمن في جملة الحلم الأولى: ترسل أمها ابنتها الصغيرة خارج المنزل بحيث تضطر إلى أن تذهب وحدها. فأن تذهب وحدها في الطريق يعني في مخيلتها أن تكون بغير رجل، أي بغير حياة جنسية Coire = سار مع)[394]، وإنها لتكره ذلك. ويخلص من كل رواياتها أنها ـ وهي فتاة ـ قد عانت الأمرَّين حقيقةً من جراء غيرة أمها منها، غيرة مبعثها إيثار أبيها لها.

فأما التفسير الأعمق لهذا الحلم فيتضح من حلم آخر أتاها في الليلة عينها، وهو حلم عيَّنت فيه ذاتها بأخيها. والحق أنها كانت فتاة كالولد، ولكم سمعت أنه كان أولى بها أن تكون صبياً. هذا التعيين بالأخ قد أضفى وضوحاً خاصاً على ما تشير إليه «الصغيرة» من معنى عضو التناسل؛ فالأم كانت تهدد الأخ (أي تهددها) بالخصاء، وهو ما لا يمكن أن يكون إلا عقاباً على اللعب بأعضاء التناسل، وتعيينها ذاتها بأخيها يدل بذلك على أنها قد مارست هي نفسها الاستمناء ـ وهو أمر لم تعد تذكره اليوم إلا عن أخيها وحده. ويخلص من معطيات هذا الحلم الثاني أن المريضة لا بد قد حصلت على بعض المعرفة بأعضاء الذكر التناسلية في ذلك الوقت المبكر، معرفة آلت بعد ذلك إلى النسيان. أضف أن هذا الحلم يشير إلى النظرية الجنسية التي يعتقد الأطفال بمقتضاها أن الفتيات صبيان مخصيون. وإني حين أشرت إلى هذا الاعتقاد الطفلي أيَّدته على الفور بقصة تحكي عن ولد صغير يسأل فتاة صغيرة: مقطوع؟ فتجيبه الفتاة: كلا، كان كذلك دائماً.

وعلى ذلك فإرسال الصغيرة (عضو التناسل) إلى الشارع يتعلق في الحلم الأول أيضاً بوعيد الخصاء، وهي في النهاية حانقة على أمها لأنها لم تلدها ولداً.

فأما أن «السقوط تحت العربة» يرمز إلى الجماع فلا يتضح من هذا الحلم، وإن كان قد تأيَّد من مصادر أخرى متعددة.

3 – تصوير أعضاء التناسل بوساطة

المباني والسلالم والمغاور

(حلم شاب كَفّه مركب الأب)

يتمشى مع والده في مكان لا شك في أنه منتزه پراتر[395]؛ لأنه ـ أعني الحالم ـ يرى مبنى الروتوندا وقد تقدمه بناء صغير شدَّ إليه منطاد بحبال، غير أن المنطاد بدا متراخياً بعض الشيء. يسأله والده لمَ كل هذا؟ ويعجب الحالم لسؤال أبيه غير أنه يشرح الأمر له. يجيئان بعد ذلك إلى فناء طُرح على أرضه لوح من الصفيح. يريد والده أن ينتزع جزءاً منه، ولكنه يدير البصر حوله قبل الإقدام على هذا الفعل لكي يرى هل هناك عين ترقبه. يقول لأبيه: إنه لا يحتاج سوى إلى مصارحة الحارس وله بعد ذلك أن يأخذ ما أراد وهو خالي البال. ينحدر من الفناء درج إلى مغارة في جوف الأرض نجِّدت حوائطها تنجيداً وثيراً كما يكون للمقاعد الجلدية، وفي نهاية المغارة دهليز طويل تبدأ بعده مغارة ثانية...

إن هذا المريض ينتسب إلى طائفة من المرضى لا يبشِّر العلاج معهم بخير كثير؛ فهم يماشون التحليل مسافة معينة دون أن تظهر منهم مقاومة ما ثم بعد ذلك ينقلبون فلا يكاد يكون ثمة مجاز إليهم. ولقد استقل المريض بتفسير حلمه هذا استقلالاً كاد أن يكون تاماً، فقال: «إن الروتوندا هي أعضاء التناسل عندي والمنطاد المشدود قدّامها قضيبي الذي أرى في ارتخائه مدعاة إلى شكاتي». ولنا إذن أن نزيد كلامه تفصيلاً فنترجم الروتوندا بالردفين ـ اللذين يدخلهما الطفل بين أعضاء التناسل عادة ـ ونترجم المبنى الصغير الذي يتقدم الروتوندا بكيس الخصيتين. ويسأله أبوه في الحلم ما معنى هذا كله، أي ما الغرض من أعضاء التناسل وما عملها، ولكن لا يخفى أن العكس هو الصحيح بحيث يكون المسؤول سائلاً. ولما كانت الحقيقة هي أنه لم يسأل والده مثل هذا السؤال قط فعلينا أن نقدِّر أن فكرة الحلم رغبة أو شيء أشبه بجملة شرطية: «لو أنني سألت والدي بعض الإيضاح الجنسي...» وستتكشف لنا بقية الجملة عاجلاً.

وأما الفناء الذي طُرح لوح الصفيح على أرضه، فلا ينبغي أن نبدأ بأخذه مأخذاً رمزياً، بل هو مستمد من محل عمل والده. ولقد اقتضى داعي

الأمانة على السر أن أستبدل الصفيح بالمادة الأخرى التي يتَّجر فيها والد الحالم دون أن أغيِّر شيئاً من نص الحلم فيما خلا ذلك. وكان الحالم قد التحق بمؤسسة أبيه واحتج احتجاجاً عنيفاً على ما رآه من تصرفات مشبوهة بعض الشيء كانت تعتمد عليها أرباح المؤسسة إلى حد، ومن هنا جاز أن نكمل فكرة الحلم المذكورة في الفقرة السابقة على هذا النحو: «(لو أنني سألته) لغشني مثلما يصنع بعملائه». فأما الانتزاع الذي أفاد في تصوير غش الأب فيورد الحالم من تلقاء نفسه تفسيره الثاني: إنه يعني الاستمناء . وهو تفسير عرفناه منذ زمن طويل (أنظر ص 381). ولكن يؤيده هنا أتم التأييد أن يُعْرب عن السر الذي يحوط الاستمناء عادةً بضده (من الممكن أن يؤتى ذلك علانية). ويتفق وتوقعنا بعد ذلك كل الاتفاق أن ينقل الاستمناء إلى الأب مثل السؤال في المشهد الأول من الحلم. وأما المغارة فيبادر الحالم . وهو يفكر في حشو حوائطها الوثير . إلى تفسيرها بالمهبل. وأضيف مستنداً إلى ما تعلمته من تحليلات أخرى أن النزول . مثل الصعود في بعض الحالات . يصف الاتصال الجنسي في المهبل (أنظر ملاحظاتي في 1910د، وانظر الهامش الذي في ص 386 من هذا الكتاب).

وأما أن يتبع المغارة الأولى دهليز طويل ثم مغارة ثانية فيفسِّره الحالم أيضاً تفسيراً مستمداً من تاريخ حياته: فهو قد عرف الجماع حيناً ثم انقطع نتيجة للكف ويرجو اليوم أن يعينه العلاج على استرجاع قدرته. بيد أن الحلم يغمض مع ذلك قرب النهاية، ولا شك في أن كل عارف سوف يرجِّح أن موضوعاً آخر قد أخذ يتطرق إلى المشهد الثاني من الحلم ويؤثر فيه تأثيره، وهو موضوع يشير إليه عمل الوالد وتصرفاته المحتالة والمهبل الأول المصوَّر في صورة المغارة، وهكذا يستطيع المرء أن يفترض أن لهذا الموضوع صلة بالأم.

4 . الرمز إلى أعضاء التناسل عند الرجل

بوساطة الأشخاص وعند المرأة بمنظر طبيعي

(حلم امرأة من عامة الشعب كان زوجها من رجال الشرطة)

(رواه ب. داتنر)

... وعندئذ اقتحم البعض الشقة فصاحت . وقد امتلأت رعباً . تستنجد رجلاً من رجال الشرطة ولكن رجل الشرطة هذا يدخل في هدوء كنيسة (Kirche)[396] كانت تسلم إليها عدة من الدرجات[397]، وكان يصحبه أفاقان. كان يشمخ من وراء الكنيسة جبل[398] تعلوه غابة كثيفة[399]. وكان رجل الشرطة يرتدي خوذة وصداراً معدنياً وعباءة[400]. وكانت له لحية سمراء، وأما الأفاقان اللذان كانا يصحبانه فقد شدَّ كل منهما إلى حقوه إزاراً أشبه بالغرارة[401]. كان هناك طريق يسلم من الكنيسة إلى قمة الجبل وعلى جانبي هذا الطريق نبتت حشائش وشجيرات كانت تزيد على طول الطريق كثافة حتى صارت فوق قمة الجبل غابة حقيقية.

5 – أحلام الخصاء عند الأطفال

أ) إستيقظ طفل يبلغ من العمر ثلاث سنوات وخمسة أشهر . وكان من الجلي أنه لا يرتاح إلى فكرة رجوع والده من جبهة القتال . استيقظ ذات صباح منزعجاً، سائلاً، ملحَّاً في السؤال: لمَ كان بابا يحمل رأسه على طبق؟ كان بابا يحمل رأسه على طبق في الليلة الماضية.

ب) ويذكر طالب يعاني اليوم عصاباً قهرياً شديداً أن الحلم الآتي قد عاده مرات متكررة وهو في السادسة من عمره: يذهب إلى الحلاق لكي يقص شعره. تدخل عندئذ امرأة ضخمة صارمة الملامح وتقطع رأسه. يعرف أن المرأة أمه.

6 – رموز البول

إن الرسوم التي يراها القارىء هنا قد اكتشفها فرنتسي في صحيفة هزلية هنغارية (هي صحيفة «فيديبوس») فلم يفته أن يرى كيف يمكن استخدامها في تصوير نظرية الحلم، ولقد سبق أوتو رانك إلى نقلها في مقال له (1912أ).

كانت هذه الصور تحمل العنوان الآتي: «حلم مربية فرنسية» ولكن الصورة الأخيرة التي ترينا المربية وهي تستيقظ على صراخ الطفل هي وحدها التي تجعلنا ندرك أن الصور السبع السابقة إنما تصوِّر مراحل في حلم واحد. فالصورة الأولى تبيِّن المنبه الذي كان ينبغي أن يؤدي إلى اليقظة: فالطفل يستشعر حاجة ويطلب معاونته على قضائها. ولكن الحلم يخيِّل إلى الحالمة أنها تصطحب الطفل في نزهة وليست نائمة في غرفته.

وهي في الصورة الثانية قد أخذته إلى جانب الطريق حيث نراه يتبوَّل . ولها إذن أن تمضي في نومها. ولكن المنبه يستمر، بل يزداد؛ فالطفل إذ لا يجد أحداً يسارع إليه يرفع صوته بالصراخ. وكلما ألحَّ في إيقاظ مربيته وفي طلب عونها أكَّد لها الحلم أن كل شيء على ما يرام وأنه لا داعي يدعوها إلى الاستيقاظ: وفي هذا الوقت عينه يصور الحلم الزيادة في المنبه بالزيادة في أبعاد الرموز الرامزة إليه: فمجرى الماء الذي يحدثه التبوُّل يزيد عنفواناً، فما أن تأتي الصورة الرابعة حتى تصير منه الكفاية لقارب ذي مجداف، ثم لجندل، فمركب ذي شراع، وفي النهاية باخرة. وهكذا استطاع رسام ماهر أن يصوِّر الصراع بين حاجة عنيدة إلى النوم ومنبه لحوح يدفع إلى اليقظة تصويراً حاذقاً.

7 . حلم سلّم

(رواه أوتو رانك وفسره)

«وأشكر أيضاً هذا الزميل الذي أدين له بحلم المنبِّه السني (وهو حلم مذكور هنا في ص 417 وما بعدها) على حلم آخر من أحلام الإمناء لا يقل عنه شفافية:

«أنهب السلَّم ملاحقاً فتاة صغيرة ارتكبت في حقي شيئاً ما أريد عقابها عليه. يوقفها لي عند نهاية السلم شخص ما (أهو امرأة راشدة؟) أمسك بالفتاة، ولا أعلم هل ضربتها، لأنني وجدتني فجأة على منتصف الدرج أجامع الطفلة (كما لو كان ذلك في الهواء). لم يكن ذلك جماعاً حقيقياً، بل كنت أحك بعضوي أعضاءها الخارجية التي كنت أراها في هذه الأثناء متميزة غاية التميُّز كما كنت أرى رأسها الذي ارتدَّ إلى الوراء يميل إلى أحد الجانبين. وبينما كنت آخذاً في الفعل الجنسي رأيت صورتين معلقتين فوقي عن يساري (كما لو كان ذلك أيضاً في الفضاء)، وكانت كلتاهما تصور منزلاً تحيط به الأشجار وكان اسمي مكتوباً بأسفل أصغر الصورتين في موضع توقيع الرسام، كأنما أريد بالصورة أن تكون هدية عيد ميلاد إليّ. وعلِّقت أيضاً أمام الصورتين لافتة كُتب عليها: الصور الأرخص يمكن الحصول عليها أيضاً (وعندئذ أراني كما لو كنت نائماً في سرير على فسحة السلم رؤية مبهمة إلى أبعد حد) ثم يوقظني شعور بالبلل الذي أحدثه الإمناء.

«التفسير: ذهب الحالم في مساء يوم الحلم إلى إحدى المكاتب وبينما كان ينتظر تلبية طلبه أجال بصره في صورة كانت تُعرض هناك وكانت تصور موضوعات أشبه بما رآه في الحلم. وراقته بنوع خاص لوحة صغيرة فاقترب منها ليتبين اسم الرسام، فكان اسماً لا يعرفه على الإطلاق.

«وحدث بعد ذلك في هذه الأمسية عينها أنه كان في رفقة جماعة من الأصدقاء، فسمع قصة تحكي عن خادم بوهيمية كانت تفاخر بأن ابنها غير الشرعي «قد صُنع على السلم». واستفسر الحالم عن تفاصيل هذه القصة غير المألوفة فعلم صورة قفا الصورة أن الخادم اصطحبت عاشقها يوماً إلى منزل والديها فلم يجدا هناك فرصة للاجتماع وغلب الشبق الرجل فأتى فعله معها على السلم. وعندئذ لمَّح الحالم تلميحاً مازحاً إلى تعبير خبيث يُطلق في وصف الأنبذة المخلوطة: إن هذا الطفل قد جاء حقيقةً «من كرمة زرعت في بئر سلم».

«تلك هي وشائج الحلم باليوم السابق، وهي وشائج ظهرت في محتوى الحلم بشيء من الإلحاح وسردها الحالم دون أن يلاقي في سردها صعوبة ما. ولكنه ذكر أيضاً بمثل هذه السهولة طرفاً من إحدى ذكريات طفولته، ذكرى لقيَت هي الأخرى في الحلم وجه استخدامها: فالسلم قد أُخذ من المنزل الذي قضى فيه الحالم معظم طفولته وفيه . على الأخص . حصل أول معرفته الشعورية بالمسائل الجنسية. وكان الحالم كثيراً ما يلعب على هذا السلم، ومن صنائعه في هذا المضمار امتطاء الجُلّق والتزحلق عليه وهو فعل كان يطلق عنده أحاسيس ذات طابع جنسي. وإنه في الحلم كذلك يندفع على الدرج في سرعة خارقة حتى أن قدميه . على حسب تعبيره . لم تكونا . والحق يقال . تلمسان السلم درجة فدرجة، بل كانتا «تطيران» طيراناً . كما نقول. فإذا حسبنا لهذه الخبرة الطفلية حسابها، بدا أن بداية الحلم تصوِّر عامل الهياج الجنسي. . غير أن الحالم قد عبث أيضاً مع أبناء الجيران عبثاً جنسياً فوق هذا السلم وسلم البيت المجاور وكثيراً ما أشبع رغباته الجنسية في خلال هذا العبث على نحو يماثل نحو إشباعها في الحلم كل المماثلة».

«فإذا تذكرنا أن أبحاث فرويد (أنظر 1910أ [وانظر ص 388 فيما سبق]) قد بيَّنت أن السلالم وصعودها تقوم في الحلم مقام الجماع قياماً لا يكاد يكون له استثناء، غدا الحلم شفافاً كل الشفافية. فالدافع إليه . كما يظهر في الحقيقة من خاتمته؛ وهي الإنزال . كان دافعاً ليبيدياً محضاً. فقد استيقظ الهياج الجنسي للحالم أثناء نومه . وهو ما تصور في الحلم باندفاعه على السلم . وكان في هذا الهياج عنصر سادي يرجع تكوُّنه إلى عبث الطفولة ودلت عليه مطاردة الحالم للطفلة وسبقه إياها. وزاد الهياج الليبيدي شدة حتى حثَّ على الفعل الجنسي . وهو ما تصور في إطباق الحالم على الطفلة وحمله إياها إلى منتصف السلم. وإلى هنا لم يكن الحلم جنسياً إلا على نحو رمزي، ولعل الحلم كان يستغلق كل الاستغلاق على من لا مراس له بتفسير الأحلام. بيد أن مثل هذا الإشباع الرمزي لم يكفِ لأن يكفل للحالم رقوداً هادئاً؛ لشدة التهييج الليبيدي. فكان أن أدّى التهييج إلى الإنزال، وبذا انكشف أن رمزية الحلم بحذافيرها كانت تصوِّر الجماع. . وإذا كان فرويد يذهب إلى أن أحد الأسباب الداعية إلى استخدام صعود السلم

رمزاً جنسياً هو الطابع التوقيعي الذي لكلا الفعلين، فهذا الحلم شاهد يؤيد كلامه في وضوح خاص؛ لأن الحالم قد ذكر صراحة أن أبرز عناصر حلمه جميعاً كان توقيع الفعل الجنسي وحركته صعوداً وهبوطاً.

«تبقى ملاحظة خاصة بالصورتين اللتين ظهرتا في الحلم بمعنى رمزي، بمعنى «صور نساء»[402] إلى جانب المعنى الموضوعي: إن ذلك ما يشهد به وجود صورة كبيرة وأخرى صغيرة مثلما جاءت في الحلم من قبل امرأة كبيرة (أو راشدة) وطفلة صغيرة. كما أن إمكانية الحصول على الصور الأرخص تؤدي إلى مركب البغايا. هذا بينما يلمّح إلى المركب الوالدي ظهور اسم الحالم في الصورة الصغرى ثم تفكيره في أن هذه الصورة يراد إهداؤها إليه يوم عيد مولده (ولد على السلم = جاء نتيجة الجماع).

«فأما المشهد الأخير غير المتميز . حين يرى الحالم نفسه راقداً في سريره على فسحة السلم مع إحساس بالبلل . فيبدو أنه يشير إلى عهد من عهود الطفولة يسبق عهد الاستمناء الطفلي أيضاً. وأغلب الظن أنه مشهد يستمد مثاله المحتذى من مشاهد مشبعة أيضاً باللذة تتعلق ببلل الفراش».

8 – حلم سلَّم معدل

كان بين مرضاي مريض ينفر من الحياة الجنسية نفوراً أملاه عصاب شديد وكانت تخييلاته مثبتة على أمه وكان يحلم مراراً بأنه يصعد السلم في صحبتها. واتفق أني ذكرت له أن الاستمناء مع شيء من القصد لن يضره في أغلب الظن ضرر امتناعه القهري هذا، فكان من أثر هذه الملاحظة أنه حلم الحلم الآتي:

«يؤنبه معلم البيانو على إهماله العزف ولأنه لم يجوِّد «دراسات» موشليس ولا «مراقي البارناس» لكليمني».

ويعقب المريض على هذا الحلم فيلاحظ أن المراقي أيضاً درجات وأن المعزف نفسه درج لأنه يحتوي على سلالم.

إن المرء لا يجانب الحق إذا قال: إنه ما من طائفة من الأفكار إلا أمكن استخدامها في تصوير حقائق

الحياة الجنسية ورغباتها.

9 . الشعور بأن ما يرى في الحلم حقيقة

وتصوير التكرار

قصّ رجل يبلغ اليوم الخامسة والثلاثين من عمره حلماً يتذكره تذكراً واضحاً ويدَّعي أن هذا الحلم قد أتاه وهو في الرابعة من عمره: أحضر مسجِّل العقود المكلَّف بإنفاذ وصية والده . وكان والده قد مات وهو طفل في الثالثة . كمثريين كبيرتين، أُعطى إحداهما ليأكلها ووضعت الثانية على عارضة النافذة التي في حجرة الجلوس. واستيقظ الحالم وهو مقتنع بحقيقة ما رأى حتى أنه ألح على أمه في طلب الكمثري الثانية مؤكداً أنها ما زالت بعارضة النافذة مما أثار ضحك أمه.

التحليل: كان مسجل العقود سيداً متقدماً في السن مرح الطبع، واتفق ذات مرة أنه أحضر حقيقة بعض الكمثري . كما يعتقد الحالم تذكره. وأما عارضة النافذة فكانت كما رآها في الحلم، ولم يخطر بباله خاطر آخر بصددها . سوى أن أمه كانت قد روت له حلماً منذ زمن قريب: رأت طائرين يقبعان فوق رأسها، فسألت نفسها، متى يطيران بعيداً عنها؟ ولكنهما لم يطيرا بعيداً، بل طار أحدهما إلى فمها وأخذ يحسو منه.

وكان وقوف مستدعيات الحالم يخوِّل لنا الحق في أن نحاول تفسير حلمه بترجمته الترجمة الرمزية: إن الكمثريين . تفاح وكمثري[403] . هما ثديا الأم اللذان غذياه، وأما عارضة النافذة فهي بروز صدرها، مثل الشرفات في أحلام المنازل [أنظر ص 387]. وهو محق في شعوره بعد اليقظة بحقيقة ما رأى؛ فقد أرضعته أمه حقيقة، بل تمادت في ذلك إلى ما يعدو الحد المألوف كثيراً وكان صدرها إذ ذاك لا يزال مباحاً له. فالحلم تنبغي ترجمته: يا أماه، أعطني (أو أريني) مرة ثانية صدرك الذي نهلت منه مرة من قبل.. و«المرة التي من قبل» قد تُرجمت في الحلم بالكمثري التي أكلت، وترجمت «المرة الثانية» بسؤاله عن الأخرى. فالتكرار الزمني للفعل ينقلب في الحلم بانتظام إلى تكثير عددي للموضوع.

ولأن تأخذ الرمزية بنصيب في حلم طفل ما زال في الرابعة أمر بالطبع من أشد الأمور جذباً للنظر. ولكن ذلك ليس استثناء بل هو القاعدة. وما نجانب الصواب إذا قلنا: إن الحالم يجد لغة الرموز في متناوله منذ البدء.

وها هي ذي ذكرى خالية من كل تأثير غريب تقصها سيدة تبلغ اليوم السابعة والعشرين من عمرها، وإنها لترينا بأي سن مبكرة يصطنع الإنسان لغة الرموز خارج الحياة الحالمة كما في داخلها: كانت سنها بين الثالثة والرابعة حين أخذتها مربيتها إلى مرفق المياه مع أخيها الذي يصغرها بأحد عشر شهراً وفتاة قريبة تتوسطهما في العمر، لكي يقضي الجميع حاجاتهم قبل أن يخرجوا للنزهة. وكانت هي أكبر الثلاثة فجلست على مرحاض الكبار في حين جلس الطفلان الآخران على الأصص المخصصة للأطفال. وهنا سألت الراوية قريبتها: أأنت أيضاً تملكين كيساً؟ إن ؟التر يملك سجقاً صغيراً، وأما أنا فكيس. فأجابت القريبة: نعم، أنا أيضاً أملك كيساً. وسمعت المربية حديثهما ضاحكة ثم نقلته إلى سيدتها، فكان جوابها تقريعاً محتداً.

وأسرد في هذا الموضع حلماً مكّنتنا رموزه البديعة المنتقاة من تفسيره بغير كبير استعانة بمستدعيات الحالمة:

10 . «مسألة الرمزية في أحلام الأصحّاء»[404]

«هناك اعتراض يكثر منه خصوم التحليل النفسي . وردده ها؟لوك إليس أخيراً[405] وهو يتلخص في أن رمزية الحلم قد تكون نتاجاً للنفس العصابية ولكنها تفقد كل صدق فيما يتصل بالأشخاص السويين. وإن البحث التحليلي النفسي إذا كان لا يرى فارقاً أساسياً بين الحياتين السوية والعصابية، بل كل الفرق عنده في الكم، فإن تحليل الأحلام التي تعمل فيها المركّبات المكبوتة عند المرضى والأصحاء على السواء يرينا عينية تامة بين الأحلام هنا وهناك، سواء أمن حيث الميكانيكيات أم من حيث الرموز، بل إن أحلام الأصحاء الساذجة كثيراً ما تحوي رموزاً أقل تعقيداً وأكثر شفافية ودلالة ممّا يرد في أحلام العصابيين؛ فهذه قد تستغلق على التفسير وتتعذر نتيجة لفعل الرقابة الأشد وما ينجم عنه من تشويه أوسع نطاقاً. والحلم الذي أرويه ينفع في تصوير هذه الحقيقة. إنه حلم فتاة لا تشكو عصاباً، يغلب على طبعها الخفر والتحفظ، علمت وأنا أتحدث معها أنها قد خطبت ولكن تحول دون زواجها عقبات ربما لجأت إلى إرجائه. ولقد روت لي الحلم الآتي من تلقاء نفسها:

« هُيِّىء وسط إحدى الموائد بأزهار استعداداً لعيد ميلاد[406]. وتقول الفتاة إجابة عن سؤال سألتها إياه: إنها بدت في الحلم كأنما كانت في بيتها (وهي لا تعيش فيه في الوقت الحاضر). وأن شعوراً بالسعادة كان يخالجها».

«إن الرموز الشعبية» تمكنني من ترجمة هذا الحلم وحدي. فهو يعرب عن رغبتها في العرس: فالمائدة المزدانة بالأزهار في وسطها ترمز إليها هي وإلى أعضاء التناسل عندها. وهي تصوّر رغبة المستقبل محققة: فها هي ذي تشغل بالتفكير في عيد ميلاد الطفل كأنما الزواج وراءها بينه وبينها أمد بعيد».

«وأقول لها: إن وسط إحدى الموائد[407] تعبير غريب بعض الغرابة (وهو أمر توافقني عليه) ولكنني بطبيعة الحال أحجم عن أن أوجه إليها سؤالاً مباشراً في هذا الصدد؛ فقد كنت حريصاً على ألا أوحي إليها تفسير الرمز، واكتفيت بسؤالها عما يدور بخلدها فيما يتصل بأجزاء الحلم المتفرقة. ولم يلبث تحفظها أن انحسر في سياق التحليل ليحل محله اهتمام بالتفسير ومصارحة مكّن لها ما اتسم به الحديث من طابع الجد. . سألتها أي الأزهار كانت، فأجابت على الفور: أزهار غالية لا ينالها المرء إلا إذا دفع[408]، ثم أردفت: زنابق الوادي وبنفسج وقرنفل[409]، وتراءى لي أن كلمة الزنبق قد وردت في هذا الحلم بمعناها الشعبي من حيث هي رمز للطهارة، فأيدت الفتاة كلامي لأن الزنبق يستدعي في ذهنها الطهارة. ولكن الوادي رمز أنثوي يشيع في الأحلام، فكأن رمزية الحلم قد استغلت التقاء كلا الرمزين التقاءً عارضاً في الكلمة الإنجليزية الدالة على هذه الزهرة[410] من أجل توكيد نفاسة عذرها . أزهار غالية، لا ينالها المرء إلا إذا دفع . ومن أجل الإعراب عن أملها في أن يعرف رجلها كيف يقدّر قيمتها حق قدرها ولن نلبث دون أن نرى أن هذه الملاحظة: أزهار غالية... إلخ. كان لها معنى يختلف باختلاف الأزهار الثلاث الرامزة».

«وخطر لي . وهو خاطر بدا لي غاية في الجرأة . أن أقسر violets [بنفسج] الظاهرة الخلو من كل وجه جنسي بصلة بينها وبين الفرنسية ‘viol’ [اغتصاب]، فشد ما كان دهشي إذ رأيت الحالمة تستدعي violate وهي الكلمة الإنجليزية الدالة على: اغتصب. فكأن الحلم قد استغل هذا الجناس العارض الكبير بين كلمتي violet violate . والحق أنهما لا يختلفان في النطق الإنجليزي إلا من حيث نبرة المقطع الأخير . في الإعراب ب. «لغة الأزهار» عن أفكار الحالمة حول القسوة التي في فض زهرة العفاف (وهو تعبير آخر يستخدم لغة الرموز)، ولعله استغله في الإعراب كذلك عن سمة ماسوشية من سمات طبعها . وهو مثال جميل على الجسور اللفظية التي يمر بها الطريق إلى اللاشعور. وأما قولها: لا ينالها المرء إلا إذا دفع فيعني . في هذا الموضع . حياتها التي يجب أن تدفعها لكي تصير زوجاً وأماً».

«وأما كلمة pinks [قرنفل] التي ألحقت بها مرادفها carnations فقد ذهبت بخاطري إلى الصلة بينها وبين الكلمة الإنجليزية التي بمعنى «لحمي»[411] ولكن الحالمة فكرت في كلمة colour (لون)، ثم أضافت أن ال carnations [القرنفل] أزهار كان خطيبها يهديها إليها في مناسبات

كثيرة وبمقادير كبيرة. غير أنها بعد أن فرغت من كلامها صرَّحت فجأة من تلقاء نفسها بأنها لم تقل الصدق: فالكلمة التي خطرت لها لم تكن colour بل incarnation (التجسد) [وبالحرف: الحلول في لحم] . وهي الكلمة التي كنت توقعتها. ونلاحظ بعد ذلك أن كلمة colour ذاتها لم تكن جاءت عفواً، بل ساقها معنى كلمة carnation (لون اللحم)[412]، وهي إذن كانت محتمة بالمركب».

«وترينا هذه المواربة أن المقاومة قد بلغت في هذا الموضع أقصى مداها وهو ما يتَّفق وكون الرمز كان ههنا أكثر ما يكون وضوحاً، وأن الصراع بين الليبيدو والكبت قد بلغ أشده فيما يتصل بهذا الموضوع القضيبي. وملاحظة الحالمة أن خطيبها كان يهدي إليها هذه الأزهار كثيراً لم تكن تشير . إذن . إلى المعنى المزدوج الذي لكلمة carnation وحسب [«قرنفل» و«في لون اللحم»]، بل كانت تشير كذلك إلى مضمونها القضيبي في الحلم. وهدية الأزهار . وكانت هي الحدث اليومي الذي بعث على الحلم . قد استُخدمت في التعبير عن أفكار تدور حول تبادل العطايا الجنسية: إنها تهدي بكارتها وتنتظر في مقابلها حياة من الحب الموفور. وهنا كان أيضاً لقولها: أزهار غالية، لا ينالها المرء إلا إذا دفع . كان له معناه . ومعنى مالي، حرفي، من غير شك. . وهكذا اشتملت رمزية الزهور في هذا الحلم على عذر الأنوثة، ثم على الذكورة، ثم على إشارة إلى فض البكارة عنوة. وإنه مما تنبغي الإشارة إليه في هذا المجال أن الرمزية الجنسية للأزهار . وهي رمزية يكثر استخدامها من غير شك في غير هذا المثال . ترمز إلى الأعضاء الجنسية للإنسان بالأزهار التي هي الأعضاء الجنسية للبنات. وربما كانت هدايا الزهور بين العاشقين تحمل بوجه عام هذا المعنى اللاشعوري».

«ثم إن يوم الميلاد الذي كانت الحالمة تعد له عدَّته يعني ولا شك مولد طفل. فالحالمة تعين ذاتها بخطيبها وتصوره كما لو كان يهيئها للميلاد، أي يجامعها. والفكرة الكامنة يمكن إذن صوغها على هذا النحو: لو كنت إياه ما انتظرت، بل كنت أفض زهرة خطيبتي دون أن أسألها، معملاً العنف . وهي فكرة ألمعت إليها كلمة violate وهكذا يبلغ المقوِّم السادي في الليبيدو إلى الإفصاح عن نفسه».

«وربما كان لقولها: أهيىء... إلخ، ربما كان له . في طبقة أعمق من الحلم . مدلول العشق الذاتي، أي مدلول طفلي».

«والحالمة حاصلة أيضاً على معرفة لا تتسنى إلا في الحلم بنقصها الجسمي؛ فهي ترى نفسها مسواة مسطحة مثل المائدة، وهي لذلك تعلي من نفاسة ال centre [الوسط أو المركز] (وتسميه في موضع آخر: جزءاً أوسط من الزهور)[413]، أي عذرتها. وهكذا شاركت أفقية المائدة بعنصر من عناصر الرمز. . وإنه لأمر حري بالملاحظة هذا التركز في الحلم؛ فما فيه من نافلة وكل كلمة رمز».

«وقد أتت الحالمة من بعد بملحق لحلمها: «أزيِّن الأزهار بورق أخضر متجعد»[414] ثم أضافت أنه كان «ورق زينة»[415] من النوع الذي يستخدم في تغطية أصص الزهور المألوفة. ثم مضت تقول: «لإخفاء الأشياء القذرة، كل ما قد تقع عليه العين ولا يلوح لها حسناً؛ هناك فجوة أو فضاء صغير بين الأزهار»[416]. ثم: «يبدو الورق مثل القطيفة أو الطحلب»[417]. ويذهب بها التداعي من كلمة decorate (زيَّن) إلى كلمة decorum (اللياقة) . مثلما توقعت. واللون الغالب هو اللون الأخضر وهو يستدعي hope (الأمل) . وهي إشارة أخرى إلى الحمل. إن السمة الغالبة في هذا الجزء من الحلم ليست تعيِّن ذاتها برجل، بل الصدارة هنا لأفكار خجل ومصارحة: فهي تتجمّل له وتسلِّم بما في جسمها من معايب تثير خجلها وتحاول هي إصلاحها. ولقد كانت مستدعياتها في صدد القطيفة والطحلب شاهداً واضحاً على أن الأمر يتعلق بشعر العانة».

«هذا الحلم يعرب إذن عن أفكار كانت الفتاة لا تكاد تعرفها في حياتها المستيقظة. أفكار تدور حول الحب الحسي وأعضائه: فهي كانت «تهيأ للميلاد» أي تواصل بوصال جنسي. والخشية من أن تفض عذرتها تلقي هي الأخرى ما يفصح عنها، وربما كان ثمة ما يعرب كذلك عن ألم مشرَّب باللذة. والفتاة تصارح نفسها بمعايبها الجسمية وتعوض نفسها عنها بالمغالاة في تقدير بكارتها. وحياؤها يتلمس لها العذر على هذه النزعات الحسية، وعذره أنها تهدف إلى الخلف. ثم بالإضافة إلى ذلك تدخل اعتبارات مادية، غريبة عن ذهن المحب. كما أن الحالة الوجدانية المقترنة بهذا الحلم الساذج . وأعني بها إحساس السعادة . تدل على أن مركَّبات عاطفية قوية قد وجدت في هذا الحلم كفايتها».

وما جانب فرنتسي الصواب . إذن . حين لاحظ (1917) أي سهولة تنم بها «أحلام الغافلين»[418] بوجه التحديد عن معنى الرموز وعن تفسير الأحلام.

وفي هذا الموضع أُدرج حلماً لشخصية تاريخية معاصرة؛ لأننا نرى فيه موضوعاً من الموضوعات التي تصلح بوجه عام لتمثيل عضو الذكر وقد أضيف إليه محمول يرينا في وضوح ما بعده وضوح أن هذا الموضوع رمز قضيبي: فأن يطول سوط الفارس طولاً لا نهاية له . ذلك ما لا يسهل تفسيره بسوى كونه يعني الانتصاب. يضاف إلى ذلك أن هذا الحلم يزودنا بمثال جميل يبين كيف يمكن أن تصور أفكار جدية، بعيدة كل البعد عن كل ما هو جنسي بوساطة مادة طفلية جنسية.

11 . حلم لبسمارك

(عن الدكتور هانس ساكس)

«يروي بسمارك في كتابه «خواطر وذكريات» (الجزء الثاني من الطبعة الشعبية [1898] ص 222) خطاباً قصيراً كتبه إلى القيصر ؟يلهلم في 18 من ديسمبر عام 1881. وكان الخطاب يتضمن تلك الفقرة: إن ما أفضت به جلالتكم إليّ يشجعني على أن أروي حلماً أتاني ربيع عام 1863، في أشد أيام ذلك الصراع الذي لم تكن تستطيع عين إنسان أن ترى منه مخرجاً: حلمت . وطلع الصباح فما لبثت حتى قصصت الحلم على زا وشهود آخرين . أنني أركب في طريق ضيق بين جبال الألب، الهاوية عن يميني والصخور عن يساري والطريق تزيد ضيقاً بعد ضيق حتى أبى الحصان مواصلة المسير واستحال عليَّ أن أنزل أو أستدير؛ لقلة المتَّسع. عندئذ رفعت سوطي بيساري وهويت به على الصخرة الملساء وأنا أدعو اللَّه، فإذا السوط يطول إلى غير نهاية، وإذا الصخرة تسقط مثل مشهد من مشاهد المسرح، ويظهر طريق فسيح يشرف على تلال وغابات من قبيل ما نرى في بوهيميا، ولاحت الفرق البروسية حاملة راياتها، فأفكر . وأنا ما أزال بحلمي . في أن أنبىء جلالتكم بالأمر من غير إمهال. ولقد صار هذا الحلم حقيقة واستيقظت منه مثلج الصدر، مشدداً».

«إن حركة هذا الحلم تنقسم قسمين: في الأول تضيق بالحالم السبيل، ثم يخرج منها بأعجوبة في الثاني. وجليّ أن الموقف الوعر الذي يقف فيه كِلا الجواد وراكبه تصوير حلمي يصوِّر الموقف الحرج الذي كان يلم برجل الدولة، ولعله قد ذاق مرارة هذا الموقف بصفة خاصة وهو يفكر في مشكلات سياسته في ذلك المساء الذي سبق الحلم. ألا نرى بسمارك . في الفقرة التي أوردناها . يستعيد بنفسه تلك الصورة عينها في وصف ضائقته إذ ذاك؟ وهي إذن صورة مألوفة له كل الألفة، قريبة من ذهنه كل القرب. ونحن . إلى جانب ذلك . نواجه مثالاً بديعاً على ما يسمِّيه سيلبرير «الظاهرة الوظيفية»؛ فالعمليات التي تدور في ذهن الحالم . يلتمس الحلول فإذا عقبة كأداء تقف دون كل حل وهو مع ذلك لا يملك أن يحرر نفسه من هذه المشاغل ولا يُحِل لها هذه الحرية . هذه العمليات تتمثل أوفق تمثُّل في الراكب الذي لم يعد يستطيع إقداماً ولا رجوعاً. وكبرياؤه التي تمنعه التفكير في أن يسلِّم أو أن يستعفي تتجلى في هذه الكلمات: استحال عليّ أن أنزل أو أن أستدير. ولا بد أن بسمارك . وهو رجل العمل الذي لا ينقطع عن الكد ويرهق نفسه من أجل الغير . لم يكن بعيداً عن أن يشبِّه نفسه بالجواد. والحق أن بسمارك قد أتى بذلك التشبيه في مناسبات شتى، مثال ذلك قوله المعروف: الحصاد الجيد ينفق وهو في زُنّاقة. وعلى ذلك فقوله: أبى الحصان مواصلة السير، لا يعني إلا أن رجل الدولة المنهك قد شعر بالحاجة إلى أن يتحوَّل عن هموم الحاضر، أو هو . إن شئت تعبيراً آخر . كان آخذاً في تحرير نفسه من قيود مبدأ الواقع بوساطة النوم والحلم. ولقد حوى الحلم من قبل . في قوله: طريق بين جبال الألب . بعض الإشارة إلى تحقيق الرغبة الذي يشتد في الجزء الثاني من الحلم كل هذا الاشتداد. فلا شك في أن بسمارك كان يعلم في ذلك الحين أنه سيمضي إجازته المقبلة في جبال الألب، في جاشتاين، والحلم إذ ينقله إلى هذه الجبال يحلُّه في دفعة واحدة من جميع أعباء الدولة».

«وأما الجزء الثاني من الحلم فيصوِّر رغبات الحالم محققة، ويصورها كذلك على نحوين: الأول سافر مفهوم، والآخر رمزي. فأما التحقيق الرمزي ففي اختفاء الصخرة الكؤود وظهور الطريق الفسيحة . أي «المخرج» الذي كان يلتمسه . في أحسن صورها. وأما التحقيق السافر ففي تقدم الكتائب البروسية رافعة راياتها. ونحن لكي نفسر هذه الرؤيا المتنبئة لا نحتاج إلى تشييد الفروض الصوفية؛ ففي نظرية فرويد عن تحقيق الرغبة الكفاية كل الكفاية: لقد كان بسمارك إبان ذلك الحلم يرغب حقيقة في شن حرب ظافرة على النمسا تكون أحسن مهرب من المنازعات المتَّقدة في داخل بروسيا، وهكذا يصور الحلم تحقق هذه الرغبة . متفقاً وفرض فرويد . حين يرى الحالم الكتائب البروسية رافعة راياتها في بوهيميا، أي في أرض العدو. وكل القيمة الفردية في هذه الحالة هي أن الحالم الذي يشغلنا حلمه لم يكفه أن يحقق رغبته في حلم، بل عرف كيف يفرضها حقيقة واقعة. وهناك لمحة لا يمكن إلا أن يلتفت إليها كل من له ألفة بالطريقة التحليلية النفسية في التفسير، هي السوط الذي يطول إلى غير نهاية. إن السياط والعصي والرماح وما شابهها موضوعات نعرفها رموزاً قضيبية، ولكن أن يملك سوط . فوق ذلك . أكبر الصفات التي تميِّز القضيب . قابلية الاستطالة . ذلك ما لا يكاد يترك مجالاً لشك. ويبدو أن المبالغة في الظاهرة، من حيث الاستطالة «إلى غير نهاية»، تدل على استثمار ليبيدي مفرط، الطفولة مبدأه. وأن يمسك الحالم السوط بيده إشارة جلية إلى الاستمناء . وإن تكن الإشارة لا تتجه بالطبع إلى ملابسات الحالم المعاصرة بل إلى رغباته الطفلية المنتمية إلى الماضي السحيق. ومن الكشوف الثمينة القيمة ههنا كشف شتيكل أن اليسار يعني في الحلم الخطأ والممنوع والأثيم . وهو ما ينطبق كل الانطباق على الاستمناء الذي يزاوله الطفل رغم تحريمه. وفي وسعنا أن نجد بين هذه الطبقة الطفلية العميقة والطبقة السطحية التي تخص مشاغل رجل الدولة الحاضرة طبقة وسطى كانت موصولة بكل منهما. ذلك أن جميع هذا الجزء المتعلق بخلاص من الحاجة يتم . فيما يشبه المعجزة . بسوط يضرب الصخر مع الدعاء إلى الله مؤيداً ونصيراً . يحمل شبهاً ملحوظاً بمشهد من التوراة: حين يفجر موسى الماء من الصخر لأبناء إسرائيل الظماء. ولنا أن نفترض في غير تردد أن بسمارك كان يعرف هذه الفقرة وكل تفاصيلها، وهو المنحدر من أسرة بروتستانتية حافظة للتوراة. ولا هو بالشيء المستبعد أن يكون بسمارك . بين أيام هذا الصراع . قد قارن نفسه بموسى، موسى القائد الذي كافأه الشعب بالتمرد والبغضاء والجحود على ما أراد له من الخلاص. ومن هنا . إذن . كانت الصلة برغبات الحالم المعاصرة. ولكن فقرة التوراة قد حوَت من التفاصيل ما ينطبق أيضاً على تخييل استمنائي. فموسى يمسك العصا خارجاً على أمر الله، ويعاقبه الرب فيعلنه أنه لا محالة مائت قبل أن يدخل أرض الميعاد.

فالإمساك المحرَّم بالعصا . وهو ما يحمل في الحلم معنىً قضيبياً لا لبس فيه . ثم حدوث السائل من ضربتها ووعيد الموت، كل أولئك يزودنا باللحظات الرئيسة في الاستمناء الطفلي مجتمعة. ومن الطريف أن نلحظ كيف لحمت . بوساطة فقرة التوراة هذه . هاتان الصورتان المتغايرتان الصادرة إحداهما عن ذهن رجل الدولة العبقري والنابعة أُخراهما من نوازع النفس الطفلية لحماً أخرست في أثنائه كل العناصر الأليمة: فكون الإمساك بالعصا عملاً ممنوعاً عاصياً . ذلك ما لا يُشار إليه إلا بإشارة رمزية، باليد اليسرى التي أنقذته. واللَّه يُدعى في محتوى الحلم الظاهر كأنما أريد بذلك أن تُستبعد استبعاداً ظاهراً كل فكرة في محرَّم أو مستور. ولقد أعلن اللَّه موسى بأمرين: أنه سوف يرى الأرض الموعودة وأنه لن يدخلها، فإذا الحلم يصوِّر تحقق النبوءة تصويراً واضحاً (الإشراف على التلال والغابات) ويسكت عن الثانية البالغة نهاية مبالغ الألم. وأما الماء فلا يظهر، وأغلب الظن أنه قد ضحى به من أجل المراجعة الثانوية التي جهدت جهداً موفقاً في أن تدمج هذا المشهد وسابقه في كلٍ واحدٍ، وبدل الماء تسقط الصخرة نفسها.

«ولنا أن نتوقع عند انتهاء الاستمناء الطفلي . وهو الذي ينطوي على فكرة المحظور . أن يرغب الطفل في ألا يعلم أولو الأمر في محيطه شيئاً مما صنع. وهذه الرغبة تصوَّر في الحلم بضدها، بالرغبة في أن يخطر الملك على الفور بما حدث. وهذا العكس يتَّسق اتساقاً حسناً طبعياً مع تخييل الانتصار المتضمن في طبقة أفكار الحلم السطحية وفي جزء من محتوى الحلم الظاهر. وكثيراً ما يكون الحلم بالانتصار والغزو . كما هو الشأن في هذا الحلم . غطاء يخفي الرغبة في النجاح في غزو عشقي. وربما كان في بعض ملامح الحلم ما يشير إلى ذلك الاتجاه . كأن تعترض عقبة تقدم الحالم ثم تخلي مكانها لطريق فسيح بعد أن يعمل الحالم سوطه . ولكنها لا توفِّر أساساً كافياً نستطيع أن نستدل منه على أن الحلم قد ضم أفكاراً ورغبات تتجه في هذه الوجهة المحددة. إننا نرى هنا مثالاً تاماً على تشويه حلمي نجح كل النجاح. فكل محرجة قد صيغت صياغة جديدة بحيث لا تنبثق على الإطلاق من خلال الطبقة السطحية التي فُرشت على الحلم كغطاء حامٍ. وبذلك أمكن تجنب كل انطلاق للهيلة. والحلم حالة مثالية لرغبة حققت تحقيقاً ناجحاً دون مخالفة الرقابة، بحيث نفهم أن الحالم قد خرج من مثل هذا الحلم مثلج الصدر، مشدداً».

وأختتم بهذا المثال:

12 . حلم كيميائي

صاحب هذا الحلم شاب كان يبذل طاقته من أجل الإقلاع عن عادة الاستمناء لكي تكون له صلات بالنساء.

تمهيد: كان الحالم في اليوم الذي سبق الحلم قد شرح لأحد الطلبة تفاعل جرينيارد . وهو ذوبان المغنيسيوم في الأثير المطلق النقاء بفعل اليود كعامل حافز. وقبل ذلك بيومين كان هذا التفاعل قد أدى إلى انفجار كان من نتيجته أن احترقت يد أحد الطلبة.

الحلم: 1) عليه أن يحضِّر مركباً من البرومين والفانيل والمغنيسيوم. إنه يرى الجهاز في وضوح شديد ولكنه قد استبدل بالمغنيسيوم شخصه هو. إنه يجد نفسه الآن في حالة عجيبة لا تستقر، ولا ينقطع عن التحدث إلى نفسه قائلاً: «كل هذا على ما يرام، إن الأمور تسير سيراً حسناً، قدماي قد أخذتا بالفعل في الانحلال وركبتاي تليناني». يمد يده بعدئذ ويتحسس قدميه، وفي هذه الأثناء يشد ساقيه من البوتقة (دون أن يدري كيف) ويحدِّث نفسه من جديد قائلاً: «إن ذلك مستحيل، ومع هذا فالعمل يسير سيراً صحيحاً». يستيقظ عندئذ استيقاظاً جزئياً ويعيد الحلم لنفسه لأنه يريد أن يقصه عليّ. إنه يشعر بخوف من حل هذا الحلم ويشعر باهتياج شديد في أثناء غفوته هذه ولا يني يكرر: الفانيل، الفانيل.

2) كان في ضاحية . ينج مع جميع أسرته، وكان عليه أن يكون في الساعة الحادية عشرة ونصف الساعة في شوتنتور[419] ليقابل سيدة معينة. ولكنه لا يستيقظ إلا في الساعة الحادية عشرة ونصف الساعة، فيحدِّث نفسه قائلاً: «لقد فات الوقت، لست تستطيع أن تكون هناك قبل الثانية عشرة ونصف الساعة». وعلى أثر ذلك يرى الأسرة جميعها وقد جلست حول المائدة، ويرى في وضوح خاص أمه والخادم التي تحمل وعاء الحساء. يحدِّث نفسه قائلاً: «لقد بدأنا نأكل، فلست أستطيع الخروج بعد ذلك».

التحليل: إن الحالم لا يشك في أن الجزء الأول من الحلم له أيضاً بعض الصلة بالسيدة التي كان يريد لقاءها (لقد أتاه الحلم في الليلة التي سبقت موعده المنتظر). إنه يعتقد أن الطالب الذي شرح له استجابة جرينيارد شخص ثقيل إلى أبعد حد. وهو يذكر أنه قد قال لهذا الطالب: «لقد أخطأت، فليست هناك دلائل تدل على أن المغنيسيوم قد تأثر». فأجاب الطالب كأن الأمر لا يعنيه في شيء: «حقاً، إنه لخطأ». لا بد أنَّ هذا الطالب يمثله هو لأنه يستخف بالتحليل مثلما يستخف الطالب بالتركيب (الكيميائي). وال- «هو» الذي يجري العملية في الحلم ليس إلا إياي. لا بد أنني أستثقله لقلة مبالاته بالنتيجة.

والمريض من جهة أخرى هو المادة المستخدمة في التحليل (التركيب في الحلم) والأمر إذن يتعلق بنجاح العلاج. وإن الإشارة إلى ساقيه لتذكِّره بحدث من الليلة السابقة: ذلك أنه كان يتلقى درساً في الرقص والتقى بسيدة كان يحرص على غزوها. لقد ضمّها إليه ضماً شديداً حتى أنها

صرخت مرة. فلما أرخى ضغطه أحسَّ منها ضغطاً مقابلاً شديداً على أسفل فخذيه إلى ما فوق الركبتين، في الموضع المذكور في الحلم. وفي هذا الموقف تكون المرأة التي تجري الأمور معها أخيراً على ما يرام هي أيضاً المغنيسيوم الذي في البوتقة. إنه مؤنث بالنسبة إليّ كما هو مذكر بالنسبة إلى المرأة. والأمور تسير سيراً طيباً مع السيدة، وهي إذن تسير سيراً طيباً في العلاج. وأما تحسسه نفسه والأحاسيس التي شعر بها في ركبتيه فتشير إلى الاستمناء، ثم هي تتفق وتعبه المتخلف من اليوم السابق. وقد كان موعده مع السيدة في الحادية عشرة ونصف الساعة حقيقة. وإن رغبته في النوم والمكوث مع موضوعاته الجنسية المنزلية (أي في المداومة على الاستمناء) لتتفق ومقاومته.

أما فيما يتعلق بترديده كلمة «الفانيل» فهو يروي أنه كان دائم الولع بأصول الكلمات المنتهية بالمقطع «يل» لأنها يسيرة الاستخدام غاية اليسر: بنزيل، آستيل... إلخ. وكل هذا لا يفسر شيئاً. ولكني أقترح عليه كلمة شليميل[420] فإذا هو يغرب في الضحك ويقص عليَّ أنه قد قرأ كتاباً لمارسيل بريفو جاء فيه فصل عن: «المبعدين عن الحب»[421] حوى بعض الملاحظات عن «الخائبين»[422]. فلما قرأه حدَّث نفسه قائلاً: تلك حالتي. . ولو أنه تخلف عن موعده، لكان ذلك مثالاً آخر على «خيبته».

ويبدو أن ورود الرموز الجنسية في الأحلام قد لقيَ تأييداً تجريبياً مباشراً. ذلك أن الدكتور شروتّر قد أخذ في عام 1912 . استناداً إلى فكرة أوحاها هـ.. س؟وبودا . ينوِّم بعض الأشخاص تنويماً مغناطيسياً عميقاً، وكان في مقدوره أن يملي عليهم جزءاً كبيراً من أحلامهم بإيحاءات كان يوحي بها إليهم وهم في نومهم. فكان إذا أوحى إلى النائم أن يحلم بجماع سوي أو غير سوي أنفذ المنوَّم هذا الإيحاء مستخدماً الرموز التي عرفناها بالتحليل النفسي بدل المادة الجنسية الصريحة. مثال ذلك أنه أوحى إلى فتاة أن تحلم بجماع جنسي مثلي مع صديقة لها، فظهرت الصديقة في الحلم تحمل حقيبة بالية كُتب عليها: «للسيدات فقط». ويقال إن الحالمة كانت لا تملك أقل معرفة برموز الأحلام وتفاسيرها. ومما يؤسف عليه أننا لن نتمكن من تقدير قيمة هذه الأبحاث الهامة تقديراً صحيحاً نتيجةً لذلك الحادث المحزن، وأعني به انتحار الدكتور شروتر بعد القيام بها بزمن قليل. ولسنا نملك عن هذه الأبحاث سوى دراسة تمهيدية (شروتر، 1912). وقد نشر ج. روفنشتاين كشوفاً مماثلة عام 1923. بيد أن التجارب التي أتاها بتلهايم وهارتمان (1924) تحظى بأهمية خاصة؛ لأن هذين الباحثين لم يلجآ إلى التنويم المغناطيسي. وإنما كان هذان المؤلفان يقصّان قصصاً جنسية مكشوفة على المرضى المصابين بجنون كورساكوف وهم في حالة الهذيان، ثم يلحظون ما يطرأ على هذه القصص من التشويه حين يعيد المرضى روايتها. فوجدا أن الرموز التي عرفناها من تفسير الأحلام كانت تظهر في رواياتهم (صعود السلَّم والطعن وإطلاق النار رموزاً إلى الجماع، والسكاكين ولفائف التبغ رموزاً إلى القضيب). ويعلِّق المؤلفان قيمة خاصة على رمز السلَّم لأنه «ما من رغبة شعورية في التشويه كانت تستطيع أن تبتدع مثل هذا الرمز» كما يلحظان بحق.

والآن بعد أن وزنا قيمة الرمزية في الأحلام، نستطيع أن نعود إلى موضوع الأحلام النمطية الذي تركناه في ص 315. إني أعتقد أننا محقون حين نقسِّم أمثال هذه الأحلام قسمة إجمالية إلى طبقتين: أحلام تملك دائماً ذات المعنى، وأحلام يجب تفسيرها على أنحاء تتباين غاية التباين وإن كان لها محتوى واحد أو متشابه. وقد سبق أن تناولت في شيء من التفصيل أحلام الامتحان بين أحلام الطبقة الأولى.

وتستحق أحلام فوت القطار أن تُدرج في صف أحلام الامتحان. لما بينها وبين هذه من التشابه في الحالة الوجدانية، وإن تفسيرها ليرينا أننا لا نجانب الصواب حين نفعل ذلك. فهي أحلام عزاء تطمئننا عن نوع آخر من الهيلة يتخالجنا في أثناء النوم، هو هيلة الموت؛ فإن «الرحيل» هو أكثر رموز الموت شيوعاً وأحسنها ثبوتاً. فهذه الأحلام تقول مرفهة: «لا تخف، فأنت لن تموت (ترحل)»، مثلما يقول حلم الامتحان مهوِّناً: «لا تخف سوف تسلم من الضر هذه المرة أيضاً». ومرجع الصعوبة في فهم هذين النوعين من الأحلام هو أن شعور الهيلة يرتبط على التحديد بالعبارة عن العزاء.

ولقد خفيَ عليَّ حقبة من الزمن المعنى الذي للأحلام «ذات المنبه السني» . وهي أحلام كثيراً ما كان يجب عليَّ تحليلها عند المرضى . لأن مقاومة بالغة الشدة كانت تحول دائماً . لدهشي . دون تفسيرها.

وأخيراً أثبتت الدلائل في وضوح لا يترك مجالاً للشك أن القوة الدافعة إلى هذه الأحلام عند الذكور لا ترجع إلا إلى النزعات الاستمنائية في زمن المراهقة. وسأحلل حلمين من هذه الأحلام، أحدهما هو في الوقت نفسه حلم طيران. وقد أتى كِلا هذين الحلمين ذات الشخص، وهو شاب ذو نزعات جنسية مثلية مشتدة، ولكنها مكفوفة في الحياة الواقعة:

يشهد عرضاً لأوبرا «فيدليو» وهو جالس في قاعة الأوبرا وبجانبه شخص يستظرفه ويود لو كسب صداقته. يطير فجأة في القاعة حتى نهايتها، ثم يضع يده في فمه ويجذب منه سنَّين.

إن الحالم يصف طيرانه قائلاً: إنه كان كمن «رُميَ» في الهواء. وإذا كان المشهد أوبرا «فيدليو» فالبيت الآتي يطوف بالذهن:

«من ظفر بامرأة رشيقة...»

ولكن الظفر بامرأة ـ ولو كانت أرشق النساء ـ لم يكن بين رغبات الحالم. وإنما الأنسب وهذه الرغبات هو البيتان الآتيان:

«من وفّق إلى تلك الرمية الكبرى:

أن يكون صديقاً لصديق...»[423]

ولقد اشتمل الحلم حقّاً على هذه «الرمية الكبرى»، غير أن ذلك لم يكن يحقق رغبة وحسب، بل كان يخفي كذلك تأملات أليمة للحالم: كم كان عاثر الحظ في مساعيه من أجل الصداقة، كم من مرة «رمى» فيها، إنه ليخشى تكرار هذا المصير مع الشاب الذي يستمتع بمشاهدة «فيدليو» إلى جواره. يتبع ذلك اعتراف يخجل منه الحالم وهو على ما هو عليه من رفاهية الحس: ذلك أنه بعد أن نبذه أحد أصدقائه قد استمنى مرتين متعاقبتين مدفوعاً بشوقه.

وها هو ذا الحلم الآخر: يعالجه بدلي أستاذان جامعيان يعرفهما. يصنع أحدهما شيئاً بقضيبه. إنه يخشى أن تُجرى له عملية. يقرع الآخر فمه بقضيب من الحديد بحيث تسقط منه سن أو سنّان، إنه مقيَّد بأربعة مناديل من الحرير.

إن الشك في أن يكون لهذا الحلم معنى جنسي مثلي يكاد أن يكون ممتنعاً. فمناديل الحرير تعيِّن الحالم بشخص ذي جنسية مثلية يعرفه. والحالم لم يعرف الجماع قط، ولم يعمل قط في الحياة الواقعة على أن تكون له صلة برجل، وكان يتمثل الرابطة الجنسية على غرار استمناء المراهقة الذي كان يألفه يوماً ما.

وأعتقد أن التعديلات المتعددة التي تطرأ على الحلم النمطي ذي المنبه السني (كأن ينتزع سن الحالم شخص آخر، إلخ. ـ يمكن أيضاً فهمها في ضوء التفسير الذي قدمناه[424]. قد ندهش إذ نرى «المنبه السني» وقد صار له هذا المعنى، ولكنني أنبِّه هنا إلى هذا النقل الشائع من أسفل الجسم إلى أعلاه، هذا النقل الذي يسخَّر لخدمة الكبت والذي يمكن لشتى الأفكار والمقاصد الهستيرية التي كان يجب ـ لولا الكبت ـ أن تدور حول أعضاء التناسل سبل التحقق في أجزاء أخرى من الجسم على الأقل، أجزاء لا اعتراض عليها. ومن الأمثلة على هذا النقل أن يُستبدل الوجه بأعضاء التناسل في رمزية التفكير اللاشعوري. والعرف اللغوي يحذو هذا الحذو حين يماثل بين ال Hinterbacken)[425] وبين الخدين، وحين يوازن بين شفرتي العورة عند المرأة وبين الشفتين اللتين تضمان فتحة الفم. والمقارنات بين الأنف والقضيب أمر شائع، ويزيد الشبه اكتمالاً وجود الشعر في كل منهما. والعضو الوحيد الذي يخرجه تركيبه عن كل مقارنة ممكنة هو السن، ولكن هذا الالتقاء على التحديد بين التشابه والاختلاف هو الذي يؤهل الأسنان لخدمة المقاصد التصويرية حين تشتد وطأة الكبت الجنسي.

ولست أدَّعي أننا حين نفسِّر أحلام المنبه السني بكونها أحلام استمناء ـ وهو أمر لا أستطيع التشكك في صحته ـ نأتي بتفسير يخلو كل الخلو من الغموض[426]، وإنما أعطي القدر الذي أستطيع من الإيضاح، فأما الباقي فلا مناص من تركه على علّاته. بيد أنني لا أجد غنى عن الإشارة إلى مقارنة أخرى يتضمنها العرف اللغوي؛ ففي بلدنا يشيع تعبير غير مهذب يطلَق على فعل الاستمناء هو: «شدَّ [أو انتزع] واحداً إلى خارج» أو «شدَّ واحداً إلى أسفل»[427]. ولست أدري شيئاً عن منشأ هذين التعبيرين أو عن التخييل الذي أقيما عليه، ولكن الأول منهما قد يناسب الحديث عن «السن» كل المناسبة.

وإذ كان الحلم بانتزاع السن أو سقوطه يعني موت أحد الأقرباء في زعم الاعتقاد الشعبي، وكان التحليل النفسي لا يقر مثل هذا التفسير اللهم إلا بالمعنى المازح الذي أومأت إليه من قبل على أكثر تقدير، فإني أسوق هنا «حلماً ذا منبه سني» مدَّني به أوتو رانك:

«بعث إليّ زميل بدأ يهتم منذ عهد قريب بمشكلات تفسير الأحلام بالمذكرة الآتية في موضوع الأحلام ذات المنبه السني:

حلمت منذ زمن قريب بأنني في عيادة طبيب الأسنان الذي كان يحفر سناً خلفية في الفك الأسفل. وأعمل الطبيب الحفر بقوة حتى لم تعد في السن جدوى ثم أمسكها بمقبض وانتزعها في سهولة خلت من الجهد إلى حد أدهشني. يخبرني الطبيب ألا أكترث لذلك؛ فهذه في الحق ليست السن التي يعالجها. ثم وضع السن على مائدة حيث انقسمت (وقد بدا لي الآن أنها ناب علوي) طبقات متعددة. نهضت من المقعد واقتربت من المائدة مستطلعاً، ثم سألت الطبيب سؤالاً طبياً يهمني. فجعل الطبيب ـ بينما كان يفصل أجزاء السن التي لاحت لي بالغة مبلغاً عجيباً من البياض ويدقها بعدة من عدده (يحيلها إلى رماد) ـ جعل يشرح لي أن للسن علاقة بالمراهقة وأن الأسنان لا تخرج بمثل هذه السهولة إلا قبل المراهقة وأن العامل الحاسم في حالة النساء هو أن يولد طفل».

وعندئذ لاحظت (وأنا نصف نائم فيما أعتقد) أن الحلم قد اصطُحب بإنزال، ولكنني لم أعرف بأي جزء من أجزاء الحلم ارتبط هذا الإنزال ـ وإن لاح لي أن الأرجح هو أن يكون حدوثه قد سبق خلع السن.

ثم بعد ذلك حلمت من جديد بحادثة لم أعد أذكرها ولكنها انتهت على هذا النحو: أترك سترتي وقبعتي في مكان ما (ربما كان حجرة نزع

الثياب بعيادة الطبيب) آملاً أن يتبعني البعض بهما وأسرع ولست أرتدي غير معطفي إلى اللحاق بالقطار الذي كان آخذاً في الرحيل. أفلح في اللحظة الأخيرة في القفز إلى عربة خلفية حيث أجد أحد الناس واقفاً. ولكنني لا أتمكن من شق طريقي إلى داخل العربة بل أراني مضطراً إلى السفر في موقف غير مريح أحاول التخلص منه وأفلح في ذلك آخر الأمر. ندخل في نفق كبير ويأتي قطاران في الاتجاه المقابل لنا ثم ينفذان من خلال قطارنا. كما لو كان قطارنا هو النفق. ألقي النظر إلى داخل إحدى العربات كما لو كنت ألقيه من خارجها.

إن المادة اللازمة لتفسير هذا الحلم تمدّنا بها الخبرات والأفكار الآتية المستمدة من اليوم السابق:

1) كنت حقيقة آخذاً في علاج أسناني منذ زمن قريب وكنت حين جاء هذا الحلم أعاني ألماً مستمرّاً في سن بالفك الأسفل هي التي كانت تحفّ في الحلم، وكان الطبيب قد حفرها كذلك في الواقع وقضى في حفرها زمناً أطول مما أحببت. وكنت قد ذهبت في صبيحة اليوم الذي سبق الحلم إلى طبيب الأسنان من جرّاء هذا الألم، فأوحى إليَّ أن من الضروري أن تُخلع سن أخرى في ذات الفك قائلاً: إنها قد تكون السبب في هذا الألم. وكانت هذه السن الأخرى «ضرس عقل» كان ينبت في ذلك الحين. ولقد أثرت بهذه المناسبة سؤالاً يتعلق بالضمير المهني للطبيب.

2) اضطررت إلى أن أعتذر في عصر ذلك اليوم إلى إحدى السيدات عما كنت عليه من سوء المزاج من جراء هذا الألم. فأخبرتني السيدة عندئذ أنها تخشى أن تضطر إلى أن تخلع ضرساً لها كان طربوشه يتفتت كل التفتت. إنها تظن أن خلع الأسنان يزيد ألماً وخطراً في أسنان العين[428] بخاصّة، وإن يكن بعض معارفها قد أكّد لها من جهة أخرى أن أسنان الفك الأعلى ـ مثل سنها ـ أسهل خلعاً. وروى لها هذا الشخص أيضاً كيف كان الخطأ مرة سبباً في أن تُخلع له سن سليمة بعد التخدير، فزاد ذلك ارتياعها من العملية المحتومة. ثم بعد ذلك سألتني هل أسنان العين ضروس أو أنياب، فأشرت إلى ما تحويه هذه المعتقدات جميعها من عنصر خرافي، وإن أكّدت لها في الوقت عينه نواة الصدق المحتواة في بعض الآراء الشعبية. وعندئذ استطاعت أن تروي لي ما تظنه معتقداً شعبياً قديماً جداً واسع الانتشار: إذا أصاب حاملاً ألم في أسنانها جاء المولود ولداً.

3) وأثار جوابها هذا اهتمامي نظراً لما يقوله فرويد في «تفسير الأحلام»، عن الأحلام النمطية ذات المنبه السني باعتبارها بدائل من الاستمنا الطفلي؛ إذ أن هذا المعتقد الشعبي يقيم أيضاً علاقة بين السن وبين أعضاء التناسل المذكَّرة (الولد). وعلى ذلك أخذت في مساء ذات اليوم أقرأ الفقرة المتعلقة بهذا الموضوع من «تفسير الأحلام»، فوجدت القضايا الآتية التي يسهل علينا أن نرى تأثيرها في حلمي مثل الخبرتين السابقتين: يتحدث فرويد عن الأحلام ذات المنبه السني قائلاً: إن القوة الدافعة إلى هذه الأحلام عند الذكور لا ترجع إلا إلى النزعات الاستمنائية في زمن المراهقة [ص 415]. ثم يقول: وأعتقد أن التعديلات المتعددة التي تطرأ على الحلم النمطي ذي المنبه السني ـ كأن ينتزع سن الحالم شخص آخر، إلخ. ـ يمكن أيضاً فهمها في ضوء التفسير الذي قدمناه. وقد ندهش إذ نرى المنبه السني وقد صار له هذا المعنى، ولكنني أنبّه هنا إلى هذا النقل الشائع من أسفل الجسم إلى أعلاه (في هذا الحلم من الفك الأسفل إلى الأعلى)، هذا النقل الذي يسخَّر لخدمة الكبت والذي يمكن لشتى الأفكار والمقاصد الهستيرية التي كان يجب ـ لولا الكبت ـ أن تدور حول أعضاء التناسل سبل التحقُّق في أجزاء أخرى من الجسم على الأقل ـ أجزاء لا اعتراض عليها [ص 416]. ثم يقول: بيد أنني لا أجد غنى عن الإشارة إلى مقارنة أخرى يتضمنها العرف اللغوي؛ ففي بلدنا يشيع تعبير لغوي غير مهذب يُطلق على فعل الاستمناء، هو: شدَّ واحد إلى خارج أو شد واحداً إلى أسفل [ص 417]. ولقد كنت أعرف هذا التعبير في صباي وأعرف دلالته على الاستمناء، ومن هنا لن يصعب على الخبير بتفسير الأحلام أن يجد طريقه إلى المادة الطفلية التي تكمن وراء هذا الحلم. ولست أضيف إلا أن السهولة التي خرج بها السن التي تبيَّن بعد خلعها أنها من القواطع قد ذكرتني بمناسبة من طفولتي فيها شددت بنفسي ـ دون عناء أو ألم ـ سناً علوية واهية في مقدم الفم. ولقد وقع هذا الحدث الذي ما زلت أذكره بحذافيره أوضح الذكر في ذات الفترة التي ترجع إليها محاولاتي الأولى في الاستمناء (ذكرى ستارية).

وإن إشارة فرويد إلى رأي يونج في أن الأحلام ذات المنبه السني تحمل عند النساء المعنى الذي لأحلام الوضع (تفسير الأحلام، ص 417، في الهامش)، مع الاعتقاد الشعبي بمغزى ألم الأسنان عند الحامل ـ قد بعثا على المقابلة في الحلم بين المعنى المؤنث [الوضع] والمعنى المذكر (المراهقة). وأذكر في هذا الصدد حلماً سبق ذلك، جاءني عقب زيارة إلى طبيب الأسنان، وفيه حلمت بسقوط الطرابيش الذهبية التي لم يكد يفرغ تثبيتها، وأزعجني ذلك في الحلم إزعاجاً كبيراً؛ فقد كنت تورطت في نفقات كثيرة لم أكن تغلبت عليها بعد إذ ذاك. وإني لأفهم هذا الحلم الآن (بالإشارة إلى خبرة معينة مررت بها) من حيث هو مفاضلة بين المزايا المادية للاستمناء وبين الحب المتّجه إلى موضوع، فهذا الحب أشد ضرراً من الوجهة الاقتصادية في كل صورة من صوره (الطرابيش الذهبية)[429]. وأعتقد أن ملاحظة السيدة على معنى ألم الأسنان عند الحوامل قد أيقظت عندي هذه الخواطر من جديد.

ذلك تفسير زميلي، وهو تفسير واضح بذاته ولا أظن أننا نعترض عليه. ولست أجد ما أضيفه إليه سوى إشارة إلى المعنى المحتمل للجزء الثاني من الحلم. ذلك أني أعتقد أن هذا الجزء يصوِّر انتقال الحالم من الاستمناء إلى الجماع الجنسي انتقالاً يبدو محفوفاً بالصعوبات (النفق الذي تدخل فيه القطارات وتخرج منه في اتجاهات مختلفة). كما يصوِّر مخاطر هذا الجماع (الحمل والمعطف [أنظر ص 229]). وأما واسطة الانتقال إلى هذا الجزء الثاني من الحلم فكانت الجسر اللغوي الآتي: Zahn-ziehen (Zug) Zahn-reissen (reisen)[430].

ومن ناحية أخرى يلوح لي هذا المثال ذا أهمية نظرية من وجهتين: فهو أولاً يشهد بصحة ما اكتشفه فرويد من أن الإنزال في الحلم يصحب انتزاع السن. ونحن مضطرون ـ مهما كانت الصورة التي يظهر فيها الإمناء ـ إلى أن نعدّه إشباعاً استمنائياً يتم بغير تنبيه ميكانيكي. أضف إلى ذلك أن الإشباع الإمنائي لم يتحقق في هذه الحالة ـ كما هو الشأن عادة ـ بإزاء موضوع من الموضوعات، ولو كان موضوعاً متخيلاً، بل كان ـ إن جاز التعبير ـ إشباعاً لا موضوع له، كان يحمل طابع العشق الذاتي صرفاً، أو هو على الأكثر كان يبدي أثراً لا يعتدّ به من الجنسية المثلية (طبيب الأسنان).

وأما النقطة الثانية التي تبدو لي خليقة بأن نلح عليها فهي الآتية: قد نقول: «إنه لا حاجة بنا إلى أن نرى في هذا الحلم تأييداً لوجهة نظر فرويد؛ لأن أحداث اليوم السابق تكفي وحدها في جعل محتوى الحلم مفهوماً، فزيارة الحالم إلى طبيب الأسنان وحديثه مع السيدة ثم قراءته «تفسير الأحلام» تفسِّر كيف انتهى به الأمر إلى إحداث هذا الحلم تفسيراً كافياً، وبخاصة أن نومه في تلك الليلة كان نوماً مضطرباً لألم أسنانه، بل إن هذه الأحداث تفسِّر ـ إذا أردنا ـ كيف وضع الحلم حداً للألم الذي كان يزعج النوم بفكرة التخلص من السن الموجعة مع إغراق إحساس الألم الذي يخشاه الحالم بالليبيدو. ولكن مهما كان تسليمنا بكل أولئك فمحال أن نذهب جادين إلى أن قراءة شروح فرويد كانت تكفي وحدها في أن تربط عند الحالم بين خلع السن وبين الاستمناء، بل هي ما كانت تكفي في تحريك هذا الرباط إلى العمل لو لم يكن ذلك الرباط قد سبق له الرسوخ منذ زمن طويل، كما يسلِّم به الحالم نفسه (في جملة: انتزع واحداً إلى الخارج). ولعل الذي حرّك هذا الارتباط لم يكن حديث الحالم مع السيدة وحسب، بل ملابسة ثانوية ذكرها الحالم من بعد: ذلك أن الحالم حين قرأ «تفسير الأحلام» قد وجد ـ لأسباب مفهومة ـ بعض الغضاضة في تصديق هذا المعنى النمطي للأحلام ذات المنبه السني. وشعر بالحاجة إلى أن يعرف هل يصدق هذا المعنى على جميع الأحلام التي من هذا الطراز. فكان أن جاءه هذا الحلم يؤيد له أن الأمر كذلك ـ فيما يتعلق به على الأقل ـ ويريه بهذا عينه لماذا كان تشككه أمراً محتوماً. فالحلم من هذه الناحية أيضاً يحقق رغبة، هي الرغبة في أن يقتنع بمدى انطباق رأي فرويد وبصحته».

وأما المجموعة الثانية من الأحلام النمطية فتشمل الأحلام التي يطير فيها الحالم أو يموج في الهواء أو يسقط أو يعوم، إلخ. فما معنى هذه الأحلام؟ إنَّ من المستحيل أن نجيب عن هذا السؤال بجواب عام؛ فهذه الأحلام ـ كما سنرى ـ تعني شيئاً مختلفاً في كل حالة، ومادة الإحساسات المحتواة فيها هي وحدها التي تنشأ دائماً من ذات المصادر.

والدروس التي يتلقاها المرء من التحليلات النفسية تلجئه إلى تلك النتيجة. إن هذه الأحلام كذلك تعيد انطباعات من الطفولة، أو هي تتعلق على التحديد بألعاب حركية تجتذب الأطفال اجتذاباً فائقاً. فمن هو هذا العم الذي لم يعن طفلاً على الطيران بأن يهرول به باسط الذراعين عبر الغرفة، أو لم يتخذ من السقوط مادة لملاعبته، فيجلسه على ركبته ثم يمد ساقه فجأة أو فيرفعه عالياً ثم يهيىء إليه بحركة مفاجئة أنه يتخلى عنه. والأطفال حينئذ يصيحون طرباً ولا يكلون من استعادة هذه الألعاب، وبخاصة إن احتوت على ما يحدث بعض الخوف أو الدوار. وإنهم ليستعيدونها في أحلامهم بعد أن تمضي بهم السنون، سوى أنهم يحذفون من الحلم اليد التي تمسك بهم بحيث يبدون اليوم كمن يطيرون أو يسقطون أحراراً. وولع الأطفال بأمثال هذه الألعاب ـ كولعهم بالأراجيح بأنواعها ـ أمر معروف. فإذا رأوا في «السيرك» بعض الأفانين البهلوانية جدّد ذلك عندهم ذكرى هذه الألعاب. وقد لا تخرج النوبات الهستيرية عند الصبية عن أن تكون استحضاراً يتأدَّى في مهارة بالغة لأمثال هذه الأفانين. وليس من النادر أن تنبِّه هذه الألعاب الحركية ـ وإن كانت بريئة في ذاتها ـ مشاعر جنسية. وإذا جاز لي أن أستخدم تعبيراً دارجاً اعتدنا أن نطلقه على هذا النشاط بكافته قلت: إن «هيجان» الأطفال هو ما يستعاد في أحلام الطيران والسقوط والتأرجح وما شاكلها، استعادة تنقلب في خلالها اللذة إلى هيلة. ولكن هياج الأطفال كثيراً ما ينتهي في الواقع كذلك بالشجار وبالعويل كما تعرفه كل أم.

وأنا إذن أملك أسباباً طيبة أستبعد على أساسها النظرية القائلة: إن أحاسيسنا اللمسية في أثناء النوم وكذلك الإحساس بحركة الرئتين وما أشبه، هي التي تبعث على أحلام الطيران والسقوط. بل في رأيي أن هذه الأحاسيس ذاتها تُستحضر باعتبارها جزءاً من مقومات الذكرى التي يرتد الحلم إليها، أي أن هذه الأحاسيس جزء من محتوى الحلم وليست مصادر له[431].

هذه المادة من الإحساسات المركَّبة المتماثلة نوعاً المتفقة مصدراً تُستخدم الآن في تصوير أفكار حلمية من كل ضرب ممكن. فأحلام الطيران والطواف في الهواء ـ وهي أحلام يغلب عليها عادة طابع اللذة ـ تقتضي تفسيرات متنوعة غاية التنوُّع، خاصة كل الخصوص عند بعض الناس، ثم ذات طابع نمطي عند البعض الآخر. فهكذا يتفق أن تحلم إحدى مريضاتي بأنها تسير على ارتفاع معيَّن فوق الطريق دون أن تمس قدماها الأرض، وكانت هذه المريضة قصيرة جداً، وكانت تخشى العدوى من كل صلة بالناس؛ فحلمها هذا يحقق لها رغبتين إذ يرفع قدمها دون الأرض وإذ يُصَعِّد رأسها إلى طبقة أعلى من الهواء ـ هذا بينما تعرب أحلام الطيران عند بعض الحالمات عن ودّهن: «لو كنت طائراً صغيراً!» وبينما تصير أخريات ملائكة في الليل لأنهنّ قد حرمن من أن يدعَون كذلك بالنهار. وإن الصلة الوثيقة بين الطيران وبين فكرة الطير تجعلنا نفهم كيف صار لأحلام الطيران عند الرجال معنى حسي غليظ في غالب الأحيان[432]. ولن يدهشنا أن نسمع أن هذا الحالم أو ذاك كان شديد الفخر بقدرته على الطيران.

ولقد أعرب الدكتور پول فيدرن (من فيينا) عن رأي جذاب مؤداه أن جزءاً كبيراً من أحلام الطيران هو أحلام انتصاب؛ لأن ظاهرة الانتصاب ـ

تلك الظاهرة العجيبة التي شغل بها الخيال الإنساني من غير انقطاع . لا يمكن إلا أن تسترعي الانتباه لما يبدو فيها من إبطال لقوة الجاذبية (أنظر بهذه المناسبة القضيب المجنَّح عند الأقدمين).

وإنه لأمر خليق بالانتباه أن نجد باحثاً تجريبياً، متزناً، صدوفاً عن كل ما هو تفسير، مثل موري فولد، يؤيد التفسير العشقي لأحلام الطيران أو التأرجح (فولد، 1910 . 1912، جزء 2، ص 791). فهو يصف الدافع العشقي بقوله: «إنه أقوى الدوافع إلى أحلام الطواف في الهواء» ويجذب الانتباه إلى إحساس الذبذبة الجسمية الشديدة التي تصحب أمثال هذه الأحلام ويشير إلى كثرة اقترانها بالانتصاب أو الإنزال.

فأما أحلام السقوط فيغلب أن تتّسم بطابع الهيلة. ولسنا نجد صعوبة في تفسيرها عند النساء؛ فهؤلاء يكدن يسلّمن دائماً بأن الاستخدام الرمزي للسقوط يصف الاستسلام لدافع عشقي. ونحن لم نحصر بعد المصادر الطفلية لأحلام السقوط؛ فلا يكاد يكون ثمة طفل إلا وقع في مناسبة أو أخرى ثم أُقيل من عثرته ودلّل، فإن كان وقوعه من مهده في أثناء الليل حملته المعنية بأمره إلى سريرها.

وأما الأشخاص الذين يحلمون كثيراً بالسباحة ويشقُّون الموج في انشراح عظيم، فهم في العادة ممن كانوا يبللون فراشهم. وهم اليوم يعيدون في أحلامهم لذة تعلموا الإقلاع عنها منذ زمن طويل. وسنعلم قريباً من أكثر من مثال أي شيء يسهل استخدام أحلام السباحة في تصويره [ص 428].

وأما أحلام الحريق فيؤيِّد تفسيرها هذا القانون التربوي الذي يحرِّم على الأطفال «أن يلعبوا بالنار» لكيلا يبللوا فراشهم في الليل. ذلك أن هذه الأحلام أيضاً يكمن وراءها أثر ذكروي عن بلل الفراش في فترة الطفولة. ولقد عرضت في مقالي «طرف من تحليل هستيريا» (1905)[433] تحليلاً وتركيباً كاملين لحلم حريق من هذا القبيل وذلك من حيث صلة هذا الحلم بتاريخ الحالمة، كما بيَّنت أي دوافع سن الرشد يمكن استخدام هذه المادة الطفلية في تصويرها.

وفي مقدورنا أن نذكر عدداً وفيراً من الأحلام «النمطية» إذا كنا نعني بهذا الحد أن ذات المحتوى الظاهر يكثر وروده عند حالمين مختلفين. نستطيع أن نذكر مثلاً الأحلام التي يسير فيها المرء في أزقة ضيقة أو يمشي عبر حجرات متعاقبة، أو أحلام سرَّاق الليل الذين يحتاط منهم الأشخاص العصبيون حتى قبل أن يذهبوا إلى الفراش، ثم هناك الأحلام التي يطاردك فيها وحش كاسر (أو ثور أو حصان) وتلك التي يهدِّد فيها الحالم بسكين أو خنجر أو رمح . والنوعان الأخيران من الأحلام يميِّزان المحتوى الظاهر في أحلام المصابين بعصاب الهيلة . وكثير غيرها. ولا شك في أن بحثاً يندب لهذه المادة خاصة سوف يكون بحثاً مجزياً إلى أبعد مدى، ولكنني . بدل ذلك . أدلي بملاحظتين وإن كانتا لا تنطبقان على الأحلام النمطية انطباقاً مانعاً.

كلما زاد المرء اشتغالاً بحل مشكلة الأحلام زاد استعداده للتسليم بأن غالبية أحلام الراشدين تعالج مادة جنسية وتعرب عن رغبات عشقية. وأولئك الذين يحللون الأحلام فعلاً . أي يذهبون من محتواها الظاهر إلى أفكارها الكامنة . هم وحدهم الذين يستطيعون أن يقطعوا برأي في هذا الصدد، ويعجز عن ذلك أبداً كل من قنع بتدوين المحتوى الظاهر (مثل ناكُه في كتاباته عن الأحلام الجنسية). ولنقُل دون إمهال: إن هذه الحقيقة ليست بالأمر الذي يدهشنا، بل هي تتسق والمبادىء التي يستند إليها تعليلنا للأحلام أكمل اتساق؛ فما من غريزة لاقت منذ الطفولة مثل الكبت الذي لاقته الغريزة الجنسية في مقوماتها المتعددة، وما من غريزة غيرها خلَّفت وراءها رغبات على هذا المدار من الكثرة والقوة تعمل اليوم على إحداث الحلم في حالة النوم. فواجبنا عند تفسير الحلم هو ألا ننسى أبداً هذه القيمة التي للمركَّبات الجنسية، وإن وجب كذلك بالطبع أن نتجنب المغالاة إلى الحد الذي يمنع غيرها.

ونستطيع أن نقول عن أحلام كثيرة . إذا عُنينا بتفسيرها .: إنها أحلام تتسم بطابع الجنسية الثنائية؛ لأنها تسلِّم من غير جدال إلى تفسير مضاعف تتحقق فيه للحالم رغبات جنسية مثلية، أي رغبات تخالف نشاطه الجنسي السوي. ولكن أن نذهب إلى أن جميع الأحلام يجب تفسيرها على هذا النحو . مثلما يصنع شتيكل (1911) وآدلر (1910) . ذلك ما يبدو لي تعميماً مجرداً من البرهان ومن الرجوح على السواء، تعميماً لا أراني مستعداً لأن أنتصر له. ولست أدري بخاصة كيف أنكر تلك الحقيقة الواقعة، وأعني بها أن هناك أحلاماً تلبّي حاجات غير الحاجات العشقية . وإن أخذنا الكلمة بأوسع معانيها .: أحلام جوع وعطش، أحلام سهولة، إلخ. ثم القضايا التي من قبيل: «يكمن طيف الموت وراء كل حلم» (شتيكل) أو أن في كل حلم «انتقالاً من المؤنث إلى المذكر» (آدلر) . تلك أيضاً أقوال تبدو لي بعيدة كل البعد عما يجيز لنا تفسير الحلم الأخذ به أخذاً مشروعاً . وإن القول بأن جميع الأحلام تستلزم تفسيراً جنسيّاً . وهو القول الذي ثارت عليه محاجة لا تكل . لقضية غريبة عن «تفسير الأحلام»؛ فأنت لا تجده في طبعات الكتاب السبع، ثم إنه يتناقض وسائر محتواه تناقضاً ظاهراً.

وقد سبق أن بيَّنا أن بعض الأحلام التي ظاهرها السذاجة قد تضم رغبات غليظة، وكان يسعنا أن نؤيد ذلك بأمثلة جديدة كثيرة. ولكن هناك كذلك أحلاماً ظاهرها اللامبالاة، لا يسترعيك منها اتجاه ما أو شيء بعينه، ثم إذا هي ترتد عند التحليل إلى رغبات جنسية لا شك فيها، تكون في أحيان كثيرة من نوع غير متوقع. من ذا الذي كان يستطيع . مثلاً . أن يحذر وجود نزعة جنسية في الحلم الآتي قبل تفسيره؟ لقد رواه حالمه على هذا

النحو: قصران عظيمان قام بينهما . إلى الخلف بعض الشيء . منزل صغير مغلق الباب. تقودني زوجي في جزء من الطريق يؤدي إلى المنزل الصغير ثم تدفع الباب فأدلف في سرعة ويسر داخل فناء يميل بزاوية صاعدة.

ومع هذا فإنَّ من له ولو قليل دراية بتفسير الأحلام سوف يذكر على الفور أن النفاذ في أماكن ضيقة وفتح الأبواب المغلقة بين أكثر الرموز الجنسية شيوعاً، وسوف يدرك في غير عناء أن هذا الحلم يصور محاولة في الجماع من الخلف (بين الردفين العظيمين في جسم المرأة). والممر الضيق الصاعد بزاوية هو المهبل بالطبع. وأما المساعدة التي ينسبها الحالم إلى زوجه فلا تفسير لها سوى أن مراعاة الزوجة هي المانع الأوحد الذي يحول بين الحالم وبين الإقدام على مثل هذه المحاولات في الحياة الواقعة. وها نحن أولاء نعلم أن خادماً صغيرة السن قد جاءت يوم الحلم منزل الحالم وأنها حسنت في عينيه كثيراً، وأنه قد خيَّل إليه أنها لن تمانع محاولة من هذا القبيل إلا قليلاً. والمنزل الصغير بين القصرين العظيمين أثر ذكروي من [قلعة] هاردشين في پراج، وهو بذلك يلمّح إلى ذات الفتاة؛ لأن پراج مدينتها.

وإذا أكَّدت لأحد مرضاي كثرة وقوع الأحلام الأوديبية التي يتصل فيها الحالم بأمّه بصلة جنسية، غلب أن يكون جوابه: لا أذكر أني رأيت مثل هذا الحلم قط. ولكن تنبعث على أثر ذلك ذكرى حلم ممحو، لا يستلفت نظراً، جاء الحالم مراراً، وعندئذ يبيِّن التحليل أن ذلك في الحقيقة حلم له ذات المحتوى، أي حلم أوديبي. وأستطيع أن أؤكد أن الأحلام المقنَّعة التي تدور حول الصلة بالأم تفوق السافرة في كثرتها مرات ومرات[434].

وهناك أحلام بمشاهد من الطبيعة أو بمحال يكون أظهر ما فيها يقين الحالم . وهو ما زال بحلمه . بأنه قد كان بذلك المكان من قبل. ولكن هذه «الرؤية السابقة»[435] لها في الحلم معناها الخاص: فهذا المكان يعني دائماً أعضاء التناسل عند الأم، والواقع أنه ليس ثمة مكان آخر يستطيع المرء أن يقول عنه بمثل هذه الثقة: لقد كنت فيه من قبل. ومرة واحدة هي التي حيَّرني فيها مريض بعصاب قهري إذ قال: إنه حلم حلماً رأى فيه أنه يزور منزلاً كان قد وُجد فيه مرتين من قبل. ولكن هذا المريض على التحديد كان قد ذكر لي منذ زمن بعيد قصة ترجع إلى سنته السادسة، حاصلها أنه شارك أمه سريرها مرة، فأساء انتهاز الفرصة بأن دسَّ إصبعه في عضوها وهي نائمة.

وهناك طائفة كبيرة من الأحلام يغلب أن تصطحب بالهيلة وأن يكون محتواها المرور بأماكن ضيقة أو المكوث في الماء، تقوم على تخييلات تدور حول الحياة الجنينية والإقامة في رحم الأم والولادة. والحلم الذي يلي كان حلماً لشاب انتهز في مخيَّلته فرصة الحياة الجنينية لمشاهدة جماع بين والديه.

«إنه في حفرة عميقة بها شباك كما في نفق سمرينج[436]. يرى أول الأمر من النافذة مشهداً مقفراً، ولكنه يتخيّل صورة تناسب المكان، ولا تلبث الصورة أن تتحقق دفعة واحدة وأن تملأ الفضاء. إن الصورة تمثل حقلاً خُرث حرثاً عميقاً بآلة من الآلات، وكان الهواء العليل مع فكرة العمل الشاق التي تصحب المنظر ومع المدر الأزرق الأسود، كان كل أولئك مما يحدث في النفس تأثيراً جميلاً. يستمر بعد ذلك فيرى كتاباً في التربية مفتوحة أمامه... ويدهش لكل هذه الأهمية التي تعلَّق على المشاعر الجنسية (للأطفال) ويذهب به ذلك إلى التفكير في».

وها هو ذا حلم بديع لإحدى المريضات كان يخدم هدفاً بعينه في العلاج: إنها في مصيفها على شاطىء بحيرة. تقفز إلى الماء في ذات البقعة التي كان ضوء القمر الشاحب قد انعكس فيها على صفحة الماء.

إن الأحلام التي من هذا القبيل أحلام ولادة. ونصل إلى تفسيرها بقلب الحدث الذي يرد في الحلم الظاهر، وهكذا يكون لنا «خروج من الماء» . أي ولادة . بدل «القفز فيه»[437]. ونستطيع أن نعرف المكان الذي يخرج منه الإنسان إذا نحن فكَّرنا في الاستخدام الفكه لكلمة la lune [القمر] في اللغة الفرنسية [بمعنى مؤخر الجسم] فالقمر الشاحب هو . إذن . المؤخر الأبيض الذي يبادر الطفل فيخمّن أنه قد خرج منه. ولكن ما معنى أن ترغب الحالمة في «أن تولد» في مصيفها؟ أسألها ذلك فتجيب من غير تردد: ألم أكن بالعلاج كمن ولدت من جديد ؟ وعلى ذلك فالحلم دعوة إلى متابعة علاجها في ذلك المصيف، أي إلى عيادتها هناك. وربما كان الحلم يحوي كذلك إشارة حيية إلى رغبة المريضة في أن تكون هي نفسها أماً[438].

وأنقل من مقال لجونز (1910ب) حلماً آخر من أحلام الولادة مع تفسيره: «كانت تقف على شاطىء البحر وهي ترقب طفلاً هيىء إليها أنه ولدها بينما كان يلعب في الماء. وظل الولد يلعب حتى غمره الماء، فلم تعد ترى إلا رأسه وهو يقب ويغطس قريباً من سطح الماء. وعندئذ تغيَّر المنظر إلى قاعة مزدحمة في فندق. يتركها زوجها فتطرق حديثاً مع شخص غريب.

«يتبيَّن عند التحليل أن الجزء الثاني من هذا الحلم إنما يصور رغبة الحالمة في الفرار من زوجها والأخذ في علاقة وثيقة بشخص ثالث... وأما الجزء الأول فتخييل ولادة مكشوف؛ فمن المألوف في الأحلام كما في الأساطير أن يصوّر الخروج من مياه الرحم من طريق القلب . في صورة الدخول في الماء، ومولد أدونيس وأوزوريس وموسى وباكوس، كل هذه . والكثير غيرها . أمثلة معروفة على ذلك. وتذكرها حركة الطفل وهو يطفو فوق الماء ويغطس تحته بما عهدته من حركات الجنين في بطنها أثناء حملها الوحيد. ويذهب بها تفكيرها في الطفل وهو ينزل في الماء إلى حلم يقظة ترى فيه نفسها وهي تنشل الطفل من الماء وتحمله إلى محضنة حيث تغسله وتكسوه ثم تأخذه إلى دارها».

«وهكذا كان النصف الثاني من الحلم يصوّر أفكاراً خاصة بالفرار تتصل بالنصف الأول من أفكار الحلم الكامنة، ويوافق النصف الأول من الحلم المحتوى الكامن لنصفه الثاني: تخييل الولادة. ثم كل نصف من نصفي الحلم ينطوي على قلب آخر في الترتيب الزمني إلى جانب القلب الذي ذكرناه: ففي النصف الأول من الحلم ينزل الطفل في الماء ثم تطفو رأسه وتغطس، وأما في أفكار الحلم الكامنة فيتحرك الطفل أولاً ثم يغادر الماء (قلب مزدوج)، وفي النصف الثاني من الحلم يتركها زوجها، بينما في أفكار الحلم الكامنة تترك هي زوجها» (عن ترجمة ألمانية بقلم أوتو رانك).

ويروي أبراهام حلم ولادة آخر، أتى امرأة شابة كانت تنتظر وضعها الأول. في هذا الحلم نرى مجرى يجري تحت الأرض من أرض حجرتها إلى الماء مباشرة (القناة الرحمية ـ السائل النخطي)، ثم ترفع الحالمة غطاء في أرض الحجرة فيبرز على الفور مخلوق مغطى بفراء أسمر اللون، أشبه بسبع البحر، ثم يتبيّن أن هذا المخلوق الصغير هو أخو الحالمة الأصغر الذي كانت الحالمة تقف منه دائماً موقف الأم.

وقد بيّن رانك (1912أ) بطائفة من الأحلام أن أحلام الولادة تستخدم ذات الرموز التي تستخدمها أحلام المنبه البولي؛ ففيها يصوَّر المنبه العشقي كما لو كان منبهاً بولياً، وإن وجود طبقات من المعنى في هذه الأحلام ليوافق تحويلاً دخل على معنى الرمز من عهد الطفولة.

ومن المناسب ـ وقد بلغنا هذا الموضع ـ أن نعود ثانيةً إلى موضوع تركناه (في ص 280) وهو نصيب المنبهات العضوية المزعجة للنوم في تكوين الأحلام. فالأحلام التي تقع تحت تأثير هذه المنبهات لا يقف شأنها عند كونها تكشف علانية عن الميل إلى تحقيق الرغبة وعن طابع الأخذ بالأسهل وحسب، بل هي ـ في أحيان كثيرة جداً ـ قد تكشف أيضاً عن رمزية شفافة كل الشفافية؛ إذ ليس من النادر أن يوقظ منبه حالماً بعد أن يكون الحالم قد حاول سدىً إرضاء هذا المنبه في الحلم تحت ستار رمزي. وينطبق ذلك على أحلام الإمناء كما ينطبق على الأحلام التي تحرِّك إليها حاجة إلى التبوّل أو التبرز. ولكن الطابع الخاص لأحلام الإمناء لا يمكننا فقط من أن نميط اللثام بطريقة مباشرة عن رموز بعينها كنا نعلم من قبل أنها رموز نمطية ولكنها كانت تلاقي مع ذلك إنكاراً عنيفاً، بل هو يعيننا ـ فوق ذلك ـ على الاقتناع بأن بعض مواقف الأحلام الظاهرة البراءة لا تعدو أن تكون فاتحة رمزية لمناظر جنسية فظّة ـ مناظر لا تلقى في العادة تصويراً صريحاً إلا في أحلام الإمناء النادرة ندرة نسبية، على حين يكثر، إنقلابها إلى حلم هيلة يدفع كذلك إلى اليقظة.

وأما رموز الأحلام ذات المنبه البولي فتتسم بشفافية خاصة، كما أنها قد عُرفت منذ أقدم الأزمنة؛ فقد سبق هيبوقراط إلى القول بأن الينابيع والنوافير تدلّ على خلل في المثانة (ها؟لوك إليس). ودرس شرنر رموز المنبهات البولية الكثيرة ثم أكَّد أن «كل منبه بولي شديد بعض الشدّة يستحيل من غير استثناء إلى تنبيه في المنطقة الجنسية وإلى صور ترمز إليها... وكثيراً ما يكون الحلم ذو المنبه البولي ممثلاً في الوقت نفسه للحلم الجنسي».

وإن أوتو رانك ـ الذي أتابع ههنا مقاله عن «التراص الطبقي للرموز في الأحلام المؤدية إلى الاستيقاظ» (1912أ) ـ قد جعل من الراجح كل رجوح أن يكون عدد كبير من الأحلام ذات المنبه البولي ناجماً في الحقيقة عن منبه جنسي بدأ بالتماس الإشباع من طريق النكوصي إلى صورة طفلية من العشق هي صورة العشق البولي. وإنا لنعلم الشيء الكثير بخاصة من تلك الحالات التي يؤدي فيها المنبه البولي ـ وقد استثير على هذا النحو ـ إلى اليقظة وإفراغ المثانة، ومع هذا يتابع الحلم بعد ذاك إلى أن يتم الإعراب عن الحاجة في صور عشقية صريحة[439].

وأما الأحلام ذات المنبه المعوي فتلقي الضوء بطريقة مماثلة على الرمزية المتضمنة فيها، ثم هي ـ في الوقت ذاته ـ تؤيد العلاقة بين الذهب والبراز ـ وهي علاقة تدعمها كذلك شواهد وفيرة من علم المجتمعات الإنسانية[440]. «فهكذا تحلم امرأة كانت تعالج لمرض في أمعائها برجل يدفن كنزاً على مقربة من كوخ أشبه بمرفق مياه ريفي معزول عن الدار، ثم يتبع جزء ثانٍ ترى فيه أنها تمسح إست بنتها الصغيرة التي وسَّخت نفسها».

وتتبع أحلام الإنقاذ أحلام الولادة: فالإنقاذ ـ وبخاصة الإنقاذ من الماء ـ له عند النساء معنى الولادة، ولكن هذا المعنى يدخله التعديل إذا كان الحالم رجلاً[441].

فأما اللصوص وسراق الليل والأشباح الذين يوجس منهم البعض خيفة قبل أن يتوجهوا إلى فراشهم والذين يتبعون أحياناً ضحاياهم هؤلاء حتى بعد نومهم فيخرجون جميعاً من طبقة واحدة من الآثار الذكروية لا تتغير: إنهم زوّار يعودون الأطفال في جنح الليل ويوقظونهم ويحملونهم لكيلا يبللوا فراشهم، أو يرفعون عنهم الغطاء ليروا بأعينهم بأي موضع وضعوا أياديهم وهم نيام. ولقد مكنني تحليل بعض أحلام الهيلة هذه من أن أمضي إلى أبعد من ذلك في إخراج شخص الزائر الليلي من مجهوليته: ففي كل حالة كان السارق يقوم مقام الأب بينما تنوب الأشباح عن الأشخاص الأنثوية فيما يرتدينه ليلاً من الغلل البيضاء.

أمثلة – عمليات الحساب والأقوال

في الحلم

قبل أن أحدد للعامل الرابع الذي يحكم تكوين الحلم موضعه الصحيح [القسم ط]، أقترح أن أسرد بعض الأمثلة من مجموعتي. هذه الأمثلة سوف تفيد . من جهة . في تصوير التفاعل بين العوامل الثلاثة التي عرفناها، وسوف تفيد . من جهة أخرى . في تزويدنا بدليل يؤيد بعض القضايا التي ظلت حتى الآن بغير سند أو في بيان نتائج تلزم منها ضرورة. فقد كنت وأنا أشرح عمل الحلم أجد صعوبة بالغة في مساندة اكتشافاتي بالأمثلة؛ فالأمثلة التي يُراد بها تدعيم هذه القضية أو تلك لا تحمل على الاقتناع إلا إذ سيقت وسط تفسير كامل لحلم من الأحلام، فإن انتزعت من محيطها فقدت أثرها . هذا بينما نجد من ناحية أخرى أن التفسير إذا عمّق ولو قليلاً لا يلبث أن يبلغ من الجسامة حداً نفقد معه حبل القضية التي كان يراد تصويرها. ولعل هذه الصعوبة الفنية تعذرني إذا أنا حركت الآن أشياء من كل صنف لا يربط بينها رابط مشترك سوى اتصالها بما ورد في الأقسام السابقة من هذا الفصل.

سأبدأ بأمثلة على طرائق في التصوير غريبة أو غير مألوفة. حلمت سيدة الحلم الآتي: تقف خادم على سلَّم كأنما كانت تمسح الشباك، وكانت تحمل قرداً وقطاً من نوع الغوريلا (وتستدرك السيدة بعدئذ قائلة: من نوع الأنجورا). ترمي الخادم الحالمة بالحيوانين، ويلصق القرد بها . وهو ما يثير في نفسها اشمئزازاً كبيراً. . لقد حقق هذا الحلم هدفه بطريقة غاية في البساطة: فهو قد استعار مجازاً من مجازات الكلام ثم أجراه على حرفه، «فالقرد» وأسماء الحيوان بوجه عام تُستخدم على سبيل السباب، ولا يعني الموقف الذي عرض في الحلم شيئاً آخر سوى قولنا: رماه بالسباب. ولن تلبث مجموعتي دون أن تأتي بأمثلة جديدة على استخدام هذه الحيلة البسيطة في عمل الحلم.

ونهج حلم آخر نهجاً يماثل السابق كل مماثلة: سيدة معها طفل شاه شكل جمجمته شوهاً ملحوظاً، تسمع الحالمة أن ذلك راجع إلى وضع الطفل في الرحم. يقول الطبيب: إن من الممكن تحسين شكل الجمجمة. يضغطها، إلا أن ذلك قد يؤذي مخ الطفل. تفكر في أن الطفل صبي فلن يضيره ذلك كثيراً. . إن هذا الحلم يحوي تعبيراً مصوراً عن فكرة مجردة: «انطباعات الطفولة» ، وهي فكرة كانت الحالمة قد سمعتها في أثناء التوضيحات التي اقتضاها العلاج.

ولكن عمل الحلم قد سلك طريقاً مخالفاً بعض المخالفة في المثال الآتي، وكان ينطوي على ذكرى رحلة إلى هيلمتايش[442] بالقرب من جراتس: في الخارج عاصفة مروعة، نزل حقير، يقطر الماء من الجدران، الأسرَّة مبللة (هذا الجزء الأخير من الحلم قد رُوِيَ في صورة أقل صراحة مما ذكرت). إن هذا الحلم يعني «نافلة» ؛ فهذه الفكرة المجردة المتضمنة في أفكار الحلم قد لاقت أول الأمر علاجاً متكلفاً صيرها إلى شيء من قبيل «فائض» أو «طافح»، ثم تمثلت بعد ذلك في عدة من الصور المشابهة: ماء في الخارج، ماء في الداخل على الحوائط، ماء في أغطية السرير المندَّاة، كل شيء يقطر أو «يطفح». ولن يدهشنا أن نرى أن أصوات الكلمات تفوق تهجيها بكثير من حيث أهميتها بالنسبة إلى التصوير الحلمي، وبخاصة حين نذكر أن الشعر المقفّى يستبيح لنفسه حرية مماثلة. فقد روى رانك (1910، 482) في كثير من التفصيل حلماً أتته فتاة وحلله تحليلاً وافياً إلى مدى بعيد، وفي هذا الحلم نسمع أن الفتاة قد سارت وسط الحقول وهي تقطع سنابل [Ahren] مثقلة بالقمح والشعير، ثم أقبل عليها صديق في سنها، فحاولت أن تتجنب لقاءه. ويبيّن التحليل أن الأمر يتعلق بقبلة، «قبلة في شرف»[Kuss in Ehren[443]]. فالسنابل [Ahren] التي كان يجب اقتطافها لا اقتطاعها قد أفادت من حيث هي كذلك ومن حيث تكثيفها بكلمة Ehren [شرف] في تصوير طائفة كاملة من أفكار أخرى.

وفي حالات أخرى نجد أن اللغة قد يسَّرت الأمور على الحلم تيسيراً كبيراً؛ فاللغة تملك طوع يدها طائفة بأسرها من المفردات التي كانت تملك في الأصل معاني عيانية مصوَّرة ثم صارت اليوم تستخدم استخداماً مجرداً لا لون فيه، وكل ما يحتاج إليه الحلم هو أن يسترجع لهذه الكلمات معانيها السابقة المليئة وأن يرجع بعض المسافة إلى مرحلة متقدمة في تطوُّر الكلمة. ومثال ذلك أن يحلم حالم بأن أخاه في صندوق ، ثم تذهب خواطر الحالم في أثناء التفسير من صندوق إلى «دولاب» Schrank ويعني أيضاً الحد بالمعنى المجرد]، فتكون فكرة الحلم الكامنة هي: أن على أخيه أن يلزم حده . أي أن يلزمه هو. وها هو ذا حالم آخر يعتلي جبلاً يشرف منه على منظر «قصي الأطراف» ، وهو بذلك يعيّن ذاته بأخيه الذي كان يشرف على تحرير باب عنوانه «نظرة على الشرق الأقصى».

وفي حلم يرد في «هاينريخ اليانع» [رواية ذائعة لجوتفريد كيللر] نرى فرساً جموحاً وهو يتقلب في حقل جميل من الخرطل كل حبة منه «لوزة حلوة وزبيبة ودرهم جديد. الكل ملفوف في حرير قان، معقود بسبائب الخنزير». ولا يلبث الكاتب (أو الحالم) أن يفسر هذه الصورة الحلمية؛ إذ يشعر الحصان بدغدغة تطيب له، ويهتف قائلاً: الخرطل ينغزني. [وهو من مثل ألماني بمعنى: أفسده الرغد].

وفي رأي هنتسن أن الأحلام المشتملة على توريات وجمل لفظية تكثر كثرة خاصة في الأساطير الشمالية القديمة، فلا تكاد تخلو أسطورة منها من حلم ينطوي على بعض الاشتراك أو اللعب بالألفاظ.

وإنه ليكون عملاً قائماً بذاته أن يجمع المرء أساليب التصوير وأن يقسمها بحسب المبادىء التي تقوم عليها، وإن منها لأساليب تكاد أن تكون خليقة بأن تسمَّى نكات، أساليب يحس المرء إزاءها أنه ما كان ليحزر قط معناها لو لم يفضِ به الحالم إليه:

1) حلم رجل بأن البعض يسأله عن اسم ما ولكنه لا يستطيع تذكره. إنه يقول: إن هذا يعني أن ذلك لا يخطر لي ولو في الحلم.

2) أخبرتني مريضة بحلم بدا الناس فيه طوالاً إلى حد يتجاوز المألوف، ثم مضت تقول: إن هذا يعني أن الحلم يتناول أحداثاً وقعت في طفولتي؛ ففي هذا الوقت كان جميع الراشدين يبدون لي بالطبع طوالاً ضخاماً. هذا ولم يظهر شخصها هي في ذلك الحلم.

ومن الممكن أن نعرب عن كون الحلم يشير إلى الطفولة بطريقة أخرى، هي ترجمة الزمان إلى المكان، فتبدو الأشخاص والمشاهد كما لو كانت على بعد عظيم، في نهاية الطريق، أو كما لو كان ينظر إليها من منظار أوبرا معكوس الوضع.

3) حلم مرة رجل كان ينزع في حياته إلى العبارات المجردة غير المحددة وإن كان ـ فيما خلا ذاك ـ قد وهب نكتة بارعة بأنه قد وصل إلى إحدى محطات السكة الحديدية وقت دخول القطار، وإذا الرصيف يتحرك جهة القطار بينما القطار واقف بلا حراك ـ وهو عكس غير معقول لما يحدث في الواقع. ولم يكن هذا القلب إلا إشارة تشير إلى أن الحلم لا بد مشتمل على قلب آخر في محتواه [أنظر ص 360]. فلما حللناه انتهى الحالم إلى أن تذكر كتاباً مصوراً حوى صور رجال وقفوا على رؤوسهم ومشوا على أيديهم.

4) وفي مرة أخرى روى هذا الحالم نفسه حلماً يذكِّر بطريقة الألغاز المصورة؛ فقد رأى أن عمه كان يقبّله في السيارة [Automobil]. وبادر الحالم إلى تفسير الحلم تفسيراً ما كنت لأحزره قط: إن ذلك كان يعني العشق الذاتي [Autoerotismus]. وقد كان من الممكن أن يخرج محتوى هذا الحلم في الحياة المستيقظة على صورة نكتة.

5) حلم رجل بأنه يجذب [hervorziehen] امرأة من وراء السرير، وكان معنى ذلك أنه يؤثرها [vorziehen].

6) حلم رجل أنه يجلس إلى إحدى الموائد في مواجهة الإمبراطور. وكان معناه أنه يعارض أباه.

7) حلم رجل بأنه يعالج شخصاً ما أصيب بكسر في أحد أطرافه. وأظهر التحليل أن العظمة المكسورة [Knochenbruch] كانت تنوب عن الزواج المكسور Ehebruch ويقال بمعنى الزنا].

8) ومن الشائع في الأحلام أن يمثِّل الوقت عمر الحالم في فترة معينة من فترات الطفولة. مثال ذلك أن «الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة عشرة» كانت تعني في أحد الأحلام «خمس سنوات وثلاثة أشهر». وكان لذلك التاريخ أهمية؛ إذ تلك كانت سن الحالم حين وُلد أخوه الأصغر.

9) وها هو ذا تصوير آخر للسن في الحلم: فقد حلمت امرأة بأنها تسير مع فتاتين صغيرتين فرق السن بينهما خمسة عشر شهراً. ولا تعرف الحالمة أحداً من أسرتها يصدق عليه ذلك. ولكنها قد أتت بالتفسير حين قالت: إن كلتا الطفلتين تمثلها وإن الحلم إنما يذكرها بالصدامين اللذين عرفتهما في طفولتها؛ فقد كانت تفصل بينهما هذه الفترة على التحديد، وقع أحدهما حين كانت تبلغ من العمر السنة الثالثة ونصف السنة ووقع الآخر حين كانت في الرابعة والتسعة الأشهر.

10) ولسنا نعجب إذا رأينا أن الشخص الذي يتبع علاجاً تحليلياً نفسياً يحلم كثيراً بعلاجه هذا ويعرب عن أفكار وتوقعات متعددة يبعث العلاج عليها. والصورة التي يغلب اختيارها في تصوير العلاج هي صورة الرحيل، والرحيل بالسيارة بنوع خاص؛ لكونها عربة حديثة معقدة. وفي هذه الحالة تجد تهكمات المريض متنفساً بالإشارة إلى سرعة السيارة. وإذا أريد تصوير «اللاشعور» من حيث هو عنصر ورد بين أفكار اليقظة استبدلت به ـ استبدالاً جد ملائم ـ أماكن تقع «تحت الأرض» ـ وهي أماكن تنوب عن جسم المرأة أو عن الرحم حين تجيء من غير علاقة بالعلاج التحليلي. ويكثر أن تشير «أسفل» إلى أعضاء التناسل، بينما تشير «أعلى» ـ على العكس ـ إلى الوجه أو الفم أو الصدر. ويرمز عمل الحلم عادة بالحيوانات الوحشية إلى الانفعالات الاندفاعية التي يخشاها الحالم من نفسه أو من غيره على السواء، وهكذا يستطيع ـ بنقل جد طفيف ـ أن يرمز بهذه الحيوانات إلى الأشخاص الذين تغلب عليهم هذه الانفعالات. والمسافة هنا قريبة بين ما نحن فيه وبين الحالات التي يصور فيها الأب المخوَّف بوساطة وحش كاسر أو كلب أو حصان وحشي، على نحو يذكِّر بالطوطمية. وفي مقدورنا أن نقول: إن الحيوانات الوحشية تُستخدم في تصوير الليبيدو ـ والليبيدو قوة يفزع منها الأنا ويغالبها بالكبت. ومن الشائع أيضاً أن يُفصل العصاب في ذاته ـ «الشخص المريض» ـ من الحالم وأن يتمثل في الحلم في صورة شخص مستقل.

11) (عن هانس ساكس) «إننا نعلم من «تفسير الأحلام» أن عمل الحلم يسلك طرقاً مختلفة من أجل الوصول إلى تصوير الكلمات أو الجمل صورة حسية مرئية. فإذا اتفق ـ مثلاً ـ أن كان لتعبير معنيان استطاع الحلم أن يستغل هذا الاشتراك باعتباره منعطفاً يترك عنده أول المعنيين ـ وهو المعنيّ في أفكار الحلم ـ ليدرج الثاني بدلاً منه في محتوى الحلم الظاهر».

«ذلك ما قد وقع في الحلم القصير الآتي، ووقع بعد استغلال ماهر لانطباعات ملائمة من اليوم السابق باعتبارها مادة تصويرية:

ذلك أني كنت يوم الحلم قد عانيت بعض البرد، فعزمت في المساء على ألا أغادر الفراش في الليل بقدر المستطاع. وجاء حلم لا يبدو منه إلا أنه يجعلني أتابع في الليل عملاً من أعمال النهار: فقد كنت شغلت في أثناء النهار بلصق قصاصات من الصحف في دفتر لدي، وكنت أحرص في خلال ذلك على أن توضع كل قصاصة في موضعها الملائم، وكان أن جاء الحلم هكذا:

أجهد في لصق إحدى قصاصات الصحف في الدفتر، فلا يتمشى ذلك مع الصفحة[444]، وهو ما يثير في نفسي ألماً كبيراً».

«وأستيقظ فأجد أن ألم الحلم لا يزال مستمراً في صورة ألم جسمي حقيقي؛ فقد أراد الحلم ـ من حيث هو حارس النوم ـ أن يهيء إليّ أن رغبتي في المكث بالفراش قد تحققت متوسلاً إلى ذلك بتصوير عياني للجملة [الألمانية] المزدوجة المعنى». [وتعني ولكنه لا يماشي الصفحة، وأيضاً: ولكنه لا يمشي إلى المرحاض أو لا يذهب إليه].

إننا لنستطيع أن نذهب إلى حد القول: إن عمل الحلم يتوسل إلى التصوير المرئي لأفكار الحلم بكل وسيلة في متناوله، سواء أمقبولة لاحت لعين النقد المستيقظة أم مرفوضة، وذلك هو ما يجعل عمل الحلم عرضة للتشكك والسخرية عند كل من لم يَعُدْ أن يسمع عن تفسير الحلم دون أن يزاوله. وكتاب شتيكل «لغة الأحلام» (1911) ثري بالأمثلة التي من هذا القبيل، غير أنني قد تجنبت مع ذلك الاستشهاد به؛ لأن افتقار المؤلف إلى الحكم النقدي مع اتسام منهجه بطابع التعسف يحملان الذهن على التشكك حتى ولو خلا من كل فكرة سابقة.

12) فأما الأمثلة الآتية فمقتبسة من مقال كتبه تاوسك (1914) عن استخدام الثياب والألوان في التصوير الحلمي:

أ ـ حلم أ. حلماً رأى فيه مربيته القديمة وقد ارتدت رداءً ذا بريق [Lüster] أسود، والتصق بردفيها التصاقاً شديداً ـ وكان معنى ذلك أن تلك المربية كانت في رأيه امرأة شهوانية [Lustern].

ب ـ حلم ج. أنه يرى فتاة تسير في طريق س. وقد غمرها ضوء أبيض وارتدت صداراً أبيض. كان الحالم قد بدأ في ذلك الطريق أول علاقاته الوثيقة بآنسة لقبها: أبيض.

ج ـ حلمت السيدة د. بأنها ترى Blasel العجوز (وهو ممثل من فيينا بلغ الثمانين من العمر) وقد رقد على ديوان وهو شاكي السلاح [in voller Rüstung] ثم أخذ هذا الممثل يشب فوق الموائد والمقاعد، ثم استل خنجراً ونظر إلى نفسه في المرآة ملوحاً بالخنجر في الهواء كأنما يحارب عدواً موهوماً.

التفسير: كانت الحالمة تعاني ألماً مزمناً في المثانة [Blase] ، ثم هي كانت تستلقي على ديوان في أثناء التحليل، وكانت إذا نظرت إلى نفسها في المرآة أسرَّت إلى نفسها أنها على رغم سنها ومرضها ـ لا تزال صحيحة معافاة [rüstig].

13) «عمل عظيم» في الحلم.

حلم رجل فرأى نفسه راقداً في السرير مثل امرأة حبلى ويثير هذا الموقف في نفسه مضضاً شديداً. يصيح قائلاً: لقد كنت أفضل... (في أثناء التحليل أكمل الرجل عبارته ـ بعد أن تذكر شخص امرأة ممرضة ـ بتلك الكلمات... أن أكسر الأحجار). كانت تعلو سريره خريطة ثبِّت شريط من الخشب بحافتها السفلى لكي يبقيها منشورة. ينتزع الحالم الشريط الخشبي بأن يقبض على طرفيه كليهما، ولكن الشريط لا ينكسر عرضاً بل ينشق طولاً. يحس الحالم عندئذ أنه قد تخفف كثيراً وأن هذا الفعل قد أعانه على الوضع.

يفسر الحالم من تلقاء نفسه انتزاع الشريط [Leiste] الخشبي بأنه يعني إتيان «عمل» [Leistung] عظيم. ذلك أنه يريد التخلص من موقفه غير السار (في العلاج) بأن ينتزع نفسه من وضعه المؤنث.. وأما تلك اللمحة غير المعقولة: ألا ينكسر شريط الخشب بل ينفلق شقين، فتفسيرها ما يتذكره الحالم من أن هذا التضعيف مضافاً إلى التمزيق ينطوي على إشارة إلى الخصاء. ومن الأمور الشائعة غاية الشيوع أن يصوِّر الحلم الخصاء بوساطة رمزين قضيبين تصويراً صادراً عن رغبة مضادة فيها التحدي. أضف إلى ذلك أن Leiste [الشريط، ويعني أيضاً «الحالب»] منطقة من الجسم قريبة من أعضاء التناسل. ويجمل الحالم تفسير حلمه بما معناه أنه ـ أعني الحالم ـ يغالب وعيد الخصاء الذي أحوجه إلى اتخاذ هذا الموقف المؤنث»[445].

14) وعرض مرة للتفسير ـ أثناء تحليل أجريته باللغة الفرنسية ـ حلم ظهرتُ فيه في صورة الفيل. ودعاني ذلك بالطبع إلى أن أسأل الحالم لمَ صوَّرت هذا التصوير، فكان جوابه Vous me trompez [أي «أنت تخدعني»] trompe = زلومة).

وفي وسع عمل الحلم أن يصور مواد عَصِيَّة إلى أبعد حد ـ مثل أسماء الأعلام ـ باستخدام متكلف لروابط جد مستبعدة. فقد جاء في أحد

أحلامي أن بروكيه الشيخ كلَّفني القيام بعملية من عمليات التشريح وأنني فرغت من تحضير أحد المركبات ثم التقطت شيئاً لاح مثل ورق الفضة المجعَّد (وهو حلم سأعود إليه فيما بعد [ص 477]). وكان المستدعي الذي ورد على ذهني بعد شيء من الصعوبة هو: «ستانيول»[446]. وعندئذ عرفت أنني كنت أفكر في اسم «ستانيوس» . وهو مؤلف كتب مقالاً عن الجهاز العصبي لنوع من السمك أعجبت به إعجاباً شديداً في شبابي. والحق أن أول عمل علمي كلفني به أستاذي (بروكيه) كان يتعلق بالجهاز العصبي لنوع من السمك اسمه: Ammocoetes [فرويد، 1877أ]. ومن الواضح أن ذلك الاسم كان يستحيل استخدامه في لغز مصوَّر.

ولست أستطيع أن أمنع نفسي من أن أسرد في هذا الموضع حلماً عجيباً في محتواه، ثم هو حلم جدير بأن يعار التفاتاً لأنه حلم طفلة، كما أنه يسهل استجلاؤه بالتحليل: قالت سيدة: إنني لا أزال أذكر حلماً عاودني مراراً في طفولتي، وكان فحواه أن اللَّه يحمل قبعة مدببة فوق رأسه. ولقد كان من عادتي وأنا طفلة أن أرى هذه القبعة توضع كثيراً على رأسي حين أجلس إلى المائدة؛ حتى لا أتمكن من التطلع إلى أطباق الأطفال الآخرين لأرى مقدار ما أخذوا. وإذا كنت سمعت من قبل أن اللَّه عليم بكل شيء، فمعنى الحلم أنني على علم بكل شيء رغم القبعة المدببة.

بيد أن طبيعة عمل الحلم والطريقة التي يتصرف بها في مادته . وأعني أفكار الحلم . تظهر على نحو حافل بالفائدة النظرية حين نجيء إلى بحث ما يعرض في الحلم من الأعداد وعمليات الحساب. أضف إلى ذلك أن للأعداد في الحلم . على حسب معتقد خرافي . دلالة خاصة على الغيب. ولهذا أنتقي من مجموعتي بضعة أمثلة من هذا الطراز.

1) من حلم أتته سيدة قبل أن ينتهي علاجها بزمن قصير: تريد أن تدفع ثمن شيء ما تأخذ ابنتها 3 فلورين و 65 كرويتسر من كيسها. تقول الحالمة: ماذا تفعلين؟ إنَّ هذا لا يكلف سوى 21 كرويتسر. لقد بدا لي هذا الطرف من الحلم واضحاً مفهوماً دون معاونة ما من جانب الحالمة، وذلك لما أعرفه من ملابسات حياتها. فالحالمة سيدة أجنبية أدخلت فتاتها في أحد المعاهد التربوية بفيينا، ولم تكن تستطيع مواصلة علاجها إلا إذا بقيت ابنتها في فيينا. ولم يكن باقياً غير ثلاثة أسابيع تنتهي بعدها السنة الدراسية وينتهي معها العلاج. واتفق يوم الحلم أن ناظرة المعهد سألتها: هل تستطيع أن تقرر بقاء ابنتها عاماً آخر؟ ولا شك في أن خاطرها قد ذهب بها عندئذ إلى أنها سوف تتمكن في هذه الحالة من الاستمرار في علاجها سنة أخرى. وذلك هو محور الحلم: ففي السنة 365 يوماً، والأسابيع الثلاثة الباقية من السنة الدراسية تعدل 21 يوماً (وإن يكن عدد ساعات العلاج أقل من ذلك). فالأرقام التي كانت تشير في أفكار الحلم إلى فترات زمنية قد تُرجمت في الحلم إلى مبالغ من النقود . دون أن يخلو ذلك من معنى أعمق؛ فإن «الوقت من ذهب»[447]. ولا تعدل 365 كرويتسر سوى 3 فلورين و65 كرويتسر. وإن ضآلة المبالغ المذكورة في الحلم لتحقيق رغبة مكشوف؛ فرغبة الحالمة قد خفَّضت تكاليف العلاج وأقساط المدرسة على السواء.

2) وتسوقنا الأرقام المتضمنة في حلم آخر إلى علاقات أشد تعقداً. فقد سمعت سيدة في مقتبل العمر . وإن تكن تزوجت منذ سنوات متعددة . أن صاحبة من صواحبها تكاد تكون في مثل سنها . هي إليز ل. . قد خطبت حديثاً، فحلمت على أثر ذلك الحلم الآتي: إنها في المسرح مع زوجها وقد خلا أحد جوانب القاعة خلواً تاماً. يقول لها زوجها: إن إليز ل. وخطيبها كانا يريدان المجيء أيضاً، ولكنهما لم يجدا سوى مقاعد رديئة . ثلاثة مقاعد قيمتها فلورين 1 و 50 كرويتسر . فلم يرضيا بها بطبيعة الحال. فتحدَّث نفسها قائلة: وما هناك ضرر لو قد فعلا.

ما منشأ هذا الرقم: 1 فلورين و50 كرويتسر؟ منشؤه حدث من أحداث اليوم السابق كان في الحقيقة خالياً من كل وزن: ذلك أن أخت زوجها قد أهدى إليها زوجها 150 فلورين، فسارعت إلى تبديدها بأن اشترت بها حلية. ولا يفوتنا أن نلحظ أن 150 فلورين تعدل 1 فلورين و50 كرويتسر 100 مرة. والرقم 3 . وهو عدد تذاكر المسرح . من أين أتى؟ الرباط الوحيد الذي نجده هنا هو أن صديقتها المخطوبة تقل عنها في السن بمثل هذا العدد من الشهور – 3.

وقادنا بعد ذلك إلى حل الحلم أن نكتشف إلام كانت تلمح المقاعد الشاغرة: فتلك كانت تشير إلى واقعة صغيرة هيأت لزوجها فرصة طيبة لمعاكستها؛ ذلك أنها كانت قد عقدت العزم على أن ترى مسرحية أعلن أنها ستمثَّل في أسبوع مقبل، وتكلفت الذهاب لابتياع التذاكر قبل الموعد بأيام متعددة . مع دفع ما يجرُّه ذلك من فرق الحجز. فلما دخلا المسرح ألفيا أحد جوانب القاعة وقد كاد أن يكون شاغراً: لم تكن هناك حاجة إلى أن تتعجل كل هذا التعجل.

والآن أبدل بالحلم أفكاره الكامنة: «لقد كان جنوناً مني أن أتزوج في مثل هذه السن المبكرة، وما كانت بي حاجة إلى كل هذه العجلة. وها هو ذا مثال إليز ل. يريني أنني كنت مستطيعة دائماً أن أجد زوجاً، بل لقد كنت أجد زوجاً أحسن مائة مرة (زوج، كنز) لو أنني انتظرت بعض الشيء (على خلاف عجلة أخت زوجها)، وبنقودي (الدوطة) كان يسعني أن أشتري ثلاثة رجال على هذه الشاكلة!». إننا نلحظ أن معنى الأعداد والسياق الذي سيقت فيه قد نالهما في هذا الحلم تحريف يفوق كثيراً نظيره في الحلم السابق. فعمليات التعديل والتشويه قد ضربت هنا بسهم أوفر، ومعنى ذلك أن أفكار هذا الحلم كانت مكرهة على أن تتخطى مقداراً ذا شدة خاصة من المقاومة النفسية الداخلية قبل أن تبلغ إلى تصويرها في الحلم. ولا نحن ننسى أن هذا الحلم قد تضمَّن عنصراً غير معقول، وأعني به أن يستأجر شخصان اثنان ثلاثة مقاعد. وهنا أستبق مبحث اللامعقولية في الحلم

فأشير إلى أن هذه اللمحة غير المعقولة كانت تهدف إلى تصوير الفكرة التي كان يلح الحالم عليها أشد الإلحاح: لقد كان جنوناً مني أن أتزوج في مثل هذه السن المبكرة. والثلاثة المحتواة في علاقة جد ثانوية بين الشخصين اللذين تنعقد بينهما المقارنة (ثلاثة الشهور فرق السن بين الحالمة وإليز ل.) قد استغلت استغلالاً حاذقاً في إحداث اللمحة غير المعقولة التي كان يتطلبها الحلم. ثم خفض المائة وخمسين فلورين إلى فلورين وخمسين كرويتسر يوافق القيمة المنخفضة التي تضيفها الحالمة في أفكارها الكامنة إلى زوجها (أو الكنز).

3) وأما المثال الآتي فيسوقنا إلى طرق الحلم في الحساب، تلك الطرق التي كان لها أكبر الأثر في الاستهانة بالحلم: حلم رجل فرأى أنه كان يجلس في مقعد لدى آل ب. (وهي أسرة سبقت له معرفتها) وأنه يتحدث قائلاً: لقد كان خطأً كبيراً منكم ألا تعطوني **Mali**. ثم يواصل كلامه فيسأل الخادم: إذن ما عمرك؟ فتجيبه قائلة: لقد ولدت في 1882. . وأنت إذن في الثامنة والعشرين.

وإذ كان الحلم قد وقع عام 1898 فمن الواضح أن ذلك كان حساباً خاطئاً، وإن ضعف الحالم في الحساب لحري بأن يُقَرَّبَ من ضعف المريض بعته الشلل إذا لم نجد له تعليلاً آخر. لقد كان مريضي ينتمي إلى هذه الطبقة من الرجال الذين لا يريحون من تفكيرهم امرأة وقع عليها ناظرهم. وكانت تاليته المنتظمة في الدخول إلى حجرة استشارتي خلال بضعة شهور سيدة في مقتبل العمر، فكان يقابلها في خروجه ويدأب على الاستعلام عنها ويتكلف التأدب معها. وكانت هي من يقدِّر عمرها بثمان وعشرين عاماً . وفي هذا الكفاية في تعليل نتيجة الحساب المزعوم. وأما 1882 فكانت السنة التي تزوج فيها هذا الحالم. وأذكر بعد أنه كان من بين الأمور التي لا يطيقها هذا الحالم ألا يفيض في الحديث مع الشخصين المؤنثين الآخرين اللذين كان يلتقي بهما في منزلي، وأعني بهما خادمين . كلتاهما على أبعد ما يكون من الصبا . كانتا تتناوبان فتح الباب له، فلما لم يجد منهما استرسالاً كبيراً علل ذلك لنفسه بأنهما تحسبانه سيداً تقدم في السن و «استقر».

وها هو ذا حلم آخر يتميز بوضوح حتمه أو . بالأحرى . حتمه المضاعف، وهو حلم أدين به وبتفسيره للدكتور ب. داتنر.

«حلم صاحب المنزل الذي أسكن فيه . وهو من رجال الشرطة . بأنه يقوم بالخدمة في أحد الشوارع . وهو ما يحقق له رغبة. ويمر به مفتش حملت بنيقته الرقم 22 يتبعه الرقم 62 أو 26، وعلى أية حال كان الرقم يحوي العدد 2 مكرراً».

«إن كون الحالم قد قسم الرقم 2262 قسمين في أثناء رواية الحلم ظاهرة تجعلنا بذاتها ندرك أن لكل من شطريه معناه المستقل. ولقد خطر للحالم أن الحديث قد دار بالأمس في مقر الشرطة حول طول مدة الخدمة، وكانت مناسبة الحديث أن مفتشاً قد أحيل على المعاش بعد أن بلغ من العمر 62 عاماً. والحالم قد قضى 22 عاماً في الخدمة ويلزمه الاستمرار فيها عامين وشهرين لكي يكون له الحق في معاش قدره 90%. فالحلم يحقق أولاً رغبة داعبت فكره زمناً طويلاً وهي الرغبة في أن يرقى إلى درجة المفتش؛ لأن الرئيس الذي يحمل الرقم 2262 على بنيقته ليس إلا الحالم نفسه. وإنه ليقوم بالخدمة في الشارع . وهي رغبة أخرى أثيرة عنده. ثم هو قد استمر في الخدمة المدة المتبقية: 2 سنة و2 شهر مثل المفتش القديم ذي الـ 62 عاماً، وصار في وسعه الآن أن يحصل على معاش كامل»[448].

إذا ألقينا نظرة شاملة على هذه الأمثلة وأخرى تشبهها (أرويها فيما بعد [ص 473])، صرنا في حل من أن نقول: إن عمل الحلم لا يعرف الحساب على الإطلاق سواء أكان صحيحاً أم كان غير صحيح. كل الأمر أنه يلتقط أعداداً ماثلة في أفكار الحلم ويتخذ منها إشارات يلمع بها إلى مادة لا يمكن تصويرها بغير ذلك، واضعاً إياها . هذه الأعداد . في صورة العملية الحسابية. وهو في ذلك يعامل الأعداد كما لو كانت مادة يتوسل بها إلى الإعراب عن مقاصده، على نحو يطابق كل المطابقة أسلوب معالجته لكل فكرة أخرى بما في ذلك أسماء الأعلام والأقوال الواردة صراحة في هيئة صور لفظية.

ذلك أن عمل الحلم عاجز في الحقيقة عن أن يخلق الكلام خلقاً. فمهما ورد في الحلم من الأقوال والردود . سواء كانت معقولة في ذاتها أم كانت هراء . فالتحليل يثبت في كل حالة أن الحلم لم يعد أن يلتقط من أفكار الحلم نبذاً من أقوال قيلت بالفعل من قبل أو سمعت، وأنه قد عالج هذه الأقوال معالجة طابعها التعسف إلى أقصى الحدود: فهو لم يقف عند انتزاعها من محيطها وتمزيق أوصالها، يأخذ أجزاء ويترك أخرى، بل هو في أحيان كثيرة ينتظمها في نسق جديد، حتى لترى الكلام يبدو في الحلم كلاً مترابطاً فإذا التحليل يبيِّن أنه قد تركَّب من ثلاث نبذ متفرقة أو أكثر. والحلم في خلال هذا الصوغ الجديد يترك في أحيان كثيرة المعنى الأول الذي كان للكلمات في أفكار الحلم ويضيف إليها معنى جديداً كل الجدة[449]. وإذا أمعنَّا النظر في الكلام الذي يشتمل عليه الحلم، أمكننا أن **realpagex0486x**نفرق بين أجزاء واضحة مركزة نسبياً، وأخرى كل نفعها أنها أداة وصل، وأرجح الظن أنها قد أضيفت من بعد على سبيل التكملة، كما يحدث حين نكمل عند القراءة حروفاً أو مقاطع اتفق سقوطها عند الطباعة. وهكذا يكون للأقوال في الحلم التركيب الذي لبنيان مرصوص تألَّف من كتل ضخمة من أحجار مختلفة النوع شدَّ بعضها إلى بعض بمادة مقواة.

وإذا أردنا الدقة فالوصف الذي قدمناه لا ينطبق إلا على الأقوال التي تحمل شيئاً من الطابع المحسوس للكلام والتي يصفها الحالم نفسه بأنها كانت «كلاماً». فأما سائر الأقوال التي لا يشعر الحالم . كما يقع أحياناً . بأنها قيلت أو سُمعت (أي التي لا تقترن في الحلم بمصاحبات سمعية أو حركية) فهذه لا تعدو أن تكون أفكاراً من بين ما يدور بخلدنا في أثناء نشاطنا الفكري المستيقظ، وهي في العادة تنقل إلى الحلم كما هي. ويبدو أن

القراءة مصدر آخر غزير ترد منه الأقوال غير المتميزة التي من هذا القبيل، وإن تكن مصدراً يصعب تأثره. وعلى أية حال، فكل ما يخطر في الحلم متخذاً صورة الكلام على نحو ملحوظ من الأنحاء يقبل رده إلى أقوال حقيقية فاه بها الحالم أو سمعها.

وقد رأينا من قبل أمثلة تشهد بأن ذلك هو مصدر الأقوال في الحلم، رأيناها بينما كنت أحلل أحلاماً سردتها لمقاصد أخرى. مثال ذلك الحلم «البريء» الذي ذكرته في ص 225 حيث كانت جملة «لم يعد الحصول على ذلك في حيِّز الإمكان» تفيد في تعييني بشخص الجزار، بينما أفادت تلك النبذة المقتبسة من سياق آخر: «لست أعرف ذلك، لا آخذه» ـ أفادت على التحديد في جعل الحلم حلماً بريئاً. فنحن نذكر أن الحالمة كانت في اليوم الذي سبق الحلم قد ردت على مطلب لطاهيها بالعبارة الآتية: «لست أعرف ذلك، الزم حدودك!»، والجزء الأول من هذا القول ـ الجزء الذي يلوح بغير شائبة ـ هو الذي انتقل إلى الحلم لكي يتحقق به التلميح إلى الجزء الثاني ـ وهو الجزء الذي كان يلائم نوع التخييل الكامن من وراء الحلم أكبر الملائمة، ولكنه كان أيضاً كفيلاً أن يفضحه.

وها هو ذا مثال يُغني عن أمثلة أخرى كثيرة تفضي جميعها إلى ذات النتيجة:

الحالم في فناء كبير أُحرقت فيه بعض الجثث. يقول: إني ماضٍ، لست أطيق منظرها (لم يكن ذلك كلاماً متميزاً). يقابل الحالم بعدئذ صبيي جزار فيسألهما: حسناً. هل كان مذاقها لذيذاً؟ فيجيبه أحدهما: كلا، كلا على الإطلاق. كأنما كان اللحم لحماً آدمياً.

إن المناسبة البريئة للحلم هي الآتية: ذهب الحالم وزوجه ذات مساء في زيارة بعض الجيران، وكانوا من طيبة الناس ولكنهم لم يكونوا بحال من الأحوال من النوع الذي «يفتح النفس». وكانت ربة البيت العجوز المضيافة لا تزال تتناول عشاءها فحاولت أن ترغمه على أن يذوق بعض طعامها (هناك كلمة أخرى يستخدمها الرجال فيما بينهم على سبيل المزاح للإعراب عن فكرة الإرغام)[450]. فاعتذر متعللاً بنقص شهيته، ولكنها أجابته قائلة: « امض، امض ، إن هذه الكسرة لن تعجزك» أو شيئاً من هذا القبيل. فكان أن اضطر إلى تذوقها ثم أطرى السيدة قائلاً: «إن طعمها لذيذ جداً». فلما خلا إلى زوجه من جديد تذمر من إلحاح الجارة ومن مذاق طعامها كذلك. وأما فكرة «لا أطيق منظرها» ـ وهي الفكرة التي لا تخطر حتى في الحلم في صورة الكلام بالمعنى الصحيح ـ فتلمح إلى الفتن البدنية للسيدة الداعية، ولا ترجمة لها سوى أن الحالم لا يطيق النظر إليها.

غير أننا نجني المزيد من الفائدة النظرية من حلم آخر أرويه في هذا الموضع لما اشتمل عليه من كلمات جد متميزة كانت تكون نقطته الرئيسة، وإن كان هذا الحلم لن يتَّضح إلا حين نعرض للحديث عن الحالات الوجدانية في الحلم. حلمت الحلم الآتي في وضوح تام: ذهبت ليلاً إلى معمل بروكه. وقُرع الباب قرعاً رفيقاً ففتحته للأستاذ (المتوفى) فلايشل الذي جاء يصحبه بعض الغرباء ثم جلس إلى مائدته بعد كلمات قليلة. وأعقب ذلك حلم ثانٍ: جاء صديقي ف. (فليس) إلى فيينا في شهر يوليه على غير توقع. أقابله في الطريق وهو يتحدث إلى صديقي (المتوفى) ب.، ثم أذهب معهما إلى مكان ما حيث يجلسان الواحد قبالة الآخر كأنما يجلسان إلى مائدة صغيرة، وأجلس في الصدر عند جانب المائدة الضيق. يتحدث ف. عن أخته ويقول: إنها ماتت في خمس وأربعين دقيقة، ثم يضيف بضع كلمات من قبيل: تلك كانت العتبة. ولا يفهم ب. مراده، فيتحول ف. إليّ ويسألني: إلى أي حد أطلعت ب. على أخباره؟ حينئذ تتوالى انفعالات غريبة وأحاول أن أشرح لصديقي ف. أن ب. ما كان بالطبع ليستطيع أن يفهم شيئاً على الإطلاق؛ لأنه ليس حياً. ولكن التعبير الذي أستخدمه بالفعل ـ وأنا ألحظ خطئي ـ كان Non Vixit (لم يعش) ثم بعد ذلك أصوِّب نظرة ثاقبة إلى ب. فإذا هو يمتقع أمام نظرتي، وتختلط صورته، وتحول عيناه إلى زرقة مريضة، وفي النهاية يذوب ويختفي. أُطرب لذلك طرباً لا حد له وأدرك الآن أن إرنست فلايشل لم يكن هو الآخر إلا طيفاً، شبحاً عائداً، وأرى أنه من الممكن غاية الإمكان أن يكون أمثال هؤلاء الأشخاص إنما يوجدون بمقدار ما يريد لهم المرء أن يوجدوا وأن في الوسع أن يتبددوا لو شاء الغير ذلك.

إن هذا الحلم البديع قد حوى عدة من الخصائص المحيِّرة لمحتوى الحلم [الظاهر]: كأن أمارس ملكة النقد في أثناء الحلم نفسه فألحظ خطئي حين أقول: Non vixit [لم يعش] بدل: Non vivit [ليس حياً]، ثم هذه الصلة الخالية من كل كلفة بموتى أعرف في الحلم أيضاً أنهم كذلك، ثم فساد استنتاجي الأخير وما أثاره هذا الاستنتاج من الطرب في نفسي! إني «لأبذل حياتي طواعية» لو قد استطعت بذلك أن أورد حل هذه الألغاز كاملاً. ولكن الحقيقة أني لا أستطيعه: إني لأعجز عن أن آتي ههنا ما آتيه في الحلم من التضحية بأشخاص أكن لهم أكبر التقدير في سبيل مطامحي. بيد أن كل استخفاء سوف يهدم مع هذا ما أعلم حق العلم أنه معنى الحلم. وعلى ذلك أقنع هنا ثم في الموضع الآخر [ص 504] بأن أنتقي قلة من عناصره لأفسرها.

لقد كان محور الحلم مشهداً أعدم فيه ب. بنظرة، وتحول عيناه في أثنائه إلى أزرق غريب يفارق كل مألوف، ثم يذوب هو ويختفي. وما من خطأ في أن هذا المشهد إنما ينسخ آخر قد عشته حقيقة. فقد عملت ممرِّنا في المعهد الفيزيولوجي وكان الواجب يقتضي أن أبدأ العمل في الصباح الباكر. ونمي إلى سمع بروكه أني كنت أصل متأخراً إلى معمل الطلبة في بعض الأحيان، فتوجه إلى المعمل ذات صباح ساعة البدء في العمل وانتظرني: كانت كلماته موجزة وكانت في الصميم. ولكن الذي همني لم يكن كلماته وإنما اكتسحتني عيناه الزرقاوان الرهيبتان اللتان سدَّدهما إليّ فأحالتاني إلى عدم ـ شأن ب. في الحلم، حيث انعكس الدوران بما يخفف عني. وإنَّ من يذكر عيني الأستاذ الجليل ـ هاتين العينين اللتين ظل لهما

جمالهما العجيب وهو بعد شيخ طاعن . ويذكر أنه رآه في صورة من الغضب ليستطيع في غير عناء أن يتخيَّل ما ولِيَ إذ ذاك الفتى الآثم من الانفعالات.

بيد أنني لبثت وقتاً طويلاً لا أفلح في العثور على مأتى جملة Non vixit التي صغت فيها ذلك الحكم على ب.، إلى أن خطر لي أن هاتين الكلمتين لم تحظيا في الحلم بتلك الدرجة الشديدة من الوضوح لأنني سمعتهما من قبل أو فهت بهما، بل لأنني رأيتهما. وحينئذٍ علمت على الفور من أين أتتا: فعلى قاعدة التمثال المقام للقيصر جوزيف في القصر الإمبراطوري بفيينا نقرأ تلك الكلمات الجميلة:

Saluti patriae vixit

non diu sed totus[451]

لقد أخذت من هذه الكلمات ما يلائم الخواطر العدائية التي كانت تتضمنها أفكار الحلم، وما كان معناه: «ليس لهذا الشخص رأي يعتد به؛ إنه ليس حياً على الإطلاق». وإني أذكر الآن أني رأيت هذا الحلم أياماً قليلة قبل أن يُرفع الستار عن نصب تذكاري أقيم لفلايشل في ساحة الجامعة. وكنت آنذاك قد رأيت نصب بروكه مرة ثانية، ولا بد أني فكرت آسفاً (تفكيراً لاشعورياً) كيف كان الموت المبكر سبباً في أن يفقد صديقي ب. الذي ندب حياته لخدمة العلم حقه المشروع المستحق في نصب يقام له في هاته الحرمات. وهكذا كان أن أقمت له في الحلم هذا النصب . وأذكر بعد أن صديقي ب. كان اسمه الأول جوزيف[452].

بيد أن قواعد تفسير الحلم لا تبرر حتى الآن كوني بدلت ب. non vivit التي أحتاج إليها non vixit المستمدة من ذكرى نصب القيصر جوزيف. لا بد أن أفكار الحلم قد حوَت عنصراً كان له أثره في جعل هذا التبديل أمراً ممكناً. وهأنذا أنتبه الآن إلى أن هذا المشهد من الحلم قد حوى مجريين من المشاعر نحو صديقي ب.: الأول عدائي، طاف على السطح والثاني ملؤه الود، مستتر، ولكنهما يبلغان جميعاً إلى التمثل في تلك الجملة الواحدة: non vixit. لقد استحق ب. أطيب الجزاء من العلم، فله أشيد نصباً، ولكنه تذنَّب عليّ برغبة شريرة (أعرب عنها في نهاية الحلم)، ولهذا أعدمته. إني ألحظ أن هذه الجملة الأخيرة قد أجريت على وتيرة خاصة، ولا بد أني كنت متأثراً فيها بنموذج احتذيته. أين نجد مثل هذا التقابل، مثل هذا التجاور جنباً إلى جنب بين استجابتين متضادتين تجاه شخص بعينه، استجابتين تدّعي كل منهما أن لها ما يبررها كمال التبرير دون أن تعمل مع ذلك على أن تغيِّر شيئاً من الأخرى؟ نجده في فقرة واحدة ولكنها فقرة تترك في النفس أثراً عميقاً، في الخطاب الذي يلقيه بروتوس لكي يبرر فعله في «يوليوس قيصر» لشكسبير: «أحبني قيصر، فعليه أبكي، وكان مجدوداً، فله أسر، وكان مقداماً، فإياه أبجِّل، لكنه كان طموحاً، لهذا قتلته». أليست بنية العبارة هنا وأليس التقابل في المعنى هنا هما اللذان رأيناهما في فكرة الحلم التي كشفت عنها. وإذن كنت ألعب بروتوس في الحلم. لو استطعت أن أجد في محتوى الحلم أثراً آخر يؤيد هذه الرابطة الجانبية المدهشة! إني أفكر في أن ما يأتي ربما كان شاهداً ممكناً: «جاء صديقي ف. إلى فيينا في شهر يوليه ». إن هذه النبذة من الحلم لا أساس لها في الحقيقة الواقعة؛ فصديقي ف. . بقدر ما أعلم . لم يأت قط إلى فيينا في شهر يوليه. ولكن يوليه شهر سمِّي باسم يوليوس قيصر، وهو إذن قد يمثِّل حقيقة هذه الإشارة التي أبحث عنها إلى تلك الفكرة المتوسطة، فكرة القيام بدور بروتوس[453].

والشيء العجيب هو أني قد لعبت بروتوس حقيقةً يوماً ما: فقد مثَّلت مرة أمام جمهور من الأطفال مشهداً من شيللر يدور بين بروتوس وقيصر. كنت أبلغ من العمر إذ ذاك أربعة عشر ربيعاً وكان يشاركني المشهد ابن أخ يكبرني بعام واحد، وكان قد وفد حديثاً من إنجلترا؛ فكان هو الآخر عائداً! إنه كان رفيق السنوات الأولى من طفولتي يُبعث بمجيئه إلى الوجود من جديد. فقد كنا حتى نهاية السنة الثالثة من حياتي صنوين لا يفترقان، أحب كلانا الآخر وناصبه العداء، وكان لهاته العلاقة الطفلية . كما ألمعت إليه من قبل . أثر حاسم في جميع علاقاتي التالية بمن كانوا في مثل سني. ومنذ ذلك الحين وابن أخي . جون . يجد له متقمصين عديدين يبعثون . على حسب الأطوار . هذا الجانب أو ذاك من شخصه المثبَّت في ذاكرتي اللاشعورية تثبيتاً لا يتزعزع. ولا بد أنه . بين الحين والحين . قد أذاقني شر المعاملة، ولا بد أني أظهرت شجاعة جمة في وجه طاغيتي؛ فكثيراً ما سمعت في مستأنف السنين عن خطاب قصير ألقيته دفاعاً عن نفسي إذ سألني والدي . وهو جد غريمي . الحساب: سألني: لمَ تضرب جون؟ فأجبته في لغة الطفل لما يبلغ العامين: ض. (ل.) بته؛ لأنه ض. (ل) بني. ولا بد أن هذا المشهد الطفلي هو الذي حرَّف non vivit إلى non vixit ؛ فالضرب في لغة سنوات الطفولة اللاحقة يسمَّى wichsen [؟يكسن]، وما يترفع عمل الحلم عن التوسل بأمثال هذه الروابط. والحق أن عدائي تجاه صديقي ب. لم يكن له من الحقيقة الواقعة إلا أقل المبررات، وكان إذن يرجع يقيناً إلى علاقتي الطفلية المعقدة بجون؛ لقد كان صديقي ب. يفضِّلني أضعافاً، وهو . لهذا . كان مهيئاً لأن يبدو لي مثل نسخة جديدة من رفيقي في اللعب.

وقد قلت: إن لي عَوداً إلى هذا الحلم.

ز

الأحلام اللامعقولة – النشاط العقليفي

الأحلام

لقد صادفنا عنصر اللامعقولية مراراً من قبل بينما كنا نفسر الأحلام التي سبقت ولسنا نستطيع بعد الآن أن نرجىء البحث في منشأ هذا العنصر وفي المغزى الذي قد يكون له؛ فما زلنا نذكر أن لامعقولية الأحلام قد زوّدت أولئك الذين ينفون قيمة الحلم بحجتهم الرئيسة في أن الأحلام يجب أن تعدّ نتاجاً لا معنى له تولَّد عن نشاط عقلي منقوص متقطع.

وأبدأ بتقديم أمثلة قليلة ليست اللامعقولية فيها إلا شيئاً ظاهرياً، ولكنها لا تلبث أن تختفي حين نقرب النظر إلى الحلم. وها هي ذي بضعة أمثلة تتصل بالأب الميت (وهي صلة قد تبدو للوهلة الأولى وليدة الصدفة).

حلم مريض كان قد فقد والده قبل الحلم بستة أعوام الحلم الآتي: نزلت بوالده نكبة بالغة: ذلك أنه كان يسافر ليلاً فخرج القطار عن السكة وانطبقت المقاعد بعضها فوق بعض وانضغط رأس والده حتى انطبق جانباً على جنب. يراه الحالم بعد ذلك راقداً في سريره وفوق حاجبه الأيسر جرح ذو اتجاه رأسي. يعجب الحالم من أن ينزل بوالده مكروه (ويزيد فيقول وهو يروي: لأنه كان قد مات). ما كان أفتح لون عينيه!

لو اتَّبعنا النظرية السائدة عن الأحلام لفسرنا محتوى هذا الحلم على ذلك الوجه: إن الحالم وهو يتخيَّل هذه الحادثة التي ألمّت بأبيه قد نسي أول الأمر أن أباه هذا راقد في قبره منذ سنوات متعددات، فلما استمر في حلمه استيقظت الذكرى وكانت النتيجة أنه عجب لحلمه وهو ما زال بنومه. بيد أن التحليل يعلمنا أن التماس أمثال هذه التعليلات لا يجدي شيئاً. لقد كان الحالم أوصى أحد الفنانين بصنع تمثال نصفي لأبيه، ولم يكن رأى التمثال للمرة الأولى إلا قبل الحلم بيومين. وإن تكن من نكبة ، فالنكبة إنما حلَّت بهذا التمثال؛ ذلك أن المثَّال لم يكن رأى والد الحالم قط وكان يعمل غير مستعين إلا بالصور الشمسية وحدها. وحدث في اليوم الذي سبق الحلم أن الحالم . مدفوعاً بتقواه البنوية . أرسل خادماً من خدم الأسرة القدماء ليرى بعينه هل كان الحالم محقاً في حكمه على الرأس المرمرية . وكانت تبدو له شديدة الضيق فيما بين الجانبين عند الصدغين. ثم يمضي الحالم فيأخذ في تذكُّر المادة التي شاركت في تكوين هذا الحلم: لقد كان من عادة الوالد حين تعذّبه هموم العمل أو متاعب الأسرة أن يضغط جانبي الجبهة بكلتا يديه كأنما كان يحس انبساطاً مفرطاً في رأسه ويودّ لو ضمَّها. . وحدث مرة أن المريض . وهو في الرابعة من عمره . كان حاضراً حين انطلق مسدس اتفق أنه كان مليئاً بالرصاص فاسودّت عينا والده (ما كان أفتح لون عينيه!) . وأما تلك البقعة فوق الجبهة حيث مكان الجرح في الحلم فكانت . ووالده على قيد الحياة . تحمل خطاً غائراً يظهر كلما ولى الوالد فكر أو حزن. فأما أن يرتفع هذا الخط ويحل جرح في موضعه فهذا ما يشير إلى المناسبة الثانية للحلم: ذلك أن الحالم التقط صورة شمسية لابنته الصغيرة وانزلقت اللوحة بين أصابعه، فلما التقطها رأى بها شرخاً جرى فوق جبهة الفتاة الصغيرة في اتجاه رأسي حتى حاجبها. ولم يملك الحالم إلا أن يتطيَّر؛ لأنه قبل أن تموت أمه بأيام قلائل قد كسر لوحة شمسية كانت تحمل صورتها.

وهكذا لا تخرج اللامعقولية في هذا الحلم عن أن تكون نتاجاً لما في التعبير اللغوي من إهمال يقعده عن التفرقة بين التمثال أو الصورة وبين الشخص الحقيقي؛ فكلُّنا قد نقول [ونحن نتحدث عن صورة] «ألا ترى أن الوالد غير مضبوط؟» وقد كان من السهل تجنب ظهور اللامعقولية في هذا الحلم؛ فلو جاز للمرء أن يحكم مستنِداً إلى مثال واحد لأغرينا بالقول: إن مظهر اللامعقولية هذا مظهر لاقى موافقة . إن لم يكن جاء عمداً.

(2)

وها هو ذا مثال ثان يشبه السابق غاية الشبه، أنتخبه من أحلامي (فقدت والدي عام 1896): قام والدي بعد موته بدور سياسي كبير بين المجريين، ووحَّد بينهم سياسياً. وهنا أرى صورة صغيرة غير واضحة: حشد من الناس كأنهم في الراخشتاج، يقف شخص على مقعد أو مقعدين وقد أحاط به آخرون. أذكر عندئذ كيف كان والدي . وهو على فراش الموت . شديد الشبه بغاريبالدي، وأسر لأن هذا الوعد قد صار حقيقة.

لفي هذا من اللامعقولية الكفاية! إن هذا الحلم قد جاءني في وقت آل فيه الهنغاريون إلى حال انعدم فيها القانون من جراء العرقلة

البرلمانية، وكانوا يجتازون هذه الأزمة التي خلَّصهم منها كولومان سنل[454]. ولم تكن تلك الملابسة التافهة: أن المشهد المرئي في الحلم قد تكوَّن من صور صغيرة كل الصغر . خالية من الأهمية فيما يتعلق باستجلاء هذا العنصر من الحلم. ذلك أن الحلم يصور أفكارنا عادة في صورة تقارب الحجم الطبيعي، ولكن الصورة التي رأيتها في حلمي إنما كانت تردد صورة محفورة من الخشب رأيتها منقولة في كتاب مصور عن تاريخ النمسا، وكانت هذه الصورة تمثل ماريا تيريزا في رايخشتاج برسبورج إبان المشهد المعروف [حين هتف نبلاء المجر بمبايعتهم]: «نموت فداء مليكنا»[455]. وقد وقف والدي محاطاً بالجموع مثل ماريا تيريزا، ولكنه وقف على مقعد [Stuhl] أو مقعدين، أي أنه كان قاضياً Stuhlrichter وترجمته الحرفيه هي: قاضي الكرسي بمعنى القاضي المترئس]. ثم هو قد وحدهم: إن الرابطة هنا هي هذا التعبير [الألماني] الدارج: لن نكون بحاجة إلى قاضٍ [أي سنكون متحدين لا متنابذين]. فأما أن والدي وهو على فراش موته قد لاح شبيهاً بغاريبالدي كل الشبه فذلك أمر لاحظناه جميعاً نحن الذين اجتمعنا من حوله في هاته الساعة؛ فقد ارتفعت درجة حرارته عقب الوفاة واحمرت وجنتاه حمرة زادت عمقاً بعد عمق. إن الخاطر لينساق هنا طواعية إلى تلك الكلمات: «ومن ورائه يجثم . في مظهر خلو من كل حقيقة . هذا القيد الذي يغلُّنا جميعاً: الأمور المشتركة [أو المشاعة المبتذلة]»[456].

إن هذا العلاء في أفكارنا يجعلنا نتوقع أننا لا بد آتون إلى هذا «المبتذل» على التحقيق. فارتفاع درجة حرارة والدي «عقب الوفاة» هو المضمون الذي يقابل قول الحلم: «بعد موته» ، وقد كان أقسى ما لاقاه والدي من العذاب شلل الأمعاء شللاً تاماً (العرقلة) في خلال الأسابيع الأخيرة. وترتبط بذلك أفكار لا توقير فيها من كل صنف. من ذلك أن أحد أقراني . وكان قد فقد والده ونحن لا نزال بالمدرسة الثانوية وكنت قد تأثَّرت له كثيراً إذ ذاك وبذلت له من صداقتي . قد قصَّ عليَّ مستهزئاً أي ألم أصاب إحدى قريباته إذ سقط والدها ميتاً في الطريق، وأُحضر إلى المنزل محمولاً، فلما نزعت الثياب عن جسده تبيّن أن عمود البراز [Stuhl] قد نزح منه في لحظة الوفاة أو عقب الوفاة. وكانت الابنة تشعر بتعس عميق إذ ترى هذه اللمحة الكريهة تنغص ذكراها لأبيها. ههنا نلمس الرغبة التي تجسَّمت في هذا الحلم: أن يقف الأب بعد مماته طاهراً عظيماً في أعين أبنائه . ومن ذا الذي لا تجول بصدره هذه الرغبة؟ ولكن ماذا عن لامعقولية الحلم؟ إن مظهرها إنما يرجع إلى أن تعبيراً جارياً يستسيغه الجميع كل استساغة وألفنا أن نغض النظر عن اللامعقولية المتضمنة في التناقض الذي بين مقوماته قد صور في الحلم بحذافيره. وهنا أيضاً لا نستطيع أن نتجنب الشعور بأن مظهر اللامعقولية في الحلم مظهر مقصود، مستثار عمداً.

إن الكثرة التي يخطر بها الموتى في أحلامنا ويعملون ويتصلون بنا كما لو كانوا أحياء كانت مثاراً لعجب لا داعي إليه وسبباً في نظريات غريبة تبرز سوء فهمنا للأحلام إبرازاً قوياً. وتعليل هذه الأحلام قريب مع ذلك منا كل القرب. فكم من مرة نرانا في موقف نتساءل معه: «ترى ماذا كان يقول الوالد لو كان حياً؟» ولا يستطيع الحلم أن يصور «لو» هذه بغير الحضور الفعلي في موقف بعينه. مثال ذلك شاب ترك له جده ميراثاً كبيراً، فلما أخذ يؤنب نفسه لأنه أضاع قدراً لا يستهان به من المال حلم بأن جده يناقشه الحساب. وإن ما نعتقد أنه نقد موجّه إلى الحلم إذ نحتج استناداً إلى معرفتنا الوثقى بأن الرجل ميت مطمور بعد كل شيء، ليس في الحقيقة إلا عزاء يقول لك: إن الميت قد أغناه الموت عن أن يرى هذا كله، أو ارتياح إلى ما آل إليه من العجز عن أن يتدخل بخير أو بشر.

وهناك نوع آخر من اللامعقولية يظهر في أحلام الأقارب المتوفين ولكن دون أن يعرب عن سخرية أو زراية[457]، وإنما عن استنكار بلغ منتهاه، وبذلك يفيد في تصوير فكرة مكبوتة يؤثر المرء أن ينظر إليها نظرته إلى أمر يستحيل مجرد التفكير فيه. وتبدو الأحلام التي من هذا النوع مستعصية على كل حل ما لم ننتبه إلى أن الحلم لا يفرِّق أقل تفرقة بين ما هو حقيقي وما هو موضوع رغبة. مثال ذلك رجل عنيَ بأبيه في أثناء مرضه وألم لموته ألماً بالغاً ثم بعد أن انقضى زمن على موته حلم هذا الحلم غير المعقول: كان أبوه حياً من جديد وكان يتحدث إليه كسابق عهده ولكنه (وهذا هو الشيء العجيب) كان مع ذلك ميتاً، سوى أنه لم يكن يعلم أنه كذلك. إننا نفهم هذا الحلم حين نضيف إلى «كان مع ذلك ميتاً»: «نتيجة لرغبة الحالم» ، وحين نكمل «دون أن يعلم» بـ: «أن تلك رغبة الحالم». ذلك أن الحالم قد اشتهى الموت لوالده مراراً بينما كان يقوم بتمريضه، وهذا يعني أنه قد ساورته تلك الفكرة التي كانت في الحقيقة مشرَّبة بالرحمة: أن يضع الموت حداً لعذاب أبيه. فلما جاء الحداد في أعقاب الموت أصبحت هذه الفكرة عينها مثاراً لتأنيب لاشعوري، كأنما كان من أثرها أن قصرت بالفعل حياة المريض. ولقد أمكن الإفصاح عن هذا التأنيب في صورة حلم، لأن أقدم الدوافع الطفلية العدائية نحو الأب قد أثيرت ثائرتها، إلا أن الفرق الساحق بين الحافز إلى الحلم وبين أفكار اليقظة . هذا الفرق على التحديد . هو الذي حتَّم خروج الحلم على تلك الصورة اللامعقولة. (أنظر فرويد، 1911ب).

والحق أن الأحلام المتعلقة بمن ماتوا من أحباء الحالم تثير في وجه التفسير مشكلات صعبة ليس من المستطاع في كل حالة الوصول إلى حلها حلاً مرضياً. والسر في ذلك ينبغي التماسه فيما يسيطر على علاقة الحالم بالشخص الميت من ازدواج عاطفي ذي شدة خاصة ملحوظة. ومن الشائع في الأحلام التي من هذا القبيل أن يعامل الشخص الميت في المبدأ كما لو كان حياً، ثم ينقلب فإذا هو ميت، ثم يعود إلى الحياة في جزء تال من الحلم. وكل هذا سبب في أن تختلط الأمور علينا. ولقد خطر لي في النهاية أن هذا التداول بين الموت والحياة قد يكون القصد منه استواء الطرفين عند الحالم («سواء عندي أن يكون حياً أو ميتاً»). وهذا الاستواء بالطبع ليس حقيقة بل موضع رغبة وحسب، والقصد منه هو مساندة الحالم على أن ينبذ مواقفه العاطفية ذات الشدة المفرطة والتي يكثر تناقضها، وهو لهذا يصير وسيلة يصور بها الحلم الازدواج الذي في عاطفة

الحالم. وهناك أحلام يتواصل فيها الحالم والميت، وهنا تعيننا القاعدة الآتية على أن نجد طريقنا: إذا لم يذكر في الحلم أن الميت ميت، فالحالم يساوي نفسه بالميت، أي أنه يحلم بموته نفسه، فإن صاح فجأة في دهش: «ولكنه قد مات يقيناً منذ زمن طويل!» فالحالم يطرح هذه المساواة وينبذ ما يحمله الحلم من معنى موته. بيد أنني أعترف بشعوري بأن تفسير الأحلام ما زال بعيداً عن أن يفض جميع الأسرار التي تنطوي عليها الأحلام التي لها هذا المحتوى.

(3)

ولقد أمكنني في المثال الذي سأرويه الآن أن أفاجيء عمل الحلم وهو يعمل عن عمد على خلق مظهر من مظاهر اللامعقولية دون أن تكون في مادة الحلم أقل مناسبة لذلك. والمثال مأخوذ من الحلم الذي أثاره التقائي بالكونت تون وأنا أهم بالإجازة [ص 250]: «أركب عربة وآمر السائق بالتوجّه إلى المحطة. أقول له بعد أن أثار اعتراضاً ما ـ كأن أكون أرهقته: إنني بالطبع لا أستطيع أن أركب معك مسافة السكة الحديدية نفسها: وهنا يبدو الأمر كأنما كنت قد ركبت معه بالفعل المسافة التي يقطعها المرء عادة بالقطار». إن التحليل يزوّدنا بما يلي في توضيح هذه القصة المشوشة غير المعقولة: أجَّرت في اليوم السابق عربة لكي تحملني إلى شارع ناءٍ في دورنباخ [من ضواحي فيينا]، ولم يكن الحوذي يعلم مكان الشارع، ولكنه مع ذلك أخذ يسوق ويوغل على ما نعلم من عادة هؤلاء القوم الأماجد، إلى أن انتبهت أخيراً فأعلمته أين الطريق الصحيح دون أن أبخل عليه ببعض الملاحظات الساخرة. وكانت هناك رابطة فكرية ـ سألتقي بها مرة أخرى فيما بعد ـ تقود من الحوذي إلى النبلاء. وأما الآن فلم تكن إلا تلك الفكرة العابرة، وهي أن أشد ما يدهشنا نحن عامة البورجوازيين من النبلاء هو غرامهم بالجلوس في مقعد السائق؛ فقد كان الكونت تون في الحقيقة يقود عربة الدولة النمسوية. بيد أن الجملة التالية كانت تشير إلى أخي الذي عينته ـ إذن ـ في الحلم بسائق العربة؛ فقد حدث في هذا العام أنني عدلت عن رحلة كنا عزمنا على القيام بها سوياً إلى إيطاليا («إنني لا أستطيع أن أركب معك مسافة السكة الحديدية نفسها»)، ولقد كان هذا العدول نوعاً من العقاب على ما كنت أسمعه من شكاياته: فأنا في أمثال هذه الرحلات لا أكف عن إرهاقه (وهو ما ورد في الحلم من غير تحريف) بالإصرار على الانتقال العاجل من مكان إلى آخر وعلى مشاهدة عدد لا يحصى من الأشياء الجميلة في اليوم الواحد. وكان أخي قد صحبني ذلك المساء إلى المحطة، ولكنه قفز قبلها بمسافة قصيرة عند محطة خطوط الضواحي الملحقة بمحطة الخطوط الرئيسة لكي يركب الخط الذاهب إلى پوركسدورف [على سبعة أو ثمانية أميال من فيينا]. وكنت في حديثي إليه قد لاحظت أنه كان يستطيع أن يمكث معي فترات أطول أو أنه سافر إلى پوركسدورف بالخط الرئيس بدل السفر بخط الضواحي. ومن هنا جاء في الحلم أني ركبت بالعربة جزءاً من المسافة التي يقطعها المرء عادة بالسكة الحديدية. ولقد كان ذلك عكس ما وقع في الحقيقة (و«الركوب المعكوس هو أيضاً ركوب»)[458]؛ فقد كنت قلت لأخي: تستطيع أن تركب معي على الخط الرئيس تلك المسافة التي تريد أن تقطعها في خط الضواحي. وكنت أنا مبعث كل الخلط في الحلم بأن وضعت «العربة» بدل «خط الضواحي» ـ وهو ما أفاد على أية حال فائدة طيبة في الربط بين الحوذي وأخي. وهكذا أخلق في الحلم شيئاً لا معنى له، يبدو مختلطاً اختلاطاً يكاد يتعذر معه كل حل، ثم هو يكاد يناقض ملاحظتي السابقة في الحلم («إنني لا أستطيع أن أركب معك مسافة السكة الحديدية نفسها») كل المناقضة. وإذ لم تكن هناك أية ضرورة تدعوني إلى أن أخلط بين سكة حديد الضواحي والعربة، فلا مناص من التسليم بأن كل هذه الأشغولة الملغزة إنما جاءت لغرض في نفسي.

ولكن أي غرض؟ إن علينا الآن أن نكتشف معنى اللامعقولية في الحلم والدوافع التي تدفع إلى قبولها أو خلقها خلقاً. وحل اللغز في الحالة التي نحن فيها هو ما يأتي: إنني كنت محتاجاً إلى أن أحيك مظهراً من مظاهر اللامعقولية، شيئاً غير مفهوم مرتبطاً بكلمة **fahren**)[459] لأنني كنت أضمر بين أفكار الحلم معنى لم يكن بد من تصويره. وبيان ذلك أنه حدث ذات مساء أني كنت في منزل سيدة كريمة عالية الذكاء ـ هي التي ظهرت في صورة «مدبرة المنزل» في أحد مشاهد هذا الحلم عينه ـ وهناك سمعت أحجيتين طُلب مني أن أجد حلَّهما. وكانت بقية الجماعة تعرف هاتين الأحجيتين، فكان منظري وأنا أحاول سدى العثور على الإجابة باعثاً على الضحك. وكانت الأحجيتان تقومان على تورية في معنى كلمتَي **Nachkommen Vorfahren** ، وكان نصهما ـ فيما أعتقد ـ هو الآتي: **Der Herr befiehlt's,**

Der Kutscher tut's.

Ein jeder hat's,

Im Grab ruht's.

[السيِّد يطلبه

الحوذي ينفذه.

الجميع يملكه

في القبر مرقده].

الجواب: Vorfahren [وهو فعل بمعنى «تقدم بعربته» واسم بمعنى «السلف» أو «المتقدمون»].

وكان مما يبعث على الارتباك أن النصف الأول من الأحجية الثانية كان مشتركاً بينها وبين الأولى: Der Herr befiehlt's

Der Kutscher tut's.

Nicht Jed r hat's

Im der Wiege ruht's

[السيِّد يطلبه

الحوذي ينفذه.

ليس الكل يملكه

في المهد مرقده].

الجواب: Nachkommen [ويعني «تبع» وأيضاً «الخلف» أو «الذرية» أو «اللاحقون»].

فلمَّا رأيت الكونت تون تتقدم عربته على هذا النحو الفخم وتولاني عندئذ مزاج فيجارو بملاحظته عن طيبة السادة الذين كلَّفوا أنفسهم عناء المجيء إلى الحياة (أن يكونوا خلفاً)، اقتبس عمل الحلم هاتين الأحجيتين متخذاً منهما فكرتين متوسطتين[460]. وإذ كان من السهل أن نخلط بين النبلاء والحوذية [أو السائقين] وكان هناك زمان في بلدنا كنا نسمِّي فيه الحوذي: Herr Sehwager Schwager يعني «صهر» أو على الأدق «أخ بالمصاهرة»]، فقد وسع التكثيف أن يدرج أخي في ذات الصورة. وكانت فكرة الحلم التي تعمل عملها وراء هذا كله هي الفكرة الآتية: إن من الخرق أن يتيه المرء بسلفه، إني أوثر أن أكون أنا نفسي سلفاً ورأس سلالة. ومن أجل هذا الحكم: «إن كذا خرق» ظهر الخرق في الحلم. وهكذا يحل آخر لغز في تلك الفقرة المعتمة من الحلم: أني تقدمت مع الحوذي [على تلك المسافة]، أني كنت متقدماً [أو سابقاً، أي سلفاً].

الحلم . إذن . يُجعل لا معقولاً أو فاسداً إذا كان بين العناصر المتضمنة في أفكار الحلم حكم فحواه: إن ذلك خرق ، أي إذا كان بين أفكار الحالم اللاشعورية فكرة دافعها النقد أو الزراية. واللامعقولية على ذلك أحد المناهج التي يتوسَّل بها عمل الحلم إلى تصوير التناقض بجانب المناهج الأخرى: كأن تقلب علاقة بين المواد عند الانتقال من أفكار الحلم إلى محتوى الحلم [ص 360] أو مثل استخدام إحساس الحركة المكفوفة [ص 370]. غير أن اللامعقولية في الحلم لا تنبغي ترجمتها بـ «كلا» وحسب، بل المراد من ورائها هو استعادة ما يصحب أفكار الحالم من حالة مزاجية تجمع النقد أو الزراية إلى جانب المناقضة. فإن جاء عمل الحلم بما يجلب الضحك فلهذا الغرض وحده، أي أنه . هنا أيضاً . إنما يضفي صورة ظاهرة على محتوى الحلم الكامن[461].

والحق أننا مررنا من قبل بمثال مقنع من حلم غير معقول كان له مثل هذا المعنى: الحلم الذي فسرته من غير حاجة إلى تحليل، حلم أوبرا ؟ اجنر التي طالت حتى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والأربعين، وكانت الفرقة الموسيقية تُقاد فيه من برج، إلخ. (أنظر ص 376). فقد كان واضحاً أن هذا الحلم كان يعني: «إنه لعالم مخبول ومجتمع مجنون ؛ فمن استحق شيئاً لم ينله، وينالـه من كان في غنى عنه» . وكانت الحالمة إذ ذاك تقارن بين حظها وحظ قريبتها. وما كان على الإطلاق بالاتفاق المحض أن جاءت أمثلتنا الأولى على اللامعقولية في الحلم متعلقة بأب ميت؛ ففي أمثال هذه الحالات تجتمع الشروط الضرورية لخلق الأحلام اللامعقولية على نحو مثالي. فالسلطة التي خصّ بها الأب تثير نقد الأبناء منذ سن مبكرة، ووطأة المطالب التي يقتضيها منهم تجعلهم يعيرون كل ضعف يبدو منه انتباهاً؛ لكي يتخففوا. غير أن الخشوع البنوي الذي يغمر به الأب نفوسنا . وخاصة بعد مماته . يشحذ الرقابة التي تقف دون كل إفصاح شعوري عن مثل هذا النقد.

(4)

وها هو ذا حلم آخر غير معقول يدور حول أب ميت:

تلقيت من مجلس البلدة التي ولدت فيها رسالة تتعلق بمبلغ يجب سداده؛ ففي سنة 1851 احتجزت المستشفى رجلاً لنوبة كانت قد حلَّت به وهو في منزلي. ويثير ذلك ضحكي: فأولاً لم أكن ولدت سنة 1851، وثانياً فإن والدي الذي ربما كانت هذه الرسالة تتعلق به قد صار في عداد

الأموات. أذهب إلى والدي في الحجرة المجاورة حيث كان يرقد في سريره وأسأله الخبر، ولشد ما يكون دهشي حين يتذكر أنه قد سكر مرة في سنة 1851 وأن الأمر قد أدى إلى حبسه أو احتجازه، وكان ذلك في الوقت الذي كان يعمل فيه لحساب شركة ت. أسأله: «إذن السكر أيضاً كان من عاداتك؟ هل تزوجت عقب ذلك؟» أجري الحسبة فأذكر أنني ولدت في سنة 1856 ويلوح لي أن تلك هي السنة التي أعقبت سنة 1851 مباشرة.

إننا إذ نرى إمعان هذا الحلم في نشر مظاهر لامعقوليته سوف نخلص في ضوء المناقشة السابقة إلى أن هذا الإمعان لا يمكن إلا أن يكون دليلاً على أن أفكار الحلم قد انطوت على مجادلة بلغت مبلغاً خاصاً من المرارة وشدة الانفعال. ونحن إذن لن نزيد إلا دهشاً حين نلحظ أن المجادلة قد دارت في هذا الحلم علانية وأن والدي كان الهدف الصريح للسخرية؛ فمثل هذه العلانية تبدو شيئاً يتناقض وفروضنا المتعلقة بأثر الرقابة في عمل الحلم. ولكن هذا الغموض لا يلبث ينجلي حين نعلم أن الأب في هذا المثال لم يكن يعدو أن يكون حجاباً وأن رحى المنازعة إنما تدور مع شخص آخر لا يظهر أثره في الحلم إلا في إشارة مفردة. فبينما المألوف هو أن يدور الحلم حول التمرد في وجه شخص آخر يستتر الأب من ورائه، إذاً العكس هو الصحيح هنا: فالأب رجل من قش قصد من ورائه إلى تغطية البعض، وللحالم أن يتعرض على هذا النحو المكشوف لشخص يلقى منه في العادة تنزيهاً لأني أعلم علم اليقين أن والدي ليس الشخص المعني حقيقة. وتبيّن لنا مناسبة الحلم أن الأمر كذلك؛ فقد جاءني هذا الحلم بعد أن سمعت أن زميلاً يكبرني، كان حكمه يوضع فوق كل نقد، قد أعرب عن استيائه ودهشه لأن أحد مرضاي قد شارف علاجه التحليلي السنة الخامسة [462]. والجمل الأولى من الحلم تشير من خلال قناع شفاف إلى تلك الحقيقة: وهي أن هذا الزميل كان قد أخذ على عاتقه بعض الزمن التبعات التي لم يعد والدي يستطيع القيام بها (المبلغ الواجب السداد، دخول المستشفى)، وأنني حين أخذت آصرة الصداقة بيننا في الوهن صرت أراني فريسة هذا الصراع العاطفي الذي ينشأ حقاً حين تسوء العلاقة بين الأب والابن؛ للموضع الذي يشغله الأب ولسالف مآثره. وإن أفكار الحلم لتحتج احتجاجاً مراً على ما أُلام عليه من التلكؤ . وهو لوم يجيء أول الأمر في صدد علاج هذا المريض ولكنه يمتد بعد ذلك إلى أمور أخرى: أيعرف شخصاً آخر يستطيع أن يسرع عني؟ ألا يعلم أن أمثال هذه الحالات . إذا تركنا علاجي . لا تجد لها برءاً وأنها تدوم أبد الحياة؟ وما أربع سنوات أو خمس بالقياس إلى العمر بأجمعه، خاصة أن عبء الحياة قد يسر على المريض في خلال العلاج يسراً كبيراً؟

وقد كان جزء كبير من طابع اللامعقولية في هذا الحلم يرجع إلى أن جملاً مستعارة من أنحاء شتى في أفكار الحلم قد أجريت معاً من غير وصل أو واسطة. مثال ذلك جملة: «أذهب إليه في الحجرة المجاورة... إلخ». إنها تترك الموضوع الذي كانت تدور من حوله جمل الحلم السابقة لتستعيد الملابسات التي أعلمت فيها والدي بنبأ خطبتي دون سابق استشارته استعادة أمنية. وهذه الجملة ترمي . إذن . إلى تذكيري بما أظهره الرجل الشيخ إذ ذاك من إيثار رفيع وتقارن مسلكه هذا بمسلك شخص آخر، شخص جديد. وإني لألحظ هنا أن الحلم قد استباح لنفسه هذه السخرية بالأب لأنني في اعتراف كامل بسموّه قد نصبته قدوة للآخرين؛ فمن طبع الرقابة . كل رقابة . أن تُحل لك كذب الكلام في المحظورات مؤثرة إياه على الحق صراحاً. فأما الجملة التالية . عن كونه تذكر أنه قد سكر مرة واحتُجز من جرائها . فقد انقطع فيها كل ما يمت في الحقيقة بسبب إلى والدي. وإنما المستتر وراءه في هذا الموضع ماينيرت العظيم لا أقل . ماينيرت الذي قفوت أثره في إجلال يعلو على الوصف والذي انقلب مسلكه إزائي . بعد فترة قصيرة من الرضى . إلى عداوة لا تقنُّع فيها. والحلم هنا يذكرني بأن ماينيرت . بنفسه . قد أخبرني يوماً أن شبابه لم يخلُ من فترة اعتاد فيها أن يدمن على تخدير نفسه بالكلوروفورم ، وأنه اضطر من جراء ذلك إلى النزول بإحدى المصحات. ويذكرني الحلم أيضاً بحادثة أخرى تتصل بماينيرت سبقت وفاته بزمن قصير: فقد كانت دارت بيننا في الصحف العلمية مناقشة حامية الوطيس حول موضوع الهستيريا عند الرجال (وهو الأمر الذي كان هو ينكر وجوده)، فلمّا زرته في خلال العلة التي مات فيها واستفسرته عن صحته أفاض بعض الإفاضة في الحديث عن حاله ثم اختتم حديثه بتلك الكلمات: «أتعلم؟ لقد كنت دائماًحالة من أجمل حالات الهستيريا عند الرجال». وهكذا سلَّم ماينيرت . تسليماً أرضاني وأدهشني . بما أصرَّ على إنكاره كل هذا الزمن الطويل. ولكن السبب الذي مكّنني من أن أتخذ من أبي حجاباً يحجب ماينيرت في هذا المشهد من الحلم لم يكن يرجع إلى شبه اكتشفته بين كلا الشخصين، بل إلى كون المشهد كان تصويراً موجزاً . ولكنه تصوير وافٍ . لجملة شرطية تضمنتها أفكار الحلم، هذا هو نصها الكامل: طبعاً، لو كنت خليفة أستاذ أو عميد، ابناً لهذا أو لذاك، لكنت يقيناً قد أسرعت عن ذلك. وهكذا جعلت من والدي في الحلم عميداً وأستاذاً. ولكن أنكر ما اشتمل عليه هذا الحلم من وجوه اللامعقولية وأشده إزعاجاً يقوم في معالجة تاريخ سنة 1851 الذي بدا لي لا يفترق من عام 1856 كما لو كان فرق سنوات خمس أمراً لا يعتد به على الإطلاق. ولكن تلك على التحديد كانت إحدى أفكار الحلم التي كان يراد الإفصاح عنها؛ فأربع سنوات أو خمس تلك هي مدة الزمن الذي حظيت فيه بتأييد الزميل الذي أشرت إليه من قبل، وهي أيضاً مدة الزمن الذي تركت فيه خطيبتي تنتظر زواجنا، ثم هي كانت بعد ذلك . بصدفة عارضة حرصت أفكار الحلم على استغلالها . مدة الزمن الذي جعلت فيه أطول مرضاي تحليلاً ينتظر كامل شفائه. فأفكار الحلم تسأل: «وما خمس سنوات؟ إنها بقدر ما يعنيني الأمر ليست زمناً على الإطلاق ولا يحسب لها حساب. وإني لأملك وقتاً كافياً أمامي، وسأنجح أخيراً في هذا كما نجحت من قبل في ذلك . وإن لم تصدقوا». هذا، ثم إن الرقم 51 في ذاته، مستقلاً عن رقم القرن، قد حتمه معنىً آخر يتجه يقيناً في وجهة مخالفة، ومن هنا كان مجيئه في الحلم مرات متكررة: ذلك أن الحادية والخمسين . فيما يبدو . سن مفعمة بالخطر في حياة الرجل، هي السن التي رأيت فيها كثيراً من الزملاء يقضون نحبهم، وكان منهم زميل رقيَ بعد طول انتظار إلى منصب الأستاذية قبل موته بأيام معدودات[463].

(5)

وها هو ذا حلم آخر فاسد يتلاعب بالأرقام:

هوجم أحد معارفي ـ وهو السيد م. ـ في مقال ما مهاجمة كان من رأينا جميعاً أنها بلغت حداً من العنف لا مبرر له. وكان المهاجم جوته نفسه ـ لا أقل. ومن الطبيعي أن السيد م. قد سحقه هذا الهجوم. إنه يشتكي منه مر الاشتكاء إلى صحبة في إحدى الولائم، بيد أن هذه المحنة الشخصية لم تنل شيئاً من إجلاله لجوته. أحاول أن ألقي بعض الضوء على المعطيات الزمنية التي بدت لي بعيدة عن الرجوح: لقد مات جوته عام 1832، وطبعي أن هجومه هذا على السيد م. قد سبق هذا التاريخ، ولا بد إذن أن السيد م. كان في ذلك الوقت شاباً في مقتبل الشباب. يلوح لي أن الراجح أنه كان إذ ذاك في الثامنة عشرة من عمره. غير أنني لم أكن واثقاً من السنة التي نحن فيها، بحيث تتبخر حسبتي وتستبهم. هذا وقد وردت تلك المهاجمة في مقال جوته المعروف عن الطبيعة.

إننا لن نلبث طويلاً دون أن نجد السبيل إلى تبرير ما في هذا الحلم من البله. فالسيد م. الذي اتفقت لي معرفته بين صحبة في إحدى الولائم كان قد سألني منذ زمن غير بعيد أن أفحص أخاه لما بدا عليه من علامات الاضطراب العقلي الشللي. وكان السيد م. مصيباً فيما خمّنه. وقد وقعت في خلال هذه الزيارة واقعة مؤسفة: ذلك أن المريض ـ لغير سبب مفهوم ـ قد أحرج أخاه في خلال الحديث بإشارة إلى حماقات شبابه. هذا وقد كنت سألت المريض عن السنة التي ولد فيها، كماجعلته يقوم ـ عدة مرات ـ بجمع أعداد صغيرة لكي أمتحن ضعف ذاكرته. وأذكر بعد أنه كان لا يزال قادراً على القيام بها خير قيام. وهأنذا ألحظ أنني قد سلكت في الحلم كما يسلك مشلول (لم أكن واثقاً من السنة التي نحن فيها). وهناك جزء آخر من مادة الحلم اشتق من مصدر آخر حديث العهد: ذلك أنَّ ناشراً لإحدى الصحف الطبية، كانت تربطني به علاقات المودة، قد نشر نقداً جارحاً إلى أبعد الحدود، نقداً «ساحقاً» ، لكتاب صديقي ف. [فليس] الأخير، وكان صاحب هذا النقد معلّقاً في مقتبل الشباب ، ضعيف القدرة على الحكم، وارتأيت أن لي حقاً في التدخل، فناقشت الناشر الحساب. فأعرب لي إعراباً حاراً عن أسفه لنشر هذا النقد، ولكنه لم يشأ الوعد بعلاج المسألة، فقطعت صلتي بالصحيفة، ولكنني أعربت في خطاب استقالتي عن أملي في ألا تنال هذه الحادثة من علاقاتنا الشخصية. فأما المصدر الثالث للحلم فرواية كانت لا تزال حية في ذهني سمعتها من مريضة وهي تصف مرضاً عقلياً أصاب أخاها، وكيف أخذته الآخذة وهو يصرخ: «أيتها الطبيعة! أيتها الطبيعة!». ولقد اعتقد الأطباء أن النداء كان وليد قراءته مقالة جوته الرائعة، وأنه ـ هذا النداء ـ كان يبيِّن إلى أي حد أنهكت المريض قراءته في الفلسفة الطبيعية. ولكنني ـ من ناحيتي ـ كنت أفضل التفكير في المعنى الجنسي الذي تستخدم فيه كلمة «الطبيعة» عندنا حتى على ألسنة من هم أقل ثقافة. وكان أن فكرتي هذه لم تجد على الأقل ما يكذبها حين قطع الشاب العاثر أعضاءه التناسلية. وكان عمر المريض ثمانية عشر ربيعاً حين وليته تلك النوبة.

فإذا أضفت أن كتاب صديقي الذي لقي كل هذا النقد القاسي (لقد قال عنه معلق آخر: «إن المرء ليعجب أهو المجنون أم المؤلف») كان يعالج موضوع المعطيات الزمنية للحياة ويبيِّن أن عمر جوته رقم مضاعف لعدد [من الأيام] له قيمته البيولوجية، سهل أن نفهم أنني كنت في هذا الحلم أضع نفسي في موضع صديقي. (أحاول أن ألقي بعض الضوء على المعطيات الزمنية). بيد أنني سلكت كما يسلك مشلول فجاء الحلم ركاماً من الأباطيل، وهذا يعني أن أفكار الحلم تقول على سبيل التهكم: «طبعاً، إن صديقي هو المجنون، هو الملتاث؛ وأنتم العباقرة الأحسن علماً. وكيف يكون العكس؟» وهذا العكس يتمثل بعد ذلك بإسهاب في محتوى الحلم: فجوته يهاجم شاباً في مقتبل العمر ـ وهو شيء غير معقول ـ في حين يستطيع اليوم يافع أن يقدح في جوته ـ وهو الخالد ـ وأنا أجري الحساب ابتداءً من سنة موت جوته ، في حين أنني جعلت المشلول يحسب عمره ابتداء من سنة ميلاده.

غير أنني كنت قد أخذت من قبل في تبيان أن الحلم إنما تحركه دوافع الأثرة دون غيرها [ص 305]، وعلى ذلك فلا مفر من أن أبيّن كيف اتفق في هذا الحلم أنني جعلت قضية صديقي قضيتي ووضعت نفسي في موضعه. إن اقتناعي النقدي [بآراء صديقي] في حياة اليقظة ليس سبباً كافياً. ولكن ها هي ذي قصة المريض ذي الثمانية عشر ربيعاً والتفسيرات المختلفة في أمر ندائه «أيتها الطبيعة!»؛ فهذه إشارات إلى التعارض الذي أراني فيه تجاه معظم الأطباء لما أعتقده من أن للأعصبة عللاً جنسية. ولي إذن أن أحدِّث نفسي قائلاً: هذا النوع من النقد الموجّه إلى صديقك سوف تدور عليك دائرته يوماً ما، لا بل أنت قد ذقته بالفعل إلى حد. وعلى ذلك يسعنا أن نضع «نحن» في أفكار الحلم بدل «هو»: «نعم، أنتم العقلاء ونحن المجانين». وفي الحلم أثر يذكرني في وضوح كبير بأنني «ما أهاجتني سوى أشجاني»[464]، هذا الأثر المذكِّر هو تلك الإشارة إلى مقالة جوته الجميلة جمالاً لا يعدله جمال[465]: ذلك أنني سمعت هذه المقالة تُقرأ بصوت عالٍ في محاضرة عامة وكنت قد فرغت من الدراسة الثانوية حائراً لا أدري ماذا أكون، فكان هذا السماع دافعي إلى دراسة العلوم الطبيعية.

وهناك حلم آخر كنت قد شرعت أبيّن في صفحات سابقة من هذا الكتاب أنه كان حلماً أنانياً وإن لم يظهر فيه أناي. فقد رويت في ص 307 حلماً قصيراً كان مؤدّاه أن الأستاذ م. يقول: «يا بني، قصير النظر...» ثم قلت إن هذا الحلم لم يكن إلا مقدمة لحلم آخر كان لي فيه نصيب. وها هو ذا الحلم الرئيس الباقي الذي يطالعنا بصيغة لفظية غير معقولة ولا مفهومة، يحتاج أمرها إلى بعض الإيضاح: وقعت في مدينة روما أحداث اقتضت نقل الأطفال إلى مكان أمين ـ وهو عمل تم. يجري المشهب أمام أحد مداخل المدينة، مدخل ذي بابين على الطراز القديم (هو «الباب الروماني» الذي في مدينة سيينا ـ كما وعيته في الحلم نفسه). أجلس على حافة إحدى النوافير وأنا شديد الاكتئاب أكاد أبكي. يقبل شخص مؤنث ـ وصيفة أو راهبة ـ وتحضر معها طفلين وتسلّمهما إلى أبيهما ـ وكان شخصاً آخر عداي. الولد الأكبر هو من غير شك إبني الأكبر، لست أدري وجه الآخر. تسأل المرأة التي أحضرت الطفل قبلة وداع منه. إن لها أنفاً أحمر يلفت النظر. يأبى الولد أن يقبلها، ولكنه يقول لها وهو يمسك يدها مودعاً: Auf Geseres ، ثم يقول لنا كلينا (أو لأحدنا): Auf Ungeseres. يدور بذهني أن هذه العبارة الأخيرة تفيد التفضيل.

لقد بني هذا الحلم على حزمة مختلطة من الأفكار أثارتها مسرحية شهدتها، كان عنوانها: «الجيتو الجديد». ومن السهل أن نرى أن للمشكلة اليهودية مكانها بين أفكار هذا الحلم: قلق المرء على أبنائه الذين لا يستطيع أن يوفّر لهم وطناً يكون وطنهم، القلق من أجل تعليمهم التعليم الذي يمكّنهم من أن ينتقلوا عبر الحدود أحراراً.

«على أنهار بابل، هناك جلسنا وبكينا»[466]. ـ إن سيينا ـ مثل روما ـ قد عُرفت بنافوراتها الجميلة ولم يكن بد من أن أورد مكاناً أعرفه يحل في الحلم محل روما [التي لم أكن رأيتها بعد] (أنظر ص 235). ولقد كنا رأينا بالقرب من الباب الروماني في سيينا بناء ضخماً علمنا أنه المارستان. وكنت قد سمعت قبل هذا الحلم بوقت قصير أن رجلاً من ديانتي قد اضطر إلى التخلي عن المنصب الذي بلغه بعد عناء كبير في مارستان حكومي.

وتثير اهتمامنا عبارة: Auf Geseres التي تجيء في موقف من الحلم كان المرء يتوقع فيه: Auf Wiedersehen [إلى اللقاء]، كما يثيره ضدها الخالي من كل معنى: Auf Ungeseres.

إن Geseres ـ على ما علمته من بعض اللغويين ـ كلمة عبرية خالصة، مشتقة من فعل goiser ، وأحسن ترجمة لها هي: «الألم المحتوم» أو «القضاء». ويحدونا استخدامها في اللغة العامية إلى أن نظن أنها تعني «البكاء والعويل». فأما Ungeseres فمصطلح جديد من عندي، وقد كانت هي أسبق الكلمتين إلى جذب انتباهي، ولكنني وقد بدأت بها لم أستطع الخروج منها بشيء. غير أن الملاحظة القصيرة التي جاءت في ختام الحلم بما معناه أن Ungeseres تفيد التفضيل قد فتحت الطريق إلى المستدعيات، ومن ثم إلى فهم الكلمة. إننا نجد علاقة مماثلة فيما يتصل بالكافيار : فالكافيار غير المملح [ungesalzen] يفضّل على الكافيار المملح [gesalzene]. كا؟يار للشعب، «المشاعر النبيلة»: ههنا تكمن إشارة مازحة إلى عضو من أعضاء أسرتي آمل منها ـ وهي التي تصغرني سناً ـ أن تعنى بأبنائي في مستقبل الأيام. ويتفق وذلك أن عضواً آخر من أعضاء أسرتي ـ وهو مربيتنا العظيمة ـ قد صوَّرت في الحلم تصويراً لا يخطىء في شخص الوصيفة (أو الراهبة). ولكن هذا كله لا يرينا بعد أي فكرة توسطت بين الزوجين: gesalzen–ungesalzen Geseres–Ungeseres. إن الواسطة هي gesaüret–ungesaüret [مختمر ـ غير مختمر]؛ فأبناء إسرائيل إذ فروا من مصر عجلين لم يجدوا متسعاً من الوقت لكي يخمر عجينهم، وإنهم إلى يومنا هذا ليأكلون الخبز في عيد الفصح غير مختمر؛ تذكاراً. وهأنذا أذكر الآن فجأة كيف كنا ـ صديقي الذي من برلين وأنا ـ نسير في عيد الفصح في برسلاو ـ وهي مدينة كنا فيها غرباء ـ وإذا فتاة تسألني الطريق إلى أحد الشوارع، فلم أجد إلا أن أعترف لها بجهلي، ثم عقبت أحدِّث صديقي: «أرجو لهذه الفتاة حين تتقدم بها السن أن تبدي مزيداً من التمييز في اختيار الناس الذين تكل إليهم إرشادها». ثم لمحت عقب ذلك لافتة كتب عليها: الدكتور هيرودوس مواعيد الزيارة... فعقبت قائلاً: «أرجو ألا يكون زميلنا بالصدفة طبيب أطفال»[467]. وكان صديقي يحدثني في هذه الأثناء عن ظاهرة التوازن بين الجانبين ، وكان قد بدأ إحدى جمله بهذه العبارة: «لو أننا لم نكن نملك إلا عيناً واحدة في وسط الجبهة مثل السيكلوب [Zyklop] ..». وهذا يؤدّي بي إلى قول الأستاذ في الحلم التمهيدي: «يا بني، قصير النظر [Myop] ». والآن أتوصّل إلى المصدر الرئيس لكلمة Geseres : ذلك أنه حدث منذ سنوات متعددة حين كان ابن الأستاذ م. ـ وهو اليوم مفكر مستقل ـ لا يزال بمقعد الدراسة، أنه أصيب بمرض في عينيه قال الطبيب: إنه يدعو إلى التخوُّف، وأوضح أن الأمر يظل خالياً من الأهمية ما دام المرض مقصوراً على جانب واحد ، ولكنه يصبح خطراً إذا امتدَّ إلى العين الأخرى. وحدث أن العين برأت برءاً تاماً، ولكن ظهرت أعراض تدل على أن العين الأخرى قد أصيبت. وهلعت الأم فأرسلت على الفور في طلب الطبيب إلى مقامهم النائي في الريف. ولكن الطبيب أخذ الآن جانباً آخر ، وصاح في وجه الأم: « ولم كل هذا العويل [Geseres] ؟ ما دام أحد الجانبين قد برىء فسيبرأ الآخر كذلك». وهكذا كان.

ولا بد الآن من أن نبحث صلة هذا كله بي وبأسرتي: إن المقعد الدراسي الذي تلقّى عليه ابن الأستاذ م. أول حظه من المعرفة قد انتقلت

ملكيته فيما بعد إلى ابني الأكبر الذي وضعت على لسانه كلمات الوداع في الحلم؛ فقد أهدت المقعد إليه أم الغلام. ومن السهل أن نحذر إحدى الرغبات التي أثارها ذلك الانتقال. بيد أن هذا المقعد كان أيضاً قد صُنع بحيث يقي الطفل من أن يصبح ضعيف النظر أو مبصراً بعين واحدة. ومن هنا كان ظهور Myop (ومن ورائها Zyklop) في الحلم، وكانت الإشارة إلى التوازن بين الجانبين. ولقد كانت خيفتي من وحدانية الجانب تحمل أكثر من معنى: فهي لم تكن تشير إلى وحدانية الجانب بالمعنى البدني وحسب، بل كانت تشير كذلك إلى النظر في الأمور من جانب واحد فيما يتصل بالتطور العقلي. أفلا يمكن أن يكون هذا التخوُّف على التحديد هو ما أراد الحلم دفعه بطريقته غير المعقولة؟ فبعد أن استدار الغلام إلى أحد الجانبين ليلقي كلمات الوداع، استدار إلى الجانب الآخر ليقول الضد، كأنما كان يريد إعادة التوازن: إنه يسلك كما لو كان يولي التوازن بين الجانبين العناية التي تنبغي.

وهكذا تكون الأحلام في كثير من الأحيان أعمق ما تكون حتى لا يبدو منها غير الجنون. وفي كل عصر من عصور التاريخ كان أولئك الذين يملكون شيئاً يقولونه دون أن يملكوا قوله آمنين يرتدون مسوح المجانين؛ فالتسامح يهون على السامع الذي يتَّجه إليه مقالهم المحرَّم إن هو مُكِّن من الضحك ومن أن يتملَّق نفسه ظناً منه أن هذه الكلمات غير المستحبة ليست إلا هراء جلياً. وما يسلك الحلم في الحقيقة إلا كما يسلك في الرواية الأمير وهو يلجأ إلى التقنُّع بثوب من الجنون، حتى ليسعنا أن نقول عن الحلم ما يقوله هاملت عن نفسه وهو يخفي حقيقة حاله تحت رداء من التنكيت والاستعجام: «ولست بالمجنون إلا والريح مشملة، شمالاً بغرب، فإن أجنبت عرفت الباز من البلشون»[468].

وهكذا أكون قد انتهيت إلى حل مشكلة اللامعقولية في الحلم على هذا النحو: إن أفكار الحلم لا تكون أبداً أباطيل . أو لا تكون كذلك في أحلام الأصحاء على الأقل . وإن عمل الحلم إنما تحدث عنه أحلام لا معقولة أو أحلام مشتملة على عناصر لا معقولة إذا كان بين أفكار الحلم نقد أو سخرية أو استخفاف تدعو الضرورة إلى تصويرها. ومهمتي الآتية هي أن أبين أن عمل الحلم إنما يقوم في فعل العوامل الثلاثة التي ذكرتها مجتمعة . مع عامل رابع لما أذكره . وأنه لا يفعل شيئاً آخر سوى ترجمة أفكار الحلم وفاقاً لهذه الشروط الأربعة، وأن السؤال هل تعمل النفس في أثناء الحلم بكل قواها العقلية أو بجزء منها سؤال خاطىء الصياغة، يغفل الوقائع. بيد أن هناك أحلاماً كثيرة يعرض فيها الحكم والنقد والمعرفة، أحلاماً يعجب فيها المرء لعنصر من عناصر الحلم ويحاول التعليل ويشرع في المحاجة. لهذا لا أجد مفراً من مواجهة الاعتراضات المبنية على أمثال هذه الوقائع، وذلك بإيراد بعض الأمثلة المختارة.

وسيكون الجواب الذي أخلص إليه هو هذا: إن كل ما يخطر في الحلم في صورة نشاط ظاهره أنه صادر عن وظيفة الحكم يجب ألا يعد نتاجاً عقلياً حقّقه عمل الحلم، بل الواجب أن نعتبره منتمياً إلى مادة أفكار الحلم، وفيها انتقل إلى محتوى الحلم الظاهر كشيء جاهز الصنع من قبل. بل إن في وسعي أن أمد هذه القضية إلى أبعد من ذلك: فالأحكام التي يصدرها المرء عقب اليقظة في صدد حلم تذكره، والمشاعر التي تنبعث في نفسه عند استحضار هذا الحلم، كل هذه أيضاً تكون إلى حد كبير جزءاً من المحتوى الكامن للحلم، ومن الواجب إدراجها في تفسيره.

(1) لقد ذكرت من قبل مثالاً على ذلك يستلفت النظر: إمرأة تأبى أن تذكر حلمها لأنه «لم يكن واضحاً الوضوح الكافي» ؛ فهي قد رأت البعض في الحلم ولكنها لا تعلم أزوجها هو أم أبوها. ثم أعقبت ذلك فقرة ثانية من الحلم ورد فيها ذكر مزبلة، وهو ما يسوقها إلى تلك الذكرى: حدث ذات مرة وهي زوجة حديثة العهد بأعمال ربة المنزل أنها قالت مازحة في محضر قريبة شابة من قريباتها: إن أول ما ستعنى به سيكون شراء «مزبلة» جديدة، فلما جاء اليوم التالي إذا واحدة تُهدى إليها، ولكنها كانت مليئة بالسوسن. وقد كان هذا الجزء من الحلم يفيد في تصوير ذلك التعبير [الألماني] الدارج: «ما نما ذلك من زبلي»[469]. ولما تمّ تحليل الحلم تبيّن أن أفكار الحلم كانت تدور حول الأثر البعدي الذي كان لقصة سمعتها الحالمة في حداثتها عن فتاة ولدت ولداً لم يتضح من هو أبوه. ومن هذا نرى أن تصوير الحلم قد امتد في ذلك المثال إلى أفكار اليقظة تاركاً أحد عناصر أفكار الحلم يتمثل في صورة حكم مستيقظ أطلق على الحلم في مجموعة.

(2) وها هي ذي حالة ثانية مماثلة: حلم أحد مرضاي حلماً لاح له ذا أهمية؛ لأنه لم يكد يستيقظ حتى حدَّث نفسه قائلاً[470]: لا بد من أن أتحدث إلى الطبيب بذلك. وحلل الحلم فانبعثت إشارات من أوضح ما يكون إلى صلة جنسية بدأها الحالم في خلال علاجه وعقد العزم على ألا يحدثني بها.

(3) ثم ها هو ذا مثال ثالث أنتخبه من بين أحلامي: كنت ذاهباً إلى المستشفى برفقة صديقي ب. مارّين بمنطقة انتشرت فيها المنازل والبساتين. وفي هذه الأثناء كانت تدور بخلدي فكرة مؤدَّاها أنني قد رأيت تلك المنطقة مراراً من قبل في الأحلام. لم أكن أعرف الطريق معرفة طيبة. أراني ب. شارعاً ينتهي بمطعم على ناصيته (وكانت قاعة الطعام في الداخل لا في حديقته). أسأل هناك عن السيدة دوني، فيقال لي: إنها تسكن مع ثلاثة أطفال في حجرة صغيرة خلفية. أسير إلى تلك الحجرة، ولكنني . قبل أن أصل إليها . ألتقي بشخص غير متميز تصحبه ابنتاي الصغيرتان. آخذهما معي بعد أن أمكث معهما برهة قصيرة. يدور بخاطري شيء يشبه اللوم أوجّهه إلى زوجتي لكونها تركت الفتاتين هناك.

فلمّا استيقظت شعرت برضا كبير عللته بأنني كنت وشيكاً أن أعلم من تحليل هذا الحلم معنى: قد حلمت بذلك من قبل[471]. ولكن الواقع أن

التحليل لم يعلمني شيئاً من هذا القبيل. وإنما الذي تبيّن لي منه حقيقة هو أن الشعور بالرضا كان يرجع إلى أفكار الحلم الكامنة ولم يكن يرجع بحال من الأحوال إلى حكم من الأحكام عليه: إنه كان الرضى لأن زواجي قد أعقب. ذلك أن ب. شخص سايرت حياته حياتي زمناً ثم بعد ذلك سبقني مسافات من الناحيتين الاجتماعية والمادية، ولكنه ظلّ لا ينجب من زواجه خلفاً. وإن مناسبتَي الحلم لكافيتان في الدلالة على معناه دون حاجة إلى أن نسوق تحليله كاملاً. فقد حدث في اليوم الذي سبق الحلم أنني قرأت في إحدى الصحف نبأ وفاة السيدة دونا أ... ي (وهو الاسم الذي حرَّفته في الحلم إلى دوني)، وكانت وفاتها في أثناء الوضع. وسمعت من زوجي أن القابلة التي كانت تعنى بالمتوفاة هي التي عنيت بزوجي عند ولادة طفلينا الأصغرين. وكان اسم دونا قد استوقفني لأنني كنت ـ منذ قريب ـ قد صادفته للمرة الأولى في رواية إنجليزية. فأما المناسبة الثانية للحلم فكانت تاريخ وقوعه: فقد وقع الحلم في الليلة التي سبقت عيد ميلاد ابني الأكبر الذي يبدو على بعض الموهبة الشعرية.

(4) ولقد تركني وأنا أستشعر هذا الرضا عينه ذلك الحلم غير المعقول الذي دار حول أبي وما كان له من مشاركة سياسية في حياة المجريين، وعللت لنفسي هذا الشعور بأنه كان امتداداً للشعور الذي صحب الجزء الأخير من الحلم [أنظر ص 453]: (تذكرت كيف كان والدي وهو على فراش موته شديد الشبه بجاريبالدي وشعرت بالسرور لأن ذلك قد تحقق... (يعقب ذلك جزء منسي). لقد مكّنني التحليل من أن أملأ تلك الثغرة في الحلم. فقد ورد فيها ذكر ابني الثاني الذي أطلقت عليه اسم شخصية من عظماء التاريخ [كروميل] اجتذبتني اجتذاباً شديداً في صباي وبخاصة منذ أن زرت إنجلترا، وكنت قد انتويت في خلال السنة التي سبقت مولد الطفل أن أطلق عليه هذا الاسم إن جاء المولود ذكراً، وكان أن جاء كذلك فخلعت عليه الإسم وأنا أشعر برضا عظيم. ومن السهل أن نلحظ كيف ينتقل جنون العظمة عند الآباء إلى تفكيرهم في أبنائهم، وتلك في أغلب الظن إحدى الطرق التي يتم بها قمع هذا الشعور ـ وهو قمع تجعل منه الحياة الواقعة ضرورة لا مفر منها. فأما الحق الذي خوَّل لإبني الصغير أن يظهر في محيط هذا الحلم، فكان مستمداً من كونه قد وقع إذ ذاك في تلك العثرة التي تسهل مغفرتها للطفل وللرجل على سرير الموت، وأعني بها توسيخ الفراش ـ قارن هنا بين **Stuhlrichter** وبين الرغبة التي يعرب عنها الحلم في أن يقف المرء عظيماً طاهراً في أعيُن أبنائه [ارجع إلى ص 455].

(5) وأتحوَّل الآن إلى النظر في الأحكام التي تطلق في أثناء الحلم نفسه ولكنها لا تتابع حتى حياة اليقظة أو تنقل إليها. وتسهل مهمة البحث عن الأمثلة على ذلك إلى درجة كبيرة إذا التجأت إلى الأحلام التي سقتها من قبل لغايات أخرى. خذ حلم «جوته يهاجم السيد م.» إنه يبدو مشتملاً على طائفة من أفعال الحكم، مثل: «أحاول أن ألقي بعض الضوء على المعطيات الزمنية التي تبدو لي بعيدة عن الرجوح». ألا يبدو ذلك نقداً موجهاً إلى تلك الفكرة الفاسدة، وأعني بها أن جوته قد شنّ هجوماً أدبياً على شاب من معارفي؟ ثم تلك الجملة: «يلوح لي أن من الراجح أنه كان إذ ذاك في الثامنة عشرة من عمره» ، إنها تبدو وليدة عملية حسابية وإن يكن الحساب ـ والحق يقال ـ حساب أبله. وأخيراً فإن قول الحلم: «لم أكن واثقاً من السنة التي نحن فيها» قد يبدو مثالاً على التردد أو الشك يعرض في الحلم.

ومع هذا فإنا نعلم من التحليل أن تلك القضايا التي تبدو في صورة أفعال حكم تُطلق في الحلم للمرة الأولى يمكن أن يفهم منطوقها فهماً آخر تغدو في ضوئه لازمة كل اللزوم من أجل تفسير الحلم في حين يرتفع عنها في الوقت نفسه كل أثر من اللامعقولية. فجملة: «أحاول أن ألقي بعض الضوء على المعطيات الزمنية» كانت تضعني في مكان صديقي [فليس] الذي كان يسعى في الحقيقة إلى إلقاء الضوء على المعطيات الزمنية للحياة. وهكذا تفقد الجملة معنى الحكم يحتج على فساد القضايا السابقة. فأما جملة الصلة: «التي تبدو لي بعيدة عن الرجوح» فترتبط بتاليتها: «يلوح لي أن من الراجح»؛ فتلك على التقريب هي الكلمات التي كنت استخدمتها في حديثي إلى السيدة التي قصَّت عليَّ كيف جن أخوها، قلت لها: «إنه ليبدو لي أمراً بعيداً عن الرجوح أن يكون لندائه أيتها الطبيعة! أيتها الطبيعة!، أدنى علاقة بجوته، وإنما الذي يلوح لي أرجح من ذلك كثيراً هو أن يكون لتلك الكلمات معنى جنسي تعرفينه». وصحيح أنني قد أطلقت هنا حكماً، ولكنني لم أطلقه في الحلم بل في الواقع، وفي مناسبة رجعت إليها أفكار الحلم بالذكرى واستغلّتها. ثم جاء محتوى الحلم فاستحوذ على هذا الحكم كما يستحوذ على أية نبذة أخرى من فكر الحلم.

وكذلك الرقم 18 الذي ارتبط به الحكم الذي أُطلق في الحلم دون أن يكون لذلك معنى ما، إنه ليحتفظ بأثر من السياق الحقيقي الذي انتزع منه الحكم. فأما جملة: «لم أكن واثقاً من السنة التي نحن فيها» فلم تكن ـ أخيراً ـ تعرب عن شيء سوى تعييني بالمريض المشلول الذي أثيرت تلك النقطة بالفعل في خلال فحصه.

إن حل أفعال الحكم الظاهرة في الحلم قد يذكِّر المرء بالقواعد الأساسية التي نصَّ عليها في مبتدأ هذا الكتاب فيما يتصل بالقيام بعملية التفسير. فقد قلنا: إن من الواجب أن نترك الاتساق الظاهر بين مقومات الحلم كما نترك وهماً لا حقيقة له وأن نتأثر مصدر كل عنصر من عناصر الحلم في ذاته. فما الحلم إلا حزمة يقتضي البحث تفكيكها أجزاءً من جديد. غير أننا قد نلحظ من جهة أخرى أن هناك قوة نفسية تعمل عملها في الحلم، هي التي تخلق هذا الترابط الظاهر، قوة تُخضع المادة الناجمة عن عمل الحلم لمراجعة ثانوية. وههنا نرانا نواجه تلك القوة الرابعة التي سوف نزن فيما بعد أهميتها باعتبارها رابعة العوامل المشتركة في تكوين الحلم.

(6) وها هو ذا مثال آخر على عملية من عمليات الحكم جرت في حلم ذكرته من قبل: ففي الحلم غير المعقول الذي جاء فيه أنني تلقيت رسالة من المجلس البلدي [ص 461] أراني أسأل أبي: «وهل تزوجت عقب ذلك مباشرة؟» أُجري الحسبة فأذكر أنني ولدت في سنة 1856 ويلوح

لي أن تلك هي السنة التي أعقبت سنة 1851 مباشرة. وكل هذا قد أُلبس صورة الاستدلال: تزوّج أبي سنة 1851 بعد النوبة المُشار إليها، وأنا . يقيناً . أكبر أبناء الأسرة، مولود سنة 1856، ويلزم . إذن . أن سنة 1856 هي السنة التي أعقبت سنة 1851 مباشرة. وهذه النتيجة الكاذبة قد استخلصت . كما نعلم . وفقاً لمقاصد تحقيق الرغبة؛ فقد كانت الفكرة المسيطرة على الحلم هي الآتية: إن أربع سنوات أو خمس ليست زمناً على الإطلاق، ولا يحسب لها حساب. بيد أن كل خطوة من خطوات هذا الاستدلال كانت محتومة أيضاً بأفكار الحلم من حيث المحتوى ومن حيث الصورة على السواء، فالمريض الذي ضاق زميلي بطول علاجه هو الذي كان قد عقد العزم على الزواج عقب الفراغ من العلاج. ثم إن الطريقة التي تحدثت بها إلى والدي كانت تذكّر باستجواب أو بامتحان وإنها لتذكرني بأستاذ في الجامعة كان من عادته أن يدوّن معلومات مستفيضة عن كل طالب يسجل اسمه للاستماع في محاضراته: «تاريخ الميلاد؟» . «1856» . «اسم الأب؟» . وهنا كان على الطالب أن يجيب بذكر اسم أبيه منتهياً بنهاية لاتينية، وكنا نحن معشر الطلبة نقدّر أن الأستاذ كان يستنتج من اسم الأب نتائج لا يتسنّى دائماً استنتاجها من اسم الطالب نفسه. وهكذا لم يكن الاستنتاج في الحلم إلا ترديداً للاستنتاج الذي يظهر بين أفكار الحلم كجزء من مادتها. وفي هذا ما يطالعنا بجديد: إذا وردت في محتوى الحلم نتيجة، فلا جدال في أن تلك النتيجة مستمدة من أفكار الحلم. غير أن هذه النتيجة قد تكون داخلة في هذه الأفكار كجزء من مادتها المتذكرة أو هي قد تصل ما بين سلسلة من أفكار الحلم باعتبارها رابطة منطقية. وفي كلتا الحالتين تمثل النتيجة في الحلم نتيجة في أفكار الحلم[472].

ونعود فنستأنف تفسير هذا الحلم: إن استجواب الأستاذ يسوقني إلى تذكُّر سجل الطلبة بالجامعة . وكان في أيامي يُملأ باللغة اللاتينية . ثم إلى ذكرى دراستي الجامعية: إن السنوات الخمس المقررة لدراسة الطب كانت هي الأخرى تقل عما يلزمني؛ فقد سرت في العمل وئيداً وأبطأت بعد السنوات الخمس سنوات. وعدني معارفي شخصاً متعطلاً وتشككوا في أن أفرغ يوماً مما أخذت فيه. وعندئذ قرّرت عل عجل أن أتقدم للامتحان وأن أجتازه رغم التأخير. وفي هذا معزز جديد لأفكار الحلم التي كنت أواجه بها نقَّادي متحدياً إياهم: «سأفرغ مما بدأت، وإلى نتيجة سأنتهي، وإن لم تصدقوا لما ترونه من تمهلي. وكم انقلبت الأمور من قبل هذا المنقلب».

ولقد حوى هذا الحلم في مطلعه جملة من القضايا لا يكاد يستطيع المرء أن يأبى عليها اسم الحجة. بل هي لم تكن بالحجة المجافية للمعقول، بل قد كان يمكن أن تصدر عن الفكر المستيقظ: أضحك في الحلم لتلك الرسالة التي يرسلها إلى المجلس البلدي؛ فأولاً لم أكن جئت إلى الدنيا بعد في سنة 1851، وثانياً فإن والدي الذي ربما كانت هذه الرسالة متعلقة به قد صار في عداد الموتى. إن كلاً من هاتين القضيتين لم تكن صحيحة وحسب، بل هي تتفق كل الاتفاق والحجج التي ما كنت أتردد في إطلاقها لو قد تلقيت مثل هذه الرسالة حقيقة. ولقد تبيّن من التحليل الذي سبق (ص 461) أن هذا الحلم قد صدر عن أفكار حلمية شديدة المرارة، مشرَّبة بالزراية. فإذا فرضنا بعد ذلك أن دوافع الرقابة كانت بالغة الشدة، أمكن أن نفهم أن عمل الحلم قد دعته كل الدواعي إلى أن يخلق نقضاً لا خلل فيه لفكرة غير معقولة على المنوال المتضمن في أفكار الحلم. غير أن التحليل يرينا أن عمل الحلم . هنا أيضاً . لم يكن مطلق الخيار في أن يخلق خلقه كيفما شاء، بل كان مضطراً . لبلوغ غرضه . إلى أن يستخدم مادة مستمدة من أفكار الحلم. فالأمر أشبه بمعادلة جبرية حوَت . بالإضافة إلى الأعداد . علامات على الزائد والناقص وعلى الأسس والجذور، ثم جاء البعض يريد نسخ المعادلة وهو لا يفهمها، فنقل علامات العمليات ونقل الأرقام، لم يترك شيئاً، لكنه خلطها خلطاً. فالحجتان المشار إليهما يمكن تأثُّرهما إلى المادة الآتية: إنه لأمر يمضني أن أرى أن من شأن بعض المسلمات التي تنبني عليها حلولي السيكولوجية لمشكلة الأعصبة أن تثير الشك والضحك حين تُعرف للمرة الأولى. مثال ذلك أنني لا أجد مهرباً من القول بأن انطباعات ترجع إلى السنة الثانية . بل إلى السنة الأولى أحياناً . قد تركت أثراً لا يمحى في الحياة الانفعالية لمن قدّر لهم المرض فيما بعد، وبأن هذه الانطباعات . وإن شوَّهتها الذاكرة وحسمتها على أكثر من نحو . قد تكون أول أسس الأمراض الهستيرية وأعمقها. وكان من عادة المرضى الذين أشرح لهم ذلك في موضعه المناسب أن يطلقوا العنان لسخريتهم من المعرفة الجديدة، معلنين استعدادهم لأن يبحثوا عن ذكريات ترجع إلى زمن ما قبل الولادة. وكان اكتشافي لما يؤديه الأب من دور لا يطرأ على البال في بواكير الدفعات الجنسية عند النساء المريضات يُقابَل . كما كنت أتوقع . بترحيب مماثل. (أنظر المناقشة التي في ص 295). ومع هذا فاقتناعي المؤسَّس على أسس طيبة هو أن كلتا القضيتين صحيحة. وإني لأفكر . على سبيل التأييد . في أمثلة نرى فيها الأب يموت والطفل ما زال بسن مبكرة جداً، ثم تجيء بعد ذلك أحداث . لا يمكن تفسيرها بغير ذلك . تثبت أن الطفل قد حفظ مع ذلك ذكريات لاشعورية عن الشخص الذي اختفى في هذا الزمن المبكر. وكنت أعلم أن قضاياي هذه تقوم على استنتاجات قد تنازع صحتها. وعلى ذلك فعمل الحلم يحقق رغبة حين يستخدم على التحديد مادة تلك النتائج التي كنت أخشى معارضتها لكي يستخلص منها نتائج لا يمكن الاعتراض عليها.

7) وهناك حلم تركته إلى الآن دون أن أكاد ألمسه [أنظر ص 440] ظهر في مطلعه تعبير واضح عن عجب أحسسته لفكرة انبعثت في الحلم يكلِّفني بروكه الشيخ مهمة ما، والشيء العجيب أنها كانت تتعلق بتشريح الجزء الأسفل من جسمي، بتشريح الحوض والساقين التي أراها أمامي كما لو كان ذلك في حجرة التشريح ولكن دون أن ألحظ غيابها عندي ودون أن يساورني أثر من الشعور بالفظاعة. كانت لويز ن. تقف إلى جانبي وتؤدي معي عملاً ما. أُفرغ الحوض من الأحشاء وصار مرئياً، طوراً من أعلى وطوراً من أسفل وقد اختلط المسقطان. تظهر زوائد لها لون كلون اللحم (تذكرني في الحلم نفسه بالبواسير). علا هذه شيء أشبه بورق الفضة المتجعّد[473] كان من الضروري التقاطه في حذر. صرت بعد ذلك حائزاً على ساقَي من جديد وأخذت أشق طريقي وسط المدينة، ولكنني (لتعبي) أركب عربة. شقَّت العربة طريقها . لدهشي . خلال باب منزل انفتح تاركاً

العربة تمر وسط ممر انعطف عند نهايته ليؤدي إلى الهواء الطلق مرة أخرى[474]. وأخيراً أراني أقوم برحلة وسط مناظر طبيعية متقلبة مع مرشد من مرشدي جبال الألب كان يحمل متاعي. حملني المرشد جزءاً من الطريق مراعاةً منه لساقَي المتعبتين. كانت الأرض موحلة. سرنا حول الحافة، وكان هناك قوم جلسوا على الأرض مثل الهنود الحمر أو الغجر، حول الحافة. كنت قبل ذلك أشق طريقي قدماً وسط الأرض الزلقة وقد ساورني شعور بالدهش لما كنت أبديه في ذلك من المهارة بعد التشريح. وصلنا أخيراً إلى منزل صغير من الخشب في نهايته شباك مفتوح. هناك وضعني المرشد على الأرض ثم أتى بلوحين من الخشب كانا معدَّين هناك من قبل وأسندهما إلى عارضة النافذة كأنه كان يقيم بذلك جسراً فوق الهاوية التي لم يكن بد من عبورها للخروج من المنزل. حينئذ شعرت فعلاً بالخوف على ساقَي ولكنني بدل أن أعبر الهاوية . كما كان متوقعاً . رأيت رجلين راشدين وقد رقدا على دكتين من الخشب كانتا تحاذيان جدران المنزل الخشبي، ورأيت أيضاً ما لاح لي أنه طفلان نائمان بجوارهما. كأنَّ وسيلتنا في عبور الهاوية لن تكون لوحَي الخشب بل الطفلين. أستيقظ في حالة من الرعب العقلي.

إن من كوَّن ولو أقل فكرة عن مدى التكثيف الذي يقع في الأحلام يتخيَّل من غير عناء أي عدد من الصفحات يستغرقه تحليل هذا الحلم تحليلاً كاملاً. ولكني لحسن الحظ لا أحتاج فيما نحن فيه سوى إلى أن أبحث نقطة واحدة؛ تلك التي تزوّدنا بمثال على الدهش في الحلم كما يتبيَّن في كلمة «والشيء العجيب». وأبدأ بذكر مناسبة الحلم: إنها زيارة من لويز ن. . السيدة التي وقفت إلى جانبي وأنا أؤدي عملي في الحلم. فقد سألتني: «أعرني شيئاً أقرأه» فاقترحت عليها «هي» لرايدار هاجارد، ثم انطلقت في الشرح قائلاً: «إنه كتاب عجيب ، ولكنه مليء بالمعاني الدفينة، الأنوثة الخالدة، أبدية مشاعرنا...» وهنا قاطعتني لويز ن. قائلة: «أعرفه، أليس عندك شيء من تأليفك؟» . «كلا. فإن كتبي الخالدة لم تظهر بعد». . فسألتني ساخرة بعض الشيء: «متى إذن تظهر شروحك المسمَّاة بالنهائية والتي وعدت بأن تكون مقروءة ولو كان القارىء نحن؟» وهنا لاحظت أن شخصاً آخر هو الذي يتحدث بلسانها، وسكت. أخذت أفكر فيما يكلِّفني إياه من مغالبة باهظة للنفس أن أنشر على الملأ كتابي عن الأحلام حيث لا أجد محيداً عن الإفضاء بالشيء الكثير من دخيلة طبعي: «وخير ما تستطيع علمه قد لا تملك قوله للصبيان»[475]. وهكذا نرى أن ما يُفرض عليَّ في الحلم من تشريح جسمي إنما يعني تحليلي أنا الذي لا بد من اقترانه برواية أحلامي. وإن بروكه الشيخ ليجد هنا بحق موضعه المناسب؛ فقد حدث من قبل وأنا ما أزال بالسنوات الأولى من اشتغالي بالبحث العلمي أنني اكتشفت اكتشافاً ثم تركته معطلاً إلى أن حملني بروكه على نشره حملاً بأمر شديد. وأما سائر الخواطر التي أثارها حديثي مع لويز ن. فكانت أعمق غوراً من أن تصير إلى الشعور. لقد عرَّجت هذه الخواطر ناحية المادة التي اتفق أن أثارها في نفسي ذكر «هي» لرايدار هاجارد. فإلى هذا الكتاب وإلى كتاب آخر لذات المؤلف «قلب العالم»[476] يرجع الحكم المتمثل في قولي: «والشيء العجيب». ومن هاتين الروايتين الحافلتين بالخيال استقيت الكثير من عناصر الحلم: فالطريق الموحلة التي يُحمل المنتقلون عليها والجسر الذي لا يجدون بداً من عبوره بألواح يحضرونها معهم . كل أولئك مأخوذ من «هي»، فأما الهنود الحمر والفتاة والمنزل الخشبي فمن «قلب العالم». والرائد في كلتا الروايتين امرأة، وكلتا الروايتين تصف تجوالاً يحفل بالمخاطر، بينما تصف «هي» طريقاً كله مغامرة يمتد إلى المجهول، لم تكد تطؤه قدم من قبل. فأما التعب الذي بساقَي فإحساس حقيقي كنت قد عانيته في النهار . بحسب ملاحظة أجدها مدوّنة حين سجَّلت الحلم. وأكبر الظن أن هذا التعب قد كان له صداه في مزاج من الكلل وفي سؤال موسوم بالشك: «ترى إلى متى ستحملني قدماي بعد ذلك؟» وإن المغامرة المروية في «هي» لتختتم بالمرأة الرائدة وهي تهلك في النار المجهولة المستعرة في جوف الأرض بدل أن تجد الخلود لنفسها ولمن معها. وما من خطأ في أن خوفاً من هذا القبيل كان ناشطاً بين أفكار الحلم. ومن المؤكد أن المنزل الخشبي كان يعني النعش ، إذن القبر. بيد أن الحلم قد بلغ أوج مهارته حين صوَّر تلك الفكرة التي لا ينفر المرء من شيء قدر نفوره منها بأن حقق رغبة. ذلك أنني كنت قد رأيتني في الحقيقة مرة بجوف أحد القبور، إلا أنه كان قبراً إترورياً كُشف عنه بالقرب من مدينة أور؟يتو، وكان القبر حجرة ضيقة بداخلها دكتان امتدتا بحذاء الجدران وامتدَّ عليهما هيكلا رجلين راشدين. وقد كان داخل المنزل الخشبي في الحلم شبيهاً بهذا القبر أتم الشبه؛ فكأنما كان الحلم يقول: «إذا لم يكن من القبر بد، فليكن القبر الإترووري». وبهذا الاستبدال يقلب الحلم أظلم الممكنات إلى شيء أرغب فيه رغبة صادقة. غير أن الحلم لسوء الحظ . كما سنراه قريباً [ص 485] . قد لا يغيِّر سوى الفكرة التي تصحب حالة وحدانية معنية دون أن يغير هذه الحالة ذاتها. ولهذا استيقظت في فزع على رغم النجاح في تصوير تلك الفكرة: أن الأبناء قد يفلحون فيما أخفق فيه آباؤهم . وهي إشارة جديدة إلى الرواية العجيبة التي نرى أحد أشخاصها يظل هو هو خلال أجيال متعاقبة بلغت العشرين قرناً.

(8) وهناك حلم آخر من أحلامي يظهر فيه أيضاً التعبير عن الدهش لأمر وقع في الحلم... ولكن الدهش قد اصطحب بمحاولة في تعليله بلغت حداً من الغرابة والبعد . وأكاد أقول: من الألمعية . حتى أنها تكفي وحدها في حثِّي على تحليل هذا الحلم كله، بغض النظر عن اشتماله على مسألتين أخريين جديرتين بأن تجذبا اهتمامنا. ذلك أنني كنت أسافر على سكة حديد الجنوب في الليلة من 18 إلى 19 من شهر يوليه حين سمعت وأنا نائم، صوتاً يصيح: «هولتورنHollthurn])[477]، وقوف عشر دقائق». فاتَّجه خاطري على الفور إلى Holothurien . فإلى متحف للتاريخ الطبيعي . فإلى أن تلك هي البقعة التي ثار فيها رجال شجعان في وجه حاكم بلدهم فشنوا على قواته المتفوقة حرباً لم يخرجوا منها بطائل . نعم. إنها الحركة المناهضة للإصلاح في النمسا! . كأنما كانت تلك البقعة مكاناً في شتيريا أو التيرول. أرى بعد ذلك متحفاً صغيراً حفظت فيه بقايا هؤلاء الرجال أو متعلقاتهم، وكانت الرؤية غير متميزة. أود لو استطعت مغادرة القطار، ولكنني أتردد في ذلك. على الرصيف نساء يحملن ثماراً، إنهن

يجلسن القرفصاء على الأرض وقد أمسكن بالسلال على نحوٍ جد مشوِّق. إنني أتردد لأنني لست واثقاً من أني أملك متسعاً من الوقت، ولكن القطار يظل دون أن يتحرك. أراني فجأة في مقصورة أخرى ضاقت فيها الأرائك والمقاعد حتى أن ظهر المرء كان يستند مباشرةً إلى مؤخر العربة[478]. أدهش لذلك، ولكني ربما كنت انتقلت من عربة إلى أخرى في خلال حالة النوم. ههنا أناس كثيرون بينهم إنجليزيان، أخ وأخت. على أحد الرفوف صف من الكتب يراها المرء رؤية متميزة. ألحظُ بينها «ثروة الشعوب» و«المادة والحركة»[479] (لكلارك ماكسويل)، إنه مجلَّد سميك مغلف في قماش ذي لون بني. يسأل الرجل أخته عن كتاب لشيللر: هل نسيته؟ كأنما كانت الكتب كتبهم طوراً، وطوراً كتبي. أشعر هنا برغبة في التدخُّل في الحديث مؤيداً أو مؤكداً... أستيقظ وأنا أتصبب عرقاً، فقد كانت كل النوافذ مغلقة. كان القطار واقفاً في ماربورج [في شتيريا].

وبينما كنت أدوِّن هذا الحلم خطرت لي نبذة جديدة منه كانت ذاكرتي قد حاولت إغفالها: قلت (باللغة الإنجليزية) للأخ والأخت وأنا أشير إلى كتاب ما: It is from... ثم أصحِّح قائلاً: it is by... ، فيعقِّب الرجل على كلامي قائلاً لأخته: «لقد قال ذلك دون أن يخطىء».

إن هذا الحلم قد بدأ باسم المحطة، ولا شك في أن مناداة هذا الاسم كانت قد أيقظتني إيقاظاً جزئياً، إلا أنني غيَّرت الاسم فجاء هولتورن بدل ماربورج والشاهد على أنني سمعت ماربورج عندما نودي اسمها للمرة الأولى . أو ربما بعد نداء تال . هو ما جاء في الحلم من ذكر شيللر الذي ولد في ماربورج . وإن لم تكن ماربورج التي في شتيريا[480]. وقد صحبت سفري في هاته الليلة ملابسات متعبة إلى آخر مدى، مع أنني كنت أسافر في الدرجة الأولى. ذلك أن القطار لم يكن فيه موضع لقدم، ثم إنني وجدت في مقصورتي سيدة وسيِّداً بدت عليهما كل مظاهر الغطرسة وتجردا من الأدب، أو هما لم يتكلفا أن يخفيا عني شعورهما بالضيق لدخولي عليهما، فظلَّت تحيَّتي المؤدبة لا تلقى منهما رداً. ومع أن الرجل وزوجه كانا جالسين جنباً إلى جنب (وظهراهما إلى القاطرة)، فإن المرأة سارعت إلى احتلال المقعد الذي كان يواجهها بجوار النافذة، فوضعت عليه مظلتها. وأغلق الباب على الفور وتبودلت ملاحظات في موضوع النوافذ وفتحها. وأكبر الظن أنهما قد أدركا على الفور أنني كنت ظامئاً إلى بعض الهواء الطلق؛ فقد كانت ليلة حارة، ولم يلبث الجو أن صار خانقاً في المقصورة المغلقة إغلاقاً محكماً. وقد كانت تجاربي في السفر علمتني أن مثل هذا المسلك المجرد من الأدب ومراعاة ما للغير شيء مما يتميز به أولئك الذين يسافرون بالمجَّان أو بنصف أجر. فلما جاء جامع التذاكر وأريته تذكرتي التي كلفتني ما كلفتني خرجت من فم السيدة كلمات ألقتها في نبرات متعالية كادت أن تكون متوعدة: إن زوجي يحمل ترخيصاً مجانياً. لقد كانت سيدة ذات هيئة مسيطرة وملامح غضوبة، في سن لا تبعد كثيراً عن تلك التي يأخذ فيها جمال المرأة في الذبول، فأما الرجل فما نبس بحرف وظل حيث هو لا يريم. وكان أني تحايلت على النوم، وهأنذا أثأر في الحلم من رفيقَي غير المستحبين ثأراً مخيفاً؛ فما من أحد يستطيع أن يحذر أي صنوف من السباب ومن الإذلال تستقر وراء الأجزاء المتقطعة التي تكوَّن منها الشطر الأول من الحلم. فلما اكتفت هذه الحاجة انبعثت أخرى، هي الحاجة إلى تغيير المقصورة. ومن الأمور الشائعة أن يتغير المشهد في الحلم دون أن يلقى ذلك اعتراضاً ما، فإذا كنت بادرت فاستبدلت برفيقَي في السفر آخرين من ذاكرتي أكثر منهما لطفاً، فما كان ذلك ليكون بالشيء العجيب أو الملحوظ. ولكننا نجد هنا حالة دعا فيها أحد الدواعي إلى أن يلقى تغيير المشهد اعتراضاً وإلى أن يعد أمراً يتطلب تعليلاً: كيف صرت فجأة في حجرة أخرى؟ إنني لم أكن أذكر أنني انتقلت وليس إلا تعليل واحد لا ثاني له: لا بد أني تركت العربة وأنا نائم . إنه حادث نادر الوقوع ولكننا نرى أمثلة منه في خبرة طبيب الأمراض العصيبة؛ فنحن نعرف أناساً سافروا بالسكة الحديدية وهم في حالة شفقية[481] دون أن تبدر منهم بادرة تنم عن وضعهم الشاذ، إلى أن يبلغوا حداً من رحلتهم فإذا هم راجعون إلى أنفسهم، يدهشون للثغرة التي في ذاكرتهم. وهكذا أعلن وأنا ما زلت في الحلم أن حالتي من حالات «الأوتوماتية التنقيلة»[482].

ولكن التحليل يمكِّننا من حل آخر. فهذه المحاولة التعليلية التي تبدو لي على هذا المبلغ من العجب لو كنت مضطراً إلى أن أعزوها إلى عمل الحلم . ليست في الحقيقة محاولة مبتكرة من عندي، بل هي قد نُسخت من عصاب أحد مرضاي. فقد سبق أن تحدثت في موضع آخر [ص 298] عن شاب عالي الثقافة، حمَّ العطف في حياته الواقعة، كيف أخذ بعد موت والديه بزمن قصير يتَّهم نفسه بنوازع قتَّالة، ثم بعد ذلك سقط فريسة للحيطة التي لم يكن يرى مفراً من التزامها حماية لنفسه من هذه النوازع. كانت حالته حالة أفكار قهرية مع قدرة على إدراك حاله ظلت غير منقوصة. ففي أول الأمر صار السير في الطرقات عبئاً أليماً عليه؛ إذ كان به دافع قهري يدفعه إلى ألا يترك ماراً به دون أن يسجل غدوه ورواحه ودون أن يرى أين اختفى. فإن أفلت أحدهم من عينه المتتبعة تخلف عنده شعور أليم واحتمال لا مسرح له غير فكره، مؤداه أنه ربما كان قد أجهز على هذا الشخص. والذي يستتر وراء هذا كله كان . ضمن أشياء أخرى . [تخييلاً تجوز تسميته] تخييل قايين؛ أفلَيس «كل الناس إخوة»؟ وإذ كانت مهمة المتابعة تلك شيئاً محالاً، فقد ترك المريض كل نزهة وقضى حياته حبيس جدرانه الأربعة. ولكن أخبار الجرائم المرتكبة في الخارج كانت تنفذ والصحف إلى غرفته. وأمره ضميره في صورة الشك بأنه قد يكون هو القاتل المطلوب. بيد أن يقينه من أنه قد لبث أسابيع دون أن يبارح منزله ظل يحميه زمناً من هذه التهمات، إلى أن طاف بخلده يوماً احتمال أن يكون قد ترك المنزل وهو في حالة لاشعورية، فاستطاع بذلك أن يرتكب الجريمة دون أن يعلم من أمرها شيئاً. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً أوصد باب منزله وسلَّم المفتاح إلى خادمه العجوز آمراً إياها أمراً مشدداً ألا تترك أبداً هذا المفتاح يقع بين يديه ولو طلبه.

وهذا إذن هو منشأ محاولتي التعليلية حين قلت: إنني ربما كنت غيَّرت العربة وأنا في حالة لاشعورية. لقد نقل هذا التعليل جاهزاً من مادة

أفكار الحلم إلى الحلم . ومن البيِّن أن القصد منه هو أن يفيد في تعييني بشخص هذا المريض. وأما تذكُّري للمريض فقد أثاره استدعاء قريب من الذهن: ذلك أن هذا الرجل عينه كان يصحبني في آخر مرة سافرت فيها ليلاً، قبل ذلك ببضعة أسابيع. كان قد شفيَ وكان يسافر معي إلى الأقاليم ليزور أقارب له، كانوا أرسلوا في طلبي. وكانت لنا مقصورة خاصة بنا وتركنا كل النوافذ مفتوحة طيلة الليل وقبل النوم قضينا وقتاً من أطيب ما يكون. وكنت أعلم أن الأصل في مرضه دفعات عدائية نحو الأب ترجع إلى زمن الطفولة ولها ارتباطها بمواقف جنسية. وأنا إذن من حيث أعيِّن نفسي به إنما أنشد الاعتراف بشيء مماثل. والحق أن المشهد الثاني في الحلم قد انتهى بتخييل مغرب بعض الإغراب حاصله أن رفيقيّ المسنين في السفر قد سلكا نحوي ذلك المسلك النافر لأن مقدمي قد أفسد عليهما ما كانا يزمعانه من تبادل الود في ليلهما. بيد أن هذا التخييل يرجع بدوره إلى مشهد من مشاهد الطفولة المبكرة، حين يزج الطفل بنفسه . مدفوعاً في أكبر الظن بتطلعه الجنسي . إلى حجرة نوم والديه ثم يخرج منها بأمر من الوالد لا مرد له.

لا طائل . على ما أعتقد . في حشد أمثلة أخرى. فهي إنما تذهب جميعاً إلى تأييد ما تحصَّل من الأمثلة السابقة: أن فعل الحكم في الحلم ليس إلا ترديداً لنموذج موجود في أفكار الحلم ترديداً يتسم في معظم الأحيان بسوء التصرف ويجيء وسط محيط غير مناسب، ولكنه قد يساق أحياناً . كما في مثالنا الأخير . سوقاً ماهراً حتى يخيَّل إلينا للوهلة الأولى أن ثمة نشاطاً عقلياً مستقلاً يتم في الحلم. ولنا وقد بلغنا هذا الموضع أن ندير انتباهنا إلى هذه القوة النفسية التي تبدو ولا شك بعيدة عن أن تشارك دائماً في تكوين الأحلام، إلا أنها حين تفعل توجِّه همها إلى إدماج عناصر الحلم المتفرقة الأصول في كلٍ خال من التناقض، ذي معنى. ولكننا . قبل أن نطرق هذا الموضوع نشعر بحاجة ملحَة إلى أن ننظر أولاً فيما ورد في الأحلام من التعبيرات الوجدانية، وإلى أن نقارن بينها وبين الحالات الوجدانية التي يكشف عنها التحليل في أفكار الحلم.

ج
الحالات الوجدانية في الحلم

لقد نبَّهتنا ملاحظة حصيفة لاحظها شتريكر إلى أن التعبيرات الوجدانية في الحلم لا يمكن أن تقابَل بهذا النوع من الاستخفاف الذي اعتدنا أن نعرف به محتوى الحلم: «حين يخاف المرء في الحلم غائلة اللصوص، فاللصوص يقيناً من صنع خياله، لكن الخوف حقيقي». والأمر كذلك إذا أحسسنا في الحلم مرحاً. فشعورنا يحدثنا بأن الحالة الوجدانية التي يخبرها المرء في الحلم لا تقل بأي وجه من الوجوه عن حالة نخبرها في اليقظة معادلة في الشدة، وإن حق الحلم في أن يدرج ضمن خبراتنا النفسية الحقيقية لأقوى بمحتواه الوجداني منه بمحتواه الفكري. غير أننا نعجز في اليقظة عن هذا الإدراج؛ لأننا لا نستطيع أن نزن القيمة النفسية لإحدى الحالات الوجدانية إلا مرتبطة بمحتوى فكري ما، فإن انعدم التناسب بين الحالة الوجدانية والفكرة من حيث النوع والشدة وقف حكمنا المستيقظ ولم يحر جواباً.

وإن من سمات الأحلام لسمة حدت إلى العجب منها في كل وقت، تلك هي: أن محتواها الفكري لا يحمل معه الأثر الوجداني الذي ما كنا في فكرنا المستيقظ إلا لنتوقعه كما نتوقع أمراً ضرورياً، حتى أعلن شترومبل أن الأفكار تجرَّد في الحلم من قيمتها النفسية. غير أن الأحلام لا تعوزها أمثلة على الضد، أمثلة يخطر فيها تعبير وجداني شديد مقترناً بمحتوى لا يبدو فيه أقل مبرر يبرر انطلاق مثل هذا الوجدان: فقد أراني في الحلم في موقف بشع، خطر، باعث على الاشمئزاز، ولا أحس خوفاً أو نفوراً، وعلى العكس: قد أروع أحياناً وليس ما يروِّع، أو أفيض حبوراً وما يحبرني سوى موضوع طفلي.

هذا اللغز هو ـ في الغالب ـ أسرع ألغاز الحلم إلى الاختفاء وأتمها تبدداً حين ننتقل من محتوى الحلم الظاهر إلى محتواه الكامن. ولن تكون بنا حاجة إلى أن نشغل بفضِّه؛ فقد فض من قبل. فالتحليل يعلمنا أن المحتوى الفكري قد مسه الشيء الكثير من النقل والتبديل، على حين ظلت الحالات الوجدانية من غير تحريف ، ولا غرو بعد ذلك إذا فقد المحتوى الفكري المغير بفعل التشويه الحلمي كل تناسب يقرب بينه وبين الحالة الوجدانية المحفوظة كما هي، ولا نحن نجد مدعاة للعجب حين يعيد التحليل المحتوى الصحيح إلى نصابه[483].

وحين يخضع مركَّب نفسي لتأثير الرقابة التي تفرضها المقاومة فالحالات الوجدانية هي أقل مقوماته تأثراً، وهي وحدها التي تهدينا الطريق إلى التكملة الصحيحة. وإن هذا الوضع لأظهر في الأعصبة منه في الأحلام. فالحالة الوجدانية في العصاب لها دائماً سببها الذي يبررها، من حيث الكف على الأقل ـ وإن جاز بالطبع أن تكون قد زادت شدة لما يصيب الانتباه العصابي من النقلات. فإذا كان الهستيري يعجب لكل هذا الخوف يركبه تجاه تفاهة من التفاهات، أو إذا استعجب رجل يعاني أفكاراً قهرية لما يوجِّهه إلى نفسه من هذا اللوم المنبعث من لا شيء، فكلاهما ضال عن سبيل الفهم من حيث يتوهم أن المحتوى الفكري ـ أن تلك التفاهة أو ذلك «اللاشيء» ـ هو الشيء الجوهري، وإنه ليدافعن عن نفسه بغير طائل من حيث يتخذ من هذا المحتوى نقطة البدء في تفكيره. ولكن التحليل النفسي يريهما بعد ذلك الطريق الصحيح إذ يسلم ـ على العكس ـ بأن للحالة الوجدانية ما يبررها، ثم يبحث عن الفكرة المتصلة بها والتي نالها الكبت وحلَّ محلها بديل. وكل هذا يتضمن مسلمة، هي أن الاستجابة الوجدانية والمحتوى الفكري لا يكوِّنان تلك الوحدة العضوية التي لا تنفصم عراها، بل قد يكون كل من هذين الجزأين ملفوقاً بالآخر بحيث يمكن الفصل بينهما بالتحليل. وتفسير الأحلام يرينا أن الأمر كذلك في الحقيقة.

وأبدأ بمثال يفسر لنا فيه التحليل ما ظهر من تخلف الحالة الوجدانية دون المحتوى الفكري، مع أن هذا المحتوى كان يستلزم انطلاقها.

(1)

ترى في صحراء ثلاثة أسود يضحك أحدها ولكنها لم تكن خائفة منها. لا شك في أنها قد ولَّت فراراً منها بعد ذلك لأنها كانت تحاول أن تتسلق شجرة، غير أنها وجدت أن إحدى قريباتها ـ وهي مدرِّسة للغة الفرنسية ـ قد سبقتها إلى هناك.

لقد جاء التحليل بالمادة الآتية: إن مناسبة الحلم التافهة جملة وردت في موضوع الإنشاء الإنجليزي: العرف زينة الأسد. إن والدها كان يحمل لحية تحف بوجهه مثل العرف. وكانت مدرِّستها للغة الإنجليزية تسمَّى الآنسة Lyons Lions = أسود) وكانت إحدى معارفها قد أرسلت إليها أشعاراً من نظم Lœwe [وهو «الأسد» في الألمانية]. تلك إذن أسودها الثلاثة؛ فلم الخوف منها؟ ـ إنها قد قرأت قصة تروي كيف حثَّ زنجي رفاقه

على الثورة فطورد وأرسلت في أثره كلاب الصيد فتسلق شجرة لكي ينقذ نفسه. تعقب ذلك ذكريات شتى ترويها الحالمة في مرح شديد، مثل تلك النصيحة في صيد الأسد . عن مجلة «الصحائف الطائرة» .: ضع صحراء على المصفاة، ينساب الرمل وتبقى الأسود. ثم قصة جمة الطرافة وإن لم تكن بالنظيفة كل النظافة عن موظف سُئل لمَ لا يتكلَّف بعض العناء ليظفر بحظوة رئيسه الأعلى، فأجاب بأنه قد حاول بالفعل أن يشق طريقه من الباب الخلفي ولكن الموظف المتقدم عليه كان قد سبقه إلى هناك. وتغدو كل هذه المادة شيئاً مفهوماً حين يتبيّن أن السيدة كانت في اليوم الذي سبق الحلم قد تلقت زيارة من رئيس زوجها في العمل. وكان الرجل جم الأدب وقبّل يدها ولم تشعر هي بأقل خوف منه مع أنه كان «وحشاً كبيراً» وكان «مستأسداً» في مجتمع عاصمة البلد الذي أتت منه. وعلى ذلك فهذا الأسد أشبه بالأسد الذي في «حلم ليلة من منتصف الصيف» والذي افتضح أمره فلم يكن يخفي ورائه سوى سنّجَ النجار[484]، والأمر كذلك في كل أسود الحلم التي لا يستشعر منها المرء رهبة.

(2)

وأسوق كمثال ثان حلم الفتاة التي رأت الابن الأصغر لأختها ميتاً في نعشه [ص 173 وص 287] ولكنها . كما تسعني الآن إضافته . لم تستشعر لذلك ألماً ولا حزناً. إننا نعلم من التحليل لمَ كان ذلك كذلك: فالحلم إنما كان يخفي رغبتها في أن ترى الرجل الذي أحبته مرة أخرى ولم يكن بد من أن تجيء حالتها الوجدانية مجانسة لرغبتها تلك وليس لما تقنَّعت به هذه الرغبة. وعلى ذلك لم تكن ثمة مدعاة إلى الحزن.

وهناك أحلام تظل فيها الحالة الوجدانية مرتبطة على الأقل بالمحتوى الفكري الذي حلّ محل ذلك الذي كانت تلك الحالة مقترنة به في الأصل. ولكن هناك أحلاماً أخرى يذهب فيها تفكيك المركَّب [الفكري الوجداني] إلى أبعد من ذلك؛ فتظهر الحالة الوجدانية منفصلة كل الانفصال من الفكرة المتصلة بها وتدرج في موضع آخر حيث تتسق والترتيب الجديد لعناصر الحلم. والموقف حينئذ أشبه بما قد رأيناه في حالة أفعال الحكم في الأحلام [ص 470]: إذا تضمنت أفكار الحلم نتيجة هامة اشتمل الحلم كذلك على نتيجة، ولكن النتيجة التي في الحلم قد تُنقل فتجيء في صدد مادة متخلفة كل الاختلاف. ولا يندر أن يتم هذا النقل وفقاً لمبدأ التضاد.

هذه الإمكانية الأخيرة تتمثَّل في الحلم التالي الذي أخضعته لتحليل بلغ غاية الاستيفاء:

(3)

حصنٌ على شاطىء البحر، ثم لا يعود الحصن على شاطىء البحر مباشرة بل على قناة ضيقة مؤدية إلى البحر. الحاكم رجل يدعى السيد ب. كنت واقفاً معه في قاعة استقبال كبيرة ذات ثلاث نوافذ تواجهها شرفات مقفلة تشبه مكامن إطلاق النار في الحصون. كنت ملحقاً بالحامية على أنني ضابط بحري متطوع أو شيء من هذا القبيل. إننا نخشى وصول سفن الأعداء؛ فقد كنا في حالة حرب. السيد ب. ينتوي الرحيل ويعطيني تعليمات فيما يجب عمله إذا وقع ما نخشاه. كانت زوجه المريضة في الحصن المهدد مع أطفالها. إذا بدأ ضرب القنابل فالواجب إخلاء القاعة الكبيرة على الفور. إنه يتنفس تنفساً ثقيلاً ويستدير لينصرف. أمسك به وأسأله: كيف أتصل به عند الضرورة؟ يقول شيئاً ما على سبيل الجواب ولكنه لا يلبث أن يسقط ميتاً على الفور. لا شك في أنني قد حمَّلته بأسئلتي ما لا يطيق. أسائل نفسي بعد موته . موتاً لا يترك في نفسي أي أثر آخر . هل كان ينبغي أن تبقى أرملته بالحصن وهلا ينبغي أن أنقل نبأ موته إلى القيادة العليا وأن أتولى قيادة الحصن بعده باعتباري تاليه في المرتبة. كنت واقفاً بالنافذة أراقب السفن وهي تمر. كانت سفناً تجارية تندفع بسرعة عبر الماء الداكن وكان لبعضها مداخن كبيرة ولبعضها الآخر أسطح محدَّبة (تشبه كل الشبه مباني المحطة في الحلم التمهيدي . غير المذكور). بعد ذلك يقف أخي بجانبي وينظر كلانا من النافذة إلى القناة. نرتاع لمرأى إحدى السفن ونصيح: ها هي ذي السفينة الحربية! ولكن يتضح أنه لم يكن هناك سوى السفن التي أعرفها من قبل في طريقها إلى العودة. تقبل الآن سفينة صغيرة انفطرت عند الوسط فلم يبقَ سوى نصفها على نحو يثير الضحك، نرى على سطحها أشياء غريبة تشبه الفناجين أو العلب في شكلها. نصيح في صوت واحد: تلك سفينة الإفطار.

إن حركة السفن المسرعة مع لون المياه الأزرق الداكن والدخان الأسمر المتصاعد من المداخن . كل أولئك قد ائتلف ليحدث في النفس شعوراً شديد التوتر، قاتماً.

ولقد نقلت الأماكن التي ظهرت في الحلم عن رحلات متعددة قمت بها في البحر الأدرياتي (إلى ميرامار . ودونيو والبندقية وآكيليا). وكانت لا تزال حية في ذاكرتي رحلة ممتعة قمت بها مع أخي إلى آكيليا، قبل الحلم ببضعة أسابيع. ويحتوي الحلم كذلك على إشارات إلى الحرب البحرية بين أمريكا وإسبانيا وإلى ما أثارته إذ ذاك من القلق على مصير بعض أقاربي ممن يقيمون في أمريكا. وقد ورد ذكر الحالات الوجدانية في موضعين من هذا الحلم: ففي موضع تغيب حالة وجدانية متوقعة، إذ نصَّ صراحة على أن موت الحاكم لم يترك أثراً في نفسي، كما أنني في موضع آخر . حين

أقبلت السفينة الحربية . قد ارتعت لمرآها وشعرت بكل أحاسيس الفزع في نومي. ووزِّعت الحالات الوجدانية في هذا الحلم الحسن التركيب توزيعاً كان من شأنه أن أجتنب كل تناقض يلفت النظر؛ فلم يكن ثمة سبب يدعوني إلى الفزع من موت الحاكم وكان من المعقول كل المعقولية . وأنا قائد الحصن . أن أفزع لمرأى السفينة الحربية. بيد أن تحليل الحلم يبين أن السيد ب. لم يكن إلا بديلاً مني (في الحلم كنت بديله)؛ فأنا الحاكم الذي سقط ميتاً، وأفكار الحلم تدور حول مصير أسرتي إذا مت قبل الأوان. تلك كانت بين أفكار الحلم الفكرة الوحيدة الأليمة، ولا بد أن الفزع قد فُصل منها ثم وصل في الحلم بمرأى السفينة الحربية. ويبيَّن التحليل من جهة أخرى . أن منطقة أفكار الحلم التي استقَيت منها السفينة الحربية كانت تحفل على العكس بأشد الذكريات مرحاً: كان ذلك منذ عام مضى في البندقية، وكنا في صبيحة يوم ساحر جميل، وقوفاً إلى نوافذ حجرتنا المطلة على الري؟! سكيا؟وني ننظر عبر البحيرة الزرقاء حيث كانت الحركة في ذلك اليوم أكثر منها في كل يوم؛ فقد كان القوم يتوقعون مقدم بعض السفن الإنجليزية ويتهيأون للاحتفال بها. ثم إذا زوجتي تهتف مرحة كالطفل: «ها هي ذي السفينة الحربية الإنجليزية!» وإني أفزع في الحلم لهذه الكلمات بالذات (وهو مثال آخر على أن أقوال الحلم إنما تستقي من أقوال قيلت في الحياة [أنظر ص 445]، كما أني لن ألبث دون أن أبيِّن أن العنصر «إنجليزي» لم يفلت هو الآخر من فعل عمل الحلم). وأنا إذن في عملية تصيير أفكار الحلم إلى محتوى الحلم الظاهر قد قلبت المرح هنا إلى خوف، ولست أحتاج إلى غير الإلماع إلى أن هذا القلب نفسه كان يعرب عن جزء من محتوى الحلم الكامن. وأياً كان الأمر، فهذا المثال دليل على أن عمل الحلم حر في أن يفصل الحالة الوجدانية من روابطها بأفكار الحلم وفي أن يدرجها بأي موضع يشاء من محتوى الحلم الظاهر.

وأنتهز هذه الفرصة لكي أسوق تحليلاً مفصلاً بعض التفصيل لـ «سفينة الإفطار» التي ظهرت في الحلم فكان ظهورها خاتمة لا معنى لها لموقف ظل يُدار حتى ذلك الحين في مستوى معقول. إنني حين أستحضر سفينة الحلم استحضاراً أدق يفجأني منها أنها كانت سوداء اللون وأنها . نتيجة لكونها قد فُطرت في منتصفها حيث أوسع عرضها . كانت جمّة الشبه . عند هذا الطرف . بطائفة من أشياء جذبت انتباهنا في متاحف المدن الإترورية: تلك كانت صينيات من الخزف الأسود ذات مقبضين، وضعت عليها أشياء تشبه فناجين القهوة أو الشاي ولا تخلو من كل شبه بأواني الإفطار في مدنيتنا الحديثة. فلما استفسرنا علمنا أن تلك كانت عِدد «التواليت» لسيدة إترورية بما تحويه من أوعية للدهون والمساحيق، فقلنا مازحين: إنها تكون فكرة طيبة لو أنَّا حملنا معنا أحدها لربة المنزل. وعلى ذلك فالسفينة التي تظهر في الحلم كانت تعني «تواليت أسود »، أي ثوب حداد، وكانت تشير بإشارة مباشرة إلى الموت. وأما الطرف الآخر لسفينة الحلم فيذكرني بالقوارب الجنائزية[485] التي كانت توضع عليها أجسام الموتى ويُترك للبحر دفنها. وهذا يؤدي إلى عودة السفينة في الحلم:

«وفي سكون يحمل الماء الشيخ إلى المرسى، سالماً على قاربه»[486].

إنها عودة من سفينة غارقة Schiffbruch وبالحرف: سفينة مكسورة]، ولقد كانت سفينة الإفطار مكسورة في منتصفها. ولكن ما منشأ ذلك الاسم: سفينة «الإفطار»؟ ههنا قد استغل لفظ «الإنجليزية» الذي تركناه عند الحديث عن السفن الحربية. ذلك أن الكلمة الإنجليزية الدالة على «الإفطار» (breakfast) تعني «كسر الصيام»، وإن الكسر ليرجع من جديد إلى السفينة الغارقة [وبالحرف: المكسورة]، بينما يتَّصل الصيام بالرداء [التواليت] الأسود.

غير أن الحلم لم يبتدع جديداً سوى اسم مركب الإفطار، فأما الشيء نفسه فقد وجد، وإنه ليذكرني بجزء من أمتع أجزاء رحلتي الأخيرة. فقد ساورنا الشك في جودة الطعام الذي قد يقدَم لنا في آكيليا، فأحضرنا معنا زاداً من جوريزيا واشترينا في آكيليا زجاجة من نبيذ إيستريا الممتاز. وبينما كانت باخرة البريد الصغيرة تشق طريقها وئيدة في قناة دل مي عبر البحيرة المهجورة إلى جرادو كنا نحن، الراكبان الوحيدان، نتناول طعام الإفطار على السطح ونحن أشد ما نكون حبوراً، وكان إفطاراً ندر أن ذقنا مثله من قبل. تلك إذن «سفينة الإفطار»، ووراء هذه الذكرى من ذكريات الاستمتاع بالحياة في أهنأ صورة . وراءها دون غيرها . يخفي الحلم أظلم الأفكار عن غيب مجهول مفارق للمألوف.

إن فصل الحالات الوجدانية المتولدة من أفكار الحلم هو أعجب ما يقع لها في أثناء تكوين الحلم، ولكنه ليس بالشيء الوحيد الذي يقع لها، ولا هو أهم ما يعتريها من التغيير في طريقها من أفكار الحلم إلى الحلم الظاهر. فلو أننا قارنَّا الحالات الوجدانية التي تصحب أفكار الحلم وبين تلك الظاهرة فيه، لاتضح أمر على الفور: كلما عُرضت في الحلم حالة وجدانية وجدت هذه الحالة في أفكار الحلم، ولكن العكس غير صحيح. فالحلم بوجه عام أفقر وجداناً من المادة النفسية التي نجم الحلم عن معالجتها، فأنا في العادة إذ أركِّب أفكار الحلم من جديد أرى بينها أشد الدوافع النفسية وهي تجهد لكي تبلغ الحس وأراها في معظم الأحايين وهي تصارع دوافع غيرها تخالفها مخالفة بيِّنة. فإن رجعت بعد ذلك إلى الحلم، لم يندر أن أجده حائل اللون، خالياً من كل نغمة انفعالية ذات شدة يعتد بها. فعمل الحلم لا يهبط إلى مرتبة التساوي بمحتوى أفكاري وحده، بل إن نغمتها الانفعالية تلقى كذلك ذات المصير في كثير من الأحيان. ولقد يصح القول بأن عمل الحلم يجلب معه قمعاً للحالات الوجدانية. دعنا نأخذ . مثلاً . حلم البحث النباتي: إن الأفكار التي كان يعرب عنها هذا الحلم كانت تقوم في دفاع حار مهتاج عن حريتي في أن أسلك كيفما أختار وفي أن أوجِّه حياتي على النحو الذي يبدو لي . ولي وحدي . صواباً، ولكن خرج من ذلك حلم سيماه التساوي: كتبت مبحثاً، المبحث أمامي، إنه يشتمل على لوحات ملونة، أرفقت بكل نسخة نباتات مجففة. لفي ذلك ما يذكر بالسلام الذي يخيِّم فوق ساحة قتال انتثرت الجثث في رحابها؛ فكل أثر ينم عن الصراع الذي

دارت رحاه فوق أرضها قد انمحى.

غير أن الأمور قد تختلف: قد تنفذ إلى الحلم نفسه تعبيرات وجدانية مشتدة. سوى أنني أقف في الوقت الحاضر عند تلك الحقيقة التي لا منازعة فيها: أن عدداً كبيراً من الأحلام يبدو متساوياً، على حين يستحيل أن يلج المرء أفكار الحلم دون أن يتولاه انفعال عميق.

وليس هنا مقام الإتيان بالتعليل النظري الكامل لما يقع في خلال عمل الحلم من هذا القمع للحالات الوجدانية؛ فذلك ما يستلزم التمهيد له ببحث من أشق ما يكون في نظرية الحالات الوجدانية وفي ميكانيكية الكبت [أنظر ص 617 وما بعدها]، وإنما أريد الإدلاء هنا بفكرتين: إنني مضطر ـ لأسباب أخرى ـ إلى أن أتصور انطلاق الحالات الوجدانية في صورة عملية نازحة عن المركز متجهة إلى داخل الجسم مثل عمليات التعصيب[487] الحركي والغددي. وكما أن إرسال الدفعات الحركية إلى العالم الخارجي يبدو معطلاً في أثناء حالة النوم، فإن إثارة الحالات الوجدانية بوساطة التفكير اللاشعوري قد تزيد كذلك صعوبة في خلال النوم. وفي هذه الحالات تكون الخلجات الوجدانية التي تخطر في ثنايا أفكار الحلم ضعيفة في ذاتها وبذاتها، ومن ثم لا يكون ما ينفذ منها إلى الحلم بأقل ضعفاً. ويلزم من هذه النظرة أن «قمع الحالات الوجدانية» ليس نتيجة لعمل الحلم على الإطلاق، بل ينجم عن حالة النوم. وقد يكون ذلك صحيحاً، ولكنه لا يمكن أن يكون كل الحقيقة. فلا بد أن نذكر أن كل حلم ـ مهما قلّ حظه من التعقيد ـ يتبيّن في النهاية أنه وليد تصالح بين قوى نفسية متعارضة. فالأفكار التي تبنى بها الرغبة لا تجد مفراً من مكافحة المعارضة المنبعثة من العامل القائم بالرقابة ـ هذا من جهة. ثم نحن ـ من جهة أخرى ـ قد رأينا في أحيان كثيرة أن التفكير اللاشعوري لا يحوي فكرة إلا كانت مشدودة إلى ضدها الذي ينقضها. وإذ كانت هذه الأفكار جميعاً قادرة على إثارة الحالات الوجدانية فنحن ولا ريب بمأمن من مجانبة الصواب حين نقدِّر أن قمع الحالات الوجدانية هو نتيجة للكف الذي تعمله هذه الأضداد بعضها في بعض وتعمله الرقابة في النوازع المقموعة بوساطتها. وعلى ذلك يكون كف الحالات الوجدانية هو النتيجة الثانية لرقابة الحلم كما كان التشويه الحلمي نتيجتها الأولى.

وأسرد هنا مثالاً من حلم يسعنا فيه أن نعلل ما يطبع محتوى الحلم من تساوي النغمة الانفعالية بما بين أفكار الحلم من التضاد. إنه حلم قصير يملأ كل قارىء اشمئزازاً.

(4)

تلّ علاه شيء أشبه بمرحاض في الهواء الطلق: مقعد طويل جداً في نهايته ثقب كبير، غطِّيت حافته الخلفية بغطاء سميك من أكوام صغيرة من الغائط، من جميع الأحجام ودرجات الطزاجة. وراء المقعد شجيرات. أتبوَّل على المقعد، يغسل مسيل طويل من البول كل شيء، فأكوام الغائط تنزاح في يسر وتسقط في الفتحة. كأنما ظل بعضها متبقياً في النهاية.

لمَ أنتفى عندي كل شعور بالاشمئزاز في خلال هذا الحلم؟

لأن هذا الحلم ـ كما يبيّنه التحليل ـ قد اشتركت في تكوينه أشد الأفكار مجلبة للسرور وأكثرها بعثاً على الرضى. فما يخطر لي على الفور عند تحليل هذا الحلم هو حظائر أوجياس[488] التي نظفها هرقل. وهرقل هذا كان إياي. فأما التل والشجيرات فتأتي من آوسي حيث كان يقيم أطفالي في ذلك الوقت. وإني قد اكتشفت أن للعصاب علاً ترجع إلى الطفولة وبذلك جنَّبت أطفالي المرض. وأما المقعد فكان (إذا استثنينا الثقب بالطبع) صورة طبق الأصل من قطعة من الأثاث أهدتها إليَّ مريضة عارفة للجميل، وهو ـ إذن ـ يذكرني بمدى التكريم الذي ألقاه من مرضاي. لا، بل إن متحف البراز الإنساني نفسه ليجد تفسيراً من شأنه أن يثير سروري؛ فإنه ـ مهما بلغ اشمئزازي منه في الحياة الواقعة ـ كان في الحلم أثراً ذكروياً من أرض إيطاليا الجميلة حيث تُهيأ المراحيض في المدن الصغيرة ـ كما نعلم جميعاً ـ على هذا النحو عينه. وأما سيل البول الذي يغسل كل شيء فعلامة لا تخطىء على العظمة. فهكذا أطفأ جالي؟ر الحريق الكبير الذي شبّ في ليلبيت ـ وإن يكن هذا العمل قد جرّ عليه يقيناً غضب الملكة الرقيقة. ولكن جارجنوا ـ رجل رابليه الفائق ـ قد أخذ هو الآخر بثأره من أهل باريس بأن امتطى متن كنيسة نوتردام وصبّ سيل بوله على المدينة[489] ولقد اتفق يوم أمس على التحقيق أنني ـ قبل التوجّه إلى الفراش ـ تصفحت رسوم جارنييه لكتاب رابليه. ومن العجب أن ههنا شاهداً جديداً على أنني الإنسان الفائق: فرصيف نوتردام كان كنفي المفضَّل في باريس، كلما فرغت في عصر يوم جلت هنا وهناك على أبراج الكنيسة بين المسوخ والشياطين. فأما اختفاء كل الغائط بتلك السرعة تحت سيل البول فيذكِّر بشعار «نفخ فتبعثروا» الذي كنت انتويت أن أتخذه عنواناً لفصل في علاج الهستيريا [أنظر ص 256].

وعلينا الآن بالمناسبة الحافزة على الحلم. كان ذلك في عصر يوم قائظ من أيام الصيف، وكنت ـ بعد الظهر ـ قد ألقيت محاضرتي في الصلة بين الهستيريا والانحرافات الجنسية. وكان كل ما قلته يبعث الاستياء في نفسي ويبدو لي مجرداً من القيمة كل التجرّد. كنت متعباً لا أستشعر أثراً من السرور بعملي المضني، تواقاً إلى البعد عن هذا التنبيش في القاذورات الإنسانية إلى حيث يقيم أبنائي ثم ـ بعد ذلك ـ إلى روائع إيطاليا. وفي هذا

المزاج مضيت من قاعة المحاضرة إلى أحد المقاهي حيث تناولت لقمة متواضعة؛ فلم تكن بي شهية إلى الطعام. بيد أن واحداً من مستمعي جاء معي ورجا مني أن أدعه يجلس إلى جانبي ريثما أحتسي قهوتي وأتبلَّغ كسرتي، ثم أخذ يتملقني: كم من أشياء تعلَّمها مني، وكيف أصبح ينظر إلى الأشياء بعين جديدة، كيف نظفت حظائر أوجياس من الأخطاء ومن الآراء السابقة بنظريتي عن الأعصبة، وبالاختصار قال لي: إنني رجل عظيم جداً. ولم أكن في مزاج يتفق وهذا التقريظ، فغالبت شعوري بالاشمئزاز ثم ذهبت إلى المنزل مبكراً لكي أفلت منه. وكان أن تصفحت رابليه قبل الذهاب إلى الفراش وقرأت قصة قصيرة من قصص ك. ن. ماير بعنوان «أحزان صبي».

تلك هي المادة التي خرج منها الحلم. أضف أن قصة ماير القصيرة قد أثارت في نفسي ذكريات عن مشاهد من الطفولة (أنظر الجزء الأخير من حلم الكونت تون [ص 257]). ولقد استمر في الحلم مزاج النفور والاشمئزاز الذي عرفته في خلال النهار، حتى أنه زوّد الحلم بكل مادة محتواه الظاهر تقريباً. سوى أن مزاجاً مضاداً من توكيد الذات توكيداً قوياً بل مغالياً قد استيقظ في أثناء الليل ونحى الأول دون أن يبطله. ولم يكن لمحتوى الحلم بد من أن يجد صورة تمكنه من الإعراب عن هجاس الشعور بالضآلة وعن جنون العظمة في آن واحد. وكان من نتيجة هذا التلاقي محتوى حلمي طابعه الاشتراك، ولكن نجمت كذلك نغمة انفعالية متساوية نتيجة للكف المتبادل بين الأضداد.

ولو أخذنا بنظرية تحقيق الرغبة لزم أن هذا الحلم ما كان يتيسر لولا أن الأفكار المضادة الصادرة عن جنون العظمة (وهي أفكار كانت تقع تحت وطأة القمع من غير شك سوى أنها كانت ذات طابع لاذ) قد انبعثت إلى جانب الشعور بالاشمئزاز. فما هو أليم يجب ألا يصوَّر في الحلم، وكل ما يؤلم من أفكارنا الحلمية لا ينفذ إلى الحلم إلا إذا هو أسلم في الوقت نفسه قناعاً يتقنَّع به تحقيق رغبة ما.

وهناك بعد ذلك طريقة أخرى يستطيع بها عمل الحلم معالجة الحالات الوجدانية المتضمنة بين أفكار الحلم ـ إلى جانب تركها تشق طريقها أو سلبها كل حِدَّة، تلك هي: قلبها إلى ضدها.

فقد عرفنا من قبل [ص 374] تلك القاعدة التفسيرية: أن كل عنصر ـ من حيث تفسيره ـ قد يعرب عن ضده كما يعرب عن نفسه. ولسنا نستطيع أن نعلم مقدماً بأي الطرفين نأخذ، وإنما الفصل للسياق، ومن الواضح أن الشعور الشعبي قد أحسَّ هذه الحقيقة؛ فكُتب الأحلام تنهج في تفاسيرها وفق مبدأ الأضداد في كثير من الأحايين. والذي يجعل هذا القلب إلى الضد شيئاً ممكناً هو هذه الرابطة الاستدعائية الباطنة التي تربط في فكرنا بين فكرتنا عن شيء وبين ضدها. وهذا القلب ـ شأنه شأن أي نوع آخر من أنواع النقل ـ قد يخدم أغراض الرقابة، ولكنه قد يكون أيضاً ـ في أحيان كثيرة ـ وليد تحقيق الرغبة؛ فما تحقيق الرغبة إلا أن تستبدل بشيء مستكره ضده. وإذا كانت أفكارنا المعربة عن الأشياء قد تظهر في الحلم مقلوبة إلى ضدها، فكذلك الحالات الوجدانية المرتبطة بأفكار الحلم، والراجح ـ فيما يبدو ـ هو أن هذا القلب للحالة الوجدانية يجيء نتيجة لرقابة الحلم، أو تلك هي القاعدة. ونحن في الحياة الاجتماعية ـ تلك الحياة التي تزوّدنا بتشبيهنا المألوف لرقابة الحلم ـ نلجأ كذلك إلى قمع حالاتنا الوجدانية كما نلجأ إلى قلبها ، مستهدفين في ذلك الاستخفاء أولاً. فإذا كنت أحدِّث شخصاً تحملني الضرورة على مداراته بينما رغبتي هي أن أرميه بكلمة عداء، فإن إخفاء كل تعبير عن حالتي الوجدانية أمر يكاد يفوق في أهميته وفي لزومه تخفيف العبارة اللغوية عن أفكاري؛ فإني إذا خاطبته بكلمات لا تجانب الأدب ولكنها تُصطحب بنظرة أو بإشارة من الكراهية والاحتقار، لم يختلف التأثير الذي أحدثه في نفسه منه لو أنني رميته باحتقاري مجاهرة. وعلى ذلك كانت الرقابة تأمرني أن أقمع حالاتي الوجدانية قبل كل شيء. فإن كنت معلماً في فن الاستخفاء تلبَّست بالحالة المضادة؛ أبسم وأنا غاضب، وأظهر الود ورغبتي الدمار.

ولقد مرّ بنا من قبل مثال ملحوظ على مثل هذا القلب للحالة الوجدانية يقع في الحلم نتيجة للرقابة. ففي حلم «عمي ذي اللحية الصفراء» [ص 182] أحسست أكبر الود نحو صديقي ر.، بينما كنت أدعوه في أفكار الحلم مغفلاً، ولأنني كنت أدعوه كذلك. وقد كان من هذا المثال على قلب الحالة الوجدانية أننا خرجنا بأول إشارة إلى وجود رقابة الحلم. وهنا أيضاً ما من ضرورة تدعونا إلى أن نفترض أن عمل الحلم يخلق مثل هذه الحالة الوجدانية من عدم، بل القاعدة هي أنه يراها في متناول يده بين أفكار الحلم، كل الأمر أنه يزيدها شدّة على شدّة بالقوة النفسية التي لدافع الدفاع، حتى تصير لها الغلبة في تكوين الحلم. فالراجح في حلم عمي الذي ذكرته هو أن الحالة الوجدانية المضادة ـ الحنان ـ قد انبعثت من مصدر طفلي (كما أوحاه الجزء الأخير من الحلم)؛ لأن علاقة العم وابن الأخ قد صارت المنهل الذي ترد منه كل صداقاتي وعداواتي، نتيجة للطابع الخاص الذي كان لأوائل خبراتي في عهد الطفولة [أنظر التحليل المُساق في ص 450 وما بعدها].

ونجد مثالاً ملحوظاً على مثل هذا القلب للحالة الوجدانية في حلم رواه فرنتسي (1916)، قال: «استيقظ سيِّد متقدّم في السن ذات ليلة، أيقظته زوجه المذعورة؛ لأنه كان يضحك في نومه ضحكاً صاخباً مطلقاً. وقد ذكر الرجل بعد ذلك أنه كان يحلم الحلم الآتي: كنت راقد في سريري ثم دخل الغرفة سيد أعرفه، حاولت أن أدير النور ولكنني لم أستطع. كررت المحاولة فلم تجدِ. عندئذ نهضت زوجتي لمعاونتي، ولكنها عجزت هي الأخرى. تنزل في النهاية عن محاولتها وتعود إلى فراشها لأنها كانت تشعر بالخجل أمام السيد لتجردها من الرداء بعض التجرد. وكان هذا كله شيئاً مضحكاً حتى لم أملك إلا أن أضحك ضحكاً مدوياً. وسألتني زوجي: ولمَ تضحك؟ لمَ تضحك؟، ولكن ذلك لم يزدني إلا ضحكاً حتى استيقظت. ـ وفي غداة هذا الحلم كان السيِّد يشعر باكتئاب وصداع؛ فكل هذا الضحك قد كربه ـ أو هكذا ظنَّ.

«إن هذا الحلم ليس بالحلم السار إلى المدى الذي يبدو، لو بحثناه بحثاً تحليلياً؛ نفسياً؛ لأن «السيد المعروف» الذي دخل الحجرة كان في أفكار الحلم صورة للموت باعتباره «المجهول الأكبر» . وهي صورة طافت بخلده في اليوم الذي سبق الحلم؛ فقد وقع لهذا السيد المسن . وهو يشكو تصلّب الشرايين . ما دعاه في اليوم السابق إلى التفكير في الموت. ولقد حلّ الضحك المطلق محل النحيب والبكاء لفكرة موته المحتوم، ونور الحياة هو هذا الذي لم يعد يستطيع إدارته. ولعل هذه الفكرة المظلمة قد ارتبطت بمحاولات في الجماع بذلها قبيل نومه دون أن يصيب توفيقاً وإن عاونته زوجه وهي متجرّدة، فلحظ أنه قد أخذ في الأفول. بيد أن الحلم أفلح في تحويل هذه الفكرة المظلمة عن العنَّة والموت إلى مشهد هزلي، والنحيب حال إلى ضحك».

وهناك طبقة من الأحلام تستحق بنوع خاص أن توصف بكونها أحلاماً «منافقة»، ثم هي محك صعب لنظرية تحقيق الرغبة. ولقد اتجه انتباهي إلى هذه الأحلام حين أتت السيدة الطبيبة م. هيلفردينج بالحلم الآتي من أحلام روزجر[490] لمناقشته في «جمعية فيينا للتحليل النفسي».

يقول روزجر في قصته «مطرود»[491]: «إني أنعم عادة بنوم عميق، ومع هذا ما أكثر الليالي التي لم أذق فيها راحة! . لأنني، إلى جانب بدايتي المتواضعة طالباً وأديباً ظللت أجر معي سنوات طوالاً ظِل حياتي وأنا طرزي، مثل شبح لا أستطيع الخلاص منه.

«ولا يعني ذلك أنني في خلال النهار، كنت أشغل بأيامي الماضية انشغالاً كثيراً أو كبيراً؛ فمن نزع عن نفسه جلد الفلسطيني[492] وراح يغزو الأرض والسماء يتجه بهمّته إلى أمور أخرى. ولا كنت أكاد . وأنا فتى مرح مقدام . أفكر لحظة فيما يزورني في جنح الليل من الأحلام. ولكنني بعد ذلك، حين اعتدت أن أفكر في كل شيء، أو حين أخذ الفلسطيني الكامن فيّ يختلج قليلاً، حينئذ فقط ساءلت نفسي: لمَ كنت، إذا حلمت على الإطلاق، رأيتني طرزياً أجيراً ورأيتني . وأنا كذلك . أقضي الساعات الطوال إلى جانب معلمي أعمل في دكانه من غير أجر؟ كنت أعلم حق العلم، وأنا جالس إلى جانبه أخيط وأكوي، أن مكاني الصحيح لم يعد هناك، وأن أمامي . وأنا الحضري . أمور أخرى أشغل بها. بيد أنني كنت دائماً في إجازة، وكان الوقت دائماً وقت إجازة الصيف. ولهذا كنت هناك بجانب معلّمي أعاونه. وكان هذا الوقت المضيع الذي كان يسعني أن أصنع في أثنائه أموراً أخرى أكرم وأنفع، كان يمضني وكنت أتحسر عليه. وكنت بين الحين والحين، إذا لم تجرِ الأمور على ما يرام، أصغر كارهاً لملامة من معلمي، وأما الأجر فما من كلمة عنه. ولكم عزمت وأنا جالس محني الظهر في الدكان المظلم على أن أترك العمل وأغادر المكان. لا، بل إني أقدمت على ذلك مرة. ولكن المعلم أخذ الأمر كأنه لم يكن ولم ألبث أن رأيتني جالساً من جديد إلى جواره وأخيط.

«وكم كانت اليقظة حلوة بعد هذه الساعات الثقال. كنت أعقد العزم بعدها إذا عادني هذا الحلم اللجوج إلا أن أطرحه طرح النواة وأن أصيح بأعلى صوتي: إن هذه إلا أضغاث أحلام، إني راقد في سريري أبتغي النوم.. ولكن تأتي الليلة التالية، فإذا أنا جالس في دكان الطرزي مرة أخرى.

«وهكذا دام الأمر سنوات في اطِّراد يشيع العجب. ثم حدث مرة أننا كنا . معلمي وأنا . نعمل في بيت أليلهوفر (وهو الفلاح الذي اشتغلت في داره حين عملت أجيراً للمرة الأولى)، وأبدى معلمي استياءً من عملي فوق استيائه المألوف، فقال لي: أريد أن أعلم أين رأسك!، ثم نظر إليّ نظرة مغبرة. وفكرت في أن أصوّب ما أستطيع صنعه هو أن أنهض واقفاً وأن أعلنه أنني لا أمكث معه إلا توخياً لمرضاته ثم أبرح. ولكنني لم أصنع شيئاً من ذلك. ولا أنا أبديت أقل اعتراض حين أخذ معلمي أجيراً آخر وأمرني أن أترك له مقعدي، بل انزويت في الركن وأخذت أخيط. وفي هذا اليوم عينه ألحق المعلم بالعمل أجيراً آخر، رجلاً ذا ورع زائف، هو الغجري الذي عمل في محلنا منذ تسعة عشرة عاماً ثم وقع مرة في النهر وهو راجع من المنزل. فلما أجال الأجير الجديد بصره يلتمس مقعداً لم يكن في المكان محل. ونظرت إلى معلمي أسأل فقال لي: إنك لا تصلح للخياطة، لك أن ترحل، أنت مطرود. . وعندئذ أحسست ذعراً طاغياً حتى أنني هببت مستيقظاً.

«كان ضوء المصباح الرمادي يلمع من خلال الستائر المسدلة نافذاً إلى غرفتي الأليفة، وكانت روائع الفن تحفُّ بي: ها هم أولاء في صوان كتبي الأنيق هومير الخالد ودانته العملاق وشكسبير المنقطع النظير وجوته الماجد، الخالدون العظام جميعهم. وفي الحجرة المجاورة ترن أصوات جلية طرية، أصوات أبنائي الصغار وهم يستيقظون ويمازحون أمهم. لكأني اكتشفت من جديد هذه الحياة الحلوة كعيش الرعاة، الوادعة، الشاعرة، الروحية، التي عرفت فيها السعادة الإنسانية التأمُّلية وذقتها ذوقاً عميقاً. ومع هذا، كان يغضبني أنني لم أسبق معلمي فأتركه مختاراً، بل شيِّعت مطروداً.

«ثم كم كان دهشي بعد ذلك: فمنذ الليلة التي طردني فيها معلمي وأنا أنعم بالسلام، لم أعد أحلم بأيام الطرزي المستكنة من ورائي في الماضي السحيق، تلك الأيام التي كانت . والحق يقال . أياماً هانئة في خلوُها من كل اقتضاء ولكنها ظلت تنشر فوق مستأنف سنواتي كل هذا الظل القاتم الممدود».

إن من الصعب أن نتبين أين تحقيق الرغبة في هذه السلسلة من الأحلام التي أتاها مؤلف كان في صباه طرزياً أجيراً. فكل سعادة الحالم كائنة في حياته التي يحياها بالنهار في حين يصرّ الحلم على ملاحقته بشبح حياته الشقية التي لم يخرج منها إلا بشق النفس. ولكن أحلاماً لي تماثل هذه في النوع قد مكنتني من أن ألقي بعض الضوء على هذا الموضوع. ذلك أنني عملت زمناً طويلاً . وأنا طبيب شاب . في معهد كيميائي دون

أن أبرز يوماً بموهبة من الموهبات التي يقتضيها هذا العلم. ولهذا كنت دائماً في حياتي المستيقظة أصدف عن التفكير في هذه الفترة العقيمة والمذلّة بحق في تاريخ تعلمي. بيد أنني ـ من جهة أخرى ـ كنت أحلم مراراً بأنني أعمل في المعمل وأقوم بالتحليلات وأجري مختلف التجارب. هذه الأحلام أحلام مستكرهة على نحو ما كانت أحلام الامتحان ثم هي لا تجيء متميزة أبداً. وكنت أفسِّر أحدها حين جذبت انتباهي كلمة «تحليل» التي أعطتني المفتاح إلى فهمها. فمنذ هاته الأيام صرت «محللاً» وإني لأقوم اليوم بتحليلات تلقى تقديراً رفيعاً وإن تكن يقيناً تحليلات نفسية. وهكذا فهمت السر: إذا كنت أستشعر الفخر في حياتي النهارية لأنني أقوم بتحليلات من هذا القبيل وأحس نزوعاً إلى أن أباهي نفسي بمدى ما صرت إليه من النجاح، فإن أحلامي تذكرني في أثناء الليل بهاته التحليلات الأخرى المخفقة، الخالية من كل وجه يدعو إلى الافتخار؛ إنها أحلام عقاب تنزل بحديث النعمة مثل أحلام الطرزي الأجير الذي صار مؤلفاً ذائع الصيت. ولكن كيف يتسنّى لحلم وسط هذا الصراع بين غرور حديث النعمة وبين نقده لنفسه أن ينحاز إلى جانب هذا النقد وأن يختار لمحتواه تحذيراً معقولاً بدل التحقيق غير المشروع لرغبة من الرغبات؟ لقد ذكرت من قبل أن الإجابة عن هذا السؤال تثير صعوبات شتى ولكننا نستطيع أن نستنتج أن أساس الحلم كان في أول الأمر تخييلاً طامحاً، مغرقاً في الطموح، ثم نفذت إلى الحلم بدل ذلك أفكار مذلّة جاءت فألقت ماء بارداً على هذا التخييل. فلا ننسى أن بالنفس دوافع ماسوشية قد تكون هي السبب في مثل هذا القلب. ولست أرى ما يمنع دون تمييز هذه الأحلام من أحلام «تحقيق الرغبة» تحت عنوان «أحلام العقاب» ؛ فما كنت لأرتأي في هذه التفرقة قيداً يحدّ نظرية الحلم التي لم أزل أعرضها، بل هي تنازل لفظي محض تجاه وجهة النظر التي ترى في اجتماع الأضداد شيئاً عجيباً[493]. ثم إن إمعان النظر في بعض الأحلام التي من هذه الطبقة يلقي الضوء على شيء آخر. فقد جاء في هامش أحد أحلامي عن المعمل جزء غير متميز بدوت فيه وأنا في هاته السن التي عرفت فيها على التحقيق أظلم سنوات حياتي الطبية وأقلّها حظاً من النجاح: كنت لا أزال بغير وظيفة، لا أعرف كيف أرتزق. ولكن تكشَّف لي فجأة أنني كنت إذ ذاك لا أزال أملك الخيار بين أكثر من امرأة أستطيع التزوّج بها! أي أنني كنت شاباً من جديد ثم ـ قبل كل شيء ـ كانت أيضاً شابةً من جديد الزوجة التي شاركتني كل هاته السنوات الصعاب. وهكذا تجلّى أن الباعث اللاشعوري على الحلم كان رغبة من هذه الرغبات التي لا يني عن أن يتلظى بها قلب الرجل الذي تتقدّم به السن. فالصراع الناشب في طبقات أخرى من النفس بين غرور الإنسان ونقده نفسه هو الذي حدّد محتوى الحلم، هذا صحيح. ولكن الرغبة في الشباب ـ هذه الرغبة الأعمق جذوراً ـ هي وحدها التي مكّنت لهذا الصراع سبل الظهور في صورة الحلم. وإنا ـ بين الحين والحين ـ لنحدِّث أنفسنا قائلين: «كل شيء اليوم على أحسن ما يكون، وزمان الصعاب قد انقضى، ومع هذا كم كانت جميلة تلك الأيام، كنت لم تزل شاباً فتياً».

ووقعت لي طائفة أخرى من الأحلام عرفت فيها طابع النفاق[494]، يدور محتواها حول مصالحة أناس انقطعت أسباب الصداقة بين الحالم وبينهم منذ زمن بعيد: في مثل هذه الحالات يكشف التحليل عادة عن دافع يحثّ المرء على أن يطرح البقية الباقية مما يكنّه من الرعاية لهؤلاء الأصدقاء القدماء وعلى معاملتهم معاملة الغرباء والأعداء. ولكن الحلم يؤثر إلا أن يصوِّر العلاقة المضادة.

ومن الحكمة حين نكوِّن رأياً يتصل بأحلام رواها كاتب مبدع أن نفترض أنه قد حذف في خلال روايته تفاصيل من محتوى الحلم لاحت له غير جوهرية أوقد تبدّد الانتباه، وفي هذه الحالة تثير أحلامه مشكلات قد كان يسهل حلَّها لو أنه أورد محتواها كاملاً.

وقد نبّهني أوتورانك إلى أن قصة جريم عن الطرزي الصغير الجسور أو «سبعة في ضربة واحدة» قد حوَت حلماً مماثلاً كل المماثلة يأتيه حديث نعمة: ففيها نرى الطرزي الذي أصبح بطلاً وصهراً للملك يحلم ذات ليلة بحرفته القديمة وزوجه الأميرة راقدة إلى جواره. وترتاب هذه في الأمر فتأتي بحراس مدججين توقفهم لكي يسترقوا السمع في الليلة التالية ويلقوا القبض عليه. ولكن الطرزي الصغير يجد من يحذره فيعرف بعد ذلك كيف يصحح حلمه.

إن العمليات المعقدة التي تحوَّل بوساطتها الحالات الوجدانية المتضمنة في أفكار الحلم إلى تلك الظاهرة فيه ـ عمليات الاستبعاد والانتقاص والقلب ـ يمكن تأثّرها على نحو مرضٍ في مؤلفات حلمية مناسبة سبق تحليلها تحليلاً وافياً. وسأنتخب الآن بضعة أمثلة أخرى على الحالات الوجدانية في الحلم، أمثلة نرى فيها الإمكانيات التي أحصيتها وقد تحققت.

(5)

إذا عدنا إلى حلم المهمة العجيبة التي كلَّفني إياها بروكيه الشيخ ـ أن أُشَرِّحَ حوضي [ص 477] ـ رأينا أنني قد افتقدت في الحلم نفسه ما كان يتلائم ومثل هذه المهمة من الشعور بالفظاعة. وأضيف الآن أن ذلك كان يحقق رغبة بأكثر من معنى. فالتشريح كان يعني تحليلي النفسي الذي أقوم به كأنما كان ذلك من أجل نشر هذا الكتاب ـ وهو أمر كان يؤلمني في الحقيقة حتى أنني أجَّلت طبع المخطوط سنة أخرى بعد الفراغ منه. وهنا انبعثت الرغبة في أن أتغلب على هذه الكراهية؛ فلم أشعر في الحلم بفظاعة ما. ولكنني أود كذلك لو أفلت من هذه الفظاعة [Grauen] بالمعنى الآخر للكلمة [وهو الشيب]؛ فقد أخذ شعري يضرب إلى المشيب ، وهذا الشيب يذكرني كذلك بأن أكف عن الإرجاء. ونحن نعلم أن هذا

الخاطر: أنني قد أضطر إلى أن أترك لأبنائي تحقيق الهدف الذي لم أبلغه من رحلتي الصعبة . قد نفذ إلى التصور عند خاتمة الحلم.

دعنا الآن نبحث الحلمين اللذين نقلا تعبير الرضا إلى اللحظة التي أعقبت اليقظة مباشرة. لقد نسب الرضا في حالة إلى ما توقعته من كشف وشيك عن معنى «قد حلمت بذلك من قبل» بينما كان هذا الرضا يشير في حقيقة الأمر إلى مولد أولادي الأوائل [ص 471]، ونُسب الرضا في الحالة الثانية إلى أن «وعداً» قد تحقّق بينما كانت الإشارة الصحيحة في هذا الحلم أشبه بها في سابقه، فلم يكن الرضا إلا هذا الذي هللت به لمولد ابني الثاني [ص 472]. وهكذا نجد هنا أن الحالات الوجدانية المسيطرة في أفكار الحلم قد بقيَت في الحلمين، ولكن أكبر الظن أنه ما من حلم تجري فيه الأمور على هذا النحو من البساطة. فلو أننا تعمّقنا تحليل هذين الحلمين قليلاً لعلمنا أن هذا الرضا الذي يفلت من الرقابة قد لقيَ تعزيزاً من مصدر آخر كان من شأنه أن يخشى الرقابة وما كانت الحالة الوجدانية المنبعثة منه لتلقى من غير شك سوى المعارضة، لولا أنها استترت وراء حالة الرضا المماثلة، المشروعة، المستقاة من مصدر لا اعتراض عليه، وبذا تسللت . إن جاز التعبير . تحت جناحها. ولست أستطيع لسوء الحظ أن أوضح ذلك في صدد هذين الحلمين بالذات، ولكن ها هوذا مثال مستمد من مجال آخر يوضح معناي: دعنا نفترض الموقف الآتي: هب بين معارفي شخصاً أضمر له الكراهية بحيث أحس نزوعاً قوياً إلى الاغتباط كلما خالفت الأمور مشتهاه، ولكن الجانب الخلقي في طبيعتي لا يفسح الطريق لمثل هذا الشعور فلا أجرؤ على أن أعرب عن رغبة في أن يعثر حظه، وإن أصابه مكروه غير مستحق تكلَّفت مظاهر الأسف وأفكاره . كل إنسان قد رأى نفسه في هذا الموقف يوماً ما. والآن هب أن هذا الشخص المكروه قد جر على نفسه ضراً مستحقاً لعثرة من جانبه: إن الذي يحدث عندئذ هو أنني أطلق العنان لرضاي عن كونه قد لقيَ عقاباً عادلاً، وإني لأراني متفقاً في ذلك مع أناس غيري كثيرين، لا شبهة في إنصافهم. بيد أنني قد ألحظ أن رضاي هذا يبدو أكثر شدّة من رضا هؤلاء الآخرين؛ فهو قد لقي تعزيزاً من مصدر الكراهية الذي ظل حتى ذلك الحين لا يجد سبيلاً إلى إحداث أثره الوجداني لضغط الرقابة الداخلية، ولكنه . وقد تغيرت الملابسات . لم يعد يصادف مثل هذا الحائل. وذلك هو ما يحدث في الحياة الاجتماعية عامة كلما جانب الحق أناس مستثقلون أو أفراد منتمون إلى أقلية مبغضة. فعقابهم لا يقابل في العادة جرمهم، بل جرمهم مضافاً إليه هذا القسط من الضغن المكنون نحوهم والذي ظلَّ من قبل لا يحدث أثراً. ولا شك في أن من يوقعون عليهم القصاص يرتكبون في ذلك جوراً، ولكن يحول بينهم وبين إدراك جورهم هذا الرضا الناجم عن إزاحة القمع الذي ظلوا يتكلفونه زمناً طويلاً. والحالة الوجدانية في مثل هذه الأحوال حالة لها ما يبررها من حيث الكيف ولكنها ليست كذلك من حيث مقدارها. سوى أن نقد الإنسان نفسه إذ يهدأ من ناحية لا يستشعر كبير ميل إلى مراجعة الأخرى. وما أن تفتح باباً حتى يتَّسع اقتحامه لعدد من الناس أكبر ممن كنت تنتوي في البدء تركهم يدخلون.

وعلى هذا النحو يجب أن نعلل سمة عجيبة في طبع العصابيين . وذلك بقدر ما تسمح هذه السمة بأي تعليل نفسي على الإطلاق . وأعني بها أن العلل القادرة على إطلاق حالة وجدانية معيَّنة تحدث عندهم نتيجة لها مبررها من حيث الكيف ولكنها مفرطة من حيث الكم. ذلك أن الإفراط ينجم هنا عن منابع لاشعورية، بقيت مقموعة حتى ذلك الحين، ولكنها أفلحت في أن تجد روابط استدعائية تصل ما بينها وبين المناسبة المدركة في الواقع، وبذلك فتح هذا المصدر الأخير المشروع الذي لا غبار عليه سبيل الانطلاق أمام الحالات الوجدانية المرتبطة بهاته المنابع. وفي ذلك ما ينبهنا إلى أننا حين ندرس العلاقة بين العاملَين القامع والمقموع يجب ألا ننظر إلى هذه العلاقة كما لو كانت علاقة كف متبادل وحسب، بل يجب أن نوجّه قسطاً مساوياً من انتباهنا إلى الحالات التي يجتمع فيها كِلا العاملين على إحداث نتيجة مَرَضية بأن يعملا جنباً إلى جنب وبأن يعزز كل منهما الآخر. ولنستخدم الآن هذه الملاحظات العابرة حول ميكانيكيات الحياة النفسية في فهم التعبيرات الوجدانية في الحلم: إذا عرضت في الحلم حالة من الرضا وأمكن بالطبع أن نكشف على الفور عن مكانها بين أفكار الحلم، فهذا الكشف وحده لا يغني دائماً في تعليل هذه الحالة تعليلاً تاماً، بل القاعدة هي أن يستلزم تعليلها التام البحث عن مصدر آخر لها، واقع تحت ضغط الرقابة . مصدر كان من شأنه وهو تحت هذا الضغط ألا يجلب الرضا بل ضده، لولا أن مجيء المصدر الحلمي الأول قد أتاح له الإفلات بالحالة الوجدانية الناجمة عن إرضائه من وطأة الكبت وأتاح له تركها تنطلق باعتبارها معززاً لحالة الرضا المنبعثة من المصدر الأول. وبذا يتبيّن أن الحالات الوجدانية في الحلم ترد من عدة من المنابع المتلاقية وأنها كثيرة الحتم من حيث علاقتها بمادة أفكار الحلم: في خلال عمل الحلم تجتمع على إحداث حالة وجدانية معينة جميع المصادر القادرة على توليد هذه الحالة[495].

إننا نستطيع أن ننفذ ببصرنا قليلاً في هذه العلاقات المعقدة، إذا حلَّلنا هذا النموذج الحلمي البديع الذي كوذَنت كلمتا Non vixit منطقته الرئيسة [ص 447 وما بعدها]. فقد اجتمعت في موضعين من المحتوى الظاهر لهذا الحلم تعبيرات وجدانية مختلفة الكيف. ففي الموضع الذي أعدمت فيه صديقي وخصمي بهاتين الكلمتين، تراكمت في نفسي مشاعر من العداء والألم جميعاً («وليتني انفعالات غريبة» . تلك كانت كلمات الحلم). ثم عند نهاية الحلم يتولاني فرح عظيم وأذهب إلى تأييد تلك الإمكانية التي أعلم في الحياة المستيقظة بطلانها: أن يكون ثمة عائدون يسهل محوهم برغبة ليس غير.

غير أنني لم أرو بعد مناسبة الحلم. وهي مع ذلك ذات أهمية جوهرية وتذهب بنا شوطاً بعيداً في فهم الحلم: فقد كنت سمعت أن صديقي الذي يقطن برلين (والذي أشرت إليه بحرف ف. [أي فليس]) كان مقبلاً على عملية جراحية وأن أحد أقاربه القاطنين بفيينا سوف يحمل إليَّ ما يجد من أنباء حالته الصحية. وكانت الأنباء الأولى بعد العملية غير مطمئنة، فثار قلقي. وكنت أفضل لو أمكنني الذهاب إليه بنفسي، ولكنني كنت في

ذلك الوقت بالذات فريسة لشكاة موجعة صارت معها كل حركة تصدر عني عذاباً عليّ. وإني أعلم الآن من أفكار الحلم أني كنت خائفاً على حياة صديقي! فقد ماتت أخته التي لم أعرفها قط وهي ـ على ما علمت ـ في باكورة الشباب، بعد مرض قصير جداً (في الحلم: يتحدث ف. عن أخته ويقول: إنها ماتت في خمس وأربعين دقيقة) ولا بد أنني تخيَّلت أن بنية صديقي لا تزيد كثيراً من حيث قدرة الاحتمال على بنية أخته وأن الأنباء قد تسوء كثيراً فأضطر في النهاية إلى السفر وأصل متأخراً ويكون ذلك شيئاً لا أكف مدى الحياة عن مؤاخذة نفسي عليه[496]. ولقد صارت هذه المؤاخذة على التأخر في الوصول هي النقطة الرئيسة في الحلم، إلا أنها صوِّرت بوساطة المشهد الذي رأيتني فيه طالباً ورأيت أستاذي المبجل بروكه يصوب إليَّ اللوم بنظرة مروعة من عينيه الزرقاوين ـ ولن نلبث طويلاً دون أن نرى ما الذي عرج بالموقف [المتخيل بإزاء فليس] هذا التعريج. ولم يكن من المستطاع أن يستحضر الحلم المشهد [الذي وقع مع بروكه] على الصورة التي عشته فيها، فكان أن تركت العينين الزرقاوين للوجه الآخر [ب.] ولكن الإعدام وكّل إلي ـ وهو قلب لا يخفى أنه قد جاء بفعل تحقيق الرغبة. فقلقي على صحة صديقي ومؤاخذتي نفسي على كوني لا أذهب إليه وخجلي من جراء ذلك ـ جاء إلى فيينا (ليراني) خلسة ـ ثم الحاجة إلى أن ينفع مرضي في عذري، كل أولئك قد اجتمع على إحداث الزوبعة الانفعالية التي استشعرتها بجلاء في خلال النوم والتي كانت تعصف في هذه المنطقة من أفكار الحلم.

ولكن مناسبة الحلم قد تضمنت شيئاً آخر كان له في نفسي أثر مخالف كل المخالفة. فالأخبار غير المطمئنة التي تلقيتها في الأيام القليلة الأولى بعد العملية قد جاءت يصحبها تحذير من أن أحدِّث أحداً بشيء من هذا كله. ولقد ساورني هذا التحذير لأنه كان ينمّ عن ارتياب في أمانتي على السر لا داعي إليه. صحيح أنني كنت أعلم أن هذه التوصية لم تصدر عن صديقي بل مرجعها خلو الشخص الوسيط من اللباقة أو زيادة في قلقه، ومع هذا فقد آلمني هذا اللوم المقنع؛ لأنه لم يكن يخلو كل الخلو من المبررات، فلا تثير ثائرة المرء ـ على ما نعلم جميعاً ـ إلا الملامة التي تصيب منه «مطعناً». وأنا إذ أقول ذلك لا ألمّح ـ والحق يقال ـ إلى واقعة جرت مع هذا الصديق، بل إلى بادرة بدرت مني وأنا أصغر كثيراً في السن: فقد كان لي إذ ذاك صديقان، كان كلاهما قد شرفني بهذا الاسم، فأخبرت أحدهما من غير داع بما قاله الآخر عنه. وكان اللوم الذي سمعته إذ ذاك لم يزل عالقاً كذلك بذاكرتي. وكان أحد هذين الصديقين هو أستاذي فلايشل، وأستطيع أن أدعو الآخر باسمه الأول يوسف ـ وهو أيضاً الاسم الأول لصديقي وغريمي في الحلم: ب.

هذه المؤاخذة على عجزي عن أن أكتم شيئاً في نفسي يشهد عليها في الحلم العنصر خلسة وسؤال ف. عن مدى ما أفضيت به من شؤونه إلى ب. وإن تدخُّل هذه الذكرى هو الذي عرج باللوم على التأخر في الوصول من الوقت الحاضر إلى ذاك الوقت الذي كنت أعمل أثناءه في معمل بروكه[497]، كما أنني إذ أحوِّل الشخص الثاني في مشهد الإعدام إلى يوسف لا أجعل هذا المشهد يصوِّر مؤاخذتي على التأخر في الوصول وحسب، بل أجعله يصور كذلك ذاك اللوم المنكبت بكبت أشد كثيراً على أنني لا أكتم سراً. وهنا يبرز للعيان ما يقوم به الحلم من عمل التكثيف والنقل، كما تبرز دوافعهما.

ثم إن غضبي الحاضر ـ وهو طفيف ـ لما حذرت به من ألا أفضي بشيء [عن مرض صديقي فليس] يلقى أمداداً تجيئه من أعماق النفس، وبذا يتضخم حتى يصير تياراً من المشاعر العدائية نحو أشخاص أكنّ لهم في الواقع كل حب. والمنبع الذي ترد منه هذه الأمداد هو الطفولة. فقد ذكرت من قبل [ص 450 و451] كيف ترجع كل مشاعري المحتومة نحو معاصري، بالصداقة وبالعداوة، إلى علاقتي في زمن الطفولة بابن أخ كان يكبرني بعام واحد، كيف كان هذا القريب يفوقني وكيف تعلمت الذود عن نفسي تجاهه منذ زمن مبكر، كيف كنا صديقين لا نفترق وكنا ـ وإنا لكذلك ـ نتشاجر ويشكو كلانا الآخر، على ما يرويه الأكبرون. إن جميع أصدقائي هم بمعنى من المعاني تقمصات لهذا الوجه الذي «تكشف منذ باكورة الزمن لنظرتي المضطربة»[498]، إنهم جميعاً عائدون [Revenants]. وقريبي نفسه قد عاد إلى الظهور في صباي، فلما عاد لعبنا سوياً قيصر وبروتوس، وظلَّ مطلباً لا تستغني عنه حياتي الانفعالية أن يكون لي صديق حميم وعدو مقيت. وكان يسعني دائماً أن أزوِّد نفسي بكليهما المرة بعد المرة. ولم يكن من النادر أن يتكرّر النموذج الطفلي بحذافيره حتى ليجتمع في الشخص الواحد العدو والصديق ـ وإن لم يجتمعا بالطبع في آن معاً أو في ذبذبة دائمة كما كان العهد في الطفولة الأولى.

ولست أرى أن أبحث في هذا الموضع كيف يقع في مثل هذه الملابسات أن ترتد مناسبة حديثة لإحدى الحالات الوجدانية إلى موقف قديم ثم يحل هذا الموقف القديم محلها فيما يتعلق بإحداث هذا الوجدان. فهذه المسألة جزء من سيكولوجية اللاشعور، ولقد كانت تجد مكانها المناسب بين إيضاح سيكولوجي للأعصبة. دعنا نفترض ـ لأجل ما نستهدفه من تفسير الحلم ـ أنَّ إحدى ذكريات الطفولة قد انبعثت أو أن المخيلة قد ركبتها، وأن محتواها كان شيئاً شبيهاً بما يأتي: يتنازع الطفلان شيئاً ما (ونستطيع أن نترك جانباً السؤال عما هو هذا الشيء وإن كانت الذكرى أو الذكرى المكذوبة تلمح إلى شيء محدّد تمام التحديد) ويدَّعي كِلا الطفلين أنه كان الأسبق وأنه بناء على ذلك صاحب الحق الأول، ثم تجيء اللكمات وتطغى القوة على الحق ـ وإذا صدقت إشارات الحلم فقد كنت أعلم حق العلم أني كنت على خطأ (ألحظ خطأي) بيد أنني أقوى الطرفين في هذه المرة، فأظل سيداً على الميدان، ويسرع الجانب المهزوم إلى جده ـ وهو والدي ـ ويشكوني إليه، فأدافع عن نفسي بالكلمات التي أعلمها من رواية أبي: ضربته، لأنه ضربني. إن هذه الذكرى أو ـ على الأرجح ـ هذا التخييل الذي يرد على خاطري وأنا أحلل الحلم ـ دون مزيد من الإيضاح، لا أدري أنا نفسي كيف

. هو الذي يكون الجزء الرئيس بين أفكار الحلم، الجزء الذي يجمع ما يشتعل بين هذه الأفكار من الانفعالات، كما تجمع البئر الماء الذي يصب فيها. ومن هذه النقطة تنساب أفكار الحلم على النهج الذي يلي: لا تلومنَّ إلا نفسك إذا اضطررت إلى أن تخلي الطريق أمامي، ما الذي دفعك إلى أن تحاول إزاحتي من الطريق؟ إني لست بحاجة إليك وإنه لأمر هين أن أجد شخصاً آخر سواك يلعب معي بدلاً منك، إلخ. ثم بعد ذلك تسير هذه الأفكار في المسارات التي تؤدي بها إلى التصوُّر في الحلم. فقد دعتني الأسباب في يوم من الأيام إلى أن ألوم صديقي يوسف [ب.] على مثل هذا المسلك، مسلك: «قم وأنا أقعد مكانك»[499]. فهو قد جاء عقبي مدرباً في معمل بروكه. وكانت الترقية هناك بطيئة عسيرة، فما كانت بمعاونَي بروكه كليهما أقل رغبة في أن يتزحزحا من مكانيهما، بينما صبر الشباب نافد. فكان صديقي الذي لم يكن يجهل أن أيامه معدودات ولم تكن تربط بينه وبين رئيسه المباشر أواصر وثيقة . كان يعرب أحياناً عن نفاد صبره إعراباً صريحاً. وإذ كان رئيسه هذا [فلايشل] مصاباً بمرض خطير فقد أمكن رغبة ب. أن تحتمل معنى أقبح من مجرد الأمل في الترقية. وقد كان أمراً طبعياً أنني . قبل ذلك بسنوات . كنت قد أضمرت رغبة كانت أكثر بعد احتداماً في ملء مكان شاغر؛ فأينما وُجدت الدرجة والترقية في هذه الدنيا، انفتحت الطريق أمام رغبات تتطلب القمع: أما عجز الأمير الشاكسبيري هال عن أن يقاوم ما أغرته به النفس . وهو ما زال بجوار أبيه الراقد على فراش مرضه . من أن يجرِّب التاج لكي يرى بعينه كيف يلوح فوق رأسه؟[500] ولكن الحلم . كما نتوقع . لا يعاقبني أنا على هذه الرغبة الخبيثة، بل يعاقب صديقي[501].

«كان طموحاً، فقتلته». لم يستطع أن يتمهل حتى يخلي الآخر مكانه، فأزيح هو نفسه. تلك كانت الخواطر التي دارت بخلدي بعد أن حضرت رفع الستار عن النصب التذكاري المقام في الجامعة . لشخص آخر وليس له. وعلى ذلك كان بعض الرضا الذي استشعرته في الحلم يعني: جزاء عادل، لا تلومن إلا نفسك.

ولقد حدث في جنازة صديقي [ب.] أن أحد الشبان أتى بملاحظة لم تكن تناسب المقام، كان مؤداها أن الطبيب الذي ألقى كلمة الرثاء قد تحدَّث كما لو كانت الدنيا مقبلة على نهايتها بعد أن فقدت هذا الرجل الفرد. نعم، إن هذه الملاحظة كانت تعرب عن الرفض الذي يعتمل في صدر رجل صادق أزعجت المبالغة حزنه، إلا أنها اجتذبت إليها أفكار الحلم الآتية: نعم، إن لمن الحق أنه ما من أحد لا يعوَّض؛ فما أكثر من شيِّعت إلى القبر، ومع هذا لم أزل حياً، لقد عشت دونهم جميعاً وبقيت سيداً على الميدان. وإن فكرة من هذا القبيل في اللحظة التي كنت أخشى فيها ألا أجد صديقي بين الأحياء حين أسافر إليه لا يمكن أن تقبل تفسيراً آخر سوى أنني كنت مسروراً لأني سأثبت على البقاء مرة أخرى بعد شخص سواي، لأنه هو الميت وليس إياي ، لأنني سيد الميدان من جديد . كما كنته في المشهد المتخيل عن طفولتي. هذا الرضا الطفلي في مصدره لبقائي سيِّداً على الميدان هو الذي يكوِّن الجزء الأكبر من الحالة الوجدانية التي ظهرت في الحلم: إني أستشعر السرور لأنني باقٍ حين يولي غيري، وأعرب عن هذا السرور بكل الأنانية الساذجة التي تتكشف في قصة الزوجين اللذين يقول أحدهما للآخر: إذا مات أحدنا فسأذهب إلى باريس. إلى هذا المدى كان يبدو لي أمراً بديهاً أن المائت لن يكون إياي.

إننا لا نستطيع أن ننكر أن تفسير الأحلام وروايتها عمل يتطلب ضبطاً شاقاً للنفس؛ فالمرء لا يجد مناصاً من أن يتكشَّف في صورة الوغد الأوحد وسط موكب الطبائع النبيلة ممن يشاطرونه الحياة. وهكذا بدا لي أمراً طبعياً جداً أن العائدين إنما يوجدون بقدر ما يود لهم المرء البقاء، فإن شاء انمحوا. ولقد رأينا علام كان عقاب صديقي يوسف. غير أن العائدين هم التجسدات المتعاقبة لصديق طفولتي. وأنا إذن أستشعر الرضا كذلك لأنني استطعت دائماً أن أجد بدائل لهذا الوجه ولأنني لن ألبث طويلاً قبل أن أعثر على بديل لهذا الصديق [فليس] الذي كنت أوشك على فقده: ما من أحد لا يعوَّض.

ولكن ماذا عن الرقابة؟ لماذا لم تثر أقوى المعارضة في وجه خواطر تتسم بمثل هذه الأثرة الوحشية فتقلب الرضا المرتبط بهذه الأفكار إلى ألم شديد؟ السر فيما أعتقد هو أن أفكاراً أخرى لا اعتراض عليها، متعلقة بهؤلاء الأشخاص أنفسهم، قد لقيت في ذات الوقت ما يرضيها، فكان أن حجبت الحالة الوجدانية المقترنة بها تلك المنبعثة من المصدر الطفلي. ذلك أنني عند الاحتفال برفع الستار عن النصب التذكاري قد حدثت نفسي في طبقة أخرى من الفكر بتلك التأملات: لكم فقدت من الأصدقاء الأعزاء، أفقدني الموت البعض والبعض الآخر أفقدني إياه ما انفصم من عرى الصداقة، لقد كان من حسن الحظ أنني وجدت من يعوضني عنهم، أنني اكتسبت صديقاً يعني في نفسي الشيء الكثير، أكثر من كل ما استطاعه الآخرون، وذلك في زمن لا يسهل فيه على المرء أن يعقد صداقة جديدة، لسوف أحتفظ بصداقته أبد الدهر. وهذا الرضى لكوني وجدت صديقاً يعوضني عن الأصدقاء المضيَّعين لا يلاقي مانعاً يحول بينه وبين النفاذ إلى الحلم غير محرَّف في شيء، ولكن تسللت من ورائه حالة الرضا العدواني المستمدة من المصدر الطفلي. نعم، إن من المستيقن أن الحنان الذي انطوت عليه علاقة الطفولة قد أفاد في تعزيز نظيره المعاصر المشروع، ولكن كره الطفولة أيضاً قد أفلح في أن يشق طريقه إلى التصوير.

ثم إن الحلم قد اشتمل . فوق ما سبق . على خيط فكري آخر كان من شأنه أن يسلم إلى رضا مشروع: فقد حدث منذ زمن قريب أن صديقي [فليس] أعقب بنتاً بعد طول انتظار. وكنت أعلم كيف كان حزنه على أخته المتوفاة في وقت مبكر، فكتبت إليه أقول له: إنني واثق من أنه سوف ينقل الحب الذي يكنُّه لها إلى الطفلة الجديدة، وإن الفتاة الصغيرة سوف تتيح له في النهاية نسيان فقيدته التي لا تعوَّض.

وهكذا ترتبط هذه الطائفة من الأفكار بدورها بالفكرة المتوسطة في محتوى الحلم الكامن [أنظر 508 و509] والتي تتشعب منها طرق التداعي في اتجاهات متضاربة: «ما من أحد لا يعوض. أنظر، ليس إلا عائدون، كل الذين افتقدناهم يرجعون». ثم بعد ذلك تأتي تلك الواقعة العارضة، وأعني بها أن ابنة صديقي قد حملت الاسم الذي كانت تحمله الفتاة الصغيرة التي اعتدت اللعب معها في طفولتي . وكانت في سني وأختاً لأول عدو وصديق . تأتي هذه الواقعة فتحكم الروابط الاستدعائية بين المقومات المتناقضة لأفكار الحلم. فقد كنت شعرت بالرضا حين سمعت أن المولودة سوف تدعى «پولين»، وعلى سبيل الإشارة إلى هذا الاتفاق وضعت أحد اليوسفين محل الآخر في الحلم، ووجدت استحالة في كتمان التماثل بين الحرفين الأولين من اسمَي «فلايشل» و«ف.» [فليس]. ومن هنا اتجهت خواطري إلى أسماء أطفالي. فقد أصررت على ألا تختار أسماءهم وفاقاً لبدع اليوم الجارية، بل تذكيراً بمن أحببت. فأسماء الأطفال قد جعلت منهم . إذن . «عائدين». ثم في النهاية، أليس إنجاب الأولاد هو السبيل الذي لا نملك جميعاً غيره إلى الخلود ؟

وههنا لا أجد ما أضيفه إلى موضوع الحالات الوجدانية في الحلم سوى بضع ملاحظات تصدر عن وجهة نظر مختلفة. ذلك أن نفس النائم قد تنطوي على نزوع وجداني (ما نسميه مزاجاً) يكون هو العنصر المسيطر عليها ويكون له عندئذ نصيبه في تحتيم الحلم. وقد ينشأ هذا المزاج من خبرات اليوم السابق وأفكاره وقد تكون مصادره جسمية، وفي كلتا الحالتين يصطحب بالأفكار الملائمة له. ويستوي بعد ذلك من وجهة نظر تكوين الحلم أن يكون هذا المحتوى الذهني لأفكار الحلم هو الأصل الأول الذي حتم ذلك المزاج، كما يقع طوراً، أو أن يكون هذا المحتوى ذاته قد نبَّه على نحو ثانوي بوساطة استعداد النائم الانفعالي الراجع في النهاية إلى شروط جسمية، كما يقع طوراً آخر ؛ ففي كلتا الحالتين يخضع تكوين الحلم لهذا الشرط: إنه لا يستطيع أن يصور إلا ما يحقق رغبة وإنه إنما يستمد دافعه النفسي من الرغبات. فالمزاج الحاضر الناشط يعامل كما يعامل إحساس نبه وصار حاضراً ناشطاً في أثناء النوم (ص 275)، أي أنه إما أن ينحى جانباً أو يلقى تفسيراً جديداً في الاتجاه الذي يحقق رغبة. والحالات المزاجية المؤلمة تمسي قوة تدفع إلى الحلم، وذلك من حيث تثير رغبات قوية يفترض في الحلم العمل على تحقيقها. ولا تنقطع صياغة المادة المرتبطة بهذه الحالات حتى يمكن استخدامها في الإعراب عن رغبة. وكلما اشتد نصيب المزاج المؤلم في أفكار الحلم وسيطر، زدنا يقيناً من أن أشد الرغبات قمعاً سوف تنتهز الفرصة لكي يتحقق تصويرها به؛ لأن الألم الذي ما كانت هذه الرغبات إلا لتحدثه ضرورة قد صار موجوداً فعلاً وهي بهذا تجد الجانب الأكبر من عملها على بلوغ التصور في الحلم وقد صار ممهداً أمامها. وبهذه المناقشات نتطرق مرة أخرى إلى مشكلة أحلام الهيلة التي سوف يتبين أنها الحالة التي يبلغ عندها نشاط الحلم حافته.

ط
المراجعة الثانوية

وأخيراً نتَّجه إلى رابع العوامل المشتركة في تكوين الحلم.

إذا تابعنا دراستنا لمحتوى الحلم على النحو الذي بدأنا به، أي بالمقارنة بين الأحداث الظاهرة في محتوى الحلم وبين مصادرها في أفكار الحلم، عثرنا على عناصر يتطلب تعليلها فرضاً جديداً كل الجدة. وأنا إذ أقول ذلك أفكر في حالات يشعر فيها المرء وهو يحلم بالعجب أو الضيق أو الاستنكار، وكل أولئك بإزاء جزء من محتوى الحلم نفسه. إن غالبية هذه المشاعر النقدية التي تعرض في الحلم لا تتجه في الحقيقة ـ كما بيَّنت في عدد من الأمثلة ـ إلى محتوى الحلم في ذاته، بل يتبين أنها أجزاء من أفكار الحلم، منها أُخذت ثم استخدمت لغاية مناسبة. ولكن بعض هذه المادة لا يخضع لهذا التعليل؛ فنحن لا نجد له مقابلاً بين مادة أفكار الحلم. ما الذي تعنيه ـ مثلاً ـ تلك الملاحظة النقدية التي يشيع ورودها في الحلم: «ما هذا إلا حلم»؟ إننا نجد ههنا نقداً فعلياً للحلم من قبيل ما قد آتيه في حياة اليقظة. وإن لمن الشائع ألا يكون هذا النقد سوى مقدمة إلى اليقظة، وأشيع منه أن يجيء مسبوقاً بشعور أليم تهدىء منه تلك المعرفة: أن الحالة حالة نوم. ذلك أن فكرة «إن هذا إلا حلم» إنما تعرض في الحلم لذات الغرض الذي من أجله ترد فوق خشبة المسرح على شفاه هيلينا الجميلة في أوبرا أوفنباخ [الهزلية المعروفة بهذا الاسم][502]: إنها ترمي إلى التهوين من شأن الحدث الذي لم يكد المرء يفرغ من خبرته وتهيئة السبيل إلى التسامح فيما قد يعقبه، إنها تفيد في تسكين عامل نفسي معين حتى يتمكن من متابعة نومه، وما كان لولا ذلك إلا لينشط ثائراً ويحول دون استمرار الحلم ـ أو المشهد الذي في الأوبرا. فالأهون ـ مهما يكن من أمر ـ هو المضي في النوم والمغفرة للحلم؛ لأنه ـ أولاً وآخراً ـ «حلم ليس إلا». فهذا الحكم النقدي المهون: «إن هذا إلا حلم» إنما يظهر في الحلم ـ على حسب نظرتي ـ كلما أحست الرقابة التي لا تنام أبداً كل النوم أنها قد أخذت على غرة بحلم فتحت له أبواب الولوج فولج وفات أوان قمعه ولم يبق أمام الرقابة سوى اللجوء إلى هذه الكلمات لكي تواجه بها ما قد أثير من الهيلة. أي أن هذه الجملة شاهد على «بطء البديهة»[503] من جانب الرقابة النفسية.

هذا المثال يزودنا ـ إذن ـ بدليل مقنع على أن كل ما يحتويه الحلم ليس مستمداً من أفكار الحلم، بل قد يكون بعض محتوى الحلم راجعاً إلى وظيفة نفسية لا تتميز من فكرنا المستيقظ. وسؤالنا الآن هو: هل يحدث ذلك في حالات استثنائية وحسب أم أن القاعدة هي أن يأخذ هذا العامل النفسي الذي لا يعمل فيما عدا ذلك إلا من حيث هو رقابة بنصيب في تكوين الحلم؟

لا مجال للتردد في القطع بصحة الاحتمال الثاني. ما من شك في أن العامل المراقب الذي لم نعرف أثره حتى الآن إلا فيما يدخله على الحلم من التقييد والحذف سبب كذلك في حواشٍ وإضافات. فأما الحواشي فميسورة معرفتها؛ فروايتها تصطحب بالتردد، يقدم لها الراوي بقوله: «كما لو»، ثم هي لا تتسم في ذاتها بشدة حسية خاصة، وتدخل دائماً في الموضع التي تستطيع أن تعمل فيها عمل الروابط بين فقرتين في محتوى الحلم أو في وصل المسافة بين جزءين من الحلم. والذاكرة في العادة أقل حفظاً لها منها للمشتقات الصادقة، الصادرة عن مادة أفكار الحلم. فإن نُسي الحلم كانت هي أول ما يختفي من أجزائه، وأغلب ظني أن شكوانا المألوفة من كوننا نحلم بالشيء الكثير ثم ننسى معظمه ترجع إلى مسارعة هذه الأفكار الرابطة إلى الاختفاء. وإذا حللنا حلماً ما تحليلاً كاملاً، نمَّ عن هذه الحواشي أننا لا نجد مادة ما ترتبط بها في أفكار الحلم. ولكن البحث المستيقن يدعوني إلى الاعتقاد بأن تلك هي الحالة الأقل شيوعاً. فالقاعدة هي أن الأفكار الروابط ترجع بنا مع ذلك إلى مادة قائمة في أفكار الحلم، ولكنها مادة لم تكن تستطيع وحدها أن تجد حقاً يؤهلها لأن تقبل في الحلم؛ فلا هي بالهامة في ذاتها ولا هي بالكثيرة الحتم. ولا تخلق الوظيفة النفسية التي نحن الآن في صددها خلقاً جديداً إلا في حالات متطرفة ـ على ما يبدو. إنها ـ كلما أمكن ذلك ـ تستخدم كل ما تراه مناسباً بين مادة أفكار الحلم.

إن الشيء الذي يميِّز هذا الجزء من عمل الحلم وينم عنه في الوقت نفسه هو غايته. فهذه الوظيفة تسلك على النحو الذي ينسبه الشاعر الماكر إلى الفلاسفة: أي أنها تملأ ما في الحلم من الثغرات بخرق وسمال[504] ونتيجة جهودها هي أن الحلم يفقد مظهره اللامعقول ويفقد تفككه ويقارب نمط الخبرة المعقولة. ولكن جهودها لا تتوَّج دائماً بالنجاح. فهناك أحلام قد تبدو للنظرة السطحية خالية من كل مجافاة للمنطق، معقولة؛ فهي تبدأ من موقف ممكن تصوُّره ثم تمرّره بسلسلة من التغييرات المتناسقة إلى أن تنتهي به ـ وإن ندر ذلك ـ إلى خاتمة ليس فيها ما يدعو إلى العجب. فأمثال هذه الأحلام قد خضعت لمراجعة بعيدة المدى من جانب هذه الوظيفة النفسية القريبة من فكرنا المستيقظ. إنها تبدو حاصلة على بعض المعنى، ولكن هذا المعنى بعيد غاية البعد عن مغزاها الحقيقي. ولو أننا أخذنا في تحليلها لرأينا أن تلك على التحديد هي الأحلام التي

استباحت فيها المراجعة الثانوية لنفسها حرية اللعب بمادة أفكار الحلم أعظم الاستباحة ولم تبق على العلاقات القائمة في هذه المادة إلا بأقل نصيب. إنها أحلام نستطيع أن نقول عنها: إنها تجيء وقد فسِّرت بالفعل مرة قبل أن نأخذ نحن في إخضاعها لتفسيرنا المستيقظ. وهناك أحلام أخرى لم تصادف فيها هذه المراجعة المغرضة إلا نجاحاً جزئياً؛ فالمعقولية تبدو غالبة عليها شوطاً ما، ولكن الحلم ينقلب فإذا هو خالٍ من المعنى، مختلط، ثم قد يعود في لاحق سياقه فيكتسي ثانية بمظهر المعقولية. وهناك بعد أحلام أخرى تخفق فيها المراجعة إخفاقاً كاملاً؛ فنرانا نواجه من غير حول ركاماً لا معنى له من مادة متقطعة.

ولست أريد أن أنكر إنكاراً قاطعاً أن هذه القوة الرابعة في تكوين الحلم التي سنرى سريعاً أنَّ لنا بها معرفة قديمة ـ فهي في الحقيقة، بين القوى الأربع، الوحيدة التي لنا بها خبرة مألوفة في غير مجال الحلم ـ لست أريد أن أنكر أن هذه القوة تملك القدرة على أن تخلق جديداً في الحلم، سوى أن من المؤكد أنها ـ كالأخريات ـ تمارس فعلها أولاً من طريق التفضيل والاختيار بين المادة النفسية المتكوِّنة من قبل في أفكار الحلم. وإن ثمة حالة تُجَنَّبُ فيها هذه القوة إلى مدى بعيد عناء العمل على تكوين واجهة للحلم ـ إن جاز التعبير. تلك هي الحالة التي نرى فيها بناءً أو تركيباً من هذا النوع وقد وجد من قبل بين مادة أفكار الحلم، مهيئاً للاستخدام. والبناء الذي أعنيه بقولي هذا عنصر اعتدت أن أسميه «تخييلاً»[505]، ولعلي أتجنب سوء الفهم إذا أشرت إلى حلم اليقظة[506] من حيث هو عدله في الحياة المستيقظة. إن النصيب الذي يرجع إلى هذا العنصر في حياتنا النفسية أمر لم يعرفه بعد أطباء النفس تمام المعرفة ولم يكشفوا عنه، وإن يكن م. بنديكت قد أتى في هذا الاتجاه ببداءة يبدو لي أنها تعد بالشيء الكثير. بيد أن أهمية أحلام اليقظة لم تخف على ما للفنانين من حدس لا يخيب، وكلنا يعرف وصف دوديه لأحلام اليقظة التي كانت تراود أحد الأشخاص الثانويين في رواية «النابابو». وتنتهي بنا دراسة الأعصبة إلى نتيجة تبعث على الدهش، تلك هي: أن هذه التخييلات أو أحلام اليقظة هي النذر التي تسبق الأعراض الهستيرية ـ أو على الأقل عدداً كبيراً منها ـ سبقاً مباشراً، فالأعراض الهستيرية لا ترتبط بذكريات حقيقية، بل بتخييلات تشيَّد على أساس هذه الذكريات. وشيوع تخييلات اليقظة الشعورية هو ما يقرب من معرفتنا هذه الأبنية أو التراكيب، ولكن إذا كانت ثمة تخييلات شعورية من هذا النوع، فإن ثمة أيضاً عدد وفير لاشعوري، مرغم على البقاء كذلك بسبب محتواه ولانبعاثه من مادة مكبوتة. وإن التعمق في بحث خصائص هذه التراكيب يرينا كم نحن محقون حين نطلق عليها ذات الاسم الذي نطلقه على مخلفات فكرنا الليلي، اسم الأحلام. فهي تشارك أحلام الليل في عدد كبير من خصائصها، ولعلنا لو كنا بدأنا ببحثها لكان ذلك أقصر طريق وأفضله إلى فهم أحلام الليل.

فهي كالأحلام تحقق رغبات، وكالأحلام تنهض إلى مدى بعيد على انطباعات من خبرة الطفولة، وكالأحلام تنتفع من تراخي الرقابة بعض التراخي. ولو فحصنا تركيبها لرأينا كيف يمزج الهدف المرغوب الناشط في إحداثها المادة التي تدخل في بنائها ويعيد ترتيبها ويصوغها في كل جديد. فبينها وبين ذكريات الطفولة التي منها اشتقاقها علاقة كالتي بين بعض القصور ذات الطراز الباروكي في روما وبين الأنقاض القديمة التي من أرصفتها وأعمدتها انتُزعت المادة المستخدمة في تشييد هذه الصور المعمارية الأحدث عهداً.

فنحن في هذه «المراجعة الثانوية» التي عزوناها إلى رابع عواملنا المشتركة في تكوين الحلم نجد هذا النوع من النشاط الذي يتجلى في خلق أحلام اليقظة حراً من كل قيد يرجع إلى تأثير غريب. وقد كان يسعنا القول من غير مزيد من التعقيد: إن عاملنا الرابع هذا يسعى إلى تشكيل ما يعرض له من المواد تشكيلاً يخرج منها شيئاً شبيهاً بحلم من أحلام اليقظة. فإن كان مثل هذا الحلم قد تكوَّن من قبل بين دائرة أفكار الحلم، آثر هذا العامل الرابع من عوامل عمل الحلم أن يستولي على حلم اليقظة المتكوِّن بالفعل وحاول إدخاله في محتوى الحلم. وهناك أحلام لا تعدو أن تكون تكراراً لتخييل طرأ أثناء النهار ولعله كان تخييلاً لاشعورياً، مثال ذلك حلم الصبي الذي رأى أنه يقود عربة من عربات الحرب مع أبطال طروادة [ص 174]. وحلم «أوتو ديداسكر» [ص 335] قد كان جزؤه الثاني على الأقل إعادة أمينة لتخييل نهاري، بريء في ذاته، حول محادثة أجريها مع الأستاذ. بيد أنه إذ كانت الشرائط التي يجب على الحلم إرضاءها قبل أن يظهر إلى الوجود معقدة إلى المدى الذي نعرفه، فالأكثر وقوعاً هو أن التخييل النهاري لا يكون سوى جزء من الحلم أو أن الحلم لا ينفذ إليه سوى جزء من التخييل ثم بعد ذلك يعامل التخييل بوجه عام كما يعامل أي جزء آخر من المادة الكامنة، وإن بقي مع ذلك في أحيان كثيرة متميزاً ككل في الحلم. فكثيراً ما ترد في أحلامي أجزاء تبرز دون غيرها لما تحدثه من أثر مختلف: فهي تبدو لي أكثر سلاسة وترابطاً من سائر أجزاء الحلم ثم في الوقت عينه أسرع تقضياً. هذه أعلم أنها تخييلات لاشعورية اندست في نسيج الحلم، ولكنني لم أفلح في رصد تخييل من هذا القبيل. ثم إن هذه التخييلات ـ شأنها شأن أي مقوِّم آخر من مقومات الحلم ـ تضغط وتكثَّف ويطبع بعضها فوق بعض، إلى غير ذلك. إلا أن هناك حالات متدرجة بين تلك التي تكون فيها هذه التخييلات ـ غير محرفة ـ محتوى الحلم أو على الأقل واجهته وبين الطرف النقيض حيث لا تتمثل هذه التخييلات في محتوى الحلم إلا بعنصر فرد من عناصرها أو بإشارة قصية. ومن الواضح أخيراً أن المصير الذي تنتهي إليه التخييلات المحتواة في أفكار الحلم يتوقف كذلك على ما تشتمل عليه هذه التخييلات من مزايا توافق مقتضيات الرقابة ومقتضيات الحاجة القاهرة إلى التكثيف.

لقد كنت ـ وأنا أختار الأمثلة على تفسير الحلم ـ أتجنَّب حتى الساعة تلك الأحلام التي تأخذ فيها التخييلات اللاشعورية بأي نصيب يعتد به؛ لأن إدخال هذا العنصر النفسي من شأنه أن يتطلب مناقشات طويلة في سيكولوجية التفكير اللاشعوري. بيد أنني لا أستطيع في هذا المقام أن

أتجنب موضوع «التخييلات» كل التجنّب؛ فهي تنفذ إلى الحلم كاملة في كثير من الأحيان، وأكثر من ذلك أن تترك وراءها لمحات بيّنة نستطيع رؤيتها خلف الحلم. وعلى ذلك أضيف إلى ما سبق حلماً آخر يبدو متكوّناً من تخييلين مختلفين، متعارضين، يتلاقيان في قلة من المواضع، أحدهما سطحي في حين أن آخرهما بمثابة تفسير للأول[507].

كان هذا الحلم ـ وهو الحلم الوحيد الذي لم أبدِ كبير عناية في تدوينه ـ كان يجري بوجه الإجمال على هذا النحو: يجلس الحالم ـ وهو شاب أعزب ـ في المطعم الذي اعتاد أن يتناول فيه طعامه والذي صوِّر في الحلم تصويراً واقعياً. يقبل أناس كثيرون يبتغون البحث عنه ويريد أحدهم أن يلقي القبض عليه. يقول الحالم لأحد رفاقه الجالسين: سأدفع فيما بعد، إني راجع. ولكنهم يصيحون قائلين وبسمات السخرية تعلو شفاههم: نحن أدرى، هذا ما يقوله كل واحد. يصيح من ورائه أحد الضيوف قائلاً: ها هو ذا واحد آخر يذهب. ويُساق الحالم بعد ذلك إلى غرفة ضيقة يرى فيها شخص امرأة تحمل طفلاً ويقول أحد الذين يصحبونه: هذا هو الهر موللر. هناك مفتش من رجال الشرطة أو رجل له مثل هذه الوظيفة. إنه يقلب حزمة من البطاقات أو الأوراق وهو يردّد في هذه الأثناء قوله: موللر، موللر، موللر. وأخيراً يسأل الرجل سؤالاً ما فيجيب الحالم بقوله: «قبلت». ثم يستدير ليرى شخص المرأة، فيلحظ أن لحية كبيرة قد نبتت لها.

إن من السهل أن نفصل ههنا بين التخييلين اللذين تكون منهما هذا الحلم. فعلى السطح تخييل مداره إلقاء القبض على الحالم ، يبدو أن الحلم قد استحدثه، ولكن من وراء ذلك يظهر تخييل الزواج كمادة لم يغيِّر عمل الحلم من شكلها إلا تغييراً طفيفاً، كما برزت في وضوح خاص السمات المشتركة بين كلا التخييلين، على نحو ما يقع في صورة من صور جالتون المركبة. فما يعد به الشاب (الذي كان إلى ذلك الحين أعزب) من العودة إلى رفاقه الجلوس والانضمام إليهم، والشك الذي يستجيب به خلّانه هؤلاء (الذين جعلتهم الخبرة أدرى)، ثم صيحة أحدهم: ها هو ذا واحد آخر يذهب (لكي يتزوج) ـ كل أولئك سمات يسهل أيضاً فهمها في ضوء التفسير الآخر. والأمر كذلك في «قبلت» التي أجاب بها الحالم سؤال الموظف. فأما تقليب حزمة الأوراق مع تكرار ذات الاسم تكراراً مستمراً فيقابل سمة ثانوية ولكنها بيّنة من سمات حفلات العرس، وأعني بها قراءة برقيات التهنئة التي تصل كلها إلى ذات العنوان حاملة اسماً واحداً. ولا شك في أن تخييل الزواج قد أحرز نصراً صريحاً على تخييل إلقاء القبض حين ظهرت العروس بشخصها في الحلم. وقد أمكنني بعد استفسار ـ فهذا الحلم لم أحلله ـ أن أكتشف لمَ نبتت للعروس لحية في آخر الحلم: ذلك أن الحالم في اليوم الذي سبق حلمه كان يسير في الطريق مع صديق من أصدقائه، عدو للزواج مثله، فلفت الحالم صديقه هذا إلى حسناء حالكة الشعر مرت بهما، فأجابه الصديق: نعم، لو أن هؤلاء النسوة لم تنبت لهنَّ على مر الأيام لحى كآبائهن!

وطبعي ألا يفتقر هذا الحلم إلى عناصر يذهب فيها تشويه الحلم إلى أبعد من هذا المدى؛ فمن الجائز مثلاً أن يكون قوله: «سأدفع فيما بعد» منطوياً على إشارة تومىء إلى ما كان يخشاه من موقف حميه المنتظر في مسألة المهر. كما أن من الجلي أن مخاوف من كل نوع كانت تقعد هذا الحالم عن أن يسلِّم نفسه في بشر لتخييل الزواج، ولقد تجسَّمت إحدى هذه المخاوف ـ وهي مخافة أن يفقده الزواج حريته ـ في تحويل الأمر إلى مشهد قبض يلقى عليه.

فإذا عدنا إلى ما كنَّا فيه من أن عمل الحلم يقبل طواعية على استخدام تخييل متكوّن من قبل بدل أن يبني تخييلاً جديداً من مادة أفكار الحلم، فقد يصبح في مستطاعنا أن نحل لغزاً من أكثر ألغاز الحلم إثارة للاهتمام. فقد ذكرت في صفحة 75 القصة المأثورة عن موري: كيف سقطت قطعة من الخشب على قفاه وهو نائم، فاستيقظ من حلم طويل كان شبيهاً بقصة مكتملة جرت أحداثها في أيام الثورة الفرنسية. وإذ كان هذا الحلم متسق الأجزاء ـ على حسب روايته ـ وكان كأنما جُعل ليكون تفسيراً للمنبه الذي أيقظ النائم والذي لم يكن من المستطاع التنبوء به، فالفرض الوحيد الممكن ـ فيما يبدو ـ هو أن هذا الحلم المحكم قد ألف جميعه وانقضى في الفترة القصيرة الواقعة بين سقوط العارض الخشبي على فقرات موري العنقية وبين ما أعقب من استيقاظه. ولسنا نستطيع على الإطلاق أن ننسب مثل هذه السرعة إلى نشاطنا الفكري في الحياة المستيقظة، وعلى ذلك لا يكون مفر من أن نخلص إلى أن عمل الحلم يملك ميزة إعجال عملياتنا الفكرية إلى درجة تدعو إلى العجب.

بيد أن هذه النظرية التي لم تلبث أن لاقت ذيوعاً سريعاً قد وجِّهت إليها اعتراضات قوية من جانب بعض الكتاب الأحدث عهداً (لولوران وإيجير وغيرهما). فهم ـ من جهة ـ يتشكّكون في دقة رواية موري لحلمه، ومن جهة أخرى يحاولون أن يبيّنوا أن سرعة عمليات أفكارنا المستيقظة لا تقل عنها في هذا الحلم إذا حذفنا منه المبالغات. ولقد أثارت المناقشة مسائل تتعلق بالمبدأ لا يبدو لي أننا نستطيع حلّها حلاً مباشراً. بيد أنني أعترف بأن الحجج التي ساقها هؤلاء المؤلفون (مثل إيجير) على حلم المقصلة الذي رواه موري بخاصة قد تركتني دون أن تقنعني. وأفضّل من جانبي أن أقترح التعليل الآتي: أهو فرض مستبعد كل الاستبعاد أن يكون حلم موري قد صوّر تخييلاً اختزن منذ سنوات في ذاكرته ثم نُبِّه ـ وأحرى بي أن أقول: أشير إليه ـ في اللحظة التي شعر فيها موري بالمنبه الذي أيقظه؟ إذا كان الأمر كذلك اختفت كل الصعوبة التي نواجهها حين نسأل كيف أُلِّفت مثل هذه القصة الطويلة في الفترة الزمنية البالغة القصر التي كانت في متناول الحالم؟ ذلك أن القصة ـ على حسب الفرض ـ كانت مؤلفة من قبل. ولو أن العارض أصاب عنق موري وهو مستيقظ، لكان هناك محل لمثل ذلك الخاطر: لكأنها المقصلة! وأما والعارض يصيبه وهو نائم فإن عمل الحلم يبادر إلى استغلال هذا التنبيه غير المتوقع بما يحقّق رغبة، كأنما قد خطرت له تلك الفكرة (ومن الواجب أن يأخذ قولي هذا مأخذاً استعارياً

محضاً): «ها هي ذي فرصة طيبة لتحقيق تخييل مشبع بالرغبة كوَّنته في هذا الوقت أو ذاك، أثناء مطالعاتي». ولا منازعة . على ما أعتقد . في أن قصة الحلم من النوع الذي ينزع إلى تخيله شاب تعمل في نفسه انطباعات شديدة الإثارة، ومن ذا الذي لم يخفق قلبه . ودع عنك رجلاً فرنسياً ودارساً لتاريخ الحضارة . وهو يسمع قصص عهد الإرهاب أيام كان النبلاء رجالاً ونساء، زهرة الشعب، يظهرون للملأ كيف يستطيع الإنسان أن يذهب إلى الموت بنفس مقبلة وحين كانوا يستمسكون بتوقّد قريحتهم وأناقة مسلكهم حتى لحظة النداء الذي ينفذ بعده قضاءهم؟ وأي إغراء في أن يتصور المرء نفسه وسط هذا كله، شاباً بين أولئك الشبان الذين يودِّع كل منهم سيدته بقبلة يطبعها على يدها ثم يصعد بعدها إلى المقصلة في غير ما وجل؟ فإن كان الطموح هو الدافع الرئيس إلى التخييل، فأي إغراء في أن يضع المرء نفسه في موضع أحد هؤلاء الأفراد الأفذاذ الذين كانوا بقوة أفكارهم وفصاحتهم الملتهبة . ليس غير . يحكمون المدينة التي كان قلب العالم يخفق فيها إذ ذاك خفقاً تشنجياً، أولئك الذين قادتهم معتقداتهم إلى أن يرسلوا آلاف الرجال إلى حتفهم والذين كانوا يمهدون الطريق لتغيير وجه أوروبا بينما كانت رؤوسهم أنفسهم غير آمنة مقدراً لها أن تسقط يوماً تحت المقصلة، كأنما المتخيل أحد الجيروندیين أو دانتون البطل؟ والحق أن ذكرى موري لحلمه قد تضمنت سمة تبدو شاهداً على أن تخييله كان من النوع الطموح، وأعني بها ما جاء من كونه «يُساق إلى المقصلة وقد أحاط به حشد غفير».

ثم إنه لا حاجة إلى أن يكون النائم قد مرّ في خلال نومه بكل هذا التخييل المهيأ منذ زمن طويل؛ بل يكفي أن يقف الأمر عند حد «لمسه». والذي أعنيه هو هذا: إذا عُزفت الأقدار الأولى من مقطوعة موسيقية ثم عقَّب البعض . كما في «دون جوان» . قائلاً: هذا النغم من «زواج فيجارو» لموزار، كان ذلك كافياً لأن يحرك دفعة واحدة عدداً من الذكريات ما كانت تستطيع إحداها أن تلج الشعور منفردة في اللحظة الأولى. فالنغم المفتاح كان بمثابة منفذ ينفسح فإذا التنبيه يشمل الكل في آن معاً. ويكفي أن تكون الحال كذلك فيما يتصل بتفكيرنا اللاشعوري: يأتي المنبه فيثير المنفذ النفسي الذي منه ينفسح الطريق لتخييل المقصلة كله، ولكن النائم لا يذرع هذا التخييل جميعه في خلال نومه وإنما في ذاكرته بعد أن يستيقظ. فهو بعد أن يستيقظ يذكر كل تفاصيل هذا التخييل الذي أثير من حيث هو كل. وفي مقدورنا أن نطبق هذا التعليل ذاته . وأعني به أن المسألة مسألة تخييل معدّ من قبل تتم إثارته بوساطة المنبه . على غير ذلك من الأحلام التي تتبلور حول منبه مثير، مثل حلم الموقعة الذي أتاه نابليون قبيل انفجار اللغم [ص 273 وص 75]. وإن بين الأحلام التي جمعتها جوستين توبو؟ولسكا في رسالتها عن الديمومة الظاهرة للزمن في الأحلام . حلماً يبدو لي أشد أحلام المجموعة دلالة، هو هذا الذي رواه ماكاريو (1857) عن مؤلف مسرحي يدعى كازيمير بونجور[508] فقد حدث ذات مساء أن رغب بونجور في حضور العرض الأول لإحدى مسرحياته، غير أنه كان مجهداً حتى أن النعاس أطبق جفنيه وهو جالس خلف المشاهد بينما كان يُرفع الستار، فإذا هو . في خلال نومه . يرى فصول الرواية الخمسة جميعاً ويلاحظ ما يبديه جمهور المتفرجين في خلال المواقف المتتالية من مختلف أمارات الانفعال. وانتهى العرض وامتلأت نفسه سروراً إذ سمع الجمهور يتصايح باسمه مصحوباً بأشد التصفيق. عندئذ استيقظ فجأة فلم يكد يصدق من نفسه عيناً ولا أذناً؛ فما جاوز العرض السطور الأولى من المشهد الأول ولا طال نومه بحال من الأحوال عن الدقيقتين. ومن المؤكد أننا لا نركب شططاً إذ نفترض في حالة هذا الحلم أن مرور الحالم بالفصول الخمسة للرواية وملاحظته استجابة الجمهور لمختلف مواقفها لم يصدرا بالضرورة عن خلق جديد لكل هذه المادة، بل لعلهما إنما استعادا أثراً سبق أن أتمَّه النشاط التخييلي بالمعنى الذي بينت. وإن توبو؟ولسكا لتؤكد . شأن غيرها من الكتَّاب . أن الأحلام التي تنقضي فيها الأفكار انقضاءً معجلاً تحمل تلك الخاصة المشتركة، وهي أنها تبدو فريدة في اتساقها، مخالفة في ذلك سائر الأحلام كل المخالفة، وأن ذكراها تكون موجزة أكثر منها مفصلة. ولكن تلك على التحقيق هي الخاصة التي يجب أن تكون لأمثال هذه التخييلات المعدّة من قبل والتي لمسها عمل الحلم . وهي نتيجة قصَّر عن استنباطها سائر المؤلفين. غير أنني لا أؤكد مع ذلك أن كل حلم يجيء عقب منبه موقظ يقبل هذا التعليل، ولا أننا نتخلص جملة بهذه الطريقة من مشكلة انقضاء الأفكار في الحلم انقضاء معجلاً.

وههنا يستحيل علينا أن نتجنب النظر في العلاقة بين هذه المراجعة الثانوية لمحتوى الحلم وبين سائر عوامل عمل الحلم. أنفترض أن الذي يقع هو أن العوامل المشتركة في تكوين الحلم . وأعني بها النزوع إلى التكثيف ثم ضرورة الإفلات من الرقابة ثم اعتبار قابلية التصوير بالوسائل النفسية الميسرة للحلم . تقوم في بادىء الأمر بتكوين محتوى حلمي موقوت من المادة المتوفرة، ثم بعد ذلك يرتَّب هذا المحتوى ترتيباً جديداً بحيث يتفق بقدر الإمكان ومطالب عامل آخر (هو المراجعة الثانوية)؟ ذلك فرض لا يكاد يلقى أقل حظ من الرجوح، بل أحرى بنا أن نفترض أن مطالب هذا العامل الآخر هي منذ البدء إحدى الشرائط التي يتحتم على الحلم إرضاؤها وأن هذا الشرط . كغيره مما يقتضيه التكثيف والرقابة وليدة المقاومة وقابلية التصوير . يزاول في ذات الآن عمله في مجموع المادة الحاضرة في أفكار الحلم، مختاراً بينها، آخذاً هذا مانعاً ذاك. بيد أن العامل الذي جئنا إلى معرفته آخراً هو . بين شرائط تكوين الحلم . هذا الذي تبدو مطالبه أقل الجميع إكراهاً للحلم. فأما أن هذه الوظيفة النفسية التي وصفناها باسم المراجعة الثانوية لمحتوى الحلم يجب أن تعد شيئاً واحداً ونشاط فكرنا المستيقظ، فذلك ما يرجِّحه الاعتبار الآتي كل الترجيح: إن تفكيرنا المستيقظ (قبل الشعوري) ينهج إزاء أية مادة مدركة يصادفها على ذات النهج الذي تسلكه هذه الوظيفة التي نحن بصددها إزاء محتوى الحلم فمن طبيعة فكرنا المستيقظ أن يقر النظام في مثل هذه المادة وأن ينشىء العلائق فيما بينها وأن يجعلها تطابق ما نتوقعه من كل معقول. والحق أننا نغلو بعض الغلو في هذا الاتجاه؛ فإنما تخدعنا حيل المشعوذة لأنها تستغل عاداتنا العقلية هذه. فنحن في محاولاتنا أن نسوي ما نتلقاه من الانطباعات الحسية على نمط معقول نرتكب في أحيان كثيرة أشد الأخطاء غرابة ولقد نزيِّف الحقيقة فيما يتصل بالمادة الماثلة أمامنا. والشواهد على ذلك من الأمور المعلومة

للجميع . وهو ما يعفينا من الإلحاح عليها. فنحن حين نقرأ نغضّ الطرف عن الأخطاء المطبعية التي تبطل المعنى ونتوهم أن ما نقرأه صحيح. وقد قيل إن ناشراً لإحدى المجلات الفرنسية الذائعة قد راهن على أن يجعل الطابع يدسّ كلمتي «أماماً» و«خلفاً» في كل جملة من جمل مقال طويل دون أن ينتبه إلى ذلك قارىء واحد، فكان أن كسب الرهان. وقرأت منذ سنوات في إحدى الصحف مثالاً مضحكاً من أمثلة الربط الزائف. ذلك أن أحد الفوضويين ألقى قنبلة في مجلس النواب الفرنسي أثناء انعقاده وأخمذ ديبوي الذعر الذي أعقب بصيحته الشجاعة: الجلسة مستمرة[509]. وطُلب إلى الزائرين ممَّن كانوا في الأروقة أن يصفوا مشاعرهم كشهود للاعتداء وكان بين هؤلاء رجلان من الريف، فقال أحدهما: إنه قد سمع الطلق حقيقة لكنه ظنَّها عادة برلمانية أن يرسل طلق كلما جلس خطيب. وأما الثاني . وكان في الراجح قد استمع إلى خطب متعددة قبل ذلك . فقد خطرت له هذه الفكرة أيضاً، سوى أنه ظنّ أن الطلق تكريم لا يعقب إلا الخطب التي تبز غيرها في نجاحها.

وما من شك . إذن . في أن تفكيرنا السوي هو العامل النفسي الذي يتقدّم إلى محتوى الحلم مطالباً إياه بأن يكون معقولاً، وهو الذي يخضعه لتفسير أول، وبذا يسبِّب خطأً كاملاً في فهمه. ولهذا كان من القواعد الجوهرية في تفسيرنا ألا نلتفت في أية حالة إلى الاتصال الظاهر في الحلم معتبرين إياه ذا أصل مشكوك فيه، وأن نتأثر ذات الطريق راجعين إلى مادة أفكار الحلم، سواء أواضحاً كان الحلم أم مختلطاً.

غير أننا نلمح بذلك علام يتوقف ما تحدّثنا عنه في ص 364 من التدرُّج الكيفي للحلم بين الاختلاط والوضوح. فأجزاء الحلم الواضحة هي تلك التي استطاعت المراجعة الثانوية أن تحدث فيها أثرها، فأما تلك التي لا تفلح فيها جهود هذه المراجعة فمختلطة. وإذ كانت أجزاء الحلم المختلطة في أحيان كثيرة هي في الوقت نفسه أقل أجزائه من حيث الشدّة الحسية، جاز أن نستنتج أن المراجعة الثانوية سبب كذلك في تفاوت هذه الشدّة بين مختلف عناصر الحلم.

فإذا بحثت الآن عن شيء أقارن به الصورة الأخيرة التي يتخذها الحلم بعد أن يدلي تفكيرنا السوي بدلوه، لم أجد أحسن من هذه النقوش المعماة التي سلَّت بها «الصحائف الطائرة» قراءها زمناً طويلاً. لقد كان الهدف منها أن تدخل في روع القارىء أن هذه الجملة أو تلك . ويفضَّل من أجل المفارقة أن تكون الجملة عامية مضحكة قدر الإمكان . إنما هي نقش لاتيني. ولهذا تُنزع الحروف من تراكيبها المقطعية وترتَّب على نسق جديد، فتظهر هنا وهناك كلمة لاتينية حقيقية، وقد نتعامى بعد ذلك في مواضع أخرى من النقش عن خلو الحروف المنعزلة من كل معنى فنتوهم أن في النقش أجزاء انمحت أو ثغرات. فإذا كنا نريد ألا تغرر بنا المزحة، وجب أن ندع جانباً كل ما من شأنه أن يجعل الجملة تبدو مثل النقش وأن نصوِّب إلى الأحرف نظرة ثابتة غير ملقين انتباهاً إلى ترتيبها الظاهر، وبذلك نركِّبها في كلمات من لغتنا نحن.

وقد كانت المراجعة الثانوية . بين عوامل عمل الحلم . هي العامل الذي لحظته غالبية الكتَّاب في الموضوع وقدّرت له أهميته. ويأتي ها?لوك إليس (1911، 10) بوصف طريف لمسلكها، فيقول:

«ولنا أن نتصوَّر أن الأمور تجري بالفعل على هذا النحو: يحدث الشعور النائم نفسه قائلاً: ها هو ذا سيدنا مقبل، ها هو ذا الشعور المستيقظ الذي يعلِّق كل هذه الأهمية الغالبة على العقل والمنطق وما إليهما. أسرع! اجمع الأمور ونظّمها . وأي نظام يكفي . قبل أن يدخل هو لكي يضع يده».

ولقد أكد دو لاكروا العينية بين هذا المنهج في العمل وبين منهج التفكير المستيقظ توكيداً فريداً في وضوحه، فقال (1904، 256):

«هذه الوظيفة المفسِّرة ليست بالخاصة القاصرة على الحلم فهي لا تختلف من عمل الربط المنطقي الذي نجربه على إحساساتنا ونحن أيقاظ»[510].

ويرى جيمس سوللي هذا الرأي أيضاً. وكذلك توبو?ولسكا، إذ تقول:

«هذه الهلاوس المتعاقبة في غير اتساق يجهد الذهن لكن يجري عليها ذات العمل الذي يؤديه في اليقظة بإزاء إحساساتنا، وأعني به ربطها فيما بينها برباط منطقي؛ فهو يصل كل هذه الصور المتقطعة برباط موهوم ويسد ما كان بينها من ثغرات مفرطة الاتساع»[511] (ص 105).

وفي رأي بعض الكتاب أن هذه العملية، عملية الترتيب والتفسير، تبدأ في خلال الحلم وتواصل عملها بعد اليقظة، فهكذا يقول بولان (ص 575):

«ومع هذا فقد فكَّرت في كثير من الأحايين في أن صورة الحلم قد تلقى في ذاكرتنا تحريفاً أو بالأحرى تصاغ صوغاً جديداً... فنزوع مخيلتنا إلى التنسيق مستطيع ولا شك أن يتم في اليقظة ما قد بدأه أثناء النوم وهكذا تبدو السرعة الحقيقية لفكرنا وقد زادت زيادة مظهرية بفعل التنقيحات التي تدخلها المخيلة المستيقظة»[512].

ويقول لوروا وتوبو?ولسكا (ص 621):

«فأما في حالة الحلم فالتفسير والربط لا يتمَّان بالاستعانة بمعطيات الحلم وحدها، بل تعين عليهما معطيات اليقظة كذلك...»[513].

ولم يكن بعد ذلك محيد عن أن نرى هذا العامل الذي عُرف وحده دون سائر عوامل تكوين الحلم وقد لاقى تقديراً لأهميته يتَّسم بالمغالاة حتى نسب إليه البعض كل وظيفة خلق الحلم. ففي رأي جوبلو . وفوكو بخاصة . أن هذا الخلق يتم في لحظة اليقظة، أي أن هذين المؤلفين يضيفان إلى الفكر المستيقظ القدرة على تكوين الحلم من الأفكار المنبعثة في أثناء النوم.

ويقول لوروا وتوبو؟ولسكا في صدد هذه النظرية: «لقد ظن البعض أن من الممكن جعل مكان الحلم في لحظة اليقظة، وأضافوا إلى الفكر المستيقظ وظيفة تكوين الحلم بالصور الحاضرة في فكر النائم»[514].

وبهذه المناقشة في أمر المراجعة الثانوية أردف بحث عامل آخر في عمل الحلم، ألقت عليه الضوء أخيراً ملاحظات دقيقة لهربرت سيلبرير. فقد ذكرت من قبل (ص 378) أن سيلبرير قد اقتنص . إن جاز هذا التعبير . عملية تحويل الأفكار إلى صور، واقتنصها على التحديد وهي آخذة في التمام. وكان ذلك بأن كان يتكلف ضروباً من ضروب النشاط العقلي وهي في حالة من التعب أو النعاس. ففي مثل هذه اللحظات كانت تختفي الفكرة التي يعالجها وتحل محلها رؤية لا يلبث أن يتَّضح أنها بديل لما لم يكن في العادة سوى أفكار مجردة (أنظر الأمثلة على ذلك في الصفحة المذكورة). والذي يهمنا الآن هو أنه يحدث أحياناً أن الصورة المنبعثة . والتي تصح مقارنتها بعنصر من عناصر الحلم . كانت تمثِّل أحياناً شيئاً آخر غير الفكرة المعالجة، ألا وهو التعب نفسه أو المشقة المتضمنة في العمل أو الضيق به، أي أنها كانت تمثل الحالة الذاتية لمن يتكلف الجهد وتمثل وضعه وهو يمارس وظائفه بدل أن تمثل موضوع هذا الجهد. ولقد أطلق سيلبرير على أمثال هذه الصور التي كان يشيع ورودها عنده إلى مدى بعيد اسم «الظاهرة الوظيفية » تفريقاً بينها وبين «الظاهرة المادية » التي كنا نتوقعها.

«مثال: كنت في عصر يوم راقداً على أريكتي وأنا أشعر بنعاس شديد، ومع هذا حملت نفسي على التفكير في مشكلة فلسفية، كنت أريد المقارنة بين آراء كانْت في الزمن وآراء شوبنهاور. غير أنني . وبي من النعاس ما بي . لم أكن قادراً على الإمساك بقضايا كِلا الفيلسوفين في وقت واحد، على ما تقتضيه المقارنة. وبعد عدد من المحاولات غير المجدية أشربت ذهني بالاستنباط الكانتي مرة ثانية، باذلاً في ذلك كل ما تملك إرادتي من القوة، حتى أتمكن من تطبيقه على قضية شوبنهاور في المشكلة. ثم بعد ذلك تحولت إلى هذه القضية، ولكنني حين أردت العودة إلى كانْت رأيت أن براهينه قد أفلتت مني مرة ثانية، وعبثاً حاولت استرجاعها. هذا الجهد المضيَّع في فتح درج كانْت الذي كان مختزناً في جهةٍ ما من رأسي لم يلبث أن تمثل نصب عيني في رمز عياني متشكل، كأنه صورة من حلم: أسأل موظفاً عبوساً جلس محنياً على مكتبه بعض المعلومات، ولكنه لا يلقى بالاً إلى مطلبي الذي ألح فيه ثم يستقيم في جلسته نصف استقامة ويرسل إليّ نظرة رفض غاضبة» (سيلبرير، 1909، 513).

وها هي ذي أمثلة أخرى تتعلق بالتردّد بين حالتي النوم واليقظة:

«مثال رقم 2 – الملابسات: في الصباح، عند الاستيقاظ. يذهب خاطري وأنا نائم بعض النوم (أي وأنا في حالة شفقية) إلى حلم جاءني وأتابع الحلم به على نحو من الأنحاء. وبينما أنا كذلك أحسست أنني أقترب من حالة اليقظة شيئاً فشيئاً ولكنني أريد البقاء في الحالة الشفقية.

«المنظر: أقدِّم رِجلاً لأعبر مجرى ماء ولكنني أعود فأؤخرها عازماً على البقاء حيث أنا» (سيلبرير، 1911، 625).

«مثال رقم 6 . الملابسات: كما في المثال رقم 4 (حيث كان يريد المضي في النعاس قليلاً دون أن يفوته الوقت). أود لو واصلت النعاس برهة.

«المنظر: أودِّع البعض وأدبِّر معه (أو معها) لقاء قريباً» [ذات المرجع، ص 627].

لقد لاحظ سيلبرير الظاهرة «الوظيفية» التي هي «تصوير لوضع ذاتي وليس لموضوع» في خلال حالتَي الشروع في النوم والاستيقاظ منه، قبل كل حالة أخرى. ومن الواضح أن تفسير الحلم إنما يعنى بالحالة الثانية. ومن هذه الناحية نجد أن سيلبرير قد أتى بأمثلة مقنعة تدل على أن الأجزاء الأخيرة من المحتوى الظاهر لكثير من الأحلام . وهي الأجزاء التي تأتي قبيل اليقظة مباشرة . لا تصوِّر في كثير من الأحيان سوى نية الاستيقاظ أو فعل الاستيقاظ نفسه. وقد يجيء هذا التصوير في صور من قبيل اجتياز إحدى العتبات (رمزية العتبة) أو مغادرة حجرة أو دخول أخرى أو الرحيل أو العودة إلى الوطن أو الافتراق عن رفيق أو الغطس في الماء، إلى آخره. بيد أنني لا أستطيع إلا أن ألاحظ أنني لم أصادف عناصر حلمية يمكن ردها إلى رمزية العتبة . سواء أكان ذلك في أحلامي أم في أحلام الآخرين . اللهم إلا في حالات تقلّ كثيراً عما تهيئه لنا روايات سيلبرير.

وليس من الممتنع على التصور ولا هو بالشيء المستبعد أن يكون في «رمزية العتبة» هذه ما يلقي ضوءاً على بعض العناصر التي تجيء وسط سياق الحلم، في مواضع يتعلق فيها الأمر بذبذبة في مستوى عمق النوم ونزوع إلى إنهاء الحلم مثلاً. ومع هذا فما أتى أحد بأمثلة مستيقنة على ذلك. وإنما الأكثر وقوعاً . فيما يبدو . هو حالات الحتم المضاعف التي نرى فيها إحدى فقرات الحلم المستمد محتواها من جعبة أفكار الحلم وقد استُخدمت فوق ذلك في تصوير إحدى حالات النشاط النفسي.

وقد كانت ظاهرة سيلبرير الوظيفية هذه ـ وهي ظاهرة جد خليقة بالاهتمام ـ سبباً في الشيء الكثير من سوء الاستغلال، دون أن تكون لصاحبها جريرة في ذلك. ذلك أن البعض قد رأى فيها سنداً يدعم النزوع القديم إلى أن نخلع على الأحلام تفسيرات مجرّدة، رمزية. ومن الناس من يذهبون شوطاً بعيداً في إيثار «المقولة الوظيفية» حتى أنهم ليتحدثون عن الظاهرة الوظيفية كلما عرضت في الحلم وجوه من النشاط العقلي أو من العمليات الانفعالية، مع أن هذه المادة لا تملك من حق الدخول في الحلم ـ باعتبارها مخلَّفات من اليوم السابق ـ إلا ما يملكه سواها، لا أكثر ولا أقل.

إننا نسلِّم طواعية بأن في ظاهرة سيلبرير مشاركة ثانية يشارك بها الفكر المستيقظ في تكوين الحلم، وإن تكن تقل عن الأولى ـ تلك التي أدخلناها من قبل تحت اسم «المراجعة الثانوية» ـ من حيث اطراد الوقوع ومن حيث القيمة والخطر. فقد تبيّن لنا أن جزءاً من الانتباه الذي لا ينـي عن العمل أثناء النهار يستمر أيضاً في خلال حالة النوم متجهاً حينئذ إلى الأحلام، فيكبح جماحها وينقدها ويحتفظ لنفسه بالحق في أن يضع لها حداً. وكان من الطبيعي أن نرى في هذا العامل النفسي الباقي على يقظته المراقبَ الذي عزونا إليه مثل هذا التأثير التقييدي الشديد في تشكيل الحلم. والذي تضيفه ملاحظات سيلبرير هو تلك الحقيقة: إن ضرباً من الملاحظة الذاتية يشترك عندئذ في العمل تحت ملابسات معينة ويكون له أثره في محتوى الحلم. فأما العلاقة المحتملة بين هذا العامل الذي يقوم بالملاحظة الذاتية والذي قد يبرز عند أصحاب العقول الفلسفية بنوع خاص وبين الإدراك الباطني وهجاس الملاحظة والشعور ومراقبة الحلم، فذلك ما تنبغي معالجته في موضع آخر[515].

والآن ألخِّص هذا البحث المطوّل في عمل الحلم. لقد وجدنا أنفسنا نواجه ذلك السؤال: أتستخدم النفس كل قواها في تكوين الحلم دون أن تدخر منها شيئاً، أم تستخدم جزءاً منها مكفوف النشاط ليس غير؟ وأدّت بنا أبحاثنا إلى أن نطرح مثل هذه الصياغة للسؤال لأنها لا تكافىء الأوضاع. فإن حُتمت علينا الإجابة مع البقاء في المجال الذي ترسمه حدود السؤال، لم يكن مفر من الردّ بالإيجاب على كلا الاحتمالين ـ وإن بدا أن كليهما يمنع الآخر منع الضد للضد. فالعمل النفسي الذي يبذل عند تكوين الحلم ينقسم قسمين: إحداث أفكار الحلم ثم تحويلها إلى محتوى الحلم. فأما أفكار الحلم فصحيحة كل الصحة وفي تكوينها تُبذل كل الطاقة النفسية التي نحن مستطيعونها، إنها ترجع إلى فكرنا الذي لم يصبح بعد فكراً شعورياً والذي منه تنشأ أفكارنا الشعورية أيضاً بعد تعديل خاص. ومهما ارتبط بها ـ أعني بأفكار الحلم ـ من أسئلة جديرة بالاهتمام، معماة، فهذه الأسئلة لا تحمل صلة خاصة بالحلم ولا تقتضي علاجها بين مسائله[516]. فأما الجزء الثاني من العمل وهو هذا الذي يحوّل الأفكار اللاشعورية إلى محتوى الحلم فقصر على الحياة الحالمة وخاصة تميزها. هذا الجزء هو عمل الحلم بالمعنى الصحيح للكلمة، وهو يبعد عن مثال الفكر المستيقظ بعداً يزيد على ما كان يظنه حتى أعند المنتقصين للنشاط النفسي في تكوين الحلم: فهو ـ أعني عمل الحلم ـ لا يختلف فقط من تفكير اليقظة في كونه أكثر إهمالاً وفساداً وأكثر نسياناً ونقصاً، بل هو يختلف من هذا التفكير اختلافاً كيفياً مطلقاً، ولهذا لم تجز المقارنة المباشرة بينهما. إنه لا يفكِّر على الإطلاق ولا يحسب أو يحكم، بل يقصر نفسه على صب كل أولئك في صورة جديدة، ونحن نستغرق وصفه حتى نعدّد الشروط التي يجب عليه إرضاؤها وهو يحدث نتاجه. هذا النتاج ـ وهو الحلم ـ يجب قبل كل شيء أن يفلت من الرقابة، ومن أجل هذا الغرض يلجأ عمل الحلم إلى نقل الشدَّات النفسية حتى ليحدث تغييراً كاملاً في جميع القيم النفسية. ثم إن الأفكار يجب أن تستحضر ـ على نحو مانع أو غالب ـ في مادة من الآثار الذكروية البصرية والسمعية، وهو اقتضاء يفرض على عمل الحلم اعتبارات تتعلّق بقابلية التصوير يواجهها عمل الحلم بأن يجري نقلات جديدة. ولا بد (على الراجح) من إحداث شدات نفسية تفوق ما يكون لأفكار الحلم ليلاً، وهو غرض يتم بوساطة التكثيف الواسع النطاق الذي يشمل مقومات الحلم. فأما العلاقات المنطقية بين الأفكار فلا تنال سوى القليل من الانتباه، وهي في نهاية الأمر تلقى تصويراً مقنعاً في بعض الخصائص الصورية للحلم. وأما الحالات الوجدانية المتصلة بأفكار الحلم فيصيبها تغيير يقلّ عن الذي يتناول المحتوى الذهني لهذه الأفكار، والقاعدة هي أن تقمع أمثال هذه الحالات، فإن أبقيَ عليها انتُزعت مما ترتبط به من الأفكار وضمّ ما تجانس منها. جزء واحد من عمل الحلم ـ وأعني به ما يأتيه الفكر المستيقظ استيقاظاً جزئياً من مراجعة متفاوتة المدى ـ هو الذي يتفق بعض الاتفاق والنظرة التي أراد المؤلفون تطبيقها على فعل تكوين الحلم في مجموعه.

الفصل السابع:
سيكولوجية عمليات الحلم

إن بين الأحلام التي رواها لي أناس آخرون حلماً يستحق بنوع خاص أن نوليه في هذا الموضع انتباهنا. لقد ذكرته لي إحدى مريضاتي، وكانت هي قد سمعته في محاضرة عن الأحلام ولا زلت أجهل مصدره الحقيقي. غير أن محتواه قد ترك في نفس السيدة أثراً عميقاً حتى أنها أخذت «تحلم على غراره»، أي أخذت تكرر بعض عناصره في حلم من عندها لكي تعرب بهذا الاقتباس عن اتفاقها معه في ناحية معيَّنة من نواحيه.

كانت مقدمات هذا الحلم النموذجي هي الآتية: ظلَّ أب يسهر على ابنه المريض أياماً وليالي متداولة. فلما مات الطفل ذهب إلى الغرفة المجاورة لكي يستلقي ولكنه ترك الباب مفتوحاً بحيث يستطيع النظر من غرفته إلى الغرفة التي يثوي فيها الجسد وقد التفَّت من حوله شموع طويلة. وكان الأب قد استأجر رجلاً معمراً لينوب عنه في السهر، فجلس الرجل إلى جوار الولد الميت وهو يتمتم بأدعية. ومضت ساعات قليلة من النوم حلم الأب بعدها أن ابنه واقف بجوار فراشه، يمسك بساعده ويهمس في أذنه معاتباً: «أبي ألا ترى أني أحترق؟» واستيقظ الأب فلمح وهجاً براقاً من الغرفة المجاورة، فهرع إليها، فرأى أن الرجل المعمّر قد أخذته سنة من النوم وأن شمعة موقدة قد سقطت فأشعلت الدثائر وساعداً من جثمان طفله الحبيب.

إنه ما من صعوبة تقف دون إيضاح هذا الحلم المثير. ولقد فسره المحاضر تفسيراً صحيحاً، على حسب رواية السيدة: فوهج الضوء قد سطع من خلال الباب إلى عيني الرجل النائمتين وكان أن ذهب الرجل إلى النتيجة التي قد كان يستخلصها لو أنه كان مستيقظاً: أن شمعة قد سقطت فأشعلت النار في شيء مما يحيط بجسد الابن . ولعل الأب قد ذهب ليضطجع وهو قلق، يسأل نفسه عن مدى قدرة الرجل المعمّر على القيام بمهمته.

وما كنت من جانبي لأغيِّر من هذا التفسير في شيء، اللهم إلا أن أضيف أن محتوى الحلم لا بد كان مضاعف الحتم، وأن الكلمات التي قالها الطفل في الحلم لا بد قد أُخذت من كلمات صدرت عنه بالفعل في حياته وكانت ترتبط في ذهن الأب بأحداث ذات بال. ولعل قول الطفل: «إني أحترق» قد خرج من شفتيه وهو محموم في مرضه الأخير، ولعل «أبي ألا ترى؟» جملة مستمدة من موقف آخر، حافل بانفعال شديد، لا نعلم عنه شيئاً.

غير أننا وقد عرفنا أن الحلم عملية ذات معنى يمكن إدراجها في سياق خبراتنا النفسية قد نتساءل: لمَ كان على الإطلاق أن جاء حلم في ملابسات كهذه كانت تتطلَّب الاستيقاظ أسرع الاستيقاظ؟ الجواب هو أن نلاحظ أن هذا الحلم أيضاً كان يشتمل على ما يحقق رغبة: ذلك أن الطفل الميت قد سلك في الحلم مثل طفل حي، ينادي أباه بنفسه ويذهب إليه في فراشه ويمسك بساعده، مثلما صنع . في أغلب الظن . إبان هاته المناسبة التي أُخذت كلمات الطفل الأولى في الحلم من ذكراها، ومن أجل تحقيق هذه الرغبة أطال الأب نومه هنيهة وآثر الحلم على تدبير اليقظان لأن الحلم كان يملك القدرة على أن يُظهر الطفل حياً من جديد. ولو أن الأب بدأ فاستيقظ ثم استنتج النتيجة التي حملته إلى الغرفة المجاورة لكان بذلك كأنما اختصر عمر ابنه برهة من الزمان.

فإذا تساءلنا: «أية خاصة في هذا الحلم القصير تثير اهتمامنا؟»، لم يكن شك في الجواب. لقد ظللنا حتى الساعة وشاغلنا الغالب هو ما للأحلام من معنى خبيء ومنهج الكشف عن هذا المعنى ووسائل عمل الحلم في ستره، فمشكلات تفسير الحلم هي التي كانت موضوعة نصب أعيننا حتى الآن. والآن يواجهنا حلم لا مشكلة في تفسيره ولا خفاء في معناه، لكنه . كما نرى . قد احتفظ مع ذلك بكل الخصائص الجوهرية التي تفرق بين الحلم واليقظة تفرقة بيِّنة وتشعرنا بالحاجة إلى التعليل. فنحن بعد أن نفرغ من كل ما يتعلق بفعل التفسير نستطيع أن نلحظ للمرة الأولى مدى النقص في سيكولوجيتنا عن الأحلام.

ولكن يجمل بنا قبل أن نضرب في هذا الطريق الجديد أن نتمهل ونجيل النظر من حولنا لنرى إن كان ثمة شيء ذو بال قد نسيناه في خلال رحلتنا حتى بلغنا الموضع الذي نحن فيه. إذ يجب أن نعلم في جلاء أن الجزء الهيِّن السار من طريقنا قد تركناه الآن خلفنا. فإلى هنا كانت كل الطرق التي سرنا فيها، كانت . إذا لم أكن على خطأ كبير . تسلمنا إلى الضوء، إلى التعليل وإلى فهم أتم. ولكننا ما أن نبتغي التعمّق في العمليات النفسية التي يتضمنها فعل الحلم حتى تسلمنا كل الطرق إلى الظلمة. فما لنا من قوة على تعليل الأحلام من حيث هي عملية سيكولوجية؛ لأن

تعليلك شيئاً يعني ردّه إلى معلوم سابق ولسنا . في الوقت الحاضر . نملك معرفة سيكولوجية موطدة نستطيع أن ندرج تحتها ما نعلم بالفحص السيكولوجي للأحلام أنه أساس تعليلها. بل نحن على العكس مضطرون إلى أن نضع عدداً من الفروض الجديدة تمسّ من باب المحاولة تركيب الجهاز النفسي ولعب القوى العاملة فيه . وهي فروض يجب أن نراعي عدم الغلو في متابعتها إلى ماوراء مستخلصاتها المنطقية الأولى وإلا ضاعت قيمتها فيما لا علم لنا به. فنحن وإن لم نرتكب خطأ في استدلالاتنا وأدخلنا جميع الإمكانيات المنطقية في حسابنا فإنَّ النقص الذي يرجح وجوده في مقدماتنا خطر يهدّد حسابنا أجمعه بخسران مبين. ذلك أن من المحال أن نصل إلى نتائج في تكوين العدّة النفسية وطرائقها المتَّبعة في العمل . أو يستحيل على الأقل البرهان على هذه النتائج برهاناً تاماً . ابتداءً من دراسة الأحلام وحدها أو أية وظيفة نفسية أخرى على حدة ، مهما بذلنا في هذه الدراسة من العناية. بل لا بد لكي نصل إلى هذا الهدف من أن نربط بين جميع المتضمنات الثابتة المستخلصة من دراسة مقارنة لعدد بأكمله من أمثال هذه الوظائف. وهكذا فالفروض السيكولوجية التي ننتهي إليها من تحليل عمليات الحلم يجب أن تظل معلقة . إن جاز التعبير . إلى أن يتسنى وصلها بمكتشفات تكشف عنها بحوث أخرى تحاول النفاذ من زاوية مختلفة إلى لب المشكلة ذاتها.

أ
نسيان الأحلام

وعلى ذلك أقترح أن نعود إلى صعوبة لم ننظر فيها حتى الآن وهي مع ذلك كفيلة أن تقوّض كل ما بذلناه من الجهود في تفسير الحلم. فقد سمعنا من أكثر من جانب اعتراضاً حاصله أننا ـ والحق يقال ـ لا نعرف الحلم الذي نتعرّض لتفسيره، أو ـ بعبارة أدق ـ لا نملك ضماناً يضمن أننا نعرفه كما وقع حقيقةً (ص 93 ـ 94).

فما نذكره من الحلم ونزاول فنوننا التفسيرية في صدده قد نالت منه أولاً ذاكرة لا تؤتمن، تبدو عاجزة عن الإبقاء على الحلم بنوع خاص وربما أضاعت من محتواه أهم أجزائه على التحديد. وإنه ليحدث في كثير من الأحيان حين ندير انتباهنا إلى حلم من أحلامنا أن نرانا نأسف لأننا وإن كنا قد حلمنا بالشيء الكثير لم نعد نستطيع أن نذكر سوى نبذ مفردة، حتى هذه لا نذكرها إلا ذكراً خالياً من كل يقين. وثانياً فإن كل الشواهد تدعونا إلى التشكك في أن تكون ذكرانا عن الحلم مجتزئة وحسب، دون أن تكون فوق ذلك مجانبة للأمانة مكذوبة. فقد نشك من جهة في أن يكون الحلم في حقيقته مفكك الأوصال مبهماً كما هو في ذاكرتنا، وقد نشك من جهة أخرى في أن يكون الحلم مترابطاً حقيقة كما هو في روايتنا إياه، في كوننا حين نحاول استرجاعه لا نملأ منه ما لم يكن موجوداً ـ أو كان موجوداً ثم نسيَ ـ بمادة جديدة مختارة من عندنا، في كوننا لا نزوّقه ونسويه ونصححه بحيث لا يبقى مجال للقطع برأي في حقيقة محتواه. لا، بل لقد رأينا [ص 95] أحد المؤلفين (شپيتا)[517] يفترض أن كل ما يظهر في الحلم من قبيل الترتيب والاتساق إنما يدخله للمرة الأولى حين نحاول استعادته في أذهاننا. وهكذا نكون في خطر من أن يفلت من يدنا الموضوع الذي شرعنا في تقديره.

لقد كنا حتى الساعة ـ ونحن نفسر الأحلام ـ لا نلقي بالاً إلى مثل هذه النذر. بل كان من رأينا ـ على العكس ـ أن أصغر مقومات الحلم وأقلها ظهوراً ويقيناً تقتضي من التفسير مثل ما تقتضيه تلك التي بقيَت واضحة مستيقنة. فقد جاء في حلم حقنة إرما أنني استدعيت الدكتور م. على الفور فافترضنا أنه حتى هذه اللمحة الصغيرة ما كانت لتشق طريقها إلى الحلم لو لم يكن لها أصل خاص، وكان أننا انتهينا على هذا النحو إلى قصة المريضة التعسة التي استدعيت زميلي الأكبر إلى جوارها على الفور. ثم ذلك الحلم الفاسد المظهر الذي عومل فيه الفرق بين الرقم 51 والرقم 56 كما لو كان «كماً مهملاً»[518] [ص 461]: لقد تكرّر مجيء الرقم 51 في هذا الحلم أكثر من مرة، وبدل أن ننظر إلى ذلك نظرتنا إلى واقعة نسلّم بها أو إلى أمر لا وزن له استدللنا منه على أن محتوى الحلم الكامن كان ينطوي على خيط فكري ثان يؤدي إلى الرقم 51، فلمّا قفونا هذا الأثر، انتهينا إلى تخوفي من أن تكون السنوات الواحدة والخمسون كل فسحة عمري ـ على مخالفة بيّنة من الخيط الفكري الآخر الذي كان غالباً على الحلم وكان يغرق في المفاخرة بعمر مديد. ثم حلم Non vixit [ص 447]: إنه قد حوى قضية عابرة لم أعرها أول الأمر انتباهاً، هي: «فلما لم يفهم ب. مراده سألني ف.... إلخ». ولكنني عندما وقفت في التفسير رجعت إلى هذه الكلمات فكانت هي التي قادتني إلى ذكرى الطفولة التي لم يلبث أن تبيّن أنها كانت نقطة العقد المتوسطة بين أفكار الحلم [ص 508]. وقد كان ذلك من طريق الأبيات الآتية:

ندر أن فهمتني،

ندر أيضاً أن فهمتك،

ليس إلا والطين يجمعنا،

أن كان الفهم مني ومنك[519].

ومن الممكن أن نجد في كل تحليل أمثلة ترينا أن أتفه عناصر الحلم على التحديد أمر لا يستغنى عنه في تفسير الحلم وأن عملنا لا يلبث أن يقف إذا أرجأنا الانتباه إلى هذه العناصر. وعلّقنا مثل هذه الأهمية في تفسير الحلم على كل ظل من ظلال العبارة اللغوية التي يأتينا الحلم فيها. بل لقد كنا إذا مثل أمامنا نص خالٍ من المعنى غير واف ـ كأنما أخفق الراوي فيما أراد الالتزام به من ترجمة الحلم ترجمة صحيحة ـ حسبنا أيضاً لهذا القصور في العبارة حسابه. وعلى الجملة، كنا نعالج ما لم يكن في زعم المؤلفين السابقين إلا قولاً مرتجلاً أملاه الهوى واقتضت الضرورة أن تلم أجزاؤه على عجل ـ كنا نعالجه كأنه نص مقدس. هذا التعارض يتطلب تعليلاً.

إن التعليل يبيّن أننا على حق دون أن يجر ذلك إلى تخطئة الكتّاب الآخرين؛ لأن من شأن فهمنا المكتسب حديثاً لأصل الأحلام أن يوفق بين

المتناقضات. فمن الحق أننا نشوّه الحلم حين نحاول استحضاره، وههنا نلتقي مرة ثانية بالعملية التي سميناها مراجعة الحلم مراجعة ثانوية . يكثر أن تنطوي على خطأ في الفهم . من جانب عامل الفكر السوي. ولكن هذا التشويه ذاته لا يعدو أن يكون جزءاً من المراجعة التي تخضع لها أفكار الحلم خضوعاً مطرداً نتيجة لرقابة الحلم. فالكتاب قد شعروا هنا بهذا الجزء من التشويه الحلمي الذي يعمل عمله علانية أو هم لحظوه. ولكن هذا الجزء لا يعنينا أمره سوى قليلاً؛ لأننا نعلم أن تشويهاً أوسع مدى وأقل يسراً على الملاحظة قد استهدف الحلم من قبل، ابتداءً من الأفكار الكامنة. وإنما أخطأ هؤلاء الكتاب حين ظنوا أن التغيير الذي يصيب الحلم عند تذكُّره أو صوغه في كلم تغيير تحكمي لا يمكن رده إلى شيء أبعد منه وأنه . من ثم . كفيل أن يزيِّف معرفتنا بالحلم: لقد قدَّروا الحتمية في المجال النفسي دون قدرها. والحقيقة أنه ما من تحكم هنا. وفي وسعنا أن نبين بوجه عام أنه إذا خلا عنصر ما من خيط فكري يحتمه سارع خيط ثانٍ إلى تحتيمه على الفور. مثال ذلك أنني قد أحاول أن أستحضر عدداً استحضاراً تحكمياً محضاً، ولكن ذلك محال؛ فالعدد الذي يخطر لي قد حتمته أفكار من أفكاري . وإن تكن بعيدة عن مقصدي المباشر . تحتيماً ضرورياً لا شبهة فيه[520]. والتغييرات التي تصيب الحلم عند تحريره في اليقظة لا يزيد التحكّم فيها عليه في غيرها؛ إنها تظل على رباط استدعائي يصل بينها وبين المحتوى الذي حلت هي محله وترشدنا إلى طريق هذا المحتوى الذي قد يتبيّن أنه كان بدوره بديلاً من شيء آخر.

ولقد اعتدت وأنا أحلل أحلام مرضاي أن أمتحن هذا الرأي امتحاناً لم يخلف ظني قط: كنت إذا بدت رواية أحد الأحلام مستعصية على الفهم أول الأمر سألت المريض أن يعيدها، وهو إذ يفعل ذلك قلَّما يعيد ذات الألفاظ، ولكن المواضع التي يختلف تعبيره عنها، هذه أعلم عندئذ أنها مواطن الضعف في قناع الحلم، وإنها لتفيدني مثلما أفادت هاجن العلامة المطرزة على عباءة سيغفريد[521]، ومنها ينبغي الشروع في تفسير الحلم. ذلك أن سؤال المريض أن يعيد الرواية قد جعلته يفطن إلى أنني عازم على أن أخصص بعض جهدي لتفسير حلمه، وهو لهذا يسارع بحافز من الرقابة إلى تغطية مواطن الضعف في قناع الحلم، مستبدلاً بكل عبارة نمَّامة عبارة أخرى أبعد مأتى، وبذلك يجذب انتباهي إلى التعبير الذي أسقط. فالمشقة المبذولة من أجل الحيلولة دون حل الحلم تزوِّدني كذلك بمقياس أقيس به مدى الحرص المصروف في نسج ردائه.

وقد كان حظ المؤلفين السابقين من المبررات أقل حين علَّقوا أهمية كبرى على الشك الذي تتلقى به ملكة الحكم عندنا رواية الأحلام: فإن هذا الشك ليس مما يقوم على سنُد عقلية. صحيح أن ذاكرتنا لا تعرف على وجه العموم ضامناً يضمن صحتها، ومع هذا فنحن مدفوعون بدافع قهري إلى أن نصدق ذاكرتنا في حالات تربو كثيراً جداً على تلك التي يجد فيها التصديق مبررات موضوعية. فإذا كنا نتشكك في أن يكون الحلم أو بعض تفاصيله قد روى رواية صحيحة، فهذا الشك بدوره مستمد من رقابة الحلم، من المقاومة التي تحول دون نفاذ أفكار الحلم إلى الشعور. فهذه المقاومة لم تستنفد بعد رغم كل ما جلبته من النقل ومن التبديل، إنها تستمر في صورة شك موضوعه هذه المادة التي سمح لها بالعبور. ويزيد نزوعنا إلى الخطأ في فهم حقيقة هذا الشك حرصه على ألا يهاجم أبداً أكثر عناصر الحلم شدة، بل العناصر الضعيفة غير المتميزة وحسب. ولكننا نعلم من قبل أن قلباً شاملاً لجميع القيم النفسية قد وقع بين أفكار الحلم والحلم [ص 363]، ولا يتيسَّر التشويه إلا بسحب القيمة النفسية، وهو بهذه الوسيلة يعرب عن نفسه عادة، وقد يقنع بها أحياناً. فإن جاء أحد عناصر الحلم غير متميز ثم بعد ذلك أضيف الشك، كان هذا علامة مؤكدة على أننا نواجه عنصراً مشتقاً من أفكار الحلم الممنوعة اشتقاقاً مباشراً. والحال هنا أشبه بها بعد ثورة كاسحة في جمهورية من العصور القديمة أو من عصر النهضة: فقد كانت الأسر القديمة النبيلة صاحبة السيادة من قبل تُرسل إلى المنفى بينما يملأ مقاعد الحكم وفود جدد، ولم يكن يؤذن بالبقاء في المدينة إلا لأشد أعضاء الأسر المدحورة فقراً وأقلُّهم حولاً أو لمن لم تكن له بهذه الأسر إلا تبعة بعيدة، وحتى هؤلاء لم يكن يترك لهم الاستمتاع بكامل حقوقهم المدنية وكان ينظر إليهم بعين الحذر. والحذر في هذا المثال هو عِدْل الشك في حالتنا، ولهذا كنت أقتضي عند تحليل الحلم أن نترك ميزان تقدير درجات اليقين برمته، فإن كان هناك أقل احتمال لأن يكون مثل هذا الشيء أو ذاك قد عرض في الحلم، وجب أن يؤخذ هذا الاحتمال مأخذ الحقيقة الثابتة كل ثبوت. فإن لم نصمد على هذا الموقف ونحن نقفو أحد عناصر الحلم لم يلبث التحليل أن يتوقف على الفور. وإن كل تشكك في قيمة العنصر الذي نصادفه تكون نتيجته انقطاع الأفكار اللاإرادية المستترة وراء هذا العنصر عن الورود. ومن الحق أن هذه النتيجة ليست واضحة بذاتها؛ فلا شيء يمنع من أن يقول المرء: «لست أعلم علم اليقين إن كان هذا الشيء أو ذاك قد عرض في الحلم، ولكن ها هو ذا ما يخطر لي في صدده على أية حال»، ولكن الواقع هو أنه ما من أحد يقول ذلك أبداً. وهذا التأثير المعوق الذي ينجم عن الشك في التحليل، هذا التأثير على التحديد، هو ما يعلن أن الشك فرع من الرقابة النفسية وأداة من أدواتها. إن التحليل النفسي حذر وهو محق في حذره، فإحدى قواعده هي الآتية: كل ما يعوق سير العمل مقاومة[522].

وكذلك نسيان الأحلام، فإنه يظل أيضاً من غير تعليل ما لم نحسب لقوة الرقابة النفسية حسابها. صحيح أن شعورنا بأننا قد حلمنا كثيراً دون أن نبقي إلا على القليل قد تكون له معانٍ كثيرة: كأن يكون عمل الحلم قد استمر طيلة الليل كله على نحو ملموس دون أن يترك وراءه سوى حلم قصير. ولا شك أيضاً في أننا نزيد نسياناً للأحلام كلما انقضى الوقت بعد الاستيقاظ وكثيراً ما ينساها المرء رغم جهوده المضنية من أجل الإمساك بها. إلا أنني أرى مع ذلك أننا كما نبالغ عادة في تقدير مدى هذا النسيان نبالغ كذلك في تقدير مدى التقييد الذي ينال معرفتنا بالحلم من جراء هذه الثغرات. فمن الممكن في كثير من الأحيان أن نسترجع بوساطة التحليل كل ما أفقدنا إياه النسيان من محتوى الحلم، وفي عدد لا بأس به من الحالات على الأقل يتسنى لنا ابتداء من نبذة مفردة بقيَت من الحلم، لا أقول: أن نركِّب الحلم من جديد . وهذا بعد ليس بالشيء الهام . بل أفكار

الحلم جميعها. وهذا العمل يقتضي قدراً كبيراً من الانتباه وضبط النفس، هذا هو كل شيء . ولكنه يبيِّن أن نسيان الحلم لم يكن يخلو من غرض معادٍ[523] [أي منطو على مقاومة].

ويظفر المرء بشاهد مقنع على أن نسيان الأحلام نسيان مغرض يخدم مآرب الرقابة[524]، إذا أتيح له أن يتتبع في أثناء التحليلات مرحلة أولى من مراحل النسيان. فليس من النادر أن نكون في منتصف عملية التفسير فإذا جزء محذوف من الحلم ينبثق، يقول متذكره: إنه قد ظلَّ حتى هذه اللحظة نسياً منسياً. ثم لا يلبث أن يتَّضح أن هذا الجزء المنتزع من النسيان هو في كل مرة أهم أجزاء الحلم: إنه يقع دائماً على أقصر الطرق المسلمة إلى حل الحلم، وهو . لهذا السبب . قد عرض لمقاومة تفوق ما أصاب سواه. وبين الأحلام المنتثرة في هذا المجلد مثال أضيف جزء من محتواه على هذا النحو في صورة فكرة لاحقة، هو حلم السفر الذي أثأر فيه من رفيقَي المزعجين في السفر [ص 480] والذي اضطررت إلى تركه ولما أكد أبدأ تفسيره . هكذا كان مبلغه من مجافاة اللياقة. لقد كان الجزء المحذوف هو الآتي: «أقول وأنا أشير إلى كتاب لشيللر: it is from... ولكني ألحظ خطأي فأستدرك مصححاً: It is by... عندئذ يعقِّب الرجل قائلاً لأخته: نعم، لقد قال ذلك دون أن يخطىء»[525].

أن يصحح المرء نفسه في حلم . وهو ما يبدو لبعض المؤلفين عجباً عجاباً . أمر لا نحتاج يقيناً إلى أن نشغل به. وإنما أميط اللثام بدل ذلك عن الذكرى التي اتخذتها نموذجاً صنعت على غراره هفوتي اللغوية في الحلم: كنت في التاسعة عشرة من عمري حين زرت إنجلترا للمرة الأولى وقضيت يوماً كاملاً على شاطىء البحر الإيرلندي. ولم أفوِّت بالطبع ما هيأته لي الفرصة من جمع الحيوانات البحرية التي تركها المد، وكنت منصرفاً بانتباهي إلى سمكة من سمك النجمة (يبدأ الحلم بكلمتَي Holothurn–Holothrien [حيوان بحري بطني الأرجل]) حين أقبلت فتاة صغيرة أخَّاذة وسألتني: Is it alive? Is it a starfish? ?. فأجبتها Yes, he is alive ولكنني استدركت فصحَّحت جملتي على الفور وقد خجلت لهفوتي. ولقد استبدل الحلم بالهفوة التي أتيتها في ذلك الحين هفوة أخرى يسهل الوقوع فيها كذلك على ناطق بالألمانية؛ فقولنا: Das Buch ist von Schiller لا تصح ترجمته بحرف from ، بل بحرف by. فإذا علمنا بعد ذلك أن عمل الحلم قد أجرى هذا التبديل لأن الجناس بين الحرف الإنجليزي from وبين النعت الألماني fromm [تقي] كان: يمكنه من تكثيف ضخم، لم يدهشنا ذلك بعد أن سمعنا كل ما سمعنا عن أهداف عمل الحلم وعن اختياره سبل الوصول إليها غير مبال. ولكن ما الذي أقحم ذكراي الشاطئية البريئة في سياق هذا الحلم؟ إنها قد أفادت من حيث كانت أكثر الأمثلة الممكنة براءة على استخدامي لكلمة ذات دلالة على الجنس في غير موضعها، على إقحامي الجنس {h} حيث لا موضع له. ولقد كان ذلك أحد المفاتيح اللازمة لحل الحلم. ولا تصعب تكملة البقية على من علم فوق ذلك بمأتى عنوان Molière – Le : Matter and Motion[526] (malade imaginaire: La matière est–elle laudable? – a motion of the bowels)[527].

وفي استطاعتي فوق ذلك أن أسوق برهاناً عيانياً على أن نسيان الأحلام ناجم إلى مدى بعيد عن المقاومة. فقد يقول أحد مرضاي: إنه قد حلم لكنه نسي حلمه فلم يبق منه أثر، والأمر إذن كأن الحلم لم يكن قط. ونبدأ عملنا فأجيء إلى مقاومة، وعندئذ أوضح للمريض مسألة ما وأعاونه بالتشجيع والحث على أن يتراضى مع فكرة من الأفكار لا تسره، ثم لا أكاد أفرغ من ذلك حتى أسمعه يهتف قائلاً: إني أتذكر الآن بماذا حلمت. فذات المقاومة التي تدخلت في عملنا ذلك اليوم هي التي جعلته كذلك ينسى الحلم، وبالتغلب على هذه المقاومة أعدت الحلم إلى ذاكرته.

وعلى هذا النحو عينه نرى مريضاً يبلغ مرحلة معينة من العمل التحليلي فإذا هو يذكر حلماً أتاه من قبل بأيام ثلاثة أو أربعة أو أكثر، وكان الحلم قد ظلَّ حتى الآن نسياً منسياً[528].

ولقد زوّدتنا الخبرة التحليلية ببرهان آخر على أن توقف نسيان الأحلام على المقاومة يفوق كثيراً توقفه على ما بين حالتي النوم واليقظة من الاختلاف . كما كان يظن الكتَّاب السابقون. فليس من النادر أن يقع لي . كما يقع لغيري من المحللين وللمرضى تحت العلاج . أن نستيقظ من النوم على حلم . إن جاز التعبير . فنشرع على الفور في تفسيره وقد حضرت ملكاتنا العقلية حضوراً تاماً. وكنت في مثل هذه الحالات آبى في أحيان كثيرة أن يقر لي قرار حتى أبلغ فهم الحلم فهماً تاماً. بيد أنه كان يتفق لي أحياناً، حين أستيقظ أخيراً في الصباح، أن أراني وقد نسيت عملي التفسيري كل النسيان كما نسيت ما هو محتوى الحلم، وإن كنت أعلم أن حلماً قد أتاني وأنني فسرته. وإن الحالات التي تجر فيها المقاومة نتائج تفسيري إلى النسيان لتفوق كثيراً تلك التي يفلح فيها نشاطي العقلي هذا في الإبقاء على الحلم ماثلاً في ذاكرتي. ومع هذا فنشاطي التفسيري لا تفرِّق بينه وبين أفكاري المستيقظة هوة نفسية كالتي يريد الكتَّاب افتراضها لكي يعللوا بها نسيان الأحلام. . وحين يعترض مورتون پرنس على تعليلي لنسيان الأحلام قائلاً: إن هذا النسيان ليس إلا مثالاً جزئياً من أمثلة النساوة التي تصحب الحالات النفسية المنشقة وإن استحالة تعميم تعليلي لهذه النساوة الجزئية على سائر أنواع النساوة تجعل هذا التعليل مجرداً من كل قيمة حتى فيما يتعلق بغرضه المباشر، فإنه بذلك إنما يذكِّر القراء بأنه في جميع أوصافه لهذه الحالات المنشقة لم يحاول ولو مرة أن يجد تعليلاً دينامياً لهذه الظاهرة. ولو أنه فعل لرأى أن الكبت (أو . على الأدق . المقاومة الناجمة عنه) هو على السواء العلة في هذه الحالات المنشقة وفي النساوة التي تصحب محتواها النفسي.[529]

ولقد سنحت لي وأنا أحرر مخطوط هذا الكتاب ملاحظة بيَّنت لي أن نسيان الأحلام لا يزيد البتة على نسيان غيرها من الأفعال النفسية وأنها

إذا قورنت بالوظائف النفسية الأخرى من حيث مدى لصوقها بالذاكرة لم تخرج من المقارنة غارمة. ذلك أنني كنت قد دوَّنت عدداً كبيراً من أحلام أتيتها ولم أستطع لسبب من الأسباب تفسيرها تفسيراً وافياً حين وقوعها، أو تركتها من غير تفسير على الإطلاق. والآن، بعد أن انقضى ما بين العام والعامين، أخذت أحاول تفسير بعضها من جديد آملاً الظفر بمادة أغنى أصور بها آرائي، فكان أن كلَّلت هذه المحاولات بالنجاح في كل حالة من الحالات. لا، بل أستطيع أن أقول: إن التفسير كان يتأدى بعد هذه الحقبة الطويلة على نحو أكثر يسراً منه حين كان الحلم خبرة حديثة، والتعليل المرجح لذلك هو أنني تغلبت في هذه الأثناء على بعض المقاومات الداخلية التي كانت تعوقني قبلاً. وكنت إذا أتيت هذه التفسيرات اللاحقة قارنت بين أفكار الحلم التي تكشفت في زمن الحلم وبين تلك المكتشفة حديثاً والتي كانت في معظم الأحايين أوفر كثيراً، فكنت دائماً أرى القديمة متضمنة بين الجديدة. ولم يلبث عجبي لهذه الظاهرة أن انقطع حين تذكرت أنني قد اعتدت منذ زمن طويل حين يقص عليَّ مرضاي أحلاماً أتتهم منذ سنوات خلت . كما يفعلون أحياناً . اعتدت أن أخضع هذه الأحلام للتفسير كأنها وقعت في الليلة السابقة، متبعاً في ذلك ذات المنهج، منتهياً إلى ذات النجاح، وسأذكر مثالين على هذه التفسيرات المرجأة حين أجيء إلى مناقشة أحلام الهيلة [ص 598]. وكنت حين أتيت أولى محاولاتي في هذا الصدد يقودني توقُّع له ما يبرره، هو أن تسلك الأحلام في هذا المجال مسلك الأعراض العصابية. فلست أجد مفراً حين أعالج عصابياً . ولنقل هستيرياً . بوساطة التحليل النفسي من أن أصل إلى تعليل لأول أعراض مرضه، تلك التي اختفت منذ زمن بعيد، كما أعلل أعراضه الحاضرة التي ساقته إليّ، وإني لأجد حينئذ أن المشكلة الأقدم عهداً أيسر على الحل من المباشرة. ولقد وسعني حتى في كتاب «دراسات عن الهستيريا»[530] المنشور عام 1895 أن أسوق تعليلاً لأول نوبة هستيرية عرفتها امرأة تجاوزت سنها الأربعين حين كانت في الخامسة عشرة من عمرها[531].

وهنا أورد من غير تقيُّد برباط محكم بضع ملاحظات تعنّ لي في موضوع تفسير الأحلام، قد تعين على توجيه القارىء إذا أراد أن يتحقق من قضاياي بالعمل على تفسير أحلامه فيما بعد.

ليس لأحد أن يتوقّع رؤية تفسير أحلامه وقد أُلقيَ بين راحتيه من غير عناء. فإدراك الظواهر المبصرة بالعين الباطنة وغيرها من الإحساسات التي نقبض عنها انتباهنا عادة يتطلب أيضاً مراناً. وتلك هي الحال حتى حين لا يكون هنالك دافع نفسي يحارب هذه المدركات، ولكن المشقة أعظم على التأكيد فيما يتعلق «بالأفكار اللاإرادية». فعلى طالب هذه أن يعي كل ما تدعو إلى توقعه هذه الصفحات، وعليه . بحسب القواعد المنصوص عليها هنا . أن يمتنع في أثناء العمل ما استطاع عن نقد كل فكرة سابقة وكل ميل عقلي أو وجداني، وعليه أن يذكر نصيحة كلود برنارد إلى المجرب في المعمل الفيزيولوجي: «إعمل كما يعمل البهيم»[532]، أي أن عليه أن يعمل في مثابرة لا تقل عن مثابرة الحيوان ويمثل انصرافه عن النتيجة. فإن اتَّبعت النصيحة هانت المشقة. ولا يتم تفسير الحلم دائماً في جلسة واحدة، إذ ليس من النادر أن يشعر المرء بأن قدرته قد غاض معينها بعد أن يكون قد تأثر عدداً من المستدعيات، ويستحيل الخروج من الحلم بشيء في هذا اليوم. وهنا يحسن المرء صنعاً إذا هو انقطع ثم استأنف العمل في يوم تالٍ، فقد يستهوي انتباهه عندئذ جزء آخر من محتوى الحلم يفتح له الطريق إلى طبقة جديدة من أفكار الحلم. ولنا أن نسمي ذلك بالتفسير «المتكسر» للحلم.

والصعوبة العظمى هي أن تحمل مبتدئاً في تفسيرالأحلام على التسليم بتلك الحقيقة، وهي: أن مهمته لا تفرغ حين يصبح في يده تفسير وافٍ للحلم، تفسير معقول، متناسق، يلقي الضوء على جميع عناصر محتوى الحلم. فإن الحلم الواحد قد يكون له أيضاً تفسير آخر، تفسير مضاعف، غاب عن المفسر. والحق أنه ليس بالشيء الهيِّن أن نتصوّر وفرة ما يعتمل في فكرنا من مستدعيات لاشعورية تجهد في الإفصاح عن نفسها، ولا أن نقدر مدى الحذق الذي يبديه عمل الحلم إذ يوفق دائماً إلى صور تعبيرية تحتمل أكثر من معنى، مثل الطرزي الذي تحكي القصة أنه يصيب سبع ذبابات بضربة واحدة. ولسوف ينزع القارىء إلى اتهامي بالمغالاة في المهارة من غير داع، ولكن التجربة كفيلة أن تعلمه خيراً.

ولست أستطيع . من ناحية أخرى . أن أؤيد الرأي الذي أعرب عنه سيلبرير للمرة الأولى: أن جميع الأحلام (أو عدداً منها أو طبقات معينة بينها) تتطلب تفسيرين يزعم المؤلف فوق ذلك أن ثمة علاقة ثابتة بينهما. فأما أحد هذين التفسيرين . وهو الذي يسميه سيلبرير التفسير التحليلي النفسي . فيقال: إنه يخلع على الحلم معنىً جنسياً طفلياً في معظم الأحيان، وأما التفسير الآخر وهو المسمى تفسيراً روحياً . فيقال: إنه يميط اللثام عن المادة التي اصطنعها عمل الحلم من أفكار أكثر جدية، عميقة المضمون في كثير من الأحايين. ولم يثبت سيلبرير رأيه هذا بإيراد طائفة من الأحلام ثم تحليلها من كلتا الوجهتين. ولست أجد مفراً من القول بأن الواقعة المزعومة ليس لها وجود. فغالبية الأحلام لا تقتضي تفسيراً مضاعفاً ثم هي . على الأخص . لا تقبل تفسيراً روحياً. فأما أن نظرية سيلبرير قد تأثرت بنازع ينزع بها إلى إخفاء الملابسات التي تحيط بتكوين الأحلام وإلى صرف الانتباه عن جذورها الغريزية، فهذا أمر واضح فيها وضوحه في نظريات أخرى متعددة تقدَّم بها أصحابها في السنوات الأخيرة. ولقد وسعني أن أتثبت من قضايا سيلبرير في طائفة من الحالات، فكان التحليل يبين عندئذ أن عمل الحلم قد واجه مشكلة القيام بتحويل طائفة من الأفكار المستمدة من حياة اليقظة، الشديدة التجريد، المتعذرة على كل تصوير مباشر، إلى حلم من الأحلام. وحاول الحلم أن يحل المشكلة بالاستيلاء على مادة فكرية أخرى تتصل بالأفكار المجردة بصلة واهية تجوز تسميتها صلة استعارية ، وتقبل التصوير . من ثم . في صعوبة أقل. والتفسير المجرد لحلم نشأ على هذا النحو يعطيك الحالم إياه من غير صعوبة ما، وأما التفسير الصحيح للمادة المستبدلة فيجب التماسه بالطرق الفنية التي نعلمها.

فأما السؤال: هل من الممكن أن نفسر كل حلم؟ فلا مفر من الإجابة عنه بالنفي. إذ يجب ألا ننسى أننا حين نفسر حلماً تعارضنا القوة النفسية التي كانت سبباً في تشويهه. فإن تمكننا اهتماماتنا العقلية وقدرتنا على ضبط النفس ومعرفتنا السيكولوجية ومرانتنا على تفسير الأحلام من السيطرة على مقاومتنا الداخلية أو ألا تمكننا . هذه إذن مسألة تناسب بين القوى. ولكن من الممكن دائماً أن يقطع المرء شوطاً ما، وشوطاً يكفي على الأقل للاقتناع بأن الحلم بناء له معناه ويكفي غالباً في حدس هذا المعنى. ومن الشائع أن نجازف بتفسير لأحد الأحلام ثم يجيء حلم تالٍ فيتيح لنا الاستيثاق من هذا التفسير ومتابعته. كما أن مجموعة بأسرها من الأحلام تتعاقب على فترة تبلغ الأسابيع بل الشهور قد تكون في كثير من الأحيان قائمة جميعها على أساس مشترك بحيث يجب تفسيرها متصلة بعضها ببعض. وإذا كان ثمة حلمان متعاقبان أمكننا في أحيان كثيرة أن نلحظ كيف يدور أحدهما حول مسألة لا تعرض إلا على هامش الثاني والعكس بالعكس، بحيث يغدو تفسير كل منهما مكملاً تفسير الآخر. هذا وقد اخترت من قبل أمثلة تبيِّن أن الأحلام المختلفة التي ترد في الليلة الواحدة يجب على وجه الإطلاق أن تعالج عند تفسيرها كما لو كانت كلاً مفرداً [ص 355].

والغالب أن يشتمل كل حلم . مهما أحكمنا تفسيره . على فقرة لا نرى مفراً من أن نتركها في الظلام لأننا نلحظ في ثنايا التفسير أن هذه نقطة اشتبكت عندها عقدة من أفكار الحلم لا حل لها، ولكنها . فوق ذلك . لم تضف شيئاً جديداً إلى محتوى الحلم. هذه هي سرة الحلم، هي الموضع الذي يسلم منه الحلم إلى المجهول. والحق أن أفكار الحلم التي نكشف عنها ونحن نفسر لا يمكن أن تكون لها نهيلة مرسومة، ولا يمكن إلا أن تتشعب في المسالك المتشابكة لعالمنا الفكري ضاربة في كل اتجاه. وإنما تبزغ رغبة الحلم في موضع من هذا النسيج يزيد سمكاً على غيره، مثل نبات الفُطْر من زغيبه.

ولكن دعنا نعود إلى الوقائع المتصلة بنسيان الأحلام؛ فقد فاتنا أن نستخلص منها نتيجة هامة. ذلك أنه إذا كانت حياتنا المستيقظة تبدي نزوعاً لا خطأ في أمره إلى نسيان الحلم الذي تكوَّن أثناء الليل . سواء أجاء نسيانه جملة عقب اليقظة أم جاء جزءاً فجزءاً على ممر النهار . وإذا كنا قد عرفنا أن العامل الرئيس على هذا النسيان هو هذه المقاومة النفسية للحلم التي عملت في الليل كذلك على محاربته ما استطاعت، فالسؤال لا شك منبعث: وكيف يتسنى على الإطلاق أن يتكوّن حلم في وجه مثل هذه المقاومة؟ دعنا نأخذ الحالة المتطرفة، تلك التي تعود فيها الحياة المستيقظة فتتخلص من الحلم جملةً كأنه لم يكن قط: إذا نحن نظرنا إلى الأمر من وجهة التوازن بين القوى، لم يكن مفر من التسليم بأن الحلم ما كان قط ليتم لو أن المقاومة كانت قوية في الليل قوَّتها في النهار. ونتيجتنا إذن هي أن المقاومة تفقد في الليل بعض قوتها وإن لم تفقدها جميعها؛ فقد رأينا نصيبها في تكوين الحلم وهي تعمل على تشويهه. ولكن لا محيد عن أن نفترض أن قوتها قد تنقص في الليل وأن هذا التراخي في المقاومة هو الذي يجعل تكوين الحلم شيئاً ممكناً. وهكذا نفهم من غير عناء كيف تبادر المقاومة وقد استردت مع اليقظة كل قوتها إلى التخلص ممَّا اضطرت إلى قبوله في حالة ضعفها. وإذا كان علم النفس الوصفي يحدثنا بأن الشرط الأول في تكوين الحلم هو أن تكون النفس في حالة النوم، ففي مقدورنا الآن أن نضيف إلى ذلك القول تعليله: إن النوم يجعل تكوين الحلم أمراً ممكناً لأنه ينقص قوة الرقابة النفسية الباطنة.

ولا شك في أن من الأمور المغرية أن ننظر إلى هذه النتيجة كما لو كانت النتيجة الوحيدة التي يمكن استخلاصها من وقائع نسيان الأحلام وأن نتخذها أساساً نمضي منه إلى نتائج أكثر بعداً حول العلاقات بين القوى في حالتَي النوم واليقظة. ومع هذا سنقف حيث نحن في الآونة الحاضرة. وسيتبين لنا . عندما ننفذ إلى مسافة أعمق بعض الشيء من سيكولوجية الأحلام . أن العوامل التي تتيح تكوين الأحلام يمكن النظر إليها من وجهة أخرى كذلك. فالمقاومة التي تحول دون صيرورة أفكار الحلم إلى الشعور قد يكون من الممكن الإفلات منها دون أن يكون قد أصابها أقل نقص في قوتها. ومن الجائز فوق ذلك أن يكون كِلا العاملين اللذين يتيحان تكوين الحلم . نقص الرقابة والإفلات منها . قد صارا ممكنين في آن واحد بفعل حالة النوم. وهنا أقطع حبل الكلام لكي ألتقطه بعد قريب [ص 589].

ولا بدَّ لنا الآن من أن نشغل بطائفة أخرى من الاعتراضات التي تواجه منهجنا في تفسير الأحلام. ذلك أن منهجنا يقوم في أن ندع جانباً كل الأفكار الغائية التي تحكم تدبرنا عادةً وفي توجيه كل انتباهنا إلى عنصر مفرد من عناصر الحلم فندوِّن كل ما يعن لنا في صدده من الأفكار اللاإرادية، ثم بعد ذلك نتناول الجزء التالي من الحلم ونعيد ذات العمل. ونحن نسلم أنفسنا لخواطرنا أياً كانت وجهة هذه الخواطر، جائلين على هذا النحو من هذا إلى ذاك. بيد أننا إذ نفعل ذلك نعتقد اعتقاد الواثق أننا سوف نصل في نهاية الدرب . دون تدخل من جانبنا . إلى أفكار الحلم التي منها نشأ الحلم. وهنا قد يعترضنا النقاد بما معناه أنه ما من عجب في أن يسلِّمنا عنصر مفرد من عناصر الحلم إلى جهة ما؛ فما من فكرة إلا أمكن أن يرتبط بها شيء من الأشياء. وإنما العجيب أن يقودك هذا التجوال التعسفي الذي يجري اتفاقاً إلى أفكار هي أفكار الحلم بالضرورة. والراجح أننا إنما نخدع أنفسنا. فنحن نتبع خيطاً من المستدعيات ابتداءً من عنصر واحد حتى يلوح لنا أن هذا الخيط قد انقطع لسبب أو لآخر. فلو أنا أخذنا بعد ذلك عنصراً ثانياً لكان من الطبيعي أن يضيق الآن مجال المستدعيات الذي كان يبدو غير محدود في بادىء الأمر. ذلك لأن خيط الأفكار السابقة لا يزال عالقاً بالذاكرة، ولهذا السبب كنا حين نحلل فكرة الحلم الثانية أكثر عرضة لأن نعثر على مستدعيات تحمل وجهاً مشتركاً بينها وبين المستدعيات الأولى. وحينئذ نهيىء إلى أنفسنا أننا قد كشفنا عن فكرة كانت حلقة وصل بين عنصرين من عناصر الحلم. وإذ كنا نمنح أنفسنا مطلق الحرية في أن نصل بين الأفكار كيف نشاء، وكنا في واقع الأمر لا نستبعد بين طرق التأدي من فكرة إلى أخرى إلا تلك التي تعمل عند التفكير السوي، فما من

صعوبة في أن نخرج في نهاية المطاف بمحصول من «الأفكار المتوسطة»، بشيء ندعوه أفكار الحلم ونزعم أنه البديل النفسي للحلم دون أن يكون ثمة أقل ضمان يضمن صحة هذا الزعم؛ فما لنا ـ فيما خلا زعمنا ـ من معرفة أخرى بهذه الأفكار. وإنما الأمر كله عسف في عسف، ولسنا نعدو أن نستغل الصدفة استغلالاً يظهر بمظهر البراعة، وكل من تكلَّف هذه المشقة التي لا طائل من ورائها مستطيع بذلك أن يخرج من أي حلم يشاء بأي تفسير يشاء.

إنه لو أن مثل هذا الاعتراض قد وجّه إلينا حقيقة لكان في مقدورنا أن نحتكم إلى الأثر الذي تحدثه تفسيراتنا وإلى الروابط المدهشة التي تنبعث حين نقفو فكرة مفردة بين هذه الفكَر وغيرها من عناصر الحلم، وأن ننظر كم هو أمر بعيد عن الاحتمال أن يكون في المستطاع الوصول إلى نتيجة تفسر الحلم كل هذا التفسير الشامل دون أن نكون تتبَّعنا روابط نفسية مقامة من قبل. وفي مقدورنا كذلك أن ندافع عن أنفسنا بالتنبيه إلى أن منهجنا في تفسير الأحلام هو هو الذي نحل بوساطته الأعراض الهستيرية حيث تجد طريقتنا ضماناً لصحتها فيما يقع من انبثاق الأعراض واختفائها، أي ـ إذا أردت تشبيهاً ـ حيث تدعم القضايا المُساقة في النصوص بالرسوم التي تصحبها. بيد أننا لا نحتاج إلى التهرب من المشكلة التي تواجهنا ـ وهي: كيف نوفَّق إلى بلوغ هدف موجود من قبل بمتابعة خيوط فكرية تسترسل استرسالاً تعسفياً، لا غاية له؟ ـ لأننا إذا كنا، والحق يقال، لا نستطيع أن نجد لهذه المشكلة حلاً إلا أننا نملك القدرة على تقويضها من أساسها.

فإنه لمن الخطأ الذي يمكن البرهان عليه أن نقول: إننا نستسلم لتيار من الأفكار لا غاية له حين نتخلى أثناء التفسير عن تدبرنا ونترك للأفكار اللاإرادية أن تنبثق. وفي وسعنا أن نبين أن كل ما نستطيعه إنما هو التخلص من أفكار غائية معلومة لنا وأننا ما أن نصنع ذلك حتى تتولى السلطة أفكار غائية غير معلومة ـ أو كما نقول بعبارة غير دقيقة: لاشعورية ـ وهذه هي التي تعين بعد ذلك مجرى الأفكار اللاإرادية. ولسنا نملك من قدرة على أن نؤثر في أنفسنا أي تأثير يكون من شأنه أن ينبعث فينا فكر مجرد من الغائية، ولا أنا أعلم حالة واحدة من حالات الخلط النفسي يكون من شأنها أن ينبعث مثل هذا الفكر[533]. ولقد تعجَّل أطباء النفس الأمور كثيراً حين عدلوا هنا عن اعتقادهم فيما للبناء النفسي من الأحكام. وإني لأعلم أن انسياب الخواطر انسياباً مجرداً من كل فكرة غائية تحكمه أمر لا وقوع له في مجال الهستيريا والپارانويا أكثر من وقوعه في تكوين الأحلام أو في حلها. ومن المحتمل أنه لا يحدث في أي من الاضطرابات النفسية الباطنة المنشأ. وإذا أخذنا بالفرض اللامع الذي أوحاه لوريه، فحتى أهذية الحالات الخلطية تملك معنى ولا تستغلق علينا إلا لما يتخللها من الثغرات. ولقد انتهيت بنفسي إلى هذا الرأي حين سنحت لي الفرصة بملاحظتها. فالأهذية من صنع رقابة لم تعد تتكلَّف إخفاء عملها، فهي بدل أن تشارك في خلق طبعة جديدة لا اعتراض عليها، تمحو كل ما ينال موافقتها محواً، دون مراعاة أي اعتبار، بحيث يصير المتبقي خالياً من كل رباط. فهذه الرقابة تتبع منهجاً يشبه من كل الوجوه المنهج الذي تصطنعه رقابة الصحف عند الحدود الروسية إذ لا تترك الصحف الأجنبية تذهب إلى أيدي القراء المراد حمايتهم إلا بعد أن تمحو بالسواد مقداراً من الفقرات.

إن لعب الخواطر لعباً حراً، مسترسلة مع أي خيط من المستدعيات اتفق ربما وجد في العمليات العضوية المخية المدمرة، وأما ما يعد كذلك في الأعصبة النفسية فمن المستطاع دائماً تعليله بأنه نتيجة لتأثير الرقابة في سلسلة من الخواطر دفعت إلى الصدارة بفعل أفكار غائية ظلت مستترة[534]. نعم، إن البعض قد ارتأى أن من العلامات التي لا تخطىء على وجود تداعٍ خال من تأثير كل فكرة غائية أن تلوح المستدعيات (أو الصور) المنبعثة وقد ترابطت فيما بينها برباط التداعي المسمَّى تداعياً سطحياً، مثل الجِناس أو الاشتراك اللفظي أو الاتفاق الزمني من غير ارتباط في المضمون أو أي تداع آخر من قبيل ما نبيحه في النكات وفي اللعب بالألفاظ. وصحيح أن هذه الخاصة موجودة في خيوط الفكر التي تذهب من عناصر الحلم إلى الأفكار المتوسطة ثم من هذه إلى أفكار الحلم بالمعنى الصحيح ـ وقد رأينا في عدد كبير من الأحلام التي حللناها أمثلة كثيرة على ذلك أثارت ولا شك عجبنا؛ فما من رابطة تركت مهما كان وهنها ولا من نكتة مهما كانت رداءتها، إذا هما أفادتا في الوصل بين فكرتين. ولكن التفسيرالصحيح لهذه الاستباحة السهلة ليس بعيداً؛ إذ كلما ربط بين عنصرين تداع ممجوج أو سطحي، فبين العنصرين أيضاً رابطة صحيحة، أعمق غوراً، تخضع لمقاومة الرقابة.

فالسبب الحقيقي لغلبة المستدعيات السطحية ليس التخلي عن الأفكار الغائية، بل ضغط الرقابة. ولا تحل المستدعيات السطحية محل العميقة إلا إذا حالت الرقابة دون المسير في طرق الربط السوية. ولنا أن نتخيل على سبيل المماثلة منطقة جبلية انقطع فيها المرور انقطاعاً شاملاً ـ على أثر فيضان مثلاً ـ فسدت الطرق الرئيسة المتسعة، ولكن المواصلات بقيت في المسالك الوعرة المنحدرة التي لا يطرقها عادة سوى الصيادين.

ولنا هنا أن نفرِّق بين حالتين ـ وإن كانتا في جوهرهما حالة واحدة: في الحالة الأولى تنصب الرقابة على محض الصلة بين فكرتين لا تلقى أي منهما اعتراضاً إذا أخذت منفصلة: وحينئذ تلج كلتا الفكرتين الشعور على التعاقب وتبقى الصلة بينهما مستترة ولكن يخطر لنا في محلها رابط سطحي، ما كنا قط لنفكر فيه لولا ذلك، يقوم في العادة على جزء آخر من المركَّب الفكري غير الذي تقوم عليه الصلة المقموعة الجوهرية. وأما الحالة الثانية فحين تكون الفكرتان في ذاتهما موضع الرقابة نتيجة لمحتواهما: حينئذ لا تظهر أي منهما في شكلها الحقيقي بل في صورة محرَّفة تحل محلها، وتختار الفكرتان المستبدلتان بحيث تكون بينهما رابطة سطحية تمثِّل الصلة الجوهرية بين الفكرتين الأصليتين. وفي كلتا هاتين الحالتين يكون ضغط الرقابة قد أدى إلى حدوث نقلة من المستدعى السوي الجدي إلى آخر سطحي غير معقول في مظهره.

وإذ كنا نعلم بأمر هذه النقلات، لم نكن نتردد ـ حين نفسر الأحلام ـ في أن نستند إلى المستدعيات السطحية استنادنا إلى سواها[535].

والتحليل النفسي للأعصبة يستخدم هاتين القضيتين أوسع الاستخدام: أن الأفكار الغائية الشعورية إذا نحيت جانباً تولَّت أفكار غائية مستترة توجيه مجرى الخواطر، وأن المستدعيات السطحية ليست إلا بدائل حلَّت بوساطة النقل محل أخرى مكبوتة، أعمق غوراً. بل الحق أن هاتين القضيتين قد صارتا ركنين أساسيين في فن التحليل النفسي. فأنا حين أسأل مريضاً أن يدع جانباً كل تدبُّر وأن يخبرني بما يطرأ بعد ذلك على خاطره أستند استناداً راسخاً إلى ذلك الفرض: أن المريض لا يستطيع أن يهجر الفكرة الغائية التي يتضمنها العلاج بما هو علاج، وأشعر أني محق حين أستنتج من ذلك أن كل ما يقوله لي لا بد أن يكون له ارتباطه بحالته المرضية مهما بدا قوله بريئاً اعتباطياً. وهناك فكرة غائية أخرى لا يفطن إليها المريض، تلك هي الفكرة المتعلقة بشخصي أنا. ولكن تقدير الأهمية التي لهاتين القضيتين تقديراً وافياً مع تعمق البحث فيهما أمر يدخل في شرح فن التحليل النفسي من حيث هو منهج علاجي. فههنا أحد المواضع الفاصلة التي نتجاوز فيها موضوع تفسير الحلم وفق ما تقرر من قبل[536].

غير أن هناك نتيجة واحدة يمكن تحصيلها من هذه الاعتراضات، وهي: أننا لسنا بحاجة إلى افتراض أن كل مستدعي يخطر أثناء عمل التفسير لا بد قد وقع من قبل خلال عمل الحلم في الليل [أنظر 313 وص 332]. صحيح، أننا حين نقوم بالتفسير نتَّبع طريقاً يعود بنا من عناصر الحلم إلى أفكار الحلم وأن عمل الحلم قد اتبع طريقاً يضرب في اتجاه مضاد، ولكن من المستبعد غاية الاستبعاد أن يكون أي من هذين الطريقين قابلاً لأن يقطع في كِلا اتجاهيه على السواء. بل أغلب الظن ـ فيما يبدو ـ هو أننا، في خلال النهار، نجس خيوطاً جديدة من الفكر وأننا في أثناء ذلك نلتقي بالأفكار المتوسطة وبأفكار الحلم، في هذا الموضع طوراً وطوراً آخر في ذاك. وفي وسعنا أن نرى كيف يتسنى بذلك أن تندس مادة النهار الجديد وسط طائفة الأفكار المفسرة، والراجح أن هذه المادة تضطر كذلك أمام ازدياد الرقابة منذ الليل إلى اتخاذ دورات جديدة أشد بعداً. ولكن عدد الأفكار الجانبية التي ننسجها على هذا النحو في خلال النهار أو نوعها أمر لا قيمة له على الإطلاق من الناحية السيكولوجية، ما دامت هذه الأفكار تقودنا دائماً إلى أفكار الحلم التي نبحث عنها.

ب
النكوص

أما وقد دفعنا الاعتراضات التي أثيرت في وجهنا أو على الأقل بيَّنا أين نجد الأسلحة التي ندافع بها عن أنفسنا، فعلينا ألا نرجىء بعد الآن البدء في مباحثنا السيكولوجية التي ظللنا نتذرع من أجلها هذا الوقت الطويل. ولنبدأ بإجمال الكشوف الرئيسة التي انتهى إليها بحثنا حتى الآن: إن الأحلام أفعال نفسية لها من المعنى مثل ما لغيرها. والقوة الدافعة إليها هي في كل حالة رغبة تسعى إلى التحقيق. وخفاؤها علينا من حيث هي رغبات راجع مع الكثير من خواصها ومظاهر فسادها إلى تأثير الرقابة التي يخضع لها الحلم في أثناء تكوينه. وهناك، عدا ضرورة الإفلات من الرقابة، عوامل أخرى تشارك في تكوينها، هذه العوامل هي: حاجة إلى تكثيف مادتها النفسية ومراعاة لإمكانية تصويرها في صور محسوسة وحرص على أن تكون لبناء الحلم واجهة معقولة مفهومة . وإن لم يتحقق ذلك دائماً. ومن كل قضية من هذه القضايا تخرج طريق مؤدية إلى مسلمات وفروض سيكولوجية جديدة. فالعلاقة المتبادلة بين الرغبة التي هي القوة الدافعة إلى الحلم وبين الشروط الأربعة التي يخضع لها تكوين الحلم، ثم علاقات هذه فيما بينها . كل أولئك يستلزم بحثاً. ومكان الحلم من سياق الحياة النفسية لا بد من تحديده.

ولقد بدأت هذا الفصل بأن سردت حلماً من الأحلام لكي أذكِّر بالمشكلات التي لا يزال علينا حلُّها. فهذا الحلم . عن الطفل المحترق . لم يكن بالحلم الذي يواجهنا تفسيره بصعوبة ما، وإن كنا لم نسق تفسيره كاملاً بالمعنى الذي نفهمه. وقد أثرت إذ ذاك هذا السؤال: لماذا حلم الحالم بهذا الحلم على الإطلاق بدل أن يستيقظ؟ وعرفنا أن أحد دوافعه إلى ذلك كان الرغبة في تصوير ابنه كأنه ما زال حياً، وسنعلم من مناقشاتنا الآتية [ص 587] أن هناك رغبة أخرى كان لها أيضاً نصيبها. وعلى ذلك يكون تحقيق الرغبة هو السبب الأول الذي من أجله حوَّلت العملية الفكرية التي وقعت خلال النوم إلى حلم.

فإذا تركنا تحقيق الرغبة لم يبق سوى سمة واحدة تميز بين هذين النوعين من الحدث النفسي، ذلك أن أفكار الحلم تمكن صياغتها على هذا النحو: أرى وهجاً آتياً من الحجرة المجاورة حيث يثوي الجسد، ربما كان أن شمعة سقطت وأن ولدي يحترق. فأما الحلم فيعيد هذه الأفكار غير محرَّفة ولكنه يصورها في موقف حاضر بالفعل، مدرك بالحس كما لو كان خبرة من خبرات اليقظة. وهذه هي أعم خواص فعل الحلم وأشدها عجباً: أن تتخذ فكرة . هي دائماً فكرة أمر مرغوب فيه . شكلاً موضوعياً في الحلم، أن تصور في صورة مشهد أو أن تعاش . فيما يهيأ إلينا.

كيف إذن نعلل هذه الخاصة المميزة لعمل الحلم أو . لكي نضع المسألة وضعاً أكثر تواضعاً . كيف نجد لها محلاً في محيط العمليات النفسية؟

إنا إذا قوينا النظر لاحظنا أن هناك خاصتين تبرزان في الصورة التي اتخذها ذلك الحلم، خاصتين تكاد كلتاهما أن تكون مستقلة عن الأخرى: الأولى أن الفكرة قد صوِّرت في صورة موقف حاضر بالفعل مع حذف «ربما»، والثانية هي أن الفكرة قد حلَّت محلها صورة مرئية وأقوال.

فأما التغيير الذي أصاب الأفكار حين وضع ما تعرب عنه من التوقع في صيغة المضارع فقد لا يبدو في هذا الحلم بالذات أمراً يلفت النظر كثيراً، وذلك راجع لما يقوم به تحقيق الرغبة في هذا الحلم من دور ثانوي حقاً بخلاف المألوف. ولكن دعنا نأخذ حلماً آخر لا تنفصل فيه رغبة الحلم من أفكار اليقظة المتابعة في النوم، وليكن حلم حقنة إرما مثلاً [ص 149]: إن فكرة الحلم التي لقيت تصويرها هنا كانت موضوعة في صيغة التمني: ليت أوتو كان هو المسؤول عن مرض إرما! ولكن الحلم يكبت التمني ويستبدل به الحاضر الصريح: إن أوتو هو المسؤول عن مرض إرما. وهذا إذن هو أول تغيير يدخله الحلم على أفكار الحلم، حتى ولو خلا الحلم بعد ذلك من التشويه. بيد أننا لن نقف طويلاً عند هذه الخاصة الأولى للأحلام. ففي وسعنا أن نفرغ من أمرها بالإشارة إلى التخييلات الشعورية، إلى أحلام اليقظة التي تعالج هي الأخرى محتواها على هذا النحو عينه. فمسيو جوايوز الذي يصوِّره دوديه [في «النابابب»] إذ كان يجول في شوارع باريس متعطلاً عن العمل بينما تعتقد بناته أن له عملاً وأنه لا بد جالس إلى مكتبه، مسيو جوايوز هذا كان . وإنه لكذلك . يحلم بالمخبآت التي ستحمل إليه حماية القوى فالوظيفة، وكان أيضاً يحلم في صيغة المضارع. وهكذا يستخدم الحلم صيغة المضارع مثلما تستخدمها أحلام اليقظة ويمثل حقها؛ فالمضارع هو الصيغة التي تصور فيها الرغبات محققة.

ولكن الأحلام تختلف من أحلام اليقظة في خاصتها الثانية، وهي أن محتواها الفكري يستحيل إلى صور حسية يضيف إليها المرء تصديقه ويعتقد أنه يعيشها. ويجب أن أضيف على الفور أن هذه الاستحالة من الفكرة إلى الصور الحسية لا تظهر في جميع الأحلام؛ فهناك أحلام تتكوَّن من أفكار ليس غير، دون أن نستطيع مع ذلك أن نأبى عليها حصولها على طبيعة الأحلام الجوهرية. وقد كان حلم «أوتو ديداسكر» المرتبط بتخييل نهاري عن محادثة مع الأستاذ ن. [ص 335] . كان حلماً من هذا القبيل؛ فهو لم يكن يتضمن من العناصر الحسية أكثر مما قد كان يتضمنه

تفكيري في محتواه أثناء النهار. وما من حلم يطول بعض الطول إلا حوى عناصر لم تنل صورة حسية كغيرها بل يقف المرء عند محض التفكير فيها أو العلم بها على نحو ما اعتدنا أن نفكر في الأشياء أو نعملها في حياة اليقظة. ثم إن من الواجب ألا ننسى أن مثل هذا التحويل من الأفكار إلى الصور الحسية لا يقع في الأحلام وحدها، بل يقع أيضاً في الهلاوس والرؤى التي قد تظهر ظهوراً أشبه بالمستقل في حالة الصحة أو من حيث هي أعراض في حالة الأعصبة النفسية. ومجمل القول هو أن العلاقة التي نحن الآن في صددها ليست بحال من الأحوال بالعلاقة المانعة. ومع هذا يبقى من الحق أن هذه السمة من سمات الأحلام إذا حضرت كانت أبرز سماتها للملاحظة، حتى أننا ربما عجزنا عن التفكير في عالم الحلم بغيرها. بيد أنَّا إذا أردنا فهمها لم يكن بد من الخوض في مناقشات تذهب بنا شوطاً بعيداً.

إن بين جميع الملاحظات التي قد نجدها عند مختلف المؤلفين في نظرية فعل الحلم ملاحظة أحب أن أبرزها متخذاً منها نقطة البدء في بحثنا. فقد أعرب فخنر العظيم (1889، الجزء الثاني، 520) خلال مناقشة موجزة في موضوع الحلم عن فكرة مؤداها أن مسرح الحلم غير مسرح الحياة الفكرية المستيقظة [أنظر ص 96]. وما هناك من فرض آخر يمكِّننا من أن نعقل الخصائص الفريدة التي للحياة الحالمة.

إن الفكرة التي تطالعنا من هذه الكلمات هي فكرة المحل النفسي. وههنا سنغضي النظر إطلاقاً عن كون الجهاز النفسي الذي يشغلنا الآن أمره هو جهاز نعرفه كذلك في صورة مستحضر تشريحي، وسنحرص على تجنب كل إغراء قد ينحو بنا إلى تحديد المحل النفسي على نحو تشريحي. فنحن باقون على أسس سيكولوجية، ولسنا نزمع سوى متابعة الفكرة الداعية إلى أن نتصوَّر الأداة التي تقوم بوظائفنا النفسية كما لو كانت تشبه مجهراً مركَّباً أو جهازاً من أجهزة التصوير الشمسي أو شيئاً من هذا القبيل. وبناءً على ذلك فالمحل النفسي يعادل نقطة في داخل هذا الجهاز تظهر عندها إلى الوجود مرحلة من المراحل التمهيدية في تكوين الصورة. ونعلم أن هذه النقاط ـ في المجهر والمقراب ـ هي إلى حد نقاط مثالية، مناطق لا يتحيَّز فيها أي جزء من الأجزاء المقومة للجهاز. ولست أرى داعياً إلى الاعتذار عما يتضمنه هذا التشبيه أو أي تشبيه آخر يماثله من مواطن القصور. فما المراد بأمثال هذه التشبيهات إلا أن تعيننا فيما نحاوله من تفهُّم تعقدات الوظيفة النفسية بتقسيم الوظيفة النفسية وبإسناد مقوماتها المختلفة إلى أجزاء مختلفة من الجهاز. وما من أحد حتى الآن ـ فيما أعلم ـ قد حاول هذه المحاولة في تخمين مجمل تركيب العدة النفسية متبعاً مثل هذا التقسيم. ولست أرى في المحاولة ضرراً. فمن حقنا ـ فيما أعتقد ـ أن نطلق العنان لفروضنا، ما دمنا نحتفظ بهدوء حكمنا ولا نخلط بين الصقالة والبناء. وإذ كان كل ما نحتاج إليه لكي نقترب للمرة الأولى من شيء نجهله هو التزود ببضعة فروض موقوتة، فإني سأوثر في أول الأمر أغلظ الفروض وأشدها ظهوراً للعيان.

وعلى ذلك سنتصور الجهاز النفسي كما لو كان آلة مركبة نسمي مقوماتها المختلفة «جهات اختصاص»[537] أو ـ زيادة في الإيضاح ـ «أنظمة». ولنا بعد ذلك أن نتوقع وجود علاقة مكانية منتظمة بين هذه الأنظمة، مثلما ترتب أنظمة العدسات المختلفة في المقراب واحدة خلف الأخرى. وإذا أردنا التحديد، فالحقيقة هي أننا لا نحتاج إلى أن نفترض بين الأنظمة النفسية ترتيباً مكانياً قائماً بالفعل، بل يكفينا أن يكون الترتيب الثابت قائماً على كون التهييج في عملية نفسية ما ينتقل خلال الأنظمة المختلفة بحسب تعاقب زمني ثابت، وقد يختلف نمط التعاقب في عمليات نفسية أخرى ـ هذه إمكانية نريد أن نترك بابها مفتوحاً. هذا، وسنطلق من الآن فصاعداً اسم «الأنظمة ن. » [أي: النفسية] على مقومات الجهاز؛ طلباً للاختصار.

إن أول ما يجذب انتباهنا هو أن هذا الجهاز المكوَّن من الأنظمة ن. حاصل على اتجاه. فكل نشاطنا النفسي يبدأ من المنبهات (داخلية كانت أم خارجية) وينتهي إلى التعصيبات[538]. وعلى ذلك ننسب إلى الجهاز طرفاً حسياً وآخر حركياً: عند الطرف الحسي يوجد نظام هو الذي يستقبل الإدراكات، وعند الطرف الحركي نظام آخر هو الذي يفتح الباب أمام النشاط الحركي. وتسير العمليات النفسية بوجه عام من الطرف الإدراكي إلى الطرف الحركي. وعلى ذلك يمكننا أن نضع أعم صورة تخطيطية للجهاز النفسي على هذا النحو (الشكل الأول):

غير أن ذلك لا يعدو أن يحقق مطلباً ألفناه منذ زمن طويل، وهو: أن الجهاز النفسي يجب أن يركَّب على غرار جهاز انعكاسي. فالفعل المنعكس يظل النموذج لكل نشاط نفسي.

بعدئذ نجد أن لدينا سبباً يدعونا إلى أن نُدخل عند الطرف الحسي تفرقة أولى. فالإدراكات التي تطبع جهازنا النفسي تترك فيه أثراً نستطيع أن نسميه «أثراً ذكروياً»، وأما الوظيفة المتعلقة به فنسميها «ذاكرة». فإذا كنا صادقي الرغبة فيما اعتزمناه من إسناد العمليات النفسية إلى أنظمة، فالآثار الذكروية لا يمكن أن تقوم إلا فيما يعتري عناصر الأنظمة من تغييرات دائمة. ولكن هناك صعوبات واضحة تنشأ ـ كما قد نبه إليه البعض في مكان آخر[539] ـ إذا فرضنا أن ذات النظام يستطيع أن يحفظ تغييرات عناصره حفظاً أميناً مع بقائه رغم ذلك مستعداً لاستقبال مناسبات التغيير المستجدة [أي أن يقوم بوظيفَتي الذاكرة والإدراك معاً]. وعلى ذلك سنعزو هاتين الوظيفتين إلى نظامين مختلفين ـ وفقاً للمبدأ الذي يقود محاولتنا. سنفترض أن في صدر الجهاز نظاماً يستقبل المنبهات الإدراكية ولكنه لا يحفظ أي أثر منها، وهو بذلك خلو من الذاكرة، بينما يقوم وراءه نظام ثانٍ

يحوِّل تهييجات النظام الأول الآتية إلى آثار باقية. وبذلك تتخذ الصورة التخطيطية لجهازنا النفسي الشكل الآتي (شكل 2):

رسم

ح آذً آذً آذ إد

ومن المعلوم أننا نحفظ من المدركات التي تطبع النظام إد. ما يزيد على مجرد محتواها. فإدراكاتنا يرتبط كذلك بعضها ببعض في ذاكرتنا . ارتباطاً يتم أولاً وقبل كل شيء بحسب تزامنها في الوقوع. وهذا هو ما نسميه ظاهرة «التداعي». وواضح إذن أن النظام إد. [الإدراكي] . وهو المجرد من كل ذاكرة . عاجز كذلك عن أن يحتفظ بأي آثار استدعائية؛ ولو قد كان للأثر المتبقي من ارتباط سابق أن يؤثِّر في المدرك المستجد أي تأثير، لعيقت العناصر المتفرقة إد. عن أداء وظيفتها عوقاً لا يحتمل. ولا بد لنا إذن من أن نفترض أن أساس التداعي يكمن في الأنظمة الذكروية. وتقوم ظاهرة التداعي تبعاً لذلك في أن التهييج ينتقل من عنصر آذ.[540] بعينه إلى عنصر آذ. آخر بأسرع مما ينتقل إلى غيره نتيجة لوهن المقاومات وتعبيد طرق الربط بينهما.

فإذا أمعنَّا النظر رأينا أن من الضروري ألا نفترض وجود عنصر واحد من أمثال هذه العناصر آذ. بل كثرة متعددة منها، يترك فيها التهييج الواحد المنقول إليها بوساطة العناصر إد. أنواعاً متنوعة من التسجيلات الثابتة. ويحتوي أول هذه الأنظمة آذ. بالطبع على تسجيل التداعي من حيث الاتفاق الزمني، بينما ترتَّب ذات المادة المدركة في الأنظمة التالية على حسب سائر أنواع الاتفاق، بحيث يسجل أحد هذه الأنظمة التالية علاقات التشابه مثلاً، وهكذا في سائر الأنظمة. ومن مضيعة الوقت أن نحاول الإعراب عن الأهمية السيكولوجية التي لمثل هذا النظام. بيد أن طابعه المتميز سوف يقوم في الدقائق الباطنة لما يكون بينه وبين عناصر المادة الذكروية الخام من العلاقات، أي . إذا أردنا الإشارة إلى نظرية أعمق غوراً . في مدى ما يصادفه فيه التهييج القادم من هذه العناصر من درجات المقاومة المتحكمة في التوصيل.

وههنا أسرد ملاحظة ذات طابع عام، قد تكون لها متضمناتها البعيدة: إن النظام إد. . وهو المجرد من كل قدرة على حفظ التغييرات ومن كل ذاكرة تبعاً لذلك . هو الذي يمد شعورنا بكل كثرة الكيفيات الحسية وتنوعها. وأما ذكرياتنا فهي . على العكس . لاشعورية في ذاتها، لا تستثني من ذلك أعمقها انطباعاً فينا. ومن الممكن جعلها شعورية، ولكن الذي لا شك فيه هو أنها تظل قادرة على أن تحدث كل آثارها وهي في وضعها اللاشعوري. فما نسميه الطبع إنما ينبني على الآثار الذكروية لانطباعاتنا، بل إن الانطباعات التي كان لها أكبر الأثر في نفوسنا . تلك التي تلقيناها في أول عهدنا . هي على التحديد تلك التي لا تصبح شعورية أبداً. ولكن الذكريات إذا رجعت إلى الشعور من جديد لم تبدِ أي كيفية حسية . اللهم إلا أن يكون ذلك بمقدار طفيف جداً بالقياس إلى الإدراكات. فلو تأيد الآن أن الذاكرة والكيف المميز للشعور يمنع كلاهما الآخر في الأنظمة ن. ، لكان في ذلك ما يلقي ضوءاً يعد بالشيء الكثير مع الشروط التي تحكم تهييج العصبات[541].

إن الفروض التي قدمناها حتى الآن فيما يتعلق بتركيب الجهاز النفسي قد أُطلقت من غير التفات إلى الحلم وإلى التوضيحات السيكولوجية التي أمكننا أن نخرج بها منه. بيد أن شهادة الحلم ستكون مع ذلك مصدراً يعيننا على فهم قسم آخر من الجهاز. فقد رأينا [في صفحة 188 وما بعدها] أننا لا نستطيع أن نلقي الضوء على تكوين الحلم إلا إذا جازفنا فافترضنا أن هناك جهتي اختصاص نفسيتين تُخضع إحداهما الأخرى لنقد يستتبع إقصاءها عن الشعور.

وقد كانت النتيجة التي انتهينا إليها هي أن الجهة المختصة بالنقد أوثق صلة بالشعور من الجهة المنتقدة، فهي تقف كحجاب بين الأخيرة والشعور. ثم بعد ذلك وجدنا أسباباً تدعونا إلى القول بأن الجهة الناقدة لا تختلف من تلك التي توجِّه حياتنا المستيقظة وتقرر أفعالنا الإرادية الشعورية [ص 513]. فإذا بدلنا الآن بجهات الاختصاص هذه أنظمة . على حسب فروضنا . لم يكن مفر بعد النتيجة المتقدمة من أن نضع النظام الناقد عند الطرف الحركي للجهاز. وعلى ذلك سندخل كلا النظامين في تخطيطنا بعد أن نخلع عليهما أسماء تعرب عن علاقتهما بالشعور (شكل 3):

رسم

إننا نسمّي آخر الأنظمة من ناحية الطرف الحركي «ما قبل الشعور» [قبش.] للدلالة على أن العمليات التهييجية التي تقع فيه تستطيع أن تلج الشعور دون عائق ما دامت تتوافر شروط أخرى معينة: كأن تبلغ هذه العمليات درجة معينة من الشدة، وأن تكون الوظيفة التي لا نستطيع تسميتها بغير كلمة «الانتباه» موزعة على نحوٍ خاص [أنظر ص 608] إلى آخره. وهذا النظام هو الذي يملك في الوقت عينه مقاليد الحركة. وأما النظام الذي يقع خلفه فنسميه «اللاشعور» [لاش.] ؛ لأنه لا يستطيع النفاذ إلى الشعور إلا إذا مرَّ من طريق ما قبل الشعور مروراً تضطر في أثنائه عملياته التهييجية إلى الوقوع تحت وطأة تعديلات معينة[542].

ففي أي نظام من هذه الأنظمة نضع الآن الحافز إلى تكوين الحلم؟ لنضعه ـ تجنباً للتعقيد ـ في النظام لاش. صحيح أننا سنعلم في خلال مناقشاتنا القادمة أن هذا الوضع ليس دقيقاً غاية الدقة وأن عملية تكوين الحلم لا تستطيع أن تفلت من الارتباط بأفكار الحلم التي ترجع إلى نظام ما قبل الشعور [ص 580]، ولكننا سنعلم كذلك فيما بعد ـ حين نجيء إلى الحديث عن رغبة الحلم ـ أن القوة الدافعة إلى تكوين الأحلام مستمدة من اللاشعور [ص 578]. ولأجل هذا العامل الأخير سنفترض أن النظام لاش. هو نقطة البدء في تكوين الحلم. وسيسعى هذا الحافز على الحلم ـ مثل جميع الأبنية الفكرية الأخرى ـ إلى التقدم صوب ما قبل الشعور، ومنه إلى الظفر بمنفذ إلى الشعور.

وترينا التجربة أن هذا الطريق الذي يؤدي من خلال ما قبل الشعور إلى الشعور يظل في خلال النهار موصداً دون أفكار الحلم، توصده الرقابة التي تمليها المقاومة. وفي أثناء الليل تتمكن هذه الأفكار من بلوغ الشعور، ولكن يظهر عندئذ هذا السؤال: كيف تفعل ذلك وبفضل أي تعديل؟ فلو أن الذي يمكّن أفكار الحلم من تحقيق هذا الغرض هو كون المقاومة التي تفصل الحدود بين اللاشعور وما قبل الشعور تنخفض أثناء الليل، لأتتنا أحلام لا تختلف طبيعتها من طبيعة أفكارنا، أحلام تخلو من الطابع الهلوسي الذي هو موضع اهتمامنا الآن.

وهكذا لا يفسِّر انخفاض الرقابة بين النظامين قبش. ولاش. سوى الأحلام المكوّنة على غرار حلم «أوتو ديداسكر»، ولكنه لا يفسر أحلاماً كحلم الطفل المحترق الذي اتخذناه نقطة بدء في مطلع مباحثنا.

إن الطريقة الوحيدة التي نستطيع أن نصف بها ما يقع في الأحلام الهلوسية هي أن نقول: إن التهييج يتحرك في اتجاه خلفي. فهو بدل أن ينتقل صوب الطرف الحركي للجهاز يتحرك جهة الطرف الحسي وأخيراً يبلغ النظام الإدراكي. فإذا أطلقنا على الاتجاه الذي تسير فيه عملياتنا النفسية المنبعثة من اللاشعور في حياة اليقظة اسم الاتجاه التقدمي ، جاز أن نقول عن الأحلام؛ إنها ذات طابع نكوصي[543].

هذا النكوص من غير شك أحد الخصائص السيكولوجية لعملية الحلم، ولكن يجب ألا ننسى أنه لا يقع في الأحلام وحدها. فالتذكُّر المتعمد وغيره من العمليات المقوِّمة لتفكيرنا السوي يتضمن حركة نكوصية في الجهاز النفسي من فعل فكري مركَّب إلى ما يكمن وراءه من المادة الخام للآثار الذكروية. إلا أن هذه الحركة القهقرية لا تمتد أبداً إلى ما وراء الصور الذكروية، إنها لا تفلح في بعث الصور الإدراكية بعثاً هلوسياً. فلماذا يختلف الأمر في الحلم؟ لقد اضطررنا ونحن نبحث عمل الحلم إلى أن نفترض أن درجات الشدة المتصلة بالأفكار تنقل نقلاً تاماً من فكرة إلى أخرى بوساطة عمل الحلم [ص 363]. والراجح أن هذا التغيير الذي يدخل على النهج السوي للنشاط النفسي هو الذي يتيح استثمار[544] النظام إد. في الاتجاه المعكوس، ابتداءً من الأفكار إلى أكمل الوضوح الحسي.

إنني أرجو أن نكون بعيدين عن التغرير بأنفسنا بالمبالغة في تقدير أهمية هذه المناقشات؛ فما جاوزنا أن نخلع اسماً على الظاهرة المستغلقة. فنحن نسمي نكوصاً ما يقع في الحلم حين تتحول الفكرة من جديد إلى الصورة الحسية التي منها كان منشؤها. ولكن حتى هذه الخطوة تقتضي تبريراً: فعلام التسمية إذا كانت لا تعلمنا جديداً؟ إني أعتقد أن اسم «النكوص» يفيدنا بمقدار ما يفيد في ربط ظاهرة نعلمها من قبل بصورتنا التخطيطية التي جعلنا فيها للجهاز النفسي اتجاهاً. ولكن ههنا تعود علينا مثل هذه الصورة ـ للمرة الأولى ـ بما يعوضنا عن عناء رسمها؛ لأن هناك خاصة أخرى من خصائص تكوين الحلم سوف تنجلي لنا بمجرد الرجوع إلى هذه الصورة دون مزيد من التأمل. ذلك أننا إذا اعتبرنا عملية الحلم نكوصاً في داخل جهازنا النفسي المفترض، رأينا على الفور العلة في هذه الواقعة المثبتة بالاستقراء، وأعني بها: أن جميع العلاقات الفكرية القائمة بين أفكار الحلم تضيع أثناء عمل الحلم أو لا تجد العبارة عنها إلا بعد لأو فإن هذه العلاقات الفكرية ليست محتواة ـ بحسب صورتنا التخطيطية ـ في الأنظمة آذ. الأولى بل في الواقعة بعدها، ولا بد لها عند حدوث النكوص من أن تفقد كل وسيلة للتعبير عنها باستثناء الصور الإدراكية: في حالة النكوص ينحل بناء أفكار الحلم إلى مادته الخام.

ولكن ما هو هذا التغيير الذي يتيح نكوصاً لا يتسنّى وقوعه في أثناء النهار؟ إن علينا أن نقنع في هذا الباب ببعض الظنون. صحيح أن المسألة يقيناً لا بد مسألة تغييرات في استثمار الطاقة المنصرفة إلى الأنظمة المختلفة، تغييرات يكون من جرّائها أن تصير هذه الأنظمة أكثر أو أقل

قبولاً لمرور العمليات التهييجية فيها. ولكن من الممكن في كل جهاز من هذا القبيل أن تنجم ذات النتائج المتصلة بالطريق الذي يسلكه التهييج عن أكثر من نحو من أنحاء مثل هذه التغييرات. وهنا تتجه أفكارنا بالطبع أول ما تتجه إلى حالة النوم وإلى ما تجلبه هذه الحالة من تغييرات في الاستثمار عند الطرف الحسي للجهاز: ففي أثناء النهار يوجد تيار متصل يذهب من النظام إد. متجهاً إلى الحركة، ولكن هذا التيار ينقطع في أثناء الليل ولا يعود قادراً على عوق التيار الذاهب في الاتجاه المعاكس، وهذا هو ـ فيما يبدو ـ «الانعزال عن العالم الخارجي» الذي رأى فيه بعض المؤلفين التعليل النظري الواجب للخواص السيكولوجية للأحلام. غير أن من الواجب، ونحن نعلِّل النكوص في الأحلام، أن نذكر كذلك ما يقع من النكوص في الحالات المرضية المستيقظة. وهنا يتركنا التعليل الذي قدَّمناه حيارى؛ لأن النكوص يقع في هذه الحالات على رغم التيار الحسي الضارب في الاتجاه التقدمي من غير انقطاع.

إن التعليل الذي أسوقه لما يقع من الهلاوس في الهستيريا والپارانويا، ومن الرؤى عند السويين نفسياً، هو أن هذه في الحقيقة نكوصات، أي أفكار تحوَّلت إلى صور، سوى أن الأفكار التي يصيبها مثل هذا التحويل إنما هي تلك المرتبطة وثيق ارتباط بذكريات كُبتت أو بقيت لاشعورية. مثال ذلك مريض بين أصغر مرضاي الهستيريين، صبي في الثانية عشرة من عمره، تؤرق نومه «وجوه خضر ذوات عيون حمر» كانت تثير الروع في نفسه. إن منبع هذه الظاهرة كان ذكرى مكبوتة ـ ولكنها كانت شعورية في وقت من الأوقات ـ عن ولد كان مريضي يراه كثيراً منذ أربع سنوات خلت، ورأى فيه صورة تنذر بنتائج العادات السيئة عند الأطفال، ومن بين هذه الاستمناء ـ وهو عادة صار مريضي الآن يؤنب نفسه عليها من بعد. وكانت أم المريض قد لاحظت أن للولد السيء المسلك وجهاً أخضر وعينين حمراوين (أي تكتنفهما هالة حمراء) ومن هنا كان الشبح المروع ـ وهو شبح لم يكن الغرض منه سوى تذكير الطفل بنبوءة أخرى من نبوءات أمه: أن أمثال هؤلاء الأولاد يؤولون إلى البله ولا يتعلمون شيئاً من المدرسة ثم يموتون صغاراً. ولقد حقق مريضنا الصغير جزءاً من هذه النبوءة، فلم يكن يبدي تقدماً في المدرسة، وظلَّ في خشية من أن يتحقق الجزء الباقي ـ على ما تبيَّن من خواطره اللاإرادية. وأضيف أن علاجه قد أدى بعد زمن قصير إلى تمكينه من النوم واختفاء قلقه العصبي وفوزه بجائزة على تفوُّقه في ختام العام الدراسي.

وأستطيع أن أورد في هذا الصدد الحل الذي اتضح لرؤيا قصتها عليّ مريضة هستيرية في الأربعين قائلة: إن هذه الرؤيا ترجع إلى أيام ما قبل مرضها. ذلك أنها فتحت عينيها ذات صباح فرأت أخاها في الغرفة مع أنه في الحقيقة كان يقيم في المارستان ـ على ما تعلم. وكان ابنها الصغير راقداً إلى جوارها في السرير. فلكي تجنب الولد الارتياع والتشنج عند مرأى خاله ، سحبت الملاءة على وجهه، وعندئذ اختفى الشبح. إن هذه الرؤيا كانت نسخة محرَّفة لإحدى ذكريات السيدة عن طفولتها، وكانت هذه الذكرى على التأكيد شعورية، بيد أنها كانت وثيقة الارتباط بكل المادة اللاشعورية. فقد أخبرتها مرضعتها يوماً أن أمها التي ماتت وهي صغيرة جداً، لم تبلغ من العمر اثني عشر شهراً، قد عانت تشنجات صرعية أو هستيرية كانت ترجع إلى الارتياع الذي أثاره في نفسها أخوها (خال مريضتي) حين ظهر لها متقنعاً في هيئة شبح بملاءة فوق رأسه. وهكذا نرى أن الرؤيا قد احتوت ذات العناصر المحتواة في الذكرى: ظهور الأخ، الملاءة، الارتياع وعواقبه. غير أن العناصر قد رتِّبت في سياق مختلف وحوِّلت إلى أشخاص آخرين. وقد كان الدافع الواضح للرؤيا ـ أو للأفكار التي حلَّت هذه الرؤيا محلها ـ هو خشيتها من أن يسير الولد في أعقاب خاله؛ فقد كان الشبه الجسمي بينهما كبيراً.

إن كلا المثالين اللذين أوردتهما لا يخلو كل الخلو من بعض الصلة بحالة النوم، وهما لهذا السبب قد لا يكونان صالحين كل الصلاحية لما أردت إثباته بهما. ولهذا أُحيل القارىء إلى تحليل امرأة كانت تعاني پارانويا هلوسية[545] وكذلك إلى المكتشفات التي أودعتها دراسات لم تُنشر بعد في سيكولوجية الأعصبة النفسية لكي يجد فيها الشاهد على أننا في مثل هذه الأمثلة على التحول النكوصي للأفكار لا ينبغي أن نغض الطرف عن الذكرى الطفلية في معظم الأحيان والتي أصابها القمع أو بقيت لاشعورية. فهذه الذكرى ـ إن جاز التعبير ـ تجذب معها إلى النكوص الأفكار المرتبطة بها والتي تحول الرقابة دون الإعراب عنها، باعتبار أن النكوص هو هذه الصورة من صور التمثيل التي يتحقق فيها الحضور النفسي لهذه الذكرى ذاتها. ويحق لي ههنا أن أذكِّر بأن إحدى النتائج التي كشفت عنها ال. «دراسات في الهستيريا» [بروير وفرويد، 1895] كانت: أن المشاهد الطفلية (ذكريات كانت أو تخييلات) إذا أمكن استحضارها إلى الشعور ظهرت في صورة هلاوس، ولم تفقد هذا الطابع إلا عند الرواية. كما أن من الأمور المعلومة أن أقدم ذكريات الطفولة تبقى محتفظة بوضوحها الحسي إلى سن متقدمة في العمر، حتى عند أولئك الأشخاص الذين لا يمتازون عادة بذاكرة بصرية.

فإذا تذكرنا الآن أي نصيب في أفكار الحلم تقوم به خبرات الطفولة أو التخييلات المقامة عليها، كيف يكثر أن تنبعث في الحلم من جديد أجزاء من هذه الخبرات وكيف يكثر أن تكون رغبات الحلم ذاتها مستمدة منها، إذا تذكرنا هذا كله لم نستطع أن نستبعد رجوح الاحتمال الآتي بالنسبة إلى الأحلام كذلك: أن تحول الأفكار إلى صور بصرية ربما كان راجعاً إلى الجذب الذي تزاوله الذكريات المتمثلة تمثلاً بصرياً والظامئة إلى الانبعاث بإزاء الأفكار المنقطعة عن الشعور والجاهدة من أجل الإفصاح عن نفسها. وإذا كان الأمر كذلك أمكن أن نصف الحلم بقولنا: إنه بديل من مشهد طفلي عدِّل بتحويله إلى خبرة حديثة. فالمشهد الطفلي عاجز عن أن يبعث نفسه بنفسه؛ فلا بد له من أن يقنع بالعودة في هيئة حلم.

إن بيان ما للمشاهد الطفلية (أو لاستعاداتها في صورة تخييلات) من قيمة النماذج يحتذيها محتوى الحلم . يغني عن الحاجة إلى أحد الفروض التي تقدم بها شرنر وتابعوه فيما يتعلق بالمصادر الباطنية للتنبيه. ذلك أن شرنر يفترض أن الأحلام إذا طالعتنا بعناصر بصرية ممتازة في شدتها الحسية أو في ثرائها كان ذلك دليلاً على وجود حالة من «التنبيه البصري»، أي من التنبيه الباطني لعضو الإبصار. وليس هناك ما يدعونا إلى منازعة هذا الفرض، ولكن يكفينا نحن أن نفترض أن هذه الحالة التهييجية لا تتناول سوى النظام الإدراكي النفسي لعضو الإبصار، مع توكيدنا أن الذي أثار هذه الحالة التهييجية هو إحدى الذكريات، أي أن هذه الحالة بعث جديد لتهييج كان في يوم من الأيام حاضراً مباشراً. ولست أستطيع أن أستقي من خبرتي الشخصية مثالاً قوياً على ذكرى طفلية كان لها مثل التأثير، فأحلامي تقل في العادة، من حيث ثرائها بالعناصر الحسية، عمَّا أراني مسوقاً إلى افتراضه عند الآخرين. غير أنني استطعت في حلم كان أوضح ما عرفت في السنوات الأخيرة وأجمله أن أتأثر الوضوح الهلوسي لمحتوى الحلم إلى الكيفيات الحسية التي خلَّفتها انطباعات حديثة لم تسبق الحلم بزمن طويل. فقد ذكرت في صفحة 461 حلماً تركت فيه زرقة الماء الداكنة مع لون الدخان الأسمر المتصاعد من مداخن السفينة ثم البني الداكن والأحمر في الأبنية المترائية لعينَي أثراً عميقاً في نفسي. فإن يكن من حلم ينبغي تتبعه إلى منبه بصري، فهو هذا الحلم. فما الذي أوجد عضو الإبصار عندي في هذه الحالة من التنبيه؟ إنه انطباع حديث ارتبط بعدد من انطباعات أخرى سابقة. فالألوان التي رأيتها كانت أولاً لمكعبات مما يلعب به الأطفال، شيَّد منها أولادي . في اليوم السابق على الحلم . بناءً فخماً ليُروا عيني المعجبة إياه: كان للقوالب الكبيرة ذات اللون الأحمر الداكن وللصغيرة ذات الأزرق والبني. وارتبط كل أولئك بانطباعات لونية خلفتها رحلاتي الأخيرة إلى إيطاليا: الأزرق الجميل الممتد على الإيسونتسو والبحيرات ولون هضبة الكارسو البني. ولم يكن جمال الألوان في الحلم إلا تكراراً لما رأيته في ذاكرتي.

فلنجمل الآن ما عرفناه عن هذه الخاصة من خواص الحلم، وأعني بها نزوعه إلى أن يصب محتواه الفكري في صورة حسية: إننا لم نعلل هذه السمة من سمات عمل الحلم، لم نردّها إلى قانون سيكولوجي معلوم، بل الأصدق أننا التقطناها إذ بدا لنا أنها تومىء إلى علاقات مجهولة ثم خصصناها باسم الطابع «النكوصي». وقدَّرنا أن من الراجح غاية الرجحان أن هذا النكوص حيثما وقع كان نتيجة لمقاومة تحول دون تقدم الفكرة إلى الشعور وفق الطريق السوي ونتيجة لجذب تمارسه إزاءها في الوقت نفسه ذكريات حاضرة، ذات قوة حسية كبيرة[546]. وربما كان مما يسهل النكوص في حالة الحلم انقطاع التيار التقدمي الذي ينسال في أثناء النهار من أعضاء الحواس، وغياب هذا العامل المساعد في صور النكوص الأخرى لا بد تعوِّض عنه زيادة في شدة سائر دوافع النكوص. كذلك لا ننسى أن نلاحظ أن عملية تحويل الطاقة في هذه الحالات المرضية من النكوص كما في الأحلام لا بد تختلف منها في النكوصات السوية؛ إذ هي . في الحالات الأولى . تتيح استثمار الأنظمة الإدراكية استثماراً هلوسياً كاملاً. فأما ما وصفناه . ونحن نحلل عمل الحلم . تحت عنوان «اعتبار قابلية التصوير» فقد يجوز الربط بينه وبين ما تزاوله المشاهد المتذكرة تذكراً بصرياً والتي قد لمستها أفكار الحلم من الجذب الانتقائي.

هذا، ونلاحظ بعد ذلك أن للنكوص في نظرية تكوين الأعراض العصابية نصيباً لا يقل أهمية عنه في نظرية الحلم. ونحن نفرِّق بين ثلاثة أنواع من النكوص: أ) النكوص الطبوغرافي بالمعنى الذي يفهم من الصورة التخطيطية التي بيَّناها في هذه الصفحات، ب) النكوص الزمني من حيث أن الأمر يتعلق برجوع إلى أبنية سيكولوجية أقدم عهداً، ج) النكوص الشكلي ، حين تحل أساليب بدائية من التعبير والتصوير محل الأساليب المألوفة. غير أن هذه الأنواع الثلاثة من النكوص واحدة في صميمها وهي تقع مجتمعة في الغالبية الغالبة من الحالات؛ فالأقدم في الزمن هو في الوقت عينه البدائي في شكله وهو الأقرب إلى الطرف الإدراكي من حيث الطبوغرافية النفسية.

وما كنا لنستطيع أن نترك موضوع النكوص في الأحلام دون أن نعرب بكلمة عن فكرة أثارت دهشنا مراراً من قبل وسوف تعود إلينا مقوَّاة بقوة جديدة بعد أن نتغلغل في دراسة الأعصبة النفسية بعض التغلغل: أن فعل الحلم في جملته مثال على نكوص يعود فيه الحالم إلى أقدم أوضاعه، بعث جديد لطفولته، للدفعات التي كانت تسيطر على هذه الطفولة ولوسائل التعبير التي كانت إذ ذاك في متناوله. ومن وراء هذه الطفولة الفردية وعد يعدنا بنظرة إلى طفولة النوع، إلى تطوُّر الجنس البشري الذي لا يخرج تطور الفرد في الحقيقة عن أن يكون ترجيعه المختصر المتأثر بملابسات حياته العارضة. وفي وسعنا الآن أن نرى كم أصاب نيتشه في قوله: إن في الحلم «بقية من الإنسانية الأولى لما تمُت وما عدنا اليوم نملك بلوغها من طريق مباشر». ولنا أن نتوقع أن يقودنا تحليل الأحلام إلى معرفة التراث الأول للإنسان، بما هو مفطور عليه من الوجهة النفسية؛ فالأحلام والأعصبة . فيما يبدو . قد أبقت على مخلفات نفسية قديمة تفوق ما كنا نستطيع تقديره، بحيث يحق للتحليل النفسي أن يطلب لنفسه مكانة عالية بين العلوم التي تشغل بتكوين صورة عن أقدم الفترات التي مرّ بها الجنس البشري في بدايته وأكثرها غموضاً.

إن لمن المحتمل أن هذا الشطر الأول من دراستنا السيكولوجية للحلم سوف يتركنا ونحن نستشعر شيئاً من عدم الرضا. غير أننا نستطيع أن نعزي أنفسنا فنذكر أننا قد اضطررنا إلى أن نبني طريقنا في الظلام. وإذا لم نكن على خطأ مطلق، فلا شك في أننا منتهون يوماً من وجهات نظر أخرى إلى منطقة أشبه بالتي نحن فيها، وحينئذ قد لا ترانا دخلاء عليها.

ج
تحقيق الرغبة

إن حلم الطفل المحترق الذي أوردناه في مطلع هذا الفصل يهيىء لنا فرصة نرحب بها لبحث الصعوبات التي تواجه نظرية تحقيق الرغبة. فلا شك في أننا جميعاً قد دهشنا إذ سمعنا أن الحلم لا يخرج عن أن يكون تحقيق رغبة، ودهشنا بدهشة ليس مأتاها الأوحد ما تحمله أحلام الهيلة من نقد صريح لهذا الرأي. فنحن بعد أن كشف لنا التحليل للمرة الأولى أن وراء الحلم معنى وقيمة نفسية مخبَّأين لم نكن نتوقع بحال من الأحوال أن يحدد هذا المعنى على هذا النحو المطلق النظيم. فالحلم على حسب تعريف صادق لأرسطو . وإن كان تعريفاً لا يقول كثيراً . هو فكر المرء النائم بما هو نائم. فإذا كان فكرنا النهاري يولِّد أفعالاً نفسية تتنوَّع هذا التنوع كله: حكم واستدلال وإنكار وتوقع وقصد، إلى آخره، فلم يضطر في الليل إلى الاقتصار على أن يولد رغبات ليس غير؟ أليست هناك على العكس أحلام متعددة ترينا أفعالاً نفسية مختلفة النوع . كالقلق مثلاً . وقد صيغت في هيئة الحلم؟ وألم يكن الحلم الذي صدر به هذا الفصل . وهو حلم ندر مثله شفافية . ألم يكن هذا الحلم على التحديد من ذلك القبيل؟ فعندما سقط بريق الضوء على عيني الأب النائمتين استنتج الأب وهو في قلقه أن شمعة انقلبت وقد تكون أشعلت الجثة، ثم كان أن أحال الرجل هذه النتيجة إلى حلم بأن ألبسها ثوب الموقف الحسي وصيغة المضارع. فما دور تحقيق الرغبة ههنا؟ ثم أليس من المحال ألا نرى في هذا الحلم غلبة الفكرة المتابعة من اليقظة أو المنبهة بفعل انطباع حسي جديد؟

كل هذا صحيح. وإنه ليحملنا على أن نتعمّق نصيب تحقيق الرغبة في الحلم ومدى الأهمية التي لأفكار اليقظة المتابعة في أثناء النوم.

لقد حدانا تحقيق الرغبة هذا من قبل إلى أن نقسم الأحلام قسمين: فقد رأينا أحلاماً يظهر منها صراحة أنها تحقق رغبات، ورأينا أخرى يخفى فيها تحقيق الرغبة ويقنع بكل الوسائل الممكنة في كثير من الأحيان. وفي هذه الطبقة الأخيرة عرفنا فعل رقابة الحلم. وأما أحلام الرغبة غير المشوهة فقد رأيناها عند الأطفال في المحل الأول، وإن كنا قد رأينا كذلك أحلاماً قصيرة بدا . وأقول: بدا . أنها تقع عند الراشدين.

وههنا كان يسعنا أن نسأل: من أين تنشأ هذه الرغبات التي تصير في الحلم حقائق؟ ولكننا نسأل أولاً: في أي تضاد أو في أي كثرة من الحدود نفكر حين نقول: «من أين» هذه؟ نفكر . على ما أظن . في التضاد القائم بين حياة النهار المدركة إدراكاً شعورياً ونشاط نفسي بقيَ لاشعورياً ولا نستطيع أن نعلم به إلا ليلاً. وإني أرى أن مأتى الرغبة أحد ثلاث:

1) فلعلها أُثيرت في النهار ولم تلق إشباعاً لعلل خارجية، وفي هذه الحالة يكون النهار قد خلَّف ليل رغبة معترفاً بها غير مفروغ منها، 2) ولعلها أثيرت في النهار ولكنها نبذت، والمتخلف في هذه الحالة رغبة غير مفروغ منها ولكنها مقموعة. 3) ولقد تكون منقطعة الصلة بحياة النهار، منتمية إلى تلك الرغبات التي لا تختلج في نفوسنا إلا ليلاً، منبعثة من الجزء المقموع. فإذا عدنا إلى صورتنا التخطيطية للجهاز النفسي، وضعنا رغبات النوع الأول في النظام قبش. ، وأما تلك التي من النوع الثاني فنقدِّر أنها قد ردت من النظام قبش. إلى لاش. ، حيث تبقى . إذا بقيت .، وأما الاندفاعات الراغبة التي من النوع الثالث فنعتقد أنها عاجزة كل العجز عن أن تتخطى النظام لاش. وسؤالنا الآن هو: هل تملك الرغبة المنبعثة من هذه المصادر المختلفة قيمة متساوية بالنسبة إلى الحلم، قدرة متساوية على إثارته؟

إن نظرة طارئة على الأحلام التي نراها في متناولنا ونحن نبتغي الإجابة عن هذا السؤال تذكرنا . أولاً . بأن علينا أن نضيف مصدراً رابعاً لرغبات الحلم، والذي أعنيه هو هذه الدفعات الراغبة التي تنشأ في خلال الليل. (كتلك التي ينبِّهها العطش أو الحاجة الجنسية). وسيكون من رأينا . بعد ذلك . أن منشأ رغبة الحلم لا يغيِّر في الراجح شيئاً من قدرتها على استثارة الحلم. فنحن نذكر الحلم الذي جاء الفتاة الصغيرة ليطيل رحلة على البحيرة قُطعت في خلال النهار ونذكر سائر أحلام الأطفال المذكورة معه [في ص 171 وما بعدها]: كل هذه أحلام تفسَّر برغبات من اليوم السابق لم تتحقق ولكنها لم تقمع. فأما الرغبات التي تُقمع نهاراً ثم تشق طريقها إلى الحلم ليلاً، فالأمثلة عليها ليس أكثر منها. وألحق بها مثالاً بلغ الغاية في خلوه من التعقيد: سيدة نزاعة بعض الشيء إلى التهكم بالناس، تزوجت صديقتها التي تصغرها وظلت هي طيلة النهار تجيب عن سؤال المعارف إياها هل تعرف الخطيب وما رأيها فيه، مقتصرة في إجاباتها على ثناء أخرست به رأيها؛ فقد كانت تود لو قالت الحقيقة: إنه ممن تقابل أمثالهم بالعشرات. وفي الليل حلمت السيدة حلماً رأت فيه أنها تُسأل هذا السؤال عينه وأنها تجيب عنه بالصيغة المعروفة: عند الطلبات التالية يكفي ذكر الرقم. وأخيراً، فقد علمنا من تحليلات متعددة أن جميع الأحلام التي يصيبها التشويه هي أحلام تنشأ فيها الرغبة من اللاشعور وكان محالاً إدراكها بالنهار. وهكذا يبدو أن لكل الرغبات قيمة متساوية وقوة متساوية بالنسبة إلى تكوين الحلم.

إنني لا أملك هنا أي برهان على أن الحقيقة مع هذا على خلاف ذلك، بيد أنني أنزع نزوعاً قوياً إلى القول بخضوع رغبة الحلم لحتمية أكثر صرامة. صحيح أن أحلام الأطفال تثبت بما لا شك بعده أن رغبة لم يفرغ منها في أثناء النهار قد تمسي الحافز إلى الحلم. ولكن لا ننسى أن هذه رغبة طفل، اندفاع راغب له القوة التي له عند الأطفال بخاصة. وأشك في أن تكون لرغبة لم تتحقق في أثناء النهار عند الراشد قوة تكفي في أن تحدث حلماً، بل يبدو لي على العكس أننا كلَّما تعلمنا كيف نسيطر على حياتنا الغريزية بوساطة نشاطنا الفكري زهدنا في أن نكوِّن لأنفسنا الرغبات المشتدة التي يعرفها الطفل، أو زهدنا في الإبقاء عليها، معتبرين إياها شيئاً لا غناء فيه. ولقد تكون ثمة فروق فردية في هذا الباب، فيستبقي البعض نمطاً طفلياً من العمليات النفسية أطول مما يستبقيه البعض الآخر . كما أن هناك فروقاً مماثلة في مدى ضعف المخيلة البصرية الشديدة الوضوح في الأصل. ولكني أعتقد بوجه عام أن رغبة تركها النهار عند الراشد دون أن تتحقق لا تكفي أن تحدث حلماً. نعم، إني أسلم طواعية بأن اندفاعاً راغباً نشأ عن الشعور قد تكون له مشاركته في استثارة الحلم، ولكن تلك على الأرجح طاقته. وما كان الحلم ليكون لولا أن الرغبة قبل الشعورية عرفت كيف تستمد معززاً من جهة أخرى.

من اللاشعور، على التحقيق. وأنا . إذن . أتصور أن الرغبة الشعورية لا تصير حافزاً حلمياً إلا إذا نجحت في إيقاظ رغبة لاشعورية تماثلها بعض المماثلة وفي كسب تعزيزها. وهذه الرغبات اللاشعورية أراها . استناداً إلى الدلائل المستمدة من التحليل النفسي للأعصبة . دائمة التوثب، متأهبة في كل وقت لأن تشق طريقها إلى التعبير إذا هيأت لها الفرصة أن تتحالف مع اندفاع آت من الشعور وأن تحوِّل شدتها هي العظيمة إلى الشدة الضئيلة لهذا الأخير[547]. وحينئذ تبدو الأمور كأنما الرغبة الشعورية هي المتحققة وحدها في الحلم . لولا بدوة صغيرة في سيما الحلم تهدينا إلى أثر الحليف القوي الوافد من اللاشعور. غير أن هذه الرغبات الماثلة في لاشعورنا متوثبة أبداً . وإن جاز التعبير: خالدة . والتي تذكِّر المرء بطيطان الأساطير وقد رزحوا تحت الركام الضخم من الجبال التي رماهم بها الآلهة المنتصرون والتي لا تزال ترتج بين الحين والحين كلما ارتجفت أطرافهم، أقول: بيد أن هذه الرغبات الرازحة تحت وطأة الكبت هي ذاتها رغبات طفلية المنشأ كما نعلم بالبحث السيكولوجي للأعصبة. ولهذا أقترح أن نترك جانباً ما قلناه منذ هنيهة من أن منشأ رغبة الحلم شيء يستوي أمره، لنستبدل به قولاً آخر، هو: كل رغبة تصور في الحلم لا بد رغبة طفلية. وتنشأ هذه الرغبة من اللاشعور عند الراشدين، وأما عند الأطفال . حيث لا نرى بعد قسمة أو رقابة بين الشعور واللاشعور أو حيث تكون هذه القسمة آخذة في النشوء على التدريج وحسب . فهي رغبة غير محققة وغير مكبوتة، صادرة عن حياة اليقظة. وأعلم أن هذا الرأي لا يمكن إثبات صدقه صدقاً شاملاً. لكننا نستطيع أن نثبت صدقه كثيراً، بل أن نثبته حيث لم نكن نتوقعه، ثم إن من المحال نقضه نقضاً شاملاً.

وهكذا أرد الاندفاعات الراغبة المتخلفة من حياة اليقظة إلى مرتبة ثانية من حيث خطرها في تكوين الحلم. ولست أستطيع أن أسلِّم لها بنصيب آخر غير الذي أسلم به . مثلاً . لمادة الإحساسات التي تحضر وتنشط في أثناء النوم (أنظر ص 268 . 269) وسأتبع الخيط الذي ترسمه لي هذه الفكرة حين أستدير الآن إلى النظر في حوافز الحلم النفسية الأخرى التي تخلفها حياة اليقظة والتي ليست برغبات. فأقول: إننا قد نفلح حين نعتزم النوم في أن نضع حداً موقوتاً لاستثمار الطاقة المنصرفة إلى أفكارنا المستيقظة، وكل من استطاع ذلك في يسر فهو رجل يجيد النوم، ويبدو أن نابليون الأول كان المثل الأعلى لهذه الطبقة. بيد أننا لا ننجح في ذلك دائماً ولا ننجح دائماً كل النجاح. فالمشكلات غير المحلولة والمشاغل المعذبة والانطباعات الطاغية، كل هذه تمد النشاط الفكري إلى ما بعد النوم مبقية على العمليات النفسية في النظام الذي سميناه ما قبل الشعور. فإذا أردنا أن نصنِّف هذه التهييجات الفكرية المستمرة في خلال النوم، جازت قسمتها الأقسام الآتية: 1) تلك التي لم ننتهِ بها إلى نتيجة في خلال النهار لعائق عرض من العوائق، 2) تلك التي لم نفرغ منها لقصور قوتنا العقلية، أي المشكلات التي لم تحل، 3) ما نُبذ وقمع في أثناء النهار. ويجب أن نضيف إلى ما سبق: 4) فئة قوية تتكوّن من تلك التي هيَّجها في لاشعورنا نهاراً نشاط ما قبل الشعور، ثم أخيراً 5) فئة الانطباعات النهارية التي لم يكن لها وزن ولهذا بقيت بدون الفراغ منها.

ولا حاجة بنا إلى التهوين من أهمية الشدات النفسية التي تدخلها على حالة النوم هذه البقايا النهارية، وبخاصة تلك التي تندرج في طائفة المشكلات غير المحلولة. فمن المستيقن أن هذه التهييجات تداوم الكفاح من أجل الإفصاح عن نفسها في خلال الليل، ولنا أن نفترض بمثل هذا اليقين أن حالة النوم تحول دون مواصلة العمليات التهييجية إلى ما قبل الشعور كما هو الشأن عادةً، وتحول دون صيرورتها شعورية ومن ثم دون انتهائها إلى خاتمة. وحين يكون في استطاعة عملياتنا الفكرية أن تصير في أثناء الليل عمليات شعورية على النحو المألوف فهذا يعني أننا لسنا نياماً . لا أكثر ولا أقل. ولست أستطيع أن أقول أي تغيير تدخله حالة النوم على النظام قبش.[548] ولكن لا مجال للشك في أن الخصائص السيكولوجية للنوم ينبغي التماسها قبل كل شيء في التغييرات التي تصيب استثمار هذا النظام بالذات . وهو النظام المسيطر كذلك على المرور إلى القدرة الحركية المشلولة في أثناء النوم. وعلى العكس من ذلك، لا أرى سيكولوجية الحلم تمدنا بأقل سبب لكي نفرض أن النوم يحدث في الوضع السائد في النظام لاش. سوى تغيير ثانوي. ونتيجة ذلك هي أن التهييج الذي يقع ليلاً في قبش. لا يبقى أمامه أي طريق آخر سوى هذا الذي تسلكه التهييجات الراغبة المنبعثة من لاش. فهو مضطر إلى أن يلتمس التعزيز من لاش. وأن يصحب التهييجات اللاشعورية في دوراتها. ولكن ما هي العلاقة بين بقايا النهار قبل الشعورية والحلم؟ إنه لا شك في أن عدداً وفيراً من هذه البقايا يشق طريقه إلى الحلم وأنها تستغل محتوى الحلم لكي تنفذ إلى الشعور حتى في زمن الليل. لا بل هي قد تسيطر على محتوى الحلم من حين إلى حين وتحمله على مواصلة نشاط النهار. ومن الثابت

كذلك أن بقايا النهار قد يكون لها أي طابع آخر سوى الرغبة . ولكن ههنا يغدو من أفيد الأمور، ثم هو أمر له قيمته الحاسمة بالنسبة إلى نظرية تحقيق الرغبة، أن نلاحظ الشرط الذي يجب أن تخضع له بقايا النهار لكي يتسنى قبولها في الحلم.

دعنا نأخذ أحد الأحلام التي ذكرتها من قبل، وليكن . مثلاً . الحلم الذي ظهر فيه صديقي أوتو وهو يحمل أعراض مرض بازدوف (ص 307). لقد كنت شغلت في اليوم السابق لمظهر صديقي أوتو وحركني هذا القلق تحريكاً عميقاً، شأن كل ما يمس هذا الشخص. ويحق لي أن أفترض أن هذا القلق لم يتركني في أثناء النوم. ولعلّي كنت أريد أن أعرف ما كنه علة أوتو. واستطاع هذا القلق أن يعرب عن نفسه ليلاً في الحلم الذي رويته والذي كان محتواه مجافياً للمعقول . أولاً . وخالياً من كل وجه من أوجه تحقيق الرغبة . ثانياً. وعندئذ أخذت أستقصي مبعث هذا التعبير غير الموفَّق عن القلق الذي استشعرته أثناء النهار فعثرت بوساطة التحليل على صلة: فقد كنت عيَّنت أوتو ببارون يدعى ل. وعينتني أنا بالأستاذ ر. فأما السبب في كوني اخترت هذا البديل لأفكاري النهارية دون سواه فلم يكن له إلا تفسير واحد: فلا بد أني كنت في اللاشعور على أهبة دائمة لأن أعينني بالأستاذ ر.، فبهذا التعيين تتحقق رغبة من طفولتي لا تموت، هي الرغبة المجنونة في العظمة. وكانت هناك أفكار كريهة، معادية لصديقي، ما كانت لتلقى في النهار غير النبذ، فانتهزت الفرصة لتدلف مع الرغبة فتصوَّر معها، ولكن القلق المتخلف من النهار قد وجد كذلك ضرباً من التعبير عنه بوساطة بديل في محتوى الحلم. فالفكرة النهارية التي لم تكن في ذاتها رغبة، بل كانت على العكس قلقاً، قد اضطرت إلى أن تبحث عن صلة تصلها على نحو من الأنحاء برغبة طفلية، هي اليوم لاشعورية مقموعة، وعندئذ مكنتها هذه الرغبة من أن «تولد» في الشعور . وإن كان ذلك بعد أن ألبستها الزي الذي ينبغي. وعلى قدر استحكام القلق جاز أن تكون الصلة بعيدة متكلفة، كما أنه لم تكن هناك أي حاجة إلى رباط يربط بين محتوى الرغبة ومحتوى القلق ولا قام مثل هذا الرباط في مثالنا.

وربما أفادنا أن نعالج هذه المسألة عينها في صورة جديدة[549]، أن ننظر كيف يسلك الحلم حين تواجهه أفكار الحلم بمادة بعيدة غاية البعد عن أن تكون تحقيق رغبة، بل هي عكس ذلك على خط مستقيم، مثل القلق الذي له ما يبرره، والتأملات الممضة، والمعارف الأليمة بالحقائق. إن الاحتمالات المتعددة يمكن تقسيمها عندئذ قسمين: (أ) فقد يفلح عمل الحلم في أن يستبدل بالأفكار الأليمة أخرى تخالفها وفي أن يكبت الحالات الوجدانية الأليمة المرتبطة بهاته الأفكار، وتكون النتيجة في هذه الحالة حلم إشباع صريح، «تحقيق رغبة» ملموس، لا يبدو لنا مجال للكلام بعده، (ب) وقد تشق الأفكار الأليمة طريقها إلى محتوى الحلم الظاهر معدلة تعديلاً يزيد أو ينقص، ولكنه يترك معرفتها ميسورة كل اليسر. وتلك هي الحالة التي تثير الشك في صحة نظرية الرغبة وتتطلب المزيد من الاستقصاء. ومثل هذه الأحلام ذات المحتوى الأليم قد يخبرها الحالم خبرة تخلو من اللذة والألم على السواء. أو تصطحب بكل الشعور الأليم الذي يبدو أن محتواها الفكري يبرره، ولقد تؤدي إلى تمخض الهيلة وإلى الاستيقاظ.

إن التحليل يستطيع أن يبرهن على أن هذه الأحلام غير اللاذة هي أيضاً تحقيق رغبة لا تقل في ذلك عن غيرها. فهناك دائماً رغبة لاشعورية مكبوتة، لا يمكن أن يحس الأنا تحققها إلا كما يحس شيئاً أليماً، هذه الرغبة قد انتهزت الفرصة التي أتاحها لها استمرار استثمار البقايا النهارية الأليمة، فأعارت هذه البقايا عونها ومكَّنتها من أن تلج الحلم. ولكن بينما يقع في المجموعة «أ» أن تتفق الرغبة اللاشعورية مع الرغبة الشعورية، تتكشف الهوة في المجموعة «ب» بين اللاشعور والشعور (بين المكبوت والأنا)، ويتحقق الموقف الذي نسمع عنه في قصة الرغبات الثلاث التي أجابتها الساحرة للرجل وزوجه (أنظر ص 596، في الهامش). والرضا لتحقيق الرغبة المكبوتة قد يكون عظيماً حتى ليوازن المشاعر الأليمة المتصلة ببقايا النهار [ص 494]، وحينئذ يكون الحلم ذا نغمة انفعالية متساوية مع أنه يحقق رغبة من جهة وخوفاً من أخرى، وقد يقع أن يشارك الأنا النائم بنصيب أعظم مقداراً في تكوين الحلم وأن يرد على إشباع الرغبة المكبوتة باستنكار عنيف وبنفسه يضع حداً للحلم بطلقة من الهيلة. وهكذا نرى في غير عناء أن الأحلام غير اللاذة وأحلام الهيلة، هي أيضاً تحقيق رغبة بالمعنى الذي تذهب إليه نظريتنا، لا تقل في ذلك عن أحلام الإشباع الصريحة.

ومن الجائز كذلك أن تكون الأحلام غير اللاذة «أحلام عقاب» [أنظر ص 497]. ولا بد من أن نسلم بأننا حين نعترف بهذه الطبقة نضيف إلى نظرية الحلم شيئاً جديداً بمعنى ما. فالذي يتحقق في هذه الأحلام هو أيضاً رغبة لاشعورية، هي الرغبة في أن يعاقب الحالم لاندفاع راغب مكبوت ممنوع، وإلى هذا المدى تستقيم هذه الأحلام والشرط المنصوص عليه هنا، وهو: أن تكون القوة الدافعة إلى تكوين الحلم مستمدة بالضرورة من رغبة منتمية إلى اللاشعور. غير أن التحليل السيكولوجي الأدق يظهرنا على اختلاف هذه الأحلام من سائر أحلام الرغبة. ففي المجموعة «ب» تنتمي الرغبة اللاشعورية المكوّنة للحلم إلى ما هو مكبوت، على حين أنها في أحلام العقاب يجب أن تَعد منتمية إلى الأنا وليس إلى المكبوت . وإن تكن لاشعورية كذلك. وأحلام العقاب تشير إذن إلى إمكانية مشاركة الأنا في تكوين الحلم بنصيب أعظم مما قدِّر حتى الآن. وإن ميكانيكية الحلم بوجه عام لتزيد وضوحاً أكبر الزيادة، لو أننا بدل التضاد بين «الشعور» و«اللاشعور» تحدثنا عن التضاد بين «الأنا» و«المكبوت». غير أننا لا نستطيع أن نفعل ذلك دون التفات إلى العمليات التي تحدث في الأعصبة النفسية، ولهذا السبب لم تقم به في هذا الكتاب، وإنما أضيف أن أحلام العقاب لا يشترط فيها دائماً أن تكون بقايا النهار من النوع الأليم، بل وقوعها على العكس أسهل ما يكون حين يكون الضد هو الحال، أي حين تكون البقايا النهارية أفكاراً من نوع مرضٍ ولكنها تعرب عن رضا ممنوع، وعندئذ لا ينفد إلى الحلم من هذه الأفكار سوى ضدها المباين لها كل المباينة . كما كان الشأن في أحلام المجموعة «أ». وهكذا يبقى أن الخاصة الجوهرية لأحلام العقاب هي كون الرغبة المكوِّنة للحلم فيها ليست تلك

الرغبة اللاشعورية المستمدة من المكبوت (أي من النظام لاش.) بل رغبة العقاب المجيبة ضدها، المنتسبة إلى الأنا . وإن تكن أيضاً لاشعورية (أي قبل شعورية)[550].

وهنا أذكر حلماً من أحلامي[551]، لكي أصور به ما قلت ولأصور به على الأخص كيف يعالج عمل الحلم بقية نهارية من توقعات أليمة:

«بداية غير متميزة: أقول لزوجتي: إن عندي خبراً يسرها، شيئاً خاصاً جداً. تجزع وترفض الاستماع إليّ. أؤكد لها أنه على العكس شيء يسرها سماعه وأبدأ أروي لها أن كتيبة الضباط التي ينتسب إليها ولدنا قد أرسلت إلينا مبلغاً من المال (5000 كرون؟)... شيء عن وسام تقدير... توزيع... أراني في هذه الأثناء قد ذهبت معها إلى حجرة صغيرة، أشبه بالكرار، بحثاً عن شيء ما. أشهد ابني يظهر فجأة، إنه لا يرتدي ملابسه العسكرية بل ملابس رياضية أحكمت عليه (كسبع البحر؟) مع قلنسوة صغيرة. إنه يتسلق صندوقاً وُضع بجانب الصوان كأنه يريد أن يضع شيئاً عليه. أناديه، لا جواب. يبدو لي أن وجهه معصوب، أو جبهته. إنه يوجه شيئاً إلى فمه، يدس شيئاً في فمه. لقد ضربت في شعره خيوط رمادية. أحدث نفسي: أمن الممكن أن يكون مجهداً إلى هذا الحد؟ هل صارت له أسنان صناعية؟ وقبل أن أستطيع مناداته مرة ثانية استيقظت وأنا لا أستشعر شيئاً من الهيلة، ولكن قلبي كان يخفق خفقاً سريعاً. يريني المنبه أن الساعة الثانية ونصف الساعة».

محال عليّ مرة أخرى أن أسوق تحليلاً كاملاً. وأقتصر على إبراز بعض النقاط الظاهرة. لقد كان الباعث على الحلم توقعات أليمة من اليوم السابق. فقد انقطعت عنَّا مرة أخرى منذ ما يزيد على الأسبوع أخبار ولدنا الذي كان في جبهة القتال. ومن السهل أن نرى أن محتوى الحلم كان يعرب عن اعتقاد فحواه أنه قد أصيب أو سقط صريعاً. ومن الواضح أن جهوداً قوية قد بُذلت في بداية الحلم لكي تستبدل بهذه الأفكار الموجعة أفكار أخرى تخالفها. فعندي أفكار سارة جداً أرويها: شيء عن نقود أُرسلت، وسام تقدير، توزيع. (وأما مبلغ المال فمصدره حادثة لطيفة وقعت أثناء عملي الطبي، وأريد به إلى التنويه عن الموضوع تنويهاً تاماً). ولكن هذه الجهود قد أخفقت. فالأم تحذر شيئاً مروعاً وترفض الإصغاء إليّ. لقد كانت الأقنعة رقيقة جداً حتى نفذت في كل مكان منها إشارات إلى ما كان يراد بها إخفاؤه. فلو أن ولدي مات لأرسل رفاقه الضباط متاعه ولاضطررت إلى توزيعه بين إخوته وأخواته وغيرهم من الناس. وأما وسام التقدير فيمنحه الضابط عادةً على «استشهاده». وهكذا شرع الحلم يعرب إعراباً صريحاً عما كان يلتمس أول الأمر إنكاره . وإن بقي النزوع إلى تحقيق الرغبة ملحوظاً في التشويهات. (وأما تغيير المحل في الحلم فأكبر الظن أنه ينبغي فهمه في ضوء ما سمّاه سيلبرير «رمزية العتيه» [أنظر ص 527]). غير أننا لا نرى . والحق يقال . ما الذي زوّد الحلم بالقوة الدافعة إلى الإعراب من أفكاري الأليمة على هذا النحو. إن ابني لا يظهر في الحلم في صورة شخص «يسقط» بل في صورة من «يتسلَّق». والحق أنه كان من متسلقي الجبال الأجرياء. وهو لا يرتدي ملابس عسكرية بل رياضية، وهذا يعني أن مكان الحادثة التي أخشى اليوم وقوعها قد استبدل به مكان آخر، أقدم عهداً، متخذ من مجال الرياضة؛ فقد سقط ابني مرة في أثناء رحلة للتزحلق على الثلج وكسرت ساقه. والطريقة التي ارتدى بها ملابسه والتي جعلته أشبه بسبع البحر تذكرني، من جهة أخرى، بشخص آخر أحدث سناً، بحفيدنا الصغير الممتع، هذا بينما تذكرني خيوط الشعر الرمادية بوالد هذا الأخير، بصهرنا الذي أصيب في الحرب إصابة بالغة. فماذا نفهم من هذا كله؟... ولكنني قلت في ذلك الكفاية. . إن الكرار والصوان الذي أراد ابني أن يأخذ من فوقه شيئاً (والحلم يقول: يضع عليه) إشارتان تذكراني من غير ما خطأ بحادثة جلبتها على نفسي حين كنت بين الثانية والثالثة من العمر. فقد تسلقت مقعداً في الكرار لأتناول شيئاً حسناً وضع على صوان أو مائدة، فانقلب المقعد وأصابتني زاويته خلف فكي الأيسر، وكان من الممكن أن تتهشم أسناني كلها. وبهذه الذكرى تمتزج فكرة معنَّفة، هي: هذا هو جزاؤك الحق . كأنما كان ثمة اندفاع عدائي متجه إلى المحارب الشهم. ويمكّنني التعمق في التحليل بعد ذلك من أن أعرف ما هو هذا الاندفاع المستتر الذي كان مستطيعاً أن يجد إشباعه في الحادثة المخوَّف وقوعها لولدي: إنه حسد الذين تقدم بهم العمر نحو من هم في مطلعه، ولكن يظنون أنهم قضوا عليه قضاءً مبرماً. ولا جدال في أن شدة العاطفة الأليمة التي كانت تنجم لو أن مثل هذا المصاب قد وقع حقيقة هي هي التي دفعت . طلباً للتخفيف . إلى التماس رغبة مكبوتة من هذا القبيل.

والآن أستطيع أن أبين ما هو نصيب الرغبة اللاشعورية من تكوين الحلم تبييناً محدداً دقيقاً: إني أسلم طواعية بأن هناك طائفة كاملة من الأحلام ينشأ فيها الحافز إلى الحلم بصفة غالبة إن لم تكن مانعة من البقايا المتخلفة من حياة النهار، وأعتقد أنه حتى رغبتي في أن أصير في النهاية أستاذاً كان يمكن أن تتركني أنام نوماً هادئاً لو لم يكن قلقي على صحة صديقي قد بقي مستمراً بعد أن انقضى النهار. ولكن القلق وحده ما كان يستطيع أن يصنع حلماً، بل كان من اللازم أن تقوم رغبة بتوفير القوة الدافعة التي يقتضيها الحلم، كما كان على القلق أن يتصيَّد رغبة لتكون منها هذه القوة الدافعة. ولكي نوضح الموقف بتشبيه نقول: إن الفكرة النهارية تقوم بعمل صاحب المشروع بالنسبة إلى الحلم، ولكن صاحب المشروع . وهو الذي، كما نقول، يملك الفكرة ويملك الحافز إلى تنفيذها . لا يستطيع شيئاً بغير رأس المال؛ فهو محتاج إلى ممولّ قادر على أن يزوده بالمخرج، والممول الذي يوفر المخرج النفسي بالنسبة إلى الحلم هو . من غير استثناء ولا جدل وأياً كانت أفكار اليوم السابق . رغبة من اللاشعور.

ويحدث أحياناً أن يكون الممولّ أيضاً هو صاحب المشروع، وتلك يقيناً هي الحالة الأكثر شيوعاً فيما يتعلق بالحلم، حيث نرى رغبة لاشعورية وقد استثارها نشاط نهاري فأخذت تنشىء الحلم. وكذلك سائر الاحتمالات الممكنة في الموقف الاقتصادي الذي ضربته مثالاً، فلكل منها نظيره بين

عمليات الحلم: قد يشارك صاحب المشروع أيضاً بقسط ضئيل من رأس المال، أو قد تتجه عدة من أصحاب المشاريع إلى مموّل بعينه، أو يشترك ممولون متعددون في توفير ما يلزم صاحب المشروع. وعلى هذا الغرار تظهر أحلام يعين عليها أكثر من رغبة من رغبات الحلم، وكذا في سائر الاحتمالات المتغايرة التي يسهل إحصاؤها دون أن يعود ذلك علينا بنفع جديد. ولن نستطيع إلا فيما بعد تكملة هذه المناقشة التي لم تزل ناقصة في صدد رغبة الحلم.

وأما الحد الثالث للمقارنة[552] في المماثلة التي لجأت إليها . الكم الذي يجب أن يوضع في متناول صاحب المشروع بمقدار مناسب[553] . فمن الممكن تطبيقه في توضيح تركيب الحلم تطبيقاً أكثر بعد تفصيلاً. فنحن نلحظ في معظم الأحلام . كما بيّنته في ص 341 و[362] . نقطة رئيسة تمتاز عن غيرها بشدة حسية خاصة. هذه النقطة هي في العادة تلك التي تصور تحقيق الرغبة تحقيقاً مباشراً؛ لأننا إذا أزلنا النقلات التي أجراها عمل الحلم وأعدنا الوضع إلى نصابه، رأينا أن الشدة النفسية للعناصر المتضمنة في أفكار الحلم قد حلت محلها شدة العناصر الحسية. وأما العناصر التي تقع على مقربة من تحقيق الرغبة فلا يكون لها في كثير من الأحيان شأن بمعناه، بل يتبين أنها مشتقات تفرعت عن أفكار أليمة تجري بعكس تحقيق الرغبة. بيد أنها وقد وقعت في منطقة الصلة . المتكلفة في الكثير من الأحيان . بالعنصر الرئيس، قد اكتسبت شدة كافية لكي تصير قادرة على بلوغ التصوير. وهكذا تنتشر قدرة تحقيق الرغبة على جلب التصوير في منطقة محيطة بها، يصير كل ما في داخلها من العناصر . ومن بينها تلك المجردة من كل قوة في ذاتها . حاصلاً على قوة الظفر بالتصوير. ومن السهل في حالة الأحلام المدفوعة بعدة من الرغبات أن نحدد مناطق تحقق الرغبات المختلفة، كما يجوز في كثير من الأحيان أن نفهم الفجوات التي تعرض في الحلم باعتبارها حدوداً فواصل بين هذه المناطق.

إن الاعتبارات السابقة وإن تكن خفَّضت أهمية النصيب الذي يرجع إلى البقايا النهارية في تكوين الحلم . إلا أنه لا يزال أمراً خليقاً بالعناء أن نوجه إلى هذه البقايا القليل من اهتمامنا. فهي لا محالة مقومات ضرورية لتكوين الحلم، ما دامت التجربة ترينا تلك الحقيقة المدهشة، وأعني بها أنه ما من حلم إلا تبينّا في محتواه صلة تصله بانطباع نهاري حديث . من أتفه نوع في الكثير من الأحيان. ولقد ظللنا حتى الساعة دون أن نستطيع تعليل وجه الضرورة في هذه الزائدة المضافة إلى الخليط الذي يتكوَّن منه الحلم، (أنظر ص 223). ولا نحن نستطيع هذا التعليل إلا إذا تذكرنا دائماً نصيب الرغبة اللاشعورية ثم بحثنا بعد ذلك عما نستطيع أن نعلمه من سيكولوجية الأعصبة. والذي نعلمه من هذه هو أن الفكرة اللاشعورية عاجزة كل العجز من حيث هي كذلك عن أن تلج ما قبل الشعور، وأنها لا تستطيع أن تؤثر فيه أي تأثير إلا من حيث تنشىء لنفسها صلة بفكرة منتمية من قبل إلى ما قبل الشعور، فتحوَّل إليها شدتها وتتخذ منها ستاراً. وتلك هي ظاهرة التحويل . وهي الظاهرة التي توضح لنا كل هذا العدد الكبير من الظواهر العجيبة في الحياة النفسية للعصابيين. والفكرة قبل الشعورية التي تكتسب من هذا الطريق شدة غير مستحقة قد تظل كما هي دون أن يحرف منها التحويل، وقد يفرض عليها تغيير آتٍ من الفكرة التي تجري التحويل. وإني أرجو أن يغفر لي القارىء نزوعي إلى التشبيهات المستمدة من حياة كل يوم، ولكني أرى ما يغريني بالقول: إن موقف الفكرة المكبوتة يشبه موقف طبيب أسنان أميركي في بلدنا هذا؛ فهو لا يستطيع أن يزاول مهنته إلا إذا أمكنه أن يجد طبيباً مؤهلاً على حسب الأصول، يتخذ منه درعاً وغطاء أمام القانون. وكما أن أكثر الأطباء نجاحاً في مهنتهم ليسوا هم على التحديد بأولئك الذين يقبلون مثل هذه الأحلاف مع طبيب الأسنان، كذلك الأفكار قبل الشعورية التي تكون قد اجتذبت بالفعل قدراً كافياً من الانتباه العامل في الإرادة قبل الشعورية، فهذه ليست هي بالتي تختار ستائر للفكرة المكبوتة. فاللاشعور يؤثر أن ينسج روابطه حول انطباعات وأفكار قبل شعورية إما أن تكون خالية من الشأن في ذاتها فلم تجتذب إليها انتباهاً، أو نحيّت فانحسر عنها الانتباه سريعاً. ثم إن من القضايا المعروفة في نظرية التداعي . وهي بعد قضية أيّدتها التجربة تأييداً تاماً . أن الفكرة التي يحكم رباطها إحكاماً وثيقاً في اتجاه ما تنزع إلى صد جماعات بأكملها من الروابط الجديدة. ولقد حاولت مرة أن أقيم نظرية في الشلل الهستيري على هذه القضية [فرويد، 1893ج].

فإذا افترضنا أن هذه الحاجة التي كشفنا عنها في تحليل الأعصبة، حاجة الأفكار المكبوتة إلى التحويل تعمل هي هي في الأحلام كذلك، حلَّ دفعة واحدة لغزان من ألغاز الحلم، وأعني بهما: أنه ما من حلم يحلَّل إلا أطلعنا تحليله على انطباع حديث مسرود في نسيجه، وأن هذا العنصر الحديث يكون في العادة من نوع تافه غاية التفاهة. وأستطيع أن أضيف . كما سبق أن رأينا في موضع آخر [ص 220] . أن السبب الذي يجعل هذه العناصر الحديثة المجردة من الشأن تشق طريقها إلى الحلم على هذا النحو الشائع هو أن هذه العناصر لا تملك إلا أقل الأسباب الداعية إلى خشية الرقابة التي تفرضها المقاومة. ولكن بينما يعلل هذا التحرر من الرقابة إيثار العناصر التافهة وحسب، فإن ورود العناصر الحديثة على هذا النحو المطَّرد يبرز للعيان وجود الحاجة إلى التحويل. وكِلا النوعين من الانطباعات يجيب حاجة المكبوت إلى مادة لا تزال حرة من المستدعيات: التافهة لأنها لم تحمل ما يدعو إلى تكوين روابط متعددة، والحديثة لأنها لما تستغرق من الوقت ما يسمح بتكوين هذه الروابط.

وهكذا نرى أن البقايا النهارية التي يسعنا الآن أن ندرج بينها الانطباعات التافهة لا تقترض وحسب شيئاً من اللاشعور حين تنجح في المشاركة في تكوين الحلم . وأعني بهذا الشيء القوة الغريزية المتاحة للرغبة المكبوتة . بل هي أيضاً تقرضه، وتقرضه شيئاً لا يستغنى عنه: وأعني به نقطة العقد اللازمة من أجل التحويل. ولو قد أردنا في هذا الموضع أن نزيد تعمقاً في عمليات النفس، لما كان لنا مفر من أن نلقي المزيد من الضوء على لعب التهييجات بين ما قبل الشعور والشعور . وهو ما تدفعنا إليه دراسة الأعصبة النفسية دفعاً ولكن يتَّفق أن الأحلام بالذات لا تعيننا فيه أي عون.

وملاحظة أخيرة عن بقايا النهار: إنه لا مجال للشك في أن هذه البقايا هي مزعجات النوم الحقيقية وليست الأحلام؛ فهذه تشغل على العكس بحراسته. وستكون لنا عودة إلى هذه المسألة [ص 593].

ولقد كنا حتى الساعة ندرس رغبة الحلم، ففرَّعناها من منطقة اللاشعور وحللنا علاقاتها ببقايا النهار التي قد تكون بدورها رغبات أو اندفاعات نفسية من نوع آخر أو انطباعات حديثة ليس غير. وبهذا تركنا مجالاً لكل حق قد ندَّعيه لنشاط الفكر المستيقظ بمختلف أشكاله من حيث أهميته في تكوين الحلم. لا، بل إن شرحنا ربما كان يمكننا من أن نجد تعليلاً حتى لهذه الحالات المتطرفة التي يتوصل فيها الحلم وهو يتابع عمل النهار إلى حل موفق لمشكلة من مشكلات اليقظة بقيت من غير حل، وليس يعوزنا إلا مثال من هذا القبيل لكي نكشف بتحليله عن مصدر الرغبات الطفلية أو المكبوتة التي استطاعت بمددها أن تعزز مجهود النشاط قبل الشعوري بمثل هذا التوفيق. ولكن هذا كله لا يقربنا خطوة من حل ذلك اللغز: لم كان اللاشعور لا يستطيع في أثناء النوم أن يقدم شيئاً آخر سوى القوة الدافعة إلى تحقيق رغبة من الرغبات؟ إن الإجابة عن هذا السؤال لا بد ملقية بعض الضوء على الطبيعة النفسية لحالة الرغبة، وأرى أن تكون هذه الإجابة بالإشارة إلى صورتنا التخطيطية للجهاز النفسي.

إننا لا نشك في أن هذا الجهاز إنما بلغ كماله الحاضر بعد فترة طويلة من النمو، فدعنا نحاول الرجوع به إلى مرحلة سابقة من مراحل تطوُّر قدرته الوظيفية. ههنا تحدثنا فروض ينبغي التماس مبرراتها من جهات أخرى بأن جهود هذا الجهاز كانت تتجه في أول أمره إلى حفظه نفسه حراً من المنبهات بقدر الإمكان، ومن ثم اتخذ تركيبه الأول تصميم الجهاز الانعكاسي، بحيث يفرغ من طريق حركي أي تهييج حسي قد يصل إليه من الخارج. ولكن مطالب الحياة لا تلبث أن تتدخل في هذه الوظيفة البسيطة، وإلى هذه المطالب أيضاً يدين الجهاز بالحافز إلى مستأنف نموُّه. إنها تعترضه أولاً في صورة الحاجات الجسمية الكبرى. وعن هذه الحاجات تنجم تهييجات تسعى إلى التفريغ في حركة يمكننا وصفها بأن نقول: إنها «تغيير باطني» أو «تعبير عن انفعال».

فالرضيع الجائع يصرخ أو يرفس من غير حول. ولكن الموقف لا يتغير؛ لأن التهييج الصادر عن حاجة باطنة ليس راجعاً إلى قوة عائق موقوت بل إلى قوة متصلة الفعل. وإنما يحدث تغيير إذا أمكن بطريقة من الطرق (بالعون الخارجي في حالة الطفل) أن تتحقق خبرة إشباع تضع حداً للمنبه الباطني. ومن المقومات الجوهرية في خبرة الإشباع هذه إدراك حسي معيَّن (إدراك الغذاء مثلاً) تظل صورته الذكروية من الآن فصاعداً مرتبطة بالأثر الذكروي المتخلف عن التهييج الذي أحدثته الحاجة. ويكون من نتيجة الارتباط الذي ينشأ على هذا النحو أنه كلما ثارت بعد ذلك تلك الحاجة يظهر على الفور اندفاع نفسي بغيَّته أن يعيد استثمار الصورة الذكروية للإدراك وأن يعيد بعث الإدراك عينه، أي أن يسترجع موقف الإشباع الأول. ومثل هذا الاندفاع هو ما نسميه رغبة، وأما عودة الإدراك إلى الظهور فتحقيق رغبة، وأقصر الطرق إلى تحقيق الرغبة طريق يذهب قدماً من التهييج الناجم عن الحاجة إلى الاستثمار الكامل للإدراك. ولا شيء يمنعنا من أن نفترض حالة بدائية للجهاز النفسي كان هذا الطريق يجتاز فيها فعلاً، أي كانت الرغبة تنتهي فيها إلى الهلوسة. وهكذا كان هذا النشاط النفسي الأول يهدف إلى إحداث «عينية إدراكية» أي إلى تكرار عين الإدراك الذي ارتبط بإشباع الحاجة.

غير أن خبرة الحياة المرَّة لا بد قد غيرت هذا النشاط الفكري البدائي إلى آخر ثانوي أوسع حيلة. فإنشاء عينية إدراكية من الطريق القصير، طريق النكوص في داخل الجهاز، لا يحدث في موضع آخر منه ذات النتيجة التي يحدثها استثمار هذا الإدراك عينه من الخارج، فالإشباع لا يعقب والحاجة تستمر. ولكي يكون للاستثمار الداخلي من قيمة الإشباع مثل ما للخارجي، فلا بد من المداومة عليه من غير انقطاع كما يحدث بالفعل في حالات الجنون الهلوسي وفي تخييلات الجوع التي تستنفد كل قواها في التشبث بموضوع رغبتها. ولكي يتسنى الوصول إلى إنفاق للقوة النفسية يكون أفعل أثراً، فمن الضروري أن يوقف نكوصها عند حد قبل أن يصبح كاملاً، بحيث لا تتعدى الصورة الذكروية وبحيث يصبح في مستطاعها ـ ابتداءً من هذه ـ التماس طرقات أخرى تؤدي في نهاية الأمر إلى إقامة العينية الإدراكية المرغوب فيها من ناحية العالم الخارجي[554].

ويوكل هذا الكف للنكوص، مع ما يعقبه من التعريج بالتهييج، إلى نظام ثانٍ تصبح له السيطرة على الحركة، أي يستخدم الحركة ـ للمرة الأولى ـ في أغراض متذكرة من قبل. ولكن كل هذا النشاط الفكري المعقَّد الذي ينتسج ابتداء من الصورة الذكروية إلى أن تتحقق العينية الإدراكية آتية من العالم الخارجي ـ لا يخرج عن أن يكون طريقاً دائرياً إلى تحقيق الرغبة الجأت إليه التجربة[555]. فما الفكر ـ بعد أن يحسب لكل شيء حسابه ـ إلا بديل رغبة هلوسية. فإن قيل: إن الحلم تحقيق رغبة، لم يكن ذلك على التأكيد إلا أمراً واضحاً بذاته؛ فلا شيء سوى الرغبة يستطيع أن يحرك جهازنا النفسي إلى العمل. وما جاوز الحلم الذي يحقق رغباته من الطريق القصير ـ طريق النكوص ـ أن يستبقي ههنا أثراً من منهج العمل الأولي للجهاز النفسي ـ وهو منهج هُجر لقلة فاعليته. فما كان يسيطر يوماً على الحياة المستيقظة حين كانت النفس لا تزال غضَّة غير كفوَّة، يبدو اليوم أنه قد طُرد فلم يعد له غير الليل ـ مثلما تعاود الظهور في غرف الأطفال تلك الأسلحة البدائية التي تركها الراشدون من أقواس وسهام: إن الحلم أثر من الحياة النفسية الطفلية المتلاشية. كما أن هذه المناهج في العمل من جانب الجهاز النفسي ـ وهي المناهج التي تكبت عادة في ساعات اليقظة ـ تحضر وتنشط من جديد في حالات الذهان، وعندئذ يتكشف عجزها عن إشباع حاجاتنا بالنسبة إلى العالم الخارجي[556].

ومن الواضح أن الاندفاعات الراغبة اللاشعورية تسعى إلى النشاط في أثناء النهار كذلك، وإن ظاهرة التحويل ـ شأنها شأن حالات الذهان ـ

لترينا أن هذه الاندفاعات تبذل جهدها ما استطاعت من أجل النفاذ إلى الشعور مارَّة بالنظام قبل الشعوري ومن أجل الظفر بالسيطرة على القدرة الحركية. وهكذا تستحق الرقابة القائمة بين اللاشعور والشعور والتي لا تجعل لنا الأحلام مفراً من القول بوجودها، هكذا تستحق الاعتراف بها واحترامها من حيث هي حارس صحتنا العقلية. فإذا كان هذا الحارس يرخي نشاطه أثناء الليل ويسمح للاندفاعات المكبوتة في اللاشعور بالإفصاح عن نفسها وييسِّر للنكوص الهلوسي سبيل الوقوع مرة أخرى، أفلا يجب أن نعد ذلك إهمالاً من جانبنا؟ لست أرى ذلك. لأن هذا الحارس النقَّاد وإن هدأ أحياناً . ولدينا من الدلائل ما يدل على أن غفواته ليست بالعميقة . فإنه لا ينسى كذلك أن يغلق الباب في وجه القدرة على الحركة. فمهما كانت الاندفاعات التي تصخب على المسرح آتية من اللاشعور المكبوت عادة، فما نحن بحاجة إلى أن نشغل أنفسنا بها؛ فهي تظل بغير قدرة على الضرر لعجزها عن أن تحرِّك الجهاز الحركي الذي لا تستطيع إلا به وحده أن تعدِّل من العالم الخارجي. ولكن الموقف يزيد خطورة إذا كانت النقلة في القوى لا تجيء نتيجةً لارتخاء ليلي يصيب القوة التي يبذلها الحارس النقدي بل لنقص مرضي يصيب هذه القوة أو لزيادة مرضية في شدة التهييجات اللاشعورية بينما يكون استثمار ما قبل الشعور لا يزال مستمراً وتكون الطريق في وجه القدرة على الحركة لا تزال مفتوحة. حينئذ يغلب الحارس على أمره وتغزو التهييجات اللاشعورية ما قبل الشعور وتهيمن على كلامنا وأفعالنا، أو تفرض النكوص الهلوسي فرضاً وتعكس سير الجهاز (وهو الذي لم يُجعل من أجلها) بفضل الجذب الذي تمارسه الإدراكات على توزيع طاقتنا النفسية. وهذا الوضع نسميه ذهاناً.

وإنا نرانا الآن على أحسن طريق نستأنف منه بناء هيكلنا السيكولوجي الذي وقفنا به عند إدخال نظامَي اللاشعور وما قبل الشعور. ولكن هناك أسباباً تدعونا إلى متابعة النظر في الرغبات من حيث هي القوة الوحيدة الدافعة إلى تكوين الحلم. فلقد أخذنا بالتعليل القائل: إن الحلم في جميع الحالات تحقيق رغبة؛ لأنه ناتج عن النظام لاش. الذي لا يعرف نشاطه هدفاً آخر غير تحقيق الرغبة والذي لا يملك قوى أخرى سوى الاندفاعات الراغبة. فإذا أردنا بعد ذلك أن نتمسَّك . ولو لحظة . بحقنا في أن نقيم أمثال هذه التعاليم السيكولوجية البعيدة على تفسير الأحلام، كان لزاماً علينا أن نبرهن على أن هذه التعاليم قد مكنتنا من أن نجد للحلم محلاً في سياق يشمل غيره من التراكيب النفسية. فإنه لو كان ثمة وجود لشيء مثل النظام لاش. (أو لشيء آخر يماثله بالنسبة إلى مقاصدنا في هذه المناقشة) لاستحال أن يكون الحلم مظهره الأوحد. نعم، إن كل حلم قد يكون تحقيق رغبة، ولكن لا بد عندئذ من أن تكون هناك . بالإضافة إلى الحلم . صور أخرى من صور التحقيقات غير السوية للرغبات. والواقع أن النظرية التي تحكم جميع أعراض الأعصبة النفسية تبلغ ذروتها في تلك القضية الواحدة، وهي: أن هذه الأعراض كذلك يجب أن تعد تحقيقات لرغبات لاشعورية[557]. وإنما يغدو الحلم بتعليلنا أول عضو في طبقة لها أهميتها القصوى عند أطباء النفس، يتضمن فهمها حل الجانب السيكولوجي المحض من مشكلة الطب النفسي[558]. غير أن سائر أعضاء طبقة تحقيق الرغبة هذه . كالأعراض الهستيرية مثلاً . تملك خاصة جوهرية لا أزال أفتقدها في الحلم. فقد علمت من الأبحاث التي أكثرت من الإشارة إليها في خلال هذا المجلد أيَّما إكثار أن تكوين العرض الهستيري يستوجب التقاء كِلا تياري حياتنا النفسية. فالعرض ليس إعراباً عن رغبة محققة وحسب، بل يجب أن تحضر كذلك رغبة آتية مما قبل الشعور تتحقق بوساطة هذا العرض عينه، بحيث يكون للعرض شرطان يحتمانه على الأقل ، ينشأ كل منهما من أحد النظامين المشتبكين في النزاع . دون أن يكون هناك حد لتضاعف الحتم بعد ذلك، كما هو الحال في الأحلام. والشرط المحتم الذي لا ينبعث من اللاشعور هو في كل حالة . بقدر ما أعلم . خيط فكري يُستجاب به في وجه الرغبة اللاشعورية، عقاب للذات مثلاً. وهكذا أستطيع أن أقول معمماً القول تعميماً كاملاً: لا ينشأ عرض هستيري إلا حيث يتمكن من الالتقاء في تعبير واحد تحقيقان لرغبتين متقابلتين صدرت كل منهما عن نظام نفسي مختلف. (قارن ذلك بآخر ما أدليت به في مقالي عن التخييلات الهستيرية وعلاقتها بالثنائية الجنسية، فرويد 1908أ[559]). ولا تثمر الأمثلة في هذا الصدد إلا قليلاً، بل الإيضاح المفصَّل لما تتضمنه هذه الأمراض من التعقدات هو وحده الذي يحمل الإقناع. ولهذا أترك قضيتي ولا سند لها غير ذاتها ولا أستشهد بمثال إلا لأجلو الأمر وليس طلباً للإقناع: كانت إحدى مريضاتي تعاني قيناً هستيرياً تبيَّن أنه يحقق من جهة تخييلاً لاشعورياً يرجع إلى عهد مراهقتها، أي يحقق رغبة هي على التحديد الرغبة في أن تكون حاملاً من غير انقطاع وفي أن يكون لها أطفال لا يعدون، مع رغبة أخرى مضافة إلى هذه، هي الرغبة في أن تنجب هؤلاء الأطفال من رجال عديدين قدر الإمكان. ونهض اندفاع دفاعي قوي في وجه هذه الرغبة التي لا يكبحها كابح. وإذ كان من شأن القيء أن يجعل المريضة تفقد قوامها وجمالها فلا تجذب إليها بعد ذلك رجلاً، فقد حاز العرض كذلك قبول الاتجاه الفكري العقابي، وإذا حاز قبول الجانبين جميعاً أصبح واقعاً. فذلك في معالجة تحقيق الرغبة أسلوب لا يختلف من أسلوب ملكة البارثيين[560] إزاء كراسوس[561]؛ فقد ظنت أنه ما طلب القتال إلا طمعاً في الذهب، فأمرت بجثته أن تجرع في الحلق ذهباً مذاباً، ثم قالت: لك الآن ما أردت. ولكن كل الذي نعلمه حتى الآن عن الأحلام هو أنها تعرب عن تحقيق رغبة من اللاشعور، ويبدو النظام المسيطر، أي ما قبل الشعور، كأنه يقبل هذا الوضع بعد أن يفرض عدداً من التشويهات. فلسنا نستطيع بوجه مطَّرد أن نجد خيطاً فكرياً يضاد الرغبة ويتحقق مثلها في الحلم من حيث هو مقابلها. بل كل الأمر أننا . ونحن نحلل الحلم . نعثر هنا وهناك على تكاوين لها طابع الاستجابة المضادة . كما كان الشأن مثلاً في مشاعري الودية نحو صديقي ر. في حلم العم (ص 185). غير أننا نستطيع أن نجد في جهة أخرى الجزء المفتقد ههنا من جانب ما قبل الشعور. فالحلم تصير له القدرة على الخروج برغبة إلى حيِّز التعبير بعد تشويهات من كل صنف حين يكون النظام المسيطر قد تراجع إلى الرغبة في النوم ، محققاً هذه الرغبة بإدخال ما يستطيعه من تعديلات الاستثمار في داخل الجهاز النفسي، مداوماً عليها طيلة مدة النوم[562].

هذه الرغبة الثانية في النوم من جانب ما قبل الشعور تحدث تأثيراً يسهّل تكوين الأحلام بوجهٍ عام. ولنذكر حلم الرجل الذي استدل من نفاذ بريق الضوء من الحجرة المجاورة على أن جثمان طفله ربما كان أخذ يحترق: لقد أجرى الأب هذا الاستدلال في الحلم بدل أن يترك البريق يوقظه، وأوحينا أن إحدى القوى النفسية المؤدية إلى ذلك كانت رغبة أطالت عمر الطفل المصوَّر في الحلم هذه اللحظة الواحدة. وأكبر الظن أن هناك رغبات أخرى منبعثة من المكبوت تخفى علينا؛ فلسنا نملك تحليل هذا الحلم. ولكننا نستطيع أن نفترض أن قوة ثانية في تكوين هذا الحلم كانت حاجة الأب إلى النوم؛ فنومه ـ كعمر ابنه ـ قد طال أيضاً لحظة، كأنما هذا الدافع يقول: دع الحلم يأخذ مجراه وإلا اضطررت إلى الاستيقاظ. وفي كل حلم آخر ـ كما في هذا الحلم ـ تناصر الرغبة في النوم الرغبة اللاشعورية. ولقد رويت في ص 169 أحلاماً ظهرت صراحة على أنها أحلام سهولة. ولكن الحقيقة أنه ما من حلم إلا استطاع أن يدَّعي لنفسه الحق في هذا الوصف. ويتجلى فعل رغبة المضي في النوم أسهل ما يتجلى في أحلام ساعة الاستيقاظ التي تعدِّل المنبهات الحسية الخارجية التعديل الذي يجعلها لا تتعارض مع مواصلة النوم: إنها تنسج من هذه المنبهات حلماً لكي تسلبها كل ما تدعيه من حقوق التذكير بالعالم الخارجي. ولا بد أن لهذه الرغبة ذاتها نصيباً مماثلاً في التمكين لجميع الأحلام الأخرى، وإن كانت المنبهات لا تهدد بانتزاع الشخص من نومه إلا من الداخل. وما يتحدث به ما قبل الشعور إلى الشعور في كثير من الحالات حين يغلو الحلم في تحقيق مراميه: امض في نومك غير آبه فما هذا إلا حلم، ذلك أيضاً وصف يصدق بوجه عام على موقف نشاطنا النفسي الغالب تجاه الحلم وإن لم يلق إعراباً صريحاً. وأنا إذن مساق إلى تلك النتيجة: إننا في خلال حالة النوم جميعها نعلم أننا نحلم بمثل اليقين الذي نعلم به أننا نيام. ويجب ألا نعتد كثيراً بما قد يحتج به من أن الشعور لا يحصل له أبداً العلم بالنوم ولا يحصل له العلم بكوننا نحلم إلا في أحوال خاصة، حين تحس الرغبة كأنها أُخذت على غرة [أنظر ص 513]. فهناك على العكس[563] أناس يعلمون في الليل علماً واضحاً أنهم نيام يحلمون، وهم بذلك يبدون حاصلين على ملكة توجيه حياتهم الحالمة توجيهاً شعورياً. فإن رأى حالم من هؤلاء ـ مثلاً ـ أن الحلم قد اتخذ وجهة لا يرضى عنها، كان في مستطاعه أن يقطعه دون أن يستيقظ من نومه وأن يبدأه من جديد متخذاً وجهة أخرى مثلما يصنع مؤلف شعبي ناجح حين يدبِّر عند الطلب نهاية سعيدة لمسرحيته. أو قد يستطيع مثل هذا الحالم في مرة أخرى ـ إذا قاده حلمه إلى موقف مثير جنسياً ـ قد يستطيع أن يحدِّث نفسه في نومه بتلك الفكرة: لن أساير هذا الحلم خطوة بعد ذلك مستنفداً جهدي بالإنزال، بل أدخره لموقف حقيقي.

ولقد كان الماركي درفاي[564] (؟اشيد، ص 139) يؤكد أنه قد اكتسب القدرة على تعجيل مجرى أحلامه كيفما أراد وعلى توجيهها في أي وجهة يشاء. ويبدو أن الرغبة في النوم قد أفسحت عنده محلاً لرغبة قبل شعورية أخرى، هي الرغبة في ملاحظة أحلامه والاستمتاع بها. ويستقيم النوم مع مثل هذه الرغبة مثلما يستقيم مع نية النائم على الاستيقاظ إذا تحقق شرط معين (كما في نوم المرضع). ثم إن من الحقائق المعلومة أن كل من يوجِّه اهتمامه إلى الأحلام يزيد عدد ما يتذكره منها بعد اليقظة زيادة عظمى.

ويقول فرنتسي[565] [1911] وهو يتحدث عن ملاحظات أخرى في صدد توجيه الأحلام: «إن الحلم يتناول الفكرة التي يتفق أنها تشغل حياتنا النفسية ويقلِّبها من جميع وجوهها، بترك صورة حلمية إذا كان فيها ما يهدد بإخفاق تحقيق الرغبة ويجرب حلاً جديداً إلى أن يوفق في النهاية إلى تكوين تحقيق رغبة يرضي كِلا جهتي الاختصاص في حياتنا النفسية ويوفق بينهما».

د
اليقظة بسبب الحلم . وظيفة الحلم – حلم الهيلة

أما وقد علمنا أن ما قبل الشعور يبقى طيلة الليل كله متركزاً في رغبة النوم، ففي مقدورنا أن نتابع فهم عملية الحلم مرحلة أبعد. ولكن يجمل بنا أولاً أن نلخِّص عملنا حتى الآن: إن الموقف هو هذا: إما أن بقايا من اليوم السابق قد تخلفت عن نشاط الحياة المستيقظة ولم يمكن حسر كل استثمار للطاقة عنها، أو أن نشاط الحياة المستيقظة قد أدى في خلال النهار إلى إثارة رغبة لاشعورية، أو أن هذين الحدثين قد اتفق وقوعهما معاً (وسبق أن ناقشنا الاحتمالات المختلفة في هذا الصدد). وتصل الرغبة اللاشعورية نفسها ببقايا النهار وتجري تحويلاً إليها، وقد يحدث ذلك في أثناء النهار وقد لا يحدث إلا بعد أن تستتب حالة النوم. وحينئذ تنبعث رغبة قد تمّ تحويلها إلى مادة جديدة، أو تكتسب رغبة حديثة . وقد لاقت الكبت . حياة جديدة بتعزيزها من اللاشعور. وتسعى هذه الرغبة إلى أن تشق طريقها وفق الطريق السوي الذي تسلكه عملياتنا الفكرية إلى الشعور مارَّة من خلال ما قبل الشعور الذي تنتمي إليه هذه الرغبة انتماءً جزئياً. ولكنها تصطدم بالرقابة التي لا تزال قائمة والتي تعمل فيها الآن تأثيرها. وهنا تلبس الرغبة ثوب التشويه الذي تمهَّد له الطريق من قبل بتحويل الرغبة إلى مادة حديثة. وإلى هذا المدى تكون الرغبة في طريقها إلى أن تصير فكرة قهرية أو هجاساً أو شيئاً من هذا القبيل، أي فكرة زاد التحويل شدتها وشوهت الرقابة تعبيرها. غير أن حالة النوم التي يوجد عليها ما قبل الشعور توقف تقدمها بعد ذلك . والراجح أن هذا النظام قد حمى نفسه من الغزو بخفض تهييجاته نفسه. وعلى ذلك تسلك عملية الحلم طريق النكوص المفتوح أمامها بفضل طبيعة النوم على التحديد، وتسير في هذا الطريق مقادة بالجذب الذي تمارسه إزاءها مجموعات من الذكريات لا يوجد بعضها إلا في صورة استثمارات بصرية وحسب، وليس كترجمات إلى لغة الأنظمة اللاحقة [أنظر ص 565 . 566]. وفي أثناء هذا الطريق تكتسب عملية الحلم صفة قابلية التصوُّر (وأتحدث بد عن مسألة الضغط [أو التكثيف] فيما بعد [ص 609]). وبهذا تكون تلك العملية قد أكملت الجزء الثاني من رحلتها المتعرجة. لقد كان الجزء الأول ذا اتجاه تقدمي يذهب من المشاهد والتخييلات اللاشعورية إلى ما قبل الشعور، وأما الجزء الثاني فيعود من حافة الرقابة إلى الإدراكات. ولكن ألا وقد صارت عملية الحلم إلى محتوى إدراكي فإنها بهذا عينه تكون كأنما داورت العائق الذي يعترضها على يد الرقابة وحالة النوم في قبش. ، إنها تفلح في جذب الانتباه إليها وفي الظفر بملاحظة الشعور. ذلك أن الشعور الذي ننظر إليه باعتباره عضواً حسياً مخصصاً لإدراك الكيفيات النفسية قادر في حياة اليقظة على تلقِّي التهييجات من جهتين: أولاً، من الحافة المحيطة بسطح الجهاز كله، من النظام الإدراكي، ثم . بالإضافة إلى ذلك . من تهييجات اللذة والألم التي تدل الدلائل على أنها تكاد تكون الكيف الوحيد الذي يصحب تنقلات الطاقة في داخل الجهاز. فجميع العمليات الأخرى التي تقع في الأنظمة ن. . بما فيها قبش. . مجردة من كل كيفية نفسية، وبذلك لا تستطيع أن تكون موضوعات للشعور إلا من حيث تسلم لذة أو ألماً. ونحن بذلك مساقون إلى أن نستخلص أن هذه التفريغات من اللذة والألم تنظِّم سير العمليات الاستثمارية تنظيماً أوتوماتياً [أي بدون تدخل الشعور]. ولكن لكي يصبح الإتيان بأفعال أدق تركيباً شيئاً ممكناً، فقد صار من الضروري فيما بعد أن يجعل سير الأفكار غير متوقف على انتقاء الألم أو وجوده. ولهذا الغرض احتاج النظام قبش. إلى أن تكون له كيفيات خاصة به تستطيع أن تجتذب انتباه الشعور، ومن الراجح هنا أكبر الرجوح أنه قد وجدها بربط العمليات قبل الشعورية بالنظام الذكروي للرموز اللغوية . وهو نظام لا يخلو من الكيف [أنظر ص 628]. وبفضل كيفيات هذا النظام صار الشعور كذلك عضواً حسياً يُعلم به جزء من عملياتنا الفكرية بعد أن كان حتى الساعة عضواً حسياً تعلم به الإدراكات وحدها. وبذا يصبح عندنا الآن . إن جاز التعبير . سطحان حاسان، يتَّجه أحدها جهة الإدراك ويتجه الآخر جهة العمليات الفكرية قبل الشعورية[566].

ويجب عليَّ أن أفترض أن حالة النوم تجعل السطح الحاس للشعور المتجه نحو قبش. يقل كثيراً عن السطح المتجه نحو الأنظمة إذ. من حيث قابلية التهييج. ومن المستيقن أن إبطال الاهتمام بالعمليات الفكرية في أثناء الليل لا يخلو أيضاً من الغرض: فمن الواجب أن يقف كل فكر لأن ما قبل الشعور يطلب النوم. ولكن الحلم . وقد صار إدراكاً . لا يلبث حتى تصير له القدرة على تهييج الشعور بفضل ما اكتسبه الآن من الكيفيات. وهذا التهييج الحسي لا يلبث أن يحقق ما هو وظيفته الجوهرية؛ فيحوِّل جزءاً من الطاقة الاستثمارية المتوافرة في قبش. إلى انتباه متَّجه إلى علة التنبيه. وعلى ذلك يجب التسليم بأن لكل حلم تأثيراً موقظاً ، أي أنه يحرك جزءاً من الطاقة الاستثمارية المستكنة في قبش. إلى العمل. وعندئذ تحدث هذه القوة ذلك التأثير الذي وصفناه بأنه مراجعة ثانوية تستهدف جعل الحلم متَّسق الأجزاء معقولاً. وهذا يعني أن الحلم يعامل عندئذ كما يعامل أي محتوى إدراكي آخر، أنه يلاقي . بقدر ما تحتمله مادته . بما يلاقي به غيره من التوقعات الفكرية [ارجع إلى ص 522]. وبقدر ما يكون لهذا الجزء الثالث من عملية الحلم أي اتجاه، فهو اتجاه تقدمي.

ولكي نتجنب كل خطأ في الفهم فقد تناسب المقام هنا كلمة عن الترتيب الزمني لهذه العمليات الحلمية: لقد اقترح جوبلو فكرة جد جذابة،

أوحاها من غير شك لغز حلم موري عن المقصلة [ص 75]. فهو ـ أعني جوبلو ـ يريد أن يثبت أن الحلم لا يشغل من الزمن إلا فترة الانتقال من النوم إلى اليقظة. فعملية الاستيقاظ تستغرق مقداراً من الزمن وفي هذا الزمن يقع الحلم، ونتخيَّل نحن أن الصورة الأخيرة للحلم كانت قوية حتى إنها أيقظتنا بينما الحقيقة أن هذه القوة لم تكن لها إلا لأننا كنا في هاته اللحظة على وشك الاستيقاظ: «الحلم يقظة تبدأ»[567].

ولقد سبق أن بيَّن دوجا كيف يضطر جوبلو إلى أن يغض النظر عن الكثير من الحقائق قبل أن يستطيع إطلاق رأيه هذا على عمومه. فهناك أحلام لا يستيقظ المرء منها؛ مثال ذلك بعض الأحلام التي يحلم فيها المرء أنه يحلم. وما كنا نحن ـ بعد الذي علمناه عن عمل الحلم ـ لنستطيع الموافقة على أن الحلم لا يشغل إلا فترة الاستيقاظ. بل الراجح عندنا ـ على العكس ـ هو أن الجزء الأول من عمل الحلم قد بدأ أثناء النهار نفسه تحت سيطرة ما قبل الشعور. وأما جزؤه الثاني ـ التعديل الذي تفرضه الرقابة والجذب الذي يصدر عن المشاهد الطفلية وشق الطريق إلى الإدراك ـ فلا شك في أنه يستغرق الليل كله. ونحن من هذه الناحية قد نكون على حق دائماً حين نعرب عن شعورنا بأننا كنا نحلم طيلة الليل وإن لم نستطع القول بمَ [أنظر ص 538]. غير أنني لا أرى ضرورة إلى أن نفترض أن الحلم يلتزم فعلاً ـ حتى يصير شعورياً ـ هذا الترتيب الزمني الذي وصفت: فيكون أول ما يقع هو الرغبة الحلمية المحوَّلة ثم يعقب التشويه بوساطة الرقابة ثم التغيير النكوصي في الاتجاه، وهكذا. وإنما اضطررنا إلى الأخذ بهذا الترتيب التعاقبي عند الوصف، ولكن الذي يحدث حقيقة هو ولا ريب استكشاف يضرب في هذا الاتجاه وذاك في آن واحد، ذبذبة في التهييج تأخذ هذه الوجهة ثم تلك، إلى أن يتراكم هذا التهييج أخيراً في أنسب اتجاه فيثبت تجمُّع من تجمعاته دون سائره. ويهيأ إليّ استناداً إلى بعض خبراتي الشخصية أن الحلم يقتضي في كثير من الأحايين أكثر من نهار وليلة. وإذا كان الأمر كذلك لم نعد بحاجة إلى الدهش للمهارة الخارقة التي تتجلى في تكوين الحلم. لا، بل أعتقد أن الشرط الذي يقتضي أن يجيء الحلم معقولاً من حيث هو حدث إدراكي قد يأخذ في إحداث فعله والحلم لما يجتذب الشعور إليه. ولكن لا شك في أن العملية تسارع، ابتداءً من تلك اللحظة، إلى ختامها؛ فالحلم يعامل الآن مثلما يعامل أي مدرك آخر. إن الأمر أشبه بالصواريخ يستغرق إعدادها الساعات ثم تنفق في لحظة واحدة.

إن عملية الحلم إما أن تكون الآن قد اكتسبت بعمل الحلم شدة تكفي جذب الشعور إليها وإيقاظ ما قبل الشعور بغض النظر عن زمن النوم وعمقه، وإما أن شدَّتها لا تكفي ذلك فيتعين عليها البقاء في حالة من الاستعداد إلى أن يصبح الانتباه خفيف الحركة قبيل الاستيقاظ فتلقاه. ويبدو أن غالبية الأحلام تعمل بشدَّات نفسية منخفضة انخفاضاً نسبياً؛ لأنها في معظم الأحيان تبقى منتظرة إلى أن تحين لحظة اليقظة. ولكن ذلك يفسر أيضاً تلك الحقيقة، وأعني بها أننا إذا أوقظنا من نوم عميق فجأة أدركنا في العادة شيئاً حلمنا به. وفي هذه الحالات يكون أول ما نراه هو المحتوى الإدراكي الذي كوَّنه عمل الحلم ثم عقب ذلك نرى المحتوى الإدراكي الذي يعرض من الخارج ـ مثلما يقع حين نستيقظ من تلقاء أنفسنا.

غير أن الأحلام التي تملك القدرة على إيقاظنا في منتصف النوم تثير قسطاً أعظم من الاهتمام النظري. ذلك أننا قد نفكر في حسن التدبير الذي رأينا أنه القاعدة في كل مكان، فنتساءل؛ لمَ زوَّد الحلم ـ أي الرغبة اللاشعورية ـ بالقدرة على إزعاج النوم ـ أي الرغبة قبل الشعورية؟ إن ذلك يرجع من غير شك إلى علاقات خاصة بالطاقة لا نعلم من أمرها شيئاً. ولو كان لنا مثل هذا العلم لرأينا في الراجح أن ترك الحلم يأخذ مجراه مع إنفاقنا عليه مقداراً محدوداً من الانتباه غير المشغول هو اقتصاد في الطاقة إذا قورنَ بما يقتضيه إلجام اللاشعور إلجاماً وثيقاً في الليل مثله في النهار. ثم إن التجربة ترينا أن الحلم لا يتعارض والنوم، ولو قُطع النوم مرات متعددة في أثناء الليل. فالمرء إنما يستيقظ عندئذٍ لحظة يعود على فورها إلى نومه. إنه كمن يطرد ذبابة وهو نائم؛ فاستيقاظه محدود بغرضه وحين يستأنف المرء نومه يكون قد قضى على الإزعاج. ولا يتنافى تحقيق الرغبة في النوم أقل تنافٍ مع المداومة على صرف قسط من الانتباه في ناحية ما ـ كما يتبين من أمثلة مألوفة كنوم المرضع.

وهنا ينهض اعتراض يقوم على معرفة أدق بالعمليات الشعورية. فقد قلت: إن الرغبات اللاشعورية لا تنقطع عن النشاط. ولكن هذه الرغبات لا تبدو مع ذلك قوية إلى المدى الذي يجعلنا نحس بها في أثناء النهار. فإذا ما ضربت حالة النوم أطنابها وأبدت الرغبة اللاشعورية قوة تكفي تكوين الحلم وإيقاظ ما قبل الشعور، فلماذا يغيض معين هذه القوة بعد أن يبلغ الحلم علمنا؟ أما كان ينبغي أن يتردّد الحلم من غير انقطاع كما تلح ذبابة سمجة على الرجوع كلما طردت؟ بأي حق نزعم أن الحلم يقضي على إزعاج النوم؟

إن من الصحيح كل الصحة أن الرغبات اللاشعورية ناشطة دائماً؛ فهي بمثابة طرقات يمكن دائماً اجتيازها كلما التجأت إليها كمية من التهييجات [أنظر ص 571 في الهامش]. بل إن كون العمليات اللاشعورية لا تقبل الهدم سمة بارزة من سماتها؛ فلا شيء في الشعور يُنهى ولا شيء يزول أو ينسى. ويشعر المرء بذلك أشد ما يشعر به حين يدرس الأعصبة، وبخاصة الهستيريا. فالطريق اللاشعورية للأفكار، الطريق المؤدية إلى التفريغ في النوبة الهستيرية، تصبح على الفور مهيأة لاجتيازها من جديد إذا تراكم قدر كافٍ من التهييج. والمذلّة التي وقعت منذ ثلاثين عاماً تظل تعمل مثل مذلة مستحدثة طيلة هذه الأعوام الثلاثين بعد أن تجد مجازاً إلى المنابع اللاشعورية للوجدان. فكلما مسّت ذكراها انبعثت إلى الحياة من جديد واتضح أنها لا تزال مستثمرة بتهييج يجد تفريغه الحركي في نوبة من النوبات. وذلك على التحديد هو الموضع الذي يجب على التحليل النفسي أن يتدخل عنده. فمهمته هي أن ييسِّر للعمليات اللاشعورية إمكانية معالجتها معالجة نهائية ونسيانها. لأن اضمحلال الذكريات والوهن الوجداني للانطباعات التي قدم بها العهد ـ هذا الاضمحلال وهذا الوهن اللذان ننزع إلى اعتبارهما أمراً واضحاً بذاته ونتيجة أولية من نتائج فعل الزمن

في الآثار الذكروية النفسية . إنما هما في الحقيقة تغييرات ثانوية لا تتم إلا بعمل شاق. والذي يقوم بهذا العمل هو ما قبل الشعور، ولا يستطيع العلاج النفسي أن يتبع طريقاً آخر سوى وضع اللاشعور تحت سيطرة ما قبل الشعور[568].

وهكذا يكون لكل عملية تهييجية لاشعورية مخرجان ممكنان: إما أن تُترك لشأنها، وهي في هذه الحالة قد تتمكن من شق طريقها في موضع ما وفي هذه المناسبة المفردة تحصل على تفريغ تهييجها في الحركة، أو هي قد تقع تحت تأثير ما قبل الشعور، وبذلك يقيَّد تهييجها بدل أن يفرغ، وهذا الاحتمال الثاني هو الذي يتحقّق في عملية الحلم. فالاستثمار الذي يذهب إلى منتصف الطريق صادراً عن ما قبل الشعور ليلاقي الحلم بعد أن صار محتوى إدراكياً، ويذهب إليه بفعل التهييج الذي يحدثه الحلم عندئذ في الشعور، هذا الاستثمار يقيِّد التهييج اللاشعوري للحلم ويسلبه القدرة على الإزعاج. وإذا كان من الحق أن الحالم يستيقظ طرفة عين، إلا أنه يكون في الواقع قد طرد بذلك الذبابة التي كانت تهدد بإزعاج نومه. ومن ثم فقد نحدس الآن أن السماح للرغبة اللاشعورية بأن تأخذ مجراها وتركها تسلك طريق النكوص لكي تكوّن حلماً تم تقييد الحلم بعدئذ والتخلص منه ببذل قسط ضئيل من العمل قبل الشعوري . هو فعلاً مسلك أحسن تدبيراً وأكثر اقتصاداً من المداومة على إلجام اللاشعور إلجاماً محكماً طيلة فترة النوم جميعها. والحق أنه كان أمراً متوقعاً أن يكون الحلم قد اكتسب لنفسه وظيفة ما وسط اللعب المتبادل بين القوى النفسية، حتى لو كان في مبدأ أمره عملية مجردة من كل قصد نافع. وفي وسعنا الآن أن نرى ما هي هذه الوظيفة: فالحلم قد أخذ على عاتقه أن يعيد إلى سيطرة ما قبل الشعور التهييج الذي تُرك حراً في اللاشعور. وهو إذ يفعل ذلك يفرغ التهييج اللاشعوري، يعمل له عمل صمام الأمان وفي الوقت عينه يصون نوم ما قبل الشعور لقاء بذل ضئيل للنشاط المستيقظ. وهكذا يكون الحلم حلاً وسطاً، شأنه في ذلك شأن سائر الأبنية النفسية التي من طبقته؛ إنه يخدم كِلا النظامين إذ يحقق كلتا الرغبتين . بقدر إمكان الاتفاق بينهما. فإذا ألقينا الآن نظرة إلى «النظرية الإفرازية» في الحلم . وهي النظرية التي قال بها روبرت وشرحتها في ص 220 . تبين أن من الواجب إقرار هذا المؤلف على ما يذهب إليه من حيث الجوهر، من حيث يحدد للحلم وظيفة[569]. وإن كنا نختلف معه في المقدمات وفي نظرتنا إلى عملية الحلم.

إن التحفظ الذي نصصنا عليه في قولنا: «بقدر إمكان الاتفاق بين الرغبتين»، يلمح إلى احتمال أن تكون هناك حالات تؤول فيها وظيفة الحلم إلى الإخفاق. فقد أذن لعملية الحلم أن تبدأ من حيث هي تحقيق رغبة، ولكن هذا التحقيق الملتمس إذا نافر ما قبل الشعور منافرة عنيفة حتى ليجعلني عاجزاً عن المضي في النوم كان معنى ذلك أن الحلم قد أخلّ بالحل الوسط وأخفق في تحقيق النصف الثاني من مهمته، وفي هذه الحالة يقطع حبل الحلم على الفور ويحل محله الاستيقاظ التام. وهنا أيضاً لا يرجع الذنب في الحقيقة إلى الحلم إذا ألجيء إلى الظهور بمظهر مزعج النوم بدل أن يعمل عمله السوي حارساً له، ولا داعي يدعونا إلى أن نأبى الاعتراف له بقصده النافع؛ فذلك في الكائن العضوي ليس المثال الأوحد على وسيلة لها في السوي من الأحوال نفعها ولكنها لا تلبث أن تتجرد من هذا النفع وتغدو مزعجة إذا تغيّرت الشروط التي تبعث عليها بعض التغيير. ثم إن هذا الإزعاج يخدم على الأقل ذلك الغرض الجديد، ألا وهو: جذب الانتباه إلى التغيير وتحريك الأداة التي تنظِّم سير الكائن العضوي إلى العمل. والذي أفكر فيه بالطبع وأنا أقول هذا الكلام هو حالة أحلام الهيلة، ولكي لا يظن بحق أنني أتجنب هذا الشاهد الذي ينقض نظرية تحقيق الرغبة كلما صادفته، أدلي في تعليل هذه الأحلام ولو ببعض الإشارات.

لأن تكون عملية نفسية تتمخض عن الهيلة تحقيق رغبة في الوقت عينه، هذه فكرة لم نعد منذ زمن طويل نرى فيها تناقضاً ما. فنحن نعلم أن من الممكن تعليلها بكون الرغبة تنتمي إلى نظام، هو لاش. ، على حين أنها قد لاقت نبذاً وقمعاً من النظام قبش[570]. ولا يكون خضوع اللاشعور لما قبل الشعور خضوعاً مطلقاً حتى حين تكون الصحة النفسية مكتملة، وإنما يُرينا مقياس القمع درجة السواء النفسي. وتدلنا الأعراض العصابية في هذا الصدد على أن النظامين مشتبكان في صراع كلاً والآخر. فهي . هذه الأعراض . نتائج حل وسط ينهي الصراع إنهاءً موقوتاً: إنها . من جهة . تسمح للاشعور بمخرج يفرغ منه تهييجه مزودة إياه بما يشبه أن يكون باباً جانبياً، وهي . من جهة أخرى . تمكّن ما قبل الشعور من السيطرة على اللاشعور إلى حد ما. ومن المفيد في هذا الصدد أن ننظر مثلاً في معنى مخافة هستيرية أو في معنى هيلة الأماكن الطلقة، ولنفرض مريضاً لا يستطيع اجتياز الشارع وحده . وهو وضع نعدُّه بحق «عرضاً»: إننا إذا أزحنا هذا العرض بحمل المريض على أن يأتي الفعل الذي يعتقد عجزه عنه، كانت النتيجة أن تنطلق نوبة من الهيلة، كما أن وقوع نوبة الهيلة يكون في كثير من الأحيان السبب المعجل باستتباب المخافة. ومن هذا نرى أن العرض قد أقيم تجنباً لانطلاق الهيلة، أو أن المخافة بمثابة حصن يحمي من الهيلة.

لقد أخذنا في مناقشة تستحيل مواصلتها إلا إذا بحثنا النصيب الذي تقوم به الحالات الوجدانية في هذه العمليات . وهو ما لا نستطيعه هنا إلا على نحو جد ناقص. فلنفترض إذن تلك القضية: وهي أن قمع اللاشعور أمر يلزم قبل كل شيء لأن مجرى الأفكار في اللاشعور إذا ترك لنفسه تولدت عنه حالة وجدانية كانت في الأصل ذات طابع لاذ ولكنها صارت على عكس ذلك بعد وقوع عملية الكبت. والغرض من القمع، وكذلك نتيجته، هو الحيلولة دون هذا الانطلاق للألم. ويمتد القمع إلى المحتوى الفكري للاشعور لأن انطلاق الألم قد يبدأ من هذا المحتوى. وينطوي هذا الكلام على فرض محدد تمام التحديد فيما يتعلق بطبيعة توليد الحالة الوجدانية: فنحن نعد هذا التوليد وظيفة حركية أو إفرازية يكمن المفتاح إلى تعصيبها في أفكار اللاشعور [أنظر ص 491 . 492]. ولكن السيطرة المفروضة من جانب ما قبل الشعور تخنق هذه الأفكار وتكفها عن إطلاق اندفاعاتها

التي من شأنها توليد الحالة الوجدانية. فإذا انقطع الاستثمار من جانب ما قبل الشعور، كان الخطر أن تطلق التهييجات اللاشعورية حالة وجدانية من نوع لا يمكن أن يُحس إلا في صورة ألم، في صورة هيلة ـ نتيجة للكبت الذي وقع من قبل.

هذا الخطر يتجسد إذا ترك لعملية الحلم أن تأخذ مجراها. وشرطا تحققه هما: أن تكون عمليات كبت قد وقعت وأن تتمكَّن الاندفاعات الراغبة المقموعة من بلوغ قوة كافية، وهما إذن شرطان يخرجان من نطاق سيكولوجية الحلم خروجاً تاماً، ولولا أن موضوعنا يرتبط بموضوع توليد الهيلة من نقطة واحدة ـ وأعني بها تحرر اللاشعور في أثناء النوم ـ لكان في مستطاعي أن أسقط كل مناقشة في صدد أحلام الهيلة وأن أتجنَّب الخوض على هذه الصفحات فيما يحيط بها من الظلمات.

إن نظرية أحلام الهيلة ـ كما أعلنته مراراً من قبل ـ جزء من سيكولوجية الأعصبة[571]. ولا يعود لنا شأن بها بعد أن نبيِّن موضع التماس بينها وبين موضوع عملية الحلم. وكل الذي أستطيعه بعد الآن شيء واحد: ذلك أنني ـ وقد قررت أن الهيلة العصابية تنبعث من مصادر جنسية ـ أرى أن أحلل بعض أحلام الهيلة لكي أبيِّن المادة الجنسية الماثلة في أفكارها الكامنة.

وعندي أسباب وجيهة تدعوني إلى أن أترك جانباً في خلال المناقشة الحاضرة الأمثلة الغزيرة التي يزودني بها مرضاي العصابيون وأن أستشهد بأحلام هيلة أتاها بعض الأحداث.

لقد خلت عقود منذ أتاني حلم هيلة بالمعنى الصحيح، ولكنني أذكر حلماً من سنتي السابعة أو الثامنة، حللته بعد ذلك بما يقرب من الثلاثين عاماً. كان حلماً شديد الجلاء رأيت فيه أمي المحبوبة وقد ارتسم على ملامحها تعبير نائم وادع دعة غريبة يحملها شخصان (أو ثلاثة) لهم مناقير الطير ويرقدونها على الفراش. واستيقظت باكياً صارخاً حتى قطعت على والدَي نومهما. ـ إن الشخوص الملفَّعة في هيئة غريبة، ذوات الطول الخارق ومناقير الطير قد اشتقوا من توراة فيليبسون[572]. ولا إخال إلا أنهم كانوا آلهة برؤوس العقاب نقلت صورتهم من حفر جنائزي منحدر من مصر القديمة. وقد ذكرني التحليل فوق ذلك بغلام سيىء التنشئة، ابن بواب اعتاد اللعب معنا على حشيش أمام المنزل ونحن صغار، ويغلب على ظني أنه كان يدعى فيليب. ويبدو لي أن هذا الولد كان أول من سمعت على لسانه اللفظ العامي لفعل الجماع ـ وهو اللفظ الذي يستخدم المثقفون دائماً في محله كلمة لاتينية، ولكن دلّ عليه في الحلم اختيار رؤوس العقاب دلالة كافية الوضوح[573]. ولا بد أني خمنت المفهوم الجنسي للكلمة من سيما معلمي المحنك هذا. فأما التعبير الذي ارتسم على ملامح أمي في الحلم فينقل مرأى جدي إذ شهدته قبل موته بأيام قلائل وهو يشخر في غيبوبته. وعلى ذلك وجب أن تذهب المراجعة الثانوية في تفسيرها الذي تقوم به في الحلم إلى أن الأم قد ماتت، ويلائم ذلك الحفر الجنائزي كذلك. واستيقظت في هيلة لم تنقطع حتى أيقظت والدي. وأذكر أني هدأت فجأة حين رأيت وجه أمي كأنما كانت بي حاجة إلى ما يطمئنني أنها لم تمت. سوى أن هذا التفسير الثانوي إنما أتى تحت تأثير هيلة قد أخذت من قبل في التمخض. فأنا لم أستشعر الهيلة لأن أمي قد ماتت، بل فسرت الحلم هذا التفسير في مراجعتي الثانوية إياه لأنني كنت فعلاً تحت تأثير الهيلة. فإن حسبنا للكبت حسابه أمكن تأثر الهيلة إلى رغبة مبهمة، جنسية في غير خفاء، وجدت في المحتوى البصري للحلم ما يعرب عنها إعراباً موفقاً.

وحكى رجل في السابعة والعشرين من عمره كان مريضاً بمرض خطير منذ عام أنه وهو بين الحادية عشرة والثالثة عشرة كان يحلم تكراراً (مع مصاحبة هيلة شديدة الوطأة) بأن رجلاً يطارده بفأس فيحاول الفرار منه ولكنه يبدو كأنما أصابه الشلل فلا يستطيع التحرك من موضعه. إن ذلك مثال طيِّب من نوع شائع غاية الشيوع ما كنا نظنه قط حلماً جنسياً. فلما أخذنا في التحليل عثر الحالم بادىء ذي بدء على قصة ترجع إلى زمن متأخر عن الحلم، رواها له عمه عن رجل مريب الطلعة هاجمه ليلة في الطريق. واستخلص الحالم بنفسه من هذا الاستدعاء أنه ربما كان قد سمع بقصة تماثل هذه في زمن الحلم. وأما فيما يتعلق بالفأس فيذكر الحالم أنه قرب هذا الزمن قد جرح يده بفأس وهو يقطع الخشب. ثم مضى على أثر ذلك إلى الحديث عن علاقاته بأخيه الأصغر؛ لقد كان من عادته أن يسيء إلى هذا الأخ وأن يقرعه على الأرض، وإنه ليذكر بنوع خاص مناسبة رفس فيها بحذائه الغليظ رأس أخيه فأدماه، ويذكر كيف صاحت أمه حينئذ: أخشى أن يكون موت الصغير على يديه يوماً ما. وبينما بدا أنه ما زال مشغولاً بموضوع العنف طرأت على باله فجأة ذكرى ترجع إلى سنته التاسعة؛ فقد عاد والداه إلى المنزل في ساعة متأخرة وذهبا إلى الفراش بينما كان هو يتصنع النوم. وما لبث أن سمع لهثاً وأصواتاً أخرى بدت له غريبة عن كل مألوف، كما استطاع كذلك أن يحذر وضع الزوجين في الفراش. وتبيَّن من أفكاره بعد ذلك أنه قد عقد مماثلة بين علاقة والديه هذه وبين علاقته هو بأخيه. فقد أدرج ما وقع بين والديه في تصوُّر: العنف والشجار. وأيَّد هذا الظن عنده أنه كان كثيراً ما يرى دماً على فراش الأم.

إن كون الجماع الجنسي بين الراشدين يفجأ من يلحظونه من الأطفال كما لو كان شيئاً غريباً عن المألوف يثير الروع في نفوسهم، أمر يجوز لي القول بأنه موضع خبرة يومية. ولقد عللت هذه الهيلة بالقول: إننا نرانا هنا إزاء تهييج جنسي لم يستطع الأطفال السيطرة عليه بأفهامهم كما أنهم يسارعون بلا ريب إلى نبذه لأنه يمس والديهم، ومن ثم يتحوَّل إلى هيلة. وهناك بعد مرحلة تسبق هذه من مراحل الحياة الجنسية نرى فيها التهييجات المتجهة إلى الوالد الذي من الجنس المقابل وهي لا تلقى بعد كبتاً وتعرب عن نفسها إعراباً حراً ـ كما سمعنا من قبل (ص 294).

ولست أتردد في تطبيق هذا التعليل ذاته على نوبات الهيلة الليلية المصحوبة بهلاوس (pavor nocturnus) والتي يشيع وقوعها عند الأطفال كل شيوع. فما يتعلق الأمر هنا أيضاً إلا بانطباعات جنسية لم تلق فهماً ولاقت نبذاً. ومن المرجح أن يطلعنا الاستقصاء في البحث على دورية نظيمة في وقوع هذه النوبات؛ إذ أن زيادة الليبيدو الجنسية لا تنجم عن الانطباعات المهيجة العارضة وحدها، بل هي قد تكون متوقفة كذلك على موجات متعاقبة من العمليات التمخضية التلقائية.

وإني لتعوزني المادة الكافية القائمة على الملاحظة حتى أتمكن من تأييد هذا التعليل[574]. وأما أطباء الأطفال فيبدو على العكس أنهم إنما تعوزهم وجهة النظر التي يستطيعون بها وحدها فهم جميع هذه الطبقة من الظواهر، سواء من الناحية الجسمية أو النفسية. وأود أن أسوق في هذا الصدد مثالاً مضحكاً يرينا كيف تستطيع مئمات[575] الأساطير الطيبة أن تعمي المرء عن فهم أمثال هذه الحالات بعد أن صار من هذا الفهم قيد شعرة، وهذا المثال قد وجدته في رسالة دوباكر عن الرعب الليلي (1881، ص 66):

ولد ضعيف الصحة في الثالثة عشرة من عمره أخذ يغدو قلقاً حالماً، وصار ينام نوماً مضطرباً تقطعه نوبات شديدة الوطأة من الهيلة المصطحبة بالهلاوس . وكانت تقع له بما كاد أن يعدل المرة في كل أسبوع. وكانت هذه الأحلام واضحة دائماً في ذاكرته كل الوضوح. وهكذا أمكنه أن يروي أن الشيطان قد صاح به: لقد أمسكنا بك، لقد أمسكنا بك. وحينئذ كانت تتصاعد رائحة قار وكبريت وتحرق ألسنة النار جلده. وكان يستيقظ في رعب وهو لا يستطيع في مبدأ الأمر صراخاً، فإذا استرجع صوته سمعته سمعاً واضحاً وهو يقول: «لا، لا، ليس أنا، إني لم أرتكب شيئاً» أو: «صفحاً، صفحاً، لن أعود إلى ذلك ثانية». وكان يقول في أحيان أخرى: «إن ألبير لم يرتكب ذلك قط». وبعد ذلك صار الولد يرفض نزع ثيابه «لأن النار لا تمسك به إلا وهو عار». وأُرسل الولد وسط هذه الأحلام الشيطانية التي صارت خطراً يتهدد صحته إلى مكان في الريف حيث استعاد صحته في خلال عام ونصف العام. فلما بلغ الخامسة عشرة من عمره اعترف مرة قائلاً: «إني لم أكن أجرؤ على الاعتراف بذلك، ولكني كنت أحس طيلة الوقت نخساً في الأعضاء[576] وتهييجاً زائداً، وأخيراً جعل ذلك يثير أعصابي حتى أنني فكرت كثيراً من المرات في إلقاء نفسي من نافذة عنبر النوم»[577].

الحق أنه لا يصعب علينا أن نخمّن: 1) أن الولد كان يستمني حين كان أصغر سناً، وأنه قد أنكر ذلك في الراجح، وأنه هدِّد بعقاب شديد على عادته السيئة (أنظر تصريحه: «لن أعود إلى ذلك أبداً»، ثم إنكاره: «إن ألبير لم يرتكب ذلك قط»)[578]، 2) أن دفعات المراهقة قد أحيت من جديد إغراء الاستمناء في صورة ذلك النخس المحس في أعضائه التناسلية، غير أن 3) صراعاً نشب في نفسه من أجل الكبت، فقمع الليبيدو عنده وأحالها إلى هيلة. وأخذت هذه الهيلة تردد من بعد ما قد هدِّد به الولد في تلك المرة من صنوف العقاب.

فلنسمع الآن النتائج التي انتهى إليها مؤلفنا (ص 80): «يخلص من هذه الملاحظة ما يأتي:

1) أن تأثير المراهقة قد تنجم عنه عند طفل ضعيف الصحة حالة من الضعف الشديد وقد يؤدي إلى درجة شديدة من الأنيمية المخية[579].

2) تؤدي هذه الأنيمية إلى تغيير في الطبع وهلاوس مدارها الشيطان وإلى حالات من الهيلة شديدة العنف تقع في أثناء الليل، وربما كانت تقع أيضاً في أثناء النهار.

3) يرجع هواس الشيطان وترجع مؤاخذة الولد نفسه إلى مؤثرات التربية الدينية التي أثَّرت فيه وهو طفل.

4) اختفت جميع هذه المظاهر في خلال إقامة مطوَّلة في الريف، نتيجة للتمرين البدني ولاسترجاع القوى بعد انقضاء المراهقة.

5) من الجائز أن نعزو إلى الوراثة وإلى إصابة الأب القديمة بالزهري تأثيراً مهَّد لنشوء حالة الطفل المخية».

ثم ها هي ذي كلمة الختام: «لقد أدرجنا ما لاحظناه في نطاق أهذية الإعياء غير الحمية؛ وذلك لأننا نعزو هذه الحالة الخاصة إلى الأسكيمية المخية»[580].

هـ
العمليات الأولية والعمليات الثانوية – الكبت

إني حين جازفت فحاولت أن أتعمّق سيكولوجية عمليات الحلم قد تكلفت مهمة عسيرة، ثم هي مهمة ليس عندي من القدرة على العرض ما يكافئها. فأن أنقل ما هو في الحقيقة كل معقد متزامن الأجزاء في وصف متعاقب اللحظات وأن أظهر في كل قضية أسوقها بمظهر من لا يعلم شيئاً عن مقدماتها، ذلك ما تعجز عنه قواي. وكل هذا هو الجزاء الوفاق على أنني حين تعرضت لسيكولوجية الحلم لم أستطع اتّباع التطور التاريخي لأفكاري. فقد جئت إلى موضوع الحلم مقاداً بأعمالي السابقة في ميدان سيكولوجية الأعصبة التي أردت ألا أتّخذ منها أساساً أرجع إليه في الكتاب الحاضر، ومع هذا أراني مساقاً إلى ذلك في كل خطوة أخطوها بدل المضي في الاتجاه المخالف متخذاً من الحلم وسيلة إلى الاقتراب من سيكولوجية الأعصبة كما كانت مشيئتي. وإني لأعلم كل الاضطراب الذي يجرُّه ذلك على القارىء، ولكني لا أعرف وسيلة إلى تجنبه.

وبين هذا السخط على هذه الحال يسرني أن أقف هنيهة عند اعتبار آخر أرى أنه يرفع من قيمة الجهود التي بذلت. فقد رأيتني أواجه موضوعاً غلبت على آراء أهل الثقة فيه أقطع المتناقضات . على ما بيَّنته في الفصل الأول. ولكن معالجتنا لمشكلات الحلم قد تركت لغالبية هذه الآراء المتناقضة محلاً. فليس إلا رأيان رأينا وجوب نفيهما نفياً باتاً: أن الحلم عملية لا معنى لها وأنه عملية جسمية. وأما فيما خلا ذلك فقد كان في استطاعتنا أن نجد مبرراً لجميع هذه الآراء المتناقضة في موضع أو آخر من نظريتنا المعقدة، وأن نبيِّن أن كلامها قد لمس طرفاً من الحقيقة. فالرأي القائل: إن الأحلام تواصل مشاغل حياة اليقظة واهتماماتها قد أيَّد مطلق التأييد باكتشاف أفكار الحلم المختبئة. فهذه لا تشغل إلا بما يبدو لنا ذا خطر ويثير أعظم اهتمامنا، ولا تشغل الأحلام أبداً بالصغائر ولكنا رأينا كذلك ما يدعو إلى قبول الرأي المخالف أن الحلم يلتقط الحثالة التافهة المتبقية من النهار ولا يستطيع الاستيلاء على أحد اهتماماتنا النهارية الكبرى إلا بعد أن يخرج هذا الاهتمام من نطاق نشاطنا المستيقظ بعض الخروج. فقد رأينا أن هذا الرأي يصدق على محتوى الحلم الذي يعرب عن أفكار الحلم في صورة غيَّرها التشويه. وكان الذي قلناه هو أن الاستيلاء على مادة فكرية حديثة أو مجردة من الشأن، لم تقع بعد تحت نير النشاط الفكري المستيقظ، أسهل على عملية الحلم لأسباب تتعلق بميكانيكية التداعي، ولأسباب تتعلق بالرقابة كانت هذه العملية تحوّل الشدة النفسية عما هو هام لكنه غير مقبول إلى ما كان أمره يستوي. فأما أن الأحلام ذات ذاكرة مغرقة وأنها تنفذ إلى مادة من عهد الطفولة، فذلك ما صار ركناً رئيساً فيما نذهب إليه؛ فنظريتنا في الحلم ترى في الرغبات الناشئة من الطفولة قوة دافعة لا يستغني عنها في تكوينه. ولا خطر لنا بالطبع أن نلقي ظلاً من الشك على ما أثبته التجريب من أهمية المنبهات الحسية الخارجية في أثناء النوم، سوى أننا بيَّنا أن علاقة مثل هذه المادة برغبة الحلم لا تختلف عن علاقة بقايا الفكر المتخلفة من النهار. كذلك لم نر مدعاة إلى منازعة الرأي القائل بأن الأحلام تأول المنبهات الموضوعية الحسية كما تفعل أوهام الحواس، ولكنا بينا دافع هذا التأويل . وهو الدافع الذي تركه المؤلفون الآخرون من غير تحديد. ذلك أن هذا التأويل يؤتى بحيث يفقد الموضوع المدرك قدرته على إزعاج النوم ويصير في الوقت عينه قابلاً لأن يستخدم طوع تحقيق الرغبة. وما الحالات التهييجية الذاتية التي تطرأ على أعضاء الحواس في خلال النوم . هذه الحالات التي يبدو أن ترامبال لاد قد أثبت وقوعها . فصحيح أننا لم نسلم بها مصدراً خاصاً من مصادر الحلم، ولكنا استطعنا تعليلها قائلين: إنها تنجم عن الإحياء النكوصي للذكريات التي تعمل عملها وراء الحلم. والإحساسات العضوية الباطنية التي كانت تعد طواعية حجر الزاوية في تعليل الأحلام، هذه أيضاً قد احتفظت بمكان في نظريتنا . وإن يكن مكاناً أكثر تواضعاً. فهذه الإحساسات . كإحساس الوقوع أو الهوام في الفضاء أو الكف . توفِّر مادة يسهل تناولها في كل وقت ويستطيع عمل الحلم أن يلجأ إليها من أجل الإعراب عن أفكار الحلم كلَّما دعت إلى ذلك حاجة.

والقول بأن عملية الحلم عملية سريعة آنيّة قول صادق في نظرنا فيما يتعلق بإدراك الشعور للمحتوى الحلمي الذي تم تكوُّنه، ولكن الراجح أن الأجزاء السابقة من عملية الحلم تجري جرياً بطيئاً متقلباً. واستطعنا كذلك أن نشترك في حل لغز الأحلام التي تحتوي على مقدار ضخم من مادة ضغطت في أقصر برهة من الزمن حين أوحينا أن الحلم في أمثال هذه الحالات إنما يضع يده على مادة جاهزة الصنع كانت حاضرة في الحياة النفسية من قبل. وأما أن الذاكرة تشوِّه الأحلام وتجتزىء منها فهذا ما نسلم به ولكن دون أن نعدّه عقبة؛ فما ذلك إلا آخر جزء من أجزاء النشاط المشوه الذي تحرك إلى العمل منذ بدء تكوين الحلم وأظهرُها. ثم هاته المعركة المرة والتي لا يبدو سبيل إلى الاتفاق فيها حول ما إذا كانت النفس تنام في الليل أو تمتلك جميع ملكاتها امتلاكها إياها في النهار، لقد كان رأينا فيها أن كِلا الجانبين صحيح دون أن تكون له الصحة كلها. فقد رأينا في أفكار الحلم شاهداً على وظيفة عقلية غاية في التعقيد تكاد تعمل بكل ما يملك الجهاز النفسي من الموارد، ولكنا لا نستطيع أن ننكر مع ذلك أن هذه الأفكار الحلمية قد نشأت في خلال النهار كما أنه لا محيد عن أن نفترض أن الحياة النفسية تمر بحالة من النوم. وهكذا حتى نظرية النوم الجزئي قد ظهرت لها هي الأخرى أهميتها . وإن لم يكن من رأينا أن خاصة حالة النوم تقوم في تصدُّع الروابط النفسية، بل في تركز النظام النفسي

المسيطر نهاراً في رغبة النوم. كذلك يحتفظ عامل الانفصال عن العالم الخارجي بأهميته في نطاق تصورنا؛ فهو ييسِّر نكوص التصوير الحلمي . إن لم يكن العامل الوحيد في ذلك. ثم التخلي عن توجيه الأفكار توجيهاً إرادياً، تلك حقيقة لا سبيل إلى الجدال فيها، لكنها لا تفقد الحياة النفسية كل قصد، فقد رأينا كيف تتولى مقاليد الحكم أفكار غائية لاإرادية بعد النزول عن الأفكار الإرادية. وأما تراخي روابط التداعي فلم نقف عند قبوله وحسب، بل بيَّنا أنه يمتد إلى أبعد مما كان يظن، إلا أننا رأينا أن هذه الروابط المتراخية إنما هي بدائل تحل محل أخرى صحيحة حافلة بالمعنى. وقد وصفنا الحلم يقيناً باللامعقولية، ولكن الأمثلة أرتنا أي حكمة يبلغها الحلم وراء مظهره الفاسد. فأما عن الوظائف التي ينبغي إسنادها إلى الحلم، فهذا ما لا نخالف فيه أحداً. فالقول بأن الحلم يخفف النفس مثل صمام أمان أو . على تعبير رويرت . بأن أشياء ضارة من كل نوع تفقد ضررها بتصويرها في الحلم، هذا القول لا يتفق وحسب مع نظريتنا في تحقيق الرغبة، بل إنه ليبدو مفهوماً في كلماتنا أكثر منه في كلمات رويرت نفسه. وأما انطلاق قدرات النفس في لعب حر فهذا ما يتمثل عندنا في قولنا: إن النشاط قبل الشعوري يترك الأحلام تأخذ مجراها. و«ارتداد الحياة النفسية في الحلم إلى وجهة نظر جنينية» أو قول هاڤلوك إليس إذ يصف الحلم بأنه: «عالم أثري من الانفعالات المبهمة والأفكار الناقصة»[581]، كل أولئك يبدو لنا استباقاً موفقاً إلى ما ذهبنا إليه من أن أساليب النشاط البدائية المقموعة في النهار يسمح لها بالاشتراك في تكوين الحلم. وأما قول سوللي «إن الحلم يستعيد ما تعاقب نموُّه من سابق شخصياتنا ويستعيد أساليبنا القديمة في النظر إلى الأشياء والإحساس بها كما يستعيد اندفاعات وأساليب في الاستجابة كانت تسيطر علينا منذ زمن بعيد»، فقد وسعنا قبوله رأياً من آرائنا كل القبول، ولا نحن نتخلف وراء دولاج في أن «المقموع» هو القوة الدافعة إلى فعل الحلم.

ولقد سلَّمنا تسليماً كاملاً بأهمية النصيب الذي يعزوه شرنر إلى «مخيلة الحلم» كما سلمنا بتفسيرات شرنر ذاتها، سوى أننا اضطررنا إلى تغيير مكانها من المشكلة . إن جاز التعبير. فالمسألة ليست أن الحلم يخلق الصور المتخيلة بل الأصدق أن النشاط اللاشعوري للمخيلة يشارك في تكوين أفكار الحلم بأعظم نصيب. فنحن نظل مدينين لشرنر بكشفه عن مورد أفكار الحلم، ولكن كل ما يعزوه إلى عمل الحلم . أو كله على التقريب . إنما ينبغي عزوه في الحقيقة إلى نشاط اللاشعور خلال النهار . وهو النشاط الذي يوفر الحافز إلى الأحلام وإلى الأعراض العصابية على السواء. ولقد اضطررنا أن نفرّق بين هذا النشاط وعمل الحلم على اعتبار أن هذا الأخير شيء مختلف كل الاختلاف وأضيق مفهوماً بكثير. وأخيراً، فنحن لم نترك العلاقة بين الحلم والاضطرابات النفسية بحال ما، بل أرسيناها على أرض جديدة إرساءً أشد رسوخاً.

وهكذا تجد أشد مكتشفات المؤلفين السابقين تنوُّعاً وتناقضاً . متسعاً في بنائنا بفضل ما في نظريتنا عن الحلم من جديد يؤلف بينها كأنما في وحدة أرفع. الكثير من هذه النظريات قد استخدمناه استخداماً مختلفاً ولكنا لم ننبذ منها سوى القليل. ومع هذا لا يزال بناؤنا غير مكتمل؛ إذ يبدو بغض النظر عن المشكلات العديدة المحيِّرة التي أخذنا في غمارها ونحن نشق طريقنا في دياجير علم النفس، يبدو أن ثمة تناقضاً جديداً يواجهنا. فقد رأينا . من جهة . أن أفكار الحلم تنبعث من خلال نشاط فكري سوي إلى أبعد المدى، ولكنا . من جهة أخرى . قد اكتشفنا بين أفكار الحلم عدداً من عمليات فكرية تجانب السوي كل مجانبة، عمليات تمتد إلى محتوى الحلم، ثم نعيدها نحن بعدئذ في خلال التفسير. فكل ما وصفناه تحت عنوان «عمل الحلم» يبدو يفترق مما نعرف أنه العمليات الفكرية الصحيحة افتراقاً لا بد من أن تلوح معه أقسى الأحكام التي أصدرها المؤلفون السابقون حول انخفاض مستوى النشاط النفسي في الحلم محقة كل الحق.

ولعلنا لن نظفر بالإيضاح والعون بغير المضي في الاستقصاء. وعلى ذلك أتناول وضعاً من الأوضاع المؤدية إلى تكوين الحلم لكي أزيده بحثاً.

لقد رأينا أن الحلم يحل محل طائفة من الأفكار مستمدة من حياتنا اليومية، مؤلَّفة تأليفاً منطقياً كاملاً. ولهذا كنا لا نملك الشك في أن هذه الأفكار قد نشأت عن حياتنا الفكرية السوية. فكل المحمولات التي نقدِّرها في عملياتنا الفكرية تقديراً عالياً والتي تخلع على هذه العمليات طابع الأفعال المعقدة الصادرة عن نظام أرفع، كل هذه نعود فنجدها في أفكار الحلم. غير أننا لا نحتاج إلى افتراض أن هذا العمل يؤتى في أثناء النوم . وهو فرض من شأنه أن يدخل ارتباكاً شنيعاً فيما استقرت عليه الآراء حتى اليوم في تصور حالة النوم. بل من الممكن على العكس كل الإمكان أن تكون هذه الأفكار قد نشأت من اليوم السابق ثم استمرت دون أن يلحظها الشعور منذ البداية، حتى إذا ما أقبل النوم كانت شيئاً مجهزاً. وغاية ما نستطيع استخلاصه من هذا الوضع هو أن أشد الأعمال الفكرية تعقيداً ممكنة بغير معاونة الشعور . وهي نتيجة ما كنا إلا لنخرج بها على أية حال من أي تحليل نجريه لحالة من حالات الهستيريا أو لشخص يعاني أفكاراً قهرية. ومن المؤكد أن هذه الأفكار الحلمية ليست عاجزة بذاتها عن بلوغ الشعور، فإن كانت لم تبلغه فعلاً في خلال النهار فلا بد من أن تكون لذلك أسبابه المختلفة. فالصيرورة إلى الشعور أمر مرتبط بإعمال وظيفة نفسية محددة هي الانتباه . وهي وظيفة لا تتيسَّر فيما يبدو إلا بقدر معين، ولقد ينصرف هذا القدر عن العملية الفكرية التي نكون في صددها إلى هدف آخر يجذبه. وهناك بالإضافة إلى ذلك طريقة أخرى قد تفصل بها أمثال هذه العمليات الفكرية من الشعور. ذلك أننا نعلم من تأملاتنا الشعورية أننا نتبع طريقاً محدداً حين نعمل انتباهنا. فإذا عثرنا ونحن نتبع هذا الطريق على فكرة لن تحتمل النقد توقفنا عن المضي، أي أننا نسقط استثمار الانتباه. والذي يبدو الآن هو أن من المستطاع للعملية الفكرية التي بدأت على هذا النحو ثم أسقطت أن تستمر في نسج نفسها بنفسها دون أن يتَّجه إليها الانتباه مرة ثانية . اللهم إلا أن تبلغ درجة من الشدة عالية بنوع خاص تحمل الانتباه على الاتجاه إليها حملاً. وهكذا إذا نبذت عملية

فكرية منذ البداية نبذاً قد يكون شعورياً، بحكم يقرر خطأها أو قلة غنائها بالنسبة إلى الأغراض المتوخاة في اللحظة الحاضرة، فقد تكون النتيجة استمرار هذه العملية حتى مقدم النوم دون ملاحظة الشعور.

ولنجمل مقالنا: إننا نصف عملية فكرية هذا شأنها بأنها عملية قبل شعورية ، ونراها عملية معقولة كل معقولية، ونعتقد أنها قد تكون أهملت وحسب وقد تكون قطعت قطعاً وقمعت. ولنقل بعد ذلك صراحة كيف نتصور سير أفكارنا: إننا نعتقد أن هناك مقداراً معيَّناً من التهييج . هو ما نسميه «طاقة استثمارية» . ينتقل ابتداءً من فكرة غائية ما، وفق الطرق الاستدعائية التي تنتقيها هذه الفكرة. والعملية الفكرية التي نقول: إنها «أهملت» هي عملية لم تلق مثل هذا الاستثمار، فأما تلك التي «تقمع» أو «تنبذ» فعملية قد «ردّ عنها» هذا الاستثمار. وفي كلتا الحالتين تترك العملية لتهييجاتها الخاصة. وبوسع العملية الفكرية المستثمرة استثماراً غائياً أن تجتذب إليها تحت شروط خاصة انتباه الشعور، وعندئذ تلقى بوساطته «استثماراً مضاعفاً». ولا بد من أن نشرح بعد قليل نظرتنا في طبيعة الشعور ووظيفته [أنظر ص 626].

فإذا أطلقت عملية فكرية في ما قبل الشعور على هذا النحو، أمكن أن تنقطع هذه العملية من تلقاء نفسها أو أن تستمر.ونتصوَّر في حالة المخرج الأول أن الطاقة المقترنة بالعملية الفكرية قد انبثت في جميع الاتجاهات الاستدعائية المشعة منها مدخِلة على شبكة الأفكار جميعها حالة من التهييج تدوم زمناً ما؛ ثم تنطفىء بعد ذلك إذ يتحول التهييج الساعي وراء التفريغ إلى استثمار راكد. فإن تحقق هذا المخرج الأول، فقدت العملية كل أهمية مقبلة بالنسبة إلى تكوين الحلم. بيد أن ما قبل شعورنا تتربص فيه أفكار غائية أخرى تتشعب من موارد في لاشعورنا ومن رغبات متحفزة في كل وقت. ولقد تتملك هذه الأفكار الغائية الأخرى زمام التهييج المقترن بطائفة الأفكار التي تركت لشأنها، فتنشىء رباطاً بينها وبين رغبة لاشعورية وتحوّل إليها الطاقة الخاصة بهذه الرغبة اللاشعورية، ومن الآن فصاعداً يتسنّى الدوام للفكرة المهملة أو المقموعة . وإن كان التعزيز الذي لقيته لا يكسبها حق الدخول إلى الشعور. ولنا أن نعرب عن ذلك بالقول: إن ما كان حتى الساعة عملية فكرية قبل شعورية قد جُرَّ إلى اللاشعور.

وبين الأوضاع الأخرى المؤدية إلى تكوين الحلم أن تكون العملية الفكرية قبل الشعورية قد ارتبطت برغبة لاشعورية منذ البدء، ولهذا قوبلت بالنبذ من جانب الاستثمار الغائي الغالب. أو قد تهيج رغبة لاشعورية لأسباب أخرى (جسمية مثلاً) وتحاول إحداث تحويل إلى البقايا النهارية غير المستثمرة من قبش. دون أن تذهب هذه البقايا إلى ملاقاتها. غير أن هذه الحالات الثلاث جميعها تؤدي في نهاية الأمر إلى نتيجة واحدة، وهي: أن يظهر في ما قبل الشعور خيط من الأفكار بغير استثمار قبل شعوري ولكنه لقيَ استثماراً من رغبة لاشعورية.

وابتداءً من تلك اللحظة تنتاب هذا الخيط من الأفكار طائفة من التغييرات لا نستطيع بعد ذلك أن نعدَّها عمليات نفسية سوية، تغييرات تؤدي في النهاية إلى نتيجة تبعث على استغرابنا، إلى بناء مرضي. فلنلخص هذه العمليات ونصنفها:

1 . تمسي الشدات الخاصة بالأفكار المتفرقة قادرة على التفريغ جملة واحدة وتنتقل من فكرة إلى أخرى بحيث تتكون أفكار مزودة بشدة عظيمة. وإذ كانت هذه العملية تتكرر مرات متعددة، فمن المحتمل أن تتجمع الشدة الخاصة بخيط من الأفكار بأجمعه في عنصر فكري مفرد. وهذه هي واقعة الضغط أو التكثيف التي ألفناها في عمل الحلم، وهي المسؤولة أولاً عما يطبعنا به الحلم من شعور بالغرابة؛ لأننا لا نعرف لها مثيلاً على الإطلاق في الحياة النفسية السوية الواقعة في متناول الشعور. صحيح أننا نجد كذلك في الحياة النفسية السوية أفكاراً على قدر عظيم من الأهمية النفسية لأنها نقاط عقد أو نتائج أخيرة لخيوط بأجمعها من خيوط الفكر، ولكن أهميتها هذه لا تعرب عن نفسها في أية سمة تبين للإدراك الباطن على نحو حسي، فالمحتوى الذي نتمثله في هذه الأفكار لا يزيد شدة تبعاً لأهميتها النفسية بأي وجه من الوجوه. وأما في عملية التكثيف فكل صلة للفكرة بغيرها تتحوّل إلى زيادة في شدة المحتوى المتمثل فيها. فالحال ههنا لا يختلف منه حين أعد كتاباً للطبع فأبرز منه بالأحرف الكبيرة أو الثقيلة كلمة لها من الأهمية في فهم النص ما ليس لغيرها، فإن كنت أتحدث نطقت هذه الكلمة عينها بصوت عالٍ بطيء مؤكداً إياها توكيداً خاصاً. وأول هذين التشبيهين يذكرنا على الفور بمثال زوَّدنا به عمل الحلم: بكلمة تريمتيلامين في حلم حقنة إرما. ولقد جذب مؤرخو الفن انتباهنا إلى أن المثالين في أقدم عصور التاريخ ينصاعون لمبدأ مماثل، فكانوا يعربون عن مكانة الأشخاص بأحجامهم. فالملك يصوَّر وله من الحجم مثل ما لأتباعه أو أعدائه المهزومين ضعفاً أو ضعفين. فإذا جئنا إلى مثال روماني رأيناه يتوسل إلى إحداث ذات الأثر بوسائل أكثر لباقة، فهو يقيم الإمبراطور في المنتصف ويوقفه منتصب القامة ويبذل في صوغه من العناية ما لا يبذل لسواه، غير أن الإمبراطور لا يعود عملاقاً بين أقزام. والانحناءات التي يحيي بها الأدنون منا الأكبرين إلى يومنا هذا صدى يردّد هذا المبدأ القديم في التصوير.

وأما الاتجاه الذي تتبعه التكثيفات في الحلم فتحدده . من جهة . العلاقات المعقولة، قبل الشعورية، القائمة بين أفكار الحلم، ويحدده . من جهة أخرى . جذب الذكريات البصرية القائمة في اللاشعور. ونتيجة النشاط التكثيفي هي بلوغ درجات الشدة اللازمة من أجل النفاذ إلى الأنظمة الإدراكية.

2) وينجم كذلك عن الحرية التي تمسي بها الشدات قابلة للتحويل أن تتكوّن تحت سلطان التكثيف أفكار متوسطة ، أشبه بالحلول الوسطى (أنظر الأمثلة المتعددة على ذلك [في ص 330 وما بعدها]). وهذا أيضاً شيء لا نعهده في السير السوي للأفكار، حيث يعلّق معظم الأهمية على اختيار العنصر الفكري «الصائب» والاحتفاظ به. ونرى من ناحية أخرى أن وقوع التراكيب المزيجة والحلول الوسطى يشيع شيوعاً عجيباً حين نحاول

الإعراب عن الأفكار قبل الشعورية في كلم. وهي تعد عندئذ ضرباً من «هفوات اللسان».

3) والعلاقات المتبادلة بين الأفكار التي تحول شداتها بعضها إلى بعض علاقات متراخية غاية التراخي. فهي تترابط فيما بينها بمستدعيات من النوع الذي يأنف منه فكرنا السوي ولا يخلي استخدامه إلا للنكات. ونجد بنوع خاص أن المستدعيات القائمة على الجناس التام وغير التام تعامل كما لو كان لها من القيمة مثل ما لغيرها.

4) ولا تعمل الأفكار المتناقضة على إبطال بعضها بعضاً بل تبقى جنباً إلى جنب وفي كثير من الأحيان تجتمع في تكوين نتائج التكثيف كما لو لم يكن هناك تناقض بينها أو تنتهي إلى حلول وسطى ما كنا نغفرها قط لفكرنا وإن استبحناها كثيراً في عملنا.

هذه بضع من أعجب العمليات غير السوية التي تنتاب أفكار الحلم ـ بعد أن تمَّ تكوينها على نهج معقولة ـ في خلال عمل الحلم. ونرى أن الطابع الرئيس لهذه العمليات هو أن كل الأهمية تنصب فيها على جعل الطاقة المستثمرة متحركة قادرة على التفريغ ، وأما محتوى العناصر النفسية التي ترتبط بها هذه الاستثمارات وما لها من معنى خاص فيعدان أمراً ثانوياً. وربما ظنّ البعض أن التكثيف وتكوين الحلول الوسطى إنما يؤتيان من أجل تيسير النكوص، أي حين يتعلق الأمر بتحويل الأفكار إلى صور. ولكن يتبيّن من تحليل الأحلام التي لا تنطوي على مثل هذا النكوص إلى صور مثل حلم «أوتو ديداسكر ـ محادثة مع الأستاذ ن. [ص 335]» ويتبين على الأخص من تركيبها أنها تضم من عمليات النقل والتكثيف ما يضمه غيرها.

وهكذا نُساق إلى هذه النتيجة، وهي أن نوعين مختلفين من العمليات النفسية يشتركان في تكوين الحلم، ينتج أحدهما أفكار حلم صحيحة كل الصحة، تعدل التفكير السوي قيمة، بينما يعالج الآخر هذه الأفكار علاجاً مغرباً، مجافياً لمعايير الصحة إلى أبعد مدى. ولقد سبق في الفصل السادس أنَّا عزلنا هذه العملية الثانية على أنها عمل الحلم بالمعنى الصحيح. فما الذي نستطيع قوله الآن في منشئها؟

إن من المحال أن نجيب عن هذا السؤال إذا لم نكن قطعنا شوطاً في دراسة سيكولوجية الأعصبة والهستيريا بنوع خاص. ولقد علمنا من هذه أن ذات العمليات النفسية غير المعقولة ـ وأخرى لم نتحدث عنها ـ تسيطر على إحداث الأعراض الهستيرية. ففي الهستيريا كذلك نصادف طائفة من الأفكار معقولة كل المعقولية، ولكننا ما كنا نستطيع أول الأمر أن نعلم شيئاً عن وجودها في تلك الصورة ولا نصل إلى إعادة تكوينها إلا من بعد. فإن هي فرضت نفسها على ملاحظتنا في موضع من المواضع، اكتشفنا بتحليل العرض المتكوّن أن هذه الأفكار السوية قد عُرِّضت لعلاج غير سوي، فهي قد حوّلت إلى أعراض بوساطة التكثيف وتكوين الحلول الوسطى، من طريق المستدعيات السطحية، وبغض النظر عن المتناقضات، وربما وفقاً لطريق النكوص. وهذا التطابق التام في الخصائص بين عمل الحلم والنشاط النفسي الذي تنجم عنه الأعراض العصابية يجعلنا نشعر بأننا محقُّون حين ننقل النتائج التي توصلنا إليها من دراسة الهستيريا إلى الحلم.

وعلى ذلك نستعير من نظرية الهستيريا القضية الآتية: لا يُعرَّض خيط من خيوط الفكر السوية لمعالجة نفسية غير سوية من قبيل ما وصفنا إلا إذا حولت إليه رغبة لاشعورية ناشئة من الطفولة، مكبوتة. ولقد كان أخذاً منا بهذه القضية أننا أقمنا نظريتنا في الحلم على افتراض أن الرغبة الدافعة إلى الحلم تنشأ في كل حالة من اللاشعور ـ وهو فرض أسلِّم أنا نفسي طواعية بأننا لا نستطيع البرهنة على صحته الشاملة، وإن لم نستطع نقضه كذلك. ولكن لكي نبيِّن ما نعنيه بكلمة «الكبت» التي استبحنا لأنفسنا كل هذه الحرية في استخدامها لا بد لنا من أن نمضي بهيكلنا السيكولوجي مسافة أخرى.

لقد بحثنا من قبل [ص 582 وما بعدها] في وهم توهمناه عن جهاز نفسي بدائي، قاعدة العمل فيه هي السعي إلى تجنُّب تراكم التهييج والبقاء خلواً منه بقدر الإمكان، ولهذا بنيَ على غرار جهاز انعكاسي. وكانت القدرة الحركية التي هي في المحل الأول وسيلة لتغيير الجسم تغييراً باطنياً هي طريق التفريغ الموضوعة في متناول هذا الجهاز. ثم بعد ذلك ناقشنا النتائج النفسية التي تنجم عن خبرة إشباع، ووسعنا ـ ونحن لما نزل بهذا الموضع ـ أن نضيف فرضاً ثانياً مؤداه أن تراكم التهييج (تراكماً يتم على أنحاء مختلفة لا يعنينا أمرها) يحس في صورة ألم وأنه يحرك عندئذ الجهاز إلى العمل بقصد استعادة خبرة الإشباع التي تضمنت إنقاص التهييج إنقاصاً أحس في صورة لذة. ومثل هذا التيار الذي يجري في الجهاز مبتدئاً من الألم متجهاً إلى اللذة قد سميناه رغبة، وقلنا: إنه لا شيء سوى الرغبة يستطيع أن يحرِّك الجهاز إلى العمل وإن سير التهييج فيه سير تنظِّمه أحاسيس اللذة والألم تنظيماً أوتوماتياً. ومن الجائز أن أول اتجاه الرغبة كان إلى استثمار ذكرى الإشباع استثماراً هلوسياً. غير أن أمثال هذه الهلاوس لم يلبث أن تبين قصورها عن التأدية إلى إنهاء الحاجة ومن ثم إلى اللذة المصاحبة للإشباع ـ اللهم إلا أن يثبت الجهاز عليها إلى حد الاستنفاد.

ولهذا كان من الضروري أن يظهر إلى الوجود نشاط ثانٍ ـ أو نشاط صادر عن نظام ثانٍ إذا أردنا التحدّث بلغتنا ـ نشاط لا يترك الاستثمار الذكروي يستمر حتى يبلغ الإدراك ويقيِّد القوى النفسية من هناك، بل يعرج بالتهييج الناشيء عن الحاجة في طريق دائري مؤد في نهاية الأمر ـ بعد المرور بالحركة الإرادية ـ إلى تغيير العالم الخارجي تغييراً يتيح الإدراك الحقيقي لموضوع الإشباع. هذا هو ما انتهينا إليه في أمر صورتنا التخطيطية

عن الجهاز النفسي، والنظامان هما بذرة ما نسميه لاش. و قبش. في الجهاز المكتمل البناء.

ولكن لكي يتسنى تغيير العالم الخارجي تغييراً فعالاً بوساطة القدرة على الحركة، كان من اللازم أن يدَّخر في الأنظمة الذكروية عدد عظيم من الخبرات وتسجيل متعدد الأوجه لمتعدد العلاقات التي قد تستثيرها الأفكار الغائية المختلفة في هذه المادة الذكروية. وهنا نستطيع المضي في فروضنا خطوة أخرى. ذلك أن نشاط هذا النظام الثاني وهو يتحسس طريقه من غير انقطاع ويرسل الاستثمارات ثم يعود فيستردها يحتاج من جهة إلى أن يكون له مطلق التصرف في جميع المادة الذكروية، ولكنه لو أرسل كميات استثمارية عظيمة تضرب في طرق الفكر المختلفة فتنسال من غير قصد نافع وتنقص الكمية المتوافرة من أجل تغيير العالم الخارجي، لكان ذلك من الجهة الأخرى إسرافاً في إنفاق الطاقة لا داعي إليه. وعلى ذلك أفترض أخذاً بالمبدأ الغائي أن النظام الثاني قد وفِّق إلى الاحتفاظ بالجزء الأعظم من طاقته الاستثمارية في حالة من الاستكانة، ولا يستخدم في النقل إلا جزءاً ضئيلاً. ولست أعلم شيئاً عن ميكانيكية هذه العمليات، وعلى من أراد أن يأخذ هذه الأفكار مأخذ الجد أن يبحث عن مماثلات لها في مجال الفيزياء وأن يجد وسيلة نخرج منها بصورة عن الحركات التي تصحب التهييج في العصبات. ولست أستمسك إلا بتلك الفكرة: أن نشاط أول النظامين ن. يتجه إلى تأمين التفريغ الحر لكميات التهييج ، بينما يوفق الثاني بوساطة الاستثمار الصادر عنه إلى كف هذا التفريغ وإلى تحويل الاستثمار إلى استثمار مستكن، رافعاً منسوبه في الوقت نفسه من غير شك. وعلى ذلك أقدِّر أن تفريغ التهييج يخضع تحت سيطرة النظام الثاني لشرائط ميكانيكية تختلف كل الاختلاف منها تحت سيطرة النظام الأول. وما أن يفرغ النظام الثاني من نشاطه الفكري الاستكشافي حتى يرفع الكف والسدود عن التهييجات ويتركها تفرغ في الحركة.

فإذا نظرنا إلى العلاقات بين ما يعمله النظام الثاني من هذا الكف للتفريغ وبين مبدأ الألم[582]، استتبع ذلك عدة من التأملات الخليقة بالاهتمام. إذ دعنا نبحث عن الطرف النقيض لخبرة الإشباع الأول، أي عن خبرة رعب خارجي ، لنفترض أن منبهاً إدراكياً قد أثار الجهاز البدائي وأن هذا المنبه كان مصدر تهييج أليم: ستتبع ذلك التهييج مظاهر حركية غير مترابطة تظل باقية إلى أن يجر أحدها الجهاز بعيداً عن الإدراك وعن الألم في الوقت نفسه. فإذا عاد الإدراك إلى الظهور تكررت الحركة (ولتكن فراراً) على الفور، إلى أن يختفي الإدراك مرة ثانية. وفي هذه الحالة ينعدم كل نزوع إلى استثمار إدراك مصدر الألم من جديد، سواء أكان ذلك بالهلوسة أو بأية طريقة أخرى، بل سوف ينزع الجهاز البدائي على العكس إلى تنحية الصورة الذكروية الأليمة على الفور إذا اتفقت إثارتها على نحو من الأنحاء؛ والسبب في ذلك يقيناً هو أن فيضان تهييجها حتى الإدراك من شأنه أن يثير الألم (أو على الأدق: أن يبدأ في إثارته). ومما يسهِّل بعد ذلك تجنب الذكرى . وهو تجنب لا يعدو أن يكون تكراراً للفرار السابق من الإدراك . أن الذكرى، على خلاف الإدراك، لا تملك كيفية تكفي تهييج الشعور واجتذاب استثمار جديد بهذه الطريقة. وهذا التحول السهل المطرد من جانب العملية النفسية التابعة للذاكرة عن كل ما آلم مرة يزودنا بالنموذج المحتذى للكبت النفسي وبالمثال الأول عليه. ومن الحقائق المعلومة أننا لا نفتأ نرى الشيء الكثير من هذا التحول عما يؤلمنا، أي من سياسة النعامة، في الحياة النفسية السوية للأفراد الراشدين.

ونتيجة لمبدأ الألم كان النظام ن. الأول عاجزاً كل العجز عن أن يدخل أي شيء مستكره في محيط أفكاره، إنه لا يستطيع شيئاً سوى أن يرغب. فلو قد ظلت الأمور على هذا النحو لعيق النشاط الفكري للنظام الثاني: لأن هذا النشاط يقتضي أن تكون جميع الذكريات التي تركتها الخبرة في متناول يده. وههنا يعرض احتمالان: إما أن يتحرر نشاط النظام الثاني من قبضة مبدأ الألم تحرراً تاماً، فيواصل طريقه غير حافل بألم الذكريات، أو قد يجد منهجاً في استثمار الذكريات الأليمة يمكِّنه من تجنب إطلاق الألم. ولنا أن نسقط الاحتمال الأول؛ فمن الواضح أن مبدأ الألم يحكم مجرى التهييج في النظام الثاني بقدر ما يحكمه في الأول. وعلى ذلك يبقى الاحتمال الآخر، وهو أن النظام الثاني يستثمر الذكريات بطريقة تمكنه من كف تفريغها بما في ذلك . إذن . التفريغ المتجه إلى التمخض عن الألم والذي تمكن مقارنته بتفريغ تعصيب حركي. وبهذا نكون قد تأدينا من جهتين إلى الفرض القائل بأن الاستثمار الصادر عن النظام الثاني يتضمن كف تفريغ التهييج في الوقت ذاته: تأدينا إليه بمراعاة مبدأ الألم، ثم بالاستناد إلى مبدأ إنفاق التعصيب بأقل قدر. ولنضع إذن ما يأتي نصب أعيننا لأنه المفتاح إلى نظرية الكبت جميعها: لا يستطيع النظام الثاني أن يستثمر فكرة ما، إلا إذا كان في موقف يمكنه من كف كل تمخض للألم قد يصدر عنها. وكل ما يستطيع الإفلات من هذا الكف سوف يخرج عن متناول النظام الثاني خروجه عن متناول الأول؛ لأنه سوف يهجر على الفور وفاقاً لمبدأ الألم. إلا أنه ليس من الضروري أن يكون كف الألم كفاً تاماً، بل لا بد على العكس من السماح ببداية منه؛ لأن هذه البداية هي ما يخطر النظام الثاني بطبيعة الذكرى التي يتعلق الأمر بها وبما قد يكون من منافرتها للهدف الذي تقصد إليه العملية الفكرية.

وأُسمِّي العملية النفسية التي لا يسمح بها إلا النظام الأول عملية أولية ، فأما تلك التي تنجم عن الكف الذي يفرضه النظام الثاني فأسمِّيها عملية ثانوية. وهناك بعد . كما أستطيع تبيانه . هدف آخر يضطر النظام الثاني من أجله إلى تصحيح العملية الأولية: ذلك أن العملية الأولية تجهد من أجل تفريغ التهييج لكي تتمكن بمعاونة كمية التهييج المتراكمة على هذا النحو من إقامة عينية إدراكية ، ولكن العملية الثانوية قد تركت هذا الهدف واتخذت بدله هدفاً آخر، هو أن تقيم عينية فكرية. فالفكر كلُّه إنما هو طريق دائري يبدأ من ذكرى الإشباع التي استحالت إلى فكرة غائية مستهدفاً استثمار هذه الذكرى عينها استثماراً لا يختلف من الأول، يرجى بلوغه مرة ثانية من خلال مرحلة وسطى من الخبرات الحركية. ومن الضروري للتفكير أن يعنى بالروابط بين الأفكار دون أن يضله الانسياق وراء شدتها. ولكن من الواضح أن التكثيفات المصبوبة على الأفكار وكذلك

التراكيب المتوسطة والمزيحة لا بد أن تعوق الوصول إلى هذه العينية المستهدفة. فهي من حيث تضع فكرة في موضع أخرى تكون سبباً في الخروج عن الطريق التي كان من شأنها أن تقود من الفكرة الأولى قدماً. وعلى ذلك يتجنب التفكير الثانوي هذه العمليات في حرص. ثم إنه من السهل أن نرى أن مبدأ الألم يقيم الصعوبات في طريق العملية الفكرية وهي تسعى إلى تحقيق العينية الفكرية، وإن كان ـ فيما خلا ذلك ـ يزوّدها بأهم سارياتها. ولهذا كان لزاماً أن يتجه الفكر أكثر فأكثر إلى التحرر من تحكم مبدأ الألم فيه تحكماً مانعاً، وإلى وقف الحالة الوجدانية خلال النشاط الفكري عند الحد الأدنى الذي يتطلبه قيامها بوظيفة العلامة. وتُستَهْدَفُ هذه الدقة الأعظم في أداء الوظائف بوساطة استثمار مضاعف جديد أداته الشعور. غير أننا نعلم أن هذا الهدف قلَّما تحقق تحققاً كاملاً ولو في الحياة النفسية السوية، فتفكيرنا يظل دائماً عرضة للتزييف من جراء تدخل مبدأ الألم.

غير أن هذه ليست بالثغرة الوحيدة في الفاعلية الوظيفية لجهازنا النفسي والتي كان من جرائها أن أمكن وقوع الأفكار التي تتمثل لنا باعتبارها ناتجة عن النشاط الفكري الثانوي تحت وطأة العملية النفسية الأولية ـ وهي الصيغة التي نستطيع الآن أن نصف بوساطتها النشاط المؤدي إلى الأحلام وإلى الأعراض الهستيرية على السواء. وإنما تنشأ قلة الكفاية من التقاء عاملين مستمدين من تاريخ نموّنا: يرجع أحدهما برمته إلى الجهاز النفسي ثم هو عامل كان له أثره الحاسم في العلاقة بين النظامين، وأما الآخر فيظهر أثره بدرجة متفاوتة ثم هو عامل يدخل في الحياة النفسية قوى غريزية ذات أصل عضوي. وكلاهما ينبعث من الطفولة ويعجل بالتغييرات التي يمر بها منذ الطفولة كياننا العضوي بشقيه: النفسي والجسمي.

وإني حين سميت إحدى العمليتين النفسيتين في جهازنا عملية أولية لم أراعِ في ذلك الأهمية النسبية ومدى الفاعلية وحسب، بل كنت فوق ذلك أريد اسماً يعرب عن سبقها الزمني. نعم، إن من الحق أنه لا وجود ـ بقدر ما نعلم ـ لجهاز نفسي لا يمتلك سوى العملية الأولية وأن مثل هذا الجهاز لا يخرج إلى هذا المدى عن أن يكون وهماً نظرياً. ولكن تلك أيضاً حقيقة واقعة: أن العمليات الأولية تحضر منذ البدء في الجهاز النفسي على حين أن العمليات الثانوية لا تنسلخ ولا يتحقق لها كف الأولية والظهور عليها إلا في خلال الحياة، وربما لم تحقق سيادتها الكاملة إلا في أوج الحياة. ونتيجة لهذا الظهور المتأخر للعمليات الثانوية كان لب وجودنا المتقوّم باندفاعات راغبة لاشعورية يظل بعيداً عن أن يناله فهم ما قبل الشعور وكفه، ويقتصر دور ما قبل الشعور اقتصاراً لا رجعة فيه على توجيه الاندفاعات الراغبة المنبعثة من اللاشعور في أنسب الطرقات، وتصبح لهذه الرغبات اللاشعورية قوة قاهرة على مستأنف النزعات النفسية جمعاء ـ قوة تضطر هذه النزعات إلى مهادنتها وقد تعمل على التعريج بها وتوجيهها نحو أهداف أسمى. ونتيجة أخرى لهذا الظهور المتأخر للعمليات الثانوية هي: أن منطقة واسعة من المادة الذكروية تغدو بعيدة عن منال الاستثمار قبل الشعوري.

وبين هذه الاندفاعات الراغبة المستقاة من الطفولة والتي لا يمكن هدمها ولا كفها فريق يتناقض تحقيقه والأفكار الغائية التي للتفكير الثانوي. فتحقيق هذه الرغبات لن يولِّد بعد الآن حالة وجدانية من اللذة بل من الألم، وهذا التغيير للحالة الوجدانية على التحديد هو ماهية ما نسميه «كبتاً»، وإن مشكلة الكبت لتقوم في السؤال عن كيفية وقوع هذا التحويل وما هي القوى الدافعة إليه. ولكن هذه مشكلة لا نحتاج هنا إلى أكثر من لمسها لمساً، ويكفينا أن نعلم دائماً أن تغييراً من هذا القبيل يخطر بالفعل في أثناء النمو (وحسب المرء أن يذكر كيف ينشأ الاشمئزاز للمرة الأولى في الطفولة) وأنه مرتبط بنشاط النظام الثاني. ولقد كانت الذكريات التي على أساسها تثير الرغبة اللاشعورية انطلاق الحالة الوجدانية بعيدة المنال دائماً عن قبش. ؛ ولهذا امتنع كذلك كف انطلاق الحالة الوجدانية المرتبطة بهذه الذكريات. وهذا التولُّد للحالة الوجدانية هو على التحديد السبب الذي من أجله يستحيل اليوم التوصل إلى هاته الأفكار ولو من طريق الأفكار قبل الشعورية التي حولت إليها هاته شداتها ـ بل ـ على العكس ـ يهيمن مبدأ الألم فيجعل قبش. ينصرف عن هذه الأفكار التحويلية: إنها تترك لأنفسها، «تكبت»، وبهذا يكون وجود ذخيرة من الذكريات الطفلية المفصولة منذ البدء عن قبش. هو الشرط الذي لا يكون بدونه الكبت.

وفي أحسن الأحوال ينقطع تولد الألم بسحب الاستثمار من الأفكار التحويلية التي في قبش. وهذه النتيجة تعني أن تدخُّل مبدأ الألم قد حقّق غرضاً نافعاً. ولكن الموقف يختلف حين تلقى الرغبة المكبوتة تعزيزاً عضوياً تمرره إلى أفكارها التحويلية؛ لأنها قد تمكنها بذلك من محاولة النفاذ بتهييجها ـ وإن تكن قد فقدت استثمارها من قبش. وعندئذ يعقب كفاح دفاعي، إذ يعزز قبش. بدوره معارضته للأفكار المكبوتة (أي يولد استثمارات مضادة)، ثم بعد ذلك تشق الأفكار التحويلية ـ وهي مراكب الرغبات اللاشعورية ـ طريقها إلى صورة من صور الحلول الوسطى يتم بلوغها بإحداث العرض. ولكن العمليات الفكرية، منذ اللحظة التي يشتد فيها استثمارها من جانب الاندفاع الراغب اللاشعوري ويتخلى عنها من الجهة الأخرى الاستثمار قبل الشعوري، تقع تحت وطأة العمليات الأولية ويصبح هدفها الأخير هو التفريغ الحركي أو بعث العينية الإدراكية بعثاً هلوسياً ـ إذا كان الطريق إلى ذلك مفتوحاً. ولقد رأينا من قبل بالرجوع إلى الخبرة أن العمليات اللامعقولة التي وصفناها لا تنطبق إلا على الأفكار الخاضعة للكبت، وفي مقدورنا الآن أن نزيد بصراً بعض الشيء بالموقف في جملته: فالعمليات اللامعقولة في الجهاز النفسي هي العمليات الأولية وهي تظهر حيثما تهجر الأفكار من جانب الاستثمار الشعوري وتترك لأنفسها وتصبح مشحونة بطاقة غير مكفوفة من اللاشعور تجهد من أجل الوصول إلى منفذ. وهناك ملاحظات أخرى تؤيد القول بأن هذه العمليات التي نصفها باللامعقولية ليست في الحقيقة تزييفاً يداخل العمليات السوية، خطأً عقلياً، بل أنماطاً من نشاط الجهاز النفسي ارتفع عنها الكف. وهكذا نجد أن انتقال التهييج قبل الشعوري إلى الحركة يخضع لهذه العمليات ذاتها وأن ربط الأفكار قبل الشعورية بالألفاظ قد يبدي بسهولة ذات الصور من النقل والخلط التي ننسبها بعد ذلك إلى انصراف الانتباه. وهناك أخيراً، واقعة نستطيع أن نرى

فيها شاهداً على ما يستلزمه كف هذه الطرائق الأولية في التصريف من جهد الاحتراس، وأعني بها: أننا نحدث تأثيراً مضحكاً ، أي نفرغ فائضاً من الطاقة في الضحك، حين نترك هذه الطرائق الأولية للتفكير تنفذ إلى الشعور.

إن نظرية الأعصبة تؤكد في يقين يمنع كل استثناء أن الاندفاعات الراغبة الجنسية المستمدة من الطفولة والتي أصابها الكبت (أي تغيير حالتها الوجدانية) في خلال النمو الطفلي هي وحدها القادرة على أن تبعث بعثاً جديداً في خلال فترات النمو اللاحقة (سواء أكان ذلك نتيجة لتكوين الشخص الجنسي الذي يتفرَّع عن مرحلة ابتدائية من الثنائية الجنسية، أم كان نتيجة لتأثيرات غير مواتية في مجرى حياته الجنسية) وبذلك توفر القوة الدافعة التي تلزم من أجل تكوين الأعراض العصابية بكل أنواعها. ولسنا نستطيع أن نسد أوجه النقص التي لا تزال تتجلى في نظرية الكبت إلا بإدخال هذه القوى الجنسية في حسابنا. ولكن هل تستلزم نظرية الأحلام كذلك هذه العوامل الجنسية الطفلية؟ هذا سؤال أتركه معلقاً. سأترك النظرية ناقصة في هذا الموضع، فقد تخطيت نطاق ما تمكَّن البرهنة عليه مرة من قبل حين افترضت أن رغبات الحلم تنبعث في جميع الأحوال من اللاشعور[583]. ولا أنا أنتوي متابعة البحث في ماهية التفرقة بين لعب القوى النفسية في الأحلام ولعبها في الأعراض الهستيرية، فلسنا نملك بعد معرفة دقيقة الدقة الكافية بأحد طرفَي المقارنة. غير أن ثمة مسألة أخرى هي التي أعلِّق الأهمية عليها وأعترف بادىء ذي بدء بأنني ما خضت إلا من أجلها في جميع هذه المناقشات حول النظامين النفسيين وطرائقهما في العمل وحول الكبت. إن المسألة لا تتعلق الآن بما إذا كنت قد تصورت العوامل السيكولوجية التي نحن في صدد الحديث عنها تصوراً يقارب الصواب أو . على العكس . مشوهاً غير مكتمل (وهو أمر محتمل جداً في مسائل هذا حظها من الصعوبة)؛ فمهما تغيَّر تعبيرنا عن الرقابة النفسية وعما يصيب محتوى الحلم من المراجعات المعقولة والشاذة فإنه يظل من الحق أن هناك عمليات من هذا النوع تعمل عملها في تكوين الحلم وأنها . من حيث سماتها الجوهرية . تبدي أوثق التماثل مع العمليات الملحوظة في تكوين الأعراض الهستيرية. ولكن الحلم ليس ظاهرة مرضية، إنه لا يفترض اختلالاً في التوازن النفسي قبله ولا يخلف نقصاناً في الفاعلية وراءه. فإن قلنا: إن أحلامي وأحلام مرضاي العصابيين لا تبرر الذهاب إلى نتائج تمس أحلام الأسوياء، فذلك يقيناً اعتراض يحق لنا إغفاله من غير تعليق. وإن جاز . إذن . أن نستدل استدلالاً راجعاً من الظواهر إلى قواها الدافعة، لزم التسليم بأن الميكانيكية المستخدمة في الأعصبة لم تخلق خلقاً تحت وطأة اضطراب ألمَّ بالحياة النفسية فأمرضها، بل هي شيء مهيأ من قبل في تركيب الجهاز النفسي. فالنظامان النفسيان والرقابة المضروبة على الانتقال بينهما وكف أحدهما الآخر وظهوره عليه وعلاقات كليهما بالشعور، كل هذه أو ما قد يحل محلها من أي تفسير آخر أكثر صواباً للظواهر الملحوظة تكون جزءاً من التركيب السوي لعدَّتنا النفسية، وما تعدو الأحلام أن ترينا أحد الطرق المؤدية إلى فهم هذا التركيب. فلو أنا أردنا أن نكتفي بالقدر الأدنى من المعرفة الجديدة الموطَّدة تمام التوطيد، لكان في مستطاعنا القول: إن الأحلام تثبت أن ما يُقمع يظل باقياً عند أسوياء الناس وشواذهم على السواء، ويظل قادراً على النشاط النفسي. والحلم نفسه مظهر من مظاهر هذه المادة المقموعة، ذلك صحيح بحسب النظرية في كل حالة وصحيح بحسب الخبرة في عدد كبير من الحالات . على الأقل . وهي على التحقيق تلك الحالات التي تتجلى فيها السمات الملحوظة للحياة الحالمة أوضح ما تكون للعيان. وما هو مقموع يُمنع من الإفصاح عن نفسه ويحال دونه والإدراك الباطني في أثناء النهار؛ لأن المتناقضات تبطل إذ ذاك فلا يؤخذ إلا بأحد الطرفين المتقابلين دون الآخر. فإذا جاءت حياة الليل وساد النزوع إلى تكوين الحلول الوسطى، وجد المقموع العدة والسبيل إلى بلوغ الشعور:

ولئن لم أثن السماوات، حركت الأخِرون

إن تفسير الأحلام هو الطريق الملكية إلى معرفة ما هو لاشعوري في الحياة النفسية.

وإننا إذ نقوم بتحليل الأحلام نتقدَّم خطوة في فهم تركيب هذه العدة التي هي أعجب العِدد وأحفلها سراً . خطوة صغيرة من غير شك، لكنها البداية. وهذه البداية تمكننا من متابعة تحليلها بالاستناد إلى تراكيب أخرى لا مفر من نعتها بالمرضية؛ لأن الأمراض . أو على الأقل تلك نسميها بحق أمراضاً وظيفية . لا تفترض تفكك الجهاز أو حدوث انشقاقات جديدة في داخله، وإنما ينبغي تفسيرها على أساس دينامي: بالقوة والضعف يصيبان مختلف المقوِّمات في اللعب المتبادل بين القوى، هذا اللعب الذي يخفي علينا الشيء الكثير من آثاره حين تكون الوظائف في حالتها السوية. ولعلِّي أتمكن في موضع آخر من أن أبيِّن كيف أن تَقَوُّمَ الجهاز بجهتي اختصاص يتيح للنشاط السوي دقة أعظم، ما كانت لتتسنى له لو كان تَقَوُّمُ الجهاز بواحدة[584].

و
اللاشعور والشعورالواقع

إنَّا إذا أنعمنا النظر رأينا أن ما تدعونا مناقشاتنا في الأقسام السابقة إلى افتراضه ليس وجود نظامين على مقربة من الطرف الحركي للجهاز، بل وجود نوعين من العمليات التهييجية أو من أنماط التفريغ. والأمر كله عندنا سيان؛ فمن الواجب أن نكون معدِّين في كل وقت لأن نلقي بهيكلنا التصوري، إذا أحسسنا أننا قادرون على أن نستبدل به شيئاً آخر يزيد اقتراباً من الحقيقة المجهولة. وعلى ذلك دعنا نصحّح بعض التصورات التي قد تكون ساقتنا إلى الخطأ طالما كنَّا ننظر إلى النظامين بالمعنى الحرفي الفج كما لو كانا محلين في الجهاز النفسي . وهي تصورات تركت آثارها في تعبيرات مثل «كَبَتَ» و«نَفَذَ». فنحن إذ نتحدث على هذا النحو عن لاشعور يحاول الانتقال إلى ما قبل الشعور بحيث يتمكن بعد ذلك من النفاذ إلى الشعور، لا نعني بذلك أن فكرة ثانية قد تكوّنت في محل جديد مثل منسوخ يظل قائماً إلى جانب الأصل. وكذلك فكرة النفاذ إلى الشعور: إن من الواجب تجريدها من كل تغيير في المحل. وحين نتحدث عن فكرة قبل شعورية كُبتت أو دفعت فاستولى عليها الشعور، فهذه الأخيلة المستعارة من تصورات مدارها الصراع حول قطعة من الأرض قد تغرينا إغراءً يجعلنا نفترض أن هناك حقيقة تجمعاً من العناصر النفسية في مكان ما، يتبدّد ثم يحل محله تنظيم جديد في مكان آخر. ألا فلنبدل بهذه الاستعارات شيئاً آخر يبدو أكثر موافقة لواقع الأشياء، ولنقل: إن تجمعاً ما من العناصر النفسية قد اقترنت به أو ردَّت عنه طاقة استثمارية، بحيث يقع المركَّب النفسي الذي نعنيه تحت سلطان جهة اختصاص معينة أو يفصل منها. والذي نحن صانعوه ههنا هو من جديد أننا نستبدل بطريقة طوبوغرافية في وصف الأشياء طريقة أخرى دينامية: فما يبدو لنا الآن حاصلاً على الحركة ليس المكوّن النفسي في ذاته، بل تعصيبه[585].

غير أنني أرى مع ذلك أن الإمساك بصورتنا التشبيهية عن النظامين شيء نافع له ما يبرره. ومن الممكن أن نتجنب كل استخدام سيىء لهذا المنهج في تصوير الأمور إذا تذكرنا أن الأفكار والتصورات والأبنية النفسية عامة يجب ألا يُنظر إليها على الإطلاق كما لو كانت متحيزة في عناصر عضوية للجهاز النفسي، بل هي . إن جاز التعبير . قائمة بينها، حيث توفر المقاوماتُ والتذليلات المتضايفات المقابلةَ لهذه الأبنية. فكل ما يمكن أن يكون موضوعاً للإدراك الباطن إنما يوجد بالقوة ، مثل الصورة الحادثة في المقراب عند مرور أشعة الضوء. ولكن يحق لنا أن نفترض وجود هذه الأنظمة (وهي ليست في ذاتها بالشيء النفسي على الإطلاق ولا تنال أبداً بإدراكنا النفسي) مثل العدسات التي تعكس الصورة في المقراب. وإذا جاز أن نتابع هذه المماثلة، فلنا أن نقارن الرقابة بين النظامين بالانكسار الذي يصيب شعاع الضوء عند مروره في وسط جديد.

ولقد ظللنا حتى الساعة ندلي بشروحنا السيكولوجية غير مستندين إلا إلى أنفسنا. والآن حان وقت النظر في الآراء التي تهيمن اليوم على علم النفس وبحث ما بينها وبين فروضنا من العلاقات: إن مشكلة اللاشعور . على حسب كلمات ليپس القوية . ليست مشكلة من مشكلات علم النفس قدر كونها مشكلة هذا العلم. وما دام علم النفس ينفض يده من هذه المشكلة بإيضاح لفظي حاصله أن «النفسي» يعني «الشعوري» وأن الحديث عن «عمليات نفسية لاشعورية» تناقض ملموس، فقد امتنع كل سبيل إلى تقدير الملاحظات التي يحصِّلها الطبيب في صدد الحالات النفسية المرضية. ولا يستطيع الطبيب والفيلسوف أن يلتقيا إلا إذا سلَّما كلاهما بأن قولنا: «العمليات النفسية اللاشعورية» هو «الحد الذي يعرب إعراباً ملائماً مشروعاً عن حقيقة موطدة توطيداً راسخاً». ولا يسع الطبيب إلا أن يهز كتفيه حين يسمع من يؤكد له أن «الشعور سمة لازمة لما هو نفسي»، وربما قدّر . إذا كان احترامه لأقوال الفلاسفة لا يزال قوياً . أن هؤلاء لا يعالجون ذات الموضوع ولا يشتغلون بذات العلم. ذلك لأن ملاحظة واحدة ممتلئة بالفهم لأحد العصابيين، أو تحليلاً مفرداً لأحد الأحلام، لا بد أن يتركه وهو راسخ الاعتقاد بأن أشد العمليات الفكرية تعقداً ومعقولية، تلك التي لا نستطيع يقيناً أن نأبى عليها اسم العمليات النفسية، قد تحدث دون أن تستثير شعور المرء. صحيح أن الطبيب لا يستطيع أن يعلم شيئاً عن هذه العمليات اللاشعورية حتى تحدث أثراً في الشعور يمكن نقله إلى الغير أو ملاحظته، ولكن هذا الأثر الشعوري قد يبدي خاصة نفسية تخالف العملية اللاشعورية كل المخالفة، بحيث يستحيل على الإدراك الباطن أن يعرف في أحد الطرفين بديل الآخر[586]. ومن الواجب أن يشعر الطبيب بحقه في اتباع طريق الاستدلال من الأثر الشعوري إلى العملية النفسية اللاشعورية، وإنه ليعلم عندئذ أن الأثر الشعوري ليس إلا نتيجة نفسية بعيدة للعملية اللاشعورية، وأن هذه العملية الأخيرة لم تصر شعورية كما هي، وأنها . فوق ذلك . كانت حاضرة وكانت تعمل عملها وإن لم تنم عن وجودها للشعور بأي وجه من الوجوه.

نعم، إن من الجوهري أن ننزل عن المغالاة في تقدير خاصة الشعور قبل أن يصبح في مستطاعنا أن نكوّن أي رأي صحيح في منشأ ما هو نفسي. ومن الواجب . كما يقول ليپس . أن نفترض أن اللاشعور هو الأساس العام للحياة النفسية. فاللاشعور هو المنطقة الأوسع التي تضم بين

جوانبها منطقة الشعور الأضيق نطاقاً. فكل ما هو شعوري له مرحلة تمهيدية لاشعورية، بينما قد يظل اللاشعوري على هذه المرحلة ولا يفقد مع ذلك حقه في أن نسلِّم له بكل قيمة العملية النفسية. فاللاشعور هو الواقع النفسي الحقيقي وهو في طبيعته الباطنة مجهول منَّا، نجهله قدر جهلنا بحقيقة العالم الخارجي، كما أنه لا يمثل لنا بوساطة معطيات الشعور إلا مثولاً ناقصاً على نحو ما يمثِّل العالم الخارجي بوساطة رسائل أعضائنا الحسية.

فأما وقد انكمش التقابل القديم بين الحياة الشعورية وحياة الحلم إلى أبعاده الصحيحة بإثبات الوجود النفسي اللاشعوري. فإن عدداً من مشكلات الحلم التي كانت تستغرق من الكتَّاب السابقين اهتماماً عميقاً يفقد الآن كل قيمته. مثال ذلك بعض الأفعال التي كان النجاح في أدائها في الحلم مثارة للعجب: إننا لن نعزوها بعد الآن إلى الحلم ذاته بل إلى التفكير اللاشعوري الذي يعمل أيضاً في النهار مثلما يعمل في الليل. وإذا بدا ـ على حسب شرنر ـ أن الحلم يلهو بتصوير الجسم تصويراً رمزياً، فنحن نعلم الآن أن هذه التصويرات نتاج صدر عن تخييلات لاشعورية معيَّنة تتفرع في الراجح عن اندفاعات جنسية ولا تفصح عن نفسها في الأحلام وحدها بل في المخاوف الهستيرية وغيرها من الأمراض كذلك. وإذا واصل الحلم أعمال النهار وأتمَّها، لا بل إذا أتى إلى النور بأفكار مستحدثة قيِّمة، فكل ما نحتاج إليه هو أن ننتزع هنا قناع الحلم الذي هو نتيجة عمل الحلم وأمارة على معاونة ما بأعماق النفس من غامض القوى (أنظر الشيطان في حلم سوناتا تارتيني)[587]؛ فالنتاج العقلي إنما يرجع إلى ذات القوى النفسية التي تنتج في النهار كل ما شاكله. وأغلب الظن أننا ننزع أيضاً نزوعاً كبيراً إلى المغالاة في تقدير الطابع الشعوري للنتاج العقلي والفني، ولكن ما يروى عن بعض الرجال ممَّن تبلغ قدرتهم الخالقة الذروة من أمثال جوته وهلمهولتس يرينا أن الجوهري والطريف في خلقهم كان يأتيهم غير مسبوق بالتدبير، في صورة كلٍ كاد أن يتم تكويناً. والحق أنه لا غرابة إذا حدث في حالات غير هذه، حيث تتطلب الأمور تركيز كل ملكة عقلية يملكها المرء، أن يدلي النشاط الشعوري كذلك بدلوه، إلا أن لهذا النشاط الشعوري ميزة كثيراً ما ضللتنا: فهو حيثما أدلى بدلوه أخفى علينا كل نشاط سواه.

ولو أنا أردنا أن نندب بحثاً خاصاً لموضوع الأهمية التاريخية للأحلام، ما كاد ذلك أن يثمر ما يعوِّض جهدنا. فربما صحَّ أن حلماً قد حفَّز قائداً إلى الشروع في حملة جريئة غيَّر نجاحها وجه التاريخ، ولكن ذلك إنما يثير مشكلة جديدة ما دمنا نرى في الحلم قوة غريبة تغاير سائر القوى التي نحن أكثر ألفة بها، ولا يعود للمشكلة وجود إذا عرفنا في الحلم صورة من صور التعبير عن اندفاعات تظل تحت ضغط المقاومة في خلال النهار ولكنها في أثناء الليل تستطيع أن تجد معززاً تستمده من موارد تهييجية عميقة الطبقة[588]. غير أن الاحترام الذي كانت تلقاه الأحلام بين الشعوب القديمة كان يقوم مع ذلك على بصر سيكولوجي صحيح: إنه التحية المرسلة إلى ما يعتمل في أعماق النفس الإنسانية من قوى لا حاكم لها ولا هادم، إلى القوة «الشيطانية» التي تولِّد رغبة الحلم والتي نراها تعمل في لاشعورنا.

وإني إذ أقول: «في لاشعورنا» لا يخلو قولي من القصد؛ لأن ما أسميه كذلك شيء يختلف من لاشعور الفلاسفة، بل إنه ليختلف من اللاشعور الذي يتحدث عنه ليپس. فهؤلاء إنما يستخدمون هذا الاسم للدلالة به على محض الاختلاف عن الشعور؛ فالرأي الذي يثير منهم كل هذا الجدل المحتدم ويدافعون عنه بكل هذه الحميَّة هو أن ثمة عمليات نفسية لاشعورية بالإضافة إلى الشعور. ويمضي ليپس بالأمور مرحلة أبعد حين يؤكد أن النفسي في جملته يوجد وجوداً لاشعورياً وأن جزءاً منه فقط هو الذي يوجد أيضاً وجوداً شعورياً. وأما نحن فما استعنَّا بظواهر الحلم وتكوين الأعراض الهستيرية لنقيم هذا الرأي؛ فقد كانت الحياة المستيقظة السوية تكفي في إثباته إثباتاً لا يرقى إليه ظل من الشك. وإنما يقوم كشفنا الجديد الذي تعلمناه من تحليل الأبنية المرضية وتحليل أوَّلها (وأعني الحلم) في كوننا عرفنا أن اللاشعور (ومن ثم النفسي) وظيفة خاصة بنظامين مستقلين وأن الأمر كذلك في الحياة السوية والمرضية على السواء. وهكذا يكون هناك ضربان من اللاشعور لم يفرِّق بينهما علماء النفس حتى الآن. وكِلا هذين لاشعوري بالمعنى المألوف في علم النفس، وأما عندنا نحن فأحد هذين النظامين (هذا الذي نسميه لاش .) يخصص فوق ذلك بكونه لا يقبل في الشعور، بينما نسمي الآخر قبش. لأن تهيجاته قادرة على بلوغ الشعور ـ وإن كان من الحق أن ذلك لا يتم إلا بعد مراعاة قواعد معينة وربما كان لا يتم إلا بعد المرور برقابة جديدة ولكن دون التفات إلى لاش. مع ذلك. ولقد أعاننا على إنشاء المماثلة المكانية أن التهييجات لكي تصل إلى الشعور يتحتم عليها المرور بسلسلة أو مراتب ثابتة ينمّ عنها التعذيل الذي يصيب هذه التهييجات على يد الرقابة. ووصفنا العلاقة بين النظامين كلاً والآخر وبين كليهما والشعور بقولنا: إن النظام قبش. يقوم مثل ستار بين النظام لاش. والشعور. ولا يقتصر النظام قبش. على إيصاد الطريق إلى الشعور، بل يتحكم كذلك في المرور إلى قدرة الحركة الإرادية، ثم هو حاصل على طاقة استثمارية متحركة موضوعة في متناوله لتوزيعها، وجزء من هذه الطاقة هو المألوف لنا في صورة الانتباه [أنظر ص 608].

ومن الواجب فوق ذلك أن نتجنب التفرقة بين «ما فوق الشعور» و«ما تحت الشعور» وهي التفرقة التي صادفت هوىً كبيراً في المؤلفات الحديثة عن الأعصبة النفسية؛ لأن مثل هذه التفرقة تبدو كأنما قد جُعلت خصيصاً لتوكيد التعادل بين ما هو نفسي وما هو شعوري.

ولكن أي عمل يبقى ـ بحسب تصورنا ـ للشعور، بعد أن كان مطلق القدرة يوماً وكان يحجب كل شيء عداه؟ إنه عضو حسي مجعول لإدراك الكيفيات النفسية: هذا هو كل عمله. فنحن بحسب الأفكار التي توجّه محاولتنا التخطيطية، لا نستطيع أن نرى في الإدراك الشعوري إلا وظيفة خاصة

بنظام معيَّن من الملائم أن ندل عليه اختصاراً بحرف ش. ونحن نقدِّر أن هذا النظام يشبه الأنظمة الإدراكية إد. من حيث خصائصه الميكانيكية، أي أنه قابل لأن يتهيَّج بوساطة الكيفيات، ولكنه عاجز عن أن يحتفظ بآثار التغييرات، أي خالٍ من الذاكرة. والجهاز النفسي المتّجه بعضو الحس الخاص بالأنظمة إد. جهة العالم الخارجي هو هو العالم الخارجي مأخوذاً في علاقته بعضو الحس ش. الذي يقوم تبريره الغائي في هذه الملابسة. وههنا نصادف من جديد مبدأ ترتُّب جهات الاختصاص درجات . وهو المبدأ الذي يبدو مسيطراً على تركيب الجهاز. وتنصب المادة التهييجية في عضو الحسي ش. من جهتين: من النظام إد. الذي نرجِّح أن تهييجه المحدد بالكيفيات يخضع لرقابة جديدة قبل أن يصير إحساساً شعورياً، ثم من باطن الجهاز النفسي الذي تُحَسُّ عملياته الكمية . حين تشق طريقها إلى الشعور بعد تعديلات معينة . في السلسلة الكيفية للذَّة والألم.[589]

وقد لاقى أولئك الفلاسفة الذين فطنوا إلى أن الأبنية الفكرية المعقولة البالغة التعقيد ممكنة دون أي مشاركة من جانب الشعور، لاقوا صعوبة كبرى في تحديد وظيفةٍ ما لهذا الأخير، فبدا لهم أنه لا يمكن أن يزيد على كونه صورة لا طائل منها تعكس العملية النفسية المنهاة. وأما نحن فتخلصنا المماثلة بين نظامنا ش. وبين الأنظمة الإدراكية من هذا الارتباك. فنحن نعلم أن من نتيجة الإدراك بوساطة أعضائنا الحسية توجيه قدر من استثمار الانتباه في الطرقات التي ينتشر فيها التهييج الحسي الوافد، أي أن التهييج الكيفي للنظام إد. يفيد الكمية المتحركة في الجهاز من حيث يعمل عمل المؤشر والمنظم بالنسبة إلى توزيعها. وفي وسعنا أن ننسب هذه الوظيفة عينها إلى العضو الحسي الأعلى الخاص بالنظام ش. : فهو إذ يدرك كيفيات جديدة يأتي بمشاركة جديدة في توجيه كمّيات الاستثمار المتحركة وفي توزيعها على نحو ملائم مفيد، كما أنه بوساطة إدراكه للذة والألم يؤثر في توزيع تفريغ الاستثمار في داخل الجهاز النفسي الذي هو . فيما خلا ذلك . جهاز لاشعوري يعمل بوساطة النقلة في الكميات.
والراجح، على ما يبدو، هو أن مبدأ الألم ينظِّم نقلة الاستثمار تنظيماً آلياً في المحل الأول. ولكن من الممكن كل الإمكان أن يضيف الشعور بهذه الكيفيات تنظيماً ثانياً أكثر تمييزاً، بل قادراً على معارضة التنظيم الأول وأن يكمل فاعلية الجهاز بتمكينه . على عكس خطته الأولى . من استثمار ما قد يصطحب بالألم ومواجهته. ونعلم من سيكولوجية الأعصبة أن هذه العمليات التنظيمية التي تتم بوساطة التهييج الكيفي لأعضاء الحس تؤدّي دوراً كبيراً في النشاط الوظيفي للجهاز. فالسيطرة الأوتوماتية الأولى التي لمبدأ الألم . مع ما تتستتبعه هذه السيطرة من حدّ فاعلية الجهاز . تقف عند حد بفعل عمليات التنظيم الحسي التي هي بدورها عمليات أوتوماتية. وإنا لنجد أن الكبت (وهو الذي يؤدي في النهاية إلى فقدان ضار للكف وللقدرة على ضبط النفس وإن كان يخدم في الأصل قصداً نافعاً) نجد أنه يصيب الذكريات أسهل كثيراً مما يصيب الإدراكات؛ لأن الذكريات لا تستطيع أن تتلقى استثماراً إضافياً من تهييج أعضاء الحس النفسية. فمع أن من الحق أن فكرة وجب استبعادها لا تستطيع أن تصير شعورية لأنها قد لاقت كبتاً، إلا أنه قد يحدث في مرة أخرى أن تلاقي مثل هذه الفكرة كبتاً، لا لشيء سوى أنها . لأسباب أخرى . قد فُصلت من الإدراك الشعوري. وكل هذه إشارات ننتفع بها في فن العلاج من أجل إزالة ما قد تحقق من الكبت.

وأحسن دليل يبيِّن من وجهة نظر غائية قيمة الاستثمار المضاعف الذي يدخله التأثير التنظيمي لعضو الحس ش. على الكميات المتحركة هو ظهور سلسلة جديدة من الكيفيات إلى الوجود، ومن ثم ظهور تنظيم جديد هو الذي يكوِّن تفوق الإنسان على الحيوان. فالعمليات الفكرية مجردة في ذاتها من الكيفيات، إلا من حيث ما يصحبها من التهييجات اللاذة وغير اللاذة والتي يتحتم حصرها في نطاق محدود نظراً لما تدخله من أثر مزعج على التفكير. ولكي تكتسب العمليات الفكرية كيفاً رُبطت لدى الكائنات الإنسانية بذكريات لفظية تكفي بقاياها الكيفية في جذب انتباه الشعور إليها وفي إكساب عملية التفكير استثماراً جديداً متحركاً من جانب الشعور [أنظر ص 590 وص 622 في الهامش].

ولسنا نستطيع الإلمام بمشكلات الشعور في كل تعددها إلا بتحليل العمليات الفكرية في الهستيريا. فهذه تشعرنا بأن الانتقال من استثمار قبل شعوري إلى آخر شعوري يتَّسم برقابة تماثل تلك القائمة بين النظامين لاش. و قبش. ولا تأخذ هذه الرقابة أيضاً في العمل إلا بعد حد كمي معين، بحيث تفلت منها العمليات الفكرية ذات الشدة المنخفضة. وفي مجال الظواهر العصابية النفسية أمثلة من كل نوع تبيِّن كيف تنفصل فكرة من الشعور أو تنفذ إليه تحت قيود معينة، وكل هذه الأمثلة تلمّح إلى العلاقات الباطنة المتبادلة بين الرقابة والشعور. وأختتم هذه التأملات السيكولوجية بذكر مثالين من هذا القبيل.

دُعيت في العام الماضي إلى زيارة فتاة كان مظهرها ينم عن الذكاء والبعد عن الكلفة. وكان ملبسها يبعث على الاستغراب. فبينما ينم هندام المرأة عادة عن عناية تتناول أدق التفاصيل، كانت هذه تحمل جوروباً متدلياً وصداراً انفكَّ منه زراران. وشكت الفتاة ألماً في ساقها وعرَّت ركبتها دون أن يطلب منها ذلك. ولكن شكاتها الأولى كانت شعوراً يخالجها في جسمها كأن شيئاً ما «قد غُرس فيه»، شيئاً كان «يتحرك إلى الأمام وإلى الخلف»، وكان هذا الشيء «يهزها» من قمة رأسها إلى أخمص قدمها، وكان في بعض الأحايين يجعلها تشعر بجسمها «متصلباً». ونظر إليَّ زميلي الحاضر معي في أثناء الفحص؛ فلم يفته أن يرى ما تعنيه هذه الشكاة. ولكن الذي لاح لكلينا أمراً عجباً هو أن أم المريضة لم تحدث نفسها بشيء، مع أنها لا بد قد وجدت نفسها مراراً في الموقف الذي تصفه ابنتها. وأما الفتاة فلم تكن تفطن البتة إلى ما ترمي إليه أقوالها، وإلا ما فاهت قط بلفظ منها. فهذه الحالة أمكنت فيها مداورة الرقابة بحيث نرى تخييلاً يبقى عادةً طي ما قبل الشعور وقد أُذن له بالانبعاث في الشعور تحت ستار بريء من التشكي.

وها هو ذا مثال آخر: ولد في الرابعة عشرة من عمره جاءني وهو يعاني رجفة تشنجية وقيئاً هستيرياً وصداعاً، إلخ. وبدأت علاجه التحليلي النفسي بأن أكدت له أنه لو أغلق عينيه لرأى صوراً أو أتته خواطر عليه عندئذ أن ينقلها إليّ، فكان جوابه صوراً: انبعث في ذاكرته انبعاثاً بصرياً آخر انطباع تلقاه قبل المجيء إليّ: كان يلعب الشطرنج مع عمه وإنه ليرى اللوح أمامه. وجعل يفكر في المواقع المختلفة الرابحة وغير الرابحة وفي الحركات التي يجب أن يتجنبها. ثم بعد ذلك رأى خنجراً يستقر على اللوح . وهو خنجر كان ملكاً لوالده ولكن خياله وضعه على اللوح. وأعقب ذلك محصد فمنجل. ثم ظهرت الآن صورة فلاح عجوز يحش الحشيش بمنجل قدَّام منزل المريض النائي. وبعد أيام قليلة اكتشفت معنى هذه الحلقات المتتابعة من الصور: فقد كان الولد يبهظه موقف عائلي تعس: فله أب كان رجلاً قاسياً، تعتريه سورات من الغضب، اقترن بأم المريض اقتراناً غير موفَّق وكان منهجه التربوي ينحصر في الوعيد. ولقد طلَّق الأب أم الولد المريض، وكانت امرأة عطوفاً حدوباً، ثم تزوج بغيرها. وفي ذات ليلة أقبل إلى المنزل بامرأة شابة كان على الولد أن يتخذها أمه الجديدة. وكان في خلال الأيام القلائل الأولى التي أعقبت هذا الحدث أن الولد جعل يمرض، وكان غضبه المكبوت تجاه أبيه هو الذي ركَّب هذه السلسلة من الصور بتلميحاتها غير المفهومة. وأما مادتها فقد اشتقت من ذكرى إحدى الأساطير: فالمحصد هو المحصد الذي به خصى زوس أباه، وأما المنجل وصورة الرجل العجوز فيمثلان كرونوس الشيخ الباغي الذي التهم أبناءه والذي ثأر منه زوس ذلك الثأر الجاحد. وكان زواج الأب هو الذي أتاح للولد أن يكيل لوالده كل التقريع والوعيد اللذين سمعهما هو منه قبل ذلك بزمن طويل إذ كان يلعب بأعضائه التناسلية (أنظر اللعب بالشطرنج والحركات الممنوعة والخنجر الذي يستطيع المرء أن يقتل به). ففي هذه الحالة ذكريات كُبتت زماناً طويلاً ومشتقات منها بقيت طي اللاشعور تدلف جميعها إلى الشعور من طريق دائري في هيئة صور ظاهرها الخلو من المعنى.

وهكذا أرى القيمة النظرية لدراسة الحلم فيما تضيفه هذه الدراسة من جديد إلى معرفتنا السيكولوجية، وفي النور المبدئي الذي تلقيه على مشكلات الأعصبة. ومن ذا الذي يستطيع أن يحذر أهمية النتائج التي قد نظفر بها من فهم مستوفي لتركيب الجهاز النفسي، إذا كانت معرفتنا . وهي لم تزل بحالتها الراهنة . تمكننا من التأثير فيما يقبل الشفاء من صور الأعصبة النفسية تأثيراً علاجياً مطيِّباً؟ غير أنني أسمع سؤالاً: وماذا عن القيمة العملية لهذه الدراسة من حيث هي وسيلة إلى فهم النفس وإلى الكشف عن الخصائص المختبئة للأفراد المختلفين؟ أليس للاندفاعات اللاشعورية التي يفرغها الحلم قيمة القوى الحقيقية في الحياة النفسية؟ هل لنا أن نستخف بالمغزى الخلقي للرغبات المكبوتة . وهي رغبات تولَّد اليوم الحلم ولكنها قد تولد كذلك أشياء أخرى يوماً ما؟

إني لا أشعر بحق في الإجابة عن هذه الأسئلة: فما ذهبت خواطري في صدد هذا الوجه من مشكلة الحلم إلى أبعد من هذا المدى. غير أنني أعتقد مع ذلك أن الإمبراطور الروماني قد جانب الصواب إذ أمر بإعدام أحد رعاياه لأنه حلم باغتياله. فقد كان أولى به أن يحاول الكشف عن معنى الحلم، وأغلب الظن أن معناه كان يختلف من ظاهره. ثم إنه لو كان ثمة حلم مختلف المحتوى ولكنه تضمَّن هذا المعنى الآثم تجاه الذات الإمبراطورية، أفما كان ينبغي أن نذكر قول أفلاطون: إن الرجل الفاضل يكفيه الحلم حيث يقدم الشرير على الفعل؟ وعلى ذلك أرى أن الأحسن هو أن نترك للأحلام حريتها. وأما السؤال: هل ينبغي أن نضيف إلى الرغبات اللاشعورية صفة الواقع ؟ فهذا ما لا أستطيع أن أقطع فيه بحرف. إلا أن من الواجب بالطبع أن نأبى مثل هذه الصفة على كل فكرة عابرة أو متوسطة. وإذا نظرنا إلى الرغبات اللاشعورية وقد ردَّت إلى أول أشكالها وأصدقها وجب ولا ريب القول: إن الواقع النفسي صورة من صور الوجود لا ينبغي الخلط بينها وبين الواقع المادي[590]. وهكذا يبدو ألا مبرر لنفور الناس من أن يتحملوا مسؤولية انتفاء الأخلاق من أحلامهم. وإن الجزء الأعظم مما لا نرضى عنه من الوجهة الخلقية في حياتيَ الحلم والتخييل ليؤول إلى الاختفاء حين نقدِّر أسلوب الجهاز النفسي في النشاط تقديراً صائباً وحين نفهم العلاقة بين الشعور واللاشعور. أو بعبارة هانس ساكس: «إنا إذا نظرنا في شعورنا عن أمر حدَّثنا به الحلم في صدد الحاضر (أو الواقع)، لا يجب أن ندهش إذا رأينا المسخ الذي شهدناه تحت عدسة التحليل المكبرة ينقلب إلى حيوان نقعي».

إن الأفعال والآراء التي يعرب عنها صاحبها إعراباً شعورياً تكفي عادةً من حيث المقاصد العملية في الحكم على طبائع الناس. والأفعال هي الخليقة بأول اعتبار وأقطعه لأن كثيراً من الاندفاعات قد تنفذ إلى الشعور ثم إذا هي مع ذلك تنفق قبل أن تنمو حتى تصير فعالاً؛ فقد لاقت القوى الحقيقية للحياة النفسية. والحق أن أمثال هذه الدوافع قد لا يلاقي تقدمها حوائل نفسية في كثير من الأحيان، والسبب في ذلك على التحديد هو ثقة اللاشعور من كونها لا محالة واقفة في مرحلة أخرى من المراحل. ومهما يكن من الأمر، فإن من المفيد دائماً أن نتعرَّف هذه التربة التي كُثر تقليبها والتي منها تنبعث فضائلنا في فخر؛ إذ أنه يندر كل الندرة أن يخضع تعقُّد الطبع الإنساني، بما يضمه من قوى دينامية تحركه في كل اتجاه، لاختيار يقطع بين احتمالين وكفى، كما تريدنا مذاهبنا الأخلاقية التي طال بها الدهر على تصديقه.

وماذا عن قيمة الحلم في إطلاعنا على الغيب؟ هذه بالطبع مسألة ليست موضع تفكير وربما كان الأصدق أن نقول بدل ذلك: إن الأحلام تحيطنا علماً بالماضي. فالحلم فرع من الماضي بكل معنى من المعاني. ومع هذا فاعتقاد القدامى أن الأحلام تنبىء بالمستقبل لا يخلو كل الخلو من الصدق. فالحلم مهما يكن من أمر يسلك بنا جهة المستقبل إذ يصور رغباتنا محققة.إلا أن هذا المستقبل الذي يصوره الحالم في صورة الحاضر قد سوِّيَ برغبة لا تعرف الهدم على أكمل شبه بالماضي.

قائمتا المراجع 591

[وضعت عناوين المقالات بين شولتين مقلوبتين. وجرى استخدام حروف الاختصار وفقاً لقائمة الدوريات العلمية في العالم (أكسفورد، 195). ويدل حرفا G.S. على كتابات فرويد المجمَّعة (12 جزءاً، فيينا، 1924 . 34) وحرفا G.W. على مؤلفات فرويد المجمَّعة (18 جزءاً، لندن، ابتداءً من 1940) C.P. على مقالات فرويد المجمعة باللغة الإنجليزية (5 أجزاء، لندن، 1924 . 50) Standard E. على الترجمة الإنجليزية الأخيرة لمؤلفات فرويد الكاملة (24 جزءاً، لندن، ابتداءً من 1953].

أ

كتَّاب أشير إلى مؤلفاتهم في سياق النص

[فيما يتصل بفرويد يدل الحرف الذي يتبع تاريخ السنة على ترتيب المرجع المشار إليه بين سائر مؤلفات فرويد المنشورة في تلك السنة، ويدل فيما يتصل بغير فرويد من المؤلفين على ترتيبه بين سائر المؤلفات المذكورة لهم في هذا الكتاب].

.Abraham, K. (1909) Traum und Mythus, Vienna

Adler, A. (1910) 'Der psychische Hermaphroditismus im Leben und in der Neurose', Fortschr. Med., .28, 486

.Beitrag zur Lehre vom Widerstand", ZBL. Psychoanal., 1, 214" (1911)'

.Allison, A. (1868) 'Nocturnal Insanity', Med. Times & Gaz., 947, 210

.Almoli, S. See Salomon Almoli

.Amram, N. (1901) Sepher pithron chalomoth, Jerusalem

Aristotle, De somniis and De divinatione per somnum. [Trans. by W.S. Hett in volume 'On the Soul', .[Loeb Classical Library, London & New York, 1935

Artemidorus of Daldis, Oneirocritica. [German trans.: Symbolik der Traume by F.S. Krauss, Vienna, 1881, and 'Erotische Traume und ihre Symbolik' Anthropophyteia, 9, 316, by Hans Licht. English trans. .[abridged: The Interpretation of Dreams, by R. Wood, London, 1644

.Artigues, R. (1884) Essai sur la valeur semeiologique du rêve, (Thesis) Paris

.Benini, V. (1898) 'La memoria e la durata dei sogni', Riv. ital. Filos., 13a, a49

.Bernard-Leroy and Tobowolska, J. (1901) 'Mecanisme intellectuel du rêve', rev. phil., 51, 570

Bernfeld, S. (1944) 'Freud's Earliest Theories and the School of Helmholtz', Psychoanal. Quart., 13, .341

.Bernstein, I., and Segel, B.W. (1908) Judische Sprichworter und Redensarten, Warsaw

Betlheim, S., and Hartmann, H. (1924) 'Uber Fehlreaktionen des Gedachtnisses bei Korsakoffschen

.Psychose', Arch. Psychiat. Nervenkr., 72, 278

Bianchieri, F. (1912) 'I sogni dei bambini di cinque anni', Riv. Psicol., 8, 325. See also Doglia and .Blanchieri

.Binz, C. (1878) Uber den Traum, Bonn

.Bleuler, E. (1910) 'Die Psychoanalyse Freuds', Fb. psychoanal. psychopath. Forsch., 2, 623

.Bonatelli, F. (1880) 'Del sogno', La filosofia delle scuole italiane, Feb., 16

.Borner, J. (1855) Des Alpdrucken, seine Begrundung und Verhutung, Wurzburg

.Bottinger (1795) In C.P.J. Sprengel: Beitrage zur Geschichte der Medizin, 2

.Bouché-Leclercq, A. (1879-82) Histoire de la divination dans l'antiquité, Paris

.Breuer, J., and Freud, S. (1855) see Freud, S. (1895d) 1940 [1892] see Freud, S. (1940d(

.Büchsenschütz, B. (1868) Traum und Traumdeutung im Altertum, Berlin

Burdach, K.F. (1838) Die Physiologie als Erfahrungswissenschaft, Vol. 3 of 2nd ed., 1832-40. (1st .(ed. 1826-32

.Busemann, A. (1909) 'Traumleben der Schulkinder', Z. pad. Psychol., 10, 294

.' (1910)Psychologie der kindlichen Traumerlebnisse', Z. pad. Psychol., 11, 320

.Cabanis, P.J.G. (1802) Rapports du physique et du moral de l'homme, Paris

.Calkins, M.W. (1893) 'Statistics of Dreams', Amer. F. Psychol., 5, 311

.Carena, Caesar (1641) Tractatus de Officio Sanctissimes Inquisitionis, Cremons

Chabaneix, P. (1897) Physiologie cérébrale; le subconscient chez les artites, les savants, et les .écrivains, Paris

Trans. by W.A. Falconer 'Loeb Classical Library', London & New] Cicero: De divinatione. (1955(.[York, 1922

.Claparède, H. (1905) 'Esquisse d'une theorie bilogique du sommeil', Arch. psychol., 4, 245

.Glerk-Maxwell, J. (1876) Matter and Motion, London

Coriat, I.H. (1913) 'Zwei sexual-symbolische Beispiele von Zahnarzt-Traumen', Zbl. Psychoanal. .Psychother., 3, 440

.Dattner, B. (1913) 'Gold und Kot', Int. Z. Psychoanal., 1, 495

.(Davidson, Wolf (1799) Versuch uber den Schlaf, Berlin. 2 nd ed., (1 st ed., 1795

.Debacker, F. (1881) Des hallucinations et terreurs nocturnes chez les enfants, (Thesis) Paris

.Delacroix, H. (1904) 'Sur la structure logique du reve,' Rev. Metaphys., 12, 921

.Delage, Y. (1891) 'Essai sur la theorie du rêve', Rev. industr., 2, 40

.Delboeuf, I. (1885) Le sommeil et les rêves, Paris

Diepgen, P. (1912) Traum und Traumdeutung als mediz. naturwissenschaftl. Problem im Mittelater, .Berlin

.Doglia, S. and Blanchieri, F (1910–11) 'I sogni dei bambini di tre anni', Contrib. psicol., 1, 9

.Dollinger, J. (1857) Heidenthum und Judenthum, Regensburg

Drexl, F.X. (1909) Achmets Traumbuch: Einleitung und Probe eines kritischen Textes, (Thesis) .Munich

Dugas, L. (1897a) 'Le sommeil et la cérébration inconsciente durant le sommeil', Rev. phil., 43, .410

.1897b) 'Le souvenir du rêve', Rev. phil., 44, 220)

.Du Prel, C. (1885) Die Philosophie der Mystik, Leipzig

.Eder, M.D. (1913) 'Augentraume', Int. Z. Psychoanal., 1, 157

.Egger, V. (1895) 'La durée apparente des rêves', Rev. phil., 40, 41

.' (1898)Le souvenir dans le rêve', Rev. phil., 46, 154

.Ellis, Havelock (1899) 'The Stuff that Dreams are made of', Popular Science Monthly, 54, 721

.The World of Dreams, London (1911)

.Erdmann, J.E. (1852) Psychologische Briefe (Brief VI), Leipzig

.Fechner, G.T. (1860) Elemente der Psychophysik, Leipzig

.Federn, P. (1914) 'Uber zwei typische Traumsensationen', Jb. Psychoanal., 6, 89

Fere, C. (1886) 'Note sur un cas de paralysie hystérique consécutive à un rêve', Soc. biolog., 41 .((Nov. 20

.' (1887)A Contribution to the Pathology of Dreams and of Hysterical Paralysis', Brain, 9, 488

.Ferenczi, S. (1910) 'Die Psychoanalyse der Traume', Psychiat.-Neurol Wacher. I 12, Nos. 11–13

Trans.: 'The Psychological Analysis of Dreams', Chap. III fo Contributions to Psychoanalysis,] .[Boston, 1916

.' (1911)Uber lenkbare Traume', Zbl. Psychoanal., 2, 31

.' (1912)Symbolische Darstelung des Lust-und Realitatsprinzips im Odipus-Mythos', Imago, 1, 276

Trans.: The Symbolic Representation of the Pleasure and Reality Principles in the Oedipus Myth',] .[Chap. X, Part I of Contributions to Psycho-Analysis, Boston, 1916

.' (1913)Zur Augensymbolik', Int. Z. Psychoanal., 1, 161

.[Trans.: 'On Eye Symbolism', Chap. X, Pt. II of Contributions to Psycho-Analysis, Boston, 1916]

.' (1916)Affektvertauschung im Traume', Int. Z. Psychoanal., 4, 112

.[Trans., 'Interchange of affect in Derams', No. LV in Further Contributions, London, 1926]

.‘ (1917)Traume der Ahnungslosen’, Int. Z. Psychoanal., 4, 208

.[Trans., ‘Dreams of the Unsuspecting’, No. LVI of Further contributions, London, 1926]

.Fichte, J.H. (1864) Psychologie: die Lehre vom bewussten Geiste des Menschen, (2 vols.), Leipzig

Fischer, K.P. (1850) Grundzuge des Systems der Anthropologie, Erlangen. (Pt. 1, Vol. 2, in .Grundzuge des Systems der Philosophie(

.Fliess, W. (1906) Der Ablauf des Lebens, Vienna

Forster, M. (1910) ‘Das lateinisch–altenglische pseudo–Danielsche Traumbuch un Tiberius A. III’, .Archiv Stud. neueren Sprachen und Literaturen, 125, 39

‘ (1911)Ein mittelenglisches Vers–Traumbuch des 13 Jahrhunderts’, Archiv Stud. neureren Sprachen .und Literaturen, 127, 31

.Foucault, M. (1906) Le rêve: études et observations, Paris

Freud, S. (1877a) ‘Uber den Ursprung der hinteren Nervenwurzeln im Ruckenmark von Ammocostes .(Petromyson Planevi)’, Sitzungsber. k. Akad. Wiss., III Abt., Bd. 75, January

.1884e) ‘Uber Coca’,Centralbl. ges. Therap., 2, 289)

.[Trans.: (abbreviated) ‘Coca’, Saint Louis Med. Surg. J., 48 (1884), 502]

1893c) ‘Quelque considérations pour une étude comparative des paralysies motrices organiques et) .hysteriques’, G.S., 1, 30; G.W., 1, 37

Trans.: ‘Some points for a Comparative Study of Organic and Hysterical Motor Paralyses’, C.P., 1,] .[42; Standard Ed., 1

.1894a) ‘Die Abwehr–Neuropsychosen’, G.S., 1, 290, G.W., 1, 57)

.[Trans.: ‘The Neuro–Psychoses of Defence’, C.P., 1, 59; Standard Ed., 3]

1895b) ‘Uber die Berechtigung, von der Neuresthenie einen bestimmten Symptomenkomplex als) .Angstneurose abzutrennen’, G.S., 1, 306; G.W., 1, 313

Trans.: ‘On the Grounds for Detaching a Particular Syndrome from neurasthenia under the] .[description Anxiety Neurosis’, C.P., 1, 76; Standard Ed., 3

1895d) With Breuer, J., Studien uber Hysterie, Vienna. (G.S., 1; G.W., 1, 75. Omitting Breuer’s) .contributions(

.[Trans.: Studies on Hysteria, Standard Ed., 2]

.1896b) ‘Weitere bemerkungen uber die Abwehr–Neuropsychosen’, G.S., 1, 363; G.W., 1, 377)

.[Trans.: ‘Further Remarks on the Neuro–Psychoses of Defence’, C.P., 1, 155; Standard Ed., 3]

.1898b) ‘Zum psychischen Mechanismus der Vergesslichkeit’, G.W., 1, 517)

.[Trans.: ‘The Psychical Mechanism of Forgetting’, Standard Ed., 3]

.1899a) ‘Uber Deckerinnerungen’, G.S., 1, 465; G.W., 1)

.[Trans.: 'Screen Memories', C.P., 5, 47; Standard Ed., 3]

.(1900a) Die Traumdeutung, Vienna. (G.S., 2–3; G.W., 2–3)

.[Trans.: The Interpretation of Dreams, revisted ed., London, 1932; Standard Ed., 4–5]

.(1901a) Uber den Traum, Wiesbaden. (G.s., 3, 189; G.W., 2–3, 643)

.[Trans.: On Dreams, London, 1951; Standard Ed., 5, 629]

.(1901b) Sur Psychopsthologie des Alltagslebens, Berlin. (G.S., 4; G.W., 4)

.[Trans.: The Psychopathology of Everyday Life, Standard Ed., 6]

.1904a) 'Die Froud'sche Psychoanalytische Methode', G.S., 6, 3; G.W., 5, 3)

.[Trans.: 'Freud's Psycho–Anycho–Analytic Method', C.P., 1, 264; Standard Ed., 7]

.(1905c) Der Witz und seine Beziehung zum unbewussten, Vienna (G.S., 9; G.W., 6)

.[Trans.: Jokes and their Relation to the Unconscious, Standard Ed., 8]

.(1905d) drei Abhandlungen zur Sexualtheorie, Vienns. (G.S., 5, 3; G.W., 5, 29)

.[Trans.: Three Essays on the Theory of Sexuality, London, 1949; Standard Ed., 7]

.' (1905)Bruchstück einer Hysterie–Analyse', G.S., 8, 3; G.W., 5, 163

.[Trans.: 'Fragment of an Analysis of a Case of Hysteria', C.P., 3, 13; Standard Ed., 7]

.(1907a) Der Wahn und die Traume in W. Jenses 'Gradiva', Vienna. (G.S., 9, 273, G.W., 7, 31)

.[Trans.: Delusion and Dreams in Jensen's 'Gradiva', Standard Ed., 9]

.1908a) 'Hysterische Phantasien und ihre Beziehung zur Bisexualitat', G.S., 5, 246; G.W., 7, 191)

.[Trans.: 'Hysterical Phantsies and their Relation to Bisexuality', C.P., 2, 51; Standard Ed., 9]

.1908b) 'Charakter und Analerotik', G.S., 5, 261; G.W., 7, 203)

.[Trans.: 'Character and Anal Erotism', C.P., 2, 45; Standard Ed., 9]

.1908c) 'Uber infantile Sexualtheorien', G.S., 5, 168; G.W., 7, 171)

.[Trans.: 'On the Sexual Theories of Children', C.P., 2, 59; Standard Ed., 9]

.1908e) 'Der Lichter und des Phantasieren', G.S., 10, 229; G.W., 7, 213)

.[Trans.: 'Creative Writers and Day–Dreaming', C.P., 4, 173; Standard Ed., 9]

.1909b) 'Analyse der Phobie eines funfjahrigen Knaben', G.S., 8, 129; G.W., 7, 243)

.[Trans.: 'Analysis of a Phobia in a Five–Year Old Boy', C.P., 3, 149; Standard Ed., 10]

.1909d) 'Bemerkungen uber einen Fall von Zwangsneurose', G.S., 8, 269; G.W., 7, 381)

.[Trans.: 'Notes upon a Case of Obsessional Neurosis', C.P., 3, 293; Standard Ed., 10]

.(1910a) Uber Psychoanalyse, Vienna. (G.S., 4, 349; G.W., 8, 3)

.[Trans.: Five Lectures on Psycho-Analysis, Standard Ed., 11]

.1910d) 'Die Zukunftigen Chancen der Psychoanalytischen Therapie', G.S)

.1910e) 'Upber den Gegensinn der Urworte', G.S., 10, 221; G.W., 8, 214)

.[Trans.: 'The Anithetica Sense of Primal Words', G.P., 4, 184; Standard Ed., 11]

.1910f) 'Brief an Dr. Friedrich S. Krauss uber die Anthropophyteia', G.S., 11, 242, G.W., 8, 224)

.[Trans.: 'Letter to Dr. Friedrich S. Krauss on Anthropophyteia', Standard Ed., 11]

1910h) 'Uber einen besonderen Typus der Objektwahl beim Manne' ('Beitrage zur Psychologie des) .Liebesleben's I), G.S., 5, 186, G.W., 8, 66

Trans.: 'A Specia Type of Choice of object made by Men' ('Contributions to the Psychology of Love'] .[I), C.P., 4, 192; Standard Ed., 11

1910l) 'Typisches Beijpiel eines verkappten Odipustraumes', Zentralbl. Psychoanal., 1, 45;) .reprinted in Die Traumdeutung, G.S., 3, 118 n.; G.W., 2-3, 404 n

Trans.: 'A Typical Example of a Disguised Oedipus Dream'; inciluded in The Interpretation of] .Dremas, Standard Ed., 5, 398 n[

1911a) 'Nachtrage zur Traumdeutung', Zentraibl. Psychoanal., 7, 18, 1 (Partly reprinted G.S., 3, 77) .ff. and 126 f.; G.W., 2-3, 365 ff. and 412 f(

Trans.: 'Additions to the Interpretation of Dreams', (wholly incorporated in the Interpretation of] .Dreams, Standard Ed., 5, 360 ff. and 408 f[

1911b) 'Formulierungen uber die zwei Prinzipien des psychischen Geschehens', G.S., 5, 409;) .G.W., 8, 230

.[Trans.: 'Formulations on the Two Principles of Mental Functioning', C.P., 4, 13; Standard Ed., 12]

.1911e) 'Die Handhabung der Traumdeutung in der Psychoanalyse', G.S., 6, 45; G.W., 8, 350)

.[Trans.: 'The Handling of Dream-Interpreation in Psycho-Analysis', C.P., 2, 305; Standard Ed., 12]

1912g) 'Einige Bemerkungen uber den Begriff des Unbewussten in der Psychoanalyse', G.W., 8,) .360

Trans.: 'Some Remarks on the Concept of the Unconscious as used in Psycho-Analysis', C.P., 4,] .[22; Standard Ed., 12

.(Totem und Tabu, Vienna. (G.S., 10; G.W., 9 (1912-13)

.[Trans.: Totem and Taboo, London, 1950; Standard Ed., 13]

.1913a) 'Ein Traum als Beweismittel', G.S., 3, 267; G.W., 10, 12)

.[Trans.: 'An Evidential Dream', C.P., 2, 133; Standard Ed., 13]

.1913d) 'Marchenstoffe in Traumen', G.S., 3, 259; G.W., 10, 2)

.[Trans.: 'The Occurrence in Dreams of Material from Fairy Tales', C.P., 4, 236; Standard Ed., 13]

.1913f) 'Das Motiv der Kastchenwahl', G.S., 10, 243–56; G.W., 10, 24–37)

.[Trans.: 'The Theme of the Three Caskets', C.P., 4, 244–56; Standard Ed., 12]

1913h) 'Erfahrungen und Beispiele aus der analytischen Praxis', Int. Z. Psychoanal., 1, 377. (Partly) reprinted G.S., 11, 301; G.W., 10, 40. Partly included in Traumdeutung, G.S., 3, 41, 71 f., 127 and 135; .(G.W., 2–3, 238, 359 ff. 413 f. and 433

Trans.: 'Observations and Examples from Analytic Practice', Standard Ed., 13 (in full). Also partly] .incorporated in The Interpretation of Dreams, Standard Ed., 4, 232 and 5, 409 f[

.1913k) 'Gewohnheitsrecht der Volker', G.S., 11, 249; G.W., 10, 453)

.[Trans.: 'Preface to Bourke, Scatalogic. Rites of all Nations', C.P., 5, 88; Standard Ed., 12]

1914a) 'Uber fausse reconnaissance (deja raconte) wahrend der Psychoanalytischen Arbeit', G.S.,) .6, 67; G.W., 10, 116

Trans.: Fausse reconnaissance (déja raconté) in Psycho–Analytic Treatment', C.P., 2, 334;] .[Standard Ed., 14

.1914c) 'Zur Einfuhrung des Narzissmus', G.S., 6, 155; G.W., 10, 138)

.[Trans.: 'On Narcissism: an Introduction', C.P., 4, 30; Standard Ed., 14]

.1914d) 'Zur Geschichte der Psychoanalytischen Bewegung', G.S., 4, 411; G.W., 10, 44)

.[Trans.: 'On the History of the Psycho–Analytic Movement', C.P., 1, 287; Standard Ed., 14]

1914e) 'Darstellungen der grossen Leistung im Traume', Int. Z. Psychoanal 2, 384; reprinted in Die) .Traumdeutung, G.S., 3, 130, G.W., 2–3, 416

Trans.: 'The Representation in a Dream of a Great Achievement'; included in the Interpretation of] .[Dreams, Standard Ed., 5, 412

1915a) 'Weitere Ratschlage zur Technik der Psychoanalyse III: Bemerkungen uber die) .Ubertragungsliebe', G.S., 6, 120; G.W., 10, 306

Trans.: 'Observations on Transference–Love (Further Recommendations on the Technique of] .[Psycho–Analysis, III)', C.P., 2, 377; Standard Ed., 12

.1915b) 'Zeitgemasses uber Krieg und Tod', G.S., 10, 315–46; G.W., 10, 324–55)

.[Trans.: 'Thoughts for the Times on War and Death', C.P., 4, 288–317; Standard Ed., 14]

.1915d) 'Die Verdrangung', G.S., 5, 466; G.W., 1), 248)

.[Trans.: 'Repression', C.P., 4, 84; Standard Ed., 14]

.1915e) 'Das Unbewusste', G.S., 5, 480; G.W., 10, 264)

.[Trans.: 'The Unconscious', C.P., 4, 98; Standard Ed., 14]

1916c) 'Eine Beziehung zwischen einem Symbol und einem Symptom', G.S., 5, 310; G.W., 10,) .394

.[Trans.: 'A Connection between a Symbol and a Symptom', C.P., 2, 162; Standard Ed., 14]

.1916d) 'Einige Charaktertypen aus der psychoanalytischen Arbeit', G.S., 10, 287; G.W., 10, 364)

.Standard Ed., 14 ;318 ,4

.(Vorlesungon zur Einfuhrung in die Psychoanalyse, Vienna. (G.S., 7; G.W., 11 (1916–17)

Trans.: Introductory Lectures on Psycho–Analysis, revised ed., London, 1929; Standard Ed., 15]
.[and 16

.1917d) 'Metapsychogische Erganzung zur Traumlehre', G.S., 5, 520; G.W., 10, 412)

Trans.: 'A Metapsychological Supplement to the Theory of Dreams', C.P., 4, 137; Standard Ed.,]
.[14

.1918b) 'Aus der Geschichte einer infantilen Neurose', G.S., 8, 439; G.W., 12, 29)

.[Trans.: 'From the History of an Infantile Neurosis', C.P., 3, 473; Standard Ed., 17]

.1919h) 'Das Unheimliche', G.S., 10, 369; G.W., 12, 229)

.[Trans.: 'The Uncanny', C.P., 4, 368; Standard Ed., 17]

1920a) 'Uber die Psychogenese eines Falles von weibli her Homosexualitat', G.S., 5, 312; G.W.,)
.12, 271

.[Trans.: 'The Psychogenesis of a Case of Female Homosexuality', C.P., 2, 202; Standard Ed., 18]

1920f) 'Erganzungen zur Traumehre' (Author's Abstract of Congress Address, Int. Z. Psychoanal.,)
.6, 397

.[Trans.: 'Supplements to the Theory of Dreams', Int. J. PsychoAnal., 1, 354; Standard Ed., 18]

.(1920g) Jenseits des Lustprinzips, Vienna. (G.S., 6, 191; G.W., 13, 3)

.[Trans.: Beyond the Pleasure Principle, London, 1950; Standard Ed., 18]

1921b) Introduction (in English) to Varendonck, The Psychology of Day–Dreams, London. (G.W.,)
.(13, 439; Standard Ed., 18

.(1921c) Massenpsychologie und Ich–Analyse, Vienna. (G.S., 6, 261; G.W., 13, 73)

.[Trans.: Group Psychology and the Analysis of the Ego, London, 1922; Standard Ed., 18]

.1922a) 'Traum und Telepathie', G.S., 3, 278; G.W., 13, 165)

.[Trans.: 'Dreams and Telepathy', G.P., 4, 408, Standard Ed., 18]

1922b) 'Uber einige neurotische Mechanismen bei Eifersucht, Paranois und Homosexualitat', G.S.,)
.5, 387; G.W., 13, 195

Trans.: 'Some Neurotic Mechanisms in Jealousy, Paranoia and Homosexuality' C.P., 2, 232;]
.[Standard Ed., 18

.1922c) 'Nachschrift zur Analyse des kleinen Hans', G.S. G.W., 8, 264; 13, 431)

Trans.: 'Postscript to the Analysis of a Phobia in a Five-Year-Old-Boy', C.P., 3, 288; Standard] .[Ed., 10

.1923a) (1922) 'Psychoanlyse and Libido Theorie', G.S., 11, 201; 201; G.W., 13, 211)

.[Trans.: 'Two Encyclopaedia Articles', C.P., 5, 107; Standard Ed., 18]

.(1923b) Das Ich und das ES, Vienna. (G.S., 6, 353; G.W., 13, 237)

.[Trans.: The Ego and the Id, London, 1927; Standard Ed., 19]

.1923c) 'Bemerkungen zur Theorie und Praxis der Traumdeutung', G.S., 3, 305; G.W., 13, 301)

Trans.: 'Remarks on the Theory and Practice of Dream Interpretation', C.P., 5, 136; Standard Ed.,] .[19

.1923d) 'Eine Teufelsneurose im siebzehnten Jahrhundert', G.S., 10, 409; G.W., 13, 317)

.[Trans.: 'A Seventeenth Century Demonological Neurosis', C.P., 4, 436; Standard Ed., 19]

.1923f) 'Josef Popper-Lynkeus und die Theorie des Traumes', G.S., 11, 295; G.W., 13, 357)

.[Trans.: 'Josef Popper-Lynkeus and the Theory of Dream's, Standard Ed., 19]

.Gesammelte Schriften, Vienna (1924-34)

.1924c) 'Das ckonomische Problem des Masochismus', G.S., 5, 374; G.W., 13, 371)

.[Trans.: 'The Economic Problem of Masochism', C.P., 2, 255; Standard Ed., 19]

.1925a) 'Notiz uber den Wunderblock', G.S., 6, 415; G.W., 14, 3)

.[Trans.: 'A Note on the Mystic Writing-Pad', C.P., 5, 175; Standard Ed., 20]

.1925d) 'Selbstdarstellung', G.S., 11, 119; G.W., 14, 33)

.[Trans.: An Autobiographical Study, London, 1935; Standard Ed., 20]

.1925i) 'Einige Nachtrage zum Ganzen der Traumdeutung', G.S., 3, 172; G.W., 1, 559)

Trans.: 'Some Additional Notes upon Dream-Interpretation as a Whole', C.P., 5, 150; Standard Ed.,] .[20

1925j) 'Einige Psychische Folgen des Anatomischen Geschlechtsunterschieds', G.S., 11, 8; G.W.,) .14, 19

Trans.: 'Some Psychological Consequences of the Anatomical Distinction between the Sexes', C.P.,] .[5, 186; Standard Ed., 19

.(1926d) Hemmung, Symptom und Angst, Vienna. (G.S., 11, 23; G.W., 13, 113)

Trans.: Inhibitions, Symptoms and Anxiety, London, 1936; The Problem of Anxiety, New York,] .[1936; Standard Ed., 20

.(1927c) Die Zukunft einer Illusion, Vienna. (G.S., 11, 411; G.W., 14, 325)

.[Trans.: The Future of an Illusion, London 1928; Standard Ed., 21]

.1929b) 'Brief an Maxim Leroy uber einen Traum des Cartesius', G.S., 12, 403; G.W., 14, 558)

.[Trans.: 'A Letter to Maxime Leroy on a Dream of Descartes', Standard Ed., 21]

.(1930a) Das Unbehagen in der Kultur, Vienna. (G.S., 12, 29; G.W., 14, 421)

.[Trans.: Civilization and its Discontents, London, 1930; Standard Ed., 21]

.1930e) 'Goethe-Preis 1930', G.S., 12, 406; G.W., 14, 545)

.[Trans.: 'The Goethe Prize for 1930', Standard Ed., 21]

.1931b) 'Uber die weibliche Sexualitat', G.S., 12, 120; G.W., 14, 751)

.[Trans.: 'Female Sexuality', C.P., 5, 252; Standard Ed., 21]

.1932c) 'Meine Beruhrung mit Josef Popper-Lynkeus', G.S., 12, 415; G.W., 16, 261)

.[Trans.: 'My Contact with Josef Popper-Lynkeus', C.P., 5, 295; Standard Ed., 22]

1933a) Neue Folge der Vorlesungen zur Einfuhrrung in die Psychoanalyse, Vienna. (G.S., 12, G.W.,)
.(15

.[Trans.: New Introductory Lectures on Psycho-Analysis, London, 1933; Standard Ed., 22]

.(1940a '1938') Abriss der Psychoanalyse, (G.W., 17, 67)

.[Trans.: An Outline of Psycho-Analysis, London and New York, 1949; Standard Ed., 23]

.1940c '1922') 'Das Medusenhaupt', G.W., 17, 47)

.[Trans.: 'Medusa's Head', C.P., 5, 105; Standard Ed., 18]

.1940d '1892') With Breurer, J., 'Zur Theorie des hysterischen Anfalls', G.W., 17, 9)

.[Trans.: 'On the Theory of Hysterical Attacks', C.P., 5, 27; Standard Ed., 1]

.1941a '1892') 'Brief an Josef Breuer', G.W., 17, 5)

.[Trans.: 'A Letter to Josef Breuer', C.P., 5, 25; Standard Ed., 1]

.1941c '1899') 'Eine erfullte Traumahnung', G.W., 17, 21)

.Trans.: 'A Premonitory Dream Fulfilled', C.P., 5, 70; Standard Ed., 5, 623]

.[n., 65, n. 2, 623-5 5)

.[1950a '1887-1902') Aus den Anfangen der Psychoanalyse, London. [In part in Standard Ed., 1)

.Fuchs, E. (1909-12) Illustrierte Sittengeschichte (Erganzungsbande), Munich

Galton, F. (1907) Inquiries into Human Faculty and its Development, 2 nd ed., Everyman's Edition,
.(London (1 st ed., 1883

.(Everyman's Edition, London (1 st ed., 1883

Garnier, A. (1872) Traité des facultés de l'âme, contenant l'histoire des principales théories
.(psychologiques, (3 vols.), Paris. (1 st ed., 1852

.Giessler, C.M. (1888) Beitrage zur Phanomenologie des Traumlebens, Halle

.Aus den Tiefen des Traumlebens, Halle (1890)

.Die physiologischen Beziehungen der Traumvorgange, Halle (1896)

Girou De Bouzareinges, G. and Girou De Bouzareinges, L. (1848) Physiologie: essai sur le .mécanisme des sensations, des idées et dessentiments, Paris

.Goblot, E. (1896) 'Sur le souvenir des rôves', Rev. phil., 42, 288

.Gomperz, I. (1866) traumdeutung und Zauberei, Vienna

.Gotthardt, O. (1912) Die Traumbücher des Mittelalters, Eisleben

.Griesinger, W. (1845) Pathologie und Theapie der psychischen Krankheiten, Stuttgart

.do., 2 nd ed. (quoted by Radestock((1861)

.Gruppe, O. (1906) Griechische Mythologie und Religionsgeschichte, Munich

.(In Muller, Handbuch der klassischen Altertums-Wissenschaft, 5, 2)

.Guislain, J. (1833) Leçons orales sur les phrenopathies (3 vols.), Brussels

.(Quotation in text is from German trans.: Abhandlungen uber die Phrenopathien, Nuremberg, 1838)

.Haffner, P. (1887) 'Schlafen und Traumen', Sammlung zeitgemasser Broschur'u , 226, Frankfurt

Hagen, F.W. (1846) 'Psychologie und Psychiatrie', Wagner's Handworterbuch der Psychologie, 2, .692, Brunswick

.Hallam, F. and Weed, S. (1896) 'A Study of Dream Consciousness', Amer. J. Psychol., 7, 405

.Hartmann, E. Von (1890) Philosophie des Unbewussten, 10 th ed., Leipzig

.(st ed., 1869 1)

.(Trans.: Philsophy of the Unconscious, by W.C. Coupland, London, 1884)

.Hartmann, H. See Betlheim and Hartmann

.Hennings, J.C. (1784) Von den Traumen und Nachtwandlern, Weimar

.Henzen, W. (1890) Uber die Traume in der altnordischen Sagaliteratur, (Theiss) Leipzig

Herbart, J.F. (1892) Psychologie als Wissenschaft neu gegrundet auf Erfahrung, Metaphysik und Mathematk. (Zweiter, analytischer Teil); Vol. 6 in Herbart's Samtliche Werke (ed. K. Kehrbach), Langensalza. (1 st ed., Konigsbirg, Samtliche Werke (ed. K. Kehrbach), Langensalaz. (1 st ed., .(Konigsbirg, 1825

Hermann, K.F. (1858) Lehrbuch der gottesdienstlichen Alterthumer der Griechen, 2 nd ed., .Heidelberg. (Pt. II of Lehrbuch der griechischen Antiquitaten(

Lehrbuch der griechischen Privatalterthumer, 3 rd ed., Freiburg. (Pt. IV of Lehrbuch der (1882) .griechischen Antiquitaten(

.Herodotus History

.(Trans. by A.D. Godley, Vol. III (Loeb Classical Library), London and New York, 1922]

Hervey De Saint-Denys, Marquis d', (1867) Les reves et les moyens de les diriger, Paris. (Published .anonymously(

.Hilderbrandt,F.W. (1875) Der Traum und seine Verwerthung fur's Leben, Leipzig

.Hippocrates Ancient Medicine and Regimen

Trans.: by W.H.S. Jones, Vols. I and IV (Loeb Classical Library), London and New York, 1923 and] .[1931

.Hittschmann, E. (1913) 'Goethe als Vatersymbol', Int. Z. Psychoanal, 1, 569

.Hobbes, T. (1651) Leviathan, London

.Hoffbauer, J.C. (1796) Naturlehre der Seele, Halle

.Hohnbaum (1830) In C.F. Nasse: Jb. Anthrop., 1

Hug-Hellmuth, H. Von (1911) 'Analyse eines Traumes eines 5 jahrigen Knaben', Zbl. Psychoanal., .2, 122

.' (1913)Kindertraüme', Int. Z. Psychoanal., 1, 470

.' (1915)Ein Traum der sich selbst deutet', Int. Z. Psychoanal., 3, 33

.Ideler, K.W. (1862) 'Die Enstehung des Wahnsinns aus den Traumen', Charité Annalen, 3, Berlin

.Iwaya, S. (1902) 'Traumdeutung in Japan', Ostasien, 302

.Jekels, L. (1917) 'Shakespeares Macbeth', Imago, 5, 170

.Jessen, P. (1855) Versuch einer wissenschaftlichen Begründung der Psychologie, Berlin

.Jodl, F. (1896) Lehruch der Psychologie, Stuttgart

Jones, E. (1910a) 'The Oedipus Complex as an Explanation of Hamlet's Mystery', Amer. J. Psychol., .21, 72

.1910b) 'Freud's Theory of Dreams', Amer. J. Psychol., 21, 283)

.' (1911)The Relationship Between Dreams and Psychoneurotic Symptoms', Am. J. Insanity, 68, 57

.1912a) 'Unbewusste Zahlenbehandlung', Zbl. Psychoanal., 2, 241)

.1912b) 'A Forgotten Dream', J. abnorm. Psychol., 7, 5)

.1914a) 'Faru und Zimmer', Int. Z. Psychoanal., 2, 380)

.1914b) 'Zahnziehen und Gaburt', Int. Z. Psychoanal., 2, 380)

.' (1916)The Theory of Symbolism', Brit. J. Psychol., 9, 181

.Hamlet and Oedipus, London (1949)

.Sigmund Freud: Life and Work, 1, London (1953)

.Josephus, Flavius, Antiquitates Judaicae

.(Trans.: Ancient History of the Jews by W. Whiston, London, 1874)

.Jung, G.G. (ed.) (1906) Diagnostische Assoziationsstudien (2 vols.), Leipzig

.Trans.: Studies in World-Association, London[]

.Uber die Psychologie der Ementia praecox, Halle (1907)

.[Trans.: The Psychology of Dementia Praecox, How York, 1909]

.1910a) 'Uber Knoflikte der kindlichen Seele', Jb. psychoanal. psychopath. Forsch., 2, 33)

.1910b) 'Ein Beitrag zur Psychologie des Ceruchtes', Zbl. Psychoanal. 1, 1)

.' (1911)Ein Beitrag zur Kenntnis des Zahlentaumes', Zbl. Psychoanal., 1, 567

.Kant, I. (1764) Versuch uber die Krankheiten des Kopfes

.Anthropologie in pragmatischer Hinsicht (1798)

Karpinska, L. Von (1914) 'Ein Beitrag zur Analyse sinnloser Worte in Traume', Int. Z. Psychoanal., .2, 164

Kazousky, A.D. (1901) 'Zur Frage nach dem Zusammenhange von Traumen und .Wahnvorstellungen', Neurol. Zbl., 440 and 508

.Kirchgraber, F. (1912) 'Der Hut als Symbol des Genitales', Zbl. Psychoanal. Psychother., 3, 95

.Kleinpaul, R. (1898) Die Lebendigen und die Toten in Volksglauben, Religion und Sage, Leipzig

.Krauss, A. (1858-59) 'Der Sinnim Wahnsinn', Allg. Z. Psychol., 15, 617 and 16, 222

.Krauss, F.S. See Artemidorus

.Ladd, G.T. (1892) 'Contribution to the Psychology of Visual Dreams', Mind, (New Series) 1, 299

.Landauer, K. (1918) 'Handlungen des Schlafenden', Z. ges. Neur. psychiat., 39, 329

.Lasegue, C. (1881) 'Le délire alcolique n'est pas un délire, mais un rêve', Arch. gén. Méd

Lauer, C. (1913) 'Das Wesen des Traumes in der Beurteilung der talmudischen und rabbinischen .Literatur', Int. Z. Psychoanal., 1, 459

Lehmann, A. (1908) Aberglaube und Zauberei von den altesten Zeiten bis in die Gegenwart (German .trans. by Petersen), Stuttgart

.Le Lorrain, J. (1894) 'La durée du temps dans les rêves', Rev. phil., 38, 275

.' (1895)Le rêve', Rev. phil., 40, 59

Lélut, (1852) 'Mémoire sur les sommeil, les songes et le sonnambulsime', Ann. médpsychol., 4,

.331

.Lemone, A. (1855) Du sommeil au point de vue physiologique et psychologique, Paris

.Leroy, See Bernard–Leroy

.Leuret, F. (1834) Fragments psychologiques sur la folie, Paris

.Liébeault, A.A. (1889) Le sommeil provoqué et les états analogues, Paris

.Lipps, T. (1883) Grundtatsachen des Seelenlebens, Bonn

‘ (1897)Der Begriff des Unbewussten in der Psychologie’, Records of the Third Internat. Congr. .Psychol., Munich

.Lloyd, W. (1877) Magnetism and Mesmerism in Antiquity, London

.Lowinger. (1908) ‘Der Traum in der Judischen Literatur’, Mitt. jud. Volksk

.Lucretius, De rerum natura

.(Trans. by W.H.D. Rouse ‘Loeb Classical Library’, London and New York, 1924)

.‘Lynkeus’ (J. Popper) (1899) Phantasien eines Realisten, Dresen

.Maass, J.G.E. (1805) Versuch uber die Leidenschaften, Halle

Macario, M.M.A. (1847) ‘Des rêves, considérés sous le repport physiologique et pathologique’, Pt. .II, Ann. médpsychol., 9, 27

Du Sommeil, des rêves et du sonnambulisme dans l’état de santé et de maladie, Paris– (1857) .Lyons

.Macnish, R. (1830) Philosophy of Sleep, Glasgow

.(German trans.: Der Schlaf in allen seinen Gestalten, Leipzig, 1835)

Maeder, A. (1908) ‘Die Symbolik in den Legenden, Marchen, Gebrauchen, und Traumen’, Psychiat.– .neurol. Waschr., 10, 55

.‘ (1912)Uber die Funktion des Traumes’, Jb. psychoanal. psychopath. Forsch., 4, 692

Maine de Biran, M.F.P. (1834) Nouvelles considérations sur les rapports du physique et du moral de .l’homme, (ed. by V. Cousin), Paris

.Marcinowski, J. (1911) ‘Eine kleine Mitteilung’, Zbl. Psychoanal., 1, 575

.1912a) ‘Gezeichnete Traume’, Zbl. Psychoanal., 2, 490)

.1912b) ‘Drei Romane in Zahlen’, Zbl. psychoanal., 2, 619)

.(Maudsley, H. (1868) Psychology and Pathology of the Mind, London. (1 st ed., 1867

Maury, L.F.A. (1853) ‘Nouvelles observations sur les analogies des phénoménes du rêve et .l’aliénation mentale’, Pt. II, Ann. médpsychol., 5, 404

.(Le sommeil et les rêves Paris. (1 st ed., 1861 (1878)

.Meier, G.F. (1758) Versuch einer Erklarung des Nachtwandelns, Halle

Meynert, T. (1892) Sammlung von popularwissenschaftlichen Vortragen uber den Bau und die .Leistungen des Gehirns, Vienna

.Miura K. (1906) 'Uber japanische Traumdeuterei', Mitt dtsch. Ges. Naturk. Ostasiens, 10, 291

.Moreau, J. (1855) 'De l'identité de l'état de reve et de folie', Ann. médpsychol., 1, 361

.Muller, J. (1826) Uber die phantastischen Gedichtserscheinungen, Coblenz

.Myers, F.W.H. (1892) 'Hypermnesic Dreams', Proc. Soc. Psych. Res., 8, 362

.Nacke, p. (1903) 'Uber sexuelle Traume', Arch. Kriminalanthropol., 307

' (1905)Der Traum als feinstes Reagens f. d. Art d. sexuellen Empfindens', Montschr. f. Krim.- .Psychol., 2, 500

.' (1907)Kontrasttraume und spez. sexuelle Kontrasttraume', Arch. Kriminalanthropol., 24, 1

.' (1908)Beitrage zu den sexuellen Traumen', Arch. Kriminalanthropol., 29, 363

.' (1911)Die diaynostische und prognostische Brauchbarkeit der sex. Traume', Arztl. Sachv.-Ztg., 2

.Negelein, J. Von (1912) 'Der Traumschlussel des Jaggadeva', Relig. Gesch. Vers., 11, 4

.Nelson, J. (1888) 'A Study of Dreams', Amer. J. Psychol., 1, 367

.Nordenskjold, O. et al. (1904) Antarctic. Zwei Jahre in Schnee und Eis am Sudpol, (2 vols.), Berlin

.[English trans. (abr.): Antarctica, London, 1905]

Pachantoni, D. (1909) 'Der Traum als Urschprung von Wahnideen bei Alkohol-delirianten', Zbl. .Nervenheilk., 32, 796

Paulhan, F. (1894) 'A propos de l'activité de l'esprit dans le reve', under 'Correspondence' in Rev. .phil., 38, 546

.Peisse, L. (1857) La médecine et les médecins, Paris

Pfaff, E.R. (1868) Das Traumleben und seine Deutung nach den Prinzipien der Araber, Perser, .Griechen, Inder und Agypter, Leipzing

Pfister, O. (1909) 'Ein Fall von psychoanalystischer Seelsorge und Seelenheilung', Evangelische .Freiheit, Tubingen

' (12-(1911)Die psychologische Entratselung der religiosen Glossolalie und der automatischen .Kryptographie', Jb. psychoanal. psychopath. Forsch., 3, 427 and 730

' (1913)Kryptolaie, Kryptographie und unbewusstes Vexierbild bei Normalen', Jb. psychoanal. und .psychopath. Forsch., 5, 115

.Pichon, A.E.(1896) Contribution a l'étude des délires oniriques ou délires de rêve, Bordeaux

Pilcz, A. (1899) 'Uber eine gewisse Gesetzmassigkeit in den Traumen', Author's Abstract, Machr. .Psychiat. Neurol., 5, 231, Berlin

.(Plato, Republic. (67 and n., 620

.[Trans. by B. Jowett (Dialogues, Vol. II), Oxford, 1871]

Pohorilles, N.E. (1913) 'Eduard von hartmanns Gesetz der von unbewussten Zielvorstellungen .geleiteten Assoziationen', Int. Z. Psychoanal., 1, 605

Potzl., O. (1917) 'Experimentell erregte Traumbilder in ihren Beziehungen zum indirekten Sehen', Z. .ges. Neurol. Psychiat., 37, 278

.Prince, Morton (1910) 'The Mechanism and Interpretation of Dreams', J. abnorm. Psychol., 5, 139

Purkinje, J.E. (1846) 'Wachen, schlaf, Traum und verwandte Zustande', R. Wagner's .Handworterbuch der Physiologie, 3, 412, Brunswick

.Putnam, J.J. (1912) 'Ein charakteristischer Kindertraum', Zbl. Psychoanal., 2, 328

.Raalte, F. VAn (1912) 'Kinderdroomen', Het Kind, Jan

.Radestock, P. (1879) Schiaf und Traum, Leipzig

.Rank, O. (1909) Der Mythus von der Geburt des Helden, Leipzig and Vienna

.[Trans.: Myth of the Birth of the Hero, New York, 1913]

.' (1910)Ein Traum der sich selbst deutet', Jb. Psychoanal. psychopath. Forsch., 2, 465

.1911a) 'Beispiel eines verkappten Odipustrauems', Zbl. Psychoanal., 71, 16)

.1911b) 'Belege zur Rettungsphantasie', Zbl. Psychoanal., 1, 331)

.1911c) 'Zum Thema der Zahnreiztraume', Zbl. Psychoanal., 1, 408)

1912a) 'Die Symbolschichtung im Wecktraum und ihre Wiederkehr im mythischen Denken', Jb.) .psychoanal, psychopath. Forsch., 4, 51

.1912b) 'Aktuelle Sexualregungen als Traumanlasse', Zbl. Psychoanal., 2, 506)

.1912c) Das Inzest-Motiv in Dichtung und Sage. Leipzig and Vienna)

.' (1913)Eine noch nicht beschriebene Form des Odipus-Traumes', Int. Z. Psychoanal., 1, 151

.' (1914)Die Geburts-Rettungsphantasie in Traum und Dichtung', Int. Z. Psychoanal., 2, 43

Rank, O., and Sachs, H. (1913) Die Bedeutung der Psychoanalyse für die Geisteswissenschaften, .Wiesbaden

.[Trans.: The Significance of Psychoanalysis for the mental Sciences, New York, 1915]

Régis, E. (1894) 'Les hallucinations oniriques ou du sommeil des dégénérés mystiques', Compte .rendu Congrés Méd. Alién., 260, Paris, 1895

.Reik, T. (1911) 'Zur Rettungssymbolik', Zbl. Psychoanal., 1, 499

.' (1915)Gold und Kot', Int. Z. Psychoanal., 3, 183

.Reitler, R. (1913a) 'Zur Augensymbolik', Int. Z. Psychoanal., 1, 159

.1913b) ‘Zur Genital – und Sekret–Symbolik’, Int. Z. Psychoanal., 1, 492)

.Robert, W. (1886) Der Traum als Naturnotwendigkeit erklart, Hamburg

.Robitsok, A. (1912) ‘Zur Frage der Symbolik in dem Traumen Gesunder’, Zbl. Psychoanal., 2, 340

.Roffenstein, G. (1923) ‘Experimentelle Symboltaume’, Z. ges. Neurol. Psychiat., 87, 362

.R (Orschach), H. (1912) ‘Zur symbolik der Schlange und der Kravatte’, Zbl. Psychoanal., 2, 675

.Sachs, H. (1911) ‘Zur Darstellungs–Technik des Traumes’, Zbl. Psychoanal., 1, 413

.‘ (1912)Traumdeutung und Monschenkenntnis’, Jb. Psychoanal. psychopath. Forsch., 3, 568

.‘ (1913)Ein Traum Bismarcks’, Int. Z. Psychoanal., 1, 80

.‘ (1914)Des Zimmer als Traumdarstellung des Weibes’, Int. Z. Psychoanal., 2, 35

.See also Rank & Sachs

.Salomon Almoli Ben Jacob (1637) Pithron Chalomoth, Amsterdam

.Sanctis, Sante De (1896) I sogni e il sonno nell’ isterismo e nella epilepsia, Rome

.1897a) ‘Les maladies mentales et les rêves’, extrait des Ann. Soc. Méd. de Grand, 76, 177)

1897b) ‘Sui raporti d’identita, di somiglianza, di analogia e di equivalenza fra sogno e pazzia’, Riv.)
.quindicinale Psicol. Psichiat. Neuropatol., Hov., 15

1898a) ‘Psychoses et rêves’, Rapport au Congrés de neurol. et d’hypnologie de Bruxeles 1897;)
.Comptes rendus, 1, 137

.1898b) ‘I sogni dei neuropatici e dei pazzi’, Arch. psichiat. antrop. crim., 19, 342)

.I sogni, Turin (1899)

.(German transl. by O. Schmidt, halle, 1901)

.Scherner, K.A. (1861) Das Leban des Traumes, Berlin

.Schiciermacher, F. (1862) Psychologie, (Vol. 6, Sec. 3 in Collected Workds, ed. L. George), Berlin

.Scholz, F. (1887) Schlaf und Traum, Leipzig

.[Trans.: Sleep and dreams by H.M. Jewett, New York, 1893]

Schopenhauer, A. (1862) ‘Versuch uber das Geistersehen und was damit zusammenhangt’, Paraga
.(und Paralipomena (Essay V.), 1, 123, 2 nd ed., Berlin. (1 st ed., 1851

.Schrotter, K. (1912) ‘Experimentelle Traume’, Zbl. Psychoanal., 2, 638

.Schubert, G.H. von (1814) Die Symbolik des Traumes, Bamberg

Schwarz, F. (1913) ‘Traum und Traumdeutung nach Abdalganian–Nabulusi’, Z. deutsch. morgenl.
.Ges., 67, 473

.Secker, F. (1909–10) ‘Chinesische Ansichten uber den Traum’, Neue metaph. Rndschr., 17, 101

.Siebeck, H. (1877) 'Das Traumleben der Seele', Sammlung gemeinverstandlicher Vortrage, Berlin

Silberer, H. (1909) 'Bericht uber eine Methode, gewisse symolische Halluzinations. Erscheinungen .hervorzurufen und zu beobachten,' Jb. psychoanal. psychohapt. Forsch., 1, 513

.' (1910)Phantasie und Mythos', Jb. psychoanal. psychopath. Forsch., 2, 541

' (1912)Symbolik des Erwachens und Schwellensymbolik uberhaupt', Jb. psychoanal. psychopath. .Forsch., 3, 621

.Problems der Mystik und ihrer Symbolik, Vienna and Leipzig (1914)

.Simon, P.M. (1888) Le monde des rêves, Paris

Sperber, H. (1912) 'Uber den Einfluss sexueller Momente auf Entstehung und Entwicklung der .Sprache', Imago, 1, 406

.Spielrein, S. (1913) 'Traum von Pater Freudenreich', Int. Z. Psychoanal., 1, 484

Spitta, H. (1882) Die Schlef – und Traumzustande der menschlichen Seele, Tubingen. (1 st ed., .(1878

.Spitteler, C. (1914) Meine fruhesten Erlebnisse, Jena

Stannius, H. (1849) Das peripherische Nervensystem de rFische, anatomisch und physiologisch .untersucht, Rostock

Starcke, A. (1911) 'Ein Traum der das Gegenteil einer Wunscherfullung zu verwirkli chen schien', .Zbl. Psychoanal., 2, 86

Starcke, J. (1913) 'Neue Traumexperimente in Zusammenhang mit alteren und neueren .Traumtheorien', Jb. psychoanal. psychopath. Forsch., 5, 233

.Stekel, W. (1909) 'Beitrage zur Traumdeutung', Jb. psychoanal. psychopath. Forsch., 1, 458

.Die Sprache des Traumes, Wiesbaden (1911)

.Stricker, S. (1879) Studien uber das Bowusstsein, Vienna

Strumpell, A. von (1883–34) Lehrbuch der speciellen Pathologie und Therapie der inneren .Krankheiten, Leipzig

.(Trans.: Text–book of Medicine, (2 vols.), 4 th Amer. Ed., New York, 1912)

.Strumpell, L. (1877) Die Natur und Enstehung der Traume, Leipzig

.Stumpf, E.J.G. (1899) Der Traum und seine Deutung, Leipzig

.Sully, J. (1893) 'The Dream as a Revelation', Fortnightly Rev., 53, 354

.Swoboda, H. (1904) Die Perioden des Menschlichen Organismus, Vienna

.Tannery, M.P. (1898) 'Sur la mémoire dans le rêve', Rev. phil., 45, 637

.Tausk, V. (1913) 'Zur sychologie der Kindersexualitat', Int. Z. Psychoanal., 1, 444

.‘ (1914)Kleider und Farben im Dienste der Traumdarstellung’, Int. Z. Psychoanal., 2, 464

Tfinkdji, J. (1913) ‘Essai sur les songes et l’art de les interpréter (onirocritie) en Mésopotomie’, .Anthropos, 8, 505

.Thomayer, S. and Simerka (1897) ‘Sur la signification de quelques rêves’, Rev. neurol., 5, 98

.(Tissié, P. (1898) Les rêves, physiologie et pathologie, Paris. (1 st ed., 1870

Tobowolska, J. (1900) Etude surles illusions de temps p ans les rêves du sommeil normal, (Thesis) .Paris

.See also Bernard-Leroy and Tobowolska

.Varendonck, J. (1912) The Psychology of Day-Dreams, London

.Vaschide, N. (1911) Le sommeil et les rêves, Paris

.Vespa, B. (1897) ‘Il sonno ei sogni nei neuro-e psicopatici’, Boll. Soc. Lancisiana Osp., 17, 193

Vold, J. Mourly (1896) ‘Expériences sur les rêves et en particulier sur ceux d’origine musculaire et .optique’ (review), Rev. phil., 42, 542

.Uber den Traum (2 vols.) (German transl. by O. Klemm), Leipzig (1910-12)

.Volkelt, J. (1875) Die Traum-Phantasie, Stuttgart

.Weed, S. See Hallam and Weed

.Weygandt, W. (1893) Entstehung der Traume, Leipzig

.Whiton Calkins. See Calkins, Whiton

Wiggam, A. (1909) ‘A Contribution to the Data of Dream Psychology’, Ped. Sem. J. Genet. Psychol., .16, 250

Winterstein, A. Von (1912) ‘Zwei Belege fur die Wunscherfullung im Traume’, Zbl. Psychoanal., 2, .292

.Wittels, F. (1924) Sigmund Freud: der Mann, die Lehre, die Schule, Vienna

.(Trans.: Sigmund Freud: his Teaching and his School, by Eden and Cader Paul, London 1924)

.Freud and his Time (trans. by Louise Brink), New York (1931)

.Wundt, W. (1874) Grundzuge der physiologischen Psychologie, Leipzig

.Zeller, A. (1818) ‘Irre’, Ersch and Gruber: Allgemeine Encyclopedie der Wissenschaften, 24, 120

ب

مؤلفات أخرى في موضوع الأحلام نشرت قبل عام 1900.

وهي مؤلفات أدرجها فرويد بينمراجعه دون أن يشير إليها خلال النص.

.Ahmad Ibn Sirin, Achmetis f. Seirim Oneirocriticae, ed. N. Rigaltius, Paris, 1603

.Alberti, Michael (1744) Dis. de insomniorum infiuxi in sanitatem et morbos. Resp. Titius Halae M

.Alix (1883) 'Les rêves', Rev. Sci. Industr. 3 rd series,5, 554

.Anon (1890) 'Science of Dreams', The Lyceum, p. 28, Dublin

.' (1890)Rêves et l'hypnotisme', Le Monde, Aug. 25

.' (1893)The Utility of Dreams', J. Comp. Neurol., 3, 17, Granville

.Bacci, Domenico (1857) Sui sogni e sul sonnambulismo, pensiero fisiologicometafisici, Venice

.Ball, B. (1885) La morphinomanie, les reves prolongés, Paris

Benezé, Emil (1897) 'Das Traummotiv in der mittelhochdeutschen Dichtung bis 1250 und in alten .deutschen Volksliedern', Benezé, Sageng. und lit.-hist. Unters, 1, Dans Traummotiv, Halle

.Benini, v. (1898) 'Nel moneto dei sogni', il Pensiero nuovo, Apr

.Birkmaier, hieron (1715) Licht im Finstermiss der nachtlichen Gesichte und Traume, Nuremberg

.Bisland, E. (1896) 'Dreams and their Mysteries', N. Am. Rev., 162, 716

.Bradley, F.H. (1894) 'On the Failure of Movement in Dreams', Mind. (new series), 3, 373, London

.Brander, R. (1884) Der Schlaf und das Traumleben, Leipzig

.Bremer, L. (1893) 'Traum und Krankheit', New York Med. Monstschr., 5, 281

.Bussola, Serafino (1834) De somniis, (Thesis) Ticini Reg

.Caetani-Lovatelli (1889) 'I sogni e l'ipnotismo nel mondo antico', Nuova Antol., Dec. 1

.(Cane, Francis E. (1889) 'The Physiology of Dreams', The Lancet, 67 II, 1330 (Dec. 28

.Cardano, Girolamo (1562) Somiorum synesiorum, omnis generis insomnia explicantes libri IV, Bale

.(nd ed. in Opera omnia Cardani, 5, 593, Lyons, 1663 2)

.Cariero, Alessandro (1575) De somniis deque divinatione per somnia, Padua

.Carpenter (1849-52) 'Dreaming' (under 'Sleep'), Cyclgp. of Anat. and Physiol., 4, 687, London

.Claviere, (1897) La rapidité dela pensée dans le rêve, Rev. phil., 43, 507

.Coutts, G.A. (1896) 'Night-terrors',Amer. J. Med. Sc

.D.L. (1895) 'Apropos de l'appréciation du temps dans le rêve', Rev. phil., 40, 69

.Dagonet, H. (1889) 'Du rêve et du délire alcoolique', Ann. méd.-psychol., Series, 7, 10, 193

.Dandelo., G. (1889) La conscienza nel sogno., Padua

.Dechambre, A. (1880) 'Cauchemar', Dict. encycl., sc. méd., 2, 48

Dietrich, J.D. (1726) An ea, quae hominibus in somno et somnio accidunt iisdem possint imputari? .resp. Gava, Wittemberg

.Dochmassa, A.M. (1890) dreams and their Significance as Forebodings of Disease, Kazan

Dreher, E. (1890) 'Sinneswahrnehmung und Traumbild', Reichs-med. Anzeiger, 15, Nes. 20, 21, .23, 24; 16, Nos. 3, 8, Leipzig

Ducosté, M. (1899) 'Les songes d'attaques des pileptiques', Journ. Méd. Bordeaux, Nov. 26 and .Dec. 3

Du Prel, C. (1869) 'Oneirokritikon: der Traum vour Standpunkte des transcend. Idealismus', .Deutsche Vierteljahrschrift, 2, Stuttgart

.Psychologie der Lyrik, Leipzig (1890)

.' (1890)Kunstliche Traume', Sphinx, July

Egger, V. (1888) 'Le sommeil etla certitude, le sommeil et la mémoire', Critique philos., 1, 341, .Paris

.Ellis, Havelock (1895) 'On Dreaming of the Dead', Psychol. Rev., 2, 458

.' (1897)A Note on hypnagogic Paramnesia', Mind, 6, 283

.Erdmann, J.E. (1855) 'Das Traumen', Ernste Spiele, Chap. 12, Berlin

.Erk, Vinz. Von (1874) Uber den Unterschied von Traumund wachen, Prague

.Escande De Messieres (1895) 'Les rêves chez les hystériques', (Thesis) Bordeaux

Faure (1876) 'Etudes sur les reves morbides. Rêves persistants', Arch. génér. Méd., 6 th ser., 27, .550

.Fenizia (1869) 'L'azione suggestiva delle cause esterne ne sogni', Arch. per l'Antrop., 26

.Féré, C. (1897) 'Les rêves d'accés chez les épileptiques', Méd. mod., Dec. 8

.Fischer, Joh. (1899) Ad artis veterum onirocriticae historiam symbola, (Thesis) Jena

.Florentin, V. (1899) 'Das Traumleben: Plauderei', Die alte und die neue Welt, 33, 725

Fornaschon, H. (1897) 'Die Geschichte eines Traumes als Beitrag der Transcendentalpsychologie; .Psychische Studien, 24, 274

Frensberg. (1885) 'Schlaf und Traum', Sammlung gemeinverst. wiss. Vortr., Virchow-Holtzendorf, .Ser. 20, 466

.Frerichs, J.H. (1866) Der Mensch: Traum, Herz, Verstand, Nordon

.Galen. De pracecognitione, ad Epigenem, Lyons, 1540

.Girgensohn, L. (1845) Der Traum: psychol.-physiol. Versuch

.Gleichen-Russwurm, A. Von (1899) 'Traum in der Dichtung', Nat. Z., Nos. 553-559

Gley,E. (1898) 'Appréciation du temps pendant le sommeil', L'intermédiaire des Biologistes, 10, .228

.Gorton, D.A. (1896) 'Psychology of the Unconscious', Amer. Med. Timos, 24. 33, 37

Gould, G.M. (1889) 'Dreams, Sleep, and Consclousness', The Open Court (Chicago), 2, 1433–6 and .1444–7

Grabener, G.C. (1710) Ex antiquitate judaica de menudim bachalom sive excommunicatis per .insonmnia exerc, resp. Kiebius, Wittemberg

.Graffunder, P.C. (1894) 'Traum und Traumdeutung', Samml., gemeinv. wiss. Vortrage, 197

.Greenwood, F. (1894) Imaginations in Dreams and teir Study, London

.Grot, N. (1878) Dreams, a Subject of Scientific Analysis (in Russien) Kiev

.Guardia, J.M. (1892) 'La personnalité dansles rêves', Rev. phil., 34, 225

.Gutteldt, I. (1899) 'Ein Traum', Psychol. Studien, 26, 491

.Hampe, T. (1896) 'Uber Hans Sachsen Traumgedichte', Z. deutsch. Unterricht, 10, 616

.Heerwagen (1889) 'Statist. Untersuch. uber Traum u. Schiaf', Philes. Stud., 5, 301

Hiller, G. (1899) 'Traum, Ein Kapitel zu den zwolf Nachten', Leipz., Tagbl. un Anz., No. 657, Suppl. .1

.Hitschmann, F. (1894) 'Uber des Traumleben der Blinden', Z. Psychol., 7, 387

.Jastrow, J. (1888) 'The Dreams of the Blind', New Princeton Rev., 5, 18

Jensen, J. (1871) 'Traumen und Denken', Samml. gemeinv. wiss. Vortr. Virchow–Holtzendorff Ser. .6, 134

.(.Kingsford, A. (1888) Dreams and Deam–Stories, (ed. H. Maitland), London. (2 nd ed

Kloeppel, F. (1899) 'Traumerei und Traum: Allerlei aus unserem Traumleben', Universum, 15, 2469 .and 2607

.Kramar, Oldrich (1882) O spanku a snu, Prager Akad. Gymn

.Krasnicki, E. Von (1897) 'Karls IV Wahrtraum', Psych Stud., 24, 697

.Kucera, E. (1895) 'Aus dem Traumleben', Mahr–Weisskirchen, Gymn

.Laistner, L. (1889) Das Ratsel der Sphinx, (2 vols.), Berlin

.Landau, M. (1892) 'Aus dem Traumleben', Munchner Neueste Nachrichten, Jan. 9

Laupts. (1895) 'Le fonctionnement cérébral pendant le rêve et pendant les sommeil hypnotique', .Ann. méd.–psychol., Ser. 8, 2, 354

.Leidesdorf, M. (1880) 'Das Traumleben', Smmlung der 'Alma Mater', Vienna

.Lerch, M.F. (1883–84) 'Das Traumleben und sein Bedeutung', Gymn. Progr., Komotau

.Liberali, Francesco (1834) Dei sogni, (Thesis) Padua

Liébeault, A. (1893) 'A travers les états passifs, le sommeil et les reves', Rev. hypnot., 8, 41, 65, .106

.Luksch, L. (1894) Wunderbare Traumerfullung als Inhait des wirklichen Lens, Leipzig

Macario, M.M.A. (1846) 'Des rêves, considérés sous le rapport physiologique et pathologique', Pt. I, .Ann. méd.-psychol., 8, 170

.' (1889)Des reves morbides', Gaz. Méd. de Paris, 8, 1, 85, 97, 109, 121

.Macfarlane, A.W. (1890) 'Dreaming', Edinb. med. J., 36, 499

Maine de Biran, M.F.P. (1792) 'Nouvelles Considérations sur le sommeil, les songes, et le .sonnambulisme', Œuvres Philosophiques, 209, (Ed.V. Cousin), Paris, 1841

Maury, L.F.A. (1857) 'De certains faits observés dans les rêves', Ann. méd.-psychol., Ser. 3, 3, .157

.Meisel (pseud) (1783) Naturlich-gottliche und teuflische Traume, Seighartsein

.Melinand, M.C. (1898) 'Dream and Reality', Pop. Sc. Mc., 54, 96

.Melzentin, G. (1899) 'Uber wissenschaftliche Traumdeutung', Gegenwart, 50, Leipzig

.Mentz, R. (1888) Die Traume in den altfranzosischen Karls-und Artusepen, Marburg

.Monroe, W.S. (1899) 'A study of taste-dreams', Am. J. Psychol., 10, 326

.Moreau De La Sarthe, J.L. (1820) 'Rêve', Dict. sc. méd., 48, 245

.Motet (1829-36) 'Cauchemar', Dict. méd. chir. pratiques, Paris

.Murray, J.C. (1894) 'Do we ever dream of tasting?' Proc. Am. psychol. Ass., 20

.Nagele, A. (1889) 'Der Traum in dr epischen Dichtung', programm der Realschule, Marburg

.Newbold, W.R. (1896) 'Subconscious Reasoning', Proc. Soc. Psychic. Res., 12, 11, London

.Passavanti, J. (1891) Libre die sogni, Rome

.Paulhan, F. (1894) 'A propos de l'activité de l'esprit dans le reve', Rev. phil., 38, 546

Pick, A. (1896) 'Uber pathologische Tramerei und ihre Beziehungen zur Hysterie', Jb. Psychiat., 14, .280

.Ramm, K. (1889) Diss. pertractans somnis, Vienna

.Régis, E. (1890) 'Les rêves Bordeaux', La Gironde (Variétés), May 31

.Richard, Jerome (1766) La théorie des songes, Paris

.Richardson, B.W. (1892) 'The Physiology of Dreams', Asclep., 9, 129

Richier, E. (1816) Onéirologie ou dissertation sur les songes, considérés dans l'état de maladie, .(Thesis) Paris

Richter, J.P. (Jean Paul) (1813) 'Blicke in die Traumwelt', Museum, 2, (also in Werke, ed. hempel, .(44, 128

.Uber Wahl-und Halbtraume', Werke, 44, 142

.Wahrheit aus Jean Pauls Leben (1826–33)

.Robinson, L. (1893) 'What Dreams are made of', N. am. Rev., 157, 687

.Rousset, C. (1876) Contribution a l'étude du cauchemar, (Thesis) Paris

.Roux, J. (1898) 'Le reve et les délires onitiques', Provinc méd. Lyons, 12, 2

.Ryff, W.H. (1554) Traumbuchlein, Strassburg

Santel, A. (1874) 'Poskus raz kladbe nekterih pomentijvih prokazni sanja in sanj', Progr. Gymn., .Gorz

.Sarlo, F. De (1887) I sogni. Saggio psicologico, Naples

.Sch. Fr. (1897) 'Etwas uber Traume', Psych. Studien, 24, 686

.Schleich, K.L. (1899) 'Schlaf und Traum', Zukunft, 29, 14; 54

.Schwartzkopff, p. (1887) Das Leben im Traum: eine Studie, Leipzig

.Stevenson, R.L. (1892) 'A Chapter on Dreams', Across the Plain

Stryk, M. Von (1899) 'Der Traum und die Wirklichkelt', (after C. Mélinand, Baltische Mschr., 189, .Riga

.Sully, J. (1881) Illusions, a Psychological Study, London

.' (1882)Etudes sur les rêves', Rev. scientif., Ser. 3, 3, 385

.The Human Mind, (2 vols.), London (1892)

.' (1875–89)Dreams', Enc. Brit., 9 th ed

.Summers, T.O. (1895) 'The Physiology of Dreaming', St. Louis Clin., 8, 401

.Surbled, G. (1895) 'Origine des rêves', Rev. quest. scient

.Le rêve, Paris (1898)

.Synesius of Syrene Liber de insomniis

.(German trans., Oneiromantik by Krauss, Vienna, 1888)

.Tanney, M.P. (1894) 'Sur l'activité de l'esprit dans le rêve', Rev. phil., 38, 630

.' (1898)Sur la paramnésie dans les rêves', Rev. phil., 46, 420

.Thiéry, A. (1896) 'Aristote et la psychologie physiologique du rêve', Rev. neoscol., 3, 260

Thomayor, S. (1897) 'Contributions to the Pathology of Dreams' (in Czech), Policlinic of the Czech .University, Prague

Tissié, P. (1896) 'Les rêves; rêves pathogènes et thérapeutiques; rêves photographiés', Journ. méd. .Bordeaux, 36, 293, 308, 320

.Titchener, E.B. (1895) 'Taste Deams', Am. J. Psychol., 6, 505

.Tonnini, S. (1887) 'Suggestione e sogni', Arch. psichiatr. antrop. crim., 8, 264

.Tonsor, J.H. (1627) Disp. de vigilia, somno et somniis, prop. Lucas, Marburg

.Tuke, D.H. (1892) 'Dreaming', Dict. of Psychol. Med. (ed. Tuke), London

Ullrich, M.W. (1896) Der Schlaf und das Traumleben, Geisteskraft und Geistesschwache, (3 rd ed.). .Berlin

.Unger, F. (1898) 'Die Magie des Traumes als Unsterblichkeitsbewis

.Nebst e. Vorwort: Okkultismus und Sozialismus von C. de Prel, (2 nd ed.), Munster

.T. (1879) Mito e scienza: Saggio, Milan ,

.(Myth and Science: An Essay, London, 1882, (Chap. VIII :.

.F.T. (1876) 'Studien uber den Traum', Beilage allg. Z., 105 ,

Vold, J. ourly (1897) 'Einige Experimente uber Gesichtsbilder im Traume', Report 3 rd. Psych. .Congr., Munich, and Z. Psychol. Physiol. Sinnesorgane, 13, 66

.Vykoukal, F.V. (1898) On Dreams and Dream-interpretations, (in Czech) Prague

Wedel, R. (1899) 'Untersuchungen auslandischer Gelehrter uber gew. Traumphanomene', Beitr. zur .Grenzwissenschaft, p. 24

Wehr, H. (1887) 'Das Unbewusste im menschlichen Denken', Programm der Oberrealschule, .Klagenfurt

.Weill, A. (1872) Qu'est-ce que le rêve? Paris

.Wendt, K. (1858) Kriemhilds Traum, (Thesis) Rostock

.Wilks, S. (1893-94) 'On the Nature of Dreams', Med. Mag., 2, 597, London

.Williams, H.S. (1891-92) 'The Dream State and its Psychic Correlatives, Amer. J. Insanity, 48, 445

.Woodworth, R.S. (1897) 'Note on the Rapidity of Dreams', Psychol. Rev., 4, 524

.Ce qu'on peut rêver en cinq secondes', Rev. sc., 3 rd. ser., 11, 572' (1886)

.Zuccarelli (1894-95) 'Polluzioni notturne ed epilepsia', L'anomalo, 1, 2, 3

Notes

[1 ←]
إذا رغب القارئ بمزيد من المعرفة بهذا الصدد باستطاعته الاطلاع على كتابي: «الكتابة والسلطة» و«العبودية المختارة».

[2 ←]
بيت من تراجيديا «أوديب ملكاً» يوصف به أوديب. وقد نقش على ميدالية مع صورة أوديب وهو يرد على سؤال أبي الهول، وأهديت الميدالية إلى فرويد من تلامذته في أحد أعياد ميلاده.

[3 ←]
.Ernest Jones: Freud, Life and Work. Vol. one, London, p. 396

[4 ←]
من مقدمة الطبعة الثالثة لترجمة بريل الإنجليزية.

[5 ←]
أنظر حديث فرويد الصريح في هذا الصدد، في مطلع الفصل السادس.

[6 ←]
بعنوان «حقوق التحليل النفسي على الاهتمام العلمي» . وهو مقال نشر باللغة الإنجليزية في المجلد الثامن من الطبعة الإنجليزية الأخيرة لمؤلفات فرويد الكاملة،وفيه يعدد فرويد ما يستطيع التحليل النفسي أن يسديه إلى العلوم المختلفة . ومن بينها علم اللغة . وما يستطيع استعارته منها.

[7 ←]
نرجو أن تجد اللغة العربية من يترجم إليها مؤلفات دي سوسير وتروبتسكوي ولي؟ي ستروس ودوميزيل وغيرهم ممن لا يستغنى عن أعمالهم إذا أردنا أن نجاري الثورة الحديثة في علوم الإنسان.

[8 ←]
من الجلي أننا لا نتحدث هنا عن النحو بتعريفه الضيق الذي يقصره على دراسة الإعراب وحركاته (فلا محل للحديث عن حركات الإعراب ونحن بصدد كتابة مصورة وإن اشتمل الحلم على وسائل تعادل بعض الحركات الصوتية مثل رفع الصوت للتوكيد أو اصطناع لهجة معينة، أنظر ص 216 وص 610) بل بالمعنى الأعم الذي دعا إليه بيننا الأستاذ إبراهيم مصطفى والذي يفيد دراسة طرق ترتيب المقال على حسب العلاقات بين المعاني.

[9 ←]
كما لاحظه العالم اللغوي بن؟ينيست في مقال عنوانه «ملاحظات حول وظيفة اللغة في الكشف الفرويدي» . وهو مقال ظهر سنة 1955 في العدد الأول من مجلة الجمعية الفرنسية للتحليل النفسي التي يرأس تحريرها الدكتور جاك لاكان: La Psychanalyse . ونعلن بهذه المناسبة عن أسفنا إذ حالت الظروف دون أن تصلنا مقدمة وعدنا الأستاذ لاكان أن يجيبنا فيها عن سؤال وجهناه إليه لأننا نعتقد أنه الرجل الوحيد بين معاصرينا الذي يستطيع الإجابة عنه،وهو: ما هو هذا الحدس الذي يقول فرويد: إنه لا يأتي العمر مرتين؟ ونأمل أن نتمكن من نشر هذه المقدمة في طبعة ثانية.

[10 ←]
غني عن البيان أننا نقول أحياناً «لغة الأحلام» بمعنى اللغة المستعملة في الأحلام، وهذه اللغة تصطنعها أيضاً الأعراض الهستيرية والقهرية وغيرها، فهي لغة اللاشعور حيثما كان للّاشعور نصيب، بحيث نستطيع أن نعد الحلم والعرض الهستيري أو القهري لهجات مختلفة منها تمكن ترجمة بعضها إلى البعض الآخر . كما يبيّنه فرويد في المقال الذي سبقت الإشارة إليه. وكل الفرق أن بنية المادة الدالة تختلف: فما يقوله الحالم بالصور يقوله الهستيري بجسمه وهكذا.

[11 ←]
.Joseph Tubiana, Agencement et ambiguité en phonologie, Cahiers F. de Saussure, 1952

[12 ←]
ليتأمل القارىء المعاني التي لا حصر لها التي يمكن أن يلقاها اللفظ الواحد (وليكن «الشمس») في استعمالاته على ألسنة البلغاء وغيرهم: فالشمس قد تكون المحبوبة وقد تكون الجمال أو الحسن وقد تكون الملك أو المصباح أو الحياة إلى آخره.

[13 ←]
وأما السبب الآخر والأهم فهو انحطاط الرمزي إلى المتخيل نتيجةً لارتداد الأنا إلى وظيفته النرجسية. ولا يتسع المجال لشرح هذه التفرقة بين الرمزي والمتخيل . وإن كان المحللون أقرب الناس إلى فهمها فخبرتهم تريهم دوماً كيف تعامل الألفاظ معاملة «الموضوعات».

[14 ←]
وهي أسئلة حاولنا أن نجيب عنها في محاضرة ألقيناها بدار نقابة الصحافيين بدعوة من الجامعة الشعبية.

[15←]
أنظر أيضاً بن?نيست، ذات المرجع.

[16←]
أنظر مقدمات الطبعات الثماني التي ظهرت في حياة فرويد.

[17←]
إرنست جونز، «سيجموند فرويد»، الجزء الأول، ص 393.

[18←]
إن الحقيقة تبدأ دائماً باعتبارها كلمة العالم، حقيقته هو التي يضعها في ميزان الآخرين، والموضوعية التي تصبح لها من بعد تعني في المحل الأول أنها قد صارت جزءاً من العالم الإنساني، صارت لغةً وعدةً وكفاحاً؛ فالناس يضعون فيها أنفسهم لكي يتفاهموا (فهي لغتهم المشتركة) ويضعون فيها عملهم لكي يصنعوا عددهم (إذا كانت نظرية طبيعية؛ فكل نظرية طبيعية يجب أن تتسنى صياغتها على ذلك النحو: إذا أردت أن تصنع كذا فافعل كذا وكذا) أو لكي يبنوا نظام مجتمعهم (إذا كانت نظرية سياسية).

[19←]
إن مؤلف هيجل الخالد «علم ظواهر الروح» يمكن اعتباره بأسره برهاناً على هذه القضية وشرحاً لقوانين هذه التبعية. والقضية بعد هذا لا توقع في المثالية كما قد يتبادر إلى الذهن، فنحن نعلم أي أثر كان للمؤلف المشار إليه في نشأة الماركسية التي يمكن أن نعدها بحق نظرية تكون العالم البروليتاري من خلال تحقق الإنسان بصراعه الطبقي لأجل الاعتراف به.

[20←]
مخالفاً في ذلك عادة المترجمين الأوروبيين إذ يوردون النص الأجنبي كما هو في المتن ثم يسقطون ترجمته في الهامش . إن أرادوا. والحكمة في هذه المخالفة غير خافية.

[21←]
يحزننا أن ننعي ههنا هذا التصديق، فقد أبى الموت القاسي إلا أن يختطفه قبل أن يرى ثمرة جهده.

[22←]
مثلما يرينا هيجل إياه في العمل وفي الألم بوجه عام.

[23←]
بيت من ملحمة الشاعر اللاتيني ?رجيل عن وقائع آينياس (الكتاب السابع، السطر 213) حيث يرد على لسان الإل~هة يونون إذ تعلن عزمها على أن تفسد بكل ما وسعت خطة آينياس في الفرار بفلول الطرواديين المهزومين وتأسيس مملكة جديدة بهم في أرض إيطاليا. فهو يفيد استنتباب العزم على بلوغ القصد من كل سبيل، أراد فرويد أن يمثل به ما تبذله الرغبات اللاشعورية من الجهد. والأخرون نهر يعبره الموتى في أساطير اليونان عند توجههم إلى الدار السفلى، ثم صار يطلق على الجحيم كافة بآلهته وآهليه، فهو يقابل في البيت لفظ «سوبروس» الذي ترجمناه بالسماوات وحقيقة السماوات بآلهتها أو قواها].

[24←]
ثم أسقطت هذه المعاقف في الطبعات التالية [ابتداءً من الطبعة الرابعة].

[25←]
[«Gesammelte Shriften»]

[26←]
.[Internationaler Psychoanalytischer Verlag]

[27←]
.[La science des Rêves]

[28←]
.[Bibliothèque de Philosophie Contemporaine]

[29←]
.[Dromtydning]

[30←]
.[Obras Completas]

[31←]
[ولكنها رأته عام 1934. ولقد ظهرت في حياة فرويد . عدا الترجمات المذكورة في هذه المقدمات . ترجمة روسية (1913) وترجمة يابانية (1930) وترجمة تشيكية (1938)].

[32 ←]
أعتمد فيما يلي على كتاب بوكسنشوتس الجامع (1868).

[33 ←]
يعرض الطبيب اليوناني هيبوقراط للعلاقة بين الحلم والمرض في فصل من مؤلفه الذائع.

[34 ←]
.[e\m+tpmia , insomnia

[35 ←]
.[uams*arlasa]

[36 ←]
.[ephialtes]

[37 ←]
.[Vqzlasirl+o| , oraculum]

[38 ←]
.[o qala , visio

[39 ←]
.[o meiqo| , somnium]

[40 ←]
للوقوف على ما صار إليه تفسير الأحلام في القرون الوسطى أنظر: ديبجن، ثم دراسات فورستر الوصفية، ثم جتهارت... إلخ. وأما تفسير الحلم عند اليهود فبحثه ألمولي وأمرام ولو؟ينجر، وحديثاً جداً بحثه أيضاً لاور بحثاً راعى فيه وجهة النظر التحليلية. ويعرفنا بتفسير الحلم بين العرب دركسل وش؟ارتس والإرسالي تفينكجي، ويعرفنا به بين اليابانيين ميورا وإيوايا، وبين الصينيين زيكر، وبين الهنود نجلاين.

[41 ←]
.[Nous rêvons de ce que nous avons vu, dit, desiré ou fait

[42 ←]
[De reum natura]

[43 ←]
Et quo quisque fere studio devinctus adhaeret, aut quibus in rebus multum sumus ante morati atque in ea ratione fuit contenta] magis mens, in somnis eadem plerumque videmur obire; causidici causas agere et componere leges, induperatores pugnare [.ac prœlia obire,... etc. etc

[44 ←]
.[De Divinatione II]

[45 ←]
.[«Maximque reliquiae earum rerum moventur in animis et agitantur, de quibus vigilantes aut cogitavimus aut egimus»]

[46 ←]
يقول ڤاشيد: إنه قد لوحظ في أحيان كثيرة أن المرء قد يتحدث في الحلم بلغة أجنبية مبدياً في ذلك طلاقة وسلامة يقصر عنهما وهو مستيقظ.

[47 ←]

Asplenium ruta muralis

[48 ←]

Asplenium ruta muralis

[49 ←]

.[Proceedins of the Society for Psychical Research]

[50 ←]

هذه الفقرة قد أضيفت سنة 1909].

[51 ←]

[أضيفَ الجزء الأخير من هذه الجملة ابتداءً من: «مع أن... إلخ» في طبعة سنة 1909 وظل يظهر في جميع الطبعات التالية حتى سنة 1922، ثم حذف بعد ذلك. ولكننا نجد في صفحة 312 إشارة إلى هذا الطبيب عينه لا تفهم بغير هذا الجزء. فأما الحدث الذي كان سبباً في الجرح المشار إليه، فأغلب الظن أنه هو الموصوف في صفحة 578].

[52 ←]

[أضيفَ الجزء الأخير من هذه الجملة ابتداءً من: «مع أن... إلخ» في طبعة سنة 1909 وظل يظهر في جميع الطبعات التالية حتى سنة 1922، ثم حذف بعد ذلك. ولكننا نجد في صفحة 312 إشارة إلى هذا الطبيب عينه لا تفهم بغير هذا الجزء. فأما الحدث الذي كان سبباً في الجرح المشار إليه، فأغلب الظن أنه هو الموصوف في صفحة 578].

[53 ←]

.[Que toute impression même la plus insignifiante, laisse une trace inaltérable, indéfiniment susceptible de reparaître au jour]

[54 ←]

تدعوني خبرتي اللاحقة إلى أن أضيف أنه لا يندر على الإطلاق أن تتكرر في الحلم أفعال من اليوم السابق بريئة خالية من الخطر، كحزم الحقائب وإعداد الطعام في المطبخ... إلخ. غير أن الذي يلح عليه الحالم نفسه في مثل هذه الأحلام ليس محتوى الذكرى بل «واقعيتها»: «لقد أتيت كل هذا حقيقة بالأمس».

[55 ←]

[أنظر ملاحظات بورداخ المذكورة في صفحة 100].

[56 ←]

Chauffeurs اسم يطلق على عصابات من اللصوص انتشروا في مقاطعة ال؟انديه [في أيام الثورة الفرنسية] وكانوا يلجأون إلى هذا اللون من التعذيب.

[57 ←]

[الأولى والثانية لا معنى لهما، والثالثة هي الصرخة المألوفة عند الحريق].

[58 ←]

.[Revue Philosophique

[59 ←]

.[Une affinité quelconque, mais qui n`est pas unique et exclusive]

[60 ←]

إن ظهور الأشخاص الذين لهم أحجام العمالقة في الحلم يجعلنا نقدّر أن الحلم يمس مشهداً من طفولة الحالم.

ويبقى بعد ذلك أن التفسير الذي أوردته لهذا الحلم بالإشارة إلى ذكريات من رحلات جالي؟ر مثال طيب على ما يجب ألا يكون عليه تفسير الحلم: فمن الواجب على من يفسر الحلم ألا يطلق العنان لقريحته مهملاً مستدعيات الحالم.

[61 ←]

من الواجب أن نذكر أهمية الأحلام العلاجية بين القدماء، إلى جانب ما كان يعزى إليها (عند هيبوقراط مثلاً) من هذه القيمة التشخيصية.

لقد كانت عند اليونان معابد تقضي فيها كهانة الأحلام. وكان من عادة المرضى أن يزوروا هذه المعابد، فيدخل المريض معبد أبوللو أو آيسكلابيوس، وهناك يؤدي طقوساً مختلفة، فيغسل ويدلك ويعطر ثم يمد وقد أخذته الآخذة على جلد كبش قدم قرباناً. ثم بعد ذلك يستسلم المريض للنوم، فيحلم بعقاقير شافية قد تتراءى له في أشكالها الطبيعية أو في رموز وصور يتولى الكاهن عندئذ تفسيرها.

وللاستزادة في موضوع الأحلام المطبية عند اليونان أنظر: ليمان (1908، 1، 74) وبوشيه لوكلير وهرمان (1858، 41 ثم 1882، 38، 16) وبوتينجر (1795، ص 163 وما بعدها)، ولويد (1877)، ودولينجر (1857، 130).

[62 ←]

[أنظر الهامش الموضوع في صفحة 205 عن هذه الكلمة].

[63 ←]

[وهي المعروفة عندنا باسم «الحساسية الحشوية»].

[64 ←]

.[moi splanchnique

[65 ←]

[يمعنى أن انصراف الانتباه عن الإحساس جعل نصيب هذا الإحساس في نشأة الحلم يخفى علينا].

[66 ←]

لقد نشر هذا المؤلف منذ ذلك الحين مجلدين ضمنهما تجاربه أشير إليهما فيما بعد. [أنظر ص 265 في الهامش].

[67 ←]

[استحضار ما سبقت خبرته في الماضي].

[68 ←]

.[Les rêves d'origine absolument psychique n'existent pas

[69 ←]

[...Les pensées de nos rêves nous viennent du dehors]

[70 ←]

إن الأحلام التي تعاود صاحبها على فترات قد لوحظت أكثر من مرة، أنظر مجموعة شابانيكس.

[71 ←]

l'observation des rêves a ses difficultés spéciales et le seul moyen d'éviter toute erreur en pareille matière est de confier au papier sans le moindre retard ce que l'on vient d'éprouver ou de remarquer; sinon, l'oubli vient vite ou total ou partiel; l'oubli total est sans gravité; mais l'oubli partiel est perfide; car si l'on se met ensuite à raconter ce que l'on n'a pas oublié, on est exposé à compléter par l'imagination les fragments incohérents et disjoints fournis par la memoire...; on devient artiste à son insu, et le récit periodiquement répété s'impose à la créance de son auteur, qui, de bonne foi, le présente comme un fait .[...authentique, dûment établi selon les bonnes methodes

[72 ←]

تعبير تشتم منه رائحة الفلسفة الكانتية حيث تتكوّن الخبرة المدركة بنظامها بصب المحسوس الخالص الذي هو تبدد محض في صور الحساسية (الزمان والمكان) ومقولات الذهن (العلية، الجوهر، إلخ)].

[73 ←]

[وهي الفكرة التي ينمّيها فرويد في القسم الثاني من الفصل السابع من هذا المؤلف].

[74 ←]

لقد أورد سيلبرير بضعة أمثلة جميلة تبين كيف تتحوّل الأفكار المجردة ذاتها إلى صور مرئية متشكلة تريد الإعراب عن ذات المعنى. وسأعود إلى هذا المكتشف في موضع آخر [أنظر «الظاهرة الوظيفية» في الفهرست التحليلي].

[75 ←]

لقد حاول هافنر . مثل دلبوف . أن يفسر النشاط الحالم بالتحول الذي يطرأ بالضرورة على أداء الجهاز النفسي لوظائفه عندما يداخل هذا الجهاز عامل غير سوي، مع بقائه سليماً فيما عدا ذلك. إلا أنه . أعني هافنر . يصف هذا العامل وصفاً مختلفاً بعض الاختلاف. فهو يرى أن أول أمارات الحلم هي التحرر من الزمان والمكان، أي تحرر التخيُّل من الموقع الذي يشغله الفرد في النظام المكاني والزمني. وتلحق بذلك الخاصة الأساسية الثانية للحلم، وهي اعتبار الهلاوس والتخييلات وتآليف المخيّلة مدركات موضوعية. يقول هافنر: «إن ملكاتنا النفسية العليا جميعها . وبنوع خاص ملكة التجريد وملكة الحكم والاستدلال من ناحية، وقدرة الجبر الذاتي من ناحية أخرى . يصطحب نشاطها بصور المخيلة الحسية وتكمن أمثال هذه الصور دائماً من وراء هذا النشاط ولهذا كان تحرر صور الحلم من كل ضابط يصيب هذه الملكات أيضاً إلى حدٍ ما. وأقول: «إلى حدٍ ما لأن ملكتَيْ الحكم والإرادة في ذاتيهما لا تتغيران في أثناء النوم بحال من الأحوال. فنشاطنا لا يقل ذكاء وحرية عنه في اليقظة. فما يستطيع إنسان ولو في الحلم أن يخرق قوانين الفكر من حيث هي كذلك، أي أن يقول عن الأشياء التي تلوح له متضادة: إنها واحدة، إلخ. وهو أيضاً في الحلم لا يستطيع أن يرغب إلا فيما يتصور أنه الخير (Sub ratione boni) . ولكن قد يضل العقل الإنساني أثناء الحلم في تطبيقه لقوانين الفكر بأن يأخذ فكرة في محل أخرى. وهكذا يقع أننا قد نتفوّه في الحلم بأفضح المتناقضات ونرتكبها، بينما قد ننتهي من جهة أخرى إلى أرجح الأحكام وأسلم النتائج، ونتخذ أفضل القرارات وأطهرها. فانعدام الاتجاه هو السر في هذا الشطط الذي تندفع إليه مخيلتنا في خلال الحلم، كما أن الافتقار إلى التأمل النقدي وإلى التناقل مع الآخرين هو المصدر الرئيسي لما يبديه الحلم من جموح في أحكامنا وآمالنا ورغباتنا» (1887، 18).

[76 ←]

أنظر ما يسميه كلاپاريد (1905) désintérêt [انصراف الاهتمام]، وهو الانصراف الذي يرى أن ميكانيكية حالة النوم تقوم فيه.

[77 ←]

Il n'y a pas des rêves absolument raisonnables et qui ne contiennent quelque incohérence, quelque anachronisme, quelque .[absurdité

[78←]

Le rêve c'est l'anarchie psychique, affective et mentale, c'est le jeu des fonctions livrées à elles-même et s'exerçant sans] .[coutrôle et sans but; dans le rêve l'esprit et un automate spirituel

[79←]

.[Nihil tam praepostere, tam incondite, tam monstruose cogitari potest, quod non possimus somniari]

[80←]

La production de ces images que chez l'homme éveillé fait le plus souvent naître la volonté, correspond, pour l'intelligence, à ce] .[…que sont pour la motilité certains mouvements que nous offrent la chorée et les affections paralytiques

[81←]

Toute une série de dégradations de la faculté pensante et raisonnante]

[82←]

Gemüt

[83←]

.[délire: (1) une action spontanée et comme automatique de l'esprit; (2) une association vicieuse et irrégulière des idées»]

[84←]

سوف نفهم فيما بعد [ص 550 في الهامش] معنى أمثال هذه الأحلام الحافلة بالجناس أو بالكلمات المبتدئة بحروف متماثلة.

[85←]

.[le rêve n'est pas déraison ni même irraison pure

[86←]

.[an archaic world of vast emotions and imperfect thoughts]

[87←]

Now our dreams are a means of conserving these successive personalities. When asleep we go back to the old ways of looking] .[at things and feeling about them, to impulses and activities which long ago dominated us

[88←]

Dans le sommeil, hormis la perception, toutes les facultés de l'esprit, intelligence, imagination, mémoire, volonté, moralité,] restent intactes dans leur essence; seulement, elles s'appliquent à des objets imaginaires et mobiles. Le songeur est un acteur qui joue à volonté les fous et les sages, les bourreaux et les victimes, les nains et les géants, les demons et les .[anges

[89←]

M. le Marquis d'Hervey prête à l'intelligence durant le sommeil, toute sa liberté d'action et d'attention et il ne semble faire] consister le sommeil que dans l'occlusion des sens, dans leur fermeture au monde intérieur; en sorte que l'homme qui dort ne se distingue guère, selon sa manière de voir, de l'homme qui laisse vaguer sa pensée en se bouchant les sens; toute la différence qui sépare alors la pensée ordinaire du celle du dormeur, c'est que, chez cleui-ci, l'idée prend une forme visible, objective et ressemble, à s'y méprendre, à la sensation déterminée par les objets entérieurs; le souvenir rêvet l'apparence du .[fait présent

[90←]

Qu'il y a une différence de plus et capitale à savoir que les facultés intellectuels de l'homme endormi n'offrent pas l'équilibre] .[qu'elles gardent chez l'homme éveillé

[91←]

L'image du rêve est la copie de l'idée; la vision n'est qu'accessoire. Ceci établi, il faut savoir suivre la marche des idées, il faut] savoir analyser le tissus des rêves; l'incohérence devient alors compréhensible, les conceptions les plus fantasques .[deviennent des faits simples et parfaitement logiques

[92←]

أنظر هافنر وشپيتا.

[93 ←]
[هامش أضيف سنة 1914]: لقد قال الصوفي الموهوب دوپرل، وهو أحد المؤلفين القلائل الذين أود أن أعرب عن أسفي على إهمالي إياهم في الطبعات السابقة لهذا الكتاب: إن الحلم، لا حياة اليقظة، هو المدخل إلى الميتافيزيقا، بقدر ما يتعلق الأمر بالإنسان (1885، 592).

[94 ←]
يجد القارىء مراجع أخرى ومناقشة نقدية لهذه المسائل في رسالة توبو?ولسكا الباريسية(1900).

[95 ←]
أنظر النقد الوارد في كتاب هـ.. إليس (1911، 268).

[96 ←]
في كتابه الذي نشر في عام 1850 . وأنقل رأيه هذا عن شپيتا.

[97 ←]
في كتابه المنشور في عام 1868 . نقلاً عن شپيتا أيضاً (1882، 192).

[98 ←]
[المُراد بهذا الأمر هو قانون الواجب].

[99 ←]
[أي الذي يصوغ الفكرة في قالب الحركة المسرحية].

[100 ←]
[بالمعنى المسرحي لهذه الكلمة].

[101 ←]
[رسالة يوحنا الرسول الأول، الإصحاح الثالث 152].

[102 ←]
[إنجيل متى، الإصحاح الخامس عشر، 19].

[103 ←]
قد يفيدنا أن نعلم موقف محكمة التفتيش من مشكلتنا هذه. فقد جاءت في مؤلف توماس كارينا (1659) الفقرة الآتية: «إذا تلفّظ أي شخص ببدعة في أثناء نومه، وجب على المفتشين أن يروا في ذلك داعياً إلى تقصّي مسلكه؛ فما يراود الإنسان في نومه إلا ما يشغله في نهاره». (عن إفادة من الدكتور اهنيجر، سان أوربان، سويسرا).

[104 ←]
Certe nostre inclinazioni che si credevano soffocate e spente da un pezzo, si ridestano; passioni vecchie e sepolte rivivino; cose
.[e persone a cui non pensiamo mai, ci vengono dinanzi

[105 ←]
Ce sont nos penchants qui parlent et qui nous font agir, sans que la conscience nous retienne, bien que parfois elle nous]
avertisse. J'ai mes défauts et mes penchants vicieux; à l'état de veille je tâche de lutter contre eux, et il m'arrive assez
souvent de n'y pas succomber. Mais dans mes songes j'y succombe toujours ou pour mieux dire j'agis par leur impulsion,
sans crainte et sans remords... Evidemment les visions qui se déroulent devant ma pensée et qui constituent le rêve, me sont
.[suggérées par les incitations que je ressens et que ma volonté absente ne cherche pas à refouler

[106 ←]
En rêve l'homme se révèle donc tout entier à soi-même dans sa nudité et sa misère natives. Dès qu'il suspend l'exercice de sa]
volonté, il devient le jouet de toutes les passions contre lesquelles, à l'état de veille la conscience, le sentiment d'honneur, la
.[crainte nous défendent

[107 ←]
Dans le rêve, c'est surtout l'homme instinctif qui se révèle.. l'homme revient pour ainsi dire à l'état de nature quand il rêve; maix]
moins les idées acquises ont pénétré dans son esprit, plus les penchants en désaccord avec elles conservent encore sur lui
.[d'influence dans le rêve

[108 ←]
.[automatisme psychologique]

[109 ←]
[فاوست، الجزء الأول، المشهد الثالث: في مكتب فاوست].

[110 ←]
S'ils ont fortement épris, presque jamais ils n'ont rêvé l'un de l'autre avant le mariage ou pendant la lune de miel; et s'ils ont rêvé d'amour c'est pour être infidèles avec quelque personne indifférente ou odieuse].t

[111 ←]
.[souvenir inconscient]

[112 ←]
.[autant de ressorts tendus]

[113 ←]
يعرب أناتول فرانس عن فكرة مماثلة كل المماثلة إذ يقول:

Ce que nous voyons la nuit, ce sont souvent les restes malheureux de ce que nous avons négligé dans la veille. Le rêve est souvent la revanche des choses qu'on méprise ou le reproche des êtres abandonnés (Le lys rougeفي). [«إن ما نراه في خلال الليل هو الكثير من الأحيان تلك البقايا التعسة لما أغفلناه في يقظتنا؛ فالحلم كثيراً ما يكون ثأر الأشياء التي احتقرناها، أو عتاب الكائنات التي هجرناها» الزنبقة الحمراء].

[114 ←]
En somme le rêve est le produit de la pensée errante, sans but et sans direction, se fixant successivement sur les souvenirs qui ont gardé assez d'intensité pour se placer sur sa route et l'arrêter au passage, établissant entre eux un lien tantôt faible et .[indécis, tantôt plus fort et plus réser selon que l'activité actuelle du cerveau est plus ou moins abolie par le sommeil

[115 ←]
ومن الكتّاب الذين اهتموا بعد ذلك بهذه العلاقات: فيريه وإيدلر ولاسيج وبيشون وريجي و?سپا وجيسلر وكازوفسكي وپاكانتوني.

[116 ←]
.[La vraie cause déterminante de la folie

[117 ←]
.[nocturnal insanity]

[118 ←]
.[rêve obsédant]

[119 ←]
.[Les savants ne sont pas curieux]

[120 ←]
[وهي فقرة يوردها فرويد كاملة في صفحة 344، في الهامش].

[121 ←]
[وهي فقرة يوردها فرويد كاملة في صفحة 344، في الهامش].

[122 ←]
لقد عثرت بالصدفة في رواية «جراديفا» للكاتب ف. ينزن على أحلام متعددة خلقها المؤلف خلقاً، ولكنها كانت مع ذلك صحيحة كل الصحة في بنائها، وأمكن تفسيرها كما لو كانت صدرت عن أشخاص حقيقيين ولم تكن من بدع الخيال. وقد ذكر لي المؤلف رداً على سؤال من جانبي أنه لم يكن يعلم شيئاً عن نظريتي في الحلم. ولقد اتخذت من هذا التطابق بين مباحثي وخلق الكاتب شاهداً على صحة تحليلي للأحلام. (أنظر فرويد، 1907أ).

[123 ←]
يقول أرسطو في هذا الصدد: إن أحسن مفسري الحلم هم أقدرهم على إدراك أوجه التماثل، وذلك لأن صور الحلم تشوّه بفعل الحركة مثل الصور في الماء بحيث يصيب النجاح من استطاع أن يتوسم الشكل الصحيح من وراء الصورة المشوهة (بوكسنشوتس، 1868، 65).

[124 ←]
لقد ترك لنا أرتميدوروس الأفسوسي، المولود في القرن الثاني من الميلاد على الأرجح، كتاباً في تفسير الأحلام كما كان يعرف في العالم اليوناني الروماني يفوق كل ما عداه من حيث الاستيعاب وضخامة الجهد. وهو يلخّ في كتابه هذا . كما يبيّنه جومپرتس . على ضرورة تأسيس تفسير الحلم على الملاحظة والخبرة، ويفرق تفرقة قاطعة بين فنه وغيره من الفنون الخادعة. وأما المبدأ الذي يقوم عليه فنّه التفسيري فلا يختلف بحسب جومپرتس من مبدأ السحر : إنه مبدأ التداعي؛ فالشيء المرأى في الحلم يعني الشيء الذي يرد

على الذهن في صدده . وغني عن البيان أن المراد هو ذهن المفسِّر لا الحالم. وإذا كان عنصر الحلم يذكر المفسر الواحد بأشياء مختلفة، ويذكر هذا بغير ما يذكر به ذاك، فقد كان ذلك مصدراً للحيرة والهوى لا سبيل إلى التغلب عليه. وتختلف الطريقة التي أصفها في الصفحات القادمة من طريقة القدماء في تلك الناحية الجوهرية: وهي أنها تلقي عبء التفسير على الحالم نفسه، فهي لا تحسب حساباً لما يطرأ على بال المفسِّر وإنما اهتمامها بما يرد على ذهن الحالم. وترينا الروايات الحديثة للمبشر تفنكدجي (1913) أن مفسري الأحلام المحدثين في الشرق يعتمدون هم أيضاً اعتماداً كبيراً على مؤازرة الحالم، فهو يتحدث عن مفسري الأحلام بين أعراب ما بين النهرين قائلاً: «ولكي يفسِّر حلم ما تفسيراً مضبوطاً، ترى أمهر المفسرين يسألون من يشاورونهم عن جميع الملابسات التي يرون وجوب معرفتها من أجل الوصول إلى الحل الصحيح... وخلاصة القول هي أن مفسرينا لا يتركون كبيرة أو صغيرة تفوتهم، ولا يدلون بالتفسير المنشود إلا بعد أن يمتلكوا الجواب عن جميع أسئلتهم تمام الامتلاك».

]Pour interpreter exactement un songe, les oniromanciens les plus habiles s'informent de ceux qui les consultent de toutes les circonstances qu'ils regardent nécessaires pour la bonne explication... En un mot nos oniromanciens ne laissent aucune circonstance leur échapper et ne donne l'interprétation desirée avant d'avoir parfaitement saisi et reçu toutes les interrogations désirables[. ومن بين الأسئلة التي يوجهها المفسرون أسئلة تهدف إلى الإلمام بأوثق صلات الحالم بذوي قرباه . الوالدين والزوجة والأبناء . كما تجد صيغاً محفوظة كهذه: «هل جامعت زوجك في هاتيك الليلة قبل الحلم أم بعده؟»

]Habuistine in hac nocte copulam conjugalem ante vel post somnium.«هذا والفكرة المسيطرة على تفسير الأحلام تقوم في تفسير الحلم بضده». ?[

]L'idée dominante dans l'interprétation des songes consiste à expliquer le rêve par son opposé[.

[125←]

نبّهني الدكتور ألفريد روبيتسك إلى أن كتب الأحلام الشرقية التي تعد كتبنا بجوارها سرقات حرية بالرثاء كثيراً ما تستند في تفسير عناصر الحلم إلى ما بين الألفاظ من الاتفاق في الجرس أو التماثل. وضياع هذه العلاقات ضياعاً محتوماً عند الترجمة هو الذي يعلل استغلاق بعض التفاسير التي نجدها في كتب الأحلام الشائعة بيننا. ويجد القارىء في مؤلفات هوجو فينكلرز مزيداً من المعلومات عن القيمة الخارقة التي تعلقها المدنيات الشرقية القديمة على التورية واللعب اللفظي. وعلى مثل هذا اللعب يقوم أجمل مثال على تفسير الحلم انحدر إلينا من الأزمنة القديمة، وهو مثال يرويه أرتميدوروس إذ يقول (ص 277): «ويخيل إلي كذلك أن أريستاندروس قد وفّق أحسن التوفيق في تفسير حلم الإسكندر المقدوني. فبينما كان هذا الأخير يحاصر مدينة تيروس [صور] وقد هاجه طول الحصار وأقلقه، رأى في المنام ساتيروس [كائن أسطوري] يرقص على درعه. واتفق أن كان أريستاندروس قريباً من صور، فقد كان في معية الملك أثناء حملته على السوريين، فأمكنه بتقسيم كلمة ساتيروس إلى sa [سا = لك] Tyros [تيروس = صور] أن يحث الملك على الاستماتة في الحصار حتى استولى على المدينة». . والحق أن الرابطة بين الحلم والتعبير اللغوي قوية إلى درجة دعت فرنتسي إلى أن يلاحظ بحق أن لكل لسان لغته الحلمية الخاصة، بحيث يستحيل بوجه عام أن يترجم الحلم إلى لغة أخرى. ولا أخال أن الأمر كذلك في كتاب مثل هذا الكتاب، بيد أن الدكتور أ. أ. بريل، من مدينة نيويورك، وآخرين من بعده، قد أفلحوا مع ذلك في ترجمة «تفسير الأحلام».

[126←]

لقد عثرت بعد أن فرغت من هذا الكتاب على مقال كتبه ستومف اتفقت فيه آراؤه مع ما أرمي إليه من التدليل على أن للحلم معناه وأنه يقبل التفسير. بيد أنه يجري تفسيراته بالاستعانة برمزية ذات طابع استعاري تمثيلي، دون أن يكون ثمة أقل دليل على جواز منهجه بوجه عام.

[127←]

Auflsung und lsung[. والمراد هو أن الكشف عن سر هذه الحالات لا يفترق من علاجها].

[128←]

لقد أتى سيلبرر بنتائج هامة في تفسير الحلم، وذلك بملاحظة هذا التحول للأفكار إلى صور ملاحظة مباشرة (1909، 1910، 1912). [أنظر «الظاهرة الوظيفة» في الفهرست التحليلي].

[129←]

]Tout psychologiste est obligé de faire l'aveu même de ses faiblesses s'il croit par là jeter du jour sur quelque problème obscur[.

[130←]

ولا أنسى مع هذا أن أقيّد هذا القول فأضيف أنني لم أكد أورد ولو مرة كل التفسير الذي أعرفه لحلم واحد من أحلامي. وأغلب الظن أني كنت مصيباً حين اقتصدت في الثقة بتصون القارىء.

[131←]

ذلك هو أول حلم حلّلته تحليلاً مستفيضاً.

[132←]

[Losung ، ويعني أيضاً «المحلول»].

[133←]

[أسقطت كلمة «بيضاء» من طبعة سنة 1942 وحدها وهو إسقاط مرجعه السهو من غير شك].

[134←]

[مصيف على مشارف فيينا].

[135←]

ربما كان من الممكن أن نرد إلى هذا الشخص الثالث أيضاً شكوى آلام البطن التي بقيت من غير إيضاح. وغنيٌّ عن البيان أن هذا الشخص الثالث كان زوجي نفسي، وتذكرني آلام

البطن بمناسبة لحظت فيها تحرجها. ولا أجد مفراً من أن أصارح نفسي بأني لا أحسن في هذا الحلم إلى إرما ولا إلى زوجي. ولكن قد نلاحظ على سبيل المعذرة أنني إنما أقارنهما بمثال المريضة الشجاعة الطيّعة.

[136 ←]
إني أحس أنني لم أواصل تفسير هذا الحلم حتى أتأثر كل معنى خبيء، ولو أني أردت أن أواصل المقارنة بين النساء الثلاث لذهب بي ذلك مذهباً بعيداً. . إن في كل حلم موضعاً واحداً على الأقل يخسف فيه قراره، سُرّه . إن جاز التعبير . يرتبط منها بالمجهول.

[137 ←]
[هذا خطأ لم يصححه فرويد في أي من الطبعات الثماني التي ظهرت في حياته. والصحيح أنه أوصى باستعمال الكوكايين في مقال نشر له عام 1884. ولقد يدرك المرء هذا الخطأ إذا قرأ الفصل السادس من الجزء الأول من كتاب جونز عن حياة فرويد، وهو مخصص لأبحاث فرويد في الكوكايين وما ارتبط بها من الأحداث. ومنه نعلم أيضاً أن «الصديق العزيز» المشار إليه هو فلايشل فون ماركسوف أحد معاوني بروكه في المعهد الفيزيولوجي الذي عمل فيه فرويد. ويجد القارىء فيما بعد إشارات أخرى متعددة إلى هذه القصة، ص 195، 229، 239].

[138 ←]
[شخصيتان رئيستان في رواية كتبها فريتس رويتر (1862 . 64) وكان لها ذيوع عظيم في وقت ما].

[139 ←]
[انتقال العلة من عضو لآخر].

[140 ←]
[اللفظ المشترك هو ما كان له معنيان].

[141 ←]
[والانتقال من المعنى الأول إلى المعنى الثاني يسهله في الألمانية لعب بالألفاظ يضيع عند الترجمة؛ لأن Wie er spüre (بمعنى «ألحظه مثله») لا يكاد يختلف في النطق من verspüre (بمعنى «أحسه»)].

[142 ←]
وهناك بعد ذلك جناس ملحوظ بين «أناناس» واسم عائلة مريضتي إرما.

[143 ←]
[هامش أضيف في عام 1909 ثم حُذف ابتداءً من عام 1925]: لم يكن الحلم نبياً من هذه الناحية، ولكنه كان كذلك في ميدان آخر: فالآلام التي كانت تعانيها مريضتي إرما «من غير حل» والتي كنت حريصاً كل هذا الحرص على ألا أُلام عليها قد ثبت أنها كانت العلائم الأولى على اضطراب خطير ناجم عن حصوة في كيس الصفراء.

[144 ←]
[الصديق الذي تذهب إليه هذه الإشارة هو ؟يلهلم فليس، وكان أخصائياً في أمراض الأنف والحنجرة في مدينة برلين، ولكن اهتماماته شملت ميدان علم الحياة بأجمعه، وكانت له في هذا العلم نظريات أقل ما يقال عنها هو أنها كانت تتسم بالغرابة. ولكي تعرف شيئاً عن هذه النظريات وعن صلة صاحبها بفرويد وأثره في حياته، فلا معدى عن قراءة رسائل فرويد إليه التي نشرت أخيراً مع مقالة كتبها إرنست كريس (فرويد، 1950أ). هذا وسوف يكثر ذكر هذا الصديق في خلال الصفحات القادمة، دون الإشارة إلى اسمه أو مشاراً إليه بحرف الفاء].

[145 ←]
وإن كان من المفهوم أنني لم أرَ كل ما خطر لي في أثناء عملية التفسير.

[146 ←]
[في خطاب إلى فليس بتاريخ 12 من يونيه 1900 يتحدث فرويد عن حياة الأسرة في بل؟ي ثم يردف قائلاً:

«أتظن أن لوحاً من المرمر سوف يعلّق يوماً على هذا المنزل وقد نقشت عليه تلك الكلمات؟ .

في هذا المنزل، في 24 من يوليه، 1895

كشف سر الأحلام

للدكتور سيجموند فرويد

إن الأمل في ذلك يلوح ضعيفاً في الوقت الحاضر»].

[147 ←]
[نسبةً إلى إتروريا، وهي المنطقة من إيطاليا المسماة اليوم توسكانيا، وبها استقر قوم يغلب أنهم من أصل آري وأنهم وفدوا إليها من آسيا الصغرى، وكانت لهم حضارة رفيعة منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد].

[148 ←]
عرف ؟يجانت أيضاً وقوع أحلام العطش هذه، فهو يقول: (1893، 41) «وهذا الإحساس بالعطش هو الذي يدرك أدق إدراك، وهو يبعث دائماً على تصور الارتواء. وأما الطريقة

التي يصور بها الارتواء في الحلم، فتختلف وتستمد صورتها الخاصة من إحدى الذكريات القريبة. وظاهرة أخرى مطردة الوقوع في هذا المجال: هي أن فكرة إرواء العطش لا يلبث أن يتلوها الشعور بالخيبة؛ لقلة غناء هذا الارتواء الوهمي». إلا أن ²يجانت يغفل المغزى الكلي الذي تتضمنه استجابة الحلم إلى المنبِّه. . هذا، وإذا كان بعض الناس قد يدركهم العطش في أثناء الليل فيستيقظون دون أن يحلموا، فذلك ليس اعتراضاً على تجربتي، وإنما هو دليل على أن هؤلاء الناس أردأ نوماً من غيرهم. . أنظر سفر إشعياء، الإصحاح 29، 8: «ويكون كما يحلم الجائع أنه يأكل ثم يستيقظ وإذا نفسه فارغة. وكما يحلم العطشان أنه يشرب ثم يستيقظ وإذا هو رازح ونفسه مشتهية».

[149 ←]

[«في أحيان كثيرة» أضيفت في طبعة 1911. ولفرويد ملاحظة على هذا التقييد يقول فيها (الكتابات المجمّعة، الجزء الثالث، 1925، ص 12): «لقد بينت الخبرة أن الأحلام المشوهة التي تحتاج إلى تفسير تقع أيضاً للأطفال الذين يبلغون الرابعة أو الخامسة. وذلك ما يتفق تمام الاتفاق وآراءنا النظرية عن الشروط التي تحتم تشويه الأحلام»].

[150 ←]

[قبل عام 1911 كنا نقرأ: «من أجل ذلك» بدلاً من «عندئذ»].

[151 ←]

[في منطقة سالتسكامرجوت بأعالي النمسا].

[152 ←]

[Hüttel . يُطلق على بيوت صغيرة من الخشب تقام في أنحاء متفرقة من الجبل ويأوي إليها الناس ليلوذوا بها من الخطر، أو ليستريحوا. ويُطلق على كلٍ منها اسم الجهة المقام فيها].

[153 ←]

واتفق بعد ذلك بقليل أن حقّق الحلم للجدة ما قد حققه للطفلة الصغيرة . ويبلغ عمراهما معاً شيئاً يقرب من السبعين سنة. فقد أُجبرت الجدة على التزام الحمية يوماً لاضطراب راجع إلى كلية سابحة، فكان أن حلمت في الليلة التالية . وقد حملها حلمها من غير شك إلى أيام شبابها البهيجة . بأنها قد دعيت إلى تناول كلتا الوجبتين الرئيستين في الخارج، وفي كل وجبة كانت تقدم إليها أشهى الأطعمة.

[154 ←]

[1911]: هذا ويعلّمنا النظر الأدق إلى الحياة النفسية للأطفال أن القوى الغريزية الجنسية تشارك . وإن يكن على صورة طفلية . بنصيب كبير، ظللنا نغفل أمره زمناً طويلاً، في النشاط النفسي للأطفال. كما نخرج أيضاً من مثل هذا النظر بأسباب تدعونا إلى التشكك بعض الشيء في سعادة الطفولة كما يتصورها الراشدون لأنفسهم من بعد. أنظر كتابي: «ثلاث مقالات في نظرية الحياة الجنسية» (1905 د).

[155 ←]

[1911]: يجب أن نذكر أن الأطفال سريعاً ما يأخذون في الحلم بأحلام أكثر تعقيداً وأقل شفافية، بينما قد يحلم الراشدون في بعض الملابسات بأحلام ذات طابع خالٍ من التعقيد، طفلي. ويجد القارىء أمثلة على ما قد تزخر به أحلام الأطفال المتراوحة أعمارهم بين الرابعة والخامسة من المادة غير المتوقعة في مؤلفي: «تحليل مخافة شاذة عند غلام في الخامسة» (1909 ب)، ويونج (1909أ). وأرجع أيضاً فيما يتصل بالتفسيرات التحليلية لأحلام الأطفال إلى هوج . هلموت ويوتنام ورالته وشبيلراين وتاوسك. وتجد أحلاماً أخرى عند بيانكيري وبوزمان ودوليا، وبخاصة عند ²يجام =الذي ألحَّ على نزوع هذه الأحلام إلى تحقيق الرغبة. ويبدو من جهة أخرى أن الأحلام ذات الطابع الطفلي يكثر ورودها عند الراشدين إذا وجدوا أنفسهم في ملابسات خارجية لم يألفوها. مثال ذلك ما يتحدث به أوتو نوردنسكولد في كتابه «القطب الجنوبي» (الجزء الأول، ص 336) عن أعضاء بعثته الذين قضوا معه فصل الشتاء هناك، يقول: «وكانت أحلامنا أشد ما تكون دلالة على اتجاهات أفكارنا الدفينة، فهي لم تكن في يوم من الأيام أشد وضوحاً أو أكثر عدداً. بل حتى أولئك الرفاق الذين لم يكونوا يحلمون إلا نادراً، قد صاروا يصحون وفي جعبتهم القصص الطوال يقصُونها حين نتبادل آخر خبراتنا في عالم الخيال. وكانت هذه الأحلام جميعها تتعلق بالعالم الخارجي الذي صار الآن بعيداً عنا أيما بعد، وإن جاءت أيضاً في كثير من الأحيان متكيّفة بعض التكيف مع ملابسات حياتنا الحاضرة. ومن أكثر هذه الأحلام دلالة على ذلك، حلم خيّل فيه إلى أحد الرفاق أنه قد عاد إلى مقعد الدراسة، وكان عليه في الحلم أن يسلخ كلاب بحر مصغرة صنعت خصيصاً لأغراض تعليمية. وكان الطعام والشراب هما المحور الذي تدور حوله معظم أحلامنا: فكان أحدنا . وكان ذا موهبة ممتازة في الاختلاف ليلاً إلى موائد العشاء الفاخرة . يفيض حبوراً إذا هو استطاع أن ينبئنا في الصباح بأنه «قد ظفر بعشاء من ثلاثة أصناف». هذا بينما كان يحلم آخر بالطباق، بجبال منه، وثالث بسفينة تتجه نحونا وقد انبسط من حولها العباب تمخره مخراً. ثم حلم آخر جدير بالذكر: يقبل ساعي البريد ويغرق في شرح السبب الذي من أجله أقبل متأخراً؛ فقد حمل البريد إلى عنوان غير العنوان الصحيح، ولم يستطع استرجاعه إلا بالجهد الجهيد. وكنا نحلم على التأكيد بأحلام أخرى أشد بعد استحالة من هذا. ولكن فقر المخيلة في هذه الأحلام جميعاً . ما أتاني نفسي وما سمعته عن غيري . كان عجيباً أكبر العجب. ولو قد سجّلت كل هذه الأحلام، لكان من المؤكد أن تكون لها قيمة سيكولوجية كبرى. ومن السهل أن نفهم بعد ذلك كيف كنا نتوق إلى النوم؛ فلم يكن غير النوم ليجيب كلامنا إلى ما كانت نفسه تتحرق شوقاً إليه». ويقول دوبرل كذلك (1885، 231): «إن مونجو پارك حين أشرف على الموت ظمأ في إحدى رحلاته الإفريقية كان لا ينقطع عن الحلم بمراعي وطنه ووديانه التي تجري فيها المياه. وكذلك ترنك حين عذَّبه الجوع وهو سجين في قلعة ماجد بورج؛ فلما كان يرى نفسه محاطاً بأفخر صنوف الطعام. أما جورج پاك . وكان عضواً في بعثة فرانكلين الأولى . فكان حين أشرف على الموت جوعاً لا يكف عن حلم واحد لم يتغيَّر: الطعام الكثير».

[156 ←]

وهناك مثل هنغاري استشهد به فرنسي، يزيد على ذلك فيقول: «يحلم الخنزير بثمر البلوط وتحلم الأوزة بالذرة». ويقول مثل يهودي: «بمَ تحلم الفرخة؟ بالقمح» (برنشتاين، 1908، 116).

[157 ←]

لست أفكر في القول: إن إرجاع الحلم إلى الرغبة لم يخطر قط لمؤلف من قبلي (أنظر مطلع الفصل القادم) ففي مكنة من يعلق أهمية ما على مثل هذه الحدوس المبكرة أن يرجع إلى الأزمنة القديمة =وأن يستشهد بهيروفيلوس . وهو طبيب عاش في أيام بطليموس الأول. فهذا الرجل . على ما يروي بوكسنشوتس (1868، 33) . قد فرّق بين ثلاثة أنواع من الأحلام: أحلام ترسلها الآلهة، أحلام طبيعية تنشأ حين تتصوَّر النفس ما فيه نفعها وما سوف يقع، أحلام مختلطة تنشأ نشوءاً تلقائياً باجتماع الصور بعضها إلى بعض وذلك حين نرى ما نرغب فيه. ولقد نبّه شتاركه إلى حلم في مجموعة شرنر يصفه المؤلف نفسه بأنه تحقيق رغبة، يقول شرنر (1861، 239): «إن الحلم قد حقق الرغبة التي أضمرتها الحالمة في اليقظة، لا لشيء سوى أن هذه الرغبة كانت تحرك نفسها تحريكاً شديداً». ويدرج شرنر هذا الحلم في قائمة «الأحلام المزاجية» إلى جانب «أحلام الشبق

عند الذكور والإناث» و«أحلام المزاج المعتل». ومن هنا نرى أن شرنر لا يفكر أقل تفكير في أن ينسب إلى الرغبات أهمية أخرى في إثارة الحلم غير التي لغيرها من سائر حالات اليقظة، وأقل من ذلك أن يفكر في الربط بين الرغبة وجوهر الحلم.

[158 ←]
وقديماً قال فيلسوف الأفلاطونية الجديدة أفلوطين: «إذا انبعثت الرغبة، جاءت المخيِّلة فصوَّرت لنا ما يشبه موضوع هذه الرغبة» (عن دوبرل، 1885، 276).

[159 ←]
أنظر حديث دوباكر عن الفزع الليلي.

[160 ←]
[1909]: إن من الصعب أن نتصور مدى إصرار قرّاء هذا الكتاب ونقاده على أن يغضُّوا طرفهم عن هذه التفرقة الجوهرية بين محتوى الحلم الظاهر ومحتواه الكامن. . [1914]: هذا ولست أجد في أدب الموضوع شيئاً يقرب من رأيي في الحلم قرب تلك الفقرة التي تجيء في مقالة ج. سوللي «الحلم من حيث هو كشف»، والتي لا ينال من قيمتها أنني لم أستشهد بها من قبل: «وهكذا قد يتبين أن الأحلام، مهما يكن من أمر ليست كلها ترهات، على ما ذهب إليه بعض الثقات من أمثال تشوسر وشكسبير وميلتون. فالتآليف المختلطة الناجمة عن مخيلتنا الليلية تملك مغزى وتنقل معرفة جديدة. فنقش الحلم كخطاب كتب بالشفرة لا تكاد تنعم النظر إليه إلا فقد طابع الطلسمة الذي لاح له للوهلة الأولى ولبس ثوب الرسالة الجدية المعقولة. أو إذا أردت أن تغيِّر التشبيه قليلاً، فقد نقول =إن مثل الحلم كمثل مخطوط قديم مسح ليسطَّر في محله كلام لا وزن له ولكننا نستطيع مع ذلك أن نتبين من وراء أحرف هذا الكلام أثراً من إفادة قديمة ثمينة».

Dreams as a revelation – It would seem, then, after all, that dreams are not the utter nonsense they have been said to be by such] Milton. The chaotic aggregations of our nightfancy have a significance and authorities as Chaucer, Shakespeare and communicate new knowledge. Like some letter in cipher, the dreaminscription when scrutinized closely loses its first look of baladerdash and takes on the aspect of a serious intelligible message. Or, to vary the figure slightly, we may say that, like some palimpsests, the dream discloses beneath its worthless surface-characters traces of an old and precious .[communication

[161 ←]
[ترجمة تقريبية لما يسمَى في جامعات النمسا

.[Professor extraordinarius

[162 ←]
[كانت أمثال هذه الترقيات تصدر إذ ذاك بقرار من وزير المعارف].

[163 ←]
[كانت المشاعر المعادية للسامية متأججة في ذلك الوقت في ڤيينا، وفرويد . كما نعلم . يهودي].

[164 ←]
من العجيب أن نلحظ كيف ضاق نطاق ذاكرتي . ذاكرتي المستيقظة . هنا، فلم يعد يتسع لغير أغراض التحليل. فالحقيقة هي أنني أملك خمسة أعمام، أحببت واحداً منهم وأجللته، ولكنني ما أن تغلبت على المقاومة التي كانت تصدني عن تفسير الحلم حتى قلت لنفسي: إني لم يكن لي قط سوى عم واحد . العم المقصود في الحلم.

[165 ←]
[بيتان لجوته، يجريهما على لسان مفيستوفوليس أثناء الحوار بينه وبين فاوست في المشهد الرابع من الجزء الأول من «فاوست». والمراد بالصبيان هم التلاميذ الذين يأخذون عنه المعرفة. وقد كان فرويد يحب الاستشهاد بهذين البيتين؛ فهو يذكرهما في موضع آخر من «تفسير الأحلام»، وكان قد استشهد بهما قبل ذلك في خطاب إلى فليس بتاريخ 3 من ديسمبر سنة 1897 وخطاب بتاريخ 9 من فبراير سنة 1898 (فرويد 1950أ)، ثم رجع فاستشهد بهما في أواخر حياته بمناسبة منحه جائزة جوته الأدبية سنة 1930، مطبِّقاً إياهما في هذه المرة على جوته نفسه (فرويد 1930هـ)].

[166 ←]
لقد روت الدكتورة هـ.. فون هوج . هلموت (1915) حلماً ربما كان أصلح من أي حلم آخر في تبرير المصطلحات التي اخترتها. فالتشويه في هذا الحلم يستخدم طريقة لا تختلف عن الطريقة التي كانت تعمد إليها رقابة البريد في خلال الحرب للتخلص من الفقرات التي تثير اعتراضها: كانت الرقابة تلجأ إلى ترجيم مثل هذه الفقرات ترجيماً تاماً لكي تجعل من قراءتها شيئاً مستحيلاً، بينما عمدت رقابة الحلم إلى إحلال دمدمة غير مفهومة في مكانها.

ولكي نفهم هذا الحلم أذكر أن الحالمة كانت سيدة محترمة، على درجة عالية من الثقافة، بلغت الخمسين من عمرها. وهي أرملة توفي زوجها . وكان ضابطاً كبيراً . منذ اثني عشر عاماً، ولها ولدان راشدان كان أحدهما في جبهة القتال حين وقع الحلم.

= وإليك الآن حلم «خدمات الحب» [اللفظ الألماني Liebesdienste يعني أولاً الخدمات المبذولة من غير مقابل، أي بدافع من الحب، ولكنه ينطاع أيضاً لتأويل آخر يسهل إدراكه]: «تذهب الحالمة إلى المستشفى رقم 1، وتخبر الحارس الواقف بالباب أنها يجب أن تقابل الطبيب الأول... (وهنا تذكر اسماً لا عهد لها به)؛ لأنها تريد التطوُّع للخدمة في المستشفى. بيد أنها تنطق كلمة «الخدمة» بطريقة تجعل ضابط الصف يدرك على الفور أنها تعني «خدمة حب»، فيتردد بعض التردد، ولكنه يدعها تمر؛ لما يراه من تقدمها في السن. غير أن السيدة بدل أن تذهب إلى الطبيب الأول، تدخل حجرة كبيرة، شبه مظلمة، كان بها عدد كبير من الضباط والأطباء العسكريين جلسوا إلى مائدة طويلة أو وقفوا حولها. وتتجه السيدة بمقترحها إلى طبيب أركان حرب فيدرك مرادها ولم تفه إلا بكلمات قليلة. وكان نص كلامها في الحلم ما يلي: «إنني أعلم أن اقتراحنا هذا يبدو لكم على جانب كبير من الغرابة، ولكننا جادات فيه غاية الجد. ولا يُسأل الجندي في الميدان أيريد الموت أم لا يريد». وهنا يسود صمت أليم خلال بضع دقائق. ثم بعد ذلك يطوِّقها ضابط أركان الحرب بذراعه ويقول: «يا سيدتي الكريمة، تصوري ماذا يكون الموقف، لو أن الأمر انتهى حقيقة إلى...» (دمدمة) فتفلت منه وهي تحدث نفسها قائلة: «إنه لا يختلف عن غيره»، ثم تجيبه: «يا إل~هي، إنني سيدة متقدمة في السن، وأظن أنني لن أنتهي إلى ذلك أبداً. وهناك على أية حال شرط واحد تجب ملاحظته: مراعاة السن؛ فلا ينبغي

لسيدة عجوز وفتى حدث... (دمدمة)، إن ذلك يكون أمراً مروعاً». . ويجيب الطبيب: «إنني أقدر ذلك تمام التقدير». وعندئذ ينطلق بعض الضباط في الضحك بصوت عال، وكان من بينهم ضابط كان قد طلب يدها وهي في شبابها. وتعرب السيدة عن رغبتها في أن ترى الطبيب الأول الذي تعرفه معرفة شخصية لكي تنهي معه هذه المسألة جميعها. ولشد ما كانت دهشتها حين رأت أنها لم تكن تعرف اسمه. بيد أن طبيب أركان الحرب يريها في أدب واحترام بالغين سلماً من الحديد، حلزونياً، شديد الضيق، يسلم مباشرة إلى الطابق الثاني. وبينما تصعد تسمع ضابطاً يقول: «إنه قرار ما أجسمه، ويستوي أن تكون صاحبته صغيرة السن أو متقدمته، لها كل إجلالنا!».

«وتمضي الحالمة مصعدة في درجات لا تنتهي، يملؤها الشعور بأنها إنما تؤدي واجباً.

وتكرر هذا الحلم مرتين في خلال بضعة أسابيع دون أن يمسه . على حسب ما لاحظته السيدة . سوى تغيير مجرد من كل أهمية أو مغزى».

[167 ←]

إن أمثال هذه الأحلام المنافقة غير نادرة الوقوع سواء عندي أم عند غيري. ولقد اتفق بينما كنت أشتغل بمشكلة علمية معينة أن أزعجني حلم عاودني في خلال عدة ليالٍ متقاربة. وكان مضمونه هو الصلح مع صديق كنت قد تحولت عنه منذ زمن بعيد. وأخيراً، بعد المرة الرابعة أو الخامسة، أفلحت في فهم هذا الحلم: إنه كان تحريضاً على أن أدع البقية الباقية من الاعتبار الذي كنت أكنه لهذا الشخص، وعلى أن أحرر نفسي منه تحريراً تاماً، وهو ما تقنَّع بقناع الضد نفاقاً. ولقد ذكرت في موضع آخر (1910ل) حلماً حلمه البعض فيه حلَّ الحنان الظاهر محل النزعات العدوانية =ورغبات الموت المتضمنة في الأفكار الكامنة. وسوف أذكر فيما بعد نوعاً آخر من أحلام النفاق (أنظر الفصل السادس «عمل الحلم» [ص 497 وما بعدها]) [الصديق المشار إليه في هذا الهامش هو من غير شك ²يلهلم فليس، والهامش كله قد أضيف في سنة 1911].

[168 ←]

[1930]: سوف نصادف أيضاً . فيما بعد . أمثلة أخرى تعرب . على العكس . عن رغبة لهذا النظام الثاني. [أنظر «أحلام العقاب» في الفهرست التحليلي].

[169 ←]

أنظر قولنا: «قعد للمصور» ثم بيتي جوته:

وإذا لم يكن للسيد النبيل مؤخره

فكيف يستطيع السيد النبيل قعوداً؟

[170 ←]

هكذا نترجم فعلاً ذا أصل لاتيني، ثم انتقل من اللاتينية إلى جميع اللغات الأوروبية، دون أن يكون له مرادف تام في العربية. ومعنى هذا الفعل هو (أ) أن تقول عن شيئين إنهما ذات الشيء، أن تقول عن أحدهما إنه الآخر أي أن تعرّفه به، أو (ب) أن تجعلهما كذلك. ثم استخدم فرويد هذا الفعل ليسمي به العملية النفسية أو العلاقة التي يتحدث عنها الآن بين الذات وغيرها. فمن الواضح من المثال الذي ذكره أن قول المريضة فيما يتصل بصديقتها: «لا أريد أن تتحقق رغبتها» قد اتخذ في الحلم صورة: «لا أريد أن تتحقق رغبتي» ومنه تظهر المساواة أو المطابقة التامة بين ياء المتكلم وضمير الغائبة. فكأن المريضة قد دلت على نفسها بصديقتها، عرفتها بها، وهذا هو المعنى الأول للكلمة. . وننبّه باختصار إلى أن الأمر لا يتعلق بالطبع بمعرفة تدركها المريضة وتملكها، أي معرفة تنطق بها وتجعلها موضع قول، بل الأصدق هو أن نقول: إن هذه المعرفة هي التي تملك المريضة وتؤسسها وتضلها عن حقيقتها، إنها معرفة معاشة قبل كل شيء. ويجرنا هذا إلى المعنى الثاني: فقد «وضعت المريضة نفسها مكان صديقتها» أي أنها قد صارت هي المعوقة الرغبة، أي هي الصديقة. وترجمتنا لا تنقل هذا المعنى الثاني نقلاً مباشراً، ولكن يبررها أنه إذا كان الأمر كذلك، فكأن المريضة قد تعينت بصديقتها بالمعنى الأرسطوطاليسي الذي نقول به: إن المادة تتعيَّن بالصورة.

وإذا أردت أن تمثل للعلاقة التي يراد التعبير عنها بمثال مألوف قلنا: حين نرى رجلاً انتزعته شخصية نابليون عن نفسه انتزاعاً جزئياً (وحينئذ يكون الأمر غروراً، قل أو كثر) أو انتزاعاً كلياً =(وحينئذ يكون جنوناً) . فإننا نعرب عن ذلك بأن نقول حيناً: إنه «فاكر نفسه نابليون»، ونقول حيناً آخر: إنه «عامل نفسه نابليون». وهذه الحرية في اختيار إحدى العبارتين دليل على أننا نشعر بأن العلاقة المراد الإعراب عنها، بين المجنون ونابليون، هي علاقة ذات وجهين: وجه معرفي (اعتقادي) هو الذي يبرز حين نقول: فاكر نفسه (وهي معرفة هي في الوقت نفسه ضلال)، ثم وجه معاش هو الذي يبرز حين نقول: عامل نفسه (وهو فعل هو في الوقت نفسه خيال). ونحن نرى كيف ينطبق الفعل الأوروبي بمعنييه على هذه العلاقة بوجهيها جميعاً أحسن الانطباق. أما بالعربية فلم نجد خيراً من قولنا إن المجنون قد «عيَّن ذاته» بنابليون.

وأما الترجمتان الموضوعتان من قبل: تقمص وتوحَّد، فلم نجد بداً من تركهما. فقد غضضنا الطرف عن الطابع المجازي لأولاهما وعن الخطأ اللغوي الذي في ثانيتهما . فما تجدي المناقشة إلا بعد التسليم بمقاصد المخاطب . ومع هذا بقي سببان يحولان دون قبولهما: الأول، هو أن كلا هاتين الترجمتين تغفل الوجه المعرفي للفكرة المراد ترجمتها إغفالاً تاماً. ولقد كنا نغض الطرف عن ذلك نظراً لأن هذا المعنى وإن كان متضمناً من غير أدنى شك في اللفظ الأوروبي إلا أن فرويد لا يبرزه في العادة صراحة حين يتحدث عن العلاقة التي يسميها بهذا اللفظ، ولكن هناك السبب الثاني، وهو الأهم: ذلك أن كلتا هاتين الترجمتين تعرضاننا تعريضاً شديداً لفهم التعيين الذاتي على أنه محاكاة؛ فقولنا: «تقمص فلان فلاناً أو توحد به» يجعلنا نفهم عادة أنه يحاكيه محاكاة شديدة، على حين أن فرويد نفسه يفرق فيما يلي تفرقة قاطعة صريحة بين التعيين الذاتي بالمعنى التحليلي وبين العملية السيكولوجية المعروفة باسم التقليد. والحق هو أن التقليد عملية تتم بين طرفين مكونين من قبل هما المقلد والمقلد، في حين أن التعيين الذاتي هو العملية أو العلاقة التي تتكون الذات بها وفيها. أو بعبارة سبينوزية: إن فكرة التعيين الذاتي فكرة تضعنا في مستوى الطبيعة الطابعة أو المكونة لا الطبيعة المطبوعة أو المكونة، ويجب أن تفهم في هذا المستوى. وإن ذلك عينه لهو الذي يجعل فهمها هذا عسيراً غاية العسر على غير المحللين، فليس مثل المحلل ليدرك في وضوح العلم قول الشاعر:

. Il est un autre

هذا ولقد أردنا أن نجنب القارىء كل خلط ممكن فامتنعنا في طول هذا الكتاب وعرضه عن أن نستخدم مادة «عين» إلا فيما يعادل Identifizieren فلم نقل «عيَّن ذاته أو نفسه» إلا لمعادلة sich identifizieren ، كما لم نقل «التعيين» إلا في معنى

.[Identifizierung

[171 ←]

[بالمعنى المعروف في علوم الأحياء].

[172 ←]

إني آسف إذ أدرج في سياق كلامي هذه الفقرات الخاصة بسيكوباثولوجية الهستيريا، وهي . بعد . فقرات لا يمكن أن تأتينا بنور كبير لتقطع عرضها ولانتزاعها من محيطها. بيد أنه لو أمكن أن تدلنا هذه الفقرات على العلاقات الباطنة بين الأحلام والأعصبة، لحقق ذلك الغرض الذي أوردتها من أجله. [هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها فرويد في كتاباته

المنشورة عن فكرة التعيين وإن يكن قد أشار إليها من قبل (1897) في رسائله إلى فليس. وتزيد أهمية هذا النص إذا علمنا أن فرويد لا يعود إلى مثل هذا النظر المفصل إلا بعد ذلك بما يزيد على العشرين عاماً (فرويد، 1921، ج، الفصل السابع) وأن الأمر يتعلق بفكرة لا نغالي إذا قلنا إنها حجر الزاوية في كل النظرية التحليلية النفسية . ونرجو أن يعذرنا ذلك على الهامش الطويل الذي وضعناه في تبرير ترجمتنا لهذا المصطلح. هذا ويطلق لفظ التعيين أيضاً على عملية أخرى تكون جزءاً من عمل الحلم، يتحدث عنها فرويد في القسم ج من الفصل السادس، ص 354. وهذه العملية الأخيرة تختلف في دلالتها من تلك التي تحدّث عنها فرويد الآن اختلافاً مطلقاً . وإن اشتركت معها في الاسم].

[173 ←]

كما كان الشأن مع السالمون المدخن في حلم الرغبة الممنوعة [ص 192].

[174 ←]

[وتعني آنية أو وعاء. وتُنطق «بوكسه» بضمة مشمومة الكسر].

[175 ←]

يحدث في كثير من الأحيان أن يُروى الحلم منقوصاً في أول الأمر ولا تنبعث ذكرى الأجزاء المحذوفة إلا في أثناء التحليل. وحينئذ يتضح دائماً أن هذه الأجزاء التي تضاف من بعد هي التي تزوّدنا بمفتاح تفسير الحلم. أنظر مناقشة نسيان الأحلام فيما بعد [القسم أ من الفصل السابع].

[176 ←]

[heimfuhren ، يعني «أخذها إلى داره» ويعني أيضاً «تزوجها»].

[177 ←]

[أضيفت هذه الفقرة والتي تليها في عام 1909].

[178 ←]

لقد سمعت تكراراً في خلال السنوات القليلة الأخيرة كثيراً من هذه «الأحلام المضادة للرغبات» وكان أصحابها من المستمعين إلى محاضراتي، وكانت أحلامهم هذه هي استجابتهم تجاه أول التقائهم «بنظرية الرغبة» في الأحلام.

[179 ←]

[أضيف ذكر هذا الحلم مع التعقيب عليه في عام 1914].

[180 ←]

أشير هنا إلى أنني لم أفرغ بعد من هذا الموضوع فروغاً تاماً، وسوف أعود إليه فيما بعد [أنظر «أعلام العقاب» في الفهرست التحليلي].

[181 ←]

[وهو الدافع الذي قال فرويد في الصفحة السابقة إنه لم يذكره بعد . أضيفت هذه الفقرة في عام 1909].

[182 ←]

هامش أضيف عام 1914]: لقد توصّل كاتب معاصر كبير . وهو على ما علمت يرفض أن يسمع كلمة واحدة عن التحليل النفسي أو عن تفسير الأحلام . إلى صيغة في ماهية الحلم لا تكاد تختلف من تلك التي وضعتها، فهو يقول: إن الحلم «انبعاث من غير تصريح لرغباتٍ وأمانٍ مقموعة، تحت ملامح وأسماء مزيفة» (شبيتلر، 1914).

[1911]: وأستبق الأمور هنا بذكر التوسيع والتعديل اللذين أدخلهما أوتو رانك على الصيغة الأساسية المذكورة في النص: «إن الحلم يصور دائماً، في صورة مقنعة رمزية، تحقق رغبات حاضرة، هي أيضاً في القاعدة رغبات جنسية، وذلك بالاستناد إلى مواد مستندة من الحياة الجنسية الطفلية المكبوتة وبمعاونتها» (رانك، 1910).

[1925]: هذا ولم يحدث قط أنني ذكرت في أي موضع من المواضع أن صيغة رانك تعرب عن رأيي. وإن الصيغة الأقصر، على ما وردت عليه في النص، لتبدو لي وافية بالغرض. ولكن مجرد ذكر التعديل الذي أدخله رانك كان كافياً لأن تنهال على التحليل النفسي اتهامات لا يحصى عددها، مؤدّاها أن التحليل النفسي يؤكد أن جميع الأحلام ذات محتوى جنسي . وهذه الجملة إذا فُهمت بالمعنى الذي يراد فهمه منها فإنما تدل على مدى التجرد من الضمير الذي يظهره النقاد في قيامهم بعملهم، وعلى مدى مسارعة الخصوم إلى التعامي عن كل قضية مهما بلغ وضوحها، ما دامت لا تتلاءم ونزعاتهم العدوانية؛ إذ يكفي القارىء أن يرجع صفحات قليلة إلى الوراء ليرى أنني ذكرت أحلاماً تحقق عند الأطفال رغبات متنوعة (كنزهة بالبر أو ببحيرة، أو كتعويض أكلة فاتت، إلخ)، كما ذكرت في موضع آخر أحلاماً أثارها العطش أو الحاجة إلى التبول وأخرى لا تخرج عن أن تكون أحلام استسهال. بل إن رانك نفسه لا يرسل القول على إطلاقه؛ فهو يقول: «هي أيضاً في القاعدة رغبات جنسية»، وهو قول يمكن تأييده تأييداً واسعاً في أحلام معظم الراشدين.

ولقد كان الموقف يختلف لو كان نقادي استخدموا لفظ «جنسية» بالمعنى الذي شاع استخدامه فيه اليوم في التحليل النفسي . معنى «إيروس» [اسم يوناني لإل~ـه الحب كان من حظه أنه صار يستخدم منذ قديم كاسم كلّي لجميع النوازع المتجهة . في الطبيعة كما في الإنسان . إلى التوحيد والخلق، في مقابل التفرقة والهدم أو السلب]. ولكن نقادي كانوا بعيدين غاية البعد عن أن يفكروا في تلك المشكلة الهامة: هل الأحلام جميعها من خلق القوى الغريزية «الليبيدية» (في مقابل «التدميرية»)؟

[183 ←]

[الهيلة Angst لغة هي المخافة من الأمر لا يدري المرء ماذا يهجم عليه منه. ويراد بها في التحليل النفسي الخوف الذي يكون من ممكن مستقبل فحسب (كهبوب العاصفة أو الرسوب في الامتحان أو . أخيراً . الموت) وليس من موضوع بعينه (كالرمضاء أو النار). ولكن كلمة Angst يكثر أيضاً استخدامها في اللغة الألمانية للدلالة على الخوف مجرداً وبأي درجة من درجاته، وقد يجريها فرويد بهذا المعنى. ويقال أيضاً في العربية «الهول» ولكننا لم نكد نستخدمه قط لشيوع معناه في غير ذلك . هذا وقد احتفظنا بكلمة «القلق» لترجمة معنى Sorge أو

Worry].

[184 ←]

من البيِّن أننا لا نستطيع أن نأخذ بفكرة روبرت القائلة بأن غاية الحلم هي تخليصنا من الانطباعات غير النافعة المتخلفة من النهار، إذا كانت الصور الذكروية المستمدة من طفولتنا تتردد في الحلم أي تردد؛ وإلا كان معنى ذلك أن الحلم يقوم بوظيفته تلك على نحوٍ ناقص جداً.

[185 ←]

[أسلوب بوكلين هو الرومانسية المغرقة، فالصخور التي أكثر من رسمها صخور تعلوها أليهات البحر وعرائسه في بحرٍ عاصف متلاطم الأمواج، صخور «؟اجنريه» . إن جاز التعبير].

[186 ←]

]: لقد حاول هرمان س؟وبودا . على ما ذكرته في كلمة ألحقتها بالفصل الأول (ص 139) أن يطبِّق على مجال الأحداث النفسية بوجه عام فكرة الدورات البيولوجية المؤلفة من 23 و28 يوماً والتي اكتشفها ؟يلهلم فليس (عام 1906). وهو يؤكد بوجه خاص أن هذه الدورات هي التي تحتِّم انبعاث العناصر التي تظهر في الحلم. ولو قد ثبتت صحة هذا الرأي، لما غير ذلك من تفسير الأحلام تغييراً جوهرياً، كل ما هنالك هو أننا نكون اكتشفنا بذلك مصدراً جديداً من مصادر مادة الحلم. ومع هذا قمت حديثاً ببحث عدد من أحلامي؛ بغية التحقق من صدق «نظرية الدورات» عليها، واخترت من أجل هذا الغرض عناصر حلمية تلفت النظر بنوع خاص، أمكن التيقن من تاريخ ظهورها، في الحياة الواقعة.

1 . حلم 1 . 2 من أكتوبر 1910.

(نبذة)... في مكانٍ ما بإيطاليا. ثلاث إبنات يرينني تحفاً صغيرة الحجم . كما لو كان ذلك في دكان آثار . وهنَّ جالسات في حجري. أقول بصدد إحدى القطع: لقد أخذتن هذه مني. وبينما أقول ذلك أرى قناعاً يمثِّل جانب وجه «سافونا رولا» بتقاطيعه الحادة.

متى رأيت صورة «سافونا رولا» للمرة الأخيرة؟ تقول مذكرة رحلاتي؛ إنني كنت بفلورنسا في الرابع والخامس من شهر سبتمبر . وهناك خطر لي أن أُري رفيقي في الرحلة الحفر الذي يحمل ملامح ذلك الراهب المتعصب في [الميدان المسمَّى] Piazza Signoria ، بالبقعة التي لقي فيها الموت حرقاً. وأظن أنَّي جذبت انتباهه إليه في صباح اليوم الخامس من شهر سبتمبر . فالفترة المنقضية بين هذا الانطباع وبين تكرره في الحلم هي يقيناً: 27 + 1 يوماً . وهي مدة «الدورة الأنثوية» على حسب فليس. [لاحظ الخطأ في هذه الحسبة. ولقد وضع ستراشي «الثالث من سبتمبر» بدل «الخامس» ونبَه إلى أن «الخامس» خطأ مطبعي ورد في الطبعات الحديثة. ومن شأن تعديله هذا أن يصلح الحسبة، ولكنه من جهة أخرى لا يستقيم وما ورد من إشارة المذكرة إلى وجود فرويد بمدينة فلورنسا في الرابع والخامس من سبتمبر]. بيد أنني . لسوء حظ القيمة البرهانية التي لذلك المثال . لا أجد بداً من أن أضيف أنه قد اتفق يوم الحلم نفسه أن زارني زميل قدير لكنه ذو طلعة متقطِّبة، كنت ألقِّبه منذ سنوات «سيدي الحاخام سافونا رولا». وقدم لي زميلي مريضاً نكبته حادثة نزلت بقطار بونتيا السريع . وهو القطار الذي كنت سافرت فيه منذ أسبوع . فرجع ذلك بذاكرتي إلى رحلتي الأخيرة في إيطاليا. وهكذا نرى أن ورود ذلك العنصر الذي يلفت النظر «سافونا رولا» في محتوى الحلم تعلله زيارة زميلي يوم الحلم بينما تفقد فترة الثمانية والعشرين يوماً كل مغزاها.

. 2 . حلم 10 . 11 من أكتوبر.

أدرس الكيمياء من جديد بمعمل الجامعة. يدعوني الأستاذ ل. إلى مكان ما ويقودني في أحد الأروقة ممسكاً أمامه بمصباح أو بآلة أخرى رفعها بيده المنتصبة وقد امتد رأسه إلى الأمام هيئة خاصة، ولاح كمن ينظر في نفاذ (؟) (إلى بعيد؟). ثم بعد ذلك نصل إلى مكان فضاء ... (نسيت البقية).

إن أكبر ما يسترعي الانتباه من محتوى هذا الحلم هو الطريقة التي حمل بها الأستاذ ل. المصباح (أو العدسة) أمامه وقد أنفذ بصره إلى بعيد. ولم أكن رأيت ل. منذ سنوات متعددة، ولكنني أدرك على الفور أنه إنما كان شخصاً بديلاً حل محل آخر يعلوه شأناً، محل أرشميدس.. الذي انتصب تمثاله بالقرب من نافورة أريتوزا، في سيراقوسة، وقد اتخذ تلك الهيئة عينها: ممسكاً مرآته المحرقة بيده، مادا بصره إلى الجيش الروماني المحاصر . فمتى رأيت هذا التمثال للمرة الأولى (والأخيرة)؟ رأيته . على حسب مفكرتي . في مساء اليوم السابع من سبتمبر، وبين ذلك اليوم ووقت الحلم قد انقضى حقيقةً 13 + 10 = 23 يوماً . وهي «الدورة المذكَّرة» بحسب فليس.

بيد أن من سوء الحظ أننا لا نتعمق تفسير الحلم حتى نرى هذا الاتفاق أيضاً جزءاً يفقد من قوَّته البرهانية. فقد كانت المناسبة التي حفزت إلى الحلم نبأ سمعته يوم الحلم، كان مؤاده أن العيادة التي كنت أستضاف للمحاضرة بقاعتها قد أوشك نقلها إلى مكان آخر . وقدَّرت أن المكان الجديد لن يكون إلا بجهة متطرفة جداً وقلت لنفسي: وما الفرق بين ذلك وبين ألا تكون لي قاعة أحاضر فيها على الإطلاق؟ وكان لزاماً أن ترجع بي الذاكرة عند ذلك إلى أيام بدأتُ حياتي كمحاضر بالجامعة حين كنت حقيقةً لا أجد قاعة أحاضر فيها، وحين لم تكن جهودي من أجل الحصول على قاعة تصادف إلا القليل من ترحيب أساتذة الجامعة وأصحاب كراسيها الذين كان بيدهم السلطان. وأذكر أني ذهبت إذ ذاك إلى ل. . وكان عميداً وقتئذ وكنت أعدُّه حامياً . لكي أشكو إليه حاجتي. فوعدني بالعون، ثم لم أسمع منه بعد ذلك شيئاً. وهو في الحلم أرشميدس يعطيني Pou stô [مكاناً أقف فيه، باليونانية]، ويقودني بنفسه إلى المحل الجديد. فأما أن رغبة الانتقام والشعور بالعظمة لا يغيبان عن أفكار هذا الحلم . فذلك ما يسهل تخمينه على كل عارف بالتفسير. وإنما الذي أريد أن أقوله هو أن أرشميدس ما كان ليجد طريقه إلى الحلم في هاته الليلة لولا تلك المناسبة. كما أنني لست واثقاً من أن ذلك الانطباع القوي، الحديث العهد بعد، الذي أثاره في نفسي تمثال سيراقوسة . لم يكن يستطيع أن يحدث كذلك أثره في نفسي بعد فترة مختلفة من الزمن.

. 3 . حلم 2 . 3 أكتوبر 1910.

(نبذة)... شيء عن الأستاذ أوزر الذي وضع بنفسه قائمة الأطعمة التي يجب أن أتناولها، وهو ما يدخل على نفسي ارتياحاً كبيراً (وأشياء أخرى نسيت).

هذا الحلم استجابة بإزاء اضطراب هضمي جعلني أفكر في ضرورة الالتجاء إلى أحد زملائي لكي يقرر نظام التغذية الذي يجب أن أتبعه. وأما كوني قد اخترت لأجل ذلك الغرض الأستاذ أوزر الذي مات في خلال الصيف فيرجع السبب فيه إلى موت مدرس جامعي آخر كنت أعجب به أشد الإعجاب، وكان موته قبل الحلم بزمن قليل (في الأول من أكتوبر) فمتى مات أوزر؟ ومتى سمعت نعيه؟ يتَّضح من الصحف أنه قد مات في الثاني والعشرين من أغسطس. وكنت في ذلك الوقت في هولندا، وكانت صحف ؟بينا تصل إلي بانتظام؛ فلا بد أني قرأت نعيه في الرابع والعشرين من أغسطس. ولكن هذه الفترة لا تتفق وأي من الدورتين: فهي تعدل 7 + 30 +2 = 39 يوماً، وقد تكون 40، ولست أستطيع أن أذكر أني تحدثت عن أوزر أو فكرت فيه في هذه الأثناء.

وأمثال هذه الفترات التي لا يمكن التوفيق بينها وبين نظرية الدورات دون مزيد من التفنُّن في الحساب . تفوق في أحلامي كثيراً تلك التي تتفق وهذه النظرية. والعلاقة الوحيدة التي أراها ترد بانتظام هي تلك التي تصل الحلم بانطباع من اليوم السابق، على ما أكدته في النص.

[187 ←]

[وهو مجموعة الأعشاب الجفيفة].

[188 ←]

[أنظر صفحة 156، هـ. 2].

[189 ←]
[أي من فصيلة النباتات الصليبية].

[190 ←]
[Akzent . ونقول «لهجة» بالمعنى الذي تكون لهذه الكلمة من خلال استخدامها العامي على الأقل وهو معنى تعبير الصوت عند الكلام، كما في قولنا «لهجة التوسل» أو «لهجة التحدي» مثلاً. والمراد بالطبع هو: حتى صورة الحلم لا تخلو من المعنى كما لا تخلو منه «لهجة» الكلام].

[191 ←]
[الفصل الأول، المشهد الخامس، السطر 125 . بالإنجليزية في الأصل].

[192 ←]
[Akzent . ويعني أيضاً رفع الصوت أو خفضه عند النطق بالمقاطع أو العلامات الدالة على ذلك، وترجمناه بالنبرة من «نبر» أي رفع صوته بعد انخفاض. ويستخدم هنا كناية عن الشدّة أو الأهمية النفسية من حيث أن الصوت يرتفع في المقاطع التي يراد إبراز أهميتها].

[193 ←]
[سوف يرى القارىء كيف يحاول فرويد في الفصل السابع أن يبني نظرية في الحياة النفسية تقوم على فكرة «الطاقة». ومن شأن فكرة الطاقة أن تجر إلى فكرة الاستثمار أي صرف هذه الطاقة واستخدامها في الأوجه المختلفة. والأفكار المستثمرة استثماراً شديداً هي إذن تلك التي وضعت أو صرفت فيها كمّيات كبيرة من الطاقة النفسية، أو المصحوبة بشحنات نفسية كبيرة].

[194 ←]
[تلك هي المرة الأولى التي يذكر فيها فرويد تلك الفكرة الجوهرية التي يخصص لها الفصل السادس من هذا الكتاب . وهو أطول فصوله وأهمها جميعاً].

[195 ←]
إن نزوع عمل الحلم إلى أن يدمج في موقف واحد جميع الأحداث ذات الشأن والتي تقع في وقت واحد، ظاهرة لاحظها مؤلفون عديدون من قبل، مثل دولاج (1891، 41) ودلبوف الذي يتحدث في هذا الصدد عمّا يسميه rapprochement forcé [التقريب القهري] (ص 237). [هذا وقد كانت تلك الفقرة تنتهي بالجملة الآتية التي أضيفت في طبعة 1909 ثم حُذِفَتْ من جديد بعد سنة 1922: «وسوف نصادف في فصل قادم (عن عمل الحلم) هذا الدافع القاهر إلى الإدماج من حيث هو حالة من حالات تكثيف الحلم. . وهو نوع آخر من العمليات الأولية»].

[196 ←]
كما في حلم حقنة إرما وحلم عمي ذي اللحية الصفراء.

[197 ←]
كما في حلم خطبة الرثاء التي يلقيها الطبيب الشاب.

[198 ←]
كما في حلم المبحث النباتي.

[199 ←]
معظم أحلام مرضاي في خلال العلاج تنتمي إلى هذا النوع.

[200 ←]
أنظر ما ورد عن «التحويل» في الفصل السابع [ص 551 وما بعدها].

[201 ←]
لقد قام بوتسل بعملٍ هام في تبيان النصيب الذي يرجع إلى الانطباعات الحديثة العهد في تكوين الحلم، وذلك في مقال ثري في متضمناته (1917). فقد قام بوتسل بتجارب كان يطلب فيها إلى عدد من الأشخاص أن يرسموا ما قد لاحظوه ملاحظة شعورية من صورة تُعرض على أبصارهم بوساطة التاخيستوسكوب [جهاز يستخدم لعرض الصورة في فترة وجيزة جداً من الزمن]. ثم بعد ذلك كان يتّجه باهتمامه إلى أحلامهم التي يحلمون بها في خلال الليلة التالية ويطلب منهم مرة أخرى أن يقوموا برسم أجزاء مناسبة منها. وحينئذ كان يتبيّن بما لا يقبل الشك أن التفاصيل التي لم يلاحظها هؤلاء الأشخاص ملاحظة شعورية من الصور المعروضة عليهم هي التي كانت توفر مادة أحلامهم على التحقيق، على حين لم تكن تتكرر في المحتوى الظاهر للحلم تلك التفاصيل التي أُدركت إدراكاً شعورياً وسُجلت بالرسم بعد أن عرضت الصورة. وكانت المادة التي يقتبسها عمل الحلم تعدّل بوساطته على طريقته «التحكمية» المألوفة (أو، على الأصح، «الأوتوقراطية») تعديلاً يسخّرها لأغراض تكوين الحلم. وإن المشكلات التي تثيرها تجارب بوتسل لتعدو كثيراً نطاق تفسير الحلم كما نعالجه في هذا الكتاب. ومع هذا ينبغي علينا أن نشير بكلمة عابرة إلى مدى الفرق بين هذا المنهج الجديد في دراسة تكوين الأحلام بالتجريب وبين الطريقة القديمة الفجة التي كانت تتلخص في أن تدخل على محتوى الحلم منبهات مزعجة للنوم.

[202 ←]
يقول هاڤلوك إليس . وهو من أرقى نقاد «تفسير الأحلام» .: «وهذا هو الموضع الذي لا يستطيع الكثيرون منا أن يتابعوا فرويد بعده» (1911، 169). بيد أن هاڤلوك إليس لم يقم قط بتحليل أي حلم من الأحلام، هو لا يريد أن يصدّق كيف يكون من الجور أن يقيم المرء حكمه على محتوى الحلم الظاهر.

[203 ←]

[وهم الذين لا يظهرون شيئاً مما بهم، وبهم مع ذلك الشيء الكثير، كالماء الساكن لا تظهر حركة على سطحه وهو مع ذلك بعيد الغور].

[204 ←]
[«دكان الجزار مفتوح» تعبير دارج في ڤيينا معناه: «أزرار البنطلون مفكوكة»].

[205 ←]
أنظر ما سوف يجيء بصدد الكلام في الأحلام في الفصل الخاص بعمل الحلم [القسم و، ص 419 وما بعدها]. وليس هناك سوى كاتب واحد يبدو أنه عرف مصدر العبارات المنطوقة في الحلم، وأعني به دلبوف الذي يشبّه هذه العبارات بال.

. clichés

[206 ←]
[«نبات ذو قضبان رخصة بها لبن» . عن «أقرب الموارد»].

[207 ←]
[لاحظ الجناس. وأما كيف يؤيد هذا الجناس الإشارة الجنسية التي يراها فرويد في اسم هذا النبات فأمر غير بيّن. ويرجح ستراشي بهذه المناسبة أن فرويد ربما كان يتحدث هنا وهو يذكر لغزاً من الألغاز المصورة التي كانت ذائعة أكبر الذيوع في مجلات ذلك العصر الهزلية وبخاصة مجلة: Fliegende Blatter أو «الصحائف الطائرة». وسوف يرد ذكر هذه المجلة وذكر ألغازها المصورة في مواضع شتى من هذا الكتاب].

[208 ←]
أقول لمن أراد العلم أن هذا الحلم يخفي وراءه تخييلاً مداره أني أسلك مسلكاً منافياً للأدب، منطوياً على استفزاز جنسي، وأنها تصد هذا المسلك من جانبي. فإن بدا هذا التفسير شيئاً بعيداً عن التصديق، ذكَّرت القارىء بالحالات التي يرى فيها الأطباء أنفسهم هدفاً لاتهامات من هذا القبيل من جانب نساء هستيريات لم يظهر هذا التحليل عندهن مشوهاً في صورة حلم، بل يظهر ظهوراً شعورياً سافراً في صورة هذائية . [1909]: وقد كانت الحالمة في بدء تحليلها حين أتاها هذا الحلم، ولم أعلم إلا فيما بعد أنها إنما كانت تكرر بهذا الحلم الصدمة الأولى التي كانت منشأ عصابها. ومنذ ذلك الحين وأنا ألحظ هذا المسلك عينه من جانب أشخاص كانوا في طفولتهم ضحايا لمثل هذه المحاولات الجنسية ثم صاروا الآن كأنهم يلتمسون تكرارها في أحلامهم.

[209 ←]
وهو ما ينطوي على إبدال للضد بالضد كما سيتَّضح من تفسير الحلم.

[210 ←]
[أبيات من أغنية معروفة من أغاني الطلبة. «وشموع أبوللو» اسم لنوع من الشموع. وأما الكلمة المحذوفة فهي onaniert أي «تستمني»].

[211 ←]
[Burgermirsterium . وزارة كانت لها آراء من قبيل الآراء المتوارثة عن أحزاب الأحرار، انتُخبت بعد وضع الدستور النمسوي الجديد عام 1867].

[212 ←]
[1909]: لقد تعلّمت منذ ذلك الحين أن تحقيق الرغبات التي يظل المرء زماناً طويلاً وهو يعتقد امتناعها إنما يحتاج إلى قليل من الشجاعة. [1925]: ومنذ هذا الحين وأنا من حجّاج روما المواظبين على زيارتها. [سوف يلمح القارىء من هذه الأحلام مدى الأهمية النفسية التي كانت ترتبط في نفس فرويد بفكرة زيارة مدينة روما، وهو أمر يتضح في مواضع كثيرة من رسائله إلى فليس. هذا وقد حقق فرويد تلك الرغبة للمرة الأولى في صيف عام 1901].

[213 ←]
[يشير فرويد إلى هذه القصة في كثير من رسائله إلى فليس: رسالة 54، 111، 112، 130 مثلاً. وهو في الرسالتين الأخيرتين يستخدم روما وكارلسباد رمزاً للأهداف التي لا تُدرك].

[214 ←]
إن الكاتب الذي قرأت عنده هذه الجملة لا بد أن يكون . من غير أدنى شك . جان پول.

[215 ←]
[1909]: جاء هذا الاسم في الطبعة الأولى على تلك الصورة: هاسدروبال. وهو خطأ عجيب فسَرته في كتابي: سيكوپاثولوجية الحياة اليومية (1901ب، الفصل العاشر).

[216 ←]
[1930]: وأشير عرضاً إلى أن الأصل اليهودي لهذا القائد موضع شك.

[217 ←]
[أضيفت هذه الجملة عام 1914].

[218 ←]
[سيتحدث فرويد عن هذه العلاقة كثيراً فيما بعد].

[219 ←]

[من فعل zu hetzen ويعني عجل، وجري وراء الصيد أو طرد وعلى سبيل المجاز اضطهد، ثم هيج وأثار].

[220 ←]

[eine Hetz وهو الحفل المرح الحافل بالاستثارة الذي يترك كل مشترك فيه لنفسه العنان].

[221 ←]

[Schmutzig وهو يُستخدم للقذارة وللبخل الشديد على السواء].

[222 ←]

[Einkaufskorb = سلة التسوق. ولفظ Korb له معنيان: السلة والرفض أو الإباء. و«أعطته سلة» تعبير ألماني جار، بمعنى: دت حبه أو طلبه الزواج منها].

[223 ←]

[لا شك في أن فرويد يعني أول رواية من أدب المحدثين؛ فمن المقطوع به أنه كان قد قرأ معظم الأدب الألماني المأثور وهو بتلك السن].

[224 ←]

[Nachtraglickheit من Nachtraglich بمعنى «من بعد». والمراد هو أن الخبرة الماضية لا تحدث تأثيرها عند وقوعها، بل بعد أن تنقضي حقبة من الزمن. وتأثيرها بهذا المعنى يكون «فعلاً مرجأ» a deferred action . وتلك بالفعل هي الترجمة المطردة التي يستعملها ستراشي لهذا الاصطلاح. غير أن هذه الترجمة تغفل بعداً آخر من أبعاد هذه الفكرة: ذلك أن «من بعد» تعني أيضاً أن الخبرة لا تحدث تأثيرها إلا بعد أن يعود عليها صاحبها فينظمها تنظيماً جديداً ويخلع عليها معنًى لم يكن لها في المبدأ. ففي القصة التي يشير إليها فرويد يخلع الشاب معنًى تناسلياً على علاقة لم يكن لها سوى طابع فمي. وهذا المعنى الثاني هو من غير شك المعنى الأهم وهو الذي يجعل للفكرة أصالة يستحيل معها ردها إلى تصورات علم النفس التجريبي. ولم نجد . للإبقاء على المعنيين . خيراً من أن نقول: عامل «التأثير البعدي»].

[225 ←]

[من المعلوم أن أولى آلهات القدر . . وهي المشرفة على الولادة . كانت تمسك المغزل، وكانت الثانية تدير البكرة، وأما الثالثة فتقطع خيط الحياة].

[226 ←]

إن كلا الانفعالين اللذين صحبا هذا المشهد: الدهش والاستسلام للمحتوم . قد أتاني من قبل في حلم سبق هذا الحلم بوقت قصير وكان أول ما ذكّرني بتلك الخبرة الطفلية [هذا ولقد استشهد فرويد بتلك الكلمات في إحدى رسائله إلى فليس (الرسالة رقم 104) ناسباً إياها إلى شكسبير والنص الصحيح من شكسبير هو: «إن عليك لله ميتة» (الجزء الأول من هنري الرابع، الفصل الخامس، المشهد الأول، يقوله الأمير هال لفالستاف). ولكن «وفى دينه للطبيعة» كان تعبيراً ذائعاً في زمن جوته، يعرب عن فكرة العصر عن الموت].

[227 ←]

لقد تجنبت عامداً التوسع في صدد «پلاجيوستوم»؛ إنه يذكرني بمناسبة غير سارة جرَّبت عليّ الخزي أمام المعلم المذكور.

[228 ←]

.Pélagie–Plagiat–Plagiostomen (Haifische)–Fischblase

[229 ←]

بيتان من المشهد الرابع من الجزء الأول من فاوست: «في مكتب فاوست».

[230 ←]

[أنظر فيما يتصل ببروكه وفلايشل بعض الحقائق التي سردناها عنهما وعن صلة فرويد بهما في هامش (وضعناه في صفحة 506)].

[231 ←]

[پوپو لفظ يطلق في لغة الأطفال على المؤخر].

[232 ←]

[«فرويد» يعني في الألمانية السرور].

[233 ←]

.Der du von Gôttern abstammst, von Gothen oder vom Kote

.So seid ihr Gtterbilder auch zu Staub

[يلاحظ القارىء أن Gtter في الكلمتين المبرزتين لا تكاد تختلف في النطق من اسم الشاعر الكبير جوته، وهو ما يضيع عند الترجمة. ويقول ستراشي: إن السطر الأول قد نظمه هردر في رسالة ظريفة بعث بها إلى جوته يسأله إعارته بعض الكتب، وبقيته: أي جوته، إبعث إلي بها! وأما السطر الثاني فيلحق بالأول في ذهن فرويد على سبيل الاستدعاء الحر، وهو مستمد من مسرحية جوته المنظومة: «إيفيجينيا في توريدا»، تعرب به إيفيجينيا عن ألمها حين ينبؤها پيلاد أي عدد من الأبطال ماتوا في أثناء حصار طروادة].

[234 ←]

[carpe diem كلمة ذائعة لهوراس ترجمتها الحرفية «اغنم يومك» ولها المعنى الذي لكلمة الخيام المعروفة].

[235 ←]
[رجل من رجال الدولة النمسويين، ذو آراء رجعية، عاش بين عامي 1847 . 1916. كان يريد قيام حكومة ذات استقلال ذاتي في بوهيميا، معارضاً مطالب الوطنيين الألمانيين. ولي الوزارة عام 1898، 1899. . وأما إشل Ischl فكانت المصيف الرسمي للبلاط، بأعالي النمسا].

[236 ←]
[أي الكونت «فاعل لا شيء». Thun (تون) يعني أيضاً «فعل» Nichts يعني «لا شيء»].

[237 ←]
[Taaffe (1833 . 95) سياسي ألماني، ولي رئاسة الوزارة بين عامي 1870، 1871 ثم من 1879 إلى 1893. وكان مثل الكونت تون يحبِّذ منح الاستقلال الذاتي للأجزاء غير الألمانية من الإمبراطورية النمسوية].

[238 ←]
تكرار تسلسل وأنا أسجل الحلم دون أن يكون لذلك سبب ظاهر سوى السهو. ولكنني تركته كما هو؛ فسوف يبيّن التحليل أن له معناه.

[239 ←]
فاشاو ذلك خطأ، لكنه ليس هفوة هذه المرة! فما علمت إلا فيما بعد أن إمرسدورف الواقعة في ?اشاو هي غير البلد المسمَّى أيضاً بهذا الاسم والذي أوى إليه الزعيم الثوري فيشهوف.

[240 ←]
[بالإنجليزية في الأصل. ويقول ستراشي: إنه لا يبدو أن لتنيسون قصيدة لها هذا المطلع].

[241 ←]
[فاشاو شعبة من وادي الدانوب تبعد قرابة الخمسين ميلاً من ?بينا].

[242 ←]
[نسبةً إلى أريحا وهي أول بلد استولى عليه بنو إسرائيل بعد أن عبروا الأردن على حسب قصة ذائعة تجدها في الإصحاح السادس من سفر يشوع. ولهذا النوع من الورد خاصة عجيبة هي أنه يذوي في الجفاف ثم لا يلبث أن يُبعث إلى الحياة إذا وُجد في الرطوبة. وهو . إذن . ورد «البعث»].

[243 ←]
[الجزء الثالث من هنري السادس، الفصل الأول، المشهد الأول].

[244 ←]
.[Isabelita, no llores, que se marchitan las flores]

[245 ←]
[المظنون أنه فيكتور آدلر Adler = نسر) الزعيم الاشتراكي الديمقراطي (1852 . 1918). وانظر الإشارة التي سترد قريباً إلى هذا الاسم].

[246 ←]
[إشارة إلى مثال معروف للسيد المسيح تجده في إنجيل لوقا، الإصحاح الخامس عشر، ويضرب للمرء يركب رأسه ثم يعود إلى عشيرته مستغفراً].

[247 ←]
[ترجمة حرفية لوصف حار:

.[saugrab

[248 ←]
Salathund أي «كلب السلطة» تعبير نمسوي يقال لمن استيأس في التشبث بشيء لا عن رغبة منه فيه بل لأن غيره قد رغب فيه. ومنشأ هذا التعبير قصة لاقت ذيوعاً عظيماً للكاتبة أوجيني ش?ارتس?الد عن كلب لم يكن يعطيه صاحبه سوى الخس وكان الكلب لا يأكله إلا راغماً، إلى أن جاء يوماً كلب أدقع منه فقراً فأراد أن يزاحمه في أوراق الخس هذه، فنهض الكلب يطرد غريمه ويدافع عن خسّه دفاع المستميت].

[249 ←]
[Pissenlit في الحقيقة هو الهندب أو الخس البري. تقطيع الكلمة على النحو الوارد في النص يجعلها تحتمل هذا المعنى: بال في السرير].

[250 ←]
وهو ما لم يرد في الحقيقة في Germinal بل في La terre [الأرض] . وهي غلطة لم ألحظها إلا بعد أن فرغت من التحليل. . لاحظ الاشتراك في الحروف بين flatus Huflattich [حشيشة السعالي].

[251 ←]
[Flavit et dissipati sunt]

[252 ←]

[1925] أخذ عليَّ كاتب تطوّع بتأريخ حياتي غير مرجوٍ . هو الدكتور فريتس ?يتلز أنني حذفت اسم «يهوه» من تلك الكلمات. [1930]: وإن المداليا الإنجليزية لتحمل اسم الرب بالحروف العبرية على سحابة في الخلف، بحيث يستطيع المرء أن يراها على أنها جزء من الرسم أو من تلك الكلمات على السواء.

[253 ←]

[Aula هي الاسم الذي كان يُطلق على قاعات الاحتفالات الكبرى بالجامعة (أنظر صدر المشهد الثاني من الحلم) ومن معانيها في اللاتينية «بلاط الملك». أما «مستشار البلاط» أو «مستشار ملكي» فترجمة حرفية للكلمة الألمانية Hofrat ، وهو لقب كان يمنحه الإمبراطور لكل من امتاز بخدمة طويلة مشهودة في وظائف الحكومة أو في الحياة العامة، دون أن تعني أن لصاحبها أقل صلة بالبلاط].

[254 ←]

[ومعناه بالحرف «حجرة النساء» لفظ جارٍ يطلق في اللغة الألمانية . مع شيء من التحقير . على النساء].

[255 ←]

[من أكبر كتَّاب النمسا المسرحيين في القرن الماضي (1791 . 1872). لا تزال مسرحياته تمثَّل إلى اليوم].

[256 ←]

[لياندر فتى من أبيدوس أحبته هـ. هيرو . وكانت كاهنة ل?ينوس . أغرق نفسه في الدردنيل].

[257 ←]

191: لقد حاول سيلبرر (1910) في مقال هام أن يدلل من هذا الجزء من حلمي على أن عمل الحلم لا يملك تمثيل الأفكار الكامنة وحدها، بل كذلك العمليات النفسية التي تقع في خلال تكوينه (وهو ما يسمّيه «الظاهرة الوظيفية»). [1914]: بيد أنني أعتقد أنه يغفل بذلك تلك الحقيقة: وهي أن «العمليات النفسية التي تقع عند تكوين الحلم» إنما هي بالنسبة إليَّ مادة تشغل فكري شأنها شأن غيرها. فمن الواضح أنني أفخر في هذا الحلم المتباهي بأنني قد اكتشفت تلك العمليات.

[258 ←]

[إلاّ أن فرويد يحلل الجزء الأول منهما (ركوب العربة إلى المحطة)، فيما بعد ص 457].

[259 ←]

[من وقائع جارجانتوا الذائعة واقعة سوف يشار إليها في هذا الكتاب وهي أنه اعتلى كنيسة نوتردام بباريس وبال على أهلها «بولاً عنيفاً حتى أغرق منهم مائتين وستين ألفاً وأربعة مائة وثمانية عشر رجلاً عدا النساء والأطفال». وله ولأبنه وقائع متعددة في هذا الباب وما يعدله].

[260 ←]

[تعبير بمعنى عربيد أو قنّاص نساء].

[261 ←]

[الجملة الأخيرة قد أضيفت عام 1914].

[262 ←]

وتفسير آخر: إنه أعور مثل أودين، أبي الآلهة [في الأساطير الجرمانية]. . عزاء أودين [اسم رواية أسطورية كتبها Felix Dahn عام 1880]. . تعزيتي إياه في مشهد الطفولة بوعده بشراء سرير جديد.

[263 ←]

وها هي ذي مادة تفسيرية أخرى: إن الإمساك بالزجاجة يذكرني بقصة الفلاح الذي ذهب إلى النظاراتي فظل يجرب الزجاجة [أي العدسة] بعد الزجاجة دون أن يستطيع القراءة. . (مصيدة فلاحين [ويقال للمحتال] . مصيدة بنات، في الفقرة السابقة من الحلم). . المعاملة التي يلقاها الأب على أيدي الفلاحين بعد أن ضعف عقله في رواية زولا «الأرض» . المقاصة الفاجعة حين أخذ والدي في أواخر أيام حياته يوسّخ الفراش بدوره كالطفل، ولهذا كان أني ظهرت ممرضاً. . «كان التفكير والخبرة الفعلية شيئاً واحداً هنا». يذكرني ذلك بمسرحية أدبية ذات طابع ثوري عنيف كتبها أوسكار پانيتسا، فيها يلقى الآب . وقد تشكل في صورة رجل عجوز مشلول . شر المعاملة، و«كن» و«يكون» كانتا هنا شيئاً واحداً، فكان على ملاك من ملائكته . أشبه بجانيميد [ساقي الآلهة في الأساطير اليونانية] . أن يحول بينه وبين اللعن والسب وإلا تحققت دعواته على الفور. . وأما التفكير في خطة فلوم موجه إلى والدي يرجع إلى فترة لاحقة في نمو ملكتي النقدية. والحق أن كل =محتوى الحلم بما فيه من تمرد ومن عيب في الذات الملكية وانتقاص للسلطة العليا إنما يرجع إلى ثورة على والدي. فالأمير يُدعى أبا الشعب، والأب أقدم السلطات وأولها، وهو بالنسبة إلى الطفل السلطة المفردة، ومن هيمنته المطلقة خرجت في خلال تاريخ الحضارة سائر السلطات (اللهم إلا بالقدر الذي يقتضي به «النظام الأموي» تقييد هذه القضية). . وجملة الحلم: «كان التفكير والخبرة الفعلية شيئاً واحداً» تتصل بتفسير الأعراض الهستيرية، وبهذه أيضاً تتصل المبولة الزجاجية. فلست أحتاج إلى أن أشرح لمن كان من أهل ?بينا ما هو المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه اللعبة المسماة Gschnas : إنها تتلخص في أن تركّب من مواد تافهة أو . وهو أفضل . مضحكة، معدومة القيمة موضوعات تبدو نادرة غالية، كأن تصنع درعاً من أوعية المطبخ والقش وأرغفة الخبز المكورة وغيرها . وهي تسلية يشغف بها فنانونا في سهراتهم البوهيمية. ولقد لاحظت أن الهستيريين يجرون على تلك الوتيرة: فهم إلى جانب ما يقع لهم حقيقة يهيئون لأنفسهم . لاشعورياً . أحداثاً مُتخيلة، مروعة أو منحرفة، يركبونها من أقل خبراتهم ضرراً أو أكثرها ألفة. وأعراضهم ترتبط في المرتبة الأولى بهذه التخييلات وليس بذكريات الأحداث الحقيقية، سواء أكانت هذه أحداثاً جدية أم كانت أحداثاً خالية من الشأن. ولقد أعانني هذا الكشف على كثير من الصعوبات، وجلب لي سروراً لا يعدله سرور . وأما الذي مكنني من الإلماع إلى هذا كله بوساطة هذا العنصر من الحلم، «مبولة الرجال الزجاجية»، فهو ما سمعته عن ليلة «الكشناس» الأخيرة من أن كأساً سامية من كؤوس لوكريس بورجيا قد عرضت فيها، وكان هيكلها وأهم أجزائها مكوناً من مبولة زجاجية للرجال ، من قبل ما يستعمل في المستشفيات.

[264 ←]

إن تراكم معاني الحلم بعضها فوق بعض طبقات مشكلة من أدق مشكلات تفسير الحلم وإن تكن كذلك من أمتعها. وكل من نسي هذه الإمكانية سهل عليه أن يضل الصواب وأن ينقاد إلى قضايا لا =يمكن الأخذ بها في ماهية الحلم. ومع هذا فالأبحاث الموضوعة في هذا الباب لا تزال قليلة غاية القلة. فما نجد حتى الساعة من دراسة عميقة سوى تلك التي خصصها أوتو رانك (1914أ) للتراكم الرمزي المنتظم إلى حد كبير في الأحلام الناشئة عن منبّه بولي.

[265 ←]
لقد أخرج مورلي فولد مجلدين يحتويان على وصف دقيق مفصّل لطائفة من الأحلام أحدثها بالتجريب، مجلدين أشير على كل قارىء بدراستهما؛ حتى يقتنع بضآلة الضوء الذي تلقيه الشروط التجريبية الموصوفة في هذين المجلدين على محتوى الأحلام الجزئية، ثم بقلة غناء أمثال هذه التجارب عامة في فهم مشاكل الحلم.

[266 ←]
أنظر مقالة لانداور عن السلوك في أثناء النوم (1918). وإن في استطاعة كل منا أن يلاحظ أناساً نائمين وهم يقومون بأفعال ذات دلالة واضحة. فالإنسان لا يرتد عند النوم إلى البله المطلق، إنه . على العكس . يظل قادراً على الإتيان بأفعال منطقية متعمدة.

[267 ←]
أنظر الفقرة الواردة عند جرايزنجر [والمشار إليها في ص 136]، وكذلك الملاحظات الواردة في مقالتي الثانية عن الأعصبة النفسية الدفاعية (فرويد، 1896ب).

[268 ←]
[تعبير يقال كناية عن الاستعلاء والمباهاة].

[269 ←]
[بين خطابات فرويد إلى فليس (فرويد، 1950أ) خطاب يتحدث فيه عن «المبدأ المعروف، مبدأ إيتسيج فارس الأحد: إيتسيج، إلام أنت راكب؟ لا تسألني، اسأل الحصان!»].

[270 ←]
[أي يفعل الأعاجيب].

[271 ←]
إن المرجعين اللذين عرفت منهما هذا الحلم لا يتفقان في روايته.

[272 ←]
[يعود فرويد إلى معالجة هذا الموضوع في القسم ج من الفصل السابع، ص 547 وما بعدها].

[273 ←]
لقد بيّن رانك في مقالات متعددة أن الأحلام الجالبة لليقظة والتي تحدث عن منبهات عضوية (مثل الأحلام ذات المنبه البولي وأحلام الإنزال) تصلح صلاحية خاصة للبرهنة على الصراع بين الحاجة إلى النوم ومطالب الحاجات العضوية، وكذلك على تأثير تلك الحاجات في محتوى الحلم.

[274 ←]
إن القول بأن منهجنا في تفسير الأحلام لا يمكن تطبيقه إلا إذا وقفنا على المادة الاستدعائية عند الحالم يقتضي تكملته بالنص على أن نشاطنا التفسيري يصبح مستقلاً عند هذه المستدعيات في حالة واحدة: إذا استخدم الحالم عناصر رمزية في محتوى الحلم. فعندئذ يتسنى لنا أن نلتجىء إلى منهج في تفسير الحلم يمكن وصفه وصفاً دقيقاً بأنه منهج ثانوي مساعد. (أنظر ما يلي [القسم هـ من الفصل السابع]).

[275 ←]
[يشير فرويد هنا إلى عملية «المراجعة الثانوية» التي يشرحها في القسم ط من الفصل السادس].

[276 ←]
وقصة أندرسون يظهر فيها طفل كذلك؛ فالطفل هو الذي يصيح: ولكنه عار!

[277 ←]
[الطرد، هو طرد آدم وحواء من الجنة على حسب قصة التوراة المعروفة في سفر التكوين، وقد رواها القرآن رواية مقتضبة أطولها ما جاء منها في سورة البقرة. والهول بمعنى الهيلة].

[278 ←]
لقد سجّل فرنتسي طائفة جديرة بالاهتمام من أحلام العري حلمت بها نساء. ولم تكن هناك صعوبة في تأثر هذه الأحلام إلى الرغبة الطفلية في الاستعراض، إلا أنها كانت تختلف في بعض نواحيها من الأحلام «النمطية» التي أعالجها في النص.

[279 ←]
وممّا له هذا المعنى أيضاً حضور «العائلة مجتمعة» وذلك لأسباب لا تخفى على الفهم.

[280 ←]
وها هو ذا تفسير آخر: لما كان Spucken [البصق ويعني أيضاً الولاية أو التسلُّط حين يقالان للأرواح] من مهام الأرواح، فإن Spucken [يمعنى البصق] على السلّم، يذهب

بالذهن . من طريق ترجمة واهية . إلى: Esprit d'escalier [تعبير فرنسي ترجمته الحرفية: «روح السلَّم»، ويعني بطء البديهة عند الرد، من كونك لا يسعفك الجواب ثم تجده «وأنت نازل على السلم»]. =وهذا التعبير يعدل ضدَّه في الألمانية قولنا: Schlagfertigkeit [ومعناه الحرفي: التأهب للضرب] وهو استعداد لا أرى إلا أنه ينقصني. ولكن أتراه كان ينقص مربيتي؟ [يشير فرويد إلى هذه المربية في نهاية الفصل السابع من كتاب «سيكوباثولوجية الحياة اليومية» ويتحدث عنها بمزيد من التفصيل في خطابين إلى فليس: 70، 71 (فرويد، 1950أ)].

[281 ←]
أنظر «تحليل مخافة شاذة عند طفل في الخامسة» (فرويد، 1909ب). وكذلك مقالتي في «بعض النظريات الجنسية عند الأطفال» (1908ج).

[282 ←]
وهانس البالغ من العمر ثلاث سنوات ونصف السنة والذي كانت مخافته الشاذة موضوع التحليل المشار إليه في الهامش السابق . قد صاح وهو محموم حين وُلدت أخته: ولكنني لا أريد أختاً صغيرة. ثم هو قد أعرب صراحة في أثناء عصابه . بعد ذلك بثمانية عشر شهراً . عن رغبته في أن تلقي أمه الطفلة في حجرة الاستحمام حتى تموت. ومع هذا كان هانس ولداً حسن الطبع، عطوفاً، سرعان ما شغف بأخته الصغرى وشغف على الأخص بحمايتها.

[283 ←]
إن حالات الموت التي يعاصرها الطفل على هذا النحو أمر قد تسارع العائلة إلى نسيانه ولكن البحث التحليلي النفسي يرينا أن لها أهمية قصوى في العصاب الذي يجيء من بعد.

[284 ←]
إن ملاحظات لا يحصرها العد عن عداوة الأطفال في المبدأ نحو إخوتهم وأحد والديهم قد لوحظت وسُجلت في المؤلفات التحليلية منذ أن خطت هذه السطور. ولكن الشاعر [السويسري] شبيتلر قد صور لنا هذا المسلك الطفلي النمطي تصويراً فريداً في صدقه وسذاجته استمده من طفولته: «وكان هناك عدا ذلك . أدولف ثان: مخلوق صغير زعموا أنه أخي وإن كنت لا أفهم كثيراً وجه النفع منه، وأفهم أقل لم يحفلون له مثلما يحفلون لي أنا. لقد كانت نفسي تكفيني، فما حاجتي لأخ؟ وليته كان عديم النفع وحسب! بل هو يزيد أحياناً فيصير عقبة: فإذا عاكست جدتي أراد أن يعاكسها مثلي، وإن خرجت للنزهة جلس قبالتي، فلا يكون مناص من أن نتضارب بأقدامنا».

[285 ←]
وهذه الكلمات عينها قد استعارها أيضاً هانس الصغير وهو في الثالثة والنصف من عمره في نقده الجارف لأخته الصغيرة (ذات المرجع). وكان يقدِّر أن عجزها عن الكلام راجع إلى افتقارها إلى الأسنان.

[286 ←]
[صانعة الملائكة تعبير يقال للقابلة التي تزاول عمليات الإجهاض . من كونها تقتل الأولاد لما يولدوا فيصيرون ملائكة].

[287 ←]
لقد أدهشني أن أسمع ولداً في العاشرة عالي الذكاء وهو يقول على أثر وفاة والده وفاة مفاجئة: «إني أفهم أن يكون والدي ميتاً، ولكني لا أرى لم لا يحضر إلى المنزل للعشاء». ويجد القارىء مادة أخرى تتصل بهذا الموضوع في الباب الذي تشرف على تحريره الدكتورة هـ.. فون هوج . هلموت تحت عنوان «نفس الطفل» بمجلة Imago ، المجلدات 1 . 5، 1912 . 1918.

[288 ←]
أتى أحد الآباء ممن لهم إلمام بالتحليل النفسي ملاحظة أرته اللحظة التي أدركت فيها ابنة له في الرابعة على نمو عقلي كبير ما هو الفرق بين «الموت» و«البعد». ذلك أنها سلكت على المائدة سلوكاً مزعجاً بعض الشيء وأحست أن إحدى الخادمات تنظر إليها في غير استحسان فأعربت لوالدها عن شعورها قائلة: «أود لو ماتت جوزفين!» فسألها والدها مهدئاً: «ولمَ الموت؟ ألا يكفي أن تبعد؟» فأجابت الطفلة: «كلا، وإلا عادت ثانية». إن محبة الذات المطلقة عند الأطفال (النرجسية) تجعلهم يرون في كل تدخل جريمة مساس بالذات الملكية، ومشاعرهم . مثل قوانين دراكون . لا تعرف لكل جريمة من هذا القبيل إلا تلك الصورة من العقاب التي لا تحتمل وسطاً.

[289 ←]
1925: إن الغموض كثيراً ما يشمل هذا الموقف لظهور دافع عقابي يهدد الحالم بموت من يحب من الوالدين على سبيل الجزاء الخلقي.

[290 ←]
[«أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إل~هك». (خروج، 20)].

[291 ←]
أو ذلك ما ورد في بعض الأساطير. وفي روايات أخرى أن الإخصاء إنما أوقعه كرونوس على أبيه أورانوس. ولمعرفة المغزى الأسطوري الذي لهذه المسألة اقرأ رانك، 1909، وكذلك رانك 1912ج، الفصل التاسع، القسم الثاني.

[292 ←]
[potestas patris familialis ، الإشارة هنا إلى نظام العائلة الرومانية وسلطة الأب فيها].

[293 ←]
[هناك جناس شديد بين اسمي هذين الحيوانين في الأصل: Luchs Fuchs].

[294 ←]
[لغز أبي الهول في أشهر صيغه هو الآتي: من ذا الذي إذا طلع النهار سار على أربع، فإن انتصف فعلى اثنتين، فإن ضرب إلى المغيب فعلى ثلاث؟ والجواب هو: الإنسان . الذي

يستند إلى العصا في شيخوخته].

[295 ←]

[سطر 1524 وما بعده].

[296 ←]

ليس بين مكتشفات التحليل النفسي ما لقي من النقاض الممرور ومن المدافعة المستميتة . ومن الحذلقة النقدية الطريفة كذلك . ما لقيته هذه الإشارة إلى النزوع الطفلي الذي يظل متبقياً في اللاشعور إلى الزنا بالمحارم بل لقد حاول البعض أخيراً . رغم كل ما تظهره التجربة . ألا يتركوا للزنا بالمحارم غير قيمة «رمزية» . هذا وقد أتى فرنتسي (1912) بتفسير إضافي بارع لأسطورة أوديب اعتمد فيه على فقرة من خطاب لشوبنهاور . كما ظهر من مواصلة البحث أن ل. «مركَّب أوديب» الذي أشير إليه للمرة الأولى في هذه الفقرات من «تفسير الأحلام» أهمية لم نكن نحلم بها في فهم التاريخ الإنساني وتطور الدين والأخلاق. (أنظر: الطوطم والتابو، 1913).

[297 ←]

[«يلهلم مايشتر»، سنوات التعلم، الكتاب الرابع، الفصل 13].

[298 ←]

[1919]: هذه الإشارات إلى فهم تحليلي نفسي لهاملت قد أنماها إرنست جونز بعد ذلك ودافع عنها. (أنظر جونز 1910أ). [1930]: هذا ولقد انتهيت في هذه الأثناء إلى شك مطلق في صحة المسلَّمة المتضمنة في هذا الكلام، وهي أن يكون مؤلف أعمال شكسبير هو الرجل المولود في ستراتفورد. [1919]: ويجد القارىء محاولات أخرى في تفسير ماكبث في مقالي (1916ج) وكذلك في مقال آخر بقلم يكلز (1917).

[299 ←]

إن ما يظهر في الحلم من ضخامة الأشياء وكثرة مقاديرها ومن المبالغة بوجه عام أمر يمكن اعتباره خاصة أخرى من الخصائص الطفلية. فليس بين رغبات الطفل ما هو أشد من رغبته في أن يصير كبيراً وفي أن يحوز من كل شيء مقدار ما يحوزه الأكبرون. والطفل صعب الإرضاء، لا يعرف القناعة ولا يشبع من الإلحاح في تكرار تلك الأشياء التي سرَّ بها أو أعجبه مذاقها. والتربية وحدها هي التي تعلِّمه الاعتدال والقناعة والنزول عن رغباته. ومن المعروف أن العصابيين كذلك ينزعون إلى الإغراب ومجانبة الاعتدال.

[300 ←]

[الواقع أنها معرفة صحيحة؛ فبازدوف رجل من كبار رجال التربية في القرن الثامن عشر].

[301 ←]

[هامش وُضع عام 1911]: كان إرنست جونز يلقي في جمعية أمريكية محاضرة علمية عن أنانية الحلم حين نهضت سيدة مثقفة تعترض على هذا التعميم غير العلمي قائلة: إن مؤلف هذا الكتاب لا يستطيع إلا أن يحكم على أحلام النمسويين، وليس له أن يتحدث عن أحلام الأمريكيين. وهي واثقة فيما يتعلق بها من أن جميع أحلامها أحلام غيرية خالصة.

[1925]: ويجمل بنا أن نضيف على سبيل المعذرة لهذه السيدة الوطنية أن من الواجب علينا ألا نخطىء فهم القضية القائلة بأن الأحلام أنانية على الإطلاق . لأنه إذا كان كل ما يطرأ على التفكير القبشعوري ممكن الورود في الحلم (سواء في محتواه الظاهر أم بين أفكاره الكامنة)، فإن هذه الإمكانية تظل قائمة كذلك بالنسبة إلى الدوافع الغيرية. وعلى هذا النحو عينه يستطيع دافع من العطف أو العشق تجاه شخص آخر أن يظهر في الحلم إذا كان قائماً في اللاشعور . وعلى هذا ينحصر صدق القضية الموردة في النص في كوننا نجد في أحيان كثيرة جداً بين الحوافز اللاشعورية إلى الحلم نوازع أنانية يلوح في حياة اليقظة أننا قد تغلبنا عليها.

[302 ←]

[يلحظ القارىء ههنا المفاجأة في الانتقال من أحلام موت الأحباء إلى أنواع أخرى من الأحلام النمطية . وهو ماجعل ستراشي يضيف في هذا الموضع عنواناً جديداً].

[303 ←]

[1925]: لقد أرانا البحث التحليلي أن هناك عاملاً آخر . عدا اللذة المحسة في الأعضاء ذاتها . يدفع إلى ولع الأطفال بالحركات البهلوانية وإلى استعادتهم إياها في النوبات الهستيرية، هذا العامل الآخر هو صورة ذكروية (يكثر أن تكون صورة لاشعورية) عن جماع لوحظ (بين الإنسان أو الحيوان).

[304 ←]

تحدَّث إليّ في هذا الصدد زميل شاب خلا من كل أثر من الاضطراب العصبي فقال: «أعلم من خبرتي الشخصية أنني وأنا طفل كنت أستشعر إحساساً معيناً في أعضائي التناسلية عندما آخذ في التأرجح، وحين تبلغ الحركة الهابطة حدها الأدنى. وإني وإن كنت لا أستطيع أن أقول: إنني كنت أسر بهذا الإحساس، إلا أنني لا أجد بداً من وصفه بأنه كان إحساساً لذيذاً» . وكثيراً ما سمعت من المرضى أن أولى انتصاباتهم المصحوبة باللذة والتي يستطيعون تذكرها قد أتتهم في صباهم وهم يتسلقون . كما أنه يثبت من التحليل النفسي ثبوتاً لا يتطرق إليه الشك أن الدفعات الجنسية الأولى كثيراً ما تتأصل جذورها في ألعاب المناوشة والمصارعة التي تقع في سني الطفولة.

[305 ←]

[! مطلع صلاة منثورة لا ترددها الكنيسة إلا يوم يموت أبناؤها. وهي تصف ساعة البعث للامتحان الأخير: «... الطبيعة والموت سوف يروعان يوم يقف dies irae, dies illa الإنسان ليواجه القاضي الأعلى» . وإن انتهت بالإعراب عن الأمل في حسن وساطة المسيح].

[306 ←]

]"البكالوريا" في الالمانية Matura=، وهو من اللاتينية بمعنى "النضج" أو "البلوغ".

[307 ←]

إن وقوع التكثيف في الأحلام ظاهرة أشار إليها مؤلفون كثيرون من قبل. فنحن نجد عند دوبرل (1885، 85) فقرة يقول فيها: إن من الأمور المستيقنة استيقاناً مطلقاً أن هناك عملية تكثيف تصيب طوائف الأفكار في الحلم.

[308 ←]

[لم يرد ذكر إيطاليا في المستدعيات التي أوردها فرويد في صدد هذا الحلم، وأغلب الظن أنه يشير هنا إلى مستدعيات لم يذكرها].

[309 ←]
[فاوست، الجزء الأول، المشهد الرابع «في مكتب فاوست»، سطر 1924 وما بعده].

[310 ←]
إنَّ ما كتبته في القسم الخاص بالرمزية من هذا الكتاب عن معنى أحلام الصعود يلقي الضوء على تصوير الكاتب. [القسم هـ من هذا الفصل].

[311 ←]
[فاوست، الجزء الأول، المشهد 21].

[312 ←]
لقد ثبت أن الموقف المتَّصل بمرضع الحالم إنما كان وليد التخييل، أثبتته تلك الواقعة الموضوعية: وهي أن مرضع الحالم كانت في هذه الحالة أم الحالم نفسه. وأذكر هنا بحكاية الشاب الذي أسف على أنه لم يستغل موقفه من مرضعه استغلالاً أحسن (ص 246)، فلا شك في أن حلمنا هذا يصدر عن أسف من هذا القبيل.

[313 ←]
[Maikâfer ، نوع من الخنفس، ترجمته الصحيحة هي الجعل أو الخنفس الأوروبي. ولكننا آثرنا التزام الترجمة الحرفية في هذا الموضع تسهيلاً لمتابعة المستدعيات].

[314 ←]
ذلك كان الباعث الحقيقي على الحلم.

[315 ←]
ونذكر على سبيل التكملة: هذه الكتب سم للفتيات. والحالمة أيضاً قد انغمست في هذه الكتب وهي فتاة.

[316 ←]
[لقب هندي دخل اللغة الفرنسية، أطلقه ألفونس دوديه على أحد أشخاص رواية له معروفة بهذا الاسم: Le Nabab . وقد جاء في هذه الرواية أن الدوق دي مورا كانت له في شيخوخته علاقة غرامية مستترة وأن طبيبه الإرلندي الدكتور جنكنز كان يعطيه حبوباً مسماة «لآلىء جنكنز» بقصد تقوية الباه، ثم عرف الطبيب أن معشوقة الدوق هي المرأة التي يحبها هو، فجن جنونه ودسّ السم للدوق في هذه الحبوب].

[317 ←]
[من سارا سترو إلى ياميني في ختام الفصل الأول من «الناي الساحر» لموزار].

[318 ←]
[في المشهد الثاني من الفصل الرابع من مسرحية von Kleist المعنونة: Katche von Heilbronn] واتجه خاطر الحالمة بعد ذلك إلى Penthesilea للشاعر عينه، وإلى فكرة القسوة على العاشق.

[319 ←]
[أي هياماً شديداً].

[320 ←]
[في الفصل الثالث حين يروي تانهويزر ل؟ولفرام كيف ذهب إلى روما ليسأل الغفران لأنه . وهو الفارس المسيحي . كان قد شاطر ؟ينوس الآلهة الوثنية الملذات، وكيف أجابه البابا أنه وقد شارك في هذه اللذة الخبيثة فلن يكون له غفران. والبيت هنا يرد محرَّفاً عن الأصل تحريفاً خفيفاً].

[321 ←]
[ويقال بالعربية: الذباب الهندي].

[322 ←]
[يهو للاحتفالات في ميونيخ على غرار بهو الآكروبول في أثينا].

[323 ←]
[وهنا يتوقع القارىء بالطبع أن تكون الأمثلة على ذلك غير قابلة للترجمة، كما سيرى].

[324 ←]
[«نورا» في «بيت الدمية» و«إكدال» في «البطة البرية»].

[325 ←]

[326 ←]
إننا نستخدم في اليقظة هذه الطريقة في تحليل المقاطع وتركيبها (وهي كيمياء مقطعية بمعنى الكلمة)، وذلك في تكوين عدد كبير من النكات. وهاك مثالاً على ذلك: «كيف تحصل

على الفضة بأرخص طريقة؟ تذهب في طريق اصطفَّت على جانبيه Silberpappeln [أي أشجار الحور، ولكن الكلمة الألمانية قد ركِّبت من لفظين الأول معناه الفضة والثاني له معنيان: الحور والحفيف] ثم تأمر بالصمت، فينقطع الحفيف وتبقى الفضة». ولقد اعترض على أول قارىء قرأ كتابي ونقده [المقصود هنا هو ?يلهلم فليس، أنظر الخطاب 118 في فرويد، 1950أ] اعتراضاً أرجِّح أن القراء اللاحقين سوف يرددونه، وهو «أن الحلم يبدو بارع النكتة في كثير من الأحايين». وهذا القول صحيح ما دام المقصود هو الحالم، ولا يصبح نقداً إلا إذا مدَّ إلى مفسر الحلم. وما أظن أن «نكات» من المحمولات التي أملك كبير حق في الاتصاف بها في حياة اليقظة، فإذا كانت أحلامي تبدو «نكاتة» فالسر في ذلك لا يعود إلى شخصي بل إلى الشروط السيكولوجية الخاصة التي يخضع لها تكوين الحلم . وهو أمر يتصل أوثق اتصال بنظرية النكتة والمضحك. فالحلم إنما يصير نكاتاً لأن الطريق المباشر والأسهل إلى الإعراب عن أفكاره قد سدّ في وجهه، أي أنه مكره على أن يكون كذلك. =وفي وسع القارىء أن يقتنع بأن أحلام مرضاي تحوي مثل ما تحويه أحلامي من النكات، بل تزيد عليها. ومع هذا فقد دعاني هذا الاعتراض إلى المقارنة بين طرائق النكتة وعمل الحلم، مقارنة يجد القارىء حاصلها في كتاب نشرته عن النكتة وعلاقتها باللاشعور (1905ج).

[327 ←]
[الحرف V يُنطق في الألمانية فاء].

[328 ←]
[وُلد فرديناند لاسال مؤسس الحركة الاشتراكية الديمقراطية في ألمانيا بمدينة برسلاو عام 1825 ومات عام 1864. وولد إدوارد لاسكر (1829 . 1884) في باروتشين على مقربة من برسلاو، وكان أحد مؤسسي حزب الوطنيين الأحرار في ألمانيا. وكلاهما كان من أصل يهودي].

[329 ←]
مات لاسكر من شلل تدريجي، اي من جراء عدوى نقلتها اليه إمرأة (السفلس)، واما لاسال فقدمات، كما تعلم، في مبارزة من اجل امراة.

[330 ←]
[أي أن الكلمة المخترعة في هذا الحلم erzefilisch قد تضمنت تكثيفاً حاذقاً، فهي قد ركِّبت من الكلمات الآتية: (1) erzieherisch (تربوي) + (2) Erzieherin (مربية) + (3) Erzahlung (محادثة) + (4) Syphilis . وهي أهم الكلمات الداخلة في تكوين الجملة المتضمنة في أفكار الحلم].

[331 ←]
1909: لقد وجدت منذ زمن غير بعيد الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة، وكان ذلك في حالة شاب كان يشكو أفكاراً قهرية مع احتفاظه بكل وظائفه العقلية . وكانت بعد على نمو كبير . كاملة غير منقوصة: لم تكن الأقوال التي ترد في أحلام هذا الشاب أقوالاً سمعها أو قالها، بل كانت توافق النص غير المحرَّف لأفكاره القهرية التي لم تكن تستطيع أن تنفذ إلى شعوره في اليقظة إلا في صورة محرفة. [الشاب المعني هنا هو الذي عرفت حالته بين الحالات الخمس التي نشرها فرويد باسم «الرجل الفأر» (فرويد، 1909د)].

[332 ←]
علينا أن نفرّق بالطبع بين الشدة النفسية أو القيمة أو درجة الأهمية التي لفكرة من الأفكار، وبين الشدة الحسية، أي شدة الصورة الماثلة أمامنا.

[333 ←]
[Is fecit, cui profuit].

[334 ←]
إنني أستطيع القول بأن رد تشويه الحلم إلى الرقابة هو جوهر نظريتي عن الأحلام، ولهذا أورد هنا الجزء الأخير من قصة بعنوان «الحلم على غرار اليقظة» من كتاب «أحلام واقعي» تأليف لينكويس (?بينا، الطبعة الثانية، 1900) . وهو كتاب التقيت فيه بهذه السمة الرئيسة التي تتميز بها نظريتي. [أنظر الملحق المكتوب بتاريخ 1909 بآخر الفصل الأول]:

«حول رجل له تلك الخاصة العجيبة، وهي أنه لا يحلم أبداً أحلاماً تنافي المعقول...».

«إن تلك الموهبة الماجدة التي خصصت بها: أن تحلم كما لو كنت مستيقظاً . هي ثمرة فضائلك وطيبتك وإنصافك ومحبتك للحقيقة. والصفاء الخلقي الذي في طبيعتك هو الذي يجعلني أفهم كل ما اتصل بك».

«فأجاب الآخر: ولكنني . حين أمعن النظر، أعتقد أن جميع الناس قد خلقوا على هذا الغرار، =وأنه ما من أحد تخلو أحلامه أبداً من المعنى! فكل حلم يتذكره المرء تذكراً متميزاً بحيث يستطيع روايته من بعد، أي كل حلم لم تلده الحمى، هو دائماً حلم ذو معنى، ومحال أن تكون الأشياء على خلاف ذلك! فما يفرّق بينه التناقض لا يمكن أن يجتمع في كلٍ واحد. فأما أن الزمان والمكان كثيراً ما يختلطان فذلك ما لا ينال من محتوى الحلم الحقيقي في شيء؛ فكلاهما . ولا شك . عديم الخطر فيما يتعلق بجوهر الحلم. ثم نحن كثيراً ما نفعل مثل ذلك في اليقظة ذاتها: أنظر إلى القصص وإلى تآليف الخيال المليئة بالجرأة الزاخرة بالحكمة والتي لا يستطيع أن يقول عنها: ذلك هراء لأنه مستحيل، إلا رجل لا عقل له!».

«فقال الصديق: لو قد استطاع المرء فقط أن يفسر الأحلام دائماً تفسيراً صحيحاً مثلما فعلت بحلمي!».

«تلك على التأكيد ليست بالمهمة السهلة. ولكن لا مرية في أن النجاح فيها ميسور بقليل من الانتباه من جانب الحالم. إنك تسألني: ولِمَ الفشل في معظم الأحايين؟ ذلك أنكم تبدون دائماً يا معشر البشر كأنما كان ثمة شيء خبيث في أحلامكم، شيء غير عف بمعنى أخص وأعمق، خاصة مستسرة ركبت في طبيعتكم ويصعب عليكم تأملها، ولهذا غلب أن تجيء أحلامكم مجردة من المعقولية، إن لم تناقضها. بيد أنها تخالف ذلك تمام المخالفة في حقيقتها العميقة، لا بل ذلك في الحق ما لا يمكن أن يكون؛ لأن الإنسان يظل دائماً هو هو سواء أفي الحلم أم في اليقظة».

[335 ←]
لقد نشرت منذ ذلك الحين في «طرف من تحليل حالة هستيريا» (فرويد، 1905هـ) تحليلاً وتركيباً كاملين لحلمين. ومن الواجب أن نشير هنا إلى التحليل الذي نشره أوتو رانك بعنوان: «حلم يفسر نفسه بنفسه» [رانك، 1910] باعتباره أتم تفسير نعرفه لحلم ذي طول يعتد به.

[336 ←]
[أن يكون الذنب ذنب أوتو بمحقنته المتسخة].

[337 ←]
[سر Segreto = في الإيطالية. ويذكر فرويد هذا الحلم مع مزيد من التفصيل في خطاب إلى فليس . وهو الصديق المشار إليه بتاريخ 28 أبريل 1798. أنظر الخطاب 60 في فرويد، 1950أ].

[338 ←]
[الطهريون لفظ أُطلق على طائفة بروتستانية تتمسك بحرف الكتب المقدسة تمسكاً شديداً، ثم صار يُطلق بوجه عام على المتزمتين].

[339 ←]
لقد أدهشني أن أعلم من مؤلَّف كتبه ك. آبل «تضاد المعنى في الكلمات القديمة» (1884) (وانظر تعليقي عليه، 1910هـ.) . أدهشني أن أعلم تلك الواقعة التي أيَّدها لغويون آخرون: أن أعظم اللغات قدماً تسلك في هذا الصدد مسلكاً يشبه مسلك الحلم تمام الشبه. فهذه اللغات تملك في مبدأ الأمر كلمة واحدة تعرب بها عن طرفين متضادين تتدرج بينهما سلسلة من الكيفيات أو الأفعال (مثل: قوي . ضعيف، عجوز . حدث، بعيد . قريب، يربط . يحل)، ولا تصل إلى حدود متمايزة للأضداد إلا فيما بعد، بإحداث تغيير طفيف في الأصل المشترك. ويبرهن آبل على هذه الخاصة استناداً إلى اللغة المصرية القديمة بنوع خاص. ولكننا نستطيع أن نتبين آثاراً واضحة لهذا التطور عينه في اللغات السامية والإندوجرمانية.

[340 ←]
[عيد يقع في الخميس الثاني بعد عيد العنصرة وفيه يخرج المسيحيون في موكب من كنيستهم ثم يطوفون بشوارع البلدة ويعود الموكب إلى الكنيسة].

[341 ←]
Der Mullerin Verrath]

أو «خيانة الطحانة» قصة منظومة لجوته، جاء فيها أن رجلاً قضى ليلة غرام . أو ما ظنه كذلك . مع طحانة جميلة، فلما أصبح الصباح باغته أهلها بتدبير منها لكي يسألوه الحساب عن «أزهار العذراء»].

[342 ←]
نظر ملاحظة أرسطو في المواهب التي تلزم من يفسر الأحلام [أنظر ما سبق ص 127هـ. 2].

[343 ←]
[فكأن هؤلاء الأشخاص قد عينوا بالشخص الظاهر في الحلم، أي أخذوا صورته وجعلوا إياه وعرفوا به. ويلاحظ ستراشي بحق أن التعيين هنا غير التعيين الذي تحدث عنه فرويد من قبل في ص 192. فالتعيين هنا عملية من العمليات التي يجريها المرء على شخصين . أو على شيئين أحياناً . أو أكثر. بينما التعيين هناك هو العملية أو العلاقة التي بها وفيها يتكوَّن الأنا. فالفرق بين المعنيين على اشتراك اللفظ قد لا يعدله . إذا جاز لنا اللجوء إلى مماثلة مستمدة من مجال الفلسفة . سوى الفرق بين «الفكر» في الكوجيتو الديكارتي و«الفكر» بمعنى هذه العملية الفكرية أو تلك، كما يكون في حل مسألة حساب أو شطرنج أو غيره. وربما كان في قولنا هناك: «التعيين الذاتي» . بينما نكتفي هنا بأن نقول: «التعيين» وحسب . ما يشير إلى هذا الفارق أو ينبِّه إليه].

[344 ←]
Determinativum.]. ترجمناه بالمخصصات نقلاً عن الدكتور عبد المحسن بكير في كتابه «اللغة المصرية القديمة في عصرها الذهبي»[ ) .

[345 ←]
أنظر هامش 2 في ص 308.

[346 ←]
حينما أشك في الشخص الذي ينبغي عليَّ أن أبحث عن أناي وراءه بين الأشخاص الظاهرين في الحلم، أتَّبع القاعدة الآتية: الشخص الذي تعرض له في الحلم حالة وجدانية أستشعرها أنا نفسي وأنا نائم . هذا الشخص هو الذي يخفي أناي.

[347 ←]
[لا يغيب عن القارىء أن ضمير المتكلم يظهر في العبارة الألمانية في صورة لفظية مستقلة: Ich . فمن المعلوم أن اللغة الألمانية شأن الكثير من اللغات الأوروبية الحديثة «تجوهر» الضمير في صورة لفظية قائمة بذاتها، بينما هو لا يدل عليه في لغتنا العربية وفي كثير من اللغات الأخرى إلا بتصريف الفعل].

[348 ←]
Kehrseite] ويعني الظهر والوجه المقلوب للشيء].

[349 ←]
إن النوبات الهستيرية تستخدم أحياناً هذه الطريقة عينها . طريقة قلب الترتيب الزمني . لكي تخفي معناها عن المشاهد. مثال ذلك فتاة هستيرية كانت نوبتها تصور مغامرة غرامية قصيرة تخيلتها في لاشعورها بعد أن التقت برجل ما في سكة حديد الضواحي: كيف يجتذب جمال قدمها الرجل فيبادئها بالحديث بينما كانت تقرأ، وكيف تصحبه هي على أثر ذلك ثم تحيا معه مشهداً غرامياً عاصفاً. كانت نوبتها تبدأ بتصوير هذا المشهد الغرامي بوساطة تشنجاتها الجسمية (وكانت في خلالها تحرك شفتيها تصويراً للقبل، وتبسط ذراعيها تصويراً للعناق)، ثم بعد ذلك تندفع إلى الغرفة المجاورة وتجلس على مقعد وترفع رداءها حتى يظهر قدمها بينما تتصنع قراءة كتاب، ثم بعد ذلك تتحدث إليَّ (أي تجيبني). وبهذه المناسبة أنظر ملاحظة آرتميدوروس: «على المرء حين يفسِّر الأحلام، أن يستعرضها من البداية إلى النهاية، ثم مرة أخرى من النهاية إلى البداية...».

[350 ←]
[1930]: ولست أدري اليوم أمُصيب أنا أم مخطىء.

[351 ←]
أعراض هستيرية مصاحبة عند هذه المريضة: انقطاع الطمث ثم انقباض شديد كان هو شكاتها الرئيسة.

[352 ←]
تضمَّن التحليل الكامل للحلم إشارة إلى خبرة من خبرات الطفولة جاءت من ذلك الطريق: «لقد أدَى المغربي واجبه، ففي استطاعة المغربي أن يمشي لشأنه». [ينبه ستراشي إلى أن هذا السطر . وهو لشيللر . قد ذكر هنا محرفاً؛ فقد جاء في الأصل «أدى عمله» لا واجبه]. ثم يتبع هذا السؤال المازح: كم كان عمر المغربي حين أدى واجبه؟ سنة واحدة ما دام كان يستطيع المشي. (ويبدو أنني قد ظهرت إلى الدنيا بشعر أسود كث حتى أن أمي قد لقبتني بالمغربي الصغير). . وأما العجز عن العثور على القبعة فكان حدثاً من أحداث اليوم السابق استغله الحلم في أكثر من معنى؟ ذلك أن خادمتنا . بعبقريتها في حفظ الأشياء . كانت قد أخفت تلك القبعة عن نظري. . كذلك تتضمن نهاية الحلم إطراح بعض الأفكار السوداء المتصلة بالموت: إنني لا أزال بعيداً من أن أكون قد أديت واجبي، ومن حقي إذن ألا أذهب بعد. فالحياة والموت يعالجان في هذا الحلم كما هو الشأن في حلم جوته والمشلول الذي جاءني قبل ذلك بزمن قصير (أنظر ص 336 ثم ص 438).

[353 ←]
[المُراد بالعياني ضد المجرد، والعبارة المشبهة هي تلك التي تخلع على الفكرة شبهاً محساً، ضد العبارة المجردة. وفي باب العبارة المشبهة تدخل معظم الاستعارات وضروب المجاز المرسل والكناية].

[354 ←]
[نريد بالعينية العلاقة التي تكون بين حدين كل منهما هو الآخر. ولقد سمينا الفعل الذي يقيم هذه العلاقة «التعيين» identifizierung (أنظر الهامش الذي في ص 192) ولهذا سمينا العلاقة نفسها «العينية Identitat » ولم نقل «الذاتية» كما جرت العادة في المنطق لتجنب الخلط أولاً ثم لأن الشائع فهمه من الذاتية هو كون الحد هو هو نفسه؛ فالذاتية إن شئت عينية بين الحد وذاته لا بينه وبين غيره، أو هي عينية مجردة، تكرار أجوف، لا تتضمن الغيرية في ذاتها].

[355 ←]
[اللفظ المشترك هو الذي يحمل أكثر من معنى واحد].

[356 ←]
[أي أن يبني التفسير استناداً إلى أصوات الألفاظ المستخدمة في رواية الحلم وما قد تتضمنه من تورية أو غيره].

[357 ←]
[وكانت هذه الصورة تترجم فكرة: أن تفيض في الحديث. أنظر ص 155].

[358 ←]
[وكانت هذه الصورة تعني في لغة مجردة: ما زال لي الحق في الحياة]

[359 ←]
[مجاز دارج في الألمانية بمعنى علاهم أو فاقهم].

[360 ←]
[Apposition ويترجمه النحاة أيضاً بكلمة «البدل». فالفكرة التي تعرب عنها صورة البرج في الحلم هي: الرجل الذي كان موسيقياً عظيماً، هذا الذي جنَّ في أواخر حياته. وقولنا: «هذا الذي... إلخ» بدل أو عطف بيان].

[361 ←]
Hugo Wolf.

[362 ←]
[Narrenturm تعبير ألماني قديم يقال للمارستان].

[363 ←]
[من أغنية ألمانية شعبية].

[364 ←]
[تعبير ألماني دارج بمعنى: لم تتزوجا].

[365 ←]
[كان غرض سيلبرير من هذه التسمية هو الدلالة على أن الصورة البديلة ترمز إلى العملية الفكرية من حيث هي فعل ذاتي بقدر ما ترمز إلى المحتوى الموضوعي للفكرة في ذاتها].

[366 ←]

والواقع أنني لم أصادف هذا التصوير بعد ذلك قط؛ ولهذا صرت أتشكك في صحة هذا التفسير.

[367 ←]
[«وساقاه عمودا رخام مؤسستان على قاعدتين من إبريز»، الإصحاح الخامس، 15].

[368 ←]
أنظر ص 349 في تفسير هذا الحلم التمهيدي من حيث يعرب عن علاقة «علية».

[369 ←]
وهو حلم يصف سيرة حياتها.

[370 ←]
أي أنها تنحدر من أصل رفيع. وهو الضد المرغوب فيه للحلم التمهيدي.

[371 ←]
صورة مزيجة تجمع بين محلين: أولهما هو ما كان يسمَّى في منزل أبيها حجرة السطوح، حيث كانت تلعب مع أخيها الذي صار موضوع تخييلاتها اللاحقة، وثانيهما مزرعة يملكها عم رذل كان لا ينقطع عن معاكستها.

[372 ←]
ضد مرغوب فيه لإحدى ذكرياتها الحقيقية المتصلة بمزرعة عمها، حيث كان من عادتها أن تتعرى وهي نائمة.

[373 ←]
كما يحمل الملاك عود الزنبق في صور البشارة إلى مريم.

[374 ←]
أنظر ص 353 في تفسير هذه الصورة المركَّبة: الطهارة، الطمث، غادة الكاميليا.

[375 ←]
إشارة إلى تعدد الأشخاص الذين كانت تنصب عليهم تخييلاتها.

[376 ←]
أي هل يجوز لها أن تنتزع واحداً [وهو تعبير ألماني عامي بمعنى]: أن تستمني.

[377 ←]
لقد ناب الغصن عن عضو التناسل عند الذكر منذ زمن طويل، وهو . بعد . ينطوي على تلميح إلى اسم عائلة المريضة.

[378 ←]
يشير ذلك وما يتبعه إلى احتياطات منع النسل.

[379 ←]
يجد القارىء حلماً آخر مماثلاً من نوع هذه الأحلام «المؤرِّخة» بين الأمثلة التي سأضربها على الرمزية. في الحلم، المثال الثالث. وهناك مثال ثانٍ سرده رانك سرداً مفصلاً: «حلم يفسر نفسه بنفسه» [1910]. ثم مثال آخر تجب قراءته «مقلوباً» أورده شتيكل (1909، 486).

[380 ←]
[لم يظهر هذا القسم هـ. من الفصل السادس في الطبعة الأولى من «تفسير الأحلام». والكثير من مادته قد أضافه فرويد في طبعتي عام 1909 و1911 ولكنه أدرج المادة المضافة في الفصل الخامس في القسم الخاص بالأحلام النمطية. وأما القسم هـ. بصورته الحاضرة المستقلة فلم يظهر للمرة الأولى إلاّ في طبعة 1914 مكوَّناً من المادة المضافة في الطبعتين السابقتين وأخرى جديدة].

[381 ←]
ف. شتيكل، لغة الأحلام، 1911.

[382 ←]
[1911]: أنظر مؤلفات بلويلر وتلاميذه من مدرسة زيوريخ: مادير وأبراهام وغيرهما . في مسألة الرمزية، وانظر من يشير إليه هؤلاء من المؤلفين غير الأطباء (مثل كلاينپول وغيره). [1914]: ويجد القارىء أصوَب ما كُتب عن هذا الموضوع في كتاب رانك وهانس ساكس (1913، الفصل الأول). [1925]: وانظر أيضاً إرنست جونز (1916).

[383 ←]
إن هذه النظرة تحظى بعضد قوي إذا أخذنا بنظرية اقترحها الدكتور هانس شپيرير (في تأثير العامل الجنسي في نشأة اللغة وتطورها، إيماجو 1922). فهو يرى أن جميع الكلمات البدائية كانت تُطلق على أشياء جنسية ثم أخذت تفقد بعد ذلك معانيها الجنسية هذه بإطلاقها على أشياء وأوجه من النشاط مختلفة كانت تقارن بما هو جنسي.

[384 ←]

مثال ذلك أن المراكب الجارية على الماء ترد في أحلام التبوُّل عند الحالمين الهنغاريين مع أنهم لا يستخدمون كلمة Schiffen [أبحر] بمعنى «تبوّل» [كما هو الشأن في الألمانية] (أنظر فرنتسي وكذلك المثال 6 من هذا القسم). والناطقون بالفرنسية وبسائر اللغات الرومانية يستخدمون الغرفة في التصوير الرمزي للمرأة مع أن هذه الشعوب لا تملك شيئاً يشبه التعبير الألماني: Frauenzimmer (أنظر ص 256).

[385 ←]

حلم أحد مرضاي . وكان يقيم في «بنسيون» . أنه قابل إحدى الخادمات على السلَّم، فسألها ما رقمها، فأجابته لدهشه: 14، والواقع أنه كان قد اتصل بهذه الخادم وزارها زيارات متعددة في غرفتها، وكانت الخادم تخشى طبعاً أن تتشكك سيدتها في أمرها فاقترحت على الحالم في اليوم الذي سبق الحلم أن يتلاقيا في حجرة غير مشغولة. وكانت هذه الحجرة حقيقةً هي الحجرة رقم 14، بينما حملت هذا الرقم في الحلم المرأة نفسها. ولا يكاد المرء يتخيل مثالاً أوضح من ذلك دلالة على تعيين المرأة بالحجرة» (جونز، 1914أ). وانظر أيضاً أرتميدوروس «رموز الأحلام» (ترجمة ف. س. كراوس، ؟بينا 1881، ص 110): مثال ذلك أن غرفة النوم تعني الزوجة، إذا كانت بالمنزل زوجة.

[386 ←]

أكرر هنا ما قلته عن هذا الموضوع في موضع آخر (فرويد، 1910د): علمت منذ زمن غير بعيد أن سيكولوجياً بعيداً عن مجال عملنا قال لأحدنا: إننا نبالغ من غير شك في تقدير المعنى الجنسي المكنون للأحلام؛ فهو . مثلاً . يحلم أكثر ما يحلم بالصعود، ومن المؤكد أن ذلك ما لا ينطوي على شيء جنسي. وأثار هذا الاعتراض اهتمامنا، فوجّهنا اهتمامنا إلى ظهور المرتفعات والدرجات والسلالم في الأحلام وسرعان ما أمكننا أن نتبين أن السلالم (وما ماثلها من الموضوعات) ترمز من غير أقل شك إلى الجماع الجنسي. وليس من الصعب أن نكتشف أساس هذه المقارنة. فنحن نبلغ القمة في حركات متعاقبة موقعة وفي لهث متزايد، ثم إذا نحن نستطيع النزول إلى حيث كنا في قفزات قليلة مسرعة. وهكذا يعيد الصعود النمط التوقيعي للجماع. ثم لا ننسى شهادة العرف اللغوي؛ فهو يرينا أن «صعد» تستخدم بغير مزيد من التخصيص [في اللغة الألمانية] للدلالة على الفعل الجنسي، ونحن نقول عن رجل: إنه «صعَّاد» [أي ذو ولع بالنساء]، ونقول: «صعد وراء» [أي طارد، والمقدر هو المرأة]. ودرجات السلَّم تسمى في اللغة الفرنسية marches ومنه: un vieux marcheur [أي «دراج قديم»]، وهو ما يعدل تعبيرنا الألماني «صعَّاد قديم» [أي زير نساء].

[387 ←]

Madeira من اللاتيني Mater ومعناه الأم، لاحظ الجناس مع Materei.

[388 ←]

[رجل= Mann في الألمانية، ومعطف= Mantel].

[389 ←]

أنظر رسماً منشوراً في 1) Zbl. Psychoana) ، 2، 675 [زورشاخ، 1912] رسمه مريض بالهوس في التاسعة عشرة من عمره: رجل ربطة عنقه أفعوان يمد رأسه إلى فتاة. وانظر أيضاً قصة «الرجل الخجول» Anthropophyteia ، 6، 334): دخلت سيدة في حجرة استحمام فصادفت رجلاً لم يكد يفرغ من ارتداء قميصه، ويخجل الرجل خجلاً شديداً ولكنه يسارع إلى تغطية عنقه بمقدم قميصه قائلاً: معذرة إذا كنت بغير ربطة عنق.

[390 ←]

إنه مهما كان الفرق بين رأي شرنر في رمزية الحلم وبين الرأي الذي أجريه على هذه الصفحات فمن الواجب أن أنبّه إلى أن شرنر يجب أن يعد المكتشف الحقيقي للرمزية في الحلم، وأن الأبحاث التحليلية قد استرجعت لكتابه مكانته بعد أن ظل هذا الكتاب الذي نشر منذ عهد طويل (1861) يُعد أثراً من آثار مخيلة جامحة.

[391 ←]

[نقله إلى العربية الدكتور عزت راجح].

[392 ←]

من «إضافات إلى تفسير الأحلام»، فرويد، 1911أ.

[393 ←]

أنظر مثالاً من هذا النوع رواه كرشجرابر (1912). وروى شتيكل (1909، 475) حلماً ترمز فيه قبعة ثبتت في وسطها ريشة مقوسة إلى رجل (عاجز عجزاً جنسياً).

[394 ←]

[coire فعل لاتيني بمعنى جامع، وترجمته الحرفية سار مع أو ساير].

[395 ←]

[منتزه معروف في ضواحي ؟بينا، ورد ذكره من قبل في ص 235].

[396 ←]

أو كنيسة صغيرة [Kapelle] = مهبل.

[397 ←]

رمز إلى الاتصال الجنسي.

[398 ←]

Mons veneris [جبل الزهراء].

[399 ←]

Crines pubis [شعر العانة].

[400 ←]

في رأي خبير أن الشياطين المكتسبة بعباءات وطراطير ذات طبيعة قضيبية.

[401 ←]

نصفا كيس الخصيتين.

[402 ←]

Weibsbilder] تعبير ألماني دارج بمعنى: نساء].

[403 ←]

pommes et poires[رموز دارجة إلى الأثداء في اللغة الفرنسية].

[404 ←]

عن ألفريد روبيتسك، 1912، ص 340.

[405 ←]

عالم الأحلام»، لندن 1911، ص 168.

[406 ←]

I arrange the centre of a table with flowers for a birthday.

[407 ←]

[the centre of a table].

[408 ←]

['Expensive flowers; one has to pay for them]

[409 ←]

[?'Lilies of the valley, violets and and pinks or carnations "].

[410 ←]

[قلنا: زنابق الوادي، بترجمة حرفية لاسم هذه الزهرة في اللغة الإنجليزية تسهيلاً لمتابعة النص والمقصود نوع من الزنبق أو السوسن].

[411 ←]

[المقصود كلمة carnal ويراد بها: حسي أو جنسي].

[412 ←]

[ويراد به الأحمر القرمزي].

[413 ←]

.'a centre piece of flowers

[414 ←]

['I decorate the flowers with green crinkled paper'].

[415 ←]

['fancy paper'].

[416 ←]

['to hide untidy things, whatever was to be seen which was not pretty to the eye; there is a gap, a little space in the flowers'].

[417 ←]

['The paper looks like velvet or moss'].

[418 ←]

[المراد بالغافلين من لا يعلمون شيئاً عن التحليل النفسي ومكتشفاته].

[419 ←]
[«شوتنتور» مكان قريب من وسط ڤيينا. وأما «. ينج» فالمراد بها ضاحية من ضواحي ڤيينا التي ينتهي اسمها بهذا المقطع، أنظر ص 311].

[420 ←]
[Schlemihl كلمة من أصل عبري شاع استخدامها في الألمانية للدلالة على شخص عاثر لا كفاءة فيه، أو كما نقول: خايب].

[421 ←]
[Les exclus de l'amour].

[422 ←]
[يستخدم المريض هنا كلمة «شليميل» مصرَّفة تصريفاً فرنسياً: les schlemiliés].

[423 ←]
[هذان البيتان يعقبهما البيت الذي ذُكر أولاً يأتيان في قصيدة شيللر التي لحَّنها بيتهوفن في السمفونيا التاسعة. ولكن البيت الذي ذكر أولاً: «من ظفر... إلخ». قد جاء أيضاً وحده في أوبرا فيدليو، وهي لبيتهوفن كذلك].

[424 ←]
أن ينزع سن الحالم شخص آخر، ذلك ما ينبغي تفسيره عادة بالخصاء (مثل قص الشعر عند الحلاق في رأي شتيكل). ولا بد من أن نفرّق بوجه عام بين الأحلام ذات المنبه السني وبين أحلام أطبة الأسنان كالتي يرويها كوريات (1913).

[425 ←]
[ويعني الردفين، وترجمته الحرفية هي: الخدين الخلفيين].

[426 ←]
تحمل الأحلام ذات المنبه السني عند النساء المعنى الذي لأحلام الوضع، على حسب إفادة من يونج. والعنصر المشترك بين هذا التفسير والتفسير المقترح فيما فوق هو أن الأمر يتعلق في كلتا الحالتين (الخِصاء والولادة) بانفصال جزء من الجسم عن الكل.

[427 ←]
أنظر 52 الحلم "المؤرخ" في ص 381.

[428 ←]
[يقال للنيابة].

[429 ←]
[ويقال في الألمانية Goldkronen أي الكرونات الذهبية. والكرونات أيضاً عملة].

[430 ←]
الترجمة الحرفية للتعبير الأول هي: جرَّ السن أو شدها، وهو يذكر بالقطار لأن اسم القطار (Zug) في الألمانية مشتق من فعل ziehen (جر أو شد). والتعبير الثاني ترجمته: انتزع السن أو اقتلعها وهو يذكر بالسفر لأن فعل انتزع (rcissen) لا يكاد يختلف في الألمانية من الفعل الذي يعني سافر Reisen.

[431 ←]
قد كررنا ههنا هاتين الفقرتين الخاصتين بأحلام الحركة لمقتضيات السياق.

[432 ←]
[ههنا إشارة إلى كلمة عامية ألمانية بمعنى «جامع» (vogeln) اشتقَّت من الكلمة الدَالة على الطير (Vogel)].

[433 ←]
[1905هـ، القسم الثاني، حلم دورا الأول].

[434 ←]
لقد نشرت في موضع آخر (فرويد، 1910ل) مثالاً نموذجياً على حلم أوديبي مقنع من هذا القبيل (تجده في آخر هذا الهامش)، كما نشر أوتو رانك (1911أ) مثالاً آخر قرنه بتحليل مفصَّل. وانظر كذلك مقالة رانك (1913) فيما يتصل بأحلام أوديبية مقنعة تتجلى فيها رمزية العين. وإن القارىء ليجد في ذات الموضع الذي نُشر فيه مقال رانك مقالات أخرى عن «أحلام العين» ورمزية العين كتبها إيدير وفرنتسي ورايتلر. وإن فقأ العينين في أسطورة أوديب ـ كما في غيرها ـ لهو بديل من الخصاء. هذا ولم يكن القدماء يجهلون التفسير الرمزي للأحلام الأوديبية المقنعة، واقرأ في ذلك رانك (190، 534) حيث يقول: «وهكذا قيل: إن يوليوس قيصر قد حلم حلماً رأى فيه أنه يجامع أمه، فأوّله مفسرو الأحلام قائلين: إنه يبشِّر بأن قيصر سوف يمتلك الأرض (الأرض الأم). ومن =الأمور المعلومة كذلك النبوءة المعطاة إلى التاركوينيين والتي أعلنت أن السيادة على روما سوف تكون من حظ أول من يقبّل أمه (osculum matri tulerit) ـ وهو ما يفسره بروتوس بمعنى الأرض الأم (قبل الأرض قائلاً: إنها الأم المشتركة لجميع المائتين. تيت لي؟ 1،

56 [باللاتينية في الأصل])». وانظر بهذه المناسبة حلم هيبياس الذي يرويه هيرودوت (6، 107) إذ يقول: «أما الفرس فقد كان هيبياس يرشدهم إلى ماراتون. وكان هيبياس قد زاره في الليلة الماضية منام رأى فيه أنه يضاجع أمه، ففهم من الرؤيا أنه سيعود إلى أثينا ويسترجع سيطرته وأنه . في شيخوخته . سيموت في أرض وطنه». هذه الأساطير والتفاسير تكشف عن بصيرة سيكولوجية صادقة؛ فقد رأيت أن الناس الذين يعلمون أنهم مفضلون أو معززون لدى أمهاتهم يبدون في حياتهم هذه الثقة الفريدة بالنفس وهذا التفاؤل الوطيد اللذين لا يندر أن يكون لهما مظهر البطولة وأن يطوّعا النجاح لأصحابهما فعلاً.

مثال نمطي على حلم أوديبي مقنع: حلم رجل أن له علاقة مستترة بسيدة يريد شخص آخر زواجها، والحالم يخشى أن يعلم الآخر بهذه الصلة وألا ينتهي الزواج المقترح إلى نتيجة، وهو لذلك يسلك تجاه هذا الرجل مسلكاً ملؤه التودد، يعانقه ويقبله. إن واقع حياة هذا الحالم لا يتفق وحلمه إلا في نقطة واحدة: فقد كانت له علاقة بسيدة متزوجة أتى زوجها يوماً . وكان صديقاً للحالم . بملاحظة ذات معنيين جعلته يشك في أن يكون الزوج قد لحظ أمراً. ولكن الحقيقة كانت تتضمن شيئاً آخر لم يذكره الحلم مطلقاً، وهو مع ذلك الشيء، الذي يعطينا المفتاح إلى فهم الحلم: ذلك أن الزوج كان مهدداً بمرض عضوي، وكانت الزوجة معدّة لإمكانية موته فجأة، وكان الحالم مشغولاً بالتفكير الشعوري في التزوج من الأرمل الشابة بعد موت زوجها. وهذا الموقف الخارجي يضع الحالم في جو الحلم الأوديبي: فرغبة الحالم قادرة على قتل الرجل من أجل الظفر بامرأته، والحلم يعرب عن هذه الرغبة في صورة مشوهة ملؤها النفاق؛ فبدل أن تظهر المرأة متزوجة بالفعل نرى شخصاً غير الحالم يتقدم لزواجها . وهو ما يتفق وما للحالم نفسه من نيات مستترة . هذا بينما تختفي رغباته العدائية نحو الزوج وراء مظاهر من الود مستمدة من ذكرى الحالم عن علاقته بوالده في أيام الطفولة.

[435 ←]

[Déja vu].

[436 ←]

[نفق يبعد نحو السبعين ميلاً من ؟بينا على سكة الحديد الجنوبية].

[437 ←]

أنظر رانك (1909) فيما يتصل بالمغزى الأسطوري الذي للولادة من الماء.

[438 ←]

لقد ظللت زمناً طويلاً دون أن أقدّر قيمة التخيلات والأفكار اللاشعورية التي قد تدور حول الحياة في الرحم؛ ففيها تفسير هذه الهيلة العجيبة عند الكثيرين من كونهم قد يدفنون أحياء، وفيها أعمق أساس لاشعوري يرتكز عليه الاعتقاد بحياة مستقبلة بعد الموت وهو اعتقاد لا يعدو أن يصوّر إسقاطاً في المستقبل لهذه الحياة الغامضة التي تسبق الولادة. والولادة بالإضافة إلى ذلك . هي أول خبرة بالهيلة، وهي بذلك منهل هذه الحالة الوجدانية ونموذجها .

[439 ←]

إن ذات الصور الرمزية التي تجيء بمعناها الطفلي في الأحلام البولية تظهر بمعناها الحديث في أحلام جنسية لا مرية فيها: ماء = بول = السائل النخطي، schiff [سفينة] = schiffen [شخ] = رحم (صندوق)، البلل = بلل الفراش أثناء النوم = الجماع = الحمل، العوم = امتلاء مجرى البول = مقر من لم يولد، المطر = البول = الرمز إلى الإخصاب، السفر (الرحيل أو الخروج من العربة) = النهوض من الفراش = الجماع الجنسي (رحلة شهر العسل)، تبول = أنزل» (رانك ذات المرجع).

[440 ←]

أنظر فرويد، 1908ب ورانك، 1912أ وداتنر، 1913 ورانك، 1915.

[441 ←]

لقد أورد فيستر حلماً من هذا النوع (1919ح). أنظر أيضاً رانك، 1911ب ورايك، 1911. ثم أيضاً رانك، 1914.

[442 ←]

[شعبة ماء].

[443 ←]

[Ahren (سنابل) = Ehren (شرف) في النطق، فكأن معنى التعبير منطوقاً هو: قبلة في شرف أو قبلة بين السنابل. ومن المهم أن نلاحظ مع ستراشي أن هذا التعبير يشير إلى مثل ألماني ترجمته الحرفية هي: ما من أحد يرفض قبلة في شرف، كما أن الفتاة كانت في الحقيقة قد تلقّت أول قبلاتها وهي سائرة في حقل قمح، فكانت قبلة «بين السنابل»].

[444 ←]

.er geht aber nicht auf die seite

[445 ←]

أنظر فويد، 1914 هجرية

[446 ←]

[ورق الفضة (واسمه عندنا ورق القصدير) عبارة عن شرائح مفضضة من الصفيح، و«ستانيول» مشتق من «ستانيوم وهو» الصفيح].

[447 ←]

time is money

[448 ←]

أنظر عند يونج (1911) ومارسينوفسكي (1912ب) وغيرهما تحليلات لأحلام أخرى كانت تشتمل على أرقام، وكانت هذه الأحلام تتضمن في أحيان كثيرة عمليات معقدة جداً أجراها الحالم في دقة مدهشة. وانظر أيضاً جونز (1912أ).

[449 ←]

إن الأعصبة تسلك من هذه الناحية مسلكاً لا يختلف مطلقاً من مسلك الحلم. فأعرف مريضة كانت شكاتها أنها تسمع (أي تهلوس) أغنيات أو فقرات من أغنيات بدون إرادتها وعلى رغم هذه الإرادة، وذلك دون أن تستطيع أن تدرك معنى هذه الأغنيات بالنسبة إلى حياتها النفسية . هذا ولم تكن حالتها قطعاً بالبارانويا. لقد بيّن التحليل أنها كانت تستخدم نص هذه الأغنيات في غير ما وضعت له بأن تستبيح لنفسها إدخال بعض التعديل عليها. مثال ذلك هذا السطر [من لحن أجاتا في أوبرا «فرايشوتس» لبيير]

Leise, Leise, fromme Weise

[رفقاً، رفقاً، أيتها النغمة الخاشعة]

إنه كان يعني بالنسبة إلى لاشعورها؛ Leise, Leise, fromme Waise [ولا تختلف Waise من Weise ، في النطق، ولكن المعنى يختلف، فيصبح السطر: «رفقاً، رفقاً، أيتها اليتيمة الخاشعة»] . وما اليتيمة بالطبع إلا إياها. أو هذا السطر:

O du selige, O du frohlich

[أيتها الليلة المباركة، أيتها الليلة السعيدة]

إنه مطلع أنشودة من أناشيد الاحتفال بليلة مولد اليسوع، ولكن المريضة إذ تسكت عن بقية السطر: «يا ليلة ولد فيها يسوع» تحيل الأنشودة إلى أغنية عرس، إلخ... ومن الممكن كذلك أن يعمل هذا التشويه عمله في أفكار لا تعدو أن تكون أفكاراً، غير مصحوبة بهلاوس. لم كانت تلاحق أحد مرضاي ذكرى قصيدة حفظها في صباه:

...Nachtlich am Busento lipseln

[في الليل على همس البوزنتو]؟

لأن مخيلته كانت تقنع بهذا القدر من البيت:

Nachtlich am Busen

[أي: في الليل على الثدي. والبيت من قصيدة ذاعت أوسع ذيوع للشاعر الرومانسي بلاتن فون هاللرموندە (1796 . 1835) وأما البوزنتو فنهر في إيطاليا].

ومن المعروف أن الكتّاب الهزليين لا يحجمون عن الالتجاء إلى هذه الحيلة الفنية. فقد نشرت «الصحائف الطائرة» [الصحيفة الهزلية المعروفة] في بابها المعنون «عيون الأدب الألماني مصورة»، نشرت رسماً يصور قصيدة شيللر Sieges fest [عيد الظفر]، وألحقت بالرسم هذين البيتين:

Und des frisch erkampften Weib

Freut sich der Atrid und strickt

[«وبأنثاه الغضة المغتصبة فرح ابن أتروس ويعقد...»] ثم سكتت عن البقية، والبقية هي:

Um den Reiz des schonen Leibes

.Seine Arme hochbeglückt

[«حول سحر جسمها المبدع ساعده الشديد المؤيد»].

[450 ←]

[أرغم = notigen ، والكلمة المومىء إليها هي notzüchtigen وتعني الإرغام بالمعنى الجنسي أو الاغتصاب].

[451 ←]

[لخير الوطن عاش بكل نفسه وإن لم يعش طويلاً]. الكلمات الصحيحة هي:

Saluti Publicae vixit

.non diu sed totus

وأكبر الظن أن ؟يتلز قد خمّن السبب الصحيح للخطأ الذي جعلني أضع patriae بدل publicae [أي «لخير الوطن» بدل «للخير العام»].

[452 ←]

وأضيف . كمثال على الحتم المضاعف، أن معذرتي عن الوصول إلى المعمل متأخراً كانت أني كنت مضطراً . بعد العمل حتى ساعة متأخرة من الليل . إلى أن أقطع في الصباح المسافة الطويلة بين شارع القيصر جوزيف وشارع فارينجر.

[453 ←]

ثم أيضاً هذه الرابطة: قيصر [يوليوس] . قيصر [جوزيف].

[454 ←]

[رئيس الحكومة الائتلافية التي تألفت عام 1898 فأنقذت المجر من أزمة سياسية عنيفة].

[455 ←]

[moriamur pro rege nostro]

. لست أدري أين قرأت عن حلم ازدحم بصور صغيرة على خلاف المألوف ثم تبيّن أن مصدرها كان صوراً بماء الفضة من صنع جاك كاللو، رآها الحالم في خلال النهار . ولوحات كاللو هذه تحتوي فعلاً على عدد كبير من صور صغيرة جداً، وتمثل طائفة منها أهوال حرب الثلاثين.

[456 ←]

[من قصيدة جوته المعنونة Epilog zu Schiller's Glocke].

[457 ←]

[يُفهم من هذه الجملة أن اللامعقولية في الحلم تعرب عن سخرية أو زراية متضمنة في أفكار الحلم وهي النتيجة التي يخلص إليها فرويد فيما بعد].

[458 ←]

[Umgekehrt ist auch Gefahren (أي أن الركوب أو السوق الذي ينعكس اتجاهه فيصير إلى الخلف هو أيضاً ركوب أو سوق). تعبير نمسوي لطيف بمعنى: والعكس أيضاً يصدق. والمراد هنا هو: لم يركب أخي تلك المسافة في الحقيقة، إذن أركبها أنا في الحلم، وكله ركوب برغم العكس].

[459 ←]

[إن كلمة fahren التي ترجمناها حتى الآن ترجمة منتظمة بكلمة «ركب» تعني في الحقيقة: ركب العربة أو ساقها أو ركب القطار أو سافر].

[460 ←]

[للتأدية من فكرتي النبلاء والحوذية من ناحية إلى فكرتي السلف والخلف من ناحية أخرى].

[461 ←]

وهكذا يسفّه عمل الحلم الفكرة المعطاة له على أنها فكرة مضحكة بأن يخلق هو شيئاً مضحكاً في صددها. ولقد نهج هينه نهجاً شبيهاً بذلك حين أراد أن يسخر من الأشعار الغثة التي كان ينظمها ملك با؟اريا، فقد صاغ سخريته في شعر أغث منها وأردأ:

السيد لود؟يج شاعر فحل، من الفحول ما أن ينشد حتى يخر أبوللو على ركبتيه ساجداً أمامه، راجياً، متضرعاً إليه: «كفى، وإلا أصابني مس من الجنون»

[462 ←]

[ذلك هو المريض الذي يشير إليه فرويد في رسائله إلى فليس (فرويد، 1950أ) بحرف E ولقد وردت في إحدى هذه الرسائل (الخطاب 126) إشارة إلى هذا الحلم. وفي الرسالة 133 أعلن فرويد انتهاء علاج هذا المريض بخاتمة مرضية].

[463 ←]

[تلك من غير شك . على حسب ملاحظة ستراشي . إشارة إلى نظرية فليس عن الدورات البيولوجية. فالرقم 51 = 28 + 23 وهما زمنا الدورتين المذكرة والمؤنثة].

[464 ←]

.[mea res agitur]

[465 ←]

[هذا المقال يتألف من مجموعة من الخواطر الشعرية الفلسفية كتبها جوته حوالى عام 1780 ثم بعث بها إلى الدوقة آنا آماليا. فلما ماتت هذه بعد ذلك بثلاثين عاماً ووقعت بين يدي جوته رسالته استطاع أن يعرف فيها أثراً من آثار شبابه].

[466 ←]

[«على أنهار بابل، هناك جلسنا وبكينا، عندما تذكرنا صهيون». مطلع المزمار 139، وهو من مراثي اليهود المسبيين في بابل، والترجمة الموردة هنا موضوعة عن النص اللاتيني

مباشرة؛ لأن الترجمة البروتستانتية المعروفة تختلف اختلافاً لا تصلح معه للاقتباس في هذا الموضع].

[467 ←]
[إشارة إلى ما هو معروف من أن هيرودوس الملك كان قد اعتزم أن يهلك الطفل يسوع، فلمّا لم يجده غضب «وقتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كل تخومها من ابن سنتين فما دون». إنجيل متى، الإصحاح الثاني].

[468 ←]
هاملت: المشهد الثاني من الفصل الثاني. بيت من الأبيات الشكسبيرية التي تتعذر ترجمتها لشدة ما فيها من «التكثيف». ويكفي أن نشير إلى أن التمييز بين هذين الطائرين يصبح عسيراً كل العسر . فيما يقال . إذا أخذت الريح هذا الاتجاه؛ فالمعنى المراد من البيت والذي من أجله كان الاستشهاد به هو: إن كنت مجنوناً فلغرض، فإن جدَّ الجد لم يكن مثلي تمييزاً]. إن هذا الحلم يزودنا أيضاً بمثال جيد على قضية أخرى شاملة الصدق: إن جميع الأحلام التي تقع في خلال الليلة الواحدة تنبت من تربة فكرية واحدة، ولو تذكرناها متفرقة. وأذكر بعد أن الموقف الذي ورد في الحلم عن الفرار بأبنائي من مدينة روما قد شوَّه بربطه بحادث مماثل وقع في طفولتي. والمعنى هو: أنني أحسد بعض أقاربي ممن سنحت لهم الفرصة بأن ينقلوا أبناءهم منذ سنوات متعددة إلى بلد آخر.

[469 ←]
[«الزبل» هو ما تصلح به الأرض أو «السباخ»، والمراد بالمزبلة . عدا معناها الشائع . هو ما يوضع فيه الزبل. والتعبير الألماني المشار إليه معناه: «لست مسؤولاً عن ذلك» أو «لست أعترف بهذا الولد»].

[470 ←]
إذا جاء في خلال العلاج التحليلي حلم يحدّث فيه الحالم نفسه قائلاً: «لا بد من أن أخبر الطبيب بذلك» فمعنى هذا أن هناك مقاومة شديدة في وجه الإفضاء بهذا الحلم ولا يندر عندئذ أن يؤدي ذلك إلى نسيانه.

[471 ←]
لقد كان هذا الموضوع مثار مناقشة مستفيضة دارت في السنوات الأخيرة على صفحات «المجلة الفلسفية» تحت عنوان: «التذكُّر المشوَّه في الأحلام».

[472 ←]
إن هذه الاكتشافات تصحِّح من بعض النواحي ما ذكرته من قبل (ص 347) عن تصوير العلاقات المنطقية في الحلم. فكلامي هناك يصف مسلك عمل الحلم بوجه عام، دون أن يحسب حساباً لبعض مظاهر نشاطه التي تفوق غيرها دقة واعتناء.

[473 ←]
ستانيول، إشارة إلى كتاب ستانيوس عن الجهاز العصبي للأسماك (أنظر ص 440).

[474 ←]
هذه صورة تستحضر فناء العمارة التي كنت أقطنها، حيث كان المستأجرون يتركون عربات أطفالهم. ولكن الصورة كانت . فيما عدا ذلك . متعددة الحتم من وجوه كثيرة.

[475 ←]
[أنظر ص 186، في الهامش].

[476 ←]
.The heart of the World

[477 ←]
[اسم لا يصدق على أي مكان حقيقي].

[478 ←]
حتى أنا لا أفهم هذا الوصف: ولكنني أتبع هنا تلك القاعدة الأساسية، وهي أن أروي الحلم بالكلمات التي تخطر لي عند تدوينه؛ فإن الصيغة اللفظية هي نفسها جزء من التصوير الحلمي [أنظر ص 535].

[479 ←]
.Wealth of Nations, Matter and Motion

[480 ←]
إن البلد الذي وُلد فيه شيللر لم يكن أي ماربورج، بل مارباخ، كما يعلمه كل تلميذ ألماني وكما كنت أعلمه أنا أيضاً وتلك إذن هفوة أخرى (أنظر ص 217هـ. أ) من الهفوات التي تتسرب لكي تعوِّض عن تزييف متعمد في موضع آخر . وهي هفوة حاولت تفسيرها في كتابي «سيكوباثولوجية الحياة اليومية» [1901ب، الفصل العاشر، المقال الأول].

[481 ←]
[أي حالة يقظة لكن دون وعي كامل، فكأنَّ الشعور فيها كالضوء ساعة الشفق].

[482 ←]

.automatisme ambulatoire

[483 ←]
إذا لم أكن أخطأت كثيراً، فأول حلم استطعت أن أستشفه عند حفيدي الأكبر البالغ من العمر عشرين شهراً يدل على أن الحلم قد نجح في تحويل مادة أفكار الحلم إلى رغبة محققة، على حين =بقيَت الحالة الوجدانية المرتبطة بها دون أن تتغير أثناء حالة النوم. فهو في الليلة التي سبقت رحيل والده إلى الجبهة قد استيقظ وهو ينشج نشيجاً حاراً: «بابا، بابا . بيبي». والترجمة الوحيدة لذلك هي: «بابا وبيبي باقيان معاً»، بينما البكاء تسليم بالرحيل المرتقب. ولقد كان الطفل في ذلك الوقت قادراً تمام القدرة على الإعراب عن فكرة الفراق؛ إذ كان بين أوائل ما نطق به هذا الطفل كلمة Fort [«بعيداً»] (وكان الطفل يفخِّم حرف o تفخيماً خاصاً ويمطه مطاً طويلاً: o–o–o)، ثم هو . قبل هذا الحلم الأول بشهور . كان يطوح بكل ما يقع تحت يديه من لعبه وهو يصيح): «بعيداً» . وهي لعبة كانت ترجع إلى نجاح مبكر في السيطرة على النفس وغزوها بترك الأم تذهب بعيداً. [أنظر ما ورد عن ذلك في «ما وراء مبدأ اللذة» (فرويد، 1920ز)].

[484 ←]
[سنج النجار أحد أصحاب الحرف الممثلين الذين اجتمعوا لكي يمثلوا رواية ما احتفالاً بعرس دوق أثينا، في مسرحية «حلم ليلة من منتصف الصيف» لشكسبير . وقد وكل إلى سنج أن يمثل الأسد، ولم يكن أحد يبعد عن الأسد بعد سنج هذا وبعد الأسد الذي لعبه].

[485 ←]
إن كلمة Nachen (القوارب الجنائزية) قد اشتقت . على ما علمت من صديق فيلولوجي . من الأصل اليوناني nékus (جثة).

[486 ←]
.Schiller, Nachtrage zu den Xenien

[487 ←]
[في بيان استخدام فرويد لهذه الكلمة أنظر الهامش الذي في ص 556].

[488 ←]
[ملك أُغرقت الأساطير في وصف ثروته حتى قيل: إن البراز المتراكم في حظائره قد بلغ عنان السماء لكثرة مواشيه. ولم يستطع تنظيفها إلا هرقل].

[489 ←]
[أنظر الهامش 4 في ص 257].

[490 ←]
[هو بيتر روزجر (1843 . 1918) كاتب نمسوي معروف بلغ ذرى الشهرة بعد نشأة ريفية متواضعة].

[491 ←]
[Waldheimat [Fremd gemacht ، الجزء الثاني، ص 303.

[492 ←]
[Der Philister . لفظ كان الطلبة الألمان يطلقونه في شيء من التحقير على كل من خرج عن الدوائر الجامعية وعلى التجار بنوع خاص، على نحو ما يقول الفرنسيون أحياناً: «بورجوا»].

[493 ←]
منذ قسَّم التحليل النفسي الشخصية إلى أنا وأنا أعلى (فرويد، 1912ج [وأيضاً 1923ب]) صار من السهل أن نعرف أن أحلام العقاب هذه تحقق رغبات الأنا الأعلى.

[494 ←]
[أُضيفت هذه الفقرة عام 1919، والظاهر أنها أضيفت في غير موضعها؛ وربما كان موضعها الصحيح بعد الفقرتين التاليتين. ومن المؤكد أن فرويد يشير هنا إلى حلم يتصل بفليس بعد أن انقطعت أسباب الصداقة بينهما].

[495 ←]
وعلى هذا النحو علَّلت الأثر اللاذ الخارق القوة الذي تحدثه النكات المغرضة [فرويد، 1905ج، في نهاية الفصل الرابع].

[496 ←]
إن هذا التخييل الذي كان يكون جزءاً من أفكار الحلم اللاشعورية هو الذي كان يتطلب وضع non vivit بدل non vixit [«غير حي» بدل «لم يحيَ»]: «لقد جئت متأخراً، إنه الآن غير حي». وسبق أن وضَّحت في صفحة 450 أن محتوى الحلم الظاهر كان يتطلب أيضاً

. non vivit

[497 ←]
[لا بد للقارىء . لكي يتمكن من متابعة فرويد هنا وفي الصفحات القادمة . من الإلمام ببعض =حقائق حياته: كان فرويد بين عامَي 1876 و1882 يعمل في المعهد الفيزيولوجي. وكان يرأس المعهد بروكه (1819 . 1892) يعاونه إرنست فلايشل فون ماركسوف (1846 . 1891) وسيجموند إكستر (1846 . 1925) وكلاهما يكبر فرويد بعشر سنوات. ولقد مات فلايشل بعد مرض شديد نزل به في السنوات الأخيرة من حياته. وفي هذا المعهد أيضاً التقى فرويد بيوسف بروير (1842 . 1825). وكان بروير يكبر فرويد كثيراً

في السن وفي الجاه، كما كان له أثر معروف في نشأة التحليل النفسي عند فرويد، فقد تحدّث به فرويد في كثير من المواضع. وهو ثاني اليوسفين في هذا التحليل، هذا الذي أوقع فرويد بينه وبين فلايشل. فأما يوسف الأول الذي يظهر في الحلم «صديقي وغريمي پ.» فهو يوسف پانيت (1857 - 1890) الذي خلف فرويد في منصبه بالمعهد].

[498 ←]
[جوته، فاوست، الإهداء، السطر الثاني].

[499 ←]
te-toi que je m'y mette

[500 ←]
[هنري الرابع، الفصل الرابع، المشهد الخامس].

[501 ←]
يلاحظ القارىء أن اسم يوسف يقوم بنصيب كبير في أحلامي. ذلك أن من السهل على أناي أن يختبىء وراء هذا الاسم؛ لأن يوسف كان أيضاً اسم مفسّر الأحلام المعروف في التوراة.

[502 ←]
[الفصل الثاني، في مشهد المناجاة بين هيلينا وباريس عندما يفاجئهما في نهايته مينيلاوس زوج هيلينا].

[503 ←]
esprit d'escalier

[504 ←]
[إشارة إلى أبيات لهاينه استشهد بها فرويد بعد ذلك في آخر محاضرة من «محاضرات تمهيدية جديدة» (فرويد، 1923أ): بقلنسواته الليلية وبأطراف من عباءة الغرفة يسد ثقوب البناء الكوني].

[505 ←]
[Phantasie كلمة كانت تُستخدم قبل فرويد بمعنى «المخيلة»، فلو أن فرويد تابع لغة العصر لقال: Phantasiebildung أي «نتاجاً للمخيلة». ومن وجهة نظر علم الأمراض النفسية فإن «التخييل» كان يقال بمعنى «حلم اليقظة» أي تفكير اجتراري لا موضوعية له أو لا يرعى الواقع. ولكن فرويد قد مدّه إلى «فكرنا الليلي» كما هو واضح من هذه الفقرة].

[506 ←]
Rêve, petit roman-day dream, story

[507 ←]
في «طرف من تحليل حالة هستيريا» (فرويد، 1905هـ. [الجزء الثاني]) حللت نموذجاً بديعاً من حلم من هذا النوع تركّب من تخييلات طبع بعضها فوق بعض. هذا، وقد ظللت لا أقدّر نصيب التخييلات في تكوين الحلم حق قدره طالما كنت أشتغل بتحليل أحلامي أنا أولاً . وهي أحلام تنبىء في العادة على مناقشات وأصرعة فكرية ولا تضم أحلام يقظة إلا فيما ندر، بالنسبة إلى =غيرها. فأما الآخرون فكثيراً ما يكون من السهل أن نثبت عندهم التماثل التام بين أحلام الليل وأحلام النهار. ومن الممكن في أحيان كثيرة عند الهستيريين أن يحل حلم محل نوبة هستيرية، وعندئذ يستطيع المرء أن يقتنع في غير عناء بأن النذير المباشر لكلا هذين التركيبين النفسيين كان تخييلاً جاء في صورة حلم يقظة.

[508 ←]
توبو؟ولسكا، ص 35.

[509 ←]
La séance continue

[510 ←]
Cette fonction d'interprétation n'est pas particulière au rêve; c'est le même travail de coordination logique que nous faisons sur] .[nos sensations pendant la veille

[511 ←]
Sur ces suecessions incohérentes d'hallucinations, l'esprit s'efforce de faire le même travail de coordination logique qu'il fait pendant la veille sur les sensations. Il relie entre elles par un lien imaginaire toutes ces images décousues et bouche les .[écarts trop grands qui se trouvaient entre elles

[512 ←]
Cependant j'ai souvent pensé qu'il pouvait y avoir une certaine déformation, ou plutôt reformation du rêve dans le souvenir… La]

.tendance systématisante de l'imagination pourrait fort bien achever après le réveil ce qu'elle a ébauché pendant le sommeil
De la sorte la rapidité réelle de la pensée serait augmentée en apparence par ces perfectionnements dus à l'imagination
.[eveillée

[513 ←]

Dans le rêve, au contraire, l'interprétation et la coordination se font non seulement à l'aide des données du rêve, mais encore à]
.[…l'aide de celles de la veille

[514 ←]

On a cru pouvoir placer le rêve au moment du réveil et ils ont attribués à la pensée de la veille la fonction de construire le rêve]
.[avec les images présentes dans la pensée du sommeil

[515 ←]

في النرجسية» (فرويد، 1914ج).

[516 ←]

لقد كنت في وقت من الأوقات أجد صعوبة قصوى في جعل القراء يألفون التفرقة بين المحتوى الظاهر للحلم وبين أفكاره الكامنة، وكنت لا أفتأ أسمع اعتراضات وحججاً مستخرجة من حلم لم يفسَّر، أخذ كما أبقت عليه الذاكرة دون التفات إلى ضرورة تفسيره. وأما اليوم وقد رضيَ المحللون على الأقل بإحلال تفسير الحلم محل محتواه الظاهر، فإن الكثيرين منهم يرتكبون نوعاً من الخطأ يصرون عليه إصرار سابقيهم على خطئهم: ذلك أنهم يبحثون عن جوهر الحلم في محتواه الكامن، وبذا يغضون الطرف عن التفرقة بين أفكار الحلم وعمل الحلم. إن الحلم في جوهره ليس سوى صورة خاصة من صور التفكير صارت ممكنة بفعل شروط حالة النوم. و عمل الحلم هو الذي يخلق هذه الصورة، وفيه وحده تقوم ماهية الحلم، إنه هو الذي يفسر طبيعة الحلم الخاصة. وإني أقول ذلك لكي نقدّر تقديراً صحيحاً ما يتحدث به الكثيرون من «ميل الحلم إلى الاهتمام بالمستقبل»؛ فلأن يشغل الحلم بالتماس حلول للمشكلات التي تواجه حياتنا النفسية ليس بأعجب من اشتغال حياتنا المستيقظة الشعورية بهذه المشكلات، ولا يدل بعد ذلك إلا على أن هذا العمل يمكن وقوعه في ما قبل الشعور كذلك . وهو أمر نعرفه من قبل.

[517 ←]

وكذلك فوكو وتانري.

[518 ←]

.Quantité négligeable

[519 ←]

.[Heine, Die Heimkehr, Buch der Lieder]

[520 ←]

أنظر فرويد، 1901ب، الفصل السابع.

[521 ←]

[سيجفريد بطل من أبطال الأساطير الجرمانية، قيل: إنه لم يكن في جسمه سوى موضع واحد يمكن =أن ينفذ إليه منه الموت، ولم يكن يعلم هذا الموضع سوى كريمهلد زوجه. ولكن هاجن . خصمه اللدود . استطاع أن يستدرج هذه حتى جعلها تعلّم له ذلك الموضع بصليب صغير على عباءة سيجفريد، وبذا أمكنه أن يطعنه الطعنة القاتلة].

[522 ←]

إن من السهل أن نخطىء فهم هذه القضية المصاغة هنا في حدود جريئة: كل ما يعوق سير العمل مقاومة. إنها بالطبع لا تعدو أن تكون قاعدة فنية، تحذيراً للمحللين؛ فمن المستحيل أن ننكر أن أحداثاً مختلفة قد تقع في خلال العلاج دون أن تكون المسؤولية فيها راجعة إلى نيات المريض: فوالده قد يموت فجأة دون أن يكون هو الذي قضى عليه، أو قد تشتعل الحرب فيكون اشتعالها نهاية العلاج. بيد أن القضية إلى جانب هذه المبالغة الظاهرة تتضمن مع ذلك شيئاً صحيحاً جديداً: فإنه حتى إذا كان الحدث الذي يعرقل العلاج حدثاً حقيقياً مستقلاً عن إرادة المريض فإن مدى الانقطاع الذي ينجم عن هذا الحدث أمر يتوقف في كثير من الأحيان على المريض. ثم إن المقاومة تظهر من غير خطأ في مدى مسارعة المريض إلى تقبل مثل هذه الفرصة وفي مغالاته في استغلالها.

[523 ←]

من محاضراتي التمهيدية [فرويد، 1916 . 1917، المحاضرة السابعة] أقتبس الحلم الآتي الذي تم تفسيره بعد وقوف دام فترة قصيرة، مثالاً على التردد والشك في الحلم مع انكماش محتواه في الوقت عينه إلى عنصر مفرد:

حلمت مريضة شكَّاكة من مريضاتي حلماً طويلاً بعض الطول، فيه تحدث إليها البعض عن كتابي في «النكات» وأثنى عليه ثناءً عاطراً. ثم بعد ذلك ورد في الحلم شيء عن «قناة» ما، لعله كتاب آخر عرض فيه ذكر قناة، أو شيء آخر متعلق بقناة... لا تدري... كان كل ذلك منهما.

«إنكم تتوقعون ولا شك أن يكون العنصر «قناة» . وهو على هذا الخلو من التميز . ممتنعاً على التفسير. وأنتم محقون حين تتوقعون صعوبة، ولكن الخلو من التميز ليس منشأها، بل هذا الخلو وهذه الصعوبة يرجعان معاً إلى مصدر آخر. إن المريضة لا يخطر ببالها شيء ما عن القناة، ولست أدري بالطبع ماذا أقول. بيد أن المريضة تذكر لي بعد أن انقضى بعض الوقت . وكان ذلك في اليوم التالي على التحديد . تذكر أنها قد فكرت في شيء ربما كانت له صلة بالقناة، وكان هذا الشيء نكتة كذلك، نكتة سمعتها: كانت باخرة تمخر العباب بين دو؟ر وكاليه حين دارت على سطحها محادثة بين مؤلف معروف ورجل إنجليزي. وجاء سياق الحديث بما دعا الرجل الإنجليزي إلى الاستشهاد بالعبارة الآتية: [Du sublime au ridicule il n'y a qu'un pas] . فكان أن أجاب المؤلف: نعم، خطوة كاليه [pas de Calais] . يريد أن يقول بذلك: إن فرنسا في رأيه سامية وأما إنجلترا فمضحكة. ولكن «خطوة كاليه» [اسم يطلق بالفرنسية على] قناة، هي قناة المانش. فهل أرى أن لذلك صلة بالحلم؟ أراه يقيناً:

إنها تأتينا بحل هذا العنصر الحلمي المعمي. أو هل تريدون الشك في أن هذه النكتة قد كانت موجودة قبل أن يقع الحلم كفكرة لاشعورية مستترة وراء العنصر «قناة»؟ أفي وسعكم أن تفترضوا أنها قد خلقت خلقاً من بعد؟ إن المستدعي الذي خطر ببال المريضة قد نمّ عن الشك الذي كانت تضمره وراء إعجابها الظاهر، ولا ريب في أن مقاومتها قد كانت العلة المشتركة على السواء لإبطاء المستدعي في المجيء ولخلقِ هذا العنصر الحلمي من التميز. وانظروا هنا إلى العلاقة بين العنصر الحلمي وبين مضمونه اللاشعوري: إنها تعرض في هيئة نبذة من هذا المضمون أو تلميح إليه، ولكن عزلها قد جعلها تتعذر على الفهم».

[524 ←]
أنظر فيما يتصل بالغرض من النسيان بوجه عام مقالي الصغير عن «الميكانيكيات النفسية للنسيان» (فرويد، 1898). وهو مقال صار بعد ذلك الفصل الأول من كتابي «سيكوباثولوجية الحياة اليومية» (فرويد، 1901ب).

[525 ←]
أن يصحح المرء نفسه وهو يتحدث بلغة أجنبية أمر كثير الوقوع في الأحلام، ولكن التصحيح يُوضَع في معظم الأحيان على لسان شخص آخر. مثال ذلك أن موري حلم مرة في وقت كان يتعلم فيه اللغة الإنجليزية بأنه يتحدث إلى شخص كان قد زاره في اليوم السابق قائلاً: **I called for you yesterday** فأجاب الآخر مصححاً: بل تقول:

. I called on you yesterday

[526 ←]
[«المادة والحركة». وهو عنوان كتاب ماكسويل الذي ورد ذكره في هذا الحلم].

[527 ←]
[موليير. المريض الواهم: هل المادة محمودة؟ (وهو اصطلاح بين الأطباء في زمن موليير بمعنى: هل البراز طيب؟). حركة في الأمعاء].

[528 ←]
يصف إرنست جونز [1912ب] حالة مماثلة كثيرة الوقوع، إذ يتذكر المريض. بينما نحلل حلماً ما. حلماً آخر وقع له في الليلة ذاتها لكنه كان قد نسيه حتى لم يعد يعرف شيئاً عن وجوده.

[529 ←]
.dissociated states

[530 ←]
[بروير وفرويد، 1895، الحالة الخامسة].

[531 ←]
إن الأحلام التي تقع في سنوات الطفولة الأولى وتثبت في الذاكرة عشرات من السنين. وكثيراً ما يكون ذلك مع احتفاظها بشدّتها الحسية كاملة. تكاد تملك دائماً أهمية قصوى في تمكيننا من فهم تاريخ التطور النفسي للمريض وتاريخ عصابه. وتحليل أمثال هذه الأحلام يصون الطبيب من الأخطاء والشكوك التي قد تقوده. ضمن غيرها. إلى الخلط النظري.

[532 ←]
.Travailler Comme une bête

[533 ←]
إن انتباهي لم يوجَّه إلا فيما بعد إلى كون إدوارد فون هارتمان قد رأى هذا الرأي عينه فيما يتصل بهذه المشكلة السيكولوجية الهامة. فقد جاء في مقال كتبه پوهوريللس (1913): «إن إدوارد فون هارتمان، وهو يناقش نصيب اللاشعور في الخلق الفني (1890، الجزء الأول، القسم الثاني، الفصل الخامس) قد نصّ صراحة على القانون القائل: إن تداعي المعاني يخضع لأفكار لاشعورية غائية. وإن لم يفطن إلى مدى انطباق هذا القانون. فهو قد أراد أن يثبت أن التأليف بين الأخيلة الحسية. إذا لم يترك للصدفة المحضة بل قصد منه إلى غاية محدودة. يقتضي معاونة اللاشعور، وأن النصيب الذي يقوم به الاهتمام الشعوري هو حث الشعور على اختيار أنسب الأفكار بين ما لا حصر له من الأفكار الممكنة. فاللاشعور هو الذي يقوم بالاختيار المناسب لهدف يتوخاه الاهتمام، وهذا القول «يصدق على تداعي المعاني في التفكير المجرد كما في التخيُّل الحسي والتأليف الفني» وإبداع النكات. لهذا السبب كان حصر تداعي المعاني بين فكرة مثيرة وفكرة مثار. بالمعنى الذي تذهب إليه سيكولوجية ترابطية خالصة. شيئاً لا يمكن الأخذ به. فمثل هذا التقييد لا يجد ما يبرره «إلا إذا كانت الحياة الإنسانية تحتمل ملابسات لا يكون المرء فيها حراً من كل هدف شعوري فقط، بل كذلك من سيطرة كل اهتمام لاشعوري وكل مزاج عابر أو من مشاركتهما. ولكن ذلك شرط لا يكاد يتحقق أبداً، لأن المرء. وإن أطلق عنان أفكاره في الظاهر للصدفة المحضة أو أسلم نفسه بكليته لأحلام المخيِّلة اللاإرادية. لا يتخلص أبداً من اهتمامات أخرى موجهة وإحساسات وأمزجة مسيطرة، تسود في هذا الوقت ولا تسود في ذاك، وكل هذه تحدث دائماً أثرها في تداعي الأفكار، (المرجع عينه، 246). ولا تعرض أبداً في الأحلام نصف الشعورية سوى الأفكار التي توافق الاهتمام (اللاشعوري) الغالب في الآونة الحاضرة (الموضع عينه). وإن الإلحاح على تأثير الإحساسات والأمزجة في التعاقب الحر للأفكار ليجعل من الممكن تبرير الطريقة المنهجية للتحليل النفسي تبريراً كاملاً من وجهة نظر سيكولوجية هارتمان». ويخلص دوپرل (1885، 107) من كوننا قد نحاول في كثير من الأحيان أن نتذكر اسماً من الأسماء دون جدوى ثم إذا الاسم يخطر على بالنا بغتة من غير مقدمات إلى أن تفكيراً لاشعورياً. ولكنه مع ذلك تفكير غائي. قد وقع وأن نتيجته ولجت الشعور فجأة.

[534 ←]
لقد أتى يونج في تحليلاته لحالات الجنون المبكر بما أيَّد هذه القضية تأييداً ساطعاً (أنظر يونج، 1907).

[535 ←]
من الطبيعي أن هذه الاعتبارات تصدق أيضاً على الحالات التي تظهر فيها المستدعيات السطحية في محتوى الحلم صراحة، كما في حلمَي موري المذكورين في ص 106:

(Pélerinage – Pelletier – Pelle; Kilomètre – Kilogramme – Gilolo – Lobelia – Lopez – Lotto)

ولقد تعلمت من العمل مع المرضى العصابيين ما هو نوع الذكريات التي تؤثر هذا الأسلوب في تصويرها: إنها مناسبات قلّب فيها المرء صفحات دوائر المعارف أو القواميس لكي يروي حاجته إلى جواب عن ألغاز الحياة الجنسية . كما يفعل معظم الناس في سن المراهقة بما تتميز به هذه السن من رغبة الاستطلاع!

[536 ←]

إن هاتين القضيتين اللتين كانتا تبدوان بعيدتين كل البعد عن الرجوح حين قيلتا للمرة الأولى قد طبقتا منذ ذلك الحين تطبيقاً تجريبياً أيّدهما، وكان ذلك على يد يونج وتلامذته في دراساتهم للتداعي اللفظي.

[537 ←]

[Instanz . لفظ استخدمه فرويد من قبل في ص 188 وترجمناه هناك بكلمة «نظام» توخياً للبساطة ولأن اللفظين مترادفان كما هو بيّن هنا. ولكنا سنترجمه من الآن فصاعداً بكلمة «جهة الاختصاص» أو «دائرة الاختصاص». واللفظ في أصله مشتق من مجال المصطلحات القانونية؛ فهو يُطلق بالمعنى الذي نقول فيه عندنا: «محكمة درجة أولى»].

[538 ←]

[لا يستخدم فرويد كلمة «تعصيب» (Innervation) بمعنى توزيع الأعصاب. بل بمعنى آخر يغلب عنده حتى يكاد يكون مانعاً، هو: انتقال التهييج في مجموعة من الأعصاب، ومن الأعصاب المصدرة بنوع خاص: والتعصيب بهذا المعنى عملية تهدف إلى تفريغ التهييج أو الطاقة].

[539 ←]

[في هامش من الفصل الثالث النظري الذي كتبه بروير في «دراسات في الهستيريا» . وهو الكتاب الذي وضعه بالاشتراك مع فرويد (1895) . نجد بروير يتحدث عن «الجهاز الإدراكي» فيقول: إن هذا الجهاز «يجب أن يختلف عن العضو الذي يحتفظ بالانطباعات الحسية ويستحضرها في هيئة صور ذكروية. ذلك أن الخاصة الرئيسة لوظيفة جهاز الإدراك تقوم في رجوعه بأسرع ما يمكن إلى الوضع الموجود من قبل، ولولا ذلك لاستحال أن يكون هناك أي إدراك صحيح. وأما الشرط في الذاكرة فيقوم على العكس في اقتفاء مثل هذا الرجوع، بل كل إدراك يترك تغييرات باقية. ومن المستحيل أن يفي عضو واحد بهذين الشرطين المتناقضين؛ فمرآة المقراب العاكس لا يمكن أن تعمل في الوقت نفسه عمل اللوحة الشمسية»].

[540 ←]

[آذ. من «آثار ذكروية»].

[541 ←]

لقد أدليت منذ ذلك الحين بفكرة مؤداها أن الشعور ينبعث بالفعل بدل الأثر الذكروي. أنظر مقالي المعنون «ملحوظة حول المفكرة السحرية» (1925أ). [وقد أدلى فرويد بهذه الفكرة للمرة الأولى في «ما وراء مبدأ اللذة» (1920ز)].

[542 ←]

لو أردنا أن نتابع هذا الرسم التخطيطي الذي تصطف فيه الأنظمة متعاقبة على طول خط واحد، لوجب أن نحسب حساباً لتلك الحقيقة، وهي: أن النظام الذي يجيء عقب قبش. مباشرة هو النظام الذي تجب إضافة الشعور إليه، أو . بعبارة أخرى . أن إد. = ش.

[543 ←]

قرن الثالث عشر. فهو يقول: إن المخيلة تبني الأحلام من صور الموضوعات الحسية المدّخرة، وتتم هذه العملية في اتجاه هو عكسه في اليقظة (نقلاً عن ديبجن، 1912، 14) . ويقول هوبز في «اللوياثان» (1651): «وخلاصة القول إن أحلامنا هي عكس أخيلتنا المستيقظة؛ فالحركة تبدأ . ونحن أيقاظ . من طرف، وتبدأ . حين نحلم . من طرف آخر» (عن هاڤلوك إليس، 1911، 109).

awake, beginning at one end, and when In sum, our dreams are the reverse of our waking imaginations, the motion, when we are] .we dream at another

[544 ←]

[أنظر ص 198، هـ. 2 في شرح هذا المصطلح].

[545 ←]

ملاحظات أخرى حول الأعصبة النفسية الدفاعية» (فرويد، 1896ب).

[546 ←]

إن شرح نظرية الكبت يقتضي أن نبيّن أن الكبت يصيب الفكرة لما يجتمع من تأثير عاملين فيها: فهي تدفع من ناحية (من رقابة قبش). وتجذب من أخرى (من لاش.). على نحو ما يقع حين يعان الناس على صعود الهرم الأكبر . أنظر مقالي عن «الكبت» (فرويد، 1915د).

[547 ←]

وهي تشترك في طابع اللاتهدُّم هذا مع جميع الأفعال النفسية الأخرى اللاشعورية حقيقةً أي المنتمية إلى النظام لاش. وحده. فهذه طرق ضربت ولا رجعة في أمرها، طرق لا يبطل استخدامها أبداً وتظل دائماً، كلما عاد تهيج لاشعوري إلى استخدامها، على استعداد لتوصيل العملية التهييجية إلى =التفريغ. وإذا جاز أن نستخدم تشبيهاً قلنا: إنها لا تقبل الفناء إلا كما تقبله أشباح العالم السفلي في الأوديسا، تلك الأشباح التي لا تلبث أن تبعث إلى حياة جديدة حين تلغ الدم. وأما العمليات التي تتوقف على النظام قبل الشعوري فتقبل الهدم بمعنى مختلف كل الاختلاف. وعلى هذه التفرقة يتوقف كل العلاج النفسي للأعصبة [أنظر ص 594].

[548 ←]
لقد حاولت أن أتعمق فهم الوضع السائد أثناء النوم وفهم الشروط الضرورية لظهور الهلاوس وذلك في مقال عنوانه: «ملحق ميتاسيكولوجي لنظرية الأحلام» (فرويد، 1917د).

[549 ←]
[هذه الفقرة قد أُضيفت مع الفقرتين التاليتين عام 1919].

[550 ←]
[هامش أُضيف عام 1930]: وهذا هو الموضع المناسب للحديث عن أحد المكتشفات اللاحقة للتحليل النفسي: الأنا الأعلى .

[551 ←]
[هذه الفقرة والفقرتان التاليتان لها قد أضيفت عام 1919 في صورة هامش ثم أُدرجت في النص عام 1930].

[552 ←]
.Tertium comparationis

[553 ←]
[وهو الطاقة النفسية في حالة الحلم].

[554 ←]
أو بعبارة أخرى: إن ضرورة «امتحان الواقع» [أي امتحان الأشياء لكي يتبيَّن أهي واقع أم لا] تنتهي بأن تفرض نفسها.

[555 ←]
لقد أشاد لولوران مصيباً بقدرة الأحلام على تحقيق الرغبة، فهي «لا تعرف التعب الجدّي ولا شيء يحملها على الالتجاء إلى هذا الكفاح العنيد الطويل الذي يستهلك ما نسعى إليه من المتع ويفسده».

[Sans fatigue serieuse, sans être obligé de recourir à cette lutte opiniâtre et longue qui use et corrode les jouissances poursuivies].

[556 ←]
[هامش أُضيف سنة 1914]: لقد أنميت هذه الفكرة في موضع آخر، في مقالي عن المبدأين اللذين يحكمان مسلك الوظائف النفسية واللذين اقترحت تسميتهما مبدأ اللذة ومبدأ الواقع (فرويد، 1911ب).

[557 ←]
[هامش أُضيف عام 1914]: أو بعبارة أخرى: يرجع جزء من العرض إلى التحقيق اللاشعوري للرغبة ويرجع جزء آخر إلى البناء النفسي المستجاب به ضدها.

[558 ←]
[هامش أضيف عام 1914]: كما يقول هـ. جاكسون: اكتشف كل شيء عن الحلم تكتشف كل شيء عن الجنون.

[Find all about dreams and you will have found all about insanity].

[559 ←]
[أضيفت الجملة الموضوعة بين قوسين عام 1909].

[560 ←]
[نسبةً إلى بارثيا، في شمال فارس، فيما عرف بعد ذلك باسم خراسان].

[561 ←]
[هو . مع يوليوس قيصر وبومبي . أحد رجال حكومة الثلاثة في روما. عُرف عنه أنه كان قليل الهمة كثير المطامع خسيساً].

[562 ←]
لقد استعرت هذه الفكرة من نظرية النوم التي ذهب إليها ليبيو (1889) . وهو الذي يرجع إليه الفضل في إحياء البحوث الحديثة في التنويم المغناطيسي.

[563 ←]
[أضيفت السطور التالية إلى آخر الفقرة سنة 1909].

[564 ←]
[أضيفت هذه الفقرة سنة 1914].

[565 ←]

[أضيفت هذه الفقرة في صورة هامش سنة 1914 ثم أُدرجت في النص سنة 1930].

[566 ←]

[يستخدم فرويد كلمة الإدراك Wahrnehmung وبالإنجليزية Perception) بمعنى انطباع حافة الجهاز المستقبلة (في مقابل المصدرة أو الحركية) بصورة بصرية أو سمعية، إلى آخر الكيفيات المختلفة. وهذه الصورة (أو المحتوى الإدراكي) قد تكون ذات حقيقة موضوعية وقد تكون هلوسية وحسب . كما هو الشأن في الأحلام. وهذا «الإدراك» يستتبع إدراكاً ثانياً (يسميه فرويد أحياناً Auffassung وبالإنجليزية apprehension) بمعنى انجذاب الانتباه إلى المحتوى الإدراكي وحصول العلم به. وذلك هو الشعور، أو الشعور هو عضو هذا الإدراك الثاني . على ما جاء في هذه الفقرة (وانظر أيضاً ص 626)].

[567 ←]

.[Un rêve c'est un réveil qui commence]

[568 ←]

[أبرز المؤلف هذه الجملة ابتداءً من 1919. أنظر ص 571 في الهامش].

[569 ←]

[هامش أضيف سنة 1914]: أهذه هي الوظيفة الوحيدة التي تمكن إضافتها إلى الأحلام؟ لست أعرف غيرها. صحيح أن مادير (1912) قد حاول أن يبين أن للأحلام وظائف أخرى «ثانوية». فهو قد بدأ من تلك الملاحظة الصائبة: أن بعض الأحلام تتضمن محاولات في حل المشكلات تنفَّذ بعد ذلك في الواقع وبذلك تسلك كما لو كانت محاولات في التدرب على أفعال اليقظة، ثم بعد ذلك وازن بين هذه الأحلام وبين لعب الحيوانات والأطفال الذي يمكن اعتباره تدرباً على نشاط الغرائز الفطرية واستعداداً للنشاط الجدي المقبل، ثم خلص من ذلك إلى فرض «وظيفة لاعبة» [une fonction ludique] للأحلام. ومن قبل مادير بزمن قليل كان ألفريد آدلر (1911) قد ألمَحَ كذلك على أن للأحلام وظيفة «التفكير الاستباقي». (وفي تحليل نشرته عام 1905 [1905هـ.] أخذ حلم لا يمكن إلا أن نعدُّه معرباً عن نية يتردد كل ليلة حتى نفذ).

ومع هذا فقليل من التأمل يقنعنا بأنه لا حق لهذه الوظيفة «الثانوية» في أن تعد موضوعاً من موضوعات تفسير الأحلام. فالتفكير المستبق وعقد النية ومحاولة حلول قد تحقق بعد ذلك في حياة اليقظة، كل هذه وكثير غيرها يشبهها إنما هي نتاج للنشاط اللاشعوري وقبل الشعوري، ومن الجائز أن تدوم في حالة النوم باعتبارها «بقايا نهارية» وأن تتحد برغبة لاشعورية في تكوين حلم من الأحلام (أنظر ص 476 وما بعدها). ومع هذا فوظيفة «التفكير المستبق» المنسوبة إلى الحلم هي على الأصح وظيفة للتفكير المستيقظ قبل الشعوري الذي يمكن كشف نتائجه بتحليل الأحلام أو غيرها من الظواهر. لقد كان من المألوف زمناً طويلاً ألا نفرق بين الأحلام ومحتواها الظاهر، ولكن من الواجب علينا اليوم أن نتجنب ذلك الخطأ الآخر، وأعني به الخلط بين الأحلام والأفكار الكامنة.

[570 ←]

[هامش أضيف سنة 1919]: «وعامل آخر أهم كثيراً وأعمق غوراً . وإن كان غير المختص يهمل أيضاً أمره . هو هذا: إنه لا شك في أن تحقيق الرغبة يجب أن يجلب لذة. ولكنا نسأل عندئذ: لمن يجلبها؟ لصاحب الرغبة بالطبع . ولكن علاقة الحالم برغباته . كما نعلم . علاقة لها طابعها الخاص كل الخصوص. فهو ينبذها ويراقبها، أي أنه . في كلمة . غير راضٍ عنها. ويكون من أثر ذلك أن تحقيقها لا يجلب له لذة، وإنما يجلب الضد. وترينا الخبرة أن هذا الضد يظهر في صورة الهيلة . وهو الأمر الذي لا يزال علينا أن نأتي بتعليله. وهكذا إنما تجوز مقارنة الحالم . من حيث موقفه من تحقيق رغباته . بمجتمع تركَّب من شخصين منفصلين عقدت بينهما مع ذلك شركة قوية. ويغنيني عن الإطالة هنا أن أذكركم بدل ذلك بحكاية معروفة ترون فيها هذا الموقف عينه وقد تكرر من جديد: ذلك أن جنية طيبة وعدت رجلاً وامرأته بتحقيق رغباتهما الثلاث الأولى من بين ما يشتهيان. وامتلأ الرجل وامرأته سروراً وعقدا النية على ألا يختارا رغباتهما الثلاث إلا بعد كثير من التروي. سوى أن رائحة سجق انبعثت من الكوخ المجاور، فودَّت المرأة لو كان لها بزوجين منه. وفي طرفة عين كان السجق أمامها وكان ذلك أول تحقيق رغبة. ولكن الرجل استشاط غضباً فتمنى وهو في غيظه لو قد علق السجقان بأنفها. فعلقا وأبيا أن يتزحزحا من مكانهما الجديد. وكان ذلك ثاني تحقيق رغبة. وتعلمون كيف تمضي القصة بعد ذلك: فالرجل والمرأة إذ كانا . مهما كان الذي وقع بينهما . زوجين، فقد وجب أن تكون الأمنية الثالثة زوال السجق من أنف الزوجة. إن هذه القصة تنفع في تصوير أمور كثيرة. ولكنها إنما تفيدنا في تصوير ذلك التمهيدية في التحليل النفسي، فرويد، 1916/1917).

[571 ←]

[في هذا الموضع أضاف فرويد الجملة الآتية عام 1919 ثم حذفها ابتداءً من سنة 1925: «وأحب أن ألح على أن مشكلة الهيلة في الأحلام هي مشكلة هيلة لا مشكلة حلم»].

[572 ←]

[Die israelitische Bibel ، طبعة من طبعات العهد القديم باللغتين العبرية والألمانية، ظهرت في ليبزيج بين سنتي 1830 . 1854 وظهرت طبعتها الثانية سنة 1858. وقد احتوى هامش الإصحاح الرابع من سفر التثنية على عدد من الرسوم تصور آلهة مصرية قديمة من بينها آلهة برؤوس طيور].

[573 ←]

[اللفظ الألماني العامي المشار إليه هو Vogeln من Vogel بمعنى طير].

[574 ←]

[هامش أضيف سنة 1919]: منذ أن كتبت هذه السطور ظهر في المؤلفات التحليلية النفسية عدد وفير من هذه المادة.

[575 ←]

[جمع «منمة» . وهو ما يوضع على عين الحصان لكي ينظر إلى الأمام. وفي لغة حوذيينا: النظارات].

[576 ←]

أنا الذي أبرزت هذه الكلمة، والخطأ في فهمها محال على أية حال.

[577 ←]

Je n'osais pas l'avouer, mais j'éprouvais continuellement des picotements et des surexcitations aux parties; à la fin, cela m'énervait tant que plusieurs fois j'ai pensé me jeter par la fenêtre du dortoir].

[578 ←]

[Je ne le Ferai plus. Albert n'a jamais fait 5a].

[579 ←]

الإبراز من عندي.

[580 ←]

Nous avons fait entrer cette observation dans le cadre des délires apyrétique d'inanition, car c'est à l'ischémie cérébrale que nous rattachons cet état particulier].

[581 ←]

[(1) Unlustprinzip]. an archaic world of vast emotions and imperfect thoughts].

[582 ←]

ويقول فرويد في كتاباته اللاحقة: مبدأ اللذة].

[583 ←]

لقد تعمدت أن أترك مناقشة هذا الموضوع ناقصة في هذا الموضع كما في غيره؛ لأن سد أوجه النقص كان يقتضي جهداً لا أطيقه من جهة، ثم هو من الجهة الأخرى يقتضي الالتجاء إلى مادة غريبة عن موضوع الأحلام. ومثال ذلك أنني أغفلت أن أذكر ما إذا كنت أنسب معنىً مختلفاً إلى كل من كلمتَي «القمع» و«الكبت» . وإن كنا فهمنا من غير شك أن الكلمة الأخيرة تؤكد الارتباط باللاشعور أكثر مما تؤكده سابقتها. ثم إني لم أتعرض كذلك لتلك المشكلة الواضحة، وأعني بها: لم تخضع أفكار الحلم لتشويه الرقابة وإن تكن تركت طريق التقدم نحو الشعور واختارت طريق النكوص؟ وهناك نقاط كثيرة أخرى تماثل هذه حذفتها. ذلك أن همي كان يتجه قبل كل شيء إلى خلق شعور بالمشكلات التي لا مفر من أن يقودنا إليها تحليل أبعد غوراً لمشكلات الحلم والإيماء إلى سائر الموضوعات التي يعرّفنا بها هذا التحليل. ولم يكن من السهل عليَ دائماً أن أقطع برأي في أين ينبغي الوقوف عن الاستقصاء. . فأما أنني لم أعالج النصيب الذي يرجع إلى عالم الأفكار الجنسية في الأحلام علاجاً مستوفياً وتجنبت تحليل الأحلام ذات المحتوى الجنسي الصريح، فذلك ما يرجع إلى أسباب خاصة . قد لا تكون هي ما يتوقعه القارىء؛ فلا شيء يبعد عن نظراتي الخاصة أو عن آرائي النظرية في علم الأمراض العصبية مثل اعتبار الحياة الجنسية شيئاً مخجلاً ليس لطبيب ولا لباحث علمي أن يشغل به. وبالإضافة إلى ذلك فإن الاستنكاف الخلقي الذي جعل =مترجم كتاب Oneirocritica لأرتميدوروس الأفسوسي يحجز الفصل الخاص بالأحلام الجنسية عن معرفة قرائه، هذا الاستنكاف يبدو لي شيئاً مضحكاً. وإنما حملني على أن أصنع ما صنعت أنني رأيت أن إيضاح الأحلام الجنسية سوف يوغل بي في مناقشات عن الانحراف وعن الجنسية الثنائية لم تجد حلها بعد، وعلى ذلك تركت هذه المادة لمناسبة أخرى.

[584 ←]

إن الحلم ليس الظاهرة الوحيدة التي تمكننا من أن نجد أساساً لعلم النفس المرضي في نطاق علم النفس العام؛ فقد حاولت في طائفة من المقالات لم تكمل بعد أن أفسر عدداً من ظواهر الحياة اليومية باعتبارها شاهداً يؤيد ذات النتائج (1898ب، 1899أ) . [هامش أضيف سنة 1909]: منذ كتابة هذه السطور جمعت هذه المقالات وأخرى تزيد عليها في النسيان وهفوات اللسان والأفعال العائرة، إلخ. تحت عنوان «سيكوباثولوجية الحياة اليومية» (فرويد، 1901ب).

[585 ←]

[هامش أضيف سنة 1925]: لقد صار من الضروري إحكام صياغة هذه النظرية وتعديلها بعد أن تبيَّن أن السمة الجوهرية للفكرة قبل الشعورية هي ارتباطها بآثار الصور اللفظية. (أنظر مقالي عن «اللاشعور»، 1915هـ).

[586 ←]

يسعدني أن أكون قادراً على الإشارة إلى مؤلف استخلص من دراسة الأحلام ذات النتائج التي استخرجتها في صدد العلاقة بين النشاط الشعوري واللاشعوري.

يقول دوبرل (1885، 47): «من الواضح أن مشكلة طبيعة النفس تقتضي بحثاً مبدئياً فيما إذا كان الشعور والنفس شيئاً واحداً. وتجيب الأحلام عن هذا السؤال المبدئي بالنفي؛ فهي ترينا أن تصور النفس أوسع من تصور الشعور، على النحو الذي تمتد عليه قوة الجاذبية التي لجسم سماوي إلى ما وراء مجال انتشاره الضوئي».

وفي موضع آخر (306): «إن من الحقائق التي لا يستطيع المرء أبداً إعطاءها حقها من التميز كون الشعور والنفس لا يتساويان في الماصدق».

[587 ←]

[تارتيني عازف كمان ومؤلف موسيقي ولد عام 1692 في پيرانو ومات عام 1770 في پادو. وتؤثر عنه قصة خلاصتها أنه حلم حلماً رأى فيه أنه باع نفسه للشيطان، فأمسك الشيطان بكمان وعزف له في مهارة لا تضارع «سوناتا» فائقة الجمال. وعندئذ استيقظ الموسيقي فدوّن على الفور ما علق بذاكرته وهكذا خرجت إلى الناس المقطوعة التي عرفت باسم: Trillo del Diavolo].

[588 ←]

[هامش أضيف سنة 1911]: أنظر بهذه المناسبة حلم الإسكندر الأكبر في أثناء حصار صور (ساتيروس). [ارجع إلى ص 144 في الهامش].

[589 ←]

هامش أضيف سنة 1914: أنظر مقالتي «ملاحظات حول تصور اللاشعور في التحليل النفسي» (فرويد، 1912ز) . وهو مقال نُشر للمرة الأولى باللغة الإنجليزية في محاضر

الأبحاث النفسية، 26، فيه فرّقت بين المعاني الوصفية والدينامية والنظامية لهذا اللفظ البالغ مبلغاً كبيراً من الاشتراك: لفظ «اللاشعور».

[590 ←]

[هذه الجملة قد ظهرت للمرة الأولى في طبعة سنة 1909 في صورة مختلفة بعض الاختلاف ثم عدّلت في طبعة سنة 1914، وأخيراً اتخذت شكلها الحاضر سنة 1919، وأما بقية الفقرة فقد أضيفت في سنة 1914].

[591 ←]

[نُقل تبويب المراجع عن جيمس ستراشي (انظر كلمة المترجم، ص 35). وقد رأينا أن نبقي على مؤلفات فرويد التي لم يرد ذكرها إلا في هوامش الترجمة الإنجليزية حتى نضع بين يدي القارئ قائمة وافية قدر الإمكان بمؤلفات فرويد مرتبة ترتيباً زمنياً، كما أبقينا ذكر التراجم الإنجليزية للمراجع لأنها ربما كانت أقرب منالاً من الأصول].